
سورة القلم



سورة القلم [1]



﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ ﴾

الإسـلام يُعلـى من قـدر القلم والـدواة والكتابـة والقـراءة ، فخصَّص الحق سبحانه سورة سُمِّيت سورة القلم ، وتُسمى أيضاً سورة (ن) أى الدواة والمحبرة التى كان يستخدمها الكُتَّاب فى الكتابة .

فـأولُ شـيء خلقه الله القلم ثم الـدواة ، وأمر القلم أنْ يكتب بما هو كائنٌ فى خَلْقـه ومن خلقه وفى كوْنه إلى يوم القيامة ، فذلك اللوح المحفوظ من عمل أو أثر أو رزق أو أجل ، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أولُ شيء

(١) سورة القلم هى السورة رقم (٦٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة ، كل آياتها محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وتسمى أيضاً سورة (ن) باعتبار بدايتها . وكانت ثانية السور نزولاً بمكة ، وهى اثنتان وخمسون آية ، نزلت بعد سورة اقرأ ، فيكون نزولها فيما بين ابتداء الوحى والهجرة إلى الحبشة .

الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب »

خلقه الله عز وجل القلم، ثم خلق النون وهى الدواة، ثم قال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون وما هو كائن من عمل أو أثر أو رزق أو أجل، فكتب ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة[1]. فذلك قوله عز وجل: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم]

فالله تعالى كتب أزلاً، لأنه تعالى علم أنك تفعل آجلاً، وعلم الله مطلق لا حدودَ له، فالله كتب ما هو كائن مُسبقاً، لأنه يعلم ما يكون فى كوْنه قبل أنْ يكون.

ويقول تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء]، فكلُّ ذلك مُسجَّل ومُسطر فى اللوح المحفوظ.

والحق سبحانه يقول: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم]

الحروف المقطَّعة ثمانية وعشرون حرفاً، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾ [ق]، وكذلك قوله الحق ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١)﴾ [ص]، وكذلك قوله هنا: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم]

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان مثل قوله الحق ﴿حم (١)﴾ [الأحقاف]، ومرة يأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل ﴿الم (١)﴾ [البقرة]، ومرة يأتى الحق بأربعة

(١) أخرجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه الفريابى فى كتاب (القدر) (١/٢٩) ومن طريقه أخرجه الآجرى فى كتاب الشريعة (١٧٩) بهذا اللفظ. ولكن أخرجه الطيالسى فى مسنده (٥٧٨) عن عبادة ابن الصامت بلفظ أنه قال لابنه الوليد: يا بنى اتق الله واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره إن مت على غير هذا دخلت النار إنى سمعت رسول الله يقول: إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: يا رب ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد.

حروف مقطعة مثل قوله ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف] ، ومرة يأتى بخمسة حروف مثل قوله تعالى : ﴿ كهيعص (١) ﴾ [مريم]

ونلاحظ أن الحرف فى السور البادئة بحرف واحد ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿حم (١) ﴾ [الشورى] وهى آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه ﴿عسق(٢)﴾[الشورى]كآية مع أنها حروف مقطعة.

وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ كهيعص (١)﴾ [مريم] كآية بمفردها . وتقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿طه (١) ﴾ [طه] كآية بمفردها، وكذلك تقرأ قول الحق ﴿ يس (١) ﴾ [يس] كآية بأكملها . وتجد أيضاً ﴿ المص (١) ﴾ [الأعراف]

وتجد أيضاً ﴿ المر (١) ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة ، وتقرأ فى أول سورة النمل ﴿ طس(١) ﴾[النمل] ملتحمة بما بعدها فى آية واحدة.

وإذا رأيتَ هذه الحروف المقطعة فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى نطق بها بأسماء الحروف ، ونحن نتكلم بمُسمّيات الحروف لا بأسمائها .

وقد تدل هذه الحروف المقطعة على اسم من الأسماء ، مثل (طه) ، فـ طه اسم من أسماء رسول الله ﷺ[1] ، ومثل (ن) حرف وهو اسم للحوت ، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

وسرُّ الإعجاز فى القرآن الكريم أن تكون مادته ومادة غيره من الكلام واحدة ، حروفاً وكلمات ، لذلك كثيراً ما يقول الحق تبارك وتعالى بعد الحروف

---

(١) ليس فى صحيح السنة ما يدل على أن (طه) اسم من أسماء رسول الله ، إلا من بعض الإشارة إلى مرويات فى بعض كتب التفسير مثل : (أنا عند الله وفى كتابه اسمى محمد وأحمد وطه ويس) ومثل: « أنا عند ربى قد سميت بعشرة أسماء فذكر منها طه وياسين » . لكن الذى فى صحيح البخارى (٣٥٣٢) عن جبير بن مطعم أن رسول الله قال : « لى خمسة أسماء : أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » .

المقطعة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ [الشعراء] أى أن الكتاب المبين مكوّن من مثل هذه الحروف ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) ﴾ [النمل]

ولكل حرف من الحروف المقطعة مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته، وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق ، والحق سبحانه يكرر الحديث عن الحروف المقطعة لتظلَّ دائماً على البال .

وهذه الحروف مبنية على الوقف ألفْ لام ميم هكذا بالسكون، ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوصل لأنها حروفٌ مقطعة قد يظنها البعض كلمة واحدة ففصل بينها بالوقف .

لذلك يقول ﷺ : « لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[1] وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كلّ حرف على حِدَة .

وهذه الحروف خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسج كلام الله ، وأنت إنْ أردتَ أنْ تميز مهارة النسج عند بعض العمال مثلاً لا تعطى أحدهم قطناً والآخر صوفاً والآخر حريراً مثلاً ، لأنك لا تستطيع التمييز بينهم لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقّ ، فإنْ أردت معرفة المهارة فوحّد المادة الخام عند الجميع .

فكأنَّ الحق تبارك وتعالى يقول لنا : القرآن معجز بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتم عن معارضته ، فقد استخدم القرآنُ نفسَ حروفكم ونفسَ كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها فى صورة بليغة عزَّ عليكم الإتيان بمثلها.

فالقرآن نزل بأسلوب عربى وتحدَّى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩١٠) وابن المبارك فى الزهد والرقائق (٨٠٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

والبيـان وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل فى قريش التى جمعتْ فـى لغتهـا كل لغات القبائـل العربية ، وقد خـرج منها صناديـد كذَّبوا محمداً وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً : ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لـو كان فيهـا مطعنٌ مـا تركوه . إذن : فهذا دليل علـى أنهم فهموا هذه الحـروف ، وعرفـوا أن لها معنى أبسطها أنْ نقول : هى من حروف التنبيه التى كان يستخدمها العرب فى كلامهم ، فهى مثل (ألا) فى قول الشاعر :[1]

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِكِ فَاصْبِحِينَا وَلاَ تُبْقِ خُمُورَ الأَنْدرِينَا[2]

﴿ ن (١) ﴾ [القلم] والبعض أخذها أنها الحوت ، فالنون من أسماء الحوت وجمعه (نينان) كحوت وحيتان ، لذلك سُمِّى به يونس عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

وقول الحق سبحانه ﴿ وَالْقَلَمِ (١) ﴾ [القلم] قَسَم بالقلم ، والواو هنا واو القسم، وللحق سبحانه أنْ يُقسم بما يشاء على ما يشاء .

والقَسَم يأتى لتأكيد المقسَم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتى لأن هناك مَنْ يشك فيه ، وقد أقسم سبحانه بالتين والزيتون ، وأقسم بالقرآن الحكيم ، وأقسم بغير ذلك .

ونجده فى مواقع أخرى يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) ﴾ [البلد] . والعجيب أنه يأتى بجواب القسم ، فيقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ (٤) ﴾ [البلد]

(١) هو : عمرو بن كلثوم بن مالك من بنى تغلب أبو الأسود شاعر جاهلى من الطبقة الأولى أصحاب المعلقات ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلا ، توفى عام ٤٠ قبل الهجرة . (الأعلام ٥/٨٤).

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم من بحر الوافر . والصحن هو القدح الكبير . وأصبحينا أى اسقينا الصبوح وهو شرب أول النهار . ولا تبقى خمور الأندرينا أى لا تبعثيها لغيرنا . والأندرين قرية من قرى الشام كانوا يأتون منها بهذا النوع من الخمور .

وقد يقول قائل : كيف يقول ﴿ لَا أُقْسِمُ (١)﴾ [البلد] ثم يأتي بجواب القسم؟ وأقول : لقد جاء هنا بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١)﴾ [البلد] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم في الإنكار ، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقسماً ، لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

والحق سبحانه يقسم بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم ، وبالنجم إذا هوى ، فهو الخالق العليم بكل ما خلق ، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألاَّ نقسم إلا به ، لأننا نجعل حقائق الأشياء مكتملة .

وقد جاء القسَم لتأكيد المعنى ، ولذلك يقول أحد الصالحين[1] : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أنْ يقسم ؟

والحق سبحانه لا يقسم إلا على الشيء العظيم ، ونحن البشر نقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا ، أما الحق سبحانه فكلامه صادق ونافذ دون قسم ، فما بالك إنْ أقسم ؟

فالحق سبحانه هنا يُقسم بالقلم ، والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به ، لذلك قال هنا ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] ويُطلق القلم أيضاً على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقد ذكر الحق سبحانه القلم مجموعاً فى آية أخرى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) ﴾ [لقمان]

والأقلام إنما كانت تُؤخذ من الأشجار ذات الغصون والفروع ، ولا تُؤخذ من النبات الذى ليس له ساق مثل العُشب ، أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض.

---

(١) هذا من قول الشيخ الشعراوى نفسه رحمه الله .

ثـم يقـول الحق سبحـانـه : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] أى : يكتبون . والبعض من العلماء قـال : ﴿مَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [القلم] أى مـا تكتبه الحفظة من أعمـال بنى آدم . وغيرهم قـالوا : أى مـا تولَّى الله لعبـاده من الكتـابة التى فيهـا منـافعُ الخلق ومصـالح العبـاد والبلاد .

ومـا تكتبـه الحفظة من أعمـال البشر ، ذكره الحـق سبحـانه فى قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴾ [الانفطار] ويقول تعـالى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) ﴾ [يونس]

ويقـول الحق سبحـانـه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾ [الزخرف]

فهـم يكتبون كل مـا يفعله البشر ويُسطرونه فى كتب تكون عند مليك مقتدر بكيفية لا نعلمهـا ، ويوم القيـامة يُقـال للإنسان ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فكلّ إنسـان يقرأ كتـابه بنفسه ، والكتـابة ليست كمـا نظن فقط ، ولكنهـا تسجيل للصوت والأنفـاس ويـأتى يوم القيـامـة ليجد كلُّ إنسـان مـا فعله مسطوراً ، فـاقرأ كتابك بنفسك حتى تُقـام عليك الحجة ولا يكون عندك اعتراض .

ويقـول تعـالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

هـذا الكتـاب سيلقـاه يوم القيـامـة منشـوراً أى مفتوحـاً مُعداً للقراءة ، لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّهـا وحسبهـا ، فكلُّ مـا فعلوه مُسجَّل مُسطّر فى كتبهم .

فـالملائكـة يكتبـون الحسنـات ويكتبـون السيئـات ، و(واو الجمـاعـة) فـى

﴿يَسْطُرُونَ (١)﴾ [القلم] المقصود بها الملائكة . وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأولَ فالأولَ ، ومثل المهجِّر[1] كمثل الذى يهدى بدنة ، ثم كالذى يهدى بقرة ، ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر»[2].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾

المجنون أى المستور عقله ، الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، أما العاقل فيفعل الفعل لغاية ولهدف يرجوه ، وكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة ، فالمجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع ، فالمجنون هو مَنْ فقد التوازن الفكرى فى الاختيار بين البدائل ، وحين تُؤخذ منه هذه القدرة على التوازن الفكرى يصبح غير أهْل للتكليف .

فالتكليف فيه اختيارُ أنْ تفعل كذا ولا تفعل كذا ، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح ، فالمجنونُ لا عقلَ له ، حتى إنَّ الله عز وجل قد أعفاه من التكليف .

ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب العقل قصارى ما يصل إليه أنْ تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأنْ يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد .

---

(١) قال الأزهرى : الصواب فى معنى التهجير هنا ما قاله النضر بن شميل : التهجير إلى الجمعة وغيرها التبكير والمبادرة إلى كل شيء . وقد قال ﷺ : « لو يعلم الناس ما فى التهجير لاستبقوا إليه » . أراد التبكير إلى جميع الصلوات وهو المضى إليها فى أول أوقاتها . [لسان العرب - مادة : هجر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٥٦٨) والبخارى فى صحيحه (٩٢٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٨٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أما المجنون فهو يصل إلى هذا لأنه إنْ قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإنْ فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

ولكن هذا لا يمنع أن حركة المجنون غير مرتَّبة ولا منسّقة ، ولا تمر على عقله لأن عقله مختلٌ الإدراك وفاقد للقدرة على الاختيار بين البدائل .

والمجنون يعمل ما يخطر له دون أنْ يعرض الأعمال على العقل أو التفكير لذلك من عدالة الله فى خَلْقه أننا لا نؤاخذ المجنون على تصرُّفاته حين يعتدى على أحد منا بالسبِّ أو الضرب مثلاً ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم له وندعو الله أنْ يعافينا مما ابتلاه به .

وأنتَ يا محمد بنعمة ربك لستَ بمجنون ، والنعمة هنا هى ما أنزله الله على رسول الله من الكتاب والحكمة ، فهى المنهج الحق ، وقد هداك الله إلى هذا المنهج القويم ، فلقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

ومَنْ هداه الله إلى النعمة الكبرى لا يكون مجنوناً أبداً ، فالمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب ، فهل رأيتم محمداً ﷺ يفعل شيئاً من هذا ؟

والنعمة التى أنزلها الله على رسوله ليست بسحر كما قال بعضكم لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويُحسنون ، ولا يفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم .

وليس القرآن كذلك بكلام كهنة ، لأن رسول الله نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلقَّ علماً من أحد ، فضلاً عن أن كلام الكهان له سَمْت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك .

ويعلمـون أنـه كلامٌ نطق به رجل عـاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، فهـل أحـد من المشركين أخـذ على رسول الله أيَّ سلوك يمكـن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

وإذا كان المجنـون فاقـد الميزان العقلى الذى يختـار بين البديلات ، فكيف يقولـون ذلك عن سيدنـا محمد عليه الصـلاة والسلام وهو قد عاش بينهم ، ولم يكُنْ قـط فـاقداً لميـزان الاختيار بين البديـلات ، بل كانـوا يعتبرونه الصادق الأمين ، وكانوا يحفظون عنده كل غال ونفيس لهم حتى وهم كافرون به[1].

لقـد قالوا ذلك على محمد ظلماً له وبغوغائية ، وكل واحد يُلقى اتهاماً ليس له من الواقع نصيب ، لذلك قال الحق تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات: ﴿ قُـلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦) ﴾ [سبأ]

أى أنْ يجلس كلُّ اثنين ويتدارسان : هل محمد عاقل أم مجنون ؟ وسيجد كلٌّ منهما من واقع تجربته أن محمداً هو أكثر الناس أمانة ، وكان الجميع يسمونه الأمين حتى قبل أنْ يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أنْ تضره نعمة ربه ، أو أنْ يفقد بالوحى توازنه الخلقى .

فلـم يكُـنْ فى سلوكـه ﷺ أدنى أثر من جنون ، فالمجنـون لا يدرى ما يفعل ولا يعقـل تصرفاتـه ولا يُسأل عنهـا ولا نستطيع أنْ نتهمـه بشيء فنقول عنه مثـلاً كـذاب أو قبيح ، لأن آلة الاختيـار عنده معطلة ، وليس لديه انسجام فى التصرفـات ، فيمكـن أنْ يضحك فى وجهك ثم يضربـك فى نفس الوقت ، يمكن أنْ يعطيك شيئاً ثم يتفل فى وجهك .

---

(١) قال ابن إسحاق فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٤٨٥) : أما على فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ .
وقال السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ١٥٣) . أقام على بن أبى طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع التى كانت عنده للناس حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله فنزل معه على كلثوم بن هدْم .

وقـد نصح الحق سبحانه هؤلاء الذين اتهموا رسـول الله أن به والعياذ بالله مسًّـا مـن الجنون ، فالجنون هو أنْ تحدث الأفعال بـلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

أما العاقل فهو الذى يرتِّب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمتـه إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسويـة خلقية عالية ، فهل أحد مـن المشركين أخذ على رسـول الله ﷺ أىّ سلوك يمكـن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خُلُق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون، لأن المجنون لا ضابطَ له فى حركاته ولا فى سكناته ، فـ (الجِنَّة) هى اختلال العقل ، فمَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ولم يكن رسول الله وحده الذى اتُّهم بالجنون ، بل اتُّهم من قبله كل الأنبياء والرسل ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ [الذاريات]

فلستَ أول رسول يكذِّبه قومه ويتهمونه بالسحر والجنون ، والنبى لا يكون أبداً ساحـراً أو مجنونـاً ، فهاتان الصفتان أبعد ما تكونـان عن وصف النبى ، لأنـه قـدوة فى السلـوك ، وما شاهدتم عليـه أبداً علامة من علامـات السحر أو الجنون .

ثـم إن الاتهام بالسحـر ينافى الاتهام بالجنون ، فكيف جمعتم عليه هاتين الصفتين ، وأيضاً فإنهم اتهموه بالكهانة وجمعوا بين الجنون والكهانة ، فقال تعـالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ [الطور]

وفـى سـورة الصافات قالوا : ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات] ، فكيـف يستقيـم نظـم الشعر وترتيب أفـكاره وأبياته مع

الجنـون الذى تحدث الأفعال معـه بلا مقدمات وبدون تدبُّر أو نظر فى آثارها ، وتكون خالية من حكمة فاعلها .

إذن فالخلل فى تفكيركم أنتم ، والحق سبحانه يُسلِّى رسوله فيقول : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه هنا يخاطب رسوله للتسلية ، ويعطيه الأسوة التى تجعله غير حزين لما يقولونه ، وكان رسول الله يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا فيُسليه الحق سبحانه بأنه يعلم أنه يُحزنه الذى يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله .

ألم يقولوا إنه شاعر ؟ ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كذاب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟

فلا تحزن أنهم يُكذِّبونك ، فأنت يا محمد منزه عن كل ما اتهموك به ، وأنت فى نظرهم الصادق الأمين ، ولكنهم يحسدونك على ما أنعم الله به عليك من نعمته سبحانه ، هم يُكذِّبون آيات الله والقرآن لأنها تأمرهم بالتخلى عن عبادة ما يعبدون ، وأنْ يعبدوا إلهاً واحداً هو الله .

والحق سبحانه يزيح عن رسوله محمد ﷺ هموم اتهاماتهم له بأنه مجنون، فيقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ ﴾

فالحق سبحانه أعدَّ رسوله ليستقبل النبوة بقوة الفعل ، لا بسفه الرأى ،

ولــه فى إبلاغ رسالة ربه ثواب لا مقطـوع ولا ممنوع ، فجزاؤه ﷺ موصول لا منقوص .

ويُقــال فى اللغة : مننتُ الحبل إذا قطعته ، فأجرك وثوابك غير مقطوع وغير محسوب عليك ولا يُمنّ به عليك .

فلك يا محمد على صبرك على أذاهم ثوابٌ عظيم ، وأجرك وثوابك غير مُقدَّر ، وهو تفضّل من الله لأن الجزاء مقدَّر ، أما التفضل فغير مقدَّر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ :

« لـن يُدخـل أحداً عملُه الجنةَ . قالـوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمدنى الله بفضل ورحمة »[1].

ويقـول الحـق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُـهُ لَكُنتُم مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقرة] ، والفضـل هو الزيادة عما تستحق ، وعمل الدنيا كله لا يساوى نعمـة من نعم الله على خَلْقــه ، فأنت تذكرت العمل ولم تتذكر الفضل ، وكل من يدخل الجنة فبفضل الله سبحانه .

حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا ، يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِـمْ مِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾ [آل عمران]

فـإذا كان هـؤلاء الشهداء وهم فى أعلى مراتب الجنة قـد دخلوا بفضل الله ، فما بالك بمَنْ هم أقلّ منهم أجراً ، والله سبحانه له فضل على عباده جميعاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٧٣ ، ٦٤٦٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولذلك أحب أنْ أقول دائماً مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب وبالجود لا بالمجهود » أى : عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

فدخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته ، فالفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة وقد يُضيِّعنا العدل .

فالمسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله سبحانه شرطه العمل الصالح فأنت تعمل العمل الصالح ويعطينا ربنا أضعافه ، فالنجاة لا تكون إلا برحمة الله وفضل منه سبحانه .

فالمؤمن الحق لا يفرح بعمل إنما يفرح : إنْ نال فضل الله ورحمته كأنه يقول لربه : لن أتكل يارب على عملى بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلَّفتنى بها بما أسديت إلىَّ من نِعَم وآلاء لقصُرَتْ عبادتى عن أداء حقك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

فالجزاء فى الآخرة عند التحقيق والتعقل محضُ فضلٍ من الله ، فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضلُ الله وتعمُّك رحمته .

وأجرك على صبرك عليهم مؤكد ثابت واقع ، لذلك قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم] فاستخدم الحق سبحانه (إن) وهى للتوكيد ثم استخدم لام التوكيد (لأجراً) زيادة فى تأكيد الأمر .

فـ (إنَّ) هنا مؤكدة ، واللام التى فى أول قوله (لأجراً) لزيادة التأكيد ، ومن أجره ﷺ الذى لاينقطع ليلاً ولا نهاراً صلاة الله تعالى عليه وصلوات الملائكة وصلوات المؤمنين عليه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا

عَلَيْـهِ وَسَلِّمُـوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ [الأحـزاب] ، وصـلاة الله تعـالى عليه رحمـة ، ومن المؤمنين والملائكة دعاء .

والصلاة من الله تعالى على نبيه وصلاة الملائكة والمؤمنين عليه من الأجر غـير الممنون ، وهـى تعنى الرحمة والعطف والحنـان ، والصلاة من الله رحمة شاملة وعامة ، ويكفى من رحمته سبحانه لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتمَ الرسل .

والحق سبحانه يقول واصفاً نبيه محمداً :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

فإذا كنتم تتهمون رسول الله بالجنون ، فهل يكون المجنون على خُلُق عظيم؟ وقد خلق الله محمداً على خلق عظيم .

وقد أعدَّ اللهُ رسوله ليستقبل النبوة بقوة الفعل لا بسفه الرأى ، وله فى إبلا غ رسالة ربه ثواب لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم ، والخُلق العظيم هـو استقبـال الأحـداث بملَكات مستوية وليسـت متعارضـة ، ولا يملك ذلك إلا عـاقل .

وقـد شهـدوا بخُلُق محمد ﷺ، فكيـف يأتى هذا الخلق العظيـم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟

كانـت كل اتهاماتهـم إذن لرسول الله تنبع مـن إصرارهم على الكفر ، لا من واقـع لمسوه ، فـكلُّ مـا قـالوه فى رسول الله هم أول النـاس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

فـالخلـق العظيم يتنـافى مع الجنون ، وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رمـوه بـالسفه والجنـون ، فكلما جاء رسـول لقومه بمنهج حـقٍّ ليطمس معالم

الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة .

فالخلق العظيم معناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله ﷺ مضبوط بالقيم حتى صار ملكةً وليس أمراً افتعالياً ، وحين يقول الناس عن إنسان إنَّ خلقه الكرم أى تأصلتْ فيه صفة الكرم تأصُّلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيُسْر وسهولة ، وفى أعمال المعانى نسميها خُلقاً ، وفى أعمال المادة نُسميها آلية .

فأنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون فاجلسوا مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ، لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يدع .

لقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هى الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار الحكم عنده سليم .

والحق سبحانه يقرن بين العقل والخلق ، فيقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقال : فلان على خُلق أى يملك من الصفات ما يجعله على الجادّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة ، وهذه صفات ينظمها فى مواقفها الفكر العقلى، وهو الذى يميز لنا أى المواقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة ، وكلّ هذه أمور يرتبها العقل .

والخلق الرفيع لا يصدر عن مجنون لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ، لذلك لا نحاسبه نحن ولا يحاسبه الله أيضاً ، والخلق العظيم لا يكون فى مجنون لأن الخُلق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم]

فالحق سبحانه نفى عن رسول الله صفة الجنون ، وأثبت له صفة الخلق العظيم ، والمجنون لا خلق له ، ولا يُحاسب على تصرفاته فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق فى وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم فى وجهه ونشفق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلب اللهُ إنساناً نعمة العقل ، وهو الإنسان الذى كرّمه الله ؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان ؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة فى الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَّ يعقِّب على كلامك أحد وأنْ تفعل ما تريد .

ألا ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أنه لا يُسأل فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ أليستْ هذه كافية لتعوِّضه عن فَقْد العقل ؟ فلا تنظر إلى ما سُلب منه ، ولكن إلى ما أعطاه من ميزات فى الدنيا والآخرة .

والمخبول تتأتى منه حركات وأقوال دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إرادته ولا على خلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك ردَّ الله سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خلق أبداً ، فالمجنون ليس له خلق ، فالخلق هو الملَكة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً وهو على خلق عظيم ؟ ثم هل جرَّبتم عليه شيئاً مما يفعله المجانين ؟

فكيف يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ ولو كان ﷺ مجنوناً فلماذا استأمنوه على ودائعهم ونفائسهم واطمأنوا إليه وسمَّوه الصادق الأمين ؟ إنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنهم يعلمون خلقه ، وأنه محكوم بقيم من الحق والخير لا تتزحزح .

والأخلاق مقاييسها واحدة ، فقيسوا محمداً بأخلاقه ، لا بالدين والرسالة التى جاء بها ، انظروا إلى خُلُقه فيكم ، ولن يستطيع واحد منكم أنْ يتهمه فى خُلقه بشيء ، وما دام لا يُتهم فى خُلقه فلا يُتّهم كذلك فى عقله ، لأن العقل هو ميزان الخلق وأساسه .

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه محمداً ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]، فخُلقك العظيم أكبر دليل على أنك لست مجنوناً ، فأنت يا محمدُ بريء من هذه التهمة .

ففاقد العقل لا يمكن أنْ يكون منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خلقه وأمانته ، وتسمونه « الصادق الأمين » ، وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، فكيف تقولون عنه مجنون ؟

والخلق يسوى تصرفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف إذن يكون ذو الخلق مجنوناً ؟ إذن ليس محمد مجنوناً ، وما كان محمد ليكون صاحبَ خلق عظيم مع الناس ، ثم يكون غير سويّ التصرفات ؟

وقد قال سعد بن هاشم بن عامر : أتيت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقلت : أخبريني بخلق رسول الله . قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم] [1]

ولقد كان خلق رسول الله خلقاً عظيماً ، لأن الخلق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأنْ يعيش فى مجتمع سليم وهو مسالم ، وما دام خُلقه سليماً فمعيار

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٠٨) وكذا فى كتاب (خلق أفعال العباد) (٨٧/١) من حديث عائشة رضى الله عنها .

الحكم عنده سليم.

فعندما يُقال: فلان على خلق. أي: يملك من الصفات ما يجعله على الجادَّة من الفضائل مثل الصدق والأمانة، وهذه صفات ينظمها في مواقفها الفكر العقلي، وهو الذي يميز لنا أيَّ الموقف تحتاج إلى شدة أو لين أو حكمة، وكل هذه أمور يرتبها العقل.

وإذا كانت أم المؤمنين عائشة قد قالت عن رسول الله: «كان خلقه القرآن» فإن زوجه السيدة خديجة قالت عنه ﷺ في بداية الإسلام وعند بدء الوحي تصف رسول الله وتصف أخلاقه، فقالت تشجعه وتؤازره: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكلَّ، وتعين على نوائب الدهر»[1].

فأنت تصل رحمك وعشيرتك وأهلك وتطعم الضيف وتعين الضعيف واليتيم على نوائب الدهر ومصائبه، فكيف يخزيك الله ويتخلَّى عنك؟

فها هي خديجة صدَّقت به ولم تكُنْ سمعت القرآن، وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جناً، فقد بادرت رضي الله عنها وأرضاها إلى الإيمان به دون أنْ تسمع منه آية واحدة، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل.

لماذا؟ لأنهم بنوْا على تاريخه السابق واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة، فعلموا أن الذي لا يكذب على الناس مستحيل أنْ يكذب على رب الناس.

وها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصدق أن محمداً رسول من الله فوْر أن يخبره بذلك، وعندما علم بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ولم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٠) كتاب الإيمان، والبخاري في صحيحه (٣) من حديث عائشة رضي الله عنها. والكلُّ هو العاجز الثقيل لا خير فيه. وتقري الضيف: أي تكرم الضيف. والنوائب جمع نائبة وهي ما بالإنسان من الملمات والمصائب والحوادث. [لسان العرب - مادة: ندب].

يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدِّقه فى الأمر يأتى من السماء ، فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإن كان قال فقد صدق[1].

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سماتاً وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يصدقون كلَّ ما يقول فور أنْ ينطق ، وكما قال رسول الله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى »[2] ، فرسول الله هو الذى بلغ المرتبة العليا فى التربية والأدب ، وهى تربية حقَّة لأن الله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسنَ تأديب .

وقد كان من صفاته وأخلاقه ﷺ أنه إذا جلس فى مجلس توزعتْ نظراتُ عينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر ، ولا يميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان رسول الله لا يقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذين يعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس .

وكان رسول الله إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يسلم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله[3] ، وهذا أدب عالٍ من أدب الحق تبارك وتعالى له .

---

(١) قالت عائشة : لما أسرى بالنبى إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك وأصدقه بخبر السماء فى غدوة وروحة . أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٢/٣) وصححه وأقره الذهبى.

(٢) حديث : أدبنى ربى فأحسن تأديبى . قال ابن حجر العسقلانى فى الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (٩٧/١) : أخرجه العسكرى ضعيف فى الأمثال فى أول حديث وسنده غريب وقد سئل عنه بعض الأئمة فأنكر وجوده ، وذكره السيوطى فى ضعيف الجامع الصغير (٢٤٩) وعزاه لابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود وضعفه الألبانى .

(٣) أخرج ابن ماجه فى سننه (٣٧١٦) وابن المبارك فى الزهد (٣٩٢) عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله إذا لقى الرجل فكلمه ، لم يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى ينصرف ، وإذا صافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزعها ، ولم يُر متقدماً بركبتيه جليساً له قط » .

ولقـد كـان رسـول الله يجلس حيـث انتهى بـه المجلس ، وكذلك كـان صحـابتـه فـلا أحدَ يجلس دائماً بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صـاحب حظوة فكلُّهم سواسية .

ويضيـف علـيّ كـرم الله وجهه فــي وصف مجلس رسول الله وخلقـه فيه ، فيقـول: « وكان إذا ذهب إلى قـوم جلس حيث انتهى به المجلس ، وكـان يجلس علـى الأرض ويأكل علـى الأرض : يعتقـل الشـاة أي يحلبها ويجيـب دعوة المملوك»[1].

أهنـاك أدبٌ أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهي به المجلس، لقـد أراد أنْ يضـرب لنا المثل حتــى تتنوع اللقـاءات ، فـاليوم قـد يجلس مؤمن بجانــب اثنين جاء كل منهما من مـكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقـاءات .

وانظر إلى عظيم خلق رسول الله وأدبه رغم كونه نبيَّ الله ورسوله ، فقد كـان يحمـل حاجته بنفسـه ، فإنْ عرض عليـه أحدُ صحابتـه أنْ يحملها عنه قـال : صـاحبُ الشيء أولَى بحمله[2]. وهذا دليل تواضـعه ﷺ وعدم تكبُّره .

وممــا قـاله أنـس بن مـالك مولى رسول الله الـذى كان يخدمه وعشق خدمته ﷺ : « لقد خدمتُ رسول الله عشْر سنين ، فمـا قـال لشيء فعلته : لم فعلتـه ؟ ولا

---

(١) عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير ، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٤٩٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٤٣) .

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٢٢) من حديث أبي هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصري وهو ضعيف » . قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢٥) : ذكره القاضي عياض في الشفاء بدون عزو وهو ضعيف : بل بالغ ابن الجوزي فعدَّه في الموضوعات. وخطَّأه الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

لشيء تركته : لم تركته ؟ »[١].

وهـذه المعاملـة أثَّرت في زيد بن حـارثـة كثيراً ، حتى أنـه عندما جاء أهله ليأخذوه لم يقبل أنْ يترك رسول الله ، فقد كان زيد من بني كلب ولكن اللصوص سرقـوه من أهله وادعـوا أنه عبد فباعوه في سوق الرقيـق ، فاشتراه حكيم بن حـزام لحسـاب السيدة خديجـة ، وعندما تزوجهـا رسول الله أهـدتْ له زيد بن حارثة خادماً له .

وفي يـوم مـن الأيـام رآه أحدُ بنـي كلب في طرقـات مكة ، فأخبر أهله به فأسـرع أبـو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنـا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بني كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذي يحبه كل هذا الحب فقال لأبيـه : خـيِّره ، فإن اختاركـم فخذوه ، وإن اختارني فأنا لـه أبٌ ، فلما خيَّروه قال سيدنا زيد : والله ما كنتُ لأختار على رسول الله أحداً[٢].

ومـا كان هذا من زيد إلا لأدب رسول الله معه وخلقه العظيم الكريم ، وهو ممـا أدَّبه ربه عز وجل الـذي قال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩) ﴾ [آل عمـران]

كأنَّ الحق سبحانه يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب مع ما يُطلب منك في هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إليَّ عباد الله ، إلي عباد الله إني رسول الله .

وهذا شيء يُحفظ ويُغضب ، ولكنه لا يُحفظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمتك على الرحمة .

(١) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك (١٣٠٢١ ، ١٣٠٣٤) وكذا البزار في مسنده (٦٣٨٦ ، ٧١٢٢) وابن حبان في صحيحه (٢٨٩٣ ، ٢٨٩٤) والبيهقي في شُعب الإيمان (٨٣٨٣) ولفظه: « خدمت رسول الله فما قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا قال لشيء كسرته : لم كسرته ؟ ».

(٢) أورده ابن حجر العسقلاني في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٢٨٨٤) في ترجمة زيد بن حارثة الكلبي .

فكأنه يريد أنْ يُحنِّن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ، فقال له : إياك أنْ تُجازيها على هذا ، لأن طبيعتك أنك رحيم وطبيعتك أنك لستَ فظاً ، طبيعتك أنك لستَ غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة .

فبالرحمة المودعة مِمَّن خلقك فيك والتى تناسب مهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، وما دامت تلك طبيعتك فلِنْ لهم فى هذا الأمر واعْفُ عنهم واستغفر لهم .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتها فى قلبك فاستعملها فى كلِّ مجال ، وبهذه الرحمة لنْتَ لهم ، وبهذه الرحمة التفوا حولك لأدبك الجمِّ ولتواضعك الوافر ، لجمال خُلقك ، لبسمتك الحانية ، ونظرتك المواسية ، ولتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أىّ واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلق عالٍ .

كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ، وليسعها خلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب ، وهما يقتضيان ألاَّ تغضب لأىِّ بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربياً ولا مؤدباً .

إنها رحمةٌ طبعتَ عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك وبالرحمة لنتَ لهم ، وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ، لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن : فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخُلقك هو الرحمة واللين .

ومن هذه الرحمة والسماحة التى كانت خُلقاً فطرياً فى رسول الله موقفه من أهله أهل مكة يوم فتح مكة ، فحين تمكَّن من الذين أساءوا إليه قال عندما دخل مكة : « يا معشر قريش ما ترون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1].

فرغم أنهم عاندوه وتكبّروا على الحق وأخرجوا رسول الله من أحب البلاد

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٢) والسهيلى فى الروض الأنف (٧/٢٣٢) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (٢/٢٢٦) وذلك أن رسول الله وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدمىَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى (١٣) ﴾ [الحجرات] » .

إليه ، وها هو اليوم يدخلها منتصراً ، ولكن الحق لم يأت لاستعباد الناس ولكن لراحتهم ورفع رءوسهم ، لقد كان فى استطاعة رسول الله بعد أنْ تمكّن من كفار مكة أنْ يقضى عليهم جميعاً .

ولكنه لخلقه العظيم قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فأىّ رحمة هذه؟ وأىّ لين هذا الذى جعله الله فى قلبه ﷺ ؟ وهل مثل هذا النبى يُعارَض ويُنصَرف عنه ؟

فعلى الرغم من عداوة وشراسة مَنْ صادموا دعوته ﷺ ومحاولتهم إيذاءه بكل طريق ، فكان ﷺ لا يكفّ عن الدعاء لهم فيقول : « اللهم اهْد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] ، وكان لا يكف عن قول : « لعل الله يُخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وقد كانوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه ، وسلوكه يعرفون حركاته وسكناته ، لقد حاربوه حرباً شعواء وحاربوا وعذّبوا الضعفاء من المؤمنين به، ورغم هذا كان يُوصى أتباعه أنْ يصلوا أرحامهم ومعاملتهم بالخُلق الحسن رغم كفرهم .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمها « قُتيْلة »[3] كانت ما زالت

---

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقال : « لو دعوت عليهم فقال : إني لم أُبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان بهذا اللفظ عن عبد الله بن عبيد وقال : مرسل ، ثم أخرجه مختصراً « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» فحَسب موصولاً عن سهل بن سعد . [مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفاء ١/٦٠] .

(٢) لما خرج رسول الله إلى الطائف دعاهم إلى الله تعالى فردوا عليه رداً عنيفاً وكذَّبوه ورموه بالحجارة حتى أدموا رجليه ، فرجع رسول الله مهموماً فلم يستفق من همومه إلا عند قرن الثعالب ، فناداه ملك الجبال فقال : يا محمد إن الله يقرئك السلام وقد سمع قولة قومك وما ردوا عليك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فقال ﷺ « بل أستأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله » (أورده السهيلى فى الهدى والرشاد ٥/٤٠٩) » .

(٣) هى : قُتيلة بنت عبد العزى بن عامر بن لؤى ، قرشية زوجة أبى بكر الصديق وأم أسماء بنت أبى بكر وعبد الله بن أبى بكر طلقها أبو بكر فى الجاهلية فقدمت إلى ابنتها بهدايا فلم تقبلها وأبت أن تدخلها لأنها كانت مشركة ثم أسلمت وهاجرت إلى المدينة .

كافرة ، وتسأل أسماء رسول الله ﷺ أن تعطى من مالها شيئاً لأمها حتى تعيش وتقتات ، فسألت أسماء رسول الله : أفأصل أمى ؟ قال : نعم صِلِى أمك[١] .

ذلك هو سُمو الخلق الإسلامى ، فهو ﷺ يُعدى هذه المعاملة الحسنة حتى إلى الكفار ، بل وأكثر من ذلك إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ويجاهدانه عليه .

وما قالت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن إلا بعد أنْ خبرتْ خُلقه وأدبه ، فقد كانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر خديجة أم المؤمنين ، فقد دخلتْ فاطمة بنت محمد على أبيها مغضبة ، فقال ﷺ :

« ما أغضبكِ يا أم أبيها ؟ » فقالت : والله إن عائشة قالت لى : إن رسول الله تزوج أمك ثيباً . ولم يتزوج بكراً غيرى . فقال لها رسول الله : إذا أعادت عليك هذا القول ، وانظر هنا إلى أدب النبوة فى الرد وسرعة الخاطر فقولى لها : ولكن أمى تزوجت رسول الله وهو بكر ، وتزوجتيه أنت وهو ثيب »[٢] .

هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدها عائشة مرة أخرى .

ومن عظيم خُلقه ﷺ أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغنى أحد عن أحد

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٧٤٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٩١٥ ، ٢٦٩٣٩) والسنن المأثورة للشافعى (٥٢٩) والطبرانى فى معجمه الكبير (٢٠٣ ، ٣٤٢) . والبخارى فى صحيحه (٢٦٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٠٣/٥٠) .

(٢) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضى الله عنها رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ومن هذا ما أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة أن عائشة قالت لرسول الله : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيراً منها فتغيَّر وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً ، والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء .

من أصحابى شيئاً ، فإنِّى أحب أنْ أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »[١] أى : بدون انقباض عن أحد حتى يتجلى نوره على الجميع ، لعلَّ شعاعاً من النور يمسّ عاصياً أو منافقاً فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح .

بل إن رسول الله كان ذا حسٍّ عالٍ ، وانظر إليه ﷺ وهو يوصى بالجار ، فيقول : الجيران ثلاثة : فجار له حَقٌّ واحد وهو أدنى الجيران حقاً ، وجار له حقّان ، وجار له ثلاثة حقوق ، فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حَقُّ الجوار .

وأما الذى له حقّان فجارٌ مسلم له حَقُّ الإسلام وحقُّ الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجارٌ مسلم ذو رحم ، له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم [٢].

وهذا امتثالٌ للخلق الذى أمر به القرآن ، فقد قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (٣٦) ﴾ [النساء]

حتى أنه ﷺ قال : « ما زال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننتُ أنه سيورثه»[٣] وقد كان هَمّ رسول الله أنْ يتواصل المسلمون مع بعضهم البعض بإحساس عالٍ وخلق عظيم ، فقال لأبى ذر : «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٧٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٨) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٧، ١٠٥٩٨) وأبو داود فى سننه (٤٨٦٠) والترمذى فى سننه (٣٨٩٦) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٦٦٧٥) من حديث ابن مسعود وتمامه : فأتى رسول الله مال فقسمه ، فسمعت رجلين يقولان : هذه القسمة التى قسمها لا يريد الله بها ولا الدار الآخرة ثم أتيت النبى فقلت : يا رسول الله إنك كنت قلت (وذكر الحديث) وإنى سمعت فلاناً وفلاناً يقولان كذا وكذا فاحمر وجه رسول الله وقال : دعنا منك فقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر .

(٢) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٢٤٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (٢٤٣٠) والبيهقى فى شعب الإيمان (٩١١٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٤ ، ٦٠١٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٢٥/١٤١) من حديث عائشة رضى الله عنها . وكذا أحمد فى مسلم (٢٤٢٦٠ ، ٢٦٠١٣) .

ماءها وتعاهد جيرانك »[١].

هذا هو رسول الله ، وهذا هو خلقه العظيم ، فقد كان خلقه القرآن ، وهو ﷺ يجسد لنا مثلاً حياً للمؤمن الذى قال عنه : « إن مثل المؤمن كمثل النحلة أكلتْ طيباً ووضعتْ طيباً »[٢].

لقد كان رسول الله قرآناً يمشى على الأرض ، وقد كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذى جاء به من الحق تبارك وتعالى ، وهو أسوة سلوك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ ﴾

فسترى يا محمد وسيرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر ، هؤلاء الذين ادعوا أنك مجنون ، فستبصر فى الدنيا عاقبتهم وسيبصرون جزاءهم ، وأنهم سيصيرون ذليلين ملعونين ، وسيبصرون أنك ستصير معظماً فى القلوب .

والبعض من العلماء جعل هذا إبصاراً لأحوالهم يوم القيامة وعاقبتهم فى الآخرة ، وقد قال تعالى فى آية سورة القمر : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ[٣] الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٢/٢٦٢٥) باب الوصية بالجار . وقد أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٦٢) ولفظه « إذا عملت مرقة فأكثر ماءها واغترف لجيرانك منها » . وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢١٤٢٨) بلفظ : « إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٨٧٢) والبيهقى فى سننه (٥٣٨٢) والحاكم فى مستدركه (٢٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٣) الكذاب الأشر : الذى لا يبالى ما قال . وقال البيضاوى فى تفسيره (١٦٦/٥) : الكذاب الأشر الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل .

والحق سبحانه سبق الكلام عن حدث إبصار العاقبة والمآل أى المستقبل بحرف (السين) ، كأنْ نقول (سيعلمون) وهذا عن المستقبل القريب ، أما عن المستقبل البعيد فتأتى كلمة (سوف) . فـ (سوف) تأتى لتدلَ على أوسع مدىً زمنىً .

ولذلك فالآية تحتمل الأمرين ، أنهم سيروْن عاقبة أمرهم فى الدنيا ثم فى الآخرة ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

أى سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب والمصير الذى ينتظرهم .

وستبصرون يوم القيامة وتعلمون أن المجنون كان فيكم ، لا فى رسول الله وأصحابه ، وستعلمون فى أىِّ الفريقين المجنون ، فى فريقك أم فى فريقهم ؟

وقول الحق سبحانه ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) ﴾ [القلم] معلّق بالاستفهام بعده لأنه فعلٌ بمعنى الرؤية . وقد تأتى أبصر بمعنى علم وأدرك فالبصر يُقال للجارحه الناظرة . ويُقال أيضاً لقوة القلب المدركة .

فالمعنى على هذا : ستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبين الحق من الباطل .

﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ ﴾

فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذّبوك مَن المفتون الضال منك ومنهم . ومعنى المفتون الذى قد افتُتن عن الحق وضلَّ عنه . والمفتون مفعول بمعنى المصدر أى الجنون والضلال ، أى بأيّكم الجنون والضلال؟ .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله تعالى : (بأييكم) لأن السياق كان من الممكن أنْ يكون : أيّكم المفتون . أى أيُّكم المجنون .

فالفهم السطحى للأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت الباء هنا ؟ والبعض

قال : إن الباء هنا زائدة . ونقول :إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائداً على الحاجة ولافائدة فيه .

ولكن عليك أنْ تقول : أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف . والعربي قديماً سمع القرآن ساعة نزوله ، وسمعوا قول الحق سبحانه :﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم]، ولم يعترض واحد منهم ولم يقل واحد منهم أن وجودَ الباء هنا خروجٌ عن الأسلوب الصحيح للغة .

فلو كان هناك حرفٌ واحد خارج عن مألوف وصحيح اللغة لصرخوا بها وأعلنوها ، والحق سبحانه قد تحداهم أنْ يأتوا باختلاف واحد فى القرآن أو بمطعن واحد فيه ، ولم يقُل واحد منهم إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق ﴿ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾[القلم] هى فى الأصل : فتبصر ويبصرون أيّكم المفتون . أى أييكم الضال المجنون ، ولكن الباء جاءت هنا لتؤدى معنى آخر ، فـ (مفتون) أى مفعول بمعنى المصدر أى : بأيّكم الجنون أو الضلال .

والبعض قال : أى بأيّكم الشيطان ؟ فالشيطان هو المفتون الذى إن اتبعه شخصٌ وأصبح كالساكن فى روحه فيكون متلبساً به ، لذلك قال : بأييكم المفتون ، أى فالشيطان هو الذى يسبب الضلال والجنون للإنسان .

ويقول الحق سبحانه عن الذى يمسه الشيطان فيقوم يتخبط كأنه مجنون: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (٢٧٥) ﴾ [البقرة]

فالتخبُّط هو الضرب على غير استواء وهدى ، فتقول : فلان يتخبط أى أن حركته غير رتيبة وغير منطقية ، فهى حركة ليس لها ضابط ، ذلك هو التخبط وذلك هو الجنون .

فقوله تعالى : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ..(٢٧٥) ﴾

[البقرة] فكأنَّ الشيطان قد مسَّ التكوين الإنسانى مساً أفسد استقامة ملكاته ، فالتكوين الإنسانى له استقامة ملكات مع بعضها البعض .

فكلُّ حركة لها استقامة ، فإذا ما مسَّه الشيطانُ فسد تآزر الملَكات ، فملَكاته النفسية تكون غير مستقيمة وغير منسجمة مع بعضها البعض ، فتكون حركتُه غير رتيبة وغير منطقية .

والباء فى قوله تعالى : ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦)﴾ [القلم] ليست هى زائدة ، فالزيادة تكون عند البشر لا عند الله ولا يمكن أنْ يكون بالقرآن شىءٌ زائد ، فكلُّ كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يتحتم أنْ يكون فى هذا الموضع .

فالذى يتكلم هو الله ، وليس فى كلام الله حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا إنك إذا حذفتَ شيئاً فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ، لأن لله مراداتٍ فى كلامه ، وهذه المرادات لا بد أنْ يحقِّقها أسلوبه .

ومن العلماء مَنْ قال إن الباء فى قوله ﴿ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) ﴾ [القلم] بمعنى (فى) أى فى أيكم فى أى طائفة منكم الجنون .

ونلحظ أنَّ الحق سبحانه أشبع ياء (أى) بياء أخرى فكانا ياءين (بأييكم) ، وهذا إشارة أن جنون المشركين بلغ الغاية وتجاوز الحد ، وأنهم المجانين لا أنت ، لأن مثلك يا محمد لا يصح أنْ يُرْمى بالجنون ، فالذى على خلق عظيم لا يكون مجنوناً أبداً ، ومَنْ رماك بالجنون فقد رجع على نفسه بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ ﴾

فالحقُّ سبحانه أعلم بحال هؤلاء الكافرين وأعلم بحالك وحال المؤمنين معك ، فهم مشركون ضالون قد استحوذ عليهم الشيطان ، أما محمد ﷺ وأصحابه فمؤمنون مهتدون .

فربُّك يا محمد هو أعلم بمَنْ ضلَّ عن سبيله كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ، وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى فاتبع الحق كما اهتديتَ أنت فاتبعتَ الحق .

إنَّ ربك يا محمد هو أعلم بمن أخطأ الطريق عن دينه ، وهو أعلم بالمهتدين لدينه ، فالله يعلم المهتدى والضال ، والمؤمن والكافر ، ولا يخفى عليه شئٌ من أمرهم .

ولكن مَنْ هو (من ضلَّ عن سبيله) ، مَنْ ضل عن سبيله هو الذى ضلَّ الطريق فاتخذ منهجاً غير منهج الله ، ومشى فى الضلالة بعيداً عن الهدى وعن دين الله .

أى أنه تاه فى الدنيا فأصبح ولياً للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم ، هذا هو الضال .

وهو إنما ضلَّ عن سبيله ، فغاية الإسلام أنْ تتبعوا السبيل الذى حدده الله لنا ، لأن سبيل الله هو الموصِّل حقيقةً للغاية التى نبتغيها ، فسُبلكم أنتم لا تُوصلكم إلىَّ لأنكم حددتموها بغاياتكم أنتم .

أما أنا فقد حدَّدتُ السبيل بغايتى ، فمَنْ أراد أنْ يصل إلىَّ فليتبع سبيلى ومنهجى لتهتدوا .

وكلمة (السبيل) أمر حسىّ ، والحق سبحانه يستعمله ليدلنا على المعنى العقدى والمعنوى ، فيوضحه لنا بأمر حسى أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يُبعدك عن الهدف ، وكلما امتدَّ بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة فأنت تتوه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه إنما يهدى لطريق الحق والهدى بالقرآن ، يقول

تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة]

فالرسول نور والكتابُ مبين للحق والهدى، والحق سبحانه يهدى من اتبع منهجه وهداه، يهديهم سبل السلام، فهناك رضوانٌ مُتَّبع، وكأنَّ اتباع الرسولِ النورَ الذى جاء بالكتاب المبين هو فى حَدِّ ذاته رضوانٌ من الله، فالرضا كل الرضا لمن اهتدى فاتبع.

ثم تأتى المكافأة، الهداية إلى سبل السلام، وسبل السلامُ متعددة، فهناك سلام نفس مع نفسها، وهناك سلام نفس مع أسرتها، وهناك سلامٌ مع جماعتها، وهناك سلامُ نفس مع أمتها، وهناك سلامُ نفس مع العالم، وسلامُ نفس مع الكون كله، وهناك سلامُ نفس مع الله.

لذلك فالحق سبحانه يحذر رسول الله ﷺ من إطاعة هؤلاء الضالِّين المكذِّبين، فيقول سبحانه:

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ⑧ ﴾

فلا تُطع يا محمد المكذبين بآيات الله ورسوله، فهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فأمره الله تعالى أنْ يثبت على دينه، فلا تطع المكذبين بوحدانية الله تعالى.

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون، وهم المشركون، وهم الذين يرفضون الإسلام ويحاربون الدين، فالتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب، وهو الوقوف إيجابياً فى موقف الضد والصَّد عن سبيل الله والعمل على إبطال الدعوة إلى الله والقضاء عليها وإيقافها.

وهم لا يصلون إلى مرحلة التكذيب إلا بعد أن تكون قلوبهم قد امتلأت بالضلال، لذلك يعلنون التكذيب للرسول ويتهمونه بالكذب فى بلاغه عن الله، وأنه أتى بالقرآن من عند الله.

فهم مكذِّبون فلا تُطعهم ولا تتبع أهواءهم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد]

لذلك قال الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) ﴾ [الأنعام] ، فما عليك إلا أنْ تبلغ هؤلاء المشركين ما أرسلناك به إليهم ، ولا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ، فمَنْ يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ولتعلن ذلك عليهم صريحة واضحة ، لذلك قال تعالى : (قل) ، لئلاً يظنوا أنَّ هناك مجالاً عندك لمداهنتهم ، أو أن عندك أمراً وسطاً بين الحق والباطل .

لذلك نبَّه الحق سبحانه رسوله فقال :

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۞ ﴾

فإياك أنْ يخدعوك أو يُخادعوك يا رسول الله فى شيء ، أو يساوموك على شيء ، مثلما قالوا : نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة[1] .

وقد قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأنْ أنزل :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤)﴾ [الكافرون]

وهذا هو قطع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة ، وهى العبادة ، ونحن نعلم أن العبادة أمرٌ قلبى لا يمكن المساومة فيه ، وقطع العلاقات فى مثل هذا الأمر أمرٌ واجب ، لأنه لا يمكن التفاوض حوله فهى ليست علاقات ظرف سياسى ، ولكنه أمر ربانى يحكمه الحق سبحانه وحده .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (٢٤/٦٦٢) عن ابن عباس أن قريشاً قالت لرسول الله : إنا نعرض عليك خصلة واحدة فهى لك ولنا فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة اللات والعزى ، ونعبد إلهك سنة قال : حتى أنظر ما يأتى من عند ربى فجاء الوحى من اللوح المحفوظ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾ [الإسراء]

وهذه خبيثة من خبائثهم مع رسول الله ﷺ ، فقد كانوا يحاولون جادِّين أنْ يصرفوا رسول الله عمَّا بعثه الله به ، فمرَّة يقولون له : دَعْ آلهتنا نتمتع بها سنة ونأخذ الغنائم من ورائها وتحرم لنا بلدنا أي ثقيف كما حرَّمت مكة. ومرَّة يقولون له : لا تستلم الحجر ويمنعونه من استلامه حتى يستلم آلهتهم أولاً .

وهم يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر ، لكن الحق تبارك وتعالى يريد قطع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط .

وقطع العلاقات هنا ليس كالذى نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كلٌّ منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه .

إنما قطع العلاقات مع الكفار قطعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنُّوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى ، لذلك تكرر النفى فى هذه السورة حتى ظنَّ البعض أنه تكرار ، ذلك لأنهم يستقبلون القرآنَ بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك فى المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، فلن يرغمنا أحدٌ على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

والحق سبحانه يقول :﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ﴾ [القلم] والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن استطاعت فما داموا يودّون منك أنْ تداهنهم فى سبيل أنْ تستمر عبادتهم لأصنامهم وأوثانهم ، فاعلم أنهم لن يؤمنوا .

واعلم أنهم سيقفون فى وجه الدعوة ، وهذا يحقق ما توده قلوبهم وتطلبه إنْ لم تداهنهم فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل

تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

فإياكم أنْ تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم ، فإنما ودّ المكذّبون بآيات الله لو تكفر بالله يا محمد فيكفرون .

والإدهان إنما هو الملاينة والمصانعة والمقاربة فى الكلام ، فهم يودون يا محمد لو تلين لهم فى دينك بأنْ تُجيبهم إلى ما يريدونه من الركون إلى آلهتهم ، فيلينون لك فى عبادتك إلهك . وقد كان المشركون يحاولون بشتى الطرق صرف رسول الله عن دينه وعن دعوته ، فحاولوا أنْ يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»(١).

وقد أرسلوا إليه وفداً قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعذر فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخله أحد قبلك ، شتمت آلهتنا وسفّهت أحلامنا ، وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنتَ تريد جاهاً سوَّدناك علينا وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملّكناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ولكن ربى أرسلنى بالحقِّ إليكم ، فإنْ أنتم أطعتم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم ».

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعلَّ الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغيتهم قالوا : نتوسل إليك بمَنْ تحب ، فربما خجل أنْ يقبل منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه .

فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : والله ياعمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما

---

(١) بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخى إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا للذى قالوا له فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال رسول الله : يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه رسول الله فقال : اذهب ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . [دلائل النبوة ١٨٧/٢] .

تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه » ولم تنته محاولاتهم ولم تقف جهودهم عن صرف رسول الله عن دينه ، فإذا كان ما سبق يتعلق أيام كان رسول الله في مكة في بداية الدعوة ، ولكن حتى لما استتبَّ الأمر للمسلمين لم تقف محاولاتهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة]

فهم دخلوا عليه بصورة خادعة ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإنْ حكمتَ لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو في صورة شيء نافع .

وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٤٩) ﴾ [المائدة] ، وهنا يحذِّر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

والحذر من هذا هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أنْ يُوقع به ضرراً في أمر ذي نفع ، والذي يرغب الضر قد يزيِّن لنفسه ولغيره الشر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما في باطنه هو كل الشر .

فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضراً في صورة نفع ، كأنْ يأتي خصمٌ ويقول لك : سأصنع لك كذا . وافعل من أجلي كذا وكذا . يجب عليك هنا أنْ تقول له : لا .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ ١٠ ﴾

كلمة (حلف) هي القسم أو اليمين ، وحين نتمعن في القرآن نجد أنَّ الحلف لا يُطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسَم فإنه يُطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة .

فمثلاً عندما نقرأ في سورة المائدة : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ (٨٩) ﴾ [المائدة] ، وما دامتْ هناك كفارة يمين يكون الحلف كاذباً ، لأنَ الذي يستوجب الكفارة هو الكذب .

وإذا استعرضنا بعد ذلك كل (حلف) فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ(١٠)﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسَم الكاذب ، ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى (أقسموا) فقد يكون اليمين صادقاً وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ (٦٢)﴾ [التوبة] أى أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢)﴾ [التوبة] إذن فهم يحلفون لترضوا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو لا يُقسم إلا ليرضى الله ، لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن العجيب أنَّ سورة التوبة فيها أكبرُ عدد من لفظ (يحلفون) ولم ترد مادة (يحلف) فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات .

أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم التى معنا جاءت (حلاّف) ، حتى أن سورة التوبة سميت (سورة يحلف) لأن فيها أكبر عدد من (يحلفون) فى القرآن الكريم[1].

فلا تُطع يا محمد كل ذى إكثار للحلف الباطل ، وقد نزلت فى الأخنس بن

---

(١) وردت كلمة (يحلفون) فى سورة التوبة :

- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .
- ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة] .

شريق[1]، والبعض قال إنها نزلت في حق الوليد بن المغيرة أو الأسود بن عبد يغوث، والآية لا تخصّ واحداً بعينه بل هي على العموم.

والحلاَّف الكثير الحلف، وهو مهين أي حقير، ومعناه هاهنا قلة الرأي والتمييز، والواجب أنْ يحفظ الإنسان يمينه، يقول تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ (٨٩)﴾ [المائدة] وقد كان العرب يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف.

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان أن مَنْ حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يُؤمَن إقدامه على اليمين الكاذبة.

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يقسمون عن غير صدق في القسم، كمَنْ تعوَّد كثرة الحلف والحنث فيه، لذلك ينهاهم عن هذا الحلف: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا (٥٣)﴾ [النور]

ولا يمكن أنْ ينهى المتكلم المخاطب عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير، لكن هؤلاء حانثون في قسمهم فهو كعدمه، فهم يقسمون باللسان، ويخالفون بالوجدان.

والحق سبحانه أمر رسوله ﷺ بعدم إطاعة كلِّ كثير الحلف، وأمره بعدم إطاعة أصناف أخرى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ (٤٨)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب]

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف]

---

(١) الأخنس بن شريق ثقفي، أسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلفة قلوبهم، توفي في أول خلافة عمر بن الخطاب [الطبقات الكبرى ١/٢٩٣] قال ابن حجر في الإصابة (١/١٩٢): اسمه أبيّ وإنما لقب الأخنس لأنه رجع ببني زهرة عن بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل خنس الأخنس ببني زهرة فسمي بذلك.

والطاعة استجابة للأمر فى (افعل) والنهى فى (لا تفعل) ، وهم قد طلبوا منه أنْ يجمعهم مع المستضعفين فى مجلس واحد ، ولكن الله أراده أنْ يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أنْ نهاه عن طردهم .

وفى هذا قمة التكرم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين لأنهم أهلُ محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

وسبب عدم طاعة مَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا أن هذا يُضلنا عن سبيل الله ومنهجه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (١١٦)﴾ [الأنعام]

فمَنْ أغفلنا قلبه عن ذكرنا يتبع هواه ويسير خلف أهوائه وشهواته فيأخذه هواه ويُلهيه عن ذكر الله ، وما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه .

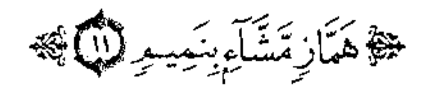
فالمؤمن الحق سليم الإيمان مَنْ كان هواه ورغبته موافقة لمنهج الله لا يحيد عنه ،﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾ [الفرقان]

فلا تُطعهم إنْ لوَّحوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أنَّ ما أعدَّه الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله ، ونهى الرسول عن طاعة الكافرين لايعنى أنه ﷺ كان يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا (١٣٦)﴾ [النساء]

فلا تطع مَنْ يعرض عليك المال على أنْ ترجع عن دينه كالوليد بن المغيرة الذى كان تاجراً ضعيفَ القلب مهيناً ، وذلك كقوله تعالى أيضاً ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

والمهين الكذاب الضعيف المكثار فى الشر ، الضعيف الرأى والتمييز .

ثم يذكر الحق سبحانه صفتين أخريين لهذا الحلاَّف المهين ، فيقول :


﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١)﴾ [الهمزة] والهُمزة هو الذى يسخر من الناس ولو بالإشارة ، يرى إنساناً مصاباً بعاهة فى قدمه يمشى وهو يعرج فيحاول أنْ يقلده بطريقة تثير السخرية إما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزة .

الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس علامة عدم الإيمان ، والهماز مغتابُ الناس يأكل لحومهم ، فالهمز الاغتياب وذكر الناس بما يكرهون يأكل لحوم المسلمين ويطعن فى أعراض الناس بما يكرهون ويعيبهم .

فهو فتّان طعّان يلوى شدقيه من وراء الناس ، والمراد كسْر أعراض الناس والغضّ منهم والطعن فيهم .

وهناك فرق بين الهمزة واللمزة ، فالهمزة جهراً بالمواجهة ، أما اللمزة فيظهر الغيب سراً بالحاجب والعين ، وقد كان الوليد بن المغيرة يفعل ذلك وهو من عادة السقاط ويدخل فيه مَنْ يحاكى الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحك الناس .

فالهمزة هو مَنْ يعيب فى الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه ، أو بأىّ حركة من جوارحه .

ومثال هذا حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ويحاول أحدهم النّيْل من أحد الحضور خُفية فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر أو يكون باللسان همساً فى أذن إنسان أو بأىّ طريقة أخرى ، المهم أنْ يُشار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللمزة العيابون فى غيرهم فى حضورهم ، فهناك القوى الذى يكشف العيوب بشجاعة وصراحة وهو اللماز ، أما الضعيف فهو يعيب خُفْية وهو الهماز ، واللمزة تُطلق على مَنْ يعيب كثيراً فى الناس .

وهمزة لمزة من صيغ المبالغة (فُعلة) وتدل على كثرة فعل الشىء ، فاللمزة هى كثرة العيب فى الغير ، وهى تدل على ضعف مَنْ يقول بها ولو لم يكُنْ

ضعيفاً لقال ما يريد صراحة .

ومن اللمز قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨)﴾ [التوبة]

وكان بعض المنافقين يغتابون ويلمزون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أنْ يتعب الغنى ويشقى فى الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حث الله الناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التى يتم بها صرف الصدقة للفقراء وأنَّ بعضهم يعطى كثيراً ، وبعضهم يعطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون فى كل الأمور أو بعضها .

فالهُمزة هو الذى يعيب بالقول ، واللمزة هو الذى يعيب بالفعل .

وهو لا يهمز ولا يسخر ويلمز فحسب ، بل إنه أيضاً ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم]

فهو يمشى بالنميمة أى يسعى بين الناس بالنميمة . والسعاية عادة تأخذ جانب الشر وتعنى الوشاية والسعى بين الناس بالنميمة تقول : فلان سعَّاء بين الخلق يعنى بالشر ينقله بين الناس بقصد الأذى ، وهؤلاء إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه وإنْ لم يعلموا كذبوا .

و (مشّاء) صيغة مبالغة (فعَّال) فالمشى بالنميمة طبيعة فيه ويعملها بقصد وبكثرة ومبالغة ، فهو يمشى بحديث الناس بعضهم فى بعض ، ينقل حديث بعضهم إلى بعض ويمشى بالكذب .

فالمشّاء بنميم يفسد ذات البين فيسعى بالنمائم بين الناس ، ورسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات »[1] أى نمام فهو يقتّ الحديث قتاً فيسمع

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٢٤٧ ، ٢٣٣٠٥) والبخارى فى صحيحه (٦٠٥٦) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) باب بيان غلظ تحريم النميمة أن همام بن الحارث قال : كنا جلوساً مع حذيفة فى المسجد فجاء رجل حتى جلس إلينا فقيل لحذيفة : إن هذا يرفع إلى السلطان أشياء فقال حذيفة إرادة أن يسمعه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة قتات ».

الحديث من الناس على بعضهم وينقله فيفسد الأواصر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية بين الناس .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال : «إنهما يُعذَّبان وما يُعذَّبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بين الناس بالنميمة »[١] .

وقد روتْ أسماء بنت يزيد بن السكن أن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بشراركم؟ المشَّاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة والباغون للبرآء العنت»[٢].

وإفساد ذات البين من أخطر الأمور ، لذلك قال رسول الله لأصحابه : «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة ؟ قلنا : بلى . قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين »[٣].

ويصف الحق سبحانه هذا الفعل بأنه فعلٌ شيطانى ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ (٩١)﴾ [المائدة]

فكلمة (يُوقع) معناها أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك مَنْ يريد أنْ يجعل بينهما ما يفصل هذا الالتحام ، ولذلك يقال : فلان مشى بالوقيعة. أى أنه أراد أنْ يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام، وكلمة (بينكم) تفيد الانفصال ، وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة .

---

(١) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٤٩٥) وتمامه : ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين وغرز فى كل قبر واحدة فقيل : يا رسول الله لم صنعت هذا ؟ قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا . وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٨ ، ١٣٦١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٤١٤٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه (١٢٠٤٥) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٧٥٣) من حديث ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٥٩٩ ، ٢٧٦٠١) والبخارى فى كتاب (الأدب المفرد) (٣٢٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (٤٢٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠٥٩٦) من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن رضى الله عنها .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٥٠٩٢) والترمذى فى سننه (٢٥٠٩) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾

فقد كان صناديد قريش يمنعون الخير عن الناس ، فقد كانوا يمنعونهم عن الإيمان وعن كل خير .

وبعض العلماء خصُّوا الخير هنا بالزكاة المفروضة ، فقالوا : المقصود هنا منع الزكاة ، ولكن منع الخير هنا عام لكلِّ خير ، زكاة أو مالاً أو غيره .

ويقول الحق سبحانه فى سورة الماعون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ[1] الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]

فمن الماعون الذى يمتنع منعه هو ماجور العجين أو المنخل أو الغربال أو الهون .. الخ ، ومثل هذه الأشياء قد لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه .

فالمنَّاع للخير بخيلٌ بالمال ضنين به عن الحقوق ، والوليد بن المغيرة كان رجلاً مُوسِراً كثير المال ، وكان له عشرة من البنين فكان يقول لهم : من أسلم منكم منعته رفدى[2] ، أى حرمتُه من عطائى لذلك قال تعالى : ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤)﴾ [القلم]

فهو كثير المنع للخير ، يمنعه حتى عن نفسه بعد أنْ منعه عن الآخرين حين وقف فى وجه الدعوة للإيمان ، وحين منع ماله ولم يُعط المحتاجين .

---

(١) يدع اليتيم : يدفع اليتيم عن حقه ويظلمه . قاله مجاهد . وقال مقاتل بن سليمان : يدفعه عن حقه فلا يعطيه . وقال قتادة : يقهره ويظلمه . قال ابن زيد : يدفعه ويُغلظ عليه . وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة .

(٢) أورده الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/ ٥٨٧) وأنه من قول الوليد بن المغيرة المخزومى أنه كان له عشرة من البنين فكان يقول لهم وللحمته : من أسلم منكم منعته رفدى .

وهو لم يكتفِ بمنْع الخير بل تعدى على الخير عند غيره ، فأخذه دون وجه حق ، أخذه مرة بالسرقة ، ومرة بالرشوة ، ومرة بالخطف والغصب ، ومرة بالتدليس ، ومرة بالغشّ .

فهو إذن مُعتد بأىّ وجه من وجوه التعدى ، ولذلك فهو ﴿ أَثِيمٍ (١٢)﴾ [القلم]، وأثيم فعيل من صيغ المبالغة .

وهو أثيم لا مجرد آثم ، بل هو أثيم بربه لغشمه وظلمه ، وهو مُتمادٍ فى الإثم لا ينزجر عنه ولا يرعوى ، ولا يتعظ بموعظة ربه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥)﴾ [ق] فهو مريب أى شاكّ مرتاب فى هذا اليوم ، فلو كان مؤمناً به وبالحساب والجزاء ما منع الخير عن أهله ونفسه ، وما كان منعهم من الإيمان ، وما كان منع حقّ الله .

والمريب أثيم يخشى أنْ يراه الناسُ فيكشفوا أمره ، وفى أمثال الناس : يكاد المريب يقول خذونى ، لأنه فاعلٌ للإثم مقيم عليه فهو أثيم .

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾

والعُتل هو الرجل الفاحش اللئيم ، الجافى الشديد فى كفره ، وكل شديد قوى فالعرب تسميه عُتلاً ، وهو الشديد الخصومة ، وأصله من العتل ، وهو الدفع بقوة وعنف .

ومنه قوله تعالى :﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ (٤٧)﴾ [الدخان] أى : ادفعوه على وجهه إلى سواء الجحيم ، فالعتل السَّوْق والدفع والجذب ، فالعتل أنْ يؤخذ فيُمضى به بعسف وشدة .

فالعتل الزنيم هو الرجل يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة بزنمتها[1] التى تعلَق

(١) معنى زنيم أنه كان فى أصل أذنه مثل زنمة الشاة مثل الزنمة التى تكون معلقة فى لحى الشاة زيادة فى خلقه . وهى جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة .

فى لحى الشاة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « تبكى السماء من رجل أصحَّ الله له جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقضماً ، فكان للناس ظلوماً ، فذلك العتل الزنيم »[1].

والزنيم فى كلام العرب الملصق بالقوم وليس منهم ، فليس يعرف من أبوه بغىّ الأم فهو منتسب لغير أبيه دخيل فى قومه .

وليس معنى هذا أن كل نمام هو زنيم لا يُعرف له أب ، إنما أن الشخص المقصود هنا كانت تجتمع فيه كل هذه الصفات ، لذلك قال تعالى : ﴿ **بَعْدَ ذَٰلِكَ** (١٣)﴾ [القلم] أى إضافة إلى ما سبق وهو هنا يشير إلى ما سبق من صفات .

فهى صفات متوالية متتابعة ، كلٌّ خصلة أشد من الأخرى ، فهو حلاَّف كثير الحلف يعلم من نفسه عدم صدقه وشكّ الناس فيه ، مهين حقير ، والمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ، ولو كان ذا جاه أو مال أو جمال .

وهو همَّاز غمَّاز لماز بالنظرة واللفظ والإشارة فى الحضور والغيبة ، منَّاع للخير عن نفسه وعن غيره ، مُعتدٍ متجاوز للحق والعدل والإنصاف أثيم واقع فى الآثام والذنوب والمحرمات ، عُتل فظ قاسٍ مكروه معروف بشرِّه وصَلَفه يستمتع بزرع الأحقاد بين الناس .

نمام يقابل هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، مُتلوِّن وَاشٍ يشتغل بعيوب غيره، إنْ علم خيراً أخفاه ، وإنْ علم شراً أفشاه ، وإنْ لم يكُنْ تجده يكذب ويختلق الشائعات .

وهو فوق ذلك كله ﴿ **زَنِيمٍ** (١٣)﴾ [القلم] من أراذل القوم لو فتشت فى حقيقته ستجده لا أبَ له معروف ، مُلَصق بالقوم وليس منهم ، وكأنه صدر فى كل هذه الصفات عن أصله الوضيع .

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره مرسلاً (٢٣/٥٣٦) عن زيد بن أسلم قال ابن كثير فى تفسيره (٨/٢١١): رواه ابن أبى حاتم من طريقين مرسلين ونص عليه غير واحد من السلف منهم،مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة .

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

وأصله هذا ليس له علاقة بـ ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) ﴾[القلم] فالله جمع له بين المال والبنين ، والحق سبحانه يقول : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ[1] حَتَّى حِين (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون]

أيظنون أنّ هذا خير لهم ؟ لا ، بل هو إمهال واستدراج ليزدادوا طغياناً ، فلا تُطعه ليساره وعدده ، فلا تُطعه وإنْ كان ذا مال وبنين .

وقد قيل : إن المقصود هنا هو الوليد بن المغيرة وقد كانت له حديقة بالطائف ، وكان له اثنا عشر ابناً .

ولكن لا ماله ولا أبناؤه جعله ينفك عن أصله الزنيم فجاءت صفاته مناسبة لأصله الوضيع ، وقد قال رسول الله ﷺ : «لا تزال أمتي بخير ما لم يفْشُ فيهم ولد الزنى ، فإذا فشَا فيهم ولد الزنى أوشك أنْ يعمّهم الله بعقاب »[2] .

حتى أن عكرمة قال : إذا كثر ولد الزنى قحط المطر[3] ، وقد قال تعالى في سورة المدثر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ[4]

(١) غمرتهم : غفلتهم . وقال قتادة : ضلالتهم . قال ابن عباس : كفرهم وضلالتهم . قال الزمخشري في الكشاف (٣/١٩١) : الغمرة الماء الذي يغمر القامة فضربت مثلاً لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعمايتهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦٨٣٠) من حديث ميمونة رضي الله عنها وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/١٣٨) وأبو يعلى (٧٠٩١) والطبراني في الكبير (٢٤/٥٥) .

(٣) أورده القرطبي في تفسيره (١٨/٢٣٥) وعزاه لعكرمة من قوله .

(٤) شهوداً يعني حضوراً لا يغيبون أبداً عنه في تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، وكلهم رجال منهم الوليد بن الوليد وخالد بن الوليد وعمارة بن الوليد وهشام بن الوليد والعاص بن الوليد وقيس بن الوليد وعبد شمس بن الوليد . كان بنوه عشرة وقال مقاتل : بسبع بنين . أسلم منهم ثلاثة : خالد ، هشام ، عمارة .

شُــهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر]

بسطت له فى المال والولد والخير بسطاً ثم يرجو أنْ أزيده فى ماله وولده ، كلا لا أزيده بل أقطع ذلك عنه وأهلكه ثم منعه الله المال فلم يُعطه شيئاً حتى افتقر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

الآية هى الشيء العجيب اللافت ، فهناك فى الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض والجبال والبحار وغير ذلك ، هذه تسمى آيات ، شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آيةً فى كونه وتخدم الإنسان.

وهناك الآيات وهى المعجزات عندما يرسل الله رسولاً أو نبياً إلى قومه ، فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبيٌّ مُرسَل من عند الله سبحانه وتعالى .

وهذه الآيات مقصودٌ بها مَنْ شهدها ، لأنها تأتى لتثبيت المؤمنين بالرسل، وهم يمرّون بأزمة يحتاجون فيها إلى التثبيت ودلالة على صدق رسالة النبى لقومه .

وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم كلام الله المعجز الذى وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة إلى يوم الدين ، يُحدثنا الله سبحانه فى آياته عن كيفية خَلْق الإنسان وعن منهج السماء للأرض وغير ذلك .

فالآية هى الأمر العجيب ، وهو عجيب لأنه معجز ، والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله ، وهى كذلك الآيات فى القرآن الكريم .

والآيات التى أيَّد الله بها سبحانه وتعالى محمداً ﷺ ظاهرةٌ أمام الكفار وليستْ محتاجةً إلى دليل ، فرسول الله الذى لم يقرأ كلمة فى حياته يأتى بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى ، وهذه معجزة ظاهرةٌ لا تحتاج إلى دليل .

ورسول الله الذى يخبر بقرآن مُوحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنواتٍ ، ويخبر الكفار والمنافقين بما فى قلوبهم ويفضحهم ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كلٍّ أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكونياً .

كلٌّ هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار ، كلها آيات واضحة لا يمكن أنْ يكفر بها إلا الذى يريد أن يخرج عن منهج الله ويفعل ما تهواه نفسه .

إن الإعجاز فى الكون وفى القرآن وفى رسول الله ﷺ كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد لنعرف أن هذا القرآنَ هو من عند الله ملىء بالمعجزات علماً ولغة ، وإنه سيظلّ معجزة لكلِّ جيل له عطاء جديد .

والكافرون لا يؤمنون بآيات الله حتى لو كانت ظاهرةً واضحةَ الدلالة، حتى ولو كانوا هم الذين طلبوها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ [البقرة]

لقد جاءهم القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آيةٌ كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

والآيات التى يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه ويحققها لهم لا يؤمنون بها ، بل يزدادون كفراً وعناداً ، فالآيات التى يطلبونها لا تجعلهم يؤمنون ، ولكن يزدادون كفراً حتى ولو علموا يقيناً أنَّ هذه الآيات من عند الله سبحانه.

ومهمة رسول الله التى أرسله الله بها ذكرها الحق سبحانه فى قوله :﴿ كَمَا

أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فالآيات قسمان : منظور ومقروء ، أما المنظور فهو كل الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويروْنَها .

لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ، فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

ورسول الله لا يتلو عليهم آيات القرآن ليعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون .

فرسول الله جاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ، ونماء ، وجاء ليعلِّمهم الكتاب والحكمة ، ورسول الله كان ينزل عليه الوحى بعدة آيات، وقد يطول إلى ربعين أو ثلاثة أرباع .

فلما أنْ يُسْرى عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه ، يتلوه كما أُنزل عليه فيكتبه الكتبة ويحفظه من يحفظه منهم ، وكانوا أمة رواية وأمة حفظ .

والحق سبحانه هنا بنى الفعل (تلا) للمجهول ، فقال تعالى : (إذا تُتلى) لأنه معلوم من آيات أخرى ، ولأن العبرة بحدوث ذلك إذا تُليت آيات الله على مَنْ لا يؤمن .

فكلُّ كافر لا يؤمن بالقرآن إذا تُليتْ عليه آيات الله قال عنه ووصف القرآن بأنه ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

وممَّنْ قالوا أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ، كان هو النضر بن الحارث أخو بنى عبد الدار يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم ، فلما قدم

مكة سمع كلام النبى ﷺ والقرآن فقال : قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا[1] إنْ هذا إلا أساطير الأولين ، يقول : أساجيع أهل الحيرة .

ومنهم أيضاً الوليد بن المغيرة ، وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله ﷺ، ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة وهو السيد فى قومه يأتي فيه قول الحق: ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم]

وكان الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين وأعرض عن القرآن وسخر منه ، فجعل الحق منه أمثولة للناس .

والأساطير جمع أسطورة ، والأسطورة شيء يُسطَّر ليُتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية ووصفهم له بهذا دليل إفلاسهم فهم حاولوا وصف القرآن بالسحر ، وتارة بالشعر ، وتارة بالكهانة وأخيراً قالوا (أساطير الأولين) .

وهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم ، فهم أمة بلاغة ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم .

فالأساطير هى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير ، وأساطير مثل أعاجيب وأعجوبة.

وهناك من يقول : إن أساطير جمع سطر أسطار أساطير مثل شكل وأشكال فهى جمع للجمع ، وسواء أكانت جمع أسطورة أو جمع سطر فالمعنى لا يختلف لأن الشيء المسطور قد يعتبره الناسُ خرافة وكلاماً لا معنى له .

والأساطير هى الكلام المكذوب الذى لا أصل له ، فلا يُسمَّى الكلام أسطورة إلا إذا جاء وقته ولم يحدث ، فلك أنْ تقول أساطير .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان]

ثم يقول تعالى ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسير الكشف والبيان (٤/ ٣٥٠) .

وَأَصِيلًا (٥) ﴾ [الفرقان] ، فهم قالوا إن القرآن حكايات وأساطير السابقين (اكتتبها) يعنى أمر بكتابتها .

وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أُمىّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) ﴾ [الفرقان] أى باستمرار ليكرِّرها ويحفظها .

وهم اتهموا رسول الله وهم فى قمة غفلتهم أنه يتعلم من رجل كان بمكة فيلفتهم القرآن إلى أن الرجل الذى قالوا إنه معلم للرسول ﷺ كان أعجمياً غير عربى .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]

وهم لا يؤمنون بالآخرة ، فقلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، ووصفهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ [النحل]

والعجيب أنهم لم ينكروا الله وأقروا بربوبيته ، فلما سُئلوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، فوصفوا ما أنزل ولم يعترضوا على مَنْ أنزل .

فلو كانوا صادقين مع أنفسهم لمَا أقرُّوا بالألوهية ورفضوا أيضاً القول المُنزل إليهم .

أما الذين آمنوا واتقوا فعندما سُئلوا هذا السؤال ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ (٣٠) ﴾ [النحل] ﴿ قَالُوا خَيْرًا (٣٠) ﴾ [النحل] ، ووراء ذلك قصة توضح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب معجز ، بدأت أخبار رسول الله تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كل قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

---

(١) يلحدون إليه : يميلون إليه ويزعمون أنه يعلمه أعجمى ، أصل الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد إذا مال عن القصد . وقال ابن قتيبة : يشيرون إليه ويومئون .

ولكن كفار قريش أرادوا أنْ يصدوا عن رسول الله ، فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل : ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : إنه رسول كاذب يُحرِّف ويجدِّف، والهدف طبعاً أنْ يصد الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربكم ؟ يردون : إنه يردد أساطير الأولين .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة متفق عليها وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ .

فشبَّهوا الذكر المنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم على سبيل المثال النضر بن الحارث من قصص القدماء التى تتشابه مع قصص عنترة وأبى زيد الهلالى التى تُرْوَى فى قرانا .

ثم يقول الحق سبحانه متوعداً مَنْ يقول هذا القول :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه ، ويأتى يوم بدر فيجدون الضربة على أنف الوليد .

لقد قالها الحق سبحانه على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء ، ويأخذون الجزئية البسيطة ويُرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة .

وها هو : ذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله عز وجل : ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ

الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فيقول : أىُّ جمعٍ هذا [1] ؟ ونحن لا نقدر أنْ نحمى أنفسنا؟ ويقول الحق : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أنْ ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتى موقعة بدر فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أنْ يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أنْ يُقال : إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة .

فالمقدمات لا توحى بأىِّ نصر ، لكن ربنا هو الذى قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ، لأن الذى قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً .

وحين نزلت الآية ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى حق الوليد بن المغيرة تساءل بعض المسلمين : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة بدر ، فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله وليس محمداً .

فإذا تدبرتم المسائل حقَّ التدبّر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مُبلِّغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له .

وقد نزل هذا القول فى القرآن ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فى وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتى خبر ضَرْبه على أنفه الذى هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية .

ثم تأتى بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهى متحدَّى به ومُتعبَّد بتلاوته ، وهكذا تصدق كل قضية يأتى بها الله .

والحق سبحانه إنما قال ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون

---

(١) أخرج عبد الرزاق فى تفسيره (٣٠٦٩) أن عمر قال : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] جعلت أقول : أىُّ جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ورأيت النبى ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفى بعض التفاسير أن عمر رضى الله عنه قال : نزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ .. (٤٥) ﴾ [القمر] ولم أعرف تأويله حتى كان يوم بدر فرأيت النبى .

حينئذ أنْ يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمَّن يحميه .

ويأتي يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضُرب وخُطم ويتحقق قول الله ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] ، فمن يحدد إذن ضربة قتال بسيف في يد مقاتل قبل أنْ يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين وأماكن إصاباتهم ، وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، حين كان يشير إلى مواقع مصرع القوم في بدر قبل أنْ تقع المعركة ويقول : «هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان»[1] .

حتى أنهم أتوا برأس الوليد بن المغيرة فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه، فمَنْ ذا الذي يتحكم في مواقع الموت ؟ إن ذلك لا يتأتى إلا من إله هو الله ، وهو الذي أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر .

وهم لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه استخدم (السين) في التعبير عن المستقبل ولم يستخدم (سوف) ، فـ (سوف) فيها تسويف وإمهال وامتداد فترة ما يعد الله بتحقيقه في المستقبل .

يقول تعالى :﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر] ، ويقول : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ[2] أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ [مريم] ، وهذا تحققه في الآخرة .

---

(١) أخرج أبو داود الطيالسي في مسنده (٤٠) عن أنس قال : أخبرنا رسول الله ﷺ بمصارع القوم بالأمس : هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً ، فو الذي بعثه بالحق ما أخطئوا تلك الحدود وجعلوا يُصرعون عليها ثم ألقوا في القليب . وأخرجه أحمد في مسنده (١٨٢ ، ١٣٢٩٦ ، ١٣٧٠٣) والبزار في مسنده (٢٢٢) وابن حبان في صحيحه (٦٤٩٨) عن أنس بن مالك .

(٢) فخلف من بعدهم : أي من بعد النبيين خَلْف أي خلف السوء يعني اليهود . وقال الواحدي في تفسير الوسيط (١٨٧/٣) : قال السدي : هم اليهود والنصارى .

وفي آية أخرى يقول تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (١٤٣) ﴾ [الأعراف] وهذا الشيء لم يتحقق .

أما استخدام السين فيدل على اقتراف حدوث مابعده ، ولو أعطينا مثالاً على ذلك نقول : احضر لي أكرمك ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إنْ قلت لك : إن حضرت إليّ فسأكرمك .

فهذا يعني أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أنْ تأتى ، بل أن تحضر عندى بعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإنْ أردت أنْ أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : إن حضرت إليَّ فسوف أكرمك .

إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتي بعد فور حصول الشرط ، وجزاء يأتي بعد زمن يسير تؤديه (السين) ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه (سوف) .

فإذا رأيت السين تسبق قولاً فإن هذا يعني أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ (١٤٢) ﴾ [البقرة]

أما عندما تقرأ (سوف) فاعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد ، وهنا يقول تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] فاستخدام السين دلالة على أن العقاب واقع به سريعاً .

﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم] أى سنخطمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة باقية وسمة ثابتة فيه ما عاش ، وكأنَّ العلامة هذه ليكون أمره واضحاً للجميع ، فسنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السِّمة على الخرطوم .

والخرطوم الأنف تعبيراً عن الوجه ، والوجه أشرف ما فى الإنسان ، وعندما يرى الإنسانُ جباراً يشمخ بأنفه ويتكبَّر يقول : أريد أنْ أكسر أنف فلان .

والخرطوم يُستعار فى أنف الإنسان ، وبعض العلماء قال إنه فى هذه الدنيا وقد حلَّ به هذا فى يوم بدر ، ولكن البعض قال إن ذلك فى عذاب الآخرة فى جهنم ، وهو تعذيب بنار على أنفه ، ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه قصة الإخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض ، فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها .

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعلَّ الله قد أهلك بها مالاً كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال ، أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر فلا ثواب له ، وليس هناك مَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه من نعمة .

ولو حللتَ أى نعمة من النِّعم التى لك فيها عمل لوجدتَ أن نصيبك فيها راجعٌ إلى الله وموهوب منه سبحانه ، وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لاتأمن أنْ تأتيه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

و﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] أى اختبرناهم ، وهناك ابتلاء بالخير وابتلاء بالشر ، والبلاء كلمة لاتخيف أما الذى يخيف فهو نتيجة هذا البلاء ، فالبلاء هو امتحان أو اختبار ، إن أديته ونجحت فيه كان خيراً لك ، وإنْ لم تُؤدّه كان وبالاً عليك .

فالابتلاء مقياس لاختيار الخير والشر ، والابتلاء من الله نعمة فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكل ابتلاء هو اختبار

وامتحـان ، ولم يقـل أحد إن الامتحانات شر ، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذى لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح .

ولذلـك قـال تعالى فى سـورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَـانُ إِذَا مَا ابْتَـلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَـنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامـة ؟ يكـون المال دليل كرامة إنْ جاءك وكنت موفقاً فى أنْ تؤدى مطلوب المـال عندك للمحتـاج إليه ، وإنْ لم تُؤد حق الله فالمـال مذلَّة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل .

ولذلـك قـال الله للاثنـين (كلا) ، وذلك يعنى : لا إعطاء المـال دليل الكرامة ولا الفقـر دليـل الإهانة ، وأراد سـبحانه أنْ يدلل على ذلك فقـال : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّـونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْـكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) ﴾ [الفجر]

فمـا دمتـم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا مَنْ لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ إنه سـبحانه قد نزَّهك أنْ تكون مُهاناً فلا تتحمل مسئولية المال .

إذن : فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

وحتى إنْ كنتَ لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث مَنْ عنده أنْ يعطى ؟ أنت ضنينٌ حتـى بالكلمـة ، فمعنى تحض على طعام المسكين أى تحث غـيرك ، فإذا كنتَ تضنّ حتى بالنصح فكيف تقول : إن المال كرامة والفقر إهانة ؟

والابتـلاء غـير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيـه الغاية منه ، لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان وقد يفشل إنسان آخر ، فهنـاك الابتلاء بالنِّعم ، وهناك

الابتلاء بالنِّقم ، والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر.

والحق سبحانه يقول ﴿ بَلَوْنَاهُمْ (١٧) ﴾ [القلم] فـ (هم) هنا تعنى أهل مكة فبلوناهم بالجوع فامتحنّا واختبرنا مشركى قريش حين دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال : «اللهم اشددْ وطأتك على مُضر ، واجعلها عليهم سنين كسِنىّ يوسف»[1] .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم] وابتلاؤهم هنا كان عقوبة لهم ، وإلاّ فقد يسألك سائل : وماذا عن قول الحق سبحانه : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ[2] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (١٧) ﴾ [القلم]

والجنة المقصودة هنا هى بستان كان لهؤلاء ، وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجَن) والستر ، و (الجنة) هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شىء فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٠٤ ، ١٠٠٦ ، ٢٩٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٤ ، ٢٩٥) أن أبا هريرة قال : كان رسول الله يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه : سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . ثم يقول وهو قائم : اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام ... اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسنى يوسف .

(٢) الصر : شدة البرد . قال ابن الأنبارى : فى قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] ثلاثة أقوال : أحدها فيها برد . والثانى : فيها تصويت وحركة . والثالث : فيها نار .

فـ (جنَّ) تفيد السَّتر والتغطية ، ومنها الجنون أى ستر العقل ، و (جن الليل) أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك ، و (الجنة) كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

فالجنة هى المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتفّ أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى .

ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء .

وأصحاب الجنة هؤلاء ورثوها عن أبيهم ، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شىء حظاً للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقال بنوه : المال قليل والعيال كثير ، ولا يسعنا أنْ نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قصَّ الله فى كتابه .

قال تعالى : ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم] فحلفوا ليقطعن ثمر نخيلهم من غير أنْ يشعر المساكين ، فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم ، فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

والصَّرم : القطع . أى ليقطعنها قبل أنْ يخرج المساكين فى الصباح .

﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

أى لم يقولوا إن شاء الله ، فإياك أنْ تقول إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، لأنك إنْ دعوتَ فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك، وإنك لن تفعل شيئاً إلا بإرادة الله لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) ﴾ [الكهف] فالإنسان لا يملك الزمن ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أنْ يظل السبب قائماً ليفعل ما كان يريد أنْ يفعله ، فكل هذه العناصر الفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب لا يملكها إلا الله .

لذلك فليحم الإنسان نفسه من أنْ يكون كاذباً ومجازفاً ، وليكن فى ظل قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٢٤) ﴾ [الكهف] ، فكلمة (إلا أن يشاء الله) تعصم الإنسان من أنْ يكون كاذباً .

. وأنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا السبب ولا تملك القدرة، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أنْ تقول : إنْ شاء الله . فإنْ لم يحدث تقول : أنا قلت إنْ شاء الله وهو لم يشأ فتكون قد خرجت من التبعة ولم تكن كذاباً .

ولكن بعض العلماء ذهبوا إلى تأويل ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] أن معناه لا يتركون شيئاً من ثمر أشجار جنتهم ، فلن يتركوا شيئاً يوزعونه على الفقراء والمساكين كما كان يفعل أبوهم .

والحق سبحانه قرر حقاً للسائل والمحروم ، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] ، فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم .

فلا يصح أنْ ينسب الإنسان المال كله لنفسه ، لأن له شركاء فيه هما السائل

والمحروم ، فالمال إذن ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم .

ولم يحدد الحق سبحانه هنا هذا الحق بأنه حقٌّ معلوم ، بل جعله حقاً غير معلوم أو محدد ، والله سبحانه لم يفرض على المسلم إلا الزكاة ، ولكن مَنْ يرغب في مقام الإحسان فهو يبذل من ماله للسائل والمحروم .

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء ، وقد حدد الشارع هذا الحق حتى لا تزهد في العطاء خاصة في الزكاة .

وقد رأينا بعض الفقهاء قد اعتبروا الزكاة ما دامت حقاً للفقير عند الغنى ، فإنْ منع الغنى ما قدره نصاب سرقة تُقطع يد الغنى ، لأنه أخذ حق الفقير .

وحق الفقير محفوظ فى ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغنى لو لم يُؤدِّ الزكاة فى ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغنى ضامن لحقِّ الفقير .

فالغنى راعٍ لحقِّ الفقير وضرورى أنْ تجعله كنفسك ، فلا يكُنْ هيِّناً عليك فتمنعه حقه أو تعطيه أردأ ما عندك .

والله إنما أفاضَ عليك بالمال والغنى لترعى حقَّ الفقير ، فلا تبخس حقَّ الفقير .

وهؤلاء مكروا سيئاً فحاق بهم ما مكروه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] ، والذى يمكر يدارى نواياه فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، فمن أسس المكر التبييت ، وهو يحتاج إلى حنكة وخبرة، فالذى يحاول التبييت قد يجد قبالته مَنْ يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، والله يُنزل العقاب على أصحاب المكر السيء .

فكان عقابهم :

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أرسل الله سبحانه مَنْ طاف بها ، أى مشى فى كل جزء منها فأحرق أشجارها ، فالطائف هو الذى يطوف .

ولا يكون الطائف إلا ليلاً ولا يكون نهاراً ، وهو أمر من أمر الله . فأرسل الله عليها عذاباً من السماء فاحترقت كلها ، وصارت سوداء كالليل المظلم .

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

والصريم هو الرماد الأسود فأصبحت سوداء محترقة كالليل ، وقد ذهب ما فيها من الثمر ، فكأنه قد صُرم وقُطع وجُذّ .

وهم أقسموا أنهم سيصرمونها ويجذُّون ثمرها قبل أنْ يصبح الصباح وقبل مجيء الفقراء لأخْذ صدقاتهم .

واستخدام الحق سبحانه لنفس مادة (صرم) دليلٌ كأنَّ الحق يقول لهم : أنتم أردتم صرمها وقطع ثمرها لأنفسكم فقط ، وها نحن صرمناها لكم فلم تستفيدوا بها عقاباً لكم على مكركم السيء .

﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ
إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وعندما جاء الصباح تنادوا ونادى كلّ واحد على الآخر ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ، فهم لم يصلهم أن بستانهم قد احترق ، وأن زرعهم قد ضاع وذهب .

وهم ينسبون الثمر إلى أنفسهم ، فيقولون ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ (٢٢) ﴾ [القلم] ، والحرث محل الإنبات والزرع ومحل الاستنبات ، والحرث أيضاً هو الزرع المستنبت من الأرض .

والحق سبحانه يُذكّرهم : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويُزهر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيه آفة أو تحلّ به جائحة فتهلكه ، فلا يراودك الغرور بعملك ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها ، ولا تظنوا أنَّ لكم قدرة عليه .

لقد تنادوا مصبحين ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] أي إنْ كنتم جادّين في تنفيذ ما تواعدنا عليه من قطع الثمر وجذّه والاحتفاظ به لأنفسنا ، أي إنْ كنتم حاصدي زرعكم قبل أنْ يحضرها المساكين .

و ﴿ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] من معانيها عازمين ، أي إنْ كنتم عازمين على صرم حرثكم في هذا اليوم ، أي إنْ كنتم من أهل العزم والإقدام على آرائكم من قولك: سيف صارم .

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) ﴾

والانطلاق فيه اندفاعٌ وتصميم وإرادة على فعل شيء ما ، وإرادتهم هنا متجهة إلى منع الخير عن الناس ، وهذا يتوافق ومثال لما ذكره الحق سبحانه قبل آيات ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ (١٢) ﴾ [القلم]

ولأنهم عزموا على فعل شيء سيء ولا يريدون أنْ يطلع عليه أحدٌ خرجوا

بعد أنْ تنادوا ، خرجوا وهم يتخافتون ، وهذه جملة حالية تصف حالهم حين الانطلاق ، فهم يتحركون في الظلام كالأشباح يُحدِّثون بعضهم بأصوات خفيضة حتى لا يسمعهم أحد ولا ينتبه إليهم أحد .

والحق سبحانه يستخدم واو الجماعة هنا دليلاً على اجتماع رأيهم على هذا الفعل ، فليس فيهم أحد به نزعة خير أو دليل تراجع ، فتجد (أقسموا) (ولا يستثنون) (فتنادوا) (أن اغدوا) (فانطلقوا) (وهم يتخافتون) (وغدوا) .

فهناك اجتماع على نية القطع ، واجتماع على المسارعة فيه ، واجتماع على أمر خبيث فلم يعلنوه ولكن تخافتوا وأسرُّوا القول فيه ، فتخافتوا على ألاَّ يعطوا المساكين شيئاً .

وهم لا يمنعون المساكين حقهم من الحصاد والثمر ، بل إنهم سيمنعونهم حتى من مجرد الدخول فقالوا :

﴿ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

فسيمنعون المساكين والفقراء من الدخول أصلاً ، ولو بالقوة فضلاً عن الطرد والزجر وإغلاق الأبواب واتخاذ كل وسائل المنع .

وهم يؤكدون كلامهم باستخدام النون المشددة ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا (٢٤) ﴾ [القلم]

وقد كان المساكين يدخلون هذه الحديقة لأخذ نصيبهم منها ، هذا ما اعتادوا عليه من الأب ، أما الأبناء فكانوا مانعين للخير بخلاء قد أشربوا حبَّ الدنيا في قلوبهم ، ولا يجدون لأحد عندهم حقاً .

وهم يعلمون مدى حاجة هؤلاء الناس وهم أنفسهم يقولون ﴿ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) ﴾ [القلم] إذن فهم يعترفون أن هؤلاء الناس مساكين محتاجون فقراء معدمون .

﴿ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) ﴾

والغُدو الإبكار والإصباح. والحرد القصد. وهم كان قصدهم المنع، والمحاردة المنع. يُقال: حاردتْ السَّنة إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الناقة إذا لم يكنْ لها لبن.

فما اتفقوا عليه وقصدوه بَنوْهُ على قصد وتأسيس ومؤامرة بينهم قادرين عليه في ظنهم، وهو ما نقول عنه: سبْق الإصرار والترصد.

وهذا يعني أن الله قد غاب عن بالهم مدة التحضير لهذا التآمر، اتفقوا وافترقوا وناموا وأصبحوا في الصباح مصممين على إنفاذ ما اتفقوا عليه وخرجوا معاً عامدين إلى منع المساكين من دخول حديقتهم بكل الوسائل.

ولغياب الله عن بالهم لم يدركوا أنهم إذا كانوا قد مكروا فإن الله قد مكر لهم سبحانه، ويقول تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

فإذا كنتم قد مكرتم ودبرتم فإن لله تدبيراً آخر يعطيكم به درساً، ولا تظنوا أنكم قادرون على شيء.

والحق سبحانه يقول: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ[1] بِالْأَمْسِ (٢٤) ﴾ [يونس]

فخيبة بعض الخَلْق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أنْ يخططوا ويمكروا متناسين أو ناسين أن فوقهم قيوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾

---

(١) كأن لم تغن بالأمس: أي لم تنعم بالأمس. قال الطبري في تفسيره (١٥/٥٦): كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس.

فهؤلاء اتفقوا على قطف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إنْ شاء الله، فدمَّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم : ﴿ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم]

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

فهؤلاء لما وقفوا أمام جنتهم في الصباح وقد رأوها قد احترق ثمرها وحرثها وشجرها ، ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق إلى جنتهم ، فالضلال المقصود هنا هو التيه ، أي أنهم تاهوا عن جنتهم ، لذلك قال البعض منهم : أخطأنا الطريق ما هذه بجنتنا .

لقد تركوها بالأمس عامرة بالثمار ، واليوم يجدون حطاماً وشجراً محترقاً يعلوه السواد قد احترقت الثمار التي كانوا يريدون قطعها وصَرْمها في الصباح دون أنْ يعطوا الفقراء حقهم من الحصاد الذي كانوا يأخذونه أيام أبي هؤلاء الأبناء .

فقد رأوها محترقةً لا شيءَ فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد ، لذلك شكُّوا أنْ تكون هذه جنتهم التي رأوها بالأمس ناضرة مزهرة عامرة بالثمار .

لذلك ظنوا أنهم تاهوا في الطريق إليها ، وأن هذه جنة غير جنتهم ، ولكن بعضهم قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم] ، مؤكدين أنها جنتهم فعلاً ، وأنهم لم يضلوا الطريق إليها ، بل إنها الحقيقة ماثلة أمامهم ، أنها جنتهم وأنهم إنما حُرموا خيرها وحُرموا من ثمرها بسبب نيتهم السيئة في عدم إعطاء الفقراء حقَّهم ، فكان عقابهم حرمانهم من ثمار جنتهم أصلاً .

فلا يجب أنْ نغتر بحركتنا فى الحياة ، لذلك يقول تعالى فى سورة الواقعة: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

فهذه الحبة التى تبذرها فى حقلك ، هل تجلس بجوارها تُنميها وتشدّها من الأرض فتنمو معك يوماً بعد يوم ؟ إن كل عملك فيها أنْ تحرث الأرض وتبذر البذور .

وحتى بعد أنْ ينمو الزرع ويزهر أو يثمر لا تأمن أنْ تأتيه آفة أو تحل به جائحة فتهلكه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ [الواقعة]

والمحروم الذى يُصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته ، فيكون له حق على مَنْ لم يصبه ذلك من المسلمين ، وهنا لفتة عجيبة فهم قد أصبحوا محرومين أى مستحقين للزكاة ، وكأنهم بعد أنْ كانوا أصحابَ مال يتمثل فى جنتهم وكانوا أغنياء عن أنْ يمدوا أيديهم للناس ، بل هم الذين يعطون الناس .

لقد تحولوا إلى فقراء يستحقون عطف الآخرين عليهم ، لقد أنكروا على الفقراء حقهم فى زرعهم وزكاتهم وحصادهم ، فما بالهم اليوم ؟

لقد غفلوا عن حكمة الزكاة والصدقة وأنْ يعطوا الفقير مما رزقهم الله ، فالضعيف حين يجد نفسه فى مجتمع متكافل ويجد صاحب القوة قد عدّى من أثر قوته وحركته إليه ، أيحقد على ذى القوة ؟ لا ، لأن خيره يأتيه .

ونحن فى الريف نجد البهيمة التى تُدر لبناً ساعة تسير فى الحارة ، كان الكل يدعو الله لها ويقول : يحميك . لماذا ؟ لأن صاحبها يعطى كل مَنْ حوله من لبنها ومن جبنتها ومن سمنها .

لذلك يدعو لها الجميع ولا يربطها صاحبها ولا يعلفها ولا ينشغل عليها ،

والخير القادم منها يذهب إلى كل الأهل ، وحين نجد مجتمعاً بهذا الشكل ويجد العاجز من القوى معيناً له ، هنا يقول العاجز : إنني في عالم متكامل .

وإذا ما وُجد في إنسان قوة وفي آخر ضعف ، فالضعيف لا يحقد وإنما يقول: إنَّ خير غيري يصلني . وكذلك يطمئن الواهب أنه إنْ عجز في يوم ما سيجد مَنْ يكفله والقدرة أغيار ما دام الإنسان من الأغيار ، فقد يكون قوياً اليوم ضعيفاً غداً .

لذلك نقول للذين يصلون إلى المرتبة العالية في الغنى أو الجاه أو أي مجال. لهؤلاء نقول : احذروا حين تتم لكم النعمة ، لماذا ؟ لأن النعمة إنْ تمَّتْ لك عُلواً وغِنىً وعافية وأولاداً ، أنت من الأغيار ، وما دامت النعمة قد تمت وصارت إلى النهاية وأنت لا شكَّ من الأغيار ، فإن النعمة لا بد تتغير إلى الأقل .

فإذا ما صعد إنسان إلى القمة وهو متغير فلا بد له أنْ ينزل عن هذه القمة، ولذا يقول الشاعر :

إِذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُهُ   تَرَقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَم

وخيرات الحياة من مال وثروة إنما تأتي نتيجة الحركة في الحياة ، وحركة المتحرك في الحياة تقتضي قدرة ، فإذا كان الإنسانُ عاجزاً ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ، إن الله لابد أنْ يضمن له في حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل اللهُ القدرةَ عرضاً من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزاً غداً ، وما دامت القدرة عرضاً من أعراض الحياة، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر من الله بأنْ ينفق على غير القادر ، فلابد أنْ يُقدر في نفسه أن قدرته هي عَرَض من أعراض الحياة ، والقادر الآن عُرْضة لأنْ يصير غداً من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : عندما أصبح عاجزاً سوف أجد مَنْ يعطيني.

أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن ، فالمؤمن يعطى عند قدرته، وذلك حتى يُجنِّبه الله مشقة السؤال إنْ اصبح عاجزاً غير قادر ، فالأغيار إنْ جاءت سوف يجد مَنْ يعطيه .

وهنا أصحاب الجنة تحولوا بين ليلة وضحاها إلى محتاجين معوزين محرومين ، والمحروم محتاج للصدقة والزكاة والمساعدة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات]

ويقول الحق سبحانه :﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

والحق سبحانه غنيٌّ عن الأغنياء من عباده ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة] ، ففى ذلك تنبيه للقادر الذى حرم الفقير ، وكأنما يقول له: إنما حرمتَ نفسك أيها القادر من أجر الله .

إنك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحروم ، لأن الله غنيٌّ عنك ، وهو سبحانه يقول : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

إن الله غنى بقدرته المطلقة ، غنى وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

وقد قال رسول الله ﷺ لأنس : يا أنس ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة، يقولون : يا رب ظلمونا حقوقنا التى فرضتها عليهم . قال : وعزتى وجلالى لأقربنكم ولأبعدنهم .

فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم)[1].

وقد كان رجل من أهل اليمامة له مال ، فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له[2].

فالمحروم ضد المرزوق ، فهم ممنوعون من الانتفاع بثمرة كدِّهم وتعبهم لأنهم أرادوا قطع الثمر وأنْ لا يعطوا للفقراء حقهم .

فهؤلاء انقلب حالهم من الغنى إلى الفقر ، وأصبحوا محرومين مُستحقين للصدقة والزكاة بسبب نيتهم وإرادتهم السيئة .

وهنا بدأ الإخوة يتلاومون ويحاول كل منهم التملص من مسئولية ما حدث، فيقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ ﴾

الوسط يعنى أن هناك طرفين حتى يتحدد الوسط ،هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر ، ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين . ولا بد أنْ تعرف الطرفين أولاً ثم تحدد ، لأن الوسط لا يُعرف إلا بتحديد الطرفين .

فالوسط فى موقع بين طرفين متناقضين ، وما دام الشيء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول وسط فهذا يقتضى أنْ نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية ، وخير الأمور الوسط .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (٦٩٣) والمعجم الأوسط (٤٨١٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١٥٨٢٢) وعزاه للعسكرى فى المواعظ وابن مردويه عن أنس .

(٢) أخرجه الثعلبى فى الكشف والبيان (٩/ ١١٢) عن أبى قلابة قال : كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله فقال رجل من أصحاب النبى ﷺ : هذا المحروم فاقسموا له . وقاله القرطبى فى التفسير (١٧/ ٣٩) وقال : قيل : إنه الذى يطلب الدنيا وتدبر عنه . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك .

وتتحدد نهاية الطرفين من منطقة وسط الشى ، فالوسط هو الفاصل بين الطرفين ، فما على يمين الوسط يُعد طرفاً ، وما على يسار الوسط يُعد طرفاً آخر، وكل جزء بعد الوسط طرف ، وكذلك ما قبله .

وعادة ما يُعد الوسط هو نقطة المنتصف تماماً ، وما على يمينها يقسم إلى عشرة أجزاء ، وما على يسارها يقسم إلى عشرة أجزاء أخرى ، وكل قسم من تلك الأجزاء التى على اليمين والتى على اليسار يُعد طرفاً .

ومعنى أن الحق سبحانه يقول : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ (٢٨)﴾ [القلم] هذا معناه أن الإخوة بعد أنْ عاينوا ما حدث لجنتهم وبستانهم وثمارهم لم يصبحوا على رأى واحد .

فهم حين الاتفاق على قطع الثمار والحصاد فى الصباح الباكر قبل أنْ يأتى الفقراء حتى لا يعطوهم منها شيئاً ، كانوا حينها على رأى واحد ، لذلك قال تعالى :

﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥)﴾ [القلم]

وكانت لحظة الاختلاف فى الرأى بينهم هى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦)﴾ [القلم] فقال بعضهم (إنَّا لضالون) أى نحن ضللنا الطريق إلى جنتنا وليست هذه جنتنا .

وبعضهم أيقن أن هذه هى الجنة التى تخصُّهم ، وأيقن أيضاً أن الله قد حرمهم أنْ ينتفعوا بثمرة جنتهم ، فقال : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

فالرأى الأول فى أنهم لم يسلكوا الطريق الصحيح إلى جنتهم وأنها ليست جنتهم لم يكن صحيحاً ، والرأى الآخر أنهم محرومون ممنوعون ، فجاء

أوسطهم وكأنه لا يغلق باب رحمة الله ، ووَصْف الحق سبحانه لهذا القول بأنه (أوسطهم) هو دليل على أن الله لم يغلق باب الرحمة فى وجوههم .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] فرأيه أن المشكلة كانت أنهم لم يُسبِّحوا الله . أى : لم يستثنوا ويقولوا إنْ شاء الله .

وهذا فى الحقيقة ليس اختلافاً مع إخوته فى منع الفقراء من ثمرة جنتهم، إنما هو على سبيل تعليق الأمر على مشيئة الله ، كما يقول أحدنا للآخر : يا عم قول إن شاء الله .

وقد يكون سارقاً ، وقد تجده يخرج للسرقة ويقول : ربنا يسهل أو يقول : اتكالنا عليك يا رب ، ربنا يستر .

فقوله هذا ليس دليل خيرية مطلقة له ، بل هو دليل استهتار بعظمة الله وقدره وقد يعتبر دليلَ خير فى قلبه أنه لم ينس الله بالكلية ، فلا هو شديد العداوة للفقراء ، ولا هو يخدع نفسه ويقول : لقد ضللنا الطريق إلى جنتنا . فهذه ليست جنتنا .

ولم يقطع الأمل فى الله وأنهم كانوا الأجدر بهم أنْ يقولوا إنْ شاء الله .. وأنَّ الله لم يمنعهم الخير بالكلية وأن هناك فرصة أخرى لهم العام القادم ، لذلك فبعد مداولات كثيرة قالوا معاً : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

وقد يسأل أحدهم سؤالاً : هؤلاء أصابتهم جائحة لنيتهم السيئة لأنهم ظلموا أنفسهم ،فهل لا تصيب الجوائح والمصائب أصحاب النية الحسنة والذين لم يظلموا أنفسهم ؟

نقول : نعم تصيب الجوائح الجميع ، فالحق سبحانه يقول فى حق الذين ظلموا أنفسهم : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ

يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]

فالذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلاً لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك في الحياة ، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ويصبر على كارثته يأخذ الجزاء والثواب من الله .

ولعل الله قد أهلك بهذه الكارثة مالاً قد أدخلته غفلته في ماله من طريق غير مشروع ، هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء أو تكون تطهيراً للمال .

ومن الظلم للنفس أنْ يظن الإنسان بقاء ما هو فيه من نعمة ، فلا أحد يضمن لنفسه أو لغيره هذا ، لذلك فإن صاحب الجنتين في سورة الكهف قال : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥)﴾ [الكهف]

فالظلم بنفسه هنا ليس أنه دخل جنته ، لا ؛ لأنها جنته يدخلها كما يشاء ، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره ، وما حدَّث به نفسه حال دخوله ، فخطر بباله الاستعلاء بالغنى والغرور بالنعمة ، فقال : ما أظن أن تبيد هذه النعمة أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك ، لقد غرَّه واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم .

وكلمة (لولا) هنا تحضيضية ، أي ألم أقل لكم هلاَّ تسبِّحون ، وهذا معناه أنه حثَّهم على تسبيح الله وقول إنْ شاء الله إنْ أرادوا فعل شيء كهذا ، ولكنهم لم يستمعوا له ، فكان قوله غير مؤثر فيهم، فتبعهم هو فيما هم فاعلون .

ومجيء لولا هنا معناه أنهم لم يسبّحوا ولم يستثنوا وبالتالى فهم لم يصلوا إلى ما يريدون ولم يتحقق مبتغاهم .

وساعة تسمع كلمة (لولا) فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين ، شيء امتنع لامتناع شيء ، مثل قولك : لو كان عندك زيد لجئتك . وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجيء زيد ، فكلمة (لولا) حرف امتناع لامتناع .

و (لولا) التى معنا فى الآية ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] جاء بعدها فعل مثل قولك : لولا فعلت كذا .

هنا يكون فى القول حضٌ على الفعل ، مثل قوله الحق : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

ومثل قوله : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ..(١٣)﴾ [النور]

فـ (لولا) إنْ دخلت على جملة اسمية ، فالمقصود بها عدم شيء لوجود شيء ، كقولك لإنسان آخر : لولا زيد عندك لأتيتك ، وبذلك ينعدم ذهابه إلى فلان لوجود زيد عنده .وقد تكون لولا نقصد بها عدم شيء لامتناع وجود شيء . أما إنْ دخلتْ على جملة فعلية فاعلم أنها حثٌ وتحضيض .

فأوسطهم قال :﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨)﴾ [القلم] أى هلاَّ تستثنون فى قسمكم الذى أقسمتموه ويمينكم الذى حلفتموه ، فلولا قلتم سبحان الله فندموا على فعلهم .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾

لقد رأوا أن ما قاله أوسطهم هو الصواب الآن ، فجنتهم قد احترقت وفقدوا حصاد هذا العام ، والظن أن هذه ليست جنتهم وأنهم ضلُّوا الطريق لم يعُدْ يفيدهم فى شيء ، ولم يعُد الهروب من الحقيقة مُجدياً .

لذلك قالوا مع أخيهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩) ﴾ [القلم]، فنزهوا الله عن أن يكون قد ظلمهم فى شىء مما حدث ، لذلك اعترفوا أنهم الذين كانوا ظالمين ، ولذلك استحقوا ما حدث لهم .

فـ (سبحان الله) تنزيه لذاته سبحانه عن كل صفة نقص من الممكن أنْ تلحق به سبحانه ، فكل صفاته وكل أفعاله هى صفات الكمال وهى أفعال الكمال .

والله لا يظلم أحداً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (٤٠) ﴾ [النساء]، ويقول : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت]، فما يحدث للناس إنما هو بما كسبته أيديهم من الذنوب والآثام .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمران]

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه من نفسه أو منكم أنتم أيها العباد ، ولذلك يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلتُه بينكم محرماً ، فلا تظالموا »(١).

وأنت حينما تصنع سوءاً يضر بغيرك . فهذا اسمه (سوء) وهو ظلم لغيرك ، أما حين تصنع فعلاً تضرُّ به نفسك فهذا ظلم النفس .

فظلم النفس هو الفعل الذي يسىء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع بها نفسه لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الدنيا وفى الآخرة .

فهم الذين ظلموا أنفسهم بما اقترفت أيديهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧/٥٥) باب تحريم الظلم عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما روى عن الله أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته . الحديث بطوله .

وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

وهـم قد أقـروا بخطئهم فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) ﴾ [القلم]أي كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا فى أننا لم نُسبِّحه كما أمر ولم نُنزهه عن النقص، ولم نستحضر مشيئته تعالى فيما نحن مُقدمون عليه، ولأننا منعنا الفقراء حقهم.

وهو اعترافٌ باقترافهم الظلم، والعجيب أنهم يقولون ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا (٢٩) ﴾ [القلم] ولم يقولوا: سبحان الله، أو سبحان إلهنا. فهم لم يذكروه سبحانه بموجب ألوهيته ولكن بربوبيته طمعاً فى عطائه.

يقول أحد العابدين: أنا لا أواجه الله بعبوديتى ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربى ورب العالمين، فالذى له أبٌ يعينه لا يحمل هماً، فما بالك بالذى له رب يعينه وينصره؟

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠)
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) ﴾

فأقبل بعضهم على بعض يلوم بعضهم بعضاً على تفريطهم فيما فرّطوا فيه من الاستثناء وعزمهم على ما كانوا عليه من ترك إطعام المساكين من جنتهم.

فيقول كل واحد منهم للآخر: أنت السبب فيما حدث والذنب عليك، وهكذا كل واحد يحاول أنْ يلقى المسئولية على غيره.

وسبب تلاوم الجميع أنهم جميعاً متورطون بشكل أو بآخر، فمنهم مَنْ زيَّن الأمر، ومنهم مَنْ قبل ووافق، ومنهم مَنْ نصح وحذر واعتزل الأمر، ومنهم مَنْ سكت وهو راضٍ، لذلك أقبل الجميع، يلوم بعضهم بعضاً.

لقـد دار نقاش وحوار وتبـادل اتهامـات ، فواحد يقول للآخـر : أنت خوَّفتنا بـالفقر ، وثالث يقول : أنت الذى رغَّبتنى فى جمع المال ، ورابع يقول أنت الذى زيَّنت لى منع الصدقة عمن يستحقها من الفقراء والمساكين .

وكل إخـوة أو مجتمع من الناس تكون فيهم الآراء المختلفة المتخالفة ، آراء تجنح نحو اليمين وآراء تجنح نحو اليسار ، وآراء فى الوسط بين الأمرين .

حـدث هذا مع إخوة يوسـف عندمـا عزموا علـى التخلص من يوسـف عليه السـلام لمحبة أبيه له أكثر منهم ، فـكان اتفاقهم الذى تعددت فيه آراؤهم عند التنفيذ .

يقول الحق سبحـانه عنهم أنهم قـالوا : ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُـمْ وَجْهُ[1] أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَـالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسـف] قتْل ثم انـخفض شرهـم إلى الضـرب والطرح أرضـاً دون قتل ، وقد يموت عن غير قصـد للقتل ، ثم ينخفض الشر مرة أخرى فيقول :﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُـفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾ [يوسف]

وهكـذا نرى اختلاف الآراء عنـد التنفيذ رغم انعقاد العـزم من الجميع على الفعل ، فتجد أحدهم يرفض مبدأ القتل ويستبدله بـالإخفاء بإلقائه فى الجب .

ونلاحظ أن صـاحب رأى الإخفاء فى الجب لم يقف بـالعنف والمواجهة ضـد اقـتراح إخوته بقتل يوسـف أو طرحه فى الأرض ، بل أخذ يسـتدرجهم ليسـتلَّ منهـم ثورة الغضـب ، فلـم يقل لهم :لا تقتلوه ، ولكنه قـال ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُـفَ (١٠)﴾ [يوسـف] وفـى نطقه لاسـم أخيهم يوسـف تحنـينٌ لهم عليه أمـلاً فى أنْ يتراجعوا عن مخططهم .

---

(١) يخل لكم وجه أبيكم : يقبل بكليته عليكم ويخلص لكم عن شغله بيوسف . [التفسير الوسيط للواحدى ٦٠١/٢] وقال الزمخشرى فى الكشاف (٤٤٧/٢) : أى يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم . فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه .

ولكنهم فى النهاية اعترفوا بخطئهم وأقروا بما فعلوه فى حقِّ أنفسهم ، بل وصل بهم الأمر أنهم دعوا على أنفسهم بالويل ، ﴿ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾ [القلم]

وهذا مثلما يجلس المجرم يُعزِّى نفسه نادماً يقول أنا مخطىء أنا أستحق السجن ، أنا كذا كذا . هى حالة من تأنيب الضمير وجَلْد الذات .

وكلمة الويل تُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، وتعنى التحسُّر وقت رؤية هلاك جنتهم وبستانهم ، فهم فى موقف صعب فلا عودة لثمرهم الذى احترق وأصبح حطاماً ورماداً .

فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف لم يجدوا شيئاً إلا الحسرة فتوجهوا إلى أنفسهم ليقرعوها ويحكموا عليها بأنها تستحق ما نزل بهم .

فقولهم : ﴿ يَٰوَيْلَنَا (٣١) ﴾[القلم] هو نداء على العذاب ، كما تقول : يا بؤسى أو يا شقائى ، وهل أحد ينادى على العذاب أو البؤس أو الشقاء ؟ الإنسان لا ينادى إلا على ما يُفرح .

فهم يتحسَّرون ويندمون على ما كان منهم ، الآن يعلمون أنهم يستحقون ما نزل بهم ويلومون أنفسهم .

والويل هو الهلاك السريع ينادونه ، فهل يطلب الإنسان الهلاك ويدعو به لنفسه ؟ نقول : نعم حين يفعل الإنسان الفعل ويجد عواقبه السيئة ، وتواجهه الحقيقة المرَّة يميل إلى تعذيب نفسه ، ألاَ تسمع مثل هؤلاء يقولون : أنا أستحق .. أنا أستاهل الضرب . إنه لوم النفس وتأنيبها على ما كان منها فهى التى أوقعتْه فى هذه الورطة .

هم ينسبون الويل إلى أنفسهم فيقولون (يا ويلنا) مع أنه شيء خارج عن أنفسهم سيُعذَّبون به ، ولكن هذا دليل على أنهم سببُ ما وقع بهم ، وأنهم يستحقون هذا الويل ، وأنْ يكون مصاحباً وملازماً لهم .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) ﴾ [القلم] أي إنَّا كنا متجاوزين حدود الله تعالى ، فمنعنا حق الفقراء وتركنا تقديم مشيئة الله وتركنا تسبيحه وهو صاحب النعمة .

آباؤنا من قبل لم يطغوا بنعمة الله بل شكروها وأدوا ما عليهم فيها للفقراء، فأدام الله عليهم نعمته وزادها لهم ، أما نحن فقد كفرنا نعمة الله ولم نُقر بها ولم نُقر بحق الفقراء فيها ، فكان جزاؤنا أنْ أكلتْ النار ما كنا نملك .

وقد أشار الحق سبحانه إلى طغيان الإنسان بنعمة الله ، فقال الحق سبحانه :
﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر ، فيعتقد أنه هو الذى أخضع الأرض ، ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد .

الإنسان يظن أنه أخضع كلّ شيء بذاته ، بينما كل هذا مُسخَّر من الله سبحانه لخدمة الإنسان ، وهو الذى خلق ووضع القوانين .

وأنت فى حياتك كلها ليس لك ذاتية ، فكلّ شىء حولك متغير بدون إرادتك، وأنت طفل محتاج إلى أبيك فى بدء حياتك . فإذا كبرتَ وأصبح لك قوة واستجابت الأحداث لك فإنك لا تستطيع أنْ تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .

فإذا وصلتَ إلى مرحلة الشيخوخة فستحتاج إلى مَنْ يأخذ بيدك ويعينك ، ربما على أدق حاجاتك وهى الطعام والشراب ، فأنت تبدأ بالطفولة محتاجاً إلى غيرك ، وتنتهى بالشيخوخة محتاجاً إلى غيرك ، وحتى عندما تكون فى شبابك قد يصيبك مرض يقعدك عن الحركة ، فإذا كانت لك ذاتٌ حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقُلْ لن أمرض ، إنك لا تستطيع .

والله سبحانه أوجد هذه المتغيرات حتى ينتهى الغرور من الإنسان نفسه ويعرف أنه قوى قادر بما أخضع الله له من قوانين الكون ، لنعلم جميعاً أننا

محتاجون إلى القادر ، وهو الله سبحانه .

فالله غنى بذاته عن كل خَلْقِه ، يغير ولا يتغير ، يميت وهو دائم الوجود، يجعل من بعد قوة ضعفاً وهو القوى دائماً ، ما عند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً ، هو الله فى السماوات والأرض .

إذن فليست لك ذاتية حتى تدَّعى أنك أخضعتَ الكون بقدراتك ، لأنه لا قدرة لك أنْ تبقى على حال واحد ، وتجعله لا يتبدل ولا يتغير .

والإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مُكتفيةً بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق سبحانه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبَّر على مَنْ حوله ، بل وعلى ربه إنْ رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله .

فالإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر ، ولكن مَنْ يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كلِّ إمكانات أو ثراء يمنحه له الله، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد .

وربما اغترَّ الإنسان بالأسباب وهى تستجيب له ، فهو يحرث ويبذر ويروى وإذا بالأرض تعطيه أكلها ،وهو يصنع الشيء فيستجيب له ، كل ذلك قد يُغريه بأنَّ الأشياء استجابت لذاتيته فيذكِّره الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) ﴾ [العلق]

فالواجب أنْ نشكر نعمة الله ونؤديها فى مظانِّ الخير لها ، فإنْ كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإنْ أدَّاها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار.

الحق سبحانه يبين دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى مَنْ يحرث ويبذر ويروى ويرعى ثم يقترب الزرع من النضج ، ثم تأتى موجة حارة تميته أو ينزل سيل يجرفه .

والإنسان لا يذل إلا حين يعاني من آفة ما ، ولا يأتى طغيانه إلا عند استكمال النعمة فى الخارج والنعمة فى الداخل ، وإنْ بدأت النعمة فى الانقباض عن الإنسان فكبرياؤه يتطاير .

ومَنْ كان يستعرض قوته على الناس قد يرجو القيام من الرقود ليخطو بضع خطوات فلا يستطيع ، والإنسان لا يستغنى إلا بما هو ذاتى فيه ، لا بما هو موهوب له ، لذلك فعليه ألاَّ يغتر .

فالواهب الأعلى قد يقبض هبته ، فقد يأخذ منك العافية ، وكثيراً ما رأينا أصحاء قد مرضوا ، ورأينا أغنياء قد افتقروا ، وأصحاب جاه قد خرجوا من جاههم .

إذن فلا داعى للغرور ، لأن الله قد وهبك كل شىء ، وليس لك شىء ذاتى فيك أبداً ، لذلك يجب أنْ ينعدم الغرور ، فما دام كل ما فيك موهوباً من الواهب الأعلى سبحانه ، فالواهب قد يسلب ما وهب ، وما إنْ تُسلبُ من الإنسان نعمة فهو ينتبه ، فلا داعى إذن لأنْ يغتر أحدٌ حتى لا يسلم نفسه رخيصة للضياع .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

الرغبة فى الشىء تعنى حبه وعشقه ، والرغبة فى الطريق الموصِّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التى توصِّلك إلى ما ترغب فيه .

وهذا المعنى واضح فى قصة أصحاب الجنة التى نحن بصدد خواطرنا عنها، حيث يقول تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩)

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠)﴾ [القلم]

فقد اتفقوا على قطف ثمار بستانهم فى الصباح ، ولم يقولوا إنْ شاء الله، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفى الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

﴿ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤)﴾ [القلم] ، وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حرموا المسكين ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)﴾ [القلم]

ثم تنبَّهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ وعادوا إلى صوابهم ، فقالوا : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم]

أى : راغبون فى الطريق الموصِّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب فى الله . قل أنا راغب إلى الله . فالمسألة ليست حباً فقط بل حباً بثمن وسعى وعمل يوصلك إلى ما تحب .

إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين فى ربكم ارغبوا إليه أولاً .

و (عسى) معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أنْ يجيء فلان . أى أرجو أنْ يجيء فلان ، أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أنْ يأتيك فلان بخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أنْ آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث ، لكن أيضمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدث إليه ؟

وإذا قال قائل : عسى الله أنْ يأتيك بالفرج ، وهذه هى الأوغل فى الرجاء ، لكن هل مَنْ يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟

قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله ، لا لإرادة مَنْ يرجو أو المرجو له .

وأصحاب الجنة هنا فى المرحلة الثانية من مراحل الرجاء ، فهم يرجون أنْ يبدلهم الله جنة أخرى خيراً مما كانت لهم واحترقت بسبب نيتهم السيئة ، فيقولون : ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد يجيب الله رجاءهم وقد لا يستجيب لرجائهم ، فـ (عسى) تُستخدم حين يأتى بعدها أمر محجوب نحب أن يقع .

﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢)﴾ [القلم]

وقد أبدلهم الله جنة خيراً من جنتهم لعلمه سبحانه بصدق توبتهم وصدق إقرارهم بالخطأ . حتى أن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : بلغنى أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق فأبدلهم بها جنة يُقال لها : الحيوان ، فيها عنب يحمل البغل منه عنقوداً واحداً[1] .

وقد فرَّق بعض العلماء بين التبديل والإبدال ، فهل الحق سبحانه غيَّر حال جنتهم وصفتها من الحطام والحريق إلى النضارة والإزهار مرة أخرى ؟ وعين الجنة هى نفسها .

أم أنه سبحانه أبدلهم بها جنة أخرى تماماً فى مكان آخر غير هذه العين ؟ على اختلاف بين العلماء .

ويذكر العلماء أنَّ هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، وقد كانت اليمن مملوءة بالجنات والبساتين ، قال تعالى عن قوم سبأ وهم من اليمن : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

---

(١) أورده البغوى فى تفسيره (٥/ ١٣٩) (٨/ ١٩٧) والزمخشرى فى الكشاف (٤/ ٥٩٢) والنسفى فى تفسيره (٣/ ٥٢٣) ، وأبو الطيب محمد صديق خان فى (فتح البيان فى مقاصد القرآن) (١٤/ ٢٦٩).

جنان عن أيمانهم وجنان عن شمائلهم ، ورغم هذا لم يشكروا الله على ما وهبهم الله من بلد طيب ورب غفور لهم ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ[2] وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره سبحانه ، كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم .

وقد كان مسكن مملكة سبأ آية دالةً على قدرة الله ، حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ، ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله ، ولكنهم أعرضوا عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه فكانت عاقبة إعراضهم أنْ أرسل الله عليهم سيل العرم ، فسلَّط الله عليهم حيواناً من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الجرذان فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

أما أصحاب الجنة فكانوا أهل خير لخيرية أبيهم ، لذلك اعترفوا بذنبهم وتابوا إلى الله ، وقد كانوا راغبين فى قبول توبتهم ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

ولابدَّ أنْ نعى هنا تكرارهم وتأكيدهم على ربوبية الله لهم ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا .. (٢٩) ﴾ [القلم] ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا (٣٢) ﴾ [القلم] ، ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم]

فتكررت كلمة (ربنا) ثلاث مرات ، لذلك فهم راغبون طامعون فى فضل الله بموجب ربوبيته سبحانه لهم .

---

(١) العرم : السد والمسناة التى تحبس الماء واحدتها عرمة وأصلها من العرامة وهى الشدة والقوة [الثعلبى فى الكشف والبيان ٨/٨٣] وقيل : العرم هو المطر الشديد من العرامة وهى التمرد والعصيان . وقال ابن الأعرابى : العرم السيل الذى لا يُطاق . [التفسير الوسيط للواحدى ٣/٤٩١] .

(٢) الخمط . شجر الأراك وقيل كل شجر ذى شوك ، والأثل : شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عوداً .

ويُقال رغب في كذا أي أراده . ويُقال : رغب عن كذا أي ترك هذا الأمر . ويُقال : رغب إلى كذا أي سار في الطريق نحوه .

وهنا قال الحق ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) ﴾ [القلم] ، وما دمنا إلى الله راغبين، فكان يجب ألاَّ نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة . فالدنيا ليست كل شيء عندك ، ما دمتَ راغباً إلى الله الذى سيعطيك نعيماً لا حدود له فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

(كذلك) إشارة إلى عذاب الدنيا الذى عاينوه فى احتراق جنتهم وفقدانهم لثمرهم ، فكما فعلنا بجنة أصحاب الجنة فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا فى عاجل الدنيا .

فبمثل هذا العذاب الدنيوى سنعذب هذا الذى قال أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) ﴾ [القلم]

فكأنَّ الحق سبحانه أورد قصة أصحاب الجنة ليرد بها على مَنْ كفر بالقرآن وبأنه وحى من عند الله ، فالله أعطاه المال والبنين ومع هذا كفر بالله ، وأصحاب الجنة أعطاهم الله الثمر النضر والجنة الوارفة ولكنهم بسبب معصيتهم وإرادتهم منع حق الله زالتْ جنتهم .

فكذلك سيكون العذاب ، فمثل هذا العذاب الذى ينزل بأصحاب الجنة ينزل العذاب بقريش ، وقد أصاب قريشاً جدب أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود .

والحق سبحانه صدَّر قصة أصحاب الجنة بقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ .. (١٧) ﴾ [القلم]

فإنَّا لم نُعطهم وننعم عليهم بالمال والبنين إلا لنختبرهم ونبتليهم ونمتحنهم، ولكنه استعمل هذا في مخاصمة الحق سبحانه ومخاصمة دعوة الله والصَّد عن دين الله .

لذلك كان عذابهم مشابهاً لعذاب أصحاب الجنة ، وليعلم الجميع أن عذاب الآخرة أكبر ، فقال تعالى ، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ (٣٢) ﴾ [القلم]

ولا تعتقدوا أن تعذيبي إياكم في الدنيا سيعفيكم من عذاب الآخرة ، فالعذاب في الدنيا قد يصيب مَنْ آمن بي ومَنْ كفر بي ، أما مَنْ كفر فإنني أضيف إلى عذابه في الدنيا عذاباً آخر أكبر في الآخرة .

وهناك ألوان متعددة من عذاب الآخرة ، فهناك العذاب العظيم والأليم والمهين والمقيم ، والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما بمسبب ، وعذاب الدنيا كله بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا أو بالكرباج أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة وضعفاً .

أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، والمعذِّب في الآخرة واحد وقوته لا نهايةَ لها، وإنْ قِسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب في الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عظيم ، وهو أكبر من كل عذاب .

والحق سبحانه يسمي عذاب الآخرة بأنه عذاب الخلد ، فيقول : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فـ ﴿ عَذَابَ الْخُلْدِ (٥٢) ﴾ [يونس] هو عذاب لا ينتهي ، أما عذاب الدنيا فموقوت فيه خزيٌ وهوان ، لكن محدوديته في الحياة تجعله عذاباً قليلاً بالقياس إلى عذاب الآخرة المؤبد .

فعذاب الآخرة هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا ، وعذاب الدنيا مهما بلغ فلن يصل إلى مرتبة عذاب الآخرة .

وقد أسماه الحق سبحانه بالمشهد العظيم ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم] ، فهو يوم مشهود يشهده الجميع ، لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كل الخلق .

ومَنْ أفلت من عذاب الدنيا فلن يفلت من عذاب الآخرة .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] ، فالله ينفى عنهم العلم ويُشكك فى علمهم ، فالعلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلم شيئاً ، فالعلم لم يثبت لهم لأنهم لم ينتفعوا به .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم] ، فنفى عنهم العلم الحقيقى ، وأثبت لهم العلم الدنيوى الظاهرى ، فقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٧) ﴾ [الروم]

فقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [القلم] يحتمل أنْ تكون الجملة هنا امتناعية يعنى امتنع علمهم بها ، أو تكون تمنياً يعنى : ياليتهم يعلمون هذه الحقيقة ، حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة .

فهم لو علموها لأقبلوا على منهج ربهم لينالوا كل هذا العطاء الممتد ، ولسلكوا طريق الإيمان بدل طريق الكفر فكأنَّ المعنى أنهم لم يعرفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) ﴾

المتقون جمع مُتقٍ ، والاتقاء من الوقاية والوقاية هى الاحتراس والبُعد عن

الشر ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ (٦) ﴾ [التحريم]

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية ، احترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فلا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فلتجعل بينك وبين النار وقاية بأنْ تترك المعاصى وتفعل الخير.

والتقوى من عجائب التأويل القرآنى ، فالقرآن يقول : (اتقوا الله) ويقول: (اتقوا النار) ، والمعنى عند تحقيق الأمر واحد ، لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبين النار وقاية وحاجزاً يمنعك منها ، كذلك اتق الله ، لا أن تجعل بينك وبين ربك حاجزاً لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله.

إنما اجعل بينك وبين صفات الجلال ومتعلقاتها من الله وقاية ، اتقِّ صفات المنتقم الجبار القهار . والتقوى أنْ تبعد شيئاً ضاراً عنك ، فعندما تُبعد عنك الكفر الذى يُوردك النار ، أو تُبعد عنك الشح والبخل ، أو تُبعد عنك مخالفةَ أوامر الله ، فهذا هو عينُ التقوى .

والمتقون هم الذين يُحبُّون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنسانُ اتقى الكفر فهو محسن ومؤمن ، فالتقوى وقاية واحتراس وبُعْد عن الشر . فساعة تسمع كلمة (المتقون) أو اتقوا ، فذلك يعنى أنهم جعلوا وقايةً بينهم وبين شىء ، ولا يُطلب منك أنْ تجعل وقاية بينك وبين شىء إنْ كنت لا تتحمل هذا الشىء .

فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قهر الله ولا بطش الله ، فاجعلوا بينكم وبين صفات جلاله وقاية، ومن آثار صفات جلاله تعالى النار .

والمتقون هم الذين يخافون الله وتثمر فيهم الموعظة والعبرة والحق ، وأساس التقوى والخوف من الله هو يوم الدين ، والمتقى يهذِّب ويشذِّب سلوكه فيبتعد عن المعاصى ويبتعد عن شره مادية نفسه .

والتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله،

وساعةَ ترى منهج الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات ، أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا (١٢٤) ﴾ [طه]

وكلام الحق سبحانه هنا عن المتقين وما أعدَّه لهم يأتى بعد كلامه سبحانه عن أصحاب الجنة وما حدث لجنَّتهم من احتراقها بسبب عزمهم على حرمان أصحاب الحقوق من حقهم ، فقال تعالى :﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ[2] وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم]

وذلك بسبب عدم تقواهم وخوفهم من الله المطلع عليهم ، وهذا ضعف فى الإيمان ، لذلك تجدهم خافوا من رؤية أصحاب الحقوق لهم أو شعورهم بما ينتوون فعله .

قال تعالى عنهم : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) ﴾ [القلم] ثم قال : ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣)﴾ [القلم] أى يتشاورون فيما بينهم بكلام خفى لا يسمعه أحد ، فهم يتسارُّون ويتحدثون سراً ، أنْ لايدخلنها اليوم عليهم مسكين .

إنهم يخشون الناس ويخشون اطلاع الناس عليهم ولا يخشون الله .

وقد أكد الحق سبحانه على ثواب المتقين باستخدام (إنَّ) وهى لتوكيد الأمر، ثم يقول سبحانه ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فهذا الأجر وهذا الثواب هو عند ربهم عند مالك أمرهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] لها ملحظ ، فعندما يكون لك الأجر عند المساوى لك قد يأكلك ، أما أجرك عند رب تولّى هو تربيتك فلن يضيع أبداً .

والمؤمن هو مَنْ ينظر بثقة إلى كلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] أى الرب

(١) يصرمنها : يقطعنها . صرمه قطعه أى يقطعون ثمارها . والصرم : القطع مادياً كقطع الثمار . والصريم : الأرض التى قُطعت أشجارها ولا نبات فيها . (القاموس القويم ١/ ٣٧٥)

(٢) الطائف هنا العذاب المحيط ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ (١٩) ﴾ [القلم] أى أحاط بها دمار وهلاك سلطه الله عليها .

المتولِّى التربية والذى يتعهد المربَّى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .
والعندية هنا هى عند الرب الأعلى .

وقد ذكر الحق سبحانه لفظة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى آيات كثيرة منها:
﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ[1] عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢)﴾ [يونس]

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٦٢)﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)﴾ [البقرة]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (٢٧٤)﴾
[البقرة]

فالذين آمنوا والذين ينفقون أموالهم لهم عند ربهم أجرهم فهؤلاء يتقون الله يؤمنون بالله وينفقون من مال الله الذى وهبهم إياه ، وهذا لعظيم إيمانهم باطلاع الله عليهم .

فالذين منعوا حقَّ المساكين والفقراء وتآمروا على أنْ يقطعوا ثمر الحديقة فى الخفاء دون حضور أصحاب الحقوق إيمانهم به ضعف لأنهم ظنوا أنّ الله غيرُ مطلع عليهم .

وكلمة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ (٣٤)﴾ [القلم] فى القرآن ليست خاصة بمن آمن بالله لأنَّ الله ربٌّ لجميع خَلْقه مؤمنهم وكافرهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] فالله ربٌّ لمن أجرم أيضاً وليس لمن آمن فقط ، إذ كيف يخلقهم ويتركهم دون رعاية ورزق ، وهم فى النهاية سيقفون أمامه سبحانه فهو ربهم شاءوا أم أبوا .

والعندية هنا هى عند الربِّ الأعلى ، فماذا أعدّ المربِّى الأعلى للمتقين ؟ لقد

---

(١) قدم صدق : منزلة عالية ومثوبة عظيمة على مآثر ومكارم وأفعال خيِّرة قدَّموها أولهم سابقة خير وسعى مشكور . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٠٧] .

أعدَّ لهم ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم]، وجنات النعيم جناتٌ دائمة فلا أنت تموت ولا هى تذهب، ولا هى كجنتكم التى احترقت والتى طاف بها طائفٌ من النار فأصبحتْ حطيماً كالصريم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩)﴾ [يونس]

ويقول الحق سبحانه: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)﴾ [الحج]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح ﴿ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾ [القلم] فهى جنات لا جنة واحدة، ثم هى جنات النعيم أى المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك.

فالجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن، وجنات النعيم، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى، وهناك عليُّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى.

هذه الجنات فضلٌ من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦)﴾ [الذاريات]

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ(١) وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾ [آل عمران]

وجنات الآخرة هى جنات النعيم، فالمؤمن يجد فى جنة الآخرة كلَّ ما تشتهيه الأنفسُ وكلّ ما يخطر ببال مَنْ يرزقه الله الجنة سوف يجده، بل وما لا يخطر بباله!! والحق سبحانه قد أعدَّ هذه الجنات لـ ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾ [آل عمران]

وهذه كلها صفات الذين اتقوا الله، وأعدَّ الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار والأزواج المطهرة ورضوان من الله أكبر. والله جعل الإنفاق وصْفاً من

---

(١) أزواج مطهرة: عفيفة مؤمنة صالحة. طهرهن الله من كل بول وغائط وقذر ومن كل مأثم.

أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعدَّ اللهُ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيفَ الذى خلقه الله لحكمة فى الوجود .

والإنفاق ليس أخْذاً من العبد إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك إلا بحركتك فى الحياة .

هذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلاً يخطط للحركة ، وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضاً تتم زراعتها أو آلة يتم الصُّنْع بها ، ولا شىءَ للإنسان من هذا فى الكون .

إن المخ الذى يدبر هو عطاءٌ من الله ، والطاقة التى تنفذ هى عطاء من الله، ونحن نرى فى الحياة إنساناً قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنساناً آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبد المادة التى يتفاعل معها .

إذن فلا شىءَ من هذه الأشياء ذاتىٌّ للإنسان ، إنها كلها عطاء من الله ، فليعمل المؤمن مُضارباً عند الله ، وليُعْطِ المؤمن للعاجز حقَّ الله ، إنَّ الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحقَّ لك إذا ألمَّت بك حاجةٌ من فقر أو عجز بسبب الأغيار .

هكذا يكون الإنفاق الذى منعه أصحاب الجنة عن الفقراء هو صفة من صفات الذين اتقوا ربهم ، ففى النفقة حمايةُ العاجز الذى لا يقدر .

والجنة ستكون نعيماً ليس على قدر تصوُّرك ، ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم .

وقد يقول عمدة إحدى القرى : أريد أنْ أبنى مَضْيَفة وحجرة للتليفون ومصطبة نفرشها ، هذا هو النعيم فى تصوُّر العمدة ، لكن كيف يكون النعيم عند صانع كلِّ التصورات وهو الحق سبحانه ، لذلك تكون جناتُ النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

فهم خالدون فى نعيم الجنة ، والحق سبحانه يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة .

فقال سبحانه عن جنة الآخرة : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا(٥٧)﴾ [النساء] فلا هى تزول عنهم ، ولا هم يُزحزحون عنها .

والجنة على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحقٍّ ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أنْ يتصوّح نباتُها وشجرها وييبس ويتناثر أو يحترق كما حدث لأصحاب الجنة ، أو يصيبها الجدب ، أما جنة الآخرة فهى ذات الأكل الدائم .

فالدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوُّره، وهو نعيم مهدد بشيئين : أن يزول النعيم عن الإنسان وكثيراً ما رأينا منعَّمين زال عنهم النعيم ، أو أنْ يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ونرى ذلك كثيراً .

أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ولا يقطعه شيء .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان]

فهؤلاء كانوا فى نعمة وفى جنات وعيون وزروع وقد كانوا يتنعمون فيها ولكنها نعمة موقوتة ولذلك تركوها وذهبوا وورثها قومٌ آخرون ، فهذا ليس نعيماً على الحقيقة ، إنما النعيم على الحقيقة هو نعيم الآخرة النعيم الذى لا يزول .

وكلمة (جنات) تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ومما نتفكَّه به ، وتسمى جنة وتسمى جنات ، لأن المادة كلّها تدل على الستر والتغطية .

فالجنة هي المكان الممتلىء بالزروع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر مَنْ يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى .

ففي الجنة كلُّ مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شيء ، كما تسمي البيت العظيم المكتمل الذي يضم ويشتمل على كل المرافق «قصراً» لأنه قصرك عن أيِّ مكان سواه لأن فيه الأشياءَ التي تحتاج إليها كلها فلا تحتاج إلى شيء بعده .

وقد يسأل سائل : لماذا أتى الحقُّ سبحانه بلفظ الجنة هنا جمعاً فقال : (جنات) مع أنه سبحانه ذكر في آيات أخرى الجنة مفردة ، وفي آيات ذكرها مثنى (جنتان) .

وليس معنى أن الحق سبحانه قال (جنات) أن كلَّ مؤمن يدخل كل الجنات، ولكن المعنى والمقصود أنْ يدخل كلّ منهم جنته على حسب الأعمال التي اكتسبها ، والمنزلة التي وصل إليها .

ومن المهم أنْ نعلم أنَّ صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسداً من صاحب الجنة متوسطة المنزلة ، وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد مَنْ هو أعلى منه ، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره .

وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر ، مثلما يحدث أحياناً في الدنيا حين يتفوّق إنسانٌ في دراسته فقد نجد مَنْ هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفسي، وكذلك لا يزهو متفوق بمكانته على الأدنى منه . وإذا كان ذلك هو ما يحدث في الدنيا فما بالنا بالآخرة ؟

حيث يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر] أي أنَّ كلاً من أهل الجنة يفرح بمنزلته ويفرح بمنزلة الأعلى منه لأنه سينال من فيوضات الخير التي عند الأعلى منزلة عندما يأتي لزيارته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] فكلُّ مَنْ علَتْ منزلته في الجنة له جنة خاصة به ، وجنة أخرى ليتكرم بها على مَنْ هم دونه وكأنها مَضْيَفة لمن يحبهم .

إذن ففى الآخرة يفرح أهلُ الجنة بمَنْ هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيراً .

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد والحسد ولا الغلَّ ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم : « يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة » . ودخل رجل وعرفه الصحابة فأرادوا أنْ يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابى حتى يستحقَّ بشارة رسول الله ﷺ بالجنة .

قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك . فقال الرجل : إنى لأصلِّى كما تُصلُّون ، وأصوم كما تصومون ، وأزكِّى كما تُزكون ، ولكنى أبيت وليس فى قلبى غِلٌّ لأحد .

فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : لقد قال الرجل كذا وكذا . فقال ﷺ : «وهل فُضلتْ الجنة على الدنيا إلا بهذا »[1] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) ﴾ [الحجر]

ولنعلم أنَّ الحق سبحانه لم يخلق للمتقين جناتٍ تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكلِّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة جنة ، ولكلٍّ واحد من خَلْقه إلى أنْ تقوم الساعة ناراً .

---

(١) عن أنس بن مالك قال : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة . فطلع رجل من أهل الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علّق نعليه فى يده الشمال فسلّم . قال أنس : كان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم ير يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار انقلب على فراشه وذكر الله وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أحتقر عمله .. فكان رده : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على ما أعطاه الله إياه إليه . (الزهد لابن المبارك ٦٩٤) .

فإذا دخل أهلُ الجنة الجنةَ بقيتْ الجناتُ التى خلقت ولم يدخلها أحد ، لأن أصحابها من أهل النار ، فيورثها الحق سبحانه للمؤمنين من أصحاب الجنة، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) ﴾ [الزخرف]

أما نعيم هذه الجنات فالاستجابة لمنهج الله تعطيك الحياة العالية فى الآخرة وتمتعك بنعيم الله ، ليس بقدرات البشر كما يحدث فى الدنيا ، ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى .

وإذا كانت نِعَم الدنيا لا تُعدُّ ولا تُحصَى فكيف بنعم الآخرة ؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى عنها : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾ [ق] أى أنه ليس كلّ ما تطلب فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك ، ولكن مهما طلبتَ من النعم ، ومهما تمنيتَ فالله جلَّ جلالُه عنده مزيد .

ولذلك فإنه يعطيك كلَّ ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعيم ، فالنعيم فى الدنيا على قدر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه .

والذى يُقرِّبك ويجعلك مُسْتحقاً لنعيم الله فى الآخرة هو فعل الخير والالتزام بمنهج الله ، وقد يكون فعلُ الخير مُتعباً للجسد والنفس ولكنه موقوت ، ولكن النهاية متاعٌ أبدىّ فى جنة الخلد .

فالخير هو ما ليس بعده بعد ، فأنت تولد ثم تكبر ثم تتخرج فى الجامعة ثم تصبح فى أعلى المناصب ثم تموت ثم تُبعث ثم تدخل الجنة وبعدها لا شىء إلا الخلود فى النعيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا استفهاماً استنكارياً فيقول تعالى : وإجابته

معروفة أنهم لا يستوون ، فليس المسلمون كالمجرمين .

كيف يستوى مَنْ أسلم نفسه لله واتبع منهجه وآمن بربه وبشرعه ، مع مَنْ خرج على منهج الله ورفض اتباعه وعصى وأَبَى ؟ لا يستوون طبعاً !.

والحق سبحانه يعطينا أمثلة كثيرة على عدم التساوى ، فالتساوى أحياناً يكون ظلماً ، والله سبحانه مُنزَّه عن الظلم .

فيقول تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

فالحق سبحانه يعطينا طرفين فى المثل المضروب ويترك لنا السياق القرآنى الحكم بينهما ، وكأنَّ الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب إلا إذا كان الجواب سيأتى على وفق ما يريد ، ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أنْ نقول : لا يستوون . وكأنَّ الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد يسأل سائل هنا : الحق سبحانه يضرب المثل هنا بطرفين أى بمثنى، فلماذا قال ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ (٧٥) ﴾ [النحل] بصيغة الجمع ولم يقل : هل يستويان؟

نقول : المثل وإنْ ضُرب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين مفرد شائع فى عديد من المملوكين ، وشائع أيضاً فى العديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمِّم ضرب المثل .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

فـ (مؤمناً) و (فاسقاً) جاءت بصيغة المفرد ومع ذلك لم يقل الحق سبحانه:

لا يستويان . بالمثنى . بل قال (لا يستوون) بالجمع فالحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر، وأراد الحق سبحانه أنْ يعطيها العموم لاخصوصَ السبب .

فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ [السجدة]

وكما لا يستوى المؤمن والفاسق ، ولا يستوى العبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مع مَنْ يملك أمر نفسه ورزقناه رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً.

وهكذا لا يستوى المسلم والمجرم ، ونلحظ أنَّ الحق سبحانه جعل المجرم فى مقابلة المسلم ، وجعل المؤمن فى مقابلة الفاسق ، فالمؤمن مَنْ آمن قلبُه واستقر الإيمان فى قلبه ، ولذلك تجد أن الفاسق الذى فسقتْ جوارحه عن منهج الله عنده خللٌ فى معتقده القلبى ، لذلك فهو نقيض للمؤمن .

أما المسلم فقد قال عنه رسول الله ﷺ : «المسلم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده ».(١) فالإسلام يتعلق بجوارح الإنسان ومنها لسانه ويده ، فلا يؤذى أحداً بلسانه بنميمة أو غيبة أو سبٍّ أو قذف أو بظلم أو إعانة لظالم .

وكذا لا يؤذى أحداً بيده بضرْب أو قتْل أو رشوة أو إعانة لظالم ، فإيذاء الآخرين باليد أو اللسان هى فى الحقيقة جرائم يعاقب على البعض منها بحدود حدَّها الله أو بتعزيرات يفرضها الحاكم أو القاضى .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فهؤلاء أجرموا جرائم سطَّرتها عليهم الملائكة فى صحف وكتب خاصة بهم، كلٌ له كتابه الذى سيقرأه بنفسه ، وقد ظنُّوا أنْ لا شىءَ سيُحصى عليهم أو

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦٥١٥ ، ٦٨٠٦) والبخارى فى الأدب المفرد (١١٤٤) والنسائى فى سننه (٤٩٩٦) والبخارى فى صحيحه (١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص .

أنهم لن يُعاقبوا ، وذلك لأن هناك خللاً في معتقدهم الإيماني في وجود الآخرة واليوم الآخر يوم الحساب .

فهؤلاء المجرمون يتحكَّمون في مصائر الناس ويفسدون في الأرض ولا يقدر أحدٌ أنْ يقف في مواجهتهم ، ولكن يجب أنْ يتأكدوا من وعيد الله لهم ، فهو سبحانه القائل : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ (١) عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون ، فإذا استبنتَ سبيل المجرمين، أو إذا استبان لك سبيل المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟

فإذا كان الحق سبحانه بيَّن سبيل المجرمين لعناً وطرداً فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم ، أما المجرمون فقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾ [الأنعام] فلن يُرد ويُمنع بأسُه وعذابُه عن القوم المجرمين منكم .

والمجرمون أيضاً هم المكذِّبون بآيات الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ (٢) الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف] وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ولا يتوقف الأمر على ذلك ولكنهم يدخلون النار . إذن فهنا أمران : سلْبُ النافع وهو دخولهم الجنة، وإيجاب الضار وهو دخولهم النار ؛ إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم وذلك جزاء إجرامهم ، وبعد ذلك كان إدخالهم النار وهذا جزاء آخر .

---

(١) صغار : مذلة وعذاب شديد . والصَّغار : أشد الذل . فيصيبهم ذل وحقارة يوم القيامة بعد تكبُّرهم وارتفاعهم في الدنيا .

(٢) سم الخياط : ثقب الإبرة الضيق . والخياط : الإبرة نفسها يُخاط بها . أما الجمل ففيه قولان أنه الجمل الحيوان المعروف ، أو هو الحبل الغليظ وكلاهما إدخاله في سَمِّ الخياط مستحيل .

فقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ(١) وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ(٢) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾[الأعراف]. فى الأولى قال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)﴾ [الأعراف] وفى الثانية قال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ [الأعراف]

فكأنَّ الإجرام كان سبباً فى ألاَّ يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أنْ يكون فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

فالظلم مرتبط بالإجرام ، وقد يكون الظلم إجراماً ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾ [يونس]

والمجرم مَنْ ارتكب ذنباً ، وقد يكون هذا الذنبُ ذنبَ القمة وهو الكفر بالله ، وهذا ما عناه الحقُّ سبحانه بقوله : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) ﴾ [إبراهيم]

فترى المجرمين جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى قرن ، وهو الحبل أو اليد الذى يقيدون به ، والأصفاد جمع صفد وهو القيد الذى يُوضع فى الرِّجْل وهو مثل الخلخال .

وهناك مَنْ يُقيَّدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ، وهناك مَنْ يُقيَّد بالأغلال أى تُوضع أيديهم فى سلاسل وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكل أصحاب جريمة معينة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كلّ جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا مودة وتعاطف .

والمجرم هو المنقطع عن الحق ، والجريمة هى الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، والمجرمون يكونون مميَّزين عند الحشر بزُرْقة وجوههم ، قال تعالى :

(١) المهاد : المهد وهو الفراش . وهو هنا فراش من نار والعياذ بالله . قال الطبرى فى تفسيره (١٢/ ٤٣٥): «هو ما امتهدوه مما يُقعد عليه ويضطجع كالفراش الذى يُفرش ، والبساط الذى يُبسط . وقال الواحدى فى الوجيز (١/ ٣٩٤) : لهم منها غطاء ووطاء وفراش ولحاف ».

(٢) غواش : يغشاهم . وغواش : جمع غاشية وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم . قال السمرقندى : يغشاهم النار من فوق رؤوسهم ومعناه : أن من تحتهم ناراً ومن فوقهم ناراً (تفسير السمرقندى ١/ ٥١٥).

﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه]

أى نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هى لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه وازرقَّ لونه بسبب شىء تعرَّض له والبعض يفسر ﴿ زُرْقًا (١٠٢) ﴾ [طه] أى عُمياً ومن الزرقة ما ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التى تصيب العين وقد تُسبِّب العمى .

ومعلوم أن زرقة الجسم لا تأتى إلا نتيجة ضربات شديدة وكدمات تُحدث تفاعلات ضارة تحت الجلد فتُسبب زُرْقته ، وكذلك زرقة العين .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا فى العصور الوسطى يطلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لونُ الشيطان .

ومن علاماتهم يوم القيامة أيضاً أنكم ترونهم ناكسى رؤوسهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارةٌ إلى أن هذه هى العاقبة فاحذر المخالفة، فمن تكبّر وتغطرس رافعاً رأسه فى الدنيا ؛ نُكِّست رأسه فى الآخرة ذلاً .

وفى تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ، فالحق سبحانه سيفعل في كل مخالف فى الآخرة من جنس ما فعل فى الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم فى الآخرة حياء وندماً فعلوا ذلك فى الدنيا بلا حياء أو خجل.

وكثيرٌ من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون أو يعمُون على العدالة ويهربون من العقاب ويفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة ، فهم إذن الفائزون وسوف نشجع بذلك كلّ منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أنَّ له رباً قيُّوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يفلت أبداً من عقاب الآخرة إنْ علم ذلك استقام .

فالمجرم الذى يعيش بيننا أليس معلوماً لأهل المنزل الذى يعيش فيه بل لأهل الحى والشارع ؟ فهل ذهب واحدٌ منهم إلى تاجر فقال له : أعطنى كذا فقال : لا ليس عندى وقاطعه ، هل سلَّم واحد منهم على شخص فلم يرد عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية فالمجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناسُ من المجرمين وتملَّقوهم وتوددوا إليهم ربما اتقاءً لشرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

لذلك جعل الشارعُ الحكيم الدية فى القتل الخطأ ليست على القاتل وحده، إنما على العاقلة ، أى على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها والأخذ على أيدى المنحرف منهم لأنها هى التى ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه يستنكر عليهم أنْ يُساووا المسلمين بالمجرمين ، قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾ [القلم] ، استفهام استنكارى ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) ﴾ [الصافات]

ولكن فى آية أخرى يقول : ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) ﴾ [يونس] والمعنى فى الجميع : ماذا أصاب عقولكم لتحكموا هذا الحكم ، وساعة تسمع (كيف) فهى للاستفسار عن عملية عجيبة ما كان فى عُرْف العاقل أنْ تحدث .

وقوله سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم] كأنه أمر عجيب ما كان يصح أنْ يحدث ، إذ كيف تُسوُّون بين المسلمين والمجرمين ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

كيف تحكمون بمساواة المسلمين والمجرمين ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ [القلم]، والحق سبحانه يناقشهم ليكشف لهم أنهم إنما يحكمون بمجرد الأهواء، وليس بناءً على مقدمات صحيحة .

لذلك يسألهم الحق سبحانه : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧)﴾ [القلم] هل حكمتم بهذا لأن عندكم كتاباً قرأتم فيه هذا ، في أي كتاب هذا ؟ أنْ يتساوى المجرم مع المسلم ، ويتساوى الصالح مع الطالح ، والمفسد مع المصلح ؟

فهل لكم كتابٌ نزل من عند الله أتاكم به رسولٌ من رسله قرأتم فيه أو درستم فيه أن المسلمين والمجرمين يستوون ؟ ألكم كتاب تقرأون فيه هذا الجور ؟

وقد كان صناديد قريش يرون أنَّ حظهم من الدنيا وافرٌ، وأن المسلمين حظّهم من الدنيا قليل ، حتى إذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا : إن صحَّ أننا نُبعث كما يزعم محمد ومَنْ معه لم تكُنْ حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا ، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا ، وأقصى أمرهم أنْ يساوونا .

فكان قوْل الحق سبحانه : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُون (٣٧) ﴾ [القلم]

كيف نسوِّي بين الكافرين والمؤمنين ، كيف تظنون أن الله ظالم فالله أعدلُ من أنْ يجعل المسلمين كالمجرمين .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (٢٠) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ[1] (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ

(١) الحرور : الحر الشديد أو الريح الحارة . فالحرور : حر الشمس الشديد . [القاموس القويم ١/١٤٨] وهذا عكس الظل .

وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾ [فاطر]

والحق سبحانه يخاطب رسوله محمداً ﷺ قائلاً : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾ [المائدة]

فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، وهذه قضية كونية ، مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور .

وساعة يأتى الحقُّ سبحانه بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بدَّ أنْ يأتى بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ، فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور ، أو الظلمات والنور .

وعدم التسوية هذه موجودة فى آيات كثيرة منها : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

وهذا تساؤل جوابه : لا أى ليس كل منهما مساوياً للآخر ، والفطرة تقول هنا : لا .

والإسلام قائم على العدل وإنزال كلٍّ منزلته التى يستحقها ، ومن ذلك عدم المساواة بين القاعدين عن الجهاد من المؤمنين غير أولى الضرر وبين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

كيف نُسوِّى بينهم ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ (٩٥) ﴾ [النساء]

وقد أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت كاتب الوحى بعد أنْ نزل عليه الوحى وسُرِّىَ عنه : اكتب ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ

فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فقال سيدنا ابن أم مكتوم[1] وكان كما نعلم ضريراً مكفوفَ البصر قال : فكيف بمَنْ لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إنْ كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع مَنْ جاهد .

ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمَنْ لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فأخذتْ رسولَ الله السكينةُ ثانية ثم سُرِّى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء]

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم ، ولقائل أنْ يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟

ونقول : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ ينبه كلَّ مؤمنٍ أنه حين يتلقّى كلمة من الله أنْ يتدبر ويتبيَّن موقعه من هذه الكلمة ، فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يُعلِّمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها .

وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خَلْقه . وقال زيد بن ثابت : فكتبتُها[2].

---

(١) ابن أم مكتوم اسمه عبد الله والبعض يسميه عمرو أمه عاتكة وهى أم مكتوم. أسلم بمكة قديماً وكان ضرير البصر وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر استخلفه رسول الله على المدينة مرتين ، كان صاحب راية المسلمين يوم القادسية ثم رجع إلى المدينة فمات بها فى خلافة عمر بن الخطاب

(٢) قال زيد بن ثابت : كنت عند النبى ﷺ حين نزلت عليه (لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) ولم يذكر ﴿ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . . (٩٥) ﴾ [النساء] فقال ابن أم مكتوم : فكيف وأنا أعمى لا أبصر ؟ فتغشى النبى ﷺ الوحى ثم سُرِّى عنه فقال : اكتب ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ . . (٩٥) ﴾ [النساء] فكتبتُها أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (٢/ ١٠٣)

وعندما يقول الحق ﴿ لَا يَسْتَوِى (٩٥) ﴾ [النساء] فهذا يدل على أنَّ هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ كلاهما لا يتساوى مع الآخر، ولذلك يكون الاثنان في الإعراب فاعلاً ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ، ولا يساوى القاعدون المجاهدين ، لأن كلاً منهما فاعل ومفعول .

وعندما يقول الحق : ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ (٩٥) ﴾ [النساء] هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟

لا ولكن الحق يريدها قضيةً إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله ، والحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يكونوا قد قرأوا هذه التسوية فى أىِّ كتاب نزل من عند الحق سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) ﴾ [الزخرف]

فلماذا يقولون هذا ؟ هل جاءهم بذلك رسولٌ يقول لهم هذا الكلام ، فتحكمون منه لأنفسكم ما حكمتم ، فهل بأيديكم كتابٌ مُنزَّل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، ألكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصى ؟

والمدارسةُ إعمالُ الفكر فى الفهم عن النص ، فالفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخْذٌ وعطاء ، ويُقال : دارسه أى أن واحداً قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضاً : تدارسنا . أى أننى قلتُ ما عندى وأنت قد قلتَ ما عندك حتى يمكن أن نستخلص ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم]

فهل عندكم كتابٌ فيه تدرسون وتقرأون وتستنبطون ، تختارون منه ما تشتهونه ، وتخيَّر الشيء واختاره أخذ خيره ، كمن ينخل شيئاً وأخذ منخوله .

وكلمة ﴿ تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم] أصلها تتخيرون حُذف أحد التاءين من تخيرون، فتبالغون في انتقائه وأخْذ خياره .

وخلاصة تأويل الآية : أفسدتْ عقولكم حتى حكمتم بهذا ، أم جاءكم كتاب فيه تخييركم وتفويض الأمر إليكم ؟

﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الأيمان جمع يمين . واليمين هو الحلف أو القَسم ، وسُمِّى يميناً لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كلُّ امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هو الجارحة الفاعلة .

والمقصود بالأيمان الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهي مأخوذة من الحلْف وهو أنْ يتحالف الناس على عمل ما .

والأيمان أيضاً العهود ، قال تعالى : ﴿وَإِنْ نَكَثُوا(١) أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ (١٢) ﴾ [التوبة] وفائدة الأيمان أو العهد أنْ يحافظ عليه ومَنْ لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمانَ له ، لأن أيمانه أي عهده لا قيمةَ له لأنه مجردٌ من الوفاء .

فالأيمان العهود ؛ لذلك يقول الحق سبحانه هنا : ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا(٣٩) ﴾ [القلم] أي : أم لكم عهودٌ علينا بالغة إلى يوم القيامة فلا تنقطع إلى يوم القيامة.

فهي أيمانٌ مؤكَّدة بالغةُ النهاية ، فهل لكم أيمانٌ مؤكدة ألاَّ نعذبكم إلى يوم القيامة ؟ وهل أقسمنا لكم قسَماً فهو عهد لكم بأنَّا نُنعمكم في يوم القيامة وما بعده ؟

---

(١) نكثوا : نقضوا عهودهم ولم يفوا بشروطها . والأنكاث : هو الغَزْل يُحلُّ بعد فتله وإحكامه (القاموس القويم ٢/ ٢٨٤)

فهل لكم عهودٌ منا ومواثيقُ مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، وألاَّ تُحاسبوا على ما أجرمتموه فى حياتكم الدنيا ، فترِدُون علينا يوم القيامة فتنالوا ما لا يناله مَنْ أسلم لله وحده .

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ ﴾

الزعيم الضامن والمتكلم عن القوم الكفيل ، فسلْهم يا رسول الله وانظر أيّهم كفيل وضامن أن المسلمين كالمجرمين ؟ ومَنْ يكفل لكم أنكم ستنجون من عذاب الله يوم القيامة .

مَنْ منهم كفيل لكم بأنَّ لكم فى الآخرة ما للمسلمين ، فاسأل قريشاً أيهم زعيمٌ وضامن لهذا الأمر ؟

والحق سبحانه يقول عن كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]، وكلمة (كفّلها) أى تولى كلَّ مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، والكفيل فى عُرفنا هو الضامن ، وقد كان زكريا عليه السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم ، وكان ضامناً لأمورها من طعام وشراب .

فأيُّهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها ، مَنْ منكم يتعهد لكم أن لكم على الله ما تشاءون ، وأن لكم على الله ميثاقاً وعهداً ، ما لكم كيف تحكمون ؟

وقوله سبحانه (أيهم) قول مُعجز ، فهو يُحملهم الأمر ، ما دمتم تقولون بهذا وتحكمون به ، فمَنْ فيكم زعيم وضامن لهذا الذى تريدونه ؟وهو زيادة فى التهكم فطلب زعيماً منهم ، وهو سبحانه يعلم أن لا زعيم لهم بهذا .

وما دمتم عجزتم عن أنْ يتقدَّم أحدُكم يعلن أنه كافلٌ وضامن لزعمكم ،

فلماذا تتكبّرون على الله وتتألون على الله وتقولون على الله ما لا تعلمون وتفترون الكذب ؟

ولا تكونوا مثل اليهود الذين : ﴿ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾ [البقرة]

فإذا كان ذلك وعداً من الله فالله لا يخلف وعده ، والله يأمر رسوله ﷺ أنْ يقول لهم لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله سبحانه وتعالى بكم ، بل هو جلّ جلاله الذي يحكم فإنْ كان قد أعطاكم عهداً فالله لا يخلف وعده .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

الحق سبحانه ينقلهم من سؤال إلى سؤال ، ومن مقام إلى مقام ، من مقام عقلي منطقي : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]

ثم مقام النص الذي قد يكونون قد اعتمدوا عليه من كتاب أُنزل إليهم أو غيره : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) ﴾ [القلم]

ثم مقام الحلف والأيمان والعهود ، ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) ﴾ [القلم] ، فهل أخذتم على الله عهوداً وأيماناً تبلغ بكم يوم القيامة تضمن لكم أنْ تتساووا مع مَنْ آمن في ثوابه ودخوله الجنة .

ثم يأتي مقام الشركاء والشهداء ، فيقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ (٤١) ﴾ [القلم] ، هل لهؤلاء القوم شركاء فيما يقولون ويصفون من

الأمور التى يزعمون أنها لهم ، فليأتوا بشركائهم فى ذلك إنْ كانوا فيما يدعون من الشركاء صادقين .

والشركاء هم بطبيعة الحال شهودٌ على فحوى القضية ، فهل لكم شهداء يشهدون أنَّ الذى قالوا لهم حقّ ، فليأتوا بشهداء يشهدون أنّ لهم فى الآخرة ما للمسلمين ، والمراد زجرهم ويأسهم ، فليس لهم ادعاءُ هذا .

لذلك يتحداهم الحق سبحانه ويؤكد عدم صدقهم ، فيقول تعالى:﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ(٤١)﴾ [القلم]

صادقين فيماذا ؟ وما هو الصدق ؟

نقول : الصدق يقابل الكذب ، والصدق والكذب كلٌّ منهما نسبىّ، فالصدق أنْ تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية ، والكذب ألاَّ تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية .

فقوله تعالى : ﴿صَادِقِينَ (٤١)﴾ [القلم] أى أنْ تتطابق النسبةُ الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أنْ تدللوا عليها ، فإنْ لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون ، فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١)﴾ [البقرة] أى إنْ كنتم واثقين من أنْ ما تقولونه صحيح ، لأن الله يعرف يقيناً أنكم تكذبون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

فإذا كنتم تسوون بين المسلمين والمجرمين وتظنون أنكم ستُفلتون بكفركم يوم القيامة فظنكم خاطىء وحكمهم باطل ، وليس عندكم دليل على هذا من كتاب أو عهد من الله لكم ، ولستم صادقين فيما تقولون .

لكن الحقيقة التى ستواجهونها يوم القيامة هى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والكشف عن الساق كنايةٌ عن شدة كرْب يوم القيامة ، فيشتد الكرب والضيق، ويُدعى هؤلاء المتكبرون الذين رفضوا السجود لله فى الدنيا وطاعة الله وعبادته سيُدعون إلى السجود فلا يستطيعونه ولا يملكونه .

وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : يُكشف عن أمر عظيم ، تقول العرب : وقامت الحرب بنا على ساق . أى اشتدتْ وحمى وطيسها .

فالكشف عن الساق علامةٌ على شدة الأمر وهوله ، وهى أشدّ ساعة فى يوم القيامة ، عندما يقف الجميع على ساق ينتظرون الحساب وينتظرون تحديد مصيرهم .

فهو يوم كرْب وشدة شديدة ، أى يوم يُكشف عن شدة أمر القيامة وحشر الناس والساعة والميزان .

وقد كان العرب إذا اشتدَّ القتال فيهم واحتدمتْ الحرب واستعرت وعَظُم الأمر فيهم واشتد قالوا : قد كشفت الحربُ عن ساق ، فذكر اللهُ شدةَ يوم القيامة وهوْله بما يعرفون .

وساق الشىء أيضاً أصله الذى به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان أى يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائقُ الأمور وأصولها بحيث تصير عياناً وتنكيره للتهويل والتعظيم .

والحق سبحانه حدَّثنا عن هول ذلك اليوم ، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[١] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

---

(١) تذهل : تغفل عن رضيعها كناية عن شدة الهول والفزع [القاموس القويم ١/ ٢٤٦] قال ابن منظور فى لسان العرب : الذهل تركك الشىء تناساه عن عمد أو يشغلك عنه شغل [مادة : ذهل]

ويقول جلَّ جلاله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه وصف هذا الزلزال بأنه شيء عظيم ، فحين تقول أنت أيها الإنسان: هذا شيءٌ عظيم فهو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقاييس الحق سبحانه ، فلكَ أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

ومن هول هذا اليوم : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا (٢) ﴾ [الحج] والذهول هو انصرافٌ عن المهمة الحقيقية لهوْل رآه ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً فيسقط ما بيده مثلاً .

فالذهول سلوكٌ لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة ، أو عن شيء تفرضه الغريزة .

فانظر إلى المرضعة وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىّ هول هذا الذى يشغلها ويعطِّل عندها عاطفةَ الأمومة والحنان ، ويعطل حتى الغريزة.

وقد أعطانا القرآنُ صورةً أخرى فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) ﴾ [عبس]

فلكلِّ امرىءٍ منهم شيء يُغنيه عن معرفة مصير أخيه أو حتى أمه أو أبيه أو زوجته أو بنيه ، فالهولُ أعظُم من هذا ، ما له والآخرين ، إنه يريد أنْ ينجو هو.

هذا اليوم يجعل الناسَ ﴿ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج] ، فهم سكارى يتمايلون مضطربين مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر وتطوِّحهم يميناً ويساراً ، وتلقى بهم على الأرض ، وكلما زاد سكرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً .

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة لا من سُكْر ولكن من خوف وهوْل وفزع ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج] إنهم لم يروا العذاب بعد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والحق سبحانه قد ميَّز أهلَ الإيمان وأهل النفاق بالسجود ، فقال تعالى :

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

وقدكانوافى الدنياكماقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات]

وفى آية أخرى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ (٢١) ﴾ [الانشقاق]

فهم لم يستجيبوا فى الدنيا لداعى الإيمان ، فلم يركعوا إلا رياء وسمعةً ، ولم يسجدوا إلا مضطرين مكرهين ، ولم ينفعلوا بآيات الله تتلى عليهم ، بل صموا وعموا .

لذلك إذا دُعوا إلى السجود فى هذا اليوم العظيم لم يستطيعوا السجود ، والحديث النبوى الشريف يعطينا صورة هذا الموقف العظيم[1] :

«إذا كان يوم القيامة مُثِّل لكلِّ قوم ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ما كانوا يعبدون فى الدنيا ، فيذهب كلُّ قوم إلى ماكانوا يعبدون فى الدنيا ويبقى أهل التوحيد ، فيُقال لهم : ما تنتظرون وقد ذهب الناس» ؟

فيقولون : إن لنا رباً كنا نعبده فى الدنيا لم نره قال : وتعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون : نعم . فيقال : وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ قالوا : إنه لا شبه له فيُكشف لهم الحجاب ، فينظرون إلى الله عز وجل فيخرُّون له سجداً .

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب (السنة) (٦٢٠) عن أبى بردة . وأخرجه بنحوه محمد بن نصر المروزى فى كتاب (تعظيم قدر الصلاة) (٢٨٠) عن عبد الله بن مسعود .

ويبقى قومٌ فى ظهورهم مثل صياصى البقر[١] فيريدون السجود فلا يستطيعون، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم]

والسجود هو علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرفَ شىء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً لله وخشوعاً له .

فالسجود هو منتهى الخضوع للرب ، نخضع بها لله خمس مرات فى اليوم والليلة ، فالخشوع والخضوع بوضع الجبهة التى هى أشرفُ شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

وسجود الإنسان يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلفٌ ، وكلّ الكائنات مُسخَّرة لخدمته وطائعة وكلُّها تسبح ربَّنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ونباتاً وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضعٌ من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

فالسجود هو الحركة التى تبرز كاملَ الخضوع لله ، فالسجود وضع لأعلى ما فى الإنسان فى مستوى الأدنى وهو قدم الإنسان ، ونجد العامة وهم يقولون: لا ترفع رأسك علىَّ .

أى : لا تتعالَ علىَّ لأن رفْعَ الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهار للخضوع .

والعزة فى العبودية لله ، والعزة فى السجود له تعالى ، فعبوديتك لله تعصمك من العبودية لغيره ، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره .

ولكن لأنَّ هؤلاء لم يخضعوا لله عز وجل فى الدنيا ولم يسجدوا له ولم يركعوا ولم ينزلوا من علياء كبريائهم ، لذلك عندما دُعوا إلى السجود يوم

(١) صياصى البقر : قرونها مفردها (صيصة) [لسان العرب - مادة : صيص] ومن هذا ما ذكره أبو هريرة فى حديثه : أصحاب الدجال شواربهم كالصياصى ، يعنى أنهم أطالوها وفتلوها حتى صارت كأنها قرون بقر .

القيامة لم يستطيعوا ، فكلما أرادوا أنْ يسجدوا صارت ظهورهم كطبقة واحدة لا تنثني .

وقد أعطانا رسولنا ﷺ مثالاً لهذا ، فقد رأى رسول الله رجلاً يأكل بشماله فقال : كُلْ بيمينك . فقال : لا أستطيع . فقال ﷺ : «لا استطعتَ . فما رجعتْ إليه وما وصلت يمينه إلى فمه بعد» (١) .

فعدم الاستطاعة كانت بسبب رفضه الانصياع لأمر رسول الله والخضوع والتنازل عن كبريائه .

ثم يواصل الحق سبحانه وصْف حال هؤلاء ، فيقول :

﴿ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ (٢) وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾

تضطرب أبصارهم من هوْل ما رأوا فتتقلب هنا وهناك ، لأنها حيث ترى الفزع الذي يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدَّ وأنكى .

لذلك ينتهي الموقف إلى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣) ﴾ [القلم] ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعني ذليلةً منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى، ولن يجد في هذا اليوم راحةً إلا من قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته ، يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدري .

---

(١) عن سلمة بن الأكوع أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال : كل بيمينك فقال : لا أستطيع فقال : لا استطعت قال : فما رجعت إليه أخرجه أحمد في مسنده (١٦٤٩٣) وفي رواية أخرى (١٦٤٩٩) أسمى الرجل بُسْر ابن راعي العير وفيه : فما وصلت يمينه إلى فمه بعد .

(٢) ترهقهم ذلة : تغشاهم مذلة من عذاب الله فتغشاهم كآبة وسواد . قال قتادة : سود الوجوه يغشاهم هوان . وقال الواحدي في التفسير الوسيط : يغشاهم ذل الندامة والحسرة .

فخشوع أبصارهم إطراقها فى ذُلٍّ ومهانة ، لذلك قال تعالى ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] ، فتغشاهم ذلّة فأطرقوا بأبصارهم إلى الأرض من شدة الخوف المحيط بهم .

والخشوع وصفٌ قلبى وحسيٌّ ، يكون فى الصلاة وغيرها ، ويُوصف به الإنسان وغيره ، قال تعالى : ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] ، فوصف الأصوات بالخشوع .

وقال تعالى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٣)﴾ [القلم] فوصف الأبصار بالخشوع .

وقال الحق سبحانه : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢)﴾ [الغاشية] فوصف الوجوه بالخشوع .

ففى يوم القيامة يأتى أصحاب العوج فى العقيدة ، ويصوِّرهم الحق سبحانه فى قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه]

فهم يصطفُّون بلا اعوجاج ، كما يصطفّ المجرمون تبعاً لأوامر مَنْ يقودهم إلى السجن فى ذلّة وصَغَار ، ولا ينطقون إلا همساً .

هذا الهمس الذى قال عنه : ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ (١٠٣)﴾ [طه] ونعرف أنَّ كلّ تجمع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجمع القيامة من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة .

ومع ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)﴾ [طه] فلماذا كتمت هذه الأصوات التى طالما قالت ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف والهول عظيم ، لا يجرؤ أحدٌ من الهول على رفْع صوته،

والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله ، مفكر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سراً ومُخافتة : ماذا حدث ؟ وماذا جرى ؟

ذلك خشوع الأصوات ، وكذلك تخشع أبصارهم فتنكسر .

ويصف الحق سبحانه خشوعَ الأبصار بصورة أخرى فيقول سبحانه : ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى]

فهم خاشعون خاضعون من الذل أذلاء من شدة الخوف ، لذلك ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (٤٥) ﴾ [الشورى] يعني : يختلسون النظرة ولا يستطيعون المواجهة بأعينهم ، فما هم فيه من خزى يكسر أعينهم .

لذلك تقول لخصمك الذى يفترى عليك كذباً (هات عينى فى عينك) لماذا ؟ لأن المواجهة بالأعين تُظهر الحق ، فصاحب الحق عينه قوية جريئة ، تستمد قوتها من قوة الحق الذى يدافع عنه ، أما عين المبطل فمنكسرةٌ ذليلة تتوارى من شعاع الحق الذى يكشف زيفها .

فتغشاهم مذلَّة من عذاب الله ، فتعلوهم كآبة وسواد ، فالمؤمنون إذا رفعوا رؤوسهم من السجود صارت وجوههم بيضاء كالثلج ، أما الكافرون فقد عجزوا عن السجود فاغتمُّوا واسودتْ وجوههم .

فيغشاهم هوانٌ وذلٌّ ، ندامةً وحسرةً أنهم لم يكونوا يسجدون لله فى الدنيا وكانوا يتكبَّرون على الله .

﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم]

والحق سبحانه عندما دعاهم إلى السجود يوم القيامة لم يدعهم تعبُّداً وتكليفاً ، إنما توبيخاً وتعنيفاً لهم على تركهم السجود فى الدنيا ، وهم لم يستطيعوا السجود لأنهم تكبَّروا على الله فلم يسجدوا لله فى الدنيا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) ﴾ [القلم] هذا فى الآخرة ، أما فى الدنيا فقد ﴿ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم]

وقد قال قتادة : بلغنى أنه يُؤْذَن للمؤمنين يوم القيامة فى السجود ، وبين كل مؤمنيْن منافق فيسجد المؤمنون ولا يستطيع المنافقون أنْ يسجدوا ، تقسو ظهورهم ويكون سجود المؤمنين توبيخاً لهم[1].

ومعنى ﴿ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم] أنه لم يكُنْ يمنعهم مانعٌ من السجود ولا يحول بينهم وبين السجود حائل ، وقد كانوا آمنين ، أما اليوم فى الآخرة فيُدعون إلى السجود وهم خائفون من مصيرهم المحتوم .

وقد كانوا يسمعون حىّ على الفلاح فى الدنيا فلا يجيبون النداء وهم سالمون أصحاء ، حتى أن كعب الأحبار[2] قال : والله مانزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات[3] .

فعُوقبوا فى الآخرة بعدم قدرتهم على السجود ، فإذا تجلَّى الحق سبحانه سجد له المؤمنون ولم يستطع أحد من الكافرين والمنافقين أنْ يسجد ، بل يصبح ظهرُ الواحد منهم طبقاً واحداً ، فكلما همَّ بالسجود خرّ لقفاه بعكس السجود فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله محمداً ﷺ وأمته متضمنة فى خطاب الله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٢٩٤) من قول قتادة . وكذا الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٦١)

(٢) كعب الأحبار هو كعب بن ماتع الحميرى ثقة مخضرم أدرك النبى ﷺ وأسلم بعد موته ، يمنى سكن الشام . مات فى خلافة عثمان وقد زاد على المائة يكنى أبا إسحاق وهو من حمير من آل ذى رعين توفى عام ٣٢ هـ فى خلافة عثمان . الطبقات الكبرى لابن سعد

(٣) أورده من قول كعب الأحبار البغوى فى تفسيره (٨/ ٢٠٠) ، وابن الأثير فى تفسيره (زاد المسير ٤/ ٣٢٦) وقال الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠ / ٦١٥) : « فى هذا وعيد لمن قعد عن الجماعة ولم يُجب المؤذن إلى إقامة الصلاة فى الجماعة» .

لرسوله: ﴿فَذَرْنِي (٤٤)﴾ [القلم] يعنى دعنى والعرب لم تستعمل الماضى من هذين الفعلين، فورد فيهما يدع ويذر ، وقد ورد هذا الفعل أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل]

فمعنى قوله تعالى : ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ (٤٤)﴾ [القلم]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو : ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقّوا العقاب وينزل بهم العذاب .

فـ (ذرنى) أى دَعْنى واتركنى ، ومثله قوله : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل] . أى اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة .

ويستعمل من (ذرنى) فعل مضارع هو (يذر) ، وقد قال الحق سبحانه: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

ولم يُستعمل منها فى اللغة فعلٌ ماضٍ إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : «ذروا اليمن ماذروكم» أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دَعْ) بمعنى (اترك) ، وقيل : أهملت العرب ماضى (يدع) و(يذر) إلا فى قراءةٍ فى قوْل الحق سبحانه : ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

فدعنى يا محمد والمكذبين بهذا القرآن ، فلا تنشغل بهم ، فكله إلىَ فإنى أكفيك أمره ، فما عليك يا محمد إلا البلاغ واتركهم لى ، وإياك أنْ يؤثر فيك عنادهم ، أو يُحزنك أنْ يأتمروا بك أو يكيدوا لك .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن بأنه حديثٌ فى قوله سبحانه أيضاً : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا (٢٣)﴾ [الزمر]

فهو أحسن الحديث لأنه كلامُ الله ، وكلامُ الله صفته ، وهو كامل الكمال

المطلق ، وهو أحسن القصص ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ (٣) ﴾ [يوسف]

والتكذيب بهذا الحديث هو تكذيبٌ بآيات الله ، والتكذيب بآيات الله يعنى إخراجَ الصدق إلى الكذب ، وإخراج الواقع إلى غير الواقع ، والذين كذَّبوا بآيات الله إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أُنزل على الرسول ﷺ .

والتكذيب مسألة منكرة ، وأول التمرد التكذيب ، وهو تأبٍّ من المكذِّب ، وقد قال الحق سبحانه عن المكذبين : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) ﴾ [الأنعام]

والتكذيب ظاهرة عانى منها كلُّ الرسل ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذّبوك في دعوتك فيواجهوك ويقفون في سبيل دعوتك ليبطلوها فاعلم أنك لستَ في ذلك بدعاً من الرسل فقد كذّب كثير من الرسل قبلك .

كذّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر؟ فلا تحزن فسوف يحلّ بهم ما حلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين .

فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يزحزحهم عن التكذيب شيءٌ ، فاحذروا أنْ تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم .

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فلستم بدعاً في التكذيب ، لكن يجب عليكم أنْ تتنبهوا إلى ما صنع بالأمم

المكذِّبة ، وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم ما أصابهم .

وأحياناً يكون التكذيبُ متعمداً مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وأمراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا ، ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى لم يعترفوا بها ، لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤)﴾ [النمل]

والحق سبحانه يوضح لنا كيف سيعاقب هؤلاء المكذبين ، فيقول سبحانه:

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ [الأعراف]

حين تقول : أنا استدرجتُ فلاناً فأنت تعنى أنك أخذتَ تحتال عليه حتى يقرّ بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم ويحاصره بالأسئلة من هنا ومن هناك إلى أنْ يُقرّ ويعترف ، وهذا هو الاستدراج .

والاستدراج من الدرج ونسميه فى لغتنا اليومية «السُّلم» ، وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل ، فمن المستحيل على الإنسان أنْ يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلاً فى عمارة ما .

ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس ، فمعنى الاستدراج أى نأخذهم درجةً درجةً ، ونعطى لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه .

والحق سبحانه يقول : ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (٤٤)﴾ [الأنعام]

فالله حين يريد أنْ يعاقب واحداً على قدر جُرْمه فى حَقِّ أخيه الإنسان فى الدنيا لا يأخذه من أول جُرْم ، لأن الأَخْذة فى هذه الحالة ستكون ليِّنة ، لكنه يملى له ويُعليه ثم يلقيه من عَلٍ .

وهكذا يكون الأخذ أخْذَ عزيز مقتدر ، وحين يستدرج البشر فإنَّ الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء ، ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخ منصوب له ، لكن

حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلّة فى قوله تعالى : ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)﴾ [الأعراف] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

وهذا الاستدراج يُسمَّى أيضاً الإملاء ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾ [الرعد]

والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه ترك العقوبة على الذنب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمثل هو أنْ تترك مخطئاً ارتكب هفوة إلى أنْ يرتكب هفوة ثانية ثم ثالثة ، ثم تُنزل به العقاب من حيث لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث فى عالم البشر ، فما بالنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم]

ويقول تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨)﴾ [آل عمران] ، تماماً مثلما نجد مَنْ يصنع فخا لعدوه .

وبداية الاستدراج الفتح على المستدرج ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1] (٤٤)﴾ [الأنعام] أى لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد جاءهم العقاب .

وأهل السياسة عندما يريدون أنْ يُنزلوا بخصومهم العقاب ، يرفعون خصومهم ويمدُّون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيراً ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس .

---

(١) أبلس : حزن ويئس وتحير وسكت هماً أو سكت لانقطاع حجته . واسم الفاعل (مبلس) وجمعه (مبلسون) . [القاموس القويم لألفاظ القرآن الكريم ١ / ٨٢]

والحق سبحانه يمدّ ويُملي لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبوابَ كلِّ شيء .

ففتح عليهم أيَّ سلَّط عليهم ، وهذا غير قوله سبحانه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] ، فالفتح لك غير الفتح عليك ، لأن الفتح على أحد يعني الاستدراج إلى إذلال قسريٍّ سوف يحدث له .

فالفتح لك لصالح المتلقِّي وليس عليه فإنه يُحسُّ بالانشراح والسرور .

وحين يستدرج البشرُ البشرَ فإن الطرفَ المستدرج له أيضاً ذكاء ويعرف أن هذا نوعٌ من الكيد وفخٌ منصوب له ، لكن حين يكون ربُّنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحدٌ كيف يفلت .

والعلَّة فى قوله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ (٤٤)﴾ [القلم] هى قوله ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤)﴾ [القلم] لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾

الإملاء هو الإمهال وهو التأخير . أى أنه لا يأخذهم مرةً واحدة ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بل هو إمهالٌ فقط ثم يأخذه الله أَخْذَ عزيز مقتدر .

فمَنْ يمسك عدوه ليرفعه فلا يظنّ أنه يُدلله ولكنه يرفعه ليلقيه من عَلٍ فيزداد ويعظم ألمه ، فالفتح على الكافرين والمنافقين ليس فى صالحهم ، بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سبب عذابهم .

وساعة يقوم الفاسدُ بالكثير من الشرِّ فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمانٌ لأكل

الناسُ بعضهم بعضاً .

فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين ، والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى ، بل هو إمهالٌ فقط ، ثم يأخذه الله أخْذ عزيز مقتدر .

وهنا يوضح الحق سبحانه : إذا كنتُ سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين ، والكيد هو المكر والمكر أخْذُهم من حيث لا يشعرون ، وهو عملية خفيّة تسوء الممكورَ به .

وهو تدبيرٌ خفىٌّ حتى لا يملك الممكورُ به ملكات الدفع ، وإذا كان البشرُ يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم ، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدةً أو مكراً ، أيستطيع واحدٌ أنْ يكشف من ذلك شيئاً ؟

طبعاً لن يستطيع أحدٌ ذلك ، هذا هو معنى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم] ومتين أى قوى ، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر ، ونعرف أن الظهر مُكوَّنٌ من عمود فقرى وفقرات عظمية ، تحيط بها عضلات .

فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان أى حمل عليه يكسره ، فشاءتْ تجلياتُ ربنا عز وجل واقتضتْ رحمتُه وقدرتُه أنْ تُحاط هذه العظام بعضلتين كبيرتين .

وإذا نظرنا إلى كلمة (متين) نجد المتن هو الشيء العمودى فى الأشياء .

والحق سبحانه ليس غافلاً عما يعمل الظالمون : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ [1] فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم]

فالذى يفعل ظلماً سيتلقَّى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رأوا فعل الظلم فهم يتهامسون : تُرى هل تم نسيان الظلم الذى ارتكبه فلان ؟ هل هناك غفلةٌ فى الأمر ؟

(١) شخوص الأبصار : ارتفاع الجفون إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه [لسان العرب – مادة : شخص]

ولمَنْ يتساءلون عليهم أنْ يتذكروا قول الحق سبحانه : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

فليستْ هناك غفلةٌ ، ولكن هناك تأجيلٌ للعقوبة لهؤلاء الظالمين ، وفي سورة الحج يقول تعالى : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤)﴾ [الحج]

أمليتُ : أمهلتُ حتى ظنُّوه إهمالاً ، وهو إمهالٌ بأنْ يمدّ الله لهم ، ويطيل في مدتهم ، لا إكراماً لهم ولكن ليأخذهم بعد هذا أخْذَ عزيز مقتدر .

والكافرون يكيدون للمؤمنين وهم لن يتركوهم على إيمانهم أبداً ، بل لا بدَّ أنْ يكيدوا لهم ، وهذا الكيد يتجلَّى في أنهم يدسُّون لهم أشياء وينفذون إليكم .

فهم لن يتورعوا أنْ يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكلِّ لون من الألوان ، وهم لا يقصِّرون في هذا أبداً .

والكيد هو أنْ تبيِّت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أي تدبر لغيرك لتضره .

فالكيد هو محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك مَنْ يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك مَنْ يريد أنْ يفسدها بحيث إذا أمسكتَ به يقول لك : لم أفعل شيئاً لأنه يفعل الخطأ في الخفاء .

والكيد لا يُقبل عليه إلا الضعيف ، فالقويُّ يواجه مَنْ يكيد له ، فالذي يدسُّ السُّم لإنسان آخر في القهوة مثلاً هو مَنْ يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال لأنه لا يقدر على المواجهة .

وتجد أن كيد الشيطان جاء ضعيفاً ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)﴾ [النساء]

فكيد الشيطان ضعيفٌ لأنه لا يملك قوةً يقهر بها قالباً ،ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وتزيين وأنت تأتيه ولا يحتال إلا الضعيف .

والكيد من لوازمه المكر ، والمكر هو الكيد الخفى ، والمكر مأخوذ من التفاف أغصان الشجرة كالضفيرة ، فلا تتعرف على منبت ورقة الشجر ومن أىِّ غصن خرجت ، فقد اختلطت منابت الأوراق حتى صارتْ خفية عليك وأخذ من ذلك الكيد الخفى .

وأنت قد تكيد لمساويك ، لكنك لن تقدر على أنْ تكيد لمن هو أعلى منك فإنْ كنتم تمكرون فإنَّ الله أسرعُ مكراً ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا (٢١) ﴾ [يونس]

ومكْرُ الله سبحانه أقوى من أىِّ مكر بشرىٍّ ، لأن مكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسُّس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

ومكركم البشرى هو أمر حادث لكنِ الله سبحانه أزلىُّ الوجود ، يعلم كلَّ شىء قبل أنْ يقع ويرتب كلَّ أمر قبل أنْ يحدث ، لذلك فهو سبحانه الأسرعُ فى الردِّ على مكركم إنْ مكرتم .

وقد وصف الحق سبحانه كيده بأنه (متين) فقال : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]

وهو متين ، لأن لا أحد بقادر على كيده ، وهو القائل سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فكيدُ الله لا غالبَ له ، وهو كيدٌ غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

والحق سبحانه إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) ﴾

فالرسول لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم، فأجرُه على الله وحده، والحقُّ سبحانه يخاطب رسوله ﷺ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

ويقول على لسان رسوله في موقع آخر: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ (٤٧)﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلي الأجر، فبدلاً من أنْ يأخذ الأجرَ من محدود القدرة على الدفع فهو يطلبها من الذى لا تُحدّ قدرته في إعطاء الأجر، فكأنَّ العمل الذى يقوم به لا يمكن أنْ يُجازى عليه إلا من الله، لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله، فلا يمكن إلا أنْ يكون الأجرُ عليه من أحدٍ غير الله.

والأمر أصبح واضحاً أن الرسول ﷺ لا يريد أجراً، وإنما أجره على الله وهذا حكم به الله سبحانه، ورسول الله قال لهم هذا.

لذلك هنا يأتي الأمرُ في صورة استفهام من الحق سبحانه لرسوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦)﴾ [القلم]

فهل هم غير قادرين على دَفْع الثمن لأنهم بخلاء؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به؟ مع أنك لم تسألهم أجراً، فهل يعنى ذلك أنَّ النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً؟

فالإنسان إذا قدّم لإنسان شيئاً نافعاً فعليه أنْ يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة، وكأنه ﷺ يقول لهم: لقد قدّمت إليكم جميلاً يفترض أنَّ لى عليه أجراً لكنى لا أريد منكم أجراً، والمسألة من عندى تفضُّل.

والأجر جُعْل يقابل عملاً، وقيمة هذا الجُعل تختلف باختلاف مشقة العمل وطول زمنه ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل.

وكلُّ أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومجهود ومشقة ومخاطر ومهارة.

وإذا كان الأمرُ كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به وكيف أنه يُريحكم مع أنفسكم، ويريحكم مع المجتمع ، ويُريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ومن شرور الناس جميعاً .

إذن للرسول عمل كبير ومجهود عظيم لو قدَّرت له أجراً لكان كذلك عظيماً، إنّ الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟

فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عِرْضك وفى كلِّ ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة ، إنمَا يحميك من الناس أجمعين ، بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا إنما تتعدّى إلى الآخرة فتحميك فيها حمايةً ممتدة لا نهايةَ لها ، فإن قدَّرت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقولُ لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسانُ لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أما الذى يقدِّر ذلك فهو ربى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

والرسول ﷺ لا يريد أجراً من أحد ، فاطمئنوا ولا تخافوا من أنْ نثقلكم بشىء ، إنما أجرى على الله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس]

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (١٠٩) ﴾ [الشعراء]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) ﴾ [الفرقان]

أى سبيلاً للمثوبة وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء . فأجْرُ الرسول العمل للغير لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

هل عندهم علم الغيب فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا ويخبرونهم بما أرادوا ، فهل عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائنٌ فهم يكتبون منه ما فيه ويجادلونك به .

فهل عندهم شيءٌ من الغيب انفردوا به وأوجب لهم أنْ لا يستجيبوا ، وقد سمَّى اللهُ اللوح المحفوظَ غيباً لأنه كتب فيه ما غاب عن العباد ، فهم يكتبون منه ما يحكمون لأنفسهم ويقع بشهواتهم .

وهذا استفهام استنكاريٌّ فليس عندهم علم الغيب كما يظنون ، فلا يعلم أحدٌ من أهل السماوات والأرض الغيبَ إلا الله .

أيدَّعون أن عندهم علمَ الغيب فهم يكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب ، وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب وأن ليس لهم به علم ، وأنْ ليس لهم عليه قدرةٌ وهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئاً .

وجواب السؤالين : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] جواب كلا السؤالين : لا .

فأنت يا محمد لم تسألهم أجراً ، وليس عندهم علمٌ بالغيب ، حتى رسول الله لا يعلم شيئاً من الغيب ؛ فمَنْ هو أقل منه لا يعلم الغيب ، وقد أمره الله تعالى أنْ يعلن أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ (٥٠) ﴾ [الأنعام]

وهنا يقول تعالى لهؤلاء المكذبين : ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) ﴾ [القلم] والجواب : لا .

ثم يوجِّه الحق سبحانه نبيَّه ورسوله محمداً ﷺ :

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله سبحانه هنا جاء لتسلية رسول الله ﷺ موضحاً له : إنهم يكذِّبونك ويكفرون بالله وبك وبالنور الذى أنزلناه معك ، وقد ترغب فى أنْ نأخذهم أخْذ عزيز مقتدر .

لكن الحق سبحانه جعل لكلِّ مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إنَّ ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، فلا تتعجل الأمور .

فربُّنا سبحانه هو القادر على أنْ ينجز خَلْق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر بـ (كُنْ) وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكلِّ ذلك ليعلِّمنا التأنِّى وألاَّ نتعجل الأشياء .

﴿ فَاصْبِرْ (٤٨) ﴾ [القلم] ولا ترهق نفسك ، فسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يُؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

والصبر قد يكون ميسوراً سهلاً فى بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصعباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر ، ومرَّة يقول : اصطبر .

فما الأقوال التى يصبر عليها رسول الله ؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر . وقولهم : مجنون وكاهن . كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله . لأن كل قَوْلَة من أقوالهم تحمل معها دليلَ كذبهم .

فدعْك يا محمد من هؤلاء المكذبين ، واثبت على ما أنت عليه ، اصبر على كُرْههم ، واصبر على لَددهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمَنْ يؤمن بك اصبر على هذا كله لأن العاقبةَ فى صالحك .

وفى آية أخرى يقول : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم]

يعنى لن تُخرجونى عن ثباتى وحِلْمى ولن تستفزونى .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٤٨) ﴾ [القلم] فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك وفى هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن وهذا الدين وامْض لما أمرك به ربُّك ، ولا يُثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إيّاك وأذاهم لك .

اصبر على أذاهم لقضاء ربك الذى هو آتٍ ولا تكُنْ فى الضجر والغضب والعجلة وترْك الصبر ، واصبر لحكم ربك فى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .

فعليك بتبليغ الرسالة واحتمال الأذى ، واحتمال تأخير نصرتك على أعدائك.

والحق سبحانه لا يكتفى بأمر رسوله ﷺ بالصبر على حكم ربه وقضائه وما كلَّفه الله به من الصبر والاحتمال ، بل إنه سبحانه يذكر لرسوله مثلاً من قصص أنبيائه ، ليأخذ رسول الله وأمته معه العبرة من قصص الأمم السابقة.

فيقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) ﴾ [القلم]

فلا تكُنْ يا محمد كصاحب الحوت فى العجلة وعدم الصبر على قومه ، وصاحب الحوت هو النبى يونس بن متى عليه السلام ، وهو ذو النون ، والنون من أسماء الحوت وجمعه (نينان) كحوت وحيتان .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء]

فاسم النبى يونس ارتبط واقترن بالحوت الذى ابتلعه ، بعدما دعا قومه إلى الإيمان بالله ، ولكنهم كفروا به فأغضبوه وغضب منهم .

وكان المفروض أنْ يتحملَ الأذى الصادر منهم تجاهه ، وكانت معارضة دعوته شديدة تُحفظ وتملأ القلب بالألم والتعب ، وكان عليه أنْ يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة .

ونحن نعلم أنّ العبد الصالح يونس عليه السلام قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية إلى أنْ رأوا غيماً يملأ السماء وعواصف.

وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم، فهُرعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله فآمنوا به ليكشف عنكم الغمة .

وهرع الناس إلى الإيمان بالحىّ الذى لا يموت ، وذهب قوم يونس عليه السلام لا سترضائه بعد عودته من محنة التقام الحوت له ، وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقُض ويهدم جدار بيته ، لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له .

ويونس عليه السلام فى أثناء مغاضبته ركب سفينة ، ولكن السفينة تعرضت للعب الأمواج بها فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفتْ على الغرق بركابها فألقوا الأمتعة فى البحر لتخفّ بهم السفينة فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَنْ تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس.

يقول الحق سبحانه : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ[1] إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[2] (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ [الصافات]

فكان يونس عليه السلام ممن خسروا القرعة فى عرف الناس ، ووقعت

---

(١) أبق : هرب من مالكه وقد جعل الله ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها [القاموس القويم ١/ ٤]

(٢) المدحضين أى أنه قارعهم فكان من المقروعين المغلوبين (تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٦٢٠) وقال يحيى بن سلام فى تفسيره (١/ ٣٣٧) : من المسهومين يعنى أنه وقع السهم عليه .

القرعة عليه ليتم إلقاؤه في البحر ، فابتلعه الحوت : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)﴾ [الصافات]

أي ابتلعه الحوت وقد فعل ما يُلام عليه ، وكأنَّ الله يقول له : لقد تسرعتَ حين تركتَ قومك وضِقت بهم لأول إيذاء تتعرَّض له ، وكان عليك أنْ تصبر وأنْ تتحمل الأذى في سبيل دعوتك ، ومعلوم أنك لا تعاتب إلا مَنْ تحرص عليه ليظلَّ في صحبتك .

فالله عاتبه ولامه مجرد لَوْم على أمر لا يصح من نبي ، والعتاب دليل المحبة.

فما كان من يونس عليه إلا أنْ دعا ربه وهو في بطن الحوت ، قال تعالى هنا : ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم]

والنداء هنا الدعاء ، وأحسن الدعاء الدعاء الخفي ، وذلك كدعاء زكريا عليه السلام: ﴿كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم]

أما هنا فيونس عليه السلام نادى ربه ودعاه : ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨)﴾ [القلم]

والكظم كتم الشيء ، وهو مأخوذ من كَظْم القربة حين تمتلىء بالماء ثم يكظمها أي يربطها فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر ، هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم في وجهه ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

وذلك مثل الذي يكره أنْ تكون له البنات فإذا بشَّره أحدٌ بالأنثي تجد وجهه مُسوداً يكاد ينفجر من السُّخط والغضب ، يقول تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ (٥٩)﴾ [النحل]

ورسول الله ﷺ تعرَّض لمصاعب جمة في طريق الدعوة ، فقد آذاه قومه وكذَّبوه وألجئوه إلى الطائف ، وكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة ، فعاد مُنكراً دامياً ، وكان من دعائه : «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة

حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى مَنْ تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إنْ لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنورْ وجهك الذي أشرقتْ له الظلمات ، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تُنزل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بك»[١] .

لقد كان رسول الله في محنة فلجأ إلى ربه ونادى ربه مستجيراً به ، ألم يُرْمَ رسول الله بالحجارة حتى دميت قدماه في الطائف ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سلا[٢] البعير في مكة - أي سَقَط البعير - ألم تكسر رباعيته[٣] يوم أُحُد ويُشجّ ويسيل دمه ﷺ ؟ .

فرسول الله ناله مع ربه عز وجل إيذاءٌ بالقول ، ثم ناله إيذاءٌ آخر بالفعل ، إيذاءٌ بشريّ فيه إيلام ، وقمةُ الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

فلا تكُنْ يا محمد كيونس عليه السلام صاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً ولم يصبر على عدم إيمان قومه به وبدعوته ، فنادى ودعا ربه وهو مستشيطٌ غضباً من تكذيب قومه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩ ﴾

لولا أن الحق سبحانه تداركه عبده يونس عليه السلام برحمة منه لأُلْقي ونُبذ بالعراء وهي الأرض التي لا زرعَ فيها ولا نبات .

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٤٢٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢ / ٤١٦) والسهيلي في الروض الأنف (٤ / ٢٦) وابن كثير في السيرة النبوية (٢/ ١٥٠)

(٢) سلا البعير : السَّلَى الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وهو في الناس المشيمة. وفي الماشية السلا [لسان العرب - مادة سلا]

(٣) الرباعية : إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا ، بين الثنية والناب تكون للإنسان وغيره والجمع رباعيات قال الأصمعي : للإنسان من فوق ثنيتان ورباعيتان بعدهما ونابان وضاحكان وستة أرحاء من كل جانب وناجذان ، وكذلك من أسفل [لسان العرب - مادة ربع]

فيونس عليه السلام كان مكظوماً مكروباً مغموماً من الغم الذى أصابه بسبب إلقائه فى البحر وابتلاع الحوت له ولُبْثه فى بطن الحوت .

وابتلاع الحوت له هو فى حد ذاته نعمة من ربه ، فلولا التقامُ الحوت له لضاع فى البحر الواسع وقد لا يخرُج منه ولا يصل إليه أحد ، ولكن الله تداركه برحمته ، فحدد الظرف الذى يكون فيه وهو بطن الحوت .

ورحمة الله تداركتْه بأنه لم يُنبذ بالعراء وهو مذموم بل نُبذ بالعراء وهو سقيم ، والسقيم المريض ، فنُبذ مريضاً ولم ينبذ مجرماً مطروداً من رحمة الله. قال تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) ﴾ [الصافات]

فنبْذُ النبى يونس عليه السلام بالعراء كان قدراً مقدوراً ، ومع هذا فلا خروجَ له عما قُدر عليه ، فلو رضى العبد باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا لجرى عليه القدر وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه مع اختياره لنفسه .

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه فى المقدور العطف عليه واللطف به . فيصير بين عطف الله ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهوّن عليه ما قدَّره.

ويونس نُبذ بالعراء ولكن الله أنبتَ عليه شجرةً من يقطين ، وكلُّ شيء ينبسط مثل القرع والكرم والقثاء يُسمَّى يقطيناً .

وقد قال أبو هريرة عن يونس : طُرح بالعراء فأنبت الله عليه يقطينة فقلنا: يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : الشجرة الدباء ، هيّأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض فتفشح عليه فترويه من لبنها كلَّ عشية وبكرة حتى نبت[1].

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه قال : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ (٤٩) ﴾

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢١ / ١١٣) (١٩ / ٦٣٥) ، وابن كثير فى تفسيره (٧ / ٣٥) ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧ / ١٣٠) وعزاه لابن جرير من طريق ابن قسيط .

[القلم] بتذكير(تداركه) مع أن (نعمة) مؤنث ، ولكنه مؤنث غير حقيقى .

وكان نتيجة أن الحق سبحانه تداركه برحمته أن الله اجتباه واصطفاه وجعله نبياً ، قال الحق سبحانه :

﴿ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠ ﴾

والاجتباء الاصطفاء ، فالله اصطفاه واختاره بعد تلك المحن المتتابعة التى تعرَّض لها ، والاجتباء نعمة أخرى ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه نبياً .

الاجتباء الاصطفاء والاختيار للنبوة ، وقد كان اجتباء يونس عليه السلام عن اختبار ، وقد كان هذا مع كلٍّ من اختاره الله للنبوة ، قال تعالى عن آدم عليه السلام : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء والعصمة كان بعد التجريب ، والتحقق من أن آدم ويونس أهلٌ لهذا الاجتباء والاختيار وعلى مستوى مسئوليته ، وأنْ يحقق ما أراده الله منه.

وإذا كان كلامنا هنا هو عن يونس عليه السلام ، فإن آدم مرَّ بتجربة إيمانية مثلما مرَّ بها يونس ، وآدم مرَّ بهذه التجربة قبل أنْ يجتبيه الله للنبوة .

وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصى آدم ربّه وهو نبيّ والنبى معصوم ؟

ونقول : نعم عصى آدم ربه لكن قبل النبوة ، وكان ما يزال بشراً عادياً ، لذلك قال سبحانه فى حقه : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) ﴾ [طه]

فالاجتباء جاء بعد المعصية ، وهكذا كان يونس عليه السلام جاء اجتباؤه من الله بعد ما مرَّ به من محنة مغاضبته لقومه وهروبه منهم ، ومحنة الفُلْك وما حدث فيه ، ومحنة الإلقاء فى البحر ، ومحنة ابتلاع الحوت له ، ومحنة إلقاء الحوت له على الشط بأرض عراء كالفَرْخ الذى اهترى جلده وسقط ريشه عرياناً .

والذى اجتباه هو ﴿رَبُّهُ (٥٠)﴾ [القلم] فالحق سبحانه يذكِّرنا بربوبيته ، فالربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة ، فبربوبيته يمهل الله العصاةَ والظالمين لأنفسهم ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

فربوبيته تعالى ليست ربوبية جبروت ، بل ربوبية (الرحمن الرحيم) .

والحق سبحانه اجتبى واصطفى يونس صاحب الحوت : ﴿ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) ﴾ [القلم]

وهنا يبرز سؤالٌ هو : لأيِّ عمل هم صالحون ؟ ونحن نقول فى حياتنا: « فلان رجل صالح » ومقابله (رجل طالح) ، والإنسان صالح للخلافة ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً .

أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً .

وقد ذكر الحق سبحانه يونس عليه السلام ضمن كوكبة من أنبياء الله الصالحين ، فقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) ﴾ [الأنعام]

والصلاح والنبوة رحمة من الله لأنبيائه ، لذلك قال تعالى فى حق نبى من الأنبياء هو لوط عليه السلام : ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء]

أى أدخلناه فى ركب النبوة : ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى من الصالحين للنبوة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ (١) لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾

لم يسلم رسول الله ﷺ من سخرية الذين كفروا واستهزائهم وقد كانوا شديدى العداوة له ، فيرمونه بأنظارهم غيظاً عليه وحقداً .

فإذا قرأتَ القرآن تجدهم ينظرون إليك نظراً شديداً بالعداوة يكاد يُزلقك أى يسقطك من شدة النظر .

و (يزلقونك) من أزلقه عن موضعه إذا نحَّاه . والزلق هو السقوط ، والإزلاق: الإسقاط ، فتجد مَنْ يبغض إنساناً تجده ينظر إليه نظراً يتمنى لو صرعه به ، أو كما نقول : يأكله بنظره أكلاً .

والبعض من العلماء قال : إن الإزلاق بالأبصار أى ما تفعله العين فى المعيون أى المحسود ، وقد كان العربُ إذا أرادوا إيذاءَ أحد فى نفسه أو ماله يأتون برجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثم يرفع جانب خبائه أو خيمته ، فتمرّ به النَّعَم والإبل فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها ما يسقط صريعاً .

فكان الذين كفروا يأتون بهذا الرجل لينظر إلى رسول الله نظرَ العائن لعله يصرعه بنظره .

ولكن المتأمل لهذا يجد أن القول الأول هو الصحيح فهماً ، لأن الحاسد إنما ينظر إلى الشيء نظر استحسان وإعجاب ، ولكن الذى معنا هنا نظر بغض وكراهية وبغضاء وعداوة .

وهم كانوا يكرهون سماع القرآن ، ويكرهون مَنْ نزل عليه القرآن ، ويكرهون من أنزل القرآن على محمد ﷺ على وجه الخصوص .

---

(١) أزلقه : جعله يزلق. كأن أبصارهم أدوات إزلاق لشدة حسدهم وحقدهم [القاموس القويم ١/٢٨٩]
قال أبو إسحاق : مذهب أهل اللغة فى مثل هذا أن الكفار من شدة إبغاضهم لك وعداوتهم يكادون بنظرهم إليك نظر البُغضاء أن يصرعوك [لسان العرب - مادة : زلق]

لهذا كان إزلاقهم لرسول الله بأبصارهم إنما كان حين يُقرأ عليهم القرآن ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (٥١) ﴾ [القلم]

والذكر المقصود هنا القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] ، وقال الحق فى آية أخرى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ (٤٤) ﴾ [الزخرف] أى أن القرآن شرفٌ كبير لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ، فالقرآن شرفٌ لكم .

ويقول سبحانه : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم .

فشرفُ القوم يجيء من شرف القرآن ومن صيت القرآن ، والحق سبحانه يقول : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، فشرفه دائم أبداً .

وهم سمعوا الذكر ، ولكنهم لم يتعرَّضوا هنا للطعن فى الذكر الذى هو القرآن، بل تعرَّضوا بالطعن للذى سمعوا منه القرآن فقالوا : ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

وهذا من عمى بصيرتهم وضلالهم ، وهم فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر]

وهذا قول يؤكد غباء تفكيرهم ، فما داموا قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (٦) ﴾ [الحجر]

فمَنْ الذى نزَّل هذا الذكر ؟ والذكر هو القرآن والذى نزّله هو الله سبحانه ، فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ثم يتهمون الرسول بأنه مجنون ؟

لأنهم ما داموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر وإنه قد نزل عليه ولم يأت به من عنده، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وكيف يقولون عن رسول الله إنه مجنون ، والمجنون يتصرف بلا منطق ، يضحك بلا سبب ، ويبكى بلا سبب ، ويضرب الناس بلا سبب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بدأ هذه السورة سورة القلم بالرد على الكافرين الذين رموا رسول الله بالجنون، فقال تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

وأنهى سبحانه السورة بالرد أيضاً عليهم فى نفس الفرية ، فقال تعالى : ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ [القلم]

ثم يردف الحق سبحانه فيقول :

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾

الحق استخدم أسلوب القصر لتأكيد أن القرآن ما هو إلا ذكر ، فاستخدم سبحانه (ما) التى للنفى ثم الضمير المنفصل (هو) العائد إلى القرآن حَصْراً، ثم أداة الاستثناء (إلا) .

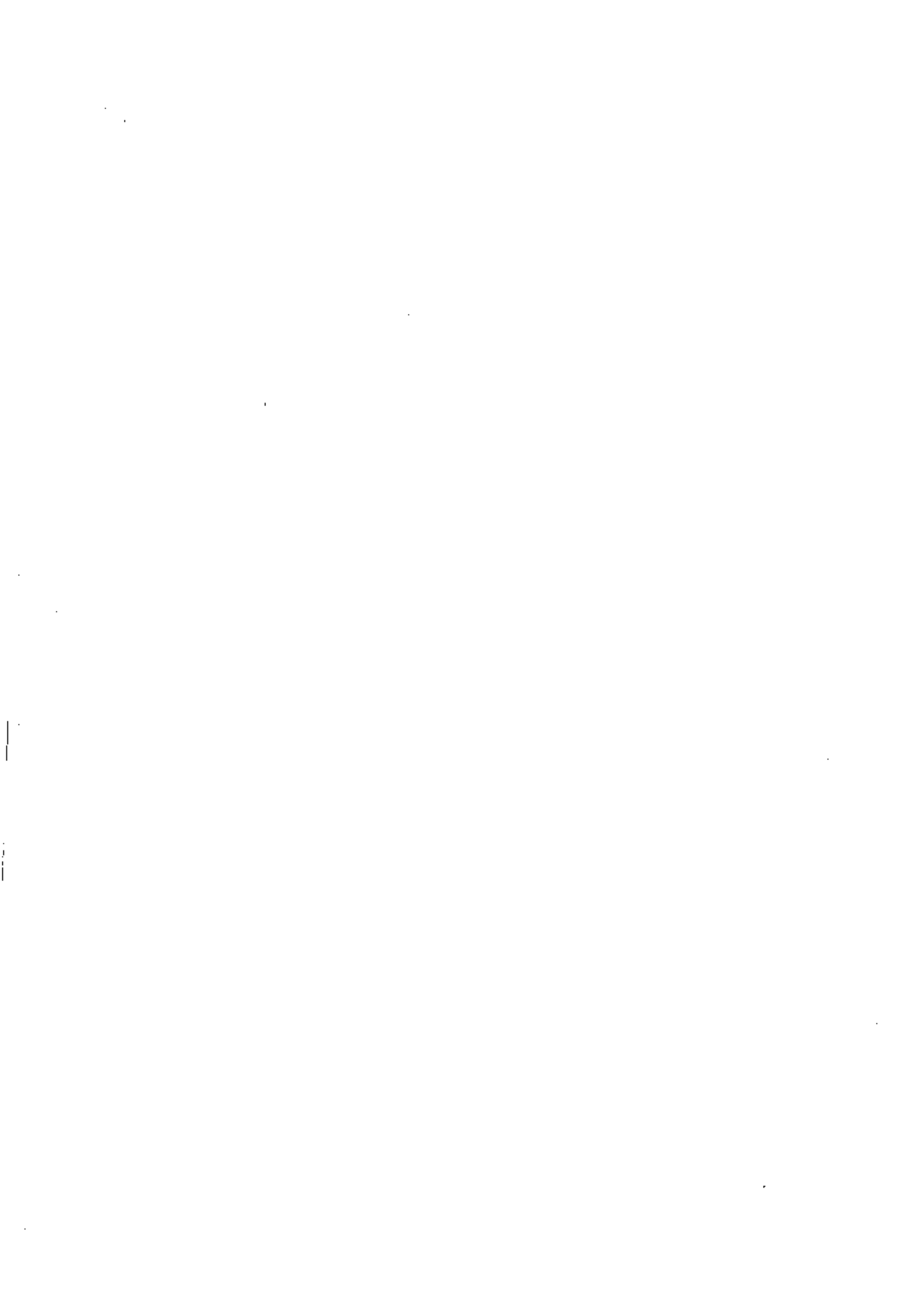
ومثلها قوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف] وكلمة (ذكر) تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أنْ تظل واعية ذاكرةً لله ، وقد قدَّر الله غفلة الأحداث فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

وكلمة (العالمين) جمع عالَم ، والعالَم هو ما سوى الله تعالى : عالم الملائكة وعالم الجن وعالم الإنس وعالم الجماد وعالم الحيوان وعالم النبات . إلا أن بعض هذه العوالم لم يأتها بشير ولا نذير ، لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيَّر .

---

(١) غير ممنون : غير مقطوع أى دائم . غير ممنون : غير منقوص. قاله مجاهد ومقاتل بن سليمان . وقال التسترى فى تفسيره (١ / ١٩٩) : « أى لا ينقطع عنهم أجور أعمالهم وإن ضعفوا عنها».

سُورَةُ الحَاقَّةِ



سورة الحاقة[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾

الحاقة يوم القيامة الثابتة حقيقتها التى لا تتزحزح ، فالحاقة اسم من أسماء القيامة ، فهو يوم الواقعة التى لا واقعةَ بعدها ، ويوم الصّاخة التى تصخ الآذان التى انصرفت عنها فى الدنيا ، ويوم الطامة التى تطمّ ، ويوم الدين أى الذى يقع فيه الدين أي الحساب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ (حقت) أى أصبحت حقاً له ووجبت له بما قدَّم من أعمال لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم وما وجبت لهم إلا بما عملوا .

---

(١) سورة الحاقة سورة مكية ، عدد آياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة الملك وقبل سورة المعارج ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾ [المعارج] فهى السورة رقم (٧٧) فى ترتيب النزول بمكة ، أما فى ترتيب المصحف الشريف فهى السورة رقم (٦٩) . قال أبو القاسم هبة الله بن سلامة فى كتابه (علوم القرآن) (١ / ١٨٤) : « جميعها محكم وليس فيها ناسخ ولا منسوخ»

ونجد قول الحق : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ (١٦) ﴾ [الإسراء]

أى أوجب لها العذاب ، فمن ارتكب جناية أو ما يستوجب العقوبة حقَّت عليه العقوبة وأصبح ثابتاً فى حقه ، وكذلك حقَّت كلمة ربك على هؤلاء الذين فسقوا ولا ينتهون عن فسقهم وكفرهم .

فالحاقة الساعة التى تحقُّ فيها حقائق الأعمال فيحق للكافرين عملهم ويحق للمؤمنين عملهم ، ويحق فيه جزاء الأعمال لكل طائفة .

فالحاقة هى الصادقة الواجبة الصدق ، وجميع أحكام القيامة صادقة واجبة الوقوع والوجود .

وقول الحق سبحانه ﴿ مَا الْحَاقَّةُ (٢) ﴾ [الحاقة] استفهام معناه التفخيم والتعظيم لشأنها . وسُميت القيامة حاقة لأن فيها تحقّ حقائق الأمور .

والاستفهام هنا يحقق أن يُعمل السامعُ أقصى جهده للوصول إلى ماهية الحاقة ، فرغم أن الله سبحانه ذكر كلمة (الحاقة) مُعرَّفة بـ (ال) إلا أنها كالنكرة لأن شدةَ هولها غير معروفة .

وأنت لا علمَ لك بمدى عظمتها وشدة هولها ، فهى فى العِظَم والشدة بحيث لا يبلغه درايةُ أحد ولا وهمه ، ومهما تخيلتَ حالها فهى أعظم من ذلك .

والإدراك معناه الإحاطة ، فأنت قد ترى الشمس ولكن أتدَّعى أنك أدركتها؟ لا . فوجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده ، وهناك أشياء كثيرة فى الكون موجودة وتزاول مهمتها ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود ، وليس معنى عدم إدراكنا لها أنها غير موجودة .

ثم يذكر الحق سبحانه أمر الأقوام المكذِّبة لرسلها :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾

فقوم ثمود طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وقد بيَّن لهم الحق طريق الهداية لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذَّبوا نبيَّ الله صالحاً وعقروا الناقة .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه قصَّ علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم ، فمن كذَّب بالرسل أخذه الله أخْذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ، فذكر نوحاً مع قومه ، وذكر عاداً وأخاهم هوداً ، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً ، ومدين وأخاهم شعيباً ، وقوم لوط وأخاهم لوطاً .

ومدائن صالح وآثارهم في السعودية وقد حفروا بيوتهم في صخور الجبال، ويقول الحق سبحانه عن حضارة ثمود: ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر]

وقد كان دأب الأمم السابقة التكذيب، وقد قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

فدأبهم التكذيب وجزاءُ الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب ، وإنْ كانوا قد كذَّبوا من قبلك رسلاً كثيرين فلا تحزن ، وأنت يا محمد لستَ بدعاً من الرسل .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ [١] وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

---

(١) الزُّبُر: جمع زَبُور بمعنى مكتوب . وزبر الكتاب : كتبه فهو مزبور أي مكتوب [القاموس القويم ١/ ٢٨٣]

والحق سبحانه جمع بين قوم ثمود وقوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت]

وقوم عاد كذَّبوا رسولهم : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود]

فعاد وثمود كذَّبوا الرسل ، وكذَّبوا بالبينات التي جاءتهم بها رسلهم ، وهم أيضاً كذَّبوا بالقارعة المذكورة هنا في الآية التي معنا : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

فما هي القارعة ؟ القارعة هي الشيء الذي يطرق بعنف على هاديء ساكن، ومنها نأخذ قَرْع الباب ، وهناك فَرْق بين (نقر الباب) و (قرع الباب) .

والقارعة تقرع القلوب والأسماع والجوارح بما يهز القلوب بالأهوال ، فالقارعة تقرع القلوب بشدة الخوف ، والقرع الضرب بشدة ، سُميت قارعة لأنها تقرعهم .

فالقارعة تفزع القلوب بالقرع ، وتفزع أعداء الله بالعذاب ، إنها تقرع القلوب وتغشاها وتفزعها .

فعاد وثمود كذَّبوا باليوم الآخر ، وأن هناك بعثاً وحشراً وجمعاً ليوم الجمع يوم التغابن .

والمتأمل هنا يجد في القرآن عجباً ، فالسورة سورة الحاقة ، وهي تبدأ بـ ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة] ولكن الحق سبحانه عندما ذكر تكذيب قوم هود وقوم عاد لم يقُلْ سبحانه أنهم كذَّبوا بالحاقة .

بل قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] فذكر اسماً آخر من

أسماء القيامة وهو القارعة ، فهى فوق أنها حاقة تحقُّ فيها الحقائق ويفصل الله فيها بين الخلائق ، فيحق للمؤمنين ثوابهم ويحق للكافرين عقابهم .

فوق أنها حاقة فهي أيضاً قارعة ، والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله ، والقارعة تقرع القلوب بالهول والرعب ، وتقرع الكون .

فهى تقرع قلوب الناس بهجومها عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ ﴾

الحق سبحانه ذكر ما فعله قوْمَا ثمود وعاد مُجملاً ، فقال ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة] ، هذه جريمة كل من القومين ، فالجريمة واحدة مشتركة بينهما .

أما العقوبة فمختلفتان ، وجاء الحق أولاً بالعقوبة الواقعة بقوم ثمود أنهم أُهلكوا (بالطاغية) ، وفى آية أخرى أنهم عُوقبوا وعُذِّبوا بالصيحة ، فقال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وفى آية أخرى أن قوم ثمود عُذبوا بالرجفة[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه استخدم ثلاثة أوصاف للعذاب الذى نزل بقوم هود الذين كذَّبوا أخاهم صالحاً وعقروا الناقة التى أرسلها إليهم الله : الطاغية ، الصيحة، الرجفة .

---

(١) قال الليث : الرجفة فى القرآن كل عذاب أخذ قوماً فهى رجفة وصيحة وصاعقة. وقال ابن الأنبارى : الرجفة معها تحريك الأرض . وقال ابن الأعرابى : رجف البلد إذا تزلزل [لسان العرب – مادة رجف]

هذا العذاب وهذه العقوبة جعل الواحد منهم إنْ كان واقفاً ظلَّ على وقوفه، وإنْ كان قاعداً ظلَّ على قعوده ، وإنْ كان نائماً ظلَّ على نومه . أو كما نقول: انسخطوا على هيئاتهم . فالجاثم هو مَنْ لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض.

وفى آية أخرى سمَّى الله هذا العذاب (الصاعقة) ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾ [فصلت]

والمتأمل لهذه الألفاظ الأربعة : الطاغية ، الصيحة ، الرجفة ، الصاعقة ، كلها تؤدى معنى الحدث الذى يَدْهَم ولا يمكن الفكاك منه ، حتى أنهم أُلقوا على رُكبهم وعلى جباههم بلا حركة .

وقد وصف الحق سبحانه هيئتهم بعد إرسال الصيحة التى رجفتهم ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

فأصبحوا كرماد يحترق ، فالهشيم حطام الشجر ، فكانوا كالهشيم الذى يجمعه صاحب الحظيرة ليمنع ما يدخل إلى غنمه أو غيره ، فما يبس وسقط وتفتت وداسته الأغنام أصبح هشيماً .

والطاغية التى تجاوزت الحد ، ويُقال لمن تجاوز الحدَّ طاغية بتاء التأنيث الدالة على المبالغة ، فالصيحة التى كانت هى عذاب قوم ثمود تجاوزتْ الحدود التى قد يتحملها الإنسان .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾

فمادة الصاد والراء تدل على الشدة والضجة والصخب ، فالريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوتٌ مسموع .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ (١١٧) ﴾ [آل عمران] أى أن الريح جعلت البرد شائعاً وشديداً ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريحَ فيها ويظلُّ باقياً فى منطقته تلك .

وعندما تأتى الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به ، وهذه الريح تفعل الكوارث .

فالريح الصَّرْصر هى ريحٌ فيها صوتٌ شديد مصحوب ببرد ، فالصّر فيه الشدة والبرودة والعنف ، ونعرف فى قرانا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات فيتلفها .

فالريح الصرصر ريح عقيم ضارة .

لقد تكبَّر قومُ عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه وظنوا أنهم أقوى الأقوياء وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟

فاجأهم الحق سبحانه بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤمٌ ليذيقهم عذابَ الهون والخزى والذل .

وها هو الحق سبحانه يقول عن قوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) ﴾ [فصلت]

فهى أيام نحسات ، والنحس الشؤم ، وحينما يأتى اليوم بشىء من الشر يتشاءمون منه ، فهى ريح صرصر باردة شداد ، ليس فيها من الخير شىء .

لذلك قال تعالى عنها :

(١)

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ ﴾

هذه الريح المدمرة قال عنها الحق سبحانه : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

فكلمة (ريح) تعبر عن القوة المدمرة للهواء ، فالريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة ، ولكن إنْ قابلتها ريحٌ ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين .

ولذلك حين يستخدم الحق سبحانه كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير ، أما إنْ تكلم عنها للخير فسبحانه يأتي بكلمة (رياح) ، فتعدُّد اتجاهات الرياح هو الذى يوجد التوازن فى الحياة .

فإذا أراد اللهُ أنْ يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان .

فإذا كانت هذه الريحُ ريحاً صرصراً عاتية ، ريحاً مدمرة لا تُبقي ولا تذر ، فما بالكم أنَّ الله : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ (٧) ﴾ [الحاقة] ، أى أن الله سلَّطها عليهم ، فهى مُسلَّطة عليهم ومُذلَّلة لتدميرهم .

﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] متتالية متتابعة لا تفتر ولا تضعف ولا تتوقف ، ثمانية أيام بلياليها السبعة أيام نحسات دائمات .

---

(١) الأيام الحسوم الدائمة فى الشر خاصة. وقال الفراء : الحسوم التِّباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره. وقال الجوهرى : الليالى الحسوم لأنها تحسم الخير عن أهلها (أى تمنعه وتقطعه) [لسان العرب – مادة حسم] .

والحق سبحانه استخدم لفظة ﴿ حُسُومًا (٧) ﴾ [الحاقة] أى أنها لم تُبْقِ منهم أحداً ، مثلما نقول : حسمتُ الأمر ، أى أنهيتُه على التمام .

وقد قال رسول الله ﷺ : «ما فتح الله على عاد من الريح التى أُهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهلُ الحاضرة الريح وما فيها . قالوا : هذا عارض ممطرنا . فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة»[1].

فسمَّى الحق سبحانه الريح التى سلَّطها على قوم عاد حسوماً لأنها قتلتهم وأفنتهم ، فالحسم هو القطع ، حتى أنه يُروى أن عجوزاً من قوم عاد دخلتْ سرباً لتفلت من الريح فتبعتها الريح فقتلتها فى اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب[2] .

ولتتابع الأيام الثمانية واتصال العذاب دون انقطاع عبَّر عنه الحق سبحانه فى سورة أخرى بقوله : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر]

فكأن الأيام الثمانية بلياليها السبع كانت يوماً واحداً وذلك لاتصال العذاب لذلك قال تعالى :﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ [القمر] فهو يوم شؤم ودمار استمرَّ عليهم مدةً قدَّرها الله حتى أهلكهم عن آخرهم .

وقد كان فِعْل هذه الريح فيهم شديداً كل الشدة ، وقد كان من شدتها

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٦٠) عن ابن عمر وكذا ابن كثير فى تفسيره (٨/ ٢٠٩)

(٢) قال البغوى فى تفسيره (٥/ ١٤٤) : الأيام الحسوم التى تسميها العرب أيام العجوز ذات برد ورياح شديدة. قيل : سميت عجوزاً لأنها فى عجز الشتاء. وقيل : سميت بذلك لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سرباً فتبعتها الريح فقتلتها اليوم الثامن من نزول العذاب وانقطع العذاب .

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ (٢٠) ﴾ [القمر] فكانت هذه الريح الشديدة تنزعهم من أماكنهم وتقتلعهم وترمى بهم وتطيح بمتاعهم .

فكانت الريح تقتلعهم من أصولهم وتأخذهم من بيوتهم وترمى بهم كما تُقتلع النخلة من جذرها .

﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) ﴾ [الحاقة]

لفظة ﴿ فَتَرَى (٧) ﴾ [الحاقة] فيها من إعجاز القرآن ما فيها ، وكأنها تضع السامع لها أو القارئ لها فى موقف المشاهد لما نزل بهؤلاء القوم من العذاب وكأنه يطلع عليهم اطلاعَ المراقب المشاهد .

والحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ (فترى) ولكنه يخاطب كل مَنْ يقرأ القرآن، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فترى القوم موتى قتلى مطروحين ، كأنهم أعجاز نخل ساقطة فكأنهم أصول نخل منقطعة عن أماكنها ومطروحة بالأرض، لذلك قال تعالى : ﴿ صَرْعَى (٧) ﴾ [الحاقة]

فترى قوم عاد فى تلك السبع الليالى والثمانية الأيام المتتابعة صرعى هالكين ، كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف لم يبق منهم ولا من نسلهم أحد.

﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾

مازال خطاب الله سبحانه موجهاً لرسول الله ﷺ ، أطلع الحق سبحانه

رسوله على مشهد هذه العاصفة المدمرة وما فعلته بقوم عاد فجعلتهم قتلى صَرْعى كأعجاز النخل المقطوعة من أصولها الملقاة كيفما كانت .

وها أنت مطلع يا محمد على هذا المنظر الكئيب ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]، فهل شاهدتَ أحداً منهم على قيد الحياة ، لقد استأصلتهم ريح الدَّبور[1] وأتت عليهم أجمعين .

ويقول الحق سبحانه عن عقاب وعذاب الأمم السابقة : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم]

والركز : الصوت الخفى الذى لا تكاد تسمعه . وحين تسمع هذا السؤال : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم] لا يسعك إلا أنْ تجيب : لا أحسّ منهم من أحد ولا أسمع لهم ركزاً .

فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء ، فهل ترى لهم من نفس باقية ؟ فلم يبق منهم أحدٌ ولم يبق منهم أثرٌ . ولم يبق من نسل أولئك أحدٌ .

﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ (٢٥) ﴾ [الأحقاف] ، ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ[2] الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾ [الأعراف]

وقد قال رسول الله : « نُصرت بالصَّبا[3] وأُهلكت عاد بالدبور»[4] .

---

(١) الدبور : ريح تهب من جهة المغرب متجهة نحو المشرق . أى أنها ريح غربية شرقية تأتى من خلفك وأنت متجه نحو القبلة لذلك سميت دبوراً .

(٢) دابر الشيء : آخره . وقال الأصمعي : الدابر الأصل أى أذهب الله أصله . ودابر القوم : جميعهم حتى لايبقى منهم أحد [لسان العرب – مادة دبر]

(٣) الصبا : ريح لطيفة تهب من المشرق

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٥٥) (٢٠١٣) من حديث ابن عباس ، وكذا عبد بن حميد فى مسنده (٦٣٧) والبزار فى مسنده (٤٨٩٤)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه بدأ ذكر الأقوام الهالكة بذكر قوم ثمود وقوم عاد ، وكلهم هلكوا فى الأزمان البعيدة المتباعدة ولم يبق من نسل ثمود وعاد أحد رغم أنهم كانوا أشدَّ قوة ومنعة .

ففرعون جاء بالخاطئة وكذلك من قبله من الأمم جاءوا أيضاً بالخاطئة ، وجاءت المؤتفكات بالخاطئة .

والمؤتفكات أى قرى قوم لوط ، ومعنى المؤتفك أى المنقلب . وقد جعل الله عاليها سافلها ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) ﴾ [النجم]

أى كانت عالية فأنزلها للهاوية ، والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) ﴾ [الأحقاف] أى لتصرفنا عنهم .

والمؤتفكة هى القرى التى كُفئت أعلاها إلى أسفلها ، والمؤتفكة من الإفك وهو الكذب المتعمَّد ، فالمؤتفكة أى القرى التى جُعِل عاليها سافلها فانقلبتْ فيها الأوضاع .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ[1] مَنْضُودٍ (٨٢) ﴾ [هود]

---

(١) السجيل : الطين المتحجر. والمنضود : المتتابع المنتظم السقوط عليهم . وكلمة سجيل كلمة فارسية تم تعريبها ودخولها فى لغة العرب تتكون من مقطعين (سنك) وهو الحجر و (جل) وهو الطين. أى الطين المتحجر.

فقرى قوم لوط خمس : سدوم ، دادوما ، ضعوه ، عامورا ، قتم . فانقلبتْ انقلاباً تاماً .

فقوم فرعون مصر ومَنْ جاء قبله ، وقرى قوم لوط المؤتفكات جاءوا بالخاطئة ، فما هى الخاطئة التى جاءوا بها ؟

أى جاءت هذه الأقوام بالخطأ العظيم أى بالذنب العظيم . وهو الشرك والأفعال الخاطئة ، كفعل ثمود بعقر ناقة صالح ، وككفر عاد بهود وككفر فرعون وقومه وادعائه الألوهية ، أو ما فعله قوم لوط من الأفعال الخبيثة التى لم يأتِ بها أحدٌ من العالمين من قبل .

﴿ فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾

فعصى هؤلاء الأقوام رسل الله وأنبياءه الذين أرسلهم إليهم ، فعصى كلُّ قوم رسولهم الذى أُرسل إليهم ، فعصى قوم فرعون رسولهم موسى عليه السلام ، وعصت ثمود رسولها صالحاً عليه السلام ، وعصى قوم لوط لوطاً .

وقد يسأل سائل : ولماذا لم يقل الله فعصوا رسل ربهم . بجمع (رسول) ؟

أفرد الحق سبحانه كلمة رسول للأقوام كلها ، فالرسل جميعاً مرسلون من إله واحد هو الله ، وهم جميعاً مرسلون برسالة واحدة هى الإيمان بالله وحده إيمان ربوبية وإيمان ألوهية وأنْ لا يعبدوا إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فكلمة (رسول) هنا اسم جنس يعبر عن كل الرسل الذين أرسلهم الله .

ويحتمل تأويل الآية أنهم عصوا رسالة ربهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) ﴾ [الحاقة] فكانت أخذتُهم أخذة شديدة زادت على معاصيهم التى عملوها ، وزادت على كل العذابات التى نزلتْ بالأمم السابقة ، لذلك كانت هذه الأخْذةُ رابيةً من كلِّ الأوجه .

فالحق سبحانه أخذهم أخذة رابية متزايدة متنامية متصاعدة ، وسُميت الأخذة رابية كأنها ربت وزادت بنفسها ، فاستخدم سبحانه اسم الفاعل من ربا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾

الطغيان مجاوزة الحد ، فالله تعالى جعل لكلِّ شىء فى الوجود حداً مرسوماً لا ينقص ولا يزيد ، فإنِ اتبعتَ هذا الحد الذى رسمه الله لك استقمتْ واستقامتْ حركة حياتك بلا منازع .

ولو طغا الشيءُ أفسد حركةَ الحياة حتى لو كان الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، لو طغى الماء يُغرق ويُدمر بعد أنْ كان سرَّ الحياة حال اعتداله .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِى الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فطغيانُ الماء تمرُّده على تسخيره للإنسان ، فالماء لا يخدمنا إلا بأمر الله له ، فالمخلوقات لا تخدمك بذاتك ، وإلا فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك .

فإذا تمرد الماءُ بالطوفان ، وتمردت الرياح بالعاصفة ، وتمردت الأرضُ بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر

على الكون الذى يعيش فيه .

وطغيان الماء يُعبَّر عنه فى القرآن بكلمة (الطوفان) ، فالطوفان يُراد به طغيان الماء ، والماء هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار ، فالمسائل ليست بذاتيتها بل بتوجيهات القادر عليها .

فالحق سبحانه يعذِّب بالماء كما يعذب بالنار ، مع أنهما ضدان لا يلتقيان، فلا يقدر على هذه المسألة إلا خالقهما سبحانه وتعالى .

وقصة غرق قوم نوح وأهل سبأ بعد انهيار سد مأرب أحدثا عقدة عند أهل الجزيرة العربية ، فصاروا حين يرون الماء يخافون منه ويبتعدون عنه ، حتى إذا احتاجوا لماء يذهبون إلى مكان بعيد يملأون قِرَبهم ، ذلك لعلمهم بخطر الطوفان وأنه لا يُصد ولا يرده عنهم شيء .

والطوفان أنْ يزيد الماءُ عن الحاجة الرتيبة للناس ، فبعد أنْ كان وسيلة حياة ومنه كل شيء حتى يصبح وسيلة موت وهلاك .

لذلك يمتنُّ اللهُ على الناس جميعاً بقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

فالماء تجاوز الحد الذى يزيل الشَّرَق والعطش إلى حدٍّ أنه يغرق فتجاوز الحدَّ الذى ينتفع به إلى العطب والهلاك .

والحق سبحانه يقول فى قصة نوح عليه السلام وطغيان الماء وطوفانه :
﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ[١] قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

(١) التنور : نوع من الكوانين قال الجوهرى : التنور الذى يخبز فيه . والتنور أيضاً وجه الأرض . وهو فارسى معرَّب [لسان العرب – مادة تنر] والتنور مكان تفجُّر الماء والمقصود أن الأرض تتفجر بماء كثير يشبه فوران النار فى التنور ، وكل ذلك يدل على كثرة الماء وقوة اندفاعه

ومعنى ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٤٠) ﴾ [هود] أى أن يحمل من كل الكائنات، فاحمل فى السفينة من كل شىء تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات .

فالحق سبحانه شاء أنْ يستبقى الحياة بنجاة كل ما تحتاجه الحياة بالسفينة .

و (الجارية) هنا المقصود بها السفينة جمعها جَوارٍ ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٣) ﴾ [الرحمن] فالجوارى أى التى تجرى فى البحر وتمخر عُباب البحر وأمواجه .

وهى بوارج وسفن كبيرة متعددة الأدوار ، وكذلك كانت سفينة نوح التى حمل فيها من كل الكائنات ذكراً وأنثى ، لتستمر الحياة .

وقد جعل الله الفُلْك والسفن آية من آيات الله ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ (١٦٤) ﴾ [البقرة] فالفُلْك هى السفن ، وهى تجرى فى البحر ، ولكن كيف يكون جريانُ الفلك فى الماء آية ؟

الإنسان يدرك أن الماء لو لم يكن على هذه السيولة لما استطاعتْ المراكب أو الفُلْك الإبحار فوقه ، بل لا بد أنْ يكون الماء سائلاً حتى تستطيع أنْ تجرى فوقها الفلك ، وقبل اختراع آلات البخار كانت هذه الفُلْك تجرى فى البحر بقوة الرياح ؟ لماذا ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] أى تبقى السفن راكدة واقفة لا تستطيع الحركة ، وهذا قبل اختراع آلة البخار وتسيير السفن بها .

فالله حين يشاء يعطل القوة المحركة لأى شىء فهو سبحانه يفعل، فالسفن تحتاج للريح لتتحرك وتجرى هذا إذا لم تكن تجرى فى النهر، ففى النهر الماء يجرى من أعلى إلى أسفل نحو المصبّ، أما إذا أردنا سير السفن من أسفل إلى أعلى فنحن نحتاج إلى الريح.

فالفُلْك سخَّره الله ليقضى بها الناسُ مصالحهم ومنافعهم ولينتقلوا، قال تعالى:
﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أنْ يقول: لم نعُد فى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن أو تُوجهها، لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات، نعم السفن الآن تسير بالمحركات لكن للريح معنى أوسع من ذلك، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التى تدفع السفن على صفحة الماء، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتها، أياً كانت ريحاً أم بخاراً أم كهرباء أم ذرَّة .. الخ.

والضمير فى قوله: ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] يعود فى بعض تأويلات الآية إلى الآباء الذين حملهم نوح عليه السلام فى السفينة، فحملنا الآباء وأنتم فى أصلابهم فى السفينة.

والحق سبحانه يخاطب الذين نزل فيهم القرآن، وإنما حمل أجدادهم نوحاً وولده، فالذين خُوطبوا بذلك ولد الذين حُملوا فى الجارية، فكان حمْلُ الذين حُملوا فيها من الأجداد حملاً لذريتهم.

وكان حمل آبائهم منّةً عليهم وكأنهم هم المحمولون، لأن نجاتهم سبب ولادتهم.

فمعنى ﴿ حَمَلْنَاكُمْ (١١) ﴾ [الحاقة] حملنا آباءكم لأن كلّ مَنْ على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه فى السفينة، وإنْ أراد جنس

السفن فالخطاب على حقيقته .

والمتأمل فى معنى كلمة (الجارية) يجد أن سفينة نوح كانت تسمى الفلك أثناء صناعتها ، قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾ [هود] ثم بعد ما عملها سمَّاها سفينة ، فقال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ (١٥) ﴾ [العنكبوت]

أما بعدما أصبحت جاهزة للجريان فى البحر أسماها (الجارية) ، ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) ﴾ [الحاقة]

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾

فأبقينا سفينة نوح لنجعلها تذكرةً وعبرة وآية وموعظة لكم تتعظون بها : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

و ﴿ تَذْكِرَةً (١٢) ﴾ [الحاقة] أى تذكيراً لكم أى لنجعل هلاكَ قوم نوح لكم عبرة لتعتبروا بها . فتذكروا هذه القصة فتكون لكم ولمن سمعها عبرة وعظة .

ولا يكفى أنْ تكون تذكرة فقط وموعظة وعبرة ، بل أيضاً : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة]

فالأذن الواعية حافظة لما سمعت فانتفعت بما سمعت من الموعظة ، حتى أن قتادة بن النعمان قال فى تأويل الآية : «أذنٌ سمعت وعقلتْ وأوعتْ»[1] .

فصاحب الأذن الواعية يحذر معاصى الله أنْ يعذّبه الله عليها كما عذّب مَنْ كان قبله فتسمع أذنه وتعى ما تسمعه ويعى قلبه ما سمعتْه أذنه فيعمل بمقتضاه ، فيكون هذا هو سفينة نجاته .

(١) أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٣٣٠٦) من قول قتادة بن النعمان وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٣ / ٥٧٩)

فتحفظها كل أذن لتكون عظة لمن يأتى بعد ، والهاء فى ﴿ وَتَعِيَهَا (١٢) ﴾ [الحاقة] راجعة على التذكرة وجعل للأذن وعياً ، والمعروف أن الوعى للقلب وللأذن السمع ، ولكنه استعار الوعى للأذن إما لشدة استماع الأذن ، وإما لأداء الأذن ما تسمع إلى القلب فيعيه القلب .

والوعى أنْ تحفظ الشىء فى نفسك ، كأنْ تحفظ الشىء فى عقلك أو فى قلبك ، فلا تضيع ما سمعته أذنك بترك العمل به ، فا لأذن الواعية هى التى عقلت عن الله تعالى ، وانتفعتْ بما سمعت من كتاب الله .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ ﴾

تعود بنا الآيات إلى بدايات السورة فى حديثها عن القيامة وأهوالها : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾ [الحاقة]

ثم حدثتنا الآيات عن جزاء وعقوبة الأقوام التى كذبت بالقارعة وقد نزل بهم العذاب الدنيوى ، ولكن لا مفر لهم من العذاب فى الآخرة ، وقد كانوا يكذبون به، ولكن سيفاجأون به قد واجههم ويجدون أنفسهم أمام الحقيقة واضحةً جلية، ولأنها مفاجأة لهم ، رغم أن الله أنذرهم وأرسل الله إليهم الرسل تنذرهم هذا اليوم قال :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ (١٣) ﴾ [الحاقة]

﴿ فَإِذَا (١٣) ﴾ [الحاقة] تعبر عن الفجائية . والنفخ فى الصُّور يفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

والنفخ فى الصُّور النفخة الثانية دعوةٌ للكائنات جميعاً للخروج من

قبورهم، يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ(٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور.

﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة ، لا قوْمةَ مستنكفٍ أو متقاعس أو متغطرس ، فكلٌّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة.

وهذه هى النفخة الثانية ، لأن الأولى نفخة الصعق ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

فالنفخة الأولى نفخة الصَّعْق ، والثانية نفخة البعث والقيامة ، والصُّور هو البوق الذى يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، والنافخ فيه هو إسرافيل .

وقد حدَّث رسول الله ﷺ أصحابه قال : « إن الله لما خلق السماوات والأرض خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر . قال أبو هريرة : فقلت : يا رسول الله وما الصُّور ؟ قال : القرن. قلت : وكيف هو ؟ قال : عظيم والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السماوات والأرض ، يأمر الله إسرافيلَ أنْ ينفخ ثلاث نفخات . الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق . والثالثة نفخة القيام لرب العالمين »[1] .

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده (١٠) ، وأخرجه محمد بن نصر فى كتاب (قدر الصلاة) (٢٧٣) ، وأبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب (العظمة) (٣٨٦) والبيهقى فى البعث والنشور (٦٠٩) عن أبى هريرة.

فحين فُوجئوا بالنفخ فى الصور وداهمتهم القيامة التى كانوا يكذبون بها بُهتوا ودُهشوا وخرستْ ألسنتهم عن الكلام من شدة دهشتهم ، وكيف وما كانوا ينكرونه ماثل أمامهم فجأة .

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً (١٤) ﴾

فتُحمل الأرض وما عليها ومَنْ عليها ، فتُحمل الأرض بمائها وشجرها وكل ما عليها ، وتُحمل الجبال من أماكنها فتضرب على الأرض ، فدُكتا معاً دكة واحدة .

فكُسِّرت الأرض والجبال كسْرةً واحدة فاستوتْ بما عليها . وفى آية أخرى قال : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾ [الفجر]

وقد أعطانا الله مثالاً فى الدنيا لهذا الدكِّ ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه يُذكِّرنا بدكِّ الجبل عندما طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل ، فتجلى اللهُ للجبل فجعله دكاً ، فهبط الجبل وانهار من خشية الله .

فعندما تجلَّى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً أى مفتتاً ، فصار تراباً وظهر وجه الأرض ، فالأرض والجبال قُلعا قلْعاً وضُربا فانهارت الجبال وتفتت على الأرض ، وصارت هباء مُنبثاً .

والجبل المفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، ولكنه اندكَّ وانهار، والدكُّ هو الضغط على شىء من أعلى ليسوَّى بشىء أسفل منه .

وقد بنى ذو القرنين سداً من الحديد والنحاس : ﴿ آتُونِي زُبَرَ[1] الْحَدِيدِ

---

(١) زبر الحديد : قطع الحديد . فالزبرة : القطعة من الحديد الضخمة [المعجم الوسيط ١ / ٣٨٨]

حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ[1] قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) ﴾ [الكهف]

فهو سدٌّ صَلْب عالٍ أملس من حديد مسبوك ملتهب مع نحاس مذاب ، هذا السد الذى وصفه ذو القرنين فقال : ﴿ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي (٩٨) ﴾ [الكهف]

هذا السد قال عنه الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]

فإياكم أَنْ تظنوا أن صلابة هذا السد ومتانته باقية خالدة ، إنما هذا عملٌ للدنيا فحسب ، فإذا أتى وعد الله بالآخرة والقيامة جعله الله دكاً وسوَّاه بالأرض ، ذلك لكى لا يغتروا به ولا يتمردوا على غيرهم بعد أَنْ كانوا مُستذلين مستضعفين ليأجوج ومأجوج .

فليست الجبال التى من الصخور والحجارة هى فقط التى ستندك بل أيضاً السدود المصنوعة من الفولاذ والصلب ستندك دكاً كأنها مصنوعةٌ من الورق.

ومعنى ﴿ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] أى صارتا شيئاً واحداً .

ولا يهم فى هذا كيف تدك الأرض وكيف تدك الجبال ، فالدكُّ سيحدث وإنْ كذبتم به ، فسواءٌ كان سبب الدك زلزال يوم القيامة العظيم ، أو ريح تبلغ من قوة عَصْفها أنها تحمل الأرض والجبال ، أو أن هذا يحدث بواسطة ملك من الملائكة فلا فرق ، فكلها أسبابٌ تحدث بأمر الله وكلها جندٌ من جند الله .

وقد يسأل سائلٌ : هل الجبال ستندك أم ستُنسف ، أم ستصير كالصوف

---

(١) الصدفين : رؤوس الجبلين قاله مجاهد بن جبر فى تفسيره (١ / ٤٥١) والصدفان الجبلان وبينهما وادٍ عظيم ، قاله مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢ / ٦٠١)

وذكر الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١٠٨) أن ذا القرنين قاس ما بينهما وهو فى منقطع أرض الترك مما يلى مشرق الشمس ، فوجد بُعد ما بينهما مائة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله حفر له أساساً حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً وجعل حشوه الصخور وطينه النحاس يذاب ثم يصب عليه فصار كأنه عرق من جبل تحت الأرض ثم علاه وشرفه بزبر الحديد والنحاس المذاب .

المنفوش ؟ أم ستصير كالهباء ؟ أم ستصير سراباً ؟

وكل هذه حالات للجبال أولها أنْ تندك ، ثم تصير كالعهن المنفوش أى الصوف المنفوش : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة]

فبعد اندكاكها صارت على الأرض كالصوف المنفوش فى كل جهة ، ثم تصير كالهباء وذلك أن تنقطع وتتبدد بفعل الرياح وهو قوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ[1] الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة]

ثم تُنسف الجبال أى تأخذها الريح فى كل اتجاه بعد أنْ أصبحت مبسوسة منبثة فتُؤخذ عن وجه الأرض .

إذن فالدكّ أولاً من أعلى إلى أسفل ثم صيرورته كالصوف المنفوش أو المندوف ، ثم يصير هباء منثوراً على الأرض ، ثم تنسفه الريح .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾

يوم يحدث هذا تكون قد وقعتْ الواقعة ، وكلمة (وقعت) تدل على أن شيئاً سقط من أعلى لا يستطيع أحد منعه .

ومادة كلمة (وقعت) تأتى فى المسائل الهامة العظيمة الحاسمة ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ (٨٢) ﴾ [النمل]

والوقوع هنا هو سقوط ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه بل هو الذهاب إلى الله ، والواقع هنا يدلّ على أنهم سيتعرضون لشدائد ومتاعب .

---

(١) بُسَّت الجبال : فُتِّتت وقيل : سُيِّرت [البحرالمحيط فى التفسير ١٠ / ٧٤]

وبتتبع مادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلاّ فى موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

أى أن أجره وثوابه قد ألزم الحق سبحانه ذاته العلية به لذلك قال : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (١٠٠) ﴾ [النساء]

فكلمة (وقعت) تعنى أمراً واقعاً لا مردَّ له ، والواقعة اسم من أسماء القيامة، ولها أسماء عدة لكل منها معنى وكل اسم يعطينا لقطة من هذا اليوم الخطير الفزع ، تأمل فهى : الطامة والحاقة والقارعة والصاخّة والواقعة ، لكل منها ملحظ ، وهى جامعة لكلٍّ هذه المعانى من زوايا مختلفة فى الوقت الواحد .

هذه الواقعة واقعة لا محالة : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ [الواقعة] أى ساعة أنْ تقع ليس لأحد أنْ يُكذب بها .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر ما سيحدث فى هذا اليوم العظيم على الأرض: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يذكر هنا ما سيحدث للسماء فى هذا اليوم .

﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

ومَنْ يتأمل يجد أنَّ آية : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) ﴾ [الحاقة] بين ما سيحدث فى الأرض والجبال وبين ما سيحدث للسماء ، وكأنَّ الحق سبحانه يضع الإنسان بين هذا وذاك .

فها هى الأرض التى تعرفها وتعيش عليها تندك ، وها هى الجبال تنسحق.

ولا تظن أن هناك ملجئاً لك ، فحتى السماء التى تعلوك ستنشق وستصبح

كسفاً، هل هناك هوْلٌ أكثر من هذا ؟

﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ (١٦) ﴾ [الحاقة] وانشقاق السماء ليس من ذاتها ، إنما هو امتثالٌ لأمر الله لها ، قال تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

فالسماء فوْر سماعها من الله أمره بأنْ تنشق تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، فهى بمجرد السمع نفذت أمر الحق سبحانه وتأتى لحظة الحساب .

فإذا انشقتْ السماء كُوِّرت الشمس وانكدرتْ النجوم ، فالسماء لم تسمع الأمر فقط بل نفذته فور صدوره دون أدنى ذرة من تخلُّف ، فأمر الله يُنفذ فور صدوره من الحق سبحانه .

﴿ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) ﴾ [الحاقة]

فيومئذ تكون السماءُ منشقةً مُتصدِّعة متمزقة ضعيفة ، فكلُّ ما ضعف جداً فقد وَهَى فهو واهٍ ، ووهْيُها تشقُّقها ، فأصبحتْ غير متماسكة بعد أنْ كانت محكمة شديدة قد أحكم الله بناءها .

حتى أن الحق سبحانه قال عن السماء : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات]

وكذلك قال فى خَلْق السماء : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] أى بقوة. وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات] يعنى محبوكة ومحكمة .

---

(١) رفع سمكها أى رفع بنيانها. قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء وسموك. [تفسير الثعلبى ١٠ / ١٢٧] وقال الواحدى فى تفسيره (٤ / ٤٢٠) : رفع سقفها وما ارتفع منها .

والحبكة معناها أنَّ ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحام ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء . قوية محكمة .

ولكن هذا البناء المحكم سيصبح يوم القيامة واهياً ضعيفاً متشققاً .

لقد تشققت السماء وتصدَّعت صدوعاً ، وأصبحت أنحاء وجوانب وأرجاء ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

فالملائكة على نواحى السماء وأطرافها وحافاتها ، فالأرجاء حافات السماء ونواحيها ، فإذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققتْ ، وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومَنْ عليها .

ولكن البعض من العلماء أعاد الضمير فى : ﴿ أَرْجَائِهَا (١٧) ﴾ [الحاقة] إلى الأرض أى أرجاء الأرض ، حتى أنهم رووا أن الله تعالى يأمر ملائكة سماء الدنيا فيقفون صفاً على حافات الأرض ، ثم يأمر ملائكة السماء الثانية فيُصفون خلفهم ، ثم كذلك ملائكة كل سماء ، فكلما مرَّ أحدٌ من الجن والإنس وجد الأرضَ قد أحيط بها .

فالملَك على ما لم يَهِ من أرجاء السماوات ، وأرجاؤها هى نواحيها وأطرافها وهى السماء الدنيا .

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) ﴾ [الحاقة]

كلمة العرش نجدها فى القرآن بالنسبة لله ، إما مضافاً لاسم ظاهر ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ (١٧) ﴾ [الحاقة] ، وإما مضافاً للضمير المخاطب أو الغائب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (٧) ﴾ [هود]

وإما مضافاً للتنسيب : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

وعرش الله عرش كريم ، قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإياك أنْ تفهم أن عرش ربك للسيطرة والعلو والجبروت لأنه عرش كريم .

وقد وردت كلمة (العرش) فى عروش الدنيا ، وفى عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا ترمز إلى استتباب الأمر لمنْ يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز لاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغِّص عليه شىء ولا يخرج من ملكه شىء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] ولا يُوصف العرش بأنه عظيم إلا وفى أذهان الناس عروش الملوك التى نراها فى حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل] أى بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا : ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة] فهو بمقاييس رب البشر إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشرى ، لذلك نفهمه فى إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : « سألت النبى ﷺ عن الكرسى فقال : يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[١].

ومادة العرش تدلُّ على العلو ، ومنه قيل للسقف (عرش) ويطلق العرش أيضاً على السرير مثل قوله الحق : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٦١) من حديث طويل لأبى ذر الغفارى.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾

الحق سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

حين نسمع كلمة (محيط) فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط، بحيث لا يستطيع أنْ يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ، ولاقدرة على أن يفلت منه مآلاً وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية .

وسبحانه لايشغله سمعٌ عن سمع ، ولا بصر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط واطلاعه دقيق ، لذلك يأتى جزاؤه حقاً يناسب دقة اطلاعه ، فإياك إذن أنْ تغفل هذه الحقيقة ، فربك قائم عليك ناظر إليك لا تخفى عليه منك خافية .

وقد حدثنا الحق سبحانه عن العرض على الله : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾ [الكهف]

والعرض أنْ يستقبل العارض المعروض استقبالاً منظماً يدل على كل هيئاته ، كما يستعرض القائد الجنود فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده (صفاً) أى صفوفاً منتظمة .

فالعرض على الله عملية منظمة لا يستطيع فيها أحد التخفى ، ولن يكون لأحد منها مفرّ ، وهى صفوف متداخلة بطريقة لا يُخفى فيها صفٌّ الصف الذى يليه ، فالجميع واضح بكلٍّ أحواله .

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٤٨) ﴾ [الكهف]

أى على الحالة التى نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً لا تملك شيئاً حتى ما

يستر عورتك .

والحق سبحانه يُظهر ما كان مخفياً منهم حين يعرض الكل على الله تعالى، والحق سبحانه لا تخفى عليه خافية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

فالحق سبحانه هو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتي لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لا يحاسبنا على مقتضى ما علم فحسب ، بل يحاسبنا على ما تم تسجيله علينا ، فكلُّ إنسان يقرأ كتابه بنفسه ، فسبحانه يقول : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه لا يؤاخذ الناس بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأنَّ الكتابة ليستْ كما نظن

---

(١) الأمد : الزمن والغاية . قال تعالى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦) ﴾ [الحديد] أى امتدت بهم مدة حياتهم فاغتروا فقست قلوبهم . (القاموس القويم ١ / ٣٠).

فقط ، ولكنها تسجيل للأصوات والأنفاس .

ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كُتِب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على مَنْ علّمنا ذلك أنْ يسجل الأنفاس والأصوات والحركات ، بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أنْ يكابر فيها أنْ ينكرها ؟

وَيُقال عن يوم القيامة (يوم الفاضحة) لأن كلَّ إنسان سيجد كتابه فى عنقه ويُقال له : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء]

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسانُ مكره يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أنْ ينكره .

وكأنَّ الحق سبحانه يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أنْ تحاسب نفسك .

فكلُّ ما يصدر منك مُسجَّل عليك ، ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه وتكون على نفسك حسيباً ، فكل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١٠) ﴾ [الانفطار]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها ، ونقول لهؤلاء: تعالوا إلى ما توصّل إليه العقل البشرى الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها ، وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما ترقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فالكتاب المسجَّلة فيه أعمالك هو كتابك ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة]

وكلمة ﴿ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] هى علامة على البشرى بتيسير الحساب والنجاة من عقاب النار، فالإنسان يبيض وجهه حين يأخذ الإنسان من هؤلاء كتابه بيمينه، وهذه بشرى فى الدنيا وفى الآخرة.

ويقول تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَـٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[1] (٧١) ﴾ [الإسراء]

فكونه أخذ كتابه بيمينه فهذه بشارة الخير وبداية السلامة، فإذا به يسارع إلى قراءته بل ويتباهى به بين الناس قائلاً:

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] إنه مسرورٌ بعمله الصالح الذى يحب أنْ يطلع عليه الناس.

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه وقرأه وتباهى به لم يكُنْ أعمى فى دنياه، بل كان بصيراً واعياً فاهتدى إلى منهج الله وسار عليه، فكانت هذه نهايته وهذا جزاءه.

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ (٤٩) ﴾ [الكهف] أى: وضعتْه الملائكة بأمر من الله تعالى فيعطون كلَّ واحد كتابه، فمَنْ أخذ كتابه بيمينه فرح وقال:

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة]

يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه، لأنه كتاب مشرِّف ليس فيه ما يُخجل لذلك يتباهى به ويدعو الناس إلى قراءته، فهو كالتلميذ الذى حصل على درجات عالية، فطار بها ليعرضها ويذيعها.

وهذا بخلاف مَنْ أُوتى كتابه بشماله فإنه يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨)

(١) الفتيل: ما كان فى شق النواة وبه سميت فتيلة. وقيل: الفتيل: ما يخرج من بين الإصبعين إذا فتلتهما. (لسان العرب مادة فتل).

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة]

فاحذروا أنْ تقفوا موقفاً حرجاً يوم القيامة ، ثم تُفاجأوا بكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة ، وها أنا أذكركم من الآن فى وقت السعة والتدارك ، فحاولوا التوبة إلى الله وأنْ تصلحوا ما بينكم وبين ربكم .

﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] الهاء لتنبيه السامعين أى تعالوا اقرءوا كتابيه ، فهو فرِحٌ بكتابه وبحسناته ، لذلك لا يُخفى كتابه بل يحب أنْ يُطلع الناس عليه .

والعرب تقول للواحد : هاء . وللاثنين: هاؤما . وللجماعة: هاؤموا . وهى أيضاً بمعنى خذوا اقرءوا كتابيه .

فالحق سبحانه يخبرنا عن سعادة مَنْ يُؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك ، وهو من شدة فرحه يقول لكل مَنْ لقيه هاؤم اقرءوا كتابيه . أى: خذوا اقرءوا كتابيه لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة .

ونلحظ الهاء فى آخر كلمات (كتابيه) (حسابيه) هذه هاء السكت . كأنها إشارةٌ إلى شدة الكرب فى ذلك اليوم للدلالة على أنه إذا كان هذا السعيد يسكت فى كل جملة للاستراحة لا يقدر على المضى فى الكلام ، فما الظن بغيره ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] ليس الظن هنا بمعنى الشك وإلا لو شكَّ فى أنه مُلاقٍ حسابه فى يوم القيامة لما كان مؤمناً ، ولما أخذ كتابه بيمينه .

إنما الظن هنا بمعنى اليقين فهو من ألفاظ الأضداد أى أيقنت ، وعلمت أن هناك حساباً فى الآخرة وأننى سألاقيه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ [البقرة]

لم يقل الذين يتيقنون أنهم ملاقو ربهم ، لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ

اليقين وأبدله بالظن ؟ فمجرد الظن أنك ملاق الله سبحانه كافٍ أنْ يجعلك تلتزم بالمنهج ، فما بالك إذا كنتَ متيقناً ، فمجرد الظن يكفى .

فقوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] فمجرد أنَّ القضية راجحة هذا يكفى لاتباع منهج الله فتقى نفسك من عذاب عظيم .

فمجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إنَّ المتيقن يقوم بالأعمال الصالحة من باب أوْلَى .

وقد قال قوم نوح : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ [الأعراف]

والظن رُجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن ، على حد قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ (٤٦) ﴾ [البقرة] أى : يتيقنون .

ويقول تعالى عن المجرمين : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾ [الكهف] الظن هنا يُراد منه اليقين . أى : أيقنوا أنهم واقعون فيها .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) ﴾ [الحاقة] وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

أى فى حالة من العيش مرضية فى الجنة يرضاها صاحبها ، فلا يسخط بعد دخولها أبداً ، فهو يعيش فى الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون ، فهو آمن من كل خوف ومن كل فقر .

وكلمة (راضية) اسم فاعل بمعنى اسم المفعول : مرضية ، فهى عيشة مرضية تنال رضا مَنْ يعيشها ، ولكنها أيضاً (راضية) عن أن هذا المؤمن

يتمتع بها فهى أيضاً راضية ، فالجنة تشتاق للمؤمنين بها الداخلين إليها .

إنه النعيم الذى يجعل الوجوه ناضرة ، فيقول تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين] فالنضرة تفيض على وجوههم وملامحهم ، حتى إن كلَّ راءٍ يراها .

والحق سبحانه يحدد مكان هذه العيشة الراضية ، فيقول : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) ﴾ [الحاقة]

وكلمة (الجنة) مأخوذة من (الجن) والستر ، والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعيون فقط .

أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة ، بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شيء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ﴾ [الغاشية]

والجنة عالية فى ذاتها رفيعة مجيدة ، ثم هى عالية الدرجات عالية المقامات، والجنات جمع جنة وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا .

والجنات متنوعة فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات النعيم، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك عليون الذى هو أعلى وأفضل الجنات .

ثم يصف الحق سبحانه هذه الجنة العالية ، فيقول تعالى : ﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** (٢٣) ﴾ [الحاقة] فالحق سبحانه يدنى لعبده المؤمن فاكهة الجنة حتى لا يتعبه.

وفى آية أخرى يقول سبحانه :﴿ **وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا** (١٤) ﴾ [الإنسان] أى دُليت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن ، وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار ، وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار ، لأنها تتدانى له .

وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه، وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

ومعنى الإدناء تقريب شىء من شىء ، ومن ذلك قوله تعالى هنا ﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** (٢٣) ﴾ [الحاقة] أى قريبة التناول سهلة الجنى .

وقد قال رسول الله ﷺ عن الجنة فقال «عُرضت علىَّ الجنة لو مددتُ يدى لتناولت من قطوفها» .

فقطوفها دانية أى ثمارها قريبة لمن يتناولها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً يقطفونها كيف شاؤوا ، إن شاءوا جالسين وإن شاءوا متكئين .

وقد قال البراء بن عازب : يتناول الرجل من فواكهها وهو نائم . وقال قتادة : لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك .

فإذا هَمَّ أنْ يتناول من ثمارها نزلت إليه حتى يتناول منها ما يريد . فقطوفها قريب منهم مذلل كيف شاءوا .

فثمارها قريبة التناول يأخذها الرجل كما يريد إنْ أحب أن يأخذها بيده انقادت له ، قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً ، وإن أحب أن تدنو إلى فيه دنت .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

ذكر الحق سبحانه صدر هذه الآية في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة]

وفي آية الصيام: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

وهاتان في الدنيا، في الآية الأولى لكم أن تأكلوا وتشربوا ولكن لا تفسدوا في الأرض ولا تنشروا في الأرض الفساد، فالأكل والشرب مشروط بعدم الإفساد.

وفي الآية الثانية الأكل والشرب مشروط بموعد يبدأ فيه صيامكم ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أما الآية التي معنا فهي في الآخرة، يقول تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] بدون شروط فأنت حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة]

وفي هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح في الأيام التي مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء في الآخرة.

فهذا وقت الجزاء وهو جزاء أطول وأدوم، وهو جزاء لما قدَّموا، فقوله تعالى ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فهذا تعليل ما هم فيه من النعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذِّبوا، وجزاء من عُذِّب في ديننا أن نسعده الآن في الآخرة.

وقوله ﴿ هَنِيئًا (٢٤) ﴾ [الحاقة] الهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك ، لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ والأكل ولكنه يورث متاعب صحية ، وفى هذه الحالة يكون هنيئاً غير مرىء .

ولا تخشوا شيئاً فطعامكم وشرابكم مأمون العاقبة من التخمة والسقم ، فكلوا واشربوا معشر من رضيت عنهم ، هنيئاً لكم لا تتأذون بما تأكلون ولا بما تشربون ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط أو بول .

فكلوا من ثمار الجنة وفواكهها ، واشربوا من أنهارها وعيونها ، اشربوا من ماء غير آسن ومن عسل مصفًى ، ومن لبن لم يتغير طعمه .

بل إن الله يصف شراب أهل الجنة ويصف حتى الآنية التى يُوضع فيها الشراب فهو يُقدّم لأهل الجنة فى أفضل صورة ، يقول تعالى :

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويقول تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾ [الواقعة]

وإذا كان أكل الإنسان وشربه فى الدنيا بسعى منه وتعب ونصب فإنه فى الجنة بدون سعي ولا عمل ، بل ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ (٧١) ﴾ [الزخرف] وفى آية ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ (١٧) ﴾ [الواقعة]

ويقدَّم لهم الشراب فى الأكواب يُصبُّ فيها من أباريق ، والطعام يقدَّم لهم فى صحاف من ذهب ، إنه قمة النعيم ، فالمسألة ليست (حشو بطن) فحسب ، لذلك قال ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ (٧١) ﴾ [الزخرف]

فمجرد النظر إليه فيه لذة ، فما بالك بطعمه ومذاقه ، لذلك حينما تستضيف مثلاً عزيزاً لديك تقول له : ماذا تحب أن تأكل ، لماذا ؟ لتصنع له ما يشتهيه وما تميل إليه نفسه .

والمؤمنون ينالون هذا الجزاء وهذا النعيم بما أسلفوا فى الأيام الخالية أى الأيام السالفة الماضية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ (٣٠) ﴾ [يونس] أى عرفت كل نفس ما فعلت فى الماضى .

وقد عبَّر الحق سبحانه فى آية آخرى فقال : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [الطور] أى بما كنتم تعملون فى الدنيا من أعمال الخير .

وقد قال قتادة : إن أيامكم هذه أيام خالية فهى أيام فانية تؤدى إلى أيام باقية فاعملوا فى هذه الأيام وقدِّموا فيها خيراً إن استطعتم .

ثم يذكر الحق سبحانه الفريق الآخر فيقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾

ففى مقابل مَنْ أوتى كتابه بيمينه أتى بمن أُوتى كتابه بشماله فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٢٥) ﴾ [الحاقة] ، وفى آية أخرى قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴾ [الانشقاق]

فمن أُوتى كتابه بشماله أو وراء ظهره مثله مثل من قال الله فيهم: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف]

فمن أخذ كتابه بيمينه فرح وقال : ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) ﴾ [الحاقة] يعرضه على الناس وهو فخور بما فيه لأنه كتاب مشرف لا يُخجل ، وهذا بخلاف من أوتى كتابه بشماله ، فهو الخزى والانكسار والندم على صحيفة مخجلة .

فكل ما فعلوه مُسجَّل مُسطَّر فى كتبهم .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠) ﴾ [آل عمران]

فما عملته النفس من السوء تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد .

فهم خائفون يرتعدون والحق سبحانه وتعالى يصور لنا حالة الخوف هذه ليفزع عباده ويحذرهم ويُضخم لهم العقوبة ، وهم ما يزالون فى وقت التدارك والتعديل من السلوك .

فحالتهم الأولى الإشفاق وهو عملية هبوط القلب ولجلجته ، ثم يأتى نزوع القول ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا (٤٩) ﴾ [الكهف] كأنهم يقولون : يا حسرتنا يا هلاكنا، هذا أوانك فاحضرى .

﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) ﴾ [الحاقة] فيتمنى الموت ، ليستريح من هذا البلاء فيتمنى أن لم يكن قد بُعث فيواجه أعماله السيئة أمام عينيه ، فياليت الموتة التى مُتّها فى الدنيا كانت هى الفراغ من كل ما بعدها ولم يكن بعدها حياة ولا بعث .

إنه يتمنى أكثر شىء كان يكرهه فى الدنيا وهو الموت ، لأن الموت حينها سيخلصه من مواجهة ما اقترف فى الدنيا ، فلم يكن فى الدنيا شىء أكره عنده من الموت .

فالقضية هنا هى الموتة التى تقضى عليه فتكون قضاءاً وفراغاً مما سبق من أعماله .

وفي سورة الزخرف يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأهل النار ينادون مالكاً خازن النار أن يقضى عليهم ربه بالموت ليستريحوا مما هم فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

فهم طلبوا الموت عند تطاير كتب أعمالهم حتى لا يروا أعمالهم القبيحة، ولكن هذا لم يُجْد وحُوسبوا ، وها هم يطلبون الموت مرة أخرى بعد أن عاينوا العذاب وأصبحوا وسط النار .

فقوله (ليقض) هنا معناها يميتنا . ولكن كيف يميتهم الله والموت قد أُتى به على هيئة كبش وذُبِح أمام الجميع ، وقيل لأهل الجنة : خلود بلا موت . وقيل لأهل النار : خلود بلا موت .

وهكذا قضى الله الأمر ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويريحهم فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه حيث جاء بالموت مُشخصاً وذبحه أمامهم ، فلا موت بعد الآن فقد مات الموت .

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) ﴾ [الحاقة] فمالى لم يدفع عنى شيئاً ، ولم يغننى عن العذاب ومقابلة ما أسلفت فى الدنيا من أعمال السوء والقبح .

فمالى ما أغنى عنى من النار ، فكثرة مالى تخلت عنى فأنا حتى لم أؤد منه حق الله ولم أصل به قرابتى . فماله الذى كان يملكه فى الدنيا من عذاب الله لم ينفعه رغم أنه أراد افتداء نفسه به .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ.. (٩١) ﴾ [آل عمران]

فلن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه فى الآخرة إنْ كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه ؟

لا ، إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ، لأنه لم يعُدْ يملك شيئاً فى الآخرة .

ويقول سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ [الزمر]

ويقولون : خذوا ما نملك كله واعتقونى لكن لا يُستجاب لهم .

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] السلطان القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أنْ يكون سلطانَ الحجة فيقنعك بفعل ما تفعله . وإما أنْ يكون سلطان القوة فيرغمك أنْ تفعل .

السلطان إذن نوعان : سلطان حجة وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أنْ تفعل وأنت مقتنع .

أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما .

فالسلطانُ هو القوة العالية التى تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة .

والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فالفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسانَ على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع .

لذلك فتأويل الآية يحتمل الأمرين معاً :

﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) ﴾ [الحاقة] أى ضلَّتْ عنِّى حجتى التى كنتُ أحتج بها فى الدنيا . أو زال عنى مُلْكى وقوتى وتسلطى على الناس وبقيتُ ذليلاً حقيراً .

قد ذهبتْ عنى حجتى وضلَّتْ فلا حجةَ لى أحتجُّ بها ولا بينةَ لي، وذهب عني سلطانى الذى كان فى الدنيا .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ (٢٥)﴾ [الحاقة] ويضع معه قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠)﴾ [الانشقاق] يجد عجباً .فكيف يُؤتى كتابه بشماله ، وفى آية يُؤتى كتابه وراء ظهره ، وقد اجتهد العلماءُ فى تأويل هذا ، حتى أن البعض من العلماء قال : تُلْوَى يده اليسرى من صدره خلف ظهره ثم يُعطى كتابه[1] .

فأيمانهم تُغلّ إلى أعناقهم ، وشمائلهم تكون وراء ظهورهم .

والبعض من العلماء أخذ آية الحاقة وإتيان الكتاب بالشمال لعصاة المؤمنين ومرتكبى الكبائر ، أما الذين أوتوا الكتاب وراء ظهورهم ، فأخذوها على أنهم الكافرون أصحاب النار ، وتمام الآيات ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) ﴾ [الانشقاق]

والثبور الهلاك ، فهو يدعو بالويل والهلاك عند إعطائه كتابه بشماله من وراء ظهره ، فكان هذا جمعاً بين الآيتين فهم يأخذون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم لبشاعة ما فيها لا يريدون رؤيتها .

وفى الآيات رنَّة حزينة تعبر عن الحسرة الممتدة فى قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾ [الحاقة]

فى أواخر الخمس الآيات نجد هاء السكت فى طرف الفاصلة الساكنة ، وفى

(١) قاله ابن السائب . ذكره الإمام البغوى فى تفسيره (١٤٨/٥) طبعة إحياء التراث العربى بيروت (١٤٢٠هـ).

ياء العلة قبلها بعد المدّ بالألف فى تحزُّن وتحسُّر.

(كتابيه) (حسابيه) (القاضيه) (ماليه) (سلطانيه)

ولا يقطع هذه الرنَّة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوى الجاسم بجلاله وهَوْله وروعته ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا(١) سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة]

إنه هول ورعب قاتل.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ ﴾

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] أى اجمعوا يديه إلى عنقه. فالغَلّ من غَلّ اليد إلى العنق أو يُشد قدمه برقبته ثم يُجرُّ على وجهه، فإذا سمع الملائكةُ الأمرَ من الله ابتدره سبعون ألف مَلَكٍ أيُّهم يجعل الغل فى عنقه، فيُغلّ بالأغلال الضيقة الثقيلة.

إنه الجزاء الرهيب والقضاء الخطير من الله سبحانه، فبعد طول انتظار لانتهاء الحساب وتطاير الكتب ليقرأ كلٌّ منهم ذنوبه ومعاصيه أو كفره بالله ورسوله، فإذا الحكم يصدر رهيباً مجلجلاً.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠)﴾ [الحاقة] تجهيز للمذنب الذى صدر ضده الحكم، إنه مشهد رهيب يسمع بأذنيه الحكم عليه، ويرى بعينيه كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجلل فى ذلك الظالم لنفسه.

والغُلّ هو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة، فالغُلُّ هو

---

(١) ذرعها أى مقدارها وقياسها وهو كناية عن الإذلال والإرهاق للمذنبين يوم القيامة. والذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٥٧ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً.

طوْقُ الحديد الذى له طرف فى كل يد ليقيدها ، وطرف معلّق فى الرقبة ليقلل من مساحة حركة اليدين لمزيد من الإذلال والإهانة .

يقول تعالى : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾ [الرعد]

أما الأصفاد فهى القيود التى توضع فى القدمين فيُقيَّدون من أرجلهم .

﴿ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١)﴾ [الحاقة] الجحيم : جهنم . أى أدخلوه النار ليَصْلَى عذاب جهنم ويحترق فيها ، ومنها قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾ [الصافات] وقوله ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥)﴾ [الليل] أى لا يدخلها إلا الأشقى .

والجحيم النار العظمى فهو كان يتعظّم على الناس ، لذلك قال من قبل ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾ [الحاقة]

فلا تُدخلوه إلا الجحيم ولا تحرقوه إلا فيها ، وهى النار العظمى ليكون الجزاءُ على وفق المعصية حيث كان يتعاظم على الناس .

﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾[الحاقة] والسلسلة حلَقٌ منتظمة كل حلقة منها فى حلقة ذرْعها أى مقدارها سبعون ذراعاً، كلُّ ذراع سبعون باعاً ، كلُّ باع أبعد مما بين الكوفة ومكة.

﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾[الحاقة] تُسلك فى دُبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه ، والسلسلة حِلَق منتظمة وكل شيء مستمر بعد شيء على الولاء والنظام فهو مسلسل .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان] ، ويقول تعالى :﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١)﴾ [غافر]

فمعنى ﴿ فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة] أى فادخلوه ، وإدخاله فيها بأن تُلفَّ على جسده وتُلْوى عليه من جميع جهاته فيبقى مُرهقاً فيما بينها لا يستطيع حراكاً ما.

وهذا تأويلٌ فى الآية أيضاً ، فالسلسلة تُلفُّ على جسده مرات حتى تستغرقه فيكون قد أدخل فيها لأن معنى السَّلْك الإدخال .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾

قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) ﴾ [الحاقة] فلا يُصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، فالحق سبحانه لم يعاقبه ظلماً فالله قد حرم الظلم على نفسه ، وكأنه يقول لخزنة جهنم : افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

فهذه حيثيات حكمه سبحانه عليه ، ودائماً تأتى الحيثيات بعد إصدار الحكم، فأنت عندما ترى حكماً من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو البراءة .

فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا ، وهذه هى الحيثيات ، و(الحيثيات) مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا كذا ، أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا .

إذن فحيثيات الحكم معناها التبريرات التى تدلُّ على سند الحكم لمن حكم .

فحيثية تعذيبه أنه لا يصدِّق بوحدانية الله وعظمته ، افعلوا ذلك به جزاءً له على كفره بالله فى الدنيا .

ولكن لماذا استخدم الحق سبحانه هنا اسم الله (العظيم) فالحق سبحانه عظيم ، ومن عظمة الله أنه تجلَّى على الخلق بصفات من صفاته .

فالقويّ يعين الضعيف ، والحق سبحانه له مطلق القوة ويهَبُ الخَلْق من حكمته حكمةً ، ومن قبْضه قبضاً ، ومن البسْط بَسْطاً ، ومن غِناه غنىً ، ولكن الصفات الحسنى كلها ذاتية فيه وموهوبة منه لنا .

ومن عظمة الحق سبحانه أنْ يكون له الكبرياءُ ، فساعة يعلم الجميع أن

الكبرياء لله وحده لا يتكبَّر أحدٌ على أحد ، فالذى يتعالى لا يتعالى إلا فى غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه .

وإلا فالذى يستحضر عظمة ربه وكبريائه لا بد له أن يتواضع وأن يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحى أنْ يتكبَّر على خَلْقه .

فلو كان يستحضر عظمة ربه لآمن وصدَّق بوحدانية الله واستحقاقه وحده للعبودية واتباع منهجه .

ومشكلة هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم ولا تشعر من حياته أنه يُقرّ بوجود الله وإنْ أسلم فتجده دائماً حيث لا يرضى الله ، وهو كما لا يشعر ولا يستحضر عظمة الله .

فهو أيضاً لا يُحس ولا يشعر بالمساكين والفقراء من حوله ، فهو كما أنه لا يستحضر الخالق العظيم لا يستحضر وجود فقراء محتاجين ومعوزين .

فتجده ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤)﴾ [الحاقة] وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر]

فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حقَّ الضعفاء فيه هو وبال وشرٌّ . وعندما سمع الأغنياءُ هذا القول عرفوا سلوكهم ، فكأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكأن فى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨)﴾ [الفجر] ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حُضُّوا غيركم على العطاء.

فالذى لا يملك يمكنه أنْ يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحضُّ هو كلام ، والكلام من العمل .

فقلب هذا الذى لا يؤمن بالله العظيم قد خلا من الإيمان بالله فهو قلبٌ موات خرب بور وهو خُلو من النور ، وهو قلب قد خلا أيضاً من الرحمة بالعباد ، والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة .

فهذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين ، ولم يحض على طعامه ، وهذا واجب اجتماعي يتحاضّ عليه المؤمنون .

لذلك اعتبر عدم التحاضّ والتواصي على إطعام المسكين قبيحاً مستنكراً ، فلو كان يؤمن بالله العظيم ويستحضر عظمته سبحانه ، ولو صدَّق بالدين حقاً ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدُعّ اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحضّ على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالله وبالدين ليست كلمة تُقال باللسان ، إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية المحتاجين إلى الرعاية والحماية .

وهذا يجعلنا نقطع بأنه لا يطعم المسكين ولا يحضّ على إطعامه، ولا يحسّ بالفقير إلا مَنْ آمن بالله العظيم وصدَّق بوحدانية الله.

إنهم ينسون أن المال الذي لديهم لكي يكون نعمة لا نقمة ، لا بد أنْ يُطعموا المسكين أو حتى يحضوا عليه ، فأيُّ نعمة في مال يكون وبالاً على صاحبه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إنه لم يؤمن بالله العظيم في الدنيا ولم يحض على طعام المسكين، لقد تخلّى عن الناس في حياته وعن مساعدتهم والوقوف بجانبهم في محنتهم الدنيوية ، ولم يؤمن بالله ، فأين يجد النصير له .

فلن يجد الله بجانبه ، ولن يجد الناس يقفون بجانبه ، حتى جوارحه ستتخلى عنه وستشهد عليه .

والحميم القريب المشفق الذى يرقّ ويحترق قلبه له أو يحميه مما نزل به، فليس له فى الآخرة قريبٌ يدفع عنه، ويحزن عليه، فليس له من صديق يستطيع أنْ يُخلّصه وينقذه من عذاب الله، أو يتطوع بالنيابة عنه فى تحمل العقاب.

فليس له صديقٌ ملاطف وادٌّ، لطيف المودة، فلا قريبَ ينفعه أو يشفع له لأنه يوم يفرّ فيه القريب من قريبه، ويهرب عنده الحبيبُ من حبيبه.

بل إنه حتى لو كان له خليلٌ يناصره فى الدنيا ويقف بجانبه فيما هو فيه، فإنه يوم القيامة يتخلّى عنه ويكون له عدواً، يقول تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

فالمتقون يعين بعضهم بعضاً على الطاعة، فالواحد منهم يقول لصاحبه: كنتَ تعيننى على الطاعة، كنت توجهنى وتذكّرنى إنْ غفلت فيزداد الحب بينهما، لكن الإنسان يلعن مَنْ أغواه.

فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم، لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصيته، أما مَنْ كانوا يجتمعون فى الدنيا على المعصية فكلٌّ منهم يلعن الآخر.

فهؤلاء ليس لهم يوم القيامة من ينقذهم من عذاب الله تعالى، لأنه يوم يفرّ فيه القريبُ من قريبه، ويهرب الحبيبُ من حبيبه.

وإذا كان قُطِع من الرفاق والأصدقاء والأنصار فإنهم محرومون من الطعام إلا من الغسلين، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) ﴾ [الحاقة]

والغسلين هو غُسالة أهل جهنم من قيح وصديد، وما يسيل من أبدانهم من القيح والصديد والدم، أى ليس لهؤلاء الأشقياء التعساء طعام يطعمونه إلا هذا الصنف البشع المنتن.

وهكذا تصير النكبة نكبتينْ، نكبة عدم وجود نصير، ثم نكبة أكل الصديد المتخلّف عن لحوم أهل النار وعُصارتهم وصديدهم، وهو شرُّ الطعام وأخبثه وأبشعه.

---

(١) الأخلاء جمع خِلّ وهو الصديق المخلص. [القاموس القويم ١/ ٢٠٨]

وقد قال ابن عباس: الغسلين ما يسقط عن عروقهم وذاب من أجسادهم[١].

ولكي نعرف مدى بشاعة هذا الطعام ننصت لابن عباس وهو يقول: لو أن قطرة من الغسلين وقعت فى الأرض أفسدت على الناس معايشهم[٢].

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية] والضريع شجر فى النار يشبه الشوك أمرّ من الصبر، وأنتنُ من الجيفة وهو شرُّ الطعام وأبشعه وأخبثه.

وهو طعامٌ يجدون غُصَّة فى حلوقهم عند الرضا به وتناوله، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] فهو طعام لا يُستساغ ويعترض وينشب فى الحلوق.

فسواء كان الطعام غِسْليناً أو ضريعاً أو زقُّوماً فهو ذو غُصَّة يقف فى الحلق، لأنه طعام بشع مستقذر لا تستسيغه الدوابّ، فكيف يستسيغه البشر؟

﴿ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾ [الحاقة] فهذا الطعام مُخصَّص ومقتصر ومقصور على الخاطئين، فالخاطئون جمع خاطيء وهو الذى يتعمد فعل الذنب.

هؤلاء الذين يتعمدون ويقصدون فعل الآثام والذنوب، ولذا لا يدخلون تحت عفو الله وغفرانه، لأنهم جاهروا الله بالمعاصى، وقد قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتى معافى إلا المجاهرون»[٣]

والخاطئون أيضاً هم المذنبون الذين ذنوبهم كفر بالله، الكافرون المشركون.

والخاطيء اسم فاعل من خطيء يخطأ إذا فعل غير الصواب متعمداً،

---

(١) أورده السمرقندى فى تفسيره بحر العلوم (٣/٤٩١) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو الحسن الواحدى النيسابورى (ت ٤٦٨ هـ) فى كتابه (الوسيط فى تفسير القرآن المجيد) دار الكتب العلمية بيروت (٤/ ٣٤٨) من رواية مجاهد بن جبر عن ابن عباس.

(٣) أخرجه أبو بكر البزار (ت ٢٩٢ هـ) فى مسنده البحر الزخار (٨٠٩٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه وتمامه «وإن من الجهار أن يعمل الرجل سراً ثم يخبر به». وأخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق (٤٥٣) عن ابن عمر ولفظه «يعمل الرجل سوءاً».

والمخطيء مَنْ يفعله غير متعمد ، فالخاطئون المتعمَّدون للخطايا لا غيرهم، أما المخطيء فهو مَنْ قصد الخير فلم يُصبه بغير تعمد .

وقد قال تعالى :﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ (٥)﴾ [الأحزاب] أى أردتم الصواب فلم تصيبوه .

أما الخاطئون فهم الذين تمردوا على الله تعالى وعلى منهجه ورفضوا منهجه، ويقفون حجر عثرة فى تطبيق شرعه ، فهم منصرفون عن طريق الحق.

وقد وصف الحق سبحانه الأقوام المتمردة على الله ، فقال :﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ(١) بِالْخَاطِئَةِ (٩)﴾ [الحاقة] أى ارتكبوا الفعلة الخاطئة والفعال الخاطئة أو الخاطيء أصحابها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

فأقسم بالمشاهدات المرئيات والمغيبات المستورات ، فأقسم وأحلف بما تبصرونه وتشاهدونه مما خلق الله وأبدعه ، وجعله دليلاً على كمال قدرته وعظيم إتقانه وإبداعه .

وكلمة (لا) فى قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ (٣٨) ﴾ [الحاقة] لتأكيد القسم وليست للنفى .

ومعنى (فلا أقسم) أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مقسماً لأقسمتُ به .

والقسم هنا بعموم ما نبصره وما لا نبصره ، سواء كانت هى الدنيا التى نراها أو الآخرة التى لا نراها ، وسواء كان ما نبصره هو ما فى ظاهر السماء والأرض أو ما فى باطنها .

---

(١) المؤتفكات جمع مؤتفكة وهى القرى المنقلبة عند خسفها ، فالمؤتفكات : المخسوفات وهى قرى قوم لوط التى جعل الله عاليها سافلها . [القاموس القويم ١/٢٢] .

وسواءً كان ما نبصره هو الأجسام ، وما لا نبصره ما غاب عنا من رؤية الأرواح ، وقد يكون ما نبصره هو الإنس وما لا نبصره هو الجن والملائكة .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ ﴾

قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم) جاء في القرآن مرتين، التي هنا في سورة الحاقة ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] ويقصد بها رسول الله محمد ﷺ.

أما الثانية فهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)﴾ [التكوير] فالرسول هنا جبريل.

فتارة يكون الرسول من البشر تارة ، ومن الملائكة تارة ، وفي الحالتين هو رسولٌ ليس عليه إلا البلاغ ، كما قال تعالى :﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾ [النور]

فجبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، وكذا محمد ﷺ لم يأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل، فالقرآن من عند الله ليس افتراءً على الله لا من محمد ، ولا من جبريل .

وهو رسولٌ كريم ، والكريم لا يكتم شيئاً مما أُوحى إليه .

فالقرآن الكريم يقوله ويتكلم به رسولٌ من عند الله أى يبلغه عن الله ، وليس لهذا الرسول بعد ذلك ولا قبله شأنٌ فيه .

فهذا القرآن قولُ رسول كريم على الله تعالى يعنى جبريل . ويُقال : قول رسول كريم يعنى قول رسول الله ﷺ يعنى محمداً ﷺ.

والرسول الكريم هو الوجيه عند الله المكرَّم .

وقوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ [الحاقة] هو جواب القسم ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)﴾ [الحاقة]

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ (٤١)﴾ [الحاقة]

لقد قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر ، ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر والنثر والخطابة والكتابة .

فلو كان هذا القول من غيرهم لكان مقبولاً ، ولذلك نجد منهم مَنْ تصفو نفسه فيقول : والله ما هو بقول شاعر.

وقد اتهم الكفارُ رسول الله بأنه شاعر ، وعجيب من كفار مكة وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المقفَّى بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى مجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن .

إذن : هم يعرفون الفرق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العذب الذى يستميل النفس ويؤثر فى الوجدان .

وقد حسم الحقُّ سبحانه هذا الأمر ، فقال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يعلمه الشعر لأنه لا ينبغى له أنْ يتعلمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه فالحق سبحانه لا يريد أنْ يعلم الناس أن محمداً ﷺ مرتاض على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يفاجيء الدنيا بالبيان الأعلى فى القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده .

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً، فكلُّ ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى ربِّ محمد .

وقوله الحق : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾ [يس] أى : لا يصح أنْ يكون الأمر رغم

استعداد محمد ﷺ لذلك ، وكان من الممكن أنْ يعلمه ربه الشعر وفنون القول.

ولذلك حينما قال أناسٌ : إن القرآن من عند محمد جاء القول الحق مبلّغاً محمداً ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]، فقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقُلْ قصيدة .

فالحق سبحانه لم يشأ له أنْ يكون شاعراً ، فهناك فرق بين « نفي الوجود » وبين « نفي انبغاء الوجود ».

فقد نفى الحق سبحانه عنه قول الشعر ونفى عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانّ أن النبي لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورقّة الإحساس غير متوافرة لديه ﷺ، لكن رسول الله قادر على قول الشعر إنْ أراد، فهو قادر على الحدث إلا أنه لا ينبغي له .

فالشعر مبنيٌّ على التخيُّل . لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أنَّ ما يأتي به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مرهف .

﴿ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [الحاقة] فهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا وهم يريدون أنه لا يأتينا ، أو أنهم يؤمنون ولكنهم سرعان ما يرجعون عن إيمانهم .

فقليلاً ما تؤمنون بالقرآن ولا تصدقون أنه من عند الله ، فـ (ما) هنا إنْ كانت نافية فهو نفي للإيمان بالجملة ، وإنْ كانت (ما) مصدرية فهو وصْفٌ لإيمانهم بالقلة .. وقليلاً هنا منصوبة بـ (تؤمنون) .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)﴾ [الحاقة]

فليس القرآنُ بقول شاعر ، ولا هو أيضاً بقول كاهن ، فالكهان تلهمهم وتمدّهم الشياطين بالغي والضلال ، فالله طهَّر القرآن من الكهانة وعصمه منها .

فهو ليس بقول رجل كاهن ، ولا هو من جنس الكهانة ، فمحمد ليس بكاهن

والقرآن ليس من سجع الكهان ، والكاهن هو الذى يتكهَّن ويخبر عن الغيب كذباً .

فالكاهن هو المنجِّم الذى يخبر عن أشياء أغلبها ليس صحيحاً ، والكاهن ينصِّب نفسه للدلالة على الضوائع ما يضيع من الناس ويخبرهم بمغيبات يتوهمها ويأخذ أجراً على هذا .

وهو يدَّعى أنّ الجن تخبره ، وقد يكون يستعين بالتنجيم واستطلاع النجوم أو الحسابات الفلكية .

والقرآن ليس بسجع الكهان الذى تعهدون ، حتى أن رسول الله نهى عن سجع الكهان [1].

وقد قال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت سجع الكهان ، وشعر الشعراء وخطب البلغاء فما سمعتُ شيئاً كهذا القرآن .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ [الطور]

فما فيك شيءٌ من الكهانة أبداً ، والكهانة هى العرافة وادعاء علم الغيب ، وكانوا يغرُّون الناس بأشياء فيها قليل من الحقيقة وكثير من الباطل يزيدونه من عندهم فيضلونهم .

وهؤلاء الكهان كانت لهم كلمة مسموعة ، وكان الناس يستشيرونهم ويأخذون برأيهم فى كلِّ أمور دينهم ودنياهم .

﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ [الحاقة] أى قليلاً ما تتذكرون . وأمثال هذه الآية وردت فى آيات كثيرة ، فقد قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ

---

(١) سجع الكهان : الكلام المزوق المتكلف . [القاموس الفقهى ١/٣٢٦] مادة كهن . وفى معجم مجمع اللغة العربية (الوسيط) سجع الكهان : كلامهم الموزون المتكلف . ومقصود به استمالة السامعين.

أَءِلَـٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل]

فلو تفكرتم وتذكرتم لعرفتم أن محمداً ﷺ ليس بشاعر ولا بكاهن ، وأن ما جاء به من عند الله ليس شعراً ولا هو سجعاً كسجع الكهان .

بل هو :

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٤٣) ﴾

فهو تنزيل من لدن عزيز حكيم ، والتنزيل معناه موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أُنزِل كله ثم بعد ذلك نزَّله الحق ونزل به جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ

فالحق تبارك وتعالى يوالى تنزيل القرآن عليهم آيةً بعد آية ، فلعلّ نجماً من نجومه يصادف فراغاً وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

وليس القرآن وحده تنزيلاً من رب العالمين ، فكلُّ الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صدقه فى البلاغ عن الله .

أما رسول الله فمعجزته عيْن المنهج ، القرآن المنزَّل من عند الله . ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقى من جهة أعلى منك وأرفع وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإياك أنْ يضلّ بك الفكر لناحية أخرى .

وهو : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ولأنه رب العالمين فالكون كله لا يخرج عن حكمه ، فليطمئن الناس فى الدنيا أن ربهم لن يخلقهم هملاً ولا سُدىً ولم يتركهم ، بل لأنه ربٌّ أنزل لهم منهجاً ليهديهم سبيل الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ (٤٧) ﴾

هذا مجال تهديد ووعيد لرسول الله ، ولو كان القرآنُ من عند محمد ﷺ لما ضمَّن القرآنَ هذا ، ولكن لأنه وحى من عند الله فإن رسول الله لم يكتم حرفاً واحداً من الوحى المنزَّل إليه من رب العالمين .

إنها الأمانة المطلقة والصدق الذى لا يُخفى شيئاً ، ألم يكن جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ، ويتفكروا فى صدقه ﷺ حين يخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم ؟ أليس فى ذلك دليلٌ قاطع على صدقه فيما يقول.

فاطمئنوا إلى أن القرآنَ كتابُ الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه .

﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ [1](٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين وهو مؤتمن عليه لم يتصرف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ، فلا حجةَ لنا بعد أنْ جمع الحق سبحانه وتعالى للقرآن كلّ ألوان الحفظ .

وكان بوسع رسول الله أنْ يكتم الآيات التى عاتبه الله فيها نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ..(١)﴾ [التحريم] ويقول سبحانه : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ..(٤٣)﴾ [التوبة]

لكنه ﷺ كان أميناً يقول ما له وما عليه ، فالقرآن كما نزل من عند الله لم يُغيَّر فيه حرفٌ واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة .

وكلمة (تقوَّل) أى افترى وادَّعى واختلق ، أى أتى بشيء من عند نفسه لم

---

(١) المكنون : المحفوظ ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) ﴾ [الواقعة] قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً .

نقُلْه نحن ، قاله من تلقاء نفسه ، ولم نأذن له فيه .

فلو فُرض أن محمداً افترى علينا كلمة واحدة أو قولاً من الأقوال ونحن لم نقُلْه له ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة] أى بقوة شديدة، فاليمين عند العرب أقوى من اليسار ، وإنْ كانت كلتا يدى ربى يميناً مباركة ، لكن لتقريب المعنى للناس .

و (الأقاويل) الأكاذيب المفتراة التى لا تعدو وأنْ تكون أقاويل لا حقيقة لها .

والحق سبحانه يقول فى سورة الطور ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾ [الطور]

فـ (تقوَّله) أى اختلقه وأتى به من عند نفسه ، وإذا كان محمد قد اختلقه وافتراه فلتأتوا بمثله ، فإذا كان شعراً فأنتم الأعلم والأقدر على قول الشعر ، وإنْ كان سجعاً كسجع الكهان فأنتم تعرفونه .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ(٣٤)﴾ [الطور]

ولكن لتعلموا أن محمداً لا يستطيع أنْ يختلق فى القرآن شيئاً لم نقُلْه نحن وإلا أخذناه بالقوة والقدرة وانتقمنا منه باليمين أى بالحق .

﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة] والوتين : عرق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه . وقال ابن عباس : يعنى نياط القلب ، وقد قال بعض العلماء : ليس المقصود أننا نقطعه بعينه ، بل المراد أنه لو كذب علينا لأمتناه فكان كمن قطع وتينه [١] . فالوتين هو ما نعرفه بالشريان الأورطى ويسمونه الأبهر .

﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة] فلا يقدر أحدٌ من الناس أنْ يحجزنا ويمنعنا ويحول بيننا وبينه فى أخذه بيميننا أو فى قطعنا وتينه ، إذ ليس ذلك فى قدرة أحد أو فى إمكانه .

---

(١) قاله ابن قتيبة الدينورى . ذكره الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٣٢٨/٤) دار الكتب العلمية بيروت . وكذا ذكره الرازى فى مفاتيح الغيب (٦٣٥/٣٠) . وابن عادل الدمشقى (ت ٧٧٩ هـ) فى (اللباب فى علوم الكتاب) (٣٤٥/١٩) .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه قال (من أحد) بالمفرد . ثم عبَّر سبحانه بالجمع (حاجزين) . نقول : قد قال (حاجزين) بلفظ الجمع وهو وصف أحد ردًا على معناه .

يعنى لو اجتمع آحادٌ كثيرون ، والعرب تجعل أحداً للواحد والاثنين والجمع .

وليس هناك من أحد أياً كان هذا الأحد ، مهما كانت قوته ومكانته يستطيع أنْ يحجزنا عنه ويمنعنا من معاقبته إذا تقوَّل علينا فى القرآن ما لم نقله .

لذلك قال (من أحد) . يعنى أى أحد .من بداية ما يُقال له أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾

فالقرآن ليس شعراً ولا هو بسجع الكهان ، إنما هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة] ، وهذا القرآن لم يُنزله الله بلا هدف ولا هو لمجرد القصِّ والتلاوة ، إنما للتذكرة .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الحاقة] ويقول تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

فهذا يعطينا حكمة التنزيل وغايته ، ويقول تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) ﴾ [طه]

أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرة) أى تذكيراً لمن يخشى ويخاف بمهابة .

فالقرآن تذكرة للمتقين ، والحق سبحانه يؤكد هذا باستخدام (إنَّ) فيقول (وإنه) ثم اللام (لتذكرة) .

وهو تذكرة للمتقين ، فالمتقون هم الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه

وتصلح معهم التذكرة ويستجيبون لها تبشيراً وإنذاراً، يقول تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ [الذاريات]

فالتذكرة والذكرى عظة وتذكير للمتقين الذين يتقون عقابَ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، فهم يتقون عقاب الله بطاعته.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة]، ما زال الحق سبحانه يؤكد بـ (إنّ) ثم (اللام) فيقول ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ (٤٩) ﴾ [الحاقة]

وعلمنا ليس لمن يصرح ويجاهر بالتكذيب فقط، إنما نحن نعلم حتى مَنْ يُخفى التكذيب فى قلبه ولم يصرح به.

فهم مكذِّبون بالله وبالآخرة، ولو لم يكونوا مكذِّبين بالآخرة لآمنوا واتبعوا منهج الله، وهم أيضاً مكذّبون أنه رسولٌ من الله.

وهذا وعيدٌ وتهديد للمكذبين، فنحن نعلم أن منكم مَنْ يكذِّب بالقرآن رغم وضوح إعجازه، فيقولون إنه شاعر وكهانة وأساطير الأولين، فهم كذبوا على الله.

ولكن هل (منكم) هنا تعنى من المسلمين، أى منافقون. البعض من العلماء قال هذا ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) ﴾ [الحاقة] يعنى : إنَّا لنعلم أن منكم أيها المؤمنون مكذبين بالقرآن يعنى منافقين.

ولكن هذه السورة سورة الحاقة وهى سورة مكية ولم يكن قد ظهر فيها النفاق بعد، فـ (منكم) هنا لا تعنى المؤمنين ولا المتقين إنما تعنى أهل مكة.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) ﴾ [الحاقة]

الهاء فى ﴿وَإِنَّهُ (٥٠)﴾ [الحاقة] عائدة على التكذيب المفهوم من فحوى الآية قبلها، بينما الهاء فى (وإنه) فى قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾[الحاقة] عائدة على القرآن الذى جاء به محمد ﷺ من عند الله. الذى هو ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) ﴾ [الحاقة]

والحق سبحانه يستخدم نفس أدوات التوكيد (وإنه) ثم اللام فى (لحسرة).

والحسرة ألمٌ فى القلب ، ولا تكون الحسرةُ إلا إذا أُصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ (١٦٧)﴾ [البقرة]

فالخاسر الذى خسر دنياه وآخرته بتكذيبه لله وللرسول والقرآن تجده يعيش فى الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده فى فقر دائم فى الدنيا ، وتجده يتحسَّر أكثر عندما يعاين العذاب يوم القيامة ، ويكون قد فات أوانُ الرجوع والعودة.

والحق سبحانه يقول : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)﴾ [الأنعام]

فهم لا يستطيعون كتمان حسرتهم فيقولون ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا (٣١)﴾ [الأنعام] أى على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا .

فالتكذيب بالله وبالقرآن الذى أنزله الله على محمد ﷺ سيكون حسرةً على الكافرين لأنهم سيجدون ما كذَّبوا به ماثلاً أمام أعينهم، ويحاسبهم الله على تكذيبهم وكفرهم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١)﴾ [الحاقة]

فحقُ اليقين وهو يوم يدخل المكذب الكافر النار ويباشر حرَّها ، يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ [الواقعة]

فعندنا علم اليقين وهو الصورة العلمية للنار ، وعين اليقين فى الآخرة عندما نمر على الصراط ونرى النار رؤيا العين ، ثم حقُّ اليقين وهذه للكفار حين يُلقون فيها ويباشرونها فعلاً ، ويذوقون حرَّها ولظاها .

فحقّ اليقين محضه وخالصه ، وهو من إضافة الشيء إلى نعته أو صفته ، فاليقين هنا صفة للحق ، و هو حق لا شكَّ فيه ولا شبهة بأنه مُنزَّل من لدُنا .

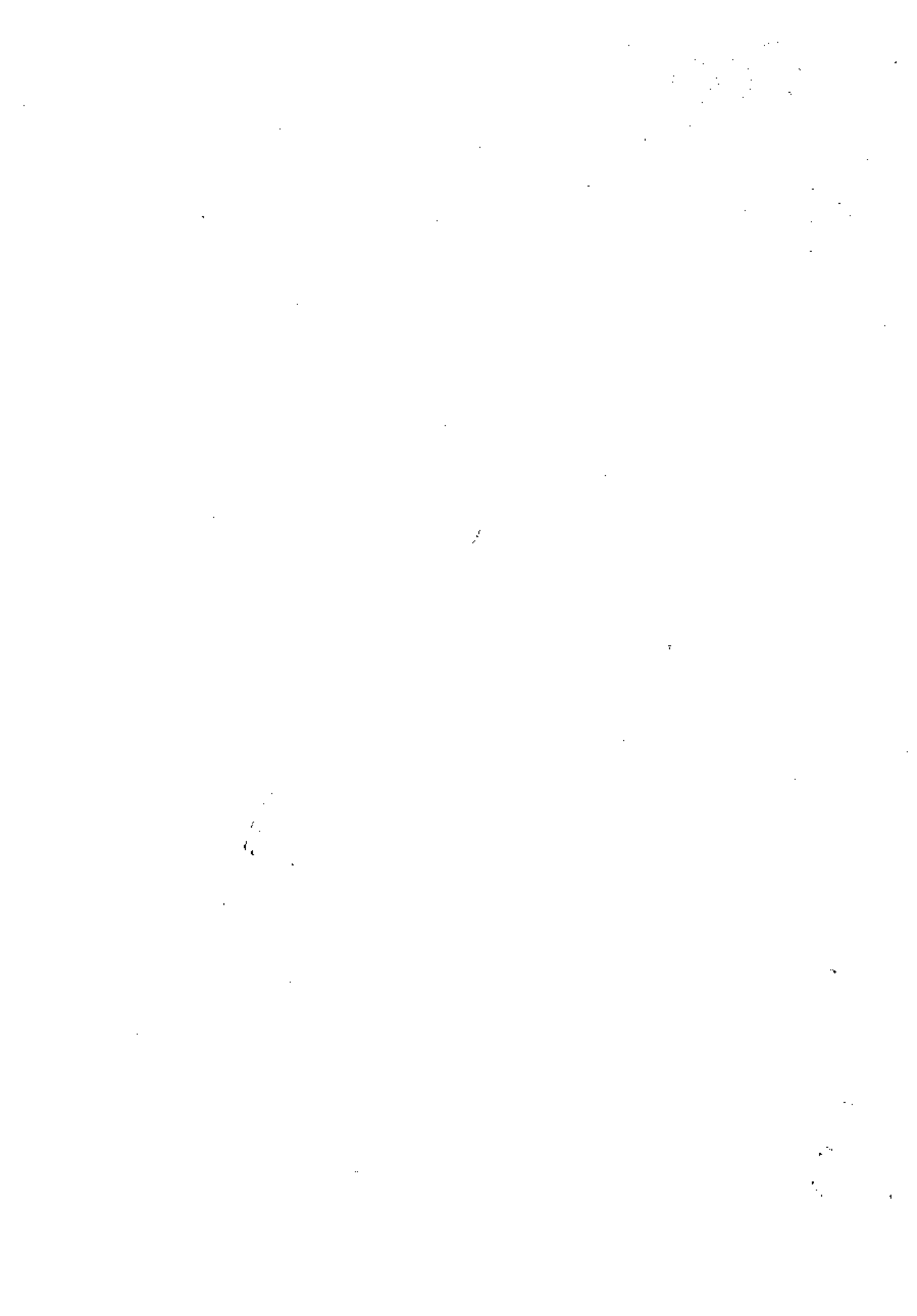
فهو حقٌّ لا بطلانَ فيه ، ويقينٌ لا ريْبَ فيه ، ثم أضيف أحد الوصفين إلى الآخر للتأكيد .

ثم يُنهي الحق سبحانه سورة الحاقة فيقول :

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢ ﴾

فنزِّه الحق سبحانه عن أنْ يكون له شريكٌ في أمور الخَلْق والكون ، بل هو سبحانه العظيم في قدرته ، العظيم في رحمته ، العظيم في حكمته ، العظيم في قيوميته على كَوْنه وخَلْقه ، العظيم في علمه ، العظيم في ثوابه ، العظيم في جزائه .


سورة المعارج



سورة المعارج[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ (١)﴾[المعارج] طلب ودعا داع ، وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب ، والسائل هو النضر بن الحارث ، فإن رسول الله ﷺ لما خوفهم نزول العذاب قال استهزاء وإنكاراً: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وقد بلغ بهم العجز إلى أنْ قالوا : إنْ كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه ؟ لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ما كانوا يقولون ذلك ، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية .

---

(١) سورة المعارج هي السورة رقم (٧٠) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٤٤ آية ، نزلت بعد سورة الحاقة ، نزلت بمكة فهي سورة مكية باتفاق . قاله القرطبي في تفسيره (٢٧٨/١٨) .

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فاهْدنا يارب إليه أو اجعلنا نؤمن به ، ولكنهم من فرط حقدهم وضلالهم تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق ؛ وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار.

ولو استجاب الحق لمثل هذا الدعاء لكان وبالاً على مَنْ دعوا ذلك الدعاء . ومَنْ قالوا هذا القول هم : العاص بن وائل السهمى ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد يهود . وكانوا قد وصلوا إلى قمة الاضطراب .

فهم قد اضطربوا أولاً حين اتهموه بأنه ساحر ، واضطربوا ثانياً وحاولوا أن يقولوا : إن القرآن شعر ، والقرآن ليس كذلك .

حاولوا أن يتهموا رسول الله بالجنون ليطعنوا فيما جاء به من القرآن حتى لا يؤمنوا به .

وقالوا (كاهن) ولكن وجدوا أنَّ كلَّ هذا لا يستقيم .

فاضطربت عقولهم فدعوا بأنْ ينزل عليهم العذاب ، وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا [1] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦)﴾ [ص]

والقِطُّ هو جزاء العمل وهو مأخوذ من القط أى القطع ، والقسط : والقط والنصيب ، فقالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : يا ربنا عجّل لنا قِطّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تُؤخِّره إلى يوم الحساب .

﴿ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١)﴾ [المعارج] أى : بعذاب نازل بهم وحاصل لا محالة .

﴿ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج] فهو عذاب للكافرين خاصَّة دون المؤمنين . واللام هنا فى ﴿ لِّلْكَافِرِينَ (٢)﴾ [المعارج] بمعنى على : أى واقع على الكافرين . ويحتمل أنْ تكون بمعنى (الباء) بمعنى : أى بالكافرين واقع .

والدافع : المانع الذى يدفع ويمنع العذاب عنه ، فليس له دافع يردُّ عنه العذاب .

---

(١) قطنا : نصيبنا ، والقط : الحساب . وذكر الأزهرى فى تهذيب اللغة (باب القاف والطاء) : أى نصيبنا من العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾

هذا العذاب واقعٌ على الكافرين من الله ذى المعارج ، والمعارج هى المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكةُ من سماء إلى سماء ، فهى مراقٍ فى السماء يُرتقى فيها .

وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(٣٣)﴾ [الزخرف] ويظهرون يعنى: يصعدون ويرتقون .

وقوْلُ الله سبحانه ﴿مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ(٤)﴾ [المعارج] يُدخِلُ الخوف والرهبة فى قلوب الكافرين ، إذ إن كل المخلوقات تحت قهر سلطانه سبحانه ، والملائكة هى من هذه المخلوقات تصعد إليه فى معارج السماوات .

﴿ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] الروح هو جبريل عليه السلام ،ذكره الحق سبحانه بعد ذكر الملائكة ، فذكْر الخاص بعد العام يعطى أهمية وعظمة للخاص لتميُّزه وفضله .

والملائكة إنما تعرج إلى الله كما تصعد أرواحُ بنى آدم إليه عند قبضها حين الموت ، فالهاء فى ﴿ إِلَيْهِ (٤)﴾ [المعارج] عائدة على اسم الله سبحانه .

وقد قال بعض أهل التأويل أن الضمير في(إليه) يعود إلى الموضع الذى لا يجرى لأحد سواه فيه حكمٌ ، فجعل عروجهم إلى ذلك الموضوع عُروجاً إليه ، كقوْل إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى (٩٩)﴾ [الصافات] أى : إلى حيث أمرنى ربى بالذهاب إليه .

﴿ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج]

ولكى نعرف معنى كلمة (يوم) عند الله كان لا بد أنْ نضم إلى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج]

فالله عزَّ وجل هو خالق الزمن ، فلذلك فإنه يستطيع أنْ يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضعٌ لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة ومنوَّعة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر ، وما أظهره الله لنا فى القرآن من الأزمنة إنما يدلُّ على اختلافها لا على التعارض والتناقض .

فإذا كان الحق سبحانه يتحدث عن العروج إليه هنا ، فيقول:

﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فإنه سبحانه ينقص هذه المدة فيقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة]

لماذا ؟ لأن الزمن عندكم فى هذه الحالة معطّل ، فأنتم من هوْلِ ما ترَوْنَ تستطيلون القصير ، ويمرّ عليكم الوقتُ ثقيلاً ، لذلك تتمنون الانصراف ولو إلى النار .

كما أن صاحب النعيم يستقصر الطويل ، ويمرُّ عليه الوقت كأنه لمح البصر .

وقد سُئِل رسول الله ﷺ عن ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ما أطولَ هذ اليوم ! فقال : والذى نفسى بيده ، إنه ليُخفَّف على المؤمن حتى يكونَ أهونَ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا [١].

---

(١) أخرجه الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٣٦/١٠) عن أبى سعيد الخدرى. وذكره ابن كثير فى تفسيره (١٠٧/٦) من رواية الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أيضاً . وكذا السيوطى فى الدر المنثور (٢٨٠/٨) وعزاه لأحمد وأبى يعلى وابن جرير وابن حبان والبيهقى فى البعث والنشور ، كلهم من حديث الخدرى .

فيوم القيامة هو فى حَقِّ المؤمن أهون عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا ، وكأنه ربع الساعة ، أما الكافر فهو فى شدة استطالته وشدته وكأنه خمسون ألف سنة .

وقد يسأل سائل : هل تحتاج الملائكة إلى خمسين ألف سنة لتعرج إلى ربها؟ لذلك قيل إنه يوم فى حساب الملائكة ، ولكن حساب هذا اليوم بحسابكم أنتم هو خمسون ألف سنة .

فالملائكة يقطعون فى يوم ما يقطعه الإنسان فى خمسين ألف سنة .

﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) ﴾

فاصبر يا محمد صبراً جميلاً ، أى صبراً حسناً لا جزعَ فيه ، اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك ، ولا يُثنيك ولا يصرفك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم الرسالة .

فاصبر صبراً جميلاً لا يشوبه استعجال واضطراب قلب ، فاصبر على سؤالهم ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾ [المعارج] لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنُّت .

فهو سؤال يستبعد وقوع يوم القيامة ووقوع العذاب بهم ، لذلك كان قول الحق سبحانه : ﴿ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج]

وهذا العذاب واقع بكم من الله صاحب العظمة فى يوم شديد طويل على الكافرين .

وقد ذكر الحق سبحانه الصبر الجميل فى حقِّ نبى الله يعقوب وعلى لسانه فقال لأبنائه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ[1] لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ (١٨) ﴾ [يوسف]

والصبر عادة يكون مؤلماً ، فكيف يكون جميلاً ؟ يكون جميلاً حينما لا

---

(١) سوَّلت : زينت . والتسويل من سُول الإنسان وهو أمنيته التى يتمناها فتزين لطالبها الباطل والغرور . [تهذيب اللغة للأزهرى س و ل] .

تكون فيه شكوى أو جزع . وهناك الهجر الجميل فى قوله تعالى :﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] الذى لا يقترن بغيبة أو نميمة أو جدال .

وقد أمر الحق سبحانه رسوله محمداً بالصبر على قومه فى آيات كثيرة من قرآنه ، ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا (١٣٠)﴾ [طه]، وفى آية أخرى قال تعالى: ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ (١٧)﴾ [ص]

تأمره بالصبر ثم تسبيح الله عز وجل ، وكأن التسبيح يجعل صبره صبراً جميلاً ، لأنه حين التسبيح لا يرى تكذيبهم واتهامه له بما لا يجوز ، إنما هو يرى الحق سبحانه فيسبِّحه وينزِّهه .

ثم يحدِّثنا الحق سبحانه عن يوم القيامة وعن العذاب الواقع بهم والذى سألوا عنه واستعجلوه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦)﴾ [المعارج] أى يرونه غير متحقق، فهم يستبعدون حدوث هذا اليوم ، لا أنهم مؤمنون به ، ولكنهم يرونه سيحدث فى زمن بعيد ، إنما هم يستبعدون حدوثه من الأساس .

لذلك كان قوله تعالى بعده :﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧)﴾ [المعارج] أى : نراه متحققاً كائناً لا ريبَ فى حدوثه .

فهم يرونه غير واقع ونحن نراه قريباً لأنه كائن ، وكل ما هو آت قريب ، وما استبعده مَنْ استبعده إلا لأنه مرتابٌ شاكّ ، فأما المؤمن بالشيء الواثق به فلا يستبعده .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه أهوال هذا اليوم ومشاهده ، فيقول تعالى :

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨)﴾ [المعارج]

فالسماء يوم القيامة تتشقق وتتداعى ، فيتغير لونها من الزُّرْقة إلى الحمرة،

والمهل هو عكر الزيت في أسفل إنائه ، أو هو ما يُذاب من المعادن كالنحاس والرصاص والحديد .

فالقرآن يقرر أنَّ أحداثاً كونية كبرى ستقع في هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة ، تتغير بسببها أوضاع الكواكب والنجوم والمجرَّات وتتغيَّر صفاتها .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ(٩)﴾ [المعارج] أي حينها تكون الجبال كالصوف المندوف ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة]

فالجبال ستتفتت وتتناثر ، وتصبح كالصوف المندوف ، هذه حال الجبال يوم القيامة ، وأحداثها المروِّعة بعد صلابتها وقوتها التي كانت عليها ، فتصبح كأنها لم تكُنْ .

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا(١٠)﴾ [المعارج] فليس لأحد قريب أو صديق يدفع عنه ويحزن عليه ، فهم يتحامونه ويفرُّون منه ، وهم أنفسهم لا يجدون مدافعين عنهم ، فكل واحد ينشغل بنفسه ، فلا يسأل صديقٌ عن صديق ، ولا قريب عن قريب ، وإنْ كان يراه في أسوأ الأحوال إذ هو مشغول بنفسه قبل كل شيء .

إنه لا يستطيع حتى أنْ يسأله عن حاله ، ولا أنْ يقول له : كيف حالك ولا يكلمه لهول ذلك اليوم وشدته .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ[(١)] الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) ﴾

(١) وضعت القبائل على خلقة الجسد : الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهي القطعة من أعضاء الجسد (الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي ١/١٨٥) . ولكن الكلبي وضع الفصيلة بعد القبيلة فجعلها أكبر . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (٣/٤٥١) : الفصيلة من أقرب عشيرة الإنسان .

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ (١١)﴾ [المعارج] أى يرونهم ويعرفونهم ولكنهم لتشاغلهم بأنفسهم لم يتمكنوا من تساؤلهم ، أو لأنهم لا يرون جدوى لذلك ، فهذا المجرم الآثم الظالم الذى تناهى إجرامه بكفره بربِّه واستكباره عن عبادة مولاه .

﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١)﴾ [المعارج]

وهو لإجرامه يريد أنْ ينجو من عذاب الله له على آثامه وذنوبه ، فيودُّ لو يقدم بنيه الذين كان يترجاهم من الله وهو فى الدنيا ، ولو يقدم صاحبته التى هى زوجته التى شاركته دنياه ، بل ويقدم أخاه بل ويقدم فصيلته وعشيرته وأهله وناسه ، بل يقدم مَنْ فى الأرض جميعاً .

هو على استعداد أنْ يقدِّم الجميع فداءً لنفسه فى سبيل أنْ يُنجيه الله من العذاب .

إنه يتمنى لو ملك هؤلاء وكانوا تحت يده ، إذن لافتدى بهم نفسه ظناً منه أن هذا سيُنجيه من العذاب .

وقد قطع الله أمل الكافرين والظالمين والمجرمين فى الافتداء من العذاب ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد قطع أملهم ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا (٩١)﴾ [آل عمران] فإنه سبحانه يقطع أملهم فى النجاة ، فيقول هنا فى المعارج :

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ[1] ﴿١٦﴾
تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

فهذه هى الحقيقة تقولها كلمة ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥)﴾ [المعارج]، فهذا الظن

(١) نزاعة للشوى : هى النار التى تنزع الأيدى والأرجل وتبقى الأنفس فى الأغلال لا حية ولا ميتة. [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٢٩٨]

وهو إمكانية الافتداء غير صادق ، وأيضاً إمكانية النجاة غير متحققة لكم .

فالعذاب واقع بكم لا محالة ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) ﴾[المعارج] فيقول تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) ﴾ [المعارج]

فـ (كلا) ردع وزجرٌ للمجرم عن أنْ يود ذلك ، فلن ينفعه الافتداء ولن ينجيه من العذاب .

إنها نار شديدة السعير عظيمة التلظى وهي ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾ [المعارج] فلا تأخذها رحمة ولا شفقة ولا هوادة فى أخْذ المجرمين وتعذيبهم .

فهى تشويهم بنارها ولظاها فيحترقون فيها ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾ [النساء]

و (لظى) اسم من أسماء النار ، وهى تتلظى أى تتلهَّب بلهب خالص ، وقد وصف الحق سبحانه ذلك اللهب فى آية أخرى : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ (٣١) ﴾ [المرسلات] شُعَب النار لهبها الذى إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث شُعَب .

والنار ﴿ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) ﴾ [المعارج] فالنار تنزع الأطراف كاليدين والرِّجلَيْن فلا تترك عليها لحماً ولا جلداً ، فالشوى جمع شواة وهو الطرف كاليد والرِّجل وأطراف الأصابع وجلدة الرأس .

إنه عذابٌ ما بعده عذاب ، نار تنزع أم الرأس وتنزع لحم ساقيه ، ولكن قلبه نضيج حيٌّ ، وهذا عذاب ما بعده عذاب ، أن تأكل النار أطرافه وفروة رأسه وهو حَيٌّ يشعر بلظى النار وسعيرها .

والنار ﴿ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾ [المعارج]

وهذا خبر ثان عنْ النار ، فالنار لظى ، وهى تدعو مَنْ أدبر وتولى ، ودعاء النار ونداؤها ليس على الحقيقة بل هو لون من ألوان المجاز ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٤) ﴾ [محمد] فليست الحرب هى التى تضع أوزارها حقيقةً ، إنما مَنْ أوقدوها والمنغمسون فيها والواقعون فيها .

فالنار تدعو إليها الكافرين والمجرمين الذين يحاولون الفرار منها ، كما تدعو الأغنياء والمترفين الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، ويمنعون الفقراء من حَقّ الله .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن النار تناديهم بأسمائهم واحداً واحداً ، فهى تدعو مَنْ أدبر عن الإيمان وتولى عن الحق ، فتقول : إليَّ يا مشرك .. إليَّ يا منافق .

حتى أن ابن عباس قال : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَبَّ[1] .

هذا عن دعاء النار وندائها ، ولكن مَنْ تدعو النار وتناديهم ؟ إنها تدعو ﴿ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] فهى تدعو مَنْ أعرض عن الإيمان ونأى بجانبه وكفر بدعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادة الله وحده .

﴿ أَدْبَرَ (١٧) ﴾ [المعارج] أى أعطى ظهره ودبره للحق وأعرض عن الطاعة للدخول فيها ﴿ وَتَوَلَّى (١٧) ﴾ [المعارج] أعرض عن الحق وعن الإيمان بكتابه ورسله ،

وإذا كان قد أدبر وتولى عن الحق ، ففى أيِّ شيء قضى حياته ، وأنفق عمره، فإدباره وتوليه كان لأنه اختار الدنيا على الآخرة ، فهو ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨)﴾ [المعارج]

فهو مع كفره وفسقه ونفاقه يجمع المالَ من كلّ طريق ويكنز ماله ، فهو جمع المال من حلِّه ومن غير حلِّه ، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه .

وقد قال عنه الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) ﴾ [الهمزة]

---

(١) أورده الخازن فى لباب التأويل (٤/٣٤١) وقد أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٧٧٧٤) عن قتادة مرسلاً أن كعباً كان يقول : يخرج يوم القيامة عنق من النار فيقول : يأيها الناس إنى وكلت منكم بثلاث ، بكل عزيز كريم ، وبكل جبار عنيد ، وبمن دعا مع الله إلهاً آخر فيلتقطهم كما يلتقط الطير الحب من الأرض .

فهذا قد أطغاه الغنَى والمال حتى أنه نظر إلى مَنْ هو دونه من الفقراء نظرةَ التحقير والازدراء ، وهو يظن أنَّ ماله سيمنحه الخلود فلا يموت حتى يفنى ماله .

فلم ينفعه ماله ولم يُنجه كنزه للمال ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ[1] (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩) ﴾ [الهمزة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

هلوع صيغة مبالغة تدل على شدة الهلع ، فهى فعول ، والهلع شدة الحرص وقلَّة الصبر فهو ضَجِر ملول متقلب يسعى وراء شهواته ونزواته وهواه .

فالهلع شدة الجزع إذا أصابه شرٌّ أو خاف من شيء ما ، وهو مع جزعه شديد الحرص والضجر بخيلاً شحيحاً إذا رزقه الله رزقاً تجده منوعاً .

فهو إذا قلّ ماله وناله الفقر والعدم تجده لا صبر له ، حتى إذا كثر ماله ونال الغنى تجده منوعاً لما فى يده، بخيلاً به لا ينفقه فى طاعة الله ولا يؤدى حقَّ الله منه .

وكلمة إنسان هنا تفيد عموم جنس الإنسان ، ويحدثنا الحق سبحانه فى آية أخرى عن صفات الإنسان ، فيقول : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾ [هود]

فالنعمة حين يشاء الحق سبحانه أنْ تصيب الإنسان ثم تُنزع منه هنا يُصاب الإنسانُ بالقلق أو الحزن أو الهلع أو اليأس والنعمة مهما قلَّت فالإنسان

---

(١) الحطمة : النار تحطم ما ألقى فيها . وهى من أسماء النار مثل جهنم وسقر ولظى [غريب الحديث لإبراهيم الحربى ٢/٣٨٩] .

يستطيبها وإنْ نُزعتْ منه فهو يئوسٌ كفور . فاليئوس الكفور هو أيضاً الهلوع الجزوع المنوع ولاحظ أنها كلها صيغ مبالغة ، فالمقصود به الإنسان الشديد الجزع المنَّاع للخير الشديد الكفر بالله ، اليئوسٌ من رحمة الله ونعمته .

والمتأمل هنا نجد أن الحق سبحانه استخدم لفظة (مسَّه) بينما هو فى سورة هود (أذقنا) . فهما أمران المسّ والإذاقة . والذَّوْق هو للإدراك لا للأكل، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضَّل ذُقْ ، فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها .

والذوق قد يكون بأنْ تدع لسانك يلمس مطعوماً ما لذوقه فقط ، فيقرِّب الشيء من لسانه ويمسّه ، وهذا معنى المسِّ ، أى اللمس الخفيف ، أو اقتراب شيء من شيء ، فالمسّ لمسٌ خفيف، وقد يكون المسُّ للحظة .

فهذا الإنسان الهلوع لعدم إيمانه الذى كان من الممكن أنْ يُكسبه طمأنينة وسكينة وتقبُّلاً لتقلبات الحياة تجده مع أول مسٍّ من فقر أو احتياج ، أو مصيبة، أو شر تجده جزوعاً شديد الجزع ، والهلع والخوف .

وإذا أصابتْه نعمة صغرت أو كبرت تجده لا يعترف بفضل الله عليه أنه رزقه، فتجده يمنع الخير الذى وصله عن الناس ، فلا يؤدى حقَّ الله عليه ، لأنه لا يؤمن بالله .

لذلك قال تعالى بعدها :

﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

إذا كان الحق سبحانه فى الآيات الثلاث السابقة ذكر الإنسان وقال :﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ﴾ [المعارج] فإنه سبحانه هنا استثنى فقال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) ﴾ [المعارج]

وعندما نستقريء القرآن الكريم نجد أن كلَّ خبر عن الإنسان وهو معزول عن منهج الله هو خير كله شرٌّ ، فسبحانه يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

إنَّ الإنسان على إطلاقه لفي خُسْرٍ ، ولكن مَن الذي ينجو من الخسران ؟ وتأتي الإجابة من الحق فيقول: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فكلُّ كلام في القرآن عن الإنسان على إطلاقه يأتي من ناحية الشر ، وما الذي يُنجيه من ذلك ؟ إنه منهج الله .

والحق سبحانه يضع لنا منهجه بدايةً من هذه الآية (إلا المصلين) حتى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

أول عناصر هذا المنهج الإلهي قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]

فأوله الصلاة وطاعة الله بأداء ما افترض عليه منها ، ولا تكون الصلاة إلا عن إيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، فاستغنى الأمر عن ذكر الإيمان ، ثم إن الحقَّ سبحانه هنا يرسم عناصر منهج تطبيقي ، والإيمان أمرٌ عقديٌّ قلبيّ .

﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] يقيمونها في أوقاتها لا يدَعُونها بالليل والنهار ، فلا يتركون صلاةً مكتوبة إلا أتوْهَا حيث يُنادَى بها .

ولكنه يصليها بحقها ، فلا يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ، ولا يزيلون وجوههم عن سمْت القبلة .

وهم دائمون على صلاتهم مستمرون على أدائها لا يشغلهم عنها شاغل ، ولا يضيعون منها شيئاً ، هذه الديمومة تعطي صورة الاستقرار والاستطراد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال .

وقد كان أحبُّ الأعمال إلى رسول الله ما دام وإنْ قلَّ ، فالديمومة تعطي صفة

ثبات الصلة بالله تعالى .

ثم يعطى لنا الحق سبحانه صفة أخرى وركناً آخر من أركان منهج الله ، فيقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) ﴾ [المعارج]

الحق سبحانه هنا يتحدث عن المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه لذلك قال: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج] . والحق المعلوم فى أموال المؤمنين المكلَّفين هو الزكاة .

أما فى مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان فإن الله يجعل فى أمواله حقاً ولكن ليس معلوماً ، فيطلقها الحق سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ففى مقام الإحسان يكون فى مالهم حق للإحسان إلى الفقير وإنْ لم يكُنْ معلوماً أى لم يحدد ، وهذا فى صالح الفقير ، فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلاً ، أما فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال .

فالحق سبحانه يريد أنْ يفسح المجال للطموحات الإيمانية . فمَنْ يزد فى العطاء فله رصيدٌ عند الله .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يجد عجباً ، فالحق سبحانه ينسب أموالهم إليهم ، وهو سبحانه صاحبُ المال يعطيه لمَنْ يشاء ، ولأنه سبحانه صاحب المال فهو يفرض فيه حقاً معلوماً .

قال تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ..(١٠٣) ﴾ [التوبة]

وكلمة (أموالهم) وردت فى القرآن إحدى وثلاثين مرة ، بضمير الغائب المتصل (هم) ، ووردت كلمة (أموالكم) بضمير المخاطب أربع عشرة مرة .

فالمالُ مالكم بنسبة الله إياه لكم ، لا أنه مالكم على الحقيقة ، وإلا فلو أراد الله أنْ يسلبكم إياه ماستطعتم حيلةً ، وما استطعتم لهذا دفعاً .

وما دام المالُ مالَ الله على الحقيقة ، فمن حقِّ الله سبحانه أنْ يفرض فى مالك حقاً معلوماً ، ولكن الحقّ المعلوم هنا فى هذه الآية هو الزكاة المفروضة ذات المقادير والأنصبة المحددة ؟

نقول : لا ، لأن هذه الآية فى سورة المعارج وهى سورة مكية لم تكُنْ قد فُرضت الزكاة بعد إنما فُرضتْ الزكاة فى المدينة ، إذن فالمقصود هنا هو قدرٌ معين يستوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى الله .

فهو شيء يُوظِّفه الرجل على نفسه يُخرجه على سبيل الندب فى أوقات معلومة ، لذلك لم يذكر الحق سبحانه مصارف الزكاة الشرعية التى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ [1]وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الفريضة إنما فُرضت فى المدينة بعد أنْ أقيمت دولة الإسلام وقويتْ شوكتها ، فأصبحت هناك مصارف للزكاة غير الفقراء والمساكين مثل العاملين على جمع الزكاة والمؤلفة قلوبهم ، والغارمين المديونين ، وفى سبيل الله .

أما الذى فى سورة المعارج فهو حقٌّ أوجبه المخرج له على نفسه إشفاقاً منه على الفقراء فيخصص من ماله ما يحقق نفعاً للآخرين ويسدُّ فقرهم وعوزهم .

عندما سُئل ابن عمر عن قوله: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج] أهى الزكاة ؟ فقال : إنَّ عليك حقوقاً سوى ذلك .

وابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن قال : هو حَقٌّ سوى الصدقة يصل بها رحمه ، أى يقرى بها ضيفاً ، أو يحمل بها كَلاًّ[2]، أو يعين بها محروماً .

---

(١) الغارم : المدين والغُرم الدَّيْن . وقال محمد بن قاسم الأنصارى فى شرح حدود ابن عرفة (١/٧٧): الغارم مدين آدمى لا فى فساد . وقال فى تاج العروس للزبيدى : الغارم هو الذى لزمه الدَّين فى الحمالة .

(٢) الكلّ : اليتيم ، والكل الذى هو عيال وثقل على صاحبه ، قال عز وجل : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ (٧٦) ﴾ [النحل] أى عيال . وكلَّ الرجال : إذا أتعب .

لذلك قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

فهو حقٌّ لصنفين: السائل، والمحروم، فالسائل هو الذى يسأل الناس، أما المحروم فيعنى الفقير المتعفف عن السؤال ويحسبه الناسُ غنياً، فيُحرم من عطاء الناس له، وهو أحوج إليه.

فالسائل أوصى به الحق سبحانه: ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) ﴾ [الضحى]

والبعض لمح فى قوله (المحروم) معانى أخرى غير الفقير المتعفف، فالمحروم عند البعض الذى لا يُنمِى له مال، فتجارته كاسدة بائرة أو أنه لا يكسب ما يُعينه على الحياة وعلى ازدياد احتياجاته، فتجد معيشته ضيقة، وليست عنده القدرة على الكسب الذى يجعل حياته أفضل.

والبعض قال: المحروم من اجتيح ماله والمصابُ زرعه وثمره بآفة أو جائحة[1] أو ماشية وطيوره بمرض أو سيارته التى يرتزق منها، فهذا كانت عنده النعمة ولكن عَرَضَ له عارض حرمه منها.

وقد قال أصحاب الجنة عندما احترقت جنتهم: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) ﴾ [القلم]

وقد يسأل سائل: هل قوله تعالى: ﴿ أَمْوَالِهِمْ (٢٤) ﴾ [المعارج] يقصد بها المال بمعنى النقود أو الذهب والفضة فقط؟

نقول: لا، بل إن المالَ قد يكون زرعاً أو ماشية أو طعاماً، فالمال هو كل ما يُتموَّل إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلِّ متموَّل وأسميناه بالنقد، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء، لكن المعنى الأصلى للمال هو كلّ ما يُتموَّل.

---

(١) قال الليث: الجوح من الاجتياح. وهى سنة جائحة جدبة ونزلت بفلان جائحة من الجوائح. وقال الشافعى: جماع الجوائح كل ما أذهب الثمرة أو بعضها من أمر سماوى بغير جناية آدمى. (تهذيب اللغة ٥/٨٨).

ثم يذكر الحق سبحانه صفةً أخرى ، فيقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

الإيمان بيوم الدين هو أساس الدين ، لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرةٌ ، وليس هناك حساب فممَّ يخاف ؟ ومن أجل مَنْ يقيد حركته فى الحياة ؟

إن الدين بكلِّ طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطيء ويثيب الطائع ، وهذا هو الحكم فى كلِّ تصرفاتنا الإيمانية .

فلو لم يكُنْ هناك يوم يُحاسب فيه ، فلماذا نصلى ؟ ولماذا نصوم ؟ ولماذا نتصدَّق ؟

ومن عدل الله سبحانه أن هناك يوماً للحساب ، لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا ، هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب ، هل يفلتون من عدل الله ؟

فـ (يوم الدين) هو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية .

والحق سبحانه هنا لا يقول : والذين يؤمنون بيوم الدين ، بل يقول سبحانه:
﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج]

فالتصديق شيء فوق الإيمان .

والرسول ﷺ يقول : « الإيمانهم ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[١] .

فهم يصدِّقون لإيمانهم بأعمالهم وهو أنْ يُتعب نفسه ويبذل ماله للسائل

---

(١) قاله الحسن البصرى : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته الأعمال . ذكره ابن تيمية فى كتاب الإيمان (١/ ٢٣٠) مسنداً .

والمحروم ، طمعاً فى المثوبة الأخروية .

فمعنى ﴿ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] أى يوقنون بالميعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عملَ مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب .

فمجرد الإيمان بالقلب والنطق باللسان وإنْ كان يُنجى من الخلود فى النار إلا أنه لا بدَّ من تصديق هذا بالعمل بمقتضى إيمانه .

والمصدِّق يستمر فى تصديقه إلى أنْ يصبح صِدِّيقاً من الصِّديقين ، ومثالنا فى هذا أبو بكر الصديق ، صدِّيق لماذا ؟ لأنه هو المبالغ فى تصديق كلِّ ما يقوله سيدنا رسول الله .

فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدَّعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إنْ كان قال ذلك لقد صدق [1].

لم يُعلِّل صدقه إلا بـ « إنْ كان قد قال ذلك » فهذا هو الصِّدِّيق الحق ، فكلما قال محمد شيئاً صدّقه أبو بكر ، وأبو بكر لم ينتظر حتى ينزل القرآنُ مصدِّقاً للرسول ﷺ، بل بمجرد أنْ قال ﷺ : إنِّى رسول . قال أبو بكر : نعم إذن فهو صدِّيق .

هؤلاء ﴿ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾ [المعارج] تصديقهم بهذا اليوم سببٌ لصفتهم التالية :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) ﴾ [المعارج]

فهم رغم أنهم من ﴿ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج] ورغم أن فى أموالهم حقاً معلوماً للسائلين والمحرومين ، وأنهم

---

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٦١) عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ، وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح قال : نعم إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة . فلذلك سُمى أبو بكر الصديق . الحاكم فى مستدركه (٣/٦٢) وصححه .

يؤمنون ويُصدِّقون بيوم الدين إلا أنهم مشفقون من عذاب الله .

فهم خائفون وجِلون خشيةً من الله ، والإشفاق الخوف لكنه خوف يصاحبه الحذر مما تخاف ، فالخوف من الله مصحوبٌ بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعِدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعةَ يلقونه .

هم مُشفقون من عذاب ربهم ، والحق سبحانه يعطينا حيثية ذلك فى قوله :
﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) ﴾ [المعارج]

فلا يستطيع إنسانٌ أنْ يقطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغى ، ولا اجتنبَ المحظورات كما ينبغى ، بل قد يكون قد وقع منه تقصيرٌ فى أحد الجانبين .

فعذاب الله غير مأمون ، فلا يأمن من عذاب الله تعالى إلا مَنْ غرَّته نفسه ، وظنَّ أنه ناجٍ لمجرد عمله ، ورسول الله يقول : « لا يدخل أحدكم الجنة بعمله ، إلا أنْ يتغمَّده الله برحمته ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله . قال : حتى أنا »[1].

فذنوبُ الإنسان فى الدنيا كثيرة ، إذا حكم فقد يظلم ، وإذا ظنَّ فقد يسيء ، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق ، وإذا تكلم فقد يغتاب .

ولا يمكن لأحد منَّا أنْ ينسب الكمالَ لنفسه حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال ، فالكمال لله وحده ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ بنى آدم خطَّاء ، وخير الخطائين التوابون »[2].

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوف ولا متاعب ، والذى يأمن مكر الله هو الخاسر .

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله : « قاربوا وسددوا فإنه ليس أحد منكم ينجيه عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » . أخرجه البخارى (٤٣) و (١١٥١) ومسلم (٧٨٥) وابن ماجه (٤٢٣٨) والترمذى (٣٠٧٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٥١) وأبو محمد الكشى فى المنتخب من مسند عبد بن حميد (١١٩٧) والبزار فى مسنده (٧٢٣٦) والرويانى فى مسنده (١٣٦٦) من حديث أنس بن مالك .

فعذابُ النار أيضاً غير مأمون ، فلا تستهِنْ بالأمر ، فلا أحد يضمن شيئاً .

ثم يذكر الله عز وجل صفة أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾

الفروج جمع فرج والمقصود سَوْءَتا كل من الرجل والمرأة ، وقد أمر اللهُ بحفظها على المهمة التى خُلقت لها ، وعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه على ما أحلّه له .

والله يريد أنْ لا يلتقى رجلٌ وامرأة إلا على نور من الله وهدى من شريعته الحكيمة ، لأنه عز وجلّ هو خالق الإنسان ، وهو أعلم بما يُصلحه وهو خالقُ ذراته .

فلا بدَّ أنْ يلتقى الزوجان على ما شرع الله فى وضح النهار ، لا أنْ يندس كلٌّ منهما على الآخر فى ظلمة الإثم ، فيحدث المحظور الذى تختلط به الأنساب ، ويتفكك رباط المجتمع .

و ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج] فيها الحفظ والصيانة ، وجاءت بصيغة فاعل كاسم ، والاسم دائماً يعبر عن الثبات والديمومة ، ولكى نعرف الفرق علينا أنْ ننظر إلى قوله تعالى بالنسبة للصلاة :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج] عبر هنا بالفعل ، وهو أقلُّ درجةً فى الديمومة والثبات ، فقد تحافظ أياماً ولكنك لا تحافظ على الصلاة على وقتها ، وفى المسجد أياماً أخرى لظروف قد تعرض لك .

أما حفظ الفروج والعورات عن ملابسة الفاحشة فهذا لا بدَّ أنْ يكون صفة

ثابتة لا تنفكَ عنك مهما كانت المغريات والظروف ، فهى أمر يمسُ الأعراض والشرف فلا يصلح معه إلا ﴿ حَافِظُونَ (٢٩) ﴾ [المعارج]

ولكن هذا الحفظ وهذه الصيانة لا يُستثنى منها إلا صنفان من النساء :
﴿ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج]

أى إلا من أزواجهم اللاتى أحلَّ الله لهم من الأربع ، وهذا يقتضى تحريم ما يُسمَّى بزواج المتعة المؤقت بوقت ، فهى ليست بزوجة ولا هى ملك يمين .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه استخدم هنا لفظة (على) ولم يستخدم (عن) مع أنه مطلوب من الرجل حفظ فرجه إلا عن أزواجه لا على . نقول : على هنا بمعنى (عن) وقد يكون متعلقاً بمحذوف تقديره : فلا يرسلون فروجهم إلا على أزواجهم .

والحق سبحانه استثنى هنا صنفين هما الأزواج وملْك اليمين . وقد قال رسول الله : « احفظْ عورتك إلا من زوجتك »[1] .

فكلُّ فرْج سوى الزوجة وملْك اليمين هو حرام ، مع عدم الجمع بين الأختين، أو بين المرأة وعمتها أو خالتها.

وهذه الآية ومثيلتها فى سورة المؤمنون خاصة بالرجال ، فالنساء لا يسوغ لهن الاستمتاع بملْك أيمانهن من العبيد .

وقد حدث على أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنْ تسرَّت[2] امرأة غلاماً فذكرتْ لعمر رضى الله عنه فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنتُ أرى أنه يحلّ لى ما يحلّ للرجال من ملْك اليمين .

فاستشار عمر رضى الله عنه أصحاب النبى ﷺ فقالوا : تأولتْ كتاب الله

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٠١٧) وابن ماجه في سننه (١٩٢٠) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٠٣٤) (٢٠٠٤٠) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله : يا رسول الله عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » الحديث .

(٢) التسرِّى هو أن يعاشر الرجل ملك يمينه معاشرة الأزواج ، وهذا إن كان يجوز للرجل نحو أمته فإنه لا يجوز من المرأة نحو عبدها لأنه فى وضع أقل منها ، هذا عند وجود نظام ملك اليمين .

على غير تأويله[1] . أى لا حدَّ عليها لأن التأويل يدرأ الحد .

فعاقبها بأنْ لا يحلها لحُرٌّ بعده أبداً ، وأمر العبد أنْ لا يقربها .

فعلى الإنسان أنْ يحفظ فرجه إلا على الزوجة أو الزوجات أو مِلْك اليمين .

﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ (٣٠) ﴾ [المعارج] ومِلْك اليمين حلال ولكن لم يعُدْ له موضع ولم يعُدْ له وجودٌ الآن ، فلم يَعُدْ هناك إماء كما كان قبل الإسلام ، فهذا حكم معطل لم يعُدْ له مدلول .

وفرق بين أنْ يُعطل الحكم لعدم وجود موضوعه وبين أنْ يُلغى الحكم ، فمِلْك اليمين حكم لم يُلْغ ، الحكم قائم إنما لا يوجد له موضوع ، يتم تفعيل حكمه عندما يوجد مرة أخرى فى أرض الواقع .

والبعض يحاول أنْ يُشكك المسلمين فى دينهم وقرآنهم ، فيقول : لو أن الإسلام فعلاً يريد تحرير الإنسان من العبودية والرقّ ، فلماذا ذكر مِلْك اليمين؟ ولماذا لم ينسخ هذه الآيات كما نسخ غيرها ؟

نقول : الإسلام كافح الرقَّ والعبودية وجاء ليحرر العبيد ورتَّب أحكاماً على مَن ارتكب ذنباً بوجوب فكِّ رقبة أى إعتاق عبد .

فمَنْ قتل مؤمناً على سبيل الخطأ عليه أنْ يحرر رقبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ (٩٢) ﴾ [النساء]

حتى اليمين المنعقدة المغلَّظة إذا أراد المؤمنُ الرجوعَ فيها كان أحد إمكانات تحليله من هذا القسم هو تحرير رقبة .

قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ[2] فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ..(٨٩) ﴾ [المائدة]

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١١٢٧٧) عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها (أى أمكنته من نفسها وتسرت به كأنه زوج لها) وقالت : تأولت كتاب الله (أوما ملكت أيمانهم) قال : فأتى بها عمر بن الخطاب فقال له ناس من أصحاب النبى : تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها . قال : فغرَّب العبد وجز رأسه (أى قص شعره) وقال : أنت بعده حرام على كل مسلم .

(٢) عقد الأيمان وتعقيدها : توكيدها بالقصد والتصميم . قال الخازن فى تفسيره (٢/٧٢) لكن يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين .

حتى مَنْ يقول لامرأته أنتِ حرام عليَّ كظهر أمي ، يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) ﴾ [المجادلة]

فتحرير الرقِّ والعبودية عالجه الإسلام ، حتى تشريعه لمِلْك اليمين هو في حدٍّ ذاته علاجٌ لظاهرة الرقِّ ، وقد يستغرب البعض هذا ، ثم إن تشريع مِلْك اليمين هو إعزازٌ وإكرامٌ للمرأة التي كانت تُسبى في الحروب .

فالمرأة المسبيّة في الحروب كانت قبل الإسلام لا ضمانات لها ، يأخذها المقاتلون المنتصرون يفعلون بها ما يشاؤون من اغتصاب وغيره ، وقد يكون اغتصاباً جماعياً ، وقد يقتلونها في النهاية .

أما في الإسلام في أثناء تلك الحروب فكان يضع المرأة المسبيَّة في عُهْدة رجل معين يطعمها ويسقيها ويُلبسها ويعتني بها في مقابل خدمتها له .

فإذا حدث وتسرَّى بها وحملتْ منه أصبحت أم ولد ، فتُعتق من أجل ولدها، لذلك لا بد من التأكد أنها غير حامل أولاً .

وإذا كان السَّبي شريعة المتحاربين حينها ، ووُضع هذا التشريع لمواجهة أمر موجود ومتجذِّر في الواقع ، وقد يعود في أزمان أخرى لا نعلمها فلا بدَّ من أنْ يكون التشريع موجوداً لعلاجه حينما يعود السَّبي ، وهذا من عظمة القرآن ودليل على أبديته إلى أنْ تقوم الساعة .

فهذا أمر يُحسَب للقرآن وللإسلام ولا يُحسب عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) ﴾ [المعارج] فإنهم لا يُلامون. إذا لم يحفظوا فروجهم لأزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، إنما يلامون في غير ذلك.

وذِكْر الفروج في أول الآية يجعل اللوم منعقداً لمن أتى امرأته في دبرها في غير الموضع الذي جعله الله وهيَّأه للنكاح ولإتيان الولد .

فإنهم لا يُلامون على الحلال ، فلا لوْمَ عليهم في ذلك ولا إثم ، إنما اللوم

على مَنْ تجاوز هذا وتعدَّى .

لذلك يقول الحق سبحانه بعدها : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى (٣١) ﴾ [المعارج] أى فمَنْ طلب وأراد ، ولكن ابتغى فيها معنى السعى إلى الشيء بإلحاح ، وقد يكون هذا لأنه خارج عن حدود الشيء الطبيعى، فهو يسعى وراء أمر قد حرَّمه الله ، يسعى وراء أنْ يعصى الله خارج إطار الزواج، وخارج إطار ملْك اليمين .

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ (٣١) ﴾ [المعارج]

كلمة وراء تأتى فى القرآن بمعانٍ كثيرة ، وهى هنا بمعنى (غير) أى : فمَن ابتغى غير ذلك ، ولكن هنا فى الآية كلمة (وراء) تؤدى معنى أعمق من كلمة (غير) .

فقد يكون أحد الرجال عنده الزوجة حليلته وزوجات ، وعنده ملك يمين ، ولكن قد يبتغى وراء ذلك كله ، أى أكثر من ذلك كله فتجده يبتغى الحرام مع وجود الحلال عنده فى جانب ، وتجده يأتى امرأته فى دُبرها رغم أنَّ حلاله عنده .

فكلمة (وراء) تحتمل المعنيين معاً ، معنى (غير) ، ومعنى (فوق) .

لذلك قال تعالى عن هؤلاء المبتغين وراء ذلك ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج] أى أولئك الزُّناة هم العادون المتخطون حدود ما أمر الله به أو نهى عنه ، فهم المتجاوزون من الحلال إلى الحرام .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى أمر آخر فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) ﴾

الأمانة كل ما استُؤمنت عليه ، وأول شيء استؤمنت عليه هو عهدُ إيمانك بالله الذى أُخذ عليك وأنت فى ظهر آدم عليه السلام .

فهناك أمانةٌ للحق سبحانه يجب أنْ تُؤدِّيها ، وهناك أمانات للخَلْق ، وكلٌّ من هذه الأمانات تستوجب منك أنْ تؤديها إلى أصحابها على الوجه الأكمل وأنْ تراعيها .

أما العهد فكلُّ ما يتعهد به الإنسان في غير معصية ويلزمه الوفاء بما عاهد به ، لأنك حين تعاهد إنساناً على شيء فقد ربطت حركته وقيَّدتها في دائرة إنفاذ هذا العهد .

فإذا أخلفتَ عهدك ووعدك له فقد أطلقت نفسك في زمنك ، وتصرفت حسب راحتك، وقيَّدت حركتي أنا في زمني وضيَّعت مصالحي وأربكت حركة يومي ، لذلك شدد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

ومعنى الأمانة هو ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمينٌ عليها إنْ شئتَ رددتها وإنْ شئتَ لم تردها ، فأنت تقول : أنا أودعتُ عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ، لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة .

فالأمانة أنْ تُودع عنده شيئاً وضميره هو الحكم إنْ شاء أقرَّ بما عنده لك حين تطلبه ، وإنْ شاء لم يُقر به ، قال الحق : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ[1] أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا (٥٨) ﴾ [النساء]

ورسول الله ﷺ يقول : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُنْ مَنْ خانك »[2].

فأداء الأمانة إلى أهلها من أعظم القربات إلى الله ، فكونوا لها راعين ،

---

(١) فأبين : رفضن . الإباء : الرفض وعدم الانصياع والامتناع عن فعل شيء .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٣٥) . والبزار في مسنده (٩٠٠٢) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٥٩٥)، والحاكم في مستدركه (٢٢٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والرعاية هنا أنْ تبقى قائماً على الأمانة حتى تؤديها ولا تحاول أنْ تدخل فى باب من أبواب الحيل للاستيلاء عليها ، ولأكل أموال الناس بالباطل .

فإنَّ الحيل تؤدى إلى اضطراب العهود والأمانات ، ولا تكون هناك ثقة لا فى عهد ولا فى وعد ولا فى متحمل لأمانة ، وبهذا يضطرب المجتمع ، ويفقد أفراده الثقةَ فى أنفسهم .

ونلحظ أن الحق سبحانه هنا نسب الأمانات والعهود إلى من تحمَّل هذه الأمانات والعهود فقال : ﴿ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ (٣٢)﴾ [المعارج] فما دُمتم قد تحملتموها فقد أصبحتْ ملازمةً لكم تلزمكم وأصبحتم مسئولين عنها تؤدونها كاملة غير منقوصة عند طلبها أو مجيء موعدها .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : هى تلزمكم وإنْ لم يكُنْ عليها دليل أو وثيقة تلزمكم بها ، والحق سبحانه وصفهم بأنهم يرعوْنَ أمانة الله عندهم ، ويرعوْنَ أمانات الناس لديهم ، ويرعوْن عهودهم قِبَلهم ، فلا يُخلُّون بشيء من حقوقها.

والمتأمل فى هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢)﴾ [المعارج] والآيات قبلها ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾ [المعارج]

المتأمل فى هذه الآيات يجد رابطاً يربط بينها ، فكلٌّ من الفروج والأمانات والعهود ينبغى أنْ تُحفظ وتُراعى حقَّ رعايتها ، ومَنْ لم يحفظ الأمانات والعهود فهو ملوم كما هو شأن مَنْ لم يحفظ فرجه ، ومَن ابتغى ما لا يحلّ له من الفروج عادٍ معتدٍ ، كذلك الباغى على الأمانة غير الملتزم بعهده ووعده وعقده فهو عادٍ ظالم .

﴿ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بدأت الآيات المفصَّلة لمنهج الله بالمصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، أناس أتقياء عبادٌ لله ، لا يتركون صلاة بل يتطوعون من الصلوات النوافل وقيام الليل وأنواع العبادات التى يظهر فيها مقام الإحسان .

ثم إنهم يعطفون ويشفقون على الفقراء والمساكين من السائلين والمحرومين فيتصدَّقون عليهم ويجعلون لهم حقاً فى أموالهم ، وما هذا إلا لأنهم يخافون رباً ويخشون عذابه ويتقون ناره ، فهم من عذاب ربهم مُشفقون .

ثم إنهم محافظون على فروجهم عفيفون لا يقتربون من حرام ، فيحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ماملكتْ أيمانهم ، ثم إنهم يراعون الأمانات التى ائتمنوا عليها ، ويحافظون على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم .

كل هذا يجعل من الإنسان عبداً ربّانياً لله سبحانه ، سَمْتُه سَمْتُ المؤمنين الصادقين ، ولكن هناك ما هو الأهم ، التنفيذ العملى لمنهج الله فيه ، وهو قوْلُ الحق وشهادة الحق .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج] فالشهادة احتكاكٌ بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث ، والشهادة هى الإخبار بمشاهد، والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا ، وأنت حين تروى ما شاهدت فكأن الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهوداً وواقعاً لديهم .. وشاهد الزور يُغيِّر الواقع .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالمٌ فى ظلمه ، فالذى يجعل الظالم يشتدّ ويستشرى ظلمه ويتفاقم شرُّه هو أنه يجد مَنْ يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسان الذى يُنير طريق العدالة لما وُجد ظلم ، لكنَّ الظالم يحب

مَنْ يدلس عليه ، فيقول لنفسه : إنَّ فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة .

وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أنَّ شهادة أفراده هى شهادةٌ بالقسط وشهادة بالعدل ، فإنَّ كلَّ فرد فى المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم ، ولكان الظالمُ ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره .

والمؤمن مُطالبٌ بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالبٌ ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أنْ يكون قيامنا بالشهادة مبالغاً فيه ، أى ألاَّ نترك فرصة لشهادة الحق والقسط إلاَّ وانتهزناها ، ليأخذ كلّ إنسان حقَّه فلا يقدر قويٌّ أنْ يظلم ضعيفاً ، لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإقامة الشهادة هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جَوْرَ فيها ، وأنْ تأتى الشهادةُ على الوجه الصحيح لها .

والشهادة الحق تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل .

فلا تشهد على شيء لم تشهده ولم تحضره ، وإذا رأيتَ شيئاً فلا تحرفه وانقله بأمانة بالعدل والصدق ، فأنت إذا شهدت الزور ضيعتَ صاحب الحق ، وضيعتَ حقه ومصلحته .

فإذا دُعيتَ للشهادة فلا تتقاعس ، لأن مَنْ يكتم الشهادة فهو آثم قلبه ، ولا تشهد إلا بالحق الذى شهدته فى الواقع ، فإذا دعيت فقُم بها على وجه الحق الذى يرضاه الله .

فشهادة الزور ركنٌ من أركان فساد المجتمعات كلها ، لأنها لا تجعل المؤمن مطمئناً على حقّه ، فشهادة الزور جماع لكلِّ حيثيات الظلم ، وتهدم كل قضايا

الحق فى المجتمع .

فقوْل الزور شهادةٌ بغير الحق وتقلب الحقائق وتضر بالمجتمع ، لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطُّل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألاَ أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكرِّرها حتى قلنا : ليته سكت »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾

بدأت آيات الحديث عن منهج الله بالصلاة ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) ﴾ [المعارج]، وانتهت بالكلام عن الصلاة أيضاً ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) ﴾ [المعارج]

وذلك لعِظَم الوصية بالصلاة ، فالصلاةُ إعلانٌ إيمانيّ لله كل يوم خمس مرات، نترك كل ما فى الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة ، إنها عماد الدين وأساسه.

فالصلاة عمدة أركان الإسلام وقد اشتملتْ على كلِّ الأركان ، وهى إدامةُ ولاء العبودية للحق سبحانه ، وتهب المؤمنين الاطمئنان ، وهى علامة الخضوع لله عز وجل .

الصلاة تجعلك منضبطاً مع منهج الله ، وتنهاك عن مخالفته والتمرد عليه ، أما ترك الصلاة فمعناه أنك تمردت على إعلان العبودية والولاء للحق .

والمحافظة على الصلاة فعلها لوقتها ، ويحافظون على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها ويراعون شرائطها ويُكملون فرائضها وسننها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢٠٣٨٥) ، والبخارى فى الأدب المفرد (١٥) ، والبزار فى مسنده (٣٦٢٩) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه .

ومستحباتها .

وهذا شيءٌ غير الدوام على الصلاة ، فالدوام عليها عدم تركها حتى يمرّ وقتها ، فهو مثل قول رسول الله : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ ﴾

﴿ أُولَـٰئِكَ (٣٥) ﴾ [المعارج] إشارة إلى ما سبق من المؤمنين المصلين المتصدقين المصدِّقين بيوم الدين المشفقين من عذاب ربهم الحافظين لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم ، المراعين لأماناتهم وعهودهم القائمين بشهاداتهم المحافظين على صلاتهم .

كل أولئك ﴿ فِي جَنَّاتٍ (٣٥) ﴾ [المعارج] إخبار عن أولئك أنهم فى جنات ، وتكون (مكرمون) خبراً ثانياً ، ويحتمل أنْ تكون (فى جنات) ظرف مكان لـ (مكرمون) أى أن محل الإكرام ومكانه هو (فى جنات) ، فتكون (مكرمون) خبراً . فيكون تقدير الآية : أولئك مكرمون فى جنات .

لفظة (مكرمون) وردت فى القرآن ثلاث مرات ؛ أحدها قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هنا هم الملائكة ، لصفاء عبادتهم لربهم وإخلاصهم لربهم وطاعتهم المطلقة .

ثم مرتان فى حقِّ مَنْ أكرمهم الله لأنهم استحقوا هذا ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) ﴾ [الصافات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٨٠٢) ، والهيثمى فى موارد الظمآن (٣١٠) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٦٨٠) ، والسنن الكبرى (٤٩٨٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وهنا فى المعارج قال: ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

أهناك إكرام أكثر من أنهم يشابهون الملائكة فى أنهم (مكرمون) تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر ، ولا تلحقها ذلة وانكسار.

وقد ذكر لنا الحق سبحانه مظاهر إكرامهم وتكريمهم ، فقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) ﴾ [الصافات]

والإكرام لا يقتصر على هذا بل يشمله ويشمل غيره « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2].

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ، فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم لأنهم مقهورون بالتسخير ، بينما تتمتع أنت بالاختيار وآثرت منهج ربك .

فهم يدخلون الجنة مُدْخلاً كريماً ، وأعدَّ لهم أجراً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَنْ يُدخلك فى مدخله ، فانظر إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ حتى ثوابه وأجره سبحانه كريم ، والذى يُوصف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار الأجرُ نفسه كريماً.

هذا عمَّنْ اتبع منهج الله وثوابهم وأجرهم وعظيم مقامهم فى الجنة ، فماذا

---

(١) غوْل : لا تغتال عقولهم وصحتهم فتذهب بعقولهم وقيل لا إثم فيها ولا وجع البطن ولا صداع

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٨٨٢٧) وابن حبان فى صحيحه (٣٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٠٠) عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله ﷺ « من يدخل الجنة ينعم لا يبؤس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ».

عمَّنْ كفر بالله ورسوله وكتابه ؟

قال تعالى :

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ ﴾

﴿ مُهْطِعِينَ (٣٦)﴾ [المعارج] جمع مُهطِع . والمهطع هو مَنْ يظهر من فَرْط تسرُّعه وكأنَّ رقبته قد طالت ، فالمهطع هو مَنْ فيه طول .

فهم مسرعون فى الابتعاد عنك وعن دعوتك نافرين معرضين ، مثل قوله تعالى عنهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر]

والحق سبحانه هنا يعطينا صورة لما كان عليه حال الكافرين برسول الله، وقد نزلتْ الآية فى جماعة منهم كانوا يجتمعون حول رسول الله يسمعون كلامه ويستهزئون به ويكذِّبونه .

فوصف الحق سبحانه صنيعهم وموقفهم من رسول الله ودعوته بهاتين الآيتين ، أناس معرضون عن رسول الله ولكنهم يجتمعون حوله فى حِلْق ومجموعات متفرقة غير مقبلين عليه ﷺ، بل يجلسون البعض عن اليمين والبعض عن اليسار .

كل ما يفعلونه أنهم مادُّون أعناقهم إلى رسول الله لا يستمعون إليه بل هم يسخرون منه ويستهزئون ، وكأنهم يقولون : ماذا يقول هذا الرجل ؟

فهم لا يسرعون (قِبَلك) أى تجاهك ليسمعوا ما تقول ويهتدوا إنما فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم ينصرفوا عنك متحلِّقين فى حِلَق متفرقة ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ (٣٧)﴾ [المعارج]

﴿ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩ ﴾

عند كل واحد منهم أمل كاذب بأنهم سينالون جنة النعيم فى النهاية ، كيف وهم لم يكونوا من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه القرآن فلم يلتزموا بمنهج الله، لأنهم كفروا به وردُّوا الأمر على الآمر .

ففى أيِّ شيء يطمعون ؟ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) ﴾ [النساء]

والأمانيّ جمع أمنية وهو أنْ يطمح الإنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، فماذا قدمتم من إيمان أو عمل ؟

والطمع شيء فوق الأمنية والأمانى ، وقد ذكر الحق سبحانه أحد هؤلاء الطامعين ، فقال تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

أعطاه الله كلَّ شيء ، خلقه وحيداً لا أحد معه ولا شيء له ، وجعلتُ له مالاً لا نهاية له من كل ما يُطلق عليه مال ، وجعلت له أولاداً بنين كما كان يريد وهم بنين شهود ، أى يشهدون معه أندية القوم ويخرجون فى التجارة أناساً بالغين، أعطاه من كل شيء ، ثم هو يطمع أنْ يزيد نعمة وقوةً وثراء أكثر .

وأنت إذا أردتَ أنْ تطمع فى شيء من الضرورى أنْ تكون عندك مؤهلات ما تطمع فيه ، إذ كيف تتمنى شيئاً أو تطمع فى شيء لا تعمل من أجله ، ولا تملك ما يجعلك مستحقاً له ؟

وقد ذكر الحق سبحانه أناساً مؤمنين يطمعون ، قال تعالى عنهم أنهم يقولون : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا (٥١) ﴾ [الشعراء] ولكنهم ذكروا حيثية طمعهم هذا وسببه ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء]

أما هؤلاء الذين عاندوا الحق وأصروا على الكفر فإنهم يطمعون أنْ يُدخلوا جنة نعيم ، ولاحظ أنَّ الفعل مبنيٌّ للمجهول (يُدخَل) ، فكلّ منهم يعرف جيداً أنه لم يعمل شيئاً يستحق أنْ يدخل به الجنة فذكر الفعل للمجهول ، إنه يريد أنْ

يدخله أحدٌ الجنة .

﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) ﴾ [المعارج]

إنْ كانوا يسخرون من نبيي ورسولي محمد ، ويستهزئون بكتابي القرآن ويقولون لو كان هناك جنة لأدخلنا الجنة مع مَنْ آمن بها يقولون هذا استهزاء وسخرية .

كلا ، ليس لهم أنْ يطمعوا في جنة نعيم ، فليس لهم فيها نصيب يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ[1] الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

من أيِّ شيء يسخرون ويستهزئون وقد خلقناهم مما يعلمون ، من ماء مهين من نطفة ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة]

وقد تفل رسول الله ﷺ على يده وقال : يقول الله تعالى : « ابن آدم أنَّى تُعجزني لقد خلقتُك من مثلِ هذه»[2] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات]

إنهم يعرفون من أيِّ شيء خلقناهم ، فلا مفر لهم من الاعتراف بالخالق الذي خلقهم ، وقد قال قتادة في هذه الآية : خُلقت من قذر يا بن آدم فاتق الله[3] .

لقد خلقتكم من الماء المهين الذي يعلمونه فلم يتكبرون ؟ ولم يعرضوا ؟

---

(١) سم الخياط : ثقب الإبرة . وهو من أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الإبرة الضيق محالاً .

(٢) روى البغوي بإسناد الثعلبي عن بُسْر بن جحاش قال قال رسول الله ﷺ وبصق يوماً في كفه ووضع عليه إصبعه فقال : يقول الله عز وجل : يا ابن آدم أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك ومشيت بين بردين والأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنَّى أوان الصدقة » ذكره الخازن في تفسيره (٤/٣٤٢) . وهو في سنن ابن ماجه (٢٧٠٧) وأحمد في مسنده (١٧٨٤٢).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣٣٣٢) والطبري في تفسيره (٢٣/ ٦٢١) عن قتادة من طريق بشر عن يزيد عن سعيد ، وأورده الكرماني في تفسيره (غرائب التفسير وعجائب التأويل) (٢/ ١٢٥٤)

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ [الطور] ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم خُلِقوا من غير شيء ، ولن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم هم الخالقون .

لذلك يسألهم الحق سؤالاً ثالثاً ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ [الواقعة] وهذا أيضاً لن يستطيعوا أنْ يقولوا أنهم صانعوه أو خالقوه .

فكيف تدّعُون أنكم ستدخلون جنة نعيم وتتألوْن على الله وتدعون التقدم على المؤمنين الصادقين وأنكم ستجتمعون معهم فى الجنة ، إنَّ هذا فى حقيقة الأمر إساءة أدب منكم نحو الله ، لأنكم بهذا تصفون الله بالظلم ، إذ كيف يجمع بينكم وبين مَنْ آمن به سبحانه فى الجنة .. لا تستوون .

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ (٤٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ (٤١) ﴾

كل مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، فالشمس حين تشرق عندى تغرب عند قوم آخرين ، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين ، إذن فمع كلٍّ مشرق مغربٌ ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان .

لذلك قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن]

ثم إن الشمس لها مشرقٌ كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ؛ وفى كل ثانية هناك شروق وغروب ، إذن فالقسم هنا ﴿ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠) ﴾ [المعارج] لأن المشارق والمغارب تختلف على مدار السنة .

فقوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج] إشارة إلى اختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم ، بالإضافة إلى ما

يتضمنه الشروق والغروب فى حدِّ ذاتهما من المنافع والفوائد للإنسان وبقية الأحياء .

وقد وسَّع بعض العلماء الكلام فى هذا مثل البغوي[1] فقال : أراد الله تعالى أنه خلق للشمس ثلاثمائة وستين كوّة فى المشرق ، وثلاثمائة وستين كوة فى المغرب على عدد أيام السنة ، تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل، فهى تغرب فى كوَّة منها لا ترجع إلى الكوّة التى تطلع الشمس منها من ذلك اليوم إلى العام المقبل فهى المشارق والمغارب [2].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج]

قوله تعالى (إنَّا) عبارة عن (إنَّ) التى للتوكيد والنصب . و (نا) التى تعبر عن العظمة أصلها (إننا) .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠)﴾ [المعارج] فنحن قادرون على إهلاكهم وعلى أنْ نخلق أمثلَ منهم وأطوعَ لله وأرضى منهم .

﴿ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ (٤١)﴾ [المعارج] فهل أبدلهم الله بخير منهم ، البعض قال بدَّل الله بهم الأنصار والمهاجرين . وقال آخرون : بل بدَّل الله كفر بعضهم بالإيمان .

والبعض قال : إنه لم يحدث التبديل أصلاً ، لأن الإبدال يكون بطريق الإهلاك، وإنما هدَّد تعالى القوم بذلك ليؤمنوا .

وقد قال تعالى فى حقِّ الذين يُعرضون عن الإنفاق فى سبيل الله : ﴿ وَإِنْ

---

(١) البغوى : هو الحسين بن مسعود الفراء أو ابن الفراء أبو محمد ويلقب بمحى السنة ، فقيه محدث مفسر، نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان بين هراة ومرو . ولد عام ٤٣٦ هـ وتوفى ٥١٠هـ عن ٧٤ عاماً . له (التهذيب) فى فقه الشافعية . و (شرح السنة) فى الحديث . و (لباب التأويل فى معالم التنزيل) فى التفسير [الأعلام لخير الدين الزركلى ٢/٢٥٩]

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٨٣/٢٣) والثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان) (١٣٩/٨) والبغوى فى تفسيره (٢٦/٤) .

تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد]

فالله غنى وقادر بقدرته المطلقة أن يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

ومَنْ يرتد يستبدله الله ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ..(٥٤) ﴾ [المائدة]

فمَنْ يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين .

وهذا ليس معناه إهلاك غير المنفق ، أو إهلاك المرتد ، بالعكس قد يزداد غير المنفق مالاً ويصبح أكثر سلطاناً وجاهاً وأتباعاً ، وكذا المرتد قد يزداد شهرةً ومالاً .

فالتبديل هنا معناه الطرد من رحمة الله ، وأنهم قد تُودِّع منهم ، كما أنك تنفض يديك من شخص لم يقبل نصيحتك عدة مرات وأصرَّ على السير فى طريق الخطأ تجد مَنْ يقول لك : دعْكَ منه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أنْ تقول له : إنك أنت ظالم . فقد تُودِّع منهم »[1] .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) ﴾ [المعارج] فما نحن بعاجزين ولا مغلوبين ، فلا يفوتنا شيءٌ نريده ، ولا يمتنع منا أحد ، فلسنا عاجزين عن إبدالهم بآخرين ثم لا يكونوا أمثالهم .

فلا أحدَ يسبق إرادة الله أو مشيئته أو يعجزها عن أنْ تصل لمرادها ، فهو

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦٥٢١، ٦٧٨٤٢) وكذا البزار فى مسنده (٢٣٧٤ ، ٢٣٧٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٣١٤ ، ١٤٣٥١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

سبحانه ربُّ المشارق والمغارب ، وهذا ليس محدوداً بالأرض التى نعيش عليها فقط ، فالأرض هى كوكب من تسعة كواكب ضمن مجموعة شمسنا ولكن هناك مجموعات شمسية تُعد بالملايين ضمن مجرات فى الفضاء الواسع.

كل مجموعة شمسية لها شمسٌ تشرق وتغرب ، فالله إنما هو للكون كله، وليس رباً لأرضنا وحدنا وشمسنا وحدنا ، من هنا فهو ﴿ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (٤٠)﴾ [المعارج] القادر القدير الذى لا يُعجزه شيء .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ فَذَرْهُمْ (٤٢) ﴾ [المعارج] أمر بأنْ يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من (ذرهم) فعل مضارع هو (يذر) ، ولم يستعمل منها فى اللغة فعل ماض إلا فيما رُوى من حديث رسول الله ﷺ : « ذروا اليمن ما ذروكم » أى : اتركوهم ما تركوكم.

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو (دع) بمعنى : اترك . وقيل : أهملت العرب ماض (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

والمعنى : ذرهم لى أنا أتولى عقابهم وأفعل بهم ما أشاء ، أو ذرهم يفعلون ما يشاءون ليستحقوا العقاب وينزل بهم العذاب .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا(٤٢)﴾ [المعارج] كلمة (يخوضوا) تعطى معنى واضحاً مجسَّماً ، لأن الأصل فى الخوض أنْ تدخل فى مائع أى سائل مثل الخوض فى المياه أو الطين .

فكلمة (الخوض) تُشعرنا بالدخول فى الماء الكثير ، والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أيِّ موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى حفرة ، أما الذى يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه يضع قدميه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم

إيذاء.

﴿ وَيَلْعَبُوا (٤٢) ﴾ [المعارج] اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب ، فما يفعلونه لعب لن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكلّ الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ، ولعب لا جدوى منه ، ولا صلة له بالجد ، بل هو هزل .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) ﴾ [الأعراف]

فنهارهم هو حركة غير مُجدية وغير نافعة بل هى لعب فى الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفَقْد للحركة أو عبث ومجون وانحراف ، وكل مَنْ يسير على غير منهج الله يقضى ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢)﴾ [الأنبياء] فهم لايعطونه اهتماماً ، ولا يلقون له بالاً ، وهم يتعمدون هذا ويُوصى بعضهم بعضاً به ويُحرِّضون عليه .

﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢)﴾ [المعارج]

ذرهم فى خوضهم ولعبهم وعمايتهم حتى يلاقوا يوم القيامة الذى وُعدوه، ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (يلاقوا) أى أنهم هم الساعون للقاء هذا اليوم رغم أنهم يفرُّون منه ويكرهون لقاءه وينكرونه .

ثم إنه ﴿ يَوْمَهُمُ (٤٢)﴾ [المعارج] فينسب اليوم إليهم ، فلن تستطيعوا منه فكاكاً ولا مفراً ، وهو يومهم الذى ينتظرهم لإيقاع الجزاء بهم على كفرهم وعدم إيمانهم ، وسوف يُلاقون فيه مصيرهم .

﴿ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢)﴾[المعارج] أوعدهم الله به على لسان جميع رسله ، أنَّ

هناك يوماً للحساب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ[1] سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

ماذا سيحدث فى ذلك اليوم الموعود الذى يُوعدون به ؟ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا (٤٣) ﴾ [المعارج] ففى هذا اليوم العظيم الهول يُنفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيخرج الناس جميعاً من أجداثهم ، أى يخرجون من قبورهم.

يقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] أى يُسرعون ، وهى نفسها كلمة (سراعاً) التى ذُكرت هنا فى سورة المعارج .

وانظر إلى عظمة تصوير الحق سبحانه لهذا المشهد ﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس]

إنها الحقيقة التى طالما كذَّبوا بها ، وماتوا وقُبروا وفى يقينهم أنهم لن يُبعثوا ، وأنه لا وجود ليوم يقومون فيه من قبورهم ويعودون للحياة مرة أخرى ، فإذا بهم تنشقّ قبورهم عن أجسادهم ويجدون أنفسهم أحياء رغماً عنهم ، وإذا بهم يصرخون داعين على أنفسهم بالويل ، فقد ظهر أنهم كانوا على الباطل .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس] فيقول لهم الله ، أو تقول لهم الملائكة ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ

(١) الأجداث : القبور . واحدها جدث . [كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٧٣] .

وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾ [يس]

وانظر إلى القوة في إحضار هؤلاء رغماً عنهم ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾ [يس] ومُحضر اسم مفعول من أحضر. يعني أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب .

ولن يفلت منهم أحد ﴿ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ [يس]

ويصف الحق سبحانه خروجهم بتنسيل القماش . فيقول ﴿ يَنْسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] فهم في سرعتهم في الخروج كتنسيل القماش .

ويضيف الحق سبحانه هنا الوصف إيضاحاً ، فيقول تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)﴾ [المعارج]

والنُّصُب الشيء المنصوب ، وهى من الكلمات التى وردت مفرداً ووردتْ جمعاً ، وهى فى الأصل حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرّباً للآلهة .

فالنُّصب عَلَم يُنصب ويُوقف يستبق العابدون له إليه ، كذلك إسراع هؤلاء واستباقهم وانطلاقهم ، وفى هذه الحركة خروج من القبور وإسراع فيه قلق واضطراب على مصيرهم .

ولكن هل هم يسرعون مبتهجين فرحين ، تعلو وجوههم الفرحةُ لأنهم سيقابلون خالقهم الذى آمنوا به ؟

إنهم ليسوا من هؤلاء : إنهم ممَّنْ كفر بالله وجحد أمر الله ورفضوا منهج الله وتمرّدوا عليه وعلى مَنْ يحمله ، فقتلوا الأنبياء وقتلوا ورثة الأنبياء من العلماء والدعاة .

وقد قال رسول الله : « العلماء ورثة الأنبياء »[1] .

هم فى البداية يخرجون فزعين مضطربين أعينهم زائغة تذهب فى كلٍّ مكان

(١) جاء فى حديث طويل أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٤١) وابن حبان (٨٠) وابن ماجه فى سننه [illegible]

تستطلع ما يحدث غير مصدِّقة أنهم قاموا من قبورهم ، إنهم فى مشهد مهيب ، مليارات الجثث الآدمية تقوم من أجداثها ، لا يعرف أحدٌ منهم مصيره .

وهذه هى اللحظات التى قال الله فيها : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

يعنى رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، وكذلك تضطرب الأبصار وتتقلب هنا وهناك ، لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وهناك علَّها ترى ما يُطمئنها أو يخفِّف عنها ما تجد .

لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر شديداً أشدّ وأنكى ، عندما يتأكد من مصيره المحتوم تجده ذليلاً منكسراً ، هنا يأتى وصف الحق سبحانه الذى معنا فى هذه الآية : ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (٤٤) ﴾ [المعارج]

فأبصارهم ذليلة منكسرة حيث لا مفرٌّ ولا منجى ، ووجوههم ترهقهم ذلة ، أى تغشاهم ذلَّة ويكسو وجوههم هوان عند تحقُّق عذابهم .

﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)﴾ [هود]

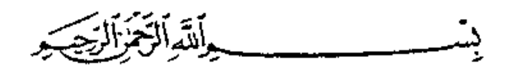
ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المعارج بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ [المعارج]

يكرر الحق سبحانه أن ذلك اليوم هو الذى أوعدناهم إياه على لسان جميع الرسل من لدن آدم حتى خاتم المرسلين محمد ، فليس لكم حجة ، حذرناكم يومكم هذا وحذرناكم هذا الموقف ، فما استجبتم لوعيدنا ، وما اهتممتم بالإيمان بما نقول فظلمتم أنفسكم ، وها أنتم واجهتم ما كنتم تكذِّبون .


سورة نوح



سورة نوح [١]



﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ ﴾

قصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أنَّ لقطات القصة تنتشر فى بعض السور، لكن السورة التى سُمِّيت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، تعالج لقطات أخرى .

تعالج سورة نوح إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصَّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً وسِراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأتِ قصة السفينة فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأتِ فيها

(١) سورة نوح هى السورة رقم (٧١) فى ترتيب المصحف الشريف ، نزلت بمكة وهى مُحكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وهى ٢٨ آية نزلت بعد سورة النحل وقبل سورة إبراهيم . ونوح هو نوح بن لامك ابن متوشلخ بن إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم (بينه وبين آدم ٨ آباء) .

قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة نوح وقد خلتْ من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة هود أو فى سورة الأعراف .

إذا كان الحق سبحانه قد أنهى سورة المعارج السابقة على سورة نوح التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، إذا كان قد أنهاها بتأكيد أنه سبحانه قد أوعد وأنذر الناس جميع الناس بيوم الحساب ، وأنهم لا بد أنه آتٍ ولا ريب .

إذا كان هذا فإن الحق سبحانه يبدأ سورة نوح بإعطائنا مثالاً لهذا الإنذار وهذا الإيعاد على لسان نبى ورسول من رسله ، فخصَّص سورة لرسوله نوح عليه السلام .

ويبدأ السورة بتأكيده على أنه أرسل نوحاً إلى قومه أنْ ينذرهم وينبههم قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قد يكون هو الطوفان الذى حدث فى الدنيا ، وقد يكون الإنذار بيوم القيامة الذى يُجمع له الناس .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ (١)﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه، وكذلك إبراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام ، كلُّ هذه رسالات كان لها وقتٌ محدود تمارس مهمتها فى الحياة ، حتى يأتى الكتاب ، وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه .

ونوح رسول ككلِّ الرسل أُوحى إليه بتوحيد الله عز وجل ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ[1] وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)﴾ [النساء]

---

(١) الأسباط جمع مفرده سبط وهم أولاد بنى إسرائيل اثنا عشر سبطاً كل سبط قبيلة ، وهم بنو يعقوب عليه السلام إخوة يوسف . والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب . [جمهرة اللغة للأزدى]، [معجم ديوان الأدب للفارابى ١/١٨٧].

﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) ﴾ [نوح] أى حذِّر قومك ونبِّههم وأنذرهم قبل أنْ يحلّ بهم عذاب أليم ، عذاب عاجل وهو الطوفان فى حقِّ قوم نوح ، وعذاب آجل وهو عذاب الآخرة لمن مات دون أنْ يتوب من كفره بأنْ يؤمن بالله العظيم .

وكلمة ﴿ أَنْ أَنْذِرْ (١) ﴾ [نوح] أصلها : بأنْ أنذر . لأن تقدير الكلام : أرسلنا نوحاً بأنْ أنذر . ولكن حُذف الجار وأوصل الفعل. والمعنى : أرسلنا نوحاً بأن قلنا له : أنذر .

ولكن لماذا أنذر فى هذه الآية ؟ نقول : نوح عاش فى قومه داعياً إلى الله تسعمائة وخمسين عاماً ، ووصل معهم كما نقول إلى طريق مسدود ، وما آمن معه بعد كل هذه المدة الطويلة إلا ثلاث عشر رجلاً وامرأة .

فالحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها من إعراض واستكبار وعناد وضلال تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته .

لقد وصل الأمرُ بنوح عليه السلام أنْ دعا على قومه دعاءً مؤلماً ، سيأتى فى هذه السورة : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) ﴾ [نوح] أى : لا تُبقى على أحد منهم ، ولا تذر منهم نسمة إلا أهلكتها .

والعذاب الأليم هنا هو الطوفان والغرق فى مياهه ، وهذا هو الأرجح لأنه استخدم هنا لفظة (يأتيهم) ، الطوفان هو الذى سيأتى إليهم ، أما عند الحديث عن اليوم الآخر قال فى سورة المعارج قبل بضعة آيات : ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (٤٢) ﴾ [المعارج]

هم الذاهبون لملاقاة عذاب الآخرة فى يوم القيامة ، لا أنه سيأتى إليهم ، أما الطوفان فإنه سيأتى إليهم ويدخل عليهم بيوتهم ويغرقها ويُغرق أرضهم ويأخذ فى طريقه كل شيء من مواشيهم وأموالهم إلا ما أخذه نوح معه فى السفينة .

وهو عذابٌ أليم مؤلم لهم سيفقدون فيه كل شيء ، أرواحهم وبيوتهم وأولادهم وأموالهم وماشيتهم وأرضهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ ﴾

كلَّف الحق سبحانه نوحاً بالرسالة وبإنذار قومه ، وقد دعا نوح قومه كما دعا أيّ رسول قومه (قال ياقوم) ، والقوم مجتمع أناس ، وكلمة (قوم) إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان .

والقوم هم الجماعة وعادة يُطلق على الرجال لأنهم أهل القيام بالمهمات، وحين تجد القرآن تجد كلمة (قوم) وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تربطهم رابطة .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ، لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ، تسمع من أبيها أو أخيها أو زوجها .

والقرآن يقول : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ (١١) ﴾ [الحجرات] فالنساء لا يدخلن فى القوم، فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلُّب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم في الأغلب .

وقد خاطب نوح قومه فقال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فبدأ هنا بالنذارة ، أما فى سورة الأعراف فقد بدأ بمطلوب رسالته ثم النذارة ، فقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) ﴾ [الأعراف]

فنوح أراد هنا أنْ ينبههم إلى عظيم ما سيدعوهم إليه فقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) ﴾ [نوح] أى نذير واضح . وهو نفس ما قاله نوح لقومه فى سورة هود، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

ونحن نلحظ أن همزة (إن) فى إحدى قراءتى الآية تكون مكسورة ، وفى قراءة أخرى تكون مفتوحة ، أما فى القراءة بالكسر فتعنى أن نوحاً عليه السلام قد جاء بالرسالة فبلَّغ قومه وقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وأما القراءة الأخرى فتعنى أن الرسالة هى : أنى لكم نذير مبين فكأنَّ القراءة الأولى تعنى الرواية عن قصة البلاغ ، والقراءة الثانية تحدد مضمون الرسالة: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

وكما قلنا فإن النذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بعد ، حتى يستعدَّ السامع لملاقاته ، والإنذار إنما يكون للعاصى أو الكافر ، أما المؤمن فله بشير يخبره بخير قادمٍ ليستعد السامع أيضاً لاستقباله بنفس مطمئنة .

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] فرسالة نوح عليه السلام لقومه ثلاثة أمور : عبادة الله ، تقواه ، طاعة نوح فيما أمره الله به .

فاعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، وقد جاء الأمر بها بعد (أنْ) التفسيرية، كما فى قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى) ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ (٧) ﴾ [القصص]

والعبادة أنْ نطيع الله بفعل ما أمر وبترك ما نهى عنه وزجر ، فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ، لذلك إذا جاء مَنْ يدعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جئت به ؟ بماذا تأمرنا ؟ عن أيِّ شيء تنهانا ؟

وقد كان قوم نوح من عُبَّاد الأصنام من دون الله ، فقد كانوا يعبدون وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وهؤلاء كانوا رجالاً صالحين فلما ماتوا صنعوا

لهم تماثيل ليتذكروا صلاحهم برؤيتهم لتماثيلهم ، فلما تقادم الزمن عبدوهم من دون **الله** .

لذلك كانت رسالة نوح لهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ (٣) ﴾ [نوح] أى اعبدوا **الله** وحده لا شريك له وخافوا من **الله** واخشوا عقابه وهذه هى تقوى **الله** ، لذلك قال لهم نوح ﴿ وَاتَّقُوهُ (٣) ﴾ [نوح] أى اتقوا **الله** واتقوا عقابه وجزاءه ، فاتخذوا من الإيمان به سبحانه ردءاً ووقاية لكم من عقابه لكم .

﴿ وَأَطِيعُونِ (٣) ﴾ [نوح] لم يقل : وأطيعوه . أى أطيعوا **الله** ، فطاعتهم لنوح هى طاعة **لله** ، فقال (وأطيعون) لأنِّى أنذركم عقاب **الله** وأريد لكم الخير ، فأطيعونى حتى لا يقع بكم عذاب **الله** .

وكل الرسل خاطبوا أقوامهم نفس الخطاب ، فهود عليه السلام خاطب قومه عاداً فقال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

وقالها صالح لقومه ثمود ، وقالها لوط لقومه ، وقالها شعيب لقومه أصحاب الأيكة .

ثم يقول :

﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

هذه الآية الكريمة يوردها الحق سبحانه كنتيجة وثمرة لعبادة **الله** وحده وتقواه وطاعته ، فثمرة ذلك ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (٤) ﴾ [نوح]

وهذه الآية بهذا النظم جاءت في آيات أخرى منها ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى (١٠) ﴾ [إبراهيم]

فلم يقل تعالى : يغفر لكم ذنوبكم ، لأنه إنما يخاطب كافرين ، بينما يخاطب

الحق سبحانه المؤمنين فيقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (١٢) ﴾ [الصف]

فالله لا يساوى فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى (٤) ﴾ [نوح] الأجل هو الزمن المضروب ، والمقرر للحدث ، وهو مقصود به هنا يوم القيامة ، فهذا الأجل هو انقضاء الدنيا وقيام الآخرة .

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح]

فأكده بـ (إِنَّ) ، ولفظة الأجل جاءت فى القرآن فى مواضع كثيرة منها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف] ، وهنا ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ (٤) ﴾ [نوح]

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتى للإنسان ، فالأجل الأول يُنهى الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يعيد الحياة فى الآخرة للقاء الله عز وجل . فالأجلان مرتبطان .

وأجل الله سواء كان الذى يُنهى الحياة الدنيا ، أو الذى يعيد الحياة يوم القيامة لا يُؤخَّر ، فأجل الله الذى قد كتبه على خلْقه فى أم الكتاب إذا جاء عنده لا يُؤخَّر عن ميقاته ، ولا يستطيع أنْ يؤخره أحد .

﴿ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾ [نوح] أى لو كنتم تعلمون ما يحلّ بكم من الندامة عند انقضاء أجلكم لآمنتم ، لبادرتم إلى عبادته وتقواه وطاعتى فيما جئتكم به منه تعالى .

ولأن قومه لم يستجيبوا توجَّه بخطابه إلى الله عز وجل :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾

دعوة نوح لقومه كانت مستمرة على مدار اليوم ليلاً ونهاراً ، لم يقصر فى دعوتهم ، ولم يكتم عنهم نصحه وإرشاده ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فها أنا ذا ياربى قد بلَّغت رسالتى ، وأتوجه إليك ربى ، وأبرأ إليك من صنيعهم .

فدعوتُ قومى ليلاً ونهاراً إلى توحيدك وعبادتك وحذَّرتهم بأسك وسطوتك.

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) ﴾ [نوح] فاستخدم الحق سبحانه (الفاء) التى تقتضى التعقيب وتفيد الإلحاح عليهم ، وقد ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنه يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان .

لذلك يأتى الحق سبحانه فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة ، وهم لم تزدهم متابعة نوح على مدى تسعمائة وخمسين سنة إلا كفراً وعناداً وتباعداً من الإيمان .

فدعائى لم يزدهم إلا فراراً مما دعوتُهم إليه .

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾

يستمر نوح عليه السلام فى شكايته لربه التى تمثلت فى أنه كلما دعا قومه لعبادة الله وحده وتقواه فعلوا فعلة تدلُّ على شدة إعراضهم عن دعوة نوح وإصرارهم على كفرهم .

﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] ومن البداهة أنْ نعرف أن الإصبع لا تدخل كلها إلى الأذن ، إنما الأنملة تسُد فقط فتحة السمع .

وعدَّل القرآنُ ذلك بمبالغة تكشف موقف نوح عليه السلام ، فكلٌّ منهم أراد أنْ يُدخل إصبعه فى أذنه حتى لا يسمع أيَّ دعوة ، وهذا دليل كراهية ، وهذه

شهادة ضدهم لأنهم يفهمون أنهم لو سمعوا فقد تميل قلوبهم لما يُقال .

وأهل الباطل دائماً لا يحبون أنْ يسمعوا صوت الحق ، وأول شيء يفعلونه هو سدّ آذانهم عن سماع الحق ، إمّا بأن يصمُّوا آذانهم أو بمنع أهل الحق من الكلام أو بقتلهم .

وقد حدث أن مشركي مكة تواصوا فيما بينهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ (٢٦)﴾ [فصلت] فتواصوا بالتشويش على القرآن ثقة منهم في أن القرآن لو تناهى إلى الأذن فقد يؤثر في نفسية السامع ، ولو كان هذا القرآنُ باطلاً فلماذا خافوا من سماعه ؟

وهم لم يكتفوا بوضع أصابعهم في آذانهم ، أي أطراف أصابعهم حتى لا يسمعوا ، وقد كان هذا يكفي ليتحقق غرضهم في عدم سماع نوح ودعوته .

لكنهم أيضاً ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] أي غطوا رؤوسهم بثيابهم ، فهم لا يريدون سماعه فقط ، بل إنهم أيضاً لا يريدون رؤيته .

فهم ﴿ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يسمعوا كلامه ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح] لئلا يروه.

فالحق سبحانه يرسم لنا صورة مرتبطة بالسياق الواردة فيه ، لتصوير إعراض قوم نوح عن الدعوة ورفضهم لها ، فاستخدم كلمة ﴿ أَصَابِعَهُمْ (٧)﴾ [نوح] للإيحاء بشدة إعراضهم ومبالغتهم في ذلك إلى الحدّ غير المعقول ، وهو محاولتهم إدخال الأصابع كلها في الآذان .

وتكملة لهذه الصورة المعرضة عن السماع أضاف إليها الحق سبحانه إعراضهم عن رؤية مَنْ يكلمهم أيضاً فقال : ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ (٧)﴾ [نوح]

وقد كانوا مُصرِّين على الإعراض عن دعوة نوح لهم ، فقال تعالى :

﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

وقد كان نوح يأتى أصنامهم ليلاً وينادى بأعلى صوته : يا قوم قولوا : لا إله إلا الله وإنى نوح رسول الله . فتنكَس الأصنام ، وكانوا يضربون نوحاً ضرباً شديداً ، ويدوسون بطنه حتى يخرج الدم من أنفه وأذنيه[1] .

وكان الرجل منهم عند وفاته يُوصى أولاده ويأخذ عليهم العهد ألاَّ يؤمنوا به ، ويأتى الرجل بابنه إلى نوح ويقول : يابنيّ انظر إلى هذا ، فإن أبى حملنى إليه وحذرنى منه فاحذره أنْ يزيلك عما أنت عليه فإنه ساحر كذاب .

وقد كان هذا على تتابع القرون كل عقد وكل قرن يوصى الذى بعده أنْ لا يؤمن بنوح وأن يحذره الأجداد يوصون الآباء ، والآباء يوصون الأبناء وهكذا.

فهم أصروا على كفرهم إصراراً رغم كل ما بذله نوح عليه السلام من محاولات مضنية أنْ يؤمنوا أو يعطوا لأنفسهم الفرصة لأنْ يسمعوا .

ولكنهم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح] فحقَّ عليهم عذاب الله لأنهم تأبوا وعاندوا وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

واستكبر وتكبَّر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتى ، لأن تكبُّرهم واستكبارهم سرعان ما يزول وينمحى ، وقوم نوح لم يستكبروا فقط بل استكبروا استكباراً .

فاستكبارهم فاق الحد والتصور ، لذلك استحقوا عذاباً لم يُعذِّبه أحدٌ من قبلهم ولا من بعدهم فكان الطوفان ، رسول يبقى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ومع ذلك لا يؤمنون ، فاستحقوا دعاء نوح عليهم بالإبادة والاستئصال واستجاب الله له .

ونوح إنما دعاهم لعبودية الله وحده ليغفر لهم الله ، فقال : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ (٧) ﴾ [نوح] ، فهو لم يدعهم لمصلحة ذاتية له ، بل ليغفر لهم

---

(١) أورده شهاب الدين النويرى (ت ٧٢٣ هـ) فى كتابه (نهاية الإرب فى فنون الأدب) (١٣/ ٤٤ ، ٤٥)

الله كفرهم وإعراضهم ، أى أن إيمانهم سيعود عليهم هم بالمنفعة ، أنْ يغفر الله لهم ويرحمهم فلا يقع بهم عذابه ، بل يفيض الله عليهم من وافر نعمه على عباده المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾

يُبرِّيء نوح عليه السلام ساحته من أنْ يكون قد قصَّر في دعوته لقومه ، أو أنه فرَّط فيما أمره الله به ، فرغم إعراضهم عن نوح وجَعْلهم أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوه واستغشائهم ثيابهم حتى لايروه. وليس هذا فقط ، بل ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧)﴾ [نوح]

رغم هذا لم ييأس نوحٌ واستمر في دعوتهم ، فيقول :﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ﴾[نوح] أي أنني ثم بعد ذلك دعوتُهم جهراً في أسواقهم وطرقهم، ولم أخْشَ سخريتهم بي ولا اعتداءهم عليَّ .

جهاراً : مجاهراً بدعوتي بأعلى صوتي لا أُخفضه ولا أخافت به، بل ظاهراً في غير خفاء ، فالجهار الكلام المعلن به ؛ فصرختُ بهم داعياً لهم وصِحْتُ بالذي أمرتني به من الإنذار .

فنوحٌ عليه السلام إنما أرسله الله بإنذار قومه ، قال :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ (١) ﴾ [نوح]

فقد دعوتُهم يارب إلى الايمان علانيةً من غير خُفْية، بل أظهرتُ لهم الدعوة .

﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح] جرَّبتُ معهم كلَّ أنواع وأساليب دعوتهم إلي الإيمان ، إعلاناً وإسراراً، دعوةً علنية على الملأ

ودعوةً سرية في إسرار بيني وبين أفراد قومي .

وكلمة (إسْراراً) مصدر فيه معنى التوكيد ، وتُعرب مفعولاً مطلقاً ، واستخدام كلمة (لهم) تعطينا لفتةً في أن نوحاً كان يودُّ إيمانَ قومه وكان حريصاً عليهم ، فالنَّظْم القرآني أتى بـ (لهم) وكررها ليعطي معنى إلحاح نوح عليهم ورغبته في إيمان قومه ، فهم في باله طوال الوقت .

بل إنه تعدَّى هذا إلى أنه كان يرغب في مغفرة الله لهم ، فكان يوصي قومه باستغفار الله ، ولكن كيف وهم لايؤمنون بالله إلهاً مستحقاً وحده بالعبودية ، فكانوا يشركون معه أوثاناً لا تضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] لقدأراد نوح أنْ يرحم قومه بأنْ يجعلهم يستغفرون ربهم ، فالاستغفار توبة وإقرار واعتراف بالذنب .

فهَبَ أنَّ الله لم يشرع التوبة والاستغفار وأذنب واحدٌ ذنباً ، وبمجرد أنْ أذنب ذنباً خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إنَّ كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه فيصبح أكثر شراً وعدوانية وأكثر ذنوباً .

فالاستغفار إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، وبأن تكليفه سبحانه تكليف حق .

ومادام استغفر الله فعليه أنْ لا يعود إلى ذنب أبداً ، وأنْ يحرص على تجنُّب المعاصي والذنوب .

واعلموا أنكم عندما تستغفرون إنما تستغفرون (ربكم) الذي خلقكم وأوجدكم في الدنيا ، وهو يتولاكم برزقه وعنايته ورعايته ، فإذا وقفتم ببابه مستغفرين لم يردكم خائبين .

﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] كلمة (غفار) أعلى صيغ المبالغة مبالغةً، فهناك غافر بصيغة اسم الفاعل ، يقول تعالى :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (٣) ﴾ [غافر]

فهناك فى صفات الله سبحانه : غافر ، غفور ، غفار ، وهناك تائب وتواب . وقد تكون صيغة المبالغة لتكرار حدوث الفعل ، فتتعدد المغفرة بتكرار ذنوب العبد ، فهو سبحانه غافرٌ للذنب الواحد ، وهو غفور دائم، أما غفّار فهو الغفور فى كل وقت ومهما تعددتْ الذنوب .

وليس معنى قوله سبحانه : ﴿كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح] أنه كان ولم يَعُدْ الآن غفاراً ، فليس فى حَقِّ الله زمن ، وهو سبحانه غفور وغفّار قبل أن يكون هناك محتاجٌ للمغفرة .

﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾

فاستغفاركم وتوبتكم إلى الله تفتح لكم أبواب السماء بالمطر، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١)﴾ [نوح] فالحق سبحانه الذى لم تكونوا تؤمنون به متى استغفرتموه وتبتم إليه لا يحرمكم من عطاء ربوبيته.

وإرسال السماء يعنى تواصل نزول المطر عليهم ، والفارق بين (الإنزال) وبين (الإرسال) أن الإنزال يكون مرة واحدة ، أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل .

لذلك يقول الحق سبحانه فى المطر : ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) ﴾ [الفرقان] لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء ، ولكن فى الإرسال استمرار .

لذلك يقول الحق سبحانه :﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر] ، فالذى

يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه (أرسل) بدليل أن الله حينما أراد أنْ يجيء بالطوفان قال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف]

وعندما أراد أنْ يُرغِّب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (٥٢) ﴾ [هود]

والحق سبحانه هنا يعلِّق إرسال المطر باستغفارهم ، وفي نوح أيضاً يعلقه باستغفارهم ، يقول تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح]

ولقائل أنْ يقول : ما صلة الاستغفار بمسألة كونية مثل نزول المطر ؟ فنقول : للكون مالك لكلٍّ ما فيه جماده ونباته وحيوانه ، وهو سبحانه قادر ، وهو القادر أنْ يُخرج الأشياء عن طبيعتها ، فإذا جاءت غَيْمة وتحسب أنها ممطرة قد يأمرها الحق سبحانه فلا تمطر .

مثلما قال الحق سبحانه في موضع آخر من كتابه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ[1] مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

فلا تأخذوا الأسباب على أنها تأتيكم برتابة ، ولتعلموا أن للأسباب رباً يملكها بأمره سبحانه يستطيع أنْ لا تجعلها تفعل فعلها ، فيجعل السماء لا تمطر لكم ماءً فتصبح أرضكم جرداء لا نباتَ فيها ، وبالتالى لا حيوانَ ، فلن تجدوا نباتاً ولا لحماً تأكلونه .

وقوله تعالى : ﴿ مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] فالمدرار هو الذى يُدر بتتابع لا ضرر فيه ، فالمطر قد يهطل بطغيان ضارٍّ ، فالمدرار هو المطر الذى يتوالى توالياً مُصلحاً لا مُفسداً .

---

(١) العارض : السحاب . والعارض من كل شيء : ما يستقبلك . وقال أبو عبيدة : العارض من السحاب الذى يعرض في قطر من أقطار السماء من العشى ثم يصبح قد حبا واستوى . (مقاييس اللغة – مادة: عرض) .

ومتى أُرسل المطر مدراراً متتابعاً مصلحاً ، فالأرض تخضرّ وتعمر الدنيا ونزداد قوة إلى قوتنا .

فالماء هو مادة حياة البشر وقوتهم ، لذلك حدثنا الحق سبحانه بعدها فقال : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح]

أربعة أشياء تأتى بعد الاستغفار والتوبة ونزول ماء السماء يُعتبرون مصدر قوة لكم : الأموال ، البنون ، الجنات ، الأنهار .

والإمداد نعمة من نعم الله سبحانه ، فنعم الله هى : نعم الإيجاد ، ونعم الإمداد ، ونعم التكليف ، فإنْ أحببتَ الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أنْ تحبه أيضاً للتكليف .

وهو سبحانه القادر على الإيجاد وعلى الإمداد ، فالحق سبحانه أوجدكم فى هذه الدنيا وأعطاكم أموالاً وبنين يُكثِّرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها .

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ [نوح] هذه الآية فيها من المعانى مالايحدُّه حَدٌّ ، فالنظم القرآنى الذى هو من لدن حكيم خبير عندما تتأمله فى هذه الآية تجد جمالاً لايستطيع أحدٌ من البشر مضاهاته أو الإتيان بمثله .

فقد يسأل سائلٌ : لماذا قدَّم الحقُّ سبحانه ذكر الجنات عن الأنهار، مع أن الأنهار سببٌ فى حصول الجنات ؟

نقول : فى الإجابة على هذا السؤال تتجلى عظمة هذا النظم القرآني، فالحق سبحانه تحدَّث فى الآية قبلها عن نزول مطر السماء عليهم ، فقال تعالى : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] لذلك ناسب أنْ يذكر بعدها الجنات التى هى البساتين ذات الأشجار الملتفة الكثيفة، وهذه إنما تكون بماء المطر.

فماءُ المطر جعله الله سبباً فى وجود البساتين المغدقة مما قد لا يكون للإنسان دخْلٌ فيه ، وجعله أيضاً سبباً فى وجود الأنهار مما يستعمله الإنسانُ فى شرابه وسقى زرعه ورى حيواناته .

فكلُّ الأنهار إنما تنشأ من سقوط الأمطار على المرتفعات الجبلية كنهر النيل مثلاً الذى يسقط مطره على جبال إثيوبيا مثلاً وينساب حتى يصل إلينا .

ثم إنه قد ينقطع المطر سنين فلا تقلقوا ، فالله جعل هذه الأنهار مخازنَ للماء مُمتدَّة لتسقوا بساتينكم وترووها .

وقومُ نوح كانوا قوماً حريصين على الدنيا فمنَّاهم الحقُّ سبحانه بما يريدونه من أموال وبنين وبساتين وحدائق وأنهار ، فهل آمنوا بالله ؟ هل وقَّروا الله وعظَّموه ؟ لا .

لذلك قال تعالى :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾

فما لكم لا ترْونَ لله عظمة ووقاراً ولا تبالون ولا تخافون الله هيبةً وخشيةً وتعظيماً ، وقد كان الأليق بكم والأجدر بكم بعد نعم الإيجاد والإمداد أنْ توقروه سبحانه .

فما لكم لا تخافون له عظمة ولا تُبجِّلوه سبحانه ، ولا تُعظِّمون الله حَقَّ عظمته ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه (٩١)﴾ [الأنعام] وفى سورة الحج قال تعالى : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه إِنَّ اللَّهَ لَقَوِى عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ[1] بِيَمِينِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر]

---

(١) مطويات فى قدرته ويمينه وقوته. ذكرت اليمين للمبالغة فى الاقتدار. وللطى معان منها الإدراج كطى القرطاس والثوب، ومنه الإخفاء، ومنه الإعراض. ومنه الإفناء. قال الواحدى فى تفسيره (٣/٥٩٣): يطويها بقدرته كما يطوى الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه

فهم لم يعطوا الله حَقَّ قدره ، ومعنى القدر معرفة المقدار ، فلو عرفوا قدر الله وعظمته ما عبدوا غيره وما أشركوا معه سبحانه غيره .

وإذا كان الحق سبحانه قد لفت أنظارنا إلى قدره العظيم بأنه قوى عزيز وبخلق الأرض والسموات وأنهما تحت قدرته سبحانه يوم القيامة ، فإنَّ الحق سبحانه لفتنا هنا إلى خَلْق الإنسان ، فقال :

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) ﴾ [نوح]

والأطوار جمع طَوْر وهى الأحوال ، أى خلقكم الله أحوالاً ، حالاً بعد حال ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ (٦) ﴾ [الزمر]

بعد أنْ كنتم نُطفاً تصيرون علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ثم يلفتنا سبحانه إلى خلق السماوات فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

خلقناكم أطواراً فى بطون أمهاتكم وخلقنا فوقكم ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبع سماوات بإتقانٍ بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أى خَلَل فى هذا الخَلْق ، وليُعِدْ الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أى خَلَلٍ من شقوق أو فروق .

﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[1] مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلك ، ولكن هل السماء هى الشمس أو القمر أو النجوم ، فإنَّ كلَّ هذا يعلونا وهو فوقنا ؟ وهل السماء هى الكواكب ؟

وكلُّ هذا غير صحيح ، فالكواكب إنما جُعلَتْ لتزيين السماء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) ﴾ [الصافات] والشمس لإنارة الأرض فى النهار ، والقمر لإنارة الأرض فى الليل حين يكون فى التمام ، أما النجوم فهى أيضاً لتزيين السماء وعلامات للاهتداء بها فى الصحراء والفلوات والبحار .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ..(٩٧) ﴾ [الأنعام]

إذن فالسماء شيءٌ أعظم من هذا ، والحق سبحانه لا يحدِّثنا عن سماء بل عن سماوات ، يحدِّثنا سبحانه عن سبع سماوات طبقات فوق بعضها .

وفى خَلْق السماء عظمة خَلْق ، وعظمة تكوين ، وعظمة صيانة تناسب قدرته تعالى ، فكونها (طباقاً) وفى آية أخرى ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] أى طبقاً فوق طبق ، وطبقاً بعد طبق . أو هى طبقات متطابقة تطابق بعضها .

ثم يلفت نوحٌ نظر قومه إلى تأمُّل ما فى هذا السماوات فيقول عن ربه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح] فيلفت نظرهم إلى القمر والشمس .

---

(١) طباقاً . يعنى طبقاً على طبق بعضها فوق بعض كل سماء مقببة على الأخرى ، وسماء الدنيا كالقبة على الأرض . [الخازن فى لباب التأويل ٤/٣١٩]

وهنا الحق سبحانه بدأ بذكر القمر ثم الشمس ، بينما فى آية سورة يونس قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس]

فالشمس سراجٌ وضياء ، أما القمر فهو فى الآيتين نور . والفرق بين الضياء أو السراج وبين النور أن السراج تصحبه الحرارة والدفء، لذلك قد تحتاج إلى الظل لتستظل من حرارته ، أما النور فلا تحتاج إلى الظل ، فالنور ضوءٌ ليس فيه حرارة ، والحرارة لاتنشأ إلا حين يكون الضوءُ ذاتياً من المضىء مثل الشمس .

أما القمر فضووُه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فالقمر مثل المرآة حين تسلط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه .

والحق سبحانه وصف الشمس بأنها سراج ، والسراج هو ما يعطى الضوء والحرارة ، وهو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً .

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَنبَتَكُمْ (١٧) ﴾ [نوح] تُعبِّر عن عملية الإنبات ، والأرض تُخرج نباتاً لا إنباتاً ، فمرة يأتى الله بالفعل ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل لأنه يريد به الاسم . و(أنبت) يدل على معنى: وينشيء الله لكم منها نباتاً .

والإنبات إنشاء ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ (٩٨) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ويقال :أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداءً من غير الاستعانة بشيء آخر : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ

الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ(١) فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

والله ينشيء البشر من التقاء الزوج والزوجة ، ولكن إنْ أرجعتَ هذا الإنشاء وهذا الإنبات إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام فستجد أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان من نفس مادة الأرض والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنيُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكونان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض، فسواء رمزتَ لآدم بإنشائه من الأرض ، أو أبقيتها فى الذرية ، فكلٌّ شيء مردُّه إلى الأرض .

فإنباتُ الله للإنسان من الأرض وتأكيد هذا بقوله (نباتاً) يوحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات ، بذرة تُوضع فى الأرض وتُسقى وتُروى بماء مع عوامل من الضوء والحرارة والغذاء الصاعد من الأرض إلى الأوراق من خلال الجذور والسيقان .

فالإنسان من عناصر الأرض الأولية يتكوَّن ، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو فهو نبات من نباتها .

﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فما دُمتم قد نبتُّم من الأرض فعند انتهاء آجالكم المكتوبة ستعودون إلى ما جئتم منها وهى الأرض، فستعودون إلى جوفها فيختلط رفاتكم بتربتها وتندمج ذراتكم فى ذراتها .

فإذا شاء أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ فذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ(١٥)﴾ [ق]

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني،

(١) استعمركم : خلقكم لعمارتها . والسين والتاء فى كلمة (استعمركم) معناها التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخرون السماوات والأرض بما قدره تعالى لهم . [زهرة التفاسير – محمد أبو زهرة ٧/٣٧٢٣].

فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ، فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لاشيء ، أفيعجز أنْ يعيدكم من شيء ؟

وهو سبحانه ﴿ يُعِيدُكُمْ فِيهَا (١٨) ﴾ [نوح] فإنه سبحانه يعيدهم فى الأرض التى خُلقوا منها ، فيعودون إلى أمهم الأرض وهى أصل خِلْقتهم ، فيعيدكم فى الأرض فتصيرون تراباً .

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) ﴾ [نوح] أى يُخرجكم من الأرض إلى البعث . فيُخرجكم إخراجاً ، فيؤكد سبحانه أمر إخراجهم بالمصدر (إخراجاً) كأنه قال يُخرجكم حقاً لا محالة ، لا شكَّ فى هذا .

﴿واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩) ﴾[نوح] الحق سبحانه وصف الأرض هنا بأنها بساطٌ ، وفى آية أخرى : ﴿ الذى جَعَلَ لكمُ الأرْضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾[البقرة] يعنى بساطاً ، وفى آية أخرى قال : ﴿الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣)﴾ [طه] أي: بساطاً .

فالحق سبحانه يذكِّر قوم نوح بنعمه على الخَلْق ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا(١٩) ﴾ [نوح] تستقرون عليها وتمتهدونها .

فجعلها الحق سبحانه كالشيء المبسوط الذى ينتفع ببسْطه ، ولو لم يجعلها كذلك لم يتوصلوا إلى حوائجهم ولا الانتفاع بها ، وهذا يسهِّل عليكم التصرف فيها من بلد إلى بلد .

فإن الأرض إنْ لم تُبسط وتُمدَ لم تكُنْ صالحةً للإنسان لأنْ يعيش عليها براحة وسهولة ، وإلا كانت الحياة عليها بشقِّ الأنفس كهؤلاء الذين يعيشون فى الجبال ، أما الكثرة الكاثرة من الناس فيعيشون فيما مدَّ اللهُ وبسط من الأرض فى الوديان وحول الأنهار .

لذلك يمتنُّ اللهُ على قوم نوح بأنه جعل لهم الأرض بساطاً أرضاً ممهدة يعيشون عليها وينتقلون فيها بسهولة .

لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] فمن حكمة الله أنْ جعل فى الأرض سُبلاً نسير فيها ، فلو أن الجبال كانت كتلة تملأ وجه الأرض ما صَلُحتْ لحياة البشر وحركتهم فيها .

فقال تعالى ﴿سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وفى آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١)﴾ [الأنبياء]

أى طرقاً واسعة فى الوديان والأماكن السهلة ، ومعنى (وجعلنا فيها) يصح فى الجبال أو فى الأرض ، ففى كل منهما طرق يسلكها الناس ، وهى فى الجبال على شكل شِعاب ووديان .

ونَظْم القرآن دقيقٌ وعجيب ، فالقرآن لم يقُلْ : لتسلكوا فيها . بل قال: لتسلكوا منها . لأن (فيها) معناها الدخول فى باطن الأرض ، أما منها فمعناها اتخاذ سُبل وطرق على الأرض كمدقات قد تكون متعرِّجة مُلتوية ولكنها على الأرض .

ولكن الحق سبحانه استخدم (فيها) فى آية أخرى ، يقول تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (٥٣) ﴾ [طه] أى طرقاً مُمهَّدة توصّلكم إلى مُهماتكم بسهولة .

وسلك بمعنى دخل وتأتى متعدية تقول : سلك فلانٌ الطريق . ومنها ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾ [المدثر] يعنى : ما أدخلكم فى سقر . وقال لموسى عليه السلام : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (٣٢) ﴾ [القصص] أى أدخلها.

وهى سُبل فجاج ، والعربى القديم قال يصف الكون : « سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج » . والفِجاج جمع فَجّ ، قال تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا[1] وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[2] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج]

---

(١) رجالاً : مُشاة على أرجلهم . قال الفقيه أبو الليث : هذا إذا كان بيته قريباً من مكة فإذا حج ماشياً فهو أحسن ، وأما إذا كان بيته بعيداً فالركوب أفضل . [تفسير السمرقندى ٢/٤٥٦] .

(٢) ضامر : أى ضامر الخصر من الدواب كالإبل .

والفج هو الطريق الواسع كما نقول نحن الآن الأوتوستراد ، فهم يأتون من كل طريق ومكان ومسلك بعيد . والجمع فجاج طرق بين الجبال والرمال ومسالك مختلفة .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾

يخاطب نوحٌ عليه السلام ربَّه ويخبره سبحانه أن قومه قد عصوه، ونوح يعلم أن الله يعلم ما كان منه ومن قومه ، حتى قبل أنْ يرسل نوحاً إلى قومه .

ولكن نوحاً مُرْسلٌ من ربه إلى قوم أشركوا بالله آلهة أخرى مع الله أصناماً وأوثاناً ، ودّاً وسُواعاً ويغوث ويعوق ونَسْراً ، وما دام نوحٌ مرسلاً من ربه فلا بد أنْ يخبر مَنْ أرسله بنتيجة رسالته إعذاراً أنه بلَّغ قومه ما أمره الله به أنْ يبلِّغه .

فيا رب قد بلَّغتُ رسالتك ، قال تعالى عن رسالة نوح التى أُمر أن يبلّغها لقومه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) ﴾ [المؤمنون]

وهم لم يقبلوا دعوته وعصوه واعتبروه مجرد بشر يريد أنْ يتفضل عليهم ويتكبَّر ويصبح رئيساً عليهم أو زعيمَ قومه من دونهم ، قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ..(٢٤) ﴾ [المؤمنون]

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي (٢١) ﴾ [نوح] خالفوا أمرى ورفضوا دعوتى لهم إلى الهدى والرشاد ، فعصونى فيما أمرتُهم به ، أو فيما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى .

﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

فاتبع سِفْلةُ القوم وضعفاؤهم رؤساءهم وقادتهم الذين كانوا يحوزون المال والثروة ويحوزون من الولد ما جعل لهم منعةً وقوة وعزوة استخدموها في رفض دعوة الله .

لقد رزقهم الله المال والولد فلم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا خُسْراناً وضلالاً في الدنيا وهلاكاً في الآخرة ، أما الضعفاء والغوغاء فقد اتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم ، المغترين بكثرة أولادهم ، بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة .

وهم إنما اتبعوهم لقِصَر نظرهم الذي جعلهم ينظرون إلى مظاهر القوة والثراء في الدنيا ، فقاسوا الأمر بانبهارهم بقوة هؤلاء وثرائهم.

وذلك يحدث دائماً ، قال تعالى في قصة قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

ولكنه لم يمتثل واغتر بماله وبنعمة الله عليه ، لذلك : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

هؤلاء الذين يريدون الحياة الدنيا هم أنفسهم الذين اتبعوا : ﴿ مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) ﴾ [نوح]

وقد خسر من اتَّبعَ ومن اتُّبع من قوم نوح فغرقوا بالطوفان وخسر قارون بأن خسف الله به وبداره الأرض فلم ينصره أحد ، أو يمنع عنه عذاب الله : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ

فمصيرهم الخسار ، فالذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة ، فكفرهم وتكذيبهم موصِّل إلى الخسران ، وخسرانهم يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم .

وقوم نوح الذين لم يؤمنوا به خسروا فى الدنيا بأنْ غرقوا بالطوفان، وخسروا فى الآخرة بأن سيُحشروا إلى جهنم ، وذلك هو الخسار ، لأنه ليس خسراناً مؤقتاً أو عابراً قد يأتى بعده مكسب بالتوبة مثلاً ، إنما هو خسار لا مكسب بعده .

والحق سبحانه يوضح لنا ما فعله الذين اتبعهم الناس فضلُّوا باتباعهم هذا ، يقول تعالى :

﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾

المكر مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة . وهذا فى الشجر رفيع الساق المتسلق حين تلتف سيقانه وأغصانه بعضها على بعض فلاتستطيع أنْ تميزها من بعضها ، فكل منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أنْ تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

فالرجل الذى يلف ويدور هو الذى يمكر ، فإنْ كان المكر بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإنْ كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيء .

ومن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حِنكة وخبرة ، وما دام المكر يحتاج إلى التبييت فإن ذلك علامةٌ على الضعف فى البشر ، لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

ويقول تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم]

فمكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر

يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتى أرادوا بها التشكيك والخداع .

وقد وصف الحق سبحانه هذا المكر بأنه ﴿ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) ﴾ [نوح]

أى مكر عظيم عجيب . والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب بالتخفيف وعُجَّاب بالتشديد .. فهو مكر مُتناهٍ فى الكِبَر ، مكروا لإبطال دعوة الله وإغلاق الطريق فى وجه الدعوة ، زيَّنوا الكفر والضلال وأعانوا عليه.

والمكر أنواع منه ما يكون باللسان للصد عن سبيل الله، وهذا قد يكون فردياً أو جماعياً، وفى حياتنا المعاصرة تجد من الإعلام ما يقوم بهذا المكر العظيم ليصرف الناس عن دعوة الله بشتى الوسائل الممكنة فيلبِّس على الناس دينهم .

ومن المكر أنهم كانوا يأتون بأولادهم الصغار إلى نوح عليه السلام ويقولون لهم : إياكم واتباع هذا فإنه ضالٌ مُضلّ فكان هذا مكرهم بصغارهم ، لذلك مكث نوح فى قومه تسعة قرون ونصف قرن ، كل قرن يوصى القرن الذى بعده بعدم الإيمان بنوح وبرسالته .

والحق سبحانه ذكر بعدها قولهم وهو تواصيهم فيما بينهم أنْ لا يتركوا آلهتهم وأنْ يثبتوا عليها ولا يتنازلوا عن عبادتها .

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ (٢٣)﴾ [نوح] فلا تتركوا آلهتكم ولا تدعوا عبادتها والتقرب إليها ، وفعل (ذروا) أى : اتركوا ودعوا وتناسوا .

والفعل هنا منفى (لاتذرن) و (آلهتكم) معبوداتكم من أصنام وأوثان . ثم يذكرون آلهتهم بالاسم : ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣)﴾ [نوح]

وقد كان هؤلاء قوماً صالحين من بنى آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم : لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى

العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم أى عملوا لهم تماثيل ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم كانوا يُسقون المطر فعبدوهم .

وقد ذكر قتادة بن النعمان أن هذه كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك ، فكان وَدٌّ لكلب بدومة الجندل ، وكان سواعٌ لهذيل ، وكان يغوثُ لبني غُطيف ، وكان يعوق لهمدان، وكان نسْر لذى الكلاع من حِمْيَر .

ودعوة الكافرين أتباعهم إلى عدم ترك عبادة الآلهة المزعومة سواء كانت أصناماً أو بشراً أو كواكب كانت فى كل الأقوام، يقول تعالى: ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) ﴾ [ص]

وهو صبر مذموم لأنه إصرار وإقامة على الشرك والكفر ، لذلك توعدهم الله سبحانه فقال : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (٢٤)﴾ [فصلت] فإنْ يتمسكوا بآلهتهم المزعومة فالنار مقامهم الأبدى .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾

هذه الأصنام والأوثان والآلهة المزعومة قد أضلَّتْ كثيراً من الناس، وهى لا تزيد الظالمين إلا ضلالاً ، وهم ظالمون لأنهم ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يسمع ولا يبصر .

ولكن الأمر يحتمل تأويلاً آخر أنَّ هذا كلامُ نوح عليه السلام ، لذلك قال ﴿ وَلَا تَزِدِ (٢٤)﴾ [نوح] بالفعل المضارع المجزوم بلا الناهية ، فهو دعاء يدعو به نوح على قومه أنْ لا يزيدهم الله إلا ضلالاً وخساراً فهم ظالمون معتدون .

وما أضلتهم أصنام وأوثان من الحجر أو الخشب إلا لفساد عقولهم

فسحرتهم ، وهذا حدث أيضاً مع إبراهيم عليه السلام وقومه ، قال تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ (٣٦) ﴾[إبراهيم]

ونلاحظ أن الحق سبحانه فى سورة نوح قال : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أما فى سورة إبراهيم فقد قال : ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

فـ (أضلوا) جائز أنْ يُراد به الكبراء أنهم أضلوا كثيراً ، وجائز أنْ يكون أريد به الأصنام ، ولكن هذا كان يقتضى أن يقول (أضللن) لكى تعود على الأصنام .

ولكن الأصنام ليست لها أفعال على الحقيقة فخرج الكلام مخرجاً ينسب الفعل إلى مَنْ فعله وهم الكبراء فقال (أضلوا) كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا (٨) ﴾ [الطلاق] فأضاف إلى القرية فعل أهلها .

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا (٢٤) ﴾ [نوح] أى أضلوا كثيراً من الناس حتى أنه لم يؤمن بنوح طوال ٩ تسعة قرون إلا نفر قليلون ، قال تعالى : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود]

حتى أنه كان مع نوح يوم أُغرق قومه ثمانون[1] من أهل الإيمان ، ثمانون مؤمناً فقط الذين ركبوا معه السفينة بعد تسعة قرون دعوة إلى الإيمان ، مؤكد أنه مات خلالها مؤمنون آخرون قبل السفينة وقبل الطوفان .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن سبب إيقاع العذاب بقوم نوح ، فيقول تعالى :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) ﴾

(١) أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٨٧٩) عن زيد بن أسلم أنه كان مع نوح يوم أغرق قومه ثمانون من أهل الإيمان ، وفى رواية أخرى عن كعب الأحبار (١٠٨٧٨) أنهم اثنان وسبعون . قال . والمؤمنون يومئذ اثنان وسبعون فأرسل الله الماء من السماء وفتح الأرض .

أُغرقوا لأجل خطيئاتهم فبخطيئاتهم وكفرهم أُغرقوا ، والنظم القرآنى لم يقل : من خطيئاتهم . بل أضاف (ما) التى للصلة ، فالعرب تجعل (ما) صلة فيما يكون فيه عاقبة ، كما يقال : أينما تكن أكن ، وحيثما تجلس أجلس .

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فأدخلوا ناراً فى الآخرة إذ أغرقت أبدانهم وأجسادهم ورُدَّت أرواحهم إلى النار .

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥)﴾ [نوح] فلم يجدوا لهم مانعاً يمنعهم من الغرق ودخول النار فى الآخرة ، فلم يجدوا لأنفسهم بعبادتهم من عبدوا من دون الله تعالى أنصاراً معينين لهم ومنجين لهم من عذاب الله .

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾

وصل نوح عليه السلام إلى أقصى درجة من دعوته لقومه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩)﴾ [نوح]

لقد بذل نوحٌ الجهدَ كلَّ الجهدِ فى دعوة قومه لعلهم يهتدون أو يؤمنون ، ولكنهم رفضوا وأبوا إباءً شديداً الايمان بالله ، ورفضوا ما جاء به نوح عليه السلام ، وما أرسله الله به إليهم .

لذلك دعا نوح ربه داعياً على قومه بعد أنْ بذل وُسْع جهده وآذوه إيذاءً لايُطيقه إنسانٌ وأشبعوه سخرية واستهزاء ، وأوصى الأجدادُ الآباءَ وأوصى الآباءُ الأبناءَ بأنْ لا يؤمنوا بنوح .

وليس نوح فقط الذى دعا على قومه ، بل إن موسى دعا على فرعون وآل فرعون فقال : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ(١) عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

ومعنى الطمس إخفاء المعالم مثل قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا (٤٧)﴾ [النساء] ومعنى الطمس هنا إخفاء معالم الوجه فتكون قطعة واحدة بلا جبهة أو حواجب أو عينين أو أنف أو شفاه أو ذقن .

فطمس الأموال مسخها ، فمَنْ كان يملك بعضاً من سبائك الذهب وجدها حجارةً ، ومَنْ كان يملك أحجاراً كريمة كالماس وجدها زجاجاً، فالأموال كانت وسيلة إضلال .

ثم دعا عليهم بشدِّ الأربطة على قلوبهم فلا يخرج ما فيها من كفر، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان ، وأنْ تظل الأربطة على قلوبهم حتى يروا العذاب الأليم .

نوح عليه السلام دعا على قومه فقال :﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦)﴾ [نوح] فلا تترك يارب أحداً من الكافرين يمشى على الأرض .

وديَّار إنما هو دوّار فعَّال من دار يدور ، ويُقال للرجل الكثير الدوران: الديَّار ، والديَّار أيضاً ساكن الدار ، فلاتذر على الأرض من الكافرين ساكنَ دارٍ ، وإذا لم يبْقَ منهم ساكنُ دارٍ فقد بادوا جميعاً وهلكوا ، فكأنه يقول : لا تذر منهم أحداً .

---

(١) اطمس على أموالهم : الطمس إزالة أثر الشيء بالمحو ، ومعنى اطمس على أموالهم أزل صورها وهيئاتها . وأهلك أموالهم . وقال السدى : اجعل دنانيرهم ودراهمهم حجارة . [تفسير ابن أبى حاتم ١٠٥٤٤].

(٢) اشدد على قلوبهم : أى اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان [تفسير الطبرى ١٧٨٣٤].

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا(٢٧)﴾ [نوح] فلو تركتهم يـاربِّ على ما هم عليه من الضلال والكفر والإعراض عن دعوة الحق يُضلوا عبادك الذين هديتهم للإيمان ، ولا يلدوا من ذرية إلا فاجراً فاسقاً خارجاً عما تريده يارب ، وهو كفَّار شديد الكفر لا يهتدى إلى هدى ، ولا ينفتح قلبُه للحق والصلاح .

وقد كان الرجلُ ينطلق بولده إلى نوح عليه السلام ، فيقول لولده: احذر هذا فإنه كذاب يقصد نوحاً ، وإنَّ والدى قد حذرنيه فيموت الكبيرُ على الكفر، وينشأ الصغيرُ على وصية أبيه .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة نوح بدعاء نوح عليه السلام :

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

هنا خاصٌ وعام ، فكم مرة دخل الأب والأمر هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى ﴿اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] وفى قوله﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح] أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقد كان لإبراهيم عليه السلام دعاء مثل هذا ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾ [إبراهيم]

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين ، والإنسان كما نعلم له وجودٌ أصلىٌّ من آدم عليه السلام وله وجود مباشر من أبويه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو أن الأسوة كانت منهما لذلك يدعو

لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة لأنهم كانوا صحبة له وقدوة ، وتواصي معهم وتواصوا معه بالحق والصبر . فكأن نوحاً يدعو يقول: ربِّ اعْفُ عني واستر عليَّ ذنوبي وعلى والديَّ .

﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا (٢٨)﴾ [نوح] أي : لمن دخل مسجدي ومصلاي مصلياً مؤمناً ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (٢٨)﴾ [نوح]

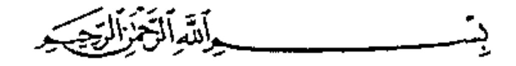
﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾ [نوح] إذا كان نوح يدعو بالمغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً ولعامة المؤمنين والمؤمنات ، فإنه يدعو على الظالمين أنْ لا يزيدهم إلا تباراً .

والتتبير الإهلاك والتدمير لكلِّ من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعُوقبوا بالطوفان .


سُورَةُ الجِنّ



سورة الجن [1]



﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② ﴾

جعل الحق سبحانه سورة للجن أسماها سورة الجن كما جعل سورة للإنسان أسماها الإنسان ، وهناك سورة فاطر أسماها بعض العلماء سورة الملائكة ، لمناسبة قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [فاطر]

فَخَلق الله الذى قدَّر أنْ يسكن الأرض والسماء هم الإنس والجن والملائكة ، ولكل خَلْق من خَلْقه سبحانه صفات تميزه عن الخَلْق الآخرين ، فالإنس إنس لأنهم مرئيون بالنسبة للجن والملائكة ، أما

(١) سورة الجن هي السورة رقم ٧٢ في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٢٨ آية . قال أبو القاسم هبة الله في (الناسخ والمنسوخ) ١/١٨٥ : نزلت بمكة وهي محكمة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ . وقد سميت بسورة الجن لاشتمالها على الكلام على الجن . نزلت بعد سورة الأعراف مع رجوع النبي ﷺ من الطائف في السنة العاشرة من بعثته وقبل حادثة الإسراء ثم الهجرة .

الجن والملائكة فهم غير مرئيين للإنس .

يقول تعالى عن الجن : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (٢٧)﴾ [الأعراف]

والجن مستور عنَّا ، ومثله من نفس المادة اللغوية الجنين الذى لانراه ، فهو مجنون أى مستور ومنه الجنة لأنها ما يجن الشخص فيها ويستره عن أعين الناس ، فيتمتع بنعيم الجنة فى حرية .

والجن يمتاز بخفَّة الحركة وسرعتها ، والجن فيهم المؤمن والكافر والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والعاصى ، والشياطين هم مردة الجن المتمردون على منهج الله ، وكلُّ متمرد على منهج الله نسميه شيطاناً ، سواء كان من الجن أو من الإنس .

والجن أمة من الأمم مطالبون برسالات الله إلى البشر ، وليس منهم أنبياء ولا رسل ، إنما فيهم المسلمون وفيهم الكافرون .

يقول تعالى هنا: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] أى قُلْ يا محمد أنه قد أُوحى إليك ، والوحى لرسول الله يأتى عن طريق جبريل عليه السلام فهو أمينُ الوحى .

والوحى يأتى لرسول الله فى معاناة شديدة حتى إنه كان يتفصد عرقاً فى الليلة الشاتية من ثقل الوحى عليه .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] مادة سمع منها : سمع واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أى مصادفة وأنت تسير فى الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك ومالا يهمك . فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفن للعين .

إذن أنت تسمع كلَّ ما يصل إلى أذنك فليس لك فيه خيار . إنما استمع أنْ تتكلف السماع والمتكلم حرٌّ فى أنْ يتكلم أو لايتكلم . وتسمَّع أى تكلَّف أشدَّ التكلُّف لكى يسمع .

ومعنى استمع أى جنَّد كلَّ جوارحه وهيَّأ كل حواسه لأنْ يسمع فإنْ كانت الأذنُ للسمع فهناك حواسّ أخرى يمكنْ أن تشغلها عن الانتباه ،

فالعين تبصر والأنف يشم واللسان يتكلم ، فعليك أنْ تجند كلَّ الحواس لكى تسمع وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه وتنفذ ما طُلب منك ، لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده منشغلاً عنك تقول : كأنك لستَ معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردت فشغلتْه عن السماع .

فهؤلاء النفر من الجن عندما سمعوا القرآن من فم رسول الله أعطوه آذانهم وحواسهم فأصبح سماعهم استماعاً ،واتجهوا بكليتهم لسماع القرآن من رسول الله .

وقد حدث أن رسول الله ﷺ انطلق فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأُرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حَالَ بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن]

فأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ (١)﴾ [الجن] وإنما أوحى إليه قول الجن [1].

وحديث رسول الله يبين بوضوح الفرق بين سمع واستمع ، قال : فلما سمعوا القرآن استمعوا له . وفى آية أخرى يقول الله لرسوله: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣)﴾ [طه] استقبل وحيى بكلِّ حواسك ومُدْركاتك وكيانك .

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧١) والبخارى فى صحيحه (٧٧٣ ، ٤٩٢١) وأبو عوانة فى مستخرجه (٣٧٩٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٤٤٩) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٠٦٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

والنفر اسم يقع على الثلاثة إلى العشرة ، فهى طائفة وفرقة من الجن وكانوا تسعة من جنّ نصيبين ، وأياً كان عددهم فقد استمعوا إلى القرآن من فم رسول الله .

وانقلبوا إلى أهلهم من الجن فقالوا لهم : ﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] قد تقول لماذا لم يقولوا : استمعنا . إن سمع هنا مع ما بعدها: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] تؤدى معنى الاستماع لأنهم أدركوا أنَّ ما سمعوه قرآن، وأنه كُتاب أنزل على رسول من بعد موسى .

والأكثر من هذا أنه ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١)﴾ [الجن] ومعنى عجباً فريداً ،وهذه الكلمة العجيبة جاءت فى عدة آيات من القرآن .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ (٢)﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ(١) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف]، وقال عن حوت غداء موسى ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف]

العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء وقد قال البعض : العجب ما لا يُعرف سببه ، ويقال : عجبت عجباً ، ويُقال للشيء الذى يُتعجب منه : عجب ، ولما لم يُعهد مثله عجيب .

فالعجب هو الذى ظاهره أنيق وباطنه عميق ، وهو الذى يعجز عنه كل فهم لقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)﴾ [الأحقاف]

والعجب العزيز الشريف الكريم الذى لا يوجد مثله فى فصاحته وبيانه وصدق إخباره ، عجباً فى نظمه وتأليفه وصحة معناه .

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [الجن] الرشد هو طريق النجاة ، فالقرآن يهدى إلى سبيل النجاة ، أما الغى فهو طريق النجاة.

---

(١) الرقيم : اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف ، وقال كعب الأحبار . هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف ، وقيل : اسم للجبل . [تفسير الخازن ١٥٣/٣].

ويقول الحق سبحانه إيضاحاً للرشد والغى فى آية أخرى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ [الأعراف]

فالذين يتكبرون فى الأرض حين يرون سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً ، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس .

فالقرآن يهدى إلى الرشد أى يدل عليه ، فمَنْ آمن به رشد ، ومَنْ كفر به غوى . فمَنْ حكم به عدل ومَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدى فى غيره أضلَّه الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يملُّه العلماء ، ولا يخلَق[1] على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، مَنْ علم علمه سبق ، ومَنْ قال به صدق ، ومَنْ عمل بما فيه أُجر ، ومَنْ دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم[2] .

هذا الرشد آمنا به ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا(٢)﴾ [الجن] فقد فهموا باستماعهم للقرآن أن مقتضى إيمانهم أنْ لا يشركوا بالله أحداً ، لأن هذا مقصود رسالات الأنبياء جميعاً .

وكلمة (أحداً) تقطع الطريق على الإشراك بأى أحد ، وكلمة (أحد) تعطينا لفتة إلى أنهم يقصدون بـ (أحداً) المسيح عيسى بن مريم .

---

(١) لا يخلَق : لا يبلى . وهو لا يخلق كالشَّن البالى . والشَّن هو الجلد الرقيق . [غريب الحديث لابن الجوزى ٥٦٥/١].

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (٨٣٦) من حديث على بن أبى طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ : « إنها ستكون فتنة قال : قلت فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من يرده من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » الحديث .

فهم قالوا ﴿يَـٰقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى (٣٠)﴾ [الأحقاف] لأن موسى جاء بشريعة ، ثم جاء عيسى عليه السلام بدون شريعة يُكلفون بها ، وقد اتخذه النصارى إلهاً من دون الله ، والبعض منهم أشركه مع الله ، وبعضهم قال إنه ثالث ثلاثة .

لذلك أعلن الجن براءتهم من أنْ يشركوا مع الله أحداً من خَلْقه، ثم يُعظِّمون قدْر الله عز وجل فيقولون :

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى (٣)﴾ [الجن]معطوفة على قوله ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ (١)﴾ [الجن] فيكون هذا من قول الوحى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١)﴾ [الجن] كذا وكذا فـ (أنه) بالفتح .

وقد وردت قراءة بالكسر (إنه) على أنه من قول الجن يعظمون جَدَّ ربنا أى عظمته وجلاله وأمره وقدرته ، فهو سبحانه صاحب النصيب الأوفر الذى لا يُضاهى من العظمة والجلال والقدرة والأمر والحكم .

فكيف يدَّعى أحدٌ أنه سبحانه اتخذ صاحبة وولداً ، وليس له سبحانك من خلقه صاحبة ولا ولداً ، لذلك يطمئننا سبحانه بقوله :

﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ولا ولد يحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل فى مسألة التشريع ، فالخَلْق جميعاً سواء عند الله ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ولا يميز أحداً على أحد .

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾

﴿سَفِيهُنَا (٤)﴾ [الجن] وسفيه الجن هو إبليس الذى رَدَّ الأمر على الآمر ، وعصى ربه في السجود لآدم الذى خلقه الله بيديه ، فقولة إبليس:

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فهو اعتبر رأيه أفضل من رأى الله سبحانه ، لذلك اعتُبر سفيهاً ، وليس معنى هذا أنه سفيه واحد هو إبليس ، فإنَّ إبليس هو رمز لكل سفيه يرد الأمر على الله ويرفض ما يأمر الله به ، وهو جاهل بالله لا يعرف قدر الله سبحانه .

فهو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه فعل السَّفه ، وليس بمقتصر على الواحد بل هو راجع إلى كل مَنْ يوجد منه ذلك ،لذلك قال البعض : هم كفرة الجن .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤)﴾ [الجن] الشطط : البعد عن الصواب في القول ، وأصل الشطط الزيادة في الحد . فالشطط هو القول الذى ينافى الحقيقة ويخرج عن حدود الصواب .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا (٥)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى الشك أى شككنا أن لن تقول بنو آدم وهم الإنس والجن على الله قولاً كاذباً مفترى ، فلما تحقق عندهم الكذب خافوا علىأنفسهم أن يُبتلوا به ، وأنْ يشتبه عليهم الصراط السوى ، فتفرقوا فى الأرض على رجاء أنْ يجدوا مَنْ يدلُّهم على الطريقة المثلى حتى وجدوا رسول الله ﷺ، فسمعوا القرآن منه .

فهم كانوا قد اعتقدوا أن لله تعالى صاحبةً وولداً ، بما سمعوا الجن والإنس يقولون ذلك ، وكان عندهم أنهم فى ذلك صادقون ، فلما ظهر عندهم كذب مَنْ يدعى اتخاذ الولد والصاحبة تبرَّءوا ممن يقول ذلك فثبت بهذا أنهم كانوا أهلَ شرك إلى ذلك الوقت .

لقد ظننا أنَّ الإنس والجن لا يصدر عنهم الكذب على الله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)﴾ [الجن]

فالذى يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألواناً من العذاب ، وقد حكى ربنا سبحانه كثيراً أن الشياطين لهم التصاقٌ واتصالٌ بكثير من الإنس .

فرجالُ الإنس هم السحرة ، كانوا يعوذون برجال من الجن ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، يعيش طوال عمره مرهقاً .

صحيح أنهم يقدرون أنْ يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبِّب فيه رهقاً وتعباً .

لذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة يموتون فقراء ، بَشِعى الهيئة ، مصابين فى الذرية ، لأن الواحد منهم استغل فرصة لا توجد لكلٍّ واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس .

فتجد كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشؤمها ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون فى أضيق صور العيش ، فترى الساحر يجنى أموالاً كثيرة ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش فى ضنك ، ويموت كافراً مُبعداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلمون من شؤمه .

والرَّهق الغى والخطيئة والإثم ، فإن رجال الجن زادوا رجال الإنس إثماً وخطيئة ، وازدادوا عليهم جراءة وطغياناً .

والملاحظ هنا أن الحقَّ سبحانه سمَّى الجنَّ رجالاً كما أسمانا رجالاً، فخاطبهم فى الكتاب كما خاطبنا ، ففى الجن رجال كما فى الإنس وأنهم يتناسلون ، فكلمة رجل تُطلق على هذا الجنس من الثقلين .

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا



لم يكونوا يعتقدون أن هناك رسولاً بعد عيسى بن مريم، فرجال الجن كانوا مثل رجال الإنس في هذا ، فقد اعتقد هؤلاء وأولئك أن الله لن يبعث أحداً رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيد الله .

وقد أوضح الحق سبحانه هذا في سورة ص : ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨)﴾ [ص]

فكفار قريش وجدوا أن اليهود قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله . وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . لذلك قال كفار مكة : ما سمعنا بتوحيد الله في الملة الآخرة .

الجن كذلك منهم من اعتقد اعتقاد النصارى ، ومنهم من اعتقد اعتقاد اليهود ، ومنهم من عبد الأوثان ككفار مكة ، وظنوا أنه لن يبعث الله أحداً ينقض هذا فقالوا مع مَنْ قال : ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا(٧)﴾ [الجن]

ثم يقول الجن : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

قبل نزول القرآن كان الشياطين يسترقون السمع ولكن عند بعث رسول الله ﷺ امتنع ذلك كله ، فعرفوا أن نبياً ورسولاً آخر سيُبعث ، وقد امتنع عليهم ذلك لأن الله أراد أنَّ لا تضع الشياطين خرافاتهم في منهج الله .

وانظر إلى دقة الأداء القرآني في قوله تعالى : ﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ (٨)﴾ [الجن] كأنهم صعدوا إلى السماء حتى بلغوها لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها .

واللمس إدراك بظاهر البشرة كالمسِّ ويُعبَّر به عن الطلب ، فهم طلبوا السماء ليتسمعوا أخبارها والأوامر والوحي النازل فلم يستطيعوا ، لمسوا والتمسوا غيب السماء وطلبوا سماعه .

فقد طلبنا بلوغها لاستماع كلام أهلها وطلبنا خبرها .

﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن]

لقد أراد الجن أن يستمعوا خبر السماء فوجدوها ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (٨)﴾ [الجن] من الملائكة يحرسون السماء من كل جانب ، فهم حراس من الملائكة تمنعهم من الوصول إلى أرجاء السماء أو حتى الدنو والقرب منها .

لقد تمت حراسة السماء من أنْ يقترب منها الجن والشياطين ، لنزول آيات القرآن على محمد ﷺ .

وليست الحراسة فقط بل مُلئت السماء ﴿وَشُهُبًا(٨)﴾ [الجن] والشُّهب جمع شهاب ، فالجن وجدوا السماء مُلِئت حرساً شديداً من الملائكة وشُهباً مُحرقة تترصَّد مَنْ يقترب من السماء .

فالشهب هى النجوم المحترقة ، فكانت الشياطين عندما تحاول الاستماع إلى ما ينزل من السماء ينزل عليهم شهاب يحرقهم .

فالشهب جمع شهاب ، وهى النجوم التى كانت تُرجم بها الشياطين، والحق سبحانه يقول عن السماء : ﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾ [الحجر]

فقد كان العاصون من الجن قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع للمنهج المنزّل على الرسل السابقين لرسول الله ، واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة حيث شاء الحق أنْ يحرس السماء وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب .

والشهاب هو النار المرتفعة ، وهو عبارة عن جذوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ويخرج منها اللهب ، وهو ما يُسمَّى بالشهاب .

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن]

فالشياطين كان لها مقاعد فى السماء تقعد فيها لتستمع لما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه ، فكانوا يأخذون بضعاً من كلمات

المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقة واحدة وألف كذبة ، فلما بعث الله رسول الله مُنعوا من تلك المقاعد .

يقول الحق سبحانه عن الجن والشياطين الذين كانوا يقعدون هذه المقاعد للسمع ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ [الشعراء] فعُزلوا عن السمع برجمهم بالكواكب والنجوم والنيازك وهى الشهب .

فكانوا معزولين عن استماع الوحى والأمر من السماء وممنوعين من استماع كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر.

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾ [الجن] بعض الجن كانوا يحاولون الاستماع فكانوا يُقابلون بالشهب ، شهاب نار قد رصد لكل مَنْ يحاول أنْ يتسمَّع .

لذلك كان استماعهم استراقاً وخطفاً ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠)﴾ [الصافات]

فبعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها وتوصيلها إلى أوليائهم ، ولكن هيهات لهم ذلك لأنه ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾[الصافات] يعنى كوكب ينقضُّ عليه، ومعنى (ثاقب) يعنى : نافذ يخترق الأجواء حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت .

فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يُمنع بداية من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْق بين أنْ يُمنع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا يستفيد منه ، فالله يمكّنه من بعض الأخبار فيسمعها ، لكن تعاجله الزاجرات والشهب من كل ناحية فتكون حسرته أعظم ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقّ فى استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

ثم يقول تعالى :

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾

هذا استمرار لكلام الجن ، فهم لايدرون سبب حراسة السماء الشديدة بالملائكة ، ورمى الجن بالشهب النارية لمنعهم من الاستماع ، هل هذا لشر أُريد بمَنْ فى الأرض حتى لا يفطنوا لما قد يحدث لأرضهم . أم أن الله قد أراد بهم رشداً وهدى .

فالأمر قد اختلط على الشياطين لأنهم لم يعودوا يستطيعون استراق السمع ، ولذلك لم يعرفوا هل الذى ينزل من السماء خير أم شر ؟

فالجن لا يعلمون السر فى حراسة السماء ، وهل فى ذلك شر بالبشر، أو أراد الله بهم خيراً وهُدى ، والشر قد يكون عذاباً ينزل بأهل الأرض.

أما الرشد فهو الهدى بأنْ يبعث منهم رسولاً مرشداً يرشدهم إلى الحق ، وهل الشر أو الرشد باعتبار المقصود من الأمر النازل أم بنتيجته ، فهم كانوا علموا أن مَنْ آمن بالرسول المبعوث ونظر إليه بعين الاستهداء والإرشاد فقد رشد ، ومَنْ نظر إليه بعين الاستخفاف والاستهزاء استؤصل ، فلم يدر الجن أيكذبون الرسل فيحلّ بهم الهلاك فى العاقبة أو يُصدِّقونه فيرشدوا به ؟

ويوصِّف الجن أنفسهم بقولهم ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن]

فلأنهم لم يدروا أيُصدِّقون الرسل أم يكذِّبونه ، انقسموا ، فمنهم مَنْ آمن ، ومنهم مَنْ كان دون ذلك .

فالجن منهم العاصون والطائعون والمؤمنون ، فهم مثلنا فمنهم الصالحون المصلحون الذين يُعينون على الخير ، ومنهم مَنْ هو أقلّ من

ذلك صالح غير مصلح ، مُهتدٍ غير هادٍ ، فمنهم الطائع ومنهم العاصى. ومنهم المتمرد ، وقد يكون مَنْ هو دون الصالحين هم الشياطين .

﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] أى كنا أهل ملل شتى ، مؤمنين وكافرين ويهود ونصارى . أى أنهم كانوا ذوى أهواء مختلفة .

والطرائق جمع طريقة وهى طريقة الرجل ومذهبه ، والقدد : جمع قِدَّة وهى الضروب والأجناس المختلفة . فكانوا فِرقاً شتى وقد قال السُّدى : الجن مثلكم فيهم قدرية ومرجئة ورافضة وشيعة[1]. وهذا يدلُّ على أن فيهم مجتهدين ومتأولين للآيات ، ومنهم مَنْ تقف أمامه آيات مشتبهة ، لذلك فهم أصناف مختلفون .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)﴾

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا (١٢)﴾ [الجن] الظن هنا بمعنى أيقنا وآمنا أننا ﴿ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن]

والشيء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً معجزاً لفلان يعنى لايستطيع الإتيان بمثله ، فهم آمنوا أنهم لن يستطيعوا الإفلات من عقاب الله ، ولن يُعجزوه ولن يعجز عنهم أبداً ، وهو سبحانه مدركهم لا محالة .

ومثله قوله تعالى : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ (٥٧)﴾ [النور]

فلن نسبق الله فى الأرض فنفوته ، ولن نُعجزه هرباً فلن نسبقه ونفلت منه سبحانه ، إنْ إراد الله بنا سوءاً ، فالله قادر علينا حيث كنا .

لذلك قال : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ (١٢)﴾ [الجن] أى وإنْ دخلنا تحت تخوم الأرضين ، ولن نعجزه بالهرب على وجه الأرض،

(١) ذكره الثعلبى فى تفسيره (الكشف والبيان ١٠/٥١) من قول السدى . وقد ذكره الواحدى فى تفسيره (الوسيط فى تفسير القرآن المجيد) (٣٦٦/٤) أن الحسن البصرى قال : الجن أمثالكم فمنهم قدرية ومنهم مرجئة ورافضة وشيعة .

وهذا إقرار منهم بأنهم لايستطيعون بحيلهم وأسبابهم أنْ يحترزوا من عذاب الله تعالى .

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ ﴾

الهدى : القرآن الذى سمعوه من فم رسول الله ، وهو هدى لأنه يهدى إلى الطريق المستقيم ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤)﴾ [الإسراء]

فالهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه ، فالإشارات التى تدل المسافر على الطريق هى هدى له لأنها تبين له الطريق الذى توصله إلى المكان الذى يقصده .

وقد وصف الحق سبحانه القرآن فقال ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة]، وقال : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى (١٢٠)﴾ [البقرة]

فالقرآن الكريم هو هدى الله يحمل هداية الدلالة للذين يريدون أنْ يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .

والجن يقولون ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ (١٣)﴾ [الجن] فبدلاً من أنْ يقولوا : وأنَّا لما سمعنا القرآن . انتقلوا إلى وصفه مباشرة على اعتبار أن القرآن هو الهدى بأل التى للعهد تمييزاً له عن الكتب الأخرى .

﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن] إيمانك بالقرآن هو إيمانٌ بالهدى ، وإيمانك بالهدى هو إيمانٌ بمَنْ أنزل القرآن على رسوله محمد .

ولهذا الإيمان بربك عاقبة وهى ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)﴾ [الجن]، فالإنسان إنما يخاف من البَخْس والرَّهَق ، فإنْ كنتَ لا تريد الوقوع فيهما فآمن بربك يكفك الأمرين .

فما هو البَخْس ؟ وما هو الرَّهَق ؟

البَخْس هو إنقاصُ الحق ، ويقول تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ(١) بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢١)﴾ [يوسف]، ويقول تعالى : ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ومعنى (أشياءهم) حقوقهم .

فالبَخْس والنقص من حقِّ الغير ذنب ، وقد يكون بأخْذ الشيء كله غصباً أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

والحق سبحانه لا يبخس الناسَ شيئاً ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه]

والهضم هو البَخْس وهو النقصان فلا ننقصه أجره وثوابه . ومنه نقول : فلانٌ مهضوم الحق . يعنى كان له حَقٌّ فلم يأخذه .

والله لا يظلم أحداً مثقال ذرة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [النساء]

أما الرَّهَق فهو ألوان من العذاب ، لا يخاف بَخْساً فيُبخس حقه كله ولارهقاً يبخس بعض حقه ، فمَنْ يصدّق بربه لا يخاف أنْ ينقص من حسناته فلا يجازى عليها ، ولا رَهَقاً إنما يحمل عليه من سيئات غيره .

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ (١٤)﴾ [الجن] فالجن فيهم المؤمن والكفار . والقاسطون الجائرون الظالمون ، والحق سبحانه

---

(١) شروه : باعوه . يطلق لفظ الشراء على البيع . يقال : شريت الشيء بمعنى بعته وإنما حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير فى (شروه) وفى (كانوا فيه من الزاهدين) يرجع إلى شيء واحد . [السراج المنير لشمس الدين الخطيب ٢/٩٨] .

يقول : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] فالقاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من (قسط يقسُط) . فالقاسطون الجائرون على حقوق غيرهم .

ولكن القاسطين هنا مقابلون للمسلمين ، فيكون القاسطون هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بأنهم عدلوا بالله غيره سبحانه، فالمسلمون هم الذين خضعوا لله بالطاعة ، أما القاسطون فهم الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] فمَنْ أسلم وخضع لله بالطاعة فأولئك تعمدوا وترجوا رشداً فى دينهم ، والتحرى والتوخِّى هو القصد ، فهم قصدوا نوراً وثواباً ، وقصدوا طريق الحق .

أما الظالمون الجائرون فيقول تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن] وقد جعلناهم حطباً للنار ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم كما لا تتبين لذة الصحيح إلا عند رؤية المريض . فحطباً أى وقوداً للنار.

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

ثم يُعرِّج الحق سبحانه على كفار مكة فيقول : ﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ (١٦)﴾[الجن] أى طريقة الهدى ﴿ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن] أى ماء كثيراً من السماء .

فلو آمنوا لوسَّع الله عليهم فى الرزق ، فلو استقاموا على طريقة الحق والاستقامة لوسَّعنا عليهم فى الرزق وبَسْطنا لهم فى الدنيا .

والحنيفية السَّمحة هى الاستقامة ، وقد قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل عمران] والذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أنْ ينحرف عن

الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ إنْ كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضِّل الطريق المستقيم ، أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يصل للغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة وقد لايصل إلى الغاية .

أما إذا استقام على الطريقة وهى الملَّة الحنيفية والسنة والشريعة، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ [الجاثية]

والماء الغدق قد يكون المطر ، وقد يكون المال الكثير الوفير لأنه يقول بعدها ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (١٧)﴾ [الجن] أى : لنبتليهم به ونختبرهم .

وقد قال عمر رضى الله عنه : أينما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة[1] .

فرزق الدنيا فتنة وابتلاء ، ومَنْ فتن برزق الدنيا مالاً أو جاهاً أو نساء فقد خسر وخاب ويكون الابتلاء والفتنة شراً له .

ثم يقول الحق سبحانه :﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]، ففى الآية السابقة قال (وألو استقاموا على الطريقة) ماذا يحدث لهم ؟﴿ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا (١٦)﴾ [الجن]

هذا لمَنْ آمن واستقام على منهج الله وشرعه ، أما مَنْ لم يؤمن بل أعرض ونأى بجانبه وصَدَّ عن سبيل الله ﴿ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن]

كان مطلوباً منه أنْ يسلك سبيل الرشاد والهدى والاستقامة على الطريقة ولكنه أعرض ، لذلك ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)﴾ [الجن] أى يُدخله الله عذاباً شديداً شاقاً متصاعداً لا راحةَ فيه .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً لهذا العذاب الشديد الشاق المتصاعد، فقال : ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ [المدثر]

أى سأكلفه أنْ يصعد على صخرة من النار ملساء فى تلك الصخرة،

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٦٦٣) والثعلبى فى تفسيره (١٠/٥٣) وكذا القرطبى (١٩/١٨)

كُوىً تخرج منها ريح حارة ملتهبة ، وهو عذاب السَّموم فإذا أصابته تلك الريح تناثر لحمه .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه قضية لابدَّ أنْ نضعها فى أذهاننا وهي:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾

المساجد جمع مسجد ، وهو المكان الذى يُسجد فيه لله وحده ، فهو مكانٌ للعبادة ، فإذا دخلتَ المسجد للعبادة فإنَّ لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حضن عنايته فلا تأت بالدنيا معك .

وقد كان أحدُ الصحابة يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا .

والمسجد لن يأخذ منك إلا الوقت القليل فضَعْ قدرك مع نعلك خارج المسجد ، وادخل بلا قدر إلا قدر إيمانك بالله ، ادخل بعبوديتك لله ، ولا تلحظ لك قدْراً إلا قدرك عند الله .

واجلس حيث ينتهى بك المجلس ولا تتخط الرقاب وانْوِ الاعتكاف ولا تتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا .

فالمساجد هى فيوضات الحق النورانية على خَلْقه ، فالذى يريد فيْضَ الحق بنوره ، فليذهب إلى المسجد ، فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله .

فليخصِّص الإنسانُ المؤمنُ ساعةً لله وحده فى اليوم ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد ، فليس من حُسْن الأدب واللياقة أنْ ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فعلينا ألاَّ نناقش أمورنا الدنيوية من بيع وشراء فى المسجد ، فكأننا لا يكفينا حبُّ الدنيا خارج المسجد ونطمع فى الدقائق التى

نخصّصها للصلاة فنجرجر الدنيا معنا إلى المسجد .

ومعَ أن الأرض كلها تصلح للصلاة لكنك حين تأتى إلى المسجد اصحب معك أخلاقَ التعبُّد ، ويجب أنْ يكون الانفعال والتفاعل والحركة والنشاط كله فى الله .

فالمساجد لله ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (١٨)﴾ [الجن] والدعاء هو العبادة[1]، فلا تعبدوا مع الله أحداً ، بل قوموا بما يجب لله من توحيد .

ولكن البعض تأوَّل هذه المساجد أنها الأعضاء التى يسجد عليها الإنسان ، وهى سبعة : الجبهة واليدان والركبتان والقدمان ، فهذه الأعضاء مخلوقةٌ لله عز وجل فلا تسجدوا عليها لغير الله .

وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرتُ أنْ أسجد على سبعة ، على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين »[2].

وكلا المعنيين محتمل ، فالمساجد قد تكون مواضع الصلاة ، وقد تكون أعضاء السجود .

والحق سبحانه يقول عن المساجد : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾ [التوبة]

فقوله ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ (١٨)﴾ [التوبة] يدل على أن التحدث فى المساجد بما يهمّ أمور المسلمين وانتقاد أمور يروْنَها خارجةً عن منهج الله لا يطعن فى كوْن المساجد لا يُعبد فيها إلا الله ، فلا يُدعَى فيها لأشخاص ولا غيره .

فـ﴿ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ (١٨)﴾ [التوبة] أى لم يخْشَ فى دينه إلا الله فجاهر

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٨٣٥٢، ١٨٣٨٦) وعبد الله بن المبارك فى كتابه (الزهد والرقائق) (١٢٩٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٨٣٨) من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدعاء هو العبادة ، قال ربكم ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ (٦٠) ﴾ [غافر]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٦٧) ، والبخارى فى صحيحه (٨١٢) ومسلم فى صحيحه (٢٣٠) من حديث ابن عباس .

بالحق وعمل بمقتضى إيمانه بالله واليوم الآخر ، وأنه لا يدعو ولا يعبد إلا الله .

فالإيمان بالله يقتضى خشيته فهو أحقُّ أنْ يُخشى .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴿١٩﴾ ﴾

لما قام رسولُ الله يدعو ربه ويقرأ القرآن تجمَّع هؤلاء الجن التسعة ليستمعوا منه القرآن ، فعبد الله هو رسول الله محمد قام يعبد ربه فى بطن نخلة بين مكة والطائف .

فكان الجن مِن حبهم لما استمعوه من رسول الله من آى الذكر الحكيم ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)﴾ [الجن] أى كادوا أنْ يقعوا عليه من تراكبهم عليه من شدة حرصهم على استماعه .

فكادوا يركب بعضهم بعضاً من الازدحام عليه حرصاً على استماع القرآن ، فكادوا يكونون على محمد جماعاتٍ بعضها فوق بعض ، واحدها لبدة ، والعرب تُسمِّى الجراد الكثير الذى قد ركب بعضه بعضاً لُبْدة .

وفى كلامنا العامى نقول : شعر مُلبَّد . أى متشابك متراكب داخل فى بعضه ، بعضه فوق بعض .

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٠﴾ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(قُلْ) يا محمد ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن] فإذا كان الجن كانوا يبحثون عن الحق بين رسالات سابقة ووجدوا السماء قد حُرِسَتْ بحراسة شديدة من الملائكة ، وأصبح الاقتراب من السماء

لتسمَع الأخبار أمراً خطيراً .

فرسول الله يعلن لهم إعلاناً واضحاً عن رسالته وما جاء به : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ [الجن]

فأنا إنما أعبد ربى ، وما جئت إلا بتوحيده وعدم الإشراك به شيئاً أو أحداً ، فلا أصنام ولا أوثـان ، ولا بشر ولا حجر ، ولا كواكب ولا نجوم ولا قطط ولا حيوانات ولا شمس ولا قمر .

إنما هو الله الواحد الأحد لا ربَّ سواه ، ولا إله غيره .

والبعض من العلماء تأوَّل هذه الآيات أن المقصود بها كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: لقد جئتَ بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك، فقال لهم النبى ﷺ: إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً [(١)].

﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن] نلحظ أن الحق سبحانه كرر فى هذه السورة مادة (ر ش د) عدة مرات ، ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن] ، ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠)﴾ [الجن] ، ﴿فَأُولَـٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)﴾ [الجن] ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن]

أربعة مواضع : الرُّشْد ، ثم رَشَداً ثلاث مرات .

ولمـاذا لم يقُلْ الحق سبحانه : قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً فإنَّ الضر يقابله النفع ؟ نقول : لم يكن الجن الذين استمعوا لرسول الله يبحثون عن نفع وإنما كانوا يبحثون عن الحق ، لذلك لما سمعوا القرآن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ (٢)﴾ [الجن]

كانوا يبحثون عن الهدى وعن الرُّشْد والرَّشَد . ولا يبحثون عن نَفْع دنيوى . والرُّشْد والرَّشَد والرشاد كلها واحد نقيض الغَى .

ولو قلنا : إن المقصود بهذه الآيات هم كفار مكة فإن الله عزَّ وجلَّ يقول لمحمد : يا محمد قُلْ لمشركى العرب إنِّى لا أملك لكم ضراً فى

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل فى معانى التنزيل) (٤/٣٥٢) ، وكذا البغوى فى تفسيره (٥/١٦٣) ، والشوكانى فى (فتح القدير) (٥/٣٧١) .

دينكم ولا دنياكم ولا رشداً أرشدكم ، لأن الذي يملك ذلك هو الله الذي يملك كلَّ شيء .

ثم يقول القرآن : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن]

لا أحدَ يجير إلا الله ، واعلم أنه لا سلطانَ لأحد أبداً ، ولا أحد يجير على أحد ، فهو سبحانه الذي يجير ولا يُجار عليه ، ولن يجير شيء على الله تعالى .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك]

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون] يجير تقول استجار بفلان فأجاره يعني استغاث به فأغاثه، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ (٤٨)﴾ [الأنفال] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعفتْ قوته عن حمايته ، فيلجأ إلى قوي يحميه ويدافع عنه .

إنْ خرجت عما أرسلني الله به فلن يستطيع أحدٌ حمايتي من الله إنْ أراد بي إنزالَ عقوبة إن عصيته .

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن] كلمة (ملتحداً) وردت في القرآن مرتين ، هذه التي معنا في سورة الجن ، والأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف]

أي ملجأ تلجأ إليه ، فلن تجد من دون الله ملجئاً تلوذ به ، فإنْ لم أتبع ما جئت به فلن أجد من دونه حرزاً أعدل إليه وألجأ ، وقيل مدخلاً في الأرض مثل السرب أدخل فيه .

وكلمة ﴿مُلْتَحَدًا (٢٧)﴾ [الكهف] من اللحد يكون في شقٍّ من الأرض يُوضع فيه الميت كأنَّ الأرض تحتضنه وتخفيه في داخلها .

﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾

فالذى يجيرنى من عذاب الله هو البلاغ عن الله سبحانه ، ففيه الجوار والأمن والنجاة ، وذلك الذى أملكه ، فأنا لا أملك لكم ضراً ولا رشداً .

فالرشد والخذلان بيد الله وحده هو مالكه دون سائر خَلْقه يهدى مَنْ يشاء ويخذل مَنْ أراد .

وبعض العلماء نظر إلى كلمة (إلا) فى أول الآية أنها مكونة من حرفين (إنْ) و (لا) . فتكون (لا) منقطعة من (إن) فيكون معنى الكلام : قُلْ إنى لن يجيرنى من الله أحدٌ إنْ لم أبلغ رسالاته ..

إن الأمر جدىٌ فلن يجيرنى من الله أحدٌ ، ولن أجد من دونه ملجأً أو حماية إلا أنْ أبلغ هذا الأمر وأؤدى هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هى الإجارة المأمونة .

فهى أمانة لا بدَّ أنْ يُبلِّغها رسول الله ، لذلك عندما ساوم كفارُ مكة رسولَ الله قال لعمه أبى طالب : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أنْ أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أهلك دونه »[1] .

وقد جمع الحق سبحانه كلمة (رسالة) فقال ﴿ وَرِسَالاَته (٢٣) ﴾ [الجن]

وقد مدح الحق سبحانه الذين يبلِّغون رسالاته فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

ويقول سبحانه على لسان رسوله ﷺ: ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ (٩٣) ﴾ [الأعراف]

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٦٦/١) ، والبيهقى فى (دلائل النبوة) (المقدمة – ص ٦٦) ، وكذا السهيلى فى (الروض الأنف) (١٠/٣) ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١١٨/١) .

والمقصود برسالات الله ما أرسله الله به من أوامر ونواهٍ وشرائع وتكاليف ، فكأنَّ كلاًّ منها رسالة .

﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ..(٢٣)﴾ [الجن]

المعصية هنا ليست هي ارتكاب الذنوب والآثام ، إنما هي المعصية في الإيمان نفسه وإباء ورَفْض الإيمان بالله وكتبه ورسالاته ورسله.

وقد قال رسول الله ﷺ: « كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا مَنْ أبى . قالوا: ومَنْ يأبى يارسول الله ؟ قال : مَنْ أطاعني دخل الجنة ، ومَنْ عصاني فقد أبى»[1] فَمَنْ يَعْصِ الله ورسوله في التوحيد فلا يؤمن به فإن له ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] فمَنْ يعصِ الله فيما أمره ونهاه ويكذِّب به ورسوله فجحد رسالاته ، فإن له نار جهنم يصلاها ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)﴾ [البقرة]

الحق سبحانه يحدثنا عن عذاب النار الذي يلحق بالكافرين وهو عذاب يخلدون فيه ، ثم يصعِّد الحق سبحانه الخلود بالأبدية ، فهناك عذاب في النار ، وهناك خلود فيها ، وهناك أبدية خلود .

ولكن أبدية الخلود في النار لم تُذكر إلا في هذه الآية في سورة الجن﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾[الجن]

ولفظ (أبداً) يدل على ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . فالقرآن كلام الله ، وكلام الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار ، فكلّ لفظ من القرآن محكم وله معنى .

فكلمة (خالدين فيها) لا تفيد التأبيد الذي لا نهاية له ، فكلمة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن] تعني أن المكْث في الجنة ينتقل من المكث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٨٠) والمهلب بن أحمد الأندلسي في المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

طويلاً إلى المكث الدائم الذى لا ينتهى.

ثم يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق سبحانه يثبت لهم هنا الرؤية ومثلها قوله تعالى : ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا (٥٣)﴾ [الكهف] بينما فى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا (٩٧)﴾ [الإسراء]

والمتأمل فى حال هؤلاء يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمياً ليتحقق لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ، ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالين : حال العمى وحال البصر .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾ [مريم]

و ﴿ يُوعَدُونَ (٢٤)﴾ [الجن] من أوعد . من الوعيد والتهديد والله حين يُوعد قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبداً ، فإذا أوعد فلا بد أن يأتى وعيده .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)﴾ [الأنعام]

فلا أحد بقادر علىٰ أنْ يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فالله غالب على أمره .

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] فمنْ أضعف ناصراً

كفار مكة أو المؤمنون، ومَنْ أقل عدداً أى جنداً . فلا ناصرَ لهم فى الآخرة .

وقد كان المشركون يعيِّرون النبى والمؤمنين بقلَّة الناصر وقلَّة العدد ، فقال ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤)﴾ [الجن] أى فى القيامة.

وهذا تهديد ظاهر لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصى ، وإذا كان المشركون يقيسون قوتهم إلى قوة محمد ، ويركنون إلى القوة العدد ، فعندما يرون إنفاذ وعيدنا فيهم حينها سيعلمون مَنْ أضعف ناصراً حين يغيب المناصرون لهم ،وسيعلمون مَنْ أقلّ عدداً حينما يتخلى عنهم أخلاؤهم الذين كانوا لهم أعواناً فى الدنيا .

يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف] فسيكونون أعداء لبعضهم يتبرأون من بعضهم البعض

ويقول تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[1] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة]

ثم يقول تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾

(إنْ) هنا للنفى معناها (ما) أى ما أدرى أقريب ما أوعدكم الله به وهددكم به من عذاب خُلْد أبدى ، لا أدرى أقريب هو أم بعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥)﴾ [الجن]

مادة الأمد (أ م د) وردت فى القرآن أربع مرات .

---

(١) كرَّة : أى رجعة فى الدنيا . أى أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم . (تفسير الخازن ٣/٣٢٨).

قال تعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ (١٦)﴾ [الحديد]

الأمد : الوقت والزمن والدهر . وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا (٣٠)﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) ﴾[الجن] فقوله أى أجلاً وغاية تطول مدتها فيكون أجلاً بعيداً .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾

فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وهذا ما استأثر الله بعلمه، فالله هو عالم الغيب ، فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَنْ ارتضاه واصطفاه من البشر .

فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]

وهو سبحانه لا يعطى المفتاح لأحد من خَلْقه ، والغيب هو ما غاب عن الكل ، وهو الغيب المطلق ، أما الأمر المخفى فى الكون وكان غيباً على بعض من الخَلْق ، ثم يصبح مشهداً لخَلْق آخرين فلا يُقال إنه غيب .

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾ [الجن] أى لا يُطلع أحداً على غيبه ، ومثل هذا قوله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ (٣)﴾ [التحريم]

أى أن الله أطلعه على ما غاب عن رسول الله من شأن حفصة رضى الله عنها أنها أخبرت عائشة بما أسرّه رسول الله لها .

والحق سبحانه استثنى من هؤلاء الذين لا يطلعهم على الغيب ، استثنى فقال :

﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

فالحق سبحانه استثنى مَنْ ارتضاه سبحانه من الرسل فأطلعهم على بعض الغيب مما أراده الله ، فالرسل لا يعلمون الغيب ولكن الله سبحانه يعلمهم بما يشاء من الغيب، ويكون هذا معجزة لهم ولمن اتبعوهم .

والله لا يُطلع على غيبه أحداً إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يبلِّغ ما أوحى به إليه .

فيحمى الحق سبحانه وحيه من تعرُّض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يُبلِّغه الرسول ،وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصاً من تخليط الجن وعبثهم .

فالرسول مُعلَّم غيب وليس عالم غيب ﴿ قُلْ لا أقول لَكُمْ عندى خَزَائِنُ الله وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أقول لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَى ..(٥٠)﴾ [الأنعام]

فرسول الله ينفى عن نفسه علم الغيب ، ولقائل أنْ يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى أخبرنا بها رسول الله ، وهى أحداث مستقبلية ؟

أقول : إن ذلك ليس علماً للغيب ولكن الرسول مُعلَّم غيب ، أى أن ربهم سبحانه قد علَّمه ، ومثال ذلك قول الله : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)﴾ [آل عمران]

الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، وهذا اختراق لحجاب الزمن الماضى .

أما الشيء الذى سوف يحدث فى المستقبل فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل .

فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خَلْقه ، والقرآن الكريم فيه الكثير من الغيب ، وأفاضه الله تعالى على رسوله ﷺ وتحققتْ الأحداث كما جاءت فى القرآن .

والحق سبحانه يهب بعضاً من خَلْقه بعضاً من فيوضاته ، وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضاً من الهبات وحدَّد مَنْ يعطيه بعضاً من الغيب ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ (٢٧)﴾ [الجن]

وهى ليست للحصر لأن الرسول أسوة ، ومَنْ يعمل بعمل الرسول ويقتدى به ، يهبه الله تعالى هبة يراها الناس ، فيعرفون أن مَنْ يتبع الرسول كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية، ولكن هذه الهبة ليست وظيفة وليست دكاناً للغيب ، بل هى من عطاءات الله تعالى .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ (٥٩)﴾[الأنعام] فالحق سبحانه لم يُعطِ مفتاح الغيب لأحد ، والولى من أولياء الله إنما يأخذ الهبة منه سبحانه ، لكن مفتاح الغيب هو عند الله وحده.

فإذا ما أعلمنا رسول الله غيباً من الغيبيات فلا نقول : إنه يعلم الغيب لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .

إذن : هذا غيب لا يدركه أحد بذاته أبداً.

ومن هذا الغيب المطلق غيب استأثر الله به ولا يُطلع أحداً عليه حتى الرسل ، فقد « سُئل رسولُ الله عن الساعة ، فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1].

فعلم الساعة من الغيب الذى استأثر الله به، فلم يُعطِ علمه فيها لأحد من الخَلْق .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن]

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨ ، ٩، ١٠) من حديث أبى هريرة ، وهو حديث جبريل الطويل وفيه سؤاله عن الإسلام والايمان والإحسان والساعة .

لقد حفظ الله رسوله من محاولات استراق الجن لأخبار السماء والوحى ، فالضمير فى (يديه) ، (خلفه) يعود على الرسول ، أى من بين يدى الرسول ومن خلفه .

وقد يسال سائل : لماذا خصص الحق سبحانه الجهات بالامام والخلف ولم يذكر باقى الجهات ، نقول : ذِكْر بعض الجهات دالٌ على جميعها .

وقيل : إن الله تعالى كان إذا بعث رسولاً أتاه إبليس فى صورة مَلَكٍ يخبره ، فيبعث الله من بين يديه ومن خلفه رصداً أى طائفة من الملائكة تكون مهمتها رصد الجن والشياطين فيحرسونه منهم ويطردون الشيطان عنه .

وقد تولَّى الله سبحانه حفظ الذكر الحكيم بحراسة السماوات وغيرها ، والرصد من الملائكة يدفعون الشياطين عن أنْ تستمع ما ينزل من الوحى ، فهم رصدٌ لمن يأتى للرسول ليخطف الخَطْفة من أوامر السماء.

ثم ينهى الحق سبحانه سورة الجن بقوله :

﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

ليعلم رسول الله محمدﷺ أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وأن جبريل عليه السلام قد أبلغه رسالات ربه أوامره ونواهيه وأحكامه.

فلو لم يكُنْ هناك رصد من الملائكة للجن والشياطين لأفشوا أوامر السماء إلى الكهنة ، فلم يبق بينهم وبين الأنبياء فَرْق ولا يكون للأنبياء آيةٌ ولا معجزة ولا دلالة ثم لا يُقبل قولهم .

فرسالات ربهم تُبلَّغ كما هى محروسة من الزيادة والنقصان ، وقد

قيل فى تأويل هذه الآية أقوال وتأويلات كثيرة .

منها أى ليعلم إبليس أن الرسل قد بلَّغوا رسالات ربهم سليمةً من تخليطه وإسراف أصحابه ، ومحاولات استراق السمع قد فشلت .

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (٢٨)﴾ [الجن] فلا يجدون معه منفذاً للفكاك ، والإحاطة تقتضى العلم بهم والقدرة عليهم ، فلن يفلتوا من علم الله ولا من قدرته .

فالله علم ما عند الرسل فلا يخفى شيء من أمورهم ، فالله أحاط بما عند الرسل ، أو بما عند الملائكة ، أو بما عند الخلق .

فأحاط بما عند الرسل من الحكم والشرائع لا يفوته منها شيء ولا ينسى منها حرفاً ، فهو مهيمن عليها .

﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] أحصى سبحانه ما خلق وعرف ما خلق لم يَفُتْه شيء حتى مثاقيل الذر والخردل . فكلُّ شيء عنده معدود ومُحصى لا يغفل جل جلاله عن معرفة عدده .

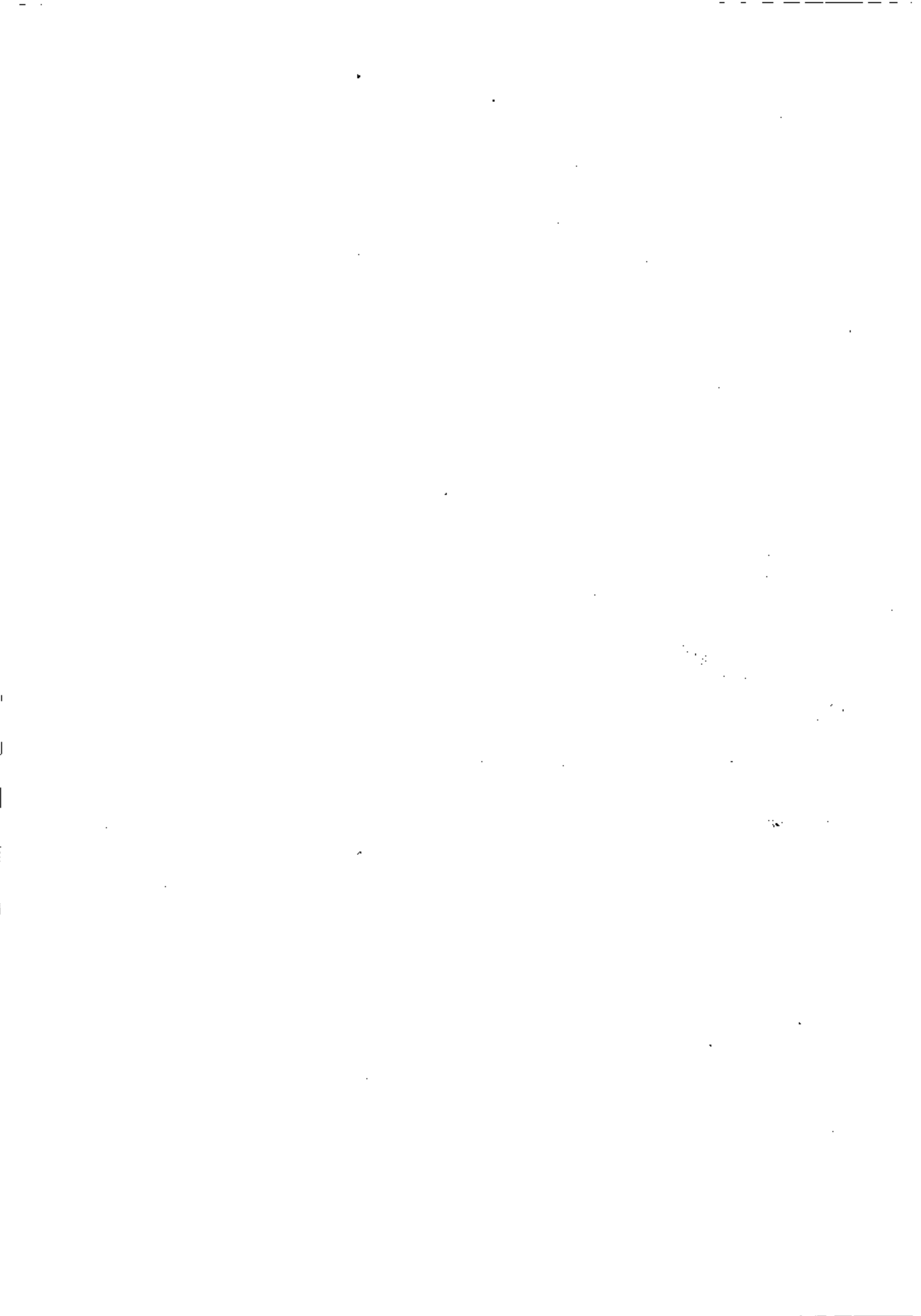
و ﴿ عَدَدًا (٢٨)﴾ [الجن] قد تُنصب على أنها حال ، وقد تُنصب على أنها مفعول مطلق بتقدير فعل (عَدَّ) أى عدَّ عدداً .

فلا شيءَ يخفى على الله كثيراً كان أو قليلاً ، جليلاً أو دقيقاً ، فالله أحصى كلَّ شيء من القَطْر والرمل وورق الأشجار وزَبَد البحر ، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه .

وهو سبحانه المحصى العالم الحافظ لكل شيء .

وهنا تنتهى سورة الجن التى تهز الوجدان والقلوب ، فهى تتحدث عن عالم غير مرئى لنا يرانا ولا نراه ، قد لا نهتم كثيراً لعالم الملائكة لأنهم مأمونو الجانب ، هم جانب الخير ، إنما دائماً نحن نتوجس من عالم الجن .

جنٌّ يبحثون عن الدين والعقيدة الحق ، فيجدونها فى قرآنٍ سمعوه من فم خاتم الرسل والأنبياء ، فإذا بهم قد أصبحوا دعاة لقومهم من الجن ، فالجن منهم مؤمنون وكافرون ، ومنهم عصاة وطائعون .




سُورَةُ المُزَّمِّلِ



سورة المزمل[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾

يخاطب الحق سبحانه نبيه وحبيبه محمداً ليقرِّبه إليه أكثر ، فالعابد لله يجب أنْ يقف بين يدى الله يناجيه ويدعوه ويتودد إليه ، فما بالُ الله هو الذى يطلب من حبيبه محمد أنْ يقوم من الليل متهجداً عابداً متقرِّباً إليه سبحانه .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا[2] مَحْمُودًا (٧٩) ﴾ [الإسراء]

فالهجود هو النوم ، وتهجَّد أى أزاح النوم والهجودَ عن نفسه ، وهو

---

(١) سورة المزمل : هى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، قال ابن عباس وعطاء : إلا آية من آخرها وهى قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم) إلى آخر السورة فإنها نزلت بالمدينة . عدد آياتها ٢٠ آية . نزلت بمكة بعد سورة القلم ، عدا الآيات ١٠ ، ١١ ، ٢٠ فإنها نزلت بالمدينة .

(٢) المقام المحمود : هو مقام الشفاعة العظمى الذى يقومه رسول الله ﷺ بين يدى الله يوم القيامة ، وهى الشفاعة التى ستتدافعها الرسل ، كل منهم يقول نفسى نفسى ولكن رسول الله يقول : أنا لها أنا لها . ويخر ساجداً عند العرش ويفتح الله عليه بمحامد لم يكن يعلمها من قبل ، حتى يقول الجبار جل وعلا : يا محمد ارفع رأسك وسل تُعط واشفع تشفع فيرفع النبى ﷺ رأسه فيشفع ويقول : يارب أمتى أمتى

خصوصية لرسول الله وزيادة على ما فرض على أمته أنْ يتهجد لله في الليل .

وهذه الخصوصية لرسول الله وإنْ كانت فرضاً عليه إلا أنها ليست في قالب من حديد ، بل له ﷺ مساحة من الحرية في هذه العبادة ، المهم أنْ يقوم لله تعالى جزءاً من الليل .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾ [الفرقان]

فحين يأوى الإنسانُ إلى بيته بعد عناء اليوم وسعيه يتذكر نعم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، وإنما موهوبة له من الله ، لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها فيبيت لله ساجداً وقائماً .

وليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزءٌ منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، وقد قال ابن عباس : مَنْ صلى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كمَنْ بات لله ساجداً وقائماً . فربك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام وأن تتأمل نعمه عليك فتشكره عليها .

(المزمِّل) أصله المتزمِّل ، وهو الذى تزمَّل فى ثيابه أى تلفَّف . وقد كان النبيﷺ يتزمل فى ثيابه أول ما جاءه جبريل فَرَقاً منه، فكان يقول : زمِّلونى زملونى حتى أنس به[١] .

والمزمِّل أيضاً حامل النبوة ، والمعنى زملتَ هذا الأمر فقُمْ به واحمله فإنه أمر عظيم ، ولم يُخَاطب بالنبى والرسولَ لأنه كان فى أول الأمر ومبدئه ، ثم خُوطب بالنبى والرسول بعد ذلك .

---

(١) قاله الخازن فى تفسيره (لباب التأويل) (٤/٣٥٥) ، وابن الجوزى فى (زاد المسير) (٤/٣٥٢) .
وأخرج الطبرانى فى تفسيره (٢٣/٤٠٠) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى : بينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، قال رسول الله : فجئيت منه فرقاً وجئت أهلى فقلت : زمِّلونى زمِّلونى فدثرونى .

ويُروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة تكيد لرسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله فاغتمَّ له والتفَّ بثيابه وتزمَّل ونام مهموماً ، فجاءه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل]

كأنَّ الحق سبحانه يقول لنبيه لا تغتم ولا تحزن ، فراحتك فى قُرْبك منى ، قُمْ بين يدىَّ يذهب عنك ما تشعر من ألم من قومك . لذلك كان رسول الله يقول دائماً لبلال : « أرحْنَا بها يا بلال »[1] .

فالصلاة راحةٌ لقلبه ونفسه وروحه من تعب وشقاء الحياة التى تكاد تذهب بروح الإنسان، فمن حبه لله أصبحت طاعة الله وعبادته مرغوبة مُحبَّبة إلى النفس .

فهؤلاء يؤدونها بالمحبة والعشق ، ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمرٌ خارج عن نطاق أسبابهم ، فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقتَ حلاوة الطاعة .

﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾ [المزمل] ، وقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى انتفخت قدماه ، فقيل له فى ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً [2].

فقُم الليل للصلاة والعبادة واهجُرْ فراشك وما تتزمل به وتتغطى وانهض لتقوم بين يدىَّ ، فصلِّ الليل إلا قليلاً تنام فيه وهو الثلث ،

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٨٥) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٨٨) عن سالم بن أبى الجعد قال قال رجل: ليتنى صليت فاستريحت ، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال : سمعت رسول الله يقول : يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها .

(٢) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماه دماً ، قالوا : يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال: أفلا أكون عبداً شكوراً . أخرجه ابن المبارك فى الزهد والرقائق (١٠٧) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (٧٢٨) ، والحميدى فى مسنده (٧٧٧) ، وأحمد فى مسنده (١٨١٩٨).

تقوم مُصلياً ثلثي الليل وتنام الثلث الباقي .

وقد يسأل سائل : هل هذا الخطاب لرسول الله وحده ، أم أن أمته مخاطبة أيضاً ، وقد ورد ما يثبت أن الخطاب كان لرسول الله ومعه أمته .

فعن عائشة قالت : كنتُ أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً يصلي عليه من الليل ، فتسامع الناسُ به فاجتمعوا فخرج كالمغضب ، وكان بهم رحيماً ، فخشي أنْ يُكتب عليهم قيام الليل فقال : « يا يأيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون ، فإنَّ الله لا يملُّ من الثواب حتى تملُّوا من العمل ، وخير الأعمال ما ديمَ عليه ونزل القرآن ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردَّهم إلى الفريضة وترك قيام الليل »[1] .

﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] قُمْ نصف الليل أو انقص من النصف قليلاً إلى الثلث ، أو زِدْ على النصف قليلاً إلى الثلثين .

فخيَّره ربُّه بين ثلاثة مقامات : النصف ، الثلث ، الثلثين . يقوم بأيتهن شاء ، فكان رسول الله وطائفة من المؤمنين معه يقومون على هذه المقادير ، وشقَّ ذلك عليهم ، فكان الرجل لا يدري كم صلى ؟ وكم بقي من الليل ؟ فكان يقوم الليل كله مخافة أنْ لا يحفظ القدر الواجب، حتى خفَّف الله عنهم بآخر هذه السورة .

وقد سئلتْ عائشة رضي الله عنها : أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٠١٠) والطبري في تفسيره (٢٣/٣٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها ، والقاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) (٩/٣٤٥) وعزاه لابن جرير الطبري .

بالليل ، فقالت : ألستَ تقرأ ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١)﴾ [المزمل] قلت : بلى . قالت: فإن الله عز وجل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام نبى الله وأصحابه حولاً ، وأمسك الله خاتمتها اثنى عشر شهراً فى السماء حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة [(١)].

﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤) ﴾ [المزمل] قُمْ ليلك متعبِّداً راغباً فى فضل الله عز وجل ، وليكُنْ زادك فى ليلك هو القرآن فرتِّله ترتيلاً .

أى بيِّنه بياناً وترسَّل فى قراءته وتمهَّل وبيِّن حروفه حرفاً واعْطِ لكل حرف حقَّه بالمد والإشباع والتحقيق . حتى أن ابن عباس كان يقول : اقرأه على هَيْنتك ثلاث آيات وأربعاً وخمساً .

أحضر قلبك وعقلك عند قراءتك للقرآن فى صلاتك فى تأمل وتفكُّر فى حقائق الآيات ومعانيها ، ذكر لله وتعظيمه وذكر لوعده للمؤمنين بالجنة والثواب العظيم ، وذكر لوعيده للكافرين بالنار وسوء المصير، وذكر لقصص الأنبياء والأمم السابقة للاعتبار بما حدث مع الأمم السالفة الماضية .

فالمقصود بالترتيل إنما هو حضور القلب عند قراءة القرآن .

وقد سُئل أنس بن مالك : كيف كانت قراءة رسول الله ؟ فقال : كانت مدًّا ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد (الرحمن) ويمد (الرحيم) [(٢)].

---

(١) أورده الواحدى فى التفسير الوسيط (١٢٥٠) ، والقرطبى فى تفسيره (١٩/ ٣٤) والسيوطى فى الدر المنثور (٨/ ٣١٢) وأحمد فى مسنده (٢٤٢٦٩) ومسلم فى صحيحه (٧٤٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٠٥٠) ، والبخارى فى خلق أفعال العباد (١/ ٧٣) والحاكم فى مستدركه (٨٥٢) والبيهقى فى السنن الصغير (٩٧٨) ، والبخارى فى صحيحه (٥٠٤٦) عن قتادة قال : سُئل أنس بن مالك .

والقرآن لم ينزل لمجرد قراءته فقط ، لكن نزل ليُقرأ للحفظ والبقاء إلى يوم القيامة لئلاً يذهب ولا يُنسى . ولنتذكر ما فيه ولفهم ما أُودع فيه من الأحكام ، وما لله على العباد من حقوق ، وما لبعضهم على بعض .

والقرآن أيضاً نزل ليُعملَ بما فيه ويُتعظ بمواعظه ويجعلوه إماماً يتبعون أمره ، وينتهوا عن نهيه ، وهذا كله لا يُدرك إلا بالتأمل وذلك عند قراءته على الترتيل .

اقرأه بتؤدة وتبيين حروفه ترتيلاً بليغاً بحيث يتمكن السامع من عدِّها ، وترتيل القرآن واجبٌ ، فمَنْ لم يُرتِّله فهو آثم كترْك الإشباع مثلاً .

وتدبُّر القرآن إنما يحدث بالترتيل ، يقول تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد] فـ (يتدبرون) و (يتفكرون) هما أم كلِّ المعانى ، عليك أنْ تفهم آيات القرآن وتتدبرها وتتفكرها وتتفهمها عن معرفة وعلم .

ويقول تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)﴾ [ص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾

كأنَّ الحقَّ سبحانه كان يُعدُّ رسول الله ﷺ للمهمة الكبرى لحمل الرسالة ، فأعدَّه إعداداً ربانياً بقيام الليل والتهجد والقرب منه سبحانه ، والوقوف بين يديه فى جوف الليل .

فكأنَّ التهجد ليلاً والوقوف بين يدى الله فى هذا الوقت سيعطى

رسول الله ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسئولية الملقاة على عاتقه ، ألا وهي مسئولية حمل المنهج وتبليغه للناس .

والقول الثقيل هنا هو الوحي ، والحق سبحانه لم يقل : سننزل عليك قولاً ثقيلاً ، بل قال: سنلقي. لأن كلمة سنلقي تناسب ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] ، فالإلقاء فيه قوة وشدة وصعوبة .

والوحي كان كذلك ، وقد كان رسول الله يتفصَّد[1] جبينه عرقاً لما يحدث في جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يسرِّى عنه تذهب عنه هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة وكان يجلس بجوار رسول الله والرسول ﷺ يضع ركبته على ركبته ، فلما نزل على رسول الله الوحي قال الصحابي : شعرت بركبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحي وهو على دابة كانت الدابة تئط . أي : تنخ من ثقل الوحي[2]، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل]

إذن كان النبي ﷺ يتعب بعد هذا اللقاء ، ويشقُّ عليه حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها يقول : زملوني زملوني . أو : دثروني دثروني. كأن به حُمَّى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحي أولاً .

ولأن الوحي كان قولاً ثقيلاً يشقُّ على رسول الله كان الوحي يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحي فيتشوَّق إليه من جديد .

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « لقد رأيته ينزل عليه (أي الوحي) في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقاً » أخرجه الجوهري في مسند الموطأ (٧٤٣) . وأورده البغوي في شرح السنة (٣٧٣٧) .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه سورة المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عنق الناقة . أخرجه أحمد في مسنده (٦/٤٥٥) وابن راهويه في مسنده (٢٢٩٨) .

فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾ [الشرح] والوزر هو الحمل الثقيل الذى كان يحمله رسولُ الله فى نزول الوحى عليه .

فالحق سبحانه شاء أنْ يرفع عنه ﷺ هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففترَ الوحى فترةً عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه وهدأتْ طاقته وبقيتْ معه حلاوة ما أوحى إليه هذه الحلاوة التى جعلتْ رسول الله يشتاق للوحى من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب فى سبيله .

فُتور الوحى هذا وانقطاعه فترةً عن رسول الله جعل المشركين يقولون : إن ربَّ محمد قلاه . ففى الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه، أما حين الخلوة والجلْوة فقالوا : مفتر وكذاب وشاعر .

فنزلت سورة الضحى ، قال تعالى : ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ﴾ [الضحى]

ومعنى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) ﴾ [الضحى] يعنى ستكون عودة الوحى خيراً لك من بدايته ، لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما فى الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه، فطاقتُك هذه المرة مستعدةٌ لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج فى المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحى لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) ﴾ [المزمل] تعبير عن شدة ما يُوحى إلى النبى ﷺ من جهة أنه يحتاج فى تبليغه وتفهيمه والعمل به إلى مجهود قوى .

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) ﴾ [الإنسان] فهو وصْفٌ ليوم القيامة باعتبار ما فيه من الشدائد والأهوال .

وفى قوله تعالى : ﴿ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥)﴾ [المزمل] أقوال أخرى ذكرها العلماء ، فهو قول ثقيل فى فروضه وأحكامه ، وهو ثقيل فى الميزان يوم القيامة ، وهو مهيبٌ ليس بالخفيف ، ولا يتعلق بسفاسف الأمور، فهو كلام رصين .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل]

ففى الوقت الذى ينام فيه الناس ويخلدون إلى الراحة وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة ، تقوم بين يدى ربك مُناجياً متضرِّعاً ، فتتنزل عليك الرحمات والفيوضات ، فمَنْ قام من الناس فى هذا الوقت واقتدى بك فله نصيبٌ من هذه الرحمات ، وحظ من هذه الفيوضات ، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حظَّ له .

إذن فى قيام الليل قوة إيمانية وطاقة روحية ، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظَّه من قيام الليل أزيد من حظِّهم ، فأعباءُ الرسول ﷺ كثيرة ، والعبء الثقيل يحتاج الاتصال بالحق الأحد القيوم ، حتى يستعين بلقاء ربِّه على قضاء مصالحه .

فـ ﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ (٦)﴾ [المزمل] هى ساعاته ، وكلُّ ساعة منها ناشئة، لأنها تنشأ عن التى قبلها ، فكلُّ صلاة بعد العشاء الآخرة هى ناشئة الليل[1] .

---

(١) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (٦٧٩/١) عن الحسن قال : « كل صلاة بعد العشاء الآخرة فهى ناشئة الليل » .

وقد تُنسب الناشئة إلى قائم الليل نفسه ، فهو الذى ينشيء عبادته لله الليلية ، وهو ينشئها فى أى ساعة من ساعات الله شاء ، فالله فى بداية السورة أعطى القائم الليل ثلاثة اختيارات فقال تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل]

فأنت تختار الساعة التى تقوم فيها لقيام الليل بين يدى الله ، فى الساعة التى توافقك ، وتكون أكثر مواطأةً لك ، لذلك قال تعالى : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا (٦)﴾ [المزمل] من المواطأة، فساعات الليل أكثر موافقةً ومواطأة لأنْ تصلى وتقترب فيها من الله من ساعات النهار .

فالقلب يكون أفرغَ فى الليل لإدراك وتأمُّل الآيات وتدبُّر معانيها ، وكذلك السمع والبصر يكون أحفظَ للقرآن .

وقد تكون (وطئاً) بمعنى الوطأة كالوطء بالأقدام ، فقيام الليل أشدُّ على البدن وأصعب ، فالليل هو وقت راحة الإنسان فإنْ قضاه فى قيام الليل كان أشدَّ عليه .

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦)﴾ [المزمل] فترتيلُ القرآن وقراءتُه أصوب قراءةً وأصحُّ قولاً من النهار لهدأة الناس وسكون الأصوات ، إنه خير ما تقرأه فى ليلك ، وأصوب ما ينطقه لسانُك بعيداً عن الرياء ، وملاحظة نظر الآخرين .

فأصحُّ القول وأصوبه ما تخرجه فى حال الهدوء والسكون والبُعد عن ملاحظة الناس ، فلا أحد معك وأنت تناجى ربك ولا شيءَ يشغلُك بعكس حالك فى النهار حيث المعاش .

فعبادةُ الليل أشدُّ نشاطاً وأتمُّ إخلاصاً وأكثرُ بركة ، وأبلغُ فى الثواب من عبادة النهار .

هذا عن الليل ، أما عن النهار فقد قال الحق سبحانه : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل] ففى النهار لك فرصة وتوسُّع وفراغ لتقضى حوائجك إقبالاً وإدباراً وذهاباً ومجيئاً .

وأصل السَّبْح الجرى والدوران ، ومنه السابح فى الماء لتقلّبه بيديه.. ورجْلَيْه ، ولكن السَّبح أيضاً النوم والتسبُّح التمدد ، فمعنى ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل] أى لك فراغٌ طويل لنومك وراحتك ، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك .

ومن أهم مهمات رسول الله ﷺ فى نهاره تبليغ رسالته سبحانه وتعليم أمته وجهاد عدوه ، فالحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله محمداً ليتلقَّى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم ، قياماً لله فى الليل وفراغاً فى النهار لمشاغله ونشاطه .

فلينقَضِ نهارك فى هذا السَّبح والنشاط ، ولتُخلص لربك فى الليل تقوم له بالصلاة والذكر وترتيل القرآن ترتيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ ﴾

اذكر ربك الذى شرع لك ثم وفَّقك وأعانك ، والحق سبحانه يقول :
﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]
ويقول : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب]
وهناك فارق بين : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] و ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ (٤١) ﴾ [الأحزاب] فقوله (اذكر الله) يستشعر سامعها التكاليف ، لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حباك به

من أفضال ، خلقك وربّاك ، وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعد ولا يُحصى، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنِّعم .

واذكره على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء ، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبودية لمقام الربوبية .

واذكر اسم ربك خيفةً أى خائفاً متضرِّعاً ، لأنك كلما ذللْتَ له يُعزُّك، ولذلك نجد العبودية مكروهةً فى البشر وهى استعباد ، والناس ينفرون ممنْ يستعبدهم لأن عبودية الإنسان لمساويه طغيانٌ كبير وظلم عظيم ، فهى تعطى خير العبد للسيد ، ولكن عبوديتك لله تعطى خير الله لك .

وأنت عندما تكون بين يدى الله تقيم الليل ، فاذكر اسم ربِّك بربوبيته سبحانه لك وقِفْ أمامه خاشعاً خاضعاً متضرعاً ، فأنت ترفع دعاءك للخالق المربِّى .

فاذكر اسم ربِّك بالتوحيد والتعظيم والتقديس والتسبيح والإخلاص.
﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] التبتُّل : الانقطاع عن الدنيا ورفض الدنيا وما فيها والتماس ما عند الله ، فأخلص لله إخلاصاً وتفرَّغ لعبادته ، واقطع نفسك عن الشهوات واللذات .

وأصل التبتل القطع ، ولذلك قيل لمريم العذراء البتول ، فالتبتل الانقطاع عن كل شيء إلا من عبادة الله وطاعته .

وقد يسأل سائل : نظم السياق كان يقتضى أنْ يقول : وتبتَّل إليه تبتُّلاً . ولكن الحق سبحانه قال :﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل] فتقدير الكلام : وبتِّل نفسك إليه تبتيلاً .

فكأنه لا يحدث التبتيل إلا إذا حدث التبتُّل . فبتِّل نفسك واجتهد ، فكأنَّ الأمر يحتاج إلى مجاهدة للنفس شديدة تجعلك تنقطع عن ملذات

الدنيا وراحتها لتقف بين يدى الله تذكره وتعبده .

فـ (تبتيلاً) مصدر على غير المصدر وهو واقع موقع التبتُّل ، فمصدر « تفعَّل » (تفعُّل) ، تبتل تبتُّلاً . مثلما نقول : تصرَّف تصرُّفاً وتكرَّم تكرُّماً ، أما التفعيل فمصدر فعَّل ، أى بتَّل تبتيلاً .

وأنت لاتتبتَّل وتنقطع إلى الله إلا إذا كنتَ تعيش معنى أنه سبحانه ربُّ السماوات والأرض ، مالك الملْك سبحانه، لذلك يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

فالحقُّ سبحانه ربُّ المشرق والمغرب ، وقد جعلنا التقدم العلمى نفهم بعمق معنى هذه الآية ، فكلُّ مكان على الأرض له مشرق وله مغرب ، ثم عرفنا أن الشمس حين تشرق عندى تغرب عند قوم آخرين، وحين تغرب عندى تشرق عند قوم آخرين .

إذن فمع كل مشرق مغرب ، ومع كل مغرب مشرق ، فيكون هناك مشرقان ومغربان ، ثم عرفنا أن الشمس لها مشرق كل يوم ومغرب كل يوم يختلف عن الآخر ، وفى كل ثانية هناك شروق وغروب .

فالحق سبحانه رب المشرق والمغرب ، ربّ ليلك ونهارك ، وهذا يناسب قوله تعالى قبلها : ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧)﴾ [المزمل]

وكلٌّ من المشرق والمغرب له مهمته التى يقوم بها فى الكون ، فالليل والنهار إنما ينتج عنهما ، وأنت لك مهمة فى ليلك تختلف عن مهمتك فى نهارك ، فكُنْ حيث يريدك الله .

وهذا اعترافٌ بربوبية الله سبحانه ، ثم يأتى قوله : ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ(٩)﴾ [المزمل] المعبِّر عن وحدانية الله، فلا ربّ ولا معبودَ بحقٍّ إلا الله، هو وحده المستحق للربوبية والعبودية والألوهية ، فتبتَّل إليه تبتيلاً ،

وأخلص له وحده التوجه .

وإذا كان الحقُّ سبحانه ربّ المشرق والمغرب الذى بهما معاش الناس ، وإذا كان هو وحده المستحق للعبادة فلا يسعك إلا أنْ تتخذه وكيلاً ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا (٩) ﴾ [المزمل]

فـ﴿ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (٨١) ﴾ [النساء] ، فأنت محدود القدرة محدود الحيلة محدود العدة ، فتوكَّلْ عليه وحده ، واتخذه وكيلاً عنك أى أنه سبحانه يكون وكيلاً عنك ، فلماذا تقلق ؟

أنت وكَّلتَ ربَّ العالمين عنك فدعْكَ من الدنيا وما فيها :﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) ﴾ [المزمل]

فكفى بالله وكيلاً وهو نِعْم الوكيل سبحانه ، فالله ربُّ الجميع ومربِّى الجميع وراعى الجميع ورزّاق الجميع ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل]

وكُنْ متوكلاً عليه وحده ولا تتوكل على غيره ، بل اقصر توكلك على الله وحده ، وأنت عندما تعجز عن فعلِ شيء بنفسك توكل عنك مَنْ يستطيع، ومَنْ يستطيع غير ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ (٩)﴾ [المزمل]

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠ ﴾

الحق سبحانه يُعدُّ نبيه ورسوله لأمر عظيم ، وهو أمر دعوة قومه للإسلام ، وهو يعلم سبحانه أنهم لا بدَّ سيؤذونه بالقول والفعل ، لذلك أراد سبحانه أنْ يُعدَّه إعداداً ربانياً .

أنْ يكون رسولُه عبداً لله وحده لا يعبد غيره سبحانه يقوم الليل من أجله سبحانه يخلو بربه حينما تنام النفوس وتغمض العيون وتهدأ حركات الناس ، يقوم هو لله يعبده ويناجيه ويرجوه ويخافه .

يذكر اسم ربه ويتبتَّل إليه تبتيلاً يعترف لله وحده بأنه ربُّ المشرق والمغرب ، وأنه لا إله إلا هو ، وإذا كان هذا فيا محمد ويا أمة محمد لا

تتخذوا غير الله وكيلاً .

ولأن الله سبحانه يعلم أن قومه سيرفضون دعوته ورسالته كما رفضتها أمم الأنبياء والمرسلين قبله ، لذلك قال له ﴿وَاصْبِرْ(١٠)﴾ [المزمل]

فاصبر على ما يقولون من التكذيب لك والأذى ، وقد أُمر المسلمون عند قلَّتهم وضعفهم بالصبر والتحمُّل ، ثم أُمروا عند قوتهم بالقتال وصدِّ العدوان ، فليس في الأمر بالقتال نسخ للأمر بالصفح والعفو، بل هو من باب تغيير الحكم لتغيير العلة ، فالحكم يدور مع عِلَّته وجوداً وعدماً .

فاصبر على تكذيبهم إياك ، واصبر على ما يقولونه عنك من أنك ساحر أو شاعر أو مجنون أو كاهن ﴿ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام]

وإذا كانوا يكذِّبونك في أنك رسولٌ من عند الله يُوحَى إليه فإن كل قوم جاء فيهم رسولٌ أو نبي كذَّبوه ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ [آل عمران]

جاءتهم الرسل بالبينات والكتاب والآيات الدالة على صدقهم ، ولكنهم رغم هذا لم يؤمنوا ، بل كذَّبوا وأصرُّوا على تكذيبهم وكفرهم.

فاصبر على ما يقولون من الأذى والسَّبِّ والاستهزاء ، ولا تجزع من قولهم ، ولا تمتنع من دعائهم .

وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟ إن عليك أنْ تتحمل هذا ،

فالحقُّ سبحانه اختارك لهذه المهمة ، وهو العليم أنك أهلٌ لها .

سيقولون عنك ما لا يُقال من كونك ساحراً أو كاهناً أو مجنوناً أو شاعراً أو كاذباً فلا تلتفت إليهم ولا تعبأ بهم .

﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] فإذا كان الصبر فيه إيلام لك ، فليكُنْ صبرك عليهم صبراً جميلاً ، وليكُنْ هجرك لهم واعتزالك إياهم هَجْراً جميلاً .

ومادة هجر وما يُشتق منها تدلُّ على تَرْك شيء إلى شيء آخر ، والهجر فيه كراهية النفس للشيء المؤدى إلى قطْع الصلة بين رسول الله وبين قومه واعتزالهم ، فالهجْر يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عدل عن وُدٍّ إلى وُدٍّ آخر ، أو عن خصلة إلى خصلة .

ولكن الحق سبحانه يصف الهجر المطلوب بأنه ﴿هَجْرًا جَمِيلًا (١٠)﴾ [المزمل] أى اعتزلهم اعتزالاً حسناً لا جزع فيه ، رغم أنهم آذوْك بكلِّ أنواع الأذى .

فالاعتزال والهجر الجميل ألاَّ يدع شفقته عليهم ، ولا يدعو عليهم بالهلاك ، ولا يمتنع عن دعائهم إلى ما فيه رُشْدهم وصلاحهم ، ولذلك تروى لنا سيرة رسول الله ﷺ أنه قال فى وقت أذاهم إياه : « اللهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون » [1].

ونجد أن النبي ﷺ وقد جاء له جبريل قائلاً : « إن الله قد سمع قوْلَ قومك لك ، وما ردُّوا عليك وقد بعث إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شِئْتَ فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ . ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قوْل قومك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربّك إليك لتأمرنى

(١) لما كسرت رباعية رسول الله وشجّ وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوت عليهم فقال رسول الله : إنى لم أبعث لعّاناً ولكن بعثت داعياً ورحمة « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان مرسلاً (١٣٧٥) .

بأمرك مما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[١] فقال رسول الله ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » [٢].

وهذا من رحمة رسول الله بقومه بل بالعالمين ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء]

فهم محتاجون لأدبك الجمِّ ، ولتواضعك الوافر ، ولجمال خُلقك ، ولبسمتك الحانية ، ولنظرتك المواسية ، فتنازل عن هفوات خصومك وليسعها خُلقك ، وليسعها حِلْمك ، ولا تغضب لأى بادرة تبدر منهم .

وقد كان رسول الله يؤلمه ويؤذيه تكذيبُ قومه له ، لأنه كان يريد هدايتهم ونجاتهم ، وكان يكاد يُهلك نفسه ، لذلك قال الحق سبحانه لرسوله : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾

قوْل الحق سبحانه : ﴿ وَذَرْنِي (١١)﴾ [المزمل] أى : اتركهم لى فأنا الذى أعاقبهم وأنا الذى أعلم أجل الإمهال وأجل العقوبة . وهو فعل أمر مثاله قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٣)﴾ [الحجر]

فهو أمر بأنْه يدعهم ويتركهم ، ويستعمل من مادة هذا الفعل فعل مضارع هو « يذر » ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ (١٢٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) الأخشبين : الأخشب من الجبال : الخشن الغليظ . (تهذيب اللغة للأزهرى) وقال ابن الأثير فى (النهاية فى غريب الحديث) مادة خشب : الأخشبان الجبلان المطيفان بمكة وهما أبو قبيس والأحمر وهو جبل مشرف وجهه على قيقعان .

(٢) أخرجه الفاكهى فى أخبار مكة (٢٦٢٤) وابن خزيمة فى التوحيد (١/ ١١٠) وأبو عوانة فى المستخرج (٦٩٠٢) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) عن عائشة رضى الله عنها

ويشارك فى هذا الفعل فعلٌ آخر هو (دع) بمعنى اترك . وقيل : أهملت العربُ ماضيَ (يدع) و (يذر) إلا فى قراءة فى قول الحق سبحانه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾ [الضحى]

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ (١١)﴾ [المزمل] فدعنى ومَنْ كذَّبك لا تهتم به فإنِّى أكفيك أولى النعمة أى أصحاب النعم والترفُّه ، وهؤلاء غالباً ما يكونون عقبة فى طريق الدعوة والرسالة وتطبيق شرع الله، فأصحاب العيش المترف لا يحبون منهج الله لأنه يقيد حركاتهم وتصرفاتهم الفاسدة ، لذلك يحاربون الدعاة إلى الله وإلى الالتزام بمنهج الله .

فأهل الخِصْب ورغد العيش ورفاهيته هم الذين اشتغلوا بالتكذيب ، وهم الذين كانوا يصدُّون الناس عن سبيل الله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣)﴾ [الأنعام]

فالإجرام يجعل الإنسان يريد كلَّ شيء لنفسه ، لذلك تجد المجرمين وخاصة أكابرهم يسعوْنَ دائماً إلى التسلُّط وارتكاب الرذائل ، لذلك تجدهم يريدون من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل لأنه لا يستطيع أنْ يعيش إلا فى جو الفساد والرشوة والإجرام .

ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤)﴾ [سبأ]

فأولو النَّعْمة هم أصحاب المال والغِنى ، والنعمة التنعُّم والترفُّه ، والنَّعمة بالفتح : التنعم . والنِّعمة بالكسر : الإنعام ، والنُّعمة بالضم: المسرة .

وقد اختلفوا فيمَنْ عُنى بـ (أُولى النعمة) على ثلاثة أقوال : أحدها أنهم المُطعمون ببدر . والثانى : أنهم بنو المغيرة بن عبد الله . والثالث: أنهم المستهزئون وهم صناديد قريش .

فأولو النعمة المكذِّبون للرسل هم أهل المعصية المترفون من كل

صنف من أصناف الفساد البشرى .

والحق سبحانه يهددهم ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ .. (١١)﴾ [المزمل] فهو تهديد مزلزل مفزع لهؤلاء السادة المتنعمين من مشركى القوم، فإنهم هم الرءوس العفنة التى تقود تلك الحملة الضالة التى تؤذى النبى وتقف لدعوته بالمرصاد .

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] والإمهال لا يعنى الإهمال والترك ، بل يعنى أن الله تعالى يُملى للكافر ويُمهله لأجَل ، فإذا جاء أَجَل العقاب أخذه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم أى أمهلتهم ، ثم يحدث الأخذ ، وأخْذ الشيء يتناسب مع قوة الأخْذ وقدرته وعنف الانتقام بحسب المنتقم ، فإذا كان الآخذ هو الله عز وجل فكيف سيكون أخْذه ؟

وكلمة الأخْذ فيها معنى الشدة والعنف والقهر .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف]

والإملاء هو الإمهال أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع فإن الله يمهله حتى يزداد إثماً وظلماً حتى إذا أراد الله أنْ يأخذه أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه قال : ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾ [المزمل] قوله (قليلاً) هنا البعض قال : إن الأجل هنا إلى يوم بدر ، فلم يمكثوا كثيراً بعد هذا التهديد لهم حتى قُتلوا ببدر ، فالمراد من القليل تلك المدة القليلة الباقية إلى يوم بدر ، فإن الله أهلكهم فى ذلك اليوم .

ولكن فى الآية قولٌ آخر أن أجلهم هو عمر الدنيا كلها ، وهو مهما طال فهو قليل ، فإنْ هى إلا يوم أو بعض يوم فى حساب الله ، وفى

حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسّونها فى يوم القيامة ساعة من نهار فهى قليل أيًا كان الأمد .

ولهذا التأويل وجاهته أيضاً ، فإن الحق سبحانه قال بعدها :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾

إذا كنا أمهلنا هؤلاء المكذبين فى الدنيا إلى أجل قليل أنزلنا بهم بعده عقاباً فى الدنيا كهذا العذاب الذى نزل بهم فى بدر ، فإنه ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أشدّ جزاءَ تكذيبهم رسلنا ورسالاتنا إليهم.

والحق سبحانه يوضح لنا ما أعدّه من ألوان العذاب لهؤلاء المكذبين الكافرين ، فيقول : ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا (١٢)﴾ [المزمل] أى عندنا فى الآخرة قيود عظام ثقال لاتنفك أبداً .

فالأنكال عقوبة من ألوان العذاب ، فالسلاسل والقيود فى حدٍّ ذاتها عذابٌ نفسى للمقيد بالقيود وإذلال وقهر له ، فيامَنْ كنتَ تكذِّب بآيات الله وتصدّ عن سبيل الله وتحارب دين الله ورسله والمؤمنين بمنهج الله قد تركناك فى الدنيا حراً ، وأعطيناك المهلة والإملاء ، وهاأنت الآن مقيَّد بالقيود والسلاسل ، فهل تقدر على تحرير نفسك وإنجائها ؟

وإذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم أهل تنعُّم وترف ورفاهية فإن الحق سبحانه يذكر لهم ما يضاد هذا التنعُّم والترف ، فهاهم فى القيود والسلاسل يُسحبون نكالاً لهم وعقوبةً وجزاءً .

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢)﴾ [المزمل]

والجحيم اسم من أسماء النار وهو ما عَظُم منها ، فالجحيم مأخوذة من الجموح وجمحت النار اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جحمت النار ، أى أصبح لهيبها مضاعفاً بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تخمد أبداً .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)﴾ [المائدة] وحين نسمع هذا تتزلزل النفوس رهبةً من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم والارتباط معاً، وألاَّ يترك أحدهما الآخر ، كأنَّ الجحيم لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم.

ومما أعدَّه الله للمكذِّبين الطعام ، كيف يتركهم بدون طعام ، ولكنه طعام ذو غصة ، يقول تعالى : ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ (١٣)﴾ [المزمل]

والطعام ذو الغصَّة هو طعام غير سائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج وهو الزقوم والضريع . وهو طعام لا يستطيع ابتلاعه لحقارته ونتنه وخبث رائحته ، فهو طعام كريه لا يُستساغ .

فكأن فى الطعام شوكاً ناشزاً يعلق بالحلق فلا يدخل ولا يخرج .

وقد كان التابعون وتابعو التابعين يفرقون ويشفقون من مثل هذه الآيات ، فعن خليد بن حسان الهجرى قال : أمسى الحسن صائماً فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] فقلصت يداه عن عشائه ، فقال: ارفعوه.

فرُفع فأصبح صائماً ، فلما أُتى بإفطاره عرضتْ له أيضاً هذه الآية فرُفع الطعام ، فلما كان اليوم الثالث انطلق ابنه إلى ثابت البُنانى ويزيد الضبى ويحيى البكَّاء وناس من أصحابه فقال : أدركوا أبى فإنه لم يذق طعاماً منذ ثلاثة أيام ، كلما قربنا إليه الطعام عرضت له هذه الآية ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) ﴾ [المزمل] فيتركه ، فأتوه فلم يزالوا به حتى سقوه شربة من سويق[1] .

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/ ٦٤) والواحدى فى تفسيره الوسيط (٤/ ٣٧٦) والزمخشرى فى تفسير الكشاف (٤/ ٦٤١) وكذا المراغى فى تفسيره (٢٩/ ١١٧).

وقد ذكر لنا الحق سبحانه ثلاثة أنواع من الطعام الذى أعدَّه لأهل النار مما لا يُستساغ : الزقوم ، الضريع، الغسلين .

أما الزقوم فهى شجرة فى أصل الجحيم ، قال عنها الحق سبحانه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦)﴾ [الدخان]

فطعام الزقوم سيأكله الكافر ويتعذَّب به ، إنها أداة من أدوات العقاب ووسيلة من وسائل التعذيب لأعداء الله ، ولا يأكل منها إلا الأثيم والأثيم ملعون .

أما الضريع فقد قال عنه الحق سبحانه :﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦)﴾ [الغاشية] والضريع نبْتٌ ذو شوك لاطيءٍ بالأرض ، تسميه قريش الشِّبْرق ، فإذا هاج سموه الضريع ، وهو أخبث طعام وأبشعه .

وقال ابن عباس عنه : الضريع شيء فى النار يشبه الشوك ، أمرّ من الصبر ، وأنتن من الجيفة ، وأشد حراً من النار [1].

وهو يُسمَّى طعاماً ولكنه لا يحقق الهدف منه ، لذلك قال تعالى: ﴿ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧)﴾ [الغاشية]

لا يستسيغه الطاعم لذلك، فيبقى الطاعم جائعاً أبداً ، فليس أمامه إلا الزقوم والضريع .

أما الغسلين فقد قال تعالى : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦)﴾ [الحاقة]

والغسلين هو صديد أهل النار ، مأخوذ من الغسل ، كأنه غُسالة

---

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٤٢٠) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٠/١٨٨) ، والواحدى فى تفسيره (١٣٣٧) عن ابن عباس ، وسراج الدين الدمشقى فى كتابه [اللباب فى علوم الكتاب] (٢٠/٢٩٤).

جروحهم وقروحهم ، وقيل : هو شجر يأكله أهل النار لا يأكله إلا الخاطئون ، وقد قال ابن عباس عنه : لو أن قطرة من غسلين وقعت على الأرض أفسدت على الناس معايشهم [١].

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣)﴾ [المزمل] ، أعدَّ الله أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غُصَّة ، ثم جمع الله عليهم رابع الكوارث على المكذِّبين الكافرين وهو العذاب الأليم .

وكأنَّ ما سبق ليس عذاباً أليماً ، قيود وأغلال ونار محرقة مشتعلة وطعام ليس بطعام ، بل هو عذاب حتى فى الاقتراب منه ، لا يمر من الحَلْق أصلاً .

فهو عذاب أليم لن يُطاق ، فالله سيعذِّب المكذبين عذاباً أليماً وعظيماً ومهيناً ، ولكلٍّ وصف مراده فى النص حتى يستوعب كلَّ حالات الإهانة من إيلام .

فهناك عذاب أليم وعذاب عظيم وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك مَنْ يفزعه الألم فيصرخ، وهناك مَنْ يحاول أنْ يتجلَّد ويتحمل لأن كبرياءه يمنعه أنْ يصرخ ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ، فيُهان فى كبريائه ، وبذلك يكون عذابه مهيناً .

و (أليم) فعيل بمعنى مؤلم ، وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم مُوجع .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ .. (١٤)﴾ [المزمل] : تتزلزل وتهتز وتضطرب

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب (ت ١٩٧ هـ) فى تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٩٩) عن ابن عباس.

وتتزعزع ، مثلها قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

وذلك يوم القيامة ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ (١٤)﴾[المزمل] وذلك للنفخة الأولى في الصُّور ، أما الثانية فهى التى قال عنها الحق سبحانه : ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات]

ورجف الشيء رجفاً ورجفاناً كما يرجف الشجر إذا أرجفته الريح. فحتى الأرض التى أنتم تعيشون عليها ستتزلزل زلزالاً شديداً ، وقد قال تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾ [الزلزلة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج] والزلزلة الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها ، واستخدم الحق سبحانه أيضاً لفظة (الرجّ) فقال تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾ [الواقعة]

والزلزال أو الرجفة أو الرجَّة يوم القيامة ليس زلزالاً كالذى نراه من هزات أرضية تهدم بعض البيوت أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة وتنبهنا إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، حتى لا نغتر بسيادتنا فى الدنيا .

فليس هذا زلزالاً عاماً إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل ، لذلك وُصف زلزال يوم القيامة بأنه شيء عظيم : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]

رجفة عظيمة ليست بمقياسك أنت ، بل بمقياس الحق سبحانه ، ولك أنْ تتصور فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم .

والأرض تتزلزل وترجف بما عليها من جبال رغم أن الجبال خلقها الله رواسى للأرض لكى لا تضطرب ولا تختل .

يقول تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٥)﴾ [النحل] أى حتى لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتجنا إلى الجبال الرواسى كى تثبتها ، ولكن الأرض مخلوقة متحركة وهى عُرْضة للاضطراب ، ولولا الجبال الرواسى لمادت الأرض .

ولكن فى يوم القيامة الأمر مختلف، فالجبال لن تصبح رواسى للأرض ، ولكن الجبال ستُنسف ، حينها يضطرب نظام الأرض وتتزلزل وتميد وتتحرك ويضطرب كلُّ شىء فيها .

لذلك ذكر الحق سبحانه هنا الجبال مقرونةً بالأرض ، لأن اختفاء الجبال بسبب نسفها سيجعلها غير قائمة بمهمتها .

حينها تكون الجبال ﴿كَثِيبًا مَهِيلًا (١٤) ﴾ [المزمل] أى تصبح الجبال رملاً سائلاً مجرد رمال متحركة ، بعد أنْ كانت الجبال صخوراً صلبة تستعصى على النحت فيها أو التقطيع إلا بوسائل خاصة .

الآن أصبحت مجرد رمال سائلة ، مجرد كثبان رملية مهيلة أى إذا حُرِّك تبع بعضه بعضاً ، فإذا كانت الجبال وهى أثبت وأصلب شىء فى دنيا الناس قد أصبح رملاً مهيلاً متحركاً ، وقد قال تعالى فى آية أخرى أنها ستصبح ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان] وتصبح ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ﴾ [القارعة] أى الصوف المندوف.

وهذه مراحل ، فالجبال تُنسف فتصبح رمالاً متحركة وتصبح

كالصوف المندوف ، فإذا هبَّتْ ريح فتصبح هباء منثوراً وكأنها لم تكُنْ .

نقول : فإذا كان هذا حال الجبال فى ذلك اليوم العظيم ، فما حال الإنسان الضعيف وإلى أين يذهب ؟ وماذا يصبح ؟

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

الحق سبحانه يخاطب أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ بل كذَّبوه وآذوه ورفضوا رسالته وراحوا يصدُّون عنه مَنْ يريد أنْ يؤمن به ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل]

لقد أرسل الله محمداً رسولاً ليبلغهم بمنهج السماء ، وأرسل معه القرآن كلام الله المعجز ، وهو رسول أمى ، سألوه عن أشياء حدثت فأوحى الله بها إليه بالتفصيل ، جاء القرآن ليتحدى فى أحداث المستقبل وفى أسرار النفس البشرية ، وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ، ولكنهم أرادوا العناد كلما جاءتهم آية كذَّبوا بها وطلبوا آية أخرى .

ويخاطب الحق سبحانه نبيه ورسوله محمداً : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) ﴾ [البقرة]

فقد أرسلناك وبعثناك بالحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض .

والحق سبحانه إنما يرسل الرسل رحمة بالخَلْق ليبينوا للناس الطريق الصحيح من الطريق المعوج .

والحق سبحانه يقول لهم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

وهو رسول محبٌّ لكم يشقُّ عليه ويُتعبه ما يشقّ عليكم ويتعبكم ، ولذلك كان رسول الله ﷺ مشغولاً بأمته .

ولكن الحق سبحانه هنا يضيف صفة أخرى لرسول الله ، وهو أنه أرسل محمداً ﷺ : ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾ [المزمل]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) ﴾ [الفتح]

أى أرسلناك شاهداً على أمتك وعلى مَنْ سبقك من الرسل أنهم قد بلَّغوا الرسالة ، فهو شاهد عليكم بما أخبره الله به فى القرآن . وشاهد عليكم يوم القيامة أنه قد بلَّغكم رسالات الله ، فمنكم مَنْ آمن ومنكم مَنْ كفر .

والحق سبحانه وصف رسوله هنا بأنه ﴿ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ (١٥) ﴾[المزمل] ولكنه فى آيات أخرى وصفه بأنه (شهيداً عليكم) ، قال تعالى: ﴿ وَفِي هَـٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (٧٨) ﴾ [الحج]

فكلٌّ منَّا كأنه مبعوثٌ من الله ، وكما شهد رسول الله عليه أنه أبلغه، كذلك هو يشهد أنه بلَّغ من بعد رسول الله ، لذلك جاءت هذه الآية للأمرين ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .

فرسول الله شاهدٌ عليهم بكلِّ ما قالوه وفعلوه به وبأصحابه الذين آمنوا به وصدّهم عن سبيل الله ومحاولات قتله وإيذائه .

ورسول الله ليس بِدْعاً من الرسل ، فالحق سبحانه أرسله إليكم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [المزمل] فقد أرسلنا موسى بن عمران عليه السلام رسولاً إلى فرعون مصر .

وقد يسأل سائل : لماذا ذكر هنا فرعون وإرسال موسى له ولم يذكر أقواماً آخرين فى الجزيرة العربية وعلى أطرافها ؟

نقول : فرعون ازدرى موسى عليه السلام باعتبار أن موسى تربَّى فى بيت الفرعون ، فكيف يتبع مَنْ ربَّاه هو ؟ وقد قال الفرعون لموسى:

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) ﴾ [الشعراء]

فهنا فرعون يمتنُّ على موسى ويُذكِّره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ، ولكن موسى عليه السلام لا يجامل فى الحق ، لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربَّاه ، قال تعالى يخاطب موسى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

أما تربية فرعون فلم يكُنْ لها اعتبار فى ميزان الحق فكان يوبِّخ موسى كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعد ما كان منه .

لذلك رد عليه موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمنُّ علىَّ بهذا ، وتذكر هذه الحسنة وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وتسخيرهم فى خدمتك .

كذلك كان رسول الله ، رفضه كفار قريش لأنهم نفسُوا عليه أنْ ينزل

عليه الوحى وهو واحد منهم وفى القوم مَنْ هو أعظم منه فى نظرهم، لذلك قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَات (٣٢) ﴾ [الزخرف]

ثم إن محمداً ﷺ أنجاه الله من كيد ومكر الكافرين بهجرته ﷺ من مكة إلى المدينة وقد اجتمعوا ليقتلوه ، ولكن الله أنجاه ، كذلك موسى عليه السلام أنجاه الله من فرعون رغم أنه خرج إليه بجيشه ليلحق به ويدركه ، ولكن الله أنجى موسى بأنْ فرقَ لموسى البحر حتى عبره موسى وقومه ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده فكان من المغرقين فكانت أشد هزيمة على مَنْ كذَّب وأعرض .

وقد فعل الله بكفار قريش فى غزوة بدر هزيمة قاسية أذلَّتْ صناديد قريش وعظماءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يخوِّف كفار مكة من عاقبة كفرهم وتكذيبهم فى الدنيا ، فأعطى لهم مثلاً مما حدث لفرعون الذى لم يؤمن برسول الله إليه ، وهو موسى عليه السلام ومعه هارون رسولاً أيضاً .

وكلمة فرعون ليست اسماً لشخص ، بل هو تصنيف لوظيفة ، وكان لقب كل حاكم لمصر قديماً هو « فرعون » ، ونحن نعلم من التاريخ أن

الأسر الحاكمة توالت وكانوا فراعنة وكان منهم من يضطهد المؤمنين ولا بد أنْ يكون خليفة كل فرعون اضطهد المؤمنين أنْ يكون أشدَّ ضراوة وأكثر شحنة ضد المؤمنين .

فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقال لهما : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا[1] فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ [طه]

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾ [طه]

يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾

هذا اليوم يجب أنْ نحتاط له حيطة كبرى وأنْ نترقبه لأنه يوم عظيم، والحق سبحانه يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج]

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ (١٧)﴾ [المزمل] كيف تقون أنفسكم وتحمونها من يوم عظيم مهول كهذا إنْ كفرتم بالله ولم تؤمنوا به وبرسوله وكتابه ، وهو يوم آتٍ لا محالة.

---

(١) تنيا : لاتنيا أي لا تضعفا [مجاهد في تفسيره ٦٦٢/١] وقال الماتريدي في تفسيره (٢٨٤/٧) أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة .

فبأىِّ شىء تتحصَّنون من عذاب ذلك اليوم وكيف تنجون منه إنْ كفرتم فى الدنيا ، فمن كفر بالله لا يتقى ذلك اليوم وهو لا يؤمن بذلك اليوم أبداً، فلو كان يؤمن به لاتقى عذابه ولخاف أهواله ، فاجتنب معصية الله .

والحق سبحانه يصف لنا هذا اليوم العظيم الشديد ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾ [المزمل]

فالشيب لا يوجد فى الدنيا للولدان الصِّغار إنما يوجد للإنسان بسبب كِبَره فى السنِّ غالباً ، ولكن فى هذا اليوم العظيم يرى الوليد ما يشيب له شعره من النار والعذاب والجحيم .

فيجعلهم ذلك اليوم شيوخاً شُمطاً ، وذلك حين يُقال لآدم : أخرج بعث النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون[1] . فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

فهذا اليوم العظيم ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) ﴾[المزمل] ، وشيباً هنا جمع شائب وشايب أى الرجل أو المرأة التى شاب شعرها فابيضَّ ، فإنما تشيب الولدان من شدة هَوْل وكَرْب هذا اليوم .

فالولدان فى ذلك اليوم يشيبون لا بسبب المشيب ، والمشيب فى الدنيا لا يوجد إلا بعد وجود سببه وهو الكِبَر ، وهذا ما ذكره القرآن من قول زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا (٤) ﴾ [مريم]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨، ٦٥٣٠) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٩) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . قال : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال : فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فاشتد ذلك عليهم قالوا : يا رسول الله أيَنا ذلك الرجل ؟ فقال : أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل ».

فالشَّيب هنا بسبب كِبَر زكريا حتى أن عظمه وَهَن وضَعُف من كِبَر سنِّه، وقد قال الحق سبحانه أيضاً : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فالشيبة مرحلة من مراحل عمر الإنسان فى حياته الدنيا ، ضعف ثم قوة الشباب ، ثم ضعف الشيخوخة والشيب .

أما فى يوم القيامة فليس كِبَر السنِّ والشيخوخة سبباً لشيب الشعر ، لذلك تجد الولدان يشيبون وهم صغار السن الذين لم يصبحوا شباباً .

﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾

فالسماء مع عظمها تنفطر وتتشقق فى هذا اليوم ، فما ظنك بغيرها من الخلائق ، فالحق سبحانه هنا ينبه إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشقّ فيه السماء وتتساقط فيه الكواكب فلا أى شىء منها مهمته ، فالله قد سلبها ما كانت به صالحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار]

أى تسقط قطعاً صغيرة ، فالسماوات بقوتها وعظمها تتفطر أى تتشقق وتكاد تكون مِزَعاً ، تقرب أنْ تنفطر وتنشق .

وقد قال الحق سبحانه ﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾ [المزمل] فبعض العلماء أن (به) هنا معناها بأمر الله سبحانه ، وَالسماء مُثقلة بذلك اليوم متصدِّعة متشققة .

ونلحظ أن الحق سبحانه لم يقل : السماء منفطرة به . فالسماء مؤنث

ولكن قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾[المزمل] أى ذات انفطار فعبَّر بها كما يعبَّر عن الذكور كما يقال امرأة مرضع . أى : ذات إرضاع .

وقد يكون عبَّر عن السماء بالمذكَّر نظراً للمعنى ، فالسماء معناها السقف كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (٣٢) ﴾ [الأنبياء]

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى عن تشقُّق السماء : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا (٢٥) ﴾ [الفرقان]

ولهذا قال بعض العلماء أن السماء تنفطر وتتشقق بنزول الملائكة من السماء فى هذا اليوم ، فيوم تنشقُّ السماء بالغمام وينزل الغمام من الشقوق ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ (٢١٠) ﴾ [البقرة]

﴿ مُنْفَطِرٌ بِهِ (١٨) ﴾[المزمل] والانفطار التصدُّع والانشقاق على غير نظام وبغير قصد ، والضمير فى (به) قال المنذر وغيره : هو عائدعلى اليوم . وقال مجاهد : هو عائد على الله تعالى .

﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) ﴾ [المزمل] لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلَّف شىء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشىء فلا بد أنْ يحدث .

فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هى التى تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أو وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير . وقد تُوعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه كذا وكذا غداً ، ولكن قد يأتيك الغد ولاتستطيع إنفاذ وعيدك .

أما الحق سبحانه فإذا وعد بشيء أو أوعد فلا يوجد ما يغير هذا ، فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ماعدا الشرك بالله .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾

وردتْ هذه الآية بهذا النص في القرآن الكريم مرتين ، هذه التى فى سورة المزمل ، والثانية ستأتى فى سورة الإنسان (آية ٢٩) ، وكلاهما جاءت بعد الكلام عن اليوم العظيم .

فى المزمل قال تعالى فيها : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) ﴾ [المزمل]

أما فى الإنسان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨)﴾ [الإنسان]

فهذه تذكرة لهم لعلهم يتفكرون في منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه.

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ (١٩) ﴾ [المزمل] أى تذكيراً بهول ذلك اليوم العظيم وما فيه.

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) ﴾ [المزمل] فمن شاء أنْ ينجو فى هذا

اليوم فليتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة . والبعض ممَّنْ ينفون القدر ويسمون القدرية يستدلون بهذه الآية على أن المعوّل على مشيئة الإنسان واختياره .

ولكن الحق سبحانه في سورة الإنسان ربط مشيئة الإنسان بمشيئة الله ، فقال بعدها: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠) ﴾ [الإنسان]

فلستم تشاءون إلا بمشيئة الله تعالى فالأمر إلى الله ، ومشيئة الله مستلزمة لفعل العبد فجميع ما يصدر عن العبد بمشيئة الله .

وهذا لا ينفي مشيئة العبد ، فمَنْ شاء اتخذ إلى ماوعد له ربه في الآخرة سبيلاً في أنْ يُقبل على طاعته ويشغل نفسه بعبادته .

حينها سيجد رحمة الله وثوابه ، أما إن لم يشأ هذا ولم يسْعَ إليه ولم يؤمن ولم يُطع فسيجد عقابه أمامه .

فهذه الآيات مشتملة على أنواع الهداية والإرشاد ، فمَنْ شاء أنْ يؤمن ويتخذ بذلك إلى ربه سبيلاً أي طريقاً إلى رضاه ورحمته فليرغب .

والسبيل الطريق الموصّل للغاية .

والحق سبحانه يقول : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كَبْح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغي يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إذا غفل عن معطيات

الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة المزمل بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ﷺ فى الخلوة الليلية معه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى (٢٠) ﴾ [المزمل]

والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ثم نقاتل

فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج فالأولى للقالب وبها نأكل ونشرب ونعيش، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدت الأمة أو تكاسلت عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار أى عمران الأرض واستصلاحها .

وقد كان النبى ﷺ والمؤمنون يقومون فى أول الإسلام من الليل نصفه وثلثه ، وهذا قبل أنْ تفرض الصلوات الخمس ، فقاموا سنة فشقَّ ذلك عليهم فنزلت الرخصة بعد ذلك عند السنة .

ففى أول سورة المزمل قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾ [المزمل]

فكان الأمر شاقاً عليهم ووجدوا حرجاً فى الاستمرار ، لذلك نزل قوله تعالى بالرخصة لهم فى آخر سورة المزمل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقد علم الله أنكم لن تُحصوه ولن تستطيعوه ولن تداوموا عليه ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى فتجاوز عنكم وخفف عنكم فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

فلم يفرض وقتاً من الليل ولا مقداراً منه ، بل جعله على السَّعة وحسب الاستطاعة ، وكان بين أول سورة المزمل وآخرها سنة حتى فُرضت الصلوات الخمس والزكاة .

فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وأسلوب القرآن أسلوب معجز ، فقد استخدم الحق سبحانه كلمة ﴿ أَدْنَى (٢٠) ﴾[المزمل] وهى تشمل ثلاث حالات فأجملها أى أدنى من ثلثى الليل ، وأدنى من نصفه ، وأدنى من ثلثه . وأدنى أى أقرب من الثلث أو النصف أو الثلثين على حسب حال كل قائم لليل وقارىء للقرآن فيه .

والحق سبحانه يقول: ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله هو العالم بمقادير الليل والنهار وأجزائهما وساعاتهما لا يفوته علم ما يفعلون ، فيعلم القدر الذى يقومون من الليل والذى ينامون منه .

ومقدِّر الليل والنهار ومُدبِّرهما واحد هو الحق سبحانه ، ولا يقدر على تقدير الليل والنهار ومعرفة مقادير ساعاتهما إلا الله وحده ، لذلك نجد النظم القرآنى يقدم لفظ الجلالة فيقول : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ (٢٠) ﴾[المزمل] دلالة على انحصار تقدير الليل والنهار فى يد الله .

﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾[المزمل] فالله تعالى علم أنكم لن تطيقوه ، أى : لن تُطيقوا قيام الليل نصفه أو ثلثه أو ثلثيه . وقد كان الرجل يصلى الليل كله مخافة أنْ لا يصيب ما أمر الله به من القيام .

والإحصاء إطاقة الشيء والقيام والتزامه ، ومثلها قوله ﷺ : « خلتان لا يحصيهما رجل مسلم إلا أدخلتاه الجنة وهما يسير ، ومن يعمل بهما قليل ، يسبِّح الله فِي دبر كل صلاة عشراً ويحمده عشراً ويكبِّره عشراً » .

وفى حديث أسماء الله الحسنى قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » .

والإحصاء فى اللغة على وجهين : أحدهما بمعنى الإحاطة بعلم عدد

الشيء وقدره . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾ [الجن]. والثانى بمعنى الإطاقة له ، كقوله تعالى هنا ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى: لن تطيقوه .

﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ [المزمل] فردَّهم إلى الفريضة ووضع عنهم النافلة إلا ما تطوَّعوا به ، وكلمة ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ (٢٠) ﴾ هنا لها عدة معانٍ .

فتعنى العفو عنهم ، وهذا يدل على أنه كان فيهم مَنْ ترك بعض ما أُمر به.

وتعنى فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم ، وأصل التوبة الرجوع.

وهم قد أُمروا بحفظ أوقات قيام الليل على وجه الإحصاء والتحرِّى أى تحرِّى الأوقات ، فخفَّف الله عنهم هذا التحرى والإحصاء لذلك قال: ﴿ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ (٢٠) ﴾ [المزمل]

لن تستطيعوا القيام به على الوجه الذى أُمرتم به .

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل] يعنى صلُّوا ما تيسَّر لكم أنْ يكون ، فجعل ذلك إليهم فلتُصلُّوا متى شئتم تطوعاً غير متحرِّين أوقاتاً معينة أو أجزاء من الليل .

فكان ذلك تخفيفاً عنهم ، فإنهم كانوا قد قاموا حَوْلاً حتى ورمتْ أقدامهم وسُوقهم .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثلاثة أصناف كانوا سبباً فى تخفيف الله : مرضى لا يستطيعون القيام، مسافرون فى الأرض يسعوْنَ على أرزاقهم يبتغون الرزق من فضل الله تعالى ، والأخيرون مجاهدون فى سبيل الله .

فالمريض يضعف عن التهجد بالليل ، فخفَّف الله عز وجل عنه لأجل

ضعفه وعجزه عنه ، فالله يعلم أنْ سيكون منكم أهلُ مرض قد أضعفهم المرض عن قيام الليل .

وآخرون أعجزهم عن قيام الليل خروجهم للتجارة والتنقُّل فى البلاد طلباً للرزق ، وقد يصعب عليهم التهجد لله فى الليل لأن هذا قد يُسبِّب لهم حرجاً فى التحرك نهاراً ، فلا يستطيعون طلب الرزق والمعاش والضرب فى الأرض.

والضرب هو انفعالُ الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة ، وهذا معناه أن الحياة كلها حركة وانفعال ، فالله أودع فى الأرض كل أقوات الخَلْق ، فحين يحبون أنْ يُخرجوا خيراتها يقومون بحرثها حتى يهيجوها ويرموا البذور وبعد ذلك الرى . فكلُّ حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] وما دامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب مَنْ يهينها بالعزق والحرث ، وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً .

﴿ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] وهذا هو الصنف الثالث الذى كان سبباً فى نسخ حكم قيام الليل بالأوقات المحددة بالنصف والثلث والثلثين .

لأن فى القتال مقاساة ومعاناة وتربُّصاً وترقُّباً لهجوم العدو ، وقد يكون قيام الليل عبئاً على المقاتلين ومشقةً عليهم فى القتال والمرابطة على ثغور الإسلام .

لذلك يسَّر الله الأمر ، فقال : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠) ﴾ [المزمل] فأقيموا من الليل ما استطعتم .

وجعل الحق سبحانه الأمر فيما فرضه الله من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ (٢٠) ﴾ [المزمل] والحق سبحانه قرن بين الصلاة والزكاة فى آيات كثيرة .

وإقامة الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً عن الإنسان ، فالتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة ، وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله .. إقبال فى ساعة معلومة لتقفوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا فى حضرته يعطيكم الله المدد .

وذِكْر إقامة الصلاة هنا ثم إيتاء الزكاة بعد الضرب فى الأرض والضرب فى سبيل الله ، فى الأولى ابتغوا من فضل الله فعليهم أنْ يحمدوا الله على فضل الله ورزقه لهم ، وأنْ يُخرجوا مما أنعم الله عليهم به زكاة تطهر مالهم وتشيع التكافل والتعاون والإحساس بالفقير بين أبناء المجتمع .

والضرب فى سبيل الله يحتاج أيضاً إلى تجهيز الغازين بالعتاد والسلاح، وكذا يحتاج من المقاتلين اقتراباً من الله بأداء وإقامة الصلاة .

والحق سبحانه يُعقِب الزكاة بالقول ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (٢٠) ﴾ [المزمل] والقرض شىء غير الزكاة وغير الصدقة ، فلا يتوقف إنفاقك على ما فُرض عليك أو ما تطوعتَ به ، بل أيضاً يطلب منك أنْ تقرض قرضاً حسناً ، والله لا يحتاج منك قرضاً ، والقرض إنما هو للمحتاجين ، وأنت عندما تُقرض إنما تقرض مَنْ تفضَّلْتَ عليه بالنعمة ، ورغم هذا يسألك أنْ تُقرضه هو .

والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والقرض فى اللغة معناه قَضْم الشىء بالناب ، ولذلك الحق سبحانه هو

يُقدِّر الجزاء على قَدْر صعوبة القرض . والقرض شيء تُخرجه من مالك على أمل أنْ تستعيده ، وهو سبحانه يُطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه لكن ليس فى صورة ما قدمت إنما فى صورة مستثمرة أضعافاً مضاعفة .

فأصْل مالك محفوظ ومُستثمر ، فهى أضعافٌ كثيرة بمقاييس الله ، لا بمقاييسنا نحن كبشر .

فلا شيءَ يضيع عند الله ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] فليطمئن المؤمن أنَّ حركة حياته مقدرة عند الله ، وسنجد ثواب هذا عند الله ، فكلُّ ما تفعله من منهج الله له أجر ، وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل أضعافاً مضاعفة .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ (٩٦) ﴾ [النحل] فما عند الله باقٍ لا نفادَ له ، فخزائنُ الله ملأى لا ينفد ما فيها .

وما عند الله ليس هيِّناً ، بل ﴿ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾[المزمل] فالحق سبحانه يعلم أن بنى آدم لا يمكن لهم أنْ يراعوا حقوقه كما يجب أنْ تُراعى، فلا بد أنْ تفلت منهم أشياء ، وهو سبحانه وتعالى يعلم ذلك لأنه خالقهم فأمرهم جلَّتْ حكمته أنْ يستغفروه ليكفِّروا عن سيئاتهم .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾[المزمل] والمغفرة والرحمة تقتضيان ذنوباً، والله ﴿ غَفُورٌ (٢٠) ﴾[المزمل] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَحِيمٌ (٢٠) ﴾[المزمل] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

فالله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب

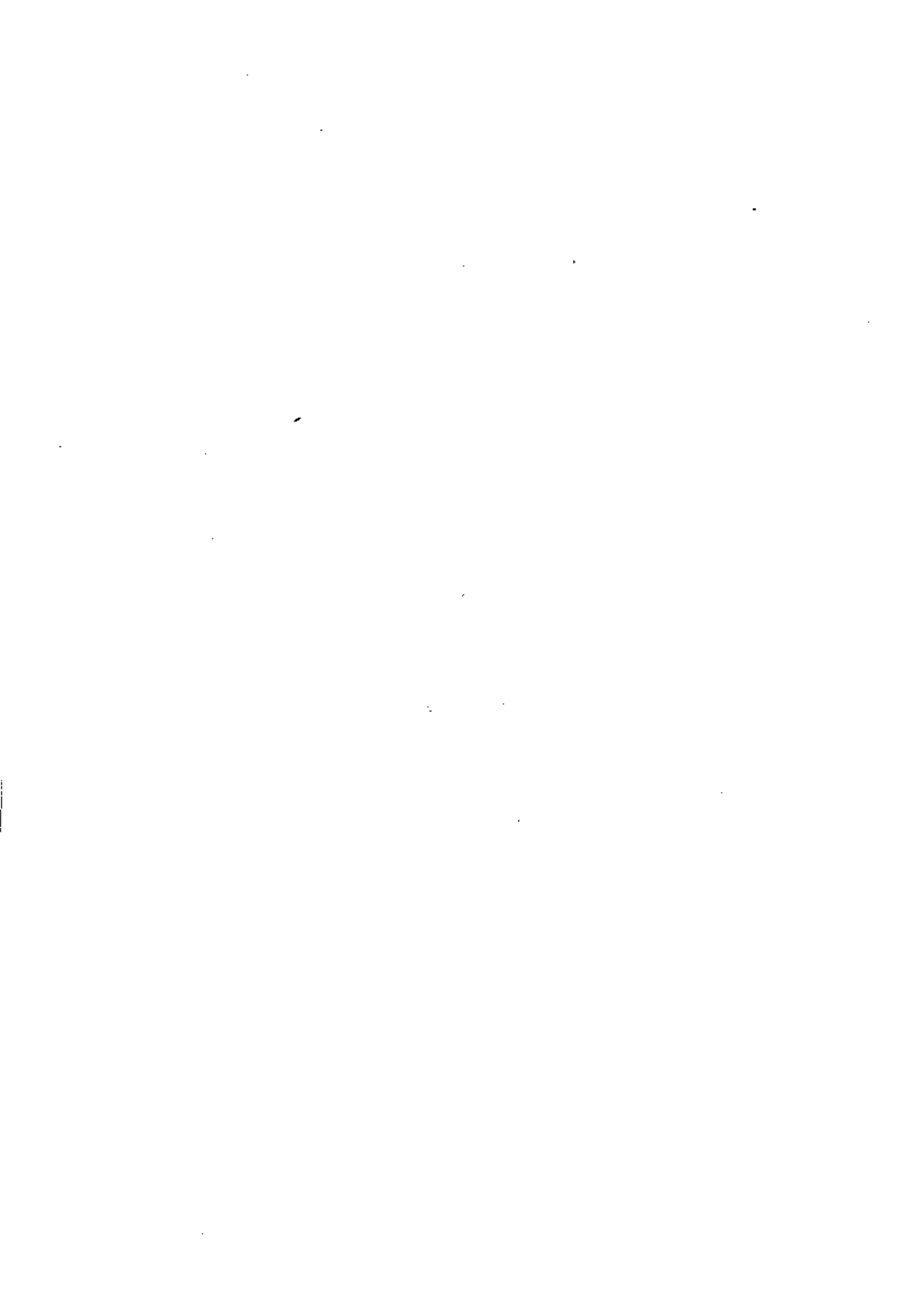
الإيمانى ويتدارك ما فاته ، لأن يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه .

والله غفور قبل أنْ يوجد مغفورٌ له أو مرحوم ، وصفة المغفرة وصفة الرحمة كلٌّ فى مُطلقها تكون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه .

والحق سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم ، فإياك أنْ تقول: إن فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة ، لأنه سبحانه مالك السماء والأرض، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه .



سُورَةُ المُدَّثِّرِ



سورة المدثر[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾

يخاطب الحق سبحانه رسوله هنا بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) ﴾ [المدثر] وفى السورة قبلها خاطبه بوصف المزمل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ [المزمل]

وقد كان النبى ﷺ يُحدِّث عن فترة الوحى قال: فبينا أنا أمشى يوماً إذ رأيتُ الملَك الذى كان أتانى بحراء على كرسى بين السماء والأرض، فجثيتُ منه رعباً فرجعتُ إلى خديجة ، فقلت : زمّلونى زمّلونى . قالت

(١) سورة المدثر : هى السورة رقم (٧٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٥٦) آية ، نزلت بمكة بعد سورة المزمل وهى سورة محكمة وما يدّعى فيها أن آية ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا (١١) ﴾ [المدثر] منسوخة بآية السيف فهو خطأ فهذا وعيد للوليد بن المغيرة فلا وجه للنسخ . وأيضاً فإن الوليد هلك قبل نزول آية السيف

خديجة : فدثَّرناه [1]. فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) ﴾ [المدثر]

فيأيها المتدثر بثيابه عند نومه ، وأصل (المدثر) المتدثر بثيابه إذا نام ، فأُدغمت التاء في الدال وشُدِّدت ، والدثار الثوب الذي يتدثر به الإنسان فوق الشعار ، أما الشعار فهو الثوب الذي يلي جلد الإنسان .

وهذا على أن التدثُّر هنا على ظاهره ، وأنه متغطٍّ فعلاً بدثاره وغطائه .

ولكن الآية تحتمل تأويلاً آخر ، أنه ليس المراد من المدثر المتدثر بالثياب، بل هو دثار معنوي ، وهو هنا التدثر بدثار النبوة والرسالة ، فيا أيها المتدثر بأثواب العلم العظيم والخُلق الكريم والرحمة الكاملة ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] قم من مضجعك وانفض دثارك وغطاءك عنك. قُمْ لما أرسلك الله لأجله ، قم قيام عزم وتصميم .

والقيام في لغة العرب إما أنه قيام جِدٍّ وعزم أو قيام انتصاب فأنذر الناس وأهل مكة عذاب ربك ووقائعه في الأمم وشدة نقمته إذا انتقم، فحذِّر الناس من العذاب إنْ لم يؤمنوا ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] فبعد أنْ كان متوجهاً إلى الله تعالى مشتغلاً بعبادته والتحنُّث في غار حراء ، وهو التعبُّد في الليالي ذوات العدد .

فكان ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] توجيه له ﷺ أنْ يخرج من تحنثه وعبادته للقيام بالمهمة التي كُلِّفَ بها وهي الإنذار وتبليغ الرسالة .

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) ﴾ [المدثر] عظِّم ربك عمَّا يقوله عبدة الأوثان، ولا يعظم كفار مكة وجبروتهم وطغيانهم في نفسك فالله أكبر، حينها قام رسول الله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٢٧٧) وكذا الطبري في تفسيره (٢٣/٨) من طريق الزهري أيضاً .

من مضجعه فقال : الله أكبر كبيراً فكبَّرت خديجة وخرجت وعلمتْ أنه قد أُوحى إليه[١] .

وليس المقصود طبعاً مجرد التكبير باللسان إنما المراد تعظيم الله وتنزيهه ، فعظمة الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبر من كل شىء ، وأكبر من كلِّ كبير ، لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعار أذانك وصلاتك فلا بد أنْ تكبِّر الله وتجعله أكبر مما دونه من الأغيار .

فالله أكبر من أى عظيم ، كبِّره تكبيراً بأنْ تقدِّم أوامره ونواهيه على كلِّ أمر وعلى كلِّ نهى ، ولا تنسَ أنك إنْ كبَّرت الحق سبحانه أعززْتَ نفسك بعزة الله التى لا يعطيها إلا لمَنْ يخلص العبودية له سبحانه .

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(٤)﴾[المدثر] طهِّر ثيابك من الأدناس والنجاسات والأرجاس، وليس المعنى هنا أن ثياب رسول الله كانت بها دَنَس أو نجاسة ، لا فرسول الله خيار من خيار.

ولكن المقصود أن لا يلبس ثوباً على فخر أو غدر، ولا تطوِّل ثوباً فتقع أطرافها على الأرض فتصيبها النجاسات ، كما كان يفعل صناديد قريش.

فطهِّر نفسك ، وطهِّر عملك بالإخلاص ، وطهِّر ظنك بحُسْن الظن ، وطهِّر قلبك من الغِلِّ والحسد .

فالمقصود تطهير النفس والثياب والجسم . ورسول الله مُقدم على الدعوة إلى رسالة التوحيد ، وهذا يقتضى طهارة القلب من الشرك ، وطهارة النفس من الخبث ، وكانت العرب تقول على الرجل الوفى فى تعاملاته : طاهر

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/ ٤٩٠) والرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٦٩٧) والقرطبى (١٩/٦٢) وأبو السعود فى تفسيره (إرشاد العقول) (٩/ ٥٤) وابن عجيبة فى تفسيره البحر المديد (٧/١٧٢).

الثياب . ونحن نقول هكذا عمَّنْ اتصف بالعفة مثلاً نقول : ثوبه طاهر . أى لم يتدنَّس بدنس .

ثم يقول تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) ﴾ [المدثر] أى اهجر الرجز . أى اهجر المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز أى من العذاب . يقول تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا[1] مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾ [الأعراف]

فاهجر الأوثان والأصنام ، والخطاب وإنْ كان لرسول الله إلا أنه خطاب لكلِّ مَنْ آمن بالإسلام أنْ يجتنبوا الأوثان والأصنام. ومثله قول إبراهيم عليه السلام : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ (٤٨) ﴾[مريم]

والاعتزال تَرْك صحبة إلى خير منها ولو فى اعتقاده ، إبراهيم عليه السلام لم يعتزلهم لا لطلب الرزق وسعة العيش بل الاعتزال من أجل الله وفى سبيل مبدأ إيمانى يدعو إليه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾[المدثر] أى لاتُعْطِ وتطلب أكثر مما أعطيتَ ، فلا تُعط شيئاً لتُثاب أفضلَ منه ، فلا تُعطِ مالك رجاء فضل من الثواب فى الدنيا بل ابتغ ثواب الآخرة .

فلا تُعْطِ بغرض الاستكثار ، فافعل الطاعة أو أعط لوجه الله لا لوجه الدنيا ، ولا لتستزيد ، وهذا غير قوله تعالى لسليمان عليه السلام:

﴿ هَـٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) ﴾ [ص]

فاعط مَنْ شئتَ أو أمسك ، وليس عليك حساب لم أعطيت ولم منعتَ وأمسكتَ. فهناك يتحدث عن المنِّ والعطاء بغرض الاستكثار وفى آية سورة (ص) يُحدِّثنا عن العطاء الواسع ، فالله أعطى سليمان مُلْكاً لم يُؤته لأحد .

وأنت فى قيامك لتنذر وفى هجرك لأوثانهم وأصنامهم وتركك

(١) رجزاً : العذاب وقيل الطاعون . قال ابن عباس : كل شىء فى كتاب الله من (الرجز) يعنى به العذاب . قاله الطبرى فى تفسيره (١١٨/٢) . وأخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٩٢)

لعبادتهم لآلهتهم ستجد منهم عنتاً وإعراضاً وإيذاء واستهزاء ومحاولاتٍ كثيرة للتعريض بك .

لذلك يُوصيك ربك فيقول : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر] فاصبر على طاعته وأوامره ونواهيه لأجل ثواب الله تعالى ، واصبر على ما أُوذيت فيه فلقد حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاصبر على محاربة الناس لدعوة الله .

فاصبر على ما تُؤذَى ولا تُجازهم بصنيعهم ، فإن الله تعالى سيكفيكهم، وهذا معناه أن رسول الله مُقدِم على أحداث جسام وعلى إيذاء وتكذيب من قومه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ﴾

الناقور الصُور وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، وهما نفختان ، والمقصود هنا النفخة الثانية .

وقد قال رسول الله ﷺ: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحَنَى جبهته يستمع متى يُؤمر ينفخ فيه » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : كيف نقول ؟ فقال تقولون : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا [(١)].

و﴿ نُقِرَ (٨) ﴾[المدثر] أى نُفخ فى الصُّور وهو كهيئة البوق . وهى آية تهز الوجدان والقلوب حتى أن زرارة بن أبى أوفى كان يصلى بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) ﴾ [المدثر] فخرَّ مغشياً عليه[(٢)] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٠٠٨ ، ١١٠٣٩ ، ١٩٣٤٥) ، والترمذى فى سننه (٢٤٣١ ، ٣٢٤٣) حسَّنه الترمذى ، وأخرجه كذلك ابن ماجه فى سننه (٤٢٧٣) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) أورده الترمذى (٤٤٥) وأخرجه أبو بكر الدينورى (ت ٣٣٣هـ) فى المجالسة وجواهر العلم (١/٤٤٨) عن بهز بن حكيم وتمامه : (فحملناه ميتاً رحمه الله) .

والله تعالى يُعرِّف الناس أمورَ الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا وقد كان عادة الناس النفخ فى البوق عند الأسفار وفى العساكر .

والنفخ فى البوق فيه رهبة وخوف وفزع كأنه يقول للموتى قوموا فقد حانتْ ساعة القيام من الموت والحشر من أجل الحساب .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام] فالنفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمرٍ ما ، فبعد النفخة الأولى يموت مَنْ كان حياً ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) ﴾ [الزمر]

والنفخ فى الصُّور دعوة عظيمة مهيبة للموتى للخروج من قبورهم، فقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾ [الإسراء]

فقوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى يقول لكم اخرجوا من القبور للبعث بالنفخة الثانية فى الصُّور ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ (٥٢) ﴾ [الإسراء] أى تقومون فى طاعة واستكانة لا قومة مستنكفٍ أو متقاعسٍ أو متغطرس فكلّ هذا انتهى وقته فى الدنيا ونحن الآن فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) ﴾ [المدثر] فيوم النفخة وهو يوم القيامة يوم عسير شديد ، فهو يوم شاقٌ وليس معنى وصفه لهذا اليوم بأنه عسير أن هذا على إطلاقه ، بل هو عسير على فريق ، يسير على غيرهم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾ [المدثر] وإنما يقع العذاب على الكفرة ويحقّ عليهم ، فلذلك سماه عسيراً ، وهو إذا كان عسيراً

على فريق فهو يسير على غيرهم .

وقد يكون عسيراً على الخلائق أجمع ، بعض هول ذلك اليوم يشمل الفرق كلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ [الحج]

فالناس هنا تشمل الجميع ، ثم إن المؤمنين تفرج عنهم الأهوال بما يأتيهم من البشارات والكرامات عن الله تعالى ويبقى عُسْره على أصحاب النار .

ويُقال (عَسُر) الأمر إذا صَعُب فهو عسير . و (عَسِر) فهو عَسِرٌ فإذا نُفخ فى الصُّور ، فذلك يوم شديد صعب غير سهل على الكافرين .

فهذا اليوم على الكافرين ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[المدثر] أى غير هيِّن . ويهون ذلك على المؤمن كأدنى صلاته فهو على المؤمنين هيِّن .

ورسول الله ﷺ يقول : « إنه ليهوِّن يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة صلاَّها فى دار الدنيا »[(١)].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ ﴾

فذرنى ومَنْ خلقتُه فى بطن أمه وحيداً فريداً لا مالَ له ، ولا ولد ، فذرنى وإيَّاه فأنا أكفيكه ، وقد نزلتْ هذه الآية فى الوليد بن المغيرة[(٢)] وكان

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١١٧١٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٣٣٤) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (١٣٩٠) والبغوى فى شرح السنة (٤٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وقد ضعَّفه الألبانى فى المشكاة (٥٥٦٤) .

(٢) الوليد بن المغيرة أحد قادة قريش فى العصر الجاهلى والد خالد بن الوليد كانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة وكان أغنى أغنيائهم وكانت قافلة تجارته تقدر بمائة بعير.

يُسمَّى الوحيد فى قومه .

فخلِّ بينى يا محمد وبين مَنْ خلقته وحدى لم يشترك أحد معى فى خَلْقه، فأنا وحدى الخالق خلقتُ كلَّ شىء وحدى . وهذا تهديد مرعب ومفزع ، فكأن الحقَّ سبحانه يقول : (إنى أتولى عذابه يوم القيامة وحدى كما تفردت بخَلْقى إياه وحدى).

وأنا لم أخلقه وأُوجده في الدنيا وتركته هملاً ، بل تكفلت برزقه ، لذلك يقول الحق سبحانه ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر]

فكلّ النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه ، فالله سبحانه خلق كل الخلق مؤمنهم وكافرهم ، وما دام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو لا يتركهم.

فالحق سبحانه رزق الإنسان وسخَّر الأشياء له ، فهو لم يسخِّر الكونَ للمؤمن فقط ، وإنما سخَّره للمؤمن وللكافر .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية فهو المربِّى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ، وسبحانه سخَّر الأسبابَ للكل ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى (افعل) و (لا تفعل) .

وهذا الذى خلقته رزقتَه مالاً ممدوداً غير منقطع يمدُّ بعضه بعضاً دائماً، وهو ما يُمدُّ بالنماء كالزرع والضرع والتجارة ، وقد كان للوليد ابن المغيرة بستانٌ بالطائف لا تنقطع ثماره شتاءً ولا صيفاً .

وقوله تعالى : ﴿ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) ﴾ [المدثر] مثل قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة] أى ظل لا ينقطع . وقد قال رسول الله ﷺ : « إن فى

الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها »[1] . فهو ظِلٌّ دائم لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظل أهل الدنيا .

فالله أمده وأنعم عليه بمال ممدود متتابع لا ينقطع مدده والذى لا ينقطع مدده لا يقع تحت الإحصاء ، وهو مال ممتدّ يأتيه المدد وتلحقه الزيادة شيئاً بعد شيء .

والمال هو كلّ ما يتموّل وكل ما يتموّل يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثواباً ، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة .

وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا ينتفع به مباشرة بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة ، وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر .

ثم إن الحق سبحانه لم يُعطه مالاً فقط ، بل أعطاه البنين أيضاً ، فقال تعالى : ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر]

والمال والبنون قال عنهم الحق سبحانه ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٤٦) ﴾ [الكهف]، فهو أنعم عليه بالمال الممدود وغير المنقطع ، وأنعم عليه بالبنين الشهود ، أى الرجال الذين يشهدون معه المحافل والمجامع ، وقد كانوا عشرة من الرجال .

ومن معنى ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) ﴾ [المدثر] أنهم كانوا لا يغيبون أبداً عنه فى تجارة ولا غيرها لكثرة أموالهم بمكة ، فهو لم يَحْتَجْ إلى تفريق أولاده فى الجمع والاكتساب ، بل كان المال يأتيه سمحاً يأتيه بسهولة لا يحتاج إلى مشقة وتكلّف أسباب جمع المال .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥١ ، ٣٢٥٢ ، ٤٨٨١) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٧) من حديث سهل ابن سعد الساعدى رضى الله عنه .

لذلك متَّعه الله برؤيتهم حوله ، فمتعة الأب برؤية أبنائه حوله لا تعدلها متعة خاصة إذا كانوا رجالاً يكونون عزوة له .

ثم يقول تعالى ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ﴾[المدثر] أى بسطت له فى العيش وطول العمر بَسْطاً مع الجاه العريض والرياسة فى قومه .

والتمهيد هو التمكين ، فقد مهَّد الله له سبل العيش الرغيد ، فمكَّنه الله بأنْ أعطاه المال وأعطاه القوة المتمثلة فى أبنائه العشرة ، فمكَّنته من التصرُّف فى الأمور .

فوجود هؤلاء البنين بحضرة أبيهم ، يغدون معه ويروحون ، زينة فى المجالس وعَوْنٌ على تصريف الأمور ، وقد امتنَّ الله على عباده بهذا فقال: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (٧٢) ﴾ [النحل]

فالبنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفدة وهم ولد الولد هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ، ومن هنا جاء حب الكثيرين منا للذكور الذين يمثلون امتداداً للآباء .

ولكنه رغم كلِّ هذا ، رغم المال والثروة الواسعة والبنين الشهود والتمهيد والتمكين والسلطان والجاه فإنه يطمع فيما هو أكثر ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾ [المدثر]

فهو يطمع فى المزيد من المال والولد والتمهيد ، إن الله أعطاه مالاً لم يُعطه لأحد فى قريش ، حتى أنه كان يقول : لو قسمت مالى يميناً وشمالاً على قريش مادمت حياً ما فنى . فكيف تعدنى الفقر يا محمد ؟ فقال ﷺ: أما والله إن الذى أعطاك قادرٌ أنْ يأخذه منك ، فوقع فى قلبه من ذلك شئٌ، ثم عمد إلى ماله فعدَّه ، ما كان من ذهب وفضة أو حديقة أو رقيق

فعدَّه وأحصاه[١].

ورغم هذا ﴿ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) ﴾[المدثر] يطمع أنْ أزيده من المال والولد والجاه والسلطان .

ولكن الله يقطع أمله فى الزيادة ، فيقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ ﴾

﴿ كَلَّا.. (١٦) ﴾[المدثر] قاطعة حاسمة من الحق سبحانه فيها الهيبة ، قطع اللهُ بها أملَ هذا المكذِّب لآيات الله والمتبطر بنعمته ، فلن ينال ما يرجو ويأمل من زيادة المال والولد فوق ما أعطيته .

وقد أخذ أمره فى النقصان من بعد قوله سبحانه هذا ، فأخذ ماله فى النقصان لا الزيادة ، وذهب سلطانه وجاهه بموت أبنائه وقد أسلم من أولاده الوليد بن المغيرة اثنان : خالد بن الوليد ، وهشام بن الوليد .

فمازال الوليد بن المغيرة بعد نزول هذه الآية فى نقصان من ماله وولده حتى هلك .

والحق سبحانه يعطينا سبب (كلا) القاطعة الحاسمة هذه بأن الوليد ابن المغيرة ﴿ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾[المدثر] إنه لم يكن مُكذِّباً عادياً لرسول الله ولقرآنه ، ولم يكن مجرد كافر يرفض الإيمان إنما كان ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر]

فكان عنيداً فى رَفْض جميع دلائل التوحيد والقدرة والبعث والنبوة منكراً للكل ، وقد قال البعض أن كفره كفر عناد ، لا أنه كان لا يؤمن بالبعث حقيقة أو أنه كان لا يؤمن أن القرآن من عند الله فعلاً ، أو أنه تأليف محمد ﷺ فعلاً .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٨٣٨) .

كلمة ﴿ عَنِيدًا (١٦) ﴾[المدثر] هنا تعطينا دلالة أن كفره كان لمجرد العنْد، وهذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ، لقد كانوا يقولون عنه أنه الصادق الأمين ، لقد عرفوا صدق النبى ﷺ وحقيقة رسالته ما فى ذلك ريب ، ولكن لأن لهم أهواء أصرُّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية ، لذلك نرى سيدنا رسول الله ﷺ يدع علياً ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

والجحد هو إباء اللسان وترفّعه وعدم رضاه بأنْ ينطق بكلمة الحق ، والله يعلم أزلاً أن بعضهم فى خبايا نفوسهم يوقنون بقيمة الإيمان لكنهم يجحدونها ، ومنهم من علم قيمة الإيمان جحدوها عناداً واستكباراً .

وقد قال الوليد بن المغيرة نفسه عن القرآن : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه ، وما هو بقول بشر »[1].

إذن فهو كان عنيداً معانداً لآياتنا ، والآيات هى الدلائل الدالة على صدقك .

فالحق سبحانه لن يعطيه زيادةً على ما أعطاه ، بل سيؤول أمره إلى نقصان وانتزاع لما أعطاه سابقاً ، فمات أبناؤه ونقص ماله وضاع سلطانه وجاهه .

والأكثر من هذا أن الله توعده فقال ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) ﴾[المدثر] أى

---

(١) أورده البيهقى فى الاعتقاد والهداية (١/٢٦٨) مرسلاً عن عكرمة . وأورده الثعلبى فى تفسيره [الكشف والبيان] (٦/٣٨) والبغوى فى تفسيره (١٢٦٤) والمراغى فى تفسيره (١٤/١٣٠).

سأكلفه مشقة من العذاب لا راحة له فيها . وقد وصف رسول الله هذا فقال: « الصَّعُود عقبة فى النار يتصعَّد فيها الكافر سبعين خريفاً ، ثم يهوي فيها سبعين خريفاً فهو كذلك أبداً »[(١)].

وقد قال أبو سعيد الخدرى : الصعود صخرة فى جهنم إذا وضعوا أيديهم عليها ذابت أيديهم ، وإذا رفعوها عادت ، وإذا وضع رِجْله ذابت ، فإذا رفعها عادت» .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾ [الجن] فهم يُكلَّفون الصعود على جبل من نار فلا يقدرون على صعوده إلا بعد شدة عظيمة ، ثم إذا بلغوا أعلاها يهوون فيها فيكون ذلك دأبهم ، فهو عذاب لا راحةَ فيه ولا منه .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) ﴾ [المدثر] أى فكَّر فى الأمر الذى يريده ونظر فيه وتدبَّره ورتَّب فى قلبه كلاماً وهيَّأه لذلك .

وذلك أن الله تعالى لما أنزل على نبيه ﷺ : ﴿ حـم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) ﴾[غافر] إلى قوله ﴿ الْمَصِيرُ (٣) ﴾[غافر] قام النبى ﷺ فى المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، ففطن رسول

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٤/ ٣٦٤) وعزاه للترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى .

الله لاستماعه فأعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى عليه.

ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فقام الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا .

قال : تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا : اللهم لا . قال: تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب . قالوا : اللهم لا وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه[1] .

فقالت قريش : فما هو ؟ فتفكَّر فى نفسه . فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر]

لقد ثبت كذبهم فى أن محمداً مجنون أو كاهن أو شاعر ، لذلك أخذ الوليد يفكر وقد فكَّر كثيراً ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ﴾ [المدثر] فكر فيما أنزل الله على نبيه من القرآن ، وقدَّر فيما يقول فيه .

﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ﴾ [المدثر] أى لُعن لعنةً وطُرد من رحمة الله بسبب ما فكَّر فيه فيما يقول فى محمد وفيما قدَّر .

(١) أورده الخازن فى تفسيره (٣٦٤/٤) والثعلبى فى الكشف والبيان (٧٣/١٠) والبغوى فى تفسيره (٢٢٩٣) وابن عجيبة فى البحر المديد (١٧٦/٧) والمراغى فى تفسيره (١٣٠/٢٩).

﴿ ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾ [المدثر] قطَّب وجهه وحاجبيه ، فهو أخذ يفكر ويفكر حتى ضاق صدره بالفكر ، فبدا أثر العبوس والبسور فى وجهه .

إنه فى آخر التفكير والتقدير والنظر والعبوس والبسور قال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر]

هذا ما انتهى إليه تفكيره ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾ [المدثر] والاستكبار إباء ورفض للإيمان ، وفيه تنصيب لنفسه كبيراً دون أن يملك مقومات الكبر .

فـ ﴿ اسْتَكْبَرَ (٢٣) ﴾ [المدثر] حاول أنْ يجعل نفسه فوق قدره ، وكل إنسان منا له قدر محدود .

﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ (٢٥) ﴾

ما توصَّل إليه الوليد بن المغيرة بعد طول تفكير أنْ قال ما هذا القرآن ما هو إلا سحر ، فما يقوله محمد ويقرؤه ما هو إلا سحر ، وهو سحر ﴿ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر] أى يؤثره عن غيره أى يرويه عن غيره .

وقد ذكر الحق سبحانه فاء التعقيب فى (فقال) ليعلم أنه لما ولَّى واستكبر ذكر هذه الشبهة أن القرآن سحر ، وأنه يُفرِّق بين الرجل وامرأته، والأب وابنه ، والأخ وأخيه .

وهو ﴿ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) ﴾ [المدثر] أخذه عمَّنْ تقدمه . ويحتمل وجهاً آخر أنه سحر يُؤثر فى الناس لحلاوته ، فكأن القرآن سحر يظهر الباطل فى صورة الحق .

فأطلقوا على رسول الله أنه ساحر ، وجعل لا يَلْقى أحد منهم النبى ﷺ

إلا قالوا : يا ساحر ، يا ساحر ، فاشتد ذلك على رسول الله .

فهؤلاء لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن فقالوا ساحر وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ وإذا كان رسول الله ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم ؟إنَّ بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئاً من أمر السحرة ودليل على أن دعواكم كاذبة .

فلو كان ما جاء به محمد هو السحر وأن محمداً ساحر قد سحر العبيد والضعاف وأدخلهم فى الإسلام بسحره ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ؟

ولم يكتفِ الوليد بن المغيرة بوصف القرآن بأنه سحر بل قال أيضاً أنه من قول البشر فقال : ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾[المدثر] ويعنى هنا بالبشر يسار أبا فكيهة[١] وأنه الذى كان يأتى محمداً بالقرآن من مسيلمة الكذاب يلقنه إياه .

وهم ينسون أو يتناسون أنه لو كان من قول البشر لاستطاعوا هم أنْ يأتوا بمثله ، فلماذا لم يفعلوا ؟ لماذا عجزوا ؟ وقد تحداهم الله أنْ يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا تحداهم بأن يأتوا بسورة فلم يأتوا بشىء فتدرج القرآن معهم فى التحدى .

فطلب أنْ يأتوا بسورة واحدة فلم يستطيعوا فقال تعالى: ﴿ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ (٣٨) ﴾[يونس] ومرة يقول ﴿ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ (٢٣) ﴾ [البقرة] . وفى مقام آخر طلب أنْ يأتوا بعشر سور مثله ، فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ (١٣) ﴾ [هود]

حتى أن الله حسم هذا الأمر ، فقال : ﴿ قُل لَّـئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء]

(١) يسار أبو فكيهة هو أحد الذين اتهموا رسول الله به أنه يعلمه القرآن ، وهو مولى لقريش مولى لعبد الدار ويقال مولى لصفوان بن أمية وأن أصله من الأزد .

فكيف تقولون أن القرآن من قول البشر ؟

ثم يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر] سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر، فهذا وعيد من الله تعالى بأنْ يُصليه سقر ، وهى الدركة الخامسة من دركات النار ، فسقر إما باب من أبواب جهنم ، وإما دركة من دركات جهنم .

فـ ﴿ سَأُصْلِيهِ (٢٦) ﴾ [المدثر] أى سأدخله سقر ، ومنها قوله تعالى ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) ﴾ [الصافات] ، ويقول تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) ﴾ [الليل]

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر] ما أعلمك يا محمد أى شيء هى سقر والمقصود ما أعظم هولها وعظمتها وشدتها .

وإنما سُميت سقر من سقرته الشمس إذا أذابته ولوَّحته وأحرقت جلدة وجهه .

﴿ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر] فلا تُبقى أحداً من المستحقين للعذاب إلا أخذته ، ولا تذر مَنْ لحوم أولئك شيئاً إلا أكلته وأهلكته ، وهى لا تُبقى مَنْ فيها حياً ، ولا تذر من فيها ميتاً ، كلما احترقوا جُدِّدوا وأُعيدوا .

﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) ﴾ [المدثر] البشر جمع بشرة ، فهذه النار لوَّاحة لأبشار المعذبين مغيِّرة للجلد حتى تجعله أسود ، فهى محرقة للجلد لافحة له بلفح النار فتدعه أشد سواداً من الليل .

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾[المدثر] أي على النار تسعة عشر من الملائكة وهم خزنتها مالك ومعه ثمانية عشر ، وقد رُوى عن ترجمان القرن ابن عباس أن خزنة جهنم مع كل واحد من الأعوان ما لا يُحصى ، وذكر أن ستة منهم يقودون الكفرة إلى النار ، وستة يسوقونهم ، وستة يضربونهم بمقامع من الحديد والنار ، والآخر هو الخازن الأكبر وهو مالك يأمرهم بما أُمر هو به[1] .

وقد وصفهم الحق سبحانه في آية أخرى ، فقال : ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فهم غلاظ على أهل النار شداد أقوياء يدفع الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار لم يخلق الله الرحمة فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ (٣١) ﴾[المدثر] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته ، وليس المقصود بأصحاب النار الذين يُعذَّبون بها ، إنما المقصود بهم خزنة

(١) أورده الماتريدى في تفسيره (١٠/٣١٣) وكذا النسفي في (مدارك التنزيل ٣/٥٦٥) وابن عجيبة في (البحر المديد في تفسير القرآن ٧/١٧٩) .

النار التسعة عشر .

وقد نسب إليهم الحق سبحانه النار وكأنهم هم أصحابها لهم حقّ التصرف فيمَنْ يدخل النار ، فأمرهم كأنه قد انتهى ، حتى أن البعض من أهل النار يناشد مالك خازن النار فيقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

مَنْ في النار يُعذَّب فيها يطلب من خزنة جهنم أنْ يدعوا الله ليخفف عنهم يوماً من العذاب ، ولكنهم يقال لهم : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) ﴾ [غافر]

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً (٣١) ﴾ [المدثر] فلم نجعل خزنة النار وحراسها رجالاً آدميين بل هم ملائكة ، فهم ليسوا من جنس المعذّبين أى أنهم لن يرأفوا بهم ولن يرحموهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فما جعلنا عددهم الذى قلناه وهو قليل فى نظركم إلا فتنة أى اختباراً وامتحاناً أو ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا ، فهم قد قالوا : كيف يقدر هذا العدد القليل على تعذيب جميع مَنْ فى النار ؟

حتى أن أبا جهل قال : ما لمحمد من الجنود إلا تسعة عشر ، أما يستطيع كل عشرة منكم أنْ يغلبوا منهم واحداً ، فقد نادى أبو جهل فى قريش هازئاً برسول الله : يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يُعذّبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة أفيعجزكم مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟[1] فأنزل الله تعالى فى ذلك من

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٥١٩٦) من قول محمد بن إسحاق أن أباجهل قال يوماً وهو يهزأ برسول الله . وأورده ابن هشام فى سيرة النبى (١/ ٣١٣) وكذا السهيلى فى الروض الأنف (٣/ ١٠٦).

قوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا (٣١) ﴾ [المدثر]

فأمْرُ العدد كان فتنة لهم أوقعهم فى الضلال ، لأنهم لم يؤمنوا بالله وبقدرته وعظمته ، أما من آمن بالله حقاً فنظر فى آيات الله فلم يزده ذلك إلا إيماناً وتصديقاً .

﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ (٣١) ﴾ [المدثر] وذلك أن أهل الكتاب وجدوا فى كتابهم أن مالكاً رئيسهم وثمانية عشر من الرؤساء ، فبيَّن لهم أن ما يقوله النبى ﷺ يقوله الوحى .

﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا (٣١) ﴾ [المدثر] تصديقاً لله ولما أنزله الله على محمد ، فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم وتصديقاً إلى تصديقهم إذا وجدوا ما يخبرهم به من عدد خزنة جهنم موافقاً لما فى كتابهم .

﴿ وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ (٣١) ﴾ [المدثر]

والارتياب محله القلب ، ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾ [التوبة] فالإيمان عندهم يتردد بين العقل والقلب، والارتياب لا يعنى مجرد الشك إنما هو شكٌ باتهام :

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

فالذين فى قلوبهم مرض ضعيفو الإيمان ، مسلمون ساعة الرخاء فارُّون من الدين ساعة الشدة ، والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام .

وقد فرَّق الحق سبحانه بين الذين فى قلوبهم مرض وبين المنافقين، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ (٤٩) ﴾ [الأنفال]

وفرَّق هنا بين الذين فى قلوبهم مرض وبين الكافرين وإنْ كانوا قد

اشتركوا معاً فى قولهم : ﴿ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا (٣١) ﴾ [المدثر]

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [البقرة]

فالذين كفروا يكذبون المثل فيزدادون به ضلالاً ويهدى به المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه الحق .

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر]

فالله يخبرنا بمَنْ يستحق هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك ، إما أنْ تؤمن فتدخل فى الهداية ، وإما أنْ تختار طريق الكفر والظلم فتمتنع عنك الهداية .

فإذا جاء أحد يجادلك ويقول لك : إن الله سبحانه قد قال : ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٣١) ﴾ [المدثر] لك أنْ تقول له : لقد بيَّن الله مَنْ شاء له الهداية ومَنْ شاء له الضلال .

وقلنا سابقاً أن الهداية نوعان دلالة على الطريق وهذه هداية للجميع فهى هداية عامة ، ثم هناك هداية خاصة للمؤمنين وهى التى بيّنها الله فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أى أعانهم على منهجه فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصى ، فإذا امتثل المؤمنُ لمنهج الله وأطاعه فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ويحبِّب الطاعة إليه فيزداد طاعة ، وإذا شرع فى ارتكاب المعصية بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ (٣١) ﴾ [المدثر] فلا تعوِّل فقط على قوتك

وتحسب مدى تكافؤك مع عدوك ، دعك من هذه الحسابات وما عليك إلا أن تستنفد وسائلك وأسبابك ثم تدع المجال لأسباب السماء .

وأقل جنود ربك أنْ يلقى الرعب فى قلوب أعدائك ، وهذه وحدها كافية، ويُروى أنهم فى إحدى المعارك الإسلامية تغيرت رائحة أفواه المسلمين وأحسُّوا فيها بالمرارة لطول فترة القتال فأخرجوا السواك ينظفون أسنانهم، ويطيِّبون أفواههم عندها . قال الكفار : إنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلونا وقذف الله فى قلوبهم الرعب من حيث لا يدرون .

﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾[المدثر] ضمير (هى) المنفصل يعود على النار ، أى أن النار ما هى إلا تذكرة للبشر وموعظة للناس ، وهى سقر التى ذكرها الحق سبحانه فقال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) ﴾ [المدثر]

تلك النار التى عليها تسعة عشر من الملائكة الغلاظ الشداد ، وقد جعل الله عددهم فتنة للذين كفروا واختلف فى موقفهم منهم الناس : الذين كفروا ، الذين أوتوا الكتاب ، الذين آمنوا ، الذين فى قلوبهم مرض . كل فرقة لها موقف مخالف للآخر من هذه النار وما عليها من ملائكة .

ولكن بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الذكرى هنا هى القرآن ومواعظه ، فهو تذكرة للناس وموعظة ، ولكن تسلسل الكلام فى الآيات هنا هو عن النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾

(كلا) ليس الأمر كما قالوا أنهم يستطيعون هزيمة ملائكة النار ، من جهلهم أطمعهم أنَّ عِدَّتهم تسعة عشر نسوا أن هؤلاء خزنة جهنم

المتحكمين فيها فقط ، لا زبانية جهنم الذين يأتمرون بأمر التسعة عشر وعددهم بالآلاف .

كلهم يفعلون ما يُؤمرون ولا يعصون ولا يجاملون ، ولن يفلت أحدٌ من العقاب الذى قرِّر له من الواحد الديَّان .

ثم يقسم الله بالقمر وبالليل وبالصبح ، وكلها مخلوقات خلقها الله، والحق سبحانه وحده له أنْ يقسم بما يشاء على ما يشاء ، فيقسم مرة بالضحى والليل ، فيقول : ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى[1] (٢)﴾ [الضحى]

فأقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، بل إنْ الحق سبحانه يقسم بحياة رسول الله ، فيقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾[الحجر] وأقسم بالنجم إذا هوى .

وهو سبحانه الخالق العليم بكل ما خلق ، ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألا نقسم إلا به لأننا نجهل حقائق الأشياء مكتملة .

والحق سبحانه يقسم هنا بالمشاهد لهم كالقمر والليل ، وبعد الليل يأتى النهار ولكنه يذكر أول وقت فى النهار وهو الصبح ، لأن فى الصبح شيئاً ليس فى باقى أوقات النهار .

قاله الحق سبحانه فى آية أخرى وهو يقسم بالصبح فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾[التكوير] وهنا يقول ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) ﴾ [المدثر]

وإسفار الصبح يكون بعد إدبار الليل وذهابه ، فإسفار الصبح أى أضاء وتبيَّن ، أى أسفر ضوؤه عن ظلمة الليل ، فأضاء وأقبل وأنار . ومنه : أسفرتْ المرأة عن وجهها إذا كشفته .

---

(١) سجى : أى أظلم وركد فى طوله . [كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدى] وسجى أيضاً : غطى النهار بظلمته [مشارق الأنوار مادة س ج ى] وسجَّى الميت تسجية أى مدَّ عليه ثوباً .

والصبح إذا أسفر تجد لإقباله رَوْحاً ونسيماً ، فجعل الله له نفساً على المجاز كأنه إنسان يتنفس فقال : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾ [التكوير]

ورسول الله ﷺ يقول : « أسفروا بالفجر فإنه أعظم للأجر »[1] .

أى صلوا صلاة الصبح مُسفرين حتى تنير السماء والإسفار الإنارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

الكُبَر جمع كبرى ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) ﴾ [طه] العُلا جمع عُليا .

فـ (سقر) إحدى الأمور العظام ، ثم إن عذاب أهل النار ألوان وفى جهنم دركات سقر هى إحدى دركاتها ودركاتها سبعة : جهنم ولظى والحطمة والسعير وسقر والجحيم والهاوية .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) ﴾ [المدثر] جواب القسم ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) ﴾ [المدثر]

﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) ﴾ [المدثر] فالنار نذير للبشر ، حتى أن الحسن البصرى قال : والله ما أنذر بشىء أدهى من النار[2] . والنار هنا تشمل دركاتها وعذابها وخزنة جهنم وزبانيتها ، فهؤلاء جميعاً إنذار للبشر .

وتأول البعض هذه الآية أنها عائدة على رسول الله ﷺ ، فقد قال الحق سبحانه فى أول السورة ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر] فأنت يا محمد نذير للبشر

---

(١) أخرجه الشافعى فى مسنده (١٥١) وابن أبى شيبة فى مسنده (٦٤) وأحمد فى مسنده (١٧٢٧٩) حديث رافع بن خديج وفى بعض رواياته عن أحمد مرسلاً عن محمود بن لبيد .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (لباب التأويل ٤/٣٦٦) .

تنذرهم عقاب الله وعذابه ناراً موقدة ، فمحمد ﷺ نذير للخلق جميعاً .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾[المدثر] أي يسبق غيره في عمل الخير أو يتأخر عنه ، فلكم الخيار في أن تتقدموا فيما أُمرتم به أو تتأخروا.

والتقدم والتأخر قد يكون في الطاعة والمعصية ، أو في الخير والشر ، أو في التقدم إلى النار أو التأخر عن الجنة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾[الكهف] فلك أنْ تؤمن ولك أن تكفر ، وفائدة إيمانك تعود عليك أنت ولا تعود على الله ، فالله لا يفيده إيمانك ولا يضره سبحانه كفرك .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝٤١ ﴾

فكلُّ نفس من نفوس الكفار مرتهنة في النار بكسبها ومأخوذة بعملها، فكل كافر مرتهن بذنوبه في النار . والرهن في اللغة الثبوت والدوام وهو أيضاً من الحبس ، فهم محبوسون نتيجة معاصيهم وذنوبهم ، فهي معتقلة بعملها يوم القيامة .

فكلّ امرىء مرتهن بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

فهم دائمون في الارتهان في سقر لا تنفعهم شفاعة شافع . فكلُّ فرد يحمل همّ نفسه وتبعتها ويضع نفسه حيث شاء أنْ يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ويكرمها أو يهينها ، فهي رهينة بما تكسب مقيدة بما تفعل .

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) ﴾ [المدثر] فاستثنى اللهُ أصحابَ اليمين من

المرتهنين المحبوسين فى النار نتيجة ما عملوه من ذنوب ومعاصٍ، فأصحاب اليمين غير مرتهنين بذنوبهم فى النار ولكن الله يغفرها لهم ، فهم قد فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الصالحة كما يفك الراهنُ رهنه بأداء الحق الذى عليه .

فأصحاب اليمين الذين أُعطوا كتبهم بأيمانهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (١٩) ﴾ [الحاقة] فاستثنى الحق سبحانه أصحاب اليمين من جملة المرتهنين.

ولكن استثناءهم من الارتهان بذنوبهم جعل على بن أبى طالب يقول أن أصحاب اليمين هم أطفال المسلمين ، فهؤلاء لم يكتسبوا إثماً يرتهنون به .

﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) ﴾ [المدثر] فهم فى جنات يتساءلون فيما بينهم عن المجرمين الذين رأوهم فى الدنيا وقاسوا من إجرامهم وظلمهم أو صاحب لهم كان عاصياً وأرادوا معرفة مصيرهم .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات]

فيطلعوا فيجدوه ﴿ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أى فى وسطها فكانوا يقبلون على بعضهم بعضاً يتساءلون عن حاله فى الدنيا .

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) ﴾[المدثر] أي : ما أدخلكم وحبسكم في سقر ، سألوهم توبيخاً وتقريعاً لهم ، ما جعلكم فيها وكان سبباً في دخولكم النار . و ﴿ سَقَرَ (٤٢) ﴾[المدثر] دركة من دركات النار .

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) ﴾[المدثر] إنهم كفار وقد يسأل سائل : إذا كانوا كفاراً فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ولم يكونوا مسلوكين في سلك مَنْ يصلي واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله .

وإسلاكهم في سقر إدخالهم كما نُدخل الخيط في ثقب الإبرة . يقولون : لم نَكُ في الدنيا من المصلين لله .

﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) ﴾[المدثر] فلم نكُن نتصدق عليه . وهل مجرد عدم التصدُّق موجب لدخول سقر ؟ لا طبعاً فهم لم يُقروا بالصلاة ولم يُؤدوها ، ولم يُقروا بالزكاة ولا بحق المسكين في مالهم فلم يُؤدوها .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) ﴾[المدثر] فكنا نخوض في الباطل مع مَنْ خاضوا في الاستهزاء بالرسول والمسلمين وبكتاب الله القرآن .

وقد قال تعالى في قوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

وكلمة ﴿ نَخُوضُ (٤٥) ﴾[المدثر] تعطي معنى واضحاً مجسماً لأن الأصل في الخوض أنْ تدخل في مائع أي سائل مثل الخوض في المياه أو الطين ، وساعة تخوض في مائع ، فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل مجرد أنْ يمشي الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أنْ تصنع في المائع طريقاً لك .

والخوض هو الدخول في باطل أو الدخول إلى ما لا ينتهي الكلام فيه

إلى غاية ، وما دمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول عليه فلا تتميز الأشياء وأخذ منه الخوض بالباطل ، أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

فكان هؤلاء يخوضون مع مَنْ خاضوا فى الاستهزاء بالرسل وبكتب الله والمؤمنين به ، لذلك استحقوا سقر .

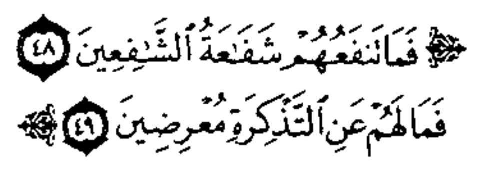
﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) ﴾ [المدثر] فكنا نكذب بيوم الجزاء على الأعمال وهو يوم القيامة ، فكنا نكذب بيوم المجازاة والثواب والعذاب ، ولا نصدق بثواب ولا عقاب ولا حساب .

﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ [المدثر] لم نحاول أنْ نتوب أو نعرف الحق فنتبعه بل كذّبنا ما جاءنا به الرسل من عند الله واستمررنا على هذا حتى آتانا اليقين .

واليقين هو الموت ، واليقين هو أمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير .

ولا شيء ثابت فى الواقع والأعماق مثل الموت الذى يراه ويُقر به الجميع، فالناس قد تختلف فى وجود الله ، ولكنها لا تختلف حول حتمية موت الإنسان .

فهؤلاء بقوا على كفرهم ولم يُصلّوا ولم يُزكّوا وبقوا يكذّبون بيوم الدين حتى فاجأهم الموت دون رجوعهم ولا توبتهم .



فلن تنفعهم شفاعة الشافعين ، والشافعون جمع شافع أو شفيع . والحق

سبحانه يقول : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

والشفاعة تقتضى شافعاً ومشفوعاً عنده ومشفوعاً له ومشفوعاً فيه ، هذه هى الأربعة العناصر فى الشفاعة ، والمشفوع عنده وهو الله سبحانه، والمشفوع فيه هو الذنوب وهى معروفة .

والله سبحانه لا يقبل الشفاعة من أى أحد إنما يقبلها ممن يرتضى قوله، قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) ﴾ [طه]

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) ﴾ [المدثر] وهذا مثل قوله ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) ﴾ [الانشقاق] فالقياس كان يقتضى أن يؤمنوا وكذا هنا كان القياس ألاَّ يُعرضوا عن التذكرة ، فأسلوب (فما له) و (فما لك) و (فما لهم) و (فما لكم) على أن العمل يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع .

أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها أو فى حيثيات عدم فعلها ، فهذا ليس عمل العاقلين .

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾ [الحجر] أى تكبَّروا وأعرضوا عن المنهج الذى جاءهم به رسلهم والإعراض هو أنْ تعطى الشىء عرضك بأنْ تبتعد عنه ولا تقبل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾

كلمة (حمار) تُجمع فنقول (حُمُر) وهى حُمُر مستنفرة أى نافرة فرَّتْ من رجال أقوياء ، وكل ضخم شديد عند العرب قسورة ، والقسورة أيضاً الأسد تهرب منه الحُمر المستنفرة النافرة الهاربة من الأسد .

فالحُمر إما أنها هاربة من الرماة والصيادين ، وإما أنها هاربة من الأسد ، فانظر كيف جَرْيُها وكيف فرارها ، فتعجب من فرارهم من دعوة الله ودينه ورسله وكأنهم حمير فى البرية تهرب ممَّنْ يريد اصطيادها .

﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾

فالمشركون هؤلاء المكذِّبون طلبوا أنْ يصبحوا عند رأس كل رجل منهم كتاب منشور من الله أن محمداً رسول الله ويأمر فيه باتباعه .

وكانوا يقولون : كان الرجل من بنى إسرائيل ذنبه وكفارة ذنبه يصبح مكتوباً عند رأسه فهلا تُرينا مثل هؤلاء الآيات إنْ كنتَ رسولاً كما تزعم فقال جبريل : إنْ شئت فعلنا بهم كفعلنا ببنى إسرائيل وأخذناهم بما أخذنا به بنى إسرائيل ، فكره النبى ﷺ ذلك[1] .

والغريب أنهم يكذبون ولا يؤمنون ، ورغم هذا يريدون أن يُنزل الله على كل واحد منهم كتاباً خاصاً به يأمره فيه الله بأنْ يؤمن بمحمد ، كيف تكذب ولا تؤمن وتطلب مثل هذا ؟

﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) ﴾ [المدثر] فالمسألة بالنسبة لهم ليست أنهم يريدون كتباً وصحفاً تنزل عليهم فعلاً ، فلو نزلت عليهم فعلاً ما آمنوا ، وذلك مثل قوله تعالى :

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/ ٥٠٠) والخازن فى تفسيره (٤/ ٣٦٨) والبغوى فى تفسيره (٥/ ١٨٠) .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[1] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

هم لن يؤمنوا على أى حال كان الأمر ، إنما هى مبررات يعطونها لأنفسهم حتى لا يؤمنوا وإن تحقق ما يريدونه لن يؤمنوا أيضاً ، لأنهم يريدون أن يهربوا من البعث والحساب واليوم الآخر ، ولا يريدون أن يلزمهم أحد بمنهج وأوامر ونواهى .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦ ﴾

تجد فى نصوص القرآن عجيباً فتجد نصاً مساوياً لنص ، ثم يختلف السياق فيختلف النص ، فيقول الحق سبحانه هنا : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر]

ومرة أخرى يقول ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس] ، ومرة أخرى يقول ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) ﴾ [الإنسان]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة]

فالمسألة إذن ليست (أكلاشيه) ثابتاً ، وليست عملية (ميكانيكية) صماء ، إنه كلام رب حكيم .

﴿ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) ﴾ [المدثر] إنه عظة عظيمة ، فليس الأمر كما يقول هؤلاء

---

(١) قرطاس : الصحيفة يُكتب فيه من ورق أو غيره . وجمعه قراطيس قال تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (٩١) ﴾ [الأنعام]

المشركون فى هذا القرآن من أنه سحر يؤثر وأنه قول البشر ، ولكنه تذكرة من الله لخَلْقه .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) ﴾ [المدثر] فمَنْ شاء اتعظ به فإنما يعود نَفْع ذلك عليه ، فاستعمل ما فيه من أمر الله ونهيه ، فليس أحد بممنوع ولا مجبور على الفعل ، فمَنْ ترك التذكُّر فهو الذى ضيَّع ذلك حيث آثر واختار ضده واشتغل بغيره وأعرض عن ذكره .

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ [المدثر] فإذا شاء الله لهم الهدى تذكَّروا واتعظوا ، فلا أحدَ يقدر على شيء إلا بأنْ يشاء الله يقدره عليه ويعطيه القدرة عليه .

﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾ [المدثر] ينهى الحق سبحانه سورة المدثر بالثناء على الله عز وجل ، فهو سبحانه حقيق وجدير بأنْ يتقيه عباده ويخافوا عقابه فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهو حقيق بأنْ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وذنوبهم .

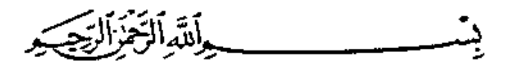
وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله قال فى هذه الآية : قال الله تبارك وتعالى : أنا أهلٌ أنْ أُتَقَى ، فمَن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً فأنا أهل أنْ أغفر له[1] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٤٤٢ ، ١٣٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٩٩) وابن أبي عاصم فى السنة (٩٦٩) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٥١٥) والحاكم فى مستدركه (٣٨٦٧) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبى .

سُورَةُ القِيَامَةِ

سورة القيامة[1]



﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ ﴾

لقد جاء هنا الحق سبحانه بقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] وكأنه يوضح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ، ولذلك ما كان يصح أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مقسماً لأقسمت بكذا وكذا وكذا .

فمعنى ﴿ لَا أُقْسِمُ (١) ﴾ [القيامة] أن هذا الأمر واضح جلىّ وضوحاً لا يحتاج إلى القَسَم ، ولو كنتُ مقسماً لأقسمتُ به .

والحق سبحانه هنا يقسم ﴿ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) ﴾ [القيامة] ، وهو لا يقسم إلا بشىء عظيم له قدر عند مَنْ أقسم ، فما بالك أن الله هو الذى يقسم ؟

ثم يقسم سبحانه قسَماً آخر ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ [القيامة] ،

---

(١) سورة القيامة هى السورة رقم (٧٥) فى ترتيب المصحف ، نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهُمزة وترتيبها فى النزول السورة رقم (٣٠) وهى سورة مكية عدد آياتها (٤٠) آية .

وهى النفس التى تصنع شراً مرة ، فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

فهى نفس تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : الله لم يأمر بذلك . فيعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً ، فهو يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة إلى منهج الله لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ونفساً مطمئنة ، ومهمة النفس اللوامة هى أنْ تردَّ على كلِّ ما توسوس به النفس الأمَّارة بالسوء ، لكن إنْ لم تلُمْ النفس اللوامة فالنفس الأمَّارة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾
بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ (٣) ﴾[القيامة] أيظن هذا الكافر أن العظام بعد تفرقها ورجوعها رميماً ورفاتاً مختلطة بالتراب وبعدما نسفتها الريح فطيَّرتها فى أباعد الأرض ، أيحسب أنْ لن نجمع عظامه؟

والفعل (حسب) هنا جاء بالمضارع لأنه يتحدث عن شىء يحدث فى المستقبل ، وهو عند النفخ فى الصور النفخة الثانية ، فقال : ﴿ أَيَحْسَبُ (٣) ﴾ [القيامة]

وقد ورد (حسب) بالماضى فى قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾[العنكبوت] أى أظنَّ الناسُ وتوهَّموا أنْ يقولوا آمنا دون أنْ يُفتنوا ، فهم وقعت بهم الفتنة فعلاً والاختبار والابتلاء .

وقد قال الأخنس بن شريق الثقفي[١] لرسول الله : يا محمد حدِّثنى متى تكون القيامة وكيف أمرها وحالها ؟ فأخبره النبى ﷺ فقال عدى بن ربيعة حليف بنى زُهْرة وهو ختن الأخنس : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله العظام ؟[٢]

فأنزل الله ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

فنحن قادرون على جَمْع العظام وتأليفها وإعادتها إلى التركيب الأول والحالة والهيئة الأولى وعلى ما هو أعظم من ذلك ، وهو ﴿ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة]

بنانه أى أصابعه ، وقد قال المفسرون أنه تسوية الأصابع براحة اليد حتى نجعله مثل خُفِّ البعير فلا ينتفع بها كما لا ينتفع البعير بها ما كان حياً .

حتى أن قتادة قال : « لو شاء اللهُ لجعلَ بنانه مثل خُفِّ البقر أو مثل حافر الدابة »[٣] . فلا يستطيع أنْ يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم كعقوبة له على إنكاره للبعث .

---

(١) الأخنس بن شريق : اسمه أُبَىّ بن شريق ، سُمِّى بالأخنس لما أشار على بنى زُهرة بن كلاب بالرجوع إلى مكة حين توجهوا بالنفير إلى بدر ليمنعوا العير فقبلوا منه فرجعوا فقيل خنس بهم . أسلم يوم فتح مكة وشهد مع رسول الله حنيناً وأعطاه رسول الله مع المؤلَّفة توفى فى أول خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) أورده الخازن فى تفسيره (٤/٣٧٠) وكذا مقاتل بن سليمان (٤/٥٠٩) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٣٤٠٣) عن قتادة بن النعمان السدوسى .

فإن الحق سبحانه خلق أصابع يدى الإنسان ورجليْه مُفرَّقة يتناول طعامه بيديه ويقبضهما إذا شاء ويبسطهما .

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦ ﴾

هذا الإنسان الجاحد غير المؤمن بالبعث يريد أنْ لا يأمره أحد ، يريد أن يعصى ويرتكب المعاصى والفواحش ، فلو آمن بالبعث لأصبح لزاماً عليه أنْ لا يعصى الله ، وكأنه بهذا لن يكون بعث .

فهو يقدِّم المعصية ويؤخِّر التوبة يوماً بيوم يقول سأتوب ولكنه لا يتوب ، نفسه لا تطاوعه أنْ يتوب حتى يموت على شرِّ عمله .

فهو يمضى قُدماً راكباً رأسه فى معاصيه لا يردعه شىء ولا يرعوى ولا ينزع عن فجور ، بل دائماً طالباً الدنيا ولا يذكر الموت .

وكلمة (بل) هنا للإضراب عما سبق ، كأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : دعك من كلامه أنه غير مؤمن بالبعث والإعادة فهو ينكر هذا لأنه يريد أنْ يعيش فى الدنيا دون منهج (افعل) و (لا تفعل) .

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (١٨٧) ﴾ [الأعراف]

ومعنى ﴿ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) ﴾[القيامة] أى متى يكون يوم القيامة ، وهو يسأل السؤال مُكذِّباً بيوم القيامة .

﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ ﴾

الآن هو يسأل متى يوم القيامة ، وغداً عندما تدهمه القيامة سيعرف أنه أضاع حياته التى أعطاه الله إياها فى تكذيب وإباء ، ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧)﴾[القيامة] فإذا شَخَص بصره وبرق لما يرى من أهوال القيامة سيعرف أنه كان مخطئاً .

فـ ﴿بَرِقَ الْبَصَرُ (٧)﴾[القيامة] أى فتح عينيه وشخص وكان له بريقُ الفزع والرعب والدهشة والرهبة مما يرى، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢)﴾
[إبراهيم]

وقوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (٩٧)﴾
[الأنبياء]

فأبصارهم تشخص بصورة لا يتقلب بها يمنة أو يَسْرة من هول ما يرى، فحين ترى إنساناً مذعوراً من فرط الخوف فسحنته تتشكل بشكل هذا الخوف ، فيستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المرعب .

وفى ظل هذا المشهد المرعب يخسف وينطفىء ضوء القمر ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٨)﴾[القيامة] أى غاب ضوؤه أى أظلم وذهب وخُسف على البناء للمفعول .

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩)﴾ [القيامة] أى : جُمعا فى ذهاب ضوئيهما ويُطلعهما الله من المغرب ثم يكوِّرهما الله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١)﴾
[التكوير]

فالشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ويختل نظامهما الفلكى المعهود حيث ينفرط عقد ذلك النظام الكونى الدقيق .

وفى وسط كل هذا قمر بلا ضوء مخسوف وشمس منطفئة ظلام كونى وهول وفزع ليس له حدود ، تجد هذا الإنسان المغرور المتكبر على خالقه

يقول : ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

تشعر من سؤاله بالرعب والفزع الذى يملأ جوانحه ، فلا عودة للدنيا وليس له مهرب ولا مفر ، ولا صاحب له ولا نصير .

إنه يشعر أنه قد أحيط به لذلك يقول ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

وهم إذا كانوا فى السورة السابقة قد ذكرهم الله وهم يفرون من الموعظة والتذكرة ، فقال : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر]

فإنهم هنا عند مواقعة الحدث وتيقنهم أنه الحق الذى لم يريدوا أن يعترفوا به يقولون ﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) ﴾ [القيامة]

والحق سبحانه يقطع عليهم الأمل فى القدرة على الفرار ، فإلى أين فراركم ؟ ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) ﴾ [التكوير]

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ ﴾

الحق سبحانه لمَّا أراد أن يخوِّف الناس من الآخرة قال : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فلا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله .

فكأنه يقول (لا وزر) أى : لا معين ولا نصير ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة] فالآخرة هى المستقر لأنها الدار الباقية .

والمستقر المكان الذى تستقر أنت فيه ومستقرك ومرجعك ومصيرك إنما هو إلى الله ، فمستقر الخَلْق إنما هو إلى الله ، وقال عبد الله بن مسعود: إليه المصير والمرجع .

فإلى ربك أيها الإنسان يومئذ الاستقرار ، ومستقرهم الجنة أو النار .

ثم يقول تعالى :

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ (١٠) ﴾[القيامة] أي يُخبر الإنسان يومئذ يعني يوم يُجمع الشمس والقمر فيكوَّران ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء]

﴿ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) ﴾[القيامة] أي بما قدَّم قبل موته من عمل صالح أو سيء ، وما أخَّر بعد موته من سُنة حسنة أو سيئة يعمل بها ، فالله يُنبئه بما قدَّم من أنواع الطاعة وما أخَّره منه فلم يفعله .

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) ﴾[القيامة] فالإنسان على نفسه من نفسه رقباء يرقبونه ويشهدون عليه بعمله ، وهي سمعه وبصره وجوارحه.

وقد يسأل سائل : لماذا لم يقُل الله : بل الإنسان على نفسه بصير ؟ لماذا كانت (بصيرة) ؟ وتقدير الكلام : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، فلا شاهدَ أفضلُ من نفسك ، وذلك قوله تعالى ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء] يعني شاهداً .

والحق سبحانه جعل الإنسان هو البصيرة على نفسه كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك .

﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] ولو اعتذر بكل عذر وجادل عن نفسه

فإنه لا ينفعه ، لأنه قد شهد عليه شاهدٌ من نفسه .

و ﴿ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾[القيامة] جمع معذرة . وقد أوضح الحق سبحانه فى قرآنه بعض معاذيرهم مثل قوله-تعالى : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ (١٨) ﴾ [المجادلة]

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾

الحق سبحانه يُطمئن رسوله على حفظ القرآن لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحى ، فيحاول إعادته كلمة كلمة ، فإذا قال الوحى مثلاً ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ (١) ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول من تكرارها فى سرِّه ويرددها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حرصه على القرآن .

فنهاه الله عن هذه العجلة فقال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (١١٤) ﴾ [طه] أى : لا تتعجل ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فلا تخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه فقد تكفلت بحفظه .

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) ﴾ [الأعلي] وهنا يقول سبحانه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) ﴾ [القيامة] أى لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وقد كان ينزل عليه ﷺ عدة أرباع من القرآن أو السورة كاملة ، حيث يُسرى عنه الوحى يعيدها كما أنزلت عليه ، ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمرُ إلى حَدٍّ ما سهلاً إنما تنزل الآيات متفرقة .

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ثم يعيدها عليك كما قالها نصاً ، أما النبى ﷺ فكانت تُلقى عليه السورة فيعيدها كما هى .

أرِحْ نفسك يا محمد ولا تخْش النسيان ، وانتظر حتى تنتهى الآيات وسوف تعيدها كما هى لا تنسى منها حرفاً واحداً .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧)﴾ [القيامة] إن علينا جمعه فى صدرك ونُقدرك على قراءته فلا تنسَ منه شيئاً ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة] فاستمع وأنصت .

فإذا جمعناه فى صدرك ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ [القيامة] أى : ما جمع فيه فاعمل به من أمر أو نهى ، واستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة] وبيان الشيء توضيحه وشرحه وتأويله، بعد أنْ تحفظه وتقرأه كما أقرأناه لك فسنوضحه لك وسنبيِّن لك معناه وتفسيره .

وسنبين لك حلاله وحرامه ، وقد خاطب الحق سبحانه النبى ﷺ فى آية أخرى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (٤٤) ﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ.

ثم إنَّ علينا بيانَ ما فيه من حلاله وحرامه وأحكامه نبيِّنها لك مُفصَّلة، وكلمة (علينا) تعطى معنى أن الله ألزم نفسه أنْ يجمع له آيات القرآن فى صدره ، وأنَّ عليه أنْ يُبيِّنه ويبين له أحكامه .

فسنبيِّن إليك ما أجملناه فنفصِّله لك بفرائضه وآدابه وأركانه .

ثم يقول تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١ ﴾

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) ﴾[القيامة] والعاجلة هى الدار الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) ﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها يأخذها ولو كان كافراً .والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، والعاجلة هى عطاء الدنيا ومُتعها ورُقيها وتقدمها . فمَنْ كان يريد العاجلة ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ (١٨) ﴾ [الإسراء] أى : أَجبْناه لما يريد من متاع الدنيا .

وهم يحبون العاجلة ، يحبون الدنيا ، والحق سبحانه يقول لهؤلاء ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ (٣٨) ﴾ [التوبة] والرضا هو حبُّ القلب .

وفى آية أخرى يقول : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ (٣) ﴾ [إبراهيم] و (استحب) لأنه أزاد الحبَّ عن حَدِّه الطبيعى ، فإذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلتها مزرعة للآخرة فهذا أمرٌ مطلوب لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ، فهذا طلبٌ للدنيا من أجل الآخرة.

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحبون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ، بل هم يستحبون الحياة .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فأنتم تتكالبون على تحصيل الدنيا من كلِّ طريق حتى ولو كان من الحرام ، وتصدون عن سبيل الله ، وتتفلتون من منهج الله ظناً منكم أن لا حسابَ فى الآخرة .

لذلك ﴿ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) ﴾ [القيامة] فلا تؤمنون بها على الحقيقة بل تتركون العمل لها وتختارون عليها الدنيا ، وأكثر الناس تختار الدنيا على الآخرة .

والآية خطابٌ للكافرين لأنهم كانوا يعملون للدنيا ولا يعملون للآخرة، وهم إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفته ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ، إنما هو حبهم الشديد للدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

والنضارة الحُسْن والبياض والبهاء ، فيعلو وجوههم النور ، فوجوههم حسنة مسرورة من النعيم ، فالناضرة الناعمة من النعيم والغبطة ، فالحق سبحانه يصف وجوههم بما هم عليه من غاية السرور بالكرامات التى أُكرموا بها حتى نضرتْ وجوههم بذلك .

فوجوههم مشرقة مضيئة ، وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾ [المطففين]

وقد قال السُّدى : إن أهل الجنة إذا سِيقوا إلى الجنة فبلغوا وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غِلٍّ فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم

نضرة النعيم ، فلن يشعثوا ولن يسحنوا [1] بعدها أبداً .

فنضرة النعيم والعيش بادية على بشرتهم ، مُنعَّمين بأنواع النعيم المختلفة ، بهذه الوجوه الناضرة المنعَّمة تنظر إلى ربها المتفضل على أصحاب تلك الوجوه بالنعمة .

فيقول تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾[القيامة] فإذا كانت المقاييس يوم القيامة تختلف عن مقاييس الدنيا ، فإعدادك وجسدك لا يمكن به أنْ ترى الله ، أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وجسدك بأنْ يتجلَّى عليك الله سبحانه وتعالى .

وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، وأنت الآن تعيش فى آثار قدرة الله ، وفى الآخرة تعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى ، فيعيش فى رضوان الله الأكبر وهو أنْ يضمن المؤمن الظفر برؤية ربه .

وقد قال الحسن البصرى : « تنظر إلى ربها ،حسَّنها الله بالنظر إليه وحقَّ لها أنْ تنضر وهى تنظر إلى ربها عز وجل »[2] .

فهم ينظرون إلى الله تعالى معاينةً ، وذلك الرضوان الأكبر من الله ، ولكنِ لا تحيط أبصارهم به سبحانه من عظمته وبصره يحيط بهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

[الأنعام]

ورسول الله ﷺ يقول : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر لا

---

(١) ذكره الخازن فى (لباب التفسير) (٢/٢٠١) والبغوى فى تفسيره (٣/٢٣٠) . والسُّحْنة هى بشرة الوجه وهيأته وحاله وهى من الأضداد بمعنى أنها تعبر عن لين البشرة وحسنها أو عدم حسنها وعبوسها حسب سياق الجملة وهى نعنى هنا المعنى الثانى .

(٢) أورده مجاهد بن جبر فى تفسيره (١/٦٨٧) وكذا الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٤/٧٢) والثعلبى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن . والبغوى فى تفسيره (٨/٢٨٤) .

تُضامون فى رؤيته »[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥ ﴾

إذا كانت وجوه المؤمنين ناضرةً ناعمةً تعبر عن التنعُّم فى جنة النعيم، فإن وجوه الكافرين المكذِّبين تكون ﴿ بَاسِرَةٌ (٢٤) ﴾[القيامة] أى عابسةً كالحةً متغيرة مُسودة قد أظلمتْ ألوانها ، قد خلَتْ من آثار النعمة والسرور.

والحق سبحانه قال فى آية أخرى ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ﴾[المدثر] فاستخدم سبحانه الفعل (بسر) أما (باسرة) فهى (فاعلة) .

فـ (بسر) كلح وقطَّب وجهه قد أصابه الهمّ أو الاهتمام بأمر ما يفكر فى شيء يدبره .

فوجوههم باسرة عابسة كالحة تعلوها الظُّلْمة والغبار ، كما قال الله عز وجل ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾ [عبس]

فعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، والقترة الغبار وهى مأخوذة من القتار ، وهو الهواء الذى يمتليء بدخان الدهن المحترق من اللحم المشوى ، وقد تكون رائحته أخَّاذة ويسيل لها اللعاب ، ولكن منْ يُوضع على وجهه هذا القتار يصنع له طبقة سوداء .

﴿ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) ﴾[القيامة] والظنُّ هنا بمعنى اليقين أنْ يُفعل بها فاقرة . أى : يُفعل بهم أمرٌ عظيم من العذاب يقصم فقار ظهره .

(١) أخرجه الحميدى فى مسنده (٨١٧) وأحمد فى مسنده (١٩١٩٠) وابن ماجه فى سننه (١٧٧) وأبو عوانة فى مستخرجه (١١١٢) من حديث جرير بن عبد الله البجلى .

والفاقرة الداهية العظيمة والأمر العظيم الشديد الذى يكسر فقار ظهره ويقصمه ، وقيل : الفاقرة دخول النار .

وقيل : هى أنْ تُحجب تلك الوجوه عن رؤية الله تعالى .

فالفاقرة هى الداهية أو المصيبة التى إذا حلَّتْ بالإنسان كسرتْ فَقَار ظهره.

ومن العلماء مَنْ فسَّر الفاقرة بأنواع العذاب فى النار ، وقد فسَّرها الكلبي فقال : الفاقرة هى أنْ تُحجب عن رؤية ربها ولا تنظر إليه[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ ﴾

التراقي جمع تُرْقوة ، وهى العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق وعند مخرج الصوت . أى إذا بلغت الروحُ الحلقومَ . والتراقى هى عروقُ العنق .

وبلوغ التراقى أى حين تزول النفسُ والروح عن مكانها وتنتهى إلى التراقى ، وهى مُقدَّم الحلْق من أعلى الصدر تترقى إليه النفس عند الموت، وهناك تقع الحشرجة واحدته ترقوة .

فالتراقى العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ، فروح الإنسان تُنزع من أصابع القدم إلى أمشاط القدمين ثم إلى الساقين فتبرد الساقان بعد أنْ تمرّ الروح بهما ومنها إلى الفخذين ، ثم تصعد الروح إلى التراقى .

ثم يُسمع للعبد حشرجة ويُسمع لصدره قعقعة ، فما هى إلا لحظات حتى يرتفع بصره ، والبصر يتبع الروح من حيث خرجتْ .

---

(١) أورده الرازى فى مفاتيح الغيب (٣٠/٧٣٣) ومثل تفسير الكلبى قاله السائب هى أن تُحجب عن ربها فلا تنظر إليه .

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة] إنها لحظة الاحتضار وخروج الروح وحوله أهله ، يظنون أنهم يستطيعون إنقاذ روحه ، فيقول بعضهم ﴿ مَنْ رَاقٍ (٢٧) ﴾ [القيامة]

هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويشفيه ويُخلِّصه من ذلك برقيته ودوائه والتمسوا له الأطباء ، فلم يُغنوا عنه من قضاء الله شيئاً .

وقيل : هذا من قول الملائكة الذين يحضرونه عند الموت يقول بعضهم لبعض : مَنْ يْرقَى بروحه إذا خرجتْ فيصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .

﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) ﴾ [القيامة] لقد تأكد المحتضر أن هذه هى ساعته، وأنها ساعة فراق الأحبة والأبناء والأصدقاء ، ساعة فراق ما اكتسبه فى الدنيا من مال وعقار ، فالموت فى هذه الحالة أمر مقطوع به .

فالفراق الخروج من الدنيا ، وفراق المال والأهل والولد وهو تأكد له أنه خارجٌ من هذه الدنيا ، وأنه الموت لا محالة .

إن ما فيه لا حيلةَ للطبيب فيه ، عند ذلك ييئس من الحياة ومن أهلها ، فقد دنا فراقه من الدنيا ، ودنا توديع الأهل والأقارب والأصحاب ، ودنا انتقاله من هذه الدار لينتقل إلى عالم آخر إلى عالم القبور .

إنه سيفارق كلّ شيء لازمه فى حياته ، سيفارق منصبه ومكانته التى كانت له فى الدنيا ، سيفارق سيارته وزوجته وأولاده وأهله وأحبابه ، سيفارق الدنيا بكل ما فيها .

إنها لحظة الفراق ، لحظة تنتهى فيها حياةُ إنسان وحكايته وقصته على الأرض بكل ما فيها ، لحظة تدمع فيها عيون الصادقين المحبين لمن يعالج سكرات الموت ، ويفرح فيها خصومه الذين كانوا يكرهونه

ويتمنون موته .

﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾

مَنْ يتأمل هذه الآية ويعيش تلك اللحظة التى يحتضر فيها إنسان يترك دنياه بكل ما فيها ، يتركها إلى حياة أخرى لا يدرى ما يُفعل به فيها .

مَنْ يرى مُغسِّلاً يغسِّل ميتاً ، إنه يقلب الميت يميناً ويساراً ، ولكى يتحكم فى رجليه من أنْ تسقط يضع اليمين على اليسار ، ويجعل الساقين تلتفان على بعضهما .

والبعض تأول هذه الآية على اجتماع شدة الموت بشدة الآخرة عليه ، وذلك آخر يومه من الدنيا وأول يومه من الآخرة ، وقيل : ما من ميت يموت إلا التفَّت ساقاه من شدة ما يقاسى من الموت[1] .

فشدائد الموت وسكراته تلتف بشدائد القيامة والقبر وتجتمع عليه ، فهو من كرب إلى كرب إن لم يكُنْ مؤمناً طائعاً لله .

والعرب تقول : قامت الحرب على ساق أى اشتدت ، فالتفت شدة مفارقة الدنيا ولذَّاتها بشدة ترك الأهل وترك الولد وترك المال والجاه .

والإنسان إذا مات تيبَّس ساقاه وتلتصق إحداهما بالأخرى .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة] فمرجع العباد إلى الله تعالى ، يُساقون إليه يوم القيامة ليفصل بينهم ، فلا تظن أن مرجعك إلى غير الله، تسوق الملائكةُ روحه حيث أمرهم الله سبحانه ، فإمَّا إلى الجنة وإما إلى النار .

---

(١) أورده الماتريدى فى تفسيره (١٠/٣٥٣) ولم يعزه لأحد . وقد أورد ابن الجوزى فى تفسيره للآية خمسة أقوال : الأول التف أمر الدنيا بأمر الآخرة . قاله ابن عباس . والثانى : اجتمعت فيه الحياة والموت . قاله الحسن . والثالث : التفت ساقاه عند الموت . قاله الشعبى . والرابع : التفت ساقاه فى الكفن قاله سعيد بن المسيب . والخامس : التفت الشدة بالشدة قاله قتادة .

وساعة ترى ﴿ يَوْمَئِذٍ (٣٠) ﴾ [القيامة] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عِوَضٌ عن شيء محذوف ، والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذ نجيء بهم يوم القيامة يُساقون إلى مصيرهم.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) ﴾

فلم يصدق بل أعرض عن الإيمان وكذَّب رسول الله ، وهذا فعله كبار صناديد قريش مثل أبى جهل وأبى لهب والوليد بن المغيرة .

لذلك ساق المفسرون هذه الآية فى أبى جهل وغيره قالوا : فلا صدَّق أبو جهل بالقرآن ولا صلَّى لله تعالى ، فلا صدَّق بما جاء من عند الله تعالى ولا صدق رسوله ﷺ[1] .

وليس المقصود أبو جهل أو الوليد بن عقبة ، إنما المقصود جنس الإنسان المذكور فى أول السورة ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]

فكلمة ﴿ الْإِنسَانُ (٣) ﴾ [القيامة] اسم جنس . فلا هو صدَّق بالرسول أو بالقرآن أو بالبعث ولا صلَّى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ﴾ [القيامة] أى كذَّب بالحق وتولى عن الطاعة .

وقد تكون (صدَّق) بمعنى : تصدق . من الصدقة فإنه لم يتصدق بماله على الفقراء ولم يكُنْ يُطعم المسكين ، فلم يكُن يعبد الله على أى وجه بل كذَّب بالبعث والقرآن والرسول ، وتولَّى وأعرض عن الله والرسول .

﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) ﴾ [القيامة] يتمطى أى يتبختر ، ومن حديث رسول الله ﷺ : « إذا مشتْ أمتى المطيطاء وخدمتهم فارسُ والروم كان

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٤/٥١٣) .

بأسهم بينهم »[1].

فهو تولىً مُعرضاً وذهب يتبختر ويتيه ويفتخر ، ويتمطى هنا فى محل نصب حال ، ومعنى يتمطى أى يمد مطاه أى ظهره . والمطية ما يُركب مطاه من البعير .

فهو يتبختر عُتواً واستكباراً وفرحاً وتجبراً ، وكلمة (يتمطى) فيها شيء عجيب يدل على ارتباط الصوت بالصورة التى يريد أنْ ينقلها لنا الحق سبحانه .

فنستطيع أن نتلمس تطاول أعضاء مَنْ يتمطى بعد شَدِّ العضلات من الوقوف فى الشَّدة التى على الطاء ، والذى تتبعه الألف المقصورة ذات المد الطويل، وهذا المد يمثل انفراج الأعضاء وتعالى الرجل فى مباهاة وخيلاء.

﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥ ﴾

وسبب هذه الآيات أن أبا جهل تهدَّد رسول الله ﷺ بالقتل، فقال أبو جهل : إليك عنى فإنك لا تستطيع أنتَ ولا ربك أنْ تفعلا بى شيئاً ، لقد علمتْ قريش أنِّى أعزُّ أهل البطحاء وأكرمها ، فبأىِّ ذلكِ تخوِّفنى يابن أبى كبشة ، ثم انسلَّ ذاهباً إلى منزله فذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) ﴾ [القيامة]

فأخذ رسول الله ﷺ بتلابيب أبى جهل بالبطحاء فدفع فى صدره وقال (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) أى يُهدده ويتوعده . وهو يُقال لمَنْ

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك فى الرقائق والزهد (٢/٥٢) ولفظه : « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم أبناء الملوك أبناء فارس والروم سلط الله شرارها على خيارها » . وأخرجه كذلك الخرائطى فى [مساويء الأخلاق] (٥٧٨) والبغوى فى شرح السنة (٤٢٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

وقع فى هلكة أو قاربها .

وقد قال أبو جهل عندما سمع قول رسول الله هذا له : أيوعدنى محمد وما بين جبليها أعزُّ منى ولا أكرم ، فأنزل الله ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

وقد يُسأل سائل : ولماذا التكرار ؟ تكراره للتأكيد ويحتمل أنْ يُراد به ويْلٌ لك فى الدنيا بالقتل واللعن ، وويلٌ لك يوم الموت ، وويلٌ لك إذا بُعثت، وويلٌ لك إذا دخلت النار .

لذلك استخدم الحق سبحانه حرف العطف (ثم) وهو يفيد التراخى، وليس الترتيب والتعقيب كحرف الفاء ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران]

فإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفاً ، فقد يظن إنسان أن القول كان يقتضى أنْ يتأتّى على نحو مغاير هو : يولوكم الأدبار فلا يُنصرون ، لأن الذى يأتى بعد الـ (فاء) يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم.

وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب ، لكن أورد الحق (ثُمَّ) وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة .

(ثم) تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ ، لذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ﴾ [عبس] فدخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

فإذا كان هناك تعقيبٌ بعد مدة زمنية ، فالحق يأتى بـ (ثم) وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدة يأتى الحق بـ (ف) .

﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) ﴾ [القيامة] اثنان فى الدنيا، واثنان فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾

أيظنّ الإنسانُ أن الله خلقه عبثاً ، وأنه سيتركه سُدىً بدون حساب ولا عقاب ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسانُ فى الدنيا مُحصى عليه ، وسيُسأل عنه يوم القيامة .

فلا يظن الإنسان أنه سيفلت من الله أو أنه سيهرب من عقابه فى الآخرة، أو أنه سيُترك سُدى . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم .

وكلُّ مخلوق لغاية فلا شيء يُخلق عبثاً ، والعبث هو الفعل الذى لا غايةَ له ولا فائدةَ منه ، كما تقول : فيما تعبث ؟ لمن يفعل فعلاً لا جدوى منه . وغير العبث نقول : الجد .

فنفى الحق سبحانه أنْ يكونَ الخَلْق عبثاً بلا غاية ، لأن الله خلق الخَلْق لغاية مرسومة ووضع لها منهجاً يحدد هذه الغاية ، ولا يضع المنهج للخلق إلا الخالق .

فقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة] أى هملاً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُكلَّف فى الدنيا ولا يُحاسب فى الآخرة .

وقد قال البعض : أيحسب الإنسانُ أنْ يُترك فى قبره كذلك أبداً لا يُبعث .

ولايحسب هذا إلا الكافر الذى لا يؤمن ببعثه مرة أخرى إلى الحياة بعد الموت ، ولا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ، ولا نار .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) ﴾

النطفة فى الأصل هى قطرة الماء العذب ، وكذلك هى خلاصة الخلاصة، لأن جسم الإنسان تحدث فيه عملية الاحتراق ، وعملية الأيض أى الهدم والبناء بصفة مستمرة ينتج عنها خروج الفضلات المختلفة من الجسم .

فالبول والغائط والعرق والدموع وصمغ الأذن ، كلها فضلات ناتجة عن احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتص الجسمُ خلاصةَ الغذاء وينقلها إلى الدم .

ومن هذه الخلاصة يُستخلص منىُّ الإنسان الذى تُؤخذ منه النطفة ، فهو خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ويتكوَّن الجنين .

وكأنَّ الخالقَ عز وجل قد صفَّاها هذه التصفية ونقَّاها كل هذا النقاء لأنها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان . فالله خلق آدم من طين ثم جعل نسله من هذه النطفة الحية التى وضعها فى حواء ، ثم أتى منها كل الخَلْق بعده ، فكأنَّ فى كل واحد منا ذرة من أبيه آدم ، فهذه الذرة موجودة فيك فى النطفة التى تلقيها ويأتى منها ولدك ، وهى أصفى شيء فيك .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ﴾ [القيامة]

وهى الحيوان المنوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رحم المرأة فتنتج العلقة ، فالقذفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الإنسان

ما يكفى خَلْق الملايين ، ولا يمكن للعين المجردة أنْ ترى الحيوان المنوى الواحد نظراً لدقته المتناهية .

وقد شاء الحق سبحانه ألاَّ ينفذ إلى بويضة المرأة إلا الحيوان المنوى الأقوى ، ليؤكد لنا أن لا بقاء إلاّ للأصلح ، فإنْ كان الحيوانُ المنوىَ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ، وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذكر جاء المولود ذكراً .

وهو ما يسميه العلماء (الإكس والإكس واى) فالحيوان المنوى يخرج من الرجل ، منه ما هو خاصّ بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وقد وصفه الحق سبحانه بالماء الدافق فقال ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) ﴾ [الطارق]

فـ ﴿ أَلَمْ يَكُ (٣٧) ﴾ [القيامة] هذا المنكر المكذّب لقدرة الله على إحيائه بعد موته ماءً قليلاً فى صُلْب الرجل (نطفة) هيِّنة يُمنيها الرجل فى موضع امرأته كالماء الذى ينزل منه عند التبول ، فهو بهذا الاعتبار ﴿ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) ﴾ [المرسلات] وإن كان منه الإنسان المكرَّم عند الله .

فالنطفة منىٌّ يُمنى فى الرحم ويُصبُّ ويُقذف ، وهذا فيه إشارة إلى حقارة حاله ، فهو مخلوق من المنى الذى جرى ونزل من مخرج البول وهو نجس ، فلا يليق بمثل هذا أنْ يتمرد على طاعة الله عز وجل .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] العلقة جاء اسمها من مهمتها حيث تتعلق بجدار الرحم كما أثبت العلم المعاصر ، يقول سبحانه ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً (١٤) ﴾ [المؤمنون]

ويقول العلماء : تتحول هذه النطفة إلى علقة بعد أربعين يوماً ، والعلماء يسمونها الزيجوت وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة وتبدأ فى أخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة] أى فقدَّر خَلْقه وسوَّاه وعدله ، وبنفخ الروح فيه وكمل أعضاءه وسوَّاها وجعله سميعاً وبصيراً ناطقاً ، وجعله مُستوياً معتدلَ القامة .

جعله إنساناً يمشى ويتحرك ويتكلم ويسمع ويبصر ويفكر بعد أنْ كان مجرد ماء جرى من أبيه لأمه وأصبح علقة تعلَّقت برحم أمه ثم مضغة ثم سوَّى الله أعضاءه فى رحم أمه ، ثم خرج إلى الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] كلمة (زوج) تعنى مفرداً معه مثله ، فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً ، والذكر والأنثى كلاهما من المنىِّ ، والجنس البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ، ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ، فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفةً ، ثم فى أمه جنيناً ، ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده .

فجعل سبحانه من الإنسان أولاداً ذكوراً وإناثاً ، و﴿ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] بدل من الزوجين ، والضمير فى ﴿ مِنْهُ (٣٩) ﴾ [القيامة] عائدة على ماء الرجل .

والمقصود بالزوجين الصنفين ، وإلاَّ فقد تحمل المرأة ذكراً فقط أو أنثى فقط أو ذكرين أو أنثيين أو ذكرين وأنثى ، أو أنثيين وذكر ، أو غير ذلك مما يقضى الله به.

ويقول الحق سبحانه :



السورة سورة القيامة ، ومدار الكلام فيها على إثبات البعث والقيامة، فقال من بدايتها ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) ﴾ [القيامة]

فهل يظن الإنسانُ أننا لن نجمع عظامه التى تفرقت وتفتتت ، ثم يذكر الحق سبحانه بعضَ أحداث يوم القيامة ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) ﴾ [القيامة]

فأنت أيها الإنسان المكذِّب الذى لا صدَّقْتَ ولا صليْتَ ستموت حتماً ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) ﴾ [القيامة]

وإياك أنْ تفكر أيها الإنسان أن الله خلقك عبثاً ، وأنه سيتركك سُدى بدون أمر أو نهى ، أو دون ثواب وعقاب .

ولا تترفع عن أمر ربك ، فما أنت إلا نطفة أمناها أبوك فى رحم أمك ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة]

ثم ختم الحق السورة بقوله : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة] والمنكرون للبعث يقولون ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠) ﴾ [القيامة]


سورة الإنسان

سورة الإنسان[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾

الحق سبحانه خلق الكون وعوالمه بكل مكوناته، وذكرها كلها فى القرآن لم يترك منها شيئاً، لذلك قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ (٣٨)﴾ [الأنعام]

وكما ذكر الله سبحانه الإنسان هنا وسُميت السورة بهذا الاسم، ذكر الجن وسُميت سورة باسم (الجن)، وذكر الملائكة فى سورة أخرى أُسميت (فاطر)، وقيل عنها: السورة التى يُذكر فيها الملائكة.

وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾[فاطر]

وكما ذكر الحق سبحانه هذه العوالم الثلاث ذكر الكون الذى سيعيش فيه الإنسان من أرض وسماء وجبال وأنهار، فذكر الله الشمس وخصَّص لها (سورة الشمس)، وذكر القمر وخصص له (سورة القمر)، وذكر النجم وخصص لها (سورة النجم).

وذكر الحق الإنسان فى سورة باسمه وكأنه يُحدِّثنا عن أصل الإنسان وبدايته وصولاً إلى مصيره، إنها تحدِّثنا عن ذلك المخلوق الذى خلقه الله

---

(١) سورة الإنسان وتسمى سورة الدهر لذكر الدهر فيها ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان] وهى سورة مدنية وقيل نزلت بمكة. وهى ٣١ آية والبعض يسميها سورة هل أتى. قال علم الدين السخاوى فى (جمال القراء وكمال الإقراء) (٤٩٣/١): ليس فيها منسوخ، نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات.

ليكون خليفة له في الأرض، وأسكنه في كون أعدَّه له.

فإذا كان الحق سبحانه هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدَّ له كلَّ هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدَّ سبحانه لخَلْقه الأرض والسماء والماء والهواء ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة.

فالإنسان قد طرأ على النعم ، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم ، بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أُعدَّ له إعداداً كاملاً ، وفيه كلّ مقومات الحياة ومقومات استمرارها.

وليس هناك تفرقة فى هذا بين مؤمن وغير مؤمن ، فغير المؤمن مخلوقٌ لله كالمؤمن بالضبط ، استدعاه الله إلى هذا الوجود ، وسبحانه قد أعدَّ له مكانه فى هذا العالم.

وقبل أنْ يخلق سبحانه الإنسانَ أعدّ له الكون الذى يعيش فيه الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم ، ثم جاء الإنسان إلى الكون ليجد كل شيء قد أُعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان . فلا الأرض إذا زُرعتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذى سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبَّى عليه.

فسبحانه قد خلق لنا السماوات والأرض من قبل أنْ يخلقنا وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرت إلى خلقك أنت لوجدت العالم الكبير قد انطوى فيك، وهو القائل سبحانه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٢١)﴾ [الذاريات]

والشيء الذى يجب أنْ يتأمله الإنسان جيداً ويتحققه أنه وهو فى بطن أمه وعند تكونه يجد أن الله قد أعدَّ له حياته الخاصة داخل رحم أمه ، فيهيء الله له حبلاً سُرياً يمده الله من خلاله بالغذاء من خلاصة ما تأكله أمه دماً به كل العناصر الغذائية ، لا يسعى لرزق ولا يمضغ

طعامـاً ولا يهضـم أكلاً ، بـل يسـتفيد ممـا تكـوَّن داخـل رحـم أمـه .

حتـى عندمـا يخـرج إلى الحيـاة يجـد مَنْ يسـتقبله ويرحـب بـه يجد عـالمـاً جديـداً قد أعدَّه الله لـه فهو طاريء على حياة أُعـدَّتْ له ، هذا مثل وجود الإنسـان على الأرض فقد أوجد الله الإنسـان على أرض قد أعدها للإنسـان قبـل إهباطـه إليهـا فهيـأ الله لـه ماء عذبـاً فى أنهـار تخترق الجبـال والوديـان حيث يوجد الإنسـان وهيَّأ له ثمراً وزرعـاً وعلَّمه كيف يستفيد مما حوله ، والله سـبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطـى الإنسـان بغير قـدرة منه ودون خضـوع له، والإنسـان عاجز عن أنْ يقـدم لنفسـه هـذه النعـم التـى يقدمهـا الحـق تعـالى لـه بـلا جهـد .

ونعمـة الله على الإنسـان التى يسـتحق عليها الحمد أنه سـبحانه جعل النعمـة تسـبق الوجـود الإنسـانى ، فعندمـا خلق الإنسـان كانـت النعمة موجـودة تسـتقبله .

بـل إن الله جـل جلاله قبـل أنْ يخلق آدم أبـا البشـر جميعاً سـبقته الجنة التـى عـاش فيهـا لا يتعب ولا يشـقى ، فقد خلق فوجد مـا يأكله وما يشربه ومـا يقيـم حياته ومـا يتمتـع بـه موجـوداً وجاهـزاً ومُعـداً قبـل الخَلْـق .

وحينمـا نـزل آدم وحـواء إلى الأرض كانـت النعمة قـد سبقتهما فوجدا مايأكلانـه ومـا يشربانـه ومـا يقيـم حياتهمـا ، ولـو أن النعمـة لم تسـبق الوجـود الإنسـانى وخُلقت بعده لهلك الإنسـان وهـو ينتظـر مجـيء النعمـة .

وُجـد الكـون قبـل أنْ يوجـد الإنسـان ، وُجـد قبـل أنْ يكون الإنسـان شـيئاً مذكـوراً ، لذلك يسـأل الله السـؤال وهو يعلم سـبحانه أنه لن يسـع الإنسـان سـواء كان مؤمنـاً أو كـافـراً إلا أنْ يجيـب بنعم ، نعـم أتى على الإنسـان حـينٌ مـن الدهـر لم يكـن شـيئاً مذكـوراً .

والحق سـبحانه لم يقل : هل أتى على الإنسـان حينٌ من الدهر لم يكن شـيئاً . وسـكت . بل أضـاف سـبحانه كلمة (مذكوراً) لأن الإنسـان كان

شيئاً ولكنه كان شيئاً لا قيمة له ولا وزن ، كان طيناً ماء وتراباً .

والحق سبحانه وإنْ كان قد خلق الإنسان الأول آدم من ماء وتراب الذى أصبح طيناً فإنه جعله سلالة من ماء مهين ، وقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧)﴾ [السجدة] فبدء خلق الإنسان كان من الطين ، ولكن لا يُعقل أَنْ يخلق كل أفراد الإنسان من الطين ، لذلك جعله الله نسلاً وصهراً يتناسل ويتكاثر .

لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)﴾ [السجدة] والسلالة هى خلاصة الشيء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذى نتج عنه رجال ونساء، فالسلالة هى أجود مافى الشيء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه وهى زبد الطين .

فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطت عليها بين أصابعك يتفلت منها الزبد وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

والله جعل الإنسان سلالة من نطفة تُصفَّى من الرجل والمرأة ، فتكون علقة من سلالة منتقاة من منى يُمنى ، من ماء هيِّن يقذفه الرجل من عضوه ليُفرغه فى عضو زوجته ، فكيف يتكبَّر مثل هذا ؟

والبعض يسوق كلمة (الإنسان) هنا ليس عن جنس الإنسان ونوعه بل عن آدم عليه السلام نفسه ، فمعنى ﴿ هَلْ أَتَى (١)﴾ أى قد أتى ﴿ عَلَى الْإِنْسَانِ (١)﴾ [الإنسان] أى آدم عليه السلام ﴿ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ (١)﴾ [الإنسان] أى مدة أربعين سنة وهو من طين مُلقى .

فعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «لما صوَّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أنْ يتركه فجعل إبليس يطوف به وينظر إليه ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلْق لا يتمالك» .(١)

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى (٢١٣٦) وأحمد فى مسنده (١٢٥٣٩) والحاكم فى مستدركه (١٠٥) وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبى . من حديث أنس بن مالك .

والبعض روى أن آدم بقى أربعين سنة طيناً ، ثم أربعين سنة حمأً مسنوناً ، ثم أربعين سنة صلصالاً كالفخار ، فتمّ خلقه بعد مائة وعشرين سنة .

لقد بقى مائة وعشرين سنة لم يكُنْ شيئاً مذكوراً أى لا يُذكر ولا يُعرف ولا يُدرى ما اسمه ولا ما يُراد به . ولكن الله هو وحده الذى يعلم ما يراد بما خلقه وما هو، لذلك سمَّاه (الإنسان).

ويلفت نظرنا هنا كلمة (الدهر) والدهر الزمن الطويل ، وهذا يدل على أن آدم بقى فى طينته زمناً طويلاً يصل فعلاً لمائة وعشرين سنة.

وهذه السورة فى أحد تسمياتها (الدهر) ، وفى بعض تسمياتها سورة (هل أتى) . وهو لم يكن شيئاً مذكوراً لا فى السماء ولا فى الأرض ، فقد كان جسداً مُلقى من طين قبل أنْ يُنفخ فيه الروح.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ ﴾

إذا تحدَّث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تعالى يقول :(إنَّا) ففى الفعل الذى يفعله الله يأتى بنون العظمة حتى نفهم أن الفعل من الله تعالى ليس وليد قدرته وحدها ولا علمه وحده، ولا حكمته وحدها ، ولا رحمته وحدها ، وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله.

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله لأنك قد تقدر ولا تعلم وقد تعلم ولا تقدر وقد تعلم وتغيب عنك الحكمة . إذن : فتكامل الصفات مطلوب .

فكل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهارية ورحمانية .

وقد عظّم الحق سبحانه نفسه لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون، فهو سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشيء، فيأتى بنون التعظيم فيقول تعالى (إنَّا).

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فالله خلق الإنسان الذى هو ولد آدم من نطفة أى منىّ الرجل ومنى المرأة يختلطان ببعضهما، فقال تعالى (أمشاج) أى أخلاط، يختلطان فى رحم المرأة.

فماء الرجل غليظ أبيض، فمنه العصب والعظم والقوة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فمنها اللحم والدم والشعر والظفر فيختلطان.

وقد ذهب البعض إلى أن الأمشاج هى العروق التى تكون فى النطفة، والمشج أيضاً المزج فقد امتزج الماءان فتكون منهما العلقة وينتقل من طوْر إلى طوْر، ومن حال إلى حال، ومن لون إلى لون.

ونحن إنما خلقنا الإنسان من نطفة اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد إذا شبَّ وبلغ الحلم.

وربما كانت (أمشاج) إشارة إلى تكوُّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الجينات الكامنة فى النطفة وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً، ولصفات الجنين العائلية أخيراً.

فهذه الصفات الوراثية والجينات المختلطة هى التى تأتى بهذا الإنسان الذى تتماير أخلاقه وتصرفاته وطرق وأساليب تفكيره وتختلط ردود أفعاله بين الحزن والفرح، بين الضحك والبكاء، بين التعقل والجنون.

وإذا كان الحق سبحانه بدأ الآية بالأمر المادى من خلق الإنسان

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ(٢)﴾ [الإنسان] وهذا الأمر المادى المحسُّ، نطفة رجل مع ماء امرأة يلتقيان ويختلطان ويصبحان مشيجاً أو مزيجاً ينتقل من حالة إلى حالة إلى أن يصبح إنساناً.

ولكن الحق سبحانه قال بعدها ﴿ نَّبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] فنقلنا الحق سبحانه من الأمر المادى للخلق إلى الأمر المعنوى وهو الابتلاء أى الاختبار، فالحق سبحانه لم يخلق الإنسان عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية، ولكنه خلق الإنسان ليُبتلى ويُمتحن ويُختبر.

فـ ﴿ نَّبْتَلِيهِ (٢)﴾ [الإنسان] حال مقدرة أى مريدين ابتلاءه حين تأهُّله، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان] فلأننا سنبتليه ونختبره ونمتحنه فإننا جعلناه سميعاً بصيراً، فابتلاؤه يأتى بعد إعطاء الإنسان وسائل الإدراك التى يدرك بها المُحسَّات، وأهم تلك الوسائل الإدراكية السمع والبصر.

الحق سبحانه يتفضل على هذا الإنسان الذى كان تراباً مخلوطاً بماء فأصبح طيناً وظل حيناً طويلاً لم يكُنْ شيئاً مذكوراً، فتفضل الله على هذا المخلوق الجديد بأنْ أسبغ عليه صفاتاً من صفاته فجعله ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)﴾ [الإنسان]

فلولا أن الله شاء أن يجعله سميعاً بصيراً لظلَّ فى طينته أصمَّ أعمى، فلا يحس ولا يدرك أى شيء حوله، فيكون كأنْ لم يكُنْ ولا يصبح شيئاً.

وبجعله آدم سميعاً بصيراً علَّمه الأسماء كلها وجعل له منه إنساناً آخر سميعاً بصيراً أيضاً هو حواء أدرك وجودها وأدركتْ وجوده، كان منهما البشر جميعاً وجنس الإنسان كله، إنها حكاية الإنسان الذى لم يكُنْ شيئاً مذكوراً.

ومن السمع والبصر تتكون المعلومات فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ووسائل الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه القائل ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

كلٌ من الأذن والعين وسيلة إدراك، والجوارح كلها وسائل إدراك ، وكل إنسان له ملكات متعددة منها ملكات إدراكية وملكات نفسية .

والملكات الإدراكية هى التى تُدرك بها الأشياء مثل السمع والبصر والشم والذوق ، وكلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ثم تصبح عقائد .

فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان .

والله خلق الإنسان وجعله سميعاً بصيراً ولم يتركه يعتمد على نفسه يهتدى أو لا يهتدى ، يؤمن أو يكفر ، يعرف ربه أو لا يعرفه ، بل يقول الحق سبحانه بعدها :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾

السبيل : الطريق وهو الصراط ، وسبيل الله المستقيم هو عبادة الله الحق وحده ، والحق سبحانه يدل الناس على الطريق المستقيم فيقول: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

وما دام هناك طريق لغاية ما فلا بد أنْ نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق

الموصِّل إلى تلك الغاية .

وسبيل الله هو الطريق المستقيم ، فالطريق المعوج يطيل المسافة،فيطيل على نفسه السبيل ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط للوصول للغاية .

وكلمة (السبيل) و (الطريق) كلها أمور حسية ، على المعانى العقدية المعنوية يوضحها سبحانه بأمور حسِّية أمامنا .

وعندما توجد فى مفترق طريق وتريد أنْ تصل إلى المنطقة الفلانية فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وبعدت المسافة .

وليس للحق إلا سبيل واحد ، ومَنْ يخرج عن هذا السبيل ﴿ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى وَنُصْلِه جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء] لذلك كان الضلال هو أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غير موصِّل للغاية ، فيبتعد عن الغاية ، وذلك هو الضلال البعيد.

والهداية هنا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ (٣)﴾ [الإنسان] أى الدلالة على السبيل الموصِّل إلى الجنة وليست هداية التوفيق والإعانة ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان]

الله أنعم علينا بإيجادنا من العدم وأعدَّ لنا الكون لاستقبالنا وهيَّأ لنا الرزق وأسبابه ولا حيلة لنا فيه ، وهذا إنما يستحق الشكر منا .

ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يحددها بكلمتين لكان من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير ، فهم عاجزون أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم .

عطاء الله سبحانه ومنعه العطاء يستوجبان الحمد ، ووجود الله سبحانه الواجب الوجود يستوجب الحمد ، فالله يستحق الحمد لذاته .

وشُكْر الله يُذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب ، والشكر إنما يؤديه العبد على نعمة التمحيص والتعليم ، ولقد تعلَّم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على النعم .

والحق سبحانه ربط بين الشكر والإيمان فقال : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (١٤٧)﴾ [النساء] ، فلماذا وضع الله الشكر مع الإيمان ؟

لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر هو إسداء ثناء إلى المنعم ممَّنْ نالته نعمته فتوجيه الشكر يعنى أنْ تقول لمن أسدى لك معروفاً «كثر خيرك» وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

فالحق سبحانه يدل الإنسان على الطريق المستقيم ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان] فإنْ آمن الإنسان بأن الله يدلُّه على طريق الحق والخير فآمن بكتبه ورسله يكون قد شكر نعمة الله عليه .

والشكر يكون أولاً ثم يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالي، والإيمان عرفان تفصيلي ، والشكر متعلق بالنعمة والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة ، ولابد أنْ يشكر الإنسانُ واهب النعمة .

لو فطن الناسُ لشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم للجنة .

وقد ذكر الحق سبحانه الكفر مقابلاً للشكر ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم]

وشاء سبحانه أنْ يترك الشكر للبشر على تلك النعم ولم يسخرهم شاكرين ، وقد وصف الحق سبحانه أحد هؤلاء الشاكرين نوحاً عليه السلام، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة فى الشكر فلم يقل شاكر، لأن الشاكر الذى يشكر مرة واحدة، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه.

وكما هو فى الناس مَنْ هو شكور، ففى الناس مَنْ هو كفور، ليس كافراً فحسب بل (كفور) وهى صيغة مبالغة من الكفر لأنه كفر وعمل على تكفير غيره، وهو كثير الكفر للنعمة.

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

لقد أعددنا وهيَّأنا، فالمسألة موجودة وقد أُعدت فالجنة مُعدَّة وموجودة، ورسول الله ﷺ حينما يتكلم عن الجنة يقول: «عُرضت علىَّ الجنة، لو مددتُ يدى لتناولتُ من قطوفها».[1]

فالمسألة جاهزة وليست تحت الإعداد، ومن الذى أعد؟ إنه الله قوة القوى وقدرة القُدَر هى التى تُعد، وسبحانه يعدها على قدر سعة قدرته.

ويقول تعالى فى آية أخرى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا (٢٩)﴾ [الكهف] فالمسألة منتهية مسبقاً، فالجنة والنار مخلوقتان فعلاً ومُعدَّتان ومُجهزتان، لا أنهما ستُعد فى المستقبل.

وقد أُعدَّت إعداد قادر حكيم، فأعدَّ الله الجنة لتسع كل الخلق إنْ آمنوا، وأعدَّ النار لتسع كل الخلق إنْ كفروا. فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض فالذى آمن وفَّر مكانه فى النار، والذى كفر وفَّر مكانه فى الجنة.

والحق يذكر هنا تفاصيل ما أعدَّ للكافرين فقال ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان] ثلاثة أشياء ضمن أشياء كثيرة أعدَّها الله عذاباً للذين كفروا وللظالمين: السلاسل، الأغلال، السعير.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٨٦١) وأحمد فى مسنده (٦٤٨٣، ٦٧٦٣، ٢١٢٥٠) من حديث طويل عن جابر بن عبد الله وفيه ألفاظ كثيرة: «لقد عُرضت علىَّ الجنة حتى لو شئت لتعاطيت من قطوفها» ويقول: «لقد عرضت علىَّ الجنة حتى لو أشاء لتعاطيت بعض أغصانها».

فيُوثقون بالسلاسل فى الجحيم ، وتُغلّ أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال، فهم يُقادون إلى جهنم والسلاسل فى أيديهم ، ولكنهم يُقيَّدون بالأغلال فى مستقرهم فى جهنم.

والسلاسل جمع سلسلة وهى حلقات حديدية متصلة ببعضها ، والأغلال جمع غُلّ ، وهو الحديدة التى تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة ، فهى أطواق الحديد التى لها طرف فى كل يد ليقيدها ، وطرف آخر مُعلَّق فى الرقبة ليقلل مساحة حركة اليدين لمزيد من الإذلال.

وهناك الأصفاد ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)﴾ [إبراهيم] والأصفاد جمع صفد وهو القيد الذى يُوضع فى الرِّجْل وهو مثل الخلخال ، فيُقيَّدون فى الأصفاد أى من أرجلهم ، هناك من يُقيَّد بالأغلال أي توضع أيديهم فى سلاسل وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

قيود وسلاسل وأصفاد وأغلال ، وهم فى السعير النار المستعرة الموقدة عليهم . والسعير اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما يُلقى فيها .

ثم يذكر الحق سبحانه الصنف المقابل لهؤلاء الكافرين وهم المؤمنون بالله وكتابه ورسوله ووصفهم يالأبرار وذكر ما أعدَّه لهم، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ ﴾

والأبرار يقابلهم الفُجَّار ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار] ، فكما جاء بمقابل الأشقياء لا بد أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعدوا بالإيمان ، فجمْع المتقابلين يزيد من فرحة المؤمن ، ويزيد من حسرة الكافر .

والأبرار هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم المطيعون لربهم ، واحدهم بارّ وبَرّ ، وهم الأنبياء والصالحون ، وهم الذين برُّوا الله

بـأداء فرائضـهم واجتنـاب محارمـه .

ثـواب هؤلاء الأبـرار المتقين أنهـم يشربون شراباً فـى كؤوس ﴿ كَانَ مِزَاجُهَـا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسـان] وهو اسـم عين فـى الجنة ، فهـذا الشراب فى الكأس يمازجـه ماء هـذه العين التـى تسـمى كافوراً ، وليس فى الجنة مـن الدنيـا إلا الأسـماء . وحتـى لـو كان كافـوراً حقيقياً فليس ككافور الدنيـا ، بـل هـو كافـور لذيـذ لا ككافـور الدنيـا .

والكأس إنـاء بما فيه من الشراب ، لذلك ذكر الكأس وذكر مزاجها ولم يذكر ما فيها من شراب ، فقال تعالى : ﴿ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسـان] وسـيأتى فيمـا بعـد قولـه تعـالى : ﴿وَيُسْقَـوْنَ فِيهَا كَأْسًـا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيـلًا (١٧)﴾ [الإنسـان] وكل كأس ذُكر فى القـرآن هى كأس خمر إنما خمـر لا تستنزف العقـول ولا تغيبهـا ليس فيهـا أضـرار خمـر الدنيـا إنما هي ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصـافات] وتكون إما بـاردة كالكافور أو لاذعـة فيهـا لذعـة الزنجبيـل .

ولا يُطلـق علـى الكأس كأسـاً إلا وهـى مملـوءة بالشراب ، وإلا فهى زجاجـة أو كـوب أو إبريـق ، ثـم يقـول الحـق سـبحـانه :

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) ﴾

البعض قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا (٦)﴾ [الإنسـان] أى يشرب منها عباد الله إذ لا يُشرب بالعين وإنما يُشرب منها . فعين الكافـور يشرب بها أولياء الله تعـالى فـى الجنـة .

وفـى سـورة المطففـين يقـول تعـالى : ﴿عَيْنًا يَشْـرَبُ بِهَـا الْمُقَرَّبُونَ(٢٨)﴾ [المطففـين] يقولـون أى منها ، ولكنَ فى هـذه الكلمة (بهـا) سراً فقد كان يسـع الحـق سـبحـانه أنْ يقـول : يشـرب منهـا .

ونجـد أن الحـق سـبحـانه يقول فى آية سـابقة ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ (٥)﴾ [الإنسـان]

أمـا عند ذكـر العين فقـال: ﴿يَشْرَبُ بِهَا (٦)﴾ [الإنسـان] أى يشـرب الخمر ممزوجـةً بالكافـور رائحتـه أو مـادتـه ، والبعضـ اعتبر البـاء زائدة فى (بهـا) فقـال: يشـربهـا.

والحـق سبحـانه عبَّر عمـن يشرب من هذه العين التـى مزاجها كافوراً أنهـم ﴿عِبَادُ اللَّهِ (٦)﴾ [الإنسان] فمَـنْ هـم عبـاد الله ؟

عبـاد الله هـم مَـنْ تخلـوا عـن اختيـاراتهم إلى مـرادات الله سبحـانه ، فهـم الذيـن يتنـازلـون عـن منطقـة الاختيـار لمـراد الله فـى التكليـف.

لذلـك يفرِّق الله سبحانه بـين العباد والعبيد ، فيقول سبحانه: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)﴾ [الفرقان]

هكـذا نـرى أن الله أعطـى أوصـاف المؤمنـين وسمـاهم عبـاداً، لكـن عندمـا يتحـدث عـن البشر جميعـاً يقول عبيد ، وهنـاك فـرق بين «عبيد» و«عبـاد» ، فـالعبيـد هـم المرغمـون علـى القهـر فـى أى لـون مـن ألوان حياتهـم ولا يستطيعون أنْ يدخلـوا اختيارهـم فيمـا يُجريـه الله عليهـم قهـراً.

أمـا العبـاد فهـم الذين يأتـون إلى مـا فيـه اختيـار لهـم ويقولـون : لقد نزعنـا من أنفسـنا صـفة الاختيار هـذه ورضـينا بمـا تأمرنـا وتنهانـا.

إذن فالعبيـد مقهـورون بما يُجريـه عليهم الحق بما يريـد ، والعباد هم الذين يرضـون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضـاه ، إنهم أسلموا الوجـه لله فهـم مقهورون بالاختيـار ، أما العبيـد فمقهـورون بالإجبـار.

هؤلاء الذيـن يشربون من عين مزاجها كافور ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)﴾ [الإنسـان] جملة ﴿يُفَجِّرُونَهَا (٦)﴾ [الإنسان] حال تعبر عن ما يفعله الشـاربون فى هـذه العـين ، فإنهم يفجرونها تفجيراً سـهلاً حيث شـاؤوا من منازلهم لا

يصعب عليهم فهم يُجرونها حيث شاؤوا إجراءً سهلاً لا يمتنع عليهم ، وفي بعض الآثار[1] أن هذه العين في دار رسول الله ﷺ تفجَّر إلى دور الأنبياء.

ويصف الحق سبحانه عباد الله فيقول :

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾

النذر هو أنْ تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله ، فإذا نذرت أن تصلي لله كل ليلة عدداً من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله ، لأن الله قد شرع الصلاة وفرضها خمسة فروض ، فإنْ نذرت فوق ما فرضه الله فهذا هو النذر.

ويقال في الذي ينذر شيئاً من جنس ما شرع الله فوق ما فرضه الله، إن هذا دليل على أن العبادة قد حلَتْ له فأحبها وعشقها ، ودليل على أنه قارب أنْ يعرف قدْر ربه ، وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه .

فكأنَّ الله في افتراضه كان رحيماً بنا لأنه لو فرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أنْ يفي بحقِّ الله ، إذن فعندما تنذر أيها العبد المؤمن نذراً فإنك تلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله لك فوق فوق ما فرض الله عليك .

وأنت مخيَّر أنْ تقبل على نذر ما أو لا تقبل ، لكن إنْ نطقت بنذر فقد لزم، لماذا؟ لأنك ألزمتَ نفسك به .

وأهل القرب من الله يقولون لمن يُخلّ بالنذر بعد أن نذر : هل جربْتَ ربك فلم تجده أهلاً لاستمرار الود ، وليس فينا مَنْ يجرؤ على ذلك لأن الله أهلٌ لعميق الود ، ولهذا فمن الأفضل أنْ يتريث الإنسان قبل أنْ ينذر شيئاً .

---

(١) أورده الثعلبي في تفسيره (١٠/١٠١) وابن عطية الأندلسي في (المحرر الوجيز من تفسير الكتاب العزيز (٥/٤١٠) الثعلبي ذكره من قول قتادة بن مهران.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾ [الإنسان] أى يتمون وينفذون نذورهم التى نذروها وألزموا أنفسهم بها، فلا بد أنْ يُوفوا بما أوجبوه على أنفسهم.

وصيغة النذر أنْ يقول: لله علىَّ كذا وكذا من صدقة أو صلاة أو صوم أو حج أو عمرة، يعلِّق ذلك بأمر يلتمسه من الله، وذلك بأن يقول: إن شفى الله مريضى أو قدم غائبى كان لله علىَّ كذا.

ولكن لو نذر فى معصية فلا يجب الوفاء به، وقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أنْ يطيع الله فليفِ بنذره، ومَنْ نذر أنْ يعصى الله فلا يفِ به».[1]

ولوجوب الوفاء بالنذر لا بد أنْ يقضيه الرجل عن أبيه أو أمه المتوفاة، فعن ابن عباس قال: «استفتى سعد بن عبادة رسول الله ﷺ فى نذر على أمه فتوفيت قبل أنْ تقضيه فأمره أنْ يقضيه عنها».[2] فعباد الله ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ (٧)﴾، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان]

واليوم المقصود هنا هو اليوم الآخر، والمؤمنون عباد الله يخافون هذا اليوم لعظيم يقينهم أنه آتٍ لا ريب فيه، والحق سبحانه كما ذكر خوف وإشفاق الذين كفروا من اليوم الآخر ذكر أيضاً خوف الذين آمنوا.

الفارق أن الذين آمنوا يشفقون من يوم القيامة وهم فى الدنيا يعملون الصالحات يخافون أنْ لا تقبل أعمالهم ولا توبتهم من ذنوبهم، أما الذين كفروا فاليوم الآخر ليس فى بالهم، ولذلك عندما يعاينون العذاب وأنه حَقٌّ يصيبهم الهلع والخوف والرعب.

يقول تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (٢٢)﴾ [الشورى]

وهذا عندما عاينوا العذاب بأعينهم، أما المؤمنون فهم مشفقون فى

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله عز وجل فلا يعصه». وكذا أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢١٢٦)

(٢) أخرجه احمد فى مسنده (٣٠٠٦) وابو عوانة فى مستخرجه (٥٨٣١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٢٧٥، ٥٣٧٢) وأبو يعلى فى مسنده (٢٣٨٣) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٥٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٣٨) من حديث عائشة.

الدنيا ، قال الحق سبحانه : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) ﴾ [الطور] إنهم يخافون يوماً ﴿ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) ﴾ [الإنسان] إنه شرٌّ فاشٍ منتشر كالحريق حين ينتشر وكضوء النهار عندما يستطير وينتشر ضوؤه في جو السماء .

وقد قال رسول الله ﷺ : «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» .[1] فالفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو في الأفق فيرتفع مستطيلاً ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشراً في الأفق مستطيراً .

وهو يوم يستطير خوفه في أهل السماوات والأرض ، واستطار في السماوات فانشقت وتناثرت كواكبه وفزعت الملائكة وكوِّرتْ الشمس والقمر وفي الأرض فتشققتْ الجبال وغارت المياه وكسر كل شيء على الأرض من جبل وبناء وشجر.

فاستطار شرُّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض ، وهم لم يكونوا يوفون بالنذر ويؤدونه وافياً كاملاً غير ناقص بل كانوا:

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴾

فعباد الله بجانب الوفاء بالنذر على أتم وجه وأكمله يطعمون الطعام ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ (٨) ﴾ [الإنسان] رغم حب الإنسان لطعامه وماله ورزقه الذى اكتسبه بعرقه وكَدِّه ، ولكنه ينفقه ابتغاءَ مرضاة الله .

وقد وصف الحق سبحانه البر ، فقال : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠١٥٨) من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق» وأخرجه أبو عوانة في مستخرجه (١١٠٧) باللفظ الذى أورده الشيخ .

وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ..(١٧٧)﴾ [البقرة]

فليس البر أنْ تختلفوا حول تغيير القبلة ولا تجعلوا مسألة التوجه إلى الكعبة أو إلى بيت المقدس أو المشرق هو المشكلة ، ولكن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

وهذه أمور عقدية ، ثم يُتبع الحق سبحانه هذا بأمر عملي يمسُّ حياة الناس والمجتمع الذي يعيشون فيه ، وهو ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ (١٧٧)﴾ [البقرة]

وإعطاء المال هو الإنفاق بصور شتى قد يكون صدقة أو زكاة أو قرضاً حسناً ، وكلمة (على حبه) يمكن أنْ نفهمها على أكثر من معنى .

يمكننا أن نفهمها على أنه يعطي المال وهو يحب المال ، ويحتمل أن نفهمها على أنه يؤتي المال لأنه يحب أن يعطي مما يحبه من المال عملاً بقول الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

ويمكن أن تصعَّد المعنى فيصير : وآتى المال على حب الإيتاء أي يحب الإعطاء وترتاح نفسه له ، ويقول الحق سبحانه أيضاً : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢)﴾ [آل عمران]

وهم يُطعمون المسكين واليتيم والأسير ، ثلاثة أصناف نصَّ عليهم الحق سبحانه اهتماماً بهم ، لأنهم الأضعف والأكثر احتياجاً للإطعام والمساعدة .

أما المسكين فليس هو الذي لا يملك شيئاً على الإطلاق ليقيم به حياته ، فالحق سبحانه يقول : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ (٧٩)﴾ [الكهف] فعرفنا أن المسكين قد يملك ولكنه لا يملك ما يكفيه .

وقد شاء الحق سبحانه أنْ يجعل للفقير نصيباً من البر وللمسكين أيضاً نصيباً كالآخر ، فكلٌّ من المسكين والفقير يستحق من مال الله .

فكلمة (مسكيناً) هنا تشمل الفقير أيضاً والمحتاج أياً كان ، ومنهم

عابـر السـبيل أيضـاً فإنه غريـب لا يملك ما يقوته ويقوم بـه ، فقد يكون ابـن السـبيل ذا مال فـى مكانه إلا أن الطريـق قد قطعه عـن ماله وباعد بينـه وبـين مـا يملـك ، أو يكـون ذا مـال وسُرق منـه مالـه .

فهـو بمثابـة المسكين والفقـير ويسـتحق مـا يسـتحقانه مـن الإطعام وغـيره، وإيـاك أنْ تقـول : مـا دخلـى أنـا بـالمسـكين ؟ عليـك أن تعلم أن المسـكنة عرض ، والعرض من الممكـن أنْ يلحق بك أنت ، فـلا تقدِّر أنك مُعـطٍ دائمـاً ، ولكن قدِّر أنك ربما حدث لـك ما يجعلك تـأخـذ لا أنْ تعطـي .

والإنسـان الضـعيف ضـعفاً طبيعيـاً وليس ضـعف التوسـل أو الكسـل أو الاحـتراف بل ضـعف عدم القدرة علـى العمل هو مسـئولية المؤمنين ، فسـبحـانه وتعالى يجعل القوى مسـئولاً أنْ يسـاعدك وأنت ضـعيف .

وهـم أيضـاً يطعمـون اليتيم ، واليتيم الـذى فقد أبـاه ، فقد مَنْ يعوله ومَنْ يسـعى لأجله ويدافع عنـه ، واليتيـم يكون منكسراً لأنـه فقد والده فأصـبح لا نصـير له .

فـإذا رأيتَ فى المجتمع الإسـلامى أن كل يتيـم يرعاه رعاية الأب كل رجـال المجتمـع ، فذلـك يجعل الأب لا يخشـى أنْ يترك ابنه بعد وفاتـه .

فرعايـة المجتمع لليتيم تضـمن أولاً حمايـة حقه ، لأنه إذا كان يتيماً ولـه مـال فـإن الناس كلهـم يطعمون فـى ماله لأنه لا يقـدر أنْ يحميه ، والثـانيـة أن هـذا التكافـل يُذهـب الحقد مـن المجتمع ويجعل كلَّ إنسـان مطمئنـاً علـى أولاده .

واليتيـم لا يكـون لـه وصـى إلا إذا كان عنـده مـال ، فيكـون هنـاك وصـىٌّ لإدارة أمـور اليتيـم ، لذلك جاء الحـق بـالأمر بإعطـاء المال على حبـه لليتامـى ولم يقـل : لـذوى اليتامـى .

فربمـا كان هنـاك يتيـم ضـاع لا يتقدم أحـد للوصـاية عليـه ، وليس عنـده ما يسـتحق الوصـاية ، لذلـك فعلينـا أنْ نؤتـى اليتيـم من مـال الله

حتى ندخل فى صفات البر ، أو نعطى للوصى على اليتيم لينفق عليه إنْ كان له وصىٌّ .

والمسألة فى اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ولكنه فى حاجة إلى أنْ نعوضه بالتكافل الإيمانى عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم ، وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذى يعوضه حنان الأب ولا يعانى من نظرة الأسى التى ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك تخلع منه الحقد .

أطعم اليتيم وأدِّ الأمانة ولا تأكل ماله فى بطنك ، فمَنْ يأكل مال اليتيم فإنما يحشو بطنه ناراً فهو يأكل ما يؤدى به إلى النار .

وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا ، فيُصاب آكل اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون الذين أكلوا مال اليتيم وعليهم سمات أكل مال اليتيم ، فالدخان يخرج من أفواههم .

والذين يخافون أنْ يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافاً عليهم بالإحسان إلى اليتيم ، فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكرم فى بيئة أبوية إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أنْ يموت ويترك ولداً صغيراً .

بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ولا يؤرِّق نفسه . لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

لأنك إنْ رأيت المجتمع الإيمانى قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك إنْ جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به .

لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيَّعاً فهو يعضّ على أسباب الحياة

ويريد أنْ يأتى بالدنيا كلها لولده ، فاعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له فى يد الله ، فالذى خلق آمنُ من المخلوق .

ثم يذكر الحق سبحانه الأسير ضمن مَنْ يوصى بإطعامهم ، فقال تعالى ﴿ وَأَسِيرًا(٨) ﴾ [الإنسان]

أنت قيَّدتَ حركة الأسير ، وأسره كان نتيجة حرب وقعت اقتضتْ الالتقاء والالتحام ويكون كل واحد منهم يريد أنْ يقتل عدوه ، فكأنَّ الله أراد أنْ يحمى القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال استأسروهم لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل ولكن خذوهم أسرى .

وفى هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية ، وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة لأنه لو لم يكن الأَسْر مباحاً لكان لا بد إذا التقى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر . لذلك يقال خذه أسيراً إلا إذا كان وجوده خطرا على حياتك .

فمَنْ ينتقد الإسلام فى أمر الأسير عليه أنْ يعلم أنَّ الذى أسرته فى المعركة قد قدرت عليه وتمكنت منه وإنْ شئت قتلته ، فحين يتدخل الشرع ويجعل الأسير ملكاً لك فإنما يحقن دمه أولاً ثم الانتفاع به ثانيا ، إما بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأن يخدمك بنفسه .

الله سبحانه جعلك تحقن دمه لا أنْ تذله ، واقرأ قول النبى ﷺ: «إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليطعمه مما يطعم ، وليُلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإنْ كلَّفه فليُعنه»[(١)].

فأىّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتقه وحريته ، فإنْ كان للرق فى الإسلام باب واحد،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠، ٢٥٤٥) ومسلم (١٦٦١) وكذا أحمد فى مسنده (٢١٤٣٢) والبيهقى فى الآداب (٥٢).

فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾

لم يقل المطعمون ذلك حينما أطعموا المسكين واليتيم والأسير إنما علم الله من قلوبهم هذا فأثنى به عليهم ، علم إخلاص قلوبهم لله عز وجل ، فمدح ما عليه قلوبهم وحسن توجههم وبما علم من نياتهم ، فذكر ما أتوا به .

وهم أطعموا مَنْ أطعموا ويعلمون أن مَنْ أطعموهم لا يملكون لهم جزاء ولا شكوراً ، فلن يستطيعوا ردَّ ما فعلوه .

وقد قيل إن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) ﴾ [الإنسان] إنما نزلت فى رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح صام يوماً ، فلما كان وقت الإفطار جاءه مسكين ويتيم وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة وبقى له ولأهله رغيف واحد .

والإطعام يكون لوجه الله أى رغبةً فى رضا الله ، لذلك نحن نضع الإخلاص أولاً فى كل عمل ، وقد يكون العمل واحداً أمام الناس، هذا يأخذ ثواباً وذلك يأخذ به وزراً وعذاباً ، فالمهم أن يكون العمل خالصاً لله .

قد يقول إنسان : الإخلاص مكانه القلب ، وما دام الإنسان لا يؤذى أحداً ولا يفعل منكراً فليس من الضرورى أنْ يصلى ما دامت النية خالصة نقول : إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات .

ورسول الله ﷺ يقول «إنما الأعمال بالنيات»[1] فلا بد من عمل بعد النية ، لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس ، فإذا كان

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) والبيهقى فى سننه (١٨١, ١٠٣١) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) من حديث عمر بن الخطاب.

فـى نيتـك أنْ تتصـدق وتصـدقت انتفـع الفقـراء بمـالـك .

ولكـن إذا لم يكـن فى نيتك فعـل الخير وفعلته لتحصـل على سـمعة أو لترضـى بشـراً انتفع الفقـراء بمالك ، ولن تنتفـع أنت بثواب هذا المـال .

والله سـبحانه وتعالى يريد أنْ يقترن عملـك بنية الإخلاص لله والعمل حركة فـى الحيـاة ، والنيـة هى التى تعطـى الثـواب لصـاحبه أو تمنـع عنـه الثـواب .

ومعنى الإخلاص تصـفية أى شيء من الشـوائب التى فيه والشوائب فى العقائـد والأعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، فالإخلاص عمليـة قلبيـة .

والإنسـان مهمـا تحـرَّى الإخلاص فـى عملـه وقصـد بـه وجه الله لا يأمـن أنْ يخالطـه شـيء من ريـاء أو سـمعة ، حتى أن المعصـوم محمداً ﷺ ليقـول: «اللهـم إنِّى أسـتغفرك من كل عمل أردت به وجهـك فخالطنى فيـه مـا ليس لـك».[1]

فالعمل الإيمانى ما كانَ لله خالصاً وعلى قدر الإخلاص يكون الجزاء.
﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] والمجازاة هـى المكافأة لما أُسـدى إليـه . والشكر هو الثناء عليه . فـلا نريد منكم مكافـأة فى الدنيا ولا ثوابـاً فـى الآخـرة .

والشـكور مصـدر كالقعود والدخول والخـروج ، فمعنى ﴿ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان] أى لا نطلب منكـم مجـازاة تكافئونـا بهـا ، ولا أنْ تشـكرونا عنـد النـاس .

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

فهـم يُطعمون المسـكين واليتيم والأسـير ابتغاء وجه الله لا لشـيء من

---

(١) عن ابن عمر قال : كان رسول الله كثيرا ما يقول لنا : معاشر أصحابى ما يمنعكم أن تكفروا ذنوبكم بكلمات يسيرة ؟ قالوا : يارسول الله وما هى ؟ قال : تقولون مقالة أخى الخضر . قلنا : يارسول الله ما كان يقول ؟ قال:كان يقول : اللهم إنى أستغفرك لما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، وأستغفرك لما أعطيتك من نفسى ثم لم أوف لك به . الحديث وعزاه للديلمى . كنز العمال (٢/ ٧٠١)

مكافأة ولا ثناء وشكر، بل ابتغاء مرضاة الله وحده، وخوفاً من يوم عبوس قمطرير.

فوجوههم تعبس وتتجهم من هول ذلك اليوم وشدته فلا تكون منبسطة مسرورة، فترى وجوههم مسودة. يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾ [الزمر] والعبوس شيء يضاف إلى سواد الوجه يقبِّض الإنسان ما بين عينيه، حتى أن ابن عباس قال: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه مثل القطران.[١]

وقد يكون العبوس صفة لليوم نفسه، فهو يعبس كالإنسان العبوس فهو يوم متجهم أسود حالك السواد، فوصف الحق سبحانه اليوم بصفة أهله من الأشقياء. ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (٩)﴾ [الإنسان] نخاف عذاب يوم تعبس فيه الوجوه أشد العبوسة، من شدة مكاره هذا اليوم وطول بلائه.

أما القمطرير فهو الصعب الشديد أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء، فهو يوم طويل الشر، وإذا كان العبوس بالشفتين فإن القمطرير بالجبهة والحاجبين.

﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾

فالحق سبحانه يقيهم شر ذلك اليوم العبوس القمطرير الذي يخافونه ويخشون منه ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

فالله يقيهم عبوسه وشدته ويدفع شره عنهم ويحميهم، وقد كانوا يدعون الله أنْ يقيهم عذابَ وشرَّ ذلك اليوم وطول الوقوف والحساب فيه.

---

(١) أورده الطبري في تفسيره (٢٣/٥٤٧) والثعلبي في تفسيره (١٠/٩٧) والقرطبي في تفسيره (١٩/١٢٥).

وقد كانوا يقولون في الدنيا ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران] لقد طلبوا الوقاية من عذاب النار وصبروا وصدقوا وقنتوا في العبادة وأنفقوا في سبيل الله ، فاستحقوا الوقاية منها ومن ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] و (ذلك) تشير إلى اليوم المذكور آنفاً في آيتين هنا ، قال تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧)﴾ [الإنسان] ثم ذكره مرة أخرى في قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠)﴾ [الإنسان]

ولو تأملنا القرآن نجد أن الحق سبحانه قال ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] اليوم مفرد وإذا كان يوماً واحداً فما مقدار ذلك اليوم ؟

يقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] ، والله جل جلاله هو خالق الزمن ، ولذلك فإنه يستطيع أنْ يخلق يوماً مقداره ساعة ، ويوماً كأيام الدنيا مقداره أربع وعشرون ساعة ، ويوماً مقداره ألف سنة ، ويوماً مقداره خمسون ألف سنة ، ويوماً مقداره مليون سنة ، فذلك خاضع لمشيئة الله .

فالأزمنة متعددة وتختلف من قياس إلى آخر ، ومن كوكب إلى آخر. ففي آية ذكر سبحانه أنه كألف سنة ، فقال : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] وفي آية أخرى قال : ﴿تَعْرُجُ[1] الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ [المعارج] فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، فلله تعالى تقدير لليوم في الدنيا ولليوم في الآخرة.

فهو يوم بحساب البشر ، يوم طويل ثقيل شديد الوطأة ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ (١١)﴾ [الإنسان] ، وفوق وقايتهم من شر يوم عبوس قمطرير عصيب ، فإنه سبحانه : ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان]

---

(١) تعرج : تصعد . والمعارج المصاعد والدرج ، والمعرج : الطريق الذي تصعد فيه الملائكة ، والمعراج : شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت . [لسان العرب مادة عرج] .

اللقاء رؤية تقتضى مصادفة ومعاينة وتُستعار لإصابة الخير والشر، فهؤلاء ﴿وَلَقَّاهُمْ (١١)﴾ [الإنسان] أى التقاهم ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾ [الإنسان] نضرة فى الوجوه وسروراً فى القلوب.

فأعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم النضرة والسرور، النضرة للوجوه كما قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)﴾ [القيامة] وفى مقابلها ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤)﴾ [القيامة]

فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهر ملامحه، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح.

أما السرور فهو انشراح فى القلب وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة، والانفعالات يظهر أثرها على بشرة الوجوه، فإن كان الانفعال حزناً فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض، وإنْ كان الانفعال بالسرور فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط وتعكس البشرة انفعالات النفس من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهُّم.

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

المجازاة والمكافأة من الله، ففاعل الفعل جزى هو لفظ الجلالة، وتقديره: وجزاهم الله بصبرهم الجنة والحرير.

فالله جزاهم بما صبروا على طاعة الله واجتناب معصيته، فأثابهم وكافأهم جنة يسكنونها، وحريراً يلبسونه ويفترشونه.

وقد سُئل رسول الله ﷺ عن الصبر فقال: «الصبر أربعة: أولها الصبر عند الصدمة الأولى، والصبر على أداء الفرائض، والصبر على

اجتناب محارم الله ، والصبر على المصائب» .[1]

وقد جزاهم الله جنة بستاناً فيه من كل ما تشتهى أنفسهم من المأكل والمشرب مما لم تره عين ولم تسمع عنه أذن .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن شراب من أشربة أهل الجنة ،فقال ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان] وسيذكر الله قريباً مزاجاً آخر من مزاجات أشربة أهل الجنة فى الجنة ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا (١٧)﴾ [الإنسان]

ولكن الحق سبحانه أتى بلباس من ألبسة أهل الجنة وخصَّ منها هنا الحرير ، فقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

والحق سبحانه إنما خصَّ الحرير هنا لأنه سبحانه تحدَّث عن صبرهم ومنه الصبر عن المحرمات ، ومنها الحرير الذى حرمه الشرع على رجال أمة محمد.

وقد قال رسول الله : مَنْ يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة.[2]

فالصبر على عدم لبس الحرير فى الدنيا كان ثوابه وجزاؤه أنْ يلبسه من صبر فى الجنة ، والحرير ولبسه دليل التنعم والرغد والرفاهية ، فالحرير أنعم الأقمشة ملمساً .

وفى سورة الحج يقول تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)﴾ [الحج] فهم لم يلبسوا الحرير فى الدنيا فلبسوه فى الآخرة لأنهم التزموا حدود الله والتزموا قول الرسول ﷺ : لا تلبسوا الحرير ولا تأكلوا فى آنية الذهب والفضة ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة« .[3]فكانوا لا يلبسون

---

(١) أورده الثعلبى فى تفسيره (١٠/٩٧) قال : روى سعيد بن المسيب عن عمر قال : سئل رسول الله (الحديث) وكذا أورده القرطبى فى تفسيره (١٩/١٣٦) وكذا الزحيلى فى التفسير المنير (٢٩/٢٩٣) كلهم دون سند .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته أنه سمع من رسول الله ﷺ : «من يلبس الحرير فى الدنيا فلا يُكساه فى الآخرة ».

(٣) أخرجه أبو عوانة فى مستخرجه (٨٤٤٦) والبخارى فى صحيحه (٥٤٢٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٥/٢٠٦٧ - ١١/٢٠٦٩) من حديث حذيفة بن اليمان .

الحرير، فكان جزاؤهم ﴿بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)﴾ [الإنسان]

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ (١٣)﴾ [الإنسان] الاتكاء أن يجلس الإنسان على الجنب الذى يريحه، والأرائك هى السُّرر التى لها حلية مثل الناموسية مثلاً.

ولكى نفهم معنى الاتكاء ودلالته على الترفه والتنعم تجد الإنسان إذا وقف أو جلس طويلاً ولم تجد له متكأ تراه قلقاً غير مستقر، ومن هنا كان المتكأ من مظاهر النعمة والترف فى الدنيا وفى الآخرة، كما قال تعالى فى شأن امرأة العزيز: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً (٣١)﴾ [يوسف]

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة.

وقد ذكر الحق سبحانه الأرائك فى موقف آخر لأهل الجنة فى الجنة، فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين] فسيجلس المؤمنون على الأرائك فى الجنة متكئين ينظرون ويرقبون ماذا سيكون مصير الكفار، ويتساءلون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

ويقول تعالى فى آية أخرى عن أهل الجنة وانشغالهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

إنه النعيم الذى وعد به ربُّ العزة المتقين ﴿بِمَا صَبَرُوا (١٢)﴾ [الإنسان]

والأرائك جمع أريكة وهى السرير فى الحجال وهو بيت كالقبة يُستر بالثياب مُكللة بالدر والياقوت.

فجزاؤهم جنة فيها طعامهم وشرابهم ولباسهم فيها الحرير من أنعم الثياب فى قبة عالية عليها الستور متكئين على أسرَّة.

وليس هذا فحسب بل ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان] فقد هيَّأ لهم الله المقام فى هذا الرغد وهذا النعيم فلا يصيبهم فيه حر ولا برد ، فلا يرون فيها شمساً أى شمساً محرقة يؤذيهم حرُّها أو تصيبهم بالعرق.

فلا يؤذيهم حرُّ شمس ولا برد زمهرير ، فيضطرون أن يقوموا من على أسرَّتهم ليدخلوا أخبيتهم ، لا إن جلساتهم متكئين على الأرائك لا يزعجهم فيها شيء ، ومن يتأمل هذه الآية يجد شيئاً عجيباً ، هل معنى قوله تعالى ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا(١٣)﴾ [الإنسان] أنه لا شمس أصلاً فى الجنة ، أم أن هناك شمساً لكنها ليست حارة حرارة تؤذى مَنْ يتعرض لها.

بعض العلماء قال: الجنة ضياء من غير وجود شمس أو قمر ، ولهذا فسروا قوله تعالى ﴿زَمْهَرِيرًا(١٣)﴾ [الإنسان] أى قمراً ، وبهذا فسَّره الزمخشري.

والآية تحتمل هذا أى لا يرون فيها شمساً حارة محرقة ، أولا يرون فيها شمساً من الأساس لأن الجنة مضيئة بذاتها وبهذا لا حاجة لقمر أيضاً ، فالقمر كانت مهمته التى نعرفها فى الدنيا أنه يضيء.

ولو وضعنا مع هذه آية أخرى ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(٢٤)﴾ [الفرقان] ولنا أنْ نسأل : أفى الجنة قيلولةٌ وليس فيها حَرٌّ ولا برد ولا زمهرير؟

فالمقيل أى وقت القيلولة وهو فى الدنيا عند شدة الحر ، كيف وليس فى الجنة حر. قلنا : إن القيلولة تعنى محلَّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق حينما ذكر أوقات الاستئذان جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ (٥٨)﴾ [النور]

فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا فى هذا الوقت لأنها من أوقات العورة ، ولأنها من أوقات الخلود إلى الراحة النفسية ، فى مكان

خاص ووضع خاص وتحرُّر من الملابس والرسميات.

ولأن الجنة ليس فيها شمس ولا زمهرير، لذلك كان ظلها ممدوداً دانياً عليهم، قال تعالى:

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

جزاهم الله بما صبروا وأثابهم جنة دانية ظلالها عليهم، لا يجدون حَرَّ شمس ولا زمهرير برد، قد دنت أفرع شجرها منهم حتى أن الظل يغطيهم، وهذا دليل أن هناك شمساً ولكن ليس لها تأثير إلا في الإضاءة فقط، أما حرُّها فقد أذهبه الله فلا يحس مَنْ في الجنة بحرٍّ.

فأصل الظل الستر من الشمس، والحق سبحانه يقول ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] فهو ظل لا يدخله الحر ولا السمائم أي الرياح الحارة الذي نقول عنه (الصهد).

فمعنى أن الظل ظليل أنه يُظل من الحر والريح معاً، وهذا معناه أن شجر الجنة أغصان متراكبة فوق بعضها، لا يمر منها حرارة شمس أو صهد ريح.

ومَنْ يتأمل هذه الآية يدرك معنى قوله في الآية السابقة ﴿لَا يَرَوْنَ (١٣)﴾ [الإنسان] لأن هذه الكلمة جعلت بعض العلماء يقول أنه لاشمس ولاقمر في الجنة، لأن أهل الجنة ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان]

والرؤية هنا بصرية إذن فهي غير موجودة، ولكن مَنْ يضيف إليها الآية التي بعدها ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] ويضيف إليها قوله تعالى ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] يدرك أنهم وهم في هذا الظل الظليل من أغصان وأوراق الشجر لا يرون الشمس ولا تأثيرها فهي مستورة عنهم بالظل الوارف فكأنها غير موجودة.

فالظل الظليل لا يترك فُرْجة ولا خَللاً لنفاذ الهواء الحار ولا البارد

إلى مَنْ يجلس فيه ، وليس الأمر يتعلق بظل هذه الأشجار فقط ، بل هي أيضاً أشجار مثمرة تعطى ثماراً لا تُحوج مَنْ يجلس متكئاً أن يتكلف أىَّ مشقة فى الحصول على ثمار.

لذلك قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان] ، فالحق سبحانه يريد إراحةَ عبده المؤمن الذى ثبت وصبر على إيمانه فى الدنيا رغم الصعاب ورغم المغريات لارتكاب المعاصى ، ولكنه صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله .

فأثابه الله ثواباً مضاعفاً ، فمع كل ما ذكرته الآيات من أوجه النعيم يذكر الحق سبحانه نعيماً آخر يُقدِّره مَنْ يتأمله حقَّ التأمل .

فالحق سبحانه يريد للثمر أنْ تتدانى من المؤمن حتى لا يتعب، فيقول تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)﴾ [الحاقة] ويقول هنا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان] أى دُليت عناقيدها .

فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن وإن وقف المؤمن لطال بيده أنْ يقطف الثمار ، وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار لأنها تتدانى له ، وإنْ نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه . وبذلك يستطيع أنْ يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

والإدناء المذكور فى قوله تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا (١٤)﴾ [الإنسان] هو تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى فى وصف ثمار الجنة ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)﴾ [الحاقة] أى قريبة التناول سهلة الجنى .

ولكن الحق سبحانه هنا ذكر الإدناء خاصاً بالظلال ، والتذليل للقطوف والثمار وكأنها مُسخَّرة مُذلَّلة تقول للمؤمن اقطفنى وكأنه يعيش بين الثمار وقتما شاء يجدها بين يديه ، ناهيك عن روائح هذه الثمار وهى روائح فى الجنة وليس فى الدنيا.

وهناك معنى آخر نستطيع أنْ نلمحه فى الآية وهو قوله ﴿وَذُلِّلَتْ (١٤)﴾

[الإنسان] وهى من الذل كأنَّ الثمار تتدانى وتتدلى على المؤمنين فى ذل وكأنها تنتظر اللحظة التى يمدُّ فيها المؤمن يده ليقطفها.

فالله أمرها وذلَّلها وسخَّرها لعبده المؤمن وكأنه سبحانه قال لها: أنتِ لعبدى فظلت تتدلى فى ذل منتظرة أنْ يمد مَنْ آمن بالله وجاهد فى سبيله يده ليقطفها ، فهى تشتاق إليه كما تشتاق إليه الجنة نفسها .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى نعيم آخر ، فيقول:

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ ﴾

تلك متعة أخرى ونعيم آخر ، فلن يُترك الإنسان المؤمن هكذا ، بل سيطوف عليه ولدان مخلدون بآنية من فضة وأكواب فيها من أصناف الشراب ما تلذ به الأعين قبل أنْ تلتذ به ألسنتهم وأفواههم.

فالآنية التى فيها الشراب كيزان وأكواب بدون عُرى ، فليس لها يد تمسك به لأنك لن تحتاج هذه العُرَى ، فالإنسان فى الدنيا يحتاج العرى فى الأكواب ليتجنب حرارة الشراب الساخن .

أما فى الجنة فلن تجد مايكدرك أو يزعجك أو تحتاج للاحتياط له، فكانت كيزاناً وأكواباً دون عرى .

والغريب أنها تجمع بين أنها من فضة وأنها صافية كالزجاج ترى الشراب فيه وهو بعيد عنك ، فإذا كانت الأكواب فى الدنيا من قوارير أى من زجاج يُصنع من الرمل ، فإن أكواب وقواير الجنة من فضة ولكنها فى صفاء الزجاج . فلا تخشَ أن ينكسر أو يصيبك منه ضرر.

لقد اجتمع لهذه الآنية والأكواب صفاء القوارير وشفوفها ورقتها مع أنها من فضة ، وهل هناك فرق بين الآنية والأكواب؟

نقول : نعم فالآنية هى الأباريق التى يكون فيها الشراب ثم يُصب

منهـا فـى الأكـواب ، لذلك قال ﴿بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسان]، ففرَّق بين الصنفين .

ولكـن هـل معنـى هـذا أن الآنية من فضـة غير شـفافة ، أمـا الأكواب فهـى فقـط التى كانت قوارير أى مثل القوارير فى صـفائها وشـفافيتها، فنـرى الشـراب مـن وراء جـدار الكـوب .؟

الأمـر يحتمـل هـذا ، لذلك أعربـوا جملة ﴿ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسـان] فـى محـل جر نعت لأكـواب، فالأكواب فقط هـى التى تشـبه القوارير فى شـفافيتها رغـم أنهـا مـن الفضـة.

ولـو تأملنـا هـذا لوجدنـا فيه معنـى جميلاً ، فعندمـا ترى الإبريق غير شـفاف تكـون مشـتاقاً لمعرفـة مـا فيـه ، فإذا بـه عندما يُصـب منه فى الكوب الشـفاف تسـعد أكثر .

وحتـى فـى بنـاء الآية تجد تشـويقاً ، فالآيـة الأولى تنتهـى عند قوله تعالـى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥)﴾ [الإنسـان] ولكـن الله لا يتركك هكـذا بل يحدد فيقـول ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ (١٦)﴾ [الإنسـان] فتـزداد عجباً (قواريـر) (من فضـة) زجـاج مـن فضـة وليس مـن الرمـل !!

يزيـدك الله عجبـاً أنهـم ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦)﴾ [الإنسان] فمَنْ صَبَّ لك الشـراب فـى الكـوب الخاص بك صـبَّ لـك على قـدر احتياجك بالضـبط بمـا يرويك لا نقص بحيث تحتـاج إلى أكثر ، ولا زيـادة بحيث تحتـار أين تذهـب بمـا تبقى فـى الكوب . كيف عرف مَنْ صَبَّ لك قدر احتيـاجـك؟!

ولكـن لمـاذا قال ﴿قَدَّرُوهَا (١٦)﴾ [الإنسـان] فهل هم قـدَّروا الأكواب أم قـدَّروا الشـراب الذى فى الأكواب ؟ لو كانت الأولى فهـذا معنـاه كل مُنعَّم لـه كـوب أو أكـواب خاصـة بـه قُـدِّرت علـى قـدر ريِّـه.

وإنْ كانـت الثانية فالأمر أعجب لأن الشـراب يُوضـع فـى الكوب على قدر رِيِّ الإنسـان وحاجته ، فكأن من يصـب الشراب عنده معرفة ودراية

أو شيء من هذا بقدر ريِّ كل شخص .

وصدق رسول الله الذى نقل لنا عن رب العزة الحديث القدسى : «أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» .(١)

ولكن ماذا فى هذه الكؤوس والأكواب والآنية ؟ يذكره الحق سبحانه فى الآية بعدها:

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

نلاحظ أن الحق سبحانه مازال يستخدم الفعل المبنى للمجهول ، فقال : ﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) ﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : وذللنا لهم قطوفها تذليلاً . وقال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ (١٥) ﴾ [الإنسان] وهنا يقول : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧) ﴾ [الإنسان] وكان من الممكن أنْ يقول الحق : ونسقيهم فيها كأساً : بالبناء للمعلوم .

لكن الحق سبحانه أراد أنْ يقول للإنسان الذى سُميت به هذه أنه إذا كنت قد قاسيتَ فى الدنيا وصبرت على مقاساتها ومعاناتها ، وكانت الدنيا لك متعبة تحاربك لأنك صبرت على إيمانك وطاعتك لله .

فإن أمر الجنة أمرٌ آخر قد أعددتها لتخدمك وسخرتها لك تسخيراً تفعل لك كل ما تريده دون أنْ تطلبه ، فلا تحزن ولا تهتم لما تلاقيه فى الدنيا ، فالعاقبة للمتقين .

الله يخاطب الإنسان ، يخاطب ما يرغب فيه ويخاطب آماله ، إنْ كنت تريد حياة أبدية منعَّمة فما عليك إلا أنْ تؤمن بالله وتطيعه وتصبر على طاعته وتصبر عن معصيته ، فسيجزيك الله ثواب هذا الصبر حياة تطاوعك فى كل شيء .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم فى صحيحه(٢/ ٢٨٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الحديث القدسى .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا (١٧)﴾ [الإنسان] فهم يُسقون ، لا يُعدون ما يريدون بأنفسهم بل يُعد لهم ويُسقوْنَ إياه دون تدخُّل منهم، وليس مهماً هنا مَنْ يسقيهم، بل المهم هنا ما يشربونه .

لذلك بنى الحق سبحانه الفعل للمجهول ، فهم يُسقون ﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (١٧)﴾ [الإنسان]

وأى كأس فى القرآن المقصود بها كأس خمر ولكنها خمر ليست كخمر الدنيا التى تذهب بالعقول ، وتجعل الإنسان لايدرى ما يفعل .

والخمر فى الآخرة تمزج بأشياء أخرى وهنا مُزجت بالزنجبيل ، وفى آية أخرى هنا كان مزاجها كافوراً ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥)﴾ [الإنسان]

فالطعوم مختلفة والنكهات متعددة حتى لو اتحدَّ الشراب ، ومعنى ﴿مِزَاجُهَا (١٧)﴾ [الإنسان] أى أنها مختلطة مشوبة بالزنجبيل بشىء قليل منه ، لأن الإنسان يعرف الزنجبيل فى الدنيا بلذوعته . ولكن أيضاً فإن زنجبيل الآخرة شيءٌ آخر غير زنجبيل الدنيا .

﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً (١٨)﴾ [الإنسان] إنها من عين فى الجنة تُسمَّى سلسبيلاً ، فالخمر يُمزج بالزنجبيل ، والزنجبيل من عين تُسمَّى تلك العين سلسبيلاً .

قال ابن الأعرابى : لم أسمع السلسبيل إلا فى القرآن . فهى عين يصدر منها هذا الشراب سلساً تسيل وتذهب فى مجرى نهر بلا شطآن.

والسلسبيل : الطيب الطعم والمذاق ، وهو أيضاً يتسلسل فى سلاسة فى الحلق ويستسيغه اللسان والحلق عَذْباً سلسالاً ، وهى تسيل عليهم من جنة عدن فتمر على كل جنة سلسة منقادة فهى ماء عذبة زلال .

وعلى هذا فكلمة (سلسبيلا) قد تكون صفة للماء نفسه أو اسم علَم للعين . والبعض ذهب إلى أن كلمة (سلسبيلاً) ليست كلمة بل

هـي جملة تقدير الكلام فيها : سَلْ سبيلاً . أولها سل فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت أو يا محمد . وسبيلاً : مفعول به .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

هنا بنى الحق سبحانه الفعل للمعلوم فقال ﴿وَيَطُوفُ (١٩)﴾ [الإنسان] أما هناك فقال ﴿وَيُطَافُ (١٥)﴾ [الإنسان] ، فهناك يحدِّثنا الحق عمّا يُطاف على المؤمنين به وهو الكؤوس والأكواب والشراب ، أما هنا فيحدثنا الحق سبحانه عمَّنْ يقوم بالطواف والإطافة بأوانى السقاء.

فيقول تعالى :﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] فهم ولدان مخلدون أى لا يكبرون ولا يهرمون ، بل يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون وهم فى سِنٍّ واحد.

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال (ولدان) فهم صبيان ، لكن الله يقول فى آية أخرى : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧)﴾ [المزمل] ، ومفهوم أنه لا يشيب الصبيان فقط من هول يوم القيامة ، إنما تشيب البنات أيضاً، فالولدان هم القريبون من عهد الولادة. ومفرده وليد أى مولود.

والولد والوليد والولدان يشمل الصبى والصبية ، الذكر والأنثى ومثل هذا آيات الميراث ، قال تعالى : ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ(١١)﴾ [النساء]

وإذا كان معنى وِلْدان يحتمل الذكر والأنثى معاً ، فقد خصصت آية أخرى المعنى وحصرته فى الصبيان فقط ، فقال تعالى :﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] إذن الوِلْدان فى الآية معناها الصبيان ، فإن الغلام لا تُطلق إلا على الصبى.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الولدان بأنهم ﴿مُّخَلَّدُونَ (١٩)﴾ [الإنسان] مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان فى الجنة ، فكل أهل

الجنـة مخلـدون فيهـا لا يشيبون ولا يهرمـون .

لذلـك قـال بعض المفسـرين أن معنـى (مخلـدون) هنـا أن هـؤلاء الولـدان مقرَّطون أى يلبسـون الأقراط فى آذانهم ، أو أنهم مُسـوَّرون أى يلبسـون الأسـاور فـى معاصـمهم ، مـن التنعُّـم والتـرف .

أمـا الأقـراط فالعـرب يسـمون الحلق الذى فـى الأذن قُرْطـاً وخلدة . لذلـك قـال تعالـى ﴿مُخَلَّـدُونَ(١٩)﴾ [الإنسـان] أى مقرَّطـون . ويقـال لجمع الحلـىّ : الخلـد .

ثـم يقـول تعالـى :﴿إِذَا رَأَيْتَهُـمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُـورًا (١٩)﴾ [الإنسـان] وهـو من عجيـب القـرآن ، فاللؤلـؤ المنثـور غيـر اللؤلـؤ المكنون الذى وصـف به هؤلاء الغلمـان فقـال : ﴿وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَـانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُـمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُـونٌ (٢٤)﴾ [الطور] فاللؤلـؤ المكنـون كأنه كنَّ فى كنانه أو مكانه وهـو مُصَـان حتى أن الله وصـف الحـور العيـن بنفس هذه الصـفة فقـال :﴿ وَحُورٌ عِـينٌ(٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾ [الواقعة]

فهم وهُنَّ كاللؤلؤ المصـون فى الصـدف لـم تنله الأيدى وقد قاله ابن جبيـر . ولا يُصـان ولا يُكـنُّ ولا يُحزن إلا الحسـن الغالى الثمـن الثمين ، فهـو مصـون لـم تعبـث بـه يـد عابثـة .

وكلمة ﴿ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور] تتفق تمـامـاً مع كلمـة (لهم) قبلها فى قولـه: ﴿ وَيَطُـوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُـمْ (٢٤)﴾ [الطور] فهم خاصـون بهـم ولا يطوفون علـى العمـوم ، وهذا معنـاه أن كل واحد من أهل الجنة له غلمان خاصُّون بـه يخدمونـه غيـر الولـدان الذيـن يطوفـون عامـة بشـراب أو طعـام .

وإذا فهمنـا هـذا نسـتطيع أنْ نـدرك الفـرق بيـن الغلمـان المذكورين فـى سـورة الطـور وبيـن الولـدان المذكوريـن هنـا فى سـورة الإنسـان . فهنـاك ﴿ كَأَنَّهُـمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطـور] ، وهنـا ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

فهم هنا كاللؤلؤ المنثور يتلألأ في كل مكان ، وكأنهم يطوفون على العموم لذلك انتشروا وانتثروا . فآية سورة الطور تعطى جواً أسرياً لحياة هؤلاء ، لذلك كان هؤلاء الغلمان مكنونين مُصانين .

يقول تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (٢١)﴾ [الطور]

وما دام قد ذكر الحور العين وذكر إلحاق الذرية بهم إذن فهو جو أسرى يحتاج إلى غلمان مخصوصين خاصين بهذه الأسرة أو تلك .

أما هنا في سورة الإنسان فالوضع يختلف ، وقد يكون يتحدث عن جلسات المؤمنين في جلسات عامة يكون فيها الولدان الطائفون عليهم عامّين لا يخصون أحداً فينتثرون كاللؤلؤ بعدد لا نهاية له .

ولك أنْ تتأمل الآيات تأملاً آخر ، وهو أنه لا تعارض بين اللؤلؤ المكنون واللؤلؤ المنثور ، ونلاحظ أن الحق سبحانه قال في آية سورة الإنسان: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

وكأن المشهد غير ما ذكرنا سابقاً ، وكأنَّ الله يطلب منك أن ترى مشهد هؤلاء المنعَّمين من أعلى من خارج ، فكل مؤمن له أريكة في قبة عالية يتكيء عليها يعيش في ظلال دانية وعناقيد ثمار متدلية يقطف منها كيفما يشاء ، معه ذريته والحور العين يطوف عليهم غلمان أو ولدان لهم بأنواع الشراب والطعام.

لو نظرتَ إلى هذه القباب العالية ، كل قبة مقصورة على مَنْ فيها ستتخيل أن الولدان الطائفين لؤلؤ منثور لأنهم يتلألأون فلا ترى إلا تلؤلؤ ضيائهم ونورهم ، بينما هم في الحقيقة مكنونون ، كل ولدان في قبتهم مع مَنْ يخدمونه.

قال تعالى : ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] أى ظننتهم ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان] بينما هم على الحقيقة ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ [الطور]

ولكن لماذا ذكر الحق سبحانه اللؤلؤ بالذات ، اللؤلؤ يتميز بالصفاء والنفاسة وهو مثل الياقوت والمرجان فى لمعانه ونضارته وشرفه، ولكن اللؤلؤ أبيض ، لذلك وصف الولدان والغلمان باللؤلؤ لبياض وجوههم وصفائها .

ثم يقول تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ ﴾

النعيم فى الدنيا على قَدْر قدرات البشر ، أما النعيم فى الآخرة فهو على قدر قدرات الله سبحانه ، المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة ، فى الدنيا بإعدادك ، وجسدُك لا يمكن أن يرى الله .

أما فى الآخرة فيسمح إعدادك وحسدك بأنْ يتجلى عليك الله سبحانه، وهذا قمة النعيم فى الآخرة ، أنت تعيش الآن فى آثار قدرة الله ، أما فى الآخرة فتعيش عيشة الناظر إلى الله تبارك وتعالى .

فى الدنيا ألوان من المتع هى كذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ولا يدوم إنسانٌ لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان . أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربِّى بطلاقة قدرته وسعة رحمته ، إنه النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شىء .

والدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوءك ، أما الإيمان فهو ثوابه النعيم المقيم والثواب العظيم .

والحق سبحانه يقول ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ [التوبة] والرضوان هو ما يفوق النعيم ، ولكن ما سبب ذكر النعيم بعد الجنات ، أليس الجنة ليس فيها نعيم ؟

الجنة وُجدتْ أصلاً لينعم فيها الإنسان ، لكنه نعيم مقيم دائم لا

ينتهـى لا يـزول عنـك وأنـت خالد فيـه لا تـزول عـن النعمـة بـالفناء أو المـوت. فـكأن المتـاع والنعيم فـى الجنة أكبـر كثيراً مـن قدرتك وأعلى كثيـراً مـن كل مـا تسـتطيع أنْ تحققـه.

لذلـك يقـول تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْـتَ ثَمَّ رَأَيْتَ (٢٠)﴾ [الإنسـان] أى إذا رأيت مـا ثَـمَّ. أى إذا رأيت ما هنـاك ، والعرب تضـمر (التى والذى ومَنْ وما) وتكتفـى بصـلاتها منهـا.

وهـذا مثلمـا قـال تعالى: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِـكَ (٧٨)﴾ [الكهف] أى : هـذا فـراق ما بينـى وبينك ، ومثلـه قوله تعالـى:﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ (٩٤)﴾ [الأنعـام] أى : لقـد تقطـع مـا بينكـم.

فـإذا نظـرتَ يـا محمـد ببصـرك ورميـتَ بطرفك فيمـا أعطيـت هؤلاء الأبـرار فـى الجنة من الكرامة : ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسـان]

والآيـة تقـول (رأيـت نعيمـاً) ثـم ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسـان] إذن النعيـم غيـر الملْـك الكبيـر. النعيـم معـروف وحدثنـا الله عـن بعضـه.

﴿ وَجَزَاهُـمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّـةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًـا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَـتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان]

كل هـذه عناصـر هـذا النعيـم الذى سيتنعم فيـه الأبـرار ، نعيم دائم مقيـم لا ينتهـى ولا يتغيـر ولا يـزول ، والحـق سبحـانه ذكر هـذا النعيم بصـيغة النكـرة فقـال (نعيماً) لأنـه لا يُعدُّ ولا يُحصـى ولا يعلمه إلا الله. فداخـل النعيـم نعيـم ، فكيـف نعرفـه وكيـف يكـون معرفـة ؟

ثـم يـأتـى قولـه تعالـى : ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسـان] مـاذا بعد هذا النعيـم ؟ إنـه المُلْـك ، أى تملـك كل هـذا للأبـد ، لا يـزول عنـك ولا تزول

عنه، واعلم أن هناك مِلْكاً وهناك مُلْك والملْك هو ما تملكه جلباباً أو بيتاً أو غير ذلك، أما المُلك فهو أنْ تملك من له مِلْك وتسيطر عليه، فالنعمة إذن فى المُلْك.

لو فهمنا هذا وتأملناه وسمعنا قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠)﴾ [الإنسان] فإنْ كنتَ تفتقد المُلْك فى الدنيا فإنك ستناله فى الآخرة، سيكون لك سلطانٌ على ما حولك من نعيم، وكذلك مَنْ حولك من الغلمان والولدان والحور العين.

وأيضاً سيكون لك جاه فى الجنة التى تعيش فيها، فقد يعيش إنسانٌ وسط نعيم ورغد وعيش وترفُّه ولكنه يعيش فيه فقط، لا يملك سلطة أو جاهاً على مَن يقوم بخدمته. أما فى الجنة فلك جاهٌ ووجاهة وسلطان حتى أن الملائكة تستأذن على الأبرار فى محالِّهم وأماكنهم وتسَلِّم عليهم، وهذا من الكرامة بمكان.

وقال الكلبى: هو أن يأتى الملاك رسولاً من عند الله بكرامة من الكسوة والطعام والشراب والتحف إلى ولى الله وهو فى منازله التى أعدها الله له فيستأذن عليه الملاك، فذلك المُلْك الكبير.

أهناك أعظم من هذا نعيم، أو أكبر من هذا مُلْك؟ والمُلْك أيضاً قد يكون المقصود به اتساع هذا الملك لكل مؤمن بَرٍّ تقىٍّ دخل الجنة، فقد رُوى أن أدنى أهل الجنة وأقلهم منزلاً ينظر فى مُلْكه فى مسيرة ألف عام.

ثم يقول تعالى:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾

كلمة ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسان] تعطى معنى العلو والارتفاع، فثياب

أهل الإيمان ثيابُ عزٍّ وكرامة ورفعة ومجد وأبَّهة ، وعلو الثياب سواء كانت على أهل الجنة أنفسهم أو على ما يجلسون تحته فهى تدخل فى الملك الكبير.

العلاء الرفعة والبعض أخذ (عاليهم) أن الثياب فوقهم ملامسة لهم ، وهذا ليس شرطاً فالحق سبحانه لم يقل : عليهم ، لكن قال ﴿عَالِيَهُمْ (٢١)﴾ [الإنسان] ولو تأملنا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات (١٩)﴾ [الملك] وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء]

ففوقهم لا تعنى الملامسة إنما تعنى العلو الذى لا حدود له .

فالألف فى (عاليهم) أضافت معنى زائداً للعلو لذلك تكون عاليهم ظرفاً للمكان المكسو بالثياب والستائر والأردية . والبعض أخذ (عاليهم) على أنها حالٌ للولدان المخلدين وأن ثياب السندس الخضر والإستبرق هى ثيابُ أولئك الولدان.

فسواء كانت عاليهم حالاً للولدان المخلدين ، أو حالاً لأهل الجنة، أو وصفاً لما يعلو قبابهم والأرائك والأسِرَّة أنها عاليهم ثياب السندس. فهو مُلْك كبير.

والسندس هو ما رقَّ من الحرير ونَعِمَ وكان ملمسه ناعماً حريرياً، أما الإستبرق فهو ما غَلُظ وخَشُن منه ، وقد يكون السندس منسوجاً بخيوط من الذهب.

وقد جمع الحق سبحانه هنا بين السندس والإستبرق ، بين ما رقَّ من الحرير وما خَشُن ، وقد قال الحق سبحانه فى آية أخرى ولكن عن الفُرش ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (٥٤)﴾ [الرحمن]

فإذا كانت بطائن الفُرش من حرير ولكنه خشنٌ غليظ ، فإن الظهائر وما اتكأ عليه المتكئون فهو من السندس الحرير الناعم الرقيق .

ذلك حديث الله عن الثياب ، فما بال حلية أهل الجنة من الحلى ،

يقول تعالى : ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ (٢١)﴾ [الإنسان] وفى آية أخرى أنها من ذهب ، قال تعالى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ (٣١)﴾ [الكهف] وفى آية أخرى : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] فالأساور إما من ذهب أو فضة أو لؤلؤ .

ونلاحظ أن الحق سبحانه بنى الفعل للمجهول فى الآيات الثلاثة ﴿وَحُلُّوا (٢١)﴾ [الإنسان] ثم (يُحلون) فى آيتى الكهف وفاطر ، فليسوا هم الذين يُحلون أنفسهم بهذه الحلية ، بل حلاَّهم غيرهم .

أما الملبس فهم الذين يلبسون ثيابهم بأنفسهم ثم يُحلِّيهم غيرهم، قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ (٣١)﴾ [الكهف] فأتى الفعلُ مبنياً للمعلوم لأن الفعل حدث منهم أنفسهم بالعمل .

والأساور جمع أسورة وهى ما تكون حول معصم اليد ، والتحلية هنا للزينة فهى زيادة على ما هم فيه من نعيم ، كالرجل الذى يجهز ابنته للزواج فيأتى لها بضروريات الحياة ثم يزيدها على ذلك من الكماليات وزخرف الحياة من نجف أو سجاد أو خلافه .

ثم يأتى الشراب بعد أنْ يلبس الأبرار ثيابهم ويُحلون بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ، فيقول: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

أعطاهم ما يشربونه فى لحظته وساعته ، ولكنه سقاءٌ من الله سبحانه فنسبه إليه سبحانه أن ربهم الذى سقاهم ، لذلك استحق وصف ﴿طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان]

فهو شراب طاهر من الأقذار لم تمسه الأيدى ولم تُدنِّسه الأرجل كخمر الدنيا ، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجساً ، ولكنه يصير رشحاً من أبدانهم كرشح المسك .

وقد صلَّى سهل بن عبد الله صلاة العشاء فقرأ قوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان] فجعل يحرك فمه كأنه يمص،

فلما فرغ من صلاته قيل له : أتشرب أم تقرأ ؟ قال : والله لو لم أجد لذّته عند قراءته كلذّتي عند شربه ما قرأته .

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾

فهذا النعيم الذي ليس له حدود ، وذلك المُلْك الكبير جزاء وثواب لكم ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾ [الحاقة] فحين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ، ولكن يجب أنْ تتذكر ثوابها وردّ فعل طاعتك وهو الراحة وحُسْن الثواب .

﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾ [النحل] وهو جزاء أطول وأدوم ، فهم تعبوا واضطهدوا وعُذّبوا ، فحقَّ له أنْ نسعده في الآخرة سعادة أبدية. وحقَّ له أنْ نشكر سعيه ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) ﴾ [الإنسان] وهو خطابُ الله لمن استحقوا ثواب الله وجزاءه .

والسعي هو الحركة الموصِّلة للغاية ، وكل فرد من أفراد الكون له سَعي يختلف عن سعي الآخرين ، لذلك قال تعالى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) ﴾ [الليل] أي إن سعيكم لمختلف ، فكلٌّ منكم مهمته وسعيه وحركته .

وقد يكون السعي ممدوحاً وقد يكون مذموماً ، فمن السعي المذموم ما ذكره الحق سبحانه فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا (١١٤) ﴾ [البقرة]

فيمنع ذكر الله في مساجده ويسعى في خرابها بكل السبل ويتخذ من الوسائل والقرارات ما يجعلها خاوية من عُمّارها وأهلها بإهمالها أوالتضييق على مَنْ يدخلها أو يهدمها ويحرقها أو يجعلها فارغة من مضمونها وارتباطها بما حولها من دوائر الناس .

ومن السعي المذموم أيضاً ما قاله سبحانه : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

فحركته وسعيه وجهده ووقته في الأرض كان بهدف الفسادوالإفساد في الأرض وإبادة الحرث والنسل ، والحرث الزرع ، والنسل الذرية.

أما السعي المحمود المشكور غير المنكور فضله ، فكسعي الأب لإطعام أبنائه ورعايتهم ، وكسعيه من أجل الآخرة لا الدنيا ، ويتخذ الدنيا مطية له للوصول إلى الآخرة . فالحياة الدنيا بما فيها من سعي وتعب وجهد وفناء ليست هي الغاية التي يجب أنْ يسعى إليها الإنسان ، بل على الإنسان أنْ يسعى إلى الحياة الأرقى .

ولك أنْ تسعى إلى بيت الله ، ولك أنْ تسعى إلى مجلس الخمر والفساد ، فالحق سبحانه جعل للإنسان سيطرة على جوارحه في الدنيا وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه في خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدي ، وبيده أيضاً ينفق على المحتاجين .

فللآخرة سعي ومَنْ سعي إليه كان سعيه مشكوراً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء] ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نعمه ، كما قال تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾ [إبراهيم] ، فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى يشكر عبده على طاعته ؟

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى الكلام عن القرآن ، فيقول:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾

إذا تحدث الله سبحانه عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى يقول (إنا) . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا (١٤)﴾ [طه] فإنزال

القـرآن وحفظـه ليس وليد قدرتـه وحدها ، ولا علمه وحـده ، ولا حكمته وحدهـا ، ولا رحمته وحدهـا ، وإنما كل فعل من أفعـال الله تكاملت فيه صـفات الكمـال المطلـق لله .

فإنـزال الذكـر عملية عظيمة ، لأننا سـنُنزله بقدرة وسـننزله بحكمة، وننزله بعلـم وننزلـه ببصـر ، وننزلـه بقيوميـة ، وننزلـه بقبضـ ، وننزلـه ببسـط .

وكلمـة ﴿ نَزَّلْنَا (٢٣)﴾ [الإنسـان] تفيـد التتابـع وموالاة النـزول ، فالقرآن أُنزل جملـة واحدة مـن اللوح المحفوظ ، ثم نزَّله الله بعد ذلك منجّماً حسب الوقائع. لذلك قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦)﴾ [الإسراء] وفى آية أخرى :﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

أى نزلنـاه مرتـلاً مفرقـاً آيـة بعـد آيـة ، فنـزل القـرآن مجموعـة من الآيـات بعـد الأخرى ، وهذه الطريقـة فى التنزيل كانت تيسـر للصـحابة حفظـه وفهمـه والعمـل بـه.

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان]

فالحـق سـبحانه نـزّل القـرآن علـى الهيئـة التى نـزل بهـا لزومـاً لتثبيت فـؤاد رسـول الله ﷺ والمؤمنين ، ولو نـزل مرة واحدة لـكان تكليفـاً واحـداً.

وأحـداث الدعـوة شـتى وكل لحظـة تحتـاج إلـى تثبيـت فحيـن يأتى الحـدث ينـزل نجـمٌ قرآنـى فيثبّـت بـه الحـق النبـى ﷺ والمؤمنيـن.

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسـان] فكلٌ من قـام بـالقرآن الـذى نزّلناه عليـك لابـد أَنْ ينـاله مـا يناله مـن الأمور التى تحتـاج إلى صـبر عظيـم .

فمعنـى ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (٢٤)﴾ [الإنسـان] أى اصـبر لقضـاء ربك الذى يترتـب علـى هـذا التنزيـل ، وهذا يـدل على أنـه سـيناله منه مـا يحتاج إلى صـبر .

﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسـان] لقد قـال عتبة بـن ربيعة

والوليد بن المغيرة للنبى ﷺ : إن كنتَ صنعت ما صنعت لأجل النساء والمال فارجع عن هذا الأمر . وقال عتبة : أنا أزوّجك ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر . وقال الوليد : أنا أعطيك من المال حتى ترضى فارجع عن هذا الأمر فأنزل الله تعالى هذه الآية .

لذلك قال تعالى ﴿مِنْهُمْ (٢٤)﴾ [الإنسان] أى من أهل مكة الذين لم يؤمنوا بك ، وهذا ليس خاصاً بهم فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والخطاب وإنْ كان لرسول الله فإن أمة محمد متضمنة فى هذا الخطاب فلا تطيعوا آثماً أو كفوراً ، والآثم المذنب العاصى الذى يرتكب الذنوب والمعاصى ، وليس شرطاً أنْ يكون كافراً ، أما الكافر فهو آثم بذنب الكفر نفسه وينضاف إليه ذنوب وآثام ، لأنه لا ضابط لسلوكه ، فهو لا يؤمن بكتاب ولا برسول ولا بيوم القيامة ، فلِمَ يستقيم ؟

لذلك فصل الحق سبحانه بين الآثم والكفور بـ (أو) ، فلا يسعك أنْ تطيع الآثم أو تطيع الكفور كل على حدة أو مجتمعين .

والكَفُور صيغة مبالغة على وزن (فعول) أى الشديد الكفر المصرّ على كفره الذى يجحد كل شىء وينكره ولا يُقر به معاند فى كفره ويدعو غيره إلى كفره ويصد عن سبيل الله .

فالكافر فقط قد يكون كافراً فى نفسه لا يدعو غيره ولا يصد عن سبيل الله ، وقد يكفر بأمر دون آخر ، أما الكفور فهو مبالغ متجاوز الحدّ فى كفره .

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وذِكْر الله هو تسبيحه وتنزيهه ، لذلك قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى]

فكيف لا تسبِّح أنت الله بينما الكل يسبِّح لله وأنت سيد هذا الكون؟ فاستح أن يكون الكون كله مُسبِّحاً وأنت غير مسبِّح ، فصِلْ أنت تسبيحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

فاذكر ربك لأنه بذكرك له سيذكرك في الملأ الأعلى، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢)﴾ [البقرة] فالله سبحانه يريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم .

والله سبحانه يقول في حديث قدسي : «أنا عند حُسْن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه».

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] أي اذكر اسم ربك في كل شيء في نعمه وعطائه وستره ورحمته وتوبته.

فـ ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ (٢٥)﴾ [الإنسان] تذكيرٌ لك بما حباك به من أفضال خلقك وربَّاك وأعطاك من فيض نعمه مالا يُعد ولا يُحصَى . فاذكر اسم ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدّك بالنعم.

اذكر ربك وسبِّح باسم ربك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾ [الإنسان] ، وفي آية أخرى يقول :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب]

وكأنَّ الحق سبحانه يريد أنْ نذكره ونسبِّحه ونلهج باسمه سبحانه آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾

الحق سبحانه لا يريد العنتَ بمَنْ آمن به فيكلفهم مالا يطيقون ، فلا يطلب من عباده قضاء ليلهم كله في عبادته والركوع والسجود

له ، بل يقول تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] وفى آية أخرى يقول : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ (٧٩)﴾ [الإسراء]

فالله لا يأمر بقيام الليل كله ، حتى ما خاطب به رسول الله قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾ [المزمل] فقُمْ من الليل جزءاً منه لذلك قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ (٢٦)﴾ [الإنسان] فمن للبعضية أى بعض الليل .

﴿فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] السجود علامة الخضوع وعلامة العبودية لأنك تضع أشرف شيء فيك وهو وجهك على الأرض خضوعاً له وخشوعاً له ، والسجود هو منتهى الخضوع .

والسجود لله تشريف للمؤمن الساجد لله ورَفْع لمقامه ، فهو لا يسجد لموازٍ له أو لمخلوق مثله ، بل هو يسجد لمن خلقه يسجد للعظيم الذى لا أعظم منه .

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزه ، فاجعل نفسك مسبِّحاً لذاته العلية دائماً ، والتسبيح فعل مستمر لا ينقطع ولا ينقضى .

وستجد فى هذه الآية أمراً عجيباً ، ففى بداية الآية قال : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ (٢٦)﴾ [الإنسان] أى اسجد وصلِّ له تعالى جزءاً من الليل لا كله .

إنما عند التسبيح قال : ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦)﴾ [الإنسان] فتسبيحك لله لا ينقطع ولا يجب أنْ ينقطع ، والكون كله مسبِّح لله ، فلا تتأخر أيها الإنسان عن ركْب المسبِّحين ، والسورة التى معنا سورة الإنسان كأنها ترسم للإنسان طريق فلاحه ونجاحه فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول فى آية آخرى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور]

هنا أيضاً تسبيح مستمر ﴿حِينَ تَقُومُ (٤٨)﴾ [الطور] أى حين تقوم

الليلَ صلاةً وتسبيحاً وتحميداً وتكبيراً لله .

وقد سُئلت عائشة رضي الله عنها : بأى شيء كان رسول الله يفتتح قيام الليل فقالت : سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، كان إذا قام كبَّر عشراً وحمد الله عشراً وسبَّح عشراً وهلَّل عشراً واستغفر عشراً وقال : اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى وعافنى . وكان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة .

ثم ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾ [الطور] تسبيح دائم مستمر يلهج به لسانك حتى تدبر النجوم ويذهب الليل وتظهر تباشير الفجر فيصلى الفجر ، ثم تسبيح إلى أنْ تشرق الشمس وذِكْرلله .

ثم يقول تعالى :

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

كلمة ﴿هَٰؤُلَاءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] هنا تعود على الكافرين الذين قال الله فيهم هنا فى أول السورة : ﴿ وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤)﴾ [الإنسان]

ونلحظ أن الحق سبحانه بعد هذه الآية الرابعة لم يذكرهم بل ذكر الأبرار وذكر جزاءهم وثوابهم وأعمالهم التى اقتضت هذا الثواب ، حتى جاءت الآية ٢٤ فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)﴾ [الإنسان]

فكلمة ﴿هَٰؤُلَاءِ (٢٧)﴾ [الإنسان] تشير إلى هذا الآثم أو الكفور ، ويصفهم الحق سبحانه أنهم :﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٧)﴾ [الإنسان] والعاجلة هى الدنيا وصفها الله بصفة من صفاتها من النعيم العاجل المتعجِّل .

فالكافرون إنما يريدون العاجلة المنتهية ، فهم طالبو دنيا لا طالبو آخرة ، والإنسان لابد أنْ لا ينظر إلى حياته العاجلة فى الدنيا وشهواتها

فقط بل عليه أنْ يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الآخرة.

إنك إنْ أحببت العاجلة ولم تنظر إلى الحياة الآجلة تكون قد ظلمتَ نفسك ظلماً عظيماً ، فما فائدة متعة عاجلة لها مدة محدودة أمام عذاب غير محدود على تلك المتعة ؟

والمشكلة ليست فيمن يريد أنْ يتمتع بمتاع الدنيا إنما هى فيمَنْ يريد أن يتمتع بها من أى طريق حلالاً كان أو حراماً ، فيحب متعته العاجلة وينسى أنَّ هناك حياة أخروية آجلة.

وإلا فالحق سبحانه قال : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص]

فالله أعطاك نعماً لا تُحصى ، ورزقك رزقاً على قدر نصيبك من هذه الدنيا ، فإنِ ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا فسوف يفنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلته للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول.

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإنك إما أنْ تتركه وترحل عنه وعن الدنيا كلها ، وإما أنْ يزول هو فتصبح فقيراً معدماً.

فإن كنتَ عاشقاً ومحباً للمال مثلاً ولبقائه فى حوزتك فانقله إلى الدار الباقية ليظلَّ فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة.

وإذا كان ربّنا عز وجل يوصينا بأنْ نبتغى الآخرة فهذا لا يعنى أنْ نترك الدنيا ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧)﴾ [القصص] فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك وتظل معك وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة، فكأن نصيبك من الدنيا يصبُّ فى نصيبك من الآخرة فتخدمْ دنياك آخرتك.

المشكلة أن الكافر أو الفاجر أو الظالم يظن أنه لا عقابَ ولا حسابَ

أولا يستحضر عذاب الله ، لذلك تجدهم :﴿ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) ﴾[الإنسان] أي يذرون وراءهم يوماً عسيراً شديداً ، فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يهتمون لوقوعه ، فقد تركوه من كل وجه .

فهو يومٌ ثقيل على الكافرين إذا حُشروا وإذا وقفوا للحساب ، فالمشركون بالله يحبون الدنيا والبقاء فيها ويدعون خلف ظهورهم العمل للآخرة وما ينجيهم من العذاب فيتركونه فلا يؤمنون به ولا يعملون له .

وقد يسأل سائل : لماذا قال تعالى ﴿ وَرَاءَهُمْ (٢٧) ﴾[الإنسان] ويوم القيامة يومٌ سيأتي فهو أمامنا . فالبعض قال : ويذرون وراءهم عمل يوم ثقيل . أي لا يعملون للآخرة .

وكلمة وراء أيضاً مشتقة من توارى ، والشيء المتوارى عنك يقع لما بين يديك وما خلفك ، فيقع لما هو أمامك أو لما هو وراءك .

ثم إن يوم القيامة وراءهم يطلبهم مهما طالت أعمارهم ، فهم تركوه وتركوا العمل به ولكنه يطلبهم وليسوا بفارِّين منه ، ولا بدّ أنه سيلحقهم ويجدونه أمامهم فيقع بهم الحساب والعقاب .

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) ﴾

يذكر الحق سبحانه دلائل قدرته لهؤلاء الكافرين المكذبين، ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨) ﴾[الإنسان] فنحن خلقناهم وشددنا خلقهم ، ويدخل في شَدِّ الخلق شدّ مفاصلهم وقوتهم وخلقناهم خَلْقاً محكماً ذا بصر وسمع وذوق وشمٍّ وحركة لليدين وللرجليْن وقلب ينبض وأجهزة داخل أجسامهم تعمل وجلد يحس ويشعر وأعصاب تنقل الإحساس

باللذة أو بالألم إلى مخ يستوعب كُل هذا أو يصدر أوامر لجوارح الإنسان بفعل فعْلٍ ما.

فشددنا مفاصلهم بالعصب والعروق والجلد لئلا تنقطع المفاصل وقت تحريكها، وشددنا قُبُلهم ودُبرهم لئلا يسيل بولهم وغائطهم إلا عند إرادة الإنسان قضاء حاجته أو أصابه مرض.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨)﴾ [الإنسان] أى إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم فجعلناهم بدلاً منهم، مخالفين لهم فى العمل، فلا يذرون وراءهم يوم القيامة بل يعملون له.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٢٩)﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طه] فإنما أنزلنا القرآن تذكرة أى تذكيراً ﴿لِّمَن يَخْشَى (٣)﴾ [طه] أى لمن يخاف من الله بمهابة وإجلال.

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] السبيل الطريق، أى فَمَنْ شاء الانتفاع بتذكير الله له اتخذ إلى ربه طريقاً يُوصِّله للغاية من التذكرة، وهى الاهتداء بآيات القرآن.

وتحديد الغاية والهدف إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصِّل إلى تلك الغاية.

ونتأمل الآية نجد أن الله ذكر السبيل بصيغة النكرة، فقال: ﴿سَبِيلًا (٢٩)﴾ [الإنسان] أى وجهةً وطريقاً إلى الخير، ووجوه الخير كثيرة قد تكون فى الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو مساعدة المحتاجين.

فما دمتَ قد سلكتَ سبيل الإيمان بالله ورسوله فلك أنْ تُعرف بسلوك سبيل من سبل الخير والطاعات، فسبيل الله آمنُ لكم وأيسر من السبيل الذى يوصِّل إلى عذاب جهنم.

ثـم يقـول الحـق سـبحـانـه:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾

إذا كان الحق سبحانه قد أثبت للإنسان مشيئة ، فقال :﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩)﴾ [الإنسان] فإنه هنا أثبت أن مشيئتنا من داخل مشيئة الله ، فلو لم يشأ الله لم تكُنْ مشيئتنا .

فقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٣٠)﴾ [الإنسان] فلا أحدَ يستطيع أنْ يخرج عن مشيئة الله أو إرادته ، وكل شيء من فعل الله ، فالله هو الذى خلق اختيار الإنسان لأمر معين .

فلا يحدث فى كون الله إلا ما يريده ، فاختيار الكافر للإيمان لم يكُنْ غَصْباً عن الله بل بإرادته سبحانه ، والله هو الذى خلق له الاختيار .

فالإنسان خُلق على هيئة القَسْر فى أمور ، وعلى هيئة الاختيار فى أمور ، فلا الفقير يستطيع أنْ يثْرى دون مشيئة الله ، ولا المريض يستطيع أنْ يشفى دون مشيئة الله ، ولا الضعيف يستطيع أنْ يقوى ضد إرادة الله .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ (٢٤)﴾ [الكهف] فإياك أنْ تقول : إنى سأفعل شيئاً إلا أنْ تشتمله وتربطه بمشيئة الله ، فأنت لا تفعل شيئاً إلا بإرادة الله ، فلا تعد إلا بالمشيئة .

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)﴾ [الإنسان] فقد ثبت لله العلم والحكمة أزلاً، لذلك قال ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ (٣٠)﴾ [الإنسان] فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير، وما دام كان فى الأزل عليماً حكيماً فهو كذلك إلى الأبد .

ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ (كان) ، فإياكم أنْ تأخذوا (كان) على أنها

وَصْفٌ لما حدث في زمن ماضٍ ، ولكن لنقُلْ (كان وما زال) .

لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو سبحانه عليم قبل أنْ يوجد معلوم ، وهو سبحانه حكيم قبل أنْ يوجد ما يحتاج إلى الحكمة . والحكيم لا بد أنْ يكون عليماً ، وإلا كيف يكون حكيماً في تدبير أمر لا يعلم كُنْهه ولا ماهيته .

ثم يُنهي الحق سبحانه سورة الإنسان بقوله تعالى :

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

فالحق سبحانه بمشيئته يُدخل مَنْ يشاء في رحمته ، ورحمته دينه وقيل جنته ، والدخول في الدين يُوجب الجنة بمشيئته سبحانه ، فلا تعارض بين الدخول في الدين والدخول في الجنة . والمؤمنون إنما يدخلون الجنة برحمة الله ومشيئته لا بموجب العمل وحده ، فدخول الجنة إنما هو بموجب الفضل والإحسان ، لا بسبب الاستحقاق .

فالأمر متعلق بمشيئة الله سبحانه ، فالله لم يشأ أنْ يدخل في رحمته مَنْ علم منه أنه يختار الضلال ، ولكن إنما شاء أنْ يدخل في رحمته مَن علم منه أنه يختار الهدى .

فالذين ظلموا أنفسهم فماتوا على شركهم وكفرهم أعدَّ لهم في الآخرة عذاباً أليماً مؤلماً موجعاً وهو عذاب جهنم ، الذي فصَّل فيه الحق سبحانه القول في آيات سورة الإنسان .

والله هو الذي أعدَّ لهم هذا العذاب الأليم ، وكل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبي منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب


سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) ﴾

يقول تعالى ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) ﴾ [المرسلات] يقسم الله بالرياح المرسلة، فالله يرسلها يقول تعالى ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (٥٧) ﴾ [الأعراف] وهي تُرسَل كهيئة عُرْف الفرس متتابعة يتبع بعضها بعضاً، وأحياناً تكون مرسلة برحمة الله رخاء تسوق الخير إلي الناس.

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا[1] سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧) ﴾ [الأعراف]

هذه الرياح المرسلة بالخير والبشرى، أما تلك المرسلة شراً وعَصْفاً فقد قال الله عنها: ﴿ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) ﴾ [المرسلات]

---

(١) ثقالاً: أي سحباً ممتلئة ماء كثيراً. [القاموس القويم ١/١٠٨] فنجد لونها داكناً لما تحمله من ماء.

والريح العاصفة أى الريح الشديدة القوية ، وهى غير الرُّخاء السهلة اللينة ، فالعاصفة سريعة قوية شديدة تعصف بما يكون أمامها من أشياء ، ونحن نرى الريح العاصفة على الطرق الصحراوية إذا هبَّت واحدة منها فإنها تغطى الطرق بحيث تعوق حركة المرور إلى أنْ تُزاح عنها هذه الطبقة من الرمال.

وإذا هبَّتْ على مياه البحار تكون نوَّة أو تسونامى يعلو فيها الموج ارتفاعاتٍ عالية تعصف بالسفن العملاقة حينها يغلقون الموانىء والبوغازات أمام حركة السفن والصيد.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا(٣)﴾ [المرسلات] الواو هنا للقسم والناشرات الرياح التى تنشر السحب الثِّقَال فتأتى بالمطر، والنشر ضد الطىّ.

والبعض قرأ الآية : بُشْراً ، وحجته قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ(٤٦)﴾[الروم] وذلك أن الريح تبشر بالمطر.

ورياح الرحمة ثلاث منشرات كقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣)﴾ [المرسلات] والمبشرة كقوله (مبشرات) والثالثة الذاريات فهذه رياح الرحمة تهبُّ على كل شيء فى الدنيا.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤)﴾ [المرسلات] فالفارقات هى الرياح التى تفرق بين السحاب فتبدده ، فيذهب بعضه فى أفق ، والبعض فى أفق آخر.

﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾ [المرسلات] فالرياح إذا كانت عاصفة شديدة قوية قلعت الأشجار وهدمت المنازل ، حينها يحصل خوفٌ للعباد فى قلوبهم فيلجئون إلى الله تعالى ويذكرونه فصارت تلك الرياح كأنها ألقتْ الذكر والمعرفة فى القلوب عند هبوبها.

فالرياح تظهر بها النعم ، إذ تسوق النعم بسوْقها للسحب المحمَّلة بالماء فتكون خيراً ونماءً لقوم عطشت أرضهم ، فيكون اهتزاز أرضهم خضراً ، فيذكرون نعمة الله عليهم.

﴿هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (٥٧)﴾ [الأعراف]

نلاحظ أن الحق سبحانه ذكر عدة كلمات مما هى فى آيات سورة المرسلات التى معنا مما يكون حجة لمن ساق الآيات فى الرياح.

فكلمات (يرسل) هى (والمرسلات) ، وكلمة بشراً هى ما ذكرناه من قراءة مَنْ قرأها : والناشرات بُشراً ثم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)﴾ [الأعراف] هى (الملقيات ذكراً) فتترك أثراً فيمن يرى آية الله فى هذا فيذكر الله ويُسبِّحه على ما أنعم به.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات] أى إعذاراً إلى الله ، والعذر محو الإساءة وطمسها وهى من إبداء العذر للخروج من الذنب ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ (١٦٤)﴾ [الأعراف] أى فعظهم اعتذاراً إلى الله وأننا قد أبلغناهم رسالة ربنا فلم يعد لهم عذر.

أما نُذراً أى إنذاراً وتخويفاً ، والذكر يحقق الأمرين الإعذار والإنذار.

وإذا كنا قد سُقْنا الآيات هنا أنها فى وصف الرياح ، وأنها مُرسَلة من الله ، وأنها قد تكون عاصفة تهب أو ناشرات تنشر السحاب وتفرِّقه وتبدده فى كل اتجاه ليصل إلى بلاد بعيدة ، وأنها تذكِّر عباد الله بنعمه ونقمه ، إنْ كانت خيراً فهى نعمة ، وإنْ كانت شراً فهى نقمة .

إذا كان هذا كله فى الرياح فإن بعض العلماء تأول هذه الآيات كلها تأويلاً آخر أنها الملائكة ، والبعض ساق بعض الآيات فى الرياح وبعضها فى الملائكة ، والبعض ساقها كلها فى الأنبياء ، والبعض ساقها كلها فى القرآن.

فآيات القرآن كانت تتنزل متتابعة تعصف القلوب بذكر الوعيد فهى العاصفات ، وتنشر أنوار الهداية والمعرفة فى قلوب المؤمنين فهى الناشرات نَشْراً .

وهـى التـى تفرق بين الحـق والباطل ، فهـى الفـارقـات فرقـاً ، وهـى ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا(٥)﴾ [المرسـلات] فتلقـى الإيمـان والنـور وحـب الطاعـة فـي قلـوب المؤمنيـن ، إعـذاراً إلـى الله وإنذاراً لعبـاده وتخويفاً فهـى ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المرسلات]

بعـد هـذه الآيـات المقسَـم بهـا يذكـر الحـق سـبحانه المقسَـم عليه ، فيقـول تعالـى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝٧ ﴾

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ (١٣٤)﴾ [الأنعام] ووعده وإيعـاده لا بـد أنْ يتحقق وأنْ يأتى أوانـه فيصبح واقعاً ، لذلك قال ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات] أى متحقـق في عالـم الواقع وستشـهدونه بأنفسكم ، وفى آية أخـرى يقـول : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥)﴾ [الذاريات] إذن : مـا وعدكم الله به آتٍ وواقع وصـادق .

وسـواء كان المقسـم بـه هو الرياح أو الأنبياء أو القـرآن أو الملائكة، فـإن اجتمـاع هذا كله يـدلّ على عظيم المقسَـم عليه ، وهو يـوم القيامة، فـالله إنمـا يقسـم بالعظيـم علـى العظيـم .

وكلمـة ﴿لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسـلات] لهـا وقـع عظيم وشـديد على الأسـماع والقلـوب تجعـل القلـوب ترتجـف ، ولذلـك سُـمِّيت القيامـة بالواقعـة ، وجعل لها الحق سبحانه سـورة بهذا الاسـم .

وقـد ذكـر الحسـن البصـرى أن عمـر بـن الخطاب رضـى الله عنه قـرأ قوله تعالـى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨)﴾ [الطور] فربـا منهـا ربوة عيد منهـا عشـرين يومـاً »[1] أى مرضـ منهـا وزاره العُـوَّاد عشـرين يومـاً .

---

(١) أورده ابن عطية الأندلسى (ت ٥٤٢ هـ) فى كتابه المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز (٣٨/١) وفيه أن عمر أَنَّ أنَّة . وأورده ابن كثير فى تفسيره (٧/ ٤٣٠) وعزاه للإمام أبى عبيد فى فضائل القرآن (١٣٦/١) وبنحو ما ذكره ابن عطية ذكره الثعالبى فى تفسيره (الجواهر الحسان) (١/ ١٣٠) .

﴿ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾

فأول ما يحدث من وقائع يوم القيامة أنْ تُطمس النجوم التى تزيِّن السماء وتنيرها، فتظلم الدنيا وتصبح سواداً حالكاً مظلماً.

فطمْسُ النجوم إذهابُ ضوئها ونورها، فأنت عندما تريد أنْ تلقى الفزع فى قلوب الناس تظلم عليهم المكان فلا يروْنَ شيئاً مما يجرى حولهم، وهذا يكون أشدَّ عليهم، فهم لا يعرفون إلى أين يذهبون.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)﴾ [يس] فأوَّل ما يحدث الطمس على أعينهم وجعلهم لا يرون شيئاً فيتسابقون على الصراط كالعميان يخبطون فى بعضهم البعض لا يدرون إلى أين هم ذاهبون.

فأول مشهد من مشاهد يوم القيامة أن النجوم ينطفىء نورها، فتظلم السماء والأرض وتصبح حالكةَ السواد.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩)﴾ [المرسلات] أى وإذا السماء انشقت، لكن الانشقاق هنا له معنى آخر، فمعناه انفراجها وانفتاحها لنزول الملائكة.

وهو معنى قوله فى سورة النبأ الآتية بعد سورة المرسلات: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)﴾ [النبأ] فانفراج السماء وانفتاحها وانشقاقها إنما هو لنزول الملائكة للحساب.

فينزل الملائكة من السماء ويحيطون بالأرض التى تُبدَّل غير الأرض يحيطون بها من كل جانب على أطرافها، يقول تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا (١٧)﴾ [الحاقة] أى على أطرافها ونواحيها حين تشقق السماء.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)﴾ [المرسلات] ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويزيلها عن وجه الأرض فغيرها زائل من باب أَوْلى .

والإنسان ينظر إلى الجبال نظرةَ رهبةٍ وإعظامٍ لقوتها وصلابتها ورهبتها ، فيقول لك جبال الألب وجبال الهيمالايا والتبت وأطلس وطوروس ويتحاكى الإنسان بقوتها وارتفاعها وصلابتها .

فها هى الجبال أيها الإنسان تُنسف فيختلّ توازن الأرض التى تعيش عليها بإيجادنا إياك عليها ، فماذا ستفعل ؟ وإلى أين ستذهب ، وها هى السماء فوقك قد انشقتْ وفُرِجت وانفطرتْ ، ونزل منها الملائكة لتحقيق وعد الله ووعيده ، فلماذا تكذِّب ؟

تنسف الجبال فتصبح ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾ [القارعة] أى كالصوف المندوف ، وتصير هباءً منثوراً أى ذرات تراب متناثرة تذروها الرياح .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ (١١) لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ (١٢) لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ (١٣) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ (١٤) ﴾

﴿أُقِّتَتْ (١١)﴾ [المرسلات] أى وقتّت وهى قراءة أخرى فى الآية ، أى ضُرب لهم ميقات معين لا يعلمه إلا الله للبعث بعد الموت وللجمع والحشر والحساب والعقاب .

فكلمة (أقتت) من الميقات والوقت ، والحق سبحانه يقول : ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة] والميقات من الوقت ، والوقت هو الزمن فحينها يُجمعون لوقتٍ واحد تجتمع فيه كل الأمم .

ومَنْ يتأمل النسق القرآنى يجد عجباً ، ففى آية سورة الواقعة قال تعالى : ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾[الواقعة] فى شأن الجمع إلى يوم القيامة ، أما فى جمع سَحرةً فرعون فقد قال تعالى : ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨)﴾ [الشعراء]

الأولَى (إلى ميقّات)والثانية (لميقات) . فى شأن جمع السحرة استخدم الحق سبحانه اللام فقط متصلةً بكلمة ميقات مباشرة دلالةً على قِصَر المدى الزمنى لتحقُّق الميقات .

أما فى شأن القيامة الموعود بقيامها منذ بدء الخليقة فاستخدم الحق سبحانه (إلى) ، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى ، وهذا دلالة على البُعد الزمنى لتحقّق هذا ، ولكنه آتٍ وواقع ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)﴾ [المرسلات]

ثم يسأل الحق سؤالاً يعلمْ إجابته فيقول : ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)﴾ [المرسلات] أى لأى يوم أخِّرت ، وضُرب الأجل للجميع لأنه لنْ يتخلف أحد ولن يفر أحد ، والتاء الساكنة فى (أجلت) تعود على الساعة والقيامة . وهذا تعظيم للوقت الذى يقع فيه الفصل والجزاء ، والمراد باليوم الحين والزمان .

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات] إنه يوم الفصل أى يوم الحكم بين المختلفين والمتخاصمين ، وهذا يحكم فيه الله ، وهو القادر سبحانه على أنْ يفصل بينهم بالحق .

ومتى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا فالدنيا دار اختبار وليستْ دار حساب ولا محاسبة ولا فصْلَ فى قضايا الإيمان .

ولذلك فإن الفصل والحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعاً : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾ [البقرة] والذى سيفصل بين الناس هو الله الذى لا هوى له ولا مصلحة له

سبحانه في أنْ يميل حكمه وفصله ناحية أحد بعينه ، ولا بد أنْ يكون الفصل بين الأمرين بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضي أنْ تكون له كفّة هنا وكفة تقابلها . ونحن نسمي هذا الإنصاف في الحكم أي نقف في النصف دون ميل أو حَيْف .

ثم يؤكد الحق المعنى فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤)﴾ [المرسلات] إنك لا تعلم ما يوم الفصل يُعظمه الله ويهوّل منه تعظيماً لشدتها .

فمن أين تعلم كُنهه وماهيته ولم تَرَ مثله في شدته ومهابته فما علمك يا أشرفَ الخلق بيوم الفصل وشدته ، فلا تعلم عِظمه وأهواله على سبيل التفصيل وإنْ كنتَ تعلمها إجمالاً .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ⑮ ﴾

هذه الآية ذُكرت في هذه السورة عشر مرات بدءاً من هذه الآية ، فالسورة كلها تهديدٌ شديد ووعيد للمكذبين الذين كذَّبوا بيوم القيامة يوم الفصل .

وكلمة (ويل) تعني الهلاك والعذاب وتُستعمل للتحسُّر على غفلة الإنسان عن العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا (٤٩)﴾ [الكهف] وقوله جلَّ جلاله : ﴿يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَـٰذَا(٩٧)﴾ [الأنبياء]

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب ، وقيل : إن الويل وادٍ في جهنم يهوي الإنسانُ فيه أربعين خريفاً والعياذ بالله .

وساعة ترى ﴿يَوْمَئِذٍ (١٥)﴾ [المرسلات] وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوضٌ عن شيء محذوف ، والمحذوف هنا جملة ، والمعنى : يوم إذ يأتي يوم الفصل .

حينها ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾ [النساء] فهو يوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وقد أسماه الحق سبحانه مشهد اليوم العظيم ، فقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾ [مريم] فهو يوم مشهود يشهده الجميع، فالعذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذى يراه كلُّ الخلق.

والحق سبحانه يقول عن المكذبين : ﴿أَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ [الواقعة]

فكلُّ مكذِّب ضال سينزل إلى الحميم ويَصْلى الجحيم ويعاني من عذابها حقَّ اليقين ، وهم عندما يعانون عقابهم لتكذيبهم يقولون: ﴿ لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

الأولون : الأقوام السابقة التى كذَّبت بالله والإيمان والقرآن ، كذَّبوا برسلهم ، فالحق سبحانه يسأل أهل مكة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ : ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦)﴾ [المرسلات]

لقد وصل إلى أسماعكم جزاء الأقوام السابقة عليكم وما حدث لهم نتيجة تكذيبهم وكفرهم ، فأهلكناهم حين كذَّبوا رسلهم ، فأهلكنا بعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ .

والأولون هم قوم نوح وعاد وثمود الموغلون في القدم ، أما

الأخيرون فهم قوم فرعون وقوم لوط وغيرهم القريبون من زمان بعثة رسول الله .

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)﴾ [المرسلات] فكذلك سنفعل بمجرمي هذه الأمة من كفار قريش الذين كذَّبوا رسول الله وكفروا بالله وصدوا وأعرضوا ، وصدوا غيرهم عن الإيمان بالله .

فكفرهم وتكذيبهم هو أعظم جُرْم يرتكبونه ويترتب عليه كل الأفعال التي تُعتبر جرائمَ في عرف القانون والشرع ، فما دام لم يؤمن فتوقع من الكافر أنْ يفعل كلَّ الموبقات من قتل وزنا وسرقة لأنه كذَّب بالمنهج أصلاً ، فهو ينطلق في حياته بموجب هواه .

لذلك توعد الله هؤلاء المكذبين المجرمين بالويل ، فقال ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩)﴾ [المرسلات]

ثم يقول تعالى مذكِّراً لهم بأنه الذي خلقهم وأوجدهم ، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾

لِمَ تكفرون وتتكبَّرون على الله وتُكذِّبون رسله ونحن خلقناكم من ماء مهين ، وقد وصف الله الماء الذي خُلق منه الإنسان بأنه ﴿مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠)﴾ [المرسلات] لأنه يجري في مجرى البول ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم .

والمهين أيضاً الضعيف ، فهو ماء ضعيف وهو نطفة الرجل أو المرأة ، ورغم ضعف أصل خِلْقة الإنسان فقد خلق الله منه إنساناً

سميعاً بصيراً عاقلاً مفكراً ، وشدَّ الله أَسْره وشد عضلاته وأعصابه وعظامه ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ (٢٨)﴾ [الإنسان]

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] الهاء فى ﴿فَجَعَلْنَاهُ (٢١)﴾ [المرسلات] أى فصيَّرناه وسهَّلنا له طريقاً يصل به هذا الماء المهين وهو النطفة إلى الرحم ، ليتحقق به مراد الله من خَلْق نسمة إنسانية .

وسمَّى الله رحم المرأة بـ ﴿قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١)﴾ [المرسلات] لأن فيه تستقر نطفة الرجل بعد تلقيح بويضة المرأة تسعة أشهر أو أقل أو أكثر ، فهو مكان مُحصَّن جعله الله صالحاً لاستقرار النطفة التى تصبح علقة ثم مضغة ثم تصبح عظاماً ثم يكسو اللهُ العظامَ اللحم ، ثم يُنشئه الله خَلْقاً آخر فيخلق له السمع والبصر.

وقرار يعنى مستقر تستقر فيه النطفة ، وهو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصَّنه بعظام الحوض وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢)﴾ [المرسلات] هو مدة حمل المرأة لجنينها فى رحمها وهى مدة معلومة لنا . حينها تلد المرأةُ فى الوقت الذى يشاؤه الله ، والقدر وقت الشيء المقدَّر له والمكان المقدَّر له .

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] فقدرنا على خَلْقه وتصويره فى أحسن تقويم وأحسن هيئة ونصبنا ظهره فلا يسير على أربع كالدواب، وجعلنا خَلْقه صالحاً لأنْ يعيش فى أى بيئة كانت فتجد الإنسان يعيش فى كوخ أو خيمة أو كهف أو حتى فى ناطحة سحاب .

فجاءت هنا (فقدرنا) من القدرة لذلك ناسب أنْ يأتى بعدها ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾ [المرسلات] ولكن البعض قرأ هذه الكلمة بتشديد الدال من

(فقدرنـا) فقـال : فقدَّرنا ، مـن التقدير . مثل قولـه تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ (٣٩)﴾ [يس]

واستحسـن بعضُ العلمـاء قـراءة (فقدرنـا) مـن القـدرة لأن الله قـال بعدهـا ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾[المرسلات]ولـم يقُـلْ: المقـدِّرون.

ولكـن كلاهمـا محتمل فإن مَنْ يُقدِّر الشـيء ويخلقه على هيئة حسـنة فهـو قـادر بقدرتـه، وقـادر بتقديـره وعلمـه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤)﴾ [المرسلات] فـإذا كنـا خلقناكـم ونخلقكـم وسـنخلقكم مـن مـاء مهيـن حقيـر ضـعيف ونجعله حال خـرج منكم فى محلـه المخلـوق له نجعله فى قرار مكين مسـتقر حصـين إلى زمن معلوم لله، فلِمَ تكذِّبـون ؟

ثـم يُذكِّرهـم الله بالأرض التـى يعيشـون عليهـا:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾

فجعلنـا الأرض تكفت النـاس أحياء وأمواتاً ، أى تضـمهم وتجمعهم، فهـى تكفـت الأحيـاءَ فيسكنون ظهرهـا وتكفـت الأمـوات فـى بطنهـا.

مَـنْ يتأمـل معنى الكَفْت يجـده عجيباً فهم يصـنعون من مواد الأرض قوالـب الطـوب يبنـون بـه مسـاكنهم ، ويصـنعون أسـمنتاً يمسـكون بـه الطـوب ببعضـه ، ومـن الشجر أسـقفاً لبيوتهـم ، كلـه مـن الأرض.

وتلمـح فـى الآية ملمحاً يؤدى بك إلى القول أن الله ذكـر فيها جاذبية الأرض ، فالأرض تكفتهـم أحيـاء فتضـمهم إليهـا ولا تتخلـى عنهـم

وكأنهم مجذوبون إليها بشيء يربطهم بها حتى إذا سقطوا من علٍ فإنها تضمهم إليها، ولا يخرجون خارجها.

حتى الأموات تضمهم قبور الأرض إليها ولا تتخلى عنهم إلا فى يوم البعث، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ [الانفطار] ويقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩)﴾ [العاديات]

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] حفظنا لهم الأرض التى يعيشون عليها بأنْ جعلنا فيها رواسى تجعل الأرض راسيةً لا تضطرب ولا تتحرك ولا تميد بهم.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ (١٥)﴾ [النحل] والرواسى جمع (راسٍ) وهو الشيء الثابت، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لَمَا احتجنا إلى الجبال الرواسى كى تثبتها، لكن الأرض مخلوقة متحركة وهى عُرْضة للاضطراب، ولولا الجبال الرواسى لمادت الأرض.

﴿شَامِخَاتٍ (٢٧)﴾ [المرسلات] أى عاليات طوال مرتفعات فى السماء شاهقات، وكل عالٍ فهو شامخ. ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر الجبال هنا بصفة من صفاتها واختار هنا صفة الشموخ.

فإنْ كنتَ أيها الإنسان المخلوق من ماء يجرى من قُبل الرجل إلى ماء موجود فى قُبل المرأة ليستقر فى رحم المرأة فهناك ما هو أكبر منك وأشمخ وأرفع أنا خالقه لك لتستطيع أنْ تعيش على هذه الأرض فخلقت الجبال لتمسك الأرض.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧)﴾ [المرسلات] لماذا ذكر الله الماء الفرات بعد ذكر الجبال؟ لأن الأمطار الغزيرة إنما تنزل على قمم الجبال الشامخة العالية، ثم تنحدر نازلة حتى تجرى أنهاراً على وجه الأرض.

كل الأنهار يأتى ماؤها هكذا ، من فوق قمم الجبال كجبال الحبشة مثلاً التى ينحدر منها الماء العذب ويتجمع حتى يصبح نهر النيل ، والماء الفرات هو الماء العذب الزلال الذى يصلح للشرب يرتوى منه الإنسان وتشرب منه الأنعام ونروى به الزرع .

فالماء الفرات الشديد العذوبة الذى يستسقيه الإنسان يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾ [فاطر]

وقد يسأل سائل : وهل فى جزيرة العرب ماء فرات وأنهار ؟ بالطبع لا ، ولكنها حول الجزيرة العربية فى العراق والشام ومصر وأهل مكة يعرفون بها وإنما كانت سُقياهم من ماء الآبار.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات] هل مازلتم تكذّبون وتكفرون وتنكرون ؟ فاعلموا أن الأرض ستبدّل غير الأرض والجبال ستنسفها والماء العذب الفرات سيصبح ماءً مِلْحاً أُجاجاً فـ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨)﴾ [المرسلات]

﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

رغم تكذيبكم بالبعث والحساب والعقاب فها أنتم تواجهونه حقيقة فهو حَقٌّ وواقع رغم تكذيبكم به ، فتكذيبكم لن ينفى أنه حق ، وقد أنذرناكم وحذرناكم وأكدنا لكم فما آمنتم وما صدَّقتم .

الآن عليكم أنْ تواجهوا ما كنتم تكذِّبونه وتظنون أنه لن يحدث، الآن ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾ [المرسلات] إنهم يخرجون من قبورهم سراعاً، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا (٤٤)﴾ [ق]

لذلك يقول لهم: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾[المرسلات] والانطلاق فيه إسراعٌ بقوة، مثل انطلاق الفرس من مربطه فذهب على وجهه.

ولكن هناك انطلاقٌ في استخفاء وانطلاق في جدٍّ، والمقصود هنا في الآية الانطلاق في إسراع، وقد يكون الانطلاق هنا هو مجرد الذهاب إلى مكانٍ ما.

﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠)﴾ [المرسلات] انطلقوا إلى ظل من يحموم، ظل نار موقدة، فدخان جهنم إذا سطع وارتفع تشعَّب وتفرَّق ثلاث فرق، فيُقال لهم كونوا فيه إلى أنْ يُفرغ من الحساب كما يكون أولياء الله تعالى في ظلِّ عرشه.

وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعَّب ثلاث شُعب على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، إنه ظل خانق حار لافح، وتسميته بالظل ليس إلا امتداداً للتهكم.

لأنه ظِلٌّ: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾ [المرسلات] فلا هو ظِلٌّ حقيقي يقيك حَرَّ النار، ولا هو يُغنيك عن اللهب.

وقد تكلمنا عن أهل الجنة وأن الله يُدخلهم: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾ [النساء] وأنه ليس مجرد ظل بل هو ظل ظليل هو نفسه يُظلل بعضه، فلا يصل لمَنْ يجلس في ظل الشجرة لا الشمس ولا الهواء الحار ولا الزمهرير.

أما الظل في النار فهو ليس ظليلاً، لذلك فهو ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١)﴾

[المرسلات] فيصل حر النار ووهجها إلى الوجوه فتشويها ، فما بالنا إذا قاسوا الإلقاء في النار نفسها .

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] لك أنْ تتخيل هذا المشهد، يقف المكذِّب يرى النار وهي تتقد وتشتعل وتتوهج يأكل بعضُها بعضاً، وهو واقفٌ في ظِلٍّ يظنه ظلاً وأنه سيُغنيه من اللهب ، ولكن النار ترمي بشرر بحُمَم ومقذوفات تخرج من النار تصيب أولئك الواقفين المنتظرين للإلقاء فيها .

وهو ليس أي شرر بل هو شرر ﴿كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ [المرسلات] شرر عظيم كالقصر بضخامته وكبر حجمه ، والقَصْر المقصود هو أصول الشجر يكون في الصحراء ، فإذا جاءالشتاء قطعت أغصانها فتبقى أصولها، فتراها كأمثال الجمال إذا أنيخت في الصحراء . والآية تحتمل أيضاً أنْ يكون القَصْر هو القصر المعروف الكبير الضخم .

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ(٣٣)﴾ [المرسلات] جمالة جمع جَمَل . فإنها تبدو كأنها جمال عظيمة صفراء متناثرة في الصحراء ، والبعض فسَّر (صفر) هنا بأنها سوداء . ولكنها صفراء كقطع النحاس إذا توهج من الاحتراق ، والبعض قال إنها لسواد النار وظلمتها تبدو سوداء تميل إلى الاصفرار .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ(٣٤)﴾ [المرسلات] فأيًّا كان لون الشرر وصفته فإنه شررٌ ولهب ونار محرقة ، فلم تكذِّبون وتُوردون أنفسكم موارد الهلاك؟ لم تعرِّضون أنفسكم للإلقاء في هذا الوادي السحيق في النار الذي يسمى (ويل) ؟

ثم يقول الحق سبحانه:


﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ولا يأذن لهم الحق بأنْ يقدِّموا أعذاراً أو اعتذاراً.

فهم لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم ، لا ينطقون قولاً ينفعهم في الموقف الذي هم فيه قد تكون مجرد إلقاء اللوم على بعضهم أو التبرؤ من الآخرين ، فماذا يُجدي هذا ؟ وبماذا ينفعهم ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا (١١١) ﴾ [النحل]

وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آياتٍ تناقض بعضها ، فهناك آياتٌ تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفي القدرة على الكلام.

ويجب أنْ نفهم أنَّ الكلام الذي سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدي النافع ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذي لا يفيد مثل لومهم بعضهم البعض.

وقد ذكر الله بعضه فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدي . إذن فالممنوع هو الكلام المجدي المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة فوقت يتكلمون فيه ، ووقت يُؤخذون فيه فلا يستطيعون التكلم.

والمقام هنا ليس مقامَ كلام أو نُطْق ، لقد انعقدتْ ألسنتهم عن الكلام والنطق ، لقد صدر الحكم عليهم ، فليس المقام مقام حساب يجيبون عليه ، بل هو مقام الجمع والحشد للإلقاء في النار ، فماذا عساهم أنْ يقولوا ؟

لقد انتهى الأمر فلن يُؤذن لهم ليبدوا أعذاراً أو اعتذاراً ، فلن يجديهم هذا شيئاً ، لقد قالوا كلَّ شيء عند الحساب ، أما وقد صدر الحكم

عليهم أنهم من أصحاب النار فلا نطق ولا كلامَ ولا اعتذار.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

هذا اليوم الذى جعلناه لكم موعداً للبعث والحشر والحساب، هذا هو اليوم الذى جُعل لكم ميقاتاً تنالون فيه جزاء كفركم وتكذيبكم لرسلنا وكتبنا. هذا هو اليوم الذى قيل فيه: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣)﴾ [المرسلات]

وهنا يقول تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨)﴾ [المرسلات] والجمع الحشر والحشد، جمعناكم مع مَنْ سبقوا فى العصور الموغلة فى القدم لم يتخلف منهم أحد، بل أتينا بكم جميعاً وتحقق الوعد الذى كنتم تكذِّبون به وتفرُّون منه وتعتقدون أنه ليس بآتٍ.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩)﴾ [المرسلات] قد كنتم فى الدنيا تكيدون لأوليائى وللمؤمنين بى وتمكرون بهم وتتآمرون عليهم وتؤذونهم، فالآن أرونى كيدكم ومكركم وتآمركم:

فإن كان لكم حيلة فاحتالوا لإنجاء أنفسكم من عقابه، ولكنهم لا يستطيعون، فلقد انقطع مكرهم وكيدهم وحَوْلهم وحيلهم ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦)﴾ [الصافات] إنهم حتى لا يستطيعون النطق.

ثم يذكر الحق سبحانه المتقين كأنه يُذكِّرهم بما لهم إنْ هم آمنوا واتقوا ولم يكذِّبوا:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾

الحق سبحانه منح الإنسانَ الاختيار بين المتقابلات : الإيمان والكفر، التقوى والفجور، الهداية والضلالة، النعيم والجحيم، الجنة والنار.

لذلك ذكر لنا الحقُّ سبحانه عقابَ وحساب الذين كفروا وكذَّبوا، ثم يذكر لنا المتقين الذين آمنوا وصدقوا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١)﴾ [المرسلات] تلك ظلالٌ وارفة في حدائق غنَّاء، لا كتلك الظلال التي من يحموم التي لا تُغني من اللهب.

فالمتقون في جنات هي الظلال ويُضاف إليها العيون والأنهار والنعيم. فهم في ظلال وعيون تجري بالماء، والعيون ليست هي الآبار إنما هي فتحات كالعيون ينبع منها الماء وهذا أبهج.

كما نقول نحن (مجرى العيون) أي العيون التي تجري منها الماء، ولم تعد مجرى للعيون إنما عيون صماء لا يجري فيها شيء.

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾ [الشعراء] فقد كانت لهم عيون يجري منها الماء، أما الآن فهي تحت أطباق التراب.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤١)﴾ [المرسلات] فليس الأمر أمر طعام وشراب فقط إنما الحق سبحانه يمتنُّ علينا بما نشتهي من الفواكه التي تسرُّ القلب وتُفرحه.

فواكه يتلذذون بها يأكلون منها كلما اشتهوا لا يخافون ضررها ولا عاقبة مكروهها، وهي فواكه من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا.

وقد وصف الحق سبحانه فاكهة الجنة ، فقال : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة] فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا لأنها تأتى فى وقت ، وتنقطع فى وقت ، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن ولها آفات كثيرة وليس فى فواكه الجنة آفة .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وفى هذا القول فعلٌ وردّ فعل ، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام السالفة الماضية التى خلتْ ، وردّ الفعل هو الطعام والشراب الهنيء فى الآخرة .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة] فهذا تعليل لما هم فيه من نعيم أنهم كثيراً ما تعبوا واضطهدوا وعُذّبوا ، وجزاء مَنْ عُذّب فى الدنيا أنْ نسعده فى الآخرة .

﴿هَنِيئًا (٤٣)﴾ [المرسلات] فلتهنأ أنفسكم وتسعد بما تأكلونه وتشربونه بدون أنْ يضركم أو يُلجئكم إلى المهضمات من العقاقير . إنه طعام وشراب هنيء تستلذون به .

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات] وتعملون غير تفعلون وغير تصنعون ، فالعمل يشمل كل الأفعال التى بالجوارح اليد والقدم والعين وغيرها ، وتشمل أيضاً عمل القلب من الصدق والإخلاص والتسامح ، لذلك قال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

ولا يفكر أحد أنْ يكون نصيبه من العمل عمل قلبه فقط ، بل ليأخذ معه إلى الدار الآخرة أعمالَ جوارحه أيضاً ليثيبه اللهُ جزاءَ عمله ما يسرُّه ويُقال له : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [المرسلات]

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾ [المرسلات] فكلُّ مَنْ أحسن العمل وهو مؤمن بالله وبكتابه وبرسوله يجزيه الله أجزل الثواب.

هذا جزاء مَنْ أحسن: ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون أكل وشراب هنيء.

وتعود الآياتُ بنا إلى ما ينتظر المكذبين فتقول:

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) ﴾

يقول الحق سبحانه لهؤلاء المكذبين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا (٤٦)﴾ [المرسلات] في الدنيا إلى منتهى آجالكم، لقد كفرتم بي وكذبتم مَنْ أرسلتهم إليكم وكذَّبتم بالبعث والجنة والنار، ولكن أنا من خلقتكم، وبربوبيتي لن أمنع عنكم عطائي وإنْ كنتم كافرين، فأنا الذي أوجدتكم في هذه الحياة الدنيا وقد تعهدتُ برزقكم.

فـ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا (٤٦)﴾ [المرسلات] ولكن أكلكم أكل أنعام وبهائم، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ (١٢)﴾ [محمد]

ومتعتكم في الدنيا قليلة، ستزولون عنها بوفاتكم أو ستزول هي عنكم بفنائها، فتصبحون فقراء بعد أن كنتم أغنياء، ضعفاء بعد أنْ كنتم أقوياء، مرضى بعد أنْ كنتم أصحاء.

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦)﴾ [المرسلات] فوصفهم الله بالإجرام، وقد جعل الله لكلِّ صاحب دعوة سماوية عدواً من المجرمين، فالسماء لا تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقاومَ له.

وهكذا يجعل الله لكلِّ نبي ورسول عدواً من المجرمين، وهذا العدو يُفتن به الناس ويميل له ضعاف العقائد ظناً منهم أنَّ لهم الغلبة. ولا يعرفون أن هذه الغلبة الظاهرة هي غلبة مؤقتة.

لأن لهم الويل حين البعث، ذلك الذى كانوا يُكذبون به فسيلاقوا جزاءهم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧)﴾ [المرسلات]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾

لقد كانوا مجرمين خارجين عن منهج الإيمان والإسلام، وكانوا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (٤٨)﴾ [المرسلات] فكانوا يُعرضون عن الركوع لله سبحانه والصلاة لمن خلقهم وأسبغ عليهم نعمه، والصلاة علامةٌ الإيمان والخضوع لله.

ولكن البعض كابن عباس قال: إنما يُقال لهم هذا يوم القيامة حين يُدعَوْن إلى السجود فلا يستطيعون ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ [القلم]

قد كنتم ترفضون السجود والركوع والصلاة وعبادة الله لأنكم لم تؤمنوا بل كذَّبتم وكفرتم فـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩)﴾ [المرسلات]

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات]

الضمير فى ﴿بَعْدَهُ (٥٠)﴾ [المرسلات] يعود على القرآن وكتاب الله، فبأيِّ حديثٍ بعد القرآن وآياته يؤمنون؟ فإنْ لم يُصدقوا بهذا القرآن فبأى كتاب بعد هذا القرآن يُصدِّقون، كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [الجاثية]

وقد كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾ [المرسلات] قال: «آمنتُ بالله وبما أُنزل».(١)

فلا حديثَ أصدقُ من القرآن ولا أقوى في الدلالة منه، فليس هناك حديثٌ بعد القرآن، فالقرآن هو الكتاب الخاتم الذي لا كتابَ بعده، فالإيمان بالقرآن والتصديق به هو آخر فرصة لهم.

فلتؤمنوا قبل أنْ يأتي يومُ النبأ العظيم الذي كنتم به تكذّبون أو تؤمنون به، ولكن لا تعملون له أعمالاً تنجيكم من الموقف العظيم.

لذلك ناسبَ بعدها أنْ تأتي سورة النبأ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾ [النبأ]

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣٦٥٤) والطبري في (جامع البيان) (٥٣٦/٢٤) عن معمر عن إسماعيل بن أمية.



عم
تفسير جزء

لفضيلة الشيخ
محمد متولي
الشعراو

1429 هـ
2008 م



اســم الكتاب : تفسير جزء عم
اســم المؤلف : الشيخ / محمد متولي الشعراوي
مقاس القطع : 24 X16.5
الإيداع القانوني : 3478 / 2007
الترقيم الدولي : 0 - 012 - 426 - 977
عـــدد الألـوان : 2 لون

دار الراية للنشر والتوزيع

تليفون : ٠٢٣٣٤٤٦٧٢٧ فاكس : ٠٢٣٣٠٢٦٦٣٧
E-mail : rayatop@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

١١٨ ٦ ٥
١٦

الأزهـــر
مجمـــع البحـــوث الإســـلامية
الادارة العـــامة
للبحـــوث والتـــأليف والترجمـــة

نموذج رقم ١٧
AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الســيد / ورثة صاحب الفضيلة الشيخ / محمـــد متولى الشعـــراوى

الســلام عليـكم ورحمـــة اللـــه وبركاتـه ـــ وبعـــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : تفسير جزء عم ـــ ٦٧٧ صفحـــة تاليف : لفضيلة الشيخ - محمد متـــولى الشعـــراوى

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسـلامية ولا مـــانع من طبعـــه على نفقتـكم الخـــاصة .

مع التـــأكيد على ضرورة العنـــاية التامة بكتـــابة الآيات القـــرآنية والأحاديث النبـــوية الشريفـــة . اى زيادة او نقصان يعتبر التصريح ملغياً

واللـــــه المـــوفق ،،،

والســـلام عليـكم ورحمـــة اللـــه وبركاته ،،،

مدير عـــام
ادارة البحوث والتـــأليف والترجمـــة

تحريرا فى / / ١٤ هـ
الموافق / / ١٩ م

٢٠٠٨/١٢/٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمده، وصلى الله وسلم على رحمته وخاتم رسله سيدنا محمد وبعد..

فهذا جهاد عمري العلمي، وحصيلة جهادي الاجتهادي، شرفني فيه أن خدمت كتاب الله، وتفرغت لاستقبال فيض الله، ولعلي أكون قد وفيت حق إيماني بأن أديت واجب عرفاني، وأسأل الله سبحانه أن تكون خواطري هذه مفتاح خواطر من يأتي بعدي، وكتاب الله لا تنقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وحينئذ نعلم من الله ما ادخره لمن هداه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل

محمد متولي الشعراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أن نحمد ، وصلى الله وسلم على رحمته

وخاتم رسله سيدنا محمد ، وبعد . .

فهذا حصاد عمري العلمي ، وحصيلة جهادي الاجتهادي ، شرفي فيه أني

عشت كتاب الله ، وتطامنت لاستقبال فيض الله .

ولعلي أكون قد وفيت حق إيماني ، وأديت واجب عرفاني .

وأسأل الله ﷻ أن تكون خواطري هذه مفتاح خواطر من يأتي بعدي .

وكتاب الله لا تنقضي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ،

وحينئذ نعلم من الله ما ادخره الله لمن هداه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

محمد متولي الشعراوي


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة دار الراية

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ..

والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، الذي أرسله الله ﷻ رحمة للعالمين، وهاديًا ومبشرًا ونذيرًا ..

أما بعد ..

فإن هذه البشرية من صنع الله، ولن تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من عند الله، ولن تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء المقدم لها من يد الله ﷻ.

ذلك الدواء هو القرآن، الذي قال عنه نبينا ﷺ: " وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ "[1].

من أجل ذلك فقد استعنا بالله ﷻ في دار الراية لإخراج هذا السِّفر الجليل، والكتاب القيم الجميل " تفسير جزء عم " لفضيلة الإمام الشيخ / محمد متولي الشعراوي.

وقد وقع الاختيار على هذا الجزء بالذات من القرآن " جزء عم "؛ حيث إنه هو المبتدأ لغالبية من يريد حفظ القرآن الكريم.

وكذلك فقد اشتمل هذا الجزء على معظم مقاصد القرآن الكريم، مما يجعلنا بنشره قد استوعبنا معظم أصول الدين ومقاصده وغاياته، إن لم يكن كلها.

1 - أخرجه مسلم (2137) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وقد اشتمل عملنا في هذا السفر الجليل على الآتي :

* تخريج الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة النبوية تخريجاً مختصرًا ، لا هو بالطويل الممل ، ولا المقتضب المخل .

* قمنا بإعادة صياغة المادة العلمية ؛ لتحويلها من طريقة الإلقاء حين ألقاها الشيخ لتتناسب مع روح الكتابة .

* بعض الآيات لم يفسرها الشيخ ، فقمنا بإضافتها من بعض كتب التفسير الأخرى ، والتي تقترب في أسلوبها من أسلوب الشيخ نفسه ، بحيث لا يوجد تباين في وحدة أسلوب الكتاب .

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده لا شريك له ، وما كان من خطأ أو زلل أو سهو فمنا ومن تقصيرنا ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء .

وفي الختام ..

نسأل الله ﷻ أن يجعل هذا العمل في موازين حسناتنا أجمعين ..

إنه ولي ذلك والقادر عليه ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قسم التحقيق في



مقدمة جزء عم

الحمد لله رب العالمين . . والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين . .

خواطرى حول القرآن الكريم لا تعني تفسيرًا للقرآن ، وإنما هي هبات صفائية تخطر على قلب مؤمن في آية أو بضع آيات ، ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر لكان رسول الله ﷺ أولى الناس بتفسيره ، لأنه عليه نزل ، وبه انفعل ، وله بلغ ، وبه علم وعمل ، وله ظهرت معجزاته .

ولكن رسول الله ﷺ .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم ، وهي : افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان إن فعلها ، ويعاقب إن تركها .. هذه هي أسس العبادة لله ﷻ .. التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض ، أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما علم منها ، لأنها – بمقياس العقل في هذا الوقت – لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات قد يثير جدلاً يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس ينصرفون عن فهم منهج الله في العبادة إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء .

والقرآن لم يأتِ ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة ، وأسرار الوجود مكتنزة ، حتى تتقدم الحضارات ، ويتسع فهم العقل البشرى ، فيكشف الله ﷻ من

أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهمًا لعطاءات القرآن لأسرار الوجود ، فكلما تقدم الزمن وكشف الله للإنسان عن سر جديد في الكون ظهر إعجاز جديد في القرآن .. لأن الله ﷻ قد أشار إلى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز .. وقد تكون الإشارة إلى آية واحدة أو بضع آيات .. ولكن هذه الآية أو تلك الآيات تعطينا إعجازًا لا يستطيع العلم أن يصل إلى دفته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات تدل على صدق البلاغ عن الله ﷻ ، وعن صدق رسالة رسول الله ﷺ .. وكانت أول معجزة هي أن القرآن كلام الله فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشريه ويستميلها .

إنه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن ، ولكن يعرفها الله ﷻ خالق الإنسان ، وهو أعلم به .. هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الإيمان إليها .

ولقد تنبه الكفار إلى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية .. تأثيرًا لا يستطيع أن يفسره أحد .. ولكنه يجذب النفس إلى طريق الإيمان ، ويدخل الرحمه في القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون .. من سماع الكفار للقرآن ويحاولون منع ذلك بأية وسيلة .. ويعتدون على من يتلو القرآن .. ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية .. ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع .. ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1] .

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومعناها (يشوشون عليه) ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك هي طريقتهم إلا خوفًا مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية إلى الإيمان ..

1 - سورة : فصلت ،الآية:26 .

إن مجرد تلاوة القرآن الكريم تجذب النفس الكافرة إلى منهج الله ﷻ.

وإذا أخذنا مثلاً قصة إسلام **عمر بن الخطاب** ﷺ.. نجد أنه علم أن أخته **فاطمة** وزوجها ابن عمه **سعيد بن زيد** قد أسلما ، فأسرع إليهما ليبطش بهما ، وحاول أن يفتك **بسعيد بن زيد** ، فلما تدخلت زوجته **فاطمة** لحمايته ضربها حتى سال منها الدم ، وعندما رأى **عمر** الدم يسيل على وجه أخته **فاطمة** رق قلبه ، وحدث في قلبه انفعال الرحمة بدلاً من انفعال الإيذاء ، فخرج العناد من قلبه وملأه الصفاء .. فطلب من أخته صحيفة القرآن التي كانا يقرآن منها .. وقرأ من أول " **سورة طه** " ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! ! ثم أسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه .. ولذلك نقول : إذا خرج العناد والكفر من القلب .. واستمع الإنسان بصفاء إلى القرآن دخل الايمان إلى قلبه .

لقد سمع **عمر بن الخطاب** ﷺ القرآن قبل ذلك ولم يسلم ، ولكنه عندما رأى الدم يسيل علي وجه أخته وتبدل انفعال الإيذاء في قلبه بانفعال الرحمة .. استقبل القرآن بنفس صافية ، فأمتلأ قلبه بالإيمان وأسرع إلى رسول الله ﷺ يعلن إسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجه مشاعر الكفر في القلوب ؛ حتى لا يدخلها القرآن ؛ لأنه لكي تستقبل الإيمان يجب أن تخلص قلبك من الكفر أولاً .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم – لأنه كلام الله – فإن له تأثيرًا خاصًا في النفس البشرية ، حتى إن الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض وكانوا يقولون : " **إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه** " .. وكان هذا هو أول إعجاز ؛ لأن القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابه والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله ﷺ عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من أسرار الكون ومن أسرار القرآن الكريم ، فلم نجد صحابيًا سأل رسول الله ﷺ عن معنى آيات الكون في القرآن ، أو عن عطاءات القرآن في اللغة ، فمثلاً

لم يسأل أحد عن معنى (الـم) أو (عسق) أو (حـــم) ، مع أن رسول الله ﷺ كان يستقبل كثيرين يؤمنون بـــكتاب الله ، وكثيرين يكفرون بما أنزل الله ، وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله ﷺ وضد القرآن الكريم ، لم نسمع أن أحدًا منهم ، وهم قوم بلغاء فصحاء عندهم اللغه ملكة وموهبة ، وليست صناعة ، لم نسمع أن أحدًا من الكفار قـال : ماذا تعني (الـم) أو (عسق) أو (حـم) .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول الله ﷺ ويجادله ؟! لقد كانت هذه هي فرصتهم في المجادلة ، ولا شك أن عدم استخدام الكفار لفواتح الســـور هذه دليل على أنهم انفعلوا بـــها وإن لم يؤمنوا بـــها ، ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه ، ولو أن هذه الحروف في فواتح السـور كانت تخدم هدفهم لقالوا للناس ذلك وجاهروا بذلك .

إن رسول الله ﷺ ، وهو الذي نزل عليه القرآن ، فسر وبيَّن كل ما يتعلق بالتكليف الإيماني ، وترك ما يتعلق بـغير التكليف للأجيال القـادمة ، ويمر الزمن ويتيح الله لعبـاده من أســرار آياته في الأرض ما يشـــاء ، فيكون عطاء القــرآن متســاويًا مع قــدرة العقــول .. لماذا ؟! لأن الرسالات التي سبقـت الإسـلام كانت محدودة الزمان والمكان ، أما القـرآن فزمنه ممتد حـتى يوم القيامة ؛ ولذلك فلابد أن يقدم إعجازًا لكل جيل ؛ ليظل القرآن معجزة في كل عصر .

والقـرآن نزل يتحـدى العرب في اللغة والبـلاغة ، ولكن لأنه دين للناس جميعًا فلابــد أن يتحدى غير العرب فيما نبغوا فيه ، ولذلك نزل متحديًا لغير العرب وقت نزوله ، فقـد قـامت حرب بـين الروم والفرس في وقـت نزول القـرآن ، وكان الروم والفرس أعظم وأقـوى دولتين في ذلك العصر ، كانا يمثلان في عصرنا الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي .. وقامت الحرب بينهما ، وانهزم الروم .. وإذا بالقرآن ينزل بقوله ﷻ :

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ

لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

فلو أن هذا القرآن كان من عند رسول الله ﷺ فما الذي يجعله يدخل في قضية كهذه ، لم يطلب أحد منه أن يدخل فيها ؟! وكيف يغامر رسول الله ﷺ في كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل بإعلان نتيجة معركة ستحدث بعد سنين ؟! وماذا كان يمكن أن يحدث لقضية الدين كله لو أن الحرب حدثت وانتصر الفرس مرة أخرى ؟! أو أن الحرب لم تحدث وتوصل الطرفان إلى صلح ؟! إنها كانت ستضيع قضية الدين كله ، ولكن لأن الله ﷻ هو القائل ، وهو الفاعل ، جاءت هذه الآية كمعجزة لغير العرب وقت نزول القرآن ، وحدثت المعركة فعلاً وانتصر فيها الروم كما أخبر القرآن الكريم .

ولكن القرآن لم ينزل معجزة لفترة محدودة ، بل هو معجزة حتى قيام الساعة ، والقرآن هو كلام الله ، والكون هو خلق الله ؛ ولذلك جاء القرآن يعطي إعجازًا لكل جيل فيما نبغوا فيه .

إذا أخذنا العلوم الحديثة التي اكتشفت في القرن العشرين وأصبحت حقائق علمية .. نجد أن القرآن الكريم قد أشار إليها بإعجاز مذهل ، بحيث إن اللفظ لا يتصادم مع العقول وقت نزول القرآن ، ولا يتصادم معها بعد تقدم العلم واكتشاف آيات الله في الأرض ، ولا يقدر على هذا الإعجاز المذهل إلا الله ﷻ ، اقرأ مثلاً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[2] .

والمد معناه البسط ، وعندما نزل القرآن الكريم بقوله تعالى : " وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا " .. لم يكن هذا يمثل مشكلة للعقول التي عاصرها نزول القرآن الكريم ؛ فالناس ترى أن الأرض ممدودة ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ ، وتقدم العلم وعرف الناس أن الأرض كروية ، وانطلق الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض على هيئة كرة .. هنا أحست بعض العقول بأن هناك تصادمات بين القرآن الكريم والعلم .. نقول لهم : هل قال الله ﷻ أي أرض تلك

---

1 - سورة : الروم ، الآية : 1-4 .
2 - سورة : ق ، الآية : 7 .

المبسوطة أو المدوة ؟ لم يقل ، ولكنه قال : الأرض .. على إطلاقها ، أي كل مكان على الأرض ترى فيه الأرض أمامك مبسوطة ممدودة .

إذا نزلت في القطب الشمالي تراها مبسوطة ، وإذا كنت في القطب الجنوبي تراها مبسوطة ، وعند خط الاستواء تراها مبسوطة ، وإذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير إلى هذه النقطة فالأرض أمامك دائمًا مبسوطة ، ولا يمكن أن يحدث هذا أبدًا إلا إذا كانت الأرض كروية ، فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر لوصلت فيها إلى حافة ليس بعدها شيء ، ولكن لكي تكون الأرض مبسوطة أمامك في أي مكان تسير فيه فلابد وأن تكون على هيئة كرة .

هذا الإعجاز الذي يتفق مع قدرات العقول وقت نزول القرآن الكريم ، فإذا تقدم العلم ووصل إلى حقيقة لما كان يعتقده الناس ، تجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقًا مذهلاً ، ولا يقدر على ذلك الا الله ﷻ .

ولو أن النبي ﷺ تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضًا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن فإنه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين إلى جدل في أسرار كونية لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها ، ولكن الحق تبارك وتعالى ترك في الكون أشياء لوَثبَات العقول في العلم ، بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطًا يربط بين آيات الله في الكون وآياته في القرآن الكريم ، ولو أن رسول الله ﷺ فسر كونيات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن ؛ لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله ﷺ ، وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد ، ولكن ترك رسول الله ﷺ للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم إلى قيام الساعة ، وهكذا كان المنع هو عين العطاء ، وهذه معجزة أخرى من إعجاز القرآن الكريم .

كلمة : " قرآن " ساعه تسمعها تفهم أنه يقرأ ، وهي مصدر : " قرأ " ، مثل : غفر .. غفرانًا ، ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسمًا بكلام موحى به من الله ﷻ

لرسول الله ﷺ بقصد التحدى ، ويسميه الله تبارك وتعالى كتابًا ..

إذًا هو قرآن حيث إنه يُقرأ ، وهو كتاب حيث إنه يُكتب ، والقراءة تستلزم حافظًا ، والكتابة لا تستلزم حافظًا ، فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجًا إلى الحفظ ؛ ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة .. يحفظ في الصدور ، ويسجل في السطور ، بحيث تستطيع في أي وقت أن تقرأ من الكتاب .

وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية إلا إذا كانت مكتوبة على جذوع النخل أو الجلود ، أو أي وسيلة أخرى من وسائل الكتابة في عصر نزول القرآن ، وزيادة على أن تكون الآية مكتوبة كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها ، إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدي رسول الله ﷺ إلا عند حافظ واحد فقط ، وكان القياس يتقضي ألا تكتب هذه الآية ، وهي قوله ﷻ :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾[1] .

ولكن انظر إلى الخواطر الإيمانية يقذفها الحق سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه .. هذه الآية لم يوجد من يحفظها إلا **خزيمة بن ثابت** ﷺ ، وعندما ثار الجدل حول تدوينها ، ذكروا قول رسول الله ﷺ : " **من شهد له خزيمة فحسبه** "[2] .

عن **زيد بن ثابت** ﷺ قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع **خزيمة بن ثابت الأنصاري** ﷺ ، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ ..

وكان الرسول الكريم ﷺ قد أعطى **خزيمة بن ثابت** وحده نصاب شهادة رجلين ، وهذه

---

1 - سورة : الأحزاب ، الآية : 23 .

2 - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، والطبراني في الكبير ، والقصة أخرجها البخاري في صحيحه .

لها قصة .. أن رسول الله ﷺ ابتاع فرسًا من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ المشي وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال (أي أخذ رجال) يعترضون الأعرابي ؛ ليساوموه في الفرس دون أن يعرفوا أن النبي ﷺ قد ابتاعه ، فنادى الأعرابي الرسول ﷺ فقال : إن كنت مبتاعًا هذا الفرس وإلا بعته .. أي هل تريد شراء الفرس أو أبيعه ؟

فقال النبي ﷺ : " **أو ليس ابتعته منك ؟!** " .. فقال الأعرابي : ما بعتكه (أي ما بعته لك) ، فقال النبي ﷺ : " **بلى قد ابتعته منك** " . فقال الأعرابي : هلم شهيدًا (أي ائتني بشاهد) ، فقال **خزيمة بن ثابت** : أنا أشهد أنك بايعته (أي بعته له) .

وبعد أن انصرف الناس أقبل النبي ﷺ على **خزيمة** فقال : " **بم تشهد ؟!** " ، (أي كيف شهدت على هذا ، ولم تكن موجودًا وقت المبايعة بيني وبين الأعرابي ؟! فقال خزيمة : بتصديقك يا رسول الله ، (أي هل نصدقك في كل ما تأتينا من خبر السماء ، ونكذبك في هذه ؟!)[1] .

فجعل رسول الله ﷺ شهادة **خزيمة** بشهادة رجلين ، فأخذت شهادته بشهادة رجلين ، وتم تدوين الآية ، وكان **خزيمة** يدعى بذي الشهادتين ؛ لأن رسول الله ﷺ أجاز شهادته بشهادتين .

وإذا أردنا أن نُعَرِّف القرآن فإنه لابد أن يخرج عن مقاييس البشر ، فالناس حين يُعَرِّفون الأشياء يقولون : حَدُّه كذا ، ورسمه كذا .. إلى آخره ، ولكننا كي نُعَرِّف القرآن الكريم نقول : إن القرآن هو ابتداء من قوله ﷻ :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (فاتحة الكتاب) ، إلى أن نصل إلى قوله ﷻ :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي

1 – رواه أبو داود وأحمد والنسائي في سننه الكبرى .

يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾[1].

أي أنه من أول **سورة الفاتحة** إلى آخر سورة الناس ، على أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل أن نقرأ أي آية من القرآن ، كما علَّمنا الحق ﷻ في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[2].

لكن العلماء أرادوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم فقالوا : هو كلام الله .. نزله على رسوله **محمد** ﷺ بقصد التحدي والإعجاز ليبين للناس منهج الله ، والقرآن يتفق مع المناهج التي سبقته ، ولكنه يضيف عليها ، ويصحح ما حذف منها ؛ لأنه موحى به من الله ، فالتوراة والإنجيل والزبور من الله ، ولكنها تحمل المنهج فقط ، أما القرآن الكريم فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله ﷺ .

كانت التوراة هي منهج **موسى** عليه السلام ، وكانت معجزته هي **العصا** ، وكان الإنجيل هو منهج **عيسى** عليه السلام ، ومعجزاته هي **إبراء الأكمه والأبرص** بإذن الله ، إذًا فالرسل السابقون كانت المعجزة شيئًا والمنهج شيئًا آخر ، ولكن القرآن تميز بأنه هو المنهج والمعجزة معًا ، ذلك أن المناهج التي أرسلها الله على الرسل السابقين ، أنزلها كي يغيرها وينسخها بعد ذلك .

ولكن القرآن الكريم نزل بالثبات إلى يوم القيامة ؛ ولذلك كان لابد أن يؤيد المنهج بالمعجزة حتى يستطيع أي واحد من أتباع **محمد** ﷺ أن يقول : **محمد رسول الله**، وتلك هي معجزته ، ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت ؛ لأنها معجزات حسية من رآها آمن بها ، ومن لم يرها فهو غير مقصود بها ؛ لأنها حدثت لتثبيت المؤمنين الذين يتبعون الرسول ، فمعجزة **عيسى** عليه السلام لا يمكن أن تعود الآن من جديد ، وعصا **موسى** عليه السلام التي شقت البحر لا يستطيع أتباع **موسى** أن يأتوا بها الآن ليقولوا : هذه هي معجزة **موسى** .

---

1 – سورة : الناس .
2 – سورة : النحل ،الآية : 68 .

إذًا فالرسل السابقون لرسول الله ﷺ كان لكل منهم منهج ومعجزة ، ولكن كليهما منفصل عن الآخر ، فأن يكون المنهج هو عين المعجزة فحالة مفقودة في الرسالات كلها ، ولكنها في رسالة **محمد** ﷺ أمر موجود يمكن أن يشار إليه في أي وقت من الأوقات .

ونظرة واحدة فيما قال الله ﷻ في كونيات الحياة التي أتيحت للعقل البشرى في القرن العشرين نجد أن القرآن الكريم يشير إليها ؛ لأن العمر في الرسالة القرآنية إلى أن تقوم الساعة ، ومادام إلى أن تقوم الساعة يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

أي أن القرآن له عطاءان في الإعجاز .. **العطاء الأول** آيات في الآفاق ، وهذه هي الآيات الكونية ، و**العطاء الثاني** آيات في أنفسهم ، وهذه هي الآيات التي تتعلق بأسرار الجسد البشري .

وقول الحق ﷻ : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ .. أي أن القرآن هو الحق ؛ ولذلك يمكن أن نقول : إن آيات الكون ستأتي موافقة لآيات القرآن الكريم ، أي أن الله ﷻ وضع في القرآن الكريم من آيات الكون وأسراره ، وعن الجسد البشري وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين .

لهذا كان لزامًا علينا أن نتأمل في القرآن الكريم تلك التأملات ؛ حتى نبين ما فيه من آيات وأسرار .. حتى يتبين لهم أنه الحق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 53 .

تلك هي خواطرنا حول الجزء الأخير من القرآن الكريم

جُزْءُ عَمَّ

وهذا الجزء يتضمن السور القصار التي تدور على الألسنة في الصلاة ، وهي أيضًا المستهل لكثير من حفظة القرآن ، فإذا ما شرحنا خواطرنا حول هذا الجزء فإننا بلا شك نكون قد استوعبنا معظم مقاصد القرآن ، إن لم يكن كل مقاصده ، وكأن الحق ﷻ حينما رتب كلامه ترتيبًا مصحفيًا . . أي ذلك الترتيب الذي نقرأ القرآن عليه ، قد شاء ﷻ أن يجعل آخر ما يقرع الآذان من كلامه منبهًا لكل أصول الدين ، ولكل قواعده ، ولكل غاياته .


عم
تفسير جزء

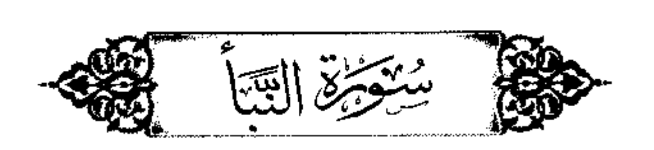



سورة
النبأ









الحمد لله بخير ما يُحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقه سيدنا محمد ﷺ ، وبعد . .

مرحبًا بك أخي القارئ الكريم على هذه الصفحات في رحاب القرآن الكريم ، وأسأل الله ﷻ أن يمدنا بأرزاق قلوبكم وأفهامكم ، وأن يهبنا التوفيق في كل ما نأتي ، وكل ما نذر .

إذا ما أردنا أن نعرف موقع قول الله ﷻ : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من السورة قبلها وجدنا الارتباط المعنوي والسياقي يتطلب ذلك الإلحاق ، فالسورة التي قبلها هي سورة (المرسلات) ، وإذا قرأنا سورة (المرسلات) وجدنا قوله ﷻ : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[1] ، فكأن السورة قد استهلت بقسم متعدد الألوان ، والمقسم عليه هو ما كان المشركون يكذبونه ، وهو اليوم الآخر ، فقال في جواب القسم : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ ، وبعد ذلك ذكر علامات ذلك الوقوع ، فقال : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] ، فناسب أن تكون السورة التي بعد هذه السورة شارحة ليوم الفصل ؛ لأن الحق حينما يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ يدل بذلك على أن يوم الفصل شيء عظيم .. شيء مهول .. شيء يجب أن تتنبه الأذهان إليه .. شيء يجب أن يُستعد له ، وحين يقول : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ نعلم أن قول الله دائمًا : ﴿وَمَا

1 – سورة : المرسلات ، الآية : 1 – 7 .
2 – سورة : المرسلات ، الآية : 8 – 15 .

أَدْرَاكَ ﴾ يأتي لشيء يعطي الله رسوله فيه البيان ، ما أدراك سابقًا : أي لم تتلق أي شيء عن هذا اليوم من قبل ، ولكن لا مانع أن تتلقى منه بعد ، ولكن حين يقول : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فإنه بذلك ينفي عنه أن يعرف عن ذلك الأمر شيئًا حتى في المستقبل ، فكأنه نفي للإدراك ، نفي لأن يعطيه أحد أي معلومات عما يقول ، فإذا رأيت (**ما أدراك**) فاعلم أنه سيدريه ، وإذا رأيت (**وما يدريك**) فاقطع الأمل في أنه سيدريه ؛ ولذلك جاء بعد سورة (**المرسلات**) وقوله ﷻ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ جاء بعدها بسورة(**النبأ**) ليدريه ما هو يوم الفصل .

وأيضًا هناك مناسبة ، وهذه المناسبة هي أن سورة (**المرسلات**) تعرضت لأشياء كونية في الكون المحيط بالإنسان ، فمثلاً قال الحق فيها : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴾[1] بعد أن قال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ﴾[2]. ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾[3]. ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾[4]، وكذلك قال في سورة (**النبأ**) : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ فالسياق إذًا واحد .

وكذلك نجد في السورتين اللتين قبل سورة (**النبأ**) مباشرة (**المرسلات والدهر**) نجد فيهما أمرًا عجيبًا ، وهو أن سورة (**الإنسان**) تعرضت لأحوال النعيم للمتقين ، ولم تتعرض لأحوال العذاب للكافرين إلا تعرضًا يسيرًا في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا ﴾[5]، وبعد ذلك قال : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ .. ﴾ ثم أخذ في تعريف النعيم الذي ينتظر المؤمنين ، ثم جاء في آخر السورة : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[6]، ثم تعرض أيضًا للكافرين في

---

1 – سورة : المرسلات ، الآية : 25 .

2 – سورة : المرسلات ، الآية : 16 .

3 – سورة : المرسلات ، الآية : 20 .

4 – سورة : المرسلات ، الآية : 23 .

5 – سورة : الإنسان ، الآية : 4 .

6 – سورة : الإنسان ، الآية : 24 .

آية أخرى ، ولكن السياق كله متعرض لنعمة المؤمنين في الآخرة .

ثم جاءت سورة (**المرسلات**) على العكس ، فتعرضت لألوان العذاب للكافرين في الآخرة ، ولم تتعرض لألوان النعيم إلا للون واحد وهو قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾[1] ، وكأن سورة (**الدهر**) تعلقت بأحوال النعيم إلا اللفتة اليسيرة فيما يتعلق بأحوال الكافرين ، وسورة (**المرسلات**) تعرضت لأحوال العذاب الذي ينتظر الكافرين إلا اللفتة اليسيرة المتعلقة بالمؤمنين ، فجاءت سورة (**النبأ**) لتعطي الجزاء الوفاق ، تعطي لكل واحد من الفريقين حظه من النعيم أو العذاب .

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥

حين نقرأ قوله ﷻ : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[2] نجد التفخيم بالإبهام ، يعني عن أي شيء يتساءلون ؟ هذا التفخيم بالإبهام دلالة على تعظيم المسئول عنه ، وحين يعظم الحق المسئول عنه يكون هذا التعظيم دلالة على أن ذلك أمر عظيم حتى يقول الحق عنه : إنه عظيم ؛ لأن الإنسان منا قد يقول عن الشيء إنه عظيم بمقتضى فهمه عن العظمة ، ولكن حين يفخم الله شيئًا ويعظمه فإن تعظيمه يكون على قدر علمه ﷻ ، ومن العجيب أن هذا السؤال في قول الله ﷻ : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ يجيب الله ﷻ عنه سريعًا فيقول : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾[3] ، فكأن الحق ﷻ فخم بالإشارة حين استفهم بما ، ثم فخم بالعبارة بقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ

1 - سورة : المرسلات ، الآية : 41 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 1 .

3 - سورة : النبأ ، الآية : 2 .

الْعَظِيمِ﴾ ، ونحن نعلم أن النبأ ليس مطلق الخبر ، وإنما هو الخبر الخطير الشأن الذي يتعلق بأمر عظيم ، ولا شك أن غايات الدين كلها إنما تؤول لمعرفة سر ذلك اليوم ؛ لأنه الحصيلة ، ولأنه الحصاد الذي سيأتي في نهاية الدنيا ليحاسب فيه كل إنسان عما قدم .. إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، فلا بد أن يكون أعظم حدث يتعلق بالإنسان .

والحق ﷻ حينما يقول : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ يعطينا لفتة ، هذه اللفتة هي استنكار للسؤال عنه ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، كأنك تستنكر : أهذا أمر يمكن أن يكون مسئولاً عنه ؟! هذا أمر من الوضوح ، ومن البداهة بحيث يجب أن لا يكون موضع سؤال ؛ لأنه نبأ عظيم ، وأمر واضح جلي ، تقوم عليه الأدلة ، ولكن خطأ المنهج في الكافرين إنما جاء من ناحية أنهم أرادوا أن يناقشوا الجزئيات العَقَدية ، ومناقشة الجزئيات العقدية لا يصح أن يأتي أبدًا من عاقل ، إلا أن يناقش القمة العقدية أولاً ، فنحن لم نؤمن باليوم الآخر أولاً ، وبعد ذلك آمنا بالله ﷻ ، وإنما آمنا بالله ﷻ أولاً ، وحين آمنا به علمنا أنه ﷻ يخبرنا أن هناك يومًا آخر ، فعند ذلك صدقنا فورًا ما قال ﷻ.

إذًا فالمناقشة يجب أن لا تكون في اليوم الآخر وقوفًا واستبعادًا واستغرابًا وتعجبًا ، كان يجب أن تكون المناقشة في قمة العقيدة للإيمان : تؤمنون بالله أو لا تؤمنون ، فإن آمنتم بالله فالتزموا ، وإن لم تؤمنوا بالله فما الذي يضير إذا لم تؤمنوا بما يقوله الله ، إذن فالقمة الإيمانية أولاً هي أن تؤمن بالله ، فأنا لم أومن بالملائكة ولا بالكتب ولا بالرسل ولا بالقضاء والقدر خيره وشره ولا بيوم القيامة إلا لأن الله قال ذلك ؛ لأنها أمور غيبية ، والأمور الغيبية التي لا تقع تحت الحس لا يمكن أن أصدقها إلا إذا قال بها من أثق بصدقه ، فإذا توقف عقلي في الكيفية ، نقول : معرفة الكيفية لا يعني الوقوع أو عدم الوقوع ، الحدث وقوعه شيء وكيفية وقوعه شيء آخر .

ويظهر الفرق بين وقوع الحدث ذاته ووقوعه على كيفية خاصة عند فهمنا قول إبراهيم

عليه السلام لربـــه : ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[1] ،إبـراهيم حـينما قـال لله : ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ قـال بـعض العلماء : كيف يوجد ذلك التناقض الظاهري في القرآن ؟! فإن الله ﷻ حين قـال إبـراهيم ذلك ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ فأجاب إبــراهيم : ﴿قَالَ بَلَى ﴾ ، ومعنى ﴿بَلَى ﴾ أي : آمنت ، ومعنى الإيمان هو اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، بحيث لا تطفو العقيدة مرة أخرى إلى الذهن لتناقـش من جديد ، فإن طفت العقــيدة إلى الذهن لتناقــش من جديد لا يكون ذلك إيمانًا ، ولا تكون عقيدة ، وإنما تكون فكرة لا تزال قيد البحث ، فقول الله على لسان إبـراهيم : ﴿بَلَى ﴾ أي آمنت ، وإذا كان قـد آمن واطمأن قلبـه فلماذا يقـول بــعد ذلك : ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ؟ فكأن اطمئنان القلب عند إبـراهيم كان مفقودًا ، أو هو يطلبـه بـذلك ، وما دام اطمئنان القـلب غير موجود فما كان يصح لإبـراهيم أن يقول جوابًا لله حين قال : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ﴾ أن يقـول له : ﴿بَلَى ﴾ ، ولكن هذا التناقـــض الظاهري جاء من إهمال لفظ في الآية ، وإهمال لفظ أو حـرف يغير مجرى الفهم في الآية ، ولكن إبـراهيم لم يسـأل ربـه قـائلاً : هل تحيي الموتى ؟ وإنما قـال له : ﴿كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، فكأن السـؤال عن الكيفية لا عن وقـوع الحدث ، فهو مؤمن بأن ربه يحيي الموتى ، أي أنها قضية مسلمة ، ولكن المسئول عنه أنه يريد أن يرى الكيفية ، فقوله : ﴿بَلَى ﴾ أنا آمنت أنك تحيي الموتى ، وهذا هو المطلوب التكليفي من العبد المكلف .. أن يؤمن بأن الله يحيي الموتى ، أما معرفة الكيفية ، فهذا أمر لا يضير في العقيدة .. عرفتها أم لم تعرفها ؛ لأن انتفاعك بالأشـــياء لا يعني ضرورة فهم كيفيتها ؛ فمثلا : الأمي والبــدوي والفلاح ينتفع كل منهم بالكهربـــاء في بـــيته ، لكن هل يعرف كيف تأتي تلك الكهرباء ؟ لا يعرف شيئًا عن ذلك ، إذن فهو ينتفع بـالحدث ، لكن معرفة كيفيته لا يغير من انتفاعه أو عدم انتفاعه ، والله كذلك قـــــادر على أن يحيي الموتى ، ولكن الله ﷻ يلفت

1 - سورة : البقرة ، الآية : 260 .

إبـراهيم لفتة عقدية ، هذه اللفتة العقـدية هي أنه يقـول : ليس من عظمتي ولا من قـدرتي أن أنقل إلى الغير أثر قدرتي ، ولكن العظمة أن أنقل إلى الغير بـعض قـدرتي ليفعل ، فالقـوي من البشر إذا ما وجد رجلاً عاجزًا عن حمل شيء ثقيل عليه ماذا يصنع معه ؟ إنه يحمله له ، إذن فقـد عدى إلى الغير أثر قـوته ، ولكن العاجز ظل عاجزًا ، ولكن الله حـين يريد أن ينقـل إلى العاجز قـوة تفعل هي ، كأنه يقـول : أنت لا تقـدر على أن تحمل فأنا لا أحمل عنك ، وإنما أجعلك تقـدر على أن تحمل ، تلك هي عظمة الحق في أنه ينقـل قـوته إلى فاقـد القـوة ، ولكن البشر لا ينقلون قوتهم إلى فاقد القوة ، وإنما ينقلون أثر قوتهم إلى فاقد القوة ، ويظل فاقد القـوة فاقدًا للقـوة ، فكان جواب الحق ﷻ في الكيفية التي يريدها إبـراهيم أنه قـال له : خذ أنت أربـعة من الطير ، ثم قـطعهم ، واجعل على كل جبـل منهن جزءًا ، وبـعد ذلك تتجلى قـدرة العظيم ، لا يقول الله : أنا أدعو الطير فتأتيها الحياة ، لكن ادعهن أنت ، تلك هي العظمة في أن يجعل من لا يقـدر قـادرًا بـإرادة أن يفعل ، ﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ﴾ ، فلم يقـل : أنا أدعوهم ؛ لأن دعوتهم عملية بسـيطة ، ولكن العظمة هي أن يجعله الله ﷻ يسـتطيع أن يفعل ذلك ، إذن فقد أجابه الله بالكيفية على أبـلغ مدى ، وعلى أوسـع نطاق في أن الحق يمتاز عن الخلق بـأنه يعدي قـوته للغير ليفعل ، ولكن الخلق لا يسـتطيعون أن يعدوا إلا أثر قـوتهم للآخرين ليفعلوا .

فإذا ما أراد الحق ﷻ أن يسـتنكر السـؤال : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ .. ما كان يجب أن يتساءلوا ؛ لأن ذلك الأمر من الوضوح بمكان .

ومن الذي يتساءل ؟!

أولاً ما دام الحق يستنكر السؤال ، فلا بـد أن يكون التسـاؤل من المنكرين للبـعث : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] .. متى السـاعة ؟! ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا

1 – سورة : يونس ، الآية : 48 .

وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] ، وهذا تعجب ، فكأن التساؤل وقع من المشركين ، أو من المكذبين بالبعث فيما بينهم ، أو كانوا هم يسائلون النبي والمؤمنين .

ومادة التساؤل غير مادة سأل ، كما تقول : سألت فلانًا عن كذا ؛ تقتضي فاعلاً ، وتقتضي مفعولاً ليقع عليه السؤال ، لكن تساءل تجمع الأمرين معًا ، تساءل القوم ، أي : أن كل واحد منهم صار سائلاً مرة ومسئولاً مرة أخرى ، فهو إذًا فاعل ومفعول معًا ، إذن فـ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي : إنهم يتساءلون فيما بينهم سؤال استنكار واستهزاء ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ وإذا كانوا يتساءلون ؛ فكيف يكون الخلاف بينهم في السؤال ، فكلهم منكرون ؟!

وجواب ذلك أن الإنكار يختلف في الدرجة ، فهناك منكِر جزمًا وآخر مرتاب ، وما دام منكرًا جزمًا إذن فهو مخالف للشاك ، لأن المنكر جزمًا جزم بالأمر ، والشاك متأرجح ، إذن فهذا لون من الخلاف ، أو هم مختلفون مع النبي والمؤمنين ، فهذا يصدق وهذا يكذب .

﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ .. كلا ، كلمة ردع وزجر ، ومعنى الردع والزجر أن الكلام الذي قبلها يجب أن يُنتهى عنه ، لصالح المنتهي أو غير المنتهي ، ليس لصالح من يقول به ؛ لأن الله لا يفيده أن يكذِّب الناس بهذه المسألة ، لأن هذه المسألة مسألة فرعية ، فكان يجب أن ينقلوا مجال النقاش إلى القمة ، وهي الإله ، ولكنهم اضطربوا في موضوع النقاش ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[2] ، إذن فمسألة الوجود الإلهي والخلق والربوبية لم يقدروا على إنكارها ، فذهبوا إلى الفرعيات ، علمنا أجوبتهم عن الله ، وأما عن الرسول والقرآن ، فيقول الله ﷺ : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ﴾ فأنت صادق عندهم

---

1 - سورة : المؤمنون ، الآية : 35 ، 36 .

2 - سورة : الزخرف ، الآية : 87 .

﴿ وَلَكِنَّ الظَّالمينَ بآيَات اللّه يَجْحَدُونَ ﴾[1] .. فقالوا في القرآن : إنه سحر وشعر وكهانة ، وكل هذا قالوه وبعد ذلك تورطوا ،ماذا كان تورطهم ؟!

تورطهم أنهم قالوا : ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم ﴾[2]، فكأن هذا القرآن قرآن عندهم هم أيضًا ، ولكن الذي أتعبهم أن يجيء على لسان هذا الرجل ، إذن فالقرآن ليس فيه نقاش ، ثم بعد ذلك تورطوا تورطًا آخر يدل على السفه في الجدال ،﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[3]..إذن فقد أقروا بأن ما جاء به رسول الله هو الهدى ، أقروا في نهاية المطاف والجدل أن رسول الله ﷺ جاءهم بالهدى ، ولكنهم خافوا من أنهم لو اتبعوا الهدى أن يتخطفوا من أرضهم ، إذن فكان من المنطق أن لا يُبحث يوم البعث إنكارًا أو تحقيقًا ، إنما يجب أن يبحثوا في القمة ، وبعد ذلك إذا بحثوا في القمة فإنهم يستوثقون من الخبر ، فالحق ﷻ يقول : ﴿ كَلاَ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَ سَيَعْلَمُونَ ﴾ ،و" ثم" تدل على شيئين اثنين : أن طريقة العلم لهم سوف تختلف ، وهي أنهم سيعلمون أنه الحق .

ومراتب العلم ثلاثة:

المرتبة الأولى : علم اليقين .

المرتبة الثانية : عين اليقين .

المرتبة الثالثة : حق اليقين .

إذن هناك ثلاث مراحل للعلم . .

تجد ذلك المعنى في سورة التكاثر في قوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ

1 – سورة : الأنعام ،الآية: 33 .

2 – سورة : الزخرف ،الآية : 31 .

3 – سورة : القصص ،الآية : 57 .

تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ [1] ، وكذلك في قـــــول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [2] أي : الذي كنت لا تراه أولاً أصبحت تراه الآن ، ويتضح له مثال عالم الملكوت والأشـياء التي كان مكذبًا بها ، وبعد ذلك حين يبعثون على حقيقتهم يعلمون علمًا آخر ، أو لأن المكذب يعارض مصدقًا ، والفريقان : هذا مؤمن مصدق ، وذلك كافر مكذب ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ سـيعلمون موقعهم من يوم الفصل ، ويعلمون موقع الفريق المقابل في يوم الفصل ، وحين توجد المقارنة بين الضدين تكون الحسرة ، أي الذي يعذب في يوم الفصل كان يكفيه من آلامه أن يعذب ، أما أن يعذب ويرى الفريق المقابل يُنعم ؛ فذلك تعذيب آخر ، والذي كان مصدقًا ثم يرى نفسه في نعيم ، ويرى المكذب في جحيم ، يكون ذلك نعيمًا آخر .

إذًا فالتنعيم والتعذيب له لونان :

اللون الأول: أن يصيبه الألم ، ويرى الفريق المقابل في نعيم .

اللون الثاني: يرى العذاب ويرى غيره في النعيم ، وحينئذٍ تتأكد الحسرة بالنسبة لهم .. ثم ترك الحق ﷻ الأمر المقسم عليه ، وبعد ذلك قال : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم انتقل إلى شيء آخر ، هذا الشيء الآخر في ظاهره أنه بعيد عن القصد ، ولكنه في حقيقته لم يبعد عن القصد ، وإنما اقترب من القصد بإيجاد دليل القصد ؛ فكأن الحق يريد أن يعرض صورًا كونية تصل الإنسان بها من حياته ؛ ليتفكر في الصور الكونية المحدثة له دليلاً على صدق الله فيما يحضره .

والحق ﷻ حينما يريد عرض قضية مختلف فيها لأنها غيبية ، يأتي بقضية متفق عليها ؛ ليجعل من المتفق منطلقًا إلى المختلف فيه .

1 – سورة : التكاثر ، الآية : 3 – 6 .

2 – سورة : ق ، الآية : 22 .

وهذه القضية شائعة في القرآن كثيرًا ، فمثلاً : قضية الحياة ، وكيف خُلقنا ، هذا أمر لم يشهده الإنسان ، إذن فهذه مسألة وضع فيها الحجز أمام النشاط الذهني العلمي في معرفة كيف بدأ الخلق ، فهي مسألة مفروغ من أن الإخبار بها يأتي من الخالق ، فإذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلق الله السماوات والأرض فإنهم يرهفون آذانهم لمن خلق ، ليقول لهم كيف خلقهم ، وعندما تحدث الحق ﷻ عن مسألة الخلق حكى عن الإنسان الأول أنه خلقه من سلالة من طين ، وقال : من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار .

فهذه مرحليات وأطوار مر بها الإنسان عند خلقه ، وليست تناقضًا ، وهذا أمر غيبي عنا ، ونحن صدقنا هذا لأننا نثق بالله ﷻ ونصدقه ، لكن الحق ﷻ حينما يريد أن يعرض صدقه في هذه القضية ماذا يقول ؟

يأتي بأمر حسي ليجعله دليلاً على أمر الغيب ، فنحن لا يمكننا أن نعرف كيف جاءتنا الحياة ، ولكننا بالتأكيد نعرف كيف نموت ، إذن جعل الموت – وهو من المظاهر الحسية التي نراها – وسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية ، وإذا مات الإنسان فآخر شيء يحدث هو خروج الروح ، وهي آخر شيء وضع في قصة الحياة .

إذن فآخر شيء جاء لإيجاد الحياة هو نفخ الروح ، وأول شيء يذهب منه هو الروح ، وهذا أمر منطقي ؛ فإنك إذا سرت في طريق إلى نهايته ، ثم أردت العودة من نفس الطريق فحتمًا ستكون آخر محطة وصلت إليها هي أول محطة تعود منها ، وكذلك حياة الإنسان ، فأنت ترى الميت يبدأ في التحلل ، وبعد ذلك ينتن ، ذلك هو الحمأ المسنون ، وبعد ذلك يتبخر الماء الذي في جسم الإنسان فتصير العناصر الأخرى ترابًا ، فهذا مشهد نراه كلنا ؛ ولذلك فلا تعجب حينما تقرأ في سورة الملك قوله ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾[1] .. فذكر الموت قبل الحياة ؛ لأن الموت ملحوظ وتقدر أن تراه ، وبعد ذلك تستدل من وقائع الموت وترتيبها إذا عكستها على وقائع الحياة .

---

1 – سورة : الملك ، الآية : 1 .

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

بعد ذلك قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أمر مشاهد محس ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أخذ الأمر المحس في الكون الذي يتصل بالإنسان .

الأرض ممهدة للراحة فيها ، وبعد ذلك ينتقل من المهاد إلى الجبال الأوتاد ، فكأن ارتفاع الجبال مكمل لجزئية الأرض ، وكلمة أوتاد نفسها تشعر بالتثبيت ؛ ولذلك عندما تكلم العلماء عن هذه الآية قالوا : إن قول الله ﷻ : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ و: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[1] .. معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض ، فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار لكانت لا تميد ولا تضطرب ، إذن فمعنى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أنها عرضة للحركة ، وما دامت عرضة للحركة فقد تضطرب .

ولقد توقف العلماء طويلاً عند هذه الآية ليقولوا : إنها مثبتات .. ولكن التشبيه هنا لا يعطي فقط أنها مثبتات ؛ لأن الحق ﷻ حين يأتي بأمثلة من البيئة التي يعيش فيها الذين

1 - سورة : النحل ، الآية : 15 .

استقبلوا القرآن أولاً نجد أن هذا الأمر معروف لكل إنسان ؛ حيث إن بيوتهم مصنوعة من الخيام ، وهذه الأوتاد هي أدوات تثبيت البيوت ، فما دام الوتد يثبت البيت ، فنضرب لهم مثلاً من بيئتهم ومن مثل ما يصنعونه ، ولو لم تُثبت هذه الأوتاد الخيمة ، فالعُمد لا تكفي لتثبيت البيت ، لكن الأوتاد هذه تختلف ، ولكن الله يقول : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ لم يقل : الجبال كالأوتاد ، حتى يكون تشبيه الجبال بالأوتاد ، ولكن جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فالحقﷻ قال : ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ جاء بها على طريقة التشبيه البليغ ، فكيف جاء الحق بالمشبه الضخم ويشبهه بالشيء التافه البسيط ، مع أن المفهوم من التشبيه أن الشيء الأقل هو الذي يشبه بالكبير .

لكن شبه الجبال بالأوتاد ، وفيها لفتة ، وهذه اللفتة لكي يلفت الإنسان إلى أن الأوتاد وضعت لتثبيت شيء على الأرض .

وعندما أراد العلماء أن يبحثوا في كتلة جبل من الجبال لكي يعينوا بها كتلة الأرض ، رأوا أن الأرض لا تصلح للحياة إلا بوجود الهواء فيها ؛ لأن الهواء هو العنصر الأول من عناصر مقومات الحياة ، وقد عرفنا أن هناك غلافًا هوائيًا حول الأرض ، وهذا الغلاف الهوائي من مكونات الأرض ؛ ولذلك عندما تكلم اللهﷻ عن السير قال : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾[1] .. ولم يقل : سيروا على الأرض ؛ لأن القبة الهوائية التي تغلف الأرض التي يعيش الناس عليها من متممات تلك الأرض ، فتكلموا عن هذه القبة الهوائية ، وقالوا : إنها تمنع أشياء ضارة كثيرة جدًا ، مثل : الأشعة البنفسجية وفوق البنفسجية ، وإلا كنا نهلك .

واللهﷻ هو الذي وضع هذه القبة الهوائية ، ولا بد أن يوجد شيء يشدها فبحثوا عن هذا الشيء فوجدوا أن هناك قانونًا يسمى : (**قانون الجاذبية**) ، كأن قانون الجاذبية يجذب القبة لكي لا تتفلت في الفضاء الكوني ، فجاء عالم من العلماء ، وقال : هل لثقل كتلة الأرض

1 – سورة : النمل ، الآية : 69 .

دخلٌ في قوة جاذبيتها ؟ إن كان ذلك فوجود الجبال لقوة الجذب ، ويكون على ذلك قوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ متمشيًا مع واقع الخيمة وموقع الوتد ومهمته في الخيمة ، والدور الذي يقوم به الوتد في عملية الجذب ليحتفظ بهذا الشيء الذي فوقه ، وهذه مسائل لم يذكرها القرآن بالتفصيل عند قوم لا توجد لديهم ثقافة ، وإنما القرآن فيه زادٌ للنشاط الذهني بحيث إذا ارتقى الإنسان في بحث من البحوث لا يجد في القرآن صادًّا له عن نشاطه الذهني ، لأن القرآن له عطاء إلى أن تقوم الساعة ، ولو لم يكن للقرآن عطاء إلى أن تقوم الساعة لكان فسرها رسول الله ﷺ ، وحين يفسره سيفسره بما يلائم العقول المعاصرة ، وإذا فسره بما يلائم العقول المعاصرة فإنه يكون قد جمده ، وإذا جمده فإن صلاحيته لكل زمان ومكان تمتنع ، فرسول الله ﷺ يشرح الأحكام المطلوبة من المؤمن في كل عصر ، وإلى أن تقوم الساعة ، وبعد ذلك ما يتعلق بالكونيات التي تخضع للنشاط الذهني واستنباط أسراره يتركها ليأخذ الذهن منها على قدر ما يستطيع ، ولذلك بيَّن في القرآن كل شيء ، ومنه يأخذ كل إنسان قدر ذهنه .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ يلفتنا لفتة في الاستفهام : أي جعلنا الأرض مهادًا ، ولماذا لم يقل : إننا جعلنا الأرض مهادًا مباشرة ، لأن كلمة : (جعلنا الأرض مهادًا) خبر من الله ، أما ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ فكأن الله استأمننا على أن يسأل هو ذلك السؤال لنجيب نحن ، وجاءت صيغة الاستفهام بالنفي لئلا يكون تلقينًا بالجواب ، وليكون أبعد ما يكون عن التهمة .

إذًا كان من المعقول أن تنكروا قضية البعث إذا لم نكن صنعنا لكم مقدمات في حياتكم تستلزم قدرتنا الفائقة ، وعندما قالوا : إن الإنسان خُلق بالصدفة ، وجاء فيلسوف فرنسي واعتقد أنه جاء بالرد على أهل الصدفة ، الرد الذي لا ينقض ، فقال : العجيب أن الذين يقولون بالصدفة لم يتنبهوا إلى شيء ، وهو أن الصدفة من أعدائها الرتابة ، والصدفة يحكمها قانون الاحتمال ، وقانون الاحتمال هذا نسبته من 1 إلى 200 مليون ، ومن المحال أن الصدفة هي



الموجِدة ، لأن الصدفة إذا كانت هي التي خلقت الرجل فهل من المعقول أن الصدفة نفسها خلقت شيئًا آخر هو الأنثى من جنسه ، ومختلفة معه في النوع ؛ بحيث إذا التقيا لقاء غريزيًا خاصًا وُجد نسل منهما ؟ إن ذلك لا يكون بالصدفة ، وإنما هناك قصد وغاية .

فهذا الذي قال : إن الإنسان خلق بالصدفة .. نقول له : لقد نبهتنا إلى قرآننا .. حيث قال ﷻ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وهذا دليل على القصد والغاية ، وهذا الخلق لا بد له من مقومات ، وذلك يدخل في قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ .

ومقومات الحياة لونان : **لون فيه يقظة** ، وهي للحركة والعمل ، **ولون فيه موت-نوم-** ، وكأن أول مقوم للحياة ليس هو الطعام والشراب فقط ، ولكن هناك النوم أيضًا ، وهو الذي عجز الفلاسفة عن معرفة سببه ، وآخر ما انتهوا إليه هو أنه ردع ذاتي في الآلة الإنسانية .

ومعنى ردع ذاتي في الآلة الإنسانية أن الآلة الإنسانية تعبت ، قد تتعب تعبًا يتحمل عقل الإنسان معه ، ثم يغلبه النوم فلا يستطيع أن يواجه الحياة بأي طاقة ، فينام إلى أن يعود إلى نشاطه سريعًا ؛ ولذلك نجد القرآن يعرض تلك العملية بقوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾[2]، كأن النوم عملية حياتية ضرورية ، ولذلك فبعد قوله ﷻ : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ ، إذ إن النوم نعمة عظيمة من نعم الله ﷻ على الإنسان : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[3]، ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[4]، وما دام النوم يفقد الإنسان صلته بحركة الحياة سُمي موتًا ؛ لأنه قطع عن

1 - سورة : الروم ، الآية : 21 .

2 - سورة : الأنفال ، الآية : 11 .

3 - سورة : الروم ، الآية : 23 .

4 - سورة : القصص ، الآية : 71 .

الحياة بالنوم ، وكذلك سُمي بالسُّبات ؛ لأنه قطع عن الحركة ، ولكنه قطع عن الحركة إلى أن تحدث العودة .

وكذلك عدم الوعي في النوم نعمة أخرى من نعم الله الكبيرة ؛ حيث إن المريض بمجرد أن ينام ويذهب عن الوعي لا يشعر بآلام المرض ، مما يدل على أن الذي يتألم ليس هو العضو المريض ، ولكنه النفس ووعيها ، وإلا فأين ذهب الألم حين غابت النفس عن الوعي .

لذلك جعل الله النوم ردعًا طبيعيًا للجسم ؛ لكي يُعلم الجسم بأنه لم يعد صالحًا لحركة الحياة ، فليعتزل حركة الحياة قسرًا عنه ولْيَنَم ، فإذا نام وارتاح عاد تفاعله (الفسيولوجي) إلى طبيعته ، ثم قام نشيطًا فاستأنف حياته ، ولذلك فإن النوم يأتي دائمًا رغمًا عن الإنسان ، قد يطلبه الإنسان فلا يأتيه ، ولكنه يفاجئه ليذهب في نوم لا يعرف كيف بدأ به ، هذا ردع ذاتي للآلة الإنسانية ، حيث لم تعد صالحة لمواجهة حركة الحياة ؛ ولذلك سمى الله النوم سباتًا ، ثم قال ﷻ ..

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ .. أي : سترًا ، وهذا الستر له فوائد كثيرة ، منها : أن الإنسان حين يخلو بنفسه ويخلد إلى النوم يحب ألا يطلع عليه أحد ؛ لأنه في نومه فاقد الوعي ، وقد تصدر منه أشياء لا يجب أن يراها أحد ؛ فلذلك جعل الله ﷻ الليل لباسًا وسترًا .

وكذلك هناك ضرورات حركية تقتضي وجود اللباس ، كأن تباغت عدوًا ، أو أن تبيت له كي لا يرى ما تعده له ؛ لذلك فهناك ضرورات في وجود الستر .

وكذلك مادام هناك ليل وستر ، فلابد من نهار ومعاش للحياة ، لذلك عقب الله ﷻ بعد ذلك بقوله ..

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ .. وهذا أمر واضح ـ كما قلنا ـ ، ففيه حركة الحياة وسير أمور الناس ومعاشهم .

ثم يقول الحق بعد ذلك ..

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ السبع الشداد ـ كما تدل عليها السياقات الكثيرة في القرآن ـ هي السماوات السبع ، وأما كون السماوات سبعًا فقد ورد في نصوص متعددة ، وكذلك كونها طباقًا ، إلا أن الناس ـ نظرًا لأن إدراكهم لم يصل بعد إلى جرم السماء ليعرفوا حقيقة ذلك الجرم ـ حاولوا جاهدين أن يعبِّروا عن معنى السماء بأشياء تطيقها عقول الناس ، وخاصة عندما تبرز في ميدان الفكر نظريات تبهر الناس حين يسمعونها ، أما الذين يحبون ـ إخلاصًا لدينهم ـ ألا يُبعدوا الدين عن واقع الحياة فإنهم يحاولون جاهدين أن يقربوا قضايا الدين ـ وخاصة الغيبيات ـ إلى عقولهم .

والتقريب إلى العقل عملية تعرض لها مفكرو العصر الحديث ، وكان على رأس هؤلاء المفكرين **الشيخ محمد عبده** ، وهو رائد المدرسة العقلانية ، تلك المدرسة التي كانت تحاول دائمًا أن تقرب قضايا الدين التي تتعلق بالغيب إلى عقول الناس ، وهي ظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على الغيرة على الدين والحرص عليه ، ولكنها للأسف تضر أكثر مما تنفع .

وذلك لأن قضايا الدين جميعًا ، خاصة في الأمور الغيبية يجب الإيمان بها مطلقًا ، أما كُنْه وكيفية ما نؤمن به فليس من الضروري أن نعرف تفاصيله .

ولابد أن نعرف أن للإيمان قمة ، وهو أن تؤمن بالله ، فإذا ما آمنت بالله باختيارك ووصلت إلى القمة بعقلك ، فيجب أن تتقبل كل ما يصلك عن الله ﷻ ، وسعه عقلك أم لم يسعه .

وفي ماديات الحياة ما يؤكد صدق هذه القضية ، فكم من أمور لم تكن غيبًا بحتًا ، وإنما كانت غيبًا فقط عن مشاهدنا ؛ لأن آلات إدراكنا لم تكن تستوعبها ، وإن كانت مادية ، كالميكروبات مثلاً ، ولكن حين تقدم العلم وتقدمت آلاته من مجاهر وميكروسكوبات ، أمكننا أن نرى ما لم نكن نراه من قبل .

إذن فكونك لا تدرك الأمر بحسك لا يعني أنه غير موجود ، يجب أن تتهم أنت حسك لأنه لم يصل إلى إدراك ذلك الأمر ، ووجود أشياء كانت غيبًا ثم صارت الآن مشهدًا دليل على أن

عقلك يجب ألا يتوقف في الأمر الغيبي بحجة أنه لم يدركه ، بل يقول : ما دام أن الله قد أخبر بـه فهو موجود ، أدركته أم لم أدركه ، وإذا كان العلم لا يزال يكشف لنا مستورًا من مستورات الله في كونه ، بعد أن كانت غيبًا عن الناس ، ثم صارت الآن مشهدًا ، أفلا يكون ذلك دليلاً لي حين يخبرني الحق عن غيب أن لا أرفض هذا الكلام لمجرد أنني لا أدركه ؟! لأننا نقول : إن هناك ماديات حياتية كانت أمور غيب ، ثم أصبحت مشهدًا ، فخذ من ذلك وسيلة أيضًا إلى الإيمان بأن مغيبات كثيرة لم يكن عقلك يدركها ، ولكن الله أخبر بها ؛ لذلك فيجب أن تصدقها .

ولذلك فنحن دائمًا نقول : إن القرآن حينما يميز المؤمنين يقول : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾[1] ؛ لأن الإيمان بالمشهود أمر قد يشترك فيه المؤمن وغير المؤمن ، فلا مزية للمؤمن إلا أن يؤمن بأمر الغيب .

أما إذا كان العقل مقتنعًا بأمر ما والحِسُّ يؤيده ، فما الداعي لعدم الإيمان إذًا ؟! لا داعي لعدم الإيمان أبدًا .

ولذلك لما رأوا أن السماوات لا تدخل تحت حسِّنا ، ولا تحت تجربتنا ، ولا نستطيع أن نعرف عنها شيئًا قالوا : إن السماء هي كل ما علاك فأظلك ، والكواكب والشمس والقمر والنجوم فوقنا عبارة عن السماء ، ونقلوها عن الغيب إلى عالم الحس ، فاعتبروا أن الكواكب السيارة التي كانوا يعرفونها في ذلك الزمن الغابر كانت سبعًا ، وأنها مطابقة لعدد السماوات السبع ، لكن تبيَّن فيما بعد أن السيارات حول الشمس ليست سبعًا ، فقد اكتُشفت سيارات أخرى ، فهل كانت السماء فارغة إلا من الشمس وتوابعها من السيارات ؟! كلا ، إن هناك نجومًا وكواكب كثيرة نراها أمامنا ، ولكنهم أرادوا أن يقربوا تلك المسألة للعقول المعاصرة ، فقالوا : إن السماء هي عبارة عن الشمس والقمر والكواكب .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 3 .

وقد أراد الإمام محمد عبده أن يفسر كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في قول الله ﷻ : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ [1] ، وفي قوله ﷻ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، فقال : إن معنى البناء هو إيجاد أشياء تتماسك تماسكًا قويًا بحيث لا تنفصل عن بعضها البعض ، كما تُبنى اللبنة فوق اللبنة ، ثم يتماسك ما بين اللبنات بطين أو أسمنت أو ما شابه ذلك ، وكل ذلك يعتبر ضمن عملية البناء .

وعلى ذلك فقد فسر الإمام محمد عبده كلمة : ﴿ بَنَاهَا ﴾ في هذه الحالة بقوله : جعلها متماسكة مع بعضها البعض ، بحيث تظل مترابطة متماسكة ، لا يسقط شيء منها بفعل قانون الجاذبية الذي حاولوا استعماله لإثبات أن القرآن يساير القوانين العلمية .

ومع أن هذا الكلام كلام طيب من الإمام ، إلا أن القرآن لا يؤخذ آية آية ، وإنما يؤخذ القرآن جملة واحدة ، فهو كتاب كامل متكامل ، وإن كان نزل منجمًا مفرقًا ، إلا أن آياته لابد وأن تؤخذ جملة واحدة .. والقرآن بيَّن لنا أن السماء غير النجوم غير الشمس غير القمر .. وهكذا .

والدليل على ذلك أننا إذا قرأنا ـ مثلاً ـ قول الحق ﷻ : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ [2] ، فإننا نجد ما يدل على أن السماء غير النجوم ، وبعد ذلك يأتي استهلال سورة الانفطار ، يقول الله ﷻ فيها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [3] ، فمرة تكون النجوم مغايرة للسماء ، ومرة تكون الكواكب مغايرة للسماء .. وهكذا .

1 - سورة : النازعات ، الآية : 27 - 29 .

2 - سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .

3 - سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[1] ، فالشمس والقمر من مكونات السماء ، والسماء تشتمل عليهما .

ويلاحظ أن القرآن دقيق في استيعاب هذه الأشياء ، فمرة يقول : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾[2] ، ومرة يقول : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾[3] ، فيأتي مرة بالنجوم مقابل السماء ، ومرة بالكواكب مقابل السماء .

ثم علمنا أخيرًا أنهم قد فرقوا بين النجوم والكواكب ، حيث قالوا : إن النجم مضيء وملتهب بذاته ، لكن الكوكب يعكس ضوء غيره ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم دقة الخالق في الأداء ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[4] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾[5] ، فأتى بالكواكب مرة وبالمصابيح مرة ، وذكر أنها زينة للسماء ؛ لأن الكواكب ومعها القمر ، تستمد ضوءها من الشمس ، فهي متلألئة وضاءة ومشرقة ؛ لذلك فهي زينة .

إذن لا يشترط أن تكون متوهجة في ذاتها ، ولكن يكفي أن تكون آخذة الضوء من غيرها كي تكون زينة ، سواء أطلق عليها كواكب ، أو أطلق عليها مصابيح .

ولو أردنا أن نفرق بين الكواكب والمصابيح ، فسنجد أن القرآن هو الفيصل في هذا ، حيث يدلنا على أن المصباح متوقد بذاته ، ولكن يوجد شيء يمنحه الإشعاع ولو كان غير متوقد بذاته ، فنجد قول الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

1 – سورة : نوح ، الآية : 15 ، 16 .
2 – سورة : المرسلات ، الآية : 8 ، 9 .
3 – سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .
4 – سورة : الصافات ، الآية : 6 .
5 – سورة : الملك ، الآية : 5 .

مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [1] ، فالزجاجة ليست مضيئة بذاتها ، ولكنها تعكس ضوء المصباح الذي هو مضيء بذاته .

وعندما يقول ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ، ثم في مرة أخرى يقول : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [2] .. ، فإن الحق ﷻ ذكر الاثنين : إما أن تكون كوكبًا ، وإما أن تكون نجمًا مضيئًا بذاته .

والخلاصة من هذا كله أن السماء شيء والكواكب والشمس والقمر شيء آخر ، خصوصًا أنهم بعد أن اكتشفوا سيارات أخرى مثل : أورانوس ونبتون وبلوتو ، زادت السيارات عن سبع ، ومع ذلك فعندما جاء عالم الفلك وقال : أين هذه الكواكب السبعة السيارة التي حول الشمس من ملك الله ؟ هذه مجموعة واحدة من مائة مليون مجموعة في مجرتنا ، ويوجد في الكون مائة مليون مجرة مثلها ، فالكواكب والنجوم عددها مثل عدد حبات الرمال على شواطئ البحار ، فماذا أفاد الإمام محمد عبده ومدرسته عندما قال : إن الكون كله ليس فيه إلا المجموعة الشمسية : الشمس والقمر والأرض ، فأين هذا من ملك الله ؟! إن بيننا وبين الشعرى أربع عشرة سنة ضوئية ، بينما بيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية فقط ، وهي مع ذلك تعطي ضوءًا وحرارة مثل الشمس 26 مرة ، وإذا كانوا يقولون : إن الأرض هي مركز الكون ، فهذا غير صحيح ؛ لأن الأرض لا تساوي شيئًا بالنسبة لملك الله ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [3] ، فهذا الكون واسع جدًّا ، فكونهم يقولون : إن السماء هي هذه ، والجاذبية هي التي تمسكها ، فإننا نرد عليهم بأن القرآن عندما يتعرض لمباني السماء فإنه يأتي بصيغة واحدة وهي كلمة بناء ، وعندما يتعرض لمباني الأرض يطلق عليها اسم

---

1 - سورة : النور ، الآية : 35 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

3 - سورة : الذاريات ، الآية : 47 .

البنيان ، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[1].. ، فكل ما يتعلق بالسماء يسميه بناء ، وحين يتعرض لمباني الأرض يقول : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾[2]. ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[3].. فكل ما يتعلق بالمباني في الأرض يسميه بنيانًا ، وكل ما يتعلق بالبناء في السماء يسميه بناء فقط .

وإذا كان البناء يمكن أن تميز فيه لبنة عن لبنة ، ويوجد بين اللبنات ما يعمل على تماسكها ، فإن السماء لا ترى فيها من فطور (ثقوب) ، فالبناء هنا متماسك ومتلاحم بحيث لا تستطيع أن تتبيَّن فاصلاً بين شيء وشيء آخر ؛ ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[4].

ولذلك عندما ترى السماء صافية تجدها بلون واحد وشكل واحد ، أما عندما تنظر إلى القمر تجد فيه ما يسمونه بالكلف ، وعندما تنظر إلى الشمس تجد فيها البقع ، فمعنى بناء السماء أنها بناء لا يوجد فيه شقوق ولا فطور .

والحق ﷻ حينما يسري برسوله في رحلة الإسراء والمعراج ، ثم يأتي الرسول ﷺ ويقول صعدت إلى السماء ، واستفتح **جبريل** ، وبعد ذلك قيل : من معك ؟ قال : **محمد** ، ففتحوا له ، ثم صعد إلى السماء الثانية ، فهل بعد ذلك يا إمام تقول أنت ومدرستك : إن السماء هي ما علانا فأظلنا من شمس وكواكب ونجوم ؛ لتقرِّبوا هذه المسألة إلى العقول لكي تقولوا : إن الدين ليس متعارضًا مع العلم .. صحيح أن الدين لا يتعارض مع العلم ، ولكن أي علم ؟! العلم الذي

1 – سورة : البقرة ، الآية : 22 .
2 – سورة : الصافات ، الآية : 97 .
3 – سورة : التوبة ، الآية : 109 .
4 – سورة : الملك ، الآية : 4 .

يصل إلى حقيقة العلم ؛ لأن التضارب لا يمكن أن يتأتى بين كلام الله وبين كون الله ، فالله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي قال القرآن ، فلا تعارض أبدًا ، إنما ينشأ التعارض عندما تعتبر حقيقة في القرآن على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أو تعتبر حقيقة في الكون على فهمك ، وهي ليست بحقيقة ، أما إذا توصلت إلى حقيقة قرآنية كحقيقة قرآنية ، وإلى حقيقة كونية كحقيقة كونية ، فلا يمكن أن يوجد تعارض أبدًا ، ولكن الناس دائمًا يتعجلون ، وكلما رأوا بارقة من علم نظري يحاولون أن يفسروا بها غيب الله ﷻ ، ورغم إخلاصهم إلا أنهم قد يضرون ؛ لأنه ليس من مهمة الدين أن ينزل إلى مستوى عقول الناس ، إنما المهم أن يرفع من عقول الناس إلى مستواه ، فهذه مسألة تتساوى فيها المعرفة وعدم المعرفة ، أي أن هذا طرف عقلي وعلمي ، فإن عرفت أن السماء هي كذا أو كذا ، فهذا لن يترتب عليه من نفعك منها والذي قصده الله لك شيئًا ، بل أنت في كل الأحوال منتفع .

وبعد ذلك ، ماذا ترك عقل القرن العشرين لعقل القرن الثلاثين والأربعين ، إذا كنا كل يوم نخطو في العلم خطوات تدلنا على حقائق ، فإذا كان العقل في القرن العشرين يريد أن يفهم الحقائق الغيبية الآن ؛ فماذا ترك لعقل القرن الثلاثين ؟! إن أسرار الله تأتي تباعًا ، كل يوم يعطي الله ﷻ خلقه بعض الأسرار ؛ ولذلك جاء قول الحق ﷻ : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ ﴾ [1]..أي سنظل نريهم ، وليس أريناهم ، وسنبقى نقرؤها إلى قيام الساعة سنريهم .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

وبعد أن تكلم الحق عن مظاهر قدرته وإبداعه ، ومظاهر حكمته الموضحة في هذه الأشياء ،

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

ينتقل إلى المعني المطلوب ..

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. أي إنه لا بـد أن لا تكذبـوا الخالق الذي فعل ذلك ؛ لأنكم ستلقونه في يوم الفصل .

وكلمة : ﴿ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ .. تدل على أن الذين يسـتعجلونه يريدون أن ينفعل الله ﷻ لاسـتعجالهم ، فيعجل اليوم إلى وقـت قـريب ، ولكنهم لا يعلمون أن الله لا ينفعل ؛ لأن الانفعال تغيُّر ، والحق ﷻ لا يتغير .

والميقات ، هو الوقت المعلوم .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ .. وكأنها بداية يوم الفصل .. ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[1] .

وعن **معاذ بن جبل** ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية سأل عنها رسول الله ﷺ ، فقال رسـول الله ﷺ له : **" يا معاذ ، سألت عن أمر عظيم من الأمور "** . ثم أرسـل عينيه ، وقـال : **" تحشر عشرة أصناف من أمتي ، بعضهم على صورة القردة ، وبـعضهم على صورة الخنازير ، وبعضهم منَكّسون أرجلهم فوق وجوههم يسحبون عليها ، وبعضهم عمي ، وبعضهم صم وبكم ، وبعضهم يمضعون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم يسـيل القـيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع ، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم ، وبعضهم مصلّبـون على جذوع من نار ، وبعضهم أشد نتنًا من الجيف ، وبعضهم يلبسون جبابًا سابـغة من قطران لازقة بجلودهم ، فأما الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس[2] ، وأما الذين على صورة الخنازير فأهل السحت ، وأما المنَكّسون على وجوههم فأكلة الربـا ، وأما العمي فالذين يجورون في الحكم ، وأما الصم والبكم فالمعجبون بـأعمالهم ، وأما الذين**

---

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

2 - القتّات : أي الذين يسعون بين الناس بالنميمة .

يعضون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالهم ، وأما الذين قطعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يؤذون جيرانهم ، وأما المصلّبون على جذوع من نار فالسعاة بالناس إلى السلطان ، وأما الذين هم أشد نتنًا من الجيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعوا حق الله ﷻ في أموالهم ، وأما الذين يلبسون الجباب فأهل الكبر والفخر والخيلاء "[1] .

وعن أبي هريرة ﷺ ، أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : " هل تمارون في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " قالوا : لا يا رسول الله . قال : " فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئًا فليتبعه ؛ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها ، أو منافقوها (شك الراوي) ، فيأتيهم الله ﷻ ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاءنا ربنا عرفناه . فيأتيهم الله ﷻ في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم . فيقولون : أنت ربنا . فيتبعونه ... إلى آخر الحديث[2] .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ .. أي أنها ليست مفتوحة الآن ، وستفتح حينها .

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ .. والجبال هي أثبت شيء يراه الإنسان ، والجبال أخذت حظًّا وافرًا في القرآن ، حيث نجد أن تسعًا وعشرين سورة متعلقة بالجبال ، منها إحدى عشرة آية متعلقة بأحوال الجبال يوم القيامة ، ومسألة التسيير .

والسراب : هو الشيء الذي تتوهم أنه شيء وليس بشيء .

---

1 - تفسير أبي السعود 6 / 439 .

2 - البخاري : (6885) ، ومسلم : (276) .

والتسيير يكون بالنسبة للجبال ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [1]، وقوله ﷻ أيضًا : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [2]، وقوله : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [3]، وقوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ [4].

ولكن السور الثلاث لم تتعرض لما تسير إليه بعد التسيير ، ولكن في **سورة النبأ** كان التفصيل : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، فنتيجة التسيير أنها تصير سرابًا ، وهنا تحرك من أماكنها بالسير ، ثم تصير سرابًا ، وهناك في **سورة المزمل** : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ [5]، **والكثيب** : هو الرمل المهيل الهائل بعد ما كان متماسكًا ، والرمل حين يتماسك يصبح ثابتًا في مكانه ، ولا يكون سرابًا ، وكلمة : ﴿ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ تدل على التفكك والتفتت .

وهذه المعاني الكثيرة الواردة في الآيات تدل على أنه إما أن يكون النسف هو التسيير ، أو أن يكون النسف لبعض الجبال ، والتسيير لبعض ، وذلك لاختلاف طبيعة الجبال ، فالجبال طبائعها مختلفة ، واختلاف طبائعها يجعل الحالة التي تؤول إليها الجبال لتنتقل إلى العدم تأخذ صورتين اثنتين : صورة تسيير فتصبح سرابًا ، أو صورة نسف .

إذن فالجبال نوعان : نوع فيه نسف ، ونوع فيه تسيير .

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 1 – 3 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 47 .

3 – سورة : الطور ، الآية : 10 .

4 – سورة : المرسلات ، الآية : 10 – 13 .

5 – سورة : المزمل ، الآية : 14 .

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

إن الكون كله خاضع للحق ، الكون كله مسبح ، الكون كله مؤدٍ لمهمة يريدها الله ﷻ ، فعندما يرى الكون إنسانًا فاجرًا طاغيًا فإنه ينبو عنه وينفر منه ، وينتظر حتى يأتي يوم عذاب ذلك الإنسان فيتميز من الغيظ ، حتى يقال : هل امتلأت ، فتقول : هل من مزيد ؟

فهذا هو انفعال **الكون المسخر.. الكون المسبح.. الكون العابد..** كان متغيظًا ، وكان محنقًا من جنس الإنسان الذي انقسم إلى طائع وعاصٍ ، في حين أن بقية الأجناس طائعة بالإجماع .

ويتضح هذا الإجماع عندما نعرض لقول الحق ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ** ﴾ ، ولكن عندما كان الكلام عن الإنسان .. سيد هذه الدنيا قال : ﴿ **وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾[1] .

إذن فلم ينقسم الخلق إلا عند الإنسان ، أما الجميع فبالإجماع ؛ ولذلك فجهنم معذورة في أنها تظل مترصدة لهؤلاء الذين خالفوا منهج الله ﷻ .. ﴿ **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا** ﴾ .

﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا** ﴾ .. وكلمة ﴿ **مَآبًا** ﴾ تدل على أن أمر الأوبة مقطوع به ، وكأنهم في رحلة وسيعودون منها إلى مستقرهم الحقيقي ، ﴿ **لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ ،

1 – سورة : الحج ، الآية : 18 .

وهنا وقفة للعلماء ، حيث يقدرون الحقبة بثمانين سنة ، ولا يكون اللبث أحقابًا إلا إذا كان متتابعًا ، لأن الحقبة مشتقة من حقيبة الراكب التي يضعها خلفه ، فهي تابعة لرَحله ، لذلك فإن ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ لا تعني عددًا محدودًا من الزمن ؛ لأن كلمة أحقاب لا تطلق إلا على أزمنة متلاحقة متتابعة ، أي : كلما ينتهي حقب يأتي حقب آخر بعده .

وقد قال بعض الناس : ما دام أن الله ﷻ قد قال : ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ فإنه ﷻ قد عدَّها ، والحقب ثمانون سنة ، ومع إعطاء الجمع أكثره لا تدل كلمة أحقاب على استمرار التتابع .

ونقول لهؤلاء : إن كلمة أحقاب تدل على العذاب المقيم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ، أما عن فائدة كلمة أحقاب ، فإنها تدل على أنه استدامة لعذاب هؤلاء وبعد أن ينالوا قسطًا من العذاب يوجه وجوههم تلقاء الجنة ، فيتجدد عندهم الأمل في الخروج من النار ودخول الجنة ، ثم يعيدهم بعد ذلك إلى النار تارة أخرى ، فيكون ذلك أشد في النكاية بهم ، ووصلاً في العذاب فوق العذاب ، كما لو منعت إنسانًا من الماء ، واستمر منعك له من الماء ، فيستحكم منه اليأس ويعلم أن قد قضي الأمر ، أما إذا أمَّلته ومددت إليه يدك بكوب من الماء ، حتى إذا ما مد يده ليأخذها أعدت يدك ولم تعطه إياها ، فإن ذلك سيكون أشد استدامة للعذاب .

فكلمة أحقاب معناها : أنهم يأخذونهم فترة ، ثم بعد ذلك يأنسون إلى أن الله ﷻ سيعفو عنهم ، ثم يُعادون بعد ذلك ، وهكذا ، كما قال الشاعر العربي :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

أو كما قال الآخر :

فأصبحت من ليلى الغداةَ كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

حيث تسرب الماء من بين أصابعه .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ وكلمة (إلا) عندما تذكر فإنها تعطي لسامعها أملاً ؛ لأن كلمة (إلا) من المعروف في الاستثناء أنها للإخراج ، وما دامت إخراجًا من عذاب فإنها تصبح أداة للرحمة ، فإذا به يجد بعدها عذابًا أنكى ، فالله ﷻ أطمعه ، ثم أخبره بما أعده له من العذاب ، ولذلك قال الصحابة : " هذه أشق آية في القرآن " .

﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ .. وهذا السياق يأتي على طريقة المدح في معرض الذم ، أو الذم في معرض المدح ، فساعة أن يسمع (إلا) يظن أن باب الفرج قد انفتح ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ، وقوله ﷻ : ﴿ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ..

الحميم : هو الماء المتناهي في الحرارة ، فهل يكون هذا بردًا ؟!

والغساق : هو الصديد .. صديد أهل النار ، فهل يكون هذا شرابًا ؟!

ولكي لا تأخذنا بشاعة الجزاء ، وهول الوصف يقول الحق ﷻ ..

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ هنا قال : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ وهناك : جزاء فيه عطاء أي يأخذون حسنة مقابل الحسنة التي صنعوها ثم تزيد بعد ذلك تسعة ، وهو العطاء ، أي أنه جمع بين الجزاء وبين العطاء .

عندما نقرأ ﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .. نجد الحق يأتي بالحيثية التي تجعل السامع يؤمن تمام الإيمان أن الجزاء جزاء عادل ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ .. هذا الجزاء الذي تقدم لماذا استحقوه ؟!

استحقوه لأمرين : الأمر الأول : أنهم كانوا لا يرجون حسابًا ، كيف لا يرجون حسابا ؟! لأنهم لا يؤمنون بالحساب ، أو يؤمنون بالحساب ولكنهم يتعجبون كيف يعودون ثانية بعد أن كانوا عظامًا ورفاتًا .

فإذا استقــرأت كل فســـاد الدنيا وجدته ناشـــئًا من أنهم ﴿ لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ، فإن المجتمع يفسد حين لا يرجو أعضاء المجتمع أو لا يتوقـعون حسـابًا على تصرفاتهم ، فحـين توجد هذه الصفة في المجتمع ، ولا يتوقـع أحــد حســابًا على تصرفاته ينطلق كلٌ في حـركة حياته كما يحب ويشتهي ، إذن فالضامن لصلاح المجتمع هو بعينه الضامن لصلاح الآخرة ، فهؤلاء حدث لهم هذا لأنهم .. ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .

إذن فعدم توقع الحساب من الإنسـان يجعله ينفلت في حـركة حـياته غير متقـيد لا بـنظام عقدي ولا بنظام قيمي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا ، وكذلك الدنيا يكون الفساد فيها حين لا يتوقع الناس في المجتمع حسـابًا ، أما إذا توقـعوا حسـابًا ، وتذكر كل إنسـان أنه سيحاســب على تصرفه .. فهنا ينتظم المجتمع ، وحين لا يتوقع حسابًا .. يفسد المجتمع فسادًا كبيرًا .

إن هؤلاء حــدث لهم هذا لأنهم ﴿ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ مما يدل على أن عدم توقــع الحساب من الإنسـان يجعله ينفلت في حـركة حـياته غير متقـيد لا بـنظام قـيمي ولا بـنظام عقدي ؛ لأنه لا يتوقع حسابًا .

فالمحاسب سيكون في مجتمعنا ثلاثة أشياء : إما الحاكم الذي نصبـه الله ليقـيم حـدوده ، وإما المجتمع ، وإما النفس ، وهذا هو ما انتهت إليه مدارس الجزاء الحديثة كلها ، إلا أنهـا تمتاز بـــأن هناك حســـابًا آخر ترجوه في الآخرة ، وتلك المدارس الحديثة لا تنظر إلى هذا الحساب ، بل تنظر إلى حسـاب الدنيا .. المجتمع .. حسـاب الحاكم بتقـنيناته .. حسـاب النفس ؛ ولذلك نشـأت مدرسـة اسمها مدرســة الضمير ، ونشــأت مدرســة اسمها مدرســة المجتمع ، ونشأت مدرسة الحاكم .. وهكذا .

ولكنا نقول لأصحاب هذه المدارس جميعًا : إن هذه الأشـياء الثلاثة لم يهملها القـرآن ، ولم يهملها المذهب العقـدي الإسـلامي ، لكن ما رأيك فيمن يحتاط للجريمة بحيث لا تقــع عليه عين الحاكم ، ولا عين المجتمع ؟!



إذًا فالعاصم النهائي القوي الذي يستوعب كل هذا هو أن يعتقد الإنسان أنه محكوم أمام عين خبير لا تخفى عليه خافية ، لا يستطيع أن يستتر عنه ، وهو مردود إليه قطعًا ليجازيه .

إذا تأملنا قوله ﷻ : ﴿ لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ وجدناها قضية تنصرف ، فالذين لا يرجون حسابًا في الآخرة يفسدون الفساد الأصيل ، من القمة كفرًا بالله ﷻ .. إلى أصغر الصغائر ، أما في الدنيا فإن الفساد فيها لا يتأتى إلا إذا كان الناس لا يرجون حسابًا ، فإذا وجد حاكم يقيم القانون على طائفة دون طائفة ، فماذا تظنه يحدث ؟ لا شك أن التي يقام عليها القانون ستشعر بالظلم ، مما سيؤديها دائمًا إلى المخالفة ، وأما الطائفة الأخرى فبشعورها أن ليس من حساب لا شك ستفسد ، وهذا هو معنى قول رسول الله ﷺ : " **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** "[1] .

ويقول الله ﷻ : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .. وهذه من الوازع الديني .. ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾[2].. يعني : الجو المحيط بكم .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ بيان علة فسادهم وكفرهم واستهزائهم .. علة وقوفهم من النبي ﷺ موقف الصد والعدوان والاضطهاد ، كل هذا ناشئ من .. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ .

وبعد ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴾ .. وإذا تأملنا كلمة ﴿ كِذَّابًا ﴾ نجد أنها وردت للتوكيد بالتشديد . فلِمَ لَمْ يقل : تكذيبًا ، أو كذبًا ؟! مع أنها كلها لغات فيها .. ولكن كلمة (كِذَّاب) مصدر مثل التكذيب ، ويقال : إن هذه هي لغة أهل اليمن ، كما تجد الرجل اليمني يسأل في الحج فيقول : أيهما أفضل الحلق أم القِصار ؟ يعني الحلق أم التقصير .

---

1 – متفق عليه : البخاري (3288 ، 3526 ، 4053 ، 6406) ، ومسلم (1688) كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها .
2 – سورة : التوبة ، الآية : 105 .

ووردت قراءة ثانية : (وكذبوا بآياتنا كِذَابا) ، ووردت قراءة ثالثة : (كُذّابا) .. جمع كاذب ، كفساق جمع فاسق .

فإنك لو قلت : كَذَّب فلان فلانًا ، فإن تكذيب فلان لفلان لا يجعلك تلقي اللائمة على من كذب ؛ لأنه من الجائز أن يكون صادقًا ، فأنت كذبته في الخبر ، أليس من الجائز أن يكون تكذيبك صحيحًا ، فبقي أن تقول : كذبوا بآياتنا ، وهل صدقوا في ذلك أم كذبوا ؟ فيقول لك : بل كذَّبوا ثم ترك مصدرها لتفهمها ، وبعد ذلك قال : (وكذبوا كِذَابا) ، أو (وكذبوا كذَّابا) ؛ ليقول لنا : إنهم ليسوا صادقين ، إنهم كذبوا ويبقى مصدرها محذوفا (تكذيبًا) ، ولم يَصدقوا في ذلك ، بل كذَبوا في ذلك التكذيب كذابا ، وتكون (كذابا) راجعة لفعل غير المذكور فيكون مصدر المذكور محذوفًا ، (كذبوا) كأنه قال : كذبوا تكذيبًا ، وهم غير محقين في ذلك التكذيب .

وهنا شيء يسمونه في اللغة احتباكًا ، وهو أن تأتي بجملتين ، كل جملة لها ركنان ، ثم تحذف من الأولى ركنًا ومن الثانية ركنًا ، لكن الركن المحذوف من الثانية عليه دليل في الأولى ، والمحذوف في الأولى عليه دليل في الثانية ، وذلك مثل قول الحق ﷻ : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾[1] ، كان المفترض أن يقال : فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، لكن القرآن مبني على الأسلوب العالي من البلاغة فحذف ﷻ كلمة مؤمنة من الأولى واستدل عليها بمقابلها في الثانية ، فقال : ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ كأن الأولى مؤمنة أي : فئة مؤمنة ، أخذنا مؤمنة من مقابل ما ذكر في الثانية .

فجاءت كلمة : ﴿ كَافِرَةٌ ﴾ لتستدل على المؤمنة الأولى ، وجاء في الأولى ﴿ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ لتستدل على أن معنى الثانية هو : في سبيل الشيطان .

---

1 – سورة: آل عمران ،الآية: 13 .

وهذا هو ما يسمى بالاحتباك .. حيث حذف من الأولى نظير ما وجد في الثانية ، وحذف من الثانية نظير ما وجد في الأولى .

أي : وكذبوا بآياتنا تكذيبًا ، أو وكذبوا في ذلك كذبا أو كذّابا ، جاء بالفعل في الأول وترك المصدر ، وجاء بالمصدر في الثاني وترك الفعل .

وهناك من استشكل بآية من القرآن ، وهي قول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] .. قال : فلماذا كذبهم الله ﷻ ، مع أنهم لم يشهدوا بقضية كاذبة ، وإنما شهدوا للنبي ﷺ بالرسالة ؟!

فنقول : لقد أخذت متعلق الفعل وتركت الفعل .. إنهم لم يقولوا : إنك رسول الله فقط ، بل إنهم قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فالتكذيب في قولهم : (نشهد) ، وليس في شهادتهم نفسها ؛ لأنها ليست شهادة فهي مجرد كلام من لسانهم لم يصادف إيمانًا في قلوبهم ، فالشهادة هي أن يقول الإنسان قولاً مطابقًا لما في ضميره ، وهم ليسوا مؤمنين بهذه الشهادة ، فقالوها بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ .. الإحصاء هو معرفة الشيء وعده ، ومع الإحصاء هناك الكتابة ؛ لأنك إن أردت أن تعد الشيء لعددته في ذهنك ، ولكن إن أردت أن تؤكد هذا الإحصاء فلابد من كتابته ، ولذلك عدل عن مصدر الإحصاء فلم يقل : وكل شيء أحصيناه إحصاء ، لأن كلمة : (أحصيناه) .. أي : علِمناه علما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، لكن هذا العلم يكون حجة عندي أنا ، وليس حجة عليهم ، إنما أنا أريد حجة عليهم ، فلم يكتفِ الحق ﷻ بالإحصاء ، وهو العلم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، بل تعدى ذلك إلى الكتابة أيضا ، وذلك حتى يقرأ كل إنسان كتابه يوم القيامة ، كما قال ﷻ في ذلك : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ

1 – سورة : المنافقون ، الآية : 1 .

كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1].

﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. ويلاحظ في هذا الأسلوب أن الحق ﷻ يتكلم عن الكافرين وعن المنكرين للبعث فيرد عليهم بالغيب كله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا * إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ ، كان يمكن أن يقول السياق : فليذوقوا ، لكن المسألة انتقلت من الغيبة إلى الخطاب ، لأن ﴿ فَذُوقُوا ﴾ خطاب من متكلم والمخاطبون يسمعون ، لكن الأول غيب ، فهو يريد أن يجعل الأسلوب يشف عن المعنى شفافية مطلقة ؛ لأن الآخرة غيب ، فقد يكذب الناس بها ، لكن عندما تكون مشهدًا فكأنه قيل : ستواجهون بها هكذا ، بعد ما كان الأمر غيبًا أصبح مواجهة .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .. وكلمة (لن) للتأبيد ، مثل (إلا) الأولى ﴿ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ ﴾ فعندما نقرأ (إلا) نقول : سيأتي هنا تخفيف ، ولكنه يقول : ﴿ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ ، وكما قدمنا أن التيئيس بعد الإطماع أبلغ في النكاية ، وأعظم في الترويع والتخويف ، وضربنا لذلك مثلاً : أن الإنسان إذا كان عطشانًا بشدة ويطلب منك كوب ماء ، وأنت لا تعطيه الماء ، ثم بعد ذلك التفت إليك فوجدك تذهب نحو القارورة وتملأ الكوب ماءً وتتوجه به إليه ، فكل ذلك يعطي له الأمل في أنك سترق وتعطيه كوب الماء ، ثم بعد ذلك يمسكه ليشربه فتقوم بضرب الماء من يده فيقع منه ، فلو أنك من أول الأمر لم تتحرك في اتجاه الماء لكان الأمر هينًا عليه ، أما أن تطمعه هذا الإطماع ، ثم بعد ذلك تقنطه ، فهذا أبلغ في النكاية فيه .. ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ .

وبعد ذلك ينتقل السياق لإيلامهم أكثر بالحديث عن المقابل ، وهو جزاء المتقين يوم

1 - سورة: الإسراء، الآية: 14 .

القيامة ، وهو : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ، إن المتقين لم يكونوا مكذبين ، وليس لهم علاقة في هذا الموضوع ، ولكن ذلك من أجل التقابل ، وهذه هي عدالته ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ دائمًا يقابل بين الفريقين فيقول : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[1] ، إذن فهذه العملية فيها نكاية أخرى ؛ لأن العذاب على السيئة عذاب ، ثم تنعيم المقابل يكون لونًا آخر من ألوان العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .. كلمة : (مفازًا) هذه تطلق على عدة معان ، تطلق ويراد بها الفوز .. إن للمتقين فوزًا ، والفوز هو بلوغ الخير المؤمل للنفس ، (فاز) يعني بلغ الخير الذي كان يؤمله ، أو (مفازًا) أي منجاة من المعاطب ، فاللفظ يحتمل الاثنين ، وفي الآخرة يكون هذا وذاك ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[2] .. لأننا سنمر ونشاهد لهيب النار ونحن نمشي على الصراط ، وكون أني أرى النار ، ثم بعد ذلك أنجو منها ، فهذه نعمة حتى ولو كنت مع أهل الأعراف ، لا في جنة ولا نار ، فما بالك إذا ذهب هذا ، ثم بعد ذلك دخل الإنسان الجنة ..

إذًا .. ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أي نجاة ، كما في قوله ﷻ : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[3] ، إذًا فعناصر الفوز نوعان : أن يزحزح الله الإنسان المؤمن عن

1 – سورة : الانفطار ، الآية : 13 ، 14 .

2 – سورة : مريم ، الآية : 71 .

3 – سورة : آل عمران ، الآية : 185 .

النار فهذه مزية ، ولو ظل بلا نار ولا جنة ، فما بالك إذا زحزحه عن النار وأدخله الجنة ، فهو الفوز ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ ، وكان العرب يسمون الصحراء (مفازة) ؛ لأن الصحراء عادة تكون مهلكة ، فعندما يمشي فيها أحد لا يجد عين ماء يشرب منها ، وقد يعترضه وحوش أو سباع أو عدو يبغته ، فينجو منها ؛ ولذلك فهم يسمونها مفازة تيمنًا ؛ كي لا يناله فيها معاطب ، فأول درجات الفوز ألا توجد المعاطب ، والمرتبة العالية : ألا توجد المعاطب وتوجد المحاسن ، ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ .. بعد ذلك أعطانا لونًا من ألوان نعيم الجنة ، والحق ﷻ حين يتكلم عن الجنة يتكلم عنها بالأسلوب الذي وجد في لغتنا ، حيث إن الجنة أمر أخبرنا الله به غيبًا ، ولكن أخبرنا عن أصول المسائل فيه : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، والرسول ﷺ يشرح لنا ذلك ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : **قال الله ﷻ : " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " ، فاقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا** أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] ، فإن قيل : فما دام فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف يوجد في لغة الناس ما يؤدي معانيها ؟! والجواب : نسأل كيف جاءت لغة الناس ؟ إنما جاءت اللغة حيث وجد المعنى في الذهن أولاً ، ثم وضع له اللفظ الذي يؤدي معناه .

إذن فلا لفظة في اللغة إلا وقد سبق الذهن إلى معناها ، وإذا كانت فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهل عندنا ألفاظ تؤدي مدلول هذه الأشياء؟! إن الألفاظ لا توجد في لغة الناس إلا بعد أن تتشخص المعاني في الذهن ، وعندما تتشخص المعاني في

---

1 - سورة : السجدة ، الآية : 17 .

2 - رواه البخاري (3072 ، 4501 ، 4502) ، ومسلم (2824 ، 2825) .

الذهن توجد لها الألفاظ ، أما أن لا يوجد المعنى في الذهن فلا يوجد لفظ يؤديه ، فإذا كانت الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فمن أين تأتي الألفاظ التي تؤدي هذا ، فيكون لا ألفاظ في لغتنا لتؤدي المعاني التي في الجنة ، ولكن الله أعطانا فقط مثالاً من نعيم الدنيا ؛ ولذلك فهو لم يقل : الجنة التي وعد المتقون ، وإنما قال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، ومعلوم أن المثل معدل ، ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ ﴾ معدل : ﴿ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ ﴾ معدل ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾[1] ، والخمر لا غول فيها ، حتى رغم أنه يقول : إني أعطيكم مثلاً فقط ، فليس حقيقة ما في الجنة ، بل معدل أيضًا في المثل .

لابد أن نعرف أن الذي كان يمتلك حديقة أو بستانًا أو حائطًا في البيئة العربية هو من عُرف بالثراء والترف ، والحديقة هي البستان ذو السور وهذا السور دليل على الخصوصية ، أي أن من مُتَع الجنة متعة الخصوصية ، وقد أعطانا ربنا ﷻ رمزية لها فقال : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ، ولذلك جاء في موضع آخر يقول : ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾[2] ، وفوق ذلك : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾[3] ، ففضل الله ﷻ متسع لأن يعطي كل إنسان خصوصية ، والدليل على ذلك هو قوله ﷻ : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ أي ذات أسوار .

وبعد ذلك أتى بأمتع ما في الحدائق وهو الأعناب ، عندما يأتينا لفظ في القرآن له نظير في الدنيا فلا نأخذه على ذلك النظير ، بل نأخذه على مقياس زمنها ، فيكون هناك عنب الدنيا وعنب الآخرة ، وخمر الدنيا وخمر الآخرة ؛ ولذلك يقول : ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ ﴾[4] ، فيعطيها لفظًا من ألفاظ الدنيا .

---

1 – سورة : محمد ، الآية : 15 .

2 – سورة : الرحمن ، الآية : 72 .

3 – سورة : الرحمن ، الآية : 74 .

4 – سورة : الواقعة ، الآية : 19 .

ولذلك فإن الله ﷻ يقـول في آية أخرى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[1] ، وقبـل ذلك ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ .. فالمرء في الجنة يخيل إليـه أن هذا الذي رزقه هو ما رزقه من قبل ، فإذا أكله وجده ليس هو ، بل شيئًا آخر ، اللون واحد .. والطعم مختلف .

إذًا فما الحكمة في أن تأتي هذه النعم على هيئـة مـا نـراه في الدنيـا ، ولم تـأتِ علـى صـورة أخرى جديدة لم نرها من قبل ؟! والجواب : هو أن إلف النفس للأشياء هو الذي يشجع على تناولها ، فمثلاً إذا رأيت في مكان ما طعامًا أو فاكهة لم ترها من قبل في بيئتك فلن تقبـل عليها غالبًا ؛ لأنك لا تعرفها ، وبالتالي فإنك قد تزهد فيها .

وكذلك إذا قـيل لك إن في الجنة حـور عين ، فإنك قـد تتسـاءل : هل هي مسـألة جنسـية فحسب ؟! أم حـب وعاطفة ؟! أم غير ذلك ؟! والجواب : أن هذا هو أمتع ما وجد في الحياة من متع النفس ، ولكنك لا تتصوره .. بواقع العملية ، أو بمقدمات العملية ، إنما أنت تتصوره بنهايات العملية ، فالإنسان قبل أن تتم هذه العملية تكون هي ألذ شيء عنده ، ولكن بعد ذلك إن استقذر شيئًا فذلك بعد أن تذهب ثورته .

فالمقدمات محبوبة لا شك ، وواقع العملية محبوب كذلك ، فما الذي يجعلها مستقـذرة ؟! هو ما يأتي بـعدها من منغصات للذة في الدنيا ، فكما نزع من خمر الدنيا منغصاتها ، فهو ينزع من هذه العملية أيضًا منغصاتها ، فلا تجد لها منغصات ؛ لذلك فلا ينبغي أن تقـيس المسـائل دائمًا على واقعها في الدنيا .

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ .. الكعاب من النساء .. هي البـنت التي ثدياها يشبـه الكعب ، أي لم يتهدل لأسـفل كالقربــة ، وهؤلاء الكواعب أتراب ، ومعنى أتراب : أنهن متسـاويات في السن .

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ .. الكأس : هو وعـاء الخمـر ، وكـأس دهـاق يعـني : ممتلئـة صافيـة

1 – سورة : البقرة ، الآية : 25 .

متتابـعة ، وهي كذلك ذات مذاقـات مختلفة ، فتجد كأسًا مزاجـها الكافور ، وكأسًا مزاجـها الزنجبيل ، وهكذا .. ألوان متعددة من هذا الكأس الدهاق .

ثم تجد ذلك القيد الجميل : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ .. حيث إن أصل اللغو إنما ينشأ من ذهاب العقل ، وهذه الخمر لا تذهب العقـل ولا تؤثر فيه ، فلا يخرف ولا يلغو ، ولا يفرح بـاللغو دائمًا إلا اللاغي ، أما إذا كان الإنسـان واعيًا متزنًا فإنه يتأذى إذا سمع من يلغو ، لذلك قـال ﷻ بمنتهى الدقـة : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ﴾ ، فليس النفي للغو فقـط ، وإنما النفي للكذب كذلك ، فالجنة لا لغو فيها منهم ولا من غيرهم ، فالمجلس بعيد كل البعد عن أن يشابه مجلسًا من مجالس خمر الدنيا .

بخلاف ما يكون في الدنيا من مجالس تشـرب فيها الخمر ، سـواء أثناء شربـها أو بـعد أن تشرب .

﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .. الجزاء أجر على عمل ، والعطاء هبة بـلا عمل ، فإذا تأملنا كلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ فقد نظن أن هناك تناقضًا في الكلام ، فكلمة : ﴿حِسَابًا ﴾ تشعر أن العطاء يكون بالحساب ، مع أنه سيعطي من غير حساب ! !

فنقول : إننا إذا أردنا أن ننظر في مدلول كلمة في اللغة فلا بـد من أن ننظر إلى كل مدلولاتها اللغوية ، وهذا المعنى هو الشـائع لكلمة : ﴿ حِسَابًا ﴾ ،ولكن الحسـاب كما يأتي للعدِّ فإنه يأتي ويقصد به المحاسبـة كذلك ، ويأتي كذلك ويقـصد بـه معنى من (أَحْسَبـه الشـيء) أي تقـول : حسـبي ، أي بـلغ الكفاية ، فتكون : ﴿ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ليسـت للحساب ، بل من أحسب الشيء ، أي غمره حتى قال : حسبي .

﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الـرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ .. ولـماذا لا يكون منه ذلك وهو رب السـماوات والأرض ، وهو المالك المتصرف ؟! وعندما يعطيك حـتى تقول : حسبي ، أي كفاني فليس هناك قوة فوقه تقول له : لماذا فعلت هذا ؛ لأنه ﴿ لاَ يُسْأَلُ

عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[1] .

وكذلك ما دام هذا العطاء من عند ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ فهو لا ينقص ما عنده .

ثم يأتي بالوصف المناسب للإنعام ودوامه فيقول : ﴿ الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ، ولماذا لا يملكون منه خطابًا ؟! لأن الحق ﷻ حينما خلق الدنيا جعل فيها أسبابًا هو الذي خلقها أيضًا ، ولكن الإنسان قد يغفل بالسبب عن المسبب ؛ لأنه لا يرى أمامه دائمًا إلا هذه الأسباب .

ولكن هذه الأسباب ممنوعة في الآخرة ، فيكون الإنعام كله من المسبب ﷻ مباشرة ، فأصبحت المسألة بغير وسائط بين الحق ﷻ وبين العباد من أسباب ، بل أصبحت في القدرة المباشرة .. أصبحت في (كُنْ) ، وما دامت المسألة هكذا فلا يملك أحد خطابًا .

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

ثم يؤكد ﷻ ذلك المعنى قائلاً : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ ، وإذا كان ليس للملائكة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ وهو الناموس الذي كان ينزل على الأنبياء جبريل ، ﴿ وَالْمَلائكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ ﴾ مع أن هؤلاء لم يفعلوا معاص ، إنما مهابة الرب وإجلاله ﷻ تجعلهم .. ﴿ لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ .

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 23 .

مع أن هؤلاء الملائكة الكرام لم يكونوا يقولون في الدنيا غير الصواب ، ولم ينطقوا من قبل بباطل أبدًا ، فهل من المعقول أن يقولوا في الآخرة غير الصواب ؟! قطعًا كلا ، ولكن الصواب هو موافقة الحق والواقع ، ولأن الحق ﷻ لا يأذن لأحد أن يشفع لأحد إلا لمن شاء الله أن تكون شفاعته مقبولة ، فهم لا يشفعون إلا لمن أراد الله ﷻ أن يشفعوا فيه .. ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ .

﴿ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴾ .. ذلك اليوم الواقع الذي لا شك فيه .. هو اليوم الحق ، وإن كان قبل ذلك عندكم فيه شك ، هل هو حق أم باطل ، أما اليوم فهو الحق فقط ؛ لأنكم كنتم في الدنيا متروك لكم بعض الاختيار ، قد تفعلون الصواب وقد لا تفعلونه ، ولكن في يوم القيامة ذلك هو اليوم الحق .

﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ يضع الله ﷻ مسألة إياب العبد لربه ﷻ أمام عينيه ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا ﴾ .. ثم يؤكد الإنذار بقوله :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ .. فكل آتٍ فهو قريب ، بدليل قوله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، أو أن هناك عذابًا بعيدًا نوعًا ما وعذابًا قريبًا ، فالقريب هو ما يرونه بعد ما يموتون ، حين تعرض عليهم أعمالهم ، ويشاهدون مقاعدهم من النار ، ويذقون نوعًا من العذاب إلى أن تقوم الساعة ، كما قال ﷻ : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ .. فهذا يكون يوم القيامة ، ولكن قبل ذلك : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فقد يكون المعنى المقصود هنا هو ما يكون في القبر قبل يوم القيامة ، وقد يكون المراد هو يوم القيامة نفسه ، وسماه قريبًا لأن كل ما هو آت قريب .

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ .. وذلك كما في قوله ﷻ : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾[1] .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ .. حين ينظر الكافر إلى أهوال يوم القيامة .. وهو الذي خُلق من تراب .. يقول : يا ليتني لم أخلق أصلاً ولم أولد ، وظللت ترابًا كما كانت أصل خلقتي .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المتقين ، وأن يجعل لنا مآبًا إليه ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .



1 - سورة : آل عمران ، الآية : 30 .







سورة النازعات





سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

فقد انتهينا في خواطرنا حول (**سورة النبأ**) إلى أن هذه السورة قدمت قسم بيان الحقيقة بالشهادة ، لأن الحق عرض أدلة ذلك فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[1] ، إلى آخر ما قال ﷻ ..

تلك هي البينة التي تشهد لله ﷻ الذي خلق هذه الأشياء بقدرته ، وأبدعها ونظمها بحكمته ، ونسقها تنسيقًا متسقًا مؤتلفًا ، بحيث يؤدي كل جنس في الوجود مهمته على أكمل وجه ، تلك هي الشهادة على الكون لصدق الحقيقة البعثية .

بقي أن يستوعب الحق ﷻ إثبات الحقيقة بلون آخر ، وهو اليمين الحق ، حينما قال ﷻ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾[2].. تلك هي الشهادة ، ثم بعد ذلك يثبت الحقيقة أيضا باليمين : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾[3]، إذًا فقد استوعب الحق إثبات الحقائق بالشهادة مرة وباليمين مرة أخرى .

ولقد تعرضت سورة (**النبأ**) للبيان الذي يثبت بالشهادة ، ثم جاءت بعد ذلك سورة (**النازعات**) ، أو سورة (**الساهرة**) ، أو سورة (**الطامة**) ، لكي تبدأ بالقَسَم ، وكأن سورة

---

1 – سورة : النبأ ، الآية : 6 ، 7 .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 18 .

3 – سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

(**النبأ**) أدت مهمة الشهادة ، ثم جاءت سورة (**النازعات**) لكي تؤدي مهمة القَسَم .

ليتم إثبات حقيقة البعث بأمرين : بالشهادة في سورة (**النبأ**) ، وبالقَسَم في سورة (**النازعات**) ، لكي يتم استيعاب الحقيقة بهذين الركنين الأساسيين .

إن الحق ﷻ حين يقسم بقوله : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ** ﴾ [1] .. يريد بذلك أيضًا إثبات حقيقة البعث .

ولكن سورة (**النبأ**) تعرضت لإثبات أن يوم الفصل حقيقة لا ارتياب فيها ، ولكن لم تتكلم سورة (**النبأ**) عن المقدمات التي تسبق ذلك البعث ، فجاءت هذه السورة .. جاءت سورة (**النازعات**) بعد أن أقسم الله بما أقسم به من خلقه لتثبت العلامات والأشراط التي تواكب ذلك اليوم من الانقلاب الهائل في الأرض وفي السماء .

فالمناسبة إذًا واضحة بين سورة (**النازعات**) وبين سورة (**النبأ**) ، سورة (**النبأ**) قالت : ﴿ **إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا** ﴾ [2] هذا خبر ، وقالت : ﴿ **إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ﴾ [3] ، ثم جاءت سورة (**النازعات**) بعد ذلك فقالت : ﴿ **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ** ﴾ [4] ، فما دامت السورة قد استهلت بالقسم لتكمل إثبات الحقيقة بعنصر اليمين كما أكدته الأولى بعنصر البينة والشهادة .. فنحن أمام ظاهرة أسلوبية في القرآن ، وهي ظاهرة القسم ، والقسم هو الحلف ، ولكن الحلف هنا من الله ﷻ ، والحلف يقتضي عناصر ليتكون منها : يقتضي

---

1 ـ سورة : النازعات ، الآية : 1 ـ 7 .

2 ـ سورة : النبأ ، الآية : 17 .

3 ـ سورة : النبأ ، الآية : 40 .

4 ـ سورة : النازعات ، الآية : 6 ـ 12 .

حالفا ، ويقتضي محلوفًا عليه وهو جواب القسم ، ويقتضي صيغة للحلف ، ويقتضي سببًا موجبًا للحلف ، ويقتضي محلوفًا به .

والحالف والمقسم هنا هو الله ﷻ ، والمحلوف عليه هو إثبات يوم القيامة وما فيه من هول ، والمحلوف به هو ما يلي أداة القسم .. وهو كل ما جاء في أول السورة ، من قوله ﷻ : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، والمحلوف له هم الذين يكذبون بذلك اليوم ، وأما سبب الحلف فسيأتي الكلام عنه إن شاء الله .

إذا أراد إنسان أن يحلف على شيء فماذا يريد بذلك الحلف ؟! لابد أنه يريد توكيد وتوثيق المحلوف عليه كي يصدقه المخاطَب تصديقًا يذهب بأي شك فيه أو ريب ، ولكنك تلحظ أن القَسَم يأتي على لونين :

الأول : قسم يأتي على أمر وقع قبل أن يقع القسم ، كمن يقول : والله لقد فعلت كذا بالأمس ، فهذا أمر سبق القسم .

والثاني : قسم يقع على أمر يكون بعد أن يقع القسم ، كالذي يقسم ويقول : والله إني سأفعل كذا غدًا ، فهذا أمر جاء بعد القسم .

فما الفرق بين النوعين ؟!

إن أقسمت على شيء قد مضى فمعنى ذلك أنك تريد أن توثقه عند من تخبره ، لتذهب بشكه وارتيابه في ذلك الأمر ، ولكنك لابد أن تقسم له بشيء ، هذا الشيء الذي تقسم به لابد أن يكون معظمًا عندك ، ولابد أن يكون له قهر وسلطان ، بحيث تخافه أنت إن كذبت في قسمك به في أمر فعلته أو لم تفعله على خلاف ما تقول ، فتخاف عقوبته .

وكذلك إذا أردت أن تحلف على أمر في المستقبل ، فأنت تلزم نفسك فعل أمر ما ، وهذا الإلزام إنما يتأتى من ناحية أنك تربط ذلك بأن تقسم بشيء عظيم تخافه إن أنت لم تفعل ذلك

الأمر .

فإذا كان هذا هو شأن القسم في الخلق ، فكيف نفسر القسم بالنسبة لله ﷻ على وجه من هذين الوجهين ؟!

هل يقسم الله على شيء حدث قبل أن يقسم ؟! أو على شيء يكون بعد أن يقسم ؟! وكذلك هل يقسم بشيء عظيم ، ولهذا الشيء العظيم جبروت وقهر عليه .. بحيث يخاف إن هو كذب أو حنث في شيء أن يناله منه عقاب أو عذاب ؟! حاشا لله ، بل إن هذا محال بالنسبة لله ﷻ .

إذن : فيجب أن نبحث عن سر قسم الله ﷻ ؛ بحيث نخرجه عن طريقة قسم المخلوقين ، فأنا حين أقسم بالله على شيء فعلته أو على شيء لم أفعله ، أو على شيء سأفعله أو شيء لن أفعله .. فإنني أخاف إن أنا كذبت في يميني الأول ، أو حنثت في يميني الثاني أن يأخذني الله بذلك الكذب أو الحنث ، فينتقم مني بجبروته وسلطانه .

لكن ذلك محال بالنسبة لله ﷻ حين يقسم بأشياء من خلقه ، وما دامت الأشياء التي يقسم بها من خلقه فكيف نضع الله موضع من يخاف سطوة ذلك المخلوق لينتقم منه إذا حنث ؟!

إننا إذا أمعنَّا الفكر بدقة ؛ كي نستطيع أن نفهم مسوغ القسم من الله ببعض خلقه على شيء من الأشياء ، وكذلك باستعراض القسم في القرآن فسنجد أن القسم يتأتى بأشياء هي في نظر المخلوقين عظيمة ، وقد يفتن بها المخلوقون ؛ لما يرون فيها من المنافع ومن الأثر في حياتهم ، هذه الفتنة قد تلفتهم إلى عظمة ذاتية فيها ، فالذين يعبدون الشمس مثلاً رأوا في الشمس نفعًا ، ووجدوا فيها آثارًا تعود عليهم في حياتهم ، فعظموها تعظيمًا ذاتيًا ولم يلتفتوا إلى أنها مخلوق من مخلوقات الله ﷻ ، فإذا ما أرادوا أن يعظموا فينبغي عليهم أن لا يعظموا المسخَّر ، بل من سخر هذا المسخَّر له .

والعقول التي تبحث في الأشياء بحثًا سببيًّا ، فترتبط بالسبب المباشر وتترك المسبِّب

افتتنت فيها ، وكذلك من قد فتنوا بالملائكة فعظموها وعبدوها .. وهكذا .

فالحق ﷻ يقسم بهذه الأشياء لينبه الأذهان حين يقسم بهذه الأشياء ؛ لأنها عظيمة عند السامعين ، فيلفت انتباههم إلى ما يكون بعدها .

ثم إذا به ﷻ حين يقسم بهذه الأشياء المعظمة عند الكثيرين من الخلق يذكر في نفس القسم ظاهرة كونية من الظواهر التي يراها الناس في ذلك المعظْم ، ولكن بشيء يناقض الفتنة بها .. بشيء يردهم عن فتنتهم ؛ لأنه يظهر لهم فيها ظواهر التغيير والتبديل ، فمثلاً حين يسمع الناس قول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ [1] .. فإنهم يلتفتون إلى أن الشمس عظيمة وفيها منافع وضوء ودفء وحرارة .. إلى آخر هذه المنافع ؛ ولذلك قد يعظمونها ، ولكنهم حين يتمون ما أقسم الله به تكون المفاجأة ، حين يقول الله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [2] أي : يغطيها فتزول وتختفي ، فيلفت نظر الناس إلى آية تناقض فتنتهم بها ؛ لأن الذي يأفل لا يصح أن يُعبد ؛ ولذلك قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3] .

---

1 – سورة : الشمس ، الآية : 1 .

2 – سورة : الشمس ، الآية : 1 – 4 .

3 – سورة : الأنعام ، الآية : 74 – 79 .

وكذلك حين فتن بعض الناس بالملائكة قال لهم الله ﷻ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾[1] ، هؤلاء هم الملائكة الذين كنتم تعبدون ، يتلون ذكرًا ويسبحون ويحمدون ، ثم يعقب فيقول : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[2].

هذا نوع من أنواع القسم الذي يقسم به الله ﷻ .

وهناك أشياء يقسم بها الله ﷻ ، لأن مجرى الإلف والعادة جعلها أمرًا عاديًّا لا يؤبه له ولا يُلتفت إليه ، فيقسم به الحق ﷻ ، لكي يكون القسم به لَفتة للذهن لينتبه ، فلابد وأن يكون فيها فوائد عظيمة .

إن الحق ﷻ أقسم بأشياء كثيرة ، فأقسم مثلاً بذاته وبربوبيته فقال : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾[3] ، ويقول أيضا : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾[4] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[5] ، ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾[6] ،﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[7].

إذًا فالحق ﷻ يقسم مرة بذاته ، ومرة بشيء من خلقه ، أما ذاته فهي عظيمة بالاتفاق ، وأما قسمه بشيء من خلقه فقد أقسم بشيء من الجمادات ، كقوله ﷻ : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾[8] ، وقوله : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾[9] ، ويقسم أيضا بنباتات كما في

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 1 - 3 .
2 - سورة : الصافات ، الآية : 4 .
3 - سورة : يونس ، الآية : 53 .
4 - سورة : التغابن ، الآية : 7 .
5 - سورة : الحجر ، الآية : 92 .
6 - سورة : المعارج ، الآية : 40 .
7 - سورة : الحاقة ، الآية : 38 ، 39 .
8 - سورة : الشمس ، الآية : 1 .
9 - سورة : الضحى ، الآية : 1 ، 2 .

قوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾[1] ، ويقسم أيضا بالملائكة : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾[2] ، ويقسم أيضا بأشياء أخرى ، كل ذلك لماذا ؟! ما هو المقسم عليه في كل هذه الأنواع من القسم ؟!

إنه ﷻ يقسم بها على إثبات حقيقة شيء ، فيقسم الحق ليثبت ألوهيته الواحدة : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾[3] ، ويقسم مرة أخرى لإثبات أن القرآن حق : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾[4] ، ويقسم على صدق رسوله ﷺ ، لأنهم كانوا يكذبونه : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[5] ، ويقسم الحق ﷻ على أمر يتعلق بالإنسان .. ذلك الإنسان الذي يُفتن بنفسه حين يجد في نفسه قدرة أو تدبيرًا ، أو حين يجد استجابة من الأجناس التي دونه لخدمته ، فحين يفتن بذلك يظن أن له الحق في الغرور ، وأنه أصبح ذاتيًا ، وأنه أصبح أصيلاً في الكون ، فيقسم الحق ويقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[6] .

وتجد أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الإنسان مطلقًا ، فإنه يقصد الإنسان غير المقيد بمنهج السماء ، فتجد أن كل ما يأتي بعد ذلك من صفات لذلك الإنسان إنما هي من صفات الخسران والبوار .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[7] ، ولكننا قد نجد أناسًا اغتنوا ومع ذلك

---

1 – سورة : التين ، الآية : 1 .

2 – سورة : الصافات ، الآية : 1 .

3 – سورة : الصافات ، الآية : 4 .

4 – سورة : الذاريات ، الآية : 23 .

5 – سورة : يس ، الآية : 1 – 3 .

6 – سورة : العصر .

7 – سورة : العلق ، الآية : 6 ، 7 .

لم يطغوا ، فما الذي حماهم من الطغيان مع الغنى ؟!

إن الإنسان الذي يطغى هو ذلك الإنسان المجرد عن الارتباط بمنهج السماء ، أما الإنسان المرتبط بمنهج السماء فكلما آتاه الله غنى ذكر المعطي ، وحين يذكر المعطي يقل طغيانه وكبريائه .

كما في قوله ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ على إطلاقه .. البعيد عن منهج الله ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، فما الذي ينجيه من ذلك الخسر ؟ ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾

ابتدأت هذه السورة بالقسم : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. قسم بأشياء ، إلا أن هذه الأشياء يكتنفها الغموض ، مما يذهب فيها الذهن مذاهب شتى .

والإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأنه لو بيّن دائمًا لجاء الأسلوب دائمًا على وجه واحد ، ولكنه حين يبهم يذهب الفكر مذاهب شتى ؛ ليتساءل : ما هي النازعات ؟! وما هي الناشطات؟!

فيجد أن ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ متعددة ، و ﴿ فَالسَّابِقَاتِ ﴾ تفسر على معانٍ

متعددة ، وكلها مما يحتمله اللفظ .

إذًا .. فإذا رأيت في القرآن إبهامًا لشيء فاعلم أن ذلك الإبهام مقصد من مقاصد البيان ؛ لأن الشيء إذا بيِّن يبيَّن على وجه واحد ، والحق يريد أن يذهب فكرك فيه مذاهب شتى ، وكل مذهب فيه تجد النص يسعفه ويسنده .

لذلك نستطيع أن نقول : إن البيان يحدد ، والإبهام يعدد .

كما في قول الحق ﷻ في وصف شجرة الزقوم : ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ [1] ، وشجرة الزقوم الآن في النار ، والنار لا تزال غيبًا عنا ، ونحن لم نعرفها ، ولم نؤمن بها إلا لأن الحق ﷻ قد أخبرنا بها ؛ لأننا لا نعرف شجرة الزقوم ، وما دمنا لا نعرف شجرة الزقوم فكان ينبغي أن يضرب لنا مثلها بشيء نعرفه ، وذلك شأن التشبيه في اللغة دائمًا ، فالشبيه يكون بتشبيه شيء مجهول بشيء معلوم لتقريب صورة ذلك المجهول من الذهن ، فإذا قلت لك : (زيد مثل فلان) فلابد وأن يكون فلان هذا معلومًا لك ، ويكون زيد مجهولاً .

لكن شجرة الزقوم في النار ونحن لازلنا لا نعرفها ، فلما أراد القرآن أن يشبهها لنا قال : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [2]، ونحن لم نرَ رءوس الشياطين ، فكيف يأتي تشبيه مبهم بمبهم ؟! إذا نظرت تلك النظرة الدقيقة التي ننظر بها إلى ذلك الكلام على أنه كلام الله ﷻ ، وفيه من الأسرار ما فيه ، والتي يجب على العقل أن يستنبطها ، وعلى قدر يقظة العقل يخرج منها ما يراد ، علمت أن ذلك الإبهام هو غاية البيان ؛ لأن الله لو مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء نعرفه ، مهما كان ذلك الشيء قبيحًا بشعًا مفزعًا مخيفًا فقد حدد القبح والبشاعة في شيء نعرفه ، والقبح والبشاعة مما تختلف فيه الأنظار ، فقد يكون الشيء بشعًا

1 - سورة : الصافات ، الآية : 62 ، 64 .

2 - سورة : الصافات ، الآية : 65 .

عند شخص وغير بشع عند شخص آخر ، وقد يكون الشـيء جميلاً عند قـوم وغير جميل عند آخرين ، فمثلاً : من علامة الجمال عند الزنوج كبر الفم وغلظ الشفاه ، بينما هذه الصفات عند آخرين من علامات القبح .

ولذلك .. فإذا أقمنا لرسـامي الكاريكاتير في العالم مسابقـة لرسـم صورة للشـيطان ، وجاء مليون رسام ، وأخذ كل واحد منهم ريشته وألوانه وأوراقه ، وظل كل واحـد يتخيل البشـاعة في الشيطان ليرسمها لنا ، ثم استقبلت لجنة التحكيم الرسومات المختلفة ، فلمن سوف تعطي الجائزة ؟! سوف تعطيها لأقبح صورة .

لكن إذا استعرضت الصور وقارنتها ببـعضها فإنك سـوف تجد صورًا مختلفة في البشـاعة ، فرأى أحـدهم البشـاعة في أن يجعل عينيه مشقوقـتين ، ورأى الآخر البشـاعة في أن يجعل له قرونًا ، وجعل الآخر البشاعة في أن يجعل للشيطان عينًا واحدة .

إذًا .. فالبشاعة مما تختلف فيها الأنظار ، فلو أن الحق مثَّل طلع شجرة الزقوم بشيء بشع محدد لحدَّد البشـاعة بـطرف واحـد ، ولكنه حـين قـال ﷻ : ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾ .. فرءوس الشياطين يتوهمها الناس على اختلاف مذاهبهم ، كل إنسـان يصفها بالبشاعة التي تفزعه هو .

﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ .. وللعلماء في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ أقـوال كثيرة .. فما المراد بالنازعات ؟!

إن أرجح أقوال العلماء فيها أنها هي الملائكة التي تنزع أرواح الناس حين الموت ، وبخاصة أرواح الكافرين ، لأن الكافر حين يعالج سكرات الموت يتشبث بـالحياة ، فتنتزع الملائكة منه روحه نزعًا .

﴿ **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ﴾ .. والنَّشْط : هو العَقْد ، ومنه " الأنشوطة " ، وهي التي نسـميها في العامية : " عقدة وشنيطة " .

والعقدة تكون لأجل أن تحزم الشيء ، ولكني أريد أن أحله فيما بعد ، فحينما أريد أن أحله أشدها كما أحل عقدة السراويل .

فكأن أرواح المؤمنين تنشط ، وأرواح الكافرين تنزع نزعًا وتقتلع اقتلاعًا .

فالملائكة حين تقبض روح الكافر يكون هناك عملية نزع ؛ لأنه متشبث بالحياة وحريص عليها ، وهذا النزع يقتضي نوع مقاومة ، فلو أن الكافر يمتلك قدرة لنازع عملية الموت ، فهو لا يحب أن تخرج روحه منه ، لكن المؤمن يريد أن تخرج روحه لأنه يستقبل الحياة الحقيقية .

إذًا : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ هي الملائكة تنزع الأرواح وتنشطها ، تنزع أرواح الكافرين وتنشط أرواح المؤمنين .

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ هي الملائكة تسبح في كون الله ﷻ ؛ لأن لها مهمات مكلفة بها ، كما يقول الحق ﷻ : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [1] .

وقيل : إن معنى الآية أنها تأخذ الأرواح وتسبح بها لترد كل روح إلى مكانها الذي أعده الله لها .

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ إلى تنفيذ أوامر الله ﷻ ؛ لأنهم ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [2] .

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. كل ملك موكل بأمر يقوم به ، فهذا موكل بالوحي ، وذلك موكل بالموت ، وآخر موكل بالرزق .

فكأن الحق ﷻ أقسم بخلق من خلقه في حالات لهم شتى ليثبت أمر القيامة والبعث .

وهناك قول آخر يقول : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ .. هي النجوم والكواكب في أفلاكها ، وقيل كذلك : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ أي : الإغراق في الشيء ، بمعنى الجد والاجتهاد فيه ،

---

1 - سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 - سورة : التحريم ، الآية : 6 .

لأن للكواكب أفلاكًا تسبح فيها ، فهي مجددة في سبحها لا تتوانى ، وتنتقل من برج إلى برج ، وذلك كقولهم : " نزعت الخيل " .. إذا جرت .

إذًا .. فقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : أي الجاريات جريًا فيه جد ؛ لأن كل كوكب من الكواكب له مسار يقطعه .

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ .. كما يقال : " نشط الدلو " .. أي : أُخرج من البئر ، فكأن أي كوكب من الكواكب أو أي نجم من النجوم يسير في فلكه وينتقل ويخرج من برج فيدخل إلى برج .

وقوله : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ ﴾ ، كما يقول عنها القرآن : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[1] ، أي هذه المجرات تسبح وتدور في مساراتها ، كلٌّ في مساره :

﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ .. وذلك لأن الكل لا يسير بسرعة واحدة ، فكلٌّ يدور ويسير حسب محيطه ، وحسب مجاله الذي يقطعه .

إلا أن هذا التفسير قد يوجد إشكالاً ، وذلك في قوله ﷻ : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ ، فهو إن كان يقسم بالنجوم ، فهل النجوم تدبر الأمور ؟!

نقول : إن التدبير يكون على عدة معانٍ ، منها أن يكون الشيء مخلوقًا ليكون سببًا في إيجاد شيء ، فالنار مثلاً سبب للإحراق ، والماء سبب للري ، فلو قيل : كيف يأتي التعبير بقوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ في الكلام عن الكواكب ؟!

نقول : هي أسباب جعلها الله لتدبير الأشياء .

فما هي تلك الأشياء التي تدبرها الأفلاك ؟! إنها تدبر أمرين .. أمر دينك وأمر دنياك ، فإن قيل : كيف تدبر أمر دينك ؟!

نقول : أليست الشمس تبين لك اليوم تحديدًا ؟! وتبين لك السنة ؟! وأليس القمر يبين لك الشهر ؟! وتلك هي مواقيت العبادات ، فبالشمس تعرف متى تصلي الفجر قبل أن تشرق

---

1 – سورة : يس ،الآية : 40 .

الشـمس ، ومتى تصلي الظهر عند الاستواء ، ومتى تصلي العصر حـين يكون ظل كل شـيء مثليه ، ومتى تصلي المغرب حـين تغرب الشـمس ، ومتى تصلي العشـاء حـين يغيب الشـفق الأحمر ، وهكذا .

كذلك هي تدبر لك أمر الحج بمعرفة منازل القمر ، وأيضًا تدبر لك أمر إيفاء زكاتك ، وتدبـر لك أمر صومك .

وكذلك هي تدبر لك أمورًا من الأمور المتعلقة بدنياك ، كيف ؟!

إن الشمس مثلاً تعطي ضوءًا فنسبـح في الحياة ، وتغيب فتحـل ظلامًا فننام ، وكذلك تبـث حـرارتها في الماء فيتبـخر ، ويصعد إلى الجو فينزل المطر ، فتسقـي الحرث ، وهكذا .. إذا تدبرنا في كل هذه الأسباب التي أعطانا الله ﷻ نجد أنها سبب في تدبير أمور حـياتنا ، ولكن الخطأ فقط أن نقف عند السبب وننسى المسبب .

وهناك قول آخر يقول : إن المقـصود بـالنازعات هي النفوس المؤمنة أو الفئات المجاهدة ؛ لأنـها (تنزع القـوس) ، ومعلوم أن القـوس مصنوع من غصن لين ينثني ولا ينكسـر ، ومشـدود بـوتر وفيه سـهم ، فكلما نزعت القـوس والوتر وانثنى أكثر كلما كان عند تركه أقـوى وأشـد رميًا ، فهؤلاء المجاهدون في سبـيل الله ينزعون قسـيهم بـإغراق ، أي إلى آخر ما يمكن أن يتحمل ثني القوس ؛ كي يكون رمي القوس أبعد .

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ .. بمجرد ما يكون النزع ويترك القوس ينشط السـهم في خروجه إلى العدو ، فهذا هو معنى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ .

ومعنى : ﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴾ .. هي الخيل التي هي وسـائل للغزو ، ومعنى كلمة : ﴿ سَبْحًا ﴾ : أي تجري جريًا لا اضطراب فيه ، جريًا رتيبًا لا يشـعر راكبـها أنها توقـفت ثم سارت ، بل تسير سيرًا انسيابيًّا لا توقف فيه ولا اضطراب .

ولذلك فعندما أراد الشاعر العربي أن يمدح فرسه قال :

.... سبوح لها منها عليها شواهد

أي أنه عندما يركب فرسه لا يجري به ، بل إنه يشعره أنه يسبح ، حيث يسير على وتيرة واحدة لا يضطرب لها من يركبه .

﴿ فَالسَّابِقَات سَبْقًا ﴾ .. أي تتسابق إلى أن تصل إلى العدو .

﴿ فَالْمُدَبِّرَات أَمْرًا ﴾ .. مدبرات بمعنى مخلوقة لتدبر ، أي منوط بها سبب من أسباب التدبير ، ليست هي التي تدبر .

إذًا : فحين قال الله ﷻ : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. بإبهامها هكذا أعطانا صورًا متعددة ؛ ليذهب فيها الفكر كل مذهب .

يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝

إن كل قسم لابد له من جواب ، وقد أقسم الحق ﷻ بقوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ .. ولذلك يتطلب هذا القسم جوابًا ، فأين الجواب ؟!

الجواب هو : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ ، أتى بالظرف لذلك البعث المقسم على وجوده ، وهذه هي أساليب القرآن ، فأحيانًا يجيب الحق ﷻ عن مثل هذا القسم بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ [1] ، وكذلك يقول : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 5 ، 6 .

مِنْ دَافِعٍ ﴾[1] ، وهكذا .. وأحيانًا لا يجيب عن القسم بالإجابة المتوقعة المباشرة ، وإنما يجيب بأساليب مختلفة ، ولكنها مشتركة في شيء واحد ، وهو إثبات يوم البعث .

إذًا فحين يقسم الله بأشياء ، ثم يأتي بعدها بما يمس يوم القيامة ، يكون المقسم عليه هو إثبات يوم القيامة .

فقول الحق ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ : دليل على أن هذا اليوم فيه أمر عظيم ، ذلك الأمر هو البعث ، فكأنه قال : لتبعثن ، ومتى يكون هذا البعث ؟ ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .

ولكن .. نفترض أني لم أفهم السور التي قبلها ، أو كانت هذه هي أول سورة أقرأها في القرآن ، فلم أقرأ **سورة الذاريات** ، أو **المرسلات** ، أو قرأتها ولم أنتبه إليها ، فلا يتركني الله ﷻ هكذا ، بل يعطيني ما يفهمني ذلك فيقول : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ .

وهنا زادت هذه السورة عن **سورة النبأ** ؛ لأن **سورة النبأ** لم تتكلم إلا عن وجود ذلك اليوم ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾[2] ، ولم تتحدث عن أحداثه بشيء ، ولكن هذه السورة تكفلت بالأمور التي تحدث يوم الفصل ، الذي هو يوم الميقات .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، حال يحدث في الكون ، وحال آخر يظهر بانفعال الإنسان يوم القيامة فيه ، أما الذي يظهر في الكون فهذا هو المؤثر الأول عند حدوثه ، ثم انفعل الإنسان له فحدث ما حدث .

إذن .. ظهر هذا الانقلاب في الكون .. ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، هذا ما

---

1 - سورة : الطور ، الآية : 7 ، 8 .

2 - سورة : النبأ ، الآية : 17 .

حدث ، فكانت النتيجة .. ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .

و ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ فسرها الله ﷻ لنا بقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾[1] ، إذًا ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ هي الأرض حين يحدث لها الاهتزاز الذي يبدلها ويغيرها .

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ والتي أردفت بها هي السماء ؛ لأن السماء خلقت بعد الأرض .

لكن .. هل الأرض راجفة أم مرجوفة ؟! إن الأرض ليست راجفة ، بل إن شيئًا ما قد رجفها ، فالأرض مرجوفة ومضطربة وليست راجفة ، ولكن هذا أسلوب من أساليب البلاغة العربية .. المجاز .. وذلك مثل قوله ﷻ : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[2] ، هل العيشة هي الراضية أم مرضي عنها ؟! إن العيشة مرضي عنها ، ولكن بلغ من رضاك عنها وحبك لها أن أصبحت ليست من جانب واحد ، ولكنها أصبحت أيضًا راضية ومتعلقة بك ؛ لأن الحب أسوأ ما يكون حينما يكون من جانب واحد فقط ، لكن إذا كان الحب متبادلاً من الطرفين فيحدث الامتزاج .

فكأن الحق ﷻ حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ فمعناها أنه بلغ من الرضا عن العيشة أن نفس العيشة راضية عنك وتحبك ومنسجمة معك تمام الانسجام ، حتى أصبحتما كالشيء الواحد .

وكذلك في قوله ﷻ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ .. فقد بلغ من هول الموقف بعد أن أرجفت قدرةُ الله الأرضَ أن أصبحت هي في ذاتها راجفة ، فكأن الله أمدها بقوة ترجف هي نفسها ذاتيًا ، قال لها : ارجفي ، فأعطاها القوة لتكون راجفة ، إذن : فهي مرجوفة في الواقع ، ولكنها راجفة .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ حين يحدث في الأرض ما يحدث ، ويحدث

---

1 - سورة : المزمل ، الآية : 14 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 21 .

في السماء ما يحدث ، حين تكور الأرض ويحدث فيها فتور ، وتتشقق السماء وتفتح أبوابها ، كل هذا ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ ، فإذا حدث ذلك في الكون علم الناس جميعًا ، وخاصة أولئك الذين كانوا ينكرون أن الأمر جد ، الذين كانوا يقولون : إن الدنيا هي الباقية ، وإن الناس يذهبون وغيرهم يجيئون .. كل أولئك يعلمون أن المسألة ليست كذلك ، فلقد جاءهم بوادر ما كانوا يكذبون به .

فإذا جاءهم بوادر ما كانوا به يكذبون ، وعرضت عليهم أعمالهم ومواقفهم العقدية والسلوكية ، يقولون : لقد بدأت ظواهر ما كنا نكذب به .

فقلوبهم واجفة مضطربة فزعة ؛ كل ذلك لأنها رأت بوادر ما كانوا يكذبون به ، فاستحضرت النفوس أعمالها ، فلما استحضرت أعمالها وجدت نفسها على خلاف المنهج الذي كان يجب أن يكون .

إذًا فلابد أنهم ينتظرهم مصير مؤلم ، كالذي بشرتهم به الرسل أصحاب هذه المناهج ، فلقد أصبحت المسألة حقًّا واقعًا ؛ لذلك فقلوبهم .. ﴿ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، وجيف القلوب أمر مختفٍ عن نظر الناس ؛ لذلك فلابد أن يوجد له أمر واضح يحس لدى الناس جميعًا ، فيأتي في منفذ الأحاديث كلها وهو العين ، فالعين هي المنفذ الذي يستطيع أن يدرك كل حقيقة النفس الإنسانية ، فتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة محب أم نظرة مبغض ، وتستطيع من نظرة العين أن تعرف أهي نظرة إعجاب أم نظرة احتقار وتهكم ، تستطيع أن تعرف من نظرة العين كل ما تكنه النفس ؛ ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[1] ، حتى عندما يريد الأطباء أن يعرفوا شرايين إنسان أهي سليمة وتعمل بكفاءتها أم لا فإنهم ينظرون إلى شرايين العين ، فهي أصدق وسيلة لمعرفة حالة باقي شرايين الجسم .

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 19 .

﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ .. ذليلة .. منكسرة .. متواضعة ، بعد أن كانت أبصارًا وقحة .. مستهزئة .. منكرة ، لقد تغير الموقف وتبدل ؛ لأن الانفعال أتى من الخارج ، فأثر على القلوب ، فأفشت العين الأمر .

ونلاحظ هنا أن القرآن لم يقل : " أبصارهم خاشعة " ، بل نسب الأبصار إلى القلوب ، وهذا يعلمنا أسلوبًا جديدًا أيضًا ، وهو أن القلوب حين تضطرب وتقلق ، يسري القلق منها إلى كل جزء من أجزاء النفس ، فكأن القلب ليس وحده هو الذي وجف ، بل أصبح كل الجسم واجفًا ، فصار سمت القلوب سمتًا للأنفس والأجساد كلها ؛ لذلك قال : ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾ ، فكأنهم جميعًا باضطرابهم وقلقهم أصبحت كل ذاتهم مضطربة قلقة ، وليس القلب وحده .

وفي ذلك يقول الشاعر:

خطرات ذكرك تستثير مودتي ... فأحس منها في الفؤاد دبيبا
لا عضو لي إلا وفيه صبابة ... فكأن أعضائي خُلقن قلوبا

وإذا تساءلنا : لماذا كل هذا القسم على البعث ؟ !

والجواب : لأنهم كانوا .. ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ .. هذا هو قولهم ، قالوا : ﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ .. بمنتهى الإنكار والتكذيب والاستبعاد أن يبعثوا بعد موتهم .

والحافرة : أي المحفورة ، يقال : رجع فلان في حافرته ، أي عاد فيما كان عليه من الأمر ، وذلك مأخوذ من الطريق إذا حفر فيه الإنسان سردابًا يسير فيه ، أو هو الطريق الذي أخذت قدم الإنسان منه فنزلت به عن مستوى الأرض ، فكان كالقناة يسير فيها ، هذه هي الحافرة ، فكأنهم قالوا : أئنا راجعون إلى ما كنا فيه من الحياة مرة أخرى ، ثم أرادوا أن

يدللوا على قولهم هذا بقول آخر ، فقالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ ، أي عظامًا بالية .. تتهشم إذا لمستها يد ، أو بمعنى منخورة الجوف كأن نخاعها قد ذهب وسارت مجوفة كالأسطوانة ؛ وسميت نخرة لأن الريح حينما تضرب فيها تأتي بصوت كالنخير .

فلما رأوا أن الإنسان بعد موته يكون عظامًا نخرة استبعدوا أن يعيد الله هذه العظام ثانية .

ثم استمروا في غيهم ، وحساباتهم العقلية الفاسدة ، فقالوا : حتى وإن قدر الله على إعادتنا مرة أخرى : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، أي : رجعة خاسرة علينا ، أو رجعة نحن خاسرون فيها ، وأسند الحق الخسران للكرة أي للرجعة على طريقة .. ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[1] ، إن الذي يربح هو صاحب التجارة ، ولكن ما دامت التجارة هي الوسيلة للربح نسب الربح والخسران لها ، وكذلك نسب الخسران إلى الكرة والرجعة .

إنهم حين أرادوا أن يستوعبوا هذه القضية قاسوا على عقولهم القاصرة وقدراتهم الضعيفة ، ولم ينتبهوا إلى أنهم يجب أن ينظروا لقدرة الخالق لا المخلوق ، فلابد أن يقارن كل فعل بفاعله ، فلا تستبعد أي فعل من أي فاعل ، ولكن الاستبعاد أو عدمه يكون بالمقارنة بين الفعل وبين قدرة الفاعل ، فإذا أردتم أن تعيدوا أنفسكم فسيكون صعبًا عليكم ، لكن إذا أردنا نحن أن نعيدكم فهذه مسألة هينة علينا ، لأن فعل الله لا يتكلف الله فيه مشقة أو عسرًا .

إن المسألة لا تتطلب من الله جهدًا أو مشقة .. حاشا لله .. ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، إن قيامكم من قبوركم وبعثكم لا يتطلب منا عناءً ؛ لأننا كما بدأنا خلق كل إنسان منكم ونفخنا فيه الروح ، فإننا نعيد كل فرد كما بدأناه ، وننفخ فيه الروح كما نفخناها فيه من قبل .

يقول ﷻ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2] .. فمن المعلوم أن الإعادة دائمًا أهون من

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 16 .

2 - سورة : الروم ، الآية : 27 .

البداية ، فأنتم إذا كنتم قد آمنتم أن الله ﷻ هو الذي خلقكم من عدم ، فإن قال لكم : سوف أعيدكم من العدم .. فأيهما أهون بمقاييس العقل البشري ؟! إن الإعادة أهون من الابتداء طبعًا باعتبار أساليب البشر ، فليس هناك شيء أهون من شيء عند الله في الحقيقة ، ولكن هذا باعتبار مقاييس البشر .

﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ .. يفاجؤون بعد هذه الصيحة مباشرة أنهم بالساهرة ، فما هي الساهرة ؟!

الساهرة : هي الأرض البيضاء ، وستكون أرض المحشر بلون واحد .. نقية كالفضة ؛ لأن الأرض إنما تلونت لتلون العناصر المطلوبة للحياة ، أما في الآخرة فلا احتياج لمثل هذه الأسباب .

وقيل : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، أي : التي يسهر مَن عليها ؛ لأن الذي يقوم إلى ذلك الهول لا يجد النوم وإن طلبه .

هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَنهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَنهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

انتقل القرآن بنا إلى مشهد من قصة موسى عليه السلام ، هذا المشهد يعطينا فكرة عامة عن

القصص في القرآن ، فالقصص لم يأتِ في القرآن ليعطينا تأريخًا ، وإنما يأتي بالجزء الذي يؤكد العبرة من القصة فقط .

فإن المهم من أي قصة هو الأحداث الضخام المثيرة ، الأحداث التي أوجدت عُقَدًا وفيها حلولها ، تلك هي عناصر القصة ، فالقصة حدث ، ولابد وأن يكون هذا الحدث مثيرًا ، وهو مثير لأن فيه عقدًا ، ولهذه العقد حلول ، وكلما كانت القصة مستوفية لهذه العناصر كانت مستوفية للأداء الفني ، فالحق ﷻ يأتي فقط بالجزء الذي يقتضيه المقام من القصة .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. لا شك أنه قد أتاه وقد عرفه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يبرز جزءًا من قصة موسى يناسب السياق الذي جاء فيه ، سياق الحديث عن البعث وإثبات حقيقته لأولئك الكفار الذين أنكروه وكذبوا رسول الله وأعنتوه ، حتى بلغ من عنتهم له أن الحق ﷻ كان يسليه كثيرًا ، كقوله ﷻ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ، وكقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، فرسول الله ﷺ لفرط رحمته بالناس جميعًا كان يريدهم جميعًا مؤمنين مهتدين ، فلقد ذاق ﷺ حلاوة الإيمان ؛ لذلك فهو يحب أن يذوقوا جميعًا تلك الحلاوة .

فيقول الله ﷻ له : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ .. أي : ما لهؤلاء القوم يبالغون في عنتهم وتكذيبهم وطغيانهم ، ألم يعلموا قصة موسى مع فرعون ؟! مع أنهم لم يصلوا لما وصل إليه فرعون من الملك ، ولم يطغوا طغيانه هو ، فلقد وصل فرعون لقمة الطغيان ، فادعى أنه إله ، بل ادعى أنه هو إله العالمين الوحيد ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[1] ، وادعى أنه ربهم ، بل ربهم الأعلى ، فقال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[2] ، فكان طغيان فرعون أقصى من طغيان هؤلاء ، ومع ذلك ما تخلى الله ﷻ عن رسوله موسى عليه السلام في أن ينصره على

1 - سورة : القصص ، الآية : 38 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 24 .

فرعون في الدنيا قبل الآخرة .

نفهم من ذلك أنه يريد أن يبلغهم رسالة ، وهي أن لا يظنوا أن ما يخوفهم بـه هو عذاب القيامة فقط ، بل هناك عذاب قبل ذلك ، فلن نكذب رسلنا ، سنجعل رسلنا دائمًا صادقين ، ونجعل رسلنا دائما منتصرين .

فمهما بلغ خصومك يا **محمد** من الطغيان ومن العنت ، ومن إرهاق الفئة المؤمنة وإتعابهم ، فلينظروا إلى قصة **فرعون** .

ذلك تخويف للقوم المنكرين ، ومن ناحية أخرى فهو إيناس لقلب رسول الله ﷺ ، وهو : **﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾**[1] ، وها هي الأمثلة أمامك ، هذه الأمثلة انتهت دائمًا بنصر رسل الله ، فلا يغرنك من هؤلاء المعاندين ذلك العناد والإعراض ، ولا يبلغن منك اليأس مبلغه بسبب موقفهم .

إن القرآن حينما يعرض لمثل هذا القصص يأتي بالغرض المزدوج ، أي أنه يأتي بالأمر الواحد ويجعل له مغزيين اثنين معًا ، فهي تهديد للعدو وطمأنة للرسول ﷺ في نفس الوقت ، فالآية تشمل الأمرين معًا : تهديدهم وتخويفهم من العذاب في الدنيا والآخرة ، وطمأنة النبي ﷺ بأن هناك رسولاً من قبله فعل معه قومه ذلك ، ومع ذلك نصرناه ، فالأسلوب الواحد أعطى الغرضين معًا .

ولقد جاء هذا الأسلوب في القرآن كثيرًا ، كما في قول الحق ﷻ : **﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾**[2] ، فيرد عليهم القرآن قائلاً : لو أننا صدقناكم فيما تزعمون من أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وهو من التوراة فقط ، ولا تريدون أن تؤمنوا بما وراء ذلك من الكتب ، فإذا كنتم مؤمنين

---

1 ـ سورة : الأحقاف ، الآية : 35 .

2 ـ سورة : البقرة ، الآية : 91 .

بالتوراة فهاتوا لنا نصًّا من التوراة يبيح لكم أن تقتلوا أنبياءكم .. ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .. إذًا فأنتم لم تؤمنوا أيضًا بما أنزل إليكم ، بدليل أنكم إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم .. ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، والشاهد هنا في كلمة : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ ﴾ والتي أتت بصيغة المضارع ، مع كلمة : ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ والتي تدل على الزمن الماضي ، فكأن السياق يقتضي معنى : " قتل آباؤكم الأنبياء من قبل " ، ولكن الحق ﷻ قال : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ﴾ ، لأن الخبر عن جريمة واقعة يمكن أن يُضعف تأثيرها بعد أن تثبت الجريمة في النفس ، فأراد الحق ﷻ أن يجعلنا نستحضر صورة الجريمة كاملة ، وكأننا نراهم موغلين في دم أنبيائهم ؛ لأن المجرم حين يرتكب جريمته ثم يتعرض للون من العقاب ، يكون القوم قد بدأوا في التعاطف معه ؛ لأن عملية العقاب تكون حالية على أمر قد انتهى ، ولكنهم لو استحضروا ما فعله المجرم ساعة فعلها ، ووضعوا هذه الصورة مع تلك في إطار واحد ، لهان في مرآهم ما يصيبه من عقاب .

وكذلك هم لم يقتلوا ، إنما آباؤهم هم الذين قتلوا ، ولكن هم ذرية من قتل ، والذي قتل وعاصر الأنبياء هو الذي بلغ ذلك التحريف وبلغ الأشياء إليهم ، فكأنكم جميعًا أنتم الذين قتلتم أنبياء الله .

قد يظن البعض أن كلمة : " من قبل " زائدة ، لكن إذا أمعنّا النظر فيها نجد أنها زادت هنا فهمين : فهمًا لليهود ، وفهمًا للنور الذي جاء لرسول الله ﷺ ؛ لأنهم ما دام لهم سوابق في قتل الأنبياء ، فما الذي لا يجعل فكرة القتل تدور برءوسهم كما دارت من قبل في رءوس آبائهم فقتلوا أنبيائهم .

فالحق ﷻ أيأسهم من أن يفكروا مجرد تفكير في فكرة القتل هذه ؛ لأنه يعلم ما قلوبهم ، ويعلم ما فعله آباؤهم مع أنبيائه من قبل ، وهو ﷻ سيحمي نبيه ويعصمه منهم ، فلن يقتلوه ﷺ ، ولن يخلصوا إليه أبدًا ، ومع ذلك فقد حاولوا ولم يفلحوا .



وكذلك هو طمأنة لرسول الله ﷺ ؛ لئلا يدور في خاطره أنهم طالما أنهم قتلة الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله ، فتكون الطمأنة من الله ﷻ لنبيه ﷺ .

كذلك هذه القصة .. قصة موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله ، نجد فيها أن الله تعالى حين أراد أن يقص القصة لم يقصها كاملة كما وردت في مواضع أخرى ، لم يقل مثلاً هنا : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ [1] ، ولم يذكر قصة : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [2]، ولا حتى ذكر أحداث قصته مع فرعون كما في : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [3].

ولكن الحق تعالى قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .. وبما أن فرعون قد طغى فمن الضروري أن يأتي له رسول يرده إلى منهج الله تعالى .

و ﴿ طَغَى ﴾ أي : تجبر وزاد عن حده ؛ لذلك كان من المتوقع أن يأتيه رسول من عند الله يكون عنيفًا شديدًا كي يقابل هذا الطاغية بعنف وشدة وقوة وقهر ، لكنه قال : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وتأمل هذا اللين وهذه الرقـــــة في عرض الهداية على ذلك الطاغية المتجبر ، إنه حتى لم يأمره بالانقياد لهذا الدين الذي جاءه به موسى عليه السلام ، بل إن الله ﷻ قد أمر نبيه موسى عليه السلام أن يعرض عليه ذلك الأمر ؛ لأن الله ﷻ يراعي أن فرعون الذي طغى وادعى الألوهية على قومه لم يَعرف ولم تَعْتَدْ أُذُنهُ أمرًا من أحد ، فهو دائمًا آمر ، فإذا فاجأه أحد بخطاب فيه نوع أمر فسيكون ذلك الأمر داعيًا لصده عن سبيل الله .

فالحق تعالى بعد كلمة : ﴿ طَغَى ﴾ المناسبة للشدة ، أنزل الخطاب من الطغيان إلى القول

---

1 - سورة : القصص ، الآية : 29 .

2 - سورة : طه ، الآية : 17 .

3 - سورة : القصص ، الآية : 32 .

اللين والرفق في العرض ، كما جاء في موضع آخر : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا ﴾[1] ، لأنه اعتاد الطاعة والخضوع من الناس ، فينبغي أن تدخل له من الطريق اللين .

هذه هي الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، إننا لا نريد أن نعاقب ، بل نريد أن نهدي .

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ، هل لك إلى أن تتطهر من رجس ما أنت فيه ومن دعوى الألوهية ، ومن طغيانك وتعذيبك لبني إسرائيل ، ومن تقتيل الأبناء واستحياء النساء ، تتزكى من كل هذا ، ﴿ هَلْ لَكَ ﴾ استفهام للعرض ، ﴿ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ أي : هل ترغب في أن تتزكى وأن تتطهر ؟

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ ؛ لأنك ضللت طريقَ الربوبية ، وما دمت تدعي أنك رب فأنت تمهد للناس طريقهم إليك ، وما دمت تمهد لهم طريقك فأنت في ضلال عن طريق ربك أنت ، فأنا أريد أن أهديك إلى ربك أنت ، فأنت تجعل نفسك ربًا لهؤلاء الناس ، وأنا أريد أن أهديك إلى ربك ﷻ .

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ .. فكأن الخشية المطلوبة لا تتأتى إلا بعد الهداية ؛ لأنه إذا هداه إلى ربه ثم علم عظمة ربه فإنه يقينًا سيعلم قدرة ربه ويعلم رحمة ربه ، وحينئذٍ لا بد وأنه سيستصغر نفسه ويستقلها ويعتبر أن الذي فات من عمره ما هو إلا نزوة يجب عليه أن يرجع عنها ويتوب ويتطهر منها .

إن الإنسان يخشى الله ﷻ إذا علم عظمته ، وزادت عظمه الله ﷻ في نفسه ، وقد تذهب خشية الله من نفس بالكلية إذا لم يعلم قدر الله ولا قدر عظمته ﷻ ، كما يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 44 .

2 – سورة : فاطر ، الآية : 28 .

﴿ فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ التي هي آية العصا ، ومعنى ذلك أنه كَذَّبَ ؛ فإن أحـدًا لا يريد آية على صدق محدثه إلا إذا كان قد أعرض عن مجرد العرض وعن مجرد الكلام ، وأحوجه في دعواه إلى بـينة .. فماذا كان بـعدما رأى تلك الآية الكبرى ؟! هل آمن وعلم أنها من عند الله ﷻ كما هو المتوقع ممن يرى مثل هذه الآية ، كلا ، لقد كانت النتيجة ..

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ولم يكتفِ بذلك التكذيب والعصيان ، بل زاد على ذلك ..

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ ، فهل أدبـر يسـعى خوفًا من الآية التي هي الحية ؟! كلا ، بـل إنه أدبر يسعى ليدبر المكيدة بجمع السحرة ، ومحاربة **موسى** عليه السلام بكل وسيلة .

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ .. حشر أي : جمع .. جمع كل سحـار عليم ؛ لينشـئوا مبـارزة مع **موسى** عليه السلام .

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ .. فيكون **فرعون** قد أذنب ذنبـين : أذنب أولاً ذنبًا في حـق الرسـول ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ ، ثم بـعد ذلك اجترأ على مقـام الألوهية نفســه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، فلم يكتفِ بمجرد التكذيب ، ولكنه جمع مع التكذيب بالرسـول التطاول على مقام الألوهية .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾ .. نَكَالَ أي : عقوبـــة وجزاء ، وبما أن **فرعون** لعنه الله أذنب ذنبـين ، فلابـد وأن يعاقـب بعقابـين ، فكان عقابـه أن جمع الله ﷻ له بـين عقوبتي الآخرة والأولى .

ولكننا نجد أن الله ﷻ قـد ذكر الآخرة قبـل الأولى ؛ لأن هذه هي قـمة الكفر ، أن يدعي إنســان الألوهية ، لذلك قــال الله ﷻ : ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ ﴾ .. يعني جزاء الزلّة الآخرة التي هي قوله ﷻ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ ، ولم يغفر له الزلة الأولى ، فلم تتداخل الجرائم ، بـل هو معاقـب على الأولى أيضًا ، وكان جزاء الآخرة هو النار ، وجزاء الأولى هو العذاب الأدنى .. كما قـــال ﷻ : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[1].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : في ذلك المشهد من القصة عبرة لمن يخشى ، وهنا رجع القرآن إلى ما كان يتكلم عنه ، وهو أمر قريش ، أي : يا من كفرتم **بمحمد** وكذبتموه ، وادعيتم أن القرآن سحر .. خذوا عبرة لكم من هذه القصة الواقعة ، فلقد كان **فرعون** أشد منكم قوة وحضارة ومدنية ، وبالرغم من ذلك ، فقد أغرقناه وجنوده في اليم .

فلا تصادروا دعوة **محمد** ، لأنكم إما أن تؤمنوا ، أو يأخذكم الله كما أخذ **فرعون** وقومه .

﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أي : نصيحة وذكرى واعتبار ، ﴿ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ أي : لمن يخاف العواقب ، ويجعل لنفسه الآن عبرة بما حدث في أمم قبله من المكذبين بالرسل .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ﴾ .. يعود بنا القرآن ليؤكد أمر البعث مرة أخرى ، فمن المعلوم أنه لا يمكن أن يُطرح سؤال لمعاند إلا إذا كان السائل على يقين بأن الجواب سيكون في صفه ، لا يمكن أن يطرح سائل هذا السؤال إلا إذا كان واثقًا من أن المجيب لن يقول إلا : " السماء أشد خلقًا " .

﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ **السمك** : هو البعد في ارتفاعه ، أي : رفعها رفعًا عاليًا .

﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أي : فسواها تسوية بحيث لا تستطيع أن تدرك الفواصل بين لبنات بنائها ،

---

1 - سورة : غافر ، الآية : 45 ، 46 .

ومعلوم أن البناء عادة هو ضم شيء إلى شيء بواسطة تضم بعضه البعض ، ومعلوم أنه مهما بلغت الدقة في الشيء المبني فلابد من فروق وفتوق تكون بين ثنايا ذلك الشيء المبني ، لكن التحدي حين تجد أنها مبنية بناء محكمًا مستويًا لا فروق أو رتوق فيه .

فالله ﷻ يوجه البشر إلى النظر إلى قدرته العجيبة في الكون ، من خلق السماء ، ورفع سمكها ، ومن تسويتها ، ومن دحو الأرض ، ومن إيجاد ما تتطلبه الحياة على وجه الأرض ليضمن لكم بقاء حياتكم .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أي : جعل لكم في الزمان خِلْفة ، فلم يجعله ليلاً مظلمًا دائمًا ، ولا نهارًا مضيئًا دائمًا ، فالظلمة الدائمة لا تصلح ، والنور الدائم لا يصلح ؛ لأن حياتكم تقتضي وجود هذين اللونين المتكاملين من الضوء والظلمة ، فذلك هو التكامل لا التضارب .

﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ .. وهنا قد يرد سؤال ، وهو ما المقصود بكلمة : ﴿ بَعْدَ ﴾ في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ؟!

إن هناك فرقًا بين بعدية الحدث وبعدية الذكر ، فبعدية الحدث هي أن تذكر حدثًا أولاً ثم تذكر حدثًا وقع في زمان بعد زمن الحدث الأول ، أما بعدية الذكر فلا تقتضي أن يكون زمن الحدث الثاني حاصلاً بعد زمن الحدث الأول .

لكن هذه البعدية الذكرية لا تكون إلا في الامتنان ، كأن تكرم أحدًا أو تصنع له جميلاً مرة ، ثم بعد ذلك أرسلت إليه بهدية بعد تلك المرة ، فإذا ما أردت أن تذكر ذلك في موضع الامتنان فليس من الضروري أن تذكرهما بالترتيب ، ولكن لك أن تذكر الجميل أولاً ثم تعقب بذكر الهدية ، أو أن تذكر الهدية أولاً معقبًا إياها بذكر الجميل الأول .

فكأن الحق ﷻ لفتنا أولاً إلى القمة العالية ، وهي السماء ، ثم تكلم بعد ذلك عن الأرض ، وهذا لا يعني أن حدث الأرض كان بعد حدث السماء .

وقد يقال : إن خلق الأرض قد أخذ طورين : الطور الأول أنه خلق مادتها ، ثم بعد ذلك خلق مادة السماء ، ثم عاد إلى الأرض بعد ذلك فدحاها ، وهذا هو الطور الثاني من أطوار خلق الأرض ، ودحاها أي : بسطها وجعلها مهيأة لحياة الإنسان عليها .

﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ .. وهذه هي أهم عملية لإبقاء الحياة .

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .. أي أثبتها على سطح الأرض لتثبت الأرض ولا تميد بأهلها .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. وتلك هي اللفتة التي يجب أن نتنبه إليها هنا ، وهي أن قول الحق ﷻ : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ جاء بعد .. ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ ، فإرساء الجبال وإنبات الأرض وإخراج المرعى ووجود الجبال في ذلك متاع لنا ولأنعامنا .

وفي ذلك يخبرنا علماء الطبيعة بأن تلك الجبال تؤثر فيها عوامل التعرية فتؤدي إلى شيء من التفتت الصخري ، ثم بعد ذلك يسقط عليها المطر فيجرف هذه الأجزاء المفتتة ويجعلها تنزل على الأرض ، فيتكون ما يُسمى بالغرين ، تلك المادة التي تنجرف إلى الوديان ، فتكون بإذن الله سببًا لخصوبة الأرض ، فكأن هذه الجبال الصماء هي مخازن الأقوات .

أما إذا لم يحدث ذلك ، أو منعنا وصول ذلك الغرين إلى الأرض فإنها تقوم بإخراج هذه العناصر من نفسها على سطحها ، وبالتالي تفقد عناصرها شيئًا فشيئًا ، وهذا هو ما حدث في مصر عندما قلّت مياه السد العالي ولم يعد النيل يحمل الغرين والطمي الذي كان يجرفه من جبال الحبشة ، كي يكسو أرض مصر والوادي كله بطبقة خصبة ، تجدد خصوبة الأرض كل سنة .

هذه هي العلاقة في قوله ﷻ : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .



فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

يرجع الحديث مرة أخرى لتلك القضية التي يؤكد عليها مرارًا ، وهي قضية البعث ؛ لأن قضية البعث إذا اتضحت في ذهن الإنسان فلابد أن يؤمن بالله ﷻ وبرسوله ﷺ ، ولابد من أن يقبل ذلك المنهج الرباني ويُقبل عليه بكل كيانه ، إن لم يكن رهبًا من ذات الله ، فرهبًا من ذلك اليوم .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ ﴾ .. والطامة هي الحدث الضخم المروع المهول الذي ينسي الإنسان كل حدث قبله ، فهذا طَمَّ على ذاك ، أي : هذا أنسى ذاك وهوّنه بالنسبة إليه .

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ .. ساعة أن يأتيه هذا الحدث المفاجئ الذي لم يكن ينتظره ، إذا به يستعرض ذكريات حياته كلها ، يقول يومها : هذا هو اليوم الذي كنت أكذّب به ، فدعاني التكذيب به إلى تكذيب الرسل ، وتكذيب وجود الإله ، وأداني إلى الإسراف في الطغيان .

ولِمَ لا يكذب نفسه ؟! وقد تأكد أنه أمام حدث سيقطع عليه كل شهوة ، وسيستقبل فيه عقاب ما قدمت يداه .. ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ ، فلما نسوه جاءهم هذا اليوم ..

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ .. برزت : أي أصبحت الجحيم التي كانوا يكذبون بها ، ولا يصدقون إخبار الرسل عنها ، أصبحت بارزة للعيان ، برزت الجحيم لكل من تتأتى منه الرؤية ، فكل من عنده رؤية يلزم أن يراها .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ ﴾ .. ومعنى ذلك أنها ستظهر للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والتقي والعاصي .

﴿ لِمَنْ يَرَى ﴾ أي : لكل الناس حينذاك ؛ لأنه فسرها ﷺ في آية أخرى فقال : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾[1] ، فإن المؤمن يتنعم بالنعيم مرتين : مرة حين يرى عذابًا نجاه الله منه ، ومرة حين يرى نعيمًا ينعمه الله به .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وصفان : ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعدها جاء وصفان آخران : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، فهنا تقابل بين ﴿ طَغَى ﴾ و ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، فطبيعي أن ﴿ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، وبين ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فطبيعي كذلك أن ﴿ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ويلاحظ هنا أن التقابل في غاية الانسجام ؛ لأن الطغيان هو تجاوز الحد ، وتجاوز الحد ينشأ من فساد القوى العقلية ؛ لأن الإنسان حين يتجاوز حده ويطغى ويظلم ويتعالى ويتكبر فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن عقله غير سليم ؛ لأن الإنسان لا يطغى بقوته إلا على ضعيف ، ومعنى طغيانه على الضعيف هو أن تفكيره غير سليم من جهتين ..

الأولى : أنه ظن أنه هو القوي ولا قوي فوقه ، في حين أنه لو علم أن قويًّا فوقه ما كان تكبر ولا تجبر ..

والثانية: أنه ظن أن قوته هذه قوة ذاتية فيه ، لا تضعف ولا تتغير ، في حين أنه لو علم أنها تتغير لما تكبر ولا تجبر .

إذًا فالطغيان نتيجة استشعار الإنسان دائمًا أن لا يوجد مثله في المحيط الموجود فيه ، فيجعله ذلك لا يستحضر خشية الله أمامه ؛ لأنه لو استحضر عظمة ربه لتضاءل بكل عظمته

1 – سورة : مريم ،الآية : 71 .

أمام ربه ﷻ ، وما دام يتضاءل بكل عظمته أمام ربه فلا يطرق الكبر بابه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ وهذا دليل فساد القوة العاقلة ، ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. فهو عنده خياران : عاجلة فانية بزخرفها ، وآجلة باقية بنعيمها ، وهو يقول : أنا أريد العاجلة ، فهذا آثر الحياة الدنيا ، وأعطى نفسه شهواتها كلها ، وهذه هي القوة الفعالة .

إذًا .. فهنا عنصران اثنان : فساد القوة العاقلة في قوله ﷻ : ﴿ طَغَى ﴾ ، وفساد القوة الفعالة في قوله ﷻ : ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ثم جاء بالمقابل لـ ﴿ طَغَى ﴾ بقوله ﷻ : ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّه ﴾ ، والثانية : ﴿ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، ومقابلها : ﴿ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ، فكان من الطبيعي بعد أن ذكر المقابل هنا في الدنيا أن يذكر المقابل هناك في الآخرة ، وهو الجزاء ، فقال عن الأول : ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ ، ومقابله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ .. يعود فيستأنف ذكر استهزائهم تعجيبًا منهم فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ .. أي : قريش على سبيل التجديد والاستمرار سؤال استهزاء وإنكار واستبعاد ، ﴿ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ .. أي : البعث الآخر ؛ وذلك لكثرة ما تتوعدهم بها عن أمرنا .

ولما كان السؤال عنها مبهمًا بينه بقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي : في أي وقتٍ إرساؤها ، أي وقوعها ، أو ثباتها واستقرارها .

﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. ولما كان إيراد هذا الرد هكذا مفهمًا للإنكار عليهم في هذا

السؤال ، وكان من المعلوم أنه يقول : إنهم ليسألونني وربما تحركت نفسه الشريفة ﷺ إلى إجابتهم لحرصه على إسلامهم شفقة عليهم ، فرده عن ذلك وصرح بالإنكار بقوله : ﴿ فِيمَ ﴾ .. أي في أي شيء ﴿ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ .. أي ذكرها العظيم ؛ لتعرفها وتبين وقتها لهم ؛ حرصًا على إسلامهم ، وعلمها لا يفيدهم شيئًا ليؤمنوا بها .

﴿ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ .. ثم عرّفها بما لا يمكن المزيد عليه مما أفادته الجملة التي قبل ، من أنه لا يمكن علمها لغيره ﷻ فقال : ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي المحسن إليك وحده ﴿ مُنْتَهَاهَا ﴾ أي منتهى علمها وجميع أمرها .

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ .. ولما كان غاية أمرهم أنهم يقولون : إنه متقول من عند نفسه ، قلب عليهم الأمر فقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ ﴾ أي يا أشرف المرسلين﴿ مُنْذِرُ ﴾ أي مخوف على سبيل الحتم الذي لا بد منه مع علمك بما تخوف به العلم الذي لا مرية فيه ﴿ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ أي فيه أهلية أن يخافها خوفًا عظيمًا فيعمل لها لعلمه بإتيانها لا محالة ، وعلمه بموته لا محالة ، وعلمه بأن كل ما تحقق وقوعه فهو قريب ، وذلك لا يناسب تعيين وقتها فإن من فيه أهلية الخشية لا يزيده إبهامها إلا خشية ، وغيره لا يزيده ذلك إلا اجتراء وإجرامًا ، فما أرسلناك إلا للإنذار بها لا للإعلام بوقتها ، فإن النافع الأول دون الثاني ، ولست في شيء مما يصفونك به كذبًا منهم ؛ لأنا ما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، ولا أنت مبعوث لتحرير وقت الساعة وعلم عينه ، وإنما قصره على من يخشى لأن غيره لا ينتفع بإنذاره ، فكان كأنه لم يحصل له الإنذار ، ولهذا المعنى أضاف إشارة إلى أنه عريق في إنذار من يخشى ، وأما غيره فهو منذر له في الجملة أي يحصل له صورة الإنذار لأنه منذره بمعنى أنه لا يحصل له معنى الإنذار .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ .. ولما أثبت أنه منذر ، وكان أخوف الإنذار الإسراع ، قال مستأنفًا محقرًا لهم الدنيا مزهدًا لهم فيها : ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ أي



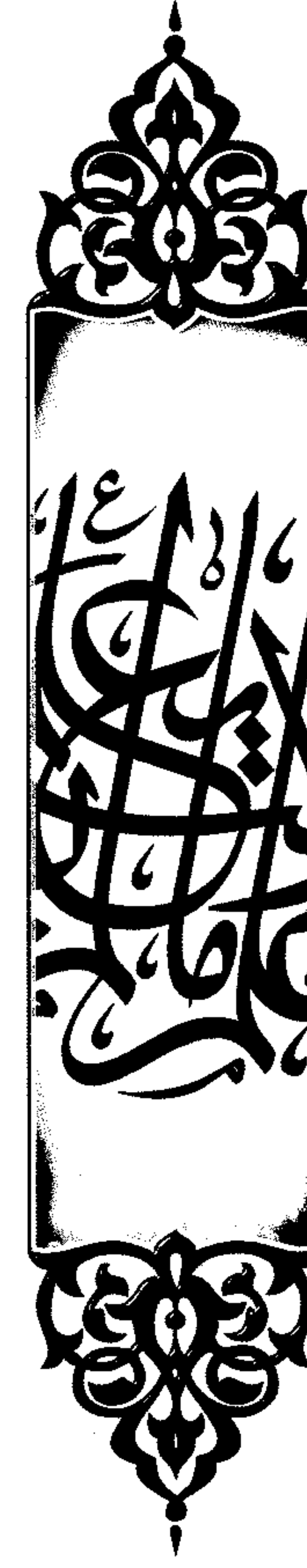
هؤلاء المنكرين لصحة الإنذار بها ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي يعلمون قيامها علمًا هو كالرؤية ، ويرون ما يحدث فيها بعد سماع الصيحة وقيامهم من القبور من علمهم بما مر من زمانهم وما يأتي منه ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ أي في الدنيا وفي القبور ﴿ إِلاَّ عَشِيَّةً ﴾ أي من الزوال إلى غروب الشمس ، ولما كانوا على غير ثقة من شيء مما يقولونه قال : ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أي ضحى عشية من العشايا ، وهو البكرة إلى الزوال ، والعشية ما بعد ذلك ، أضيف إليها الضحى لأنه من النهار ، والإضافة تحصل بأدنى ملابسة ، وهي هنا كونهما من نهار واحد ، فالمراد ساعة من نهار أوله أو آخره ، لم يستكملوا نهارًا تامًّا ، ولم يجمعوا بين طرفيه .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

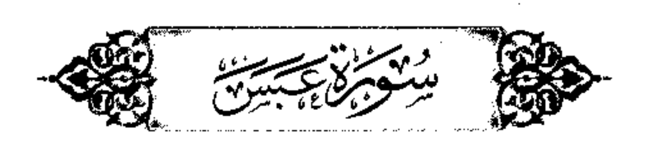
والحمد لله رب العالمين . .


تفسير جزء
عم


سورة
عبس







بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

نحن الآن بصدد الحديث عن سورة (**عبس**) ، وسورة (**عبس**) وردت في المصحف الشريف بعد سورة (**النازعات**) مباشرة ، والمناسبة التي تربط بين السورتين مناسبة وثيقة ، فإن آخر سورة (**النازعات**) كان عن الساعة وعن سؤال الكفار لرسول الله ﷺ : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[1] ، ثم الرد من الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[2] ، فإذا نظرنا إلى قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ وجدنا مقابلاً لذلك أن من لا يخشاها لا ينفعه إنذار .

فكأننا بصدد قضيتين : قضية من ينفعه إنذار النبي ﷺ ، وقضية من لا ينفعه الإنذار ، فجاءت سورة (**عبس**) وتعرضت للفريقين .

إن القرآن كلام الله ﷻ ، وتوجيهه إنما هو إلى عباده الذين آمنوا به ، وإن كان هو كمعجزة تدعو إلى الإيمان برسول الله ﷺ المبلغ عن الله ﷻ ، فهو كمعجزة حجة ، ولكنه ككتاب منهج لا يتقبله إلا من يقبل هذه الحجة ، ويؤمن بالله ﷻ ، فليس معنى أن هذا القرآن من عند الله ﷻ أن يتلقى الناس ما فيه من عظة ومن حكمة ومن اعتبار بمجرد أن يسمعوه ، لأن ذلك راجع إلى القابل نفسه .

وكما هو معلوم أن الفاعل قد يكون واحدًا ، وقد يكون فعله واحدًا ، ولكن أثره في القابل

---

1 – سورة : النازعات ، الآية : 42 .

2 – سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يختلف باختلاف ذلك القابل .

يشرح القرآن هذه القضية في قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾[1] ، فاختلاف أثره يكون باختلاف القابل له : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[2] ، وكأنهم لم يلتفتوا إلى العجيب في القرآن ؛ لأن القابلية فيهم مفقودة ، فليست المسألة في طبيعة القرآن ، ولكن في طبيعة من تلقى هذا القرآن .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾[3] أي : لا ينفع إنذارك من لم يخشَ الساعة ، وليس ذلك لفساد في المنذِر ولا في المنذَر به ، ولكن الفساد في من يتلقى الإنذار .

لذلك جاء عرض هذه القضية بالتفصيل في سورة **(عبس)** .

ومن أسماء **سورة عبس** **(سورة الصاخة)** ؛ لأن هذا هو اللفظ المخوف به في السورة ، وبعض الناس يسمونها **(سورة الأعمى)** ؛ لأن مناسبة نزول هذه السورة كان هو قصة **عبد الله بن أم مكتوم** ﷺ .

وتتعرض **(سورة عبس)** كذلك إلى عدة أمور بخلاف قصة **ابن أم مكتوم** : أولها هو هذه القصة ، والقصة واقع ، ودائمًا ما يكون الواقع هو منطلق تثبيت العقائد في النفوس ، فالعقائد والأحكام لا تأتي غالبًا من أوامر نظرية تصب صبًّا ، ولكن حين تحدث في الأرض حادثة تتطلب حكمًا من الذي في السماء ﷻ ، فينزل الحكم مع تلك الحادثة التي مسَّت كيان الواقع ، فترتبط المبادئ التي تنزل في الحادثة الواقعة بنفس تلك الواقعة ، وما دام الواقع لا

---

1 - سورة : فصلت ، الآية : 44 .

2 - سورة : محمد ، الآية : 16 .

3 - سورة : النازعات ، الآية : 43 .

يغيب أبدًا عن الذهن ، فتظل بـالتالي العقـائد التي جاءت من أجل هذه القـصة ثابـتة في النفس ، ولذلك نزل القـرآن منجمًا مفرقًا ، كما قـال الله ﷻ : ﴿ **كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾[1] ، فلقد كان النبي ﷺ متعرضًا في مدة دعوته لأشياء كثيرة ، كل شـيء منها يحتاج إلى تثبيت جديد من السماء ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة لكان له تثبيت واحـد ، ولكن كلما حدثت حادثة قد تزعزع شيئًا في نفس النبي ﷺ أو في نفوس أصحابـه نزل نجم من القرآن ، وكان كل نجم ينزل يستقبله المسلمون فيحفظونه ويتدبرون معانيه ، فإذا ما فرغوا من ذلك النجم ، وقد تفتر هممهم وعزائمهم – كحال جميع البشر – ينزل نجم آخر .. وهكذا .

وهناك فائدة أخرى نجدها في ذلك التعقـيب القـرآني ، حـيث يقـول الله ﷻ : ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[2] ، أي إذا كانوا لم يقترحـوا شـيئًا جديدًا بعد ، ولم يتكلموا عن شيء كي نأتي لكم بـالحكم ، ولكن لو أنهم تكلموا أو اقترحـوا فسـنأتي بـالرد عليه وأحسـن منه تفسـيرًا ، فإذا كان القـرآن قـد نزل جملة واحـدة فكيف يُفسـح لهم المجال للاقتراح ؟!

قصة هذه السورة عبارة عن حادثة حـدثت ، أبـطالها رسـول الله ﷺ **وابـن أم مكتوم** ﷺ وصناديد قريش ، هؤلاء هم أبطال القصة .

وكان **ابـن أم مكتوم** ﷺ أعمى ، وكانت له مكانة عند **خديجة** رضوان الله عليها ، فلقـد كان ابن خالتها رضوان الله عليهما ، وذات يوم جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه معرفة المزيد من أحكام الله ﷻ ، وهذا دليل على أنه مقبل على الإسلام ليتعلمه إقبال عاشق ، ولكن رسول الله ﷺ كان مشغولاً بدعوة صناديد قريش ، **شيبة وعتبة ابـني ربـيعة والوليد بـن المغيرة وأمية بـن خلف وأبو جهل بـن هشام** ، ومعهم **العبـاس بـن عبـد المطلب** ﷺ ، وكان آنذاك

---

1 – سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 33 .

مشركًا لم يسلم بعد .

ولقد كان الرسول ﷺ يتمنى أن يسلموا ويهتدوا إلى الإيمان ، فمن الممكن أن يفادي الإسلام من شرهم ، أو على الأقل أن يكفوا عن إيذائهم لضعفاء المسلمين ، وثانيًا : قد يستطيع الخائف من إعلان إسلامه أن يعلنه ، وثالثًا : سوف تصير القوة التي ضده معه .

هذه جميعًا هي أهداف جهاد النبي **محمد** ﷺ ، فهل هذا الاجتهاد من رسول الله ﷺ لصالح الدعوة أم ليس لصالحها ؟! وهل كان عمله هذا واحتياله في إقناعهم يكلفه مشقة أم لم يكن يكلفه مشقة ؟!

قطعًا كان كل ذلك لصالح الدعوة ، وقطعًا كان يكلفه من المشقة والعنت ما يكلفه ، فحين يعاتبه الله ﷻ على تصرف تصرفه في تلك اللحظات فلا يجب أن يُفهم أنه يعاتبه على أنه مقصر ، بل يعاتبه لأنه حمّل نفسه من المشقة فوق ما تتطلبه الرسالة ، أو فوق ما يطيق ، فهذا العتب لصالح رسول الله ﷺ لا عليه .

أما السورة فقد أتت بكل المقومات التي ذكرناها آنفًا ، ذكرت القصة ، ثم عقبت بعدها بالحكم الذي يبين الحق في هذا التصرف ، ثم أعلنت المبدأ الذي يجب أن يسير عليه منهج الدعوة ، ثم بينت حيثيات ذلك المنهج ، ثم التفتت إلى الإنسان الذي جاء إليه ذلك المنهج ودعت عليه دعوة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسانُ ﴾ والدعاء بـ ﴿ قُتِلَ ﴾ هو منتهى ما يصيب من الشر ، وبينت العجب من كفره ، وبعد ذلك ذكرت الأشياء التي كان يجب أن تؤديه إلى الإيمان ، لا أن تؤديه إلى الكفر ، فذكر أصل خلقته ومن أين جاء ، وذكر إمداد القيومية له بما أمده الله فيه من رزق في الأرض ، ثم بعد ذلك عقب أخيرًا بأن الذي لم يحمد الله ويؤمن به لأنه خلقه من كذا ورزقه بكذا ، فيجب عليه أن يؤمن به خوفًا من أنه سيعود إليه ، فمن لم يأتِ رغبًا فليأتِ على الأقل رهبًا ، فسوف تأتي صاخة ، ومعنى الصاخة أن من لم يكن يسمع من قبل فسيسمعها ، ومن كان غافلاً تشغله غفلته فلم يعد هناك غفلة ؛ لأنها صاخة تصخ أذنه .

وبعد ذلك يعطينا نتيجة ذلك ، يعطينا الوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة ، والوجوه التي عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة .

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ .. نرى هنا أن العبارة جاءت بضمير الغائب ، لا بضمير المخاطب ، فلم يقل : عبستَ وتوليتَ ؛ حتى لا يعرضه إلى المواجهة بضمير الخطاب في العبارة ، حتى نفهم أن الله ﷻ يعرض لنا صورة من إخلاص نبيه ﷺ في الدعوة ، كأنه يقول لنا : يا أمة محمد ، انظروا كيف كان رسولكم ﷺ يغار على هذه الدعوة ، فهو عبس في الطريق الميسر السهل ، ويريد أن يذهب للطريق الصعب ، بدليل أنه جاء بعدها : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ ، والتصدي يحتاج إلى مجهود وقوة مقاومة .

فالحق ﷻ تلطف مع رسوله ﷺ تلطفًا كبيرًا ، حتى في أسلوب الخطاب .

والعبوس : هو تقطيب الوجه ، وتقطيب الوجه ليست عملية عقلية ، بل هي عملية غريزية ، فلا يستطيع أحد أن يقول : والله سأقطب وجهي وأعبس عندما يأتي فلان ، فهي لا تُسْتَدعى ، بل تُفْرَض .

﴿ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ .. ويلاحظ أن القرآن حين أراد أن يذكر ابن أم مكتوم لم يأتِ بغير كلمة " الأعمى " ، مع أنها صفة من الممكن أن يتأذى صاحبها منها ، ولكن القرآن حرص

على أن يأتي بها ؛ لأنه يريد أن يقول لنا : إن الظروف كلها كانت مواتية لأن ينتبه له الرسول ﷺ وألا يعرض عنه ، فهو مع أنه " أعمى " إلا أنه قد .. ﴿ جَاءَكَ يَسْعَى ﴾ .. أي يسرع ، ومعنى ذلك أنه راغب في معرفة منهج السماء ، وأراد أن يعلمه الرسول ﷺ ليزداد من ذلك العلم ، ولا شك أنه كلما تعلم مسألة من المسائل كلما تقيد سلوكه ، فالإنسان الذي يسعى ليقيد سلوكه راغب في المنهج .

وعلى الرغم من أنه معلوم أن الأعمى يمشي ببطه وتؤدة ، إلا أن الله ﷻ قال : ﴿ يَسْعَى ﴾ .. فكأن طبيعة ما عنده من الشوق إلى أن يلتقي برسول الله ﷺ وأن يسمع منه جعلت لديه طاقة جعلته يسعى ، مع وجود حيثيات تجعله لا يستطيع أن يسعى .

وبعد ذلك جاء بالحيثية الأخرى ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ .. يسعى وهو أعمى .. ﴿ وَهُوَ يَخْشَى ﴾ ، ولم يذكر ماذا يخشى ، وهذا من عطاء القرآن وثرائه وخصوبة أدائه ؛ كي تبحث أنت عن مفعول لهذا الفعل ، فطالما أنه أعمى ويسرع فقد يخشى أن يقع في حفرة ، أو أن يصطدم بشيء ، وقد يخشى خصوم الإسلام الصناديد الذين كانوا يراقبون هؤلاء الضعفاء ويتلقفونهم ويسلطون أذاهم عليهم ، أو هو يخشى ما فوق ذلك .. يخشى الله ﷻ ، كل ذلك تعطينا إياه كلمة ﴿ يَخْشَى ﴾ .

فالمسألة إذًا سهلة ، مؤمن جاءك يسعى ليتعلم منك الإسلام ، وعنده كل مقومات الإيمان ، وكل الاستعداد لتنفيذ ما تأمره به ، فلماذا تعرض عنه وتتصدى لهؤلاء الكافرين المعاندين ؟!

وهذا هو سبب العتاب ، فلم يكن العتاب لأن النبي ﷺ ترك الطريق الوعرة ، والتمس لنفسه الطريق السهلة الممهدة ، بل لأنه ترك هذه الطريق السهلة التي يأمره بها المنهج ، وأخذ الطريق الوعرة الصعبة التي لم يكلَّف بها ، وذلك بلا شك غيرة منه ﷺ على الدعوة ، فلقد كان النبي ﷺ يحمل همَّ الناس جميعًا ، ويتمنى أن يدخلوا جميعًا في الإسلام ، بل لقد عاتبه الله ﷻ على هذا أيضًا ، كما قال الله ﷻ له : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، أي : لعلك حزين من أجلهم ، وتهلك نفسك أسىً عليهم وأسفًا ، فلا تحزن ، فماذا سيقدمون للإسلام ؟! وهل سيعطون الإسلام شيئًا ؟! كلا ، بل إن الإسلام هو الذي سيعطيهم ، فمن يطع الرسول فقد اهتدى ، وأما من لم يطع الرسول فقد غوى .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. كلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ لها معنى آخر غير ما نتصور .. فهناك اللهو ، وهناك اللعب ، فاللعب هو أن تشغل نفسك بشيء غير مطلوب لذاته ، ولكنه لم يصرفك عن أمر مطلوب ، أما اللهو فهو أن تشغل نفسك بشيء مطلوب لذاته ، ولكنه يشغلك عن أمر مطلوب لذاته ، فكأن الحق ﷻ أراد أن يقول للنبي ﷺ : يا **محمد** .. يجب أن يكون ميدان عملك مع هؤلاء المقبلين عليك عشقًا للدعوة وحبًّا لهذا المنهج ، أما أن تتلهى بأولئك المعاندين المعرضين فهذا لا ينبغي أن يكون .

وكلمة : ﴿ تَلَهَّى ﴾ تدل على أن انشغال النبي ﷺ بهؤلاء لا يجدي شيئًا ، لأنه شغل بما لا يفيد ، وهو يعطله عما يفيد ، ولذلك فإذا استقرأت حالهم وجدتهم جميعًا لم يموتوا على الكفر ، إلا **العباس** عم النبي ﷺ ، ونحن نعلم موقف **العباس** ﷺ من النبي ﷺ ، لدرجة أنني أعتقد أنه كان مسلمًا ، ولكنه أخفى إسلامه حتى لا يجترئ الكفار على رسول الله ﷺ ولو احترامًا له **ولأبي طالب** ، بدليل أنه هو الذي ذهب ليوثق للنبي ﷺ أمره مع الأنصار يوم العقبة ، كما روى ذلك **الإمام أحمد** في مسنده قال :

حَدَّثَنَا **يعقوب** قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ **ابن إسحاق** قَالَ : فَحَدَّثَنِي **معبد بن كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين** أَخُو **بني سلمة** أَنَّ أَخَاهُ **عبيد الله بن كعب** ، وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ الأَنْصَارِ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ **كعب بن مالك** ، وَكَانَ **كعب** مِمَّنْ شَهِدَ الْعَقَبَةَ وَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِهَا قَالَ : خَرَجْنَا فِي حُجَّاجِ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ صَلَّيْنَا وَفَقِهْنَا ، وَمَعَنَا **البراء بن معرور** كَبِيرُنَا

---

1 – سورة : الكهف ، الآية : 6 .

وَسَيِّدُنَا ، فَلَمَّا تَوَجَّهْنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ البراء لَنَا : يَا هَؤُلاَءِ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ وَاللهِ رَأْيًا ، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدْرِي تُوَافِقُونِي عَلَيْهِ أَمْ لاَ . قَالَ : قُلْنَا لَهُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ أَنْ لاَ أَدَعَ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ مِنِّي بِظَهْرٍ – يَعْنِي الْكَعْبَةَ – وَأَنْ أُصَلِّيَ إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا : وَاللهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلاَّ إِلَى الشَّامِ ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نُخَالِفَهُ . فَقَالَ : إِنِّي أُصَلِّي إِلَيْهَا . قَالَ : فَقُلْنَا لَهُ : لَكِنَّا لاَ نَفْعَلُ . فَكُنَّا إِذَا حَضَرَتْ الصَّلاَةُ صَلَّيْنَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ ، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ ، قَالَ أَخِي : وَقَدْ كُنَّا عِبْنَا عَلَيْهِ مَا صَنَعَ ، وَأَبَى إِلاَّ الإِقَامَةَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاسْأَلْهُ عَمَّا صَنَعْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، فَإِنَّهُ وَاللهِ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ خِلاَفِكُمْ إِيَّايَ فِيهِ . قَالَ : فَخَرَجْنَا نَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَكُنَّا لاَ نَعْرِفُهُ ، لَمْ نَرَهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَلَقِيَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ : هَلْ تَعْرِفَانِهِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : لاَ . قَالَ : فَهَلْ تَعْرِفَانِ **العباس بن عبد المطلب** عَمَّهُ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ . قَالَ : وَكُنَّا نَعْرِفُ العباس ، كَانَ لاَ يَزَالُ يَقْدَمُ عَلَيْنَا تَاجِرًا . قَالَ : فَإِذَا دَخَلْتُمَا الْمَسْجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الْجَالِسُ مَعَ العباس . قَالَ : فَدَخَلْنَا الْمَسْجِدَ فَإِذَا العباس جَالِسٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ ، فَسَلَّمْنَا ثُمَّ جَلَسْنَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ للعباس : **هَلْ تَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ يَا أَبَا الفضل** ؟ قَالَ : نَعَمْ ، هَذَا **البراء بن معرور** سَيِّدُ قَوْمِهِ ، وَهَذَا **كعب بن مالك** . قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَنْسَى قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : **الشَّاعِرُ** ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَقَالَ **البراء بن معرور** : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي خَرَجْتُ فِي سَفَرِي هَذَا ، وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسْلاَمِ ، فَرَأَيْتُ أَنْ لاَ أَجْعَلَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهْرٍ ، فَصَلَّيْتُ إِلَيْهَا ، وَقَدْ خَالَفَنِي أَصْحَابِي فِي ذَلِكَ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : **لَقَدْ كُنْتَ عَلَى قِبْلَةٍ ، لَوْ صَبَرْتَ عَلَيْهَا** ، قَالَ : فَرَجَعَ البراء إِلَى قِبْلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ ، قَالَ : وَأَهْلُهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ وَلَيْسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُمْ ، قَالَ : وَخَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَوَاعَدَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ،

فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنْ الْحَجِّ ، وَكَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَمَعَنَا **عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر** سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ : يَا **أبا جابر**، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ ، وَكَانَ نَقِيبًا ، قَالَ : فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ ، **نسيبة بنت كعب أم عمارة** إِحْدَى نِسَاءِ **بني مازن بن النجار** ، و**أسماء بنت عمرو بن عدي بن ثابت** ، إِحْدَى نِسَاءِ **بني سلمة** وَهِيَ **أم منيع** ، قَالَ : فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى جَاءَنَا ، وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ **العباس بن عبد المطلب** وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ ، فَلَمَّا جَلَسْنَا كَانَ **العباس بن عبد المطلب** أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ – قَالَ : وَكَانَتْ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنْ الأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا – إِنَّ **محمدًا** مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ . قَالَ : فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَتَلَا وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلَامِ ، قَالَ : **أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ** . قَالَ : فَأَخَذَ **البراء بن معرور** بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا ، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ – وَ**البراء** يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ – **أبو الهيثم بن التيهان** حَلِيفُ **بني عبد الأشهل** ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا ، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا – يَعْنِي الْعُهُودَ – فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ

اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا ، قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : بَلْ الدَّمَ الدَّمَ ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ "[1] .

فكيف يكون **العباس** على الكفر ثم يوثق لرسول الله ﷺ مع الأنصار ؟! فهذا دليل على أنه كان على الإسلام ، أو على الأقل كانت عنده ميول إسلامية .

إن منهج السماء جاء ليصحح ما يفهمه البشر في منهج الأرض ، ففي المنهج الأرضي البشري حين يريد الناس أن يختاروا من بينهم أحدًا لأمورهم العظيمة فإنهم يصطفون له الصفوة والوجهاء والأقوياء والأعيان والأغنياء ، أما حسابات ومقاييس منهج السماء فغير ذلك ، غير كل تلك الأوضاع ، بل لقد جاء هذا المنهج السماوي ليهلك أمثال أولئك المغرورين الذين يُغتر بهم ، فكيف يعتز يومًا بأمثالهم ؟!

فلو أن الإسلام حين جاء كانت كل القوى معه لقالوا : إن مبدأه من المبادئ التي يلتف حولها الأقوياء ، فمجال القوة الذي كان لهم في غير الإسلام أصبح لهم في الإسلام ، وبالتالي يسود المبدأ .. ولكنهم يقولون : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾[2] .

ولذلك فإننا نرد على من يقولون : إن الإسلام انتشر بالقوة ، فنقول لهم : إن الإسلام في بدايته لم يتبعه إلا الضعفاء لا الأقوياء ، ثم إنه لم ينتشر في **مكة** ، بل لقد أعلن الإسلام دعوته في آذان سادات الجزيرة ، ولم يعلن في مكان بعيد عنهم ، وهم الذين كانوا مهابين في شبه الجزيرة ، ولا يستطيع أحد أن يقف أمامهم أو أن يعترضهم .

ولكن الإسلام حين يتحقق له النصر فلا يكون النصر بهؤلاء أبدًا ، بل ينتصر بالمدينة وبين أهلها ؛ لأن القضية التي يريد القرآن أن يؤكدها هي أن الإيمان **بمحمد** هو الذي أوجد

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (31/ 432) .

2 - سورة : هود ، الآية : 27 .

العصبية **لمحمد** ، ولم توجد العصبية **لمحمد** الإيمان **بمحمد** ، فلم يؤمن **بمحمد** من تعصب له ، ولو كان الأمر كذلك لقالوا : هم قوم تعصبوا لواحد منهم لكي يسودوا به العالم ، بل إن قومه لم يؤمنوا به ابتداءً ، بل وكانوا ضده ، وانتصر الإسلام من بعيد ، فلم ينتصر الإسلام بالأقوياء ، بل انتصر بأولئك الضعفاء الذين تقووا بالإسلام ، فكانوا أقوى وأعظم من أي قوة ظهرت على وجه الأرض ، وقهروا كل قوة كانت على ظهر هذه البسيطة .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. ورد هنا لفظان متقاربان في المعنى : ﴿ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ، و ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ ﴾ .. فـ ﴿ يَزَّكَّى ﴾ أي : " يتطهر " ، ويدل هذا التطهر على وجود أقذار يجب التطهر منها ، ولا شك في وجود مثل هذه الأقذار في ذلك المجتمع الجاهلي ، وربما كان هناك من لم يلتفتوا إلى هذه الأقذار ولم يرتكبوها ، فهؤلاء يكفيهم منك التذكرة ؛ لأنهم يريدون طريق الحق ، ولا يشغلون أنفسهم بعبادتهم لأصنام لا تضر ولا تنفع ، ومنهم من أراد البحث عن الحقيقة ، ومن خلد للتفكير في ذلك ، وما هذه إلا أدلة على قلقهم من تلك الحال ، وإرادتهم لسلوك الطريق الصحيح .

فالناس في الجاهلية كانوا فريقين : فريق به من أوزار الجاهلية ما به ، فهذا ﴿ يَزَّكَّى ﴾ ، فيتطهر من تلك الآثام ، وفريق يبحث عن الحقيقة وينتقد ذلك الواقع ، وهذا ﴿ يَذَّكَّرُ ﴾ ، وكأن فطرتهم تحتاج إلى تنبيه بسيط .

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴾ .. وكلمة ﴿ اسْتَغْنَى ﴾ تقتضي مستغنيًا وهو هذا المخاطب ، ومستغنىً عنه ، ومستغنىً به ، فهو يستغني عن شيء بشيء آخر ، فقد استغنى عن الإيمان بالله **وبمحمد** ﷺ وعن منهجه الرباني بمنهج الجاهلية الشهواني المتمثل في الجاه والسيطرة والنفوذ والقوة .

﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ .. وكلمة : ﴿ تَصَدَّى ﴾ فيها الكثير من العطاء القرآني الجميل والمبدع ، فهي مأخوذة من : " دار صدد دار فلان " .. أي : مقابلة ، أو من



" الصَّدَى " .. وهو العطش ، أو التلهف على الشيء والصبوة إليه ، أو أنك تتبع حتى صداه ، أي : مردوده .

هذا هو العطاء القرآني ، فالكلمة قد تؤخذ على مناحٍ عدة ، ولكن كلها تخدم المعنى المراد ، وهذه هي عظمة القرآن الكريم .

﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ .. فلو أنك تدفع عن نفسك ضررًا بالإقبال عليه لكان ممكنًا ، ولكن الذي بعثك ﷻ هو من قال لك : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [1] ، وما دام ليس عليك إلا البلاغ فليس عليك حرج يدفعك للتصدي لأمثال هؤلاء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ .. فعرض الحق ﷻ القصة كاملة ، وذكر أبطالها .. وذكر لكل دوره الذي يخصه ، وبعد ذلك قال أولا : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾ ، وذلك بالنسبة لصناديد قريش ، ثم قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ ، وذلك لأولئك المؤمنين الذين يريدون أن يتعلموا هذا الدين .

إذن فالدرس الذي ينبغي أن نتعلمه من توجيه السماء لرسول الله ﷺ في هذا الموقف هو أن الجندي المقبل على الدعوة هو فقط الذي يستحق أن يستقطب دون غيره ، والذي يجب إمداده حتى يكوّن خلية إيمانية قوية تستطيع أن تكون أسوة سلوكية تُرَغّب غيرها في الإسلام وتحببهم فيه ، بعكس أولئك الذين امتلأوا بالعنهجية والكبر فإنهم هم المتضررون ؛ ولذلك عرض الله ﷻ تلك القضية فقال ﷻ عنهم : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [2] .

---

1 – سورة : الشورى ، الآية : 48 .

2 – سورة : الحجرات ، الآية : 17 .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ .. إن دعوتك ومنهجك يا محمد تذكرة ، ومدلول كلمة تذكرة أن هناك شيئًا قد تكون غافلاً عنه ويجب أن تذكره ، ولكنه موجود في طبيعة تكوينك ، ومعنى ذلك أن الفطرة السليمة في النفس البشرية فطرة إيمانية ، وكل ما يكون من انحراف فيها إنما هو نتيجة للبيئة غير الطيبة ، أو للغفلة ، فالفطرة تحتاج لمن يصقلها وينزع عنها غبار الغفلة ، فالذي لم يقعِّد لنفسه قاعدة في الضلال ولم يصنع لنفسه إيديولوجية فيه فيكفيه منك التذكرة .

ويلاحظ هنا أن الضمير جاء مؤنثًا : " إِنَّهَا " ؛ لأن الخبر مؤنث كذلك : " تَذْكِرَةٌ " ، فالعلماء يقولون : إن تأويله : " كلا ، إن القرآن تذكرة " ، فكيف يقول : " إنها " ؟! والجواب : لأن الخبر عندما يكون مؤنثًا فلك أن تُذكِّر مراعاةً للأصل ، أو أن تؤنث مراعاة للخبر .. وقد يكون المعنى هو : " كلا ، إن دعوتك ومهمتك تذكرة " .

﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ .. فما دامت هذه التذكرة للتذكير بشيء ، هو أصل ما انطبع في الفطرة البشرية ، والفطرة البشرية مطبوعة على التوحيد منذ العهد الذي أخذ منهم وهم في ظهر أبيهم آدم كالذر .. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾[1] .. إذن فالذي ينقض عهد

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 172 ، 173 .

الذر والفطرة السليمة هذه شيئان : الغفلة ، وتقليد الآباء ، أي البيئة التي يتربى فيها أولئك الأبناء .

فالتذكرة لتنبيه الغافل والمقلد الأعمى ، فإذا كان التذكير بعهد الفطرة يكون بالقرآن ، فمنهج الإسلام يطمئننا بأن هذا النهج الذي هو القرآن الذي جاء ليذكرك بعهد الفطرة الأصيل ، وينفض عنك الغفلة ، وينفض عنك تقاليد البيئة فيه مواصفات تجعلك تثق ثقة مطلقة بأنه لم يحدث فيه أي تغيير ، وذلك بذاتيته ، وبمكانه ، وبكل ما يتصل به ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴾ .. وهذه هي أول وقفة .. ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ .. أي لا تتناولها أيدي عابث .. ﴿ مُطَهَّرَةٍ ﴾ .. لا يمسها إلا المطهرون ، كي تعلم مدى الصيانة والحفظ ، فهي مكرمة ، ومرفوعة ليست في المتناول ، ومطهرة لا يمسها إلا مطهر ، ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ .. هم الذين يسفرون بها بين الله وبين خلقه .. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

فالمذكر بعهد الفطرة له مواصفات متعددة ، مكرم في ذاته ، مرفوع في منزلته ، مصون من أن تمسه أيدٍ ليست طاهرة ، فالذي ينقله من الله إلى خلقه كرام بررة ، فهذه مواصفات تجعلك تطمئن بأن المذكر لك بالعهد الأصيل أو ما يرجع إلى الفطرة موثوق فيه ؛ لأنه جاءك كما هو .. كما صدر عن الله ﷻ ، لم يحدث فيه تغيير ، وهذه مسألة يؤكد عليها القرآن ؛ لأن آفة الديانتين السابقتين للإسلام هو التغيير والتبديل في المنهج والكتاب ، هذا التغيير والتبديل الذي أضاع المنهج من أصحابه بالتحريف تارة والتبديل أخرى والنسيان أيضًا ، فقد لا يكون ذلك عن قصد ، بل نسوا أشياء ، وأما الذي لم ينسوه فقد كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به ، وليتهم اقتصروا على هذا الحد ! ! بل زادوا أشياء من عند أنفسهم ثم قالوا : هو من عند الله .

و" **السفرة الكرام البررة** " .. إما أن تكون من السفارة العلوية التي هي بين الملائكة وبين سيدنا **محمد** ﷺ ، ثم بين سيدنا **محمد** ﷺ وبيننا ، أو أن الذين سينقلونه إلينا هنا

سينقلونه إلينا بكل أمانة ، ولذلك تنظر فتجد دقة في التلاوة ، ودقة في الأحكام ، ودقة في التوثيق .

ولذلك سيظل المنهج محفوظًا بإذن الله كما وعد الحق ﷻ بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ، وبذلك يصبح لا حجة لإنسان في أن لا يؤمن به .

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .. وورد التعبير القرآني بكلمة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ ﴾ لأن الإنسان أشد ما يدعى عليه به هو القتل لا مجرد الموت ؛ لأن الموت أمر يدرك ، أما القتل فهو أمر مفزع ، فكلنا سنموت ، ولكن ليس كلنا سنقتل .

وكلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ تعطيك حيثية ﴿ قُتِلَ ﴾ لأن القرآن إذا ذكر كلمة الإنسان في أمر ما فإنه دائمًا ما يأتي الخبر من ناحية الشر .. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾[2] ، ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾[3] ، ﴿ وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾[5] ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

1 – سورة : الحجر ، الآية : 9 .
2 – سورة : المعارج ، الآية : 19 .
3 – سورة : العصر ، الآية : 1 ، 2 .
4 – سورة : الإسراء ، الآية : 11 .
5 – سورة : البلد ، الآية : 4 .

سَافِلِينَ ﴾[1] ... وهكذا .

ولا ينجو من خبر الشر إلا من استثني ، أي لا بد أن يأتي بعده استثناء .. ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ ﴾ أي إن ذلك بطبيعته كإنسان دون أن يصونه منهج سماوي لا بد من خسر ، بدليل : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾[2].. أي أن الذي يعصم من خبر الشر في الإنسان هو المنهج السليم ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[3] ، إذن فلن ينجيه من ذلك الشر إلا الإيمان والمنهج ، وإلا فالإنسان لا يختلف عن الحيوان إلا بكونه يمتلك عقلاً يرجح به بين الأشياء ، فإذا تمكنت منه شهوته وليس عنده منهج يروض تلك الشهوانية يصبح مثل الحيوان .

إذًا فالمقصود هنا هو الإنسان الذي أخذ من الحق عطاء الربوبية ولم يأخذ منه عطاء الألوهية ، فعطاء الربوبية ممتد للمؤمن وللكافر ، فالله ﷻ هو الخالق لنا جميعا ، لكن عطاء الألوهية لا ينتفع به إلا المؤمن فحسب ، فالمؤمن يأخذ عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والكافر يأخذ عطاء الربوبية فقط ، فنقول له : كن منطقيًا يا من أخذت عطاء الربوبية ، فما هو عطاء الربوبية ؟! أليس هو أن ينعم عليك بالنعم ؟! إن تلذذك بهذه النعم وانتفاعك بها فرع وجودك ، فالنعمة الأولى والمنة الكبرى هي في الإيجاد من العَدَم ، ثم المنة الثانية هي الرزق والإمداد من العُدْم .

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تُحمَل على أسلوبين ، فقد تحمل على التعجب ، كأن تقول : ما أفصح عمر ! وقد تحمل على السؤال ، أي : ما هو الداعي

1 - سورة : التين ، الآية : 4 ، 5 .

2 - سورة : المعارج ، الآية : 19 - 22 .

3 - سورة : العصر .

الذي دعاه إلى هذا الكفر ؟!

كما جاء في قصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته حين نظرت إلى السماء متعجبة ثم قالت لأبيها : ما أحسنُ السماءِ ؟ فقال لها : نجومُها . فقالت : يا أبتِ ما أردت السؤال ، ولكن أردت التعجب . فقال لها : يا بنية فقولي : ما أحسنَ السماءَ ! وافتحي فاكِ .

وهذا هو الفرق بين المحملين في العبارة ، فقد تحمل على التعجب ، والتعجب لا يتأتى إلا من شيء جاء على خلاف ما يقتضيه العقل والمنطق ، فكأن الذي يقتضيه العقل والمنطق أن يكون الإنسان مؤمنًا ، وذلك كقول الحق ﷻ في سورة البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] ، فكأن كفرهم بالله ﷻ مسألة عجيبة تدعو إلى الدهشة من ذلك الشيء الذي جعلهم يكفرون بالله ﷻ ، وكأن العاقل ليس له سبيل إلى أن يكفر بالله ﷻ ، فأخبرونا كيف كفرتم به ؟! لأن ذلك أمر عجيب ، فكل الأدلة توحي بأن الإنسان يجب أن يرتقي بعقله وبنفسه وبوجدانه وبمشاعره وبأحاسيسه إلى قضية الإيمان ، فحتى لفظ : "**الكفر**" نفسه ، الذي هو ضد الإيمان يوحي إلينا بمعنى الإيمان ؛ لأن معنى الكفر هو : الستر ، والستر يقتضي مستورًا ، فكأن الكفر – وهو الستر – طرأ على شيء موجود ، وكأن أصل الوجود هو الإيمان ، فأصل الفطرة هو أن تؤمن بالله ، فإذا جاء الكفر فقد جاء شيء ستر شيئًا موجودًا ، فكأن الشيء الموجود الواضح كان أولاً ، ثم طرأ منك كفر عليه .

ثم بعد ذلك رد أسباب التعجب من كفره إلى شيء في طبيعة تكوين النفس ، فأنت أيها الإنسان الذي هو ، ولو كان كافرًا "**سيد في هذا الكون**" ، ومعنى "**سيد في هذا الكون**" أن كل أجناس الكون في خدمته .. الحيوانات في خدمته ، والنباتات في خدمة الحيوانات ، ثم تنتهي إلى خدمته ، والجماد في خدمة كل من الحيوان والنبات ، ثم تنتهي إلى خدمته .

إذن فأنت مخدوم بالمباشرة من أشياء ، وبالوسيلة من أشياء أخرى ، فكل أجناس الوجود

1 – سورة : البقرة ، الآية : 28 .

تصب في خدمتك ، فإذا كانت هذه الأجناس تصب في خدمتك أنت فمن الذي أعطاك هذه السيادة ؟! هل دخلت هذه الأجناس تحت قدرتك بحيث ترغمها أنت على أن تكون في خدمتك ؟! كلا ، بل إنها خدمتك قبل أن تكون لك قوة ، فإذا علمت أنها قد خدمتك قبل أن تكون لك قوة فيجب عليك أن تلتفت إلى تلك القوة التي هي أقوى منك ومنها ، وسخرتها لخدمتك .

ثم هبَ أن لك قوة على بعض الأشياء التي هي أقل منك قوة ، فهل لك قوة على الأشياء التي ليست في متناولك ؟! هل عندك قدرة على الشمس أو القمر ؟! هل لك قدرة على السحاب أو على الماء ؟! كلا ، فليس لك قدرة على أي شيء من هذه الأشياء ؛ لذلك فإن من واجبك أن تتنبه إلى من أعطاك هذه السيادة ﷻ .

لقد خص هذه السيادة بعنصر تكوينك ، فالشيء يشرف إما بالعنصر المكون منه ، أو بما آل إليه ، فانظر إلى هذه الأشياء الداخلة تحت سيطرتك .. هل ترغمها على الدخول تحت سيطرتك ؟ كلا ، إنك لا ترغمها ولا تستطيع أن ترغمها ، فهل عنصرك هو الذي تحكم في هذه السيطرة ؟! إن هذا العنصر شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [1] ، ثم ما هذا الميكروب الضئيل الذي يحتوي على كل هذه الخصائص ؟! فيوجهك الله ﷻ إلى النظر في بدايات وجودك ، وأنك لم تستفد كل هذه العظمة في الكون ، ولم تستفد هذه السيادة ، ولم تستفد ذلك التكريم من عنصر وجودك ؛ لأن عنصر وجودك شيء تافه .. ﴿ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ ، إذًا فمن الذي خلع عليك هذه العظمة ؟ لا شك أنه هو الله ﷻ .

وقد تُحمَل الآية أيضًا على الاستفهام ، وإذا كانت على سبيل الاستفهام فسيكون أيضًا استفهامًا تعجبيًا ، أي : ما هو السبب في كفر ذلك الإنسان بربه الذي خلقه ؟!

فتدبر بلاغة الأسلوب الذي يعطيك معنى التعجب والاستفهام معًا في عبارة واحدة ، وعلى

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 8 .

أي نحو منهما حملتها يعطيك المعنى الخاص بكلٍ على حدة .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ .. ابتدأ من أصل الخلق ، ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. وكما هو معلوم أن كلمة : " نطفة " هي الماء الخاص الذي تكون فيه الحيوانات المنوية ، ولم نكن نعرف أن النطفة تعيش في سائل خاص بها ، بعدما كنا نظن أن كل ما يخرج من الرجل هو الحيوانات المنوية التي تعيش في هذا السائل ، حتى جاء القرآن وأخبرنا بهذه الحقيقة حين قال : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[1] ، والنطفة شيء حقير تافه ، فالذي خلقك من ذلك الشيء التافه ثم أعطاك هذه العظمة التكوينية وأعطاك كذا وكذا ، فهو عندما خلقك قدر لك كل شيء تقديرًا .

كالذي نطالعه في الصحف والأبحاث المختلفة عن علم الوراثة من أن خواص الإنسان تكون في محتوى هذا الميكروب ، فانظر وتدبر عظمة الصنعة التي تتأتى في أمرين متضادين : أن تكون من الضخامة والعظم بحيث لا تدرك ، وأن تكون من الضآلة والصغر بحيث لا تدرك أيضًا ، فهي إما كبيرة جدًّا أو صغيرة جدًّا ، وفي كلتا الحالتين لا تدركان ، ففي التكوين الميكروبي هي دقيقة جدًّا ، حتى أنك قد تتساءل مستغربًا : كيف جاء هذا العالم الكبير وأولئك الناس الكثيرون من تلك النطفة الصغيرة الحقيرة ؟! ثم بعد ذلك تجد كل إنسان له صفاته المختلفة عن غيره ، إنه حقًّا لشيء عجيب ، وذلك من قدرة الله ﷻ الذي قدر كل تلك المخلوقات من خلال ذلك الشيء التافه الدقيق ، وعلى العكس فالسماء والأرض كبيرتان جدًّا بحيث لا أستطيع أبدًا الإحاطة بها .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾[2] ، والنكرة ضد المعرفة ، فالمعرفة تفيد تحديد تشخيص الأشياء ، أما النكرة فتفيد العموم والشيوع ،

---

1 – سورة : القيامة ، الآية : 37 .

2 – سورة : غافر ، الآية : 57 .

ويقال أيضًا : إن الشيء قد ينكَّر مرة للتعظيم وقد ينكَّر في مرة أخرى للتحقير ، كما قيل :

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

معناه أنه حاجب عظيم عن أي فحشاء ، وكلمة : " **وليس له عن طالب العرف حاجب** " هنا تفيد العموم ، فالمقصود هو أي حاجب ، والنكرة تأتي مرة للتعظيم ومرة للتحقير ، وتأتي مرة للتقليل ومرة للتكثير ، كأن تقول : إن له غنمًا صالحة ، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : هل هذا الإبهام في الجملة يأتي من ناحية البداية أم من ناحية النهاية ؟ فإن كان الإبهام من ناحية البداية فالغنم إذن قليلة ، وإن كان من ناحية النهاية فالغنم كثيرة .. فيصح أن تأتي النكرة للتعظيم وللتحقير ، ويصح أن تأتي للتكثير وللتقليل .

فقول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ساعدنا في الجواب ، فمن الجائز أنه لو لم يعلمنا بذلك لما عرفنا أن العملية الجنسية هي السبب في وجودنا ، فلربما لم يخطر ببالنا ذلك ، وربما ذلك لمصاحبة اللذة الذاتية لهذه العملية ، وربما توهمنا أن تلك اللذة الوقتية هي فائدتها فقط ، فنبهنا الله لذلك فقال : ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ ، فكلمة : ﴿ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ تدل على أنه مخلوق بتقدير خاص .. تقدير لصفاته ، وتقدير لغرائزه ، وتقدير لعواطفه ، وتقدير للونه ، وتقدير لشكله ، كل هذه المسائل بتقدير من خلال تلك النطفة البسيطة .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. لأنه من الممكن أن يبدأ خلقك ثم بعد ذلك يتركك حرًّا طليقًا تفعل ما تشاء ، ولكنه لم يتركك ، فقد خلقك بقدرته ، ثم أمَدَّك بقيوميته ، أي إنك لن تستطيع الاستغناء عنه ، ولذلك فحينما يمتن الله ﷻ على عباده في **سورة الواقعة** فيمتن بالخلق أولاً ، ثم بوسائل البقاء ثانيًا ، مقومات استبقاء الحياة ، ففي **سورة الواقعة** تجدها فصولاً ، فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ

عَلِمْتُمُ الـــنَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[1].

فذكر الإيجاد وذكر ما يهدم الإيجاد : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. هذا خلق ، ثم يأتي بعد ذلك الاستبقاء فيقول الله ﷻ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾.

والمهم أنه لا يجد معارضًا في أي من هذه الدعاوى أبدًا ، والعجيب أنه في الآية الأولى ﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾ ذكر إيجاد الحياة ثم ذكر ما يهدم هذه الحياة ، وهو الموت ، وفي إيجاد الزرع ﴿ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ .. وهذا هو ما يحدث كثيرًا ، فهناك أقوام تقوم على الزرع وترعاه حتى يستوي ويعجبهم ، ثم يكون – بقدرة الله – حطامًا ، وفي الماء يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ ، ثم عندما تكلم ﷻ عن النار امتن بها ، ولم يذكر ما يفسدها ، فقال عز من قائل : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ، ولم يقل مثلاً : لو نشاء لجعلناها بردًا ، أو : لو نشاء لأخمدناها .. وذلك حتى تظل دائمًا مذكرة بنار الآخرة ، ومحذرة منها ؛ فلم يذكر ما يفسد

---

1 – سورة : الواقعة ، الآية : 58 – 74 .

هذه النار ؛ لأنها موصولة إلى يوم القيامة .

وحين قال الحق ﷻ في هذه السورة : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ .. فهو لم يتركنا نبحث عن الجواب ؛ لأننا سنعجز عن الجواب ، ولكنه أجاب هو ﷻ بمنه علينا ، ثم بعد ذلك أطلقها إطلاقًا ، ثم يأتي بعد ذلك العلم التشريحي والعملي فيثبت المسائل كما أخبر بها الحق ﷻ تمامًا .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. ولم يقل الله ﷻ : يسره سبيله ؛ لأن منطق الآية لو كان على الصورة الثانية – وهي التعريف بالإضافة – لكان المعنى أن كل إنسان يمشي في طريقه على حدة ، ولكن يجب أن يعرف الناس أن كلاً ميسر لما خُلِق له ، أي أنك ميسر لأن تقول كلمة : " **لا إله إلا الله** " ، والكافر ميسر لأن يقول : " **لا إله** " فقط .. والعياذ بالله ، فيدك مثلاً تستطيع أن تضرب بها إنسانًا ، وتستطيع أن تقيل بها عثرة إنسان آخر .

فيسر الله ﷻ السبيل على إطلاقه ، فيستطيع أن يكون خيِّرًا ، ويستطيع أن يكون غير ذلك ، فأنت عندما تختار لا تختار شيئًا لم يجعل الله لك فيه صلاحية ، بل خلقك صالحًا لهذا وصالحًا لذلك أيضًا ، وأعطاك المنهج ، وأعطاك الفكرة ؛ كي ترجح أي سبيل تسلكه .

وذلك كي يقطع الطريق أمام أولئك الجبرية الذين يقولون : إن كل شيء نفعله من خير أو شر مكتوب ومحتوم علينا ، ونحن عليه مجبرون ، فلو قال الله ﷻ : " سبيله يسره " لظن المجرم المذنب أن ذلك هو القدر الحتمي عليه ولا يستطيع مغايرته وإصلاحه ، ولكن الله أتى بذلك التيسير على إطلاقه ، فإن أردت أن تتجه إلى سبيل الخير كانت فيك الصلاحية لذلك ، وإن أردت أن تتجه إلى سبيل الشر باختيارك كان لك فيه أيضًا صلاحية ، وما دمت صالحًا لهذا ولذاك فأنت ميسر لما خلقت له ، بدليل أن الفرد العادي قد يتصرف تصرفًا صحيحًا في موقف ما ، ثم بعد ذلك يتصرف تصرفًا سيئًا في موقف آخر .

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. يسّرك لما خُلقت له ، فهل تدري لماذا أنت خُلقت ؟ لقد خُلقت

للخلافة في الأرض ، والخلافة منهج من قبيل المنهج العبادي (منهج العبادة) ، تلك هي مهمتك ، وأنت حين تكلف بمهمة فإن الله ﷻ ييسرك لها ، فلا يكلفك الله ﷻ إلا بما يعلم أنه في وسعك ؛ لذلك فيجب عليك أن تنظر إلى التكليف ، لا أن تنظر إلى الوسع ، لا تأخذ من مناط التكليف أولاً ، وإنما خذ التكليف أولاً لتحقق به الوسع ، فما دام الله قد كلفك بشيء فمعنى ذلك أنه بوسعك أن تفعله ، فلتبحث أولاً من زاوية : أكلفني الله ذلك أم لم يكلفني ؟ فإن كان قد كلفك فقد حكم بأن ذلك في وسعك ، فلا تجعل وسعك هو الحَكَم ، ثم ترى أنك غير قادر ، وبالتالي فأنت غير مكلف به ، كلا ، فإن الذي كلفك يعلم جيدًا أن ذلك بوسعك ، بدليل أنه حين يرى أن الشيء الذي تكلف به وأنت في عادة استقامتك وتناسق ملكاتك تقدر عليه فيكلفك ، فإذا اختل فيك شيء أسقط عنك هذا التكليف ، فيأمرك مثلاً بالصلاة ، ثم تسافر ، وفي السفر مشقة ؛ فيكون الأمر بقصر الصلاة وجمعها .

إذًا فالتكليف هو الأصل ، فإذا ثبت التكليف من الله فإنه بوسعك ، وأنت صالح وميسر لما كلفك الله به ، فإذا ما عرض لك أي ظرف فإنه يخفف عنك ذلك التكليف ، بل قد يسقطه بالكلية ، وما ذاك إلا لأن الحق ﷻ يَعْلمك ويَعْلم ما تقدر عليه أكثر مما تعرف أنت نفسك عن نفسك .. ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾[1] .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. ومن عجب أننا نلحظ في مادة الموت خاصة من بين سائر مواد اللغة أن الفعل فيها يستعمل لازمًا ومتعديًا ، والفاعل مرة يقع فاعلاً ، ويقع مفعولاً مرة أخرى ، مع أن الفاعل لشيء لا يأتي مفعولاً لنفس ذلك الشيء أبدًا ، فإذا قلنا : مات زيد .. فأين الفاعل ؟ إنه زيد ، وتقول : أمات الله زيدًا ، فماذا يكون زيد هنا ؟ إنه مفعول به ، فزيد جاء مرة فاعلاً ومرة مفعولاً به ، أي أن الفاعل والمفعول قد اتحدا في هذه المادة ، فإن أردته فاعلاً قلت : مات فلان ، وإن أردته مفعولاً قلت : أمات الله فلانًا ، فهي مسألة عجيبة في هذا اللفظ على وجه

1 - سورة : الملك ، الآية : 14 .

الخصوص .

فما هو الموت؟ الموت : هو انعزال عنصر الروح عن عنصر المادة ، ومعنى ذلك أن الزوجية المكونة للحياة قد انفصلت عن بعضها البعض ، فيحدث أن تتوفى النفس .. ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1] ، فقبل أن تلتصق الروح بالمادة لا يقال للروح : نفس ، وكذلك المادة بمفردها لا يقال لها : نفس ، إذًا **فالنفس هي المزيج المكون من الروح والمادة** .

وعندما يريد الله أن يتوفى الأنفس فإنه يقبض الروح ، فينحل هذا التركيب ، وما دام قد انحل التركيب وأُخذ عنصر من العنصرين وتُرك الآخر فتحدث الوفاة .

والوفاة تأتي منسوبة مرة إلى الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[2] ، وتأتي مرة أخرى منسوبة إلى ملك الموت : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[3] .. فالفاعل في الأولى كان الله ﷻ ، وفي الثانية ملك الموت ، فالحدث واحد ، لكنه أُسند إلى الله مرة ، وإلى ملك الموت مرة أخرى ، ثم في مرة ثالثة أُسند إلى الملائكة ، وهم جنود ملك الموت : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾[4].

وملك الموت مأمور من الله ﷻ ، فمرة ينسب الفعل إلى الآمر به ، وهو الله ﷻ ، ومرة ينسب إلى المنفذ المتلقي لذلك الأمر ، وهو ملك الموت ، ومرة ينسب إلى المنفذ المباشر ، وهم الملائكة الذين هم جنود ملك الموت ، فلكل واحد في الحدث عمل ، فالله هو الذي يقضي أولاً ، ثم بعد ذلك يبلِّغه ملك الموت ، ثم بعد ذلك ينفذه جنود ملك الموت .

وإذا نظرنا إلى تعريف الفاعل عند أهل النحو فإنه : **هو من فعل الفعل أو اتصف به** .. نقول : مات فلان ، فهل هو من فعل الموت ؟ كلا ، ولكنه هو من اتصف بالموت ، فاتصافه

1 – سورة : الزمر ، الآية : 42 .

2 – سورة : الزمر ، الآية : 42 .

3 – سورة : السجدة ، الآية : 11 .

4 – سورة : الأنعام ، الآية : 61 .

بالموت يُسميه فاعلاً ،مع أنه في الواقع غير فاعل ، إنما في ظاهر اللفظ فهو فاعل ، إذًا فقد تجوزوا ، فجعلوا الذي وُصف بالفعل فاعلاً ، مع أنه إذا أردنا أن نجعله فاعلاً حقيقة فلا نقول : " مات فلان " ، وإنما نقول : " انتحر فلان " ، فيختلف اللفظ تمامًا ، إذا مات أحدهم من غير الأسباب العادية للموت نقول : " قتل فلان فلانًا " .

إذًا فإزالة الحياة لها حالات ثلاث : إما موت ، وإما قتل ، وإما انتحار ، **فالانتحار هو** أن يستعجل الإنسان أجله على الله ﷻ ، هو حقًّا مات بأجل ، ولكنه لم يكن يعلم أن أجله الآن ، وفعل فعلاً لم يكن مأمورًا به ، وإذا قتل أحدهم آخر نقول : " قتل فلان فلانًا " ، وهو أيضًا استعجل ما ادخره الله في علمه ، أما إذا كان موتًا طبيعيًّا فنقول : " مات فلان " ، أو : " أماته الله " ، فهذا الفعل الواحد يأتي له الفاعل ويأتي له المفعول .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. إن الله ﷻ يذكر هذا الكلام في معرض المن على ذلك الإنسان الذي يتعجب من كفره حين يقول : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ .. هو قد امتن عليه بكل ذلك ، فهل الموت من قبيل الامتنان ؟! نعم ، فقد يكون لإنسان أو لقوة ما سبب في إيجاد شيء ما ، ولكنه حين يوجد ينطلق منها ولا تقدر عليه تلك القوة ، كأن تهب لأحدهم نعمة من النعم – وأنت حر في إعطائك له إياها – فيكفر بك بعد ذلك ؛ لعلمه أنك لن تقدر عليه بعدها ، ولكن الله ﷻ يعلمنا أن الأمر معه ليس كذلك ، فليس معنى أنني خلقت فيكم الحياة أن تنطلقوا مني ولا أقدر عليكم بعد ذلك ، كلا ، فأنا سأميتكم وسترجعون إليَّ مرة أخرى ، فأنا لم أخلقك من نطفة بسيطة ، وأعطيتك ذلك التكوين العظيم وأنت انفلتّ من قدرتي لتنفد بنعمي وينتهي الأمر عند ذلك ، فأنا مثلما وهبتك الحياة أستطيع أن أسلبك إياها ، فإن كنت لم تعبدني وتؤمن بي شكرًا على ما فعلت لك ، فاعبدني وآمن بي خوفًا ، فمن العجيب أن تكفروا وأنتم غير مدركين لنعمي ، وأنني خلقتكم من كذا وكذا ويسرتكم السبيل .. فآمنوا بي ؛ لأنكم سترجعون إليَّ مرة ثانية .



﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَقْبَرَهُ ﴾ فيها لون من الامتنان أيضًا ، فنحن نرى جثث الحيوانات أمامنا تملأ الطرقات والشوارع ، لكن الإنسان هو المخلوق المكرم حيًّا وميتًا ، حيث إن جثته تقبر بعد موته ، تكريمًا من الله ﷻ له ؛ حتى لا يكون مُثْلَة ، وأيضًا لأجل أن لا يتأفف الناس من رائحتها ، وحتى لا تكون أكلاً للسباع أو الوحوش أو الطير ، وهذا نوع من التكريم .

ولكن الكائنات الأخرى ليست كالإنسان ، فجثثها ترمى في الطرقات ؛ لأن فيها رزقًا لكائن آخر ، فتأتي كائنات أخرى فتأكلها.

وهذه القضية يشير إليها القرآن في قول الحق ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[1] .

فإذا تدبرنا قوله : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وجدنا أنه يعطينا سلبية في الدفاع عن النفس ، وكان من المفترض أن يعلمني القرآن كيف أدافع عن نفسي إذا أتى أحدهم ليقتلني ، ولكنه علمنا أن الإيجابية لها شكل آخر ، إن الإيجابية ليست بإظهار حركة عضلية أو انفعالية ، ولكنها قد تكون بترقيق النفس ، كما يقول له هنا : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. فكأنه يقول له : إن الذي يوقفني عن

1 – سورة : المائدة ، الآية : 27 – 31 .

مقاومتك عند مجيئك لتقتلني أني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان هو يخاف الله مع أنه سيقتله دفاعًا عن نفسه حتى لا يُقتل فما هو الحال إذا كان هو البادئ بالقتل ؟! إذًا فهذه ليست إيجابية من نوع عضلي ، وإنما هي إيجابية بترقيق قلب الذي يهدد بالقتل ، ولكي ينبهه قال له : أنا وأنت لنا إله ، وسوف نرجع إليه ؛ ولذلك فإنك لو قتلتني فلن أقتلك ؛ لأنني أخاف الله رب العالمين ، فإذا كان يخاف الله وهو معتدىً عليه وخائف ، فمن باب أولى أن يخاف الآخر من الله ﷻ ؛ لأنه هو المعتدي .

ثم لما قتله جلس أمام جثته لا يعرف ماذا يفعل ؛ لأنها كانت أول حادثة من نوعها على الأرض .. ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ﴾ .. إذًا فقد علمه حيوان الدفن ، فكأن الحيوان نفسه كان معلّمًا لقاتل أخيه أن يواري سوأة أخيه .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ .. لم يقل الحق ﷻ : " فقبره " ، وإنما قال : ﴿ فَأَقْبَرَهُ ﴾ ؛ وذلك للفرق الأسلوبي بين : " قبره " و : " أقبره " ، فـ " قبره " للذي يواري بالفعل ، و" أقبره" .. أي علّم غيره أن يقبره ، أي علّم الموجودين أن يقبروه .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ .. وكأن عملية القبر هذه أو الإقبار ليست آخرة صلته بالوجود ، وإنما ستكون له عودة إلى وجود آخر .

لكن يلاحظ أنه في الآيات الأولى لم يقدم المشيئة ، ولكنه في هذه الآية قدمها ؛ وذلك لأن الساعة علمها عند الله ﷻ وحده ، فالمشيئة ليست متعلقة بالنشر ، وإنما بتحديد ساعة النشر ، وهذا يدل على مدى الدقة .. ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ ؛ لأنه لو قال : " أنشره " مباشرة ، دون أن يقدم المشيئة فمن الممكن حينئذٍ أن يأمل أحد في معرفة وقتها ، ولكنه قدم المشيئة حتى يظل سر الساعة محفوظًا ، لا يأمل أحد في معرفته .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. بعد أن تكلم الحق ﷻ عن هذه المقدمات قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. وهي كلمة ردع وزجر عن الكفر بعد هذه النعم ، فما كان يصح أن يكفر بعد هذا كله لا رغبًا ولا رهبًا ، فهو ليس بعاقل ، ولا يفعل ما هو في مصلحة نفسه .

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ .. ولنتأمل تلك الدقة في الأسلوب ، فلم يقل : " لم يقض ما أمره " ، مع أن " **لم** " نافية ، و " **لما** " أيضًا نافية ، فما الذي جعل الحق يعدل في أسلوبه عن " **لم** " إلى " **لما** " ؟!

وذلك لأن " **لم** " إذا دخلت على الأسلوب فإنها تفيد نفي الفعل في الماضي ، ومن الجائز في وقت الكلام أن يكون النفي قد انتهى ، كأن تقول : " لم يحضر زيد ، ثم حضر " .. أي : لم يحضر في الماضي ، ولكنه حضر الآن ، ولكن : ﴿ لَمَّا يَقْضِ ﴾ دليل على أنه إلى ساعة الكلام ، وإلى ساعة التوبيخ ، وإلى ساعة هذا العرض .. لم يحدث قضاؤه ، فكأن عدم قضائه لما أمره به ربه مستمر أيضًا حتى لم ينقطع النفي ، فإن " لم " ينقطع نفيها ، أما " لما " فلا ينقطع نفيها .

وكذلك توجد في " **لما** " ميزة أخرى ، وهي أنك تستطيع أن تقول : " لم يحضر زيد ، ولن يحضر " .. أي إنها قد تعطي معنى نفي الماضي والمستقبل ، أما " لما " فمن لطف الله ﷻ في

الأسلوب أنها لا تأتي نافية للمستقبل فتقول : " لما يثمر بستاننا وقد أثمرت البساتين " ؛ لذلك فمن يسمع هذه العبارة فقد يعود إلى الحق ﷻ فينزجر وينتهي عن ما يفعله .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. وبعد أن تكلم عن أصل خلق الإنسان ، وبيّن أن تكريمه وسيادته ليست من عنصره ، وأن هذا الإنسان لم يؤمن بربه رغبًا أو شكرًا على ما أوجده وزوده في هذا العالم ، ولم يكن رهبًا مما يئول إليه ، لا هذا ولا ذاك ، وهذان هما لونا الإنسان ، فالإنسان لونان : لون يأتي بالرغبة والإقناع ، ولون يأتي بالبطش ، فلم يفد معه البطش ولا الإقناع .

أراد بعد ذلك أن يتكلم عن تقنيات الحياة ، هناك تكلم عن أصل الحياة : ﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ، ثم بعد ذلك أراد أن يتكلم عن مستبقيات تلك الحياة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ .. فهو يريد أن يلفته إلى صفة القدرة أولاً ، وإلى صفة القيومية ثانيًا ، ويقول له : إنه ﷻ قائم على أمرك ، فلقد خلقك وأمدك بالحياة ، ثم أعطاك مقومات استبقاء هذه الحياة .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ .. كلمة الصب في : ﴿ صَبَبْنَا الْمَاءَ ﴾ تشعر بالتدفق بغزارة وقوة ، فهل هذا يعني أنّا صببنا الماء صبًّا بالأمطار ؟! ومن أين تأتي تلك الأمطار؟! إنها تأتي من تبخر الماء الذي يوجد في الأرض أصلاً ، ثم يصعد البخار إلى السماء ، أي يتقطر تقطيرًا ، ثم يتبخر ، ثم يصعد ويتجمع سحابًا ، فيصادف المنطقة الباردة فيتقاطر مطرًا بإذن الله ﷻ.

إذًا فالآية تتحدث عن الماء الموجود في الكون أولاً قبل أن يحدث البخر والمطر ، عندما خلق الله الأرض واستخلف فيها الإنسان أعطاه كمية من المياه ، ثم سلكه ينابيع في الأرض ، وجعل له البحار والأنهار والعيون ... إلى آخره ، ثم بعد ذلك فإن عوامل التبخير تتحكم ، ثم يعطينا الله ﷻ المطر ، فكأن كلمة : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ تعطينا العملية الأولى .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. وهذا الكلام واضح ، فهو يعمل بالزراعة ، فهذه النبتة الضئيلة تنبت من الطين ، ومن الممكن أن تكون حاملة لجزء كبير منه ، هذه النبتة إذا



أمسكتها تجدها صغيرة ، فكيف استطاعت هذه النبتة أن تفرع هكذا لولا وجود قيومية تمدها بهذه الحياة ، فإذا نظرنا مثلاً إلى حبة الحلبة نجدها تتعمق في الأرض ، وفي نفس الوقت تنمو لأعلى ، وإذا كانت الأرض جافة ومتشققة فإنها تلفظها إلى الخارج ، فكيف يقوى هذا النبات الضعيف على هذه العملية ؟! إلا بما أودع الله فيه من قوة بقيوميته ﷻ .

وكلمة : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ تدلنا على أن التشقيق أيضًا فيه أشياء ، بدليل أننا عندما نقوم بزرع شيء فلابد من حرث الأرض ؛ كي نجعل الأرض هشة ، وتكون هشة حتى يتخللها الهواء ، وأيضًا حتى تنفذ أشعة الشمس إليها ، وإذا لم تحدث هذه العملية فلن تصلح الأرض للزراعة ، إذًا فهذا النبات الذي يتطلب وجود أكسوجين أسفل التربة لنمو جذوره .. يحتاج إلى تربة لها مواصفات خاصة ، فلا هي رملية لا تمسك الماء ، ولا هي طينية سوداء تمسك الماء بشدة لا تسمح بتخلله للنبات ، فالتربة الطينية الملتصقة لا تقبل الماء ، ولا تسمح بدخول الهواء وأشعة الشمس لعدم وجود تشققات بها ، والتربة الرملية مع أنها مخللة وتسمح للعناصر السابقة بالدخول إلا أنها لا تمسك الماء فيها ؛ لذلك فالنبات يحتاج لتربة بين بين ؛ كي تمسك الماء ، ثم نقوم نحن بمساعدة التربة بتخليلها بالحرث ونحوه .

﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾ .. لحدث يأتي من أعلى ، ولحدث يأتي من أسفل ، والحدث الذي يأتي من أعلى هو أن يدخل فيها الهواء وأشعة الشمس ، والحدث الذي يأتي من أسفل أنها تقوى وتخضر .

﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ .. والحب هو كل ما نتغذى به ، فأتى بالحب مثل الأرز والفول وكل ما نعرف من الحبوب ، ثم أتى بالعنب ؛ لأن في العنب خاصيتين : فمن الممكن أن يكون فاكهة ، ومن الممكن أن يكون غذاء لنا ، والقضب هو النباتات التي تؤخذ طرية خضراء ، مثل البقدونس والجرجير ، ثم تنبت مرة أخرى .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. وبعد أن أورد هذه النعم من البقوليات وغيرها أتى

بالدهنيات ، فقال : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ ، ثم بعد ذلك قال : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ ؛ لأن كل الأشياء السابقة قد تفيدني في غذائي ، ولكن مقومات الحياة ليست غذاء فقط ، وإنما هناك أشياء أخرى ؛ لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. و﴿ غُلْبًا ﴾ جمع أغلب أو غلباء ، والأغلب والغلباء الأصل فيها أنها العنق تنتفخ أوداجه وتشد أعصابه ، وذلك عند غضب الإنسان ، فهو بهذا التعبير يريد أن يعطيني صورة للغابات ، حيث الأشجار الكثيفة الضخمة ؛ لأنني أريد لغير الأكل أخشابًا لأصنع منها أشياء أخرى ، كنول أو محراث أو أسقف بيت أو ما شابه ذلك ، فـ﴿ حَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ .. أي كثيفة .

﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .. الفاكهة نعرفها ، فما الأب ؟!

لسيدنا **أبي بكر** ﷺ قصة مشهورة حين سئل عن الأب ، فقال : " **أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بغير علم؟!** " .. فسيدنا أبو بكر ﷺ وقف عند مجرد اللفظ .

وقريب منها قصة لسيدنا **عمر** ﷺ ، حين قال : "**الفاكهة عرفناها ، فما هو الأب؟!** " فهز ربطة كانت معه ، وقال : " **هذا هو التكلف يا ابن أم عمر ، وما عليك إن لم تعرف معنى الأب ؟! شيء امتن به الله على عباده ، وهل كل أجناس النبات تعرف؟!** " .. فما عليك إلا أن تجدها وتتمتع بها ، فهل انتفاعك بالشيء يترتب على معرفتك اسمه ؟!

فسيدنا **عمر** ﷺ ينبهنا بهذه القصة إلى أن لا نتنطع ؛ لأن انتفاعك بالشيء لا يستلزم بالضرورة أن تعرفه ، فهل إذا وجدت فاكهة يأكلها الناس لا أنتفع بها لعدم معرفتي اسمها ؟! فكأنه يقول للناس : إن الذي تعرفونه من كتاب أنتم عاملون به ، والذي لا تعرفونه فخذوه على اعتبار أنه من عظمة الله ﷻ ، ومن خلق الله ﷻ .

وكذلك يدلنا على أن **أبا بكر** ﷺ على جلالة قدره ، **وعمر** ﷺ بسمو منزلته لم يجدا غضاضة ولا خجلاً في أن يمر عليهما لفظ لا يعرفانه ، فهما يُعلِّمان الناس أمانة أداء العلم ،



الخليفة نفسه يعلِّم الناس أمانة أداء العلم ، وهذا ليس فيه أي غضاضة ، فإن الذي يغض من نفس الإنسان ، بل قد يحمله على أن يَكذِب في العلم هو كبرياء ذاته أمام السائل ؛ لذلك فهذا هو السبب في قولهم : **من قال: لا أدري.. فقد أجاب** .. كيف أجاب وقد قال : لا أدري ؟! لقد أجاب فعلاً ، لأنه بقوله هذا فقد كلفك بأن تسأل غيره ، أما لو كان أجابك خطأ فكنت ستطمئن إلى أن هذا هو الجواب ، فتضيع الحقيقة منك ، ويضيع منك الصواب ، وليس من العيب أن يُسأل الإنسان عن شيء لا يعرفه فيقول : لا أعرف .

ولقد كان **لسيدنا عمر** ﷺ مواقف كثيرة مثل ذلك ، وهو لا يبالي ، فمثلاً ذات مرة كان يجلس مع القوم فأحدث .. خرج منه ريح ، فلما أرادوا أن يصلُّوا قال : والله هممت أن أصلي ، حياء أن يقال : أحدث أمير المؤمنين وهو جالس في المجلس ، ولكنه ﷺ وجدها كبيرة أن يصلي هكذا ، وتلك هي أمانة الإمامة ، ولكن هناك من يقوم للصلاة وهو محدث خوفًا من أن يقول الناس : إنه أحدث ، مع أن هذا الأمر ليس به أي غضاضة ؛ لأنه أمر طبيعي يحدث لكل الناس ؛ لذلك قام **سيدنا عمر** ﷺ فتوضأ ، ولم يرضَ أن يصلي هكذا ، فالحق أكبر من نفوسنا ، وفضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة .

﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .. ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ﴾ أي ذاتية مباشرة ، ﴿ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ أي غير مباشرة ، ولكنها ستئول إليكم أيضًا بطريق غير مباشر ؛ لأن هذه الأنعام متاع لنا أيضًا .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ .. وتأمل اختيار كلمة : " الصاخة " ، حيث تؤدي إلى إسماع من لم يسمع ، فكلمة : " صاخة " مثل فرقة الحجر التي تكسر الرأس وتُسيل الدماء ، كأن الناس كانوا في حياتهم يسمعون ولا يستمعون ، فيقول : كلا ، فسيأتي صوت يرغمهم أن يستمعوا له ، فقد كانوا يدعون عدم السماع ، ولكن ذلك الصوت " صاخة " .

أفرأيت الأسلوب : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ التي تصخ الأسماع ، فلا تملك أذُن إلا أن تسمع ، لقد كان عندما ينادَى إلى الحق من قبل يدَّعي أنه لم يسمع ، فسيرغم على السماع ، فاللفظ نفسه مخيف ﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ ، هي النفخة التي سيحدث بها ثورة الكون ، هي انقلاب في الوجود كله .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ .. فإن الود والوفاء والمحبة ، وكل هذه العواطف ستنتهي وتزول في ذلك اليوم .

وتأمل الترتيب في الفرار ، فإنه هام جدًّا : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ .. فقد يقول قائل : إن هذا الترتيب مخالف للطبيعة ، فلو قيل : يرتبها استعلاء ، يعني : يفر من أخيه ، ومن أمه وأبيه ، ومن صاحبته ، ومن بنيه ..

أو يرتبها على اعتبار الأهم فالمهم ، يعني : إنها تأتي طردًا وعكسًا ، كأن يفر أحدهم من آخر ، فالذي يفر إنما يفر لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ، إما لأنه كان قديمًا يستطيع أن يفعل له ، ثم أصبح الآن لا يستطيع ، فيفر منه حتى لا يحرج ، أو يفر منه لأنه قد قصر في حقوقه ، فهو يخاف ولا يقدر على مواجهته ، فإذا أتيت إلى المعنى الأول تجد أنها ترتب عكسًا ، وفي المعنى الثاني ترتب طردًا ، كل إنسان في الوجود يدرك الحياة مع أخ ، وليس المقصود به الأخ الصلبي خاصة ، ولكن هو الأخ الذي ارتضيت أخوته ، ومن الممكن أن يموت الفرد أو يموت أبوه ، وهو مازال في بطن أمه ، أو تموت أمه أثناء ولادته ، أو قبل أن يدرك أن له أمًّا أو أبًا ، إنما قطعًا ما دام له وجود وأصبح مخاطبًا ومكلفًا فله إخوان ، فهذا أمر لابد من وجوده ، وليس من الضروري أن يكون له سوابق مع أم وأب ؛ لجواز أنه ربما بعد نضوجه لا يجد أمًّا ولا أبًا ، كما أنه ليس من الضروري أن يكون لكل واحد صاحبة ، وليس من الضروري أيضًا أن يكون لكل واحد بنون ، ولكن كل واحد لابد له من أخ ، وقبل أن يكون له صاحبة وبنون يكون له أب وأم ، وحاجته للأم أولية ؛ لأن الإنسان عند ولادته تحتضنه أمه ، وتقوم بكل ما هو متعلق به في أوليات حياته ، ولا يتنبه إلى مهمة أبيه إلا بعد أن يكبر ، وذلك من خلال إرجاء الأم لمتطلباته المادية حتى يعود الأب ، إنما الأوليات التي كانت موجودة فهي موكولة للأم ؛ ولذلك فالحق ﷻ حين وصى قال : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾[1] ، فالوصية للاثنين معًا ، ومع ذلك فالحيثيات المذكورة إنما هي للأم ، حيث قال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ ، فهذه الحيثيات للأم ، فأين هي حيثيات الأب ؟! فأنت حين وُصيت في الاستهلال وُصيت بهما معًا ، فلماذا عند عرض الحيثيات عرضت حيثيات الأم فقط ؟! وذلك لأن حيثيات الأب ليست في حاجة إلى تذكير ؛ لأن الإنسان حين ينضج يعرف أن مرد كل أموره لأبيه ، لكنه لم يكن مدركًا لحنان أمه

---

1 – سورة : الأحقاف ، الآية : 15 .

وعطفها عليه ، فالذي لم يدركه وُجِّه إلى الحيثيات فيه ، والذي أدركه لم يوجه إليه ؛ ولعل هذا هو سبب قول الرسول ﷺ حين سأله أحد الصحابة : من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ قال : " **أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أمك** " قال : ثم من ؟ قال : " **ثم أبوك** "[1]؛ لأنه بعد أن ينضج عقل الإنسان يفهم أنه وأمه تبعًا للأب .

وإذا قيل : فلماذا يفر من أخيه ؟! نقول : لأنه من الممكن أن يختنقه أخوه لو تمكن منه ؛ فقد يكون قد أضله أو أغواه يومًا من الأيام ، أو زين له السوء ، وإما أن يكون من الناحية السلبية قد قصَّر في بعض حقوقه ، وكلا السببين يستلزم الفرار ، وكذلك الأم ، وكذلك الأب ، وكذلك الصاحبة ، وكذلك البنين ، ويفر من الأم والأب لأنه لم يبرهم كما ينبغي ، ولهم عليه حقوق ، ويفر من زوجته لأنه قد يكون أطعمها من حرام وحملها على محرم أو قبيح ، ويفر من بنيه لأنه لم يقم بحسن تربيتهم التربية المرادة ، أو قصر في حقوقهم ، فلهم عليه حقوق لم يؤدها إليهم ، وإلا لو كانوا في مناط المساعدة لما كان الفرار ، فما دام وُجد الفرار فهم في موقف مؤاخذة .

﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .. أي أن كل واحد منهم مكتفٍ بأمره ، وذاهل عما حوله ؛ ولذلك فلما قال رسول الله ﷺ : " **يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** " . قالت **عائشة رضي الله عنها** : يا رسول الله .. النساء والرجال جميعًا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟! قال ﷺ : " **يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض** "[2].

وبعد ذلك تأتي النتيجة .. ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ .. فكأن الناس قد انقسموا إلى قسمين : القسم الأول : ضاحك مستبشر ؛ لأن هذه هي أولى عتبات الغيب ، فإنه كان يحدث عن ذلك فيؤمن به إيمانًا

---

1 – أخرجه البخاري (5514) ، ومسلم (4621 ، 4622) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 – أخرجه مسلم (5102) .

غيبيًا ؛ لأن الله قاله ، وقد كان وقتها غيبًا ، واليوم أصبح مشهدًا ، فالذي وافق منهج الله وأطاع يجد ما آمن به حقًا ، وما قيل له صدقًا ، فيحمد الله أن أنقذه ، ويشكره على توفيقه له ، ويذكر إيمانه ، ويذكر ورعه ، ويذكر متاعب إيمانه فيضحك ويستبشر .

أما القسم الثاني فقد كان يقال له : هناك يوم آخر ، ينادى فيه ويحدث فيه كيت وكيت ، وكان ذلك غيبًا ، فلم يصدقه ، ولكن بمجرد حدوث أولى خطوة من خطوات الغيب وتحوله إلى مشهد تأكد أن كل ما كان يكذب به صحيح ، وأن ما فعله من أعمال سيئة سيحاسب عليها ، فماذا سيكون موقفه ؟! يحدث له انقباض نفسي ، ينطبع على وجهه ساعتها .

فالوجوه الأولى ابيضت ؛ لأنهم أيقنوا أن ما كان الله يعدهم به حق ، وأن الحياة السابقة تهون متاعبها أمام ما يقدمه الله لهم من نعيم مقيم ، وما دامت هذه أولية النعيم ، وكانت كما قال الله ﷻ ، فالذي سيأتي بعد ذلك سيكون كما قال الله ﷻ ، والوجوه الثانية على العكس من ذلك تمامًا والعياذ بالله .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ .. وبهذا التعقيب ختمت السورة الكريمة .

نسأل الله ﷻ أن يعدنا لهذا اليوم ؛ حتى نكون فيه من الضاحكين المستبشرين ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وأن يكفينا شر الشيطان ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .




تفسير جزء
عم
سورة التكوير





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

نحن الآن مع خواطرنا حول سورة (**التكوير**) ، وسورة (**التكوير**) ككل سور القرآن لها عطاؤها وإيحاؤها الخاص بها ، وإذا ما استعرضنا آيات السورة الكريمة وجدنا أنها تتعلق من ناحية الأغراض بغرض يتعلق بأهوال يوم القيامة ، وغرض آخر يتعلق بالوحي من الله ووسائله ، من رسول مصطفى من الملائكة ، وآخر من البشر ، ثم موقف الناس من ذلك الوحي ، ثم تحقيق قضية تتعلق بمشيئة الله الأعلى .

هذا من ناحية الأغراض التي تتعرض بها السورة ، وأما من ناحية الأسلوب الذي أدى هذه الأغراض .. فإن الأسلوب ينقسم فيها إلى قسمين :

القسم الأول : شرط بأداة التحقيق في الشرط ، وهي " إذا " وجواب يتبع ذلك الشرط .

القسم الثاني : قَسَم ، وجواب يتبع هذا القسم ، ولكن القَسَم جاء على طريقة الإيجاب بنفي القسم ، وبعد ذلك المقسم عليه بأحواله .

إذًا فللسورة أغراض ، وأساليب تحقق هذه الأغراض .

فإذا ما استقبلنا الغرض الأول ، وهو شرح الأهوال التي تتعلق بقيام الساعة ، فإن هذا الشرح يأتي في اثنتي عشرة صورة ، كل صورة منها مقدمة بإذا والشرط في الاثنتي عشرة ، ثم يأتي جواب واحد على كل تلك الصور ، وهو : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ..

فإذا ما استقرأت الشرط وجدت قول الله ﷻ :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. ثم عطف على الشرط في قوله ﷻ :

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ..

فالشرط معطوف عليه باثنتي عشرة صورة ، ولكن جواب الشرط في الجميع واحد .. هو : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وهنا نجد أن الشرط بصوره المتعددة الاثنتي عشرة التي تتعلق بأحداث تتعلق بعضها بالسماء ، وبعضها تتعلق بالأرض ، وأخرى تتعلق بالأنعام المستأنسة ، وأحداث تتعلق بالوحوش المتوحشة ، وأحداث تتعلق بالنفس الموءودة ، وأحداث تتعلق بالبحار ، وأحداث تتعلق بالنار ، وأحداث تتعلق بالجنة ، كل ذلك يلاحظ في ذلك الشرط أنه يصور انقلابًا هائلاً للوجود المعتاد والكون الموجود ؛ لأن ما نعلمه واعتدنا عليه أن الشمس تؤدي مهمتها ، والنجوم تؤدي مهمتها ، والبحار كذلك ، ولا نلتفت إلى غير ذلك بسبب الرتابة والتعود .

وعرفنا أن الأنعام التي ننتفع بها وتؤدي مهمتها ، وعرفنا وتعودنا أن الوحوش حينًا تنفر من بعضها ولا تتجمع وحينًا تثبت ، وعرفنا كل تلك الصور المألوفة المعتادة ، والإلف والعادة تقتضي أن الإنسان قد يغفل عن الحدث الكوني ، وأي شيء اعتدت عليه دائمًا ولا تنتبه إلى خطره إلا حين يخرج الشيء عما اعتدت وألفت ، فالإنسان منا له حواسه وله أجهزته المتعددة المعروفة باستقامتها وانسجامها وأداء مهامِّها على الوجه السليم المعافى ، فلا تكاد تشعر بجهد من أجل ذلك ، فأنت ترى بعينيك ، ولكنك لا تشعر بوجودهما دائمًا ، وتشم بأنفك ، وتتكلم بلسانك ، ولا تشعر أو تحس بها بسبب تلك الرتابة والتعود ، رغم ما تؤديه

جميعًا لك من مهام جيدة ومهمة .

فإذا ما حصل للعين آفة ، ابتدأت تنتبه إلى وجود تلك النعمة .

إذًا فلابد من أن ينتبه الإنسان دائمًا إلى وجود نعمة معتادة مألوفة ؛ لأن رتابتها جعلته يفقد الشعور بها .

فوجود الأحداث في ذات النفس ضروري لينبه الإنسان إلى قيمة تلك الحواس فيه ، ولذلك تجد غالبًا أن أقرب الناس إلى الله هم أصحاب الابتلاء والآفات ؛ لأنه يشعر دائمًا بقيمة هذا العضو ، وما أصابه من عطب ، فيذكر نعمة الله ﷻ ، ويتذكر الله حين يتذكر نعمة الله فيه ، وحين لا يجد العلاجات يلجأ إلى الله وحده .

وإذا نظرت إلى " كلمة التوجع " التي يقولها الإنسان حين يتألم ، كلمة : " آه " ، تشعر أنها مختزل لكلمة : " الله " ، وكأن معناها أنه يفزع إلى من خلقه وكوّنه وحده ، وهو الذي وهبه تلك النعم ، وهو وحده الذي يستطيع أن يحفظ له إياها .

تلك الأحداث في الكون ترينا أن الإنسان يفقد الإحساس بالنعمة عندما تكون رتيبة ولا تتغير ، فيظل الناس ينعمون بما تعطي الأمطار من خير ، ولكنهم لا يشعرون بقيمة هذه الأمطار إلا إذا انقطعت عنهم فترة ، وحين تنعدم الأمطار لا يلتفت الناس إلى انعدامها إلا حين يرون آثار منع المطر ، فلا يجدون زرعًا ولا عُشبًا ، وبامتداد الأثر المباشر لهم في أن انعدمت حاجاتهم فيرجعون إلى الله ويدعون .

إذًا فرتابة النعمة هي التي تُفقد الإنسان الشعور بها ، وهي التي تصيب الإنسان في نفسه أو فيما يحيط به مما ينفعه قيمة مذكرة بالخالق المنعم .

هذه القيمة المذكرة بالخالق المنعم تعطينا فكرة عن أن الوجود في نظامه العام قد تلحظ فيه بعض الشذوذ ، أو الخروج عن المألوف ، مما يعرفك أن هذا الوجود ليس آليًا .

فالمكونات الفردية للأجناس العامة تنبهك أن وراء الناموس الذي أراده الله يوجد ناموس

أكبر وأقوى .

فمثلا .. يشــذ العقــل الإلكتروني فيقــال : هو لا يُخطئ ، لماذا ؟! لأنه ليس له اختيار ، فكيفما تعده وتبرمجه فإنه لا يخطئ فيما بــرمجته فيه ، لكن العقــل العادي للإنســان قــد يخطئ ، وهذه مزية فيه ، حـيث يسـتطيع أن يفتي في مسـألة ، يسـتطيع أن يجرب ، فهذا دليل على قدرته ؛ لأنه لو كان لا يخطئ أبدًا ، ولو لم يكن مخيرًا ، ولا يستطيع أن يخالف ، لكان آلة جافة جامدة .

إذًا فمخالفته للطبيعة دليل كونيته ودليل حياته .

وكذلك نواميس الوجود .. لو كانت أموره رتيبـة في الكون كنا نقــول : إن هذا الكون يعيش بـصفة القـيومية لله ، وأن الله يطلق القــانون في كونه ، وهو من فوق القــانون قــد يعطل ذلك القانون ، ولكن تأتي هذه الشواذ ، فإذا نظرنا فيها ، وأخذنا منها العبرة وجدنا أن وراء الكون ونواميس الوجود قوة ، إن شاءت جعلتها تؤدي نتائجها ، وإن شاءت عطلتها .

هذه النواميس ، وذلك التعطيل لها يعطينا فوائد ، أولها الفائدة العقــدية ، وهي تثبــيت إيمان المؤمنين ، ولفت انتبــاه الكافرين إلى قــدرة الله ﷻ ، وبــعد ذلك لها فائدة أنها تلفت الإنسان إلى النعمة .

وقد يسأل سائل فيقول: وما ذنب هؤلاء في أن يكونوا وسيلة إيضاح لغيرهم ؟! فنقول له : هو جعلهم وسيلة إيضاح ، ولكنه عوّض أمام ما أفقده ؛ فتجد كل من أصيب بإعاقة في ناحـية من النواحــي قـد أعطي شـيئًا من المواهب التي تعوضه عن هذه الآفة ؛ ولذلك سمعنا قـديمًا في لغة الناس : " **كل ذي عاهة جبار** " ، وربما كان النقـص في التكوين في ناحـية من النواحــي سببًا من أسباب إيجاد موهبة من نوع آخر .

فمثلا قـد نجد اعتراضًا من الناس الذين لا دين لهم فيقـولون : إن الإنســان أصله حـيوان ، وإن هذا الإنسـان قـد تميز بــفكره عن الجنس الذي سبقــه أي : الحيوان ، فلماذا خلق الله



مخلوقًا على صورة إنسان ، ثم بعد ذلك يسلب منه ما يميز هذا الإنسان وهو العقل ؟!

والجواب: لأن هذا العقل الذي هو أداة الإصلاح غالبًا ، يكون كذلك أحيانًا أداة إفساد ، فكما أن العقل يوجه الإنسان إلى الخير ، فإنه قد يمنعه عن الخير .

فإذا سلبه العقل ، وأعطاه شيئًا من صفاته فلا يُسأل عما يفعل ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

فرتابة الأشياء ، واعتياد الإنسان لها هو الذي يفقده الإحساس بها ، فإذا ما فقدها فإنه يشعر بها ، فالكون أمامنا رتيب مستقر ، فكيف نلتفت إلى أن وراء هذا الكون قوة أخرى إلا إذا وجدنا أن ذلك الكون قد خرج عن المألوف ، فيحدث في منطقة من المناطق زلزال مثلاً ، في حين أننا لا نستطيع أن نسجل الزلزال إلا بعد أن يقع ، بل إن بعض الحيوانات قد تتنبه قبل الإنسان إلى حدوث الزلازل ، وهذا الزلزال لم يحدث بقدرة الإنسان ولا غيره من المخلوقات ، بل بقدرة الله ﷻ .

فكل شيء لا يستطيع البشر أن يعرفوه دليلٌ على أن وراء الكون قوة أخرى ؛ ولذلك فعندما يظن الإنسان أنه يستطيع أن يتحكم في شيء من الكون تأتيه الأحداث لتخرج ذلك الكون عن المألوف ، حتى تلفت أنظارنا إلى الحق ﷻ .

فالسورة تصور لنا هذه الأشياء التي قد فتن الناس بها وبثباتها ودوامها واستقرارها واستمرارها وأداء مهمتها ، فيأتي عليها يوم تتغير وتتبدل ؛ لأنها مخلوقة يطرأ عليها التغيير ممن خلقها ﷻ .

فالمقطع الأول من السورة يحدثنا عن انقلاب هائل في الكون ، يجعل الإنسان يؤمن بأن هذا الكون متغير ، وما دام متغيرًا فهو مخلوق ، فلا دوام ولا استقرار له .

فيكون من النصاحة والوعي والعقل أن لا تتمسك بما يتغير ، وبما لا دوام له ولا استقرار ، بل يكون تعلقك بمن له الدوام والاستمرار ﷻ .

إذًا .. فمقدمة السورة تنبهنا إلى أن الأعمال التي يزاولها الإنسان غايات تدفع إلى وسائل ،



والإنسان لا يُقبل على الوسائل بهمة ونشاط وإقبال إلا أن تتضخم في نفسه الغاية ، فربنا سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن الذي غايته هي الكون فستصير هذه الغاية إلى زوال ، وتلك الرتابة الموجودة في الكون ، وذلك المألوف كله سيتغير ، فوجب أن تقترن كل حركاتك بمن لا يتغير ، وهو الحق ﷻ .

ولنا هنا أن نتساءل تساؤلا هاما : لماذا يستهل الله ﷻ السورة بالغاية ؟! **والجواب** : لكي يُعرِّف الغاية بهذا الهول ، وبهذا الاضطراب ، وبهذا الفزع ، وأن كل ما تظنه أمامك رتيبًا وثابتًا ومستقرًّا سيزول .

خلق المتغير ، وهو الذي لا يتغير ﷻ ، وهذا يدفعك إلى التساؤل : إن الذي يغير هذه الأشياء عن رتابتها وعن نظامها .. ماذا يريد مني ؟!

فتكون الغاية قد اتضحت أمامك ، فتطلب الوسيلة عندئذ ، فتقديم الغاية والإشعار بها عن الوسيلة مراد ليوجهك إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وما دمت توجهت إلى الوسيلة بحرارة وشوق ، وأنها هي المنفذ الوحيد لإنقاذك من ذلك الهول ، وتلك الثورة في الوجود ، فيجب أن تقبل على تلك الوسيلة ، التي هي المنهج الإلهي .. منهج ربك ﷻ .

وكيف وصل إليك هذا المنهج ؟ لقد وصل إليك بواسطة الوحي ، الوحي من الله ﷻ لرسوله من الملائكة عليه السلام ، ثم إلى رسوله من البشر ﷺ ، ليبلغه إلى الخلق ، فبعد أن ضخَّم لنا الغاية أعطانا الوسيلة .

ثم بعد ذلك تكلم عن قضيتين اثنتين متعارضتين ، ولكنهما في الواقع متفقتان ، وهما : **مشيئة العبد المختار فيما يختار ، ومشيئة المكوِّن له ﷻ** فيختم السورة بقوله ﷻ : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤

نعود للحديث عن الشرط وجزئياته ، فالشرط يتكون عادة من مقدمة تأتي أولاً ، ثم نأتي لها بالجواب ، فإذا وُجد الشرط وُجد جواب الشرط ، نعم وجود الجواب متعلق بوجود الشرط ، لكن إذا لاحظت التحقق وجدت أن الشرط نابع من الجواب ، كأن تقول لولدك : إن تذاكر تنجح ، أي لما تذاكر ستنجح ، لكنه لكي يذاكر يجب أن تتضخم مسألة النجاح في نفسه ، فيعرف لها متصورات ، ويعرف لها تبعات ، ويعرف لها ثمارًا .

إذًا فوجود الشرط في الذهن أولاً هو الذي يدفعك إلى إيجاد الجواب في الواقع ، أي أنه هو الذي يدفعك إلى أن تُقبل على الشرط لتحقق الجواب واقعًا ، فكأن الشرط واقع بين جوابين : جواب دافع ، وجواب واقع ، فالنجاح هو الذي يدفع التلميذ إلى أن يذاكر ، ثم بعد أن يذاكر بالفعل يتحقق له ذلك النجاح واقعًا .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ .. الصور موجودة : تكوير الشمس .. انفجار النجوم .. تسجر البحار .. تعطيل العشار .. سؤال الموءودة .. قرب الجنة .. وغير ذلك ، كل هذه المسائل تصويرية فقط لتقريب الصورة .



فنحن لا نستطيع أن نتصور أي شيء من الأشياء التي تغيب عنا إلا على ضوء ما نحسه .

فعندما يقول ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. فإن ذلك التعبير ليس فيه ما يدل على أن هذه الصورة ستحدث بالضبط ، وإنما هو يقرب لك الصورة تقريبًا يستوعبه الفهم من تصورات تكويرها ، وماذا يعني بمكورة ؟! فهي في واقعها مكورة .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ .. وقد يقول قائل : هي بالفعل مكورة ، فكيف ستكور يومئذٍ ؟!

نقول له : هل يصلك التكوير ، أم أثر ذلك التكوير وما ينبعث منه من أشعة ؟ ولكن عندما تحجب أشعتها فلن تراها ، إذًا فأشعة الشمس منبسطة في الوجود ، ولكن هذه الأشعة ستنقبض يومًا ما ، ولن تراها .

إذًا فهناك شيء تأتي مهمته بالبسط ، فإذا انتهت مهمته جمعته وطويته ، وآخر تأتي مهمته بالطي ، فإذا انتهت مهمته بسط .

فالمعنى في الآية أن الشمس انتهت مهمتها في ذلك الوجود ؛ ولذلك طويت أشعتها .

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ .. ومعنى الانكدار : هو الانصباب ، فالنجوم موجودة ، ومهمتها تتأتى وهي في وجودها ، فإذا ما هوت انتهت مهمتها .

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ .. تلك الجبال الثابتة الراسية التي تتحكم في استقرار الأرض فلا يحدث فيها اضطراب أو اهتزاز ، تلك الجبال ستزول أيضًا هي الأخرى ، حتى كأنها سراب ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[1] .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ .. وهنا نجد أن القرآن يأتي بكل الاستعمالات اللغوية ، وهو يستعمل أنسب معنى لغوي يؤدي هذا المفهوم .

العشار : هي النياق الحوامل ، ومفردها : عُشَراء ، والعشراء هي التي مر على حملها عشرة أشهر ، أي قاربت أن تلد ، فبعد أن كانت واحدة ستصبح اثنتين ، ثم بعد ذلك يأتي

1 – سورة : النبأ ، الآية : 20 .

منها اللبن ، وأهم شيء عند البدوي أن تأتيه الناقة باللبن الذي يكون منه غذاؤه ، وتلك هي أمتع أموال العرب .. العشار .

فهذه العشار لا يصبح لها قيمة يوم القيامة ، رغم قيمتها بالنسبة لذلك العربي .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : " حشرت " أي : جمعت ، والوحوش هي الأنعام غير المستأنسة ، وهي لا تقبل أي مخلوق أن يجتمع مع ذوات جنسها .

وهذه الوحوش رغم توحشها وخطرها إلا أن الله ﷻ ذللها ، وجعل لها ما تُقاد به ، فالحق ﷻ هو الذي خلقها ، وهو الذي ذللها ، بدليل أنه ترك بعض الحيوانات الضعيفة عن تلك التي استأنستها ، وأنت لا تستطيع أن تستأنسها ، وهذا هو الامتنان الذي امتن الله به على عباده في قوله ﷻ : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ﴾[1] .

وهو يلفتنا إلى أن القوة التي ذللت هي الأكبر ، والتي لم تذلل هي الأقل .. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[2] .

والتعبير بكلمة : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ يشعرنا أنها في طبيعة تكوينها لم تكن محشورة ، فالوحوش لا تجتمع بجميع أنواعها واختلاف أجناسها ؛ لأنها نافرة من بعضها ، وكذلك نحن ننفر ونخاف منها ، وهي دائما تهاجم فرائسها ، وتخاف بعضها البعض ؛ لأنها – مع أنها متوحشة – إلا أن هناك وحش يفترس آخر ، وهذا يفترس ذاك ، وهكذا ، فيخاف أحدهم من الآخر ، وكل وحش له وسيلة الدفاع التي يدافع بها عن نفسه ، فإذا صادف القويُّ الضعيفَ افترسه .

هذه الوحوش التي هذه هي صفاتها .. نجدها في ذلك اليوم قد جُمعت كلها ، بل ومذهولة أيضًا ، فكأن الهول والفزع الذي سيصيب الكون سيعم الجميع ، حتى تلك الوحوش

---

1 – سورة : يس ، الآية : 72 .

2 – سورة : يس ، الآية : 71 .

المتوحشة النافرة .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ .. بمعنى : **اتقــدت ، وصارت نارًا** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **امتلأت** ، و ﴿ سُجِّرَتْ ﴾ بمعنى : **حُفظت من أن تهيج وتضطرب** ، ثلاثة معانٍ في اللغة ، فأي معنى من هذه المعاني يقصده الحق ﷻ ؟!

إن إطلاق اللفظ يشتمل على كل هذه المعاني ، وهذا يعطينا الفائدة ، وهي زوايا متعددة من المعاني .

فستكون البحار كلها نارًا ، فهو يقرب لنا الصورة ، وسجرت التنور أي : ملأته بالحطب ، وسجرت بمعنى : منعت من أن تضطرب وتهيج ، فيكون أي معنى من هذه المعاني يمكن أن يذهب إليه الذهن ، والمراد أنها ستخرج عما ألفتم واعتدتم إلى أمر لم تعتادوه ولم تألفوه ، أمر مهول مفزع ، وهذا هو المعنى النهائي المراد .

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ..

ما هي النفس ؟ النفس : هي كلمة لم يستطع الفلاسفة من قديم أن يحددوا معناها ، فتخبطوا فيها ، فمرة يقولون : هي الروح ، ومرة يقولون كلامًا آخر بعيدًا عن معناها ، فلم يستطع أن يأتي بتحديد لها إلا القرآن .

فكلمة **نفس** تطلق على امتزاج الروح بالمادة ، فقبل أن يمتزج عنصر الروح بالمادة لا يكون هناك نفس ، فالروح وحدها لا تكون نفسًا والمادة وحدها لا تكون نفسًا ؛ ولذلك فإن الحق ﷻ حين أراد أن يعبر عن سلب الحياة عن أي إنسان قال : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾[1] ، ومعنى : " **يتوفاها** " أي : يفصل روحها عن جسدها ، ومن هنا نفهم معنى الأنفس ، فمدلول النفس : هو امتزاج الروح والجسد معًا .

فما دام هذا هو مدلول النفس ، فكيف يقال : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ ؟! يقول بعض العلماء : إن

1 - سورة : الزمر ، الآية : 42 .

معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : التقت الروح بالجسد يوم القيامة مرة أخرى ، بعد أن كانا قد افترقا في الدنيا ، فجمع الشيء إلى الشيء يسمى تزويجًا ، زوج المادة بالروح فعادت إليها مرة أخرى .

وهناك معنى آخر لقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ .. أي : أن خلق الله أصبحوا أزواجًا ، أي : أصنافًا ، فالمتقون في الدرجة الأولى وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثانية وحدهم ، والمتقون في الدرجة الثالثة وحدهم ، وأهل الشمال وحدهم كلٌّ في درجة .. وهكذا .

وهذا هو ما جاء في **سورة الواقعة** ، حيث قال الله ﷻ : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ أي : أصنافًا ثلاثة .. ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ .. ثم بعد ذلك : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾[1] .

فـ : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ يعني وُزعت أصنافًا ، أو أنها في ساعة الحشر تأتي كل فرقة بإمامها ، كما قال الله ﷻ : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾[2] .

وقد يكون معنى : ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بعملها ، فهناك أشياء كثيرة تصير إلى الفناء والزوال ، وهناك أشياء قليلة تدوم ببعض الدوام ، ومعنى ذلك أن هذه الأشياء التي تزول تفارقني لأني أفارقها ، أما تلك التي تدوم فهي لا تفارقني ولا أفارقها ، فاقتراني بعملي في الدنيا ليس طبيعيًّا ، والإنسان قد يعمل العمل في الدنيا ويظن أنه قد انتهى ، أي : يذنب ذنبًا ويظن أن هذا الذنب قد انتهى وفارقه بعد أن فعله ، أو يعمل خيرًا ويظن أن ذلك الخير قد انتهى .

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 7 - 14 .

2 - سورة : الإسراء ، الآية : 71 .

فـ ﴿ زُوِّجَتْ ﴾ أي : قرنت بأعمالها ، فالذي كنت تهرب منه ، أو كنت قد نسيته ستجده أمامك .

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهل تُسأل الموءودة ؟! أم أن وائدها هو الذي يُسأل ؟! تلك هي عظمة القرآن في العطاء اللغوي .

﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .. وهذا التعبير الرائع بأن وأد البنات عملية فظيعة جدًّا ؛ لأنها اعتداء على جزء منك كنت أنت سببًا في إيجاده ، ومن مثله أنت وُجدت ، ومن مثله تطلب الكون نظامه ، والدليل على قسوة القلب وقسوة العاطفة ، أن السبب في مجيئها هو نفسه السبب في ذهابها .

أنت أقدمت على هذه العملية إقدامًا يخالف منطق العقل والوجدان وكل منطق ، فلابد أن يكون هناك سبب قد دعاك إلى تلك الفعلة المشينة .

فالله ﷻ يسأل تلك الموءودة : ماذا فعلتِ لكي يقتلك أبوك وأنت في هذا السن ؟! فهذا السؤال وإن كان موجهًا إلى الموءودة إلا أنه تقريع للأب ، كما يسأل الله ﷻ يوم القيامة عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولكن يكون هذا السؤال موجهًا إلى أولئك الذين ادعوا في عيسى أنه إله أو ابن إله ، فيقول له : ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[1] .

فكأن قوله ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أي : أخبريني أي ذنب فعلتِه حتى يئدك أبوك ، فكأن هذا تقريع للأب ، بأنه ما كان يصح أن يعتدي عليها أبدًا إلا إذا كانت قد ارتكبت ذنبًا ، وحيث لا ذنب ، فمعنى ذلك أنك قد افتريت عليها بدون ذنب تستحقه ، فهذا تقريع على أعنف صور التقريع .

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ .. ومعنى : ﴿ نُشِرَتْ ﴾ أنها كانت مطوية ، وهذا النشر له

1 - سورة : المائدة ، الآية : 116 .

صُوَر ، لقد نشرت الصحف ليأخذ كل واحد صحيفته ، كأن صور الأعمال في الأرشيف ، ثم تأتي الريح وتبعثر ذلك الورق ، فتذهب كل صحفية إلى صاحبها لا تخطئه .. ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[1] .

ولذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] .

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ .. حتى تلك السماء التي لا نعرف عنها إلا أنها شيء نراه فوقنا فحسب ، تلك السماء سوف نجدها غير موجودة ، وهذا أمر مفزع جدًّا ، فالشمس والنجوم والبحار والسماء .. كلها ستتغير وتتبدل .

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ ..

إذًا فتحدث أولاً عملية هول تفزع الناس جميعًا ، ثم بعد ذلك ينتهي الهول في الصورة بأن ترى الناس عيانًا بيانًا ويقينًا أمام أعينها ، وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[3] .. شاهده كان خبرًا سمعته ، فكان علم يقين ، فصار الآن عندك عين يقين .

فبعد أن كان صورة ذهنية ، وهي علم اليقين ، أصبحت صورة حسية تراها بعينك ، وهي عين اليقين ، ثم الصورة الثالثة والأخيرة ، والتي ليس فيها جدال ، وهي حق اليقين .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 14 .

2 - سورة : الكهف ، الآية : 49 .

3 - سورة : التكاثر ، الآية : 1 - 7 .

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾[1].

ففي قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. كان القياس اللغوي يقتضي أن يكون الجواب هو : " علمت نفس ما أحضر لها " ، إنما قال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ ، وكأن النفس هي التي أحضرت ، فهي لم يُحضر لها شيء ، وإنما هي التي فعلت ، ولو لم تفعل لما أحضرت ، فكأن هذه النفس هي أساس عملية الإحضار .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾

تنتقل السورة بعد ذلك إلى الغرض الثاني ، وذلك بعد تضخيم الغاية بهذا التضخيم والتخويف ، ذلك الغرض هو أن لا تغتروا بثبات هذا الوجود أمامكم ، ولا برتابة هذه الموجودات ، فسوف يأتي عليها يوم لا تكون شيئًا ، وسيحدث ثورة في الكون ، وانقلاب في الوجود ، وفي كل شيء ألفتموه .

1 - سورة : الواقعة ، الآية : 86 - 95 .

فبذلك يكون قد ضخم لنا تلك الغاية ، ونبهنا إلى أن نستعد لهذه الغاية بالوسيلة المناسبة .

فما هي تلك الوسيلة ؟!

إنها منهج الله ﷻ .

وهذا المنهج العظيم .. كيف وصل إلينا ؟!

لقد وصل إلينا عن طريق الوحي .

وما هي مراحل ذلك الوحي ودرجاته ؟!

إنها عبارة عن مصطفى من الملائكة يأخذ من الله ليعطي مصطفى من البشر ، وهذا المصطفى من البشر يبلغنا بمراد الله ﷻ منا ، إذن فكان ولابد أن يعالج الأمر بتلك الصورة .

هذه هي القضية باختصار ..

فإذا أردنا أن نتكلم عن تلك الوسيلة بشيء من التفصيل فنقول : **الوسيلة** : هي أن يتبع الإنسان منهج الله ، ومنهج الله لا يمكن للعقل أن يبتكره ، فقصارى ما يفهمه العقل من قضية العقيدة هو أن يؤمن بوجود قوة عُليا وراء ذلك الكون ، أما اسم تلك القوة فالعقل لا يعرفها ، وكذلك مطلوبات هذه القوة لا يعرفها العقل ، والغاية التي تنشأ من مخالفتها كذلك لا يعرفها ، والغاية التي تنشأ من طاعتها لا يعرفها العقل أيضًا .

فمنتهى قدرات العقل هي أن يؤمن إيمان القمة بوجود قوة وراء ذلك الكون ، وهذه القوة هي التي تعبر عن نفسها ، فتقول : اسمي كذا ، ومطلوبي كذا ، ومن أطاعني فله كذا ، ومن عصاني فعليه كذا ، فلابد إذًا أن يوجد تبليغ .

فحتى ينجح المنهج أو الوسيلة في تلك الغاية فلابد أن يكون صادرًا عن الحق ﷻ ، فنجد أن الحق ﷻ يوثق لنا المنهج الذي ينظم حركة حياتنا .

فإن كنت قد آمنت بوجود الله ﷻ ، وبأن الله ﷻ هو الذي صنعك وخلقك ، وهو الذي سيضع لك قانون صيانتك ؛ لتكون صائرًا إلى غاية تحبها وتحمدها ، فلابد من أن تأخذ ذلك

المنهج من الله ﷻ ، وهذا أمر مفروغ منه ، فهذا المنهج لابد من أن يكون من الله ﷻ .

إذًا فما هي الآفات التي قد تطرأ على هذا المنهج ؟!..

من أخطر ما يطرأ من آفات على ذلك المنهج هو أن يقـــنن الخلق للخلق ، فالخلق جميعًا متساوون في كل شيء ، فما الذي يجعل واحدًا من الخلق أهلاً لأن يقنن لبقية الخلق ؟!

فالذي يقنن لحركة شـــيء يجب أن تتوافر فيه خصال ، وهي : أن يكون عالمًا بـــها ، وأن يكون حـكيمًا ، وأن يكون لا هوى له ولا منفعة فيما يقنن ، وإلا فإن أي إنســان من البشـر إذا قنّن فلابد أن يكون له هوى في نفسه يسبق تقنيناته بما يجعلها مجنحة إلى صالحه ، وهذا أمر لا يتأتى في الحق ﷻ .

فكيف وصل إلينا إذًا هذا المنهج من الحق ﷻ ؟!..

إن الحق ﷻ لن يخاطب كل فرد خطابًا مفردًا خاصًّا بـه ؛ لذلك فإن الخبر يجب أن يأتينا منه بواسطة ، هذه الواسطة هي التي تقوم بـعمليات التوالي التي تعطي من الأقـوى إلى القـوي إلى الأقـل قـوة ، فوسـائل المنهج من الله هي رسـول مصطفى من البشـر ، يتلقـى عن رســول مصطفى من الملائكة ، كما قـال ﷻ : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] .. أي : قـمة مصطفاة من البشـر تتلقـى عن قـمة مصطفاة من الملائكة ، وهذه القـمة المصطفاة من الملائكة تتلقى عن الحق ﷻ .

فالحق يريد أن يقول : إن المنهج الذي يحقق لك الغاية التي تقدمت في أول السورة ، وسبق الكلام عنها لا يتأتى إلا بـــذلك المنهج ، من المنهج تطمئن إلى منهج دينك ، وتطمئن إلى منهج إسلامك ؛ لأن مبلغه مصطفى من الملائكة وصفته كذا وكذا ، إلى مصطفى من البشـر وصفته كذا وكذا ، وهذا المصطفى من البشـر نعرفه ، ونعرف طفولته ، ونعرف طبـــاعه وصفاته ، ونعرف حـياته كلها ؛ فلذلك لم يطنب الحق ﷻ في بـيان صفته ﷺ ، فقـال ﷻ : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ

1 - سورة : الحج ، الآية : 75 .

بِمَجْنُونٍ ﴾ ، وكلمة : " صاحبكم " أي : من تعرفونه جيدًا من قبل أن يؤدي هذا المنهج إليكم ، عرفتموه أمينًا ، عرفتموه حكيمًا ، عرفتموه عاقلاً ، أي : لم آت إليكم برسول من جهة أخرى بعيدة عنكم ، بل هو منكم ؛ وهذا هو معنى قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

ولكن جبريل عليه السلام المصطفى من الملائكة غائب عنا ؛ فلذلك أطنب الحق ﷻ في وصف ذلك المصطفى من الملائكة .

فإن آفة المناهج التي سبقت الإسلام أنها فسدت بالتناولات ، فسدت من جهة المبلغين عن هؤلاء الرسل المصطفين من الله ﷻ ، فحرَّفوا ، ولووا ألسنتهم ، وكتموا ، وزادوا ، وفعلوا كل شيء ، فالله ﷻ يريد أن يبين أن منهج الإسلام مخالف لكل هذه المناهج قبلنا ، فهو منهج موثق تمام التوثيق ، فصاحبكم محمد ﷺ أنتم تعرفونه جيدًا ، وخبرتموه :

لَقَّبتُموه أمينَ القَومِ في صِغَرٍ وَما الأَمينُ عَلى قَولٍ بِمُتَّهَمِ

خاصة وأنكم حتى بعد ما أخبركم بهذه الرسالة ، وكان بعضكم لا يزال كافرًا ، فكان لا يأتمن على ودائعه النفيسة إلا هذا الرجل ﷺ ، أليست هذه شهادة منكم لأمانته ؟!

وأما الذي لا تعرفونه وهو جبريل عليه السلام فوقَّر بحيثيات ، هذا هو الغرض ، فالغرض هو الوسيلة للغاية ، والوسيلة للغاية إنما هو المنهج ، والمنهج يحتاج إلى نقل ، والنقل يحتاج إلى مصطفى من البشر ، ومصطفى من الملائكة .

فتكلم الحق ﷻ عن هذا الغرض في القسم الثاني من السورة ، وعالجه بأسلوب القسم ، فعالج الغرض الأول بأسلوب الشرط والجواب ، وهذا عالجه بأسلوب القسم ؛ لأن القسم هو غاية البرهان .

فيقول الحق ﷻ : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ *

1 - سورة : التوبة ، الآية : 128 .

وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ على أي شيء يقسم ؟! ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا هو ما يتعلق بالمصطفى من الملائكة ، وهو جبريل عليه السلام ، ذلك الغائب عنا ، ثم عن النبي ﷺ يقول : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ ثم يثبت الالتقاء بين المصطفى من البشر وبين المصطفى من الملائكة ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ، ثم يسد عليهم جميع الأبواب : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ .. كل المنافذ مغلقة عليكم .. ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ ، فلا مذهب إلا أن نلتقي بذلك المنهج ، بواسطة ذلك الرسول .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ .. وجاء القسم هنا على طريقة النفي ، وظاهر هذا القسم أنه لم يقسم ، ولكنه لو لم يكن قد أقسم لما أتى بجواب للقسم ، ولكنه أتى بالجواب فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ .. فهذا هو جواب القسم ، فكيف يكون جواب قسم مع قوله ﷻ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ﴾ ؟!

لابد أن نعلم أن القسم بكلمة : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ﴾ آكد من قسم الإثبات ؛ لأنك حين تقسم بشيء على شيء فقد يكون عند المخاطب شبهة شك ؛ لأنك تؤكد له بالقسم ، والاعتراف بالشك يجعلك تؤكد ، لكن الحق ﷻ يريد أن يقول : إذا كان من يقسم على شيء يقسم لوجود شبهة فيه ، فهذا أمر لا يصح أن نقسم عليه ؛ لأنه من الوضوح بحيث لا يصح أن يتأتى فيه شك .

ومثل ذلك كمثل المريض يذهب للطبيب ، فالطبيب الذي يريد أن يؤكد له أنه بكامل صحته هل يصف له الدواء ؟! أم يقول له : أنت لا تستحق أن أكتب لك دواءً ، ومعنى أنه لا يستحق أن يكتب له دواء هو إزاحة ما بنفسه من شبهة المرض ، ولكن إذا كتب له دواء حتى وإن كان قليلاً يكون قد أكد على ما في نفسه من شبهة المرض ، فهذا آكد له أنه في منتهى الصحة .



وكذلك الحق ﷻ حين يقول : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ ، بدليل أنه ذكر المقسم بـه ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ ، أي : لو كنت مقسمًا لأقسمت : ﴿ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

إذًا فالقسم مؤداه كله أن يثبت صدق التبليغ عن الله ﷻ ، وأمانة الوسائط التي توسطت بيننا وبين الله ﷻ في نقل ذلك العهد ، وهو المصطفى من الملائكة والمصطفى من البشر ، وتقوم العلاقة بين تنسيق هذا الطريق إلينا وبين القَسَم .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ .. **والخنس** : هي الكواكب أو النجوم ، تطلع من أماكنها في أبراجها ، فتطلع من الأول ثم ترجع إلى الآخر ، ثم تعود إلى أبراجها ، فمعنى : (**خنس**) أي : خرج ورجع .

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ .. **والكنس** : مأخوذة من : **كناس الظبي** وهو مأوى الظبي .

فلو أننا استطعنا أن نعرف أن أوقات رؤيتنا لهذه الكواكب والنجوم التي يقسم ربنا علينا بها ليست مستمرة ، نعم وجودها مستمر ، ولكن أوقات رؤيتنا لها ليست مستمرة ، فمثلاً لما تطلع الشمس لا نرى النجوم أبدًا ، لكن لما تغيب الشمس نستطيع رؤية تلك النجوم ، ونستطيع أن نرصدها .

إذن فسبب عدم ظهور النجوم في النهار هو وجود ضوء أقوى من ضوئها ، ذلك الضوء الأقوى جعل أعيننا لا تستطيع أن ترى تلك النجوم ، كما قيل : " **ومن شدة الوضوح الخفاء** " ، وكما قيل : " **بضدها تتميز الأشياء** " .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ ..

إن الرسالات التي سبقت الإسلام ظهرت جميعها ثم اختفت ، ولما اختفت وانطمست معالمها طمَّت الجهالة في الدنيا كلها ، فكأن الليل قد أصبح ثابتًا ؛ لذلك كان لابد من نهار يأتي ليذهب بهذا الليل .

وكلمة : ﴿ عَسْعَسَ ﴾ في اللغة كلمة معبرة؛لأنها تتكون من مقطعين،هما : " عس عس " العين والسين والعين والسين ، ومعني : "عس" أي : سار في الظلام ، ومنه : " العســس" أي : الذي يعس في الظلام ، ليس ماشــيًا على هدى ، فهو يمد يديه كي يتعرف بــها على الأشياء .

ونلاحـظ أنه لم يقـل : " والليل إذا عس فيه الناس " ، بـل نسـب العس إلى الليل نفسـه ، فالليل نفســه يعس ، فكأنه لا اهتداء له ، فنســب العس إلى الظرف ، فإذا كان الليل في ذاته – وهو الزمن – هو الذي يعس ، فكيف يكون حـــال الإنســـان الذي يعيش فيه ؟! وهذه من بلاغة القرآن ، فعندما نعطي الشيء صفة منتهى الخفاء ، فهي للملتصق به أشد وأقوى .

فما دام الليل هو الذي يعسعس ، فيكون الذي فيه أشد عسعسة منه ، وذلك كما يقول الحق ﷻ ضاربًا مثلاً للظلمة : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[1] ، فيـده الـتي يعـرف مكانها جيدًا لا يراها ، فما بالك بالشيء الذي لا يعلم موقعه جيدًا ، فأتى بأشد شـيء التصاقًا بالنفس ، ومع ذلك لا يراها .

فيقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ ثم يقول : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ .. وكأن الصبح من وطأة ظلمة الليل قد أُرهق بالظلمة ، ثم أخذ يتنفس ، كأنه كانت مخمودة أنفاسه .

وكذلك يعطينا هذا التعبير الحيوي معنى أن النهار وإشراق الضوء يمنحــنا الهواء النقــي للتنفس ، فبالليل يخرج ثاني أكسـيد الكربـون من الأشـجار والخضروات ، ثم بالصبح تنتج النباتات كلها الأكسجين الصالح الذي يجعل الناس تستطيع التنفس ، فالكون بالصبح ابـتدأ يتنفس .

وكأن ذلك رمز للرسالات التي كانت موجودة ثم ذهبـت ، ثم طمَّ الظلام بـعدها ، فكان هذا

1 – سورة : النور، الآية : 40 .

الظلام يحتاج أن يخرج الله صبحًا .. صبح هداية ، وصبح خير ببعث النبي ﷺ بالإسلام ، فكأن منهج النبي ﷺ هو متنفس الصبح للبشرية .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. لم يبدأ بالكلام عن ذات الحق ﷻ هنا ؛ لأن مسألة الحق قضية منتهية ، كأنها أصل فطري ، فإن نشأ خلاف فيجب ألا يكون في القمة ، فالخلاف الذي قد ينشأ فيكون في الوسائط التي تبلِّغ عن الله ﷻ فقط ، أما الله ﷻ فحقيقة فطرية لا يمكن للعقل أن يتوقف فيها ، وأما ما قد يتوقف فيه في الدين فهي تلك الوسائط التي يصلنا بها هذا المنهج .

فتكلم عن الوسيط الأول فقال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .. أي المنهج الذي نزل به القرآن ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، مع أنه قول الله ﷻ ، فمرة ينسبه إلى جبريل عليه السلام ، كما جاء هنا في قوله : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ، ومرة أخرى ينسبه إلى النبي ﷺ ، كما قال : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [1] ، فالحدث الواحد إذا كان يمر بمراحل متعددة ، فينسب مرة إلى المصدر الأصيل منكم ، ومرة ينسب إلى الواسطة الأولى ، ومرة ينسب إلى الله ﷻ .

إذن فكلمة : ﴿ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ توحي بأن الرسول هو الواسطة في التبليغ بين مرسِل ومرسَل إليه ، فالمرسل إليه لا رأي له في الرسول الذي يبلغ ، إنما الرأي لمن جاء منه ذلك البلاغ ، فما دام هو رسوله فيجب أن يكون باختياره هو ، كما قد قال الله ﷻ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] ، فيكفيكم أن تعلموا أنه ﷺ رسول من عند الله ﷻ ، وما دام رسولاً من عند الله ﷻ فالله يعلم حيث يجعل رسالته ، فهو ﷺ مختار مصنوع على عينه .

ثم وصفه بأنه كريم ، وذلك لأن الكرم عندنا في التصوير البشري : مَلَكة في النفس يصدر

---

1 – سورة : الحاقة ، الآية : 40 ، 41 .

2 – سورة : الأنعام ، الآية : 124 .

عنها السخاء ، والسخاء فوق المطلوب ، فلا يقال لمن يؤدي حق الله في ماله : إنه كريم ، ولكن يقال له : هو مؤدٍ لركن من أركان الإسلام، إنما الذي يؤدي فوق ما طُلب منه فهذا هو الكريم .

فقوله : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : يؤدي فوق ما طلب منه ، فكيف بما طلب منه ، هذه هي صفة الكرم ، وهي مع كل صفات التطوع في النفس البشـــــرية الخارجة عن نطاق التكليف تدل في صاحبها على عشقه الأمر الذي كلف به ، فالذي يتطوع بصلاة فوق الصلوات الخمس لم يتطوع بها إلا لأنه أحب وعشق التكليف بـهؤلاء الخمس ، فلو أنه شـعر بمشقـة في التكليف بهذه الخمس ما تطوع بغيرها .

ولكن كلمة ﴿ كَرِيمٍ ﴾ هنا لا تعني أنه قـد أتى بشـيء زائد عما طلب منه ، بـل إنه أراد أن يثبت له أنه عاشق لأداء ما وُكل به ، وأنه إن كان على مقاييسكم أنتم فإنه يكون كريمًا ومؤديًا أكثر مما طلب منه .

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .. قـد يكون الإنسـان كريمًا بما يقـدر عليه ، ثم قــد تأتيه ساعة ليس عنده فيها إمكانيات ، أما هذا الرسول فهو كريم وعنده إمكانيات ، هو كريم وقادر ، كريم وقـوي .. ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ ، وحـين يصف الحق ﷻ شـيئًا من خلقـه بالقـوة فهي بمقاييس الحق وليست بمقاييس البشر .

وقد يكون كريمًا وذا قوة ، إلا أنه ليس ممكّنًا في مكانته من الله ﷻ ، أما هذا الرسول فهو : ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ .

وقد يكون كل ذلك ، ولكن الأقل منه لا يطيعون أوامره ، فقال : ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ أي : لا يشذ واحد من جنوده عن أداء ما أمره به .

بقي أن نتساءل سؤالاً ، وهو : هل هذه الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام أم **بمحمد** ﷺ ؟ قـــيل : إن تلك الأوصاف خاصة **بجبريل** عليه السلام ، لأنه عطف بقـــوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

وقال آخرون : إن ذلك الوصف كله خاص برسول الله ﷺ .

وسواء كان الوصف خاصًا برسول الله ﷺ ، أو خاصًا بجبريل عليه السلام ، فالمهمة الأساسية من ذلك كله أن يطمئن الخلق على أن المنهج الصادر من الله إلينا منهج موثق بوثائق موثقة ، لا تقبل النقاش أو التبديل .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ توحي بأن الحكم كان منكم قبل أن يصدر مني لاصطفائه رسولاً ، فالحكم صادر منكم أنتم ، ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ ﴾ فهو ليس غريبًا عنكم ، وكلمة : ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ أنفى لكل خصال التلف والشر ، ولذلك جاء في سورة القلم : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ، لأن الخلق العظيم ينافي أن يكون مجنونًا .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ .. فلو قلتم : إنه مجنون فتكون مردودة عليكم ، بدليل أنكم اضطربتم في وصفه ، فمرة تقولون : هو مجنون ، وهل يقال للمجنون : إن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، كما قلتم أنتم لمحمد ؟! فهذا شيء عجيب ، فإذا كان مجنونًا فهل تُملّكونه عليكم ؟! وهذا مما يدل على أن كلمة : " مجنون " كلمة جماهيرية غوغائية ، أي أنك إذا أردت أن تحققها لا تجد لها مدلولاً في الواقع ، ولذلك فالحق ﷻ يحدثهم عن الجنون فيقول لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾[2] ، فلا تتكلموا بكلام الجمهور ، ولا بكلام الغوغاء ، بل نريد منكم أن يحسب كل واحد منكم كلامه على نفسه .

فربنا بهذه القضية القرآنية أعطانا كيفية حل إشكالات الحوار ، فإن أي حوار قد يفسده أن يكون الإنسان جاهلاً بالحقيقة ، أي عنده قضية مناقضة للواقع ، أو أن تكون نفس

---

1 – سورة : القلم ، الآية : 1 – 4 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 46 .

الإنســـان أعز عليه من الحق ، فهو لا يريد أن ينهزم أمام الناس ، ولذلك عندما يجلس اثنان مع بــعضهما ليتناقشــا في موضوع فإنهما عادة ما ينتهون إلى رأي ، ولكنهم إذا كانوا ثلاثة أو أربعة فلا يمكن أن ينتهوا لرأي بســهولة ؛ لأن كل واحــد يكابـر على أن الحق معه ، فكيف ينهزم أمام الناس ؟! فدخل هنا عنصر آخر غير عنصر الحق ، وهو عنصر النفس ، فقــال لهم الله ﷻ : دعوا هذه الغوغائية والجماهيرية واتبــعوا الحق فقــط ، فقـــال ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ .. في قـضية الحكم بجنونه .. ﴿ مَثْنَى وَفُرَادَى ﴾ ، أي : أن يقـوم أحـــدكم ويتفكر ويرى ما هو الجنون ويعرِّفه ثم يطبــق ســلوكه ﷺ على ما عرفه من الجنون ، فسينتهي بنفسه ويقـول : إنه ﷺ ليس بمجنون ، وإن لم يسـتطع أن يحاور نفسـه فليأتِ بآخر فقـط معه ، ثم ليتحـاورا وليتناقشـا في ذلك الموضوع ؛ لأن الذي ينهزم منهما أمام الآخر فسينهزم بحق ، وليس له فضيحة ، ولا حرج فيما بعد أمام الناس .

وقــالوا : كذابٌ ومفترٍ ، فما دام هو كذابًا ومفتريًا وعرفتم أنه كذاب ومفتر ، فلتكذبـــوا لنا كذبة ولتأتوا لنا بقرآن مكذوب ومفترىً أنتم أيضًا ، فلم ينفعهم ذلك أيضًا .

فقالوا : هو شاعر .. فقـال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن أي إنسـان يعيش في أمة صنعتها البيان وسجيتها الأداء وشهرتها بالبلاغة والفصاحة فليس من المعقول أن لا تسـتطيع أن تفرق بين الشعر وبين هذا الكلام ، فهذا دليل على عدم وجود الإيمان فقـط ، إنما هي حـجة عقـلية باهتة .

ثم قال : ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] .. فأسـلوب الكهانة قـد يكون أسـلوبًا مسجوعًا وفيه ما قد يشتبــه على غير اللبـيب أنه مثل كلام **محمد** بـزعمكم ، لكنك لما تتبـينه تجد موضوعه تافهًا وسجعه قلقًا ، فالتذكر مناسب لكم هنا .

فلما لم ينفعهم قولهم : مجنون ، وشـاعر ، وكاذب ، وكاهن قـالوا : آخر ما نقـول عليه :

---

1 - سورة : الحاقة ، الآية : 42 .

إنه ساحـر ، ولم يفطن أولئك المغفلون أن الحجة في هذه المسـألة أقـوى وأشـد ، فما دام هو ساحرًا فهل للمسحور اختيار مع الساحر ؟! ثم لماذا سحر الذين آمنوا به ولم يسحركم أنتم ؟! فلو كان ساحرًا لسحركم لتقروا له ، إنما بقاؤكم غير مسحورين دليل على أنه غير ساحـر ، وبذلك انهدمت المسـألة من أساسـها ، وهذا يدل على أن العداوة فيه خاصة ، ليس في موضوع ما أتى بـه ، بـدليل أنهم قـالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] ، إذن فالقرآن ليس فيه كلام ، ولكن الذي يغضبـهم أنه نزل على **محمد** ﷺ ، ولو نزل على رجل آخر عظيم من الطائف أو ثقيف لكان مقبولاً عندهم .

ومن الأدلة أيضًا على أن ما جاء بـه **محمد** حـق وصدق أنكم قـلتم له : ﴿ إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾[2] . فإن كانوا قالوا : إن نتبـع الضلال معك نتخطف من أرضنا ، لكان أوجه لما يزعمونه ، ولكن الحق أبـلج ، ويظهر دومًا في المقـدمة ، فيجعل الله ﷻ الخصم نفسه ينطق به .

وكذلك قـالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3] ، فكيف يقولون : يا رب إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة ، بل لقد كان الأنسب أن يقـولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنه تعصبهم الأعمى ضد **محمد** ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ رَآه بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ .. وما دام قد رآه بالأفق المبـين فهي ليسـت صورة نفسـية ، فلا يستطيع أحـد أن يقـول : إن هذا حـديث نفس عند **محمد** ﷺ لما يتمثل له الوحـي الذي يأتيه من السماء في أي صورة ، ثم بـعد ذلك يأتيه على حقيقـته ، فيعرف أنه أمام قـوة أخرى لها ذات مستقلة ولها شكل مستقل ، إذن فهي ليسـت من نفسـه ، ولا هي خواطر نفس ، ولا

1 – سورة : الزخرف ، الآية : 31 .

2 – سورة : القصص ، الآية : 57 .

3 – سورة : الأنفال ، الآية : 32 .

هواجس فكر ، ولا شيء من هذا القبيل .

فحين يظهر الله ﷻ جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ الذي قانونه كباقي البشر أن لا يرى الملائكة ، فحتى لا يعتقد محمد ﷺ أن هذا حديث نفس فيمثل له الذي يوحي إليه مرة بشكله الخاص فيقدره على أن يراه على صورته ، حتى يحكم الحكم بأمر خالص عن ذات تكوينه .

ونحن نعرف أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله ﷺ على صور متعددة ، ولم يره على صورته الحقيقية غير مرتين : مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة في الأرض .. ﴿ وَلَقَدْ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾[1]. أي على صورته الحقيقية ، وعلى صورته الحقيقية ليبين له المصدر الذي يتلقى منه بأنه ليس خواطر نفس ولا هواجس فكر ولا أي شيء ، بل أمر جاءت به ذاتية منفصلة عنه وهذه صورتها ، فإذا ما عرف ذلك اطمأن إلى ما يأتي بعد ذلك .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ فيها قراءتان : ﴿ ضَنِينٍ ﴾ بالضاد ، و ﴿ ظَنِينٍ ﴾ بالظاء ، وكلتاهما تؤديان لمعان عدة ، وذلك اسمه تربيب الفائدة ، فالقراءات حين تأتي تربب الفائدة التي تؤكدها الآية ، أي تزيد فيها وتكثرها .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .. فما دام ليس بمجنون ، وما دام صاحبكم وأنتم تعرفونه ، فلا يمكن أن يتهم بأنه لم يبلغ ؛ لأنه أمين ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ ﴾ أي : بمتهم ، أو : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أي : لا يكتم شيئًا أمره الله أن يؤديه ، فالكلمتان تعطيان معًا معنى قوة الآية .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن هناك سوابق ؛ فمن قومه من كان الشياطين يسترقون السمع ثم يلقونه لهم، كما جاء على لسان الجن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾[2]؛

---

1 – سورة : النجم ، الآية : 12 – 14 .

2 – سورة : الجن ، الآية : 9 .

فلذلك نفى تلك الصورة الموجودة في أذهان البشر من هؤلاء الناس .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ .. لأن مما قاله حرب على الشيطان ، وما دام مما فيه حرب على الشيطان فلا يمكن أن يكون من الشيطان أبدًا .

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

حين سدَّ الحق ﷻ عليهم جميع المنافذ ، وعلموا أنه لا سبيل إلا منهج الله ﷻ ، الواصل لكم عن **محمد** ﷺ ، المبلغ له عن **جبريل** عليه السلام ، فإذا كان لا سبيل إلا هذا فلا تحاولوا أن تذهبوا إلى أي سبيل آخر ، فأخبروني الآن .. أين تذهبون ؟!

وكلمة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ لا يقولها إلا من حبس جميع الطرق المؤدية للغاية ، ولم يُبقِ إلا طريقًا واحدًا ، وهو قائم على هذا الطريق .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ .. سؤال من الحق ﷻ ، ولا ينبغي أن يجيب الخلق إلا بشيء واحد ، وهو : لا سبيل إلا هذا ، وكان الأسلوب هو أسلوب الاستفهام حتى لا يكون كلامًا خبريًا ، فالكلام الخبري يكون حجة من جهته ، أما عندما يقول : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ فمعنى ذلك : لقد سألتكم سؤالاً فأجيبوني ، فإذا أرادوا أن يجيبوا لا يجدون إلا إجابة واحدة ، وهي : ليس إلا هذا السبيل ، وهذا يسمى بسؤال التضييق ، أي أنه لا سبيل من السبل إلا هذا السبيل .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .. وكلمة : ﴿ ذِكْرٌ ﴾ تلفتنا لفتة ثانية ، لأن معنى الذكر

هو أن شيئًا كان عندك فغفلت عنه ، فكأن الأصل الأصيل في الإنسان أنه حين خلقه الله تلقى ذلك المنهج ، وكان ذلك عند خلق آدم عليه السلام ، وكان الواجب أن يبلغه آدم لأمته ، ولكن مع تباعد الزمن تغفل النفس عن المنهج رويدًا رويدًا ، فيبعث ربنا رسولاً مذكرًا ، ليبلغ منهج الله المطلوب إلى الخلق بعد أن انطمست معالم ذلك المنهج .

والدليل على ذلك هو قول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [1] .

فكأن الإيمان أمر مركوز في الفطرة ، وكان من الواجب أن ينقل إلينا كما نقل إلينا كثير من أصول حياتنا بواسطة آبائنا ، ولكن قضية الدين بالذات يغفل أغلب الناس عن نقلها إلى الناس ، ولماذا لم يُخفوا عنهم كيف يُخبز الخبز ؟! بل بالله قل لي : هل من أحد يعلم من هو أول من فكر في طحن الحب وعجن العجين وتركه يخمر ؟! من أين أتتنا هذه الطريقة ؟ إنها منقولة إلينا من الابتداء الأول ، فما دام قد نُقل لنا أصول حياتنا كلها فكيف لم يُنقل لنا منهج الدين ؟!

إن المنهج دائمًا يضيق حركة الإنسان في هذه الحياة ، والنفس تحب أن لا تضيق حركتها ، ولكن منهج الله دائمًا يقف أمام شهوات النفس ، والنفس تريد أن تنطلق من شهواتها .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. فهو ذكر لمن يبحث عن منهج الاستقامة ، ولكن أغلب الناس لا يبحثون عن منهج الاستقامة ، لأنه يقيد شهواتهم ، إنما الذي يبحث عن ما ينجيه ويضع ذلك في عقله فيجب عليه أن يؤمن بالقرآن .

ولكن الناس مهملون في هذا الأمر ، فالرجل من هؤلاء لو توجع ابنه فإنه يهتم ويذهب به للطبيب ، ويقلب الدنيا رأسًا على عقب ، إنما حين يعرف أن ابنه لم يُصَلِّ فإنه لا يهتم ،

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 172 .

فلماذا نحرص على منهج دنياه ، ونحافظ على بدنه ؟! ولماذا يؤرقك منهج الشهادة الدراسية التي تريده أن يحصل عليها ؟! فلماذا يأخذ هذا المنهج الدنيوي القليل اهتمامك واهتمام كل من حولك كي تصلح له شيئًا من بدنه أو ماديات حياته ، بينما منهج الدين ليس في بالك ولا من اهتماماتك ، لو كان في بالك أو من اهتماماتك لكان لك تصرف عندما يضعف الابن في أي خلق أو تصرف شرعي كما كان لك عند ضعفه في الدنيا أو الصحة .

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ .. لا تظنوا أن هذا الذكر كالمغناطيس سيجذبكم غصبًا عنكم ، كلا ، بل يجب أن يكون لديكم استعداد ، وتريدون صلاح أمركم ، فإذا وجد عندكم هذا الاستعداد لصلاح أمركم فالقرآن يعطيكم هذه الاستقامة .

فإن هناك فرقًا بين الفاعل والقابل ، فالقرآن واحد ، يسمعه رجل فيجنح بروحه ، ويسمو بنفسه وتصفو ، وآخر يسمعه ولا شيء ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[1] ، ولكن .. ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[2] .

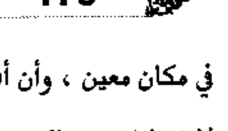
﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وهنا قد يحدث بعض الإشكال في الأسلوب ، فإنه ﷻ قال : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ ، ثم بعد ذلك رد المشيئة إليه ، فقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ .

لذلك يجب أن يُفهم الأسلوب على معناه الحقيقي ، فإن هذه لها مدلول وتلك لها مدلول آخر ، فإن الإنسان يعيش في الحياة فيجد نفسه مقهورًا على أشياء ، ومهما حاول أن يخرج عنها فإنه لا يستطيع ، ويجد نفسه مختارًا في أشياء أخرى ، هذا هو واقع الحياة كله ، فأنا مثلاً أختار أن ألبس ثوبًا أبيض أو ثوبًا أسود ، وأختار من القماش له كما أشاء ، أو أبني بيتًا

---

1 – سورة : محمد، الآية : 16 .

2 – سورة : فصلت ، الآية : 44 .



في مكان معين ، وأن أفعل في ذلك البيت شكلاً معينًا ، فهذه وغيرها مسائل كثيرة خاضعة لاختياراتي ، ولكن هناك مسائل أخرى ليست خاضعة لاختياراتي ، فأنا لا أختار مثلاً أن تشرق الشمس في أي وقت ، ولا أختار بعد أن سرت في طريق قد اخترته أن تحدث لي حادثة أو لا تحدث ، فهناك مسائل داخلة في اختياراتي ، وذلك مثل المسائل التي تدخل تحت علمي ، وهناك مسائل لا تدخل تحت علمي ، ولا تدخل تحت اختياراتي ، وأيضًا الذي يعلم متفاوت في علمه .

فلا أنا صاحب المشيئة بإطلاق ، ولا أنا مسلوب المشيئة بإطلاق ، فعندما يجد الإنسان نفسه مقيد المشيئة في أشياء ومطلقها في أشياء فإنه يتأكد أن القوة الكبرى لشيء آخر ، فلا تكون القوة لي وأنا مقيد في أمور ، فلو أنني لست مقيدًا في الكل كانت القوة المطلقة قوتي أنا ، لكن مشيئتي مطلقة في أشياء ومقيدة في أشياء ، فأعلم حينها أن الأقوى مني هو الذي يقيدني .

وتلك الأشياء التي ليس لي فيها مشيئة ليست داخلة في نطاق تكليفي ، أما الأشياء الأخرى الداخلة في نطاق تكليفك فهي داخلة في نطاق التكليف ؛ لأن لله ﷻ صفات ، وكل صفة تطلب مجالاتها في الكون ، فمن صفاته أنه الجبار ﷻ .. فيجب أن يكون لها متعلق ، والرحيم .. ويجب أن يكون لها متعلق كذلك ، وقادر .. ويجب أن يكون لها متعلق أيضًا ، وكذلك هو عادل ﷻ ، فيجب أن يكون لها متعلق ، فلو أنك أخذت صفتي القدرة والخلق وصببتهما على كل شيء فإنك تكون قد عطلت صفة العدل عن الله ﷻ ، فعندما تقول : إن الله قد قهرك على ترك الصلاة مثلاً فإنك تكون قد سلبت من الله ﷻ صفة من صفاته ، وهي العدل ، وإن أثبت أنه ليس من شيء يخرج عن قدرته ، وليس هناك صفة تأخذ حظها على حساب صفة أخرى ، فهذه يجب أن تأخذ مجالها وهذه يجب أن تأخذ مجالها ، فعند ذلك يجب أن تعرض آيات القرآن ، وعندما تعرض آيات الإطلاق يجب أن تبحث وتنقب عن آيات التقييد ، فإذا بحثت ونقبت عن آيات التقييد مع آيات الإطلاق علمت أن المقيد حجة

على المطلق ، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ثم بيَّن في آيات أخرى من شاء هدايته ومن شاء إضلاله ، كما قال ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[2] ، ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[3] .

فيكون قوله ﷻ : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[4] .. مطلقًا ، ثم بين في آية التقييد من يشاء هدايته ومن يشاء إضلاله .

ثم بعد ذلك يجب أن تعرف معاني هذه الهداية في القرآن ، فإن هناك آيات في القرآن أثبتت الهداية لقوم ثم نفتها عنهم مثل قوله ﷻ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ .. فأثبت أنه هداهم ، ثم قال : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[5] ، فإذا كان الله قد هداهم ، فكيف يكون لهم اختيار كي يستحبوا العمى على الهدى ؟! فلابد أن يكون للهداية هنا معنى آخر ، وأوضح من ذلك قول الله ﷻ للنبي ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .. فإنه أثبت له الهداية هنا ، ثم في موضع آخر قال له : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فنفى عنه هنا الهداية ، ولكننا نقول : إن هذا كلام ربٍّ حكيم ، ولا يمكن أن يتضارب أبدًا ، فيجب أن تبحث في نفسك لكي تستطيع أن تجمع بين الجميع .

فإن الهداية ترد على معنيين في القرآن :

فقد تأتي بمعنى مطلق الدلالة على طريق الخير ، والدلالة فقط .

وقد تأتي مرة أخرى بمعنى المعونة على الخير ، أي : يدلك أولاً على الطريق الموصل للخير ، ثم يحملك على الطريق الموصل إلى الخير ، فهذان معنيان ، ومثال ذلك ، ولله المثل

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 258 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 264 .

3 – سورة : المائدة ، الآية : 108 .

4 – سورة : النحل ، الآية : 93 .

5 – سورة : فصلت ، الآية : 17 .

الأعلى في السماوات والأرض ، ولكننا نضرب المثال للتقريب ، فمثلاً عندما تكون سائرًا في طريق ما ، وتريد أن تذهب إلى مكان ما ، وعند مفترق الطرق وجدت خمس طرق مثلاً ، فقلت لرجل : ما هو الطريق المؤدي إلى مدينة كذا ؟ فقال لك : إن الطريق المؤدي إليها هو طريق كذا ، فهو هنا قد هداك بمعنى أنه دلك ، ثم بعد ذلك إن عملت بكلامه أو لم تعمل فإنك تشكره بكلام طيب ، فإذا وجدك الرجل قد أقبلت على كلامه وصدقته فإنه يقول لك : والله أنت أهل لأن أدلك أكثر ، فهذا هو الطريق ، ثم يزيدك : أن تنبه ، فبعد كيلو متر واحد ستجد حفرة أو عقبة هناك صعبة ، فسأقوم معك وأنقذك منها ، فبهذا يكون قد عمل معك عملين :

العمل الأول : هو الدلالة على الطريق .

والعمل الثاني : لما آمنت به وشكرته واعتقدت أن هذا نعمة أعانك .

وكذلك الحق ﷻ يدل الناس على الخير ، فمن آمن به سهل عليه مهمة الخير ، فليس منك إلا أن تتوجه لتفعل الخير ، ثم بعد ذلك يعينك الحق ، وييسر لك الأسباب .

فإذا أثبت الله الهداية لرسوله فهي هداية الدلالة .. ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ ، وإذا نفاها الله ﷻ عنه فإنما ينفي هداية المعونة .. ﴿ **إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ .. أي : لا تعين على الهداية من أحببت .

فكأن هذا الأسلوب في ظاهره متناقض ، ولكن حين ننظر بدقة في الآيات جميعًا نجد بالجمع بينها منتهى التوافق .

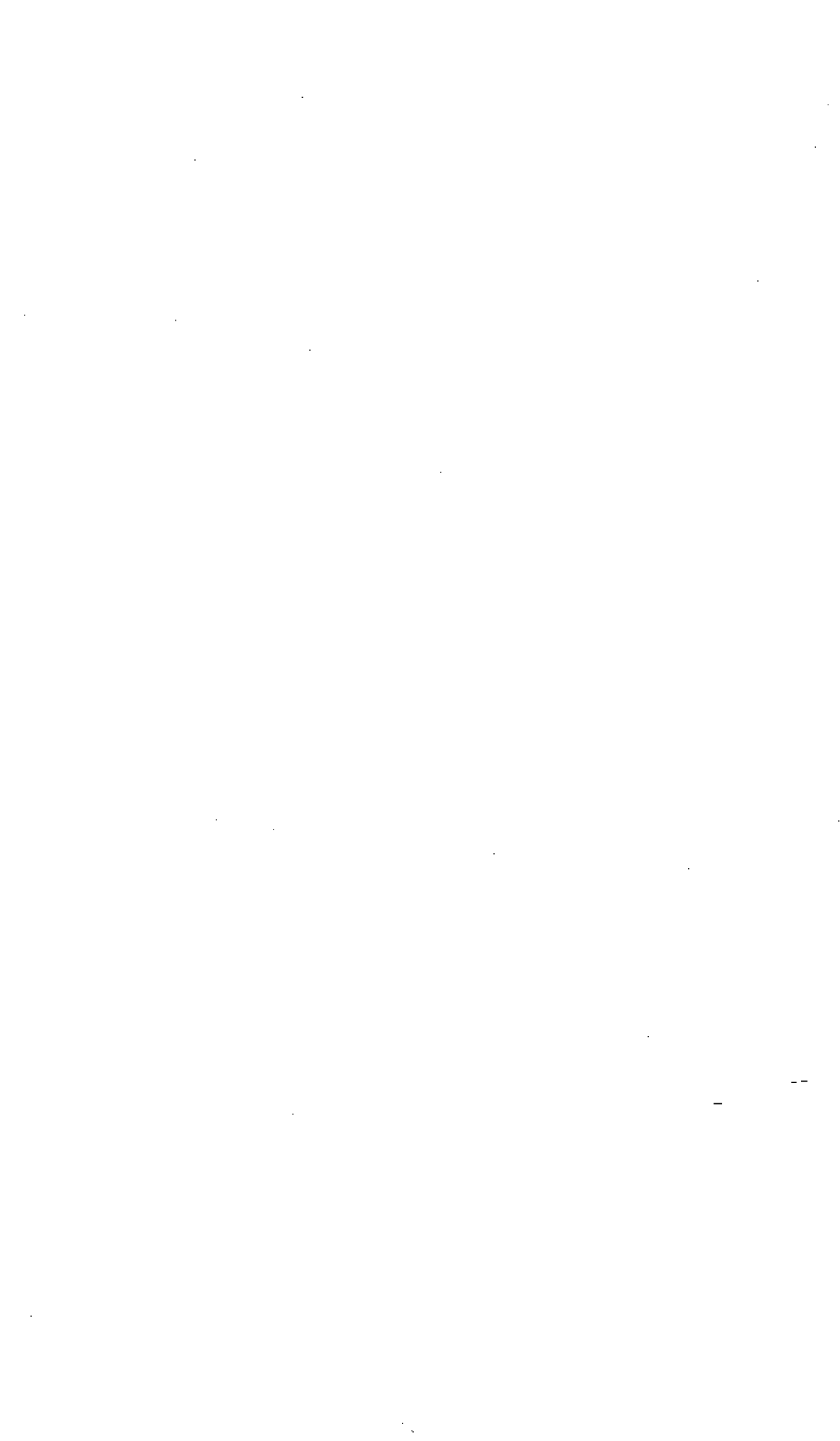
نسأل الله ﷻ أن يهدينا دائمًا إلى الخير ، وأن يوفقنا إلى الخير في كل ما نأتي وكل ما نذر .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .


عم
تفسير جزء


سورة
الانفطار







بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد ..

نحن الآن مع **سورة الانفطار** ، تلك السورة القصيرة التي تتحدث عن الانقلاب الكوني الذي قد تحدثت عنه **سورة التكوير** ، ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتًا خاصًا بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشري فيها ، وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد .. هادئ .. عميق .. لمسات كأنها عتاب ، وإن كان في طياته وعيد .

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب كما هو الشأن في **سورة التكوير** ؛ لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ ، وكذلك إيقاع السورة يحمل هذا الطابع أيضًا ، فيتم التناسق والتوافق في شخصية السورة .

إنها تتحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور .. كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير .

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار .. وهي التكذيب بالدين .. أي التكذيب بالحساب ، وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود ، ومن ثم يؤكد ذلك الحساب

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الأول مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

توكيدًا ، ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .

وأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله ﷻ بأمره الجليل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرقات التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ .. يذكر هنا مظهرًا من مظاهر الانقلاب ، وهو انفطار السماء .. أي : انشقاقها ، وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى ، كما في **سورة الرحمن** : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[1] ، وكذلك في **سورة الحاقة** : ﴿ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[2] ، وقال في **سورة الانشقاق** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾[3] .

فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب ، أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون آنذاك ،

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 37 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 16 .

3 - سورة : الانشقاق ، الآية : 1 .

ولكن كل ما يستقر في الحس هو مشهد التغيُّر العنيف في هيئة الكون المنظور ، وانتهاء نظامه المعهود ، وانفراط عقده الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ .. ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهي ممسكة في داخل مداراتها لا تتعداها ، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحد له نهاية ، ولو انتثرت كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق غير المنظور الذي يشدها ويحفظها لذهبت في الفضاء بددًا ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ .. وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار ، كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين ، فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما ، وكذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم .. فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة .

أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال .. إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ .. وبعثرة القبور إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة ، وإما أن تكون حادثًا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث .. فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها ، كما أنشأها أول مرة ، لتتلقى حسابها وجزاءها .

ويؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيرًا ، أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها ، أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها .



على أي حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبًا لتلك الأهوال العظام ، وواحد منها مروّع لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .. والتعبير القرآني الفريد يقول : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴾ .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس ، ولكنه أرشق وأوقع ، كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت .

فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة ، والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصًّا ، فإذا هو أرشق كذلك وأوقع .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ .. يذكر الحق ﷻ أن الناس في غفلتهم عن ذلك اليوم ، وفي إهمالهم لمقتضيات الاستعداد له ، وفي انصرافهم عما يتطلبه من زاد التقوى ، وقد صدروا في كل ذلك عن شيء واحد ، وهو الغرور ، ذلك الغرور الذي خاطب الله ﷻ به الإنسان في قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ ﴾ ، وهو تبكيت بكلمة إنسان ، لأن كلمة إنسان توحي بأن إنسانيته كان يجب أن تردعه عن غروره ذلك ؛ لأنه لم يتميز بهذه الإنسانية إلا بوجود الفكر ، والفكر هو الذي ينظر ويتدبر ويتفكر ويستنبط ، فكان من الممكن إذا ما أعمل الإنسان إنسانيته في قمتها ألا يوجد منه هذا الغرور ؛

لأن الغرور غفلة من المغتر عن وضعه بالنسبة للقيم التي يغتر بـها ، فالإنسـان إذا شـاء أن يغتر فيجب عليه أن يغتر بشيء ذاتي فيه ، أما بشـيء موهوب له من غيره فلا يصح أن يغتر بـه ، فلو أن أمور حياته والوجود الذي يعيش فيه كان من صنعة نفسه لكان من الممكن أن يغتر بتلك الصنعة ، ولكن بما أنه لم يدَّعها ولو دعوى ، فمن الواجب أن لا يغتر بشيء ليس ذاتيًا فيه .

فتصدير الآية القرآنية بقـوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ ، أي : تنبـه !! إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبـــغي أن يوجد معها الغرور ، ومع ذلك وجد منك الغرور ، واغتررت بربك الكريم ، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك ، ولكنه ﷻ رب كريم ، فما داعي الغرور إذًا ؟!

فأنت تغتر بشيء لا ذاتية لك فيه ، بل هو لغيرك ، والذي تغتر بـه ليس لك ، بـل للواهب ﷻ ، والواهب ليس على صفة تتطلب منك غرورًا .

إذًا .. فكل الحيثيات تشير إلى أن الذي يغتر غافل عن إنسانيته وهاجر لها ، فلو كان مقيمًا لإنسانيته لما صدر منه ذلك الغرور بالذي وهب ، وهو الموصوف بأنه كريم .

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ .. يعدد الحق شيئًا من مواد إكرامه .. الخلق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشك فيه إنسان حـين يجد فكره ، وحـين يجد شـكله ، وحـين يجد تسويته واعتداله عن سـائر ما خلق الله ﷻ ، فلم يخلقـه الله ماشـيًا على بـطنه ، ولم يخلقـه الحق ﷻ يمشي على أربع ، ولم يجعل قامته ملتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القامة ، هذا بخلاف التسـوية والتعديل في أجهزته الدقيقـة التي لا يزال علماء كل جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائمًا عندها عجبًا ، ويكتشفون سرًا .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ بـعد ذلك أن يزجر ذلك الإنسـان ، ومن حق الإله الخالق المنعم أن يزجر عباده ؛ لأن ذلك الزجر وسيلة من وسائل التربـية ، وهو رب وهب ويؤدب ، وقـد وهب ما تقدم ، فليؤدب ﷻ ، فقـال : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ



بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلاَّ ﴾ ..

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ إذا وجدتها في كتاب الله فافهم أنها تعطي معنى الردع والزجر عن أمر ما كان ينبغي أن يكون ، والأمر الذي تقدم كلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ هنا هو الغرور ، أي : كلا .. ما كان يصح لك أن تغتر أبدًا ، لأنك إنسان تغتر بمن وهب لك ، ومن وهب لك كريم ، فحيثيات الردع والزجر في الصيغة : إنسان ورب وكريم .

وهل انزجر ذلك المغرور ؟! هل انزجر الإنسان ؟! ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾[1] ، فساعة أن خُلق ، وساعة أن رُزق ، وساعة أُمد بالقيومية .. فَهِمَ أن هذه أمور رتيبة له ، لأنه لم يشهد يد الله محسوسة في عملها ، فاغتر بأنها له ، وآمن ووقف عند الأسباب وترك المسبب ، فالحق ﷻ يريد أن يقول : أنا سأزجره ، ولكنه أيضًا لن يرتدع ، سيظل في هذا الغرور .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. أي بيوم الجزاء .

والحق ﷻ بعد أن ربَّى بقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : لا يصح لك أن تغتر ، بيَّن الحق ﷻ أن المنصرف عن الإيمان بالله ، وعن الاعتبار في ملكوته وفي نفسه سيظل سادرًا في غلوائه ، ولن يرتدع بهذا الزجر ، وإذا رأيت كلمة : ﴿ بَلْ ﴾ فاعلم أن هناك إضرابًا عن شيء وإثباتًا لشيء آخر ، ما قبلها مضرب عنه ، لن يزجر ، وما بعدها مثبت له .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. وهنا نلاحظ أن الأسلوب انتقل من الفردية في : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ إلى الجمع في قوله : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة : ﴿ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ جمع ، وكلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ مفردة في ظاهرها ، ولكن الحق ﷻ حينما خاطب الإنسان بلفظ الإفراد جاء بـ (ال) ، وهي تفيد الاستغراق في الأفراد ، فمعنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ أي : يا كل إنسان فيه هذه الصفة ، فما دام هناك استغراق فمن الممكن أن يأتي

---

1 - سورة : العلق ،الآية : 6 ، 7 .

بـــالجمع : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ ، أي : أيها الناس ، والذي يدل على أن كلمة : ﴿ الإِنْسَانُ ﴾ تأتي للاستغراق في الأفراد أن الله ﷻ في آياته قد اسـتثنى منها الجمع ، ونحن نعرف أن المستثنى دائمًا يكون أقل من المسـتثنى منه ، فأنت لا تسـتثني من شـيء إلا إذا كان الشيء المستثنى منه أكثر ، فلما قال الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، ثم بعد ذلك اسـتثنى من الإنسـان جمعًا ، فلو أنه يدل على فرديته لما صح منه الاسـتثناء ، ولكنه قـــال ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[1] ، فاسـتثنى ﷻ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وهم جمع ، من الإنسـان ، وما دام الجمع قـد اسـتثني من الإنسـان المفرد فهذا دليل على أن الإنســان المفرد حينما دخلت عليه (ال) صار مستغرقًا لكل الأفراد ، ولذلك استثنيت منه جماعة .

﴿ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ .. زجرهم بـ "كلا" ، ثم أضرب بـ "بل" ، أي أنهم لا ينتهون بهذا الزجر ، بل إنهم يكذبون بيوم الدين .

وكل شيء يصيب الإنسـان من إهمال منهج الله ، والغفلة عنه ، وعدم الاسـتعداد للقـائه ، كل ذلك تكذيب بيوم الدين ، فكأن يوم الدين قـضية كاذبـة عندهم ، ولو أن يوم الدين قـضية صادقة عندهم لما كان منهم إلا أن يستعدوا لذلك اليوم ، وأن لا يغفلوا عنه أبدًا .

فكل غفلة عن منهج الله منشـؤها إما التكذيب بـيوم الدين الذي يرد فيه الإنســان إلى ربــه ليجازيه على أعماله ، وإما الارتياب فيه ، ومعنى الارتياب أنــه يذكـره تـارة ، ويغفـل عنـه تارة ، فحين يذكره يعمل العمل الصالح ، وحين يغفل عنه يلتوي عن منهج الله ﷻ .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ .. وهنا نجد أن الحق ﷻ يســتدل على الشـــيء بما يكون بسببه ، فيوم الدين يوم فصل بين الناس ؛ ليُجزى كل إنسان بعمله ، فلابـد وأن يكون العمل المسئول عنه الإنسـان والمحاسَب عليه مسـطورًا ومكتوبًا ، فأراد الحق ﷻ أن يؤكد المسـطور

---

1 - سورة : العصر .

والمكتوب هنا ؛ لأن الناس لا يألفون التوثيق إلا في المدوَّن ، فالمدون شهادة لا يمكن أن تُزوَّر ، ولو أن الكلام غير مدون فقد يُنسى ، وقد يغفل الإنسان عنه ، ولكن المكتوب عليه شيء موثق ، والكتابة هي أوثق آلات التسجيل على الإنسان ، فأراد الحق ﷻ أن يقول : إن هذا الذي تعترفون به في التوثيقات فيما بينكم أمر موجود عندكم ، وإن كان غيبًا .

فالغيب الذي يتكلم عنه الحق ﷻ نوعان : غيب واقع ، ولكن زمانه لم يأتِ بعد ، كغيب الساعة ، وهي يوم القيامة ، فهو واقع لا محالة ، ولكن زمنه لم يأتِ بعد ، وغيب موجود الآن ، ولكننا لا ندركه ، فمسألة الكتابة والحفظ والإحصاء كل ذلك غيب ؛ لأني لا أدركه : لا أرى الملَك ، ولا أحسه ، ولا أعرف كيف يكتب ، ولا بماذا يكتب ، وكل ذلك أمر لا ضرورة للإنسان في معرفته ، ولكن زمن الكتابة موجود الآن .

وبحث العقل في هذه المسألة حيث يبحث : أين الملكان ؟ وكيف يكتبان ؟ وبأي شيء يكتبان ؟ فهذه مسألة فوق نطاق الإيمان ؛ لأن هناك فارقًا بين أن يوجد الشيء وبين أن يدرك الشيء ، فليس إدراك كل شيء دليلاً على وجوده ، وليس عدم إدراك أي شيء دليلاً على عدم وجوده ، فكم من الأشياء كانت غيبًا عنا وغير مدركة ، ثم شاء الله أن يأذن للسر أن ينكشف فانكشف ، وذلك في ماديات الوجود ، وساعة كان غيبًا غير مدرك لم يكن ذلك يعني عدم وجوده ، بل كان موجودًا قبل اكتشافه ، بدليل أنك اكتشفته ، وما دمت قد اكتشفته ، وقد كان غيبًا عنك ، إذًا فهناك غيب لا يمكن لك أن تدركه إلى أن يأذن الله لك أن تكتشفه .

فكأن الحق ﷻ ترك في الغيب المادي الموجود أمورًا ظلت غائبة مدة طويلة ، ثم أذن للعقل أن يكتشفها بنشاطه ، ليستدل من ذلك على أن هناك غيبًا آخر يجب أن نؤمن به من قبل اكتشافه .

إن اكتشاف الغيب ما هو إلا إيناس للغيب ليس إلا ، مثال ذلك كما نقول لك : عقلك بحيزه المحدود إذا ما أردت أن تستعيد منه الصور والأقوال والأفعال التي صدرت منك ومن



غيرك ممن وقع تحت حسك وجدتها مختزنة فيه ، فإذا وجد استدعاء معانٍ تذكرت أشياء حدثت منذ ثلاثين سنة ، ومعنى ذلك أنها محفوظة في ذهنك ، فكيف يفكر هذا الحيز الذي يسع تلك المعلومات الكثيرة ؟! وكيف تأتي الصورة فتستعيدها كما كانت ؟!

علاوة على ذلك أن المسألة الإيمانية لا تكون للأمر الذي يُحس فقط ، فالأمر الذي يمكن أن يحس ليس مناط إيمان ، فأنا حين أجلس بين الناس لا أقول : أنا أؤمن بأني أجلس بينهم ، وأتكلم معهم ؛ لأن هذا أمر محسوس ، فالمسألة ليست قضية إيمانية ، فالقضايا المحسة كلها ليست قضايا إيمان ، وإنما الإيمان دائمًا يكون في القضايا الغيبية .

ولكن هناك من يفرق بين الإيمان وبين اليقين ؛ لأنهم قالوا في قول الله ﷻ : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾[1].. إن معنى ذلك هو إجراء الأحكام التكليفية للتقرب من الله ﷻ ، وهذه لا يأتي بها إلا مؤمن .. ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ .. يعني : أن العبادة تكون عن إيمان ، ﴿ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ .. وكأن في أول العبادة لم يوجد يقين ، وإنما كان هناك إيمان ، ثم بعد ذلك بالعبادة ، وبترددك على حضرة ربك ، وبتوددك إليه بما شرع .. يأتيك اليقين ، إذن فالإيمان مرتبة تدعو إلى العبادة، والعبادة حين تتم بإخلاص وصفاء يترتب عليها اليقين .

ولكي نعرف الفارق بين الإيمان وبين اليقين ، نجد أن سيدنا عليًا ﷺ – وهو من هو – حين سُئل : كم بين الإيمان واليقين ؟ أي : ما الفارق بين الإيمان وبين اليقين ؟ فقال : الفارق بين الإيمان واليقين أربع أصابع !! فقيل له : وكيف ذاك ؟! قال : الإيمان هو ما تسمعه أذناك فتصدقه ، واليقين هو ما تراه عيناك فتصدقه ، والفرق بين العين والأذن أربع أصابع ؛ ولذلك فصل ﷺ في تلك المسألة وقال : لو انكشف عني الحجاب ما ازددت يقينًا .

وكما جاء عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي ﷺ فقال له : " كيف أصبحت يا حارثة ؟ " قال : أصبحت مؤمنًا حقًا . قال ﷺ : " انظر ما تقول ، فإن لكل قول

---

1 – سورة : الحجر، الآية : 99 .

حقيقة ، **فما حقيقة إيمانك ؟!** " قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . قال ﷺ : " **يا حارثة .. عرفت فالزم** "[1] .

ولذلك نجد أن الحق ﷻ حين أراد أن يقص على النبي ﷺ قصة أصحاب الفيل عبر بقوله ﷻ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾[2] ، ولم يعبر بـ : "**ألم تعلم**" ، في حين أن الآية تتحدث عن عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه النبي ﷺ ، فليس من المعقول أن يكون ﷺ قد رأى هذه الحادثة ، ولكن الحق ﷻ خاطبه بـ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ، ومعناها : ألم تعلم ؟!

وكأن الحق ﷻ يريد أن يقول : إذا أخبرتك بشيء فكن أوثق به مما تراه .. فما دام أن الله ﷻ هو الذي أخبر بذلك فيجب أن يكون ما يخبر به كأنه رأي العين ، وتلك هي مرتبة اليقين .

إذن فالأشياء الغيبية التي يتحدث الحق ﷻ عنها يكفي فيها أن تُعقل ، ولا ضرورة في أن تُتصور ، وإنما كانت متاهات العقول في إرادة تصور المعقول .

فإن الفلاسفة لم يضلوا إلا حينما تجاوزوا مطلوب التعقل إلى مطلوب التصور ، وإلا فلماذا بحث الفلاسفة الأقدمون فيما وراء المادة ؟! وما الذي جعلهم يبحثون في شيء وراء المادة ؟! فكأن فطرتهم أخبرتهم بأن وراء هذه المادة شيئًا ، ومن غير المعقول أن تنتهي هذه المادة ، وهذا كافٍ في التعقل ، إلا إنهم تعبوا وأتعبوا حينما أرادوا أن يتصوروا ما وراء تلك المادة ، ولو أنهم اكتفوا بفكرة التعقل لانتهت مشكلتهم .

ولذلك نقول للذين يطلبون الدليل على وجود الله ﷻ : ما الذي جعل أول من وضع دليلاً

---

1 – أخرجه الطبراني في الكبير .

2 – سورة : الفيل ، الآية : 1 .

على وجود الله ﷻ يجهد عقله ليبحث عن دليل لوجود الله ، ما لم تكن هناك فطرة تقول له : إن هناك شيئًا وراء الكون ؟!

إذن فالدليل الأول على وجود الله ﷻ هو طلب الدليل على وجود الله ، سواء استدللت أم لم تستدل ، فطلبك دليلاً على وجود الله هو عين الدليل على وجود الله ، وإلا فما الذي جعلك تجهد عقلك لتبحث عن دليل على وجود الله إلا لأنك مؤمن بأن هناك إلهًا ، فأجهدت عقلك لتستدل على ذلك ؟!

إذا كان هناك ألف محطة إرسال تليفزيونية ، وألف جهاز تليفزيون ، وهناك عدة موجات تبث على هذه المحطات ، وكل أولئك يلتقطون من الجو ، فما الذي يميز هذه الصورة عن الأخرى بحيث لا تختلط تلك الصور ببعضها ، وتعطي محطة الإرسال محطة إرسال أخرى ، مع أن كل ذلك يأتي من الأثير ، والأثير كله مختلط ، فما الذي ينقي هذه العملية ويعطي كل جهاز اختياره ؟! وما الذي يقوم بعملية التوزيع ؟!

إنها مسألة تحتاج إلى هندسة معقدة ، وقد استفاد العقل بها ، ولكنه لا يعرف كيف تتم .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. فلا ينبغي أن تكذبوا بالدين ؛ لأن عليكم حافظين .. كرامًا .. كاتبين .. يعلمون ما تفعلون ، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يوجدوا عبثًا ، وإنما وجدوا ليوَثّقوا ، وما داموا وجدوا ليوثقوا فإن التوثيق له قضية وله مطلوب ، وسيُنشر هذا الكتاب ، وستحاسبون عليه .

﴿ حَافِظِينَ ﴾ أي : حافظين بذاتهم ، وحافظين بما يكتبون ، و ﴿ كِرَامًا ﴾ فلأن الكريم من شأنه أن يُسَرَّ من عمل الخير ، ويتأذى من عمل الشر ، فطبيعتهم تناسب المهمة ، وما دام الكريم يُسر من عمل الخير ، فساعة أن يعمل خيرًا يكتبه كتابة المسرور به ، أي أنه حريص على أن يسجله لك ، ويتألم من عمل الشر ، ويسجله عليك أيضًا .

فهناك مهمة وهناك استعداد ذاتي للمهمة ، وهناك فرق بين المهمة وبين الاستعداد الذاتي



للمهمة ، فمهمتهم هي أنهم كاتبون ، وأنهم كرام ، فلو أن إنسانًا وُكِّل بأمر من الأمور ولم يكن كريمًا فإن الحق قد يلتبس عنده ، أما الكريم فإنه يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر ، وما دام يُسر من فعل الخير ، ويألم من فعل الشر بطبيعة ذاته ، فذاته وطبيعته مناسبتان لمهمته .

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ، ومع أنهم حافظون ، أي : يحفظون الكتابة ، وبإمكان الملك الموكل بالحسنات والملك الموكل بالسيئات أن يسردا للإنسان ما عمله من عندهما ، إلا أن الله ﷻ لم يعتمد على حفظهما ، فأمر أولئك الحفظة بأن يكتبوا ، وكأنه ﷻ يقول لهم : إن حفظكم سيكون شهادة ، لكن كتابتكم سوف تبقى حجة ، وسنعطيهم الكتاب ، ونقول لهم : اقرءوا الكتاب .

فكأن الحق ﷻ قد نسَّق الأمر بين الحفظ وبين الكتابة ، الحفظ من المَلَك ، والكتابة منه أيضًا .

وكلمة : " قرآن " مصدر ، معناه : مقروء ، أي مضموم فيه لفظ إلى لفظ حتى يكون آيات وسورًا ، كما يطلق على القرآن لفظ : " الكتاب " ، وهذا يدل على أنه مكتوب ، فكأن للقرآن وسيلتين اثنتين : **أولا** : أنه محفوظ في الصدور ، **وثانيا** : أنه مسجل في السطور ، ومهمة الوسيلتين أن تكون كل واحدة منهما عونًا للأخرى على التذكر ، ولا يمكن أن نقول عن أي نص : إنه نص قرآني إلا إذا وافق المحفوظُ المكتوبَ ، بدليل أننا نجد ألفاظًا في القرآن الملفوظ فيها شيء والمكتوب شيء آخر ، مثال ذلك كلمة : "**الم**" قرأناها في أول سورة البقرة : " **ألف لام ميم** " ، ثم في أول **سورة الشرح** قرأناها : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [1] ، فما الذي جعلك تقرؤها هنا بطريقة وهناك بطريقة أخرى لو أن الأمر لم يكن مرتبطًا بين القراءة والكتابة ؟!

فقول الحق ﷻ : (**حافظين**) ، و (**كاتبين**) يدل على أنهما أداتان من أدوات التسجيل .

---

1 - سورة : الشرح ، الآية : 1 .

ولكن من رحمة الله ﷻ أنه جعل كاتب الحسـنات أميرًا على كاتب السـيئات ؛ ليجعل للإنسـان فرصة في التوبـة وفرصة في الندم ؛ لأن الله ﷻ لا يريد أن يتصيد لنا الأخطاء ، ولكن الله يريد أن يكثر لنا الحسنات ، كما ورد في الحديث عن ابـن عبـاس رضي الله عنهما ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ : " إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً "[1] .

وذلك لأن الهمَّ من عمل القلب ، ويكفي أنك ضمنت قلب إنسان ليفكر في نية الخير برهة ، فما دام القلب فكر في نية الخير برهة فإنه يستحـق أن نكتبـها له حسـنة ، وإن لم يحولها إلى واقع الوجود ، أما من يهم بسـيئة ولا يفعلها فيكتبـها حسـنة ؛ لأنه همَّ بسـيئة انشـغل قلبـه بـها ، ثم وقـفت أوامر الشـرع دونه فلم يفعلها ، فمن هاجت نوازع الشـر عنده ، ثم بـعد ذلك تغلب عليها فهو خير من الغافل الذي لم تهج عنده نوازع الشر أصلاً .

فمن فكر في سيئة ولم يفعلها أكثر حـظًّا من الذي لم يفكر في السـيئة أصلاً ، ولذلك تكتب له حسنة ، لأن لوازم السيئة وجدت ، وشـغل البـال بما وُجِدَ ، ولكن وقـوفه أمام المنهج منعه ، فما دام قد صمد أمام شواغل النفس فإنه يستحق أن يعطى حسنة .

﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .. وهذه الكلمة لا تفيد مجرد العلم المتحقـق بالإحـصاء ، ولكنه العلم مع الفهم ، وعلم ما يخفى ، مثل النوايا وأمراض القلوب كالحقد ، حـيث لا يظهر ما لم يدل عليه بأي شيء .

إذن فالتوثيق عليك أيها الإنسان ثابـت ، وما دمت تفهم أن التوثيق عليك ثابـت فتنبـه إلى

1 - أخرجه البخاري (6010) ، ومسلم (187) .

أنك لم تخلق عبثًا ، وأن كل أمر من أمورك مسطور ومسجل عليك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[1] ، فإذا نظرنا إلى التعبير القرآني بكلمة : ﴿ قَعِيدٌ ﴾ نجد أنها لا تعني قاعدًا ؛ لأن القاعد هو الجالس الذي يستطيع أن يقوم ، أما القعيد فهي صفة لازمة للملَك ، فلا يأمل إنسان أن يتركه أبدًا ، ولكن الإنسان هو الذي يفارقه في الأوقات التي فيها فضح للعورة : عند الخلاء ، والجنابة ، وعند الغسل ، ولكنهم عند هذه المفارقة لا ينقطع علمهم أيضًا .

إذن فالحق ﷻ وثّق على الإنسان ، وما دام الله ﷻ قد وثّق على الإنسان هذا التوثيق فلابد أن يكون لهذا التوثيق غاية ؛ لأنه لو لم يكن هناك بعث ، ولو لم يكن هناك حساب لكانت العملية عبثًا من أولها إلى آخرها .

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔا ۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. ما دامت هناك كتابة ، والكتابة والحفظ من الكرام ، فسيكون هناك تعلقًا بعمل الخير ، أو بعمل الشر ؛ ولذلك فلابد وأن تكون النتيجة المترتبة على ذلك أن يوجد مصير إلى النعيم أو إلى الجحيم ، فأكد الحق ﷻ هذا

1 - سورة : ق ، الآية : 16 - 18 .

الأمر ، وقال بصيغة التأكيد : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .

" **الأبــــرار** " .. جمع : بَر ، و" **البَر** " هو من يفعل البر دائمًا ، وكلمة : " **بـــــر** " صيغة مبالغة ، تعني أنه ملازم لفعل البر ، وحينما تحدث القرآن الكريم عن البر تحدث عنه مرة بالإجمال ، ومرة بالتفصيل .

فقال إجمالاً : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ﴾[1]، وقال تفصيلاً : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[2] ، أي أن البر ليس أمرًا شكليًّا فقط ، وإنما يجمع بين الأمر الشكلي والأمر الموضوعي ، فلا فرق بين الموضوع والشكل ، ولا يصح أن نقول : ما دام الأمر قد تحقق موضوعه فإن شكله ليس ضروريًّا ؛ لأن الله ﷻ قد جمع بين الشكل وبين الموضوع في هذه الآية .

فعدد الحق ﷻ فيها ألوان البر ، فبدأها ﷻ بالعقائد الغيبية : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ ، ثم عقب عليها بالسلوك العملي .. ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ ، إذن فكل هذا يأتي في السلوك العملي ، وعند الحديث عن السلوك العملي يكون الكلام أولاً عن المال ، فكأن مسألة المال هي المحك في البر ؛ لأن المال في أعرافنا هو الوسيلة لتحقيق المتع والشهوات وتأمين الحياة في نظرنا نحن ، وكأنه يريد أن

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 189 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 177 .

يعقد شركة مع الله ﷻ ، فالمحك السلوكي لمن عنده مال يأتي بعد الناحية العقدية ، ولذلك يقول : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّه ﴾ ، ثم يذكر ﷻ : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ في آية واحدة ، والزكاة هي المفروضة ، وتختلف عن إيتاء المال على حبه ؛ لأنه زائد عن المفروض ، فقد تجاوزوا مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإحسان ، فهم يضعون أنفسهم في موضع التكليف في شيء لم يكلفهم الله به ؛ لأنهم عشقوا التكليف فزادوا على ما كلفهم الله به ، فلم يقبلوا على الزيادة إلا لأنهم قد عشقوا ذلك العمل ، وأحبته نفوسهم ، كما قال الله ﷻ : ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾[1].

كما في قول الله ﷻ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[2] ، وهل فرض الله ﷻ عليَّ ألا أهجع من الليل إلا قليلاً ؟! كلا ، لم يقل أحد ذلك ، فإذا صليت العشاء ونمت ولم تقم إلا عند أذان الفجر ، فقد أديت ما عليك .

والشاهد هنا في هذه الآيات قوله ﷻ : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[3] ، حيث لم يقل : ﴿ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾ كما جاء في **سورة المعارج** ، حيث قال الحق ﷻ هناك : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[4] ؛ لأن المعلوم هو المفروض ، وهو ﷻ يتكلم هناك عن أولئك الذين يؤدون ما عليهم فحسب ، ولكن المقام هنا مقام إحسان ، ففي مقام تأدية الفريضة يجب عليك إخراج ربع العشر من المال ، ولكن في مقام الإحسان فحسب همتك الإيمانية ، فهي التي تحدد مقدار هذا الحق .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .. إن : توكيدية للجملة الاسمية ، واللام أيضًا للتوكيد ، فإن هذه المسألة نتيجة للكتابة التي يقوم بها الحفظة .

1 – سورة : البقرة ، الآية : 184 .
2 – سورة : الذاريات ، الآية : 17 .
3 – سورة : الذاريات ، الآية : 18 .
4 – سورة : المعارج ، الآية : 24 ، 25 .

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ .. وهنا مقابلة لبيان مصير من هم خلاف أولئك الأبرار ، ومعنى كلمة جحيم : هي شدة تأجج النار ، فالجُحْمة : هي شدة تأجج النار وتلهبها ؛ ولذلك يقولون : فلان جحمه الغضب .. يعني جعل الغضب عنده حرارة شديدة ، وجعل وجهه يغلي حتى التهب ، وأصبح مثل شعلة النار .

ونجد هنا انسجامًا تناغميًّا بين كلمة : " **الفجار** " وبين كلمة : " **جحيم** " لفظًا ومعنى ، فكلمة : " **الفجار** " تعني أنهم خرقوا ستر أوامر الله ﷻ ونواهيه ، و " **فجر** " : يعني خرج عن مطلوب الطاعة منه ، وما دام قد خرج عن مطلوب الطاعة فيكون مصيره الجحيم ، فهناك انسجام في اللفظ والمعنى .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .. وعندما نستعرض كلمة يصلى في القرآن نجدها تأتي دائمًا في الكلام عن النار .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ .. يزيد الله ﷻ الأمر توكيدًا وتقريرًا ، فيقول : ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ ، لا فرارًا ابتداءً ، ولا خلاصًا بعد الوقوع فيها ، ولو إلى حين ، فيتم التقابل بين الأبرار وبين الفجار ، وبين النعيم وبين الجحيم ، مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم .

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه ؛ ليقرر حقيقته الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل ، وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون ، وليقرر تفرد الله ﷻ بالأمر في ذلك اليوم العصيب ..

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .. وكلمة : " **أدراك** " يُفهم منها أن هناك أملاً في أن يدريه الله ﷻ ؛ لأن الله ﷻ قد نفى أن يكون قد درى في الماضي ، وما دام قد نفى ذلك عنه في الماضي فإنه يمكن في المستقبل أن يدريه ، أما : " **ما يدريك** " فهي نفي الإدراء المستقبل أيضًا ، يعني : لن تدريه أبدًا ، فإذا رأيت ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فاعلم أن هناك أملاً في أن

تدريه ؛ لأن النفي قد جاء في الزمن الماضي ، ولكن " ما يدريك " فالنفي فيها في الزمن المستقبل .

﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ .. وهنا تكرار للجملة ، وتقرير لها بـ : " **ثم** " ، فكأن هناك إدراءين : إدراءً إخباريًّا وإدراءً واقعيًا ، **الإدراءالإخباري** : هو ما يخبرنا الله ﷻ عنه ، **والإدراءالواقعي** : فهو ما سوف يشاهده الإنسان بنفسه ؛ ولذلك قال الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، فالصور الكلامية لن تفي بالمطلوب من الإدراء الواقعي ؛ لأن الصور الكلامية تأتي على وفق أداء لغة الإنسان ، واللغات ألفاظ وضعت لمعانٍ ، والمعنىَ دائمًا متقدم على وجود اللفظ ، حيث يوجد المعنى فيوجد له اللفظ ، وحيث كانت تلك الأشياء غيبية كلها ، فإن معناها ليس عندنا ؛ لذلك فلم توضع لها ألفاظ نستطيع أن نعرفها أو نفهمها ، وكل ما يأتي به الحق ﷻ فمجرد تقريب لذلك اليوم ، فالذي يجعلك تفهم ذلك اليوم على حقيقته هو أن تشاهده .

﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ .. وتلك قضية فاصلة في حياة الإنسان ، وهذا اليوم يمتاز بخاصيتين : **الخاصيةالأولى** : أنه لا توجد نفس تملك لنفس شيئًا ، **والخاصيةالثانية** : أن الأمر كله لله ﷻ ، ومع أن الأمر كله لله ﷻ في الدنيا وفي الآخرة ، إلا أن الحق ﷻ حين خلق الخلق في الدنيا سخر الكون للإنسان ، وأعطاه من أسباب الفكر والقوة والطاقة ما يتفاعل به مع ذلك الكون ، فتعطيه الأسباب مسبباتها ، فيظن الإنسان أن علاقته بالأسباب ، فالسحاب مثلاً هو الذي يأتي بالمطر ، والتربة الخصبة هي التي تنبت الزرع ، وكلها أسباب ، ولكن الله ﷻ من ورائها عند المؤمن ، ولا يقول ذلك إلا المؤمن ، فالمؤمن المتيقن يرى يد الله ﷻ في كل شيء ، وتبقى الأسباب سترًا ليد الله في العطاء فقط ، وقد يقف الغافل عند الأسباب الظاهرية ، لكن المؤمن ينظر إلى ما وراء ذلك ، وفي الآخرة تنفض الأسباب ولا يبقى إلا المسبب وحده ﷻ .



لا وزير ، ولا مشـير ، ولا مجير ، ولا نصير ، ولا صداقـة ، ولا خلة ، ولا شـفاعة ، ولا أي شـــيء من ذلك ، فما كان يعرفه الناس في الوجود الدنيوي من الأسبـــاب ومن النصراء ومن الأولياء سيُمنع ، فهناك حياة مع المسبب فقط ، وما دامت حياة مع المسبب فقـط فيكون الأمر لله ﷻ ظاهرًا وباطنًا .

فإذا اغتر إنسان بجاهه عند إنسان فقـل له : إن هذا لا ينفعك ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يمدنا بما نعد به أنفسنا لهذا اليوم ؛ حتى نظفر بلقائه وحسن جزائه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه

والحمد لله رب العالمين . .











سورة المطففين





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد . .

فمع سورة جديدة من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم ، وهذه السورة تأخذ سياقها من التي قبلها ، ويلتقي سياقها مع ما بعدها في الغرض العام الشائع في هذا الجزء من أجزاء القرآن ، وهو تأكيد أمر البعث واليوم الآخر ، ذلك التأكيد الذي يتكرر في كل مناسبة في سور هذا الجزء ، وإذا كان أمر البعث قد أخذ هذا الحيز ؛ فلأنه يأتي في الناحية الثانية من القمة الإيمانية التي بدأت بالإيمان بالله ﷻ ، ثم ثنت بالإيمان بما يخبر الله ﷻ به من أمور الغيب كلها كالملائكة والكتب والرسل والقضاء والقدر واليوم الآخر ، فإن اليوم الآخر هو الحصيلة النهائية لذلك الإيمان كله ، فمن لم يؤمن بالله راغبًا فليؤمن بالله راهبًا ؛ لأنه سيلتقي به .

وسورة المطففين ترتبط بما قبلها وبما بعدها ، **فسورة التكوير وسورة الانفطار** تعلقتا بمقدمات اليوم في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ... ﴾[1] إلى آخره ، وكذلك في قوله ﷻ في **سورة الانفطار** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ .... ﴾[2] إلى آخره ، وهذه مقدمة لليوم .. أي : الأهوال التي تصيب الكون لتنبئ بمجيء ذلك اليوم .

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 1 ، 2 .

2 – سورة : الانفطار ، الآية : 1 ، 2 .

ثم بعد تلك المقدمة لليوم يأتي شيء آخر ، وهو القيام لله رب العالمين ، وقد تعرضت هد السورة لهذا الجزء من ذلك اليوم .. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ثم تأتي **سورة الانشقاق** بعد ذلك لتدلنا على النهاية النهائية لذلك اليوم بعد مقدماته ، وبعد الوقوف بين يدي الله ﷻ .. يوم أن يأتي أصحاب الإيمان فرحين بإيمانهم ، وينقلبون مسرورين .. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[2] ، ويأتي أصحاب الشمال ينقلبون في غم وحسرة وحيرة .. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾[3] .

فالسياق كله يتعلق بمقدمات اليوم الآخر ، ثم بالوقوف بين يدي الله ﷻ لانتظار الفصل ، ثم بالنهاية التي يتوزع فيها الناس حسب أعمالهم حين يأخذون كتبهم إما بأيمانهم وإما بشمائلهم ، أو من وراء ظهورهم .

وأيضًا هناك مناسبة بين هذه السورة وبين السورة التي سبقتها وهي **سورة الانفطار** ، والسورة التي تليها وهي **سورة الانشقاق** ؛ لأن **سورة الانفطار** إنما تعرضت للكتبة الذين يكتبون أعمال الناس .. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[4] ، فمهمة هؤلاء هي أن يكتبوا ، ثم بعد ذلك تأتي السورة التي نحن بصددها ، وهي **سورة المطففين** تتكلم عن المكتوب نفسه .. ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ، ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فتعرضت السورة الأولى للكتبة ، وتعرضت السورة الثانية للمكتوب نفسه ، ثم نتيجة ذلك المكتوب فتتعرض له **سورة الانشقاق** .. ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ

---

1 – سورة : المطففين ، الآية : 6 .

2 – سورة : الانشقاق ، الآية : 7 – 9 .

3 – سورة : الانشقاق ، الآية : 10 – 12 .

4 – سورة : الانفطار ، الآية : 10 – 12 .

أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ [1] .. فهذه السـور تتعرض للكتاب كتبةً ومكتوبًا وغاية واستلامًا .

فتناسب السياق موجود ، ولكن الملاحظ في هذه السورة هو أنها اتجهت إلى شيء آخر يتأتى بعد العقيدة ، وهو المنهج السلوكي للبشر .. واقع الحياة .. طبائع النفوس .. انتقلت فجأة من أمر عقـدي كانت الدعوة مسـتهلة بـه في العهد المكي ، إلى أمر تقـريري يقـرر نظم الحياة والسلوك ، والعجيب أن بدء السورة كان بهذه المسألة .

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. انتقـل الحق ﷻ من الحديث عن العقيدة إلى الحديث عن أمر سـلوكي ينظم تعامل الناس في الأرض ، مع أن هذا الانتقـال إنما كان من شـأن السور المدنية ، بـعد أن صار للإسـلام دولة تقـنن النظم ، وتضع الأسس للمجتمع ، وتضع أسس الإيفاء وأداء الحقوق ، والمعايير الدقيقـة بـين الحق والواجب في الناس ، أما أن يكون في سورة مكية فهذا أمر عجيب يستلزم النظر .

والحق ﷻ حينما شحن النفوس هذه الشحنة الإيمانية بالحديث عن الإيمان واليقين باليوم الآخر ، أراد ﷻ أن يلفتنا لفتة إلى أن العقائد ليست مطلوبـة لذاتها ، وليس الإقـرار باللسـان بهذه العقيدة مطلوبًا لذاته ، وإنما العقـيدة وإعلانها ، أي : الدخول في الإسـلام بشـهادة أن

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 7 ، 12 .

لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، كل ذلك وسيلة لغاية ، تلك الغاية هي أن ينظم الحق سياسة البشر وحركة حياتهم .

إذن فالعقيدة والنطق بالشهادتين ، بل والإسلام كله إنما جاء ليؤكد نظامًا يسوس هذه الحياة وينظم حركتها .

فإن الخالق ﷻ حينما خلق الكون خلقه على لونين : لون لا اختيار للمكوّن فيه ، بل هو مسخر مُسَيَّر لا يملك أن يختار غير الطريق الذي قد رُسم له لتحقيق هدفه ، وهذا هو الكون كله باستثناء الإنسان ، وهو اللون الثاني : الإنسان ، فكل شيء ما عدا حركة الإنسان جاء بقانون التسخير .

ثم بعد كل ذلك التنسيق يفسد الكون حين يتدخل الإنسان بحركته وبجهله وبتنظيمه وبتشريعاته للأشياء ، ولذلك نقول : إن الحق ﷻ لفتنا هذه اللفتة حينما قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ .. من في السماوات ومن في الأرض من الغيبيات كالجن والملائكة ، بدليل أنه سيتكلم عن الإنسان بعد ذلك ، ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ .. هذه هي أجناس الوجود كلها ، ثم لما جاء الحديث عن الإنسان لم يقل : والإنسان ، وإنما قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [1].. إذا فلم ينقسم الكون أبدًا إلا عند الإنسان ؛ لأن الإنسان له فكر وله غاية ، يختار بفكره ، أو يجمح بهواه إلى أشياء قد تخالف النظام المفروض على الناس ؛ لأنها تحقق للإنسان شهوة عاجلة ، ولا ينظر فيها إلى الجزاء الأخروي .

والمجال المقصود لهذا الكون كله هو أن يسير على قانون ثابت ، هذا القانون الثابت يعبر الحق ﷻ عنه بالميزان : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [2].. إذا رأيتم الأرض والسماء وجميع أجرام

1 – سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 – سورة : الرحمن ، الآية : 7 ، 9 .

الكون منتظمة في سيرها بشيء من الدقة لا تتصادم ولا تتعارض ، ولا يتأتى لها عطب فاعلموا أنها موضوعة في نظامها بميزان ، فإن أردتم أن تستقر أمور حياتكم هذا الاستقرار الدقيق فخذوا ذلك الميزان ممن خلقكم ، وما يجعل عالمكم يفسد هو أن تتركوا الميزان الذي وضعه لكم الله ﷻ ، ثم تضعوا من عندكم موازين بشرية ، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .. هذه واحدة ، ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ وهذه هي الثانية ، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .. إذا أردتم أن تستقيم أموركم – حتى الاختيارية منها – كما استقام الكون كله في نظمه العليا فخذوا نظام الله ﷻ وحكموه في حياتكم وأموركم .

ومن هنا جاءت هذه السورة لتؤكد أمر الميزان ، والميزان هو الآلة التي عرفها البشر أولاً في تقرير استيفاء الحقوق وأداء الواجبات ، فكل شيء بميزان دقيق .

إذًا فالحق ﷻ نقلنا نقلة من تأكيد الإيمان باليوم الآخر إلى شيء عملي في الحياة ، هذا الشيء العملي يقرر مبدأ عامًا ، فقد أخذ الحق ﷻ مبدأ من المبادئ التي هي الأساس في قوام الحياة ؛ لأن علم الإنسان في هذه الحياة محدود ، وزمنه لتعليم الأشياء محدود ، وحاجاته لا تنتهي ، فمع علم محدود وزمن محدود يواجه حاجات لا تتناهى ، فليس من الممكن أن يوجد إنسان يكون أمة وحده ، يستطيع أن يقوم بكل زوايا حياته لنفسه ، ولكن لابد من أن يقوم بزاوية من زوايا حياته ، ويصنع فيها شيئًا ، ويترك للآخرين مجالاً ليصنعوا في زوايا حياته ما لا يعرفه هو .

وهذا هو مبدأ التكامل بين الناس ، وما دام الناس متكاملين .. هذا يعطي هذا ما عجز عنه ، ثم يأخذ من الآخر ما عجز هو عنه ، فكل واحد يأخذ زاوية من زوايا الحياة يتفوق فيها حسب موهبته وقدراته ، ويؤدي مهمة لنفسه وللوجود من حوله ، فإذا ما أدى الإنسان ذلك كان هناك وسيلة للتبادل ، هذا التبادل ينشأ من وجود منتج ينتج أكثر من شيء ، فيأخذ حاجته ، ويرد ما زاد على حاجته على من لم ينتج أصلاً .



إذن فعملية التكامل لا يمكن أن تتأتى إلا بالتبادل ، هذا التبادل هو أن يصبح كل إنسان منتجًا في زاوية من زوايا الحياة ، ينتج لنفسه ولغيره ، والآخر هكذا ، أنا آخذ من غيري ما لا أحسن عمله ، وهو يأخذ مني ما لا يحسن عمله ، وذلك يؤدي إلى التكامل في المجتمع ، فهناك شيء اسمه الحق ، أنا آخذه ، وهناك شيء اسمه الواجب ، ينبغي عليّ أن أؤديه ، والفيصل بين الحق والواجب هو أن توزن الأمور بموازين العدل والإنصاف .

إن مكونات الحياة – كما خلقها الله ﷻ – أن يطعم الله الناس من جوع ، وأن يؤمنهم من خوف ، فكل حركة الحياة للإطعام من الجوع وللأمن من الخوف ، والأمن من الخوف قوام المعاني النفسية ، والإطعام من الجوع قوام الحياة المادية .

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. يستهل الحق ﷻ هذه السورة بأداة من أدوات الاستيفاء ، وعملية من عمليات أخذ الحقوق وأداء الواجبات ، فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، فقد اختل عندهم ميزان الاستيفاء والأداء ، فيجب أن يكون الميزان واحدًا ، ما تستوفي به يجب أن تؤدي به ، أما أن تستوفي بالمعيار الواسع ، وتؤدي بالمعيار الضيق فذلك هو الظلم الذي ينشأ عنه الفساد في المجتمع .

ففساد المجتمع ينشأ من حرص الناس جميعًا على أن يأخذوا حقوقهم كاملة غير منقوصة إن لم تكن زائدة ، ثم حين يطلب منهم الواجب يؤدونه مطففًا ، فلو أن كل إنسان حرص على أن يؤدي واجبه كما يحرص على أن يأخذ حقه لاستقامت أمور الدنيا ، فالحق ﷻ يعرض هذه السورة فيقول : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. ثم بعد ذلك يشرح معنى المطففين فيقول : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. واستهل الحق ﷻ السورة بكلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، وهي نهاية العذاب المؤلم من الهلاك و الحزن

والغم والشر الذي يكتنف الإنسان من كل ناحية ، فالإنسان قد يصيبه عذاب يؤلمه في مادته ، ولكن الغاية من هذا العذاب قد تحبب للإنسان ذلك العذاب فينعم بـه نفسيًّا ، ولكن الويل مختلف ، فهو عذاب مؤلم للحس ، وهو أيضًا همٌّ بالقلب وشرٌّ محيط ، فليس هناك أي منفذ .

ومعنى : ﴿ وَيْلٌ ﴾ هو واد في جهنم ، وهو مكان تجتمع فيه هذه الأمور كلها : المتاعب المادية التي لا حد لها ، والمتاعب النفسية التي لا حد له ، وكل ذلك يعبر عنه الله ﷻ بكلمة ويل .

وهناك من يقول : إن الويل هو الهلاك ، ومن يقول : هو عذاب مؤلم ، ومن يقول : شر محيط ، ولا مانع أبدًا أن يكون الويل واديًا في جهنم ، وتتحقق فيه جميع هذه الأشياء ، فإن الإنسان إذا عُذب وآلمه العذاب يظل ينتظر غاية من الغايات تخفف عنه هذا العذاب ، أما إذا كان مصيره جهنم خالدًا فيها ، فلن يخرج منها ، ولن يكون عنده أمل في أن يخفف عنه .

إذن فاستهلال السورة بـ : ﴿ وَيْلٌ ﴾ وهو العنف في العذاب الشديد ، لم يأتِ بعد ذلك بما هو متوقع ، فلم يقل مثلاً : ويل للقتلة ، أو : ويل لأصحاب الفحشاء ، أو ما شابه ذلك ، ولكنه يذكر شيئًا مما يستصغره الناس : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .. والتطفيف هو الازدياد اليسير ، من طَفّ الصاع أو الكيل ، وذلك حين تأخذه من جانب وتضعه في جانب آخر فقد تخونك يدك ، فيكون ذلك سببًا في الويل .

وهل يستحق هذا التطفيف القليل أن يكون جزاؤه هذا الجزاء الشديد ؟! نعم ، لأن هذا الشيء القليل يدل على حقارة النفس ، كأن تكون غنيًّا ، وتمتلك الجاه من الشيء التافه ، وإذا كنت تفتري في الشيء التافه فالافتراء على الشيء الأكثر منه وارد ، لأنه ما دامت النفس قد وصلت إلى هذا المستوى وتريد أن تأخذ من الشيء الحقير ، فمن باب أولى أن تأخذ من الشيء الأكبر .

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ .. وعندما ننظر إلى الأداء القرآني نجده



يصور لنا حالة اجتماعية كانت شـائعة وموجودة ، فهناك من يملكون أقـوات الناس بجاههم وبسلطانهم وبمركزهم وبما يملكون من أموال ، ولذلك تجد العبارة القـرآنية : ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ .. فكان القـياس أن يقـول : اكتالوا من الناس ، يعني : أخذوا منهم كيلاً أو وزنًا ، ولكنه قال : ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ ، فكأن الاكتيال ليس منهم ؛ لأن : " **منهم** " تدل على المساواة ، أما : " **عليهم** " فتدل على أن الذي اكتال له من السلطان ومن السـيطرة ومن القـهر ومن الإرهاب ومن التمكن ما لا يجعل للمكتال منه سببًا في اختياره .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .. فلم يقـل : " كالوا " ، وإنما قـال : ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ ، فهم ليسوا ملحوظين في الصفقة ، كأن شـخصًا يعقـد صفقـة مع غيره ، وذلك الذي يعقـد معه الصفقـة لا وجود له ، فلا هو آخذ ولا هو معطٍ ، فالآية تفيد أن هناك جماعة مسيطرين على اقتصاديات الناس ، ومسيطرين على مقومات الحياة ، فإذا أخذوا منهم أخذوا حقوقهم باستيفاء يصل إلى درجة الجور ، وإذا أدوا هم فإنهم يُخْسِرون .

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ .. تدل على أن الطرف الأخير معطٍ ، والطرف الأول آخذ ، وكالوهـم : اكتالوا منهم ، وكالوهم يدل على العكس ، وهذا يدلنا على أن أصحـاب المحاصيل أو المنتجين يذهبون بإنتاجهم أول العام ويعطونها للسادة ، ثم بعد ذلك يأتون تباعًا ، فيأخذون أقواتهم يومًا بيوم ، وذلك يدل على سيطرة غاشمة ، يريد الحق ﷻ أن يعالجها .

ومما يثير العجب أن هذه السـورة مكية ، أي نزلت بمكة ، ونحن نعلم أن السـور المكية لم يكن من خصائصها تقنين القوانين ، ولا سن التشريعات [1].

ولكن الحق ﷻ يريد أن يعطينا لفتة هامة عند الحديث عن العقـائد ، وهو أن العقـائد والعبادات مطلوبة بذاتها ، وليست مطلوبـة لذاتها ، إن العقـيدة والعبـادة عبـارة عن وسـيلة

---

1 - نعم .. هناك من قال : إنها مدنية ، كالحسن وعكرمة ، ومن قال : إنها نزلت بين مكة والمدينة ، ولكن الراجح كما قال ابن مسعود والضحاك ومقاتل أنها مكية والله أعلم .

لشحن النفس لكي تستقبل نظام الله ﷻ في حركة حياة الناس ، فجاء بذلك الشيء الذي كان له وجود في قريش صاحبة رحلتي الشتاء والصيف ، وهي التي تتحكم في المسائل كلها ، وأهلها هم السادة المطاعون ، ولا أحد يقدر على أن يرفع رأسه عليهم .

ويلاحظ أنه حين قال : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ لم يأت بالميزان ، ولكن حين قال : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ ﴾ أتى بالكيل والميزان معًا ، مما يدل على أنهم من جبروتهم وقسوتهم كانوا يأخذون كل شيء بالكيل ، وعندما يعطون ويبيعون ، فإنهم يبيعون شيئًا بالكيل وشيئًا بالوزن ؛ لأن الكيل قد يمكنهم من التطفيف ، ولكن الميزان عملية واضحة والتطفيف فيها صعب نوعًا ما .

فأراد الحق ﷻ في خضم إهاجة الناس بذكر البعث واليوم الآخر والإيمان به أن يدخل في صميم المسألة التي تتعلق بأوليات الحياة ، وهي الكيل والوزن ، ليس المراد هو الكيل والوزن فقط ، وإنما المراد هو استيفاء الحقوق ، فالأجير مثلاً كما أنه يأخذ حقه فلابد وأن يؤدي واجبه ، والموظف يأخذ راتبه فلابد وأن يقوم بدوره ، فكل أداء وكل إيفاء لابد أن يخضع لمنطق الميزان والعدل والحق ، فإن أراد الناس أن تستقر أمورهم اقتصاديًا ومعنويًا وأدبيًا واجتماعيًا فليضعوا هذا المبدأ نصب أعينهم ، وهو أن يستوفوا بالمعيار الذي يؤدون به ، فمن أراد أن يستوفي حقًا له فلابد وأن يؤديه حين يكون عليه يومًا ما ، ولا تجد فسادًا في أي مجتمع إلا حين يخالف الناس هذه القاعدة .

وقد يتساءل البعض : ما الذم في أنهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؟! فنقول : إن الويل في الآية للمجموع ، أي أنهم عندما يأخذون يستوفون ، وعندما يعطون ينقصون ، فليس الويل للاستيفاء في الأخذ فقط ، وإنما لقرنهم الاثنين معًا ، فيكون ذلك نموذجًا سلوكيًا في النفس ، فلماذا عندما تأخذ تستوفي ، وعندما تعطي تنقص ؟!

وعندما نتدبر في كلمة : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ، هل هي خبر أم دعاء .



فمن المعلوم أن الذي يدعو على إنسان بالويل لا يملك أن ينزل به الويل ، فهو يدعو من يقدر على إنزال هذا الويل بالمدعو عليه ، فإن دعوته تدل على عجزه عن أن يلحق الويل بخصمه ؛ لذلك دعا من يملك ويقدر على أن إنزال هذا الويل .

لكن إذا كان الله ﷻ هو الذي يقول هذه الكلمة ، وهو القادر على أن ينزل ذلك الويل ، فقد التقى الدعاء والإخبار في قول الله ﷻ ، فالدعاء من العبد شيء والإخبار شيء آخر ، ولكن حين يصدر من الله ﷻ ، فالدعاء من الله على خلقه بالويل معناه أن الويل واقع لا محالة .

إذن فلا مجال لاختلاف المفسرين فيها : هل هي دعاء ، أم خبر ؛ لأن الدعاء والخبر بالنسبة لله ﷻ سيان ، فما داما صادرين منه فهما واقعان ، فإذا كان الله ﷻ هو الذي يدعو فقد التقى الدعاء مع الخبر ، وتكون : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ دعاء عليهم ، وفيها إخبار كذلك بأن ذلك حاصل .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ .. يعود مرة أخرى لنفس الموضوع ، وقد استُهل الأسلوب بإهاجة النفس للإيمان باليوم الآخر ، ثم يذكر قضية اجتماعية تتعلق بمعاش الناس ، ثم بعد ذلك يعود إلى القضية الأصلية ، ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ ﴾ .. والسبب في أنه ذكر الظن هو أن مجرد ظن الشر يكون كافيًا في أن يردع الإنسان عن العمل ، فلو قال لي شخص : لا تسر من هذا الطريق ؛ لأنني أظن أن فيه خطرًا ..فدفع الشر في هذه الحالة يجعلني أعتبر الظن كأنه يقين ، فإذا كان مجرد الظن يكفي هؤلاء في أن يرتدعوا عن التطفيف ، فما بالك إن كان يقينًا ؟!

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ .. وهنا استفهام تعجب لحالتهم ؛ لأن مقاييس النفع والانتفاع يجب على العاقل ألا ينظر إليها نظرة آنية ، فالنفع ليس هو ما ينفعني الآن ، لكن النفع هو الذي لا منغصات بعده ، فليس كل شيء يحقق لي نفعًا ذاتيًا الآن يكون حسنًا ، فهذا التطفيف سيؤدي إلى نفع عاجل بشيء بسيط ، ولكن لو نظروا إلى نتائج الأشياء

فسيجدون أنه يحقق ضررًا أكثر وأكبر وأخلد .

وفي هذه الآية فائدة عظيمة أيضًا ، وهي أن الذين يصنعون ذلك شر من الكفار ؛ لأن الله ﷻ قال عن الكفار : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[1] ، ولكن هؤلاء لا يوجد عندهم حتى الظن في اليوم الآخر ولقاء الله ﷻ .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .. ووصف الحق ﷻ ذلك اليوم بالعظمة ؛ لأنك إذا قارنته بأي شيء وجدته أعلى منه وأعظم .

فإذا ما قارنت النفع العاجل في يومك الحاضر بالنفع الآجل يوم القيامة وجدت أن نتيجة المقارنة واضحة ، فمن مبادئ الاقتصاد أنني إذا أردت أن أقوم بصفقة تجارية فإن ذلك لكي تحقق لي نفعًا أكبر مما بذلته فيها ، فإن لم تحقق لي ذلك النفع فإنها تكون صفقة فاشلة .

فهؤلاء الذين يطففون المكيال يريدون أن يحققوا لدنياهم شيئًا من الرخاء والرفاهية ، وهذا في حد ذاته حسن ، ولكنهم ليسوا اقتصاديين ؛ لأن هذه الصفقة لم تحقق الربح المناسب ، وهو أنهم ضحوا بآخرتهم لأجل متاع قليل من متاع الدنيا ، وهذا من الخسران المبين .

فهذه الدنيا مثلاً لا نتعب أنفسنا في حساب عمرها ؛ لأن عمر الدنيا عندي هو مقدار حياتي فيها ، فإن بقيت الدنيا مليوني سنة فإنما تبقى لغيري ، ولكنها منتهية لا محالة ، إذن فأنا عندما أقيس النفعية أبحث في مقدار حياتي في الدنيا ، فإذا ما كانت حياتي فيها غير متيقنة ، فمن الممكن أن أعيش سبعين سنة أو مائة سنة ، ومن الممكن أن أموت الآن ، فمع كونها محدودة فهي ليست متيقنة أيضًا ، وأيضًا فالنعيم فيها يكون على قدر إمكانياتي في أسباب المعيشة ، ولكن النعيم في الآخرة إنما يكون على حسب قدرة الحق ﷻ .

إذن فحينما أقارن الدنيا بالآخرة تكون الآخرة هي الراجحة في أنها غير محدودة ، أما

---

1 – سورة : الجاثية ، الآية : 32 .

الدنيا فمحدودة ومرجوحة ، وأيضًا من ناحية أن عمري في الحياة الدنيا غير متيقن ، ولكن حياتي في الآخرة متيقنة ، والنعيم هنا على قدر إمكانياتي ، ولكن هناك فعلى حسب قدرة ربي ﷻ .

إذن فالمقارنة من ثلاثة أوجه تجعل اليوم الآخر هو الراجح ، وهو العظيم ، وما عداه فليس عظيمًا ولا راجحًا ، فعندما تقارن الأشياء لا تقارنها بما أنت فيه الآن ، ولكن قارنها بما تؤول إليه تلك الأشياء ، فإذا قارنتها بما تؤول إليه هان عليك أمر الدنيا ، وتبين لك أنها زخرف وغرور ، وأنها متاع زائف إذا ما قورنت باليوم الآخر ، فإذا كان ذلك اليوم هو الذي يحقق المتعة الدائمة والنعيم المقيم فإنه يكون هو اليوم العظيم .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وهنا جانب آخر من جوانب العظمة ؛ لأن ضبط أمور الناس في الحياة ترجع إلى بعض الأسباب الكونية ، فهذا يقف أمام قاضٍ ، وذاك يقف أمام وزير ، والمرءوس يقف أمام رئيسه ، يعني أنت واقف موقف المسئول كسبب أمام سبب ، أما في هذا اليوم فلا أحد يقف أمام أحد أبدًا ، بل الكل سيقف أمام الله ﷻ ، فكل الأسباب والأشياء التي خلقها الله ﷻ من أجل صلاحية الكون ونظامه ، كل ذلك سينتهي ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فهذا موقف يجب أن نخاف منه ، فأنت ساعة ما تقرأ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. تشعر بهيبة الوقوف ورهبته ، وكلمة : ﴿ يَقُومُ ﴾ تدل على فزعة الوقفة ، فساعة ما يكون الناس جالسين ثم يدخل عليهم رئيسهم أو المتولي شئونهم فإنهم في الغالب يهبون للوقوف له ، ولله المثل الأعلى ، فما بالك برب العالمين ﷻ ؟!

فكلمة : ﴿ يَقُومُ ﴾ هذه تنبه على أن الناس في غير ذلك اليوم كانوا قاعدين في تراخٍ وتكاسل ، ولكن عندما جاء هذا اليوم فإن الكل يقوم ينظر ؛ ولذلك فمن هول ذلك الموقف وشدته أن الناس يتمنون انصرافهم ولو إلى النار ، وكل ذلك يدل على هول الموقف وشدته .

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أيضًا فيها إيحاء وإشارة ، حيث يكون القيام أمام الرب ﷻ ، الرب المتولي التربية ، المتولي التأديب ، أي أنك لا تقف أمام من ليس لديه عنك فكرة ، أو من لا علم له بك ، كلا .. إنه ربك ، مربيك ومعدك الإعداد التربوي العقدي الذي يجعلك لا تقف له في هذا اليوم إلا موقف العزة ، إذن فأنت تقف أمام من يعلم كل شيء عنك ، لا تستطيع أن تقول : أنا لا أعرف .. لأنه أرسل إليك رسلاً ، ولا تستطيع أن تقول : ليس عندي استعداد .. لأن الله ﷻ قد خلق لك عقلاً تفكر به وتعقل .

إذن فكلمة : " رب " تفيد هول الموقف ، حيث إنك واقف عند خالق يعلم خلقه ، ويعلم الأطوار التي مرت بها عملية الخلق ، ويعلم أنه ما جعل لخلق من خلقه حجة ولا عذرًا ، وما دام لم يجعل لخلقه حجة ولا عذرًا فإن الموقف هنا موقف عسير إلا على من يسره الله ﷻ له .

كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ﴾ .. بعد ذلك يتحدث الله عن الفجار ، ثم يرجع إلى الكتاب ، وكما قلنا : إن السورة السابقة تعرضت للكاتبين ، وهنا يتعرض للكتاب نفسه : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ، ثم يشرح معنى سجين ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ، يعني : شيء يُستفهم عنه ، شيء لا يمكن للعقل العادي أنه يعرفه ما لم يُخبر به من يعرفه ، فعندما يقول لك : وما أدراك ما كذا ؟! يعني : لا توجد عندك أسباب تعرفك ما هو ، إلا إذا كنت أنا أعرفك ، فكأنه بلغ من دقته ، وبلغ من عظمته ، وبلغ من غيبيته عن مستويات

الناس ، أنه لا يمكن أن تعلمه إلا إذا أخبرك به خالقك .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كما قلنا : تفيد الردع والزجر ، والردع والزجر منصب على ما قبلها ، وهو : ﴿ أَلاَ يَظُنُّ ﴾ ، أي : أنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ، فزجر عن هذا ، ثم سماهم فجارًا ، لأن الفاجر هو الذي يخرق ستر التكليف ، فَجَر يعني : شق ستر الطاعة ، أو شق ستر التكليف ، ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. يشرح لنا الحق ﷻ معنى كلمة سجين ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ .. أدرانا هو ، فقال : ﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. فإذا وجدت : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ في القرآن فانتظر أن يُعْلِمَك الله به ، أما إذا وجدت : ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ فلا تنتظر أن تعرفه ، لأن ﴿ مَا يُدْرِيكَ ﴾ نفي للإعلام في المستقبل ، أما ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ فهي نفي للإعلام في الماضي ، ونفي الإعلام في الماضي يمكن أن يتم الإخبار به في الحاضر أو المستقبل ، أما عندما ينفى الإعلام في المستقبل فذلك يعني أنه لن يتم الإخبار به ، فتكون المسألة قد انتهت .

﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ يفسرها العلماء بقولهم : الرقْم وسيلة من وسائل التوثيق ، وهذا دليل على أنه لا يضيع أبدًا ، هذا معنى ، وهناك معنى آخر ، وهو : مرقوم : أي له رقم بحيث يعلم به ويعرف ، وبحيث يكون سمة له ، فعندما يراه الناس يقولون : هذا كتاب الفجار .. وكأنه كتاب فيه من سمت البشاعة ما يوحي لمن يراه بأنه كتاب فجار ، وهذا معنى ثانٍ ، والمعنى الثالث هو أن : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أي : مخطوط ، ومعنى الخط هنا : أنه لا يتخطى شيئًا مما كُتب فيه ، ولا يتصور أحد أنه يُزاد فيه أو يُنقص .

إذن فهو كتاب موثق أتم التوثيق ، والذي كتبه هم الذين قال عنهم من قبل : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[1] ، وكلمة : ﴿ سِجِّينٍ ﴾ مأخوذة من السجن ، وهو الحبس ، فكأن الكتاب موضوع أيضًا في سجين مبالغة في السجن ، فيكون

1 - سورة : الانفطار ، الآية : 10 - 12 .

معنى ذلك أنه كتاب محافظ عليه ؛ لأنه مرقـوم ، ومُعلَّم بـعلامة ، بحيث أنك عندما تراه تقول : هذا كتاب الفجار .. لأن له بشاعة وشدة ، فينفر منه الناس ، ومختوم بختم بحيث لا يمكن لأحد أن يفتحه ، أو أن يغير فيه شيئًا .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .. عاد ثانية للويل ، ولكنه في هذه المرة للذين يكذبـون ، وهؤلاء المكذبـون كثيرون ، والكذب هو أن لا يطابـق كلام الإنسـان الواقـع ، والكذب أنواع ، وكذلك التكذيب أنواع ، وشـره أن يكون تكذيبًا ليوم الدين ؛ لأنـه يكون تكذيبًا بالقـمة ، فمن المعقول أن نكذب في جزئية من جزيئات الحياة ، أما التكذيب بالقمة فهذه مسألة صعبة .

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .. والمعتدي هو الـذي يجـترئ علـى الحـق ، ويـوم الدين حق ، فالذي يكذب به يكون معتديًا ؛ لأن الله ذكر أصلاً عقـديًّا أنت تريد أن تخالفه ، وأثيم لأن عدم إيمانه بـه ، وإعراضه عنه جعله يلج في الإثم ؛ لأن هناك فرقًا بـين الآثم والأثيم ، فإن الآثم هو الذي قد يفعل الإثم ، أما الأثيم فهو الذي قد اعتاد الإثم ، فأصبح الإثم ملكة عنده ، وما دامت عنده ملكة الإثم فسيتكرر منه ذلك الإثم لا محالة .

إن الذي يكذب بيوم الدين رغم كل تلك الآيات التي تذكره بـذلك اليوم ، وتذكره بـهوله ، وتذكره بأنه حق ، عندما يقرؤها يكذب نفسه ، فهذا الإنسان ليس عنده قـدرة على أن يحمل نفسه على مشقة التكاليف ، وعندما لا يجد من نفسه القدرة على حمل مشقـة التكاليف تجده يكذب نفسه ، فيقول : إن اليوم الآخر ليس له وجود ، فنقول له : إن اليوم الآخر له وجود ، ولكن أنت الذي تكذب نفسك ؛ لأنك غير قادر على أن تحمل نفسك على مشقـة التكاليف ؛ ولذلك تريد أن تجعل لنفسـك شـيئًا من الأمل في أن يكون اليوم الآخر غير موجود ، ولكن الرسل كلهم حذروا أقوامهم منه ، جميع الأنبياء تحدثوا عن اليوم الآخر .

﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ .. فأسـاطير الأولين هذه في السـورة كالأساطير التي تحدث عنها السابقـون : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ



بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [1] ، وقالوا : إن الأسطورة هي الشيء من الأباطيل ، وما ليس له وجه ، وآباؤنا أيضًا استقبلوه وأنكروه ، ونحن لسنا بدعًا في هذه المسألة ، فكما عملوا عملنا .. وهذا أيضًا لون من ألوان تكذيب النفس ، حين لم يقدروا على أن يحملوا أنفسهم على مشقة التكاليف .

كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ .. يذكر الحق ﷻ : ﴿ كَلاَّ ﴾ مرة أخرى ؛ ليعطي السبب الذي من أجله تمسكوا بهذا الموقف : الاعتداء والإثم ، وبعد ذلك قالوا : أساطير الأولين ، وهذا الذى حملهم على هذا الهروب من التصديق بهذا اليوم وهم مشركون ؛ لأنهم لو صدقوا باليوم وهم مشركون ، فإنهم يعتبرون عذابهم صحيحًا ؛ لذلك فالأفضل لهم من وجة نظرهم أن يكذبوا بهذا اليوم .

إن الذي جعلهم يقفون هذا الموقف ، أن الرين ، أو طبقة الحجاب ، أو طبقة الصدأ على اليقين ، قد دخلت قلوبهم ، فموقفهم هذا نتيجة ما كسبته أيديهم ، فالذي كسبته أيديهم جعل الران على قلوبهم ، وهذا الران هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في حديث **حذيفة بن اليمان** ﷺ ، إذ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة**

1 – سورة : الفرقان ، الآية : 5 .

بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخيًا ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه "[1] ، ونحن نعرف أن الحصير حين تجف أعواده تُضم وتُربط ببعضها البعض ، إذن فهذه الحصيرة الكبيرة تتكون من عود مع عود ، فالرسول ﷺ يريد أن يشبه الفتنة التي تأتي على القلب بعود الحصير .

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .. يعني : غطى على قلوبهم ، أو عمل طبقة صدأ على قلوبهم ، أو عمل حجابًا على قلوبهم ، وسبب ذلك هو ما كانوا يكسبون ، إذن فكثرة الغفلة هي التي أدت إلى هذا الران ، فلم يجدوا منفذًا ولا خلاصًا أمام نفوسهم إلا أن يكذبوا بيوم الدين ، فتكذيبهم بيوم الدين جاء من الران الذي على قلوبهم .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون ﴾ .. وتأتي كلمة : ﴿ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ بعد : ﴿ بَلْ رَانَ ﴾ ؛ لأن الران هو الحجاب الذي يأتي على القلب ، فكأن الذي لا يريد أن يُحجب عن ربه لا يحجب قلبه ، ومن يحجب قلبه فسيُحجب عن ربه ؛ لأن القلب هو محل الاعتقاد واليقين ، فعندما تحجبه بالإثم والاعتداء والمعاصي فإنك تُحجب عن ربك .

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ قد يظن البعض أن هذا معنى نفسي ؛ لأن ذلك الحجب إنما يؤلم النفوس ولا يؤلم الأبدان ، فنقول له : إن أمر النفوس والمعنويات ليس لها عندهم اعتبار ، فلو أن عندهم إحساسًا أو شعورًا أو كرامة لكان كافيًا أن لا تجعلهم هذه الأعمال يلتقون بحضرة الحق ﷻ ، فإذا لم يهمهم ذلك ، فإن جزاءهم في قول الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فهذا لا يعفيهم من أنهم صالو الجحيم ، فجاء بالمعنى الحسي المادي .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .. في هذه الآيات

---

1 - أخرجه مسلم (207) .

لون من التقريع يلفتهم إلى الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، كالتلميذ الذي يرسب آخر العام ، فيقول له أبوه : هذا الرسوب نتيجة إهمالك لدروسك ، أو نتيجة عدم انتظامك في دراستك ، أو نتيجة عدم إنصاتك لأستاذك .. إذًا فهذا لون من التقريع ليستحضروا الأسباب التي من أجلها وقفوا ذلك الموقف ، فهي ثلاثة أشياء : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ أن يذكر المقابل ، فيذكر كتاب الأبرار ، حيث يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ ، فكتاب الفجار في سجين ، وكتاب الأبرار في عليين ، وعليون : كلمة تشعر بمقام العلو تحت عرش الرحمن ، أو في مكان معين ، المهم أنهم في عليين .

ثم يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأن للعلو في لغة الناس وفي استعمالهم له معانٍ حسب أداء لغتهم ، ولكن لا نأخذ تلك المعاني حسب مدلولات لغتنا ؛ لأن هذه معانٍ فوق مدلولات لغتنا ، إلا أن الحق ﷻ خاطبنا بالألفاظ التي نعرفها ؛ لأن اللغة ألفاظ توضع بعد وجود المعاني ، ولما كانت هذه الأشياء ليس عندنا لها معنى ، فليس عندنا ألفاظ تؤديها ، فيعطينا الله تمثيلات لها كأنه يقول : لا تظن أن عليين أو سجين كما تفهم من لغتك .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾ .. هنا تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ ، وهناك في الكتاب المقابل تجد : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ أيضًا ، ولكن لا يتفلت شيء من الشر منه إلى الآخر ؛ لأن المكتوب فيه شر ، وهنا : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لا يتفلت شيء من الخير منه إلى الآخر .

إذن فكلمة : ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ لها معنى هنا ، ومعنى آخر هناك ، واللفظ واحد ، ومقصود به أنه كتابٌ سجينٌ ؛ لأن صاحب الشر كان يحب أن يتفلت شيء مما كتب في ذلك الكتاب ؛ لأنه كله شر ، أما صاحب الخير فلا يحب أن يتفلت شيء من الخير فيه .

إذًا ، مرقوم : أي ممنوع أن يتفلت منه شيء .

فكلمة ﴿ مَرْقُومٌ ﴾ : أعطت هناك معنى ، وأعطت هنا معنى آخر ، أعطت هناك معنى مسيئًا ، لأن الحق في الكافر أن يساء ، وأعطت هنا معنى يفرح ، لأن الحق في البارّ أن يفرح .

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. وكأنه كتاب مفرح ، فكل مقرب من الله و من عالمه الأعلى يحب أن يشهده ؛ لأنه ينعم بما فيه ، ويحب الثناء بما فيه ؛ لأن الملائكة ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وهم كذلك : ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] .

إذن .. فالذي يؤدي طبيعة التكليف ، والأداء التعبدي على حق ، مثل هذا يسر من كل عمل وينسجم معه في الخير ، ويفرح عندما يرى أحدًا منسجمًا معه ؛ ولذلك تنسجم الأمكنة بالعباد ، فالعابد عندما يعبد الله في مكان ويصلي فيه ، فالمكان ينسجم معه ، فيصبح المكان عابدًا لا تأتي منه معصية .

وذلك كما قال علي ﷺ : " إذا مات ابن آدم ، بكى عليه موضعان : موضع في السماء ، وموضع في الأرض ، أما موضعه في الأرض فموضع مصلاه ، وأما موضعه في السماء ، فهو

---

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 26 ، 27 .

2 – سورة : التحريم ، الآية : 6 .

مصعد عمله الطيب " .

وكما قال ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[1] .

ولذلك قال الحق ﷻ عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾[2] ، فنفى أن تبكي عليهم السماء والأرض ، وهذا يعني أنها تبكي على مقابلهم ، وإلا لو كانت طبيعتها أنها لا تبكي ، لم يكن البكاء يذكر في حقها ، ولكن الله ﷻ قال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، فيكون ذلك دليلاً على أنها تبكي على المقابل الذي هو من المسلمين القائمين بمنهج الله ﷻ .

وهذا البكاء هو أسمى ألوان العواطف التي تميز بها الإنسان ، فلم يجعل الله ﷻ للأرض تسبيحًا فقط ، وإنما جعل لها عواطف أيضًا ، بحيث إنها لا تبكي على الفاسق أبدًا ؛ لأنها استراحت منه ، ولكنها تبكي على العابد ؛ لأنها حُرمت من صنف من الوجود ينسجم معها في العبادة .

وقد يكون معنى .. ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أي أنهم يشهدون لصاحبه على صلاح حاله وأعماله شهادة تقربه من الله ﷻ في ذلك اليوم العصيب ، أي يكون ذلك توثيق شهادة بعد أن كان توثيق تثبيت .

---

1 - أخرجه مسلم (744) ، وأحمد (9083) ، وأبو داود (741) ، والنسائي (1125) ، جميعهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

2 - سورة : الدخان ، الآية : 25 - 28 .

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ .. ما هو النعيم ؟! إن النعيم هو ما يتنعم بـه الإنسـان ، أو هو ما يبلغ به الإنسان أوج الرضا وأعلى شـيء منه ، وهذا النعيم يجعله أوجب بـهذا الاسـم من أي نعيم في الدنيا ؛ لأن أي نعيم في الدنيا يكتنفه أمران : إما أن أفارقـه ، وإما أن يفارقـني ، فإن النعيم لا يدوم ، إما أن أموت وأترك النعيم ، وإما أن يتركني ذلك النعيم ، بـــل عندما يكون عند إنسـان في الدنيا حـظ من النعيم ، فلابـد وأن يأتيه شــيء يعكر عليه هذا النعيم ، فإما أن أفارق النعيم ، وإما أن يفارقني النعيم ، لكن النعيم في الآخرة يبقى خالدًا ، وكذلك صاحبه .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ .. وهذه هي عادة العرب ، وكما قـــلنا من قبـــل : إن الصور التي في الآخرة عن الجنة وعن النار وما فيهما إنما يعبِّر عنها بـألفاظ لغتنا ، واللغة يوجد المعنى فيها أولاً ، ثم يوجد له اللفظ ، فنحـن لا نضع في لغتنا ألفاظًا إلا لما نعرفه من معانٍ ، والشيء الذي يكون في الجنة لا يخطر على قلب بشر ، ولذلك لا يوجد أبدًا لفظ في اللغة يؤديه ، ولذلك يقول الحق ﷻ : **﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾** [1]، فذلك مثل فقــط ، وليس وصفًا للجنة ؛ ولذلك يقـول : **﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** [2]، وما دامت النفس لا تعلم ،

1 – سورة : الرعد ، الآية : 35 .

2 – سورة : السجدة ، الآية : 17 .

فإن أي لغة ليس فيها من الألفاظ ما يؤدي المعاني التي تكون في الجنة ؛ ولذلك فإن الله يذكر لها صورة تقريبية ، بما نعلم من لغتنا منزوعًا منها المكدرات ؛ لأن كل نعمة موجودة عندنا يكون فيها شيء يكدر ، أما حين يتحدث الله ﷻ عن الجنة فيقول : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ ، ويشبهه لنا أيضًا بالماء عندنا ، ولم يذكر فيه شيئًا غير ما في الدنيا ، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ [1] ، وذكر وصف ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لأن خمر الدنيا ليس فيها لذة ، فهم يشربونها لأجل السكْر فقط ، ولكنها في ذاتها ليس فيها لذة ، أما خمر الجنة فاللذة الكاملة ، وخمر الدنيا تغتال العقول وتحجبها ، أما خمر الجنة فلا تغتال العقل ، فمع أن الله ﷻ قد أعطانا صورة من الدنيا ، إلا أنه نفى المكدرات الموجودة في تلك الصورة .

إذن فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. يعطينا صورة للنعيم الذي كان موجودًا عند العربي ، و صور النعيم تختلف من مكان لآخر ، فكل إنسان له تصورات في النعيم حسب مرائيه وتصوراته ، فالعربي – مثلاً – أقصى ما يصل إليه من النعيم أن يجلس على الأريكة جلوسًا مريحًا ، وتلك هي فكرة التسامي في النعيم ، لدرجة أنه يعطي الإنسان الجلوس المريح ، وينفي عنه كل المكدرات .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ .. ومعنى ينظرون ، أي : أنهم ليس عندهم مشاغل نفسية تشغلهم ، لذلك فهم ينظرون في جمال الوجود ؛ لأن فيه مشاهد لا تتناهى ، وجمالاً ليس له حد .

فأعطانا صورة للنعيم ممثلة في حياة البيئة على أرقى ما يتصور من النعيم في تلك الحياة .

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ .. كأن اسمه النعيم الناضر ، الذي ينضح على الوجه ؛ لأن الوجه هو المرآة المعبرة عما في النفس البشرية ؛ ولذلك فنحن نستطيع أن نعرف

1 – سورة : محمد ، الآية : 15 .

حال الإنسان .. هل هو فَرِحٌ أم حزين ، أم عنده مشاغل ، وذلك من خلال وجهه .. فلا يوجد شيء ينغص عليهم حياتهم تنغيصًا تنم عنه هذه الوجوه .

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ .. وقال : ﴿يُسْقَوْنَ﴾ ، ولم يقل : يشربون ؛ لأنهم لا يتكلفون عناء سقيا أنفسهم ، وإنما إذا أرادوا أن يشربوا وجدوا فورًا من يسقيهم من الرحيق المختوم .

وكلمة : ﴿رَحِيقٍ﴾ ، تدل على أنه هو الشراب الخالص المصفى ، وهو أيضًا مختوم .

﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ ، فالرحيق في ذاته مصفى من كل الشوائب ، أي معقم وليس فيه عنصر غير المراد منه ، وبعد ذلك مختوم ، والختم دليل على الصيانة المتناهية ، و ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ ، فإذا كان الغطاء الذي تغطى به الزجاجة مسكًا فما بالنا بالرحيق نفسه ؟!

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ .. وهذا هو الموضع الذي يصح أن يكون السباق فيه ، فيكون الحرص عليه ، لا على الطفيف من الأشياء ، أو المهين الحقير من حطام الدنيا وعرضها الزائل .

إذن : فالمنافسة هي أن أجتهد وأجد لأظفر بشيء ظفر به فضلاء ، بدون أن ألحق ضررًا بالآخرين ، وبذلك تختلف المنافسة على الخير عن التمني ؛ لأن مراتب التمني في الخير عديدة :

أولاً : إنسان يرى إنسانًا في خير ، فيحزنه ذلك ، وإن كان هو نفسه في خير .

ثانيًا : إنسان آخر يحزنه أن يكون غيره في خير ، وهو في ضد ذلك الخير . كإنسان فقير مثلاً يرى إنسانًا غنيًا ، فإما أن يتمنى أن يزول ما عنده وإن ظل هو على فقره ، وإما أن يتمنى أن يزول الذي عنده ويأتي إليه ، أو يتمنى أن يكون مثله ، لكن كل ذلك لم يتعدَّ التمني ، والتمني كما يقول الأدباء : بضاعة الحمقى ، فكونك تتمنى الأشياء دون أن تعمل للوصول إلى هذه الأشياء ، فهذه سمة الحمقى الذين ليست عندهم همة .



أما المنافسة فهي غير ذلك ، لأن المنافسة التي نحن بصدد عرضها ، فمنافسة في شيء من الممكن أن يأخذ المتنافسون جميعًا حظهم منه ولا ينقص ، لأنها في أمور الآخرة ، أما في أمور الدنيا فالخير فيها محدود ، فهذا يريد أن يأخذه ، وهذا يريد أن يأخذه ، بحيث إذا أخذه هذا لم يظفر به الآخر ، لكن المنافسة التي عند الله ﷻ فقد قال الله ﷻ عنها : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[1] ، فحظك لا يوقف حظي ، وحظي لا يوقف حظك ، إذن فتلك هي أشرف ألوان المنافسة .

﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. إن الذين يشربون الخمر نوعان : نوع يشرب ليغيب عن الوجود ، ونوع آخر يريد أن يأخذ من الشراب المسرة فقط دون أن يغيب ، فهذا النوع الثاني كان يشرب الخمر ممزوجًا بشيء ، كالماء مثلاً ، فأراد الحق ﷻ أن يبين أنها حتى وإن كانت ممزوجة بشيء فإن مزاجها من تسنيم .

والتسنيم هو أعلى شراب الجنة ، تقول : سنمت التراب ، أي : جعلته سنامًا للبعير ، وهو أعلى شيء فيه . فمعنى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ .. أي : من أعلى شراب في الجنة .

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .. أراد الحق ﷻ أن يفسر لنا التسنيم فقال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ ، ولم يقل : " يشرب منها " ؛ لأننا لن نشرب في الآخرة عن ظمأ ، ولكن عن تلذذ ، فلا نأكل عن جوع ، ولا نشرب عن ظمأ ، فكأنه قال : تنبه أن يشرب هنا معناها : يتلذذ ، فأعطانا يشرب ، وجاء بالباء لنوصل بها المعنى .

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 96 .

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. بعد أن نقل لنا الصور السابقة ، والصورة المقابلة ، واتضحت لنا المسألة ، انتقل إلى معنى هو في الواقع غير مادي ؛ لأنه ليس متعلقًا بالاختيار ، المطففون والمسألة السابقة كانت متعلقة بالاختلاف المادي ، بعد ذلك تعرض الحق ﷻ إلى صورة من الصور الإيذائية التي كان يتعرض لها المؤمنون ، فالتعرض كان نفسيًا وليس ماديًا ، يتحكمون في أقواتهم ويسيطرون عليهم بدليل قوله : ﴿ اكْتَالُوا ﴾ ، فهم يكتالون على الناس سيطرة وجبروتًا واحتكارًا ، لكنه سوف يعرض للصورة معنى نفسيًا آخر ، وهنا يعرض السخرية ، فالكفار كانوا بقوتهم وجاههم وسيطرتهم ومنعتهم وعدتهم ، أمام المؤمنين في ضعفهم وقلتهم وفقرهم ورقة حالهم وعدم القدرة على الدفاع عن أنفسهم ، فكان الكفار في موقف المستعلي ، والمستعلي عادة يهزأ ممن دونه ، فالحق يريد أن يعطي لنا صورة فيقول : حتى غمزة العين استهزاء نحن نراها ونعلمها ، فمثلاً : عندما ترى إنسانًا يعذب بسببك ، ويعذب فيك ، ثم تقول له : أنا أعلم ما يفعلون بك ، إنهم يفعلون كذا وكذا ، فتعدد له ما يحدث معه ، فهذا دليل على أنك معتبر له ، وبصير به ، فذلك لون من إدخال الطمأنينة على النفس ، فعندما يضحك الكفار من المؤمنين ، ويعلم المؤمن أن الضحكة التي

يضحـــكها الكافر القـــوي من المؤمن الضعيف ، أو غمزة عينه ، أو لمزة ، أو أي حـــركة من حركات الاستهزاء والسخرية والتهكم ، عندما يعلم المؤمن أن ربه يرى هذا الاستهزاء بـألوانه المتعددة ، فهذا وحـــده يعزيه عما يحدث ، لماذا ؟! لأن الذي يجازي عليها يراها ، وأخبره بها في الدنيا ، يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. أولاً : قابـل أجرموا بـــآمنوا ، لنعلم أن الجريمة العظمى ، أو الخيانة الكبرى ، هي خيانة الكفر ، ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهنا في الأسـلوب لفتتان : أولاً : كلمة ﴿ كَانُوا ﴾ تدل على أن إخبـار الحق بـهذه الصورة ، إخبـار عن شـيء كان وانتهى ، معنى ذلك أن هذا الأمر الذي يقـع بـكم أيها المؤمنون من استـهزاء هؤلاء وضحـكهم ، سـيصير مدلولاً عليه بـ ﴿ كَانُوا ﴾ ، فلو قـال : إن الذين أجرموا ضحـــكوا ، أو يضحـــكون من الذين آمنوا ، فمن الممكن أنهم ضحـــكوا قبـــل ، وسيظلون يضحكون أيضًا ، ولكنه جاء بكلمة : ﴿ كَانُوا ﴾ التي هي للماضي ، على أن الفعل لا يفيد الاستمرار ، فهذا تبشير بـأن هذه الحالة ستنتهي ، وأن الكفار سيعودون إلى رشـدهم الإيماني ، وسـيرجعون مؤمنين ، وتنتهي هذه الحالة ، أو أنهم سـيموتون وينتهون ، وهذا في الدنيا ، لكن عندما قال ذلك ، لم يقل : ضحـــكوا ، ولم يقـل : يضحـــكون دون ﴿ كَانُوا ﴾ ، وإنما .. ﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. يريد استحـــــــــــضار الصورة ، ومعنى استحـــضار الصورة : أن الفعل المهين ، أو المقـــزز ، عندما تحكي عنه أنه مضى تنتهي صورة وقوعه الإيلامية ، ولكن عندما تريد تبشيع صورتها ، فإنك تستحـضرها حـالة وقـوعها ، فلو قال : ضحكوا ، فإن الصورة تنتهي ، بخلاف كلمة ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ .

فكأنه بـهذا الأسـلوب أراد شـيئين : أراد أن يدل على أن هذه حـــالة لا تدوم ، وعلى أنها حـــالة أصبحـــت في عداد الماضي ، وأراد كذلك الحق أن يستحـــضر لنا الصورة التبـــددية في الفعل ، لا لكي أستحضرها خبرًا ، بل لأستحضرها عيانًا .

﴿ كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ .. ونحن نعرف أن الضحـــــــــك : انفعال من

المفارقات ، هذا الانفعال لا يصطنع ، لأنك إذا سألت عن ماهية الضحك ، لا يستطيع أحد أن يعبر ما هي الأعضاء التي تجعل الإنسان يضحك ، إذن : فنحن لا نعرف ماهية الضحك ، ولا نعرف ما هو تكوينه ، ولا ما هي الأعضاء التي تنفعل له ، ولا ما هي الحالة النفسية التي تتسبب في الضحك .

ولذلك فالحق ﷻ يقول : إن هذه من خصوصياتي : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [1] ، فلا يستطيع العلماء أن يبحثوا في الوظائف العضوية للإنسان ليعرفوا كيف يضحك الإنسان ، والإنسان هو الخاص بهذه الظاهرة ، الضحك والبكاء .. ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ ، يأتي بها في المسائل التي هي مثل الموت والحياة ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [2] ، يأتي بها في الخصوصيات ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ [3] ، دليل على أن مسألة الضحك هذه ، لا يمكن للعقل البشري أن يتسامى ليعرف ماهيتها أبدًا ، ولا يستطيع أن يتحكم في ضحكه ، ولا في بكائه .

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ .. أطلق الضحك دائمًا ، ثم عند المرور بهم أتى بالتغامز ، **والتغامز** : هو غمز العين لتشعر من معك أنك تهزأ ، ولا تحب أن يعرف ذلك من تهيبه ، وإلا كانت المسألة واضحة ، إذن : فكأن صورة الضحك : أنهم إذا جلسوا في مجالسهم الخاصة ولو لم يمر بهم المؤمنون ، يغتابونهم ويهزؤون بهم ، وساعة أن يغمزوا ، يقولون : هؤلاء الذين كنا نغتابهم ونهزأ بهم ، فأتى بصورة مشهدية وصورة غيبية ، الصورة الغيبية : أنهم كانوا منهم يضحكون في مواجهتهم وغير مواجهتهم ، كأنهم أصبحوا مادة للضحك ، وبعد ذلك الصورة المشهدية : أنهم إذا مروا بهم يتغامزون .

أين يعود الضمير في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ ﴾ ؟ أي الضمير في مروا ، والضمير في بهم ؟

---

1 – سورة : النجم ، الآية : 43 .

2 – سورة : النجم ، الآية : 44 .

3 – سورة : النجم ، الآية : 48 .

أولاً : الإسناد في الفعل الأول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ ، ففاعل الضحك : هم الذين أجرموا ، والمضحوك منه : هم الذين آمنوا ، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا ﴾ من الذي مر بالآخر ؟ إن سياق الجمل يقتضي أن يكون المجرمون هم الذين مروا بالمؤمنين ، ويصح أن يكون المؤمنون هم الذين مروا بالكافرين ، وقيل : إن سياق الأسلوب يدل على أن الذين ضحكوا هم الذين مروا ، هم الذين حين انقلبوا إلى أهلهم ، انقلبوا فكهين ، أو أن يكون الأسلوب قد بدأ بالضمير لمن أجرموا ، وبعد ذلك جاء بالضمير للمستهزأ بهم .

وقيل : إن الضمير إذا عاد على شيء ثم بعد ذلك يعود على شيء آخر ، فهذا الشيء مألوف يحدث كثيرًا ، مثال ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [1]، فهنا نفسان ، أي : لا تجزي نفس : هي النفس الجازية ، عن نفس : هي النفس المجزي عنها ، أي : لا يجزي الوالد عن ابنه ، ولا يجزي الابن عن والده ، إذن .. فهنا نفسان : نفس جازية ، ونفس مجزي عنها ، مرة يأتي الضمير للنفس الأولى ، ومرة يأتي الضمير للنفس الثانية ، فيقول : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [2]، ولذلك يأتي بالأسلوب بما يناسب عودة الضمير ، فمرة يعود الضمير على النفس الأولى : ﴿ لاَ تَجْزِي نَفْسٌ ﴾ التي هي الفاعل ، ومرة أخرى يعود على النفس الثانية التي هي المجرورة بعلى ، وسواء كان هذا أو هذا فإن المجرمين ضاحكون مستهزئون وذاهبون إلى أهلهم فرحين .

﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ .. وفي ذلك دليل أن ذلك أصبح غريزة فيهم ؛ لأن الإنسان ذا المروءة إذا حدث منه شيء مخالف للأدب والمروءة مع أي إنسان آخر ، فبعد أن يحدث ذلك منه وتذهب منه الحالة الأولى وهي إرادة السخرية ، يندم وتتأذى نفسه من فعلته ، فكأن الحق ﷻ يقول : حتى لوم النفس على ما اقترفوه لم يحدث ، فإذا ذهبوا إلى

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 48 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 123 .

أهلهم يقولون لهم : ضحكنا من المؤمنين ، واستهزأنا بهم ، ويفرحون بفعلتهم ، أما الذي عنده بقية من كرم النفس ، فبمجرد أن ينفس عن نفسه بالفعل ، يعود إليه بعض ما عنده من كرم النفس ، فتتأذى نفسه من فعلته ، ويحزن على فعلته ، أما هؤلاء فعندما يذهبون إلى أهلهم فإنهم يكونون فرحين بفعلتهم ، حتى لوم أنفسهم لم يحدث منهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ ، وفي قراءة أخرى : ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ ، أي : ناعمين مسرورين فرحين ، لأنهم فعلوا ذلك بالمؤمنين .

إن المؤمن عندما يسمع هذه الآية ، يقول في نفسه : إن الله ﷻ يرى كل هذه الأشياء ، ويحصيها عليهم ، فيبدأ هو بالسخرية منهم حتى في الدنيا ، فكأن الحق يقول لهم : سنجازيهم في الآخرة بما عملوا من السخرية والضحك والاستهزاء ، فضحك اليهود والمشركين لا دوام له ، وسينقلب الأمر عليهم ، فتضحكون منهم بدلاً من أن يضحكوا هم منكم ، والفائدة ستعود عليكم ، فالضحك عليهم سيكون أبديًا .

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. فمن الضالُّ عندهم ؟! إنه هو الخارج عن نظامهم ، حيث إنهم لم يقصدوا الضلال الأخروي ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ولكن ذلك بمفهوم الهداية عندهم ؛ لأنهم لا يعترفون بغير هذه الدنيا الفانية ، فالذي ينجح فيها ويفلح يكون هو صاحب الفلاح عندهم ، ومادام المؤمنون قد اشتروا شيئًا غيبيًا ، إذن فهم الضالون من وجهة نظرهم ، إذن : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ .. بحكمهم في الهداية وفي الضلال ، لا في حقيقة الهداية والضلال .

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ .. من هم الذين أرسلوا ؟ يصح أنهم هم المؤمنون ، أو أنهم هم المجرمون .. يصح هذا ويصح ذلك ، فمعنى : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ .. أي : كأن الكفار أو المجرمين يقولون : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ ، ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا ﴾ ، أي : ما أرسلوا على الذين يتكلمون حُفاظًا عليهم ، أي : أنهم لم يأتوا إليهم ليعدلوا لهم الموازيين وليحفظوهم ؛



لأنهم منكرون ويعتقـــدون أن هذه دعوة كذب أو افتراء ، يقـــولون : إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا ليحفظوا لنا قيمنا ، أو ليحفظوا لنا نفوسنا ، أو ليحفظوا لنا منهج الحياة .

أو : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أي : أن هؤلاء الذين يحكمون بـضلال المؤمنين ، ما أرسلوا عليهم حافظين ليقوموهم ، ليس هم المقـومين لهؤلاء ، إذن : فيحـتمل أن يكون المعنى هكذا ، وأن يكون هكذا .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. اليوم ، أي : يوم القـــيامة الذي هو : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، والذي قـــال عنه : ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وفيه يقـــول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾[1] ، بكل ما تؤديه كلمة : **اليوم** .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ .. ضحك مثل الضحك ، ولكنه للأبد ، لا ينتهي ولا ينفد .

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ .. ينظرون ماذا ؟! وكأن هناك مرور ذليل ، مـرور مضطهـد ، عندما يرون الموقف ، المؤمنون في النعيم ، والكفار في العذاب ، وقد قـيل : إن الكفار يفتح لهم يوم القيامة بابٌ إلى الجنة ، فيقـال لهم : " هلم هلم " .. فيأتي الكافر ، فيغلق البـاب دونه ، حـتى يقـال للرجل منهم بـعد ذلك : " هلم " .. فلا يأتي ؛ لأنه يعرف النتيجة ، سـيذهب فيغلق الباب دونه ، هذا موقف يجعل المؤمنين يتذكرون ما كان منهم ، ويعقدوا المقارنات .

﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .. وكأن هذه أخبار يجب أن تكون مشهودة ؛ لأن قائلها هو الحق ﷻ الذي آمنتم به ، فتكون عملية الجزاء عملية يقينية .

إن كلمة ثواب هنا مثل كلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] ؛ لأن القرآن يبدأ الأسلوب بقـول مفرح ، وبعد ذلك ينهيه بانتهاء مؤلم .

---

1 – سورة : غافر ، الآية : 16 .

2 – سورة : الانشقاق ، الآية : 24 .

كما قلنا من قبل مثال ذلك : إنسان ظمآن ، فأتيت له بكوب من الماء ، وعندما مد يده ليأخذه سكبته ، فهذا الابتداء المفرح ، يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، فلو قال لك : " اسقني " .. ثم لم تعطه من أول الأمر ، لكان أفضل ، وكما قال الشاعر :

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامةٌ   فلما رجوها أقشعت وتجلتِ

إذن ، فقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ .. تهدي للنفس شيئًا من الانبساط ، وبعد ذلك يقول : ﴿ بعَذَاب ﴾ ، فهذا الابتداء المفرح يعقبه ذلك الانتهاء المؤلم ، ومثل ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾[1] ، فالإغاثة تكون بماء شديد الحرارة ، فهي ليست إغاثة ، وكذلك كلمة : ﴿ ثُوِّبَ ﴾ هنا ، فهي بهذا المعنى ، فهي شبيهة بكلمة : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، وفي هذا الوقت يحدث الألم ، لأنه عذاب كان من الممكن أن يكون في مقامه ثواب .

يلاحظ أن الحق ﷻ حينما يتكلم عن الكفار يتكلم بالنار وغيرها من ألوان العذاب ، وحينما يتكلم عن المؤمنين يتكلم بالجنة وغيرها من ألوان النعيم ، لم يأتِ في السور المكية ذكر أنه سيأتي يوم وينصرهم على الكفار ، إلا كلامًا رمزيًا ، كقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾[3] ، ونلاحظ أن القرآن يتحدث عن الآخرة ، ونعيم الآخرة ؛ لأن الله لا يريد من المؤمن أن يستقبل منهج الله ﷻ على أنه سينصره في الدنيا ، ولكنه يريد من المؤمن أن يطرح الدنيا وراء ظهره .

ولذلك فقد روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة ،

---

1 – سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 – سورة : القمر ، الآية : 45 .

3 – سورة : النور ، الآية : 55 .

حدثني أبي ، عن عامر، قال : انطلق النبي ﷺومعه العباس عمه إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، فقال : " ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة ؛ فإن عليكم من المشركين عينًا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم " . فقال قائلهم ، وهو أبو أمامة : " سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ﷻوعليكم إذا فعلنا ذلك " . قال : فقال : " أسألكم لربي ﷻأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم " . قالوا : " فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ " . قال : " لكم الجنة " . قالوا : " فلك ذلك " [1].

فنلاحظ أن النبي ﷺلم يقل لهم : سينصركم الله ، وسيكون لكم في الدنيا كذا وكذا ؛ لأنه كان في وقت تربية الجنود للمعركة ، وهو لا يريد أن يشغلهم بالدنيا ، أو يجعلها في حسابهم أبدًا ، وإن أدخلها في حسابهم بعد ذلك : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [2]، فألمح بذلك ، ليس على أن هذا هو الجزاء ، ولكن حتى لا ينشغل المؤمن بالدنيا ويجعلها في منهجه وفي حسابه أبدًا ، ولكن لماذا جاء في الآيات المدنية بهذا المعنى ؟! لأن العقيدة تربت ودخلوا الدين على أن هذا الدين رافض للدنيا في منهجه وفي حسابه ، ولكن إذا انتصرتم عليهم ، فالغنائم هذه ليست جزاءً لكم على النصر ، ولكن المسألة أن هناك منهجًا للسماء أريد أن يطبق في الأرض ، وأنتم مخرجون لقيادة الناس ، فكأن ما يحدث لكم من الغلبة والفتح والنصر ليس جزاء ؛ لأننا ربيناكم على أن الدنيا مطروحة من حساب النصر ، ولكن نصرناكم لتحملوا منهج الله ﷻإلى كل الأرض ، ولتكونوا خير أمة أخرجت للناس ، فحين يربى المؤمن على

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (34 / 447) .

2 - سورة : الفتح ، الآية : 20 ، 21 .

أن الدنيا ساقطة من حسابه ، فإنه عندما يدخل المعركة الإيمانية ، يدخل وليس في ذهنه إلا هذه الغاية .

ولكن إذا انتكست هذه التربية وضاعت من الأمة ، فهنا يتحقق فيها قول رسول الله ﷺ : " **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** " . قالوا : " أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ " .. قال : " **بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن** " . قالوا : " وما الوهن يا رسول الله ؟ " .. قال : " **حب الدنيا وكراهية الموت** " [1] ، فعندما تحب الدنيا وتكره الموت ، تهون وتضعف أمام خصمك .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .



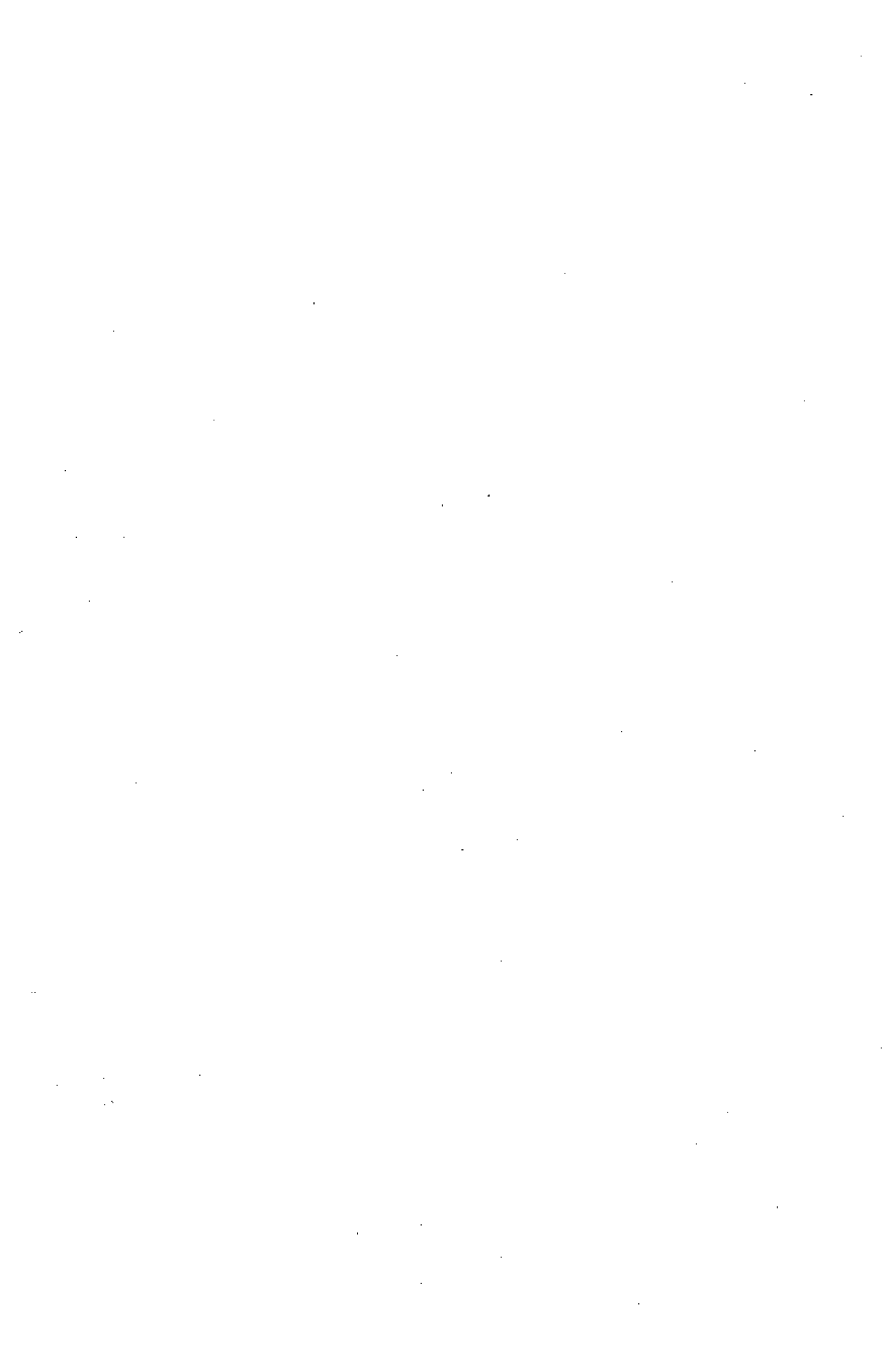
1 - أخرجه أحمد في المسند عن ثوبان (45 / 378) ، وأبو داود في السنن (3745) .





تفسير جزء عم

سورة الانشقاق





بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا

محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ورحمة الله للعالمين ، وبعد . .

تبدأ **سورة الانشقاق** ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في **سورة التكوير** ، ثم في **سورة الانفطار** ، ومن قبل في **سورة النبأ** ، ولكنها هنا ذات طابع خاص ، طابع الاستسلام لله ﷻ ، استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طواعية وخشوع ويسر : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴾ . .

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب الإنسان ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه ﷻ ، وتذكيره بأمره ، وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده .

حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا** ﴾ . .

والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس الإنسان لها إيحاؤها ، ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبهم ومعاناتها : ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ***

---

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الثالث مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ ..

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبًا من حال الناس الذين لا يؤمنون ، وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين ، وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم ، كما جاء في مطلع السورة : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ ..

ثم بيان لعلم الله ﷻ بما يضمون عليه جوانحهم ، وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها **سورة التكوير** في جو عاصف .. سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة بخطوة ، في راحة ويسر ، وفي إيحاء هادئ عميق ، والخطاب فيها هو : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ .. فيه تذكير واستجاشة للضمير .

وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقبًا مقصودًا .. فمن مشهد الاستسلام الكوني ، إلى لمسة لقلب الإنسان ، إلى مشهد الحساب والجزاء ، إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية ، إلى لمسة للقلب البشري أخرى ، إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله ، إلى التهديد بالعذاب الأليم ، مع استثناء المؤمنين بأجر غير ممنون ..

كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر .

وهو ما لم يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ، ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير .. ولكنه القرآن .. ميسر للذكر ، يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة .. صبغة العليم الخبير ﷻ .

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ۝٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦

يلاحظ هنا أننا نجد الشروط مصدرة بـإذا الشـرطية : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ .. نلاحظ هنا أنه لا يوجد جواب شـرط مثل الذي في **سورة التكوير** : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ ... إلى آخر الاثني عشر شرطًا التي في السورة ، ثم قال ﷻ جوابًا لذلك الشرط : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ .. فهذا هو الجواب ، والذي في **سورة الانفطار** : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ، ماذا يكون ؟ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ .

أما قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ ﴾ .. فلا يوجد جواب للشرط ، ومعنى ذلك : أنه لما تقدمت سور عُرف منها جواب الشرط ، حذف هنا جواب الشرط استغناء لما ذكر في نظيره ، وهذه ظاهرة في القرآن ، حتى يقبل الإنسان على قراءة النصوص بتدبر وتمعن ، فمثلاً في قوله ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ

النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] ، فهنا قد يطرح إنسانٌ سؤالاً : طالما أنهم كانوا أمة واحدة ، فلا اختلاف بينهم ، فلم أرسل الله النبيين ؟! فنقول له : هذا دليل على أنك لم تستوعب قراءة القرآن الكريم كاملاً ، فلا تحكم على نص أبدًا إلا بعد أن تبحث عن نظائره في القرآن ؛ لأنه قد يحذف من نص ما يوجد نظيره في نص آخر ، أو في نفس النص .

فقول الحق ﷻ : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ﴾ ، ليست معطوفة على الأولى ، وهي قوله ﷻ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً ﴾ ، ولكنها معطوفة على محذوف مقدر ، والمقدر له قرينة تدل عليه ، وهي : ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ، إذن فالتقدير هو : كان الناس أمة واحدة ، ثم اختلفوا ، فبعث الله النبيين ليحكموا بينهم في ذلك الذي اختلفوا فيه .

إذن فالحذف من النظير جائز ، فهذا الذى ذكرناه من هذا اللون ، وهناك معنى آخر ، وهو أن الحق ﷻ عندما أعطانا ألوانًا متقدمة من أدوات الشرط وأفعال الشرط ، وأبهم جواب الشرط ؛ فإن ذلك لأجل أن تذهب فيه نفسك مذاهب شتى ؛ لأن الإتيان بجواب الشرط يضع الحقيقة في صورة واحدة ، أما الإبهام فيجعل كل إنسان يأخذ الصورة الانفعالية التي تحدث ، كما عند سماعك قوله ﷻ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ إلى آخر الآيات .. فيتبادر إلى أذهان بعض الناس أنه قد يحدث ما يهول أمره ، أو قد يحدث ما يغير نظام العالم الذي ألفته ، أو ماذا يحدث حين يعرض الناس على ربهم ، فيكون عندك عينات من جواب الشرط ؛ لينبهك حتى يكون ذهنك مستعدًا .

وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ ﴾ هي نفسها جواب الشرط ، وقد يكون قوله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ﴾ هي الجواب ، فعندما يقول : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، ما الذي يحدث ؟ يأخذ كلٌّ كتابه ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيحدث له هذا ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيحدث له هذا ، فوزع الشرط في الطرفين ، إذن : فكأنه يقول :

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 213 .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ .. فإذا حدث هذا ، وحدث هذا ، يأخذ المؤمنون كتبهم بأيمانهم ويحاسبون حسابًا يسيرًا ، ويأخذ الآخرون كتبهم وراء ظهورهم ، ويحاسبون حسابًا عسيرًا .

فكأنه حينما شققت الشرط جاء منه مجموع الشرط ، وبعد ذلك يأتي بالتمجيد : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ﴾ .. مثل كلمة الإنسان التي في سورة الانفطار في قوله ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[1] ، أي : يا أيها الإنسان المخلوق في أسمى تكوين ، الذي أمدك الحق ﷻ بالفكر، وأمدك بالمعاني ، وأمدك بالروح التي لها تحليق ، وأمدك بكل ذلك ، ما كان يجب أن تقف هذا الموقف من ذلك اليوم العظيم ، وأنت – أيها الإنسان – كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه .

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ .. وكيف تنشق السماء ؟! ليس من الضروري أن نعرف هذا ، ولكن المهم أن نعرف أنها ستخرج عما ألفناه منها ، وتنتهي إلى أمر لم نألفه ، وتخرج عن رتابتها ، ويخرج الكون كله عن الرتابة المعهودة له .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ .. إن الأذن هي آلة الاستماع ، والاستماع نوعان :

النوع الأول : أن تستمع ، وأنت حر بعد ذلك في أن تطيع وأن تعصى .

والنوع الثاني : أن تستمع وليس لك إلا أن تطيع .

وعلى هذا فالمستمع قسمان : مستمع له خيار، ومستمع لا خيار له ، فالمستمع الذي له خيار يمكن أن يقول : سمعنا وعصينا ، أما الذي لا خيار له فلا يقول إلا : سمعنا ، دون أن ينكر ، كقول الله ﷻ : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[2] .

فأذنت هنا معناها : استمعت ، كما قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيرًا ذُكرتُ به ... وإن ذُكرتُ بشر عندهم أذنوا

1 – سورة : الانفطار ، الآية : 6 .

2 – سورة : فصلت ، الآية : 11 .

فمعنى أذِن ، أي : استمع ؛ لأن الأذن هي آلة الاستماع ، وهل كل من يسمع ممن له خيار في أن لا يستجيب ؟ كلا ، فهذه خاصية خاصة بالإنسان فقط ، بينما المسخرات التي ليس لها أن تخرج عما أمرت بـه ، بمجرد الاستماع يكون الانصياع ، إذن : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ ﴾ ، أي : واستمعت ، و معناها انصاعت ؛ لأنها بمجرد أن تسمع فليس لها خيار ، وحق لها ذلك ؛ لأنها استمعت ممن لا تملك معه خيارًا ، ومن القادر على إنفاذ ما يراد منها ، فعندما يقول : ﴿ أَذِنَتْ ﴾ ، أي : انقادت ، فهذا تفسير بـالأمر النهائي ، ومادام الاستماع من السماء ، والسماء لا خيار لها في أي أمر ، بل هي مسخرة ، مجبورة ، مقهورة على تنفيذ ما يراد منها ، فيكون مجرد السماع كافٍ ، فأذنت بالنسبة للأرض ، وبالنسبة للآمر وهو الله ﷻ ، فمعناها النهائي : انقادت لمراده ، وحق لها ذلك ، أي : هي حقيقة وجديرة بذلك ؛ لأنه ليس لها اختيار مع خالقـها ، فهي مخلوقة على هيئة الانصياع والالتزام ، بمجرد أن يقول لها : انشقي .. تنشق .

﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ .. قديمًا كان العرب يقولون : " مددت الأديم " ، عندما يسلخون الجلد عن الذبيحة لينتفعوا به ، فعند دبغه على الطريقة البدائية ، يحدث له تقلص فيقل حجمه ، يحدث فيه نتوءات ، فإذا بسطت هذه النتوءات عاد إلى حجمه الطبيعي ، فكأن الحق ﷻ يقول : إن الجبال ستكون كالعهن المنفوش ، والأرض والنتوءات والارتفاعات سوف تمد ، كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾[1] ، أي : مدت واتسعت لأجل أن يقف الخلق عليها جميعا ، ليس الوقوف لضيق المكان ؛ لأن المقصود أن نقف ، لا نستريح إلى أن يأتي وقت حسابنا .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .. ألقت الأرض ما فيها ، إما القبور ، أي : الأموات بعثوا ، أو الكنوز والدفائن ، إلى آخر ذلك ، وكلمة : ﴿ وَتَخَلَّتْ ﴾ تفيد الاحتياط في تنفيذ الأمر بشدة .

1 – سورة : طه ، الآية : 106 ، 107 .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : انقادت لأمر الله ﷻ ، مثل السماء تمامًا .

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ ﴾ .. عرفنا الإنسان ومقوماته العليا وما ميزه الله ﷻ بـه في الخلق ، فما معنى كادح ؟ الكدح هو : مجاهدة النفس في أمر من الأمور مجاهدة يظهر أثرها المادي فيها ، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغي العيش أكدحُ

يكدح أي : يتعب في الحياة تعبًا يبدو أثره على نفسه ، فأنت أيها الإنسان سواء كنت كافرًا أو مؤمنًا كادحٌ إلى ربك كدحًا ، أي : غايتك إلى ربك من بدايتك إلى نهايتك ، ولكن هناك فرق في من يكدح في أمر محمود ، ومن يكدح في أمر مذموم ، فهذا كادح في طلب الدنيا والإقبال عليها ومجهد نفسه في تحصيلها ، وهذا أيضًا كادح ، ولكن في طلب الآخرة ، ويحمل نفسه المشاق ، ويقف أمام شهوات نفسه ويتعرض لكذا وكذا ، فهذا كادح وذلك كادح ، ولكن شتان ما بينهما .

وهناك معنىً آخر : وهو أن الحق ﷻ يريد أن يعطينا صورة ، وهي : أن الإنسان هو الذي يكدح ويجاهد لأجل لقاء الله ﷻ ، فكأن اللقاء أمر حتمي لا مفر منه ، ومشوارك في الحياة هو هرولة تجاه ذلك الأمر .

ومادمت كادحًا إلى ربك كدحًا فملاقيه ، فتكون كلمة : ﴿ فَمُلاَقِيهِ ﴾ عندها تتحدد المواقف الجزائية ، فإن كنت على وفق ما أحب ، سيلقاك اللقاء الكريم ، ويلقاك بنعيمه ، وإن كنت على المنهج المضاد فسيلقاك بعذابه ، والعياذ بالله .

فيا أيها الإنسان ، إنك سائر إلى ربك لا محالة ، سواء بكدحك للدنيا ، أو بكدحك للآخرة ، فالاثنان في كدٍّ ونصب ، كما تبين ذلك في قول الحق ﷻ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [1]، فكبد متعلقه بالدنيا ، وكبد متعلقه بالآخرة .

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 4 .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ .. ومعنى ذلك أننا جميعا سنتعرض للحساب ، وهذا هو منطق العدل ، ولكن الحساب نوعان : حساب لعرض ذنوب الإنسان ، يقول الله له : فعلت كذا يوم كذا ، وفعلت كذا يوم كذا ، لكني غفرت لك ذنوبك ، وهذا هو معنى قول النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : " من حوسب عذب " .. قالت عائشة : " أو ليس يقول الله ﷻ : **﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾**[1] ؟! قال : **" إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك "** [2].

فالله ﷻ يعرض علينا ذنوبنا لنعرف النعم التى منَّ بها علينا ، فأنت أذنبتَ ، وأنا غفرتُ ، ثم أذنبتَ ، وغفرتُ ، فهذا اسمه العرض ، واسمه الحساب اليسير .

﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ .. هذا هو السرور الحقيقي ، وليس سرور الذين قال الله ﷻ فيهم : **﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾** [3].

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 8 .

2 – أخرجه البخاري (4558 ، 5506 ، 6504) ، ومسلم (5122 ، 5123) .

3 – سورة : المطففين ، الآية : 31 .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ .. وفي سـورة الحاقـة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾[1] ، وقد قلنا : إن التوفيقات دائمًا عند النصوص تأتي بالتوفيق الذي يكون جامعًا للصورتين ، فالمعنى أنه يأخذه بشماله من وراء ظهره ، وكأنه يأخذه على استحياء من الذي يعطيه الكتاب ، فإما أن يكون عدم المواجهة خجلاً منه وحياءً ، وإما أن يكون الذي يعطيه الكتاب لا يريده أن يرى وجهه .

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ .. والثبور : هو الهلاك ، والعياذ بالله ، ومعنى : ﴿ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ يقول : يا هلاكي .. وا هلاكاه ، وهذا هو المعنى الذي أراده المتنبي وهو يقول :

كَفَى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

ومعنى ذلك : أن الذي هو فيه شر من الموت ، فيقول : وا ثبوراه ، أي : وا هلاكاه ، كما يقول في موضع آخر على لسان الكافرين : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾[2] ، كل هذا من الهول الذي يراه .

﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ .. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه ، وهيهات هيهات ! !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعًا إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء .

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ .. رجع أيضًا إلى الأسباب الحقيقية لهذه المواقف ، حيث إن ذلك الإنسان كان غافلاً عما وراء اللحظة الحاضرة ، لاهيًا عما ينتظره في الدار الآخرة ، لا يحسب لها حسابًا ، ولا يقدم لها زادًا .

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ .. إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، أو ظن أنه لن يرجع عن حالته التي كان فيها ، فأهل النعيم في الدنيا يظنون أنهم سيظلون في هذا النعيم ، ولكن كلا ،

1 – سورة : الحاقة ، الآية : 25 .

2 – سورة : النبأ ، الآية : 40 .

فالأمر على خلاف ما يظنون ، ولو ظنوا الرجعة في نهاية المطاف لاحتقبوا بعض الزاد ، ولادخروا شيئًا للحساب .

﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ .. لقد ظن أنه لن يحور ، ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعًا على أمره ، محيطًا بحقيقته ، عالمًا بحركاته وخطواته ، عارفًا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه .

وكذلك كان ، حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله ﷻ ، والذي لم يكن بدٌّ أبدًا أن يكون .

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح في صورة من صور الكدح تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورًا في حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

يعود بهم القرآن من هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذي يشملهم ويقدّر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال .

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها لتوجيه القلب البشري إليها ، وتلقي إيحاءاتها وإيقاعاتها .. لمحات ذات طابع خاص ، طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب ، وهي تتفق في ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ .. والشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب ، وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، وما فيه من أسى صامت وشجى عميق ، كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون .

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. هو الليل وما جمع وما حمل .. بهذا التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل ، والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير ، ويذهب التأمل بعيدًا ، وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحمله من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر وعوالم خافية ومضمرة ، سارية في الأرض وغائرة في الضمير ، ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. إنما يغمره من النص العميق العجيب رهبة ووجل ، وخشوع وسكون ، تتسق مع الشفق وما يضفيه من خشوع وخوف وسكون .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ .. مشهد كذلك هادئ رائع ساحر ، وهو القمر في ليالي اكتماله ، وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحي بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور ، وهو جوٌّ له خفية بجو ذلك التعبير : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ .. يلتقي معهما في الجلال والخشوع والسكون ..

هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشري ، الذي يغفل عن خطابها الكوني ، ويلوح بالقسم بها



ليبرزها للمشاعر والضمائر في حيويتها وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله وأحوال الناس أيضًا وهم غافلون .

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ .. أي لتعانون حالاً بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها ، والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي ، كقولهم : " إن المضطر يركب الصعب من الأمور ، وهو عالم بركوبه " ، وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة ، وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق ، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة مقدرة ، كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم ، الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة ، وهذا التتابع المتناسق في فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع .

وفي ظل هذه اللمحات الأخيرة والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون ، وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود :

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ .. أجل ! فما لهم لا يؤمنون ؟! إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود ، وفي أحوال النفوس ، تواجه القلب البشري حيثما توجه ، وتتكاثر عليه أينما كان ، وهي من الكثرة والعمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة ، بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها ، بينما هي تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها .

إن القرآن يخاطبهم بلغة الفطرة ، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس

والآفاق ، ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود .. وهو " السجود " ..

إن هذا الكون جميل وموحٍ ، وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل وموحٍ ، وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل ، وبباريء الوجود الجليل ، ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بعظمة خالقه العظيم .

﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ .. إنه لأمر عجيب حقًّا ، يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار ، وما ينتظرهم من مآل .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ .. بل الذين كفروا يكذبون .. يكذبون إطلاقًا ، فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل .

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ .. والله أعلم بما يكنون في صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب .

ثم يترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم ﷺ ..

﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .. ويا لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير !

وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذّبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون ، ويجيء هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين ..

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. وهو الذي يقال عنه في اللغة استثناء منقطع ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء في تلك البشارة

السوداء ثم استثنوا منها ، ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى .

والأجر غير الممنون هو الأجر الدائم غير المقطوع في دار البقاء والخلود .

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهي السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا دائمًا من المصدقين بالساعة ، وأن يجعلنا يوم القيامة من الفائزين بالنعيم المقيم ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين . .

والحمد لله رب العالمين . .




عم
تفسير جزء
سورة
البروج





بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، ورحمة الله للعالمين، وبعد ..

فمع **سورة البروج**، تلك السورة القصيرة التي تعرض حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني .. أمورًا عظيمة .. وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية وأحيانًا كل كلمة في الآية أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة ..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو **حادث أصحاب الأخدود** .. وقصته هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام، والذين قيل إنهم من النصارى الموحدين ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم، فشق الطغاة لهم شقًّا في الأرض، وأوقدوا فيه النار، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فقتلوهم حرقًا، على مرأى من الجموع التي حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق .. حريق الفئة المؤمنة .

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ .. بدأت بقسم مشهدي ، وهي السماء وما فيها من البروج التي لها آثارها في نظام الكون وسنن الوجود .

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .. وهو يوم القيامة ، وهو غيب ، فاستشهد الحق ﷻ بالعظمة في السماء ذات البروج ، وذلك أمر مشهود ، بشيء غيبي وهو : ﴿ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ .

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ .. عطف الحق ﷻ على القسم بعد ذلك ، وبيّن لنا معنى المشهود .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ .. ويجيء جواب القسم ليصور لنا حادثة من حوادث الإيمان مع الكفر .. ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ .

﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .. وهذا تبيين أكثر للحادث .

ثم بعد ذلك أراد الحق ﷻ أن يصور لنا مبادئ المعركة بين الإيمان والكفر ، بين الإيمان المفتون في ضعفه ، والكفر الفاتن في طغيانه ، فعرض الحق ﷻ صورة لهذا الصراع ليبين لنا أن الموقف من هؤلاء الطاغين ضد المستضعفين من المؤمنين ، موقف لا تقره الفطرة ولا العقل .

فالصراع دائمًا يكون بين قوتين ، وحين يكون الصراع بين قوتين ، إنما يكون بين حق

وباطل ، وإذا كان الصراع بين حق وباطل ، فلا يطول ذلك الصراع أبدًا ؛ لأن الباطل زهوق ، وإما أن يكون صراعًا بين حقين ، فذلك لا يوجد ؛ لأنه لا يوجد في قضية واحدة حقان يتصارعان ، وإما أن يكون بين باطلين ، وذلك هو الصراع المشهود الذي يطول ولا ينتهي أبدًا ؛ لأن أحد الباطلين ليس أولى بأن ينصره الله ﷻ على غيره ، فيظل الصراع طويلاً ، فإذا رأيت معركة بين فريقين ولم تنتهِ ، فاعلم أن الصراع فيها بين باطلين .

هذه المعركة التي يصورها لنا الحق ﷻ يقول فيها بمنتهى الوضوح : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. نقموا منهم أي : كرهوا وأنكروا ، إذن فالفئة الفاتنة ، أصحاب الأخدود ، الذين أوقدوا النار ، وطرحوا فيها المستضعفين من المؤمنين ، الذين لا ذنب لهم إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد ، كرهوا منهم ذلك الإيمان .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. يريد الحق ﷻ أن يصور أساس الفساد في الوجود كله ، فإذا رأيت فسادًا ، فاعلم أن ذلك الفساد ناشئ من هذه القضية الخطيرة ، كيف هذا ؟! حين ينقم فريق على قوم أنهم آمنوا بالله فكان المفروض أن تجد الحال بعد : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ .. أن تجد صفة مذمومة ، فأنت تقول : ما أنكرت على فلان شيئًا إلا كذا وكذا ، فمعنى ذلك أنه كان يجب أن يأتي بعد : " إلا " صفة من الصفات المكروهة التي تنكر ، لكنه حينما جاء بالصفة بعد : " إلا " وجدناها ليست من الصفات التي تكره ، بل هي من الصفات التي تزيدنا حبًّا لهم ، تقول : ما نقمت على فلان ، أو ما أنكرت على فلان إلا أنه كافر ، ما أنكرت على فلان إلا أنه نمام ، فهي صفة الذم التي تنكرها عليه ، لكن هنا ما أنكروا عليهم إلا أنهم يؤمنون بالله ، فنجد أن ما بعد : " إلا " ليس من طبيعته أن ينكر ، وليس من فطرته أن يكره ، فما داموا كرهوا الأمر الذي ليس من طبيعته ولا من فطرته أن يكره ، فذلك فساد في عقلية من حكم بهذا الحكم ؛ لأنهم اعتبروا قمة الخير مما ينكر ويكره وينقم .



وهذا دليل على فساد طبعه ، وكأن القرآن يشير إلى أن هؤلاء لو عددوا صفات هؤلاء الذين فتنوهم في دينهم ، وحرقوهم بسبب هذا الدين ، لو استعرضوا صفاتهم أو استعرضوا خلقهم ، أو استعرضوا سلوكهم ، لم يجدوا فيهم شيئًا يكره .

فما هو الشيء الذي كرهوه منهم ؟! ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، وهذا نوع من الأداء البياني ، يسميه العلماء : " **تأكيد المدح بما يشبه الذم** " ، فهو لما قال : ﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ وكأنه لا يوجد شيء عندهم يكره ولا ينكر ، ولما جاء بـ : " **إلا** " قلنا : إنه سيأتي بشيء يكره ، فإذا به شيء يحَب ، فلم يجدوا مذمة فيهم إلا صفة مدح أخرى ، فأكد المدح بما يشبه الذم ، كأن تقول : **لا عيب في فلان إلا أنه كريم** ، معنى ذلك أنك مدحته بقولك : لا عيب فيه ، فنفيت عنه أصل العيب ، ثم استثنيت ، فظن السامع أنك ستأتي بخصلة ذميمة ، فإذا بك تأتي بعد الاستثناء بخصلة كريمة ، إذن فقد أكدت المدح بأسلوب يشبه الذم .

ونظيره قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وهذا وارد في أسلوب العرب ، وفي القرآن منه أمثلة كثيرة ، ومن مادة نقم أيضًا : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [1].. لماذا أنتم كارهون لنا ؟! وماذا صنعنا ؟! لم نصنع إلا أن آمنا بالله ، فإذا كنتم تكرهون منا أن نؤمن بالله ﷻ ، فهل الفساد من طبعنا أم من طبعكم أنتم ؟! بل في طبعكم وفي مقاييسكم .

كأن الحق ﷻ يريد أن يصور لنا المعركة ، وهي أن هؤلاء الفاتنين للضعفاء من المؤمنين لم

1 – سورة : المائدة ، الآية : 59 .

يجدوا فيهم عيبًا حين يستعرضون صفاتهم وخلقهم وسلوكهم ، إلا أنهم مؤمنون بالله ﷻ ، وما دمتم لم تجدوا فسادًا في سلوكهم ولا في خلقهم ، فهل الإيمان بالله ﷻ هو ما تكرهونه فيهم فقط؟! نعم ، لماذا ؟! لأنهم طغاة ، والطغاة دائمًا يحافظون على مركزهم الطغياني ، فأي إنسان يصرف العبودية لغيرهم يكون مجنونًا .

وكأن نقل المؤمن العبودية لغير هؤلاء الطغاة يكون هو الذنب ، فلا يشفع لهم أنهم مصلحون ، ولا يشفع لهم أنهم متخلقون بخلق كريم ، إنما الذنب كله أنهم صرفوا عبوديتهم لرب واحد هو الله ﷻ ، صرفوها عن هؤلاء الطغاة ، أما أولئك الذين لا يصرفون عبوديتهم إلى الإله الواحد ، ويوجهونها إلى هؤلاء الطغاة ، فالطغاة يغضون أبصارهم عن كل مساوئهم ، ولذلك لا تجد فسادًا في الأرض من حاكم إلا من القوم الذين يؤلهون الحاكمين ، وإن فسقوا ، وإن ارتشوا ، وإن أفسدوا ، وإن سرقوا ، كل ذلك مغتفر ما داموا يؤلهونهم ، وما دامت عبوديتهم لحسابهم .

والقوم الذين هم ضدهم وإن كانوا مصلحين ، وإن كانوا على خلق ، وإن كانوا مستقيمين ، فهذا لا يعجبهم ؛ لأن هذا هو ميزانهم الذي يزنون به الناس .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. جاء الحق بوصفين ، كان مقتضى القياس أن لا ينكرا ، فالله له صفتان : **عزيز** ، **وحميد** ، أما صفة : " **العزيز** " فتدل على الغلبة ، وأنه ﷻ لا يُقهر ، وأما صفة : " **الحميد** " فتدل على أنه منعم ، إذن فهناك جانبان ، جانب الغلبة لمن يرهب ، وجانب الإنعام لمن يرغب .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ .. أي : الغالب ، فلم يذهبوا إلى ناحية ضعيفة ، بل لناحية لها الغلبة المطلقة ، فالكون كله في قبضته ، وحميد لأنه منعم يستوجب الحمد ، والحمد صفة ملازمة له ، فإذا كان الذي آمنوا به عزيزًا غالبًا لا يُغلب ، وحميدًا منعمًا نعمًا بقيوميته لا تنفد ، ولا ينفد من أجلها الحمد .. إذن فقد توجهوا بعقيدتهم



وإيمانهم إلى موطن حقيقي للإيمان ، إذن يصور لنا فساد الذين فَتنوا ، ويصور لنا صلاح الذين قُتلوا .

وكلمة : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ لا نقولها هكذا بلا دليل ، والدليل أن له ملك السماوات والأرض ، وما دام له ملك السماوات والأرض ، فتكون الغلبة له مشهودة .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. صفتان أيضًا ، ما دام له ملك السماوات والأرض ، وهذه حتى الكافر يؤمن بها ، لماذا ؟! لأنه وإن كان للكافر لون اختيار في بعض أعماله ، فهو مقهور في جمهرة أعماله ، وما دام مقهورًا في جمهرة أعماله فمن الذي يقهره ؟ إنه هو من له ملك السماوات والأرض .

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .. وانظر إلى الدقة الأدائية ، لم يقل : وهو على كل شيء شهيد ، وإنما جعلها جملة استسلامية ؛ حتى لا تحتاج صلة الضمير إلى مرجع ، وجملة : ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تناسب ما كان مذكورًا في أول السورة ؛ لأنه يقول : ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ، فهم شهود ، أي مشاهدون لما يفعلونه بأولئك المؤمنين ، والله ﷻ شاهد أيضًا .

وكلمة : " شهيد " لها معنيان : شهيد أي : **" كل شيء يحضره ، لا يغيب عنه شيء أبدًا "** ، أو هو : **" شهيد لمن لا شاهد له ممن ظلمه "** ، فمن ظلم خفية ولا حجة عليه أنه ظلم ، فالحجة عند الله ﷻ أنه ظالم .



إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

بعد ذلك يعرض الحق ﷻ لجزاء الفئة الأولى فيقول ..

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. تجد أن الحق ﷻ يعامل الخلق معاملة رب ، أي بصفاته هو ، لا بصفات الخلق ، ومعنى ذلك أنه لا توجد عنده ندية ، فمهما يفعل الكافر ثم يتوب وينيب ويؤوب إلى الله ﷻ ، فكأن شيئًا لم يكن ، فليس عنده هذه الندية التي عند الخلق ؛ لأن الله ﷻ لا ينفعل للأشياء ؛ وذلك لأن كفر الكافرين لا ينقص من ملكه شيئًا ، وطاعتهم لا تزيد في ملكه شيئًا ، إنما هذا غيرة من الخالق على خلقه فقط ، فالحق ﷻ يريد أن يعطينا هذا المبدأ ، هذا المبدأ اسمه : " حسم الشر " ؛ لأن العاصي إذا كفر وطغى وصنع ما صنع ثم بعد ذلك لا يقبله الله ﷻ ، فما دام أنه خاسرًا خاسرًا ، فليأخذ حظه جبروتًا وطغيانًا ، لكن حتى هؤلاء يقول الحق ﷻ لهم : من يتُب يغفر له ما قد سلف ، فالحق ﷻ لا يقطع الرجاء والأمل أبدًا ، حتى لمن طغى وكفر وتكبر ، وقتل المؤمنين والمؤمنات ، ومعنى ذلك أن الله ﷻ يريد ألا يستطرد صاحب الشر بالشر ، ولا يعيث في الأرض فسادًا ، وهو يحث الإنسان على أن يتوب ، فالتوبة تجب ما قبلها ، وذلك يدل على أن صلة كل الخلق بربهم صلة مربوب بربه ، وليست



عداوة .

﴿إِنَّ الَّذِيـــنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. والحريق لون من جهنم ، إنما أراد الحق ﷻ أن يذكرهم بلقطة : ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ ، أو أن عذاب جهنم ليس كل النار ، فهناك عذاب بالزمهرير ، وهو البرد الشديد ، فسيجمعون بين اللونين ، ولذلك عقب : ﴿ لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ، أو أن المعنى : أن الذين كفروا بـــالله ولم يتعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، جزاؤهم ليس كجزاء من كفروا بالله ثم تعرضوا للمؤمنين ليفتنوهم عن دينهم .

إذن : ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ .. على كفرهم ، وإن لم يتعدَّ ذلك إلى المؤمنين ليفتنهم في دينهم ، ثم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ؛ لأنهم تعدوا وفتنوا المؤمنين في دينهم ، وحرقوهم في النار ، فالجزاء يتضاعف .

﴿ إِنَّ الَّذِيـــنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .. إذا كانت القصة عن أصحاب الأخدود ، فإنهم ماتوا ولم يتوبوا ، ولكن ذلك تلميح للمعاصرين لرسول الله ﷺ ، لذلك يطلقها الحق ﷻ قضية إيمانية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، يقول لهم : إن كان قد سبق منكم مثل هذا ، فاعلموا أنكم إن تبتم فقد انتهى كل شيء ، ويكون ذلك حسمًا لباب الفتنة والشر .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. وكما قيل : بالضد تتميز الأشياء .

إن المعركة حين تكون بين حق وباطل ، أو بين باطل وباطل ، فإما أن تتساوى الكفتان فلا يوجد منصور ومنصور عليه ، وإما أن يوجد منصور ومنصور عليه ، فأهون الأشياء في المعارك أن تتذبذب المعركة ، ويكون السجال هو النتيجة ، لا يوجد منصور ولا منصور عليه ، أو يوجد منصور ، ويوجد منصور عليه ، إذن فالمنصور عليه فاته خير النصر وأدركته ذلته

للمنصور ، كمثل رجلين مع كل منهما سيف ، فضرب أحـدهما على يد الآخر فأخذ سيفه ، فأصبح السيفان معه ، وصار الآخر بلا سيف ، فلو أن هذا ظل بسيفه ، وظل ذلك بسيفه ، ولم يحصل بينهما طعان فلا لون للفوز ، فهذا تعادل ، لكن إذا انتصر أحـدهما على الآخر ، فقد فعل شيئين : أنه تخطى منطقة التعادل ، وهذه لم يأت منها غرم ، ثم بـعد ذلك أخذ مرتبة النصر ، وهذا هو الفوز الكبير .

فقـول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. فأما الفوز الأول : فإنهم زحزحـوا عن النار ، ولو زحزحـوا عن النار ولم يدخلوا الجنة لكان فوزًا ، فكيف بهم لو زحزحـوا عن النار وأدخلوا جنة ، ثم لما يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، يأخذ فيها كل واحد منازله ، على قدر الفتنة التي فتن فيها في الله ﷻ .

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .. لماذا ؟! لأن الحق ﷻ نجاهم بموقـــفهم من النار وذلك فوز ، وبـعد ذلك أدخلهم الجنة وذلك فوز ، وبـعد ذلك يعطيهم منازل على قـدر الفتنة وذلك فوز أكبر ، فهناك فوز ، وفوز كبـير ، وفوز أكبر ، ولذلك قـال الله ﷻ هناك : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .. وهذه قـضية ديمومة ، أي : لم يكن الله ذا بـــطش عند أصحاب الأخدود فقط ، بل القـضية العامة أن ربـنا ذو بـطش شـديد ، ومعنى **البـطش** : هو الصرامة والعنف في الأرض ، فتجد الأداء البـــياني فيه ثلاثة أمور تلفت النظر: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ ﴾ .. إذن هذا التهديد فيما يتعلق بـــأمره ، وأمر دعوته ، وأمر الخارجين عليه ، لأنه أضاف الرب ﷻ إلى الرسول ﷺ ، فهذا هو التهديد للمعاصرين للرسـول ، الذين كانوا يفتنون المؤمنين استهزاءً أو تعذيبًا أو تحريقًا أو رميًا على الرمضاء .

1 – سورة : التوبة ، الآية : 72 .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ .. ويصف كلمة : ﴿ بَطْشَ ﴾ بالشـــدة ؛ ليزيد من هول ذلك التهديد .

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ .. والبطش معناه الأخذ بصرامة وعنف ، والأخذ بـصرامة وعنف يريد قـوة قـوية ، ولماذا قـوة قـوية ؟! لأنه ليس أقـوى منه ، فهو صاحـب البـدء وصاحـب الإعادة ، يعني قوسا الوجود عنده : ﴿ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ، وما دام قوسـا الوجود عنده من بـدْء وإعادة ، إذن فلا يوجد معه أحد ، فلا يوجد نصير لأحد من الله أبدًا ، فإذا أخذ الله أحدًا فلا يحميه أحد ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْه ﴾[1] .

يبـدئ ويعيد ، أي : يبـدئ الخلق والوجود ، ويعيده إليه ، أو يبـدئ الأفعال ، ويعيدها إليه ، أو كما حدث ذلك عند أمم سابقة ، فيعيد الكرة ويكون البطش الشـديد على من يكونون ضدك كما كان بطشـه شـديدًا على من كانوا ضد الرسـل الذين سبقـوك ، أو يعيد الكون كله في حلقـات متطورة وراجعة ، وأنت لو نظرت إلى أي شـــيء في الوجود من عناصر الحياة ، تجد إبداء وإعادة ، فهذا الماء الموجود في الكون هل زاد أو نقص منذ أن خلق الله ﷻ الكون ؟ إنه ما زاد ولا نقص ، والذي نشربـه في حـياتنا يعود بالتبـخر منه ، أو مع بـوله ، أو عرقـه ، أو مخاطه ، فإذا بقي في الجسم بعض الماء تبـخر أيضًا بـعد موت الإنسـان ، وذلك يدلنا على أن الوجود كله حركة دائرية .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. كلمة : **الغفور** تشي بالمذنبـين ؛ لأن هناك ذنوبًا ، وهو غفور لهذه الذنوب ، وكلمة : **الودود** أي : ودود بالمحبـــين ، فإذا كان غفورًا لمن يذنب ، وودودًا لمن يحب ، أفلا يجعلك هذا تحب هذا الإله ﷻ حق الحب ؟!

إذا ما وجدنا صفة من صفات الله ﷻ فيها مبالغة ، فيجب أن نفهم المبـالغة على حقيقـتها بالنسبة للحق ﷻ ؛ لأن المبالغة إنما تكون في صفات الحوادث ، الذين تقـوى صفاتهم تارة ،

---

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 88 .

وتضعف أخرى ، فنقول : هناك مبالغة ، لكن عندما نقول عن الحق ﷻ : إنه غفور ، أي : مبـالغ في المغفرة ، فإن الصفات تكون : غافر مرة ، وغفور مرة ، وهي لا تقـوى تارة وتضعف أخرى ، لكنها صفات كمال لله ﷻ ، صفات كاملة دائما ، فإذا وجدت مبـالغة في الصفات ، كغفار ، وغفور مثلاً فاعلم أن المبالغة إنما هي في المتعلق .

وهنا قـد يرد إشـكال في قـول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1] ، وهو أن صفة المبالغة إذا أثبتت ، ثبتت الصفة المحضة ، أي : للمبالغة ، فإذا قـلت : فلان علام ، فتكون قد أثبت له أنه عالم ما دمت أثبت له الوصف الكبير ، فلابد أن يكون له الوصف ، فمن أثبت له أنه علامة ، فتكون أثبت له أنه علام بدون تاء ، وأثبت له أنه عالم ؛ لأن ما أثبـته الأقـوى يثبت به الأقل والأضعف ، لكن إذا نفيت صفة المبـالغة ، أيسـتلزم ذلك نفي الصفة الأصلية ؟ لا ، تقول : فلان ليس علامة ، وقد يكون عالما فقط ، إذن فصفات المبالغة إذا أثبـتت ثبـت ما دونها من بـاب أولى ، وإذا نفيت لم ينف ما دونها ، لأن من الجائز أن فيه الأقـل وليس فيه الأكثر .

فإذا أورد أحدهم إشكالاً في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، فقال : إنه نفى أن يكون ظلامًا ، ولا يعني هذا أنه ليس ظالمًا !

نقـول له : لا ، أنت أخذت الوصف على أن المبـالغة صفة بالنسبـة لله ، ولكن المبـالغة بالصفة بالنسبة للمتعلق المقابل ، فقد قـال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ ﴾ ، ولم يقـل : للعبـد ، فلو كان قال : بظلاَّم للعبـد ، لكنت تسـتطيع أن تقـول هذا ، ولكنه قـال : ﴿ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، فهناك عبيد كثيرون ، والفعل مبالغ فيه إما للقـوة في ذاته ، وإما لكثرة متعلقـه ، فإذا قـلت : فلان أكول ، أو أكال ، فلو وصفته هذا الوصف ؛ لأنه عندما يأكل يأكل كعشـرة ، فيكون هذا في قـوة الفعل ذاته وقـوة الحدث ، أو أنه كل سـاعتين يريد أن يأكل ، فتقـول : أكول ، أو

---

1 – سورة : فصلت ،الآية : 46 .

أكال ، فأنت لم تعطه الوصف للمبالغة في الحدث ، ولكن لتكرار الحدث .

فلو أن الله ظلام للعبيد كلهم ، يظلم هذا ، ويظلم هذا ، فتكون المبالغة من ناحية تعدد المتعلق ، والظلم على قدر المقدرة ، لأن العاجز لا يظلم ، فالذي يظلم دائمًا في مرتبة القوي ، فلو أراد الله أن يظلم فسيكون ظلمه صعبًا جدًّا ؛ لأن الظلم على حسب القدرة .

فإذا ما رأينا صفات مبالغة ، يجب أن نتنبه إلى أن الصفات في الله تبارك وتعالى لا تتحمل تشكيكًا ، أي : قوة وضعفًا ، ولكن صفة الكمال في الله كمال مطلق ، لا تكون مرة ضعيفة ، ومرة قوية ، وإنما تكون بالنسبة لمتعلقها ، يقول مثلاً : تواب ؛ لأننا نكثر الذنوب ، ونتوب ، ونتوب ، ونتوب ، وهو يتوب علينا ويتوب ويتوب ، فيكون توابًا ؛ لأنه مع ضخامة الذنب يكون أيضًا توابًا .

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ .. ورد هذا اللفظ بعدة مشتقات له : غافر .. ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾[1] ، وغفار .. ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾[2] ، والغفور كالآية التي معنا ، فيكون من هذه المادة ثلاث كلمات : غافر الوصف الأصيل ، وبعد ذلك : غفار ، وبعد ذلك : غفور ، وهي ليست تكرارًا هنا كلها بالنسبة لمتعلقاتها ، لكن مرة تكون المبالغة الغفر ، ومعناه : الستر ، ومنه سمي المِغفر الذي يلبسه الشجعان ليقي رءوسهم في الحرب ، والغفر : هو ستر الذنب ، بحيث لا يفضح العبد بذنوبه عند الناس ، ويكره من يفضحه بتتبع العورة ، وبعد ذلك تكون هذه صفة الدنيا .

والغفور : للجزاء على الذنوب ، أي : مرة غفر للذنب في ذاته ، ومرة غفور للجزاء على الذنوب ، أو غفار لمن تاب .

وبعد ذلك تأتي مبالغة ثالثة في المغفرة وهي : أن الذي لم يتُب ، طالما أنه آمن به ولقيه غير

---

1 – سورة : غافر ، الآية : 3 .

2 – سورة : طه ، الآية : 82 .

مشركٍ به ، فإنه يغفر له ، قال ﷻ : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[1] ، لكن نستثني من ذلك الشرك ، ولذلك كان ابن عباس عندما يقرأ هذه الآية يقول : إلا الشرك ، وذلك جمعًا بين النصوص مع قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[2] ، حتى لا يتعارض نص مع نص .

وكذلك وإن لم يذكر هذا الاستثناء ، فهي مفهومة من كلمة الذنب ، ومن قوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وكلمة : " عبادي " عندما تذكر ، نفهم أنها للمخلصين ، وبعد ذلك : ﴿ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ .. ولا يقال لذي الكفر أو لذي الشرك : إنه مذنب ، لأن المذنب هو الذي عنده مقاييس يؤمن بها ثم خالفها في شيء منها ، والمشرك ليس عنده مقاييس ، فالمشرك ليس داخلاً في : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ .

إذن **الغفار** : ستار الذنوب في الدنيا ، بحيث لا يفضح العبد بذنبه أمام الناس ، أو غفار لمن يتوب بالفعل ، وبعد ذلك : **غفور** ، إما في الآخِرَة لجزاء الذنوب ، أو غفور لمن لم يتب ؛ لأنه ﷻ يصح أنه يعامل بعض عباده بهذه المسألة .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ .. **الودود** من صفات المبالغة ، **ودود** على وزن فعول ، وصيغة فعول ، هل هي بمعنى اسم الفاعل ، أم بمعنى اسم المفعول ؟! **ودود** فعول ، ورسول فعول أيضًا ، ولكن رسول معناها : مُرسَل من عند الله ، أما **ودود** فمعناها : واد لمن يحبه ، أو مودود لمن يحبه ، فيصح فيها المعنيان ، أنها بمعنى فاعل ، أوبمعنى مفعول ، واد لمن يحب ، ومودود لمن أحبه ، فالمسألة متبادلة ، أي أن : الود مرة يكون من الله ﷻ إلى العبد ، ومرة

---

1 – سورة : الزمر ، الآية : 53 .

2 – سورة : النساء ، الآية : 48 .

يكون من العبد إلى الله ﷻ ، فهناك عبد يقع له الود من الله ﷻ ، وهذا من باب الفضل ، أو من باب الجود ، والثاني : يتودد إلى الله ﷻ ، وبعد ذلك يوده الله ﷻ ، وهذا من باب بذل المجهود ، فذلك من فضل الجود ، وذلك من بذل المجهود .

فمن الناس من يصل بكرامة الله ﷻ إلى طاعته ﷻ ، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله ، حتى لا نحجرعلى أي طريق إلى الحق ﷻ ، ففيه شيء من فيض الجود ، وشيء من بذل المجهود .

فـ ﴿ الْوَدُودُ ﴾ : تأخذها من وادّ ، وهي اسم الفاعل ، أو من **مودود** ، وهي اسم المفعول ، أو **ودود** يوَدِّد أهل محبته إلى خلقه ، وذلك كما جاء في حديث **أبي هريرة** ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : " **إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : إني أحب فلانًا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، قال : ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلانًا فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض** "[1] .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. طبعًا إذا سمعنا كلمة : **العرش** ، وكلمة : **الكرسي** ، وكلمة : **الميزان** ، وكلمة : **اللوح المحفوظ** ، كل هذه الأمور التي نسميها السمعيات ، سمعية أي : حجتنا فيها السماع ، إنما ليس السماع المطلق ، السماع ممن تثق بصدق تبليغه عن الحق ﷻ ، فعند ذلك لا ينبغي لعقلك أن يقف على كيفية الأشياء ، لا تقل : ما هو العرش ؟ أو ما شكله ؟ حيث إن عدم قدرتك على وصف العرش لا تمنع من وجوده .

فإدراك كنه الأشياء ، أو إدراك صفات الأشياء ، لا يتعلق عليه الحكم بوجود الأشياء ، والأشياء إذا أخبرت بها ممن تثق بصدقه عن الحق ﷻ فإن كان له نظير في كونك فتأخذ من

---

1 - أخرجه البخاري (2970 ، 5580 ، 6931) ، ومسلم (4772) .

النظير نظيره ، نحن نسمع كلمة : **العرش** ، ونفهم أنه هو عرش الملك ، فعندما يقول الله ﷻ لك : إن لي عرشًا ، فليس في ذهنك وتصوراتك أن تعرف ما هو ذلك العرش ، ولو قال : إن لي كرسيًّا ، فنؤمن بوجود الكرسي ، وبعد ذلك فاترك كيفيته ، واترك وصفه على منهاج الله ﷻ فيه ؛ لأنك تأخذ كل شيء ينسب إلى الله ﷻ كما قال الله ﷻ به ، فأعطِ وصف الخلق بما يناسب الخلق ، وأعطِ وصف الخالق بما يناسب الخالق ، في إطار قاعدة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1].

وليس هذا هو الشيء الوحيد الذي يقف العقل عند تصوره ، فهناك في ماديات الحياة وكونياتها المحسة أشياء لها آثارها ، ومع ذلك لا نستطيع أن نصف كنهها ، مثل الكهرباء ، فإلى الآن لا نستطيع أن نعرف ماهيتها ، ولكنها موجودة بلا شك ، وآثارها موجودة ، ومع ذلك فنحن لا نعرف كنهها ، فإذا وقف عقلك في تصور هذا الشيء ، فاعلم أن توقف عقلك في التصور هو الجواب ، وأنه شيء مما لا يتصور ، وما دام شيء مما لا يتصور ، فيكون فوق مستوى الإدراك ، وإذا أتيت بشيء فوق مستوى إدراكك وقلت : أنا غير مدرك له ، تكون بهذا قد أدركت ، ولذلك قيل : " **العجز عن الإدراك إدراك** " ، فحين يذكر الحق ﷻ العرش ، أو اللوح المحفوظ ، أو غير ذلك من الغيبيات ، يجب علينا أن نؤمن بها بدون تفكير أو تكييف .

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ .. كلمة : **مجيد** في اللغة مأخوذة من الواسع ، ولذلك من أسمائه ﷻ : **الواسع** أيضًا ، **الواسع** ، أي : الذي يتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، ولذلك ما دام قد اتسع عطاؤه لكل مطلوبات الوجود ، فيجب أن يُعَظَّم ، فينشأ من سعة عطائه ، وقيوميته في العطاء ، أنه يُمَجَّد ويُعَظَّم .

﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ .. قد يقول قائل : كيف يُمَكِّن اللهُ ﷻ الكافرين من الذين آمنوا بالله

---

1 – سورة : الشورى ، الآية : 11 .

وبالرسل ؟! وهل تمكين الكافرين هذا على غير مراد الله ؟! فنقول : بالطبع لا ، بل هي من مراد الله ﷻ ، ولكنها سُنَّة الابتلاء التي يميز الله ﷻ بها بين الصادقين في إيمانهم وبين الكاذبين ، ولذلك تجد المواجهة الشديدة بين الرسل وبين خصومهم دائمًا ، فلم نعرف رسولاً انتصر ودانت له الدنيا بمجرد أن أرسل ، وحتى تعرف لؤم الإنسانية ، وخسة العقل البشري الذي لم يرتضِ بمنهج الله ﷻ ، استعرض مثلاً قصة **سليمان** ﷺ ، هل رأيت معركة حدثت بين **سليمان** وبين أحد ، كلا ، أتدري لماذا ؟ لأن **سليمان** ﷺ كان معه الملك والقوة ، وكأن الناس حين يؤخذون بالشدة ينتهي الأمر ، وانظر لحال **بلقيس ملكة سبأ** حين قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] ، فهي على قوتها وشدتها ، أذعنت **لسليمان** ، وذلك معناه : أن القوة هي التي تحكم الإنسان المتخطي عن المنهج ، فلو أرسل الحق ﷻ رسولاً ملكًا ، ما استطاع أحد أن يعارضه ؛ لأن الناس يعلمون أنه سيبطش بهم ، وهم لا يعرضون أنفسهم لهذا ، ولكن لو أرسل رسولاً غير ملك ، تمر عليه تجربة المبادئ ، فمرة يجعل الكافرين كفتهم عالية ، ومرة يجعل المؤمنين كفتهم عالية ، وهكذا .. سجال ، لحكمة يعلمها الحق ﷻ ، ثم تكون الغلبة للمؤمنين في النهاية ولا شك ؛ وذلك لأن المؤمن الذي يدخل الدين على أنه دين منصور ، لا يهزم أبدًا ، وأنه سيغنم ، فهذا يسقط مع أول اختبار ، وأول شدة ، ويكون عامل الثبات على الدين عنده معدومًا ، أما الذي يدخل هذا الدين وهو مستعد للابتلاء ، والضرب ، والسجن ، والإخراج من بلده ، والقتل ، والذل ، فهذا هو الذي يصمد ، ويتحمل تبعات هذا الدين ، ويكون قلبه قد تربى ، وأُعِدَّ إعدادًا جيدًا .

إذن فأول درس إعدادي في الدعوة والتربية هو أن يُعَدّ المدعو ويربى على التحمل والثبات ، ولذلك قلنا : إن المسلمين في الطور المكي لم يوعدوا بنصر أبدًا ؛ لأنه أراد أن يُسقِط الدنيا من

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 44 .

حساب هؤلاء السابقين ، وبعد بيعة العقبة قالوا : وما لنا إن وفينا ، لم يقل : ستنتصرون على أعدائكم ، وستدخلون فاتحين ، بل قال : " **لكم الجنة** "[1] ، لم يأت بالدنيا لهم ؛ لأنهم كانوا في أول التربية ، فلا نربيهم إلا على أنهم داخلون في محنة ، فالذي يدخلها هو الذي يقارن بين الصفقتين ، صفقة الجنة في الآخرة ، وصفقة الدنيا ، لكن ليس معنى ذلك أن المسألة تستمر بهذه الشكل ، فالله لا ينصر المؤمنين لأنه يعطي لهم ثمن مجهودهم ، كلا ، بل ينصر المؤمنين ؛ لأن لهم رسالة في الإيمان يؤدونها ، وعندما ينتصر الكفر على الإيمان ، أو عندما ينتصر الفاتنون على المفتونين ، فإنما هناك نصر آخر للطرف الآخر ، نصر للمفتونين على الفتنة ذاتها ، هذا هو الأهم ، المفتون انتصر على الفتنة في الدنيا ؛ لأنه يعلم أن كلمة الكفر تجعله يعيش سعيدًا آمنًا ، ومع ذلك لم يقلها ، فهو نصرٌ على الفتنة في ذاتها .

إذن ، فحينما يكون هناك نصر للفاتن ، فهناك نصر للمفتون من نوع آخر ، وفي أوليات كل دعوة لابد أن يوجد النصر على الفتنة في ذاتها ، فأنا عندما أكون في المعركة وأنا ضعيف والآخر قوي ، فإن اخترت ما أنا عليه ، لا سبيل لي إلا أن أموت ، فإذا كانت الصفقة متضحة في ذهني ، أكون قد انتصرت على الفتنة في ذاتي ؛ لأن هناك شيئًا يجذب نفسي إلى الدنيا ، وصفقة عقدت بالإيمان عليها تجذبني للناحية الأخرى .

إذن ، فعندما تجد نصرًا لفاتن على مفتون ، فاعلم أن هناك نصرًا للمفتون على الفتنة ذاتها ، وحين يوجد النصر على الفتنة ذاتها ، يوجد الجنود الذين يحملون الدعوة ، وعندما تتأصل في نفوسهم هذه المعاني كلها ، يعطيهم الله بعد ذلك نصرًا ، لا على أنه جزاء ، ولكن لأن لهؤلاء مهمة لاعتدال ميزان الدنيا .

---

1 - تقدم تخريجه ، وانظر مسند أحمد : (34 / 447) .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ .. كلمة : ﴿ حَدِيثُ ﴾ تدل على أنه أمر تحدث الناس به ، وتناقلته السير والأخبار ، أي إنه ليس كلامًا جديدًا من عندنا .

ثم يأتي بكلمة : ﴿ الْجُنُودِ ﴾ ، والتجنيد ، أي : العسكرة ، ومنه كلمة : **جندية** ، أي فيها شبه إعداد للشراسة ، وإعداد للقتال ، وإعداد لكل شيء .

ومعنى ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ : إما أن يكون رسول الله ﷺ قد علم بهذا القصص أو لم يعلم بها ، فإن لم يكن قد علم ، فهذا هو أول إعلام من الله ﷻ إليه ، وحين يقول الله ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴾ أي : هل أتاك مني أنا ، وإذا كان ربنا ﷻ هو الذي يخبر ، فالحقيقة تكون واقعة .

لكننا لم نلاحظ في المكذبين مع حرصهم على تكذيب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : ما هي **قصة ثمود** ؟ أو ما هي **قصةفرعون** ؟ ومرت المسألة دون اعتراض من أحد منهم ، مع رغبتهم الشديدة في الاعتراض ، مما يدل على أن بعضهم قد تنقّل في الرحلات ، وعرف مدائن صالح وغيرها ؛ لأنهم كانوا يمشون في هذه الأماكن فلابد من أنها أمور معلومة لهم .

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ .. ولاحظ هنا أنه أفرد **فرعون** ، وصحيح أن كلمة " **ثمود** " كل مفردة ، ولكن معناها : قبيلة **ثمود** ، أو قوم ، أو جماعة ، لكن **فرعون** كان وحده ، وذ يدلك على أن الذين كانوا في ثمود ، كانوا كلهم مجمعين على مناقضة الرسالة ومحاربتها .

فرعون فإن قومه لم يكونوا كلهم مقتنعين بذلك ، ولكن **فرعون** الذي جعل نفسه إلهاً ، هو الذي حملهم على هذا الأمر ، ولذلك قال : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ ، ولم يقل : **قوم فرعون** .

ونلاحظ أنه أتى في القرآن **بفرعون** **وثمود** ، كما في **سورة الفجر** أيضًا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[1] ، أي : كلما يتكرر منهم الطغيان والفساد ، فربك لهم مترصد .

وهؤلاء المشركون الذين كذبوا رسول الله ﷺ لم يبلغوا من الملك والطغيان ذلك المبلغ الذي بلغه **فرعون** ، ولم يبلغوا المبلغ الحضاري الذي بلغته **ثمود** ، إذن فأخذهم يصبح مسألة هينة .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ .. وصلهم هذا الخبر ، ومع ذلك فكلهم يكذبون ، لماذا ؟! ليوجدوا لأنفسهم مبررات للسلوك المعاند ، فلا يمكن أن يكونوا مصدقين لهذه الأمور ، ثم بعد ذلك يعادونها ، فهذا التكذيب مطية تبريرية للإنسان ، يبرر بها سلوكه ؛ لأنه لو لم يكذب للزمته الحجة .

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ .. وقال : ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ ﴾ ؛ لأنهم جعلوا الله ﷻ وراء ظهورهم ، فنقول لهم : لقد جعلتم الله ﷻ وراء ظهوركم ، فالذي جعلتموه وراء ظهوركم محيط بكم ، وما دام محيطًا بكم ؛ لأنه من وراء ظهوركم ، فعندها يخيل إليكم أنكم سبقتموه ، فيقول : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾[2].

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴾ .. ويدل ذلك على أن التكذيب كان للقرآن بكونه من الله ﷻ ،

---

1 – سورة : الفجر ، الآية : 6 – 14 .

2 – سورة : الواقعة ، الآية : 60 .

وفيما يُحدِّث به القرآن ، فقال : القرآن صادق البلاغ ، و**محمد** ﷺ صادق التبليغ فيه عن الله ﷻ ، وهذا القرآن يتميز عن غيره بأنه محفوظ..

﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ .. ولذلك تجد الدقة في كلمة : **لوح** ، حيث لم يقل : **قرآن محفوظ** ، فقوله : **مَحْفُوظٍ** ليست صفة للقرآن ، بل هي صفة للوح ، فإذا كان اللوح الذي فيه القرآن محفوظًا ، فما بالك بالقرآن ذاته .

فيجب أن تصبر يا **محمد** ؛ لأن هؤلاء يكذبون ، ولكن القرآن الذي أنزل عليك لم ولن تمسّه يد تحريف ، لا في السماء العُلا ولا عندك ، وسيظل كما أنزله الله ﷻ عليك .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتمسكين بهذا الكتاب العظيم ، وأن يكفينا شر أنفسنا ، وشر أعدائنا ، وأن يحقق لنا آمالنا أجمعين ..

والحمد لله رب العالمين ..




عم
تفسير جزء




سورة
الطارق







أحمدك ربي ثناء بلا حد ، وأصلي وأسلم على خير رسلك من اشتقت اسمه من الحمد ، وبعد :

فمع **سورة الطارق** ، تلك السورة التي تمثل طرقات متوالية على الحس .. طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بنوّم غارقين في النوم .. تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد ، وكأنه ينادي فيهم : **اصحوا .. تيقظوا .. انظروا .. تلفتوا .. تفكروا .. تدبروا .. فإن هناك إلهًا ، وإن هناك تدبيرًا ، وإن هناك تقديرًا ، وإن هناك ابتلاء ، وإن هناك تبعة ، وإن هناك حسابًا وجزاء ، وإن هناك عذابًا شديدًا .. ونعيمًا كبيرًا ..**

إن هذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص ، ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد ، ونوع الإيقاع الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدها : الطارق ، والثاقب ، والدافق ، والرجع ، والصدع .

ومن معانيها : الرقابة على كل نفس : **﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾** .. ونفي القوة والناصر : **﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾** .. والجد الصارم : **﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾** .

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته : **﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾** .

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ ، يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل ..

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .. تقدمت سور كثيرة فيها لفت الإنسان إلى مظاهر الكون الثابتة الرتيبة ، وإلى ما يعقب ذلك من تغيير لهذه الثوابت ، بما يحدث من انقلاب في الوجود ، كقول الحق ﷻ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] ، وقوله ﷻ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾[2] ، وسبق أيضًا أن سمعنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[3] ، قسمًا ، وهنا يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ..

والسماء : هي كل ما علاك فأظلك ، ذلك هو معناها في اللغة .

ومعناها المراد في بنائية الكون هو : السماء ذات الجرم ، التي خلقها الله ﷻ سقفًا للأرض كلها ، والعلماء حينما تكلموا عن السماء ، نظروا فقط إلى جهة العلو ، وكلما اهتدى كشفهم وعقلهم إلى وجود شيء أعلى ظنوه سماء ، ففسروا مثلاً في القرن الماضي الكواكب السيارة حول الشمس ، بأنها هي السماوات السبع ؛ لأن العقل لم يكن قد اكتشف سيارات حول الشمس إلا هذه السبع ، ثم بعد ذلك اكتشفت سيارات أخرى ، فبطل تفسيرهم بأن السماوات هي

1 – سورة : التكوير ، الآية : 1 .

2 – سورة : الانفطار ، الآية : 1 .

3 – سورة : البروج ، الآية : 1 .

هذه الكواكب التي كانت تدور حول الشمس ؛ لأنها وصلت الآن إلى أكثر من عشرة كواكب .

والواقع أن كل ما نراه من كواكب ، ونجوم ، وأفلاك .. كل ذلك من السماء الدنيا ، فكأن السماء الدنيا بعد ذلك كله ، وكان يجب على الذين يستنبطون هذه الاستنباطات ، أن يلتفتوا إلى أن الحق ﷻ تكلم عن هذه الكواكب قائلاً : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[1] فكان يجب أن يعلموا أن كل ما نراه من نجوم ، وكواكب ، وأفلاك .. كل ذلك ضمن السماء الدنيا ، ثم بعد ذلك بقيت السماء سقفًا محفوظًا كما أرادها الله ﷻ مبنية ، أما من أي شيء بنيت ، أو كيفية ذلك البناء ، فهذا أمر لم يطلب منا الحق ﷻ أن نعرفه كسائر المدركات التي لا تدخل تحت التجربة ، ولا يمكن أن ينالها أحد .

ويكفي حين يقول الحق ﷻ : ﴿ السَّمَاء ﴾ .. أن نستحضر في أذهاننا مدلول هذه الكلمة .

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ .. يعطينا الحق ﷻ صورة من آثار ما لم نعرف كنهه ، وإنما نعرف أثره فينا ، ونعرف له مهمة ، إذن .. فغاية العبد المكلف أن ينظر إلى آثار الأشياء عليه ، ولا يعنيه أن يعرف كيفية هذه الأشياء ، فالانتفاع بالأشياء شيء ، ومعرفة تكوينها شيء آخر ، فإن انتفاع الإنسان بكل ما هو موجود في الكون لم يترتب على أنه عرفه ، فنحن تمتعنا بالشمس والهواء والماء ، وإن كنا لم نعرف الحقيقة التي توجد عليها هذه الأشياء .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ .. إن الحق ﷻ يلفتنا في قوله : ﴿ وَالطَّارِقِ ﴾ إلى شيء ننتفع بآثاره ، ثم يدلنا على أن الطارق هذا أمر لا يمكن للعقل البشري وحده أن يعرفه ، ولذلك يقول فيه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، أي : أي شيء أعلمك بذلك الطارق ، فكأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف ماهية ذلك الطارق أبدًا ، وإنما نتلقى آثار ذلك الطارق .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. يعرفنا الحق ﷻ بذلك الطارق فيقول : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. إذن ، وينبغي أن نقف وقفة عند تعريف الحق ﷻ للطارق بالنجم الثاقب ، أولا : كلمة :

---

1 - سورة : الصافات ، الآية : 6 .

" **طارق** " اسم فاعل من طرق ، وطرق معناها : ضرب بوقع وشدة حتى أحدث صوتًا ، ومنه مطرقة الحداد ، لأنها تحدث ذلك الصوت ، ومنه سمي الطريق ، وهو السبيل الذي نسلكه ؛ لأن السابلة تطرقه بأقدامها ، ثم بعد ذلك وُجد عرف دلالي ، أن الطارق هو السائر ، أو السالك السبيل ، وبعد ذلك خص بالسائر ليلاً ، ولماذا جعلت اللغة هذا اللفظ ينحاز أخيرًا إلى الطارق ليلاً ؟ ذلك لأن الليل سكون ، ومعنى السكون هو أن تهدأ الحركة ، ويذهب الضجيج ، فلما تهدأ الحركة في الكون ويذهب الضجيج ، فأي حركة تحدث حينها تُسمع ، فالذي يفسد على الناس سماع المشي هو حركة الكون التي تحدث ضجيجًا على الناس ، لكن إذا كان هناك سكون ، فمن الممكن أن يُسمع للطارق صوت ، أو لأن طارق الليل يأتي والأبواب مغلقة دائمًا ، فهو يدق عليها ليستأذن ، أما في النهار فهي مفتوحة ، إذن ، انحازت الكلمة إلى أن الطارق هو الذي يسير ليلاً .

وبعد ذلك ، تُوسع فيها نوع توسع آخر ، وهو أن يكون كل ما يطرق على الوجدان من هم أو فعل يسمونه طارقًا ، ولذلك يقولون : نعوذ بالله من طارق الهم ، فطارق الهم هو خاطر يأتي بالسوء ، فيفسد على الإنسان مزاجه ، ليس له أمر محدد ، وكما قيل : إن الطارق من الممكن أن لا يؤذن له ، أو من الممكن أن يُدفع إذا كان ماديًّا ، فإذا كان غير مادي ، لا تعرف كيف يتسلل إلى نفسك ، ذلك هو شر أنواع الطارق ، وهو الذي لا تستطيع أن تحجبه ، لا بأن تغلق الباب في وجهه ، ولا بأن تدفعه إن رأيته ، ولكنه يتسلل عليك بلطف ، ويدخل على قلبك ، فهذا هو طارق الهم .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .. ومعنى كلمة : ثاقب .. أن النجم يثقب الظلام وينفذ فيه ، فثقب الظلام هذا آية من الآيات الكونية ؛ لأن الله ﷻ يريد أن يبيِّن لنا عنايته بخلقه ، فهو حين يرسل الشمس ضياء بالنهار ، فينشط الناس إلى حركاتهم ، ويعرفون ما يتناولون وما يحتاجون إليه ، فإذا ما جاء الليل بظلامه ولفَّ الكون ، قد يضطر الإنسان إلى أن يعمل ليلاً



، أو إلى أن يسير ليلاً ، فالحق ﷻ لم يمنع هذا اللون من الحركة ، ولذلك فقد خلق النجوم ، كما يقول في آية أخرى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

وثقب الظلام بضوء الطارق ، هو أمر منظور ، فكيف نجد القرآن قد تكلم عن الأمر المنظور بلفظ الطارق ؟! في حين أن الطارق يكون للأمر غير المحدد ! !

نقول : ذلك لأن المعنى الأخير الذي انتهت إليه كلمة : **طارق** هو الوافد عليك من أي لون كان ، ولو كان وهمًا ، أو خيالاً ، أو أمرًا لا صوت له .

وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، يدل على أن الإشعاع الذي يأتي من النجم لو لم يوجد لكان الليل كتلة واحدة ، وإذا كان الليل كتلة واحدة ، فيكون الظلام شاملاً ، وإذا كان الظلام شاملاً فالحركة غير متأتية ، فيقول الحق ﷻ : إن هذا النجم يثقب الليل بذلك الضوء ، هذا مبلغ العناية بذلك الإنسان ، يعطيه في النهار الشمس ، ويعطيه أيضًا في الليل ، حتى لا يمتنع من يريد الحركة عن الحركة .

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. من المعلوم أن كل قَسَم في القرآن لابد أن تكون له صلة بالمقسم عليه المراد تأكيده ، فما علاقة الطارق ، الذي هو : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ بما يقسم عليه الحق ﷻ وهو : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؟!

كلمة : ﴿ حَافِظٌ ﴾ هذه إما أن تؤخذ من **الحفظ** ، بمعنى : الرعاية والعناية من الحافظ للمحفوظ ، وإما أن تأتي من **الحافظ** ، الذي هو الرقيب ، الذي لا يغيب عنه شيء أبدًا ، فإذا توجهنا بكلمة : **حافظ** إلى المعنى الذي يرعى به المحفوظ بحفظه ، نجد الحق ﷻ يقول في آية أخرى من آياته : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ، أي أن ذلك الحفظ من أمر الله ﷻ ، فإن الإنسان تمر عليه أحداث كثيرة لا يمكن لقوته أن

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 16 .

2 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

تفسرها ، ولا لحيلته وأناته ورويته أن تفكر فيها .

ومعنى ذلك أن الحق ﷻ وكّل بالإنسان من يحفظه من كل ما قد يفوق طاقته ، أو قدرته ، أو تُعَجِّل أناته ، ورويته .

فقول الحق ﷻ : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[1] ، يعني : أنك لست متروكًا لرعاية نفسك ، ولا للعناية بها ، فهناك أحداث وأشياء فوق عنايتك ورعايتك ، ولولا أني سخرت لك من جنودي ما لا تعلم ممن يحوطك ويحفظك ، لكانت فتكت بك تلك الأشياء .

وهذا يدل على أن الحفظ هنا هو : **العناية والرعاية للمحفوظ** .

وقد يكون الحفظ معناه : الرقابة ، والعلم بكل ما يكون من هذا المحفوظ كما قال الحق ﷻ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾[2].

إذن فكلمة : **حَافِظٌ** هنا ، تعطي ما للإنسان ، وتعطي ما على الإنسان ؛ لأن كل شيء لك يقابله شيء عليك ، والذي لك كان على الله ﷻ ، والذي عليك كان لله ﷻ .

فعدّى الحق ﷻ الفعل في الآية الأولى باللام : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[3]، وعدّى الفعل في الثانية بعلى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾[4]، ثم جاءت هذه الآية : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ لتؤيد هاتين الآيتين .

﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ .. لما تأتي بمعان متعددة .. المعنى الأول : أنها تأتي للنفي ، أي : لنفي الفعل سابقًا نفيًا يتصل بالحال ، تقول : لما يجيء زيد ، مثل : زيد لم يجئ ، أي : حكمت بعدم مجيئه في الماضي ، إلا أن الفرق بين لم وبين لما : أنه قيل : لما

1 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

2 – سورة : الانفطار ، الآية : 10 , 11 .

3 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

4 – سورة : الانفطار ، الآية : 10 .

متصل بالحال ، أي : لم يجئ ، وإلى الآن لم يأت ، لكن مفهوم لما ينفي مجيئه في الماضي ، إنما من الجائز أن يأتي الآن ، فعندما ترى لما ، اعرف أن الفعل بعدها منفي في الماضي ، واستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، ولكنه يكون متوقع الحضور .

ولذلك إذا قرأنا قول الله ﷻ : ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾[1] ، فهم نافقوا مع أنهم أظهروا مطلوبات الإسلام ، إنما الإيمان لم يدخل قلوبهم بعد : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ** ﴾ ، جملة : ﴿ **وَلَمَّا يَدْخُلِ** ﴾ ، أي : عند أسلوب الخطاب هذا ، لم يكن الإيمان قد دخل قلوبهم ، ولكنه متوقع أن يدخل ، هذا هو الأمل .

فمنفي لما فيه خصوصية ، فالخصوصية : أنه ينفي الفعل ماضيًا ، ويستمر نفيه إلى الحال الذي تتكلم فيه ، بخلاف لم ، فإن لم تنفي في الماضي ، ويجوز أن ينقطع الحال ، مثال : (لم يحضر زيد ، ولكنه حضر الآن) ، أي : لم يحضر في الماضي ، و لما تمتاز أيضًا بأن منفيها يتوقع أن يحدث ، مثال : (لما يثمر بستاننا ، وقد أثمرت البساتين) ، فيه توقع أن يثمر .

فكلمة لما : تقلب الفعل المضارع بعدها إلى الماضي .

ولها استعمال آخر : لما التي تدل على الوجود للوجود ، أي وجود شيء ، لوجود شيء آخر : ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ** ﴾[2]، كأن الحق يقول : إن المجادلة وجدت لما ذهب الروع وجاءت البشرى ، فهذا الحرف يسمونه حرف وجود لوجود .

وهناك استعمال آخر نحن بصدده الآن : أنها تأتي بمعنى : **إلا** الاستثنائية ، أي أن المعنى : إن كل نفس إلا عليها حافظ ، فتكون كلمة **إن** هنا معناها : النفي ؛ لأن **إن** تكون شرطية ، (إن قام زيد ، قام عمرو) ، تكون مخففة وليست مثقلة ، وتكون بمعنى النفي :

1 – سورة : الحجرات ، الآية : 14 .

2 – سورة : هود ، الآية : 74 .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [1] ، أي : ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم فـ**إن** هنا للنفي ، إن كل نفس إلا عليها حافظ ، ضع بدلا من إن ، ما ، فيكون : ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أي : لم توجد نفس منفلتة من الخالق .

لو قيل مثلا في غير القرآن : **إن نفس إلا عليها حافظ** ، فيكون الكلام مستقيمًا ؛ لأن النكرة في سياق النفي تعم ، لكن جاءت النكرة في سياق النفي ، ثم جاء لها بكلمة كل ، لكي تفيد الإحاطة ، إفادة من طريقين :

الطريق الأول: النكرة في سياق النفي .

***الطريق الثاني**: الإحاطة الكلية ، أي : لا تظن نفس من النفوس أنها بمنأى عن الرقابة والمحاسبة ، فهذه الرقابة هي رقابة الحق ﷻ ، أو رقابة من وكّله الحق ممن يكتبون .

ثم تجد المناسبة هنا بين : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، فكأن الحافظ الرقيب يطلع على الأشياء ، كما أن النجم الثاقب يثقب الظلام ، وينفذ إلى دقائق الأشياء وتفاصيلها ، إذن .. فالقسم نفسه دليل على المقسم عليه .

فـ : ﴿ الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ الذي يثقب الظلام ، فيري الإنسان خبايا الأشياء ، يكون منسجمًا مع : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ، وهذا الحافظ ثاقب يثقب عليها سرائرها ؛ ولذلك جاء بعد ذلك : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .

فالحق ﷻ نقلنا من آية كونية إلى آية نفسية ، فالآية الكونية : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، نقلنا من ذلك إلى آية في النفس الإنسانية .

وهنا تتجلى لنا دقة الأداء القرآني في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ؛ لأن العطاء الأول لصالح النفس ، النجم الثاقب حتى نعرف به حركاتنا ومصالحنا ، فكأن الحق ﷻ يقول لك : كل شيء يعطى لك لابد أن يكون له مقابل ، فلا

---

1 - سورة : المجادلة ، الآية : 2 .

نعتني بـــك تلك العناية ، ثم نتركك ، وعنايتنا بـــك دليل على أن لك مهمة معنا ، ولذلك سيبتدئ في شرح الإنسان كقضية كونية أخرى .

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِرٌ ﴾ .. نجد هنا أيضًا انسجام القسم في قوله ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ ، مع قـــوله ﷻ : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ ،وينسجم انسجامًا آخر مع قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ،وينسجم أيضًا انسجامًا مع الحفظ في قــوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِرٌ ﴾ ، متى ؟ ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ .. خَلْق الإنســان أمر لا شــك فيه ، ولكن المطلوب منه أن ينظر فيه ، فيقــول له : انظر أيها الإنســان في صورتك الكمالية في الكون ، لأن الإنســان هو السيد المتميز في الكون ، وكل أجناس الكون في خدمته ، لأنه يتميز بـالخصوصيات المتتالية ، فالنبـات يتميز عن الجماد بحركة النمو ، والحيوان يتميز عن النبـات بـالحس ، والإنســان يتميز عن الحيوان بالفكر ، إذن ، فالقمة في جميع الأجناس هو ذلك الإنسان .

فكأن القرآن يقول له : يا أيها الإنسان ، يا من في هذا المستوى العالي من الكمال ، انظر مِمَّ خلقت ، فلينظر الإنسان العالي الشامخ السيد في ذلك الكون مِمَّ خلق ؟



وكلمة : ﴿ فَلْيَنْظُرِ ﴾ إذا سمعتها في القرآن لا تفيد النظر بمعنى الرؤية ، بل النظر بمعنى التفكر ، والفكر هو ثلث النظر ، فكأن هذا هو معنى الملاحظة ، وهذه الملاحظة تؤدي إلى حقيقة ، وقد عرفنا أن كل التجارب العلمية تبدأ بالملاحظة ، ثم إجراء التجربة المعملية على الملاحظة ، ثم نقوم بعمل النظرية ، وبعد ذلك حقيقة علمية ، إلى ما شاء الله .

إذن ، فأساس كل شيء هو النظر ، لا النظر الضيق ، ولكن النظر المدقق المحقق ، فكان يجب على الإنسان – ما دام أنه لم يخلق نفسه ، ولم يخلق هذه الماديات التي يستخدمها في حياته ، ولم يأخذها بقوته – أن يفهم أصل الحكاية .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ ﴾ .. ما المراد بالإنسان ؟! يجب أن يكون الخطاب موجهًا إلى الإنسان الذي خلق من ماء دافق ، فما موقف **أبي البشر آدم** عليه السلام الذي خلقه الله عز وجل من طين ؟

والجواب : أن الحق عز وجل يريد أن يلفت الإنسان إلى اعتبار أصلية وجوده ، ولا يلفته إلا إذا كان هناك غفلة ، ولا تكون هناك غفلة إلا لأنه لم يشهد ذلك الأمر ، ولكن **آدم** عليه السلام شهد التكوين بيد الله عز وجل ، وشهد النفخ فيه بيد الله عز وجل ، فلا شك عند **آدم** عليه السلام في هذه المسألة ، إنما الشك في الناس الذين ينضجون بعد أن يكون الخلق قد انتهى ، فلا يستطيع أن يدرك كيف خُلق .

فيقول الحق عز وجل : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ، وفكرة الخلق قائمة على الإيجاد من العدم ، هذا الإيجاد من عدم ، إما أن يكون العدم حقيقة ، وإما أن يكون قد وجد على شكل لا يليق بما ينتهي إليه كمال الإنسان .

فلو نظرت إلى مادة خلق الإنسان ، تجد أن ماء الرجل يلتقي ببويضة المرأة ، فتنشأ الخلية ، ثم تنقسم هذه الخلية ، وهذه الخلية لا عقل لها ولا إدراك ولا إرادة ، ولكن عندما تنقسم الخلية ، يحدث شيء عجيب ، فالذي خلقها عز وجل هداها إلى ما تصير إليه في مسارها ،

تجد بعد انقسام الخلايا ، أن بعض الخلايا تتكتل حتى تكون عظامًا ، وبعض الخلايا لأخرى تتكتل حتى تكون أعصابًا ، والتي تكون عظامًا تتكون على أشكال ، فالعظم نفسه أنواع ، فخلية تشكل العظم المجوف ، وأخرى تشكل العظم المنبسط ، وأخرى تشكل العظم الدقيق ، فهي عملية لا يمكن أبدًا أن تكون إلا إذا كان وراءها مدبر وضع في كل هذه الأشياء الغرائزية تكويناتها ، بحيث تسير في مسارها لتؤدي المهمة المنوطة بها ، كل هذا والمادة الأصلية واحدة .

فهذا يدل على أن وراء ذلك الإنسان العظيم قدرة عالية فائقة ، وهندسة وضعت في مادة وجوده ، المسار الذي يهيئ كل خلية إلى ما تكونه من ذلك الإنسان .

إن الحق ﷻ عندما يحدثنا عن مسألة الخلق ينزع من رءوس الناس أن الخلق لابد له من تلك السببية ، التي هي الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، بل إنه إذا أراد أن يخلق ، فإنه يخلق بدون ماء دافق ، ولا صلب ، ولا ترائب ، بدليل أنه خلق الأب الأصيل بغير تلك الطريقة ، ثم خلق منه على هذه الطريقة .

ولذلك تجد العجب في أن الحق ﷻ أدار عملية خلق الإنسان على القسمة العقلية النهائية ، فنحن نجد أن كل ما في الكون من ذكر وأنثى ، والشيء المردد بين شيئين ، لا ينتج عنه منطقيًا إلا صورًا أربعة : إما أن يوجد بوجود الزوجين ، الذكر والأنثى ، أو يوجد بدونهما ، أو يوجد بوجود الذكر فقط ، أو بوجود الأنثى فقط ، فيكون عندي أربع صور عقلية .

فالحق ﷻ يعلمنا أن السبب ليس هو الموجد ، ولكن المسبب ﷻ هو الموجد ، فحين ينعدم الماء الدافق من بين الصلب والترائب ، يقدر الخالق ﷻ أن يخلق ، وقد خلق أباكم آدم عليه السلام على هذه الصورة بغير ذكر ولا أنثى ، وقد خلق أمكم حواء من ذكر دون أنثى ، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى دون ذكر ، وهو يخلق جميع البشر من الزوجين الذكر والأنثى .

إذن فالمسألة ليست دائرة على الأسباب ، لأن السببين منعا في آدم عليه السلام ، وأحدهما منع في



واحد ، والثاني منع في الآخر ، وقد يوجد السببان معًا وهو : الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ، ولكن الحق ﷻ لا يوجِد منه شيئًا .

ولذلك تجد الحق ﷻ يقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾[1] ، فمع اكتمال السببين ، تكلم عن العقم ، فالعملية الرتيبة هي أن الله ﷻ يخلق بسبب ، لكن ذلك لا يحدد مجال قدرته ، فإنه يخلق أيضًا بلا سبب ، وقد يوجد السببان في أقوى ما يكون ، ومع ذلك لا يتأتى النتاج منهما .

ومرة أخرى يصفه الحق بأنه خلق من ماء مهين ، ومعنى : " مهين " أنك عندما تنظر إلى ذاتية الماء ، تجد أنه ليس فيه قدرة ولا إرادة ، إنما إرادة الحق ﷻ أن يتكون منه ذلك الإنسان العالي ، وإذا نزلت إلى الجنس الذي هو أقل منه ، وهو الحيوان ، تجد أن الحيوان أيضًا يتكون من الماء الدافق ، ومن الصلب والترائب ، فلماذا يخلق منه حيوان لا فكر له ، ويبقى في المنزلة الدنيا ، ويخرج إنسان بكل هذه الخصائص المتميزة ؟! فالمسألة إذن مسألة إرادة المكون بأن يكون ذلك الكائن .

إذن ، فتكريم الحق للإنسان بما صوره هذه الصورة الجمالية ، وبعد ذلك بما آتاه من هذه الملكات الواعية الواسعة ، فكان يجب أن يقول : هل أصل تكوينك يفي بما ستكون أنت عليه ؟ لا ، بل أصل تكويني لا يفي بهذه الأشياء ، ولا يعطيني هذه الخصائص ، إذن فإرادة الحق ﷻ هي التي جعلت مني ذلك الإنسان ، وإلا فشيء آخر يشترك معي في الماء الدافق ، والصلب ، والترائب ، وغيرهم ، ومع ذلك لا يصير إنسانًا ، بل يكون حيوانًا ، ويظل في هذه الحياة الحيوانية .

وذلك هو السبب في أن العلماء عندما يتكلمون عن الإنسان وهو في بطن أمه يقولون : إنه لا

---

1 - سورة : الشورى ، الآية : 50 .

يكون إنسانًا إلا بعد مائة وعشرين يومًا ؛ ولذلك لما وصلوا إلى قول الصادق المصدوق ﷺ : " **إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة** "[1] .. قالوا : وهل هذا النمو ليس روحًا ؟ فنقول : هذه ليست الروح الإنسانية ، أما الروح الإنسانية فتأتي بعد فترة المائة والعشرين يومًا ، إنما هناك نامية حيوانية ، ومعنى النامية الحيوانية : أي عندما تأتي بحبة بر ، فهذه الحبة فيها نامية نباتية بالقوة ، ثم عندما تنمو يكون فيها نامية نباتية بالفعل ، والحيوان المنوي فيه النامية الحيوانية بالقوة ، ثم بعد ذلك حين يوجد في البويضة يكون فيه نامية حيوانية بالفعل ، وبعد ذلك حين يريد الله ﷻ له الإنسانية ، يأتي له الملك ، فينفخ فيه الروح الإنسانية .

إذن ، فليست كلمة الروح هي التي ينشأ عنها النمو ، فالنبات ينمو ، ولا ندعي أن في النبات روحًا .

﴿ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ .. وهذه حقيقة تعرض لها القرآن من قبل أن يكتشفها العلم الحديث ، وهي ماء الصلب وماء الترائب ، و" **الصلب** " : هو عظام الظهر ، و" **الترائب** " : هي عظام صدر المرأة ، أو موضع القلادة منها ، والعلم التجريبي انتهى إلى هذه الحقيقة .

وكلمة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أسندت دفقًا للماء ، مما يدل على أنه غير مدفوق بإرادة الإنسان ؛ لأن هذه العملية لو لاحظها الإنسان ، يجد أنه يُغلب على هذه المسألة ، بحيث أنه لا خيار له في تدفق هذا الماء منه ، فكأن **الدفق** خاصية موجودة في الماء ذاته ، وينزل بالشدة

---

1 – أخرجه البخاري (2969) ، ومسلم (4781) كلاهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والقوة ، بحيث لو أراد الإنسان أن يمنعه ما استطاع ، ولذلك لم يقل : " من ماء مدفوق " ، لكي لا يكون الفعل للغير ، بل **دافق** ، فحين ينضج الرجل ، ويصل إلى القمة الجنسية ، يغلبه ذلك الماء ، بحيث لا يستطيع مطلقًا أن يمنعه .

فنسبة التدفق إلى الماء ينبهك إلى أنه خرج رغم إرادة ذلك الإنسان ، هو فقط له أن يمنع الوسائل التي تؤدي إليه ، لكنه إذا ترك تلك الوسائل فلا قدرة له عليه أبدًا .

وقول الحق ﷻ : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ .. أوهم كثيرًا من الباحثين أن ماء الرجل الذي نسميه نطفة من مني يمنى ، وماء المرأة يظنون أنه الماء الذي يأتي عقب العملية الجنسية ، نقول لهم : لا ، بل إن ماء المرأة في العملية الجنسية لا دخل له في تكوين الإنسان ، فإن المرأة تفرز البويضة سواء تعرضت لعملية جنسية أم لم تتعرض لها ، والبويضة لها وقت توجد فيه ، فإن صادفت وجود ماء الرجل تم التخصيب بإذن الله ﷻ وتنتهي المسألة .

إذن فالمراد بكلمة : ﴿ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : هو ذلك الماء الذي ينزل في العملية الجنسية من الرجل ، ولكنه بالنسبة للمرأة ليس بالماء الذي يأتي في العملية الجنسية ، بل هو البويضة نفسها ، سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض .

وهنا حصل إشكال ، فبعض الناس ينقّبون في القرآن وفي الحديث ليعرفوا آثار الكمال فيه ، والبعض الآخر ينقبون ليعرفوا آثار التضارب فيه ، فالمستشرقون درسوا وقاموا بعمل فهارس للقرآن الكريم وللحديث الشريف ، ثم تجدهم بعد ذلك يثيرون في الحديث أو في القرآن أشياء ، ومن العجيب لمكرهم أنهم قبل أن يتكلموا عن الحديث يقولون : هذا الحديث موثق ، ويقوم بالأبحاث التي تقوم أنت بها حينما تصحح الحديث لتستنبط منه حكمًا ، فيعطيك فكرة أن هذا إخلاص في البحث ، ولكنه يأتي من ناحية أخرى ليبرز إشكالاً ، هذ الإشكال سطحي يعارض بعض قضايا العلم ، فلو أنه لا يريد أن يبين هذا الإشكال ، لكان لا يتعب

نفسه في التوثيق ، هو يوثق الحديث ليس إخلاصًا للحديث ، بل ليوثق الضربة .

فلما وصلوا إلى قول رسول الله ﷺ عندما سئل : كيف ينزع الولد إلى جنس أبيه أو إلى جنس أمه ؟ فقال : **" إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء الأنثى ماء الذكر نزع الولد إلى أمه "**[1] .

فقالوا : **أولا** : ماء المرأة لا دخل له في هذه العملية ، ففسروا الماء على أنه هو الذي يكون أثناء العملية الجنسية من صلب الرجل ، وترائب المرأة ، حتى لا يتفق الحديث مع الحقائق الكونية والعلمية .

ثانيًا : في مسألة النزوع .. ثبت علميًّا أن ماء المرأة هو البويضة ، فقالوا : البويضة لا دخل لها في تحديد جنس الذكورة والأنوثة ، وإنما الذي يتحكم في ذلك هو ماء الرجل نفسه ، فهذه مسألة جعلتنا ننظر في الحديث : " إذا سبق ماء الذكر ماء الأنثى " ، فظن الناس أن ماء الذكر من الذكر ، وماء الأنثى من الأنثى ، ولكن كلمة : **" إذا سبق "** هي التي تعطينا الجواب ، فكلمة : **" سبق "** إذا سمعتها تفهم منها أن الاثنين يستبقان ، والمتسابقان لابد أن يكونا منطلقين من مكان واحد ، وفي اتجاه واحد ، إذن ، فلابد أن نقف عند كلمة : **" سبق "** .

ومعنى سبق هنا : أن ماء الذكر وماء الأنثى من جهة الرجل ، وإلا فإذا كانا متقابلين فكيف يقال عن أحدهما : **" سبق "** ؟! إذن ، فالمنطلَق من مكان واحد ، وما دام المنطلَق من مكان واحد ، فالمراد بماء الذكر وماء الأنثى : الماءان الصادران من الرجل ، وهذا هو الذي أثبته العلم : أن الرجل يخرج من مائه الذكور والإناث ، ويتسابق الماءان ، فإن غلب ماء الذكورة يصبح المولود ذكرًا ، وإن غلب ماء الأنوثة يصبح المولود من جنس أمه أنثى .

﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .. وما دام أنه قد أثبت العظمة في التكوين ، والعظمة في الإيجاد ، والعظمة في أنه خلق ذلك الإنسان العظيم بكل مواهبه وملكاته من ماء مهين ،

---

1 - أخرجه البخاري (3645 ، 4120) من حديث عبد الله بن سلام ، ومسلم بنحوه (469) من حديث أم سليم .

فمعنى ذلك أن النهاية له ، فماذا بقي عليه ؟ إن ربنا يطلب لنفسه أشياء ، ويكتب على نفسه أشياء : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1] ، إذن فكل : " **لك** " يجب أن يقابلها : " **عليك** " ، فبعد هذه العناية التي رفعتك على كل الأجناس ، وجعلتك صاحب هذه المنزلة العظيمة ، أتظن بعد ذلك أنك متروك .

وبعد أن تجتاز مرحلة الحياة الطويلة اجتيازًا لا تشعر بهذه الحياة ، ينقلك من الإيجاد الأول إلي الإيجاد الثاني ، ليدلنا على أن خلقي كهذه المسألة ، فمرحلة الحياة كلها مرحلة مطمورة ، هذه المرحلة المطمورة مطمورة في حساب الزمن ، والحق ﷻ أوجدك لهذه الغاية .

كما في قول الحق ﷻ : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾[2] .. هل هذا الإعجاز من الحق ﷻ حدث من أجل هذه الفترة القليلة فى الحياة الدنيا ؟! كلا ، بل إنما كان لمسألة أخرى ، ولكنه يلفتنا ويقول : وحتى تسعد في هذه العملية ، فلابد من الفترة الثانية ، التي نخبرك عنها ، وتخطيناها في الكلام هنا ، هي الفترة التي تعطيك خير الفترات كلها ، وما دام هناك حفيظ ورقيب عليك ، فما قيمة الحفيظ ؟ وما قيمة الرقيب إذا كانت المسألة متروكة سدى ؟ لأننا سنحاسب بالضرورة ، وما دامنا سنحاسب حساب من يرى منا خفايا الأمور ، فيجب أن تعلم أن الأمر ليس متروكًا سدى ..

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ .. ومعنى ﴿ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ : تختبر بإخراج المكنون فيها ، والسرائر : هي كل ما يسره الإنسان ، وإذا كانت الأمور التي أسرها الإنسان ستبلى وتختبر وتخرج ، فالأمور التي أعلنها الإنسان من باب أولى واضحة ، ولكن لما كان الإنسان يظن أنه بكتمانه وبإسراره لكثير من الأشياء قد أخفاها ، نقول له : كلا ؛ لأن الحق ﷻ قال : ﴿ يَعْلَمُ

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 54 .

2 - سورة : القيامة ، الآية : 36 - 39 .

السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[1] ، وقد يقول قائل : السر هو الذي أسررته في نفسي ، فما هو الأخفى ؟ نقول له : السر يطلق إطلاقين : ما تسره إلى الغير في أذنه ، فإن كان السر معناه هذا ، فيكون أخفى منه وجوده في نفسك قبل أن تسره للغير ، أو إن كان السر هو ما أسررت به في نفسك ولم تقل به لأحد ، فالأخفى هو ما يعلمه قبل وجوده فيك ، فكلمة : ﴿ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ أي : قبل أن يكون سرًّا عندك ، فهو عالم أن سيوجد سرٌّ هنا .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ .. و " الرجع " : هو المطر الذي ينزل ، ثم يتبخر ، ثم يعود ، هذا هو الرجع ، أي : الماء الذي يرجع ويأخذ دورته ثم يعود .

ولماذا : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ ؟! لأنه لا يفيد الإنسان الفائدة إلا إذا نزل من السماء ؛ لأنه لو أتى من البحر المالح فلا يفيد الإنسان ، فيجب أن يكون ماء عذبًا مبخرًا صالحًا للشرب وللري .

وكذلك قول الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ يعطينا ملابسة للخلق الأول ، لأن الماء الدافق يشبه الرجع .

وكذلك فإن الإنسان سيرجع كما أن الماء يرجع .

1 – سورة : طه ، الآية : 7 .

﴿ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .. الأرض التي تتشقق وتنبت النبات ، مثل الماء الدافق ينزل في الرحم ، وبعد ذلك يأخذ صورته وينمو ... إلخ .

إذن ، فالحياة كلها عبارة عن قوانين منسجمة ، هذه القوانين المنسجمة ، يحكمها قانون واحد ، هذا القانون الواحد ، سائر في كل ألوان الوجود ، في الكونيات العليا ، والكونيات السفلى .

والحق ﷻ يتكلم عن الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب ليوجد ذلك الإنسان العجيب ، هذا هو بدء الخلق ، ثم بعد ذلك يريد قيومية عليه لكي يعيش ، فمن وهبه الحياة يريد استبقاء هذه الحياة ، فتكلم الحق ﷻ أولاً عن وهبه الحياة : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ ، ثم بعد ذلك تكلم عن استبقاء تلك الحياة : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

وبعد ذلك يعرض القرآن الكون والنفس هذا العرض ، ليعطينا هذا التمازج على أن خالق الكون هو خالق الإنسان ، هو قائل ذلك القرآن ، وما دام يلفتنا إلى أن خالق الكون ، هو خالق الإنسان ، هو قائل القرآن ، إذن فلابد أن نأخذ هذا المنهج منه ، ونعلم أن هذا هو المنهج الفصل ، فيقول ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .. وذلك يعني : أن كل ما جاء من أقضية القرآن هو الفصل في هذه الأقضية ، ومعنى القول الفصل : أنه ستوجد خصومات حول أشياء ، وكأن الطرفين المتخاصمين يريدان من يفصل بينهما ، ولابد وأن يكون كل واحد منهما في جانب ، فيفصل الحق ﷻ بينهما ، فإما أن ينصر جانبًا على جانب ، وإما أن يبين خطأ الجانبين .

كما قال الحق ﷻ : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[1]، فإن الله ﷻ أخرج هذه الأمة ، وأنزل فيها رسوله ﷺ ، وأنزل القرآن ليكون شهيدًا علينا ،

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 78 .

المطلوب منا أن نكون شهداء على الناس ، فأنت لا تقول : أنا شهدت على فلان إلا إذا كان لحق في غير جانبه ، وإلا لو أن الحق في جانبه فتكون قد شهدت له ، فكأن الحق ﷻ يقول : أنا أتيت بكم في زمن فاسد كله ، ولا يوجد طرف مع الحق وطرف مع الباطل ، بل الطرفان مبطلان ، وما داما مبطلين ، لا آتي لهم بشهيد على بعضهم ضد الآخرين ، بل أتيت لهم بشهيد على الاثنين ، ومعنى شهيد على الاثنين أن الاثنين مبطلان .

وعندما نلاحظ الفترة التي جاء فيها القرآن والإسلام ، تجد الكفتين كبعضهما ؛ لذلك قال : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

فقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .. يفصل في قضية ، هذه القضية إن كان الطرفان مبطلين ، أو إن كان طرف عنده شبهة حق ، فيميل إلى ناحية ذي الحق ، لكن هذه الفترة التي نزل فيها القرآن كان الناس كلهم مبطلين .. أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ، والوثنيون كما نعلم حالهم من كفر وشرك وضلال ، إذن لم يكن هناك منهج واضح للحق ، بل كلهم على ضلال .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ .. وهنا مسألتان :

مسألة الكيد منهم ، ومسألة الكيد الذي نسبه الله ﷻ لنفسه ، فحين تجد لفظًا نسبه الله ﷻ لنفسه مما لا يستسيغ فكرك أن ينسبه إلى الله ﷻ مثل الكيد والمكر ، كما في قوله ﷻ : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [1] ، فهذا مما يسمى في الأداء البياني بالمشاكلة ، والمشاكلة : هي أن تأتي بلفظ يدل على معنى ، هذا المعنى ليس هو عطاء اللفظ لغة ، ولكنه جاء بهذا اللفظ لوقوعه في صحبة غيره .

كما يقول ﷻ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [2] ، وإنما سميت سيئة لوقوعها بصحبة

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 50 .

2 – سورة : الشورى ، الآية : 40 .

السيئة الأولى ، فكأنه يقول : إن كنت قد أسأت إلينا بفعلك هذا وأنت تقصد أن تسوءنا ، فنحن نعاقبك على ذلك بما يسيء إليك ، فعندما نعاقبك نسوءك ، وكما قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾[1] ، فكل هذا يسمى بالمشاكلة .

و " المكر " : هو الاحتيال لإيذاء خصم لم تقدر على إيذائه بالمواجهة ، فتدبر له المكائد .

ومعنى ذلك هو عجز الماكر ؛ لأنه لو كانت عنده القوة التي تؤهله للمواجهة ما كان ليلجأ للمكيدة ، بل يواجه ؛ ولذلك فالضعيف غالبًا حين تأتيه الفرصة يكون جبارًا ظالمًا ؛ لأن هذه هي الفرصة الوحيدة التي تمكن منها ، لكن القوي عندما يملك الفرصة يقول : أنا في أي وقت سآخذ حقي ، ولذلك قال أبو الطيب المتنبي في ذلك المعنى :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة   قتلت كذلك قدرة الضعفاء

إذن ، فمن يمكر ويكيد ويبيِّت ويدبر في خفاء ، فذلك دليل على أنه ضعيف ، واعلم أنك عندما تمكر بمن يعلم مكرك فإنك لم تمكر ؛ لأنه يعرف طباعك في المكر ، فمكرك لن ينفع ، فإذا مكرت بمن يعلم مكرك يكون لا مكر ، مكر خائب ليس له ثمرة ؛ ولذلك جاء التعبير القرآني : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا ﴾ ، وهم يظنون أنهم يمكرون على من يساويهم في بشريتهم ، ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[2] ، أي : هم يمكرون ونحن نعلم بمكرهم ، أما نحن فنمكر بهم ولا يشعرون بمكرنا .

وكذلك قوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ ، أي : لهذه الدعوة ، فما داموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وقوف المواجهة ، فإنهم يمكرون ، لكن قل لهم : إن كيدكم مكشوف عند ربكم ﷻ ، وما دام مكشوفًا عنده ﷻ فهذا ليس كيدًا ، وكيدنا سيكون خيرًا من كيدهم .

وعندما يقول الله ﷻ : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[3] ، لا نقول : إن ربنا مكار ، حاشا لله ،

---

1 - سورة : النحل ، الآية : 126 .

2 - سورة : النمل ، الآية : 50 .

3 - سورة : آل عمران ، الآية : 54 .

وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا ، فربنا ﷻ لا تجوز عليه الحيلة على أحد ، فإذا قال الله ﷻ عن نفسه ذلك ، فيجب أن نؤمن بذلك ، ونعلم أن كنهه مجهول لنا ، فنقف عند ما يقول ، ولا نشتق منه اسمًا ، فلا نقول : الله كائد ، ولا نقول : الله ماكر ، حاشا لله ، بل نقف بالحدث عند ما قال الله ﷻ به .

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. من الذي يمهل ؟ ظاهر الآية أن الرسول ﷺ هو الذي يمهل ، ولكن المراد أن الله ﷻ هو الذي يمهل ، وإنما ذلك إيناس لرسول الله ﷺ ، فكأنه يقول له : إنني أرسلتك رسولاً لكي أؤيدك ، وما فعلوه إنما أردنا منه تمحيص الذين يؤمنون بك ، لأننا نريد ألا يكون معك في هذه الدعوة إلا من يصبر معك على تلك الشدائد ، من مكر وخداع وكيد ، فإن صبروا يكونوا أهلاً لأن يحملوا معك هذه الدعوة إلى الدنيا كلها ، فكأن الموقف بيدك : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

﴿ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ .. رويدًا : أي قليلاً ، أي أن الإمهال لن يطول كثيرًا ، وإذا ما استقرأنا تاريخ هذه الدعوة نجد أن الإمهال إنما كان فقط لتربية جنود الدعوة تربية تصبر على الشدة ، شدة ولا أمل في خير الدنيا أبدًا ، فإذا نجحوا في هذه المسألة ، ففترة الإمهال قد انتهت ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

نسأل الله أن يعيننا على الصبر والثبات ، وأن يجعلنا من حملة هذه الدعوة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

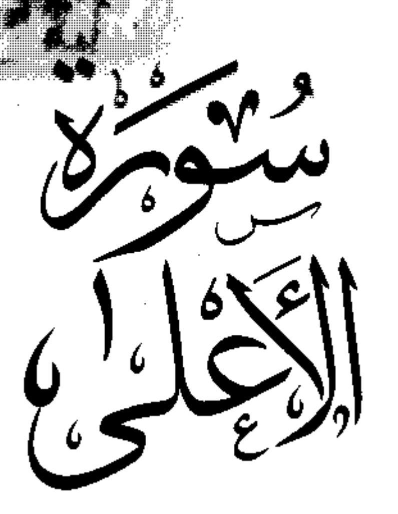






تفسير جزء عم









أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ وبعد . .

فمع **سورة الأعلى** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الطارق** ، والتي تعرضت – فيما تعرضت له إلى قضية الخلق – وهي الإيجاد من العدم – حيث قال الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [1] ، ثم تعرضت بعد ذلك إلى القيومية التي تمد ذلك الموجود من العدم بما يبقي عليه حياته من مادة حياته ، فقال الحق ﷻ : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [2].

ثم جاءت **سورة الأعلى** بعد أن تعرضت **سورة الطارق** لهاتين القضيتين ، فشرحت القضية الأولى شرحًا أوسع وأوفى ، وشرحت القضية الثانية أيضًا بصورة وافية .

وإذا ما استعرضنا هذه السورة جملة وجدنا – بداية – أن اسمها هو : " الأعلى " ؛ لأن كلمة الأعلى وردت فيها كحيثية من حيثيات الأمر بتسبيح الله ﷻ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، فسميت السورة بذلك الاسم .

وهذه السورة هي حبيبة رسول الله ﷺ ، وهي أحب المسبحات إليه ، كما روي عن علي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [3] .

1 – سورة : الطارق ، الآية : 5 ، 7 .

2 – سورة : الطارق ، الآية : 11 ، 12 .

3 – أخرجه أحمد في المسند (2 / 210) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (4542) .



والمسبحات هي السور التي ابتدأت بما يُشتق من التسبيح ، مثل : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ ، و ﴿ سَبِّحْ ﴾ ... وهكذا ، فهي أفضل هذه المسبحات .

لذلك كان رسول الله ﷺ يحرص دائمًا على أن يقرأها في صلاة الجمعة ، وفي صلاة العيد ، حتى لو اجتمعت الجمعة مع العيد قرأها في العيد صباحًا ، ثم قرأها في الظهر زوالاً ، كما روى **حبيب بن سالم** مولى **النعمان بن بشير** عن **النعمان بن بشير** قال : " كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. قال وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضًا في الصلاتين "[1].

وهذا مما يدل على أن رسول الله ﷺ كان له فيها ملاحظ تؤنسه ، فما هذه الملاحظ التي تؤنس رسول الله ﷺ ؟!

أول ملحظ : أن رسول الله ﷺ – وهو أميٌّ في أمة أمية – ينزل عليه الوحي فيقول له : ﴿ اقْرَأْ ﴾[2]، وذلك أمر العالِم ، ورسول الله ببشريته الأمية يجيب جوابًا طبيعيًّا ، فيقول : " ما أنا بقارئ " ، فيُصِر الوحي قائلاً : " اقرأ " ، فيصر رسول الله ﷺ : " ما أنا بقارئ " . فيقول له الوحي – بعد ذلك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

إذن فهناك حوار بين أمر ، وبين عجز عن أداء ذلك الأمر .

الأمر منطقي ؛ لأنه صادر من أعلى ، والنفي من رسول الله ﷺ منطقي ؛ لأنه صادر من بشر لا وسائل عنده للقراءة ، لم يرتَضْ عليها ، ولم يتعلمها ، ولم يجلس إلى المعلم ، فكيف يؤدي مدلول هذا الأمر ؟!!

1 - أخرجه مسلم (1452) .

2 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

3 - أخرجه البخاري (3) ، ومسلم (231) من طريق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

إذن فقول رسول الله : " ما أنا بقارئ " .. كلام منطقي مع قانون بشريته ، والكلام الأعلى في : ﴿ اقْرَأْ ﴾ كلام منطقي مع قدرة من يأمر .

وهنا تبدو ذاتيتان : ذاتية آمرة جازمة ، وذاتية ممتنعة نافية .

وهذا يدلنا على أن الرد على من يقول : إن القرآن إنما كان خواطر **محمد** ، أو صفائية إشراقية في نفسه وهو الآمر .

قلنا : لو كان هو الآمر لما كان هو المتنع ، لأنه كيف يجتمع منه أمر وامتناع ؟! فلو كان الأمر منه لما كان هناك امتناع .

إذن فهنا تأكيد على أن هناك ذاتين : ذاتًا أعلى ، وذاتًا بشرية ، فالذات الأعلى تأمر بما عندها من الاقتدار ، والذات البشرية تنفي بما عندها من العجز .

إذن فالموقف موقف صدق من الآمر ومن المتنع .

حين ذلك ما الذي ينهي هذا النزاع : أمر من أعلى بجزم ، ونفي من أدنى ؟ ما الذي يخرجنا من هذا الأمر ؟

لا يخرجنا موقف الضعيف ، وإنما يخرجنا منطق القوي ، لماذا ؟!

لأن القوي في قدرته أن يفيض على الضعيف بما يجعله يؤدي مدلول هذا الأمر ، فقال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾[1] ، وانظروا إلى أفعل التفضيل في كلمة : ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2] ، فإذا كان الإنسان لا يقرأ إلا بما تعلّم ، فمن علم أول قارئ ؟!

إذن فلابد وأن تنتهي المسألة إلى أن أول قارئ لم يكن مُعلّمًا من مثله ، بل معلمٌ من أعلى منه ، وما دام معلمًا من أعلى منه فلماذا تنفي ؟!

---

1 – سورة : العلق ، الآية : 3 .

2 – سورة : العلق ، الآية : 4 ، 5 .

أنا لا آمرك أن تقرأ برياضتك للقراءة ، ولا آمرك أن تقرأ لأنك تعلمت ، وإنما آمرك أن تقرأ لأني أردت لك أن تقرأ ، وأنت لن تقرأ باسم ما تعلمت ، أو باسم ما ارتضت ، وإنما تقرأ ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1] .

ثم يعطي الحيثية القوية فيقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ ، و ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ أفعل تفضيل من كريم ، فإذا كان الكريم ﷻ قد أمد خلقه بالأسباب التي توصلهم إلى أن يتعلموا ويتواضعوا على رسم الأصوات بحروف تُقرأ ، تلك صفة الكريم وهبت لجميع الخلق .

فما هو مدلول الأكرم ؟

الأكرم : هو أن يجعلك تتعلم وإن لم تتلقَّ ذلك .

نحن نعرف في السيرة كيف أجهد الوحي رسول الله ﷺ ، وكيف كان يقول ﷺ بعد أول لقاء له بالوحي : " **زمّلوني .. زمّلوني ... دثروني .. دثروني** " ، وكيف قال في أول اتصال الوحي به : " فغطني حتى بلغ مني الجهد "[2] ، وكما تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كيف كان الوحي به : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا "[3] ، كل هذه ظواهر مادية ، هذه الظواهر المادية لابد أن يكون فيها إجهاد مادي ، وما دام فيها إجهاد مادي لابد أن يكون هناك – كما سبق أن قلنا – تحولات كيماوية في ذاتيته البشرية ﷺ ؛ لأن ملكًا أعلى سيلتقي ببشر ، فلا مفر من أحد أمرين :

الأمر الأول : إما أن ينتقل الملك من ملكيته إلى بشرية تساوي بشرية الرسول فيتكلم معه ، وحينئذ لا يكون عند البشر مجهود ؛ لأن العملية صارت من الملك ، وتمثل له بشرًا فكلمه ،

---

1 - سورة : العلق ، الآية : 1 .

2 - أخرجه البخاري (3 ، 2999) ومواضع عدة ، ومسلم (231 ، 232) عن عائشة وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين .

3 - أخرجه البخاري (2) عن عائشة رضي الله عنها .

فهو لا يزال على طبيعته البشرية .

وإما أن يكون **الأمر الثاني** : وهو أن يحصل التحـــول منه ﷺ ، فتصفو نفســـه ، وتهتز بشريته ، حتى يمكن أن تلتقي البشرية بالملكية ، وذلك هو أشق أنواع الوحي على رسـول الله ﷺ ، وإن كان هذا هو أشق ألوان الوحـي على رسـول الله ﷺ إلا أنه هو آكد الوسـائل في صدق بلاغه عن الله ﷻ ؛ لأن الملك إذا تمثل بشـرًا ربما يكون ظن أن هناك بشـرًا أعلى من بشـريته يكلمه ويخاطبه وينقـل له ما ينقـل ، فليس في ذاتيته ﷺ دليل الاتصال الخارجـي إذًا ، أما أن يحدث في تكوينه شيء فترتجف بوادره ، ويتفصد جبـينه عرقًا ، ويحصل له ما يحصل فهذا أمر ذاتي فيه .

فحينما يأتي له علم من هذا الطريق فيعرف أن ذلك العلم عن طريق غير عادي ، فيثبت فيه ما يملى على رسول الله ﷺ ، ومعه دليله أن ذلك ليس أمرًا عاديًا ، لا ببشر ولا بـكلام من وراء حجاب .

ولذلك فإذا قـرأنا قـول الحق ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾[1] .. وجدنا أن وسـائل اتصال الحق بالخلق ثلاثة : **الوحي الإلهي ، أو الكلام مباشرة من وراء حجاب ، أو بإرســال رســول من الملائكة** .

والوحـــي : هو إلهام يقـذفه الله ﷻ في قـلب الموحـى إليه ، كما قـال النبي ﷺ : **" وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقـــها ، فاتقـــوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله ، فإنه لا يُنال ما عنده إلا بطاعته "**[2] .

---

1 – سورة : الشورى ، الآية : 51 .

2 – أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (8 / 129) ، والبيهقي في الشُعب (9989) ، عن عبد الله بن مسعود .

والفرق بين الوحي وبين أي خاطر بشري أن الذي يُنفث في روعه يكون مع النفث في الروع دليل صدقه وأنه من الله ﷻ ، لا يُشك فيه ، كما قال الحق ﷻ عن أم موسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] .. فهل امتثلت أم موسى أم لم تمتثل ؟ لقد امتثلت .

فأروني امرأة خافت على وليدها وشعرت أنها يجب أن تلقي به في البحر لينجو وفعلت ذلك ! !

أي منطق هذا ! ! فلو لم يكن قد ألقي في نفسها أن هذا الخاطر ليس خاطرًا بشريًا ولا شيطانيًا ، وإنما هو خاطر من الله ﷻ ما انصاعت إلى تنفيذ الأمر المخالف للفطرة البشرية .

وإلا فكيف تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ، فمن الجائز أنها إذا لم تلقِه في البحر أن لا يقتله جنود فرعون ، أو أن فرعون يلغي أمره ، أو تستطيع أن تخفيه في أي مكان عند بحثهم عنه ، فكيف تنقذه من موت مظنون وتلقي به في البحر ، وهو موت محقق ، لو لم يكن مع ذلك الوحي ما يدل على أنه من عند الله ، ويطمئنها الطمأنة البشرية : ﴿ وَلاَ تَخَافِي ﴾ .. في أمر يأتي مستقبلاً ، ﴿ وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ .. على أمر يفوتك ماضيًا ، وهو أنك ستلقينه ، ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أي أن نجاته عليه السلام ليس لأمر يهمك أنت فحسب ، ولكن نجاته أمر يهمني أنا ؛ لأن له عندي مهمة ، وما دام له عندي مهمة وسأرسله رسولاً فأنا الذي سأحافظ عليه ، ولذلك سألقي أوامري إلى كائن من خلقي ، وهو البحر .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾[2] عندما قال لها : اقذفيه في التابوت ، أمر البحر كذلك أن ألقه بالساحل .. ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ أمر باللام .

---

1 – سورة : القصص ، الآية : 7 .

2 – سورة : طه ، الآية : 39 .

إذًا .. ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا ﴾ .. هذه هي الطريقة الأولى .

﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ .. كما كلّم الحق ﷻ موسى عليه السلام من وراء حجاب .

﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ .. ﴿ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ وهو وصف للوحي ..

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1]. اصطفى من الملائكة رسولاً قمة ، واصطفى من البشر رسولاً قمة ، فالقمتان تلتقيان ، حين تلتقي القمتان – قمة الاصطفاء الملكية وقمة الاصطفاء البشرية – لابد أن يحدث تحويل في واحد منهما ؛ لأنه غير ممكن الالتقاء بينهما ما دام كل منهما لا يزال على طبيعته .

ثم لما أُجهد رسول الله ﷺ بذلك الأمر الجديد عليه أراد الحق ﷻ أن يطمئنه على شيئين : على أن المسألة لن تكون هكذا باستمرار ، ولكنا سنرفع ذلك الحِمل الذي تتكلفه ماديتك وتكون متعبًا بسببه ، فبعد أن قال : ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[2]. قال له : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾[3].. سيكون في ذلك خفة لك ، ولذلك ما اشتكى رسول الله ﷺ من الوحي بعدها ؛ لأنه قد ربيت فيه طاقة الشوق إلى الوحي ، وتربية طاقة الشوق للأمر الشاق تُهَوِّن المشقة ، وتجعل الإنسان لا يشعر بها ، فإذا ما عرض إنسان على إنسان أمرًا شاقًا ، ثم رأى ثمرة ذلك الأمر الشاق حلوة بعد ما يهدأ وبعد ما يرتاح ، ذهب التعب وبقيت حلاوة ما أوحي إليه ، هذه الحلاوة تجعله يشتاق إن غاب عنه الوحي ، ساعة ما يشتاق وجدت في نفسه الطاقة الإقبالية ، وعندما توجد في نفسه الطاقة الإقبالية والشوق يجعله لا يشعر بالمتاعب بعد ذلك .

وبعد ذلك فكما أن الرسول ﷺ كان أميًا لا يعرف القراءة فهو في هذه السورة سمع : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ ، وبعد ذلك قال له : ﴿ فَلاَ تَنْسَى ﴾ ، فالرسول ﷺ لم يشتهر عنه أنه راوية

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 – سورة : الضحى ، الآية : 1 ، 3 .

3 – سورة : الضحى ، الآية : 4 .

للأخبار ، ولا راوية للشعر ، ولا نسابة أو حافظ للأنساب ، أي : لم يعتد ذهنه على أن يتلقى معلومات ثم يسردها كالحافظة عن غيب ، فعندما يوحي إليه ويجعله يقرأ إنما يقرأ عليه النجم الواحد ، وهو الجزء أو القسم من القرآن ، وقد يطول ذلك النجم أو يقصر ، بحسب الواقعة التي نزل بشأنها .

فقال ﷻ طمأنة لنبيه ﷺ : ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هذه واحدة ، ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ بشرى ثانية .

وهذه هي أول حيثية جعلت السورة حبيبة لرسول الله ﷺ .

ثم بعد ذلك قال له : أنت تتلقى فتقرأ ، وبعد ذلك تنقل : ﴿ فَلا تَنْسَى ﴾ .. فلا تريد أن تنسى ، وبعدها تريد أن تطبق ، فعندما تطبق ، أي : تُخرج الكلام المبدئي النظري والقضايا المطلوبة منك إلى حيز السلوك ، فسيكون هناك مشقة إخضاع حركة حياتك لمنطق المنهج ، فقال له : لا تخفْ من هذه : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. سنيسر لك الأمور .

فإذا ما استقر لك الإقراء وعدم النسيان ، لتبلغ الناس ، وتيسير تطبيق السلوك ، إذن فعليك أن تنقل ذلك الإشراق والنور إلى غيرك ، ولا تظن أبدًا أن الناس كلهم سيكون على قلوبهم ختم ، فإنه ما من ذكرى إلا وهي نافعة ، وإن لم تنفع الكل تنفع البعض فقال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ .. وهذه طمأنة .. ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴾ .

وبعد ذلك يكر على من سمع الذكرى فيقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

ثم بعد ذلك يختمها بمبدأ عام ، وهو أن ما أتيت به من أصول ذلك الدين والتكليف أمر موجود مع الوجود منذ الأزل ، أي : أنت لم تخرج بذلك الأمر الجديد عليك عما جاء أولاً من رسالات : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، إذن فتلك هي حيثيات حبه ﷺ لهذه السورة .

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .. ننتقل إلى فقه السورة ، فنجدها قد بدأت بأمر هو : ﴿ سَبِّحْ ﴾ ، ومعناها : طلب المتكلم ، وهو الحق ﷻ ، من المخاطَب أساسًا ، وهو رسول الله ﷺ ، ومن كل من يتبعه أن يقوم بالتسبيح .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه : أن يكون شيء ثم يوجد له نظير في الشكل أو في الجملة ، فتتوهم أن هذا قد يساوي ذاك ، فنقول : كلا ، بل إن هذا ليس من هذه الطبيعة .

أي أن لله ﷻ وجودًا ، ولخلقه وجودًا ، ولكن نزِّه وجود الله ﷻ عن وجود الناس ؛ لأن وجود الناس عن عدم ، وإلى عدم ، ولكن وجود الحق ﷻ لا عن عدم ، ولا إلى عدم .

فصفة الوجود قدر مشترك ، إلا أنك لابد أن تنزه الحق ﷻ إن وجد وصف في مخلوقاته يساوي وصفه في شكلية اللفظ .

فالتسبيح معناه : التنزيه ، يعني : أمرني ربي أن أنزهه ﷻ .

لكن يلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، وحين نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : " اجعلوها في سجودكم "[1] ، ولذلك نقول في سجودنا : " سبحان ربي الأعلى " .

ولو كان على منطق المطلوب لقال رسول الله ﷺ : قولوا : " سبحان اسم ربي الأعلى " ، إلا أن القرآن لما قال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ ﴾ قال الرسول ﷺ : " سبحان ربي " .

1 - أخرجه أبو داود (736) ، وابن ماجه (877) ، وأحمد (16773) من طريق عقبة بن عامر الجهني .



وأيضًا فالآية نفسها .. ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ جاء فيها بالحيثية ، فالحيثية الأولى أنه أعلى .

ومعنى التنزيه : أن تنزه الأعلى أن يكون مثل الأدنى ، فهوأعلى ، وليس عاليا ؛ لأن " عال " وصف من خلقه ، أي : يوصف به بعض خلقه ، يقول الحق ﷻ لإبليس حين امتنع عن السجود لآدم ﷺ : ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾[1] ، وكأن الملائكة كانوا مقسمين إلى قسمين : قسم له علاقة بذلك الخليفة في الكون من حفظة ، ومن رقيب ، ومن عتيد ، ومن الملائكة الموكلين بتدبير الكثير من الأمور ، هؤلاء لهم علاقة بهذا المخلوق وهو آدم ﷺ ، فإذا كان الله ﷻ قد أمر الملائكة بالسجود لآدم فإنه إنما أمر الملائكة الذين لهم علاقة بهذا المخلوق يدبرون أمره : أمر النواميس .. أمر الكون .

وهناك ملائكة لا يدرون مَن آدم ولا يعرفون عنه شيئًا وهم : المهيّمون في الله ، الذين لا يعرفون إلا الله ﷻ ، فليس عندهم معلومات أخرى ، فقال له : أستكبرت عن الأمر ، أم أنك حسبت نفسك من العالين الذين لم يشملهم الأمر ؟!

إذن فكلمة : " عال " أطلقها الله ﷻ على بعض خلقه ، ولكن عندما يقول : ﴿ الأَعْلَى ﴾ يكون قد أحدث التمايز المطلوب .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .. حيثية الأعلى ، لماذا كان أعلى ؟ لأنه خلق ، وما دام قد خلق فهو أعلى من المخلوق ؛ لأن المخلوق انفعال للقدرة الخالقة ، وما دام منفعلاً للقدرة الخالقة إيجادًا ينفعل لها إعدامًا ، إذن ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حيثية للأعلى .

ولم يخلق فقط فأوجد من عدم على أية صورة ، بل ﴿ خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ، كما يفسره قول الحق ﷻ : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾[2].

---

1 - سورة : ص ، الآية : 75 .

2 - سورة : الملك ، الآية : 3 .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .. يشرح الحق ﷻ بعد ذلك هذه التسوية فيقول : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[1] ، أي : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾[2] أي : جنسًا ونوعًا وتشخصًا وعمرًا ، وبعد ذلك هدى كل مقدور إلى ما قُدر إليه .

فإنك عندما تستقرئ الكون تجد العجب ؛ فالإنسان العاقل الذي سما بفكره في الكون ، والذي يجعل فكره يستنبط أشياء كثيرة ، وهو فاهم أنه تميز عن ذلك الكون ، نقول له : حتى تفهم أن المسألة ليست نتيجة عقلك ، فإن عقلك قد يدلك على كثير من الخطأ والبوار ؛ لأن عقلك سيصادمه شيء آخر وهو هواك ، **وآفة الرأي دائما الهوى** ، فالهوى يزين للإنسان أمرًا يجعله يلجأ إلى هذا الطريق ؛ لا لأن عقله قال هذا ، بل لأن الهوى أفسد عليه عقله .

فنقول له : انظر إلى المخلوقات التي ليس لها فكر ، لكي تعرف أنه عندما قدر هدى كل شيء ﷻ .

فمثلاً : جنس النبات يكون من بذرة ، والبذرة نبات بالقوة لا نبات بالفعل ، ومعنى نبات بالقوة : أنها صالحة لأن تكون نباتًا إن هيئت لها بيئتها ، فتبقى هكذا في مخزنها بذرة حتى تتهيأ لها البيئة من تربة خصبة وري وغير ذلك فتنبت ، فالحبة نبات بالقوة أي فيها قوة أن تكون نبتة ، وبعد ذلك تكون نبتة بالفعل إذا هيئت لها البيئة .

فانظر إلى التقدير ، فعندما تهتم بتلك الحبة بوضعها في التربة ، فتبدأ الفلقتان تتضخمان ثم يخرج بينهما الزباني التي تكوّن الجذر ، وتأخذ الفلقتان تغذيان الجذر ، حتى يقوى الجذر ويكوّن شعيرات تمتص من الأرض فتعطي له الغذاء ، وبعد ذلك يستمر الجذر في أخذ الغذاء من الفلقتين حتى ينتهيا فيتكون أول ورقتين .

إذن فالحبة نفسها فيها قوتها إلى أن يصبح لها قوت ذاتي ، وبعد ذلك عندما يكون لها شعيرات تبدأ بالامتصاص .

---

1 – سورة : الأعلى ، الآية : 3 .

2 – سورة : الطلاق ، الآية : 3 .

وعلماء النبات يتكلمون فيقولون : إن النبات يتغذى بخاصية الأنابيب الشعرية ، وهذا صحيح ؛ لأن هذه الأنابيب دقيقة جدًا ، وقطرها ضيق جدًّا ، ولذلك تجد ضيق قطرها يجعل السائل يرتفع فيها عن منطقة الاستطراق مع أن السائل ضروري أن يستطرق ، وإن وسعت ينزل السائل ويستطرق ، وإن كانت شعرية يرتفع السائل إلى أعلى ؛ فالنبات يتغذى بقانون الاستطراق فعلاً .

مثال : سوف آتي بحوض وأضع فيه أنواعًا كثيرة من العناصر وأذيبها في الماء ، وبعد ذلك أحضر أنابيب شعرية وأضعها في الحوض ، وبعد ذلك أرى هذه الأنابيب ، فسأجد أنها تأخذ السائل بكل مكوناته الذائبة فيه ، ولكن هل هناك أنبوبة تأخذ عنصرًا وتترك عنصرًا ؟ كلا ، لا تجد ذلك أبدًا .

وعندما نرى الشعيرات نتذكر قول الله ﷻ : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ [1] ، وأتى بالماء لأنه المذيب للعناصر ، وبعد ذلك : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ ، ولكن كيف حدث هذا التميز ، وكيف تميِّزُ وتتعرف هذه الشعيرة على العنصر الذي هو غذاؤها وتدع العنصر الآخر ، فهل هناك أنبوبة شعرية تأخذ عنصرًا من السائل وتدع الآخر ؟! لا ، فهي تأخذه كله ، وذلك لأن الذي صنع الأنابيب لم يهدها بخلقته لكيلا تأخذ إلا ما تحتاجه ، لكن الحق ﷻ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

ثم يقولون : حدث هذا بخاصية الانتخاب الغذائي ! !

فنرد عليهم ونقول : وما هو معنى خاصية الانتخاب الغذائي ؟!

إنه لا يختلف عن خاصية الاختيار ، أي : ينتخب ما يريده ، وما دامت خاصية اختيار فلابد وأن يكون فيها ما ترجح به الاختيار ، لماذا اختارت هذا بالذات ، فتأخذ المختار وتدع

1 - سورة : الرعد ، الآية : 4 .

غير المختار ؟! فمن ألهمها هذه المسألة ؟!

ونحن نعلم أنها ليست عندها فكر من وجهة نظرنا نحن ، فالذي يعمل مثل هذا رغم حالته هذه فهو أحذق من الذي له فكر ؛ لأن الذي له فكر قد يكون هناك شيء ضار فيقول : أجربه ، أما هي فلا تفعله أبدًا ؛ فالإنسان مثلاً قد يشبع من الأكل ثم تصر عليه أن يأكل فيأكل ، ثم تصر فيأكل، وهكذا ، أما الحيوان فعندما يشبع فلا يأكل عود برسيم واحد زائد عن حاجته .

إذن فهو بغير فكره بما قدره الله ، وبما هداه إلى صالحه لا ينحاز إلى شيء غير ذلك .

إذن فتقدير الله ﷻ وهديه لمخلوقاته دون الإنسان ، وكأنه يقول له : الفكر الذي أنت تقول : إنك متميز به ، فأنا معطٍ لشيء ليس له فكر خواصًا أنت لا تقدر عليها .

فالشجرة مثلاً إذا منعت عنها المياه فلم يعد هناك شيء يذيب العناصر ، فتقوم هي بطبيعتها فتستغني عن المهم قليلاً وتهتم بالأهم ، فتجعل الورق يذبل حتى تغذي الساق ، والفروع الصغيرة تذبل وتضحي بنفسها حتى يكبر الساق ، والساق يذبل حتى يغذي الجذر ، وما دام الجذر باقيًا سليمًا فمن الممكن عندما تأتيه المياه أن يبدأ في النمو ، فكل الشجرة بأوراقها وأزهارها وأغصانها الرفيعة كلها تخدم السيد ، والسيد هنا في النبات هو الجذر ، وليس القمة .

لكن في الإنسان السيد هو القمة .. هو العقل ، وما دام العقل صحيحًا وخلاياه لم يحدث لها شيء فكل شيء من الممكن أن يعوض .

لذلك ننظر لحكمة الحق ﷻ فيما لا يدخل تحت العقل ولا تحت عملية الفكر في الإنسان ، فنجد أن الحق ﷻ لا يحرم الإنسان أيضًا من معنى .. ﴿ قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ بدون تدخله ؛ فالإنسان يرضع ثم تطرأ عليه فترة النمو ، فيكون الداخل له من الغذاء أكثر من الخارج منه من الفضلات ، فالداخل من الغذاء جاء حتى يعوض الحرارة التي خرجت جراء الحركة والطاقة .

زيادة على ذلك يقوم ببناء خلايا زائدة في الجسم ، لا تدخّل للإنسان فيها ، ولا يعرف عنها شيئًا ، كعمل الشحم وتضخم العضلات واللحم ، بحيث إذا امتنع عنه أسباب الحياة أو أسباب البقاء وهو الطعام فيجد أن : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ تقوم بعملها ، والتي هي بعيدة عن فكرنا ، فيتغذى الجسم على الغذاء الذاتي الذي ليس لنا فيه دخل ، فيقوم الجسم ذاتيًّا بأخذ بعض الدهن الذي تركب عندنا والزائد عن حاجة الجسم ، ويبتدئ في تحليلها لنا حتى يصلح كغذاء ووقود .

ومن العجيب أن الدهون – وهي مادة واحدة – تتحول إلى كل عناصر الغذاء .

وهذا أيضًا من مشكلات العلم ، فمادة واحدة تتحول إلى كل العناصر المطلوبة للجسم ، وبعد ذلك ينتهي الدهن فيأخذ من اللحم ومن العضلات ، وبعد أن ينتهي ذلك فالمخ يريد أن يبقى ؛ لأنه هو السيد ، فيقوم العظم ويعطي له من الغذاء ، فيكون آخر مخزن للقوت الذاتي في الإنسان – الذي لا يعلم عنه شيئًا لا بفكره ولا باختياره ، بل بقانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ – هو العظام .

فنحن نلمح أن القرآن عندما يلمح إلى مثل هذا لا يقولها على أنها نظرية ، بل يقولها على أنها قضية كونية ، كقصة **سيدنا زكريا** الذي يقول : ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي** ﴾[1] ، أي أن آخر مخزن ذاتي عندي قد انتهى .

والعربي القديم تفطن إلى هذا فيقول : " **لقد مرت علينا سنة أذابت الشحم ، وسنة محت اللحم ، وسنة محّت العظم** " .

إذن فالعملية الذاتية هي التي تطرأ على الإنسان عندما يفوت ميعاد غذائه فيقول : لقد عفت نفسي عن الأكل ، فنقول له : لا ، بل أنت قد تغذيت عندما فات ميعاد أكلك الذي بفكرك وبإرادتك فابتدأ الجسم من قانون : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ يعطي لك بعضًا من الشحم

1 – سورة : مريم ، الآية : 4 .

فيغذيك .

تدبـــر – مثلاً – في خلق الحيوان ، ولتطالع مثلاً كتاب : " **العلم يدعو إلى الإيمان** " وفيه صور كثيرة كهذه ، ورحم الله الشيخ **سيد قطب** ، فقد نقل في كتابـه : " **في ظلال القرآن** " فصولاً كاملة من كلام رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك عن هذه الحالة في شرح قـول الحق ﷻ : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، وطبعًا أنا لن أكرر ما قاله ، ومن أحب أن يرجع إليه فليرجع [1].

فيقول مثلاً : إن ثعبان السمك من الأشياء المدهشة في العلم ، وثعابين السمك توجد في البرك والنهيرات والأنهار ، وبعد ذلك قـال : إنها لا تخصب إلا في بـرمودة في أمريكا ، فبـمجرد ما يصل الثعبان إلى سن المراهقة تجده يذهب إلى مكانه في برمودة في هذا المكان من العالم بـالذات دون سواه ، فيخصب ، وبعد أن يخصب يموت .

فالمهم هنا أنه كيف تمكن من أن يذهب إلى برمودة في الأمواج والمسافات الطويلة .

والأغرب أيضًا أنه عندما قاموا بـعمل نسبـة لسـمك الثعبـان الذي يعيش في نـهيرات وبـرك أوروبـا ، والذي يعيش في بـرك ونـهيرات نيويورك ، وجدوا أن الأولى التي تأخذ مسـافة أطول تعطى له طاقـــة أكثر من الثانية ، ولذلك فالعجيب أننا لم نجد ثعبـــانًا أمريكيًا في المياه الأوروبية ، ولا ثعبانًا أوربيًّا في مياه أمريكية ، وكلاهما لا يُتم التخصيب إلا في برمودة .

ثم بعد ذلك هذا الصغير الذي يفقس هناك كيف يرجع إلى موطنه الخاص بأبـيه الذي مات بعد التخصيب ولا يخطئ أبدًا ، فذلك أيضًا بقانون : ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

وقد ذكر أيضًا أمثلة عن السلمون ، وعن النحل ، وعن النمل .

فعندما تنظر – مثلاً – إلى خلية النحـل تجد أنها تخضع لأدق مقـاييس الهندســة ، فنجد كل أضلاع الغرفة الواحدة متساوية في الطول والعرض والارتفاع والشـكل مع الغرفة الأُخرى ، وكل غرفة مخصوصة لها شـكل مختلف ، فالعَمَلة لهم حـجرة بشــكل كذا ، والذُّكْران الذين

---

1 – انظر " في ظلال القرآن " لسيد قطب (6 / 3884 - 3886) .

يلقحون الملكة لهم حجرة بشكل معين ، والملكة أيضًا لها غرفة بشكل معين ، وإذا نظرنا إلى تلك الإفرازات نجد أنها تفرز شيئًا يغذي الملكة فقط ، وغيره من المسائل العجيبة في خلايا النحل .

وفي النمل أيضًا لو أتيت بتمرة أو قطعة من اللحم ورميتها ، فلابد من وجود نمل بعد مدة ، فمن الذي أخبره ؟! وتجد أنه تأتي نملة أو اثنتان أو ثلاثة فقط ، لا يزيدون ، فيحومون حول تلك القطعة ، ثم يتركونها ويذهبون ، وبعد مدة تلتفت فتجد عددًا من النمل ، جاء هذا العدد الذي يستطيع حمل هذه القطعة لا أقل ولا أكثر ، فكيف قدروا وزنها ؟!

وحتى تتأكد من صدق هذه النظرية ضع جرامًا من اللحم – مثلاً – وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، وبعد ذلك قلل الوزن إلى النصف وانظر كم نملة ستأتي لتحملها ، فتجد أنهم في الحالة الثانية نصف ما في الحالة الأولى .

فهذا شيء عجيب ومن أعجب ما يكون ، وهذا من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ ، فربنا ﷻ يقول لذلك الإنسان المتعالي : إن عقلك هذا دون ما ليس له عقل ؛ لأنني أعطيت من لايملك العقل قوانين تحكمه وتسيره ، فإن ما يبعد الإنسان عن السماء هو غروره بعقله .

إن الهدهد هو الطائر الذي غذاؤه ليس من على سطح الأرض أبدًا ، فغذاؤه لابد أن يكون من تحت الأرض ، فكيف يتنبه إلى أن هنا غذاء فينقر الأرض ويأتي بالغذاء ؟!

ولذلك تجد العجب في عرض القرآن لهذه القضية ، فعندما قال نبي الله سليمان ؑ : ﴿ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾[1] ، فهذا كلام ملك ، ثم كلام النبوة : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .. مُلك ولكن بعدالة النبوة .

فيأتيه الهدهد ويقول له : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ * إِنِّي

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 20 ، 21 .

وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾[1].. هذا الكلام كله في المُلك ، لأنه لا يخاطب ملكًا فقط ، بل ملكًا نبيًّا فيقول له : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[2] ، فلابد وأن يتحدث من الجهتين الخاصتين بـ سليمان ﷺ : جهة المُلك ، وجهة النبوة ، فجهة الملك : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وجهة النبوة : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ .

ثم انظر إلى دقة الأداء البياني : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[3] ، فلماذا لم يلتفت الهدهد إلى شيء من القدرة إلا ﴿ يُخْرِجُ الْخَبْءَ ﴾ ؟!

لأن قوت حياته ومقوماتها من الخبء ، فأتى باللحظ الذي مسه ، وأتى بالحيثية ﴿ أَلاَ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

يلفتنا من هذا إلى أن الإنسان حين يتجه إلى الحق ﷻ يجب إن لم يتجه إليه لفضائل ذاته فليتوجه إليه لفواضل إنعامه ، أي : إذا لم تكن الذات تستحق يكفيك أن تتجه للنعم التي تفضل بها عليك .

إذن فذلك كله من قانون ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

والطيور التي تهاجر من الشمال إلى الجنوب ، وبعد ذلك لا تضل مسارها الطويل إلى أن تعود .

والفراشة التي تدخل عندك في الحجرة ، ثم بعدما تمكث مدة في الحجرة نجد أن الذكر يأتيها ، فإن وجد النافذة مفتوحة يدخل ، وإن لم يجدها مفتوحة يحوم حول الحجرة ، فهذا رادار جديد .

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 22 ، 23 .

2 – سورة : النمل ، الآية : 24 .

3 – سورة : النمل ، الآية : 25 .

وفي أعشاش النمل نجد أشياء بيضاء صغيرة كثيرة كالسمسمة ، والناس كانوا يتعجبون ، وعندما قام العلماء بتحليلها وجدوا أن هذه الأشياء الصغيرة هي الزبانى الموجودة في الحب ، فلا يترك النمل أبدًا حبة بزبانها ، لماذا ؟!

لأنه عرضة للرطوبة ؛ مما يجعل الحبوب قد تنمو فتدمر له العش كله ، فيقوم النمل بنزعها وإخراجها خارج العش .

هذه المسألة كذلك من باب ﴿ قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ .

فهنا قال الحق ﷻ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ .. أي : يا **محمد** عليك أن تسبِّح ، وأن تنقل الطلب إلى أمتك ليسبحوا الله الأعلى بحيثياته ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ .

والتسبيح ورد في كتاب الله بصور شتى :

فورد بلفظ : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ كما في أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ﴾[1] ، و﴿ سُبْحَانَ ﴾ هو تنزيه الله لنفسه ، إي أن الله منزه نفسه قديمًا قبل أن يخلق خلقًا يطلب منه أن ينزهه ، كما قال في الوحدانية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾[2] .

إذن فالحق ﷻ بقوله : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ لم يطلب من أحد التنزيه ، وكأن التنزيه ثابت لله قبل أن يخلق خلقًا يأمرهم بأن ينزهوه ، وما دام التنزيه ثابتًا لله فإن تنزيهنا لله لم يُوجِدْ التنزيه ، فهو موجود له ﷻ ، إذن فالفائدة ليست على المنزَّه ، بل الفائدة عائدة إلى المنزِّه .

ونجد كذلك لفظ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ﴾ بصيغة الماضي : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[3] ، و ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[4] ؛ لتعلم أن التسبيح ثابت قبل أن يُخلق المسبِّح ، ولما خُلق المسبِّح سَبَّحَ .

---

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 1 .
2 – سورة : آل عمران ، الآية : 18 .
3 – سورة : الحشر ، الآية : 1 .
4 – سورة : الحديد ، الآية : 1 .

وهل سبح مرة وانقطع عن التسبيح ؟

كلا ، بل .. ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [1] .

إذن فيا أيها الإنسان الذي تريد أن تعيش في منهج ربك ، لا تشذ عن نغم الوجود في التسبيح ؛ حتى لا تكون شاذًّا ؛ كي لا تكون الحيثية التي أعطيت لك – وهي الزيادة في الفكر – عائقًا لك عن أن تكون مع من هو أدنى منك ، فلا تكن نغمة شاذة في ذلك الوجود ، فالوجود كله مسبِّح .

ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [2] ، ونحن نفهم التسبيح في لغتنا على أنه صوت ، ولكن الأداء لا يشترط فيه الصوت ؛ لأنك قد تؤدي أداء بدون صوت وبدون حركة ، فمثلاً بالنظرة قد تؤدي أداء ؛ فحينما تنظر لابنك مثلاً أو للخادم فإنه يفهم ما تريد .

إذن فالأداء الدال لا يشترط فيه أن يكون أداء صوتيًا ، وذلك عندما يكون هناك أداء صوتي من فصيلة اللغات ، ثم رأيت قومًا يتكلمون لغة غير لغتك ، أتفهم عنهم ؟!

إذن فالصوت في ذاته لا يفهم إلا بالاتفاق على وضع ذلك المعنى ، فما دمت لم تفهم المعنى المراد فيستوي عندك أن يوجد صوت أو لا يوجد ، فإذا كنت تفهم أن الدلالات لا تأتي إلا بالأصوات فأنت مخطئ ، بل لكل جنس لغته التي يتفاهم بها ، ولغته التي يسبح بها ، وإن كنت لا تعرف ذلك فليس بدعًا ؛ لأنك تسمع أصواتًا هي شريكة أصواتك اللغوية في مخارجها ، ولكن مؤداها الوضعي لا تفهم منه شيئًا .

إذن فالله يُعلِّم كل جنس اللغة التي يتفاهم بها في صالح ذاته ، واللغة التي يسبحه بها .

فإذا ما قرأنا قول الحق ﷻ : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ [3] .. لا نقول : إن

1 – سورة : الجمعة ، الآية : 1 .

2 – سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

3 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

هذا التسبيح تسبيح دلالة ، لأن بعضهم يقول : التسبيح تسبيح الدلالة على الخالق ، إذن فقد فهمته ، لأنك قلت : هو تسبيح دلالة ، وهذا دليل على فهمك ، فالذي خلقك وخلقها وعلمها وعلمك قال : ﴿ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، فلابد أنه ليس تسبيح دلالة فقط ، بل تسبيح أدائي : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾[1] ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[2]، ومعنى ﴿ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ .. أي : أوبي إلى الله معه ، فالجبال مع غير داود مئوبة أيضًا ولكن ميزة داود أن الحق ﷻ أفهمه لغة ذلك الجماد فجعل تسبيحه يوافق تسبيح الجماد ، وكأنه فريق تسبيح يتناغم مع بعضه البعض .. ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ .

ثم يأتينا الحق ﷻ بصورة ثانية : سيدنا سليمان عليه السلام مع النملة : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[3].. فهذه النملة متعلمة قانون صيانة جماعتها .. ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾[4].. فكان معنى شكر النعمة هنا أن علمه منطق هذه الأشياء .

وفي قصة الهدهد – وهي مسألة عقدية – نجد أن الذي حز في نفس الهدهد يدل عليه قوله : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، وكأن الهدهد يعرف القضية العقدية الأصيلة ، وأنه ينبغي ألا يسجد أحد إلا لله ﷻ .

إذن فالمهم أن نفهم لغة ذلك التسبيح ، ولذلك عندما يقول أحد : إن الحصى قد سبّح في يد رسول الله ﷺ ، نقول له : لا تقل ذلك ، بل قل : سُمع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ ،

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 79 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 10 .

3 – سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 – سورة : النمل ، الآية : 19 .

وإلا فالحصى يسبح أيضًا في يد الكافر ، كما ورد عن أبي ذر ﷺ قال : " كنا عند النبي فأخذ حصيات فسبحن في يده ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم أخذهن فسبحن في يده " .. فتكون الميزة هي سماع تسبيح الحصى في يد رسول الله ﷺ [1] .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال : " اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق ، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله ﷻ منه " [2] .

فالكون كله بأجناس وجوده مسبِّح للحق ﷻ ، والذي يفيء الله عليه ببعض فضله يسمع ذلك التسبيح ، ويفهم لغة ذلك التسبيح .

إذن فقول الحق ﷻ في استهلال السورة : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ ، أي : يا محمد ، كن مع الوجود كله منسجمًا معه ، وأنا بعثتك لتعيد انسجام الإنسان مع ذلك الوجود ، فلا يصح أن تكون النعمة العليا التي خلقتها لك – وهي الفكر – سببًا صارفًا ، بل يجب أن تكون سببًا داعيًا ، ولا تجعل الإنسان يشذ عن ذلك الكون كله ، ويخرق ذلك النغم ، فإن الحق ﷻ هو : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ فتلك هي حيثيات الأعلى ، والأعلى حيثيات ﴿ سَبِّحْ ﴾ .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ .. يعني : أنبت الكلأ ، ويقال : هو العشب والحشيش وما أشبه .

﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ .. يعني : جعل المرعى يابسًا بعد خضرته ، وقيل : غثاء يعني يابسًا ، أحوى يعني أسود من قدمه واحتراقه .

---

1 - أخرجه الطبراني في الأوسط (4247) .

2 - أخرجه الإمام أحمد في " مسند المكيين " ، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة " (1 / 29) إلا قوله : " فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله منه " . فقال : " وهذه الزيادة ضعيفة " .

سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .. يعني : سنعلمك القرآن ، وينزل عليك فلا تنسى إلا ما شاء الله ، يعني : قد شاء الله أن لا تنسى القرآن ، فلم ينسَ ﷺ القرآن بعد نزول هذه الآية عليه ، وكان النبي ﷺ يأخذ في قراءته قبل أن يفرغ **جبريل** عليه السلام مخافة أن ينساه .

ويقال : **﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى ﴾** .. يعني : سنحفظ عليك حتى لا تنسى شيئًا ، ويقال إن **جبريل** عليه السلام كان ينزل عليه في كل زمان ويقرأ عليه رسول الله ﷺ ويبين له ما نسخ ، فذلك قوله : **﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾** ، يعني : إلا ما شاء الله أن يرفعه وينسخه ويذهب من قلبك .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ .. يعني : يعلم العلانية والسر ، ويقال : ما يجهر به الإمام في الفجر والمغرب والعشاء والجمعة ، وما يخفى يعني : في الظهر والعصر والسنن ، ويقال: **﴿ يَعْلَمُ ﴾** ما يظهر من أفعال العباد وأقوالهم ، **﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾** من أقوالهم وأفعالهم ، ويقال : **﴿ يَعْلَمُ ﴾** ما عمل العباد ، **﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾** يعني ما لم يعملوه وهم عاملوه .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .. يعني : سنهوّن عليك حفظ القرآن وتبليغ الرسالة ، ويقال : يعني نعينك على الطاعة ، ويقال : **﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾** .. أي : نهون عليك عمل أهل الجنة .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ .. يعني : فعِظْ بالقرآن الناس ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني : إن نفعتهم العظة ، ومعناه : ما نفعت العظة بالقرآن إلا لمن يخشى ، ويقال : ﴿ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ .. يعني إن قولك ودعوتك تنفع لكل قلب عاقل .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ .. يعني : يتعظ بالقرآن من يخشى الله ﷻ ويسلم ، ويقال : معناه سيتعظ ويؤمن ويعمل صالحاً من يخشى قلبه من عذاب الله ﷻ .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴾ .. يعني : يتباعد عنها ، أي : عن عظتك ، و ﴿ الأَشْقَى ﴾ .. يعني : الشقي الذي وجب في علم الله ﷻ أنه سيدخل النار ، مثل **الوليد** و**أبي جهل** ومن كان مثل حالهما .

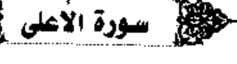
﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ﴾ .. يعني : يدخل يوم القيامة النار الكبرى ، أي : النار العظمى ؛ لأن نار الدنيا هي النار الصغرى ، ونار الآخرة هي النار الكبرى ، فعن **أنس بن مالك** ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : **" إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله ﷻ أن لا يعيدها فيها "**[1].

وكما قال بعض الحكماء : علامة الشقاوة أشياء تسعة : **" كثرة الأكل ، وكثرة الشرب ، وكثرة النوم ، والإصرار على الذنب ، والغيبة ، وقساوة القلب ، وكثرة الذنوب ، ونسيان الموت ، ونسيان الوقوف بين يدي الملك ﷻ "** .. فهذا هو الشقي الذي يدخل النار الكبرى .

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ .. يعني : لا يموت في النار فيستريح من عذابها ، ولا يحيا حياة تنفعه ، وقال القتبي : هو العذاب بحال من يموت ولا يموت .

---

1 - أخرجه ابن ماجه (4309) عن أنس رضي الله عنه ، وأخرجه أحمد (7025 ، 9811) ، والترمذي (2514) كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .



قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني فاز ونجا من هذا العذاب وسعد بالجنة من تزكى ، أي : وحّد الله ﷻ وزكى نفسه بالتوحيد .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : توحيد ربه ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ الصلوات الخمس .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة الفطر ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ مع الإمام صلاة العيد .

ويقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : أدى زكاة المال ، أي نجا من خصومة الفقراء يوم القيامة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ .. يعني : كبّر وصلى لله ﷻ .

ويقال : ﴿ مَن تَزَكَّى ﴾ .. يعني : تاب من الذنوب ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ .. يعني : إذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة ؛ لذلك ذم تارك الجماعة لأجل الاشتغال بالدنيا فقال ..

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ وذلك هو أمر العقيدة ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ وهذا هو أمر النطق باللسان والإقرار ، ﴿ فَصَلَّى ﴾ وهذا هو أمر السلوك الحركي في الحياة ، فالحق ﷻ حينما جاء بالسلوك الحركي في الحياة في قوله : ﴿ فَصَلَّى ﴾ قد جمع كل ألوان العبادة الشعائرية والعبادة المتعلقة بالمجتمع الإسلامي .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .. يعني : تختارون عمل الدنيا على عمل الآخرة ، وفي قراءة أبي عمرو : ﴿ بَلْ يُؤْثِرُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم ، والباقون بالتاء على معنى

المخاطبة .

﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .. يعني : عمل الآخرة خير وأبقى من أشغال الدنيا وزينتها ، ويقال : إن معناه أنهم يختارون عيش الدنيا الفانية على عيش الآخرة الباقية ، وإن عيش الآخرة خير وأبقى ، لأن في عيش الدنيا عيوبًا كثيرة ، من خوف المرض والموت والفقر والذل والهوان والزوال والحبس والمنع وما أشبه ذلك ، وليس في عيش الآخرة شيء من هذه العيوب ، لأجل هذا فالآخرة خير من الدنيا وأبقى .

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ .. إن الحق ﷻ لم يكلف هذه الأمة أمرًا لم يكلفه الأمم السابقة ، وإنما هذه العقيدة أساس استصحبته الحياة من لدن آدم ﷺ ، فاستصحب الحق ﷻ تذكير الغافلين بإرسال الرسل ، فأشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

وينبغي أن نذكر عن هذه ﴿ الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ أنها لم تكن مقصورة على ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، وإنما الصحف التي أنزلها الله ﷻ على رسله .

فقد أنزل على شيث ، وأنزل على إدريس ، وأنزل على إبراهيم ، وأنزل على موسى عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

والصحف غير الكتب التي ذكرها الحق أيضًا ، التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن .

والحق ﷻ حينما قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يؤكد حقيقة عقدية ، أن الحقيقة العقدية لا تتغير مع أي رسول أبدًا ، وإن تغيرت بعض التشريعات فإنما هو التغيير المناسب للبيئات ، ولما يجدُّ فيها من أقضية تقتضيها الحياة في الطموحات الذهنية في الوجود ، فالتشريعات حين تختلفُ تختلف في هذا القدر فقط ، وهو حركة الإنسان في هذه الحياة ، أما الأسلوب العقدي .. والصلة الشعائرية التي بين الله وبين عباده فهذا قاسم مشترك بين كل الديانات .

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه ، من طريق أبي ذر في حديث طويل أنه قال : يا رسول



الله ، كم كتابًا أنزله الله ﷻ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب .. أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن" . قال : قلت : يا رسول الله ، ما كانت صحيفة إبراهيم؟ قال : " كانت أمثالاً كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها ولو كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن تكون له ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير مُحرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيرًا بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظًا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه " . قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى؟ قال : " كانت عبرًا كلها .. عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل " [1].

فهذا منهج يجب أن يكون للمؤمن بالله أن يكون له مرمة للمعاش ، وتزود للمعاد ؛ حتى نخرج من قوله : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ، وبعد ذلك أن يتلذذ بغير محرم ، فهذه الثلاثة أشياء هي المناهج .

ولذلك كان بعض الصالحين حينما سئل عن منهجه في الحياة قال : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه .

ما دام موقنًا أن ربه ناظر إليه ساعتها يستحي أن يقع في المعصية وعين الله تراه ، وإلا

1 - أخرجه ابن حبان (362) ، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب : " ضعيف جدًا " .

فهاتوا لي إنسانًا يعتدي على محارم إنسان مثله وعينه ناظرة إليه ، فهل تستطيع أن تعتدي على محارم زميلك وهو يراك ؟! فإن قلت : نعم . كذبت ، وإن قلت : لا . فقد جعلت الله أهون من خلقه !

فالرجل يقول : علمت أني لا أخلو من نظر الله ﷻ طرفة عين فاستحييت أن أعصيه ، وعلمت أن لي رزقًا لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعت به ، وعلمت أن عليّ دينًا لا يؤديه عني غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن لي أجلاً يبادرني فبادرته .

وقد قيل : اجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن **فالصحف الأولى** معناها : شحنة دينية .. . شحنة عقدية تجعل الإنسان دائمًا على ذكر من ربه .

وكل هذه الشحنات العقدية حتى يتربى الإنسان على هذه العقائد التي تجعله يزاول مهمته في الحياة على المبدأ الذي يقوله الحق ﷻ : ﴿ لِكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[1] .

فيظل كما قال **الرافعي** رحمه الله :

وكن رجلاً كالضرس يرسو مكانه ليمضغ لا يعنيه حلو ولا مر

بقي بعد ذلك أن نقول : إن ذِكْر الله ﷻ مطلوب منا دائمًا ، ولكن في أماكن وأزمان ينزه اسم ربنا عن أن يذكر فيه ، كالخلاء والتغوط ، ولذلك فإن رسول الله ﷺ علمنا حين نخرج من الخلاء أن نقول : " **غُفْرَانَكَ** "[2] .

قيل في سبب ذلك : لأن اللحظات التي كان فيها في الخلاء كان لا يذكر اسم ربه ، فيقول : يا رب ، اغفر لي هذه الفترة التي لم أذكرك فيها ؛ ولذلك في موضع آخر يقول : " **الحمد لله**

---

1 - سورة : الحديد ، الآية : 23 .

2 - أخرجه أبو داود (28) ، والترمذي (7) ، وابن ماجه (296) ، جميعهم من حديث عائشة رضي الله عنها .

الذي أذهب عني الأذى وعافاني "[1]..

فتصور مثلاً أن رجلاً يريد دخول الخلاء بشدة لقضاء حاجته ، ولا يجد المكان الذي يقضي فيها حاجته ، فعند قضائه حاجته ، ما أسعده بعد انتهائه ، فالفرق بين احتمال كيانه الداخلي لفضلاته ، واللحظة التي لابد لهذه الفضلات أن تخرج كبير ، فإذا لم يستطع الإنسان إخراجها فكيف يكون حاله ؟!

وهذه المسألة هي التي استغلها **ابن السماك** مع **هارون الرشيد** رحمهما الله ، فقد دخل **ابن السماك** على **الرشيد** الخليفة ، وأراد أن ينتهز فرصة يرقق بها قلبه ويذكره بالله ﷻ ، فطلب **الرشيد** كوبًا من ماء ، فقال له **ابن السماك** : أستحلفك بالله يا أمير المؤمنين ألا تشرب حتى أسألك .. فقال : سل .. فقال له : لو منع منك هذا الكوب من الماء ، فبكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : بنصف ملكي . فقال : فإذا شربته واحتبس بداخلك ، فبكم تشتري خروجه ؟ قال : بملكي كله . فقال له **ابن السماك** : فأف للملك لا يساوي بولة ، إن ملكًا لا يساوي بولة لحقيق أن يزهد فيه .. فالإنسان عندما يشرب جرعة من الماء ، ثم يذهب ليقضي حاجته ، يقول : يا لها من نعمة ، دخلت لذة ، وخرجت سرحة ، أي : سهلة .

فقوله ﷺ : " **غفرانك** " .. إما لأنني غفلت فتركت ذكر اسمك هذه الفترة ، وإما لأنك أنعمت علي هذه النعمة ، بأن أدخلت الطعام في جوفي لذة ، ثم أخرجته بسرحة ، وبسهولة ، فأنا يا رب لم أعمل ما يوازي هذه النعمة من أعمال صالحة ، فغفرانك ربنا .

تلك هي **سورة الأعلى** ، وهذه هي حقيقة التسبيح ..

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

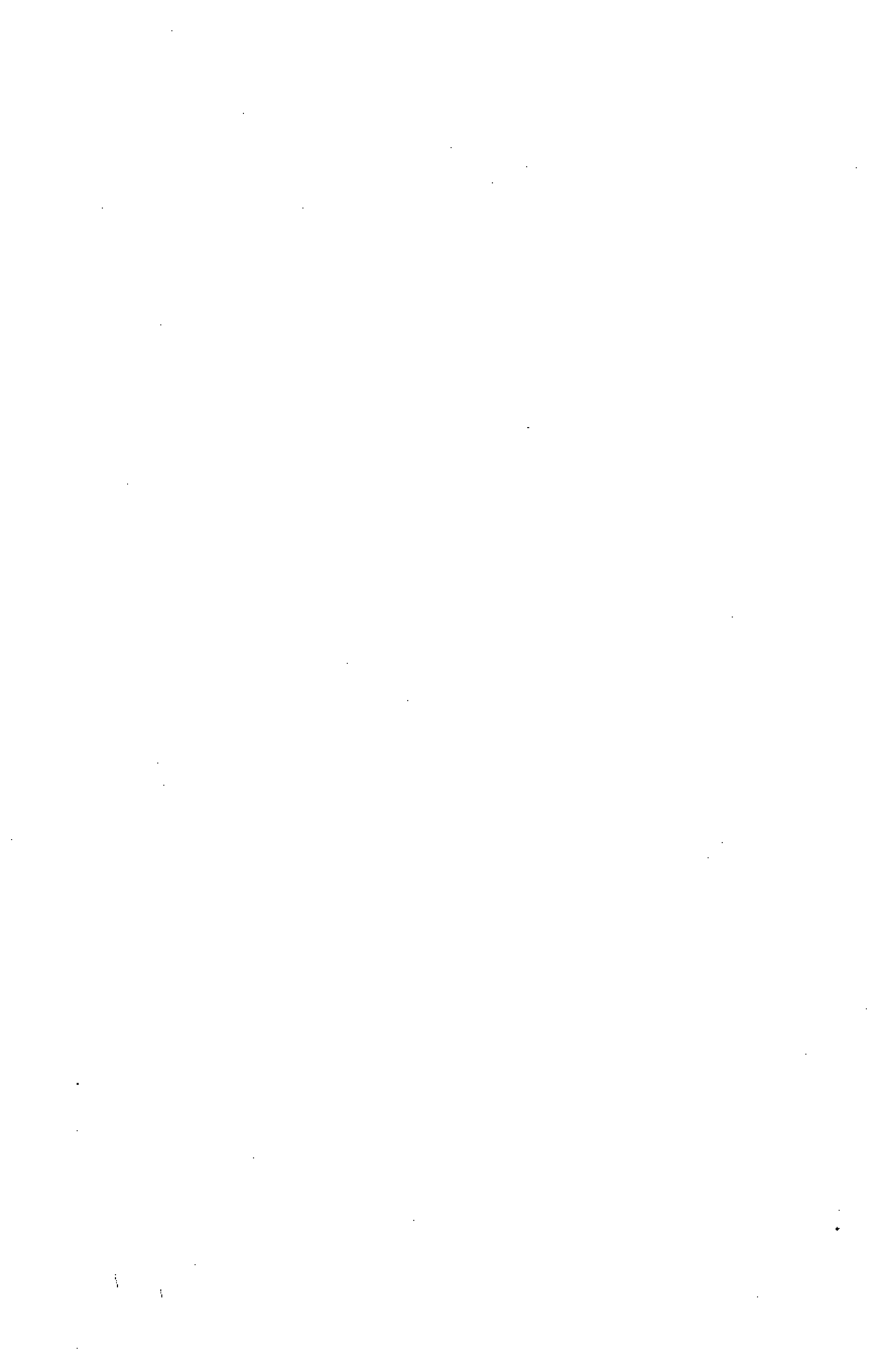
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

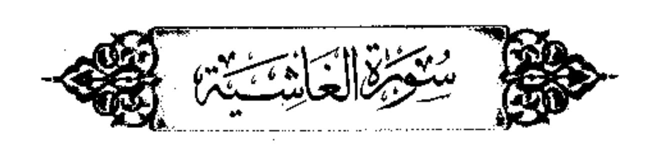
---

1 - أخرجه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه (297) .



تفسير جزء عم
سورة الغاشية





أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الغاشية** ، تلك السورة التي جاء موضعها من الكتاب بعد **سورة الأعلى** ، وفي هذه السورة نجد أن المناسبة وثيقة بينها وبين **سورة الأعلى** ، **فسورة الأعلى** تحدثت حديثًا عن من تزكى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [1] ، وتحدثت عن الأشقى : ﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [2] ، فكأنها تكلمت عن الإيمان ، وما ينتظر المؤمن من جزاء الله ، وتكلمت عن الكفر ، وما ينتظر الكافر من عذاب الله ، فجاءت تلك السورة أيضًا لتوضح هذا المعنى وتزيده تأكيدًا في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .

وأيضًا فقد تعرضت **سورة الأعلى** إلى مسألة التذكير : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [3] ، وحين يقول الحق ﷻ لرسوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ يأتي في السورة الأخرى ليحدد له مهمته تحديدًا أساسيًا : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ، وبذلك يكون قد رفع العبء عن رسول الله ﷺ في أن يُعلِمه أنه مطلوب منه أن يذكِّر فقط ، وليس عليه أن يهدي ، أو أن ينتهي الناس إلى ما يقول ، بل عليه أن يذكر فقط ، فقال له :

---

1 – سورة : الأعلى ، الآية : 14 ، 15 .

2 – سورة : الأعلى ، الآية : 12 ، 13 .

3 – سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. ذلك فيه تخفيف من عبء الرسالة عن رسول الله ﷺ ، وتخفيف من عبء من يحملون تلك الرسالة بعد رسول الله ﷺ ، فلا يعنيهم أن يذّكر الناس أو أن لا يذّكرون ، لأن مهمتهم فقط هي التذكير ، وليسوا مسيطرين على الخلق ، ولذلك يقول الحق ﷻ في آية أخرى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] ، وكذلك : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[2].

إذن فالحق ﷻ بعد أن أطلق التذكير في **سورة الأعلى** حدده بأن نتائج مهمتك تنتهي عند ذلك ، فلا تشغل بالك ، ولا تقلق ، ولا تبخع نفسك إن لم يؤمنوا . وأيضًا تكلمت **سورة الأعلى** عن منهج الفلاح ، ومنهج الفلاح مثلناه في قوله ﷻ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾[3]، أي طهر عقيدته ، والتزكية : هي التطهير والنماء ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾[4]، ذلك هو منهج القول في الإسلام .. ﴿ فَصَلَّى ﴾ .. وذلك منهج الحركة والعمل ، فكأن **سورة الأعلى** لخصت منهج الإسلام في أنه تصديق بالوجدان : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ، وإقرار باللسان : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ ﴾ ، وعمل بالأركان : ﴿ فَصَلَّى ﴾ . بعد ذلك ، يتكلم الحق ﷻ في **سورة الغاشية** عن المنهج الذي يضعه البشر لنفسه ، وهو منهج قد أتعبه في حركة الحياة ، ولا يأتي له بطائل ، وإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة ، وجدنا أنه حتى الذين لا يؤمنون بإله ، فإن حركتهم في الحياة متمثلة أولاً في أنه يقدر الهدف من الحركة ، فلا يمكن لإنسان أن يفعل فعلاً قبل أن يحدد الهدف من هذا الفعل ، ويجب أن يكون الهدف معوضًا لمتاعب الإنسان من حركة العمل ، ومعنى معوض : أنه يعطيه من المتعة والراحة فوق ما يأخذ العمل منه من المشقة والتعب ، فلو أن العمل يعطيك من الراحة على قدر المشقة فقط لما كان هناك ضرورة للمشقة

1 ـ سورة : الكهف ، الآية : 6 .

2 ـ سورة : عبس ، الآية : 7 .

3 ـ سورة : الأعلى ، الآية : 14 .

4 ـ سورة : الأعلى ، الآية : 15 .

أصلاً ، ولكن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يأخذ حصيلة من عمله فوق مشقة عمله ، وبذلك يكون نجاح العمل للذين يعيشون في هذه الحياة ، فإنما يعملون ويكدون ويجتهدون ، ونقول لهم : بمقياس العقل يجب أن تحددوا نفعكم من هذا العمل بما يفوق مشقتكم في هذه الحياة ، فإذا كنتم عاملين وناصبين وفي مشقة ، فما هي النتيجة النهائية لذلك العمل ؟!

إن الحق ﷻ يعرض هذه اللمحة في قوله ﷻ : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. فكأن المعنى : فما ظنك بمن يعمل عملاً ، وينصب نصبًا ، ثم لا يجد لذلك العمل نتيجة ، ولا فائدة ، بل يجد له مضرة في أنه سيصلى نارًا حامية ، إذن ، فأساس فكرته في العمل فكرة خاطئة ، وذلك دليل حمق الحركة في الحياة .

فكأن الدين حينما جاء ، قد جاء ليجعل لحركة الإنسان في الحياة هدفًا ، وغاية ، وراحة ، تعقب التعب من العمل .

فسورة الغاشية أتت لتخدم هذه الأغراض كلها ، وعلى طريقة القرآن في عرضه للقضايا ، يعرض قضايا غيبية ، ثم يؤكدها بقضايا مشهدية ، يعني قضايا مُحَسَّة ، فينقلنا إلى الغيب بواسطة المُحَس ، **فسورة الغاشية** إذن ، جاءت لخدمة الأغراض الأساسية في **سورة الأعلى** بوضوح .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ .. وتبدأ السورة بهذا الاستفهام .



فننظر .. من المستفهِم ؟ ومن المستفهَم منه ؟ وما المستفهَم عنه ؟

إن المستفهِم في الخطاب هو الحق ﷻ ، والحق منزه أن يَستفهِم ليفهم ؛ لأن الأصل في الاستفهام : أن تريد فهم ما لم تعلم ، ولكن السؤال قد يرد لغير ذلك ، يرد لا ليعلم السائل ، ولكن ليقرر المسئول ؛ لأن السائل إن نطق بالحكم من عنده كان خبرًا ، ففي قول الحق ﷻ مثلاً : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[1] ، أيستفهم الحق ﷻ من رسول الله ﷺ هل شرح له صدره أم لا ؟! وهل الحق ﷻ يحتاج لأن يستفهم أنه شرح صدر **محمد** ﷺ وهو الذي شرحه ؟!

إذن ، فحقيقة الاستفهام لا تتأتى هنا ، ولكن بدلاً من أن يقول الحق ﷻ : **" إنا شرحنا لك صدرك "** ، فيكون إخبارًا من الله ﷻ ، فإنه يدع الإخبار لمشروح الصدر ليجيب هو : **" نعم يا رب ، شرحت صدري "** ، فيكون إقرارًا منه لما فعل الحق ﷻ به ، هذا الإقرار بفعل الحق تثبيت للأمر ؛ لأن الله لو قال ذلك فربما وُجد مجادل ، ولكن مشروح الصدر نفسه هو الذي سئل وهو الذي أجاب .

إذن ، ففائدة نقل الكلام من الخبر إلى الإنشاء الاستفهامي هو : تقرير الخبر بأوضح حجة ، ولذلك تجد أيضًا مرتبة بلاغية ، فكان من الممكن أن يقول الحق لرسوله : أشرحت لك صدرك ؟ وتؤدي الغرض أيضًا ، ولكن الله جاء بها على طريقة النفي ؛ حتى لا يكون السؤال إيحاء بالجواب ، كما تكون قد صنعت جميلاً مع رجل ، ثم أنكر ذلك الجميل ، فتقول له : ألم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ أو لم أحسن إليك في كذا ؟ .. تأتي له بالنفي ؛ لأن الواقع يرد النفي إلى إثبات ، فهو يجد أنك لم توح إليه بالجواب ، ولم تعط له فكرة أن يجيب . إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ لون من التقرير ، أو من التفخيم عن المسئول عنه ، كقولنا : ألم يأتك خبر كذا ؟ فكأن الخبر مهم ،

---

1 – سورة : الشرح ،الآية : 1 .

يجب أن يبحث عنه الإنسان ، ويجب أن يفتح ذهنه للجواب ، فكأن : ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ** ﴾ إشعار بأن ذلك أمر عظيم جدًّا يجب أن تتنبه له بكل جوارحك ، لتتلقى عنه الجواب .

ومرة يأتي السؤال من السائل لا تحقيقًا ولا تقريرًا ، وإنما يأتي إيناسًا للمسئول ، أي : أن يكون المسئول عنده رهبة ، فتريد أن تؤنسه إلى مقامك منه ، ومقامه منك ، فتأتي له بسؤال إيناسي ، كما سأل الله ﷻ نبيه **موسى** عليه السلام في قوله : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾[1] ، فقال عليه السلام : ﴿ **هِيَ عَصَايَ** ﴾[2] ، هذا سؤال إيناسي ، كما تسأل أنت الطفل الصغير عن شيء في يده ، وأنت تعرف هذا الشيء ، تريد بذلك أن تؤنسه ؛ لتسقط قناع المهابة ، فيأنس الولد منك .

وحين يخاطب الحق ﷻ **موسى** عليه السلام ، ويفاجئه بالكلام ، تجده مع ذلك يقول له : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ .. تجد نفس طرح السؤال إيناسي ، فكان يكفي أن يقول : ما بيدك يا **موسى** ؟ إنما يقول : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ، والمراد أن يطيل له عمل السؤال ؛ ليطيل له أنسه بربه ، فيفطن **موسى** عليه السلام إلى أن الله يريد أن يؤنسه ، فكان يكفي **موسى** أن يقول : هي عصا ، لكن أيطيل **رب موسى** **لموسى** مجال الأنس ، ويقتضب **موسى** مجال الأنس ؟! كلا والله ، فقال : ﴿ **هِيَ** ﴾ .. وليس لها فائدة .. ﴿ **عَصَايَ** ﴾ .. وهذه هي التي فيها الفائدة .. ﴿ **أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي** ﴾[3] ، إذن ، فقد فطن **موسى** عليه السلام إلى أن الحق ﷻ عندما قال له : ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى** ﴾ ، أراد أن يؤنسه ، فأطال **موسى** عليه السلام على نفسه أمد الأنس بربه ، فلم يقل : (**عصا**) ، بل قال : (**هي**) ،

---

1 – سورة : طه ، الآية : 17 .

2 – سورة : طه ، الآية : 18 .

3 – سورة : طه ، الآية : 18 .

و(هي) في عرف الأساليب لم يكن لها فائدة ، وبعد ذلك أتى له بحكاية العصا : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي ﴾ ، وبعد ذلك ، أدب الخطاب جعل موسى يفطن إلى أنه أطال مع الله ، فقال له : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ، وكأن المقام لو طال ، لقص كل المآرب .

إذن ، فالاستفهام يرد لمعان شتى ، فعندما يسمع رسول الله ﷺ من ربه خطابه : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، يفهم أن هذه الغاشية أمر عظيم ، يجب أن يتنبه له بكل جوارحه ، ليتلقى من الحق ﷻ الجواب .

و" **الغاشية** " : هي الداهية ، تغمر الناس بأهوالها فتغشاهم ، ولا تجعل لهم منفذًا ، دواهي تأتي من كل اتجاه ، من الأمام ، ومن الخلف ، ومن اليمين ، ومن الشمال ، ومن تحت ، ومن فوق ، كما قال : ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[1] ، ويقول في مسألة **موسى وفرعون** : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾[2] ، ويقول الحق ﷻ في **سورة لقمان** : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[3] ، أي : الموت جاء لهم من كل جانب ، ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾[4] ، أرأيت دقة التصوير ؟ إن الإنسان لابد وأنه يعرف أين موقع يده ، فإذا كانت يده التي يعرف موقعها من نفسه لا يراها ، تكون : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾[5] ، إذن ، فمادة الغاشية كلها تدل على الداهية التي تغمر الإنسان من جميع النواحي ، فلا يجد منها خلاصًا ، ولا منفذًا .

وكلمة : " **غاشية** " وردت في القرآن مرة في هذه السورة ، ومرة في **سورة يوسف**

---

1 – سورة : الأعراف ، الآية : 41 .

2 – سورة : طه ، الآية : 78 .

3 – سورة : لقمان ، الآية : 32 .

4 – سورة : النور ، الآية : 40 .

5 – سورة : النور ، الآية : 40 .

عليه السلام : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾[1]، ثم جاء من المادة الفعلية مثل : ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾[2]، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[3]، وهكذا . وما دام قد قال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فتكون الغاشية أمرًا عظيمًا ، ويجب أن ينتبه رسول الله ﷺ ؛ لأن المخاطِب له هو ربه ؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ وجد امرأة تقرأ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، فقال : " نعم جاءني "[4].

لقد جاءه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. إذن ، فكلمة الغاشية هي تلك الدواهي التي تغمر الناس ، شرحها ربنا فقال : الغاشية : هي القلوب التي تخشع ، لم تخشع اختيارًا في دنياها ، فخشعت قهرًا في أُخْرَاها ، فكان لها في دنياها اختيار أن تخشع أو لا تخشع ، أما اليوم فلم يعد لها اختيار في أن لا تخشع ، لأنها سلبت مكونات الاختيار ، فلم يعد لها الخيرة .

إذن .. فالمسألة ستكون قسرية على سلوك مراد للحق ، بخلاف ما كنا عليه في الدنيا ، فقد كان هناك سلوك قسري مقهورين فيه للحق ، وهو في الأعمال غير الإرادية ، و سلوك لنا فيه اختيار ، فاليوم لا يوجد ذلك .

ولذلك تجد القرآن حين تعرض للكلام عن عباد الله يقول : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾[5]، ثم يصف أوصاف عباد الرحمن بصفات كلها خير وتقوى ، وكذلك حين يتكلم عن الملائكة يقول : ﴿ بَلْ عِبَادٌ

---

1 – سورة : يوسف ، الآية : 107 .

2 – سورة : النجم ، الآية : 54 .

3 – سورة : الشمس ، الآية : 4 .

4 – انظر : "تفسير ابن كثير (8 / 384) ، وابن أبي حاتم (12 / 393) .

5 – سورة : الفرقان ، الآية : 63 .

مُكْرَمُونَ ﴾[1] . إذن .. فكلمة (عباد) ، هم الذين اختاروا أن يصوغوا حركة حياتهم بمنهج ربهم ، فكل الخلق عبيد ، ولكن ليس كل الخلق عبادًا ، فكل الخلق عبيد لله ﷻ ، إنما العباد هم الذين قاموا بالعبادة بفعلهم الاختياري ، وأخضعوا فعلهم الاختياري لمنهج الله الذي يتضمن : افعل ولا تفعل .

وقد يورد اعتراض على هذا المعنى في آية واحدة في القرآن الكريم ، وهي قول الله ﷻ : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ ﴾[2] ، يسأل الذين أضلوا الخلق : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ ، فكيف أطلقت كلمة (عبادي) هنا على أولئك الذين قد ضلوا في الدنيا ؟!

إن الحال في الآخرة لا يوجد فرصة لأحد أن يختار ، وإنما الكل مقهور على كل تصرف ، فلم يعد لأحد اختيار في أي شيء ؛ لذلك فهم الآن عباد ، وإن لم يكونوا في الدنيا عبادًا ؛ فقد كان لهم اختيار في أن يؤمنوا أو يكفروا ، في أن يطيعوا أو يعصوا ، أما يوم القيامة فلم يعد أحد قادرًا على أن يختار في شيء .

إذن .. فمعنى : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي ﴾ .. أنهم صاروا الآن عبادًا ؛ حيث لم يعد لأحد منهم حركة اختيارية أبدًا .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) .. أي : يوم تأتي الغاشية ، يأتي الحق ﷻ بعد ذلك بالجواب فيقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ .. تلك الوجوه التي أبت أن تخشع لله ﷻ خشوعًا اختياريًا ، هي الآن خاشعة اضطرارًا .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ .. وهنا تظهر الخيبة ، فكما قلنا من قبل : إن كل فعل يفعله الفاعل ، أو أى حركة يقوم بها ، لابد وأن يقدر الهدف من تلك الحركة ، وأن يكون ما تدره الحركة من النفع ومن الراحة فوق ما يكون من المشقة التي بذلت فيها .. فيقول الحق ﷻ : ﴿ عَامِلَةٌ

---

1 – سورة : الأنبياء ، الآية : 26 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 17 .

نَاصِبَةٌ ﴾ .. ولكنها لم تأخذ من عملها إلا المشقة والنصب فقط ، فهى لم تجد نفعًا ، بل وجدت ضررًا شديدًا ، وهو الجواب الآتي بعد ذلك .

﴿ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. وانظر إلى ذلك الذي عمل ونصب لأولاده ، أو لجاهه ، أو لمركزه ، وبعد ذلك يجد عمله في الآخرة هباءً لا نفع فيه ، ويا ليته لم يجد نفعًا فقط ، بل إنه يجد ضررًا عظيمًا ، وهو دخول النار ، وذلك من حمق حركته في الحياة ؛ لأنه لم يُقَدِّر كيف يتحرك الحركة التي تنجيه من النار ، وتدخله الجنة ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾[1] ، لماذا ؟ لأنهم حين عملوا تلك الأعمال في الدنيا ، لم يكن الله ﷻ في حسبانهم ، عملوا أعمالهم في الدنيا بمنطق المادة ، وللمادة فقط ، تعبوا ونصبوا ، ولكن لم يكن الله في حساباتهم ، فلم يحتسبوا تلك الأعمال عنده ﷻ ، فكيف يطلبون يوم القيامة الأجر من الله ﷻ ؟! فإنهم فعلوا ليقال : فعلوا ، وقد قيل وانتهى الأمر ، وفي ذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، ويضرب لهم مثلاً فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾[3] ، فقمة المفاجأة تجدها في قوله : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ ﴾ .. فعندها يفاجأ بوجود الله عند عمله ، فوجئ ولم يكن في باله وحسابه عندما عمله ، فكيف يطلب أجرًا ، والله ﷻ يقول : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾[4] .

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ .. غليان النار الحامية هو أول ما يوحي بحرارة الجو ، وهنا قد يظن الظان أن الماء يبرده ، فيقول له : بل سيشرب ماء من عين آنية ، أي : شديدة الحرارة ،

---

1 - سورة : الفرقان ، الآية : 23 .

2 - سورة : إبراهيم ، الآية : 18 .

3 - سورة : النور ، الآية : 39 .

4 - سورة : الأحقاف ، الآية : 20 .

كما قال ﷻ : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾[1] .

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ .. والضريع في عرف العرب الذين نزل القرآن بلغتهم هو : مادة يسمونها " الشِّبْرِق " ، وبعضهم قال : هو " الغرقد " ، وهو نبت فيه شوك ، فإذا تم نضجه وجفّ يكون سامًّا ، وهو نبات ترعاه الإبل وهو أخضر ، فهذا النبات هو طعامهم في النار ، وذلك كقوله : ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[2] ، وكذلك : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[3] ، فكأن مقامات العذاب مختلفة ، والغسلين : هو الصديد الذي يخرج من أجساد الكافرين .

إذن .. فمراتب الإيلام والتعذيب تتناسب وكلمة الغاشية ، ولذلك تجد أن الحق ﷻ قد استهل الكلام عن العصاة الداخلين في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ بكلمة : (الغاشية) ، فما دامت الغاشية هي الدواهي التي تلف الناس لفًّا بحيث لا تجد إليهم منفذًا للنجاة ، فالمناسب أن يأتي بالصورة التي للكفار : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ .. عاملة ناصبة : يحكي حالتهم في الدنيا ، وأن حركتهم في الدنيا كانت إلى بوار وهلاك ومضرة ، أو أنها أيضًا ستكون خاشعة في الآخرة ، وعاملة ، وناصبة ، نعم ، سيسحبون في الأغلال ، والقيود ، ويسيرون في وهاج جهنم ، ووديانها ، فهذه مشقات ، وعذاب فوق العذاب .

إن الحق ﷻ حينما يصور ألمًا أو عذابًا ، إنما يصور التصوير الذي تأتي به اللغة للمخاطب به ، وليس معنى ذلك أن هذه هي الكيفية الحقيقية ؛ لأن ألفاظ اللغة تأخذ معانيها من واقع إدراكات المدرك ، والصورة التي توجد أمامه .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 29 .

2 - سورة : الحاقة ، الآية : 36 .

3 - سورة : الدخان ، الآية : 43 ، 44 .

فالحق ﷻ حينما يعرض لنا عذابًا أو نعيمًا في الآخرة ، فلا يعرض لنا حقيقة العذاب ، ولا حقيقة النعيم ، ولكنه يعرض لنا حقيقة العذاب في تصورنا ، وفي إمكانيات الأداء في لغتنا .

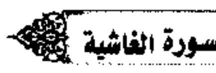
﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .. وذلك لئلا يتوهم البعض أن هذا الطعام من الضريع مع العذاب قد يغني من الجوع شيئًا ، فيقطع الله ﷻ الظن في ذلك بقوله : ﴿ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. ينتقل الحق ﷻ إلى الوجه المقابل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وانظر إلى الفرق الكبير والبون الشاسع بين قوله : ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ وما فيها من الذلة والهوان وانكسار الخاطر وتوجس الشر والمخافة من المعاصي ، كل هذه الصور المرسومة في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، وبين قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ .. وما فيها من نعيم ولذة ، كما شرحها في : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [1]، ونضرة النعيم شيء لا تستطيع أن تصفه إلا عندما ترى رجلاً مسرورًا في نعمة ، وترى تلك النضرة في وجهه ، وله شكل ، وجاذبية تشف عما في نفسه من الرضا والمتعة والأمان والسكون والهدوء .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ ، مقابل لكلمة : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ *

1 - سورة : المطففين ، الآية : 24 .



تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، فكأنها حينما رأت الغاية من حركة حياتها ، غاية مسعدة ، غاية مرضية ، تقول : نعم المسعى ما سعيته ، ووصلت به إلى ذلك النعيم ، ولكن الأخرى : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴾ .. في المقابل تقول : بئس المسعى الذي كنت أسعاه ، كنت أعتقد أني أحقق لنفسي متعة ، فقد أكون حققت لنفسي متعة ، ولكنها متعة الحمقى ، متعة الذين يأخذون المتعة العاجلة ، وينسون المتعة الآجلة .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ .. والعلو قد يكون علو مكان ، وقد يكون علو منازل ، ففسر في العلو ما شئت .

﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ .. وانظر إلى تلك الدقة الأدائية في قول الحق ﷻ : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، حيث يعطيك صورة عن فساد الكون بغير منهج الإيمان ، فلو استعرضت الوجود الذي نعيش فيه ، لوجدت كل الفساد المورث للقلق ، وللاضطراب ، وللخوف ، وللبؤس ، وللشقاء ، وللتناحر ، والتزاحم ، وللصدام ، وللحروب ، كل ذلك ناشئ من أن اللغو فيه كثير .

ومعنى : " لاغية " : هي الشيء اللاغي ، إما لغو في عقيدة ، أو لغو في فكرة ، أو لغو في كلمة ، أو لغو في حركة حياة ، فعندما يوجد لاغية في حركة الحياة تفسد الحياة ، فيقول الحق ﷻ في الجنة التي وعد بها المتقون : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ، وكلمة : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ توحي بالهدوء والاستقرار والسكون والاطمئنان .

ولذلك عندما يصف الحق ﷻ المؤمنين يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] .. وكأن الذي يفسد الحياة على الناس هو اللغو ، فيقول لك : إن ميزة الجنة أنك : ﴿ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ﴾ ؛ لأ الإنسان ليس حرًّا هناك ليلغو ، بل محكومًا بالمسبب الأعلى ، أما في الدنيا ، فهو محكوم

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 1 ، 3 .

أودع الله فيه من الاختيار ، ليعرف الحق ﷻ من جاءه طواعية ، ولكن الآخرة ليس فيها لغو .

فأنت هناك تأكل وتشرب وتتمتع بالخاطر ، ومعنى ذلك أنك بمجرد ما يخطر شيء ببالك تجده ، ليس هناك عناء العمل ، فقوله : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ أي : الأمن المطلق ، وما دام وُجِدَ أَمْنٌ مطلق ، فهذا هو الهدوء ، والسكون ، أما حينما يسمرون ، أو يتفكهون ، يتفكهون بغير لهو ، ويسمرون بغير لهو .

إذن ، فميزة الحياة في الجنة أنك : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ .. وكلمة : ﴿ عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ عظيمة جدًّا عند العربي ، فالذي عنده بئر من العرب فهي تكفيه ، فما بالنا بمن له عين جارية ؟! وذلك لكي تعرف أن الإنعام في الجنة ليس مسألة رد الحاجة فقط ، إنما أيضًا الاستمتاع بجريان الماء وقوته وحركته وتدفقه ، واطمئنانك إلى أن الماء ليس كمية ثابتة محدودة ، ولكنك حين ترى الماء جاريًا وممتدًّا ، يطمئنك على أن أصل الحياة موجود ، ولذلك تجد أن أولئك الذين يريدون أن ينعموا أنفسهم في القصور ، فبالرغم من وجود الماء عندهم إلا أنك تجده يقوم بعمل نافورة أو بركة أو قناة ، أو حتى يبني قصره على نهر جارٍ ، مما يدل على أن مجرد النظر في الماء وهو يجري ويتدفق يعطي اطمئنانًا وتنعمًا ؛ لأنه هو أصل الحياة ، وهو اطمئنان إلى أن أصل الحياة ليس عندك بقدر الحاجة والكفاية ، بل هو جار ومتدفق .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ .. وكذلك كلمة : ﴿ سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ لا تنظر إليها نظرة سريعة خفيفة ، فإنك لا تستطيع أن تفهمها إلا إذا علمت أن الذي يخاطب بذلك عربي ، كان ينام في الكهوف ، أو على الحصى ، أو على الأقل على الرمال ، وقد تؤذيه الآفات والحشرات ، فعندما يؤتى بتلك السرر المرفوعة عن الأرض ، فهذا من أعظم ألوان النعيم .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ .. أي : مهيأة للشرب بدون أن تطلب .



﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .. وهي : الحشايا ، أو ما يفترشه الإنسان تحته ، ملفوفة ، ومنتشرة حتى ترتاح عليها ، مما يعني أن الجلسة تأخذ كل ألوان المتعة .

و (**الزرابي**) : هي التي نسميها الآن السجاجيد ، كل هذا بالمنظور العربي ، يعطي صورة من النعيم ؛ لأن العربي عندما يمتلك بيتًا ، فيبنيه ويفرشه بالسجاد والفُرُش ، ويضع الحشايا ، فهذه المسألة هي عين المتعة عنده .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

انتقلنا من عالم الغيب الذي يخبرنا الله ﷻ عنه في : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ، و ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ، إلى مشهد من مشاهد الحياة ، مشهد أيضًا يصور بيئة العربي بكل إمكانياته ، فيقول ﷻ : ﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الأبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ..

وكل ذلك في بيئة العربي ، فالعربي عندما يرتحل ، ليس له أنيس إلا جمله الذى يحمله ، ويحمل عنه أمتعته ، فأعطاه الله الأدلة من تلك الأشياء التي يضطر أن يتعامل معها ويصحبها معه .

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .. عندما تركب الإبل تنظر إلى كيفية خلقها

من حـيث : قـوتها ، ومن ناحـية تركيب هيئتها ، فعندما تنظر إلى الجمل ، وتقـارن بـين أخفافه التي يمشي عليها ، وبين ما اخترع حـديثًا من المطاط ، الذي يعطي لينًا عند المطبات تجد تلك الأخفاف تعمل نفس العمل ، فعندما يمشي الجمل مسافة ما ، فمهما كانت المسافة بـعيدة فأنت لا تشـعر بـأي تعب أو مشقـة بسبب الضغط الموجود في خفه ، وهو كذلك عالٍ ؛ لأنه قد يثير حـصى وغبـارًا كما تثير السيارات ، وعندما تنظر إلى تركيب أذنيه ، أو جحـمة عينيه ، أو أسـنانه ، أو إلى معدته ، فله معدتان ، وهو يمشـي دائمًا في الصحـراء ، وهو أكثر الحيوانات تحملاً للعطش ، فهو يصبر (عِشْرًا) – بكسـر العين وسـكون الشـين – أي : ثمانية أيام لا يرد الماء ، أي أنها عملية تدل على القـدرة والإرادة والحكمة ، وترى ذلك الحيوان الضخم يقوده طفل صغير ، كأن الله ﷻ يقـول لنا : مع أن هذا الجمل ضخم ، و لكن إن تنخه يناخ ، تسـتنهضه يقوم ، ومن قـوته أنه الحيوان الوحـيد الذي لا يحتاج أن يكون قائمًا كي تحمل عليه ، بـل إنك تحمل عليه ثم ينهض بحمله ؛ لأنك لو أردت أن تحمل عليه وهو واقف فإن في ذلك مشقة بالغة نظرًا لعلوه الشديد .

ومع أن كبـد الجمل يضرب بـه المثل في الغلظ ، إلا أنه عندما يحدو الحادي بالنشـيد الجميل ، يستخف الحداء ، ويسرع بالمشي .

وكذلك فإن الجمل قد يكون وحدة كاملة للحـياة ، فيُشـرب لبـنه ، ويُؤكل لحمه ، ويُصنع وبـره ثوبًا ، وتُصنع الخيمة من جلده ، وهي بـيت العربـي ، وكذلك يُشـرب من لبـنه وبـوله للتداوي ، فعن **أنس بـن مالك** ﷺ قـال : " قـدم أناس من عُكْل أو عُرَينة فاجتووا المدينة ، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح ، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا ، فلما صحوا قـتلوا راعي النبي ﷺ ، واستاقـوا النعم ، فجاء الخبر في أول النهار فبـعث في آثارهم ، فلما ارتفع النهار جيء بـهم ، فأمر فقـطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وألقـوا في الحرة يستسقـون فلا يسقون "[1] .

---

1 – أخرجه البخاري (266) ومواضع أخرى ، ومسلم (3162 ، 3163) .

وبعد ذلك فلينظر الإنسان في بيدائه .. في صحرائه ، فيجد سماء وأرضًا وجبالاً ، فيلفته الله ﷻ لذلك الكون الذي يعيش فيه ، فينظر في بعيره كيف خلق ، ثم ينظر فوقه فيجد السماء ، ثم يمينًا وشمالاً فيجد الجبال ، ثم تحته فيجد الأرض ، فكأنه قد أعطى له مقومات الحياة ، أو العالم بأسره .

فكأن ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ، كل ذلك مقومات ذلك العربي ، عندما نقله ربه إلى مشهد ، كان يجب أن يتدبر ، ويتفكر ، أن الله ﷻ قد ذلل له هذا ، مع أنه لم يذلل له أشياء أخرى ، كالثعبان مثلاً ، فعندما يرى ثعبانًا يفزع ، مع أن الجمل أكبر من الثعبان بكثير ، ولكن الله ﷻ قد ذلل له هذا ولم يذلل له ذاك ، فترك الله بعض الحيوانات ، أو الحشرات متوحشة أو غير مستأنسة ؛ لكي نلتفت إلى أن هذه الحيوانات لو لم يذللها الله ﷻ لما استطعنا أن نذللها .

ثم يطلب المرعى ، أو المنبت ، أو الكلأ ، ويطلب نزول الماء من السماء ، فتكون علاقته أيضًا بالسماء ، فينتظر منها السحاب لينزل له بعض المطر ، ويلوذ بالجبال ، والأرض من أجل المرعى .

إذن .. فالقرآن حينما عرض هذا الأسلوب ، نقل الإنسان من معنى غيبي ، وما ينتظر الشقي من عذاب في الآخرة ، وما ينتظر التقي من نعيم هناك ، فهو يريد بذلك أن يقول له : إن العاقل هو من يتنبه إلى أن تكون حركة حياته مُجدية ، وفي الكون آثار تدل على أن هذا الكون لم يخلق عبثًا ، بل خلقه يتطلب حكمة وقدرة وإرادة ، فيجب أن تتنبهوا إلى هذه الأشياء .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .. وفي موضع آخر قال له : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾[1] ،

---
1 - سورة : الأعلى ، الآية : 9 .

وفي موضع آخر يريد أن يحمل عنه عبء الدعوة ، فيقول له : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى ﴾[1] ، أنت مبلغ فقط ، وهذا لون من التيسير .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. أي : أنت لست جبارًا ، كما قال له في آية أخرى : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾[2] ، لماذا ؟

لأن الحق ﷻ لو أنزل دينًا مفروضًا من السماء لما استطاع أحد أن يبتعد عنه ، ولجعلنا كما جعل الملائكة ، أو جعلنا كسائر الخلق لا اختيار لنا ، ولجعلنا مسخرين لمنهج لا نستطيع أن نفر منه ، ولكنه يريد أن يرى مَن الذي يعمل بمنهجه وهو مختار .

ثم لعل الذين لم يؤمنوا بمنهج **محمد** ﷺ يقولون : إن هذا ليس مسيطرًا علينا ، فلا نؤمن به ، وليس له علينا سلطان في الدنيا ولا في الآخرة .. فيرد الله ﷻ عليهم بأن هناك مرجعًا إلى الله .

﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ .. أي بك يا **محمد** ، وبمنهج الله الذي بعثك به إليهم .

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .. فأنا لم أخلقهم كي يشردوا مني ، وإنما إليَّ مرجعهم يوم القيامة فأجازيهم بما عملوا .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ .. وما دام إلينا إيابهم ، فمن يؤمن يؤمن ، ومن يكفر يكفر ، وأنت تذكر فقط ، وما عليك غير ذلك .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .. أطلق قضية قصرية ، أي فيها أسلوب القصر قوي : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ، وحين يقول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ ولم يقل : إن إيابهم إلينا ، أو إن حسابهم علينا ؛ لأن هذا الأسلوب يمكن أن يعطف عليه ، فيصح أن يقول : إن إيابهم إلينا ، وإلى غيرنا ، أما أن يقدم الجار والمجرور في : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا

1 – سورة : عبس ، الآية : 7 .

2 – سورة : ق ، الآية : 45 .

إِيَابَهُمْ ﴾ ، أي : لا إياب لهم إلى غيرنا ، لا شركة ولا استقلالاً ، فإيابهم في الآخرة إلينا ؛ لأن مبدأهم كان منا بدون شريك ، فما دام المبدأ كان من الله بدون شريك ، فالمرجع يكون إليه بدون شريك ، فإذا ما وعد الله أهل النعيم بخير ، أو أوعد أهل الخسران بشرٍّ ، فمعنى ذلك أن الوعد والوعيد مؤكدان ؛ لأن الذي وعد هو القادر ، الذي بدأ وإليه نعود جميعًا .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا دائمًا إلى أن نكون من أصحاب الوجوه الناعمة ، وألا يشغلنا لهو الحياة عن جدها ، وأن يوفقنا في كل ما نأتي وما نذر . .

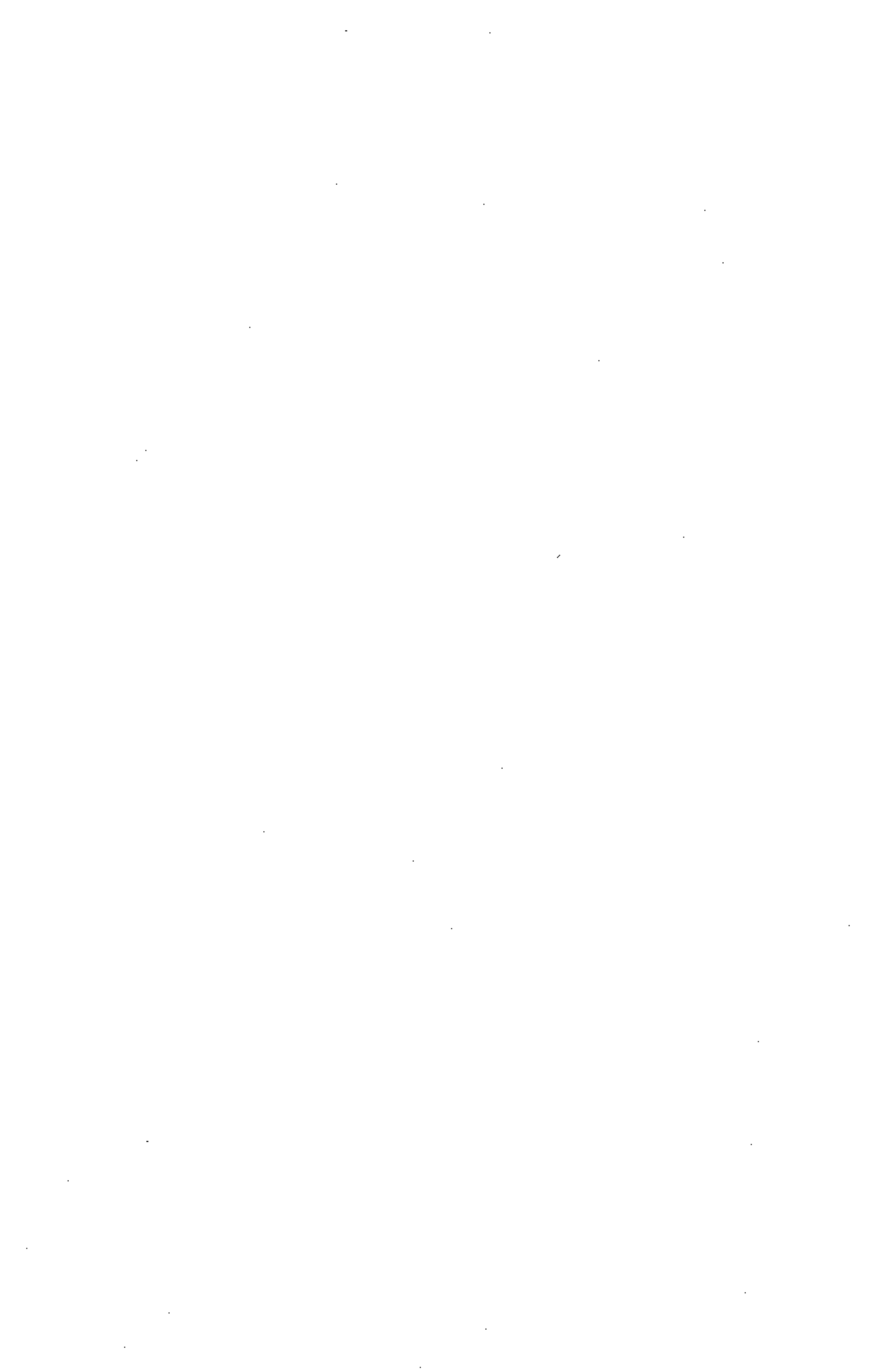
إنه ولي ذلك والقادر عليه .

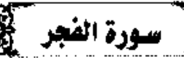


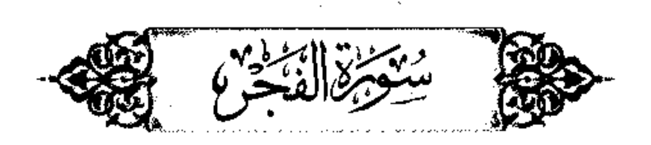

تفسير جزء
عم


سورة
الفجر









أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الفجر** ، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر ، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

في بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق .. ندي السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنايا تلك المشاهد .. ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .

وفي بعض مشاهدها شد وقصف .. كهذا المشهد العنيف المخيف .. ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ ..

وفي بعض مشاهدها نداوة ورقة ، ورضى يفيض ، وطمأنينة تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام .. ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي

* مقدمة تفسير السورة والمقطع الرابع مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بينَ بينَ .. بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصرع القوي .. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

وفيها بيان لتصورات الإنسان وقيمه غير الإيمانية ، وهي ذات لون خاص في السورة تعبيرًا وإيقاعًا .. ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات ، وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم ، فقد جاء بعده : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ... ﴾ إلخ .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير .

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها ، كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي بحسب تنوع المعاني والمشاهد ، فالسورة من هذا الجانب نموذج وافٍ لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني . فوق ما فيها عمومًا من جمال ملحوظ مأنوس .

وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝

سورة الفجر تأتي بعد **سورة الغاشية** ، ومعنى الغاشية كما سبق : هي الشيء الذي يغمر بالأهوال ، ولا يجد الإنسان فيه منفذًا ، ويغشى : أي يغطي الأشياء ، وهنا يقول : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ..الذي هو يغشى الظلام أيضًا ويغطيه .

إذن ، هنا تقابل بين استهلال السورتين ، فسورة تأتي بالغاشية ، وسورة تأتي بالفجر .

﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. هنا يستهل الحق السورة بالقسم ، ولا يكتفي بقسم واحد ، بل يقسم بالفجر ، ويقسم بالليالي العشر ، ويقسم بالشفع ، ويقسم بالوتر .

فعلى أي شيء يقسم الحق ﷻ ؟

وكما نعلم أن الحق ﷻ يقسم بما شاء على ما شاء ، ولكن خلقه لا يقسمون إلا به ﷻ ، والقسم يأتي دائمًا لتأكيد المقسم عليه ، ومعنى تأكيد المقسم عليه : أن الحق يوجب الدليل في القسم ، على وقوع المقسم عليه .

فما هو المقسم عليه هنا في قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ؟! في حين أن الذي جاء بعدها استفهام في قوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ أي : لذي عقل .

فلنشرح أولا مفردات القسم..

﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. الفجر هو : الشق الواسع ، يقال : فجرت الشيء ، أي : جعلت به شقًا واسعًا ، ولما كان ضوء النهار محتجبًا بسواد الليل ، كان الفجر شقًّا لذلك السواد ، ولذلك يسمونه العامود ، أي : العمود الذي يقطع الظلام ، فيشق شقًّا واسعًا ؛ فلذلك سمي الفجر فجرًا .

والمادة تدل على الشق الواسع في أي وضع كانت ؛ ولذلك يسمي الشرع من يخرج عن أمر ربه بالفاجر ، فجر أي : أحدث شقًّا واسعًا في التزامه بمنهج الله ﷻ .

إذن .. فالمسألة كلها مرجعها إلى إيجاد الشق والهوة الواسعة ، ونظرًا لأن الفجر يأتي ليشق ظلام الليل ، سمي فجرًا ، والفجر هو الانتقال من آية الليل إلى أولية آية النهار ، ونأخذ من هذا عدم ثبوت الحركة الحادثة .. ليل يأتي بظلامه ، ثم يأتي فجر بعده فيشق ذلك الظلام ، ثم تسطع الشمس بنورها ، مما يدل على أن ما في الكون أحداث ، والأحداث متغيرة ، والحدث المتغير لابد له من مهيمن عليه يغيره ، والتغيير إنما هو إلى الضد ، وإلى النقيض ، فلابد أن ننظر في آيات الكون كلها وما فيها من تغيرات من نقيض إلى نقيض .

ثم بعد ذلك نشعر أن كلمة : (الفجر) قد أخرجت العالم من الثبات والسكون إلى الحركة ، والضوء يهدينا إلى أن نتفاعل مع ما نحركه ، أو مع ما يحركنا .

فقول الحق ﷻ : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ .. يقسم بآية من آيات كونه ، تُخرج الكون عن ظلامه الدامس ، لتمد الناس بالنور والإشراق ، الذي يهديهم إلى متفاعلاتهم من حركتهم في الحياة ، وكما قال الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [1] ، فكأن الحق ﷻ يعطي في كونه المتقابلات ؛ ليؤدي كل متقابل دوره ، فليس معنى التقابل هو التضاد أو التناقض ، وإنما هو تقابل التكامل في الحياة .

فالفجر جاء ليؤدي مهمة في الكون ، والليل جاء أيضًا ليؤدي مهمة في الكون ، وليس من

1 - سورة : الليل ، الآية : 1 : 4 .

صالح الكون ، ولا من صالح الإنســان ، أن يســتمر الليل في ظلامه ، ولا أن يســتمر النهار في ضوئه ، فكل شــيء من هذه الأشــياء في الكون له مهمة يؤديها ، لو أخذ رتابــة في لون من الألوان ، لما وجد هذا اللون من الألوان الذي يؤيد كل زمن للحـركة أو للسـكون بــها ؛ ولذلك يضرب لنا الحق ﷻ ذلك المثل في قوله ﷻ : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [1]، ثم يأتي بالمقابل بـعد ذلك فيقـــول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [2].

إذن ، فيجب على الإنســان أن ينظر إلى متقابــلات ذلك الكون ، لا على أنها تناقــضات للكون ، ولكن على أنها مكملات ، ومعنى مكملات : أن هـذا لـه دور ، وذلـك لـه دور ، فلـو تعدى شيء دوره ، ما استمر أو استقام أمر الحياة .

والفجر الذي يقسم الله ﷻ به هنا ، ليس مجرد ظهور الضوء الذي يمحو آية الليل ، ولكنه هو الفجر المقرون بأمر نسكي ، تعبدي ، يبتدئ الإنسان فيه يومه باستقباله لربه ، صلاةً له ، وحـضورًا في حـضرته ، واسـتمدادًا من إمداده ، بـدليل أنه قــال بــعدها : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .

فإذا نظرنا في تلك الأقسـام الأربـعة ، والتي هي : (الفجر ، والليالي العشر ، والشفع ، والوتر) .. نجد أن رسول الله ﷺ قد فسر لنا بعض هذه الأشياء :

فالفجر : إما زمن ، وإما عبادة تشـغل ذلك الزمن ، والعبـادة التي تشـغل ذلك الزمن تعتبر عبـادة عامة ؛ لأنها استقبـال أولية حـركة الحياة بالإقبـال على من خلق هذه الحياة ، وأنزل التكليف على الإنسان الذي له حـركة في هذه الحياة ، وهو الوقـت الذي يطرأ على الناس وهم

---

1 – سورة : القصص ، الآية : 71 .

2 – سورة : القصص ، الآية : 71 .

في ألذ ما يتنعمون به في حياتهم ، وهو راحة النوم .

فهذا الركن الخاص الذي يقلق الإنسان من راحته وسكونه وهدوئه ليستقبل يومه استقبالاً يبتدئه بالحضور في حضرة الله ﷻ ، ليأخذ دائمًا من إمدادات ربه ﷻ .

إذن ، فهذا أمر يقسم به ﷻ بعد أن ذكر الغاشية وما فيها من أهوال ، فكأن الذي يتنبه إلى هذه الأمور لا تأتيه الغاشية التي تحيطه بالأهوال ؛ لأن المنجى من غاشية الأهوال يوم القيامة هو أن يقبل الإنسان على منهج الله ﷻ ؛ ليبدل له هذه الغاشية ، فكأن ذلك هو التقابل .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ .. وقد اختلف المفسرون فيها ، فبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من المحرم ، وبعضهم يرى أنها العشر الأوائل من ذي الحجة ، وبعضهم يرى أنها العشر الأواخر من رمضان ، ولكن أصح ما قيل فيها – والله أعلم – أنها هي عشر ذى الحجة ، لماذا ؟! لأن عشر ذي الحجة هي الوقت الذي يستكمل الإنسان فيه منهج ربه ﷻ ، أي : التكليف ، فيستعد للحج الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام .

فعشر ذي الحجة هي الوقت الذي يحتشد فيه الناس لإتمام الركن الخامس من أركان الإسلام ، فكأن الإسلام بهذه الليالي ، أو بالاحتشاد فيها ، قد استوفى كل أركانه .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ بالشفع والوتر ، و(**الشفع**) هو : الزوجية ، و(**الوتر**) هو : الفرد .

إذن .. فالحق ﷻ يقسم في هذه السورة بأقسام ، كل قسم منها يرمز إلى لون من ألوان حركة التكليف التي جاءت لحركة الحياة بالنسبة للعبد المؤمن بالله ﷻ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ .. والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يجول في الظلام ، أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة .. يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر ، والشفع والوتر .

إنها ليست ألفاظًا وعبارات ، إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشعة بالعطر ،

أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟! والهمس اللطيف للروح ؟! واللمس الموحي للضمير ؟!

إنه الجمال .. الجمال الحبيب الهامس اللطيف .. الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة ؛ لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

فهل من الممكن بعد هذا القسم أن نأخذ جوابه مما قد تقدم في **سورة الغاشية** ؟ فيكون : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ * وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، أي : لتُبعَثُنَّ ، نأخذها مما تقدم ، ويكون ما تقدم هو دليل الجواب في ذلك .

أو نأخذ الجواب مما يليها ، ولا يكون جوابًا ، بل يكون دليلاً للجواب ، كيف ؟ ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. يقولون عنه : الاستفهام التقريري ، ومعناه : أن الإنسان قد يلقي قضية على مخاطبه ، فيلقيها بخبر من الأخبار ، إلا أنه خبر منه .

فالحق ﷻ لوثوقه بالخبر لا يطرحه خبرًا ، وإنما يطرحه استفهامًا ؛ لأنه ﷻ يعلم أن العقل الفطري لا يجيب إلا بجواب واحد ، فحين يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ يكون الجواب هو : (نعم) .

أنت لا تلقي على مخاطب استفهامًا تقريريًّا إلا في أمر تعتقد أنه لا مندوحة أن يقول إلا ما تريده أنت ، وبدلاً من أن تقوله أنت ، فيكون خبرًا من جهتك ، يكون استفهامًا منك ، فكأنك تقرره ، كما تقول لرجل ينكر أنك عاونته في شيء : ألم أعطك كذا ؟ فأنت لم تقل له ألم أعطك كذا ، إلا وأنت واثق من أنه لا يمكن أن يكون الجواب إلا بكلمة واحدة ، هي : (نعم) ، ولو أن عندك ذرة شك في أنه قد يقول : لا ، لما قلت له ذلك .

فالحق ﷻ يقول : هل في ذلك قسم لذي حجر ، أي : لذي عقل ؛ لأنه يعلم تمام العلم أن

العقل الفطري حين يستقبل هذا ، لا يكون جوابه إلا : نعم ، في ذلك قسم لذي عقل .

فالأشياء التي أقسم بها الحق ﷻ قسم لذي عقل .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .. وإذا تأملنا في الأسلوب ، وفي قول الحق ﷻ حينما ختم القسم بقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، فهل الليل يسري ، أم يُسرى فيه ؟ إن الليل هو محل الإسراء ، ولكن الحق ﷻ كما جعل الليل يُدْبر ويقبل ، والصبح يتنفس ، فهذه مظاهر حياة ، كذلك يقول : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، وكأن الليل له غاية ينتهي إليها ، ويسير إلى هذه الغاية ، فانتقل السُّرى من السير في الليل إلى نفس الليل ، فكأن الليل له غاية ، وهو يقطع فيها إلى أن ينتهي .

إذن .. فالحق ﷻ يصور لنا المعاني تصوير الحياة ، فيقول لنا : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[1] ، وهل الصبح يتنفس ، أم نحن الذين نتنفس ؟! ولكنه إنما يعطي بالأمور المعنوية أمورًا يصبغها بصبغة الحياة .

فعندنا مظهرية الحياة ، الحركة وغيرها ، وكل شيء فيه حياة بحسبه ، أنت تفسر الحياة بقانونك أنت ، والحياة في الحيوان بقانون الحيوان ، وحياة النبات بقانون النبات ، وكذلك الجماد ، والمعاني ، والأشياء ، كلٌّ له حياة بقانونه .

فعندما يقول الحق ﷻ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، ثم بعد ذلك يقول : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، نقول : نعم يا رب ، إن في ذلك قسمًا لذي حجر ، فتكون النتيجة : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، إن في هذه الأقسام ، ﴿ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ ، أي : هذه الأشياء يمكن أن يقسم بها لمن له عقل يتفكر ، والحجر هو العقل ؛ فإن تأملت مادة : حجر ، وعقل ، ونهى ، وجدت أن مشتقاتها كلها تدل على الحجز والمنع ، (حجر) ، أي : منع عن شيء ، وحجرك عن كذا : حجزك ، و (عقل)..

---

1 – سورة : التكوير ، الآية : 18 .

أي : عقلك عن كذا ، أي : منعك ، و (نُهى) أى : منع ، وكأن مهمة العقل ليست هي انطلاق الحركة ، فمهمة العقل هي أن تعقل حركتك ، بحيث تؤدي إلى الغاية المطلوبة منك أداءً يحقق لك نفعًا أكبر ، كذلك مهمة العقل أن يحجب الغرائز المتعدية عند الإنسان بمنهج ، ومعلوم أنه هناك غرائز لازمة ، وغرائز متعدية ، فالغريزة اللازمة : غريزة تؤدي المهمة التي من أجلها وُجِدت الغريزة ، بحيث لا تحمل الغريزة أمرًا زائدًا عن ما أُعِدت له ، فمثلاً الحيوان يحب أن يأكل ، لكن إذا ما أدى مهمة أكله وشبع ، فلا يمكن أن يأكل أي شيء زائد عن طاقته .

أما الغريزة المتعدية : فهي التى تعدت المطلوب منها ، كغريزة حب الطعام عند الإنسان واشتهائه له بالرغم من شبعه .

والحيوان مثلاً عنده غريزة حب النوع ، وهي الغريزة التناسلية ، وهي غريزة لازمة عنده ؛ لأنه بمجرد أن تحمل الأنثى ، لا يقترب الذكر منها ، لكن الإنسان يجامع المرأة حتى الوضع ، فتكون هذه الغريزة متعدية ، أي : ليست لحفظ النوع ، بل جعلها متعة ذاتية .

إذن .. فشهوة الإنسان غريزة متعدية ، فيأتي العقل فيحجب هذه الغرائز المتعدية بمنهج ، لماذا ؟ لأن الحيوان ليس له اختيار ، أما الإنسان فمخلوق على هيئة فيها الاختيار ، فالعقل الإنساني يختار بين البديلات ، أما الحيوان فليس له اختيار .

إذن .. فوظيفة العقل هي أن يعقل حركة الإنسان ، من عقلت البعير ، أي : منعته عن الحركة .

إذن ، فكل غريزة لها وظيفة مخلوقة لها ، ثم يأتي المنهج لكي يوقفه عند موجبات هذه الغريزة ، حتى لا تكون غريزة متعدية .

إذن ، فكل مادة العقل تعمل كاللجام ، أي : كابحة ، حتى لو أن العقل عقل متحرر وقوي ، فمعنى العقل : أنه يعقل حركتك لكي تكون حركة منضبطة مع منهج الخالق ، وهو

افعل ، ولا تفعل ، فالحق ﷻ يقول : لو أنكم استقرأتم هذه الأقسام ، وجدتم أن فيها مقنعًا للقسم : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. لما تكلم الحق ﷻ عن الغاشية وأهوالها ، وأنها تكتنف الناس ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾[1] ، ربما ظن ظان أن الله ﷻ يجعل كل الجزاء في الآخرة ، وقد يستبطئ ناس الآخرة ، وقد لا يؤمن ناس بالآخرة ، فلابد من وضع حد للطغيان في الكون ، فيكون هناك أشياء لا تؤجل للآخرة ، بل يكون الاعتبار بها في الدنيا أيضًا ، فقال ﷻ لنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. أتى لنا بأعلام لهم تاريخ معروف ومعلوم ومتداول ، كان لهم من الامتداد العمراني ، والرقي الحضاري ، والتمكين في الأرض ، ثم بعد ذلك انهارت كل تلك الحضارات قاطبة وانتهت بأجمعها ، وعندما يقول القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. فالخطاب أولاً لرسول الله ﷺ ، ثم يشمل كل من يتأتى بعد ذلك .

وكلمة : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ معناها : أن ذلك أمر عرف للنبي ﷺ وعرف للمعاصرين لنزول هذه

---

1 - سورة الغاشية ، الآية : 2 ، 3 .

الآية ، وإلا فلو لم يكن تاريخًا معلومًا ومتعارفًا لاعترضوا على هذه الحكاية لعدم علمهم بها .

فلا يقــول الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ إلا لأمر متعارف معلوم ، وقــع في الكون ، والاســتدلال بواقــع الكون المخالف لمنهج الله ، يدل على أننا يجب أن نصدق ما لم يقع تحت حسنا في كون الله ، لأن الله ﷻ أخبر به ، فيكون إخبار الله لنا أوثق من حواسنا .

إذن .. فالمخالفة للمنهج الســـماوي يكون له لون من الجزاء الدنيوي ، ولون من الجزاء الأخروي .

فلكي لا يستبطئ الناس الآخرة ، يقول لهم : حتى في الدنيا ، لله أيضًا قَدَرٌ يجري على من انحرف وبغى ، لكي نعتبر، فالذي لا يؤمن بغيب الوعد ، ولا بـغيب الوعيد ، يؤمن بمشـهد الواقع .

وكلمة : (**ألم تر**) يعني : (**ألم تعلم**) ، فيكون المعنى : ألم تصلك النسبـة التي أسـندت في الأخبار الآتية ، وهي ثمود ، وعاد ، وفرعون .

وعلة العدول عن (**ألم تعلم**) إلى (**ألم تر**) هي أنه قـد يعلمك إنسـان بـأمر هو غيب عنك ، ولكنه يستطيع أن يدلل عليه دليلاً عقـليًا يقـينيًا ، ومع ذلك يظل الأمر غيبًا عنك ، ولكنه إن نقلك إليه نقلاً مشهديًا فإنه بذلك يكون قـد جعله واقـعًا عندك ، كمن يخبرك مثلاً عن جبـال الهمالايا ، وأن فيها أعلى قـمة جبـل في العالم ، وهو جبـل إفرسـت ، فهذا الكلام في ذاته واقـع ، ولكنه يظل غيبًا بالنسبـة لك ، حـتى تذهب أنت وترى بنفسـك ، فتكون بـذلك قـد أخذت الأمر مشهديًا بعد أن كنت أخذته خبرًا .

فمعنى : (**ألم تر**) .. هو نقل الإنسان من علم يقـيني بـالخبر إلى عين الشـيء ، أي أنك قـد أصبحت معاينًا له .

فحين يستبدل الحق ﷻ كلمة : (**ألم تعلم**) بـ (**ألم تر**) ، فإنه بذلك يريد أن يقـول : إنك إذا علمت علمًا أعلمكه الله ﷻ فإنك بذلك تكون وكأنك قـد رأيته رؤيا عين ، فاعلم أن يقـينك



به يجب أن يكون يقين المستقبل لما رأى ، لا يقين المستقبل لما سمع .

فيكون خبر الله إليك أوثق من معاينتك ورؤيتك للأشياء ؛ لأن عينك قد تخدع ، لكن ربك ﷻ لن يخدعك .

إذن .. فكل أمر من الأمور يؤكده الحق ﷻ فيأتي بـ : (ألم تر) ، فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، وأنا يا رب لا أرى الذين يسجدون في السماء ، ولا كل الذين يسجدون في الأرض ، لكن ربنا قال ، وما دام ربنا قد قال ، فيكون ذلك عِلمًا لا خبرًا ، أي : علم كأنك أنت رأيته .

ولذلك نقول : إن إخبار الله ﷻ عن أمر غيبي ، يجب أن يرتقي إلى مستوى ما تراه عينك ، (وليس مع العين أين) .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ .. وعاد تذكر في الأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ ﴾[2] ، وهي في جنوب الجزيرة بين عدن وحضرموت ، وإلى الآن لم نهتدِ إلى شيء من آثارها ، ولكن ثمود ، ومدائن صالح ، عرفنا منها شيئًا ، ورأينا كيف حفروا الجبال وبنوا البيوت ، وما أشبه ذلك .

وفرعون شهدنا حضارته أو ما يدل عليها ، ولا ينطمس علينا إلى الآن إلا قصة عاد ، لا نعرف عنها شيئًا ، إلا من خبر القرآن عنها ، ويجوز أن يكون من مُضِيِّ الزمن ؛ لأنها بلاد رمال ، ويحدّثون أن عاصفة الرمل تهب فتطمر قافلة بأكملها ، فإذا كانت العاصفة الواحدة تدمر قافلة بأكملها ، فيكون مع توالي العصور قد حدث طمر لهذه المعالم ، سواء كانت ذات العماد ، أي : المباني التي لها عُمد ومرتفعة ، كما يقولون عنها في التاريخ ، ويجوز أن يكون القدر الذي وجد في أذهان المعاصرين للقرآن كان متوارثًا تاريخيًا من الآباء ، ولم يكونوا قد رأوا

---

1 - سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 - سورة : الأحقاف ، الآية : 21 .

شيئًا من معالمهم .

لكن صِدْق الحق الذي يتجلى فيما بقي لنا من آثار ، يشهد أيضًا لنا بتصديقه فيما خفي عنا من آثار .

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ ﴾ .. أعطانا الله ﷻ صورة حضارية متمكنة من المادة ، ومدام لم يخلق مثلها في البلاد ، فمعنى ذلك أنها كانت الدولة الأولى في العالم .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ .. جابوا أي : قطعوا الصخر ، لكي يبنوا به البيوت ، والتماثيل ، وما شابه ذلك .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ .. وهي على الأرجح الأهرامات ، التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان ، وفرعون هو ذلك الطاغية الجبار ، الذي كان بطغيانه يذبح الأبناء ، ويعذب الآباء .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ ﴾ .. يقول : إن العيب فيهم ليس لأنهم وصلوا لذلك الرقي والحضارة : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ ، إنما انصباب اللعنة عليهم جاء بسبب الطغيان ، ذلك الطغيان الذي كان سببه التفوق في ماديات الحياة .

إذن .. فالعيب عليهم ليس لأنها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ بل تبقى إرم ذات العماد هي .. ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴾ .

لكن ينبغي أن لا يتسبب عن ذلك الرقي المادي في حركة الحياة وفي حضارتها طغيان .

إذن .. فالمعيب هو طغيان الحركة ، لا الحركة في ذاتها ، ارتق في مادتك كما تحب ، واستنبط من أسرار الوجود ما يجعلك في رفاهية من الحياة مما أحل الله ، ولكن لا يجب أن

يكون تفوقنا في الحياة وسيلة من وسائل الطغيان ؛ لأن هذا الطغيان يؤدي إلى الفساد ، والله لا يدع هذا الفساد ، بل يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ويصب على الطغاة من العذاب ، لماذا ؟ لكي يعطي صورة في الوجود ، صورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

إذن .. فالآيات حينما عرضت ، عرضت في مقدمتها حضارات ، هذه الحضارات كانت متفوقة ، ومتميزة ، ونحن شهدنا آثار تلك الحضارات ، وعرفنا عنها أشياء يعجز عصرنا بما أوتي من نشاطات ذهنية وابتكارية في الكون أن يصل إلى هذه المسألة ، فلا يزالون في حيرة في بناء الأهرام ، وكيف رفعت هذه الأحجار ؟! وكيف وضعت في هذا الموضع ؟! وكيف وصلوا إلى هذا المستوى العالي في الهندسة ؟! فإلى الآن هي محل عجب من العقول المعاصرة .

فتصور لو أن هذه الحضارات لم تؤخذ أخذ عزيز مقتدر من جذورها ، كيف كانت تصل بعد هذه الآلاف من السنين ؟! لابد أنها كانت تصل إلى مراحل كبيرة ، إنما انقطاع أخبارها عنا ، يدل على أن الحق ﷻ حينما أخذهم ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يترك حتى ما يدل على كيفية وصول أصحاب هذه الحضارات إلى ما وصلوا إليه .

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. عندما يتناول الحق ﷻ المعنى فإنه ﷻ يعطي المعنى شمولية العطاء ، فيقول : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ .. و(**الطغيان**) : هو تجاوز الحد ، و(**الفساد**) : هو إخراج الأمر الصالح عن صلاحه ؛ لأن الأمور قد تكون صالحة في نفسها ، ولا يُطلب منك إلا شيء واحد ، وهو ألا تعمد إلى الصالح في ذاته فتفسده .

كلمة الطغيان : تجاوز ، وتجاوز الحد معناه : أن هناك مقادير للأمور ، وهناك من يريد تجاوز تلك المقادير والاستعلاء عليها ، وبالطبع لا يمكن أن يوجد مستعلٍ إلا إذا وجد مستعلى عليه .

ومعنى الاستعلاء : أنك تريد استطراقًا عكسيًا ، والاستطراق العكسي عكس الاستطراق

الإيماني المطلوب منك كمنهج إيماني ، أن يوجد استطراق منك ، أي : من قوتك لضعفك ، من غناك لفقرك ، من علمك لجهلك ، هذا هو الاستطراق الإيماني ، والرزق الذي عندك تعطي منه المحروم من ذلك الرزق .

وأما الاستطراق الثاني فبالعكس ، فيكون الرجل قويًا ، ولكنه يريد أن يأخذ حركة الضعيف لصالحه ، وقد يكون الرجل غنيًّا ، ولا يعطي الفقير حقه حتى يزداد غنىً ، وهو يزيد فقرًا .

فتكون بذلك ما حققت الاستطراق : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ [1] ، والطغيان ليس بأنك تركته على حاله فلم تعطه ولم تظلمه ، بل حاولت أن تستطرق من الضعف إلى القوة .

إذن .. فهذا لون من الفساد المركب ؛ لأنك لو تركته على ضعفه من غير أن تمده بقوتك ، فهذا ظلم ، فما بالك لو أردت أن تأخذ من طاقة ضعفه زيادة في قوتك أنت ، فهذا طغيان ، فيكون : ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ ، وحين أصبح الوضع بهذا الشكل ، فلابد أن يتدخل الذي في السماء ﷻ ، ولا يتدخل ﷻ طالما توجد في الإنسان نفس رادعة ، أي : نفس لوامة ، فمن ليس عنده نفس لوامة ، بل نفسه أمّارة بالسوء ، فهناك مجتمع يُقَوِّمه ، فإذا لم توجد النفس اللوامة – الردع الذاتي – ولم يوجد المجتمع المقوِّم – الردع الخارجي – ، فيجب أن يتدخل رب الأرض والسماء ، وذلك حين لا يوجد الردع الذاتي ، ولا الردع الاجتماعي .

وهذا هو الفارق بين أمة الإسلام وبين غيرها من الأمم ، فقد كان كل رسول من الرسل السابقين غير مطلوب منه أنه يؤدب الخارجين عن المنهج ، بل حينما يطغى الكافرون أمام أي منهج رسالي ، تُرسل الصيحة ، أو الزلزلة ، أو الطوفان ، أو غير ذلك من ألوان العذاب ،

1 – سورة : النحل ، الآية : 71 .

ولكن ذلك الوضع لم يختلف إلا في الإسلام ؛ لأن الله ﷻ أرسل رسوله مهيمنًا على الأديان كلها ، حتى يكونوا هو وأمته مقومين لمنهج الانحراف في الأرض .

ولذلك تجد أن خاصية الردع الاجتماعي لم تنطمس أبدًا عند المسلمين ، فلابد أن يوجد أهل خير في أمة الإسلام .

لأن الأمم قبل الإسلام كان من الممكن أن تنطمس وتندرس ، أما في أمة الإسلام فقد قال ﷺ : **" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك "** [1] ، وهذا لأن المسلمين ، أو أتباع **محمد** ﷺ الذين آمنوا برسالته ، امتداد لرسالته ﷺ .

فهذه هي ميزة الإسلام ، وعلى ذلك آمن رسول الله ﷺ ، وآمن المؤمنون برسول الله ﷺ على أن يحملوا حملة التأسيس للبشر ، حينما يخالفون منهج الله ، جهادًا في سبيل الله ، وضربًا على أيدي العابثين ، وتذكيرًا لهم دائمًا بمنهج الله ؛ ولذلك تجد أن الحق ﷻ حمَّل أمة الإسلام نفس التحميل لرسول الله ﷺ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [2].

إذن .. فكما أن رسول الله ﷺ يشهد أنه بلغنا ، وأنه أقامنا على المحجة ، مطلوب منكم يا من آمنتم به ، أن تشهدوا على الناس بأنكم بلغتموهم ، وأنكم أقمتموهم على المحجة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .. وكلمة : المرصاد توحي بالترصد والترقب ، فلا تظنوا أنكم انفلتم من الله ﷻ ، وأنكم تصرفتم في كون الله هذا التصرف ، وسخر لكم ما في الأرض ليكون تحت طوعكم وإشارتكم ونشاطكم ، فلا تظنوا أنكم انفلتم عن الله ، فإن ربكم بالمرصاد ، يرصد تحركاتكم ، ولأن ربنا هو الذي يرصد تحركاتنا فأي حركة تخالف منهج الحق ﷻ هي حركة محسوبة ومقدرة ، إن شاء عجل الله بها في الدنيا ، وإن شاء ادخرها إلى الآخرة .

---

1 - أخرجه البخاري عن المغيرة بن شعبة (6767) ، ومسلم من حديث ثوبان (3544) .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 143 .

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

ثم يتحدث الحق ﷻ عن خطأ معايير الناس في استقبال أوامر الحق في الخلق ، فيقول لهم : أنتم تأخذون المقاييس بالعقل ، وأنا أريد أن أعدل لكم المقاييس ، فإذا عدلت لكم المقاييس التي تزنون بها أموركم أمكن لحركتكم أن تسير على هدى ، إنما الذي يجعل حركتكم لا تسير على هدى هو أن المقاييس نفسها التي تردون إليها وزن حركاتكم مقاييس خاطئة .

﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ .. فأتى بصورتين من صور الحياة ، صورة لإنسان موسع عليه في رزقه ، وصورة لإنسان مضيق عليه في رزقه ، فالإنسان الموسع عليه يظن أن هذه السعة إكرام من الله عليه ، والمضيق عليه يظن أن هذا التضييق إهانة من الله له ، فنقول له : أنت في هذه المقاييس خلطت بين شيئين ، خلطت بين الامتحان وبين النتيجة ، فإيتاء المال امتحان ، والتقتير في إيتاء المال امتحان أيضًا ، والنتيجة النهائية تتأتى على تصرفك تجاه هذا الامتحان .

إذن .. فإيتاء المال نفسه ليس نتيجة النجاح ، كلا ، فما زال هذا امتحانًا ؛ لذلك جمع الله



ﷻ بين الأمرين في الابتلاء فقال : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ ، ثم : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ .. فالصورتان الظاهرتان ليستا نتيجة نجاح ، بل كلاهما امتحان .

﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ .. يرد الله ﷻ على الاثنين فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ ، أي : أنت خاطئ في هذه ، وأنت أيضًا خاطئ في تلك ، فلا الذي أنعم الله عليه دليل إكرام ، ولا الذي ضيق الله عليه دليل إهانة ، وأنا سأبين لكم السبب : حين يؤتي الله إنسانًا مالاً ، فهذا المال تكون فيه حقوق .. كيف يكتسب ، وكيف يُستغل ويُنفق ، فالله تجاوز عن مرحلتين ، وتكلم عن المرحلة الأخيرة ، وهي مرحلة المصرف .

﴿ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. هل من لديه مال يتصرف فيه تصرفًا صحيحًا ؟ هل تحض على طعام المسكين ؟ هل تكرم اليتيم ؟ أعطانا الله صورتين من صور البؤس والشقاء ، فيقول : ﴿ كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ، هذا في المصرف ، فإذا كنت في مصرفك للمال غير موفق ، فكيف يكون إيتاء المال الذي أنت غير موفق في مصرفه إكرامًا لك ؟! بل هو امتحان لكي يرى ماذا تعمل فيه .

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ ، أي : تركة الرجل ، يأخذها القوي ، ويترك الضعيف ، هذا في أخذ المال ، فكيف إذا كان أخذ المال أساسًا بهذا الشكل ، ومصرفه بهذا الشكل ، فلا توفيق لكم في شيء ، فكيف تظن يا من أوتيت مالاً أن هذا إكرام لك ، إنما هو ابتلاء .

ويا من مُنع عنه المال ، لا تظن أن منع المال عنك إهانة ، فلو نظرت لمن قال الله ﷻ فيه : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[1] ، أو لمن قال فيه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ

---

1 - سورة : آل عمران ، الآية ، 180 .

وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾[1] ، فعندما أمنعك من هذا المال ، أكون قد أهنتك أم حملتك على أن تكون ذا عذر في الوجود ؟ فقد تكون ممن يرسب في الامتحان ، فلعلي حرمتك منه رحمة بك .

وبعد ذلك يطلق الحق صور هذا الوجود ، لنعرف أن كثيرًا من الأغنياء لم يوفقوا ، لا في أخذ أموالهم ، ولا في استغلال أموالهم ، ولا في مصرف أموالهم . فحين تتأكد لنا هذه القضية ، نقـول : إذن ، فإيتاء المال ليس دليل إكرام من الله ، ومنع المال ليس دليل إهانة من الله ، فكلا الأمرين ابتلاء واختبار ، فمن شكر نعمة الله ﷻ نجح في الاختبار ، ومن لا فلا .

أسأل الله ﷻ أن نكون ممن نجحوا في كلا الابتلاءين .. المال والتقتير ..

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء .. يجيء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع

1 – سورة : التوبة، الآية : 34 ، 35 .

شــــديد : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الــذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ .. ودَكُّ الأرض : تحطيم معالمها وتســـويتها ، وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة .

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .. وأما مجيء ربـــك والملائكة صفًّا صفًّا ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض ، ولكنا نحس وراءه التعبير بالجلال والهول .

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. والمجـيء بجهنـم أيضًا يوحي بذلك الجلال والرهبة ، ونأخذ منه قربـها منهم ، وقـرب المعذبـين منها وكفى ، وأما حقيقة ما يقع وكيفيته فذلك من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسـم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال إيقـاعها الحاد التقسـيم .. الشـديد الأسر ، مشهد ترجف له القـلوب ، وتخشـع له الأبـصار .. إذ الأرض تدك دكًّا دكًّا ، والجبـار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفًّا صفًّا ، ثم يجاء بجهنم فتقـف متأهبـة هي الأخرى .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ ﴾ .. ذلك الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء ، والذي أكل التراث أكلاً لمًّا ، وأحـب المال حـبًّا جمًّا ، والذي لم يكرم اليتيم ، ولم يحض على طعام المســكين ، والذي طغى وأفســد وتولى .. يومئذ يتذكر .. يتذكر الحق ويتعظ بما يرى ، ولكن لقـد فات الأوان ﴿ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ .. ولقـد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحـــدًا ، وإن هي إلا الحســـرة الكبرى على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا .

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. حـــين تتجلى له هذه الحقيقـــة .. ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي

قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ .. يا ليتني قدمت شيئًا لحياتي هنا ، فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة ، وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها .. يا ليتني .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة ، والتمنيات الضائعة : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إنه الله القهار الجبار ، الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد ، والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد ، وعذاب الله ﷻ ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويجملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم ، أو عذاب الخلق جميعًا ووثاقهم ، وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وتقييدهم بالقيود والأغلال ، فها هو ذا ربك أيها النبي وأيها المؤمن يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم ، ولكن شتان ما بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر ، فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون ، فسيعذبون هم ويوثقون ، عذابًا ووثاقًا وراء التصورات والظنون .

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادَى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ ..

هكذا في عطف وقرب : ﴿ يَا أَيَّتُهَا ﴾ .. وفي روحانية وتكريم : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ ﴾ .. وفي ثناء وتطمين : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .

ثم في وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : ﴿ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ .. ارجعي إلى



مصدرك بعد غربة الأرض ، وفرقة المهد .. ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .. بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى .

﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ .. المقربين المختارين لينالوا هذه القربى .

﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .. في كنفي ورحمتي .

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة منذ النداء الأول : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ .. المطمئنة إلى ربها .. المطمئنة إلى طريقها .. المطمئنة إلى قدر الله بها .. المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء .. المطمئنة فلا ترتاب .. والمطمئنة فلا تنحرف .. والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق .. والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلايا هذه الآيات ، وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية .

نسأل الله ﷻ أن يمن علينا بهذا النداء يوم ينادى علينا ،
وأن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ،
وأن يجنبنا النار وما قرب إليها من قول أو عمل .



تفسير جزء عم









سورة البلد

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة البلد** ، وهذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر ، ولكنها تتضمن ألوانًا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال .. ألوانًا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنًا واحدًا .. متعدد النغمات .. موحد الإيقاع .

تضم هذه السورة القصيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية ، حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .



لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. والبلد هو مكة .. بيت الله الحرام .. أول بيت وضع للناس في الأرض ؛ ليكون مثابة لهم وأمنًا ، يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين حرامًا بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام ، ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمدًا ﷺ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته فيه ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفًا ، وتزيده عظمة ، وهي إيماءة ذات دلالة عميقة في هذا

المقام ، والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبي ﷺ والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، ويزيده كرمًا أن النبي ﷺ حل فيه مقيمًا ، وحين يقسم الله ﷻ بالبلد والمقيم بـه ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء **إسماعيل** وعلى ملة **إبراهيم** ، موقفًا منكرًا قبيحًا من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .. إشارة خاصة إلى **إبراهيم** ، أو إلى **إسماعيل عليهما السلام** ، وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبي المقيم بـه ، وبـانيه الأول وما ولد .. وإن كان هذا الاعتبـار لا ينفي أن يكون المقـصود هو : والد وما ولد إطلاقًا .. وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد ، تمهيدًا للحديث عن حقيقـة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وفي هذا الموضع يقول **الشيخ محمد عبده** :

" ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قـدر هذا الطَور من أطوار الوجود ، وهو طور التوالد ، وإلى ما فيه من بـالغ الحكمة وإتقـان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبـداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقـدر له .. فإذا تصورت في النبـات كم تعاني البـذرة في أطوار النمو .. من مقـاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حـولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد إلى أن تلد بـذرة أو بـذورًا أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها ، إذا أحـضرت ذلك في ذهنك ، والتفت إلى ما فوق النبـات من الحيوان والإنسـان ، حـضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبـيل حـفظ الأنواع ، واستبقـاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم " .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. يقسم الحق ﷻ هذا القسم على حقيقة ثابتة في حـياة الكائن الإنسـاني : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ .. في مكابـدة ومشقـة ، وجهد وكد ،



وكفاح وكدح .. كما قال في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾[1].

فالخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب ؛ لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها ﷻ ، وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج ، فتذوق من المخاض – إلى جانب ما تذوقه الوالدة – ما تذوق ، ثم ما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يختنق في مخرجه من الرحم .

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر ، يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به ، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية ، وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ، ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعاءه على هذا العمل الجديد ، وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد ، والذي يلاحظ الوليد عندما يهم بالحبو وعندما يهم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد .. وعند انتصاب القامة كبد .. وعند الخطو الثابت كبد .. وعند التعلم كبد .. وعند التفكر كبد .. وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء .

ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ، هذا يكدح بعضلاته ، وهذا يكدح بفكره ، وهذا يكدح بروحه ، وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء ، وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف ، وهذا يكدح لملك أو جاه ، وهذا يكدح في سبيل الله ، وهذا يكدح لشهوة ونزوة ، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة ، وهذا يكدح إلى النار ، وهذا يكدح إلى الجنة .. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحًا إلى ربه فيلقاه ، وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء ، وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد .. طبيعة الحياة الدنيا ، تختلف أشكاله وأسبابه ، ولكنه هو الكبد في النهاية ،

---

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 6 .

فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشقّ الأمرّ في الأخرى ، وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة ، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال عرش الله ﷻ .

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدح والعناء ، فالذي يكدح للأمر الجليل ليس كالذي يكدح للأمر الحقير .

والذي يكدح وهو طليق من أثقال الطين ، أو للانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذي يكدح ليغوص في الوحل ويلتصق بالأرض كالحشرات والديدان ، والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة ، ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى الإنسان وتصوراته التي تشي بها تصرفاته ..

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. إن هذا الإنسان المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر ليحاسبه ، فيطغى ويبطش ، ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى أو أن يتحرج .. وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. ثم إنه إذا دعي للخير والبذل في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة .. ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا ﴾ .. وأنفقت شيئًا كثيرًا فحسبي ما أنفقت وما بذلت .

﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ .. وينسى أن عين الله ﷻ عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولكن هذا الإنسان كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه في خفاء عن عين الله ﷻ .



وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، وفي خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقم بحقها عنده ..

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. إن هذا الإنسان يغتر بقوته ، في حين أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة .. ثم هو يضن بالمال ، مع أن الله ﷻ هو المنعم عليه بهذا المال .. ولا يهتدي ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات .

جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار ، وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة .. ﴿ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ .. ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .. ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .. ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين ، والنجد هو الطريق المرتفع ، وقد اقتضت مشيئة الله ﷻ أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقًا لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ، كما أنها تمثل قاعدة (**النظرية النفسية الإسلامية**) هي والآيات الأخرى في **سورة الشمس** : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [1] .

هذه الآلاء التي أفاضها الله على الجنس الإنساني في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، والتي من شأنها أن تعينه على الهدى .. عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ، وهي معروضة في صفحات الكون مبثوثة في حناياه ، ولسانه

1 - سورة : الشمس ، الآية : 7 ، 10 .

وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ، وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير .

والكلمة أحيانًا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ، وأحيانًا تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تخفضه في هذه النار .. كما ورد في الحديث عن معاذ بن جبل قال :

كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله .. أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : " **لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت** " .. ثم قال : " **ألا أدلك على أبواب الخير ؟! الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل** " .. ثم قرأ قوله ﷻ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ﴾ .. حتى بلغ : ﴿يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، ثم قال : " **ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟!** " فقلت : بلى يا رسول الله .. قال : " **رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** " .. ثم قال : " **ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟!** " .. فقلت له : بلى يا نبي الله ، فأخذ بلسانه ، فقال : " **كُفَّ عليك هذا** " .. فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟! فقال : " **ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار – أو قال على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم** "[2] .

وهدايته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية .

هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا الإنسان إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة ، هذه العقبة التي يبينها الله له في هذه الآيات ..

﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *

---

1 – سورة : السجدة ، الآية : 16 ، 17 .

2 – أخرجه أحمد (21008 ، 21054) ، والترمذي (2541) ، وابن ماجه (3963) .

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَة * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَة * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَة * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَة ﴾ ..

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان ، إلا من استعان بالإيمان ، هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة .. لو تخطاها لوصل ، وتصويرها كذلك حافز قوي ، واستجاشة للقلب البشري ، وتحريك له ليقتحم العقبة ، وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم .. ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ﴾ .. ففيه تحضيض ودفع وترغيب .

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ﴾ .. إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ﷻ ، ليحفز به الإنسان إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما تتطلب من جهد ومن كبد ، فالكبد واقع واقع ، وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعًا وهو واقع واقع على كل حال .

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسِّ الحاجة إليه .. فك الرقاب العانية ، وإطعام الطعام ، والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص ، والذي تواجهه النفوس جميعًا ، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة ..

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَة ﴾ ..

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهذا ، وأيًا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ، وليست له دولة تقوم على شريعته ، وكان الرق عامًّا في الجزيرة العربية ، وفي العالم من حولها ، وكان الرقيق يعامَلون معاملة قاسية على الإطلاق ، فلما أن أسلم بعضهم **كعمار بن ياسر** وأسرته ، **وبلال بن رباح** ، **وصهيب** .. وغيرهم ﷺ جميعًا .. اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة ، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق ،

يبدا أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان **أبو بكر** ﷺ هو لسابق كعادته دائمًا إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة .

قال **ابن إسحاق** : وكان **بلال** مولى **أبي بكر رضي الله عنهما** لبعض بني جمح مولدًا من مولديهم ، وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان **أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح** يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمرهم بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر **بمحمد** وتعبد اللات والعزى .. فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد .

حتى مر به **أبو بكر الصديق** ﷺ يومًا وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار **أبي بكر** في بني جمح ، فقال **لأمية بن خلف** : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟! قال : أنت الذي أفسدته ، فأنقذه مما ترى .. فقال **أبو بكر** : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك أعطيكه به .. قال : قد قبلت .. قال : هو لك .. فأعطاه **أبو بكر الصديق** ﷺ غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم .. **عامر بن فهيرة** (شهد بدرًا ، وقتل يوم بئر معونة شهيدًا) ، و**أم عبيس** ، و**زنيرة** (وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .. فقالت : كذبوا والله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .. فرد الله بصرها) ، وأعتق **النهدية** وابنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبدًا . فقال **أبو بكر** ﷺ حلٌ يا أم فلان (أي تحللي من يمينك) .. فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .. قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا .. قال : قد أخذتهما ، وهما حرتان . أرجعا إليها طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .



ومر بجارية بني مؤمل ، وهي من بني عدي ، وكانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة .. فتقول : كذلك فعل الله بك .. فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال ابن إسحاق : قال أبو قحافة والد أبي بكر لأبي بكر : يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلدا يمنعونك ويقومون دونك .. قال : فقال أبو بكر ﷺ : يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله .

لقد كان ﷺ يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله ﷻ ، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثنيات لاقتحام العقبة في سبيل الله ﷻ .

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ ..

والمسغبة هي : المجاعة ، ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان ، وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية المتكالبة الخسف والغبن ، ولو كان ذا قربى ، وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم ، مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى ، وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج ، كما في سورة النساء خاصة ، وكذلك في سورة البقرة ، وغيرهما .

وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة أي اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله في عياله ، في يوم الشدة والمجاعة والحاجة ، وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها في الذكر ، ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة ..

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ ..



و ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار أن هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقًا والأعلى أفقًا ، وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان ، فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام ، وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزنًا في ميزان الله ﷻ ؛ لأنه بمنهج ثابت مطرد ، فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .. وفوق ذلك .. ﴿ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ .. فكلمة : ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة ، والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته .. درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان ، فهي أعضاء متجاوبة الحس ، تشعر جميعًا شعورًا واحدًا بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضًا فلا تتخاذل ، ويقوي بعضها بعضًا فلا تنهزم ، وهذا أمر غير الصبر الفردي ، وإن يكن قائمًا على الصبر الفردي ، وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة ، وهو ألا يكون عنصر تخذيل ، بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة ، بل داعية اقتحام ، ولا يكون مثار جزع ، بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالمرحمة ، فهو أمر زائد على المرحمة ، إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبًا جماعيًّا فرديًّا في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه ، وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ﷺ لأهميته في تحقيق هذا الدين ، فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحًا كاملاً .



﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. أولئك الذين يقتحمون العقبة كما وصفها القرآن وحددها هم .. ﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ .. وهم أصحاب اليمين ، كما جاء في مواضع أخرى ، أو أنهم أصحاب اليُمن والحظ والسعادة .. وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ ..

ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .. لأن صفة الكفر تنهي الموقف ، فلا حسنة مع الكفر ، ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها ، فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا ، فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه .

وهم أصحاب المشأمة .. أي أصحاب الشمال ، أو هم أصحاب الشؤم والنحس .. وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني ، وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .. أي مغلقة .. إما على المعنى القريب .. أي أبوابها مغلقة عليهم ، وهم في العذاب محبوسون ، وإما على لازم هذا المعنى القريب ، وهو أنهم لا يخرجون منها ، فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها ، وهذان المعنيان متلازمان .

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ، وفي التصور الإيماني ، تعرض في هذا الحيز الصغير بهذه القوة وبهذا الوضوح .. وهذه هي خاصية التعبير القرآني الفريد .

نسأل الله ﷻ أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا ، وأن يقربنا من الجنة ، وأن يباعدنا عن النار .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله رب العالمين .


عم
تفسير جزء

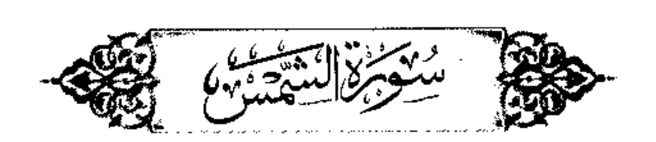



سورة
الشمس









أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الشمس** ، هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقي الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة ، والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة .. حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه ، وتبعته في مصيرها .. هذه الحقيقة التي يربطها سياق بحقائق الكون ، ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .



وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

يقسم الله ﷻ بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها ، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم ﷻ .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقًا بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر ، وبينها وبين الروح الإنسانية تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، وهي تنطق للقلب ، وتوحي للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ، حيثما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب ، في شتى المواضع .. تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطارًا لما يليها من الحقائق ، وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة ، فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون ، يطلب عنده التجاوب والإيحاء ، ويتلقى عنه بلغة السر المتبادل ما ينطق به من دلائل ، وما يبثه من مناجاة .

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ .. وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها ، بالشمس عامة ، وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة ، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى ، في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش ، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها ، فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها ، وقد ورد أن المقصود بالضحى هو النهار كله ، ولكنا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ .. وبالقمر إذا تلاها ، إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي ، وبين القمر والقلب البشري ودٌّ قديم موغل في السرائر والأعماق ، غائر في شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال .

وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسبيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب .. وإن القلب ليشعر أحيانًا أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوي ، ويعانق هذا النور الحبيب ، ويستروح فيه روح الله .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ .. ويقسم بالنهار إذا جلاها ، مما يوحي بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار ، والظاهر أن الضمير في : ﴿ جَلاَّهَا ﴾ يعود إلى الشمس المذكورة في السياق ، ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة ، وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري ، يستدعيها التعبير استدعاء خفيًا ، فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها ، وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها ، وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره ، فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ .. وهذا مثال آخر .. والتغشية هي مقابل التجلية ، والليل غشاء



يضم كل شيء ويخفيه ، وهو مشهد له في النفس وقع ، وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ .. ثم يقسم الحق ﷻ بالسماء وبنائها .. و ﴿مَا﴾ هنا مصدرية ، ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها ، فأما حقيقة السماء فلا ندريها ، وهذا الذي نراه فوقنا متماسكًا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه ، أما كيف هو مبني ، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخرًا ، فذلك ما لا ندريه ، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل ، ولا قرار لها ولا ثبات ، إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله ﷻ هي تمسك هذا البناء : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1] ، وهذا هو العلم المستيقن الوحيد .

﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ .. يقسم كذلك بالأرض وطحوها .. والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة ، وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية ، وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله ﷻ في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره ، وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه .. وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[2] ، وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات ، ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر ، فحين يذكر هنا بطحو الأرض فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه ، ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

---

1 - سورة : فاطر ، الآية : 41 .

2 - سورة : النازعات ، الآية : 30 ، 31 .

ثم تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره ، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ..

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية **سورة البلد** السابقة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [1]، وآية **سورة الإنسان** : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [2].. تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام .. وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان ، كقول الحق ﷻ في **سورة ص** : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [3].. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعة الفردية .. كقوله ﷻ في **سورة المدثر** : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [4]، والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله ﷻ في **سورة الرعد** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [5]، ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها .

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، ومن نفخة الله فيه من روحه .. مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال ، فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء ، وأن

---

1 – سورة : البلد ، الآية : 10 .
2 – سورة : الإنسان ، الآية : 3 .
3 – سورة : ص ، الآية : 71 ، 72 .
4 – سورة : المدثر ، الآية : 38 .
5 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبرعنها القرآن بالإلهام تارة : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .. ويعبر عنها بالهداية تارة : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [1] ، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقًا ؛ فهي مخلوقة فطرة وكائنة طبعًا ، وكامنة إلهامًا .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان ، هي التي تناط بها التبعة ، فمن استخدم هذه القوة في تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها وتغليبه على استعداد الشر فقد أفلح ، ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

وهنالك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه .. توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء ، فهي حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب .

ورحمة من الله ﷻ بالإنسان أن لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة ، وبذلك يتضح له الطريق وضوحًا كاشفًا لا غبش فيه ولا شبهة ، فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه .

وهذه في جملتها هي مشيئة الله ﷻ بالإنسان ، وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

---

1 - سورة : البلد ، الآية : 10 .

هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي : فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار ، فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم ، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانيًا تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا ، فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى ، وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو .

وهي ثالثًا تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ؛ ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة ، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه ، وبذلك يظل قريبًا من الله ، يهتدي بهديه ، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهات الطريق .

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تزكية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل في نور الله الفائض ، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود .

---

1 – سورة : الرعد ، الآية : 11 .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

بعد ذلك يعرض نموذجًا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها .. ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك ..

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح عليه السلام في مواضع شتى من القرآن ، فأما في هذا الموضع بالذات فهو يذكر أن ثمود بسبب طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب ، وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها ، وهو الذي عقر الناقة ، وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم ، وقد حذرهم رسولهم عليه السلام قبل الإقدام على تلك الفعلة ، فقال لهم : احذروا أن تمسوا ناقة الله ، أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يومًا ولكم يومًا ، كما اشترط عليهم عندما طلبوا منه آية ، فجعل الله هذه الناقة آية ، ولابد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته ؛ لأن الله تعالى لم يذكر لنا عنه شيئًا ، فكذبوا النذير وعقروا الناقة .

والذي عقرها هو هذا الأشقى ، ولكنهم جميعًا حملوا التبعة وعُدوا أنهم عقروها ؛ لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته ، وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا ، لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي ، حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر ، والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحـرك يد القـدرة لتبـطش البطشـة الكبرى .. ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ .. والدمدمة هي الغضب وما يتبعه من تنكيل ، واللفظ ذاته : ﴿ دَمْدَمَ ﴾ يوحـي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهدًا مروعًا مخيفًا ، وقـد سـوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد .

﴿ وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ .. ﷻ ، ومن ذا يخاف ؟! وماذا يخاف ؟! وأنى يخاف ؟! إنمـا يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه ، فالذي لا يخاف عاقبـة ما يفعل ، يبـلغ غاية البـطش حـين يبـطش ، وكذلك بـطش الله ﷻ .. ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[1] .. فهو إيقـاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس .

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبـيرة ، ومشـاهده الثابـتة ، كما ترتبـط بـهذه وتلك سـنة الله ﷻ في أخذ المكذبـين والطغاة ، في حـدود التقـدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً ، ولكل حادث موعدًا ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حـكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعًا .

نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

والحمد لله رب العالمين .



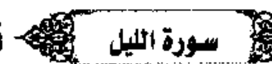
1 – سورة : البروج ، الآية : 12 .





سورة الليل







أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد:

فمع **سورة الليل**، تلك السورة التي تقرر – في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان – حقيقة العمل والجزاء.

ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر .. ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة .. ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾.

ولما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين، وذات اتجاهين كذلك .. كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء .. ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني.

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن".

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .. يقسم الله ﷻ بهاتين الآيتين : الليل والنهار ، مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد .. **﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾** .. **﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾** .. الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها .. والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر في تجلية كل شيء ويسفر ، وهما آنان متقابلان في دورة الفلك ، ومتقابلان في الصورة ، ومتقابلان في الخصائص ، ومتقابلان في الآثار .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .. ثم يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : **﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾** .. تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعًا .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشري ، ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما ، والنفس تتأثر تأثرًا تلقائيًّا بتقلب الليل والنهار .. الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر ، ولهذا التقلب حديث وإيحاء .. حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئًا ، وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ، وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدًا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يدًا أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة ، وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضًا ، ولا يتركهم سدى ، كما أنه لا يخلقهم عبثًا .

ومهما حاول المنكرون والضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشري سيظل موصولاً بهذا الكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائيًّا – كما يدرك بعد التدبر والتفكر – أن هنالك مدبرًا لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر ، ومن وراء الجحود والنكران .

وكذلك خلقة الذكر والأنثى .. إنها في الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم ، وخلية تتحد ببويضة ، ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ؟! ما الذي يقول لهذه : كوني ذكرًا ، ويقول لهذه : كوني أنثى ؟!

إن كشف العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكرًا ، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئًا .. فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟! وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرًا ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟!

هل هي مصادفة ؟! إن للمصادفة كذلك قانونًا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة .. فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرًا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة ، فلا مجال للمصادفة ، ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلاً .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات ، فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات .. قاعدة واحدة في الخلق لا تتخلف ، لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق ﷻ الذي ليس كمثله شيء .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية ، وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله ﷻ



بـها ؛ لعظيم دلالتها وعميق إيقـاعها ، والتي يجعلها السياق القرآني إطارًا لحقيقـة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى .

يقسم الله ﷻ بهذه الظواهر والحقـائق المتقابـلة في الكون وفي الناس ، على أن سـعي الناس مختلف وطرقـهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ، فليس الخير كالشـر ، وليس الهدى كالضلال ، وليس الصلاح كالفسـاد ، وليس من أعطى واتقـى كمن بخل واسـتغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى ، وأن لكل طريقًا ، ولكل مصيرًا ، ولكل جزاء وفاقًا .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .. مختلف في حقيقته ، مختلف في بـواعثه ، مختلف في اتجاهه ، مختلف في نتائجه .. والناس في هذه الأرض تختلف طبـائعهم ، وتختلف مشاربـهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحـد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ .. كل ما سبق حقيقـة ، ولكن هناك حقيقة أخرى ، حقيقـة إجمالية ، تضم أشـتات البشر جميعًا ، وتضم هذه العوامل المتبـاينة كلها ، تضمها في حـزمتين اثنتين ، وفي صفين متقابـلين ، تحت رايتين عامتين : ﴿ مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ .. و ﴿ مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ .

من أعطى نفسـه وماله ، واتقـى غضب الله ﷻ وعذابـه ، وصدق بـهذه العقـيدة التي إذا قـيل : إن (الحسنى) كانت اسمًا لها وعلمًا عليها ، ومن بخل بنفسـه وماله ، واسـتغنى عن الله وهداه ، وكذب بهذه الحسنى .

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس ، وشتات السـعي ، وشـتات المناهج ، وشتات الغايات ، ولكل منهما في هذه الحياة طريق .. ولكل منهما في طريقه توفيق .

والذي يعطي ويتقـي ويصدق بالحسـنى يكون قـد بـذل أقصى ما في وسـعه ليزكي نفسـه

ويهديها ، عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه ﷻ على نفسه بإرادته ومشيئته . والذي بدونه لا يكون شيء ، ولا يقدر الإنسان على شيء ،ومن يسره الله لليسرى فقد وصل .. وصل في سر وفي رفق وفي هوادة .. وصل وهو بعد في هذه الأرض ، وعاش في يسر ، يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله .. اليسر في خطوه ، واليسر في طريقه ، واليسر في تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها ، وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها ، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له : ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ .

وأما الذي يبخل بنفسه وماله ، ويستغني عن ربه وهداه ، ويكذب بدعوته ودينه .. يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد ، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ، ويوفقه إلى كل وعورة ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجًا ، ينحرف به عن طريق الرشاد ، ويصعد به في طريق الشقاوة ، وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح ، وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ﷻ ، وتنأى به عن رضاه .. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به ، والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ .. والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا .. وهل أعسر من جهنم ؟! وإنها لهي العسرى .

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة ، وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان ، وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان ، وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ، فييسر الله له طريقه .. إما إلى اليسرى ، وإما إلى العسرى .



إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

وأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق ، ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى ، وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم ، فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارًا تلظى .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .. لقد كتب الله على نفسه – فضلاً منه بعباده ورحمة – أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم ، وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ .. واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلاً : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ .. فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدًا ؟!

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ .. وتفريعًا على أن الله ﷻ كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل .. تفريعًا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ .. وتتسعر .. هذه النار المتسعرة ...

﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾ .. أشقى العباد جميعًا ، وهل بعد الصلي في النار شقوة ؟! ثم

يبين من هو الأشقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. كذب بالدعوة وتولى عنها ، تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبًا .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ .. وهو الأسعد في مقابل الأشقى .. ثم يبين من هو الأتقى ، إنه هو ...

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .. الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لا ليرائي به ويستعلي ، ينفقه تطوعًا لا ردًّا لجميل أحد ، ولا طلبًا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصًا .. ربه الأعلى .

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾ .. ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذي يؤتي ماله تطهرًا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا .. عجيب .. ومفاجئ .. وعلى غير المألوف ...

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى .. إنه الرضى يغمر روحه .. إنه الرضى يفيض على جوارحه .. إنه الرضى يشيع في كيانه .. إنه الرضى يندي حياته . ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى بدينه ، ويرضى بربه ، ويرضى بقدره ، ويرضى بنصيبه ، ويرضى بما يجد من سراء وضراء ، ومن غنى وفقر ، ومن يسر وعسر ، ومن رخاء وشدة ، يرضى فلا يقلق .. ولا يضيق .. ولا يستعجل .. ولا يستثقل العبء .. ولا يستبعد الغاية .

إن هذا الرضى جزاء أكبر من كل جزاء .. جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله .. من يعطي ليتزكى ، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله ﷻ ، وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له ، فلا ترى سواه أحدًا .



﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. يرضى وقد بذل الثمن ، وقد أعطى ما أعطى ..

إنها مفاجأة في موضعها هذا ، ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه (**الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى**) ..

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .. نسأل الله أن يرزقنا الرضا عنه ، وأن يرزقنا رضاه ..

اللهم إنا قد رضينا عنك .. فارض اللهم عنا ، وأرضنا بك .. يا أرحم الراحمين ..

والحمد لله رب العالمين ..

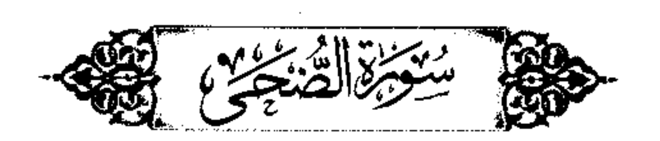



تفسير جزء عم


سورة الضحى







أحمدك ربي على فضائل ذاتك ، وعظائم نعمائك ، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك ، ومسك ختامك ، سيدنا محمد ﷺ . . وبعد :

فمع **سورة الضحى** ، هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لسمة من حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائف من ود ، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالرّوح والرضى والأمل ، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ ، كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين ، كلها أنسام من الرحمة ، وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع .

وقد رد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه **جبريل** عليه السلام ، حتى قال المشركون : ودع **محمدا** ربُّه .. فأنزل الله ﷻ هذه السورة .

والوحي ولقاء **جبريل** والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول ﷺ في مشقة الطريق ، وسقياه في هجير الجحود ، ورَوحه في لأواء التكذيب ، وكان ﷺ يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة ، ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب ، وبقي للهاجرة وحده .. بلا زاد ، وبلا رِي ، وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود ، وهو

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه .

وعندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

وما تركك ربك من قبل أبدًا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه .. ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .

ألا تجد مصداق هذا في حياتك ؟! ألا تحس مسّ هذا في قلبك ؟! ألا ترى أثر هذا في واقعك ؟!

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدًا .. ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. وهناك ما هو أكثر وأوفى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ..

ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه .. الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة .. ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. فأطلق التعبير جوًّا من الحنان اللطيف والرحمة الوديعة والرضى الشامل والشجى الشفيف .

ذلك الحنان ، وتلك الرحمة ، وذاك الرضى ، وهذا الشجى .. تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذا الإيقاع الساري في التعبير .

فلما أراد إطارًا لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي .. أصفى آنين من آونة الليل والنهار ، وأشف آنين تسري فيهما التأملات ، وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود ، وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء ، وصوّرهما في اللفظ المناسب ، فالليل هو : (**الليل إذا سجى**) ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه ، الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى

الشـفيف ، والتأمل الوديع ، كجو اليتم والعيلة ، ثم ينكشـف ويجلي مع الضحـى الرائق الصافي .. فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار ، ويتم التناسق والاتساق .

إن هذا الإبـداع في كمال ليدل على الصنعة .. صنعة الله التي لا تماثلها صنعة ، ولا يتلبـس بها تقليد .

وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .. يقسـم الله ﷻ بـهذين الآنين الرائقـين الموحـيين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس ، ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حـي ، فيعيش ذلك القـلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد .

وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه ، فظل الأنس هو المراد مده ، وكأنما يوحـي الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة أن ربه ﷻ قـد أفاض من حـوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. وبـعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشـر : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .. ما تركك ربـك ولا جفاك كما زعم من يريدون إيذاء روحـك ، وإيجاع قلبـك ، وإقـلاق خاطرك .. وهو ربـك ، وأنت عبـده المنسـوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ..



وما غاض معين فضله وفيض عطائه ؛ فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرًا مما يعطيك منها في الدنيا .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ .. فهو الخير أولاً وأخيرًا .. وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقك .. وهي الأمور التي كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد .. والشماتة ..

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .. ويمضي سياق السورة يذكِّر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق ؛ ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي ، وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع ..

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ .. انظر في واقع حالك ، وماضي حياتك .. هل ودعك ربك وهل قلاك حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيمًا فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب ، حتى قلب عمك **أبي طالب** وهو على غير دينك .

ولقد كنت فقيرًا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (**خديجة**

رضي الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء .

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها ، ولكنك لم تكن تجد لك طريقًا واضحًا مطمئنًا ، لا فيما عند الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا .. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك ، وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى ، التي لا تعدلها منة ، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ، ومن التعب الذي لا يعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي ، وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب .

فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه .

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة .. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفي أولها : الهداية إلى هذا الدين ..

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .. وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة ، التي لا ترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ، حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله ﷻ إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله الذي يحمي حدوده ، ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفًا يذودون به عن هذه الحقوق .



﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .. وأما التحدث بنعمة الله ﷻ ، وبخاصة نعمة الهدى والإيمان ، فهو صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم ..

نسأل الله أن يعيننا على شكره كما يحب ويرضى ، وأن يعيننا على التحدث بنعمته علينا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .







سورة الشرح







أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد :

فمع سورة الشرح ، وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها ، فيها ظل العطف الندي ، وفيها روح المناجاة الحبيب ، وفيها استحضار مظاهر العناية ، واستعراض مواقع الرعاية ، وفيها البشرى باليسر والفرج ، وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق .

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التي كُلفها ، ومن العقبات الوعرة في طريقها ، ومن الكيد والمكر المضروب حولها .. توحي بأن صدره ﷺ كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحًا على كاهله ، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد ورصيد .. ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ ونجعلها حبيبة لقلبك ؟ ونشرع لك طريقها ؟ ونُنِرْ لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة ؟

فتش في صدرك .. ألا تجد فيه الرَوح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة ؟! والراحة مع كل تعب ؟! واليسر مع كل عسر ؟! والرضى مع كل حرمان ؟!

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .. ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان ، وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب ، وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

ألا تجد ذلك العبء الذي أنقض ظهرك ؟! ألا تجد عبئك خفيفًا بعد أن شرحنا لك صدرك ؟!

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .. رفعناه في الملأ الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعًا .. رفعناه فجعلنا اسمك مقرونًا باسم الله ﷻ كلما تحركت به الشفاه : " **لا إله إلا الله .. محمد رسول الله** " .. وليس بعد هذا الرفع رفع ، وليس وراء هذه المنزلة منزلة ، وهو المقام الذي تفرد به ﷺ دون سائر العالمين .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك ، وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع ، وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود ، فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟! ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ﷺ ، ويسري عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ، ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه ..

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه ، وقد لازمه معك فعلاً ، فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخف حملك ، الذي أنقض ظهرك ، وكان اليسر مصاحبًا للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .. وهذا التكرار يشي بأن الرسول ﷺ كان في عسرة وضيق ومشقة اقتضت هذه الملاحظة .. وهذا التذكير .. وهذا الاستحضار لمظاهر العناية .. وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية .. وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد ، والأمر الذي يثقل على نفس محمد هكذا لا بد أنه كان أمرًا عظيمًا ..

ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل ..

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ .. إذا كان مع العسر يسر .. فخذ في أسباب اليسر والتيسير ، فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ، ومع شواغل الحياة .. إذا فرغت من هذا كله .. فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد .. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه ..

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .. إلى ربك وحده خاليًا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين





تشتغل بـدعوتهم .. إنه لا بـد من الزاد للطريق ، وهنا الزاد ، ولا بـد من العدة للجهاد ، وهنا العدة ، وهنا ستجد يسرًا مع كل عسر ، وفرجًا مع كل ضيق .. هذا هو الطريق .

وتنتهي هذه السورة كما انتهت **سورة الضحى** ، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين .. الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم ، والشعور بالعطف على شخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل .. إنها الدعوة .. هذه الأمانة الثقيلة ، وهذا العبء الذي ينقض الظهر ، وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود .

نسأل الله العلي الكبير أن يشرح صدورنا ، وأن ييسر أمورنا ، وأن يعلي ذكرنا في الدنيا والآخرة ، وأن يرزقنا لذة العبادة في الدنيا ، ولذة النعيم في الآخرة .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .




تفسير جزء
عم




سورة
التين





سورة التين

أحمدك ربي على فضائل ذاتك، وعظائم نعمائك، وأصلي وأسلم على قمة اصطفائك، ومسك ختامك، سيدنا محمد ﷺ .. وبعد:

فمع سورة التين .. والحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان.

يقسم الله ﷻ على هذه الحقيقة بالتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة، وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقاً دقيقاً.

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن".

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .. فأما (**طور سينين**) فهو جبل الطور الذي نودي **موسى** عليه السلام من جانبه ، وأما (**البلد الأمين**) فهو مكة التي هي بيت الله الحرام .. وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .

وأما (**التين والزيتون**) فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا ، وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون .. (**فقيل**) : إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى شجرة التين التي راح آدم **وزوجه عليهما السلام** يخصفان من ورقها على سوءاتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا .

(**وقيل**) : هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة **نوح** عليه السلام .

(**وقيل**) في الزيتون : إنه إشارة إلى طورزيتا في بيت المقدس .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه .

(**وقيل**) : هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها **نوح** عليه السلام من السفينة لترتاد حالة الطوفان ، فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض قد انكشفت وأنبتت .

(وقيل) : بـل التين والزيتون هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقـتهما ، وليس هناك رمز لشيء وراءهما .. أو أنهما هما رمز لنبتهما من الأرض .

وشجرة الزيتون أشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور .. فقـال ﷻ : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ ﴾[1] ، كمـا ورد ذكـر الزيتـون : ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾[2].

وأما التين فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة ، وللمرة الوحيدة في القرآن الكريم كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشـيء في هذا الأمر ، وكل ما نملك أن نقـوله اعتمادًا على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية هو أن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشـارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بـالدين والإيمان ، أو ذات علاقـة بنشـأة الإنسـان في أحسـن تقـويم ، وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته ، كي تلتئم هذه الإشـارة مع الحقيقـة الرئيسـية البارزة في السورة ، ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة في داخله على طريقة القرآن .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. فأما الحقيقـة الداخلية في السورة فهي هذه .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم ، والله ﷻ أحسن كل شيء خلقه .

فتخصيص الإنسـان هنا وفي مواضع قـرآنية أخرى بحسـن التركيب ، وحسـن التقـويم ، وحسن التعديل .. فيه فضل عناية بهذا المخلوق ، وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما بـه من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد لتشير إلى أن له شأنًا عند الله ﷻ ، ووزنًا في نظام هذا الوجود .

---

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 20 .

2 – سورة : عبس ، الآية : 29 .

وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب .

والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية .. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها ، إذ إنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني ، فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين ، كما تشهد بذلك قصة المعراج ، حيث وقف **جبريل** عليه السلام عند مقام ، وارتفع **محمد بن عبد الله** ﷺ الإنسان إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ؛ لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى ، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم يجحد ربه ، ويرتكس مع هواه إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .. فطرة واستعدادًا .. ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .. دائم غير مقطوع ، فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها في المنحدر ، حتى تستقر في الدرك الأسفل .. هناك في جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون للسفول .

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء .. إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح .. فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم .

وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية .. فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان .. إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها .. إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها .. إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفئ هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين في الكائن البشري ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء .

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى الإنسان ..

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .. فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟! وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟! وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟!

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .. أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟! أو .. أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟! والعدل واضح ، والحكمة بارزة ..

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ،

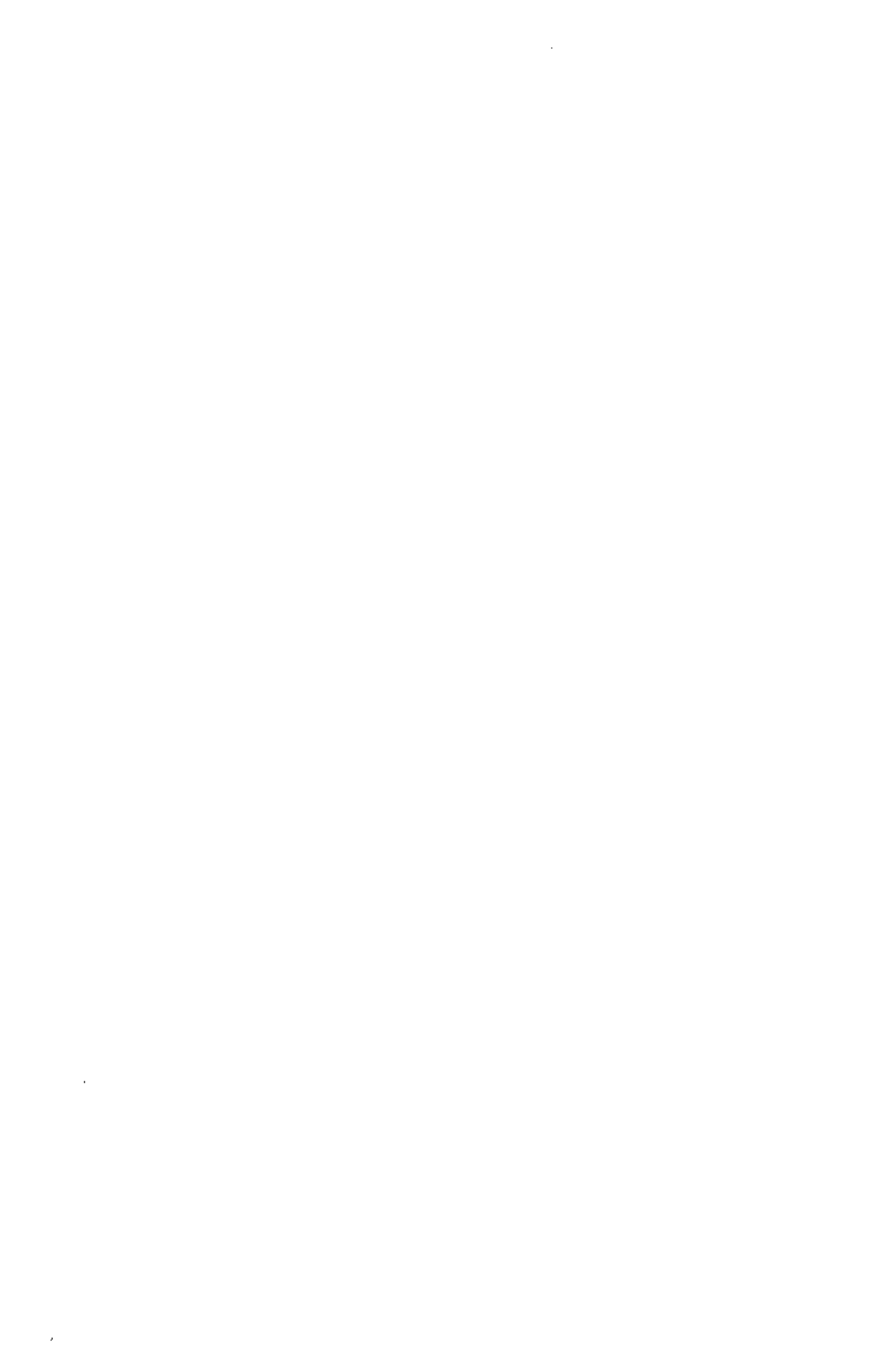
وأن يعطينا الأجر غير ممنون ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

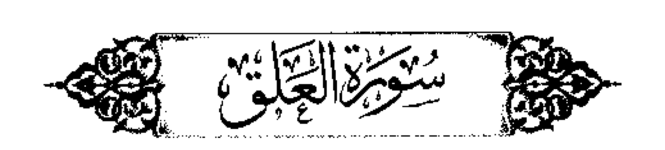
والحمد لله رب العالمين ..




تفسير جزء
عم


سورة
العلق



أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ﷺ ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة العلق** ، تلك السورة التي هي أول ما نزل من القرآن باتفاق ، فعن **عائشة رضي الله عنها قالت** : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد الليالي ذوات العدد – قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى **خديجة** فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : " **اقرأ** " .. قال : " **ما أنا بقارئ** " .. قال : " **فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** ، فقال : " **اقرأ** " .. قلت : " **ما أنا بقارئ** " .. " **فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني** " ، فقال : " **اقرأ** " .. فقلت : " **ما أنا بقارئ** " .. **فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني** ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على **خديجة بنت خويلد رضي الله عنها** ، فقال : " **زملوني زملوني** " .. فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال **لخديجة** ، وأخبرها الخبر : " **لقد خشيت على نفسي** " .. فقالت **خديجة** : كلا والله ، ما يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .. فانطلقت به **خديجة** حتى أتت به **ورقة بن نوفل بن أسد بن**

* مقدمة تفسير السورة من وضعنا .. " لجنة التحقيق " .

عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعًا ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : " أومخرجي هم ؟! " .. قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي [1].

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .. أمر الله رسوله ﷺ أن يقرأ ، ولكن لا برسوم الناس في القراءة ، وهي سابقية التعلم في أن يقع ؛ ولذلك علل قوله ﷻ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، بأنه إذا كانت الأشياء لها أسباب من المقدمات ، والإنسان يوجد من أمه ، ومن أبيه ، وأبوه وأمه ، يوجدان من أبويهما ، وأميهما ، فمن خلق الخلق الأول الذي هو بلا أسباب ؟

إذن ، فالحق يقول له : إنك ستقرأ على غير طريقة الناس ؛ لأن طريقة الناس في القراءة تكون بالأسباب المتقدمة على القراءة ، وأنت ستقرأ لا بالأسباب ، ولكن بإرادة مسبب

1 ـ أخرجه البخاري (3 ، 4572 ، 6467) ، ومسلم (231) ، وغيرهما ، جميعًا عن عائشة رضي الله عنها

لأسباب الذي لا يحتاج في إيجاد الأشياء إلى سبب .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .. والعلق : هو المرحلة الأولى في التناسل الإنساني المعلوم لنا ، أما البدايات الأولى فكانت من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال ، أو كل ذلك ، فلماذا عدل الحق ﷻ عن بداية الخلق الأول الذي هو التراب ، مع أنه أدل على كمال القدرة ؟!

ذلك لأن الحق ﷻ يخاطبنا في منطقة علمنا ، ومنطقة علم البشر أنهم لم يشهدوا الخلق من التراب ، وإنما خلقُنا من تراب جاء بإخبار الحق لنا ، فتلك جزئيات علمية لا وسيلة للعلم التجريبي فيها ، وأما كون الإنسان مخلوقًا من علق ، فهذا من الممكن أن يخضع لتجربة عملية ، بحيث نستطيع أن نبحث وراء النطفة حتى تصير علقة ، والعلقة حتى تصير مضغة ، ثم عظامًا ، ثم لحمًا من فوق العظام ، وهكذا .

فذلك واقع في نطاق علمنا التجريبي ، أما كونه خلقنا من تراب ، فهذا خاضع لإعلامنا بذلك ، ولم نشهد نحن ذلك ، وهذا يدلنا على أن العلم التجريبي منطقته الأمور المحسة التي يمكن أن تجري عليها تجربة ، أما الأمر الغيبي فلا يمكن أن تقوم عليه تجربة ، فلا مصدر لعلمنا به إلا من الحق ﷻ ، والحق يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾[1] ، وكوننا مخلوقين من علق ، ثم تتطور العلقة إلى مضغة ، إلى آخره ... ، كل هذا أمر في حيز العلم التطبيقي ، ويسهل عليه أن يهتدي إلى منطق القرآن فيه ، والمنطق القرآني حينما تكلم عن علم الأجنة ، لم يكن قد سُبق إلى كلام من هذا النوع ، لا النطفة ، ولا العلقة ، ولا المضغة ، إلى آخره .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .. ونجد أن الحق ﷻ قال : ﴿ الأَكْرَمُ ﴾ ، وهي صيغة تفضيل ، وهي تدل على وجود منطقتين : منطقة الكريم ، ومنطقة الأكرم ، فكأن الكريم هو الذي يلهمك الأسباب فتتعلم بها ، ولكن الأكرم هو الذي يعلمك بلا وجود لهذه الأسباب .

---

1 - سورة : الكهف ، الآية : 51 .

﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .. فهل المقصود بالإنسان هنا مطلق الإنسان ، أم خصوص الإنسان الأول ؟ نعم ، هو مطلق الإنسان ، ويصير إلى خصوصية الإنسان الأول أيضًا .

فعِلم البشر كله يأتي من مقدمات تُستنتج منها الأشياء ، هذه المقدمات لو سلسلناها لوجدناها تنتهي كلها إلى الأمر البديهي الموجود في الكون ، الذي لا يختلف فيه أحد أبدًا ، حتى أعقد نظريات العلم .

ودللنا على ذلك بتسلسل النظريات الهندسية ، فعندما يأتي الإنسان ليبرهن على نظرية ما فإنه يحتاج في البرهنة إلى أن يقول : حسب نظريتي ، أو يقول : حسب نظرية ثمانين مثلاً ، أو سبعين ، إلى أن يقول : نظرية ثلاثة ، وهذا البرهان حسب نظرية واحد ، وهكذا ... ، فإذا جاء عند نظرية واحد في البرهنة عليها ، لا يقول : كذا يساوي كذا حسب نظرية فلان ؛ لأن النظريات انتهت إلى آخر حدها ، وإنما يقول : حسب بديهية فلان ، وهي البديهية التي يشترك كل الناس فيها .

إذن ، فأعقد النظريات العلمية ، ما جاءت إلا من الأمر البديهي .

فالحق عندما علم الإنسان ما لم يعلم ، ترك في أصول الكون بديهيات ، هذه البديهيات لا تتطلب من العقل البشرى إلا أن يلتفت إليها فقط .

وبما أنه لم يسمع ، فما الذي يحاكيه ؟ لا يمكن إلا إذا طرأ الصمم بعد سماعه للأشياء ، فإن كان سمع الأشياء ، فالذي سمعه أولاً يتكلم به ، وإن تعلم في هذه الأثناء فمن الممكن أن يقرأ ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ ﴾[1] ، فأتى بالبكم بعد الصم ؛ لأنه هو العلة الأساسية في عدم السماع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

والحق ﷻ حين أراد أن يضرب لنا مثلاً في فتية أهل الكهف ، ماذا قال فيهم ؟ وهو يريد أن ينيمهم ثلاثمائة سنين وتسعة ، أنامهم في كهف ، والكهف في جبل ، والجبل في

1 – سورة : البقرة ، الآية : 18 .

صحراء ، والصحراء فيها عوامل طبيعية ، من أعاصير ، وعواصف ، وزوابع ، وغير ذلك من الأشياء الأخرى التي تقلق النوم ، وهو يريد أن ينيمهم نومًا طويلاً ، ماذا قال فيهم ؟ قال : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[1] ، وكأنهم خالفوا النوم الطبيعي ؛ لأن الحق ﷻ قد ضرب على آذانهم ، فضرب على الأداة التي لا تذهب مهمتها في النوم : ﴿ فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

فإذا ما جئنا للإنسان الأول ، نجد أن الإنسان الأول ، وهو أبونا آدم عليه السلام ، تلقى من الله العلم بالسماع أولاً : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[2] ؛ لأن المعرفة جاءت لبني آدم بالتسلسل ، فأنا تعلمت من أبي ، وأبي تعلم من أبيه ، وهكذا ، حتى نصل إلى أبي البشر جميعًا آدم عليه السلام ، فمن الذي علم آدم ؟ إنه ربه ﷻ ، الذي علم الإنسان مالم يعلم .

وإذا نظرت إلى الإنسان هنا نظرة عامة تفهم أن : ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، أي : أوجد في الوجود ما يعينه على العلم ، من طاقة فكرية ، وإدراكات ، ومادة ينفعل بها ، فإذا نظرت للإنسان الأول ، لم تجد شيئًا من هذا ؛ لأنه فاقد لغة نقل العلم ، وما دام فاقدًا للغة النقل ، فلابد من تعلمها أولاً .

انظر إلى عبارات القرآن الدقيقة ، حيث قسم الكلام إلى : اسم ، وفعل ، وحرف ، فالاسم له مدلول يدل على معنى مستقل بالفهم ، وليس الزمن جزءًا منه ، والفعل يدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزءٌ منه ، والحرف يدل على معنى ، لكنه غير مستقل بالفهم ، فلابد وأن يتصل بغيره حتى يفهم منه معنى ، فاللفظ قد يعطي معنى مرتبطًا بالزمن ، أو غير مرتبط بالزمن ، فالكلام يتكون من هذه الأشياء : الاسم ، والفعل ، والحرف ، ولكن الفعل الذي يدل على الحدث مربوطًا بالزمان ، الدلالة عليه اسم أيضًا ، بدليل أننا نسميه بـ

1 - سورة : الكهف ، الآية : 11 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 31 .



(الفعل) ، فدُلَّ على الفعل باسمه ، ودُلّ على الحرف أيضًا باسمه ، وكأن الاسم هو الأصل في الدلالات ، ولذلك لا نُعَلِّم الطفل الأفعال أبـدًا ، وإنما نُعَلِّمه أسماء الأشـياء أولاً ، هذه نخلة ، هذه سماء ، هذه كذا ، وهكذا ... ، ثم يتعلم الأفعـال ، هـذا أكَل ، وهـذا شَرب ، فـلا نعلمـه الأحداث أولاً ، ولا الحروف ، وإنما الأسماء .

إذن .. فكل وظيفة تعليم اللغة على الاسم ، والاسم يشمل في مدلوله : الاسم الاصطلاحي ، والفعل ، والحرف .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه ﷻ علمه ما يقيم به لسانه ليتفاهم ، أي : الاسم ، والفعل ، والحرف ، الذي به يربط أجزاء الكلام .

والحرف يأتي على معنيين : (**حرف المبني**) ، مثل : الكاف ، والتاء ، والبـاء من كلمة : " كتب " ، بحيث إذا انفصل لا يدل على معنى ، أما (**حـــرف المعنى**) : فهو إن انفصل دل على معنى ، كما تدل الكاف على التشبـــيه مثلاً ، واللام على الملكية ، فحــــرف اللام في : (**لفلان**) ، حرف معنى يدل على الملكية ، أما حرف اللام في : (**قلم**) ، فهي حرف مبـنى لا يدل جزؤه على جزء معناه ، إذن ، فالحروف نوعان : معانٍ ومبانٍ ، وبهذا تكون داخلة في الأسماء أم لا ؟ نعم ، داخلة فيها .

إذن ، فقـول الحق ﷻ : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يدل على أنه علمه ما يقيم بـه لسانه وبيانه ، ولذلك جاء في **سورة الرحمن** : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾[1] .

كيف يَبين عن ما في نفســه إلاّ إذا تكلم ؟ ولا يَبين عن ما في نفســـه إذا تكلم إلا إذا كان من يخاطبه على علم بمدلولات الألفاظ ، فلو تخاطب غير العربي مع العربي لما اسـتطاع التفاهم معه ؛ لأنه يجب أن يكونا على علم بمدلولات الألفاظ معًا .

1 - سورة : الرحمن ، الآية : 1 : 4 .

فإذا أنا تقعرت في اللغة العربية مع من يتكلم العربية ، ولكن أتيت بألفاظ متقعرة ، وليست في مستوى المتكلم العادي ، وإن كانت عربية ، والمخاطَب عربي ، فلن يفهم شيئًا .

فيجب أن يؤتى آدم البيان ، بمعنى أن يعلمه إياه ، وبعد ذلك يفهم عن الله ، قال : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾[1] ، فهم آدم الأمر ، وأنبأهم بعد ما كان تعلم الأسماء كلها ، وقد استخدم في أمره بتعليم الأسماء : الاسم (آدم) ، والفعل (أنبئ) ، والحرف (بـ) ، إذن ، هذه كلها أسماء من تعليم الله له .

وهذا أخرجنا من إشكالات متعددة في علم اللغات حول نشأتها ، هذه الإشكالات أنهم قالوا : إن الله إذا كان قد علم آدم الأسماء كلها ، ثم نقلها آدم بالكلام ، فسمعها بنوه بالمحاكاة ، لكان من الواجب ألا يزيد لفظ عما تعلمه آدم ، ونحن نشاهد أن المجامع اللغوية في أي بلد من البلاد تخترع أسماء لبعض مكتشفاتها التي لم تكن موجودة ، فمعنى اختراعهم لبعض المكتشفات التي لم تكن موجودة ، دليل على أن الأسماء ليست توقيفية .

إذن .. فهذا الرأي يرد عليه من هذه الناحية ، فمن قال : إن الأسماء وضعية ، قصدوا بالتواضع : أن نتفق على أن معناها كذا ، فالأرض معناها كذا ، والسماء معناها كذا ، هذا الاتفاق إذا أردنا أن نتواطأ جميعًا ونتفق عليه ، ألا يريد منا تفاهمًا ؟! أم بماذا سنتفق ؟! فلابد من لغة ، فإذا كانت اللغة تحتاج إلى توافق حتى نتفق على معاني الألفاظ ، فما هي اللغة التي نتفق بواسطتها ؟! فلو أن التواضع من البشر ، لاحتاج التواضع إلى لغة يتفاهمون بها ، واللغة تحتاج إلى تواضع ، يكون دورًا ، أو تسلسلاً .

فلابد وأن ينتهي الأمر إلى أن هناك من علمنا ، فإن قيل : فإن كان هناك من علمه ، فلِمَ تزيد ألفاظًا جديدة للمكتشفات ؟! أجيب عليه : بأن الحق ﷻ أمد كل آلة من آلات الإنسان الإدراكية بمتعلقاتها ، فأمد العين بمرائيها ، وأمد الأذن بمسموعاتها ، وأمد الأنف

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 33 .




بمشموماتها ، وأمد اللمس بملموساته ، وأمد الذوق بمتذوقاته ، ثم بقي اللسان .. فما هي متعلقاته ؟ إنه يمده بالألفاظ ، وبعد ذلك هو يأخذ الألفاظ التي أمده الله بها ، فيُكَوِّن اللغة التي يتفاهم بها ، ثم يتفاهم بواسطة هذه الألفاظ على ما تَجِدُّ به نُظُم الحياة ، إذن فاللغة كانت أولاً توقيفية من الله ، ثم انتهت وضعية .

إذن .. فقول الحق ﷻ : ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، إما أن يراد بها الإنسان العام ، وإما أن يراد بها الإنسان الخاص ، وحين نردها ، نردها إلى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ .

كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى ﴾ .. وردت كلمة : (كلا) في القرآن الكريم ثلاثًا وثلاثين مرة ، ولم ترد في نصف القرآن الأول ، لكنها أول ما وردت وردت في **سورة مريم** .

وكلمة : (كل) إذا وجدت ، فاعلم أن قبلها كلام يُردع عنه ويُزجر .

فإذا كانت كلمة : (كلا) ، كلمة ردع وزجر ، فأين المردوع ، والمزجور عنه في قوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ؟!

إن العلماء يقولون : إذا لم تجد ما يردع عنه ويزجر فانقل (كلا) إلى (حقـا) ، يعني : حقًا إن الإنسان ليطغى ، فهو يشير إلى مبدأ حقيقي ، وهو أن الإنسان يطغى إذا رآه استغنى .

وحين لم نجد في هذه الآية التي معنا ما يردع ويزجر عنه في الظاهر ، ولكنا لما استرجعنا قوله ﷻ : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فهذه كان المفروض أن تقابل بالشكر ، ولكنها لم تقابل بالشكر من الناس ، فكأنه ردع عن واقع لا ينسجم مع المقدمات التي ذكرها الله ﷻ ، وكأن الله ﷻ قد أعطانا النعم لنشكر نعمه ، ولكن واقعنا أننا لم نشكر .

وقوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، يدل على أنه قد حصل لنا غرور بالعلم ، فانفصلنا عن الحق ، فكلما تقدمنا في العلم زدنا غرورًا بعقولنا وذاتيتنا ، فننفصل عن الحق ؛ ولذلك فإن كل الأمم والشعوب عندما تتقدم في وسائل النبوغ من اختراعات واكتشافات يزداد سلطانها بقوة العقل ، أما قبل ذلك فلم تكن لقوة العقل تدخل كبير في حياة الناس ، فقبل ذلك مثلاً عندما كان الناس يفقدون الماء لم يكن لهم إلا الله ﷻ ؛ لأن الله هو الذي ينزل الماء ، فيرجعون إليهﷻ .

أما الآن ، فعندما يفتح المرء الصنبور ولا يجد ماءً ، فإنه لا يفزع إلى الله ، ولا يخطر ذلك بباله ، بل إنه يتصل بشركة المياه لتصلح آلة ضخ المياه ، وهذه كلها أسباب فقط ، ليست هي المسبب .

﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وتلك هي طبيعة الإنسان ، ما لم يعصمها عاقل العصمة ، فالحق ﷻ يربي أناسًا لا يفتنون في هذه الأسباب ، فإذا أوتوا نعمة فهم يذكرون دائمًا أن مصدرها هو الله ﷻ ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالاَ الْحَمْدُ للَّه الَّذي فَضَّلَنَا على كَثيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ، ثم بعد ذلك : ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

1 – سورة : النمل ، الآية : 15 .

الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾[1].

إذن .. فهؤلاء لم يغرهم ما وصلوا إليه ، مع أن سليمان عليه السلام وصل إلى ما لم يصل إليه خيال بشر ، فالخيال أن يحوز المرء القوة والمال والملك والسلطان ، لكن أن يسخر له الجن ! ! فهذا لم يسبق إليه الخيال ، أن يسخر له الريح ! ! ويعرف لغة الطير ، بل ويكلمه ! ! فهذه مسألة عظيمة ، ونعمة جسيمة ، ومع ذلك فإنه عليه السلام لم يغتر بها ، وما زادته إلا تقربًا من ربه ، وشكرًا له على نعمه .

وضرب الله ﷻ لنا مثلاً في سورة الكهف برجلين : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾[2] ، ولكن الذي أنعم الله ﷻ عليه : ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَ بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾[3] ، فكأنك حينما يأتيك الخير يجب ألا تغتر ، وأن تردها إلى مصدرها : ﴿ مَا شَاء اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَ بِاللَّهِ ﴾ ، لكن الإنسان الغافل بمجرد أن يصله خير يأتيه معه الغرور ، فيقول : هذا من عملي بكذا ، وعلمي بكذا ، وفطنتي لكذا ، كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي ﴾[4].

إذن .. فالغرور والطغيان المشار إليه في قوله ﷻ : ﴿ كَلاَ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ

---

1 – سورة : النمل ، الآية : 19 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 32 .

3 – سورة : الكهف ، الآية : 35 : 39 .

4 – سورة : القصص ، الآية : 78 .

اسْتَغْنَى ﴾ ، تستلزم مقابلاً فوريًّا ، فسرعان ما تزول منه أسباب الاستغناء ، فينقلب طغيانه في : ﴿ يَطْغَى ﴾ ضدًّا ، فلو كان صادقًا مع نفسه لاستمر في شعيرته هذه ، ولكن الإنسان لا يغش نفسه ، وإن غش كل الناس ، مهما أكثرت الناس عنه ، فإنه لا يغش نفسه أبدًا ، فيرجع سريعًا إلى ربه .

ويضرب القرآن الأمثلة المتعددة في هذا ، مثلاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾[1].. سبحان الله .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾[2]، جعل لله أندادًا من فكره وذكائه وعقله وفطنته .

ويقول في آية أخرى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وتلك هي طبيعة الإنسان فيما بينه وبين نفسه ، لا يخجل أن يسأل الله ﷻ ؛ لأنه لا يراه أحد ، هذا عند انفراده ، وفي الاجتماع أيضًا ، فلا يخجل من أن يطلع أحد على ذلك ، قال ﷻ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾[4].

وفي آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى

---

1 – سورة : يونس ، الآية : 12 .

2 – سورة : الزمر ، الآية : 8 .

3 – سورة : الزمر ، الآية : 49 ، 50 .

4 – سورة : النحل ، الآية : 53 ، 54 .

الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانَ كَفُورًا ﴾[1] ، وقال أيضًا : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ كَلاَ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، تعطي المقابل ، فإذا انحلت عنه أسباب الاستغناء ، زال عنه الطغيان ؛ ولذلك تجد أن كفر كل الحضارات التي أعطاها القرآن لنا مثلاً سببه الطغيان : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عليهم رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾[3]، وكذلك : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[4]، يقول لهم : انظروا إلى الذين سبقوكم من الحضارات التي كانت منتشرة .

وكذلك يقول ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[5]، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ ، فهذا ليس من سعيكم ، ولكن ظنوا أن عبقرية بناء السد ، وحساب المياه ، وتحسبهم للغيث وقت نزوله أغناهم ، رغم أنهم لم يكلفوا إلا بأمرين ، هما : أن ينفضوا عن أنفسهم داء الغرور فينسبوا الرزق لله ﷻ، كما ورد في الآية : ﴿ رِزْقِ رَبِّكُمْ .... ﴾ ، والأمر الثاني هو الشكر: ﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ .

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 67 .

2 – سورة : الروم ، الآية : 33 ، 34 .

3 – سورة : الفجر ، الآية : 6 ؛ 13 .

4 – سورة : الشعراء ، الآية : 128 ؛ 130 .

5 – سورة : سبأ ، الآية : 15 .

ولكن كانت النتيجة : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾[1] ، ومعنى : (أعرضوا) ، أي : امتنعوا عن الأمرين ، فأكلوا ظنًّا منهم أنه من سعيهم ونجاحهم ، ولم يشكروا ، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .. فما عاقبناهم بالجفاف في المقابل ، بل بعقاب من جنس النعمة ، اعتزوا بالماء ، فكان جزاؤهم من جنس نعمتهم : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عليهمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾[2] .

وكل الحضارات التي قصها القرآن علينا ، سبب زوالها هو عدم وجود عنصر قيم موصول بالزمن ، بل عنصر غرور موصول بذاتية النفس ، وحيث أنه موصول بالنفس ، فإن الموصول بالمتغير يتغير ، فكان التغير ما حدث لكل حضارة منهم .

﴿ كَلاَ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .. وبعد ذلك يقول له : إنك مهما استغنيت ، فإنك راجع إلى ربك ، فلا تعتقد أنك انفلت من الحق ﷻ باستغنائك ، بل سترجع إليه حينما تصيبك المضرات التي لا تقوى عليها ، وهذا أوسع ، أي : سترجع لنا في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .. فإن لم يكن في الدنيا ، فستكون النهاية الأخيرة إليه ، وأمر ستنتهي إليه وقد بدأت فيه ، فلا مجال للفرار ، لا يمكن أن تفلت منه أبدًا ، طالما أنك بدأت فيه ، وبعد ذلك ستعود إليه ، فلا خير في نعيم بعده النار ، ولا شر في مكروه بعده الجنة ، وعندما توقن بهذه النتيجة تسأل النفس : ماذا تفعل لو ظللت مدة العمر مثلاً في طغيان إذا كان : ﴿ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، ويقدم الجار والمجرور ليفيد الاقتصار عليه ﷻ ، فالرجعى إليه لا إلى غيره .

1 – سورة : سبأ ، الآية : 16 .

2 – سورة : سبأ ، الآية : 16 ، 17 .

و (**الرجعى**) ، سواء كانت عندما تهزه الأحداث دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا ، أو الرجعى النهائية ، حيث إنك مهما أوتيت من متع الدنيا فسترجع إليه .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ .. كلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ عند سماعها تدل على أمر عجيب ، فهذه المسألة ليست مسألة عادية ، بل مسألة عجيبة ، ومجيئها بعد : ﴿ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكأنها حيثية للحكم الذي سبق أن قاله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ .

﴿ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .. فالمعقول أن تطيع المصلي فتفعل فعله ، فإن لم تطعه ، فهذا طغيان ، أما أن تنهاه ، فهذا طغيان آخر ، ومرحلة أخرى ، فإن كان هو المطلوب منه أن يأمر الناس بالفعل ، فهذه مرحلة ثالثة ، وطغيان ثالث .

ثلاث مراحل، المرحلة الأولى، أنك لم تطعه في فعله ، **المرحلة الثانية،** أنك تريد حمله على ضلالك في أنك لا تصلي ، **المرحلة الثالثة،** أنك لا تفطن إلى أن هذا هو الرسول المكلف بإيصال هذا الأمر للناس ، فهو ينهى المأمور من الله أن يأمر هو بهذه الأشياء ، فهذه أشياء تدل على الطغيان المركب ، طغيان في قمته وذروته .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. وكأن الحق ﷻ أراد أن يقضي بين الخصمين ، فالتفت لكل بما يناسبه ، والحادثة كانت بين **أبي جهل** وبين الرسول ﷺ ، فعندما أراد الاستدلال على طغيان الإنسان ، وأنه يتجاوز حدوده قال : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ .

وبعد ذلك التفت ، فهو ينهى ، إذن فهناك ناهٍ ، ومنهي عنه ، المنهي قد يكون نوعين : نوع من الاتباع ، ونوع هو المتبع ، فكأن الحق حينما قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ ، فكلمة : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ فيها مقابلة ، فالحق ﷻ عرض لنا الصورة ، وفي عرضه للصورة رغم أن القرآن نزل بعد الحادثة التي

حصلت ، فلم يكن أبو جهل ساعة النزول ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ، بل لقد نهى بالفعل ، ولكن القرآن جاء بالصورة الحالية ، فكأنه يصور الموقف حينها ، فلم يقل : أرأيت الذي نهى عبدًا إذا صلى ، ولكنه استحضر الصورة فقال : ﴿ يَنْهَى ﴾ كأنه يصور الموقف ، فهنا يوجد خصمان .

والقصة معروفة ، فعن **أبي هريرة** ﷺ قال : قال **أبو جهل** : هل يعفر **محمد** وجهه بين أظهركم ؟ قال : فقيل : نعم .. فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب .. قال : فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟! فقال : إن بيني وبينه لخندقًا من نار ، وهولاً ، وأجنحة .. فقال رسول الله ﷺ : **" لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا "** [1].

إذن ، فالقرآن يصور لك الحادثة وقت حدوثها كأنك تشاهدها رأي العين ، لكن هذه الحادثة واقعة عندنا في أمور كثيرة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إذن .. كل ناهٍ عن الصلاة ، وكل معوق عن الصلاة ، وكل من يشغل الإنسان عن الصلاة يدخل تحت عموم هذه الآية ، وكأن للآية صورًا كثيرة ، ولا يزال في كل قوم أبو جهل .

وللسلف في هذه الآية مواقف لطيفة ، فقد رأى **سيدنا علي** ﷺ قومًا يصلون قبل صلاة العيد ، وهذا مخالف لسنة النبي ﷺ ، فقال له بعض الصحابة : ألا تنهاهم ؟ فقال : لا أنهاهم عن الصلاة ، وإنما أقول لهم : ذلك لم يفعله رسول الله ﷺ خشية أن أكون فيمن نهى عبدًا إذا صلى .

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. يلتفت الحق ﷻ بعد ذلك إلى الناس ويقول : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى *

---

1 - أخرجه مسلم (5005) .

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. فكأنه التفت أولاً للناهي ، ثم التفت إلى المنهي ، ويكرر : (أرأيت) ، دليلاً على أن هذه القضايا قضايا عجيبة ، فهل يكون الكلام كله بالنسبة لأبى جهل؟ بالطبع لا ، فيكون : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ، و: ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .. معقولاً أن تكون بالنسبة لأبى جهل ، ولكن قوله ﷺ : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ فكيف تكون بالنسبة لأبي جهل؟ يجاب بأن لأبي جهل حالتين : حالة زعم ، وحالة حقيقة واقعة ، أما الزعم الذي زعمه فهو أنه على الهدى والحق ، والحقيقة الواقعة فهي أنه كذب وتولى ، والرد التعجبي من الحالتين : حالة الزعم ، وحالة الحقيقة .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ .. فهناك إذن شاهد يحصي ، وما دام الحق ﷻ هو الشاهد فالمسألة إذًا لا تحتاج إلى بينة ، ولو جاءت البينة فستكون تطوعًا : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [1].

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. أتي هنا أيضًا بـ ﴿ كَلَّا ﴾ ، فالردع والزجر عن كل سبب .

يهدد الله ﷻ الكفار ، ومادام يهدد الكفار فالتهديد واقع ؛ لأنه لو هدد ولم يقع في جزئية واحدة ، لصارت مدعاة للشك في القرآن .

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .. وهو بكفره لم ينته ، فلابد من عقابه بحادثة .

و (الناصية) : التي هي مقدم الشعر التي يُشَدُّ منها ، والجر من الناصية دليل على المهانة ، لأنه لا يُسحَب بهذه الطريقة إلا الحيوان ؛ لأن الناصية هي محل تكريم الإنسان .

ومعنى ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ ، أي : ينتهي عن مطاردة الحق ، أو لئن لم ينته عن الأسباب

1 – سورة : فصلت ، الآية : 21 .

المسببة لهذا النهي ، أي كفره .. ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .. ومع أن الناصية هي محل تكريم الإنسان إلا أن هذه الناصية كانت السبب في هلاك صاحبها ، فهي ليست سوى ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ .. وكان أبو جهل قد قال للرسول ﷺ : أتشتد عليّ ، وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا ؟! فرد الله ﷻ عليه : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1].

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .. و (الزبانية) هم شرطة جهنم ، أعاذنا الله منها .

﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. فيه مقابلة : ﴿ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .. وكأن هنا متقابلين : أبو جهل يدعوهم إلى عدم الصلاة ، والصلاة تقربه من الحق ، فاعقد مقارنة ، فمع من تحب أن تكون ؟!

فهل تستحق الصلاة مغالبة النفس ومغالبة الطغيان أم لا ؟!

قطعًا تستحق ذلك كله ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد "[2].. لأن هذه الصلاة حضور بين يدي الله ﷻ ، وأما السجود فهو أقرب ما يكون الحضور من الحاضر .

وقالوا : إن الحق ﷻ قد كلّف أمة محمد ﷺ بالصلاة لما كان في المعراج ، فكان حظيرة القرب التي التقى فيها رسول الله ﷺ بحضرة ربه ، وكان أقرب ما يكون إلى الرب ، فكانت التحية لأمته ما يعطيهم ذلك القرب ، فنزل من القرب بالقرب .

---

1 - أخرجه الترمذي (11 / 187) ، والنسائي في الكبرى (6 / 518) ، والحاكم في المستدرك (8 / 500) ، جميعًا من طريق ابن عباس رضي الله عنهما .

2 - أخرجه مسلم (744) ، وأبو داود (3 / 41) ، والنسائي (4 / 336) ، وأحمد (19 / 126) ، جميعًا من حديث أبي هريرة .

وهذه هي فضيلة الصلاة ، وهذه هي فضيلة هذه الأمة المختارة المنتقـــاة ، التي فضلها الله ﷻ على جميع الأمم .

نسأل الله ﷻ أن يلهمنا التوفيق في كل ما نأتي وما ندع ، وأن يرزقنا القرب والزلفى إليه وإلى الجنة ، ومن كل عمل يقربنا إليه وإلى الجنة .

والحمد لله رب العالمين . .







سورة القدر



سورة القدر

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة القدر** ، والحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال .. ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى .. ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب **محمد** ﷺ .. الليلة ذات الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعًا .. العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري .

والسياق الترتيبي في المصحف غير السياق الترتيبي في النزول ؛ لأن إنزال القرآن جاء تبعًا للأحداث التي تتطلب أحكامًا ، فالمناسبة بين النازل والحادثة أمر معقول ، فحين توجد الحادثة يوجد الحكم لها ، وذلك أدعى إلى إثبات الحكم ، لأن وجود الشيء عند تهيؤ النفس له ، وطلبها أمكن لتغلغل ذلك الشيء ، ولكن الشيء إذا جاء عن غير حاجة ، فربما إذا جاءت الحاجة ضل الإنسان عنها ، ولكن إذا وجدت الحاجة ، وجاء الشيء من النفس ، تمكن من الإلحاح في الطلب .

ولكن القرآن له نسق محفوظ ، أو كما كان في اللوح المحفوظ ، فهل المناسبة الترتيبية التي نجدها في المصحف ، تخالف المناسبة الإنزالية ؟ .. كلا ، أيضًا حين يوجه لسورة أو لآية ما في المصحف ، في غير المكان الذي كانت فيه بعد المناسبة ، توجد أيضًا المناسبة .

إذن ، فهناك مناسبة حدث ، وهناك مناسبة إنزال ، فإذا نظرنا إلى **سورة القدر** ،



وجدناها قد أخذت موقعها الطبيعي من سورة اقرأ ؛ لأن سورة اقرأ وإن كانت لم تحدد المقروء ، فإن المطلوب في ذلك الوقت هو إحداث القراءة من أمي لم يعرف القراءة ؛ ولذلك انطوى المقروء : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، ماذا يقرأ ؟ لا شك أن الذي يقرؤه هو القرآن ، إذن ، فكأن الحق ﷻ بعد أن تكلم عن أولية ما نزل من القرآن ، تكلم عن الظرف الذي نزل فيه القرآن ، ولذلك تجد الحق ﷻ لم يقل في كلامه : إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر في ابتداء الكلام ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، فجاء ضمير الغيبة ، فكأن المعروف : اقرأ القرآن ، أو اقرأ الكتاب ، فتأتي السورة بعدها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .

إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. هنا نجد أن الحق ﷻ استهل السورة بـ : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وإذا استعرضنا أساليب القرآن في التعظيم ، وجدنا الجمع والإفراد للمتكلم كما يقتضيه الوصف ، وجدنا أن الحق حين يتكلم عن شيء يتقلب اتجاهه تقلبًا من صفات جمال ، أو صفات كمال ، حين يخلق خلقًا ، لابد أن تتدخل صفة العلم ، وصفة الحكمة ، وصفة القدرة ، فالأشياء التي يتطلبها الفعل الذي يريد أن يتعرض له الحق تتقلب صفات متعددة ، هذه الصفات المتعددة تتكاتف بجلالها وكمالها في جمال هذا الشيء على علم وحكمة وقدرة وبعزة .

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

إذن ، فالحق ﷻ له صفات كمال وصفات جمال ، كل صفة لها شأنها في الخلق .

حين يتكلم الحق عن شيء يتطلب تكتل الجمال أو الكمال فيه ، فيقول : إنا .. لكنه إذا تكلم عن ذاته ، ويريد من عبده أن يتوجه إليه ، لا يقول : إنا نحن الله ، إنما يقول : إنني أنا الله ، لا إله إلا أنا .

إذن ، فحين نتوجه إليه بالعبادة نلمح صفة التقرب ، وحين يعرض علينا أنعامه يتعرض لصفة الجمع ؛ لأن الإنعامات تتطلب صفات متعددة ، ولكن في مقام التودد والعبادة والتوحيد يأتي بضمير التفرد دائمًا : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾[1] ، لم يقل : فاعبدنا ، فإذا استقرأت القرآن على هذا الضوء ، فالإفراد حين يتكلم إنما يراد به وحدة ألوهيته ووحدة عبوديته ، وعبادتك إلهاً واحدًا ، وحين يريد الامتنان بوجود شيء يقول : خلقنا ، وقدرنا ، وأنزلنا .

إذا نظرنا إلى قوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا ﴾ .. فإن مادة النزول بالنسبة للقرآن وردت على صور متعددة من الارتقاء ، نجد أنها مرة وردت : (نَزَلَ) مجردة من الهمز والتضعيف ، كما قال ﷻ : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[2] ، ووردت : (نزَّل) مضعَّفة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[3] ، ووردت : (أَنزل) متعدية بالهمزة ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾[4] ، ووردت : (أُنزل) ، كما في قول الحق ﷻ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾[5] .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 14 .

2 – سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

3 – سورة : الفرقان ، الآية : 1 .

4 – سورة : الشورى ، الآية : 17 .

5 – سورة : البقرة ، الآية : 4 .

فما هو الملحوظ في تعدد هذا الإنزال ؟! الفعل حينما يكون مجردًا ، فهو غير متعدٍّ بنفسه ، إلا أن القرآن استعرض آياته ، أن الحق ﷻ حينما ينزل المجرد ، أي : اللازم غير المتعدي ، مرة أسند فيه إلى القرآن ، ومرة أسند : (نزل) إلى **جبريل** عليه السلام ، فهو ﷻ مثلاً يقول مثلاً : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[1] ، أي : القرآن ، فيكون معناها : وبالحق نزل ، فأسند نزل إلى القرآن .

وفي آية أخرى يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * على قَلْبِكَ ﴾[2] ، فيصير النزول مرة للقرآن ، ومرة نزل به الروح الأمين ، والاثنان نزلا ، وهذا هو اللحظ في هذا ، يقول الحق ﷻ : نزل القرآن ، لم يتعرض لنزل فقط ، وحين يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ ، تعرض لمن نزل بالقرآن ، فمعناه أن القرآن أيضًا نزل معه لماذا ؟ لأن نزل القرآن ، لعله نزل بدون واسطة ، ويصح أن يكون بواسطة .

فالوضع البلاغي في الآية الثانية : ﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ .. أن الحق ﷻ يقول : إن نزوله وحده مثل النزول به ، لا يغير الموقف ، بمعنى : أن الذي نزل به روح أمين ، فلم يتناول بأي شيء ، كأنه نزل وحده .

إذن ، فنزل القرآن ، ونزل **جبريل** بالقرآن ، يؤديان معنى واحدًا ، ولكن المعنى الجديد : أن القرآن لو نزل هو ، أو نزل بغيره ، فالأمر واحد ؛ لأن الروح الذي نزل به أمين لم يتصرف في شيء أبدًا .

وما دام الفعل غير متعدٍّ ، يقتضي منزلة الفعل المضعَّف نزل : ﴿ الم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[3] ، بعدما كان الفعل مسندًا للقرآن ، ضُعِّف

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 105 .

2 – سورة : الشعراء ، الآية : 193 ، 194 .

3 – سورة : آل عمران ، الآية : 1 ، 3 .

الفعل ، وأسند الفعل إلى الحق ﷻ ، وأصبح القرآن منزلاً .. ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ .

ويقول ﷻ في آية أخرى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على النَّاسِ على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[1] ، وهذه أفادت النزول في تتابع ، ليدل على أنه لم يعرض للإنزال مرة واحدة ، ولكن كلما جدت حادثة نزل ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عليه الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً[2] ﴾ ، جملة واحدة كما عهدوا في الكتب السابقة ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ يعني : نزلناه منزلاً حسب الحوادث ؛ لنثبت به فؤادك ، ولو نزل مرة واحدة لكان تثبيتًا واحدًا ، والرسول ﷺ تعرض لأحداث كثيرة ، كل حدث منها يتطلب تثبيتًا ، ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ .

ومعنى ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ : لأن القرآن متعبد بتلاوته ، فلا تنزل كلمة إلا اجتمعت الألسنة كلها على قراءتها .

ولابد أن يظل الأمر إلى أن يفرق : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ على النَّاسِ على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ .

هنا تأتي مسألة أيضًا ، وهي : أن يأتي **جبريل** ، ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[3] ، إذن ، نزله مضافًا إلى الحق مرة : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾[4] ، ومرة تأتي إلى **جبريل** ، على أن (نزل) فيها المشارك من الآمر به ، ومن النازل به ، ومرة يسند الفعل إلى المباشر ، ومرة يسند إلى الآمر به ؛ لأن المباشر لم ينزله من

---

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 106 .

2 – سورة : الفرقان ، الآية : 32 .

3 – سورة : البقرة ، الآية : 97 .

4 – سورة : آل عمران ، الآية : 3 .

قِبَل نفسه ، بل بأمر الله ﷻ وبتقديره ، فحين يفعل إنما يفعل بأمر الله ﷻ ، وهذه نجدها في القرآن ظاهرة موجودة في كثير من الأفعال .

وعندما أمر الحق ﷻ القلمَ أن يكتب القرآن في اللوح المحفوظ أبرزه من عالم الغيب المطلق إلى عالم الشهادة ، فأصبح ظاهرًا ، لمن ؟ للصفوة ، وإن كان غائبًا عن **جبريل** ، لا يزال بالنسبة **لجبريل** في عالم الغيب ، وبعد ذلك حين تنزل به على **جبريل** ، يصبح عند **جبريل** عالم شهادة ، ويصبح عند **محمد** ﷺ في عالم الغيب .

وحينما يتنزل به **جبريل** على رسول الله ﷺ قبل أن يبلغه ، كان بالنسبة لنا عالم غيب ، وبالنسبة له عالم شهادة ، وحين يبلغه تصبح الشهادة مطلقة .

إذن ، فالمراحل : أنزله الحق من عالم الغيب ما لا يعرفه أحد إلا الله ، وبعد ذلك أنزله إلى اللوح المحفوظ ، فإذا قال الله : أنزله ، أي : يريد الإنزال الأول ، أي : من عالم الغيب إلى أول مراتب عالم الشهادة .

فأنزل الله ﷻ الإنزال الأول ، ولكن هذه هي آخر مظهر من مظاهر عالم الشهادة ، فكأن الملحوظ هنا هو أن يتقبل العبد ما أنزل من الحق ، يتقبله على أنه نازل من الحق مباشرة ، وكأنه يستمع من الله ﷻ مباشرة ، ويلغي الوظائف كلها .

ولذلك ورد عن **سيدنا جعفر** ﷺ أنه قال : عجبت لمن خاف .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[1] ، فإني سمعت الله ﷻ يعقبها فيقول : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾[2].

وهو يقصد بذلك الوصف الإيماني لأحوال النفس البشرية ، فالذي يقلق الإنسان في حياته هو أن يخاف شيئًا ، أو أن يهمه شيء .

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 173 .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 174 .

والفرق بين الخوف والهم : أن الخوف يكون من شيء معلوم ، أما الهم فهو ما قد يدخل على القلب من شيء غير معلوم ، كأن يخاف أن يُمكَر بـه ، فهذه هي أحوال البشرية ، خوفًا ، وهمًّا ، ومكرًا ، وغير ذلك ، والسبب هو الدنيا .

فهو يريد من الإنسان بمجرد أن تأتيه تلك الحالة أن يفزع ويرجع إلى مأمنه .. ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ، لأنها قد أتى بعدها : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ ، فكأنه جاء بالأمن ، ثم جاء بالدليل ، ثم جاء بالحيثية .

ثم يقول ﷺ : وعجبت لمن اغتم .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] ، وعجبت لمن مُكر بـه .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾[2] ، فإني سمعت الله ﷻ عقبها يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ﴾[3] ، وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها .. كيف لا يفزع إلى قول الله ﷻ : ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾[4] ، فإني سمعت الله يقول في عقبها : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾[5].

إذن فالشاهد في قوله ﷺ : فإني سمعت الله .. فمعنى سمعت الله أي أنه قد التحم بالإنزال الأول في هذه الآية من القرآن .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. يبين لنا الحق ﷻ في مجموع ما أوصله رسول الله ﷺ إلينا أنه ﷻ قد خلق الزمان والمكان ، ثم فضل ﷻ الأزمنة والأمكنة ، ثم الإنسان الذي خلق له الزمان والمكان ، فإذا اصطفى الحق نوعًا من الخلق فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 87 .

2 - سورة : غافر ، الآية : 44 .

3 - سورة : غافر ، الآية : 45 .

4 - سورة : الكهف ، الآية : 39 .

5 - سورة : الكهف ، الآية : 39 ، 40 .

فالزمان فيه مصطفيات ، والأمكنة فها مصطفيات ، وفي الإنسان مصطفيات ، وفي الملائكة مصطفيات .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي ﴾[3] ، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ على نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[5] .

فإذا قال الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ فقد أخذت القدر والشرف والعظمة بإنزال القرآن فيها ، لا أن الله اختار نزول القرآن فيها لأنها ذات القدر .

والذي يدل على ذلك هو أن ليلة القدر التي نزل فيها القرآن لم تبدأ هنا في نزول القرآن ؛ لأن الله ﷻ له قدَر في تقدير النزول ، وليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن .

فكأن الليلة التي اختارها الله ﷻ ليفرق فيها كل أمر حكيم ، اختارها أيضًا لنزول القرآن ، فيبقى اختيار الليلة ، فقد كان لها قدر ، بعضهم يرى أنها جاء لها القدر بنزول القرآن .

ولم تأتِ لها ليلة أخرى تأخذ منها ؛ لأنه كان من الممكن أن يترك هذه الليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم ، ثم يسرد القرآن ، ولكنه قال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. فليلة القدر هي الشرف والعظمة والرفعة و... و... إلى آخر الأشياء العظيمة ، وطالما أنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، والأمور الحكيمة كانت قبل نزول القرآن ، وبعد نزول القرآن ؛ ولذلك فستظل

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 75 .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 33 .

3 – سورة : الأعراف ، الآية : 144 .

4 – سورة : آل عمران ، الآية : 43 .

5 – سورة : آل عمران ، الآية : 42 .

أيضًا بعد نزول القرآن ؛ ولذلك فنحن نلتمس هذه الليلة .

وإن أخذت المعنى بالتقدير فله معنى ، وإن أخذته بالقدر فله معنى الشرف ، والعظمة ، فالليلة التي اختيرت ليفرق الله فيها كل أمر حكيم تكون لابد أنها هي هذه اليلة ؛ لأن جميع الزمن الذي هو غير الليلة سيكون خاضعًا في أموره لما نزل في تلك الليلة ، فإذا ما أراد الله ﷻ أن يبرز كلامه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، فإنه يختار ﷻ الليلة التي فيها يفرق كل أمر حكيم ؛ لأن هذا هو رأس الفرقان .

والذي حدث في ليلة القدر هو أن القرآن نزل بداية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وتنزله أيضًا إلى السماء الدنيا كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك كل الآيات التي تنزل في هذه السنة تكون في كل ليلة قدر ، فالإنزال الأول الذي هو إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة كان في ليلة القدر ، وبعد ذلك إنزاله إلى السماء الدنيا حتى يباشر مهمته في الوجود أيضًا كان في ليلة القدر ، وبعد إكمال نزوله في كل عام يبقى في ليلة القدر ، ولا يعني ذلك أن بداية إنزاله لنا كانت في ليلة القدر ؛ لأن العلماء يقولون طالما هناك ليلة القدر فلابد أن أول آية منه نزلت في ليلة القدر ، ولا يكفي أن يكون نجمها النجم الذي نزلت في ليلة القدر ، إذن ، فليلة القدر مواكبة لإنزال القرآن ، ولنزول القرآن ، ولتنزيل القرآن ، الأول من (**أنزل**) ، والثاني من (**نزل**) ، والثالث من (**تنـزل**) .

فهي إذن مواكبة الخط الأول ، إنزال من عالم الغيب إلى عالم الشهادة الأولى ، وبعد ذلك ما عداه ، هو إنزال من الله إلى العالم الثاني المشاهد .

فالقرآن نزل أولاً من الحق في أول مشهد ، ثم بعد ذلك نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل على **جبريل** كل عام ، وبعد ذلك نزل به **جبريل** في كل وقت .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ .. وإذا سألت لم خص الليل بالإنزال دون النهار ؟! كان الجواب : لأن الليل محل السكون والهدوء ، والنهار محل الحركة والضجيج ، وهذه الحركة



تجعل مواهب الإنسان موزعة ، أما في حالة السكون والهدوء فتكون النفس مهيأة لاستقبال الأمر .

ولذلك فإن القرآن يقول : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ ، لأن النفس مهيأة ليس عندها مشاغل ، بل سكون وهدوء ، ليس هناك حركة ، ولا حياة ، ولا ما يشتت انتباهك ، فالإنسان دائما في الليل يكون خاليًا بنفسه ، وما أهمية الخلوة في تدبر القرآن ؟ لأن الإنسان إذا كان مع الناس فإن أفكاره تأخذ من أفكارهم ، وتأخذ أفكارهم من أفكاره ، لكن الإنسان إذا كان وحده فإنه يستطيع أن يخلو بنفسه وبفكره ؛ ولذلك خص وقت الإنزال بالليل .

كذلك فإن الحق ﷻ لما خلق الأشياء خلق ليلاً ونهارًا ، وجعل الليل أمرًا سلبيًّا ، ومعنى سلبي : أنه لا يظهر شيء حين يأتي الليل ، بل تختفي أشياء حين يحل الليل ، فالنهار يأتي عندما تطلع الشمس ، أما الليل فهو عملية سلب ، سلب الشيء ، وإيجاب الشيء ، فرق بين الاثنين ، فسلب الشيء يعني : أن الشيء رجع على طبيعته ، كأن تقول : لولا ذلك المصباح لكانت ظلمة ، أي : إنها جاءت إيجابية في إيجاد الضوء ، الإيجابية في إيجاد الضوء هي تهيئة نهار مسطع ليناسب حركة الحياة ، والضرب في الأرض ، والمعايشة ؛ ولذلك فحينما امتدح الله ﷻ أقوامًا امتدحهم بقيام الليل ؛ لأن الليل أعون على الخلوة ، فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات وَعُيُون * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1] ، فالذي أخذ فضل ربه نهارًا ، لا يجد له إلا الليل الذي هو خال فيه ؛ لأنه أبعد عن الرياء والسمعة ، فلا أحد يراك إلا الله .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. تعني أنها شيء فوق

---

1 ـ سورة : الذاريات ، الآية : 15 ـ 18 .

إدراكك ، لو لم تدرك لأعطيناك نحن الإدراك فيها ، وكأنه شيء بالذاتية لا يُدرك ولا يُفهم ، وحيث إنه بالذاتية لا يُفهم ، يكون معناها أنها تضمنت فوق المدلول الذي هو بالوضعية ، ولو أن معناها هو اللفظ العربي لكان فهمها **محمد** ﷺ ، وكل فاهم للعربية يدرك ليلة القدر .. ليلة الشرف والعظمة ، فنقول له : لا تفهم أنها كذلك فحسب ؛ لأن فيها من الأسرار والإشراقات والأنوار والأنوال ما لا يتسع اللفظ اللغوي لإعطائك إياه ، وأنتم في معاملاتكم بالألفاظ تتفاهمون على المعاني المتعارف عليها ، وهذا المعنى علمه عند الله ﷻ ، فلا تأخذ المعنى اللغوي في اللغة المعروفة المتداولة ، ولكن خذ المعنى من الله ﷻ ؛ لأنه يعلم لها أمرًا زائدًا عن مدلول معناها اللغوي الذي يفهم من الخطاب .

﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ .. وهنا وُجد إشكال بين العلماء ، فقالوا : إنهم يفهمون التوقيت اليومي بالشمس ، والتوقيت الشهري بالقمر ، ثم بعد ذلك يحسبون العام وهو يتكون من اثنتي عشرة وحدة من الشهر القمري ، فأول ما جاء من اعتراضات قالوا : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ ، وليلة القدر أنزل ربنا فيها القرآن ، وهو قال : ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾[1] ، فقد تحدد مقام الليلة من الشهر ، وحيث إنه تحدد مقام الليلة من الشهر ، فإن ألف شهر يكون فيهم ثلاثة وثمانون رمضان ، فعندما نقول : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ ، لابد أننا نستثني ليلة القدر من هذه الألف شهر ، وإلا يكون الشيء مفردًا مفضلاً على نفسه مجموعًا .

فيكون معنى : ﴿ **لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ .. أي : ليس فيها ليلة القدر ، هذه الآلاف كانت عند العرب أكثر عددًا ، ولذلك قال ﷻ : ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾[2] ، فكأن كلمة ألف أكثر العدد عندهم .

---

1 - سورة : البقرة ، الآية : 185 .

2 - سورة : البقرة ، الآية : 96 .

وروي أن النبيﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لَبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعَجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل اللهﷻ : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر[1] .

وعن **مجاهد** قال : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل[2] .

وعن **علي بن عروة** قال : ذكر رسول اللهﷺ يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عامًا ، لم يَعْصوه طرفة عين : فذكر **أيوب** ، **وزكريا** ، **وحزقيل بن العجوز** ، **ويوشع بن نون** .. قال : فتعجب أصحاب رسول اللهﷺ من ذلك ، فأتاه **جبريل** فقال : يا **محمد** ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يَعْصُوه طرفة عين ؟! فقد أنزل الله خيرًا من ذلك .. فقرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك .. قال : فَسُرَّ بذلك رسول اللهﷺ والناس معه[3] .

وقال جماعة غيرهم : الحادثة أن رسول اللهﷺ كان فيما يحدث به : أن بعض بني إسرائيل ظلوا يعبدون الله ثمانين عامًا ، فبعد ذلك وجد تقصيرهم .

وقد كان السابقون لا يسمون الرجل عابدًا إلا إذا مر عليه ثمانون سنة يعبد اللهﷻ ولا يعصي الله أبدًا .

---

1 – أخرجه ابن أبي حاتم (12 / 434) عن مجاهد .

2 – تفسير الطبري (30 / 167) .

3 – الدر المنثور للسيوطي (8 / 569) .

فكأن الحق ﷻ إكرامًا لرســول الله ﷺ ، وإكرامًا لأمته أعطاه هذه الليلة ، بحيث إذا وفق الإنســان إلى العمل فيها .. قـيامًا ، واحتسـابًا لله ﷻ غفر له ما تقـدم من ذنبـه ، وكأنه يأخذ فضيلة الذين عبدوا الله ﷻ تلك السنين الطوال .

وعلى كل حال .. سواء كان الأمر الأول ، أو الأمر الثاني ، أو هي مجتمعة ، فقد دلتنا على أن الحق ﷻ قد بين أنها : ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

ثم أراد الحق ﷻ أن يعطينا شيئًا عن ليلة القـدر ، فيكون المعنى الذي أخذناه : أن القرآن أنزل في ليلة القـدر إنزالاً أوليًا ، وتنزيلاً .. ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .. أعطانا ﷻ حكمًا عامًا في ليلة القدر ..

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. وهنا قـد يتسـاءل العقـل فيقـول : إن العطف دائمًا يقـتضي المغايرة ، ومعنى اقـتضاء العطف المغايرة : أن يكون الثاني مغايرًا للأول ، فيجاب على هذا الاستفهام بأنه قـد يكون خاصًا من الأول ، أو عامًا منه : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [1] ، فقـد لا يكون الثاني مغايرًا للعمومات عن الأول ، بل مغايرة الخصوصية عن الأول ، بمعنى أن تكون له خصوصية دائمة ، فالملائكة معروفون ، والذين يتنزلون هم المدبـرات ، ومعناها : أنهم هم الموكلون بمصالحنا ، فالملائكة أنواع : كنوع من الملائكة مثلاً اسمهم العالون ، والعالون ملائكة ليسـوا مشـغولين بشـيء من الخلق ، ليس لهم عمل إلا الحق ﷻ فقـط ، ولذلك عندما اسـتكبر إبـليس عن السـجود لآدم قـــال الحق ﷻ له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [2] ، أي : أسـتكبرت عن السـجود ؟ أم أنك من أولئك العالين الذين لم يشـملهم أمر السجود ؟ فهؤلاء العالون ليس لهم عمل أبدًا فيما يتعلق بـالخلق ، عملهم كله موصول بـالحق ﷻ ، فأمر السجود لا يشمل هؤلاء .

1 – سورة : نوح ، الآية : 28 .

2 – سورة : ص ، الآية : 75 .

وقول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يدل على أنهم نزلوا لأمر معين ، وحيث إنهم نزلوا لأمر ، فهؤلاء إذن من المدبرات أمرًا ، يعني : المتعلقين بالخلق .

والروح في : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ .. قال العلماء : الروح نوع من الملائكة ، هم بالنسبة للملائكة كالحفظة ، بمعنى أنه نوع متميز عن الملائكة ، أو الروح المراد به جبريل كقول الحق ﷻ : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[1] ، فقد يحتمل هذا أو ذاك ، ويحتمل تنزل الملائكة والروح فيها تنزلاً بإذن ربهم من كل أمر ، وهنا جاء بالأسلوب الكلي ، والأسلوب الكلي يدل على الاستغراق ، فإن قيل : لم قال : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .. الأمور هي التي بها يدار نظام الكون ، نظام الكون يحتاج أمورًا تتعلق برزق .. من الأمطار التي ينشأ منها الخصب ، وأمورًا تتعلق بالحروب ، والويلات ، والنكبات بالموت ، وأمورًا تتعلق ببقية الأعمال .. فكل ملك له مهمة بالنسبة لأهل الأرض .

لكن الصواب أن قول الحق ﷻ : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يفهم على هذا الوضع ، إذن ، يقدر فيها أمورًا ، كالموت الذي يحدث هذه السنة ، والمصائب ، وعدد المواليد ، والوفيات ، والخصب ، والرخاء ، والشدة ..... وغير ذلك ، فمن هذه الأمور ما هو خير ، ومنها ما هو شر .

﴿ سَلامٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. نقول : قد تظن أنت مراد الحق مصيبة ، ثم تجد أن كله خير ، فقد قال الحق ﷻ : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[2] ، فقد كانت إذن حرب ، ولكنها كانت من ضمن سلام الأرض .

---

1 – سورة : الشعراء ، الآية : 193 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 251 .

وكما يقول شوقي :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواءُ

فإن لم يكن الله ﷻ يدفع الناس بعضهم ببعض لما تهيأ السلام في هذه الأرض ؛ ولذلك يدفع الله الناس بعضهم ببعض .

ولا يحصل السلام إلا بوجود قوتين معًا ، فلو صارت قوة واحدة منفردة تستبد ، وإنما تمتنع خوفًا من قوة ثانية ، وهذا هو التوازن ، يدفع هذا بهذه ، ويدفع هذه بتلك .

وأيضًا المصائب ، والأحداث التي يخشاها الناس ، لماذا يظنون أنها ابتعاد عن السلام ؟! فما هو السلام ؟ إن (**السلام**) هو الأمن ، والاطمئنان ، والاستقرار ، والهدوء ، فالسلام يكون مع الإنسان بالنسبة لربه في عقيدته ، سلام مع نفسه وملكاته ، ومع المجتمع الذي يعيش فيه .

ففي الجدب مثلاً ، كيف يكون في الجدب سلام ؟ نقول : لم يكن ذلك ؛ حتى لا يطغى الناس ، ويظنوا أن الأمر لهم وبأيديهم ، كما قال أحد زعماء بعض الدول : الآن ستروي السدود أرضكم ، أمطرت السماء أم لم تمطر .

ليس كل ما تستطيبه نفسك سلام ، ولكن الذي يعدل النفس البشرية عن طغيانها ، وتمردها ، وغرورها ، وعن كل ما تعلم ، هذا عين ميزان السلام .

ولذلك فلابد للإنسان إن أراد أن يفسر الأحداث أن يفسرها حين لا يكون له يد فيها ، فيفسرها بالنسبة لحكمة الحق ﷻ ، لا بما تستطيبه نفسه ، إن كنت مثلاً أسرفت على نفسي في شيء ، ثم ابتليت بمرض ، فقد كفر الله عني ، ألا يكون ذلك سلامًا ؟!

إذن .. فيجب أن تقاس الأمور بإسنادها إلى حكمة الحق ﷻ ، وأنه لا يريد مني إلا التوكل عليه ﷻ ، ولذلك قال الحق ﷻ في **سورة آل عمران** : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ**

إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وإتيان الملك خير في أعرافنا ، ولكن نزعه ليس كذلك ، الإعزاز خير في أعرافنا ، ولكن الإذلال شر في أعرافنا نحن ، ولكن عند الحق ﷻ قال : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ ، نعم ، بيدك الخير ، الصور الأربع : إيتاء الملك .. نزع الملك .. خير الإعزاز .. خير الإذلال ، فيكون إذن كل ما يجري به القدر ، استطابته نفسك ، أو لم تستطبه ، فإنما هو من مقدرات خير الله ﷻ .

وعن **سعد بن أبي وقاص** قال : قلت : يا رسول الله .. أي الناس أشد بلاء ؟ قال : **" الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل من الناس ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة "**[2] .

وقد تكون كلمة : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .. أن الملائكة ينزلون للتسليم على المؤمنين ؛ لأن ذلك يعتبر بالنسبة لهم تشريفًا عظيمًا ، وارتباطًا قويًّا بالرسالة المحمدية ، وبنزول القرآن الكريم ، وبهذه الليلة المباركة التي أُعطوها ، وهي خير من ألف شهر ، والأحياء دائمًا في المناسبات السعيدة يسلمون على بعضهم البعض ، ويقال : إنهم ينزلون فيودعهم **جبريل** الأرضَ ، فلا يبقى بيت فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخلوا فسلموا عليه .

نسأل الله ﷻ أن نكون من أهل السلام في ديننا ودنيانا ، وفي آخرتنا .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .



---

1 - سورة : آل عمران ، الآية : 26 .

2 - مسند أحمد (3 / 410) .


عم
تفسير جزء






سورة
البينة



سورة البينة

أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة البينة** . . هذه السورة التي تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري مهيب . .

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة : ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ** ﴾ . .

والحقيقة الثانية: هي أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة : ﴿ **وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ .

والحقيقة الثالثة: هي أن الدين في أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ .

والحقيقة الرابعة: هي أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن أولئك اختلافًا بينًا :

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ..

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ، ودور الرسالة الأخيرة ، وفي التصور الإيماني كذلك ، كما سيأتي تفصيل ذلك .

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ..

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة .. وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعًا .. سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة .

﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ .. مطهرة من الشرك والكفر .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .. والكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقـــــال : كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وكتاب القدَر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهي هذا القرآن – فيها كتب قيمة ، أي موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها ، وجاء هذا الرسول في وقته ، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثًا لا تصلح الأرض إلا به.

فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم **السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي** ، بعنوان : " **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** " .. وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه .

جاء في الفصل الأول من الباب الأول :

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي ، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها ، وشدة في إسفافها ، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وفقد قوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، وقد خفتت دعوة الأنبياء منذ زمن ، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدها ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلاً عن البيوت ، فضلاً عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارًا بدينهم من الفتن ، وضنًّا بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، فرارًا من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة ، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل ..



" أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعًا صافيًا من الدين السماوي ، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري " .

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية ، وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾[1] ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾[2] ، وقوله عن اليهود : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[3] ، وقوله عن النصارى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[4] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾[5] ، وقوله عن المشركين : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[6] .. وغيرها كثير .

---

1 – سورة : التوبة ، الآية : 30 .
2 – سورة : البقرة ، الآية : 113 .
3 – سورة : المائدة ، الآية : 64 .
4 – سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .
5 – سورة : المائدة ، الآية : 73 .
6 – سورة : الكافرون .

كان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض .

" وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " .

ومن ثم اقتضت رحمة الله ﷻ بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة ، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين .

ولما قرر الحق ﷻ هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد ، إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم ..

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .. وكان أول التفرق والاختلاف هو ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى عليه السلام فقد انقسموا شعبًا وأحزابًا ، مع أن رسولهم هو موسى عليه السلام ، وكتابهم هو التوراة ، فكانوا طوائف خمسة رئيسية ، هي طوائف : الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسيين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة منها سمة واتجاه ، ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن المسيح عليه السلام هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم ، وقد جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم ، وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغّضهم (أي اليهود) إلى النصارى وبغض النصارى إليهم ، وشوه سمعتهم .. ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610 م) أوقع اليهود بالنصارى في أنطاكية ، فأرسل الإمبراطور قائده " أبنوسوس " ليقضي على ثورتهم ،



فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعًا .. قتلاً بالسيف ، وشنقًا ، وإغراقًا ، وإحراقًا ، وتعذيبًا ، ورميًا للوحوش الكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال المقريزي في كتاب الخطط : " وفي أيام " فوقا " ملك الروم ، بعث " كسرى " ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبيًا لا يدخل تحت حصر ، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ، وأقبلوا نحو الفُرس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيستين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيرًا من أصحابه " .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح القدس : " فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو عشرين ألفًا ، وهدموا كنائس النصارى خارج صور ، فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم ، فانهزم اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا لها الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ، ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خرابًا ، فساءه ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قيامًا كبيرًا في قتلهم عن آخرهم ،

وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق في مماليك الروم والشام إلا من فر واختفى " .

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى ، من القسوة والضراوة بالدم الإنساني ، وتحين الفرص للنكاية في العدو ، وعدم مراعاة الحدود في ذلك .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد ، تفرقوا واختلفوا أولاً في العقيدة ، ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقابلة ، وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح عليه السلام وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية ، وطبيعة أمه مريم ، وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه الله في زعمهم ، وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[1] ، ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾[2] ، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾[3] .

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين " الملكانية " ، و" المنوفوسية " بلفظ أصح ، فكان شعار الملكانية هو عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي

---

1 – سورة : المائدة ، الآية : 17 ، والآية : 72 .

2 – سورة : المائدة ، الآية : 73 .

3 – سورة : المائدة ، الآية : 116 .

الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء .

وحاول الإمبراطور **هرقل** (610 – 641 م) بعد انتصاره على الفرس سنة 638 م جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة ، أو قضاء واحد ، وفي صدر عام 631 م حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثيلي مذهبًا رسميًّا للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية ، وصمم **هرقل** على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيها ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد **قيصر** في مصر استمر عشر سنين ، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقًا ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر .. إلى غير ذلك من الفظائع .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعًا ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ** ﴾ .. فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ، إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف ، على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة ..

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .. وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .. ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

عقيدة خالصة في الضمير ، وعبادة لله تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال في سبيل الله وهو الزكاة .. فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقق الإيمان كما أُمر به أهل الكتاب ، وكما هو في دين الله على الإطلاق .. دين واحد .. وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسالات ، ويتوافى عليها الرسل .. دين لا غموض فيه ولا تعقيد ، وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهي بهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير .

فأين هذا من تلك التصورات المعقدة ، وذلك الجدل الكثير ؟! فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم ، ثم جاءتهم البينة ، حية في صورة رسول من الله يتلو صحفًا مطهرة ، ويقدم لهم عقيدة واضحة بسيطة ميسرة ، فقد تبين الطريق ، ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

إن **محمدًا** ﷺ هو الرسول الأخير ، وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة ، وقد



كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض ، لترد الناس إلى الصلاح ، وكانت هناك فرصة بعد فرصة ، ومهلة بعد مهلة لمن ينحرفون عن الطريق ، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك ، ذلك لأن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، والإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال ، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم .. ما دامت تقوم على غير إيمان بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير .. لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .. حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال ، ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال ، إنه الإيمان ، لا مجرد مظهر في أرض تدعي الإسلام ، أو في بيت يقول : إنه من المسلمين ، ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ، إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة ، والدليل على ذلك أنهم : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .. وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه فحسب ، والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل ، وفي أولها إقامة شريعة الله الملك الحكم الحق في الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله ﷻ ، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ .. جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات ، والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طيبات الأرض .. كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو

يلقي ظلال النداوة والحياة والجمال .. ثم يرتقي السياق درجة ، أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم ..

﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. هذا الرضا من الله ﷻ ، وهو أعلى وأندى من كل نعيم ، وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم .. الرضا عن قدره فيهم ، والرضا عن إنعامه عليهم ، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم ، الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق .. إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته .. ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .. حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .. وذلك هو التوكيد الأخير .. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله ﷻ ، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف .. الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريًا أمام الواحد القهار ، والذي يخلص العبادة ، ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره .

فالذي يخشى ربه حقًّا لا يملك أن يجعل في قلبه ظلاًّ لغيره من خلقه ، وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك ، فإما عمل خالص له ، وإلا لا يقبله .

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة القصيرة ، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار .

نسأل الله أن يرزقنا الرضا في أمورنا كلها ، وأن يرضينا ، وأن يرضى عنا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .






تفسير جزء عم




سورة الزلزلة







أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة الزلزلة** . . تلك السورة القصيرة التي ما إن تطالعها حتى تجدها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي .

وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار .

وهذا هو طابع هذا الجزء كله ، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قويًّا . .

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ . . إنه يوم القيامة ، حيث

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

ترتجف الأرض الثابتة ارتجافًا ، وتزلزل زلزالاً ، وتنفض ما في جوفها نفضًا ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً ، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التي حملتها طويلاً .

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ، ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ، مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتًا باقيًا ، وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة .

ويزيد هذا الأثر وضوحًا بتصوير (**الإنسان**) حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده ..

﴿ وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ .. وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذي يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت .. مالها ؟! ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجًّا ؟! مالها ؟! وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ، ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور مورًا شديدًا .

و(**الإنسان**) قد شهد الزلازل والبراكين من قبل ، وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، ويصيبه بها الهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبهًا بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا ، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به ، أمر لا يعرف له سرًا ، ولا يذكر له نظيرًا ، أمر هائل يقع للمرة الأولى .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشدَه أمامه الإنسان .. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها ، لقد كان ما كان لها بأمر ربها ، وأمرها أن تمور مورًا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ، فأطاعت أمر

ربها ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[1] ، فهي تحدث أخبارها ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهنا .. والإنسان مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعًا ورعبًا ، ودهشة وعجبًا ، واضطرابًا ومورًا .. وهنا .. والإنسان لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها .. مالها ؟! هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء .. وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور ..

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ .. نرى مشهدهم شتيتًا منبعثًا من أرجاء الأرض .. ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ .. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل .. مشهد الخلائق في أجيالها جميعًا تنبعث من هنا ومن هناك .. ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾[2] .. وحيثما امتد البصر رأى شبحًا ينبعث ثم ينطلق مسرعًا .. لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾[3] .. ممدودة رقابهم .. شاخصة أبصارهم .. ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[4] .. إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر .. هائل مروع .. مفزع .. مرعب .. مذهل .. كل أولئك الكلمات وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئًا مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك ، وفي حدود ما يطيق .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ؛ ليواجهوها ويواجهوا جزاءها ، ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانًا أقسى من كل جزاء ، وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير ، فكيف به

---

1 – سورة : الانشقاق ، الآية : 2 .

2 – سورة : ق ، الآية : 44 .

3 – سورة : القمر ، الآية : 8 .

4 – سورة : عبس ، الآية : 37 .

وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟!

إنها عقوبة هائلة رهيبة .. مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ، ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .. ذرة .. وكان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس .. فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة .

أما الآن فنحن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي تُرى في ضوء الشمس ، فالهباءة تُرى بالعين المجردة ، أما الذرة فلا تُرى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل ، إنما هي (رؤيا) في ضمير العلماء ، لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره ، وكل ما رآه إنما هو آثارها .

فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تُحضر ويراها صاحبها ، ويجد جزاءها .

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئًا من عمله ، خيرًا كان أو شرًّا ، ولا يقول : هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن .. إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل .

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض .. إلا في القلب المؤمن .. ذلك القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر ، وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر ، ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال .

إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب .

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا هذه القلوب الطاهرة النقية التي تهتز بمثقال الذرة من الذنوب .. إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

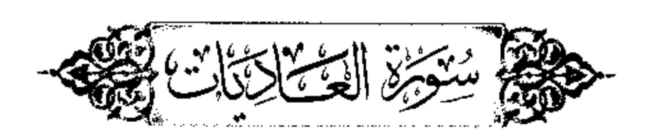

تفسير جزء
عم




سورة
العاديات







أحمدك ربي ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد ، رحمة الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبعد . .

فمع **سورة العاديات** . . تلك السورة التي يجري سياقها في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزًا وركضًا في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ، كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف .

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار .

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد . . ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور .

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثرة والجمع . . إلى نهايتها جميعًا . . إلى الله ﷻ . . فتستقر هناك : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ .

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارًا مناسبًا ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

فجأة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار .. فكان الإطار من الصورة ، والصورة من الإطار .

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

﴿ وَالْعَادِيَات ضَبْحًا * فَالْمُورِيَات قَدْحًا * فَالْمُغِيرَات صُبْحًا ﴾ .. يقسم الله ﷻ بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري ، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار .. غبار المعركة على غير انتظار ، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

﴿ فَأَثَرْنَ به نَقْعًا * فَوَسَطْنَ به جَمْعًا ﴾ .. إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة ، والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته ﷻ إليها .

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا ، أما الذي يقسم الله ﷻ عليه ، فهو حقيقة في نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان ، حقيقة ينبهه القرآن إليها ؛ ليجند إرادته لكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه ،

وثقل وقعها في كيانه .

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله ، ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة ، وكأنه يشهد على نفسه بها ، أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود .. ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .. فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالاً وسلطة ومتاعًا بأعراض الحياة الدنيا .

هذه فطرته ، وهذا طبعه ، ما لم يخالط الإيمان قلبه فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ، ويحيل كنوده وجحوده اعترافًا بفضل الله وشكرانًا ، كما يبدل أثرته وشحه إيثارًا ورحمة ، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح ، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا .

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير ، حقير المطامع ، صغير الاهتمامات ، ومهما كبرت أطماعه ، واشتد طموحه ، وتعالت أهدافه ، فإنه يظل مرتكسًا في حمأة الأرض ، مقيدًا بحدود العمر ، سجينًا في سجن الذات ، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ، وأعظم من الذات ، عالم يصدر عن الله الأزلي ، ويعود إلى الله الأبدي ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء .

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ؛ لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه ، مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر ..

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ .. وهو مشهد عنيف



مثير ، بعثرة لما في القبور ، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير ، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيدًا عن العيون ، تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي .. فالجو كله عنف وشدة وتعفير .

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟! ولا يذكر ماذا يعلم ؟! لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر ، ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب .

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء ، وكل أمر ، وكل مصير ..

﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ .. فالمرجع إلى ربهم ، وإنه لخبير بهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، وبأحوالهم وأسرارهم ، والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال ، ولكن لهذه الخبرة ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام .. إنها خبرة وراءها عاقبة ، خبرة وراءها حساب وجزاء ، وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام .

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر ، حتى ينتهي إلى هذا القرار ، معنى ولفظًا وإيقاعًا ، على طريقة القرآن .

نسأل الله العلي القدير أن يقينا هذا اليوم ، وأن يرزقنا قلوبًا طاهرة نقية من الذنوب . . إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .







سُورَةُ القَارِعَةِ







بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي
وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد ..

فمع **سورة القارعة** .. تلك السورة القصيرة .. التي تتحدث عن يوم القيامة وكأنك تراه رأي العين .. حقيقتها .. معناها .. ما يقع فيها .

والقارعة من أسماء يوم القيامة ، كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، وكلمة ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. توحي بالقرع واللطم ، فهي تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها تتحدث عن هذه القارعة .. حقيقتها .. وما يقع فيها .. وما تنتهي إليه ، فهي تعرض مشهدًا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال ؛ فيبدو الناس في ظله صغارًا ضئالاً على كثرتهم ، فهم .. ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .. مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفًا ، وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ، فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ، وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدًا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء .

* مقدمة تفسير السورة والفقرة الأولى مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ .. هكذا بلا خبر ، ولا صفة ، لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب .

ثم أعقبها سؤال التهويل : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل .

ثم أجاب بسؤال التجهيل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، أو أن يلم بها التصور .

ثم تأتي الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها ، فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ .. وهذا هو المشهد الأول للقارعة ، مشهد تطير له القلوب شعاعًا ، وترجف منه الأوصال ارتجافًا ، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء .



فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. إذا كان الميزان هو الميزان المادي ، فلهذه العلة ، أما إذا كان أمرًا معنويًّا ، فلماذا اختار له كلمة الميزان ؟! لأنه أضبط شيء في تقدير الأمور ضبطًا غير متهم ، ولذلك نجد أن القاضي حين يجلس في مجلس قضائه يرسم فوقه الميزان ، وهل في القضاء ما يوزن بالميزان المادي ؟! كلا ، ولكنها أشياء معنوية ؛ كي يتذكر دائمًا أنه يعطي الحق عن الحق ، وألا يجعل عاطفته مائلة ، أو مريضة ، فميزان الحديد لا يجامل أحدًا ، ولا يحابي أحدًا ، فكأني عندما أوصيك بالميزان ، أوصيك بأن تكون في عواطفك مثل الحديد تمامًا ، وإياك أن يكون لك هوى ، وهذه مسألة دقيقة بالنسبة للتكوين البشري .

ولذلك كان كثير من العلماء يمتنعون عن القضاء ؛ لأنه لا يستطيع أن يكون بهذا الشكل ؛ لأن العواطف لها تأثير بلا شك .

فنجد في تاريخ القضاء من يأتي من القضاة إلى الخليفة ويقول : يا أمير المؤمنين ، اعزلني عن القضاء ! فيقول له : ولم ؟! هل نجد أعدل منك ؟! فيقول : يا أمير المؤمنين ، شاع عند الناس أني أحب الرُّطَب ، فبينما أنا في بيتي إذ طرق طارق ، فخرج خادمي ، ثم عاد إلي بطبق فيه رطب ، وكان في بواكيره ، فسألته : من جاء به ؟ فقال : رجل صفته كذا وكذا ، قلت : رده إليه .. وذلك يا أمير المؤمنين لأني أنظر في قضية بينه وبين خصم له ، فخشيت أن يكون قد دخل عليَّ من هذا الباب ، وهو حبي للرطب ، فلما أصبحت ، وجلست مجلس

القضاء ، إذا بالرجل يدخل ومعه خصمه ، فوالله يا أمير المؤمنين ، ما استويا في نظري ، رغم أني رددت الطبق ، فما بالك لو كنت قد أخذته ؟!

هذه هي الدقة ، الدقة أيضًا : كما لو أن إنسانًا له عواطف ، فقد يقف أمامه رجل خفيف الظل ، فيستلطفه ، فيكون هذا مؤثرًا في حكمه ، إذن ، فالمسألة ليست محكومة ؛ ولذلك فهي مسألة دقيقة .

أما الميزان فلا يأخذ بالعواطف أبدًا ، ومعنى ذلك أن العدالة مضمونة ؛ لأن الميزان لا هوى له ، فهو ميزان بكفتين من حديد ، ولسان من حديد ، وذراع من حديد ، وليس له عواطف ، وأخوف ما يخاف في الحكم ، هو أن تسرق عواطف من يحكم من غير قصد ، فتجعله يميل ولو بلحن الحجة ، فالرسول ﷺ – وهو من هو – يقول : **" إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها "**[1] ..

ومعنى ألحن بحجته ، أي : عنده قوة عرض وإقناع ، وقد يلبس الباطل ثوب الحق ، ويلبس المسألة عليَّ فأحكم له .

وقد عاتب الله داود عليه السلام فقال : **﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾**[2] ، فردَّ داود عليه السلام مباشرة : **﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾**[3] ، فتسلل هذا الخصم على عاطفة داود فأخذها ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا دخل له في حيثية الحكم ؛ فالظلم هو الظلم ، سواء كان له تسع

---

1 – أخرجه البخاري (2483) ، ومسلم (3231) ، كلاهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

2 – سورة : ص ، الآية : 21 ، 23 .

3 – سورة : ص ، الآية : 24 .

وتسعون ، أو ليس له ، فيقول : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ ، وكأن داود عليه السلام قد استكثر أن يكون عند هذا تسع وتسعون ، وعند هذا واحدة فقط ، فأحزنه ذلك ، واسترأف بحاله ، فلو لم يكن عنده النعاج التسع والتسعون ، هل كان يبيح له أن يأخذها ؟!

إذن ، فكلمة ﴿ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ لا دخل لها في الحكم ، ولا في حيثية الحكم ، إنما أُخذ من عرض المسألة : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ ، فبدأ يُدخل في قلب القاضي أن هذا غني ، وهذا فقير ، فتسلل إلى قلب داود وعاطفته من هذه الناحية .

فعندما أراد داود أن يحكم ، لم يحكم في القضية بصرف النظر عن ذلك ، فقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ ﴾ ، وكان ذلك كافيًا ، ولكنه قال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ .. كأنه لو لم يكن له تسع وتسعون لا يكون قد ظلمه !

إذن ، فأدخل في حيثية الحكم ما لا ينبغي أن يدخل فيه ؛ لأن عاطفته انساقت : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ .. أي : اختبرناه بأن عرضنا عليه مسألة ، أي : جعلنا الرجل يحسن العرض ، ويملأ قلبه غيظًا على هذا الغني ، فأدخله في حيثية الحكم ، والمفترض أن القلب لا يتأثر ، فلا يدخل في حيثية الحكم ما ليس في حيثية الحكم .

إذن ، فكلمة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ .. سواء فهمنا أنها الميزان العدل والحق ، أو سواء فهمنا أنها ميزان مادي ، فإن فهمنا أنه ميزان مادي فقد عرفنا المعنى ، وإن فهمنا أنه الحق والعدل ، فلماذا أتى بكلمة ميزان ؟ لأن ذلك يذكرنا بأن الميزان حكم محكوم بأنه لا هوى له مطلقًا ؛ لأن الهوى ينشأ من العواطف والميول ، والحديد من الجماد ، لا عواطف له ، ولا ميول فكأن كل واحد يأخذ حقه .

﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. (العيشة) : هي الحال التي يعيش بها الإنسان ، أي : من



قصر يعيش فيه ، ومن نعم يتنعم بها ، ومن مليس يرتديه ، فهذه اسمها العيشة ، فهي مجموعة الظروف المحيطة بالإنسان التي تُكَوِّن مقومات حياته ومعيشته ، هذه المقومات كلها لا تكون راضية ؛ لأن الرضا فرع وجود الراضي ، فلا أقول مثلاً : المسكن الذى أعيش فيه راضٍ عنى ! ! بل أقول : أنا راضٍ عن مسكنى ... وهكذا .

إذن .. فكلمة : ﴿ رَاضِيَةٍ ﴾ .. نقلت من معناها ، وهي ممن يملك الرضا والعقل والعواطف ، و .... إلى آخره ، إلى من لا يملكه ؛ ولذلك فالعلماء في هذه المسائل يقولون : استعمل اسم الفاعل مكان اسم المفعول ؛ لأن راضية اسم الفاعل الذي وقع منه الرضا ، والمفعول واقع عليه الرضا ، إذن ، فعندما أقول : عيشتي مرضية ، أي : أنا راضٍ عنها ، وهي مرضية ، إذن ، فالقياس أن تقول : عيشة مرضية ، لكن الحق ﷻ قال : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. فهنا اسم الفاعل استعمل وأريد به اسم المفعول ، مثل قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾[1] .. فالحجاب يكون ساترًا ، وليس مستورًا ، لكن القرآن قال : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ! ! بمعنى : ساتر ، فما السبب ؟ السبب هو أن الحجاب نفسه مستور ، أي أن الحجاب نفسه عليه حجاب ساتر ، بلغ من قوة حجبه ، أنه نفسه محجوب ، فما دام محجوبًا ، فكأن الحجاب مركب ، كذلك يقول الحق : ﴿ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[2] ، فنقول : ظل مركب ؛ لأن الظل إذا كان نفسه هو في ظل ، فيكون هناك حاجزان بالنسبة للشمس ، وما دام هناك حاجزان بالنسبة للشمس ، فهذا أوقع في أداء الظل .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، تفسر على أنها مرضية ، أو نفسرها على أن العيشة نفسها راضية ، وما هي ظاهرة الرضا ؟! فلان رضي بالشيء .. أي : أحبه ، وما دام أحبه ، فيكون دائمًا معه ، ولا ينقطع عنه ، فأراد براضية في : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .. أي :

1 – سورة : الإسراء ، الآية : 45 .

2 – سورة : النساء ، الآية : 57 .

مستديمة معه ، لا تنفك عنه ؛ لأنها راضية ، ليسوا هم فقط الراضين عنها ، بل وهي أيضًا .

وذلك كما يقول المتنبي عن مثل هذا المعنى ، فيقول :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به ..... من أن أكون حبيبًا غير محبوب

أي أني أحبك حقًّا ، ولكني أخاف من أن أحبك وأنت لا تحبني ، فأراد أن يبالغ في العيشة ، وأنها عيشة راضية ، مستديمة له ، شأن الراضي عن شيء ، وما دامت راضية عنك ، فلا تنفك عنك ولا تبارحك ، أو أن العيشة التي نظن أنها جماد ولا تعقل ، هي في علم الله عاقلة ، كما قلنا في قول الحق ﷻ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [1] ، ولكن من يستطيع أن يخاطب عقلها ؟ ومن يستطيع أن يخاطبها باللغة التي تفهمها ؟ إنه الذي خلقها ﷻ ، ولذلك قال : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [2] ، وقال عن النملة أنها قالت : ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [3] ، وقال عن الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [4] ، إذن ، فهذه الكائنات لها قائد ، ولها أقوام ، ولها نظام ، ولكن المهم هو من يفهمها :

والحق ﷻ لم يثبت فقط للجماد والحيوان حياة ولغة وعقلاً واعتقادات ، بل أثبت لها أسمى ما يتميز به الإنسان ، أثبت لها وجود العاطفة عنده ، فالعواطف أسمى ، وأرقى شيء يتميز به الإنسان ، فالحق ﷻ عندما يعرض في القرآن مثل هذه الصور فيقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .. ليس فقه دلالة ، بل فقه الكلام ، فالحق ﷻ يُبيِّن أن هذه الجمادات والحيوانات ليس لها لغة فقط ، بل لها عواطف أيضًا ، التى هى أسمى شيء ، وذلك كما تكلم الحق ﷻ عن قوم فرعون فقال : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ

1 - سورة : الإسراء ، الآية : 44 .

2 - سورة : فصلت ، الآية : 11 .

3 - سورة : النمل ، الآية : 18 .

4 - سورة : النمل ، الآية : 22 .

جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾[1] ، بكت السماء والأرض ، فالبكاء عملية نزوعية من وجود العواطف فيها ، فأنت تبكي بناء عن عواطف ، فهو في الآية يثبت لها عواطف ، فالأشياء التي يُتنعم بها ، وهي : الجمادات ، والنباتات ، والحيوانات ، لا مانع من أن تكون عندها هذه العواطف ، وأن تكون نفسها راضية بجزاء من يجزي بها ؛ لأنه يستحق أن يجازى هذا الجزاء ، لأنها علمت أنه لم يستحق هذا الجزاء إلا لأنه طبق المنهج الإلهي كما طلبه الله ﷻ .. إذن ، فله بها آصرة وُدٍّ ؛ لأنها طبقت المنهج الإلهي الذي اختاره الله لها بلا اختيار لها ، إذن ، فهو أخوها في الدين ، فحين تنعمه ، فهي تشعر بأنها راضية بأن تكون منعمة له ، وبذلك تكون نسبة الرضا للعيشة نسبة حقيقية .

وقد ورد عن **علي بن أبي طالب** ﷺ حين قُرئ عليه قول الله ﷻ : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ ، قالوا له : أتبكي السماوات والأرض ؟! قال : نعم .. تبكي ، وتفرح ، وتضحك .

وما دام الحق ﷻ قد ذكر أن السماوات والأرض لا تبكي على ذهاب آل فرعون ، فمعنى ذلك أنها تبكي على ذهاب غيرهم ، المقابلين لهم ، وذلك كما ورد عن **علي بن أبي طالب** ﷺ : " إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض ، ومصعد عمله في السماء "[2]؛ وذلك لأن المكان الذي يصلي فيه الإنسان ، يعشقه ، ويحبه ، ويألفه ، فإذا مات ذلك الإنسان فإن المكان الذي يصلي فيه لله يبكي عليه .

إذن ، فالحق ﷻ حينما يقول : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يمكن لنا أسباب النعيم أتم تمكين ، فنعيم الآخرة على غير نظام النعيم في الدنيا ، فالعيشة راضية عنك ، أما العلماء الذين يقولون : إن التعبير القرآني عبَّر براضية ويريد مرضية ، فشرح لم يصل إلى دقيق معاني

1 ـ سورة : الدخان ، الآية : 25 : 29 .

2 ـ كنز العمال (15 / 747) .

المواضع القرآنية ، ويرد بلاغة كلام الله إلى المألوف من كلام البشر ، والمهم أن نلتقي في المعاني التي نستنبطها في القرآن حسب الكلام البليغ الذي قصده .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. يأتي الحق ﷻ بعد ذلك بالمقابلة ، والمقابلة هنا في قوله ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. وذلك إعجاز تعبيري آخر ، ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. أمه نار ؛ لأنه فسر الهاوية بما جاء بعدها ..

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .. ابتدأها ابتداءً مقنعًا ، ثم أنهاها إنهاءً موئسًا ، وأيضًا ليأخذ من التصوير الدقيق للمعنى أن النار تتهافت على المعذب بها ، كما تتهافت الأم على وليدها فتحتضنه وتضمه ، فكذلك يكون شأن النار ؛ لأن الإنسان المعذب لم يرعَ نعمة الله في هذه الأم ، وهى لا إرادة لها ولا قوة ولا عقل ، وبعد ذلك سخرها له بما أودع فيها من العطف والحنان والرقة والاستجابة إلى كل نوازعه ، وكما كان منه إعراض عن نعم الله يقول : فأمه ستحتضنه .. ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾[1] .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .. والأسلوب هنا في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ ، رجوع إلى استهلال السورة في قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ، فهذا تفسير وتأويل ، بحيث يأتي اللفظ ليخرجه عن معانيه المعتادة اللغوية ، فلا ينبغي أن تفهم الأسلوب القرآني على ما اعتدت من معان وضعية لغوية ؛ لأنك تفهم القارعة لغويًا ، وتفهم الهاوية لغويًا ، ولكنك لا تفسر المقصود من القارعة ، والمقصود من الهاوية على وفق ما تعرفه من اللغة ؛ لأن اللغة تحمل معان أخرى متعددة ؛ ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .. فإذا كان ذلك على معناها اللغوي فالنبي والصحابة والعرب جميعًا يدركون ما القارعة ، ولكن المعنى الذي أراده الله ﷻ غير مدرك ؛ ولذلك فقد أعاد للأذهان الأسلوب فقال : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وأيضًا تفهم : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ على ضوء ما

---

1 - سورة : ق ، الآية : 30 .

فهمت من قوله : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ فهنا تمثيل وتعيين ، ولا يمكن أن تعلم حقيقة ذلك اللفظ ، إلا إن تركت المعنى اللغوي الذي تألفه وتعرفه ، والذي تعرفه البشر ، وتنظر إلى المعنى المراد من الحق فقال ﷻ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ .

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وعظمة هذا الأسلوب تتجلى في أنه يصدر الأسلوب بالتصدير المؤنس ، ثم يختمه بالتيئيس المفجع ، وذلك نقلة عملية نفسية مرادة من الحق ﷻ ، وإذا قرأنا القرآن رأينا مثل هذه الأساليب كثيرة ، فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، فعندما تسمع : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، تقول : إن البشارة تكون بخير ، فتستشرق النفوس إلى أن هناك منقذًا ، ومغيثًا ، ومنجيًا يُفهم من : (فَبَشِّرْهُمْ ﴾ ، فإذا استشرفت النفوس إلى ذلك ، جاء الجواب مُبئسًا ، مفجعًا فيقول : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، ويقول الحق : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾[2] ، والإنسان حين يستغيث ، تفهم منه أنه يطمع في شيء يخلصه من العذاب ، فتستشرف نفسه ، فإذا قال : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ ﴾ ، ولكن .. ﴿ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما هم فيه ، فكأنه ابتدأ الأسلوب ابتداء مقنعًا ، ثم أنهاه إنهاء موئسًا ، فلو ترك اليأس من أوله ، ولم تفرح النفس بمعنى المنقذ والمغيث ، لكانت المسألة أخفّ ، ولكن يفتح له باب الأمل واسعًا ، ثم بعد ذلك يأتي بالمبشر به فنجده عذابًا أليمًا ، فيفتح الباب بقوله : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ .. وبعد ذلك : ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ ، بأشد مما كانوا فيه .

وبعد ذلك يقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .. وهنا تقابل لـ : ﴿ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ بـ : ﴿ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، وبين : ﴿ عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ وبين : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، هذا التقابل الإعلاني عن الإخبار بأمر غيبي المقصود منه أن ينعم المؤمنون نعمتين : (**النعمة الأولى**) : أن يعرف موقعه في الآخرة من رضا ربه ، ونعيم ربه عليه ، (**والنعمة الأخرى**) : أن يرى أن الذي كان يحاربه في دينه ، ويشاقه ، ويعانده : أمه

---

1 – سورة : آل عمران ، الآية : 21 .

2 – سورة : الكهف ، الآية : 29 .

هاوية ، إذن ، فنعيمه جاء من جهتين : النعيم في نفســه ، والعذاب لخصمه وعدوه الذي عاداه في الدنيا عقديًا .

وأيضًا فيه تعذيب للكافر من جهتين : من جهة أنه يعطيه صورته من العذاب ، وصورة خصمه الذي كان له في الدنيا من النعيم .

وهذا التقابل يأتي في مواضع كثيرة من القرآن ، حتى يعطينا الصورة ، فيقول مثلاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾[1] ، ذلك هو التصوير الذي يتصوره الكافر بالنسبة للمؤمن ، فماذا قال الحق ليعطي التقابل ؟ قال : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[2].

وفي سورة الرحمن أيضًا ، حيث ذكر فيها نعمًا كثيرة متوالية ، يعبر الحق ﷻ عن هذا الامتنان بالنعيم بعد كل نعمة ، فيقول : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[3].. فنقول : ولا بأي شيء من آلائك نُكذِّب ، كل النعم حقيقة ، ويأتي هذا التعقيب المكرر في قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . بعض الأمور معروف أنها نعم ، والبعض معروف أنها ليست نعمًا ، ولكنها تقوم بدور فعال في سائر أمور الإنسان ، فمثلاً عندما يقول : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[4]، أي : خلقني من جماد ، وبعد ذلك أعطاني الحياة ، وأعطاني النعم ، ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[5]، ﴿ كُلُّ مَنْ

---

1 – سورة : المطففين ، الآية : 29 : 33 .

2 – سورة : المطففين ، الآية : 34 : 36 .

3 – سورة : الرحمن ، الآية : 13 ومواضع بعدها .

4 – سورة : الرحمن ، الآية : 14 .

5 – سورة : الرحمن ، الآية : 15 ، 16 .

عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ .. وهي نعمة ؛ لأن المؤمن الذي يُطلب منه أن يسلك في حياته منهجًا خاصًا يقيد حريته ، يكون من النعم عليه ألا يدوم قيد التضييق عليه في حريته ، فيكون الموت نعمة ، وهو أيضًا نعمة بالنسبة لما تراه أنت للكافر ، فالمنعم به سينتهي ؛ لأنه ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، وما دام ليس له في تصوره إلا هذه الدنيا ، فالموت سينهي هذا التصور أيضًا ، وذلك تلمحه أيضًا في قوله : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأنْسِ إِن اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] ، فعدم الخروج عن سلطان الله نعمة لنا ، وبعد ذلك يقول : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2] .. إذن ، فكل ذلك يؤكد أن كل ما في الوجود نعم بالنسبة للمؤمن ، أما بالنسبة لاستشعار ما يكون للكافر في هذه الحياة ، ذلك تنعيم أيضًا بالنسبة للمؤمن .

فإذا كانت القارعة ستأتي بأوصافها التي أرادها الحق ﷻ ، وإذا كان الإنسان ستُعْرَضُ أعماله للجزاء على ما فيها بمنتهى الدقة والعدل ، فعلى ذلك يلقى كل إنسان جزاءه ، المؤمن يأخذ جزاءه العيشة الراضية ، والكافر يأخذ جزاءه الأم الهاوية .

لذلك ، فالعاقل الذي يحب أن يستقبل الأمور بما تستحقه من العناية ، يجب ألا يشغل نفسه بما لا يفيده عما يفيده ، ويجب ألا يتلهى بما يكون نقمة عليه عن ما يكون نعمة له ، ولكن الإنسان بطبيعته غافل ، يشتغل بما جُعِل له عما طُلِب منه .

فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شرور أنفسنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .. والحمد لله رب العالمين .

---

3 - سورة: الرحمن، الآية: 33، 34.

4 - سورة: الرحمن، الآية: 35، 36.




تفسير جزء عم


سورة التكاثر





بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد . .

فمع سورة التكاثر . . تلك السورة القصيرة . . التي تُذكر أولئك اللاهين بآخرتهم ، وتنبههم إلى الإيمان بالله ﷻ والعلم به علم اليقين قبل أن يرونها عين اليقين ، وقبل أن يُسألوا يومًا عن النعيم .

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . . ألهانا عن تلك المقاييس ، وعن تلك الموازين ، وعن تلك النهاية ، فانشغل الإنسان عن الأعمال التي تثقل موازينه ، وتلهى بالأشياء التي تخفف موازينه ، وهذه هي الغفلة ، ذلك هو الغباء ، وذلك هو الموت ، وذلك تحذير عن مطلوبات الله من الإنسان في الوجود ، وعن تحقيق الإنسان لتلك المطلوبات ، فيجب أن يصبر الإنسان على تحقيقها ، وأن ينتبه ، وأن يفيق ، فلا يشتغل بما يخفف موازينه عما يثقلها .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

و(التكاثر) .. تفاعل ، وهناك فرق بين الفعل والتفاعل ، فالفعل قد يقع من إنسان على إنسان آخر ، فهذا فاعل ، وهذا مفعول به ، ولكن التفاعل في ظاهره يتكون من الفاعل والمفعول ، ولكن في تحقيقه : نجد أن الفاعل – مع فاعليته – مفعولاً من ناحية أخرى ، والمفعول – مع مفعوليته – فاعلاً من ناحية أخرى ، كما تقول مثلاً : شارك زيد عمرًا ، فزيد في الصورة اللفظية فاعل ، وعمرو مفعول ، ولكن تحقيق الصورة هو المشاركة بين عمرو وزيد ، فلقد شارك عمرو زيدًا أيضًا ، فيكون كل واحد منهم فاعلاً من ناحية ، ومفعولاً من ناحية أخرى ، إلا أن تغليب السمع جعل الفاعلية غالبة هنا ، والمفعولية غالبة هناك ، فكلٌ فاعل ، وكلٌ تفاعل .

فإذا قلت : تشاجر زيد وعمرو ، أي : وقع التشاجر من زيد ، ومن عمرو معًا ، زيد متشاجر ومتشاجر معه ، وعمرو أيضًا متشاجر ومتشاجر معه ، ولكننا غلّبنا المعية في واحد ، والفعل في الآخر ، وهذا هو معنى التفاعل ، بأن يستوي الفاعل والمفعول ، أو الفاعل الأصيل مع المتعلق به يكون في الفعل ، ويكون بوقوع الفعل عليهم .

فلا يقال : إن فلانًا قد تكاثر على فلان إلا إذا كان فلان قد تكاثر أيضًا عليه ، فأنا أكاثرك ، وأنت تكاثرني ، فكل واحد منهما فاعل ومفعول ؛ ولذلك عادة يأتي الفاعل بليغًا ، أو اسمًا واحدًا ، فتقول : تكاثر القوم ، أي : كاثر بعضهم بعضًا ، أي : منهم فاعل ، ومنهم مفعول .

فقول الحق ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. أي الصادر منكم جميعًا .. كل منكم يكاثر الآخر ، و " المكاثرة " .. لها معنيان ..

(أحدهما) : أن تكاثره بما وقع عندك من النعيم ، وأن يكاثرك بما وقع عنده من النعيم ، شيء واقع ، فيقول : مالي الموجود عندي الآن أكثر من مالك ، وولدي أكثر من ولدك ، ونعيمي أكثر من نعيمك ، أي التكاثر بأنك تدّعي أنك أكثر ، وهو يقابلك فيدّعي أنه أكثر في شيء واقع .

(الثاني) : أن يصرفوا جهودهم في أن يكونوا أكثر الناس أشياء ، فيستقبلوا بالفعل أعمالاً يريدون بها أن يكاثروا الغير .

فعلى المعنى الأول : المتكاثر به يكون موجودًا ، وعلى المعنى الثاني : أن يكون المتكاثر به مطلوبًا .

وما دام أن الحق ﷻ لم يذكر المتعلق ، فلم يقل : ألهاكم التكاثر فيما تملكون ، أو : ألهاكم حب التكاثر في ما تطلبون ، يكون عموم اللفظ يقتضي أن المعنى عام .

ونلاحظ أن الحق ﷻ قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ .. فما هو الإلهاء ؟ والإلهاء هو أن يوجد شيء يسيطر على فكر الإنسان ، فيجعل غير المطلوب عنده أهم من المطلوب ، وحين يذكر الحق ﷻ اللهو واللعب في كل آيات القرآن يقدم اللعب على اللهو ، إلا في آيتين اثنتين فقط ، قدم فيهما اللهو على اللعب .

وذلك لأن الإنسان تمر عليه فترات ، فترة قبل أن يبلغ ، وهذه فترة غير تكليفية ، فحين يلعب لم يترك شيئًا مطلوبًا منه ليفعل شيئًا غير مطلوب ، لكن اللاهي يترك شيئًا مطلوبًا منه ، ويشتغل بغير المطلوب ، وبما أن الإنسان حينما يستقبل الحياة لا يكون مطلقًا أول الأمر ، فأول ما يبدأ أمره باللعب ، ثم يكلف فينسى اللعب ، ومع ذلك ، فالقرآن لم يقل : ألعبكم ، بل قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ ، لماذا ؟ لأن اللعب عادة لا يكون له وقت مباح له فيه أن يلعب ، وهو يشترط أنه لم يبح لهم شيئًا من اللعب فقط لا يلهيهم . ولذلك كانت أُمُّنا عائشة رضى الله عنها تقف خلف الرسول ﷺ ، ويريها من اللعب ، فعن عروة بن الزبير ، أن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ يومًا على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون في المسجد ، ورسول الله ﷺ يسترني بردائه أنظر إلى لعبهم[1]..

وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر ﷺ دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى

1 - أخرجه البخاري (435) ، ومسلم (1481) .

تغنيان وتدففان وتضربان ، والنبي ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبوبكر ، فكشف النبي ﷺ عن وجهه فقال : " **دعهما يا أبا بكر ؛ فإنها أيام عيد** "[1] .

إذن .. فهناك أشياء تكون مباحة للمكلف ، بشرط ألا تمنعه عن طاعة ، إنما نحن نلهو في كل وقت ، فالوقت الذي جعله الله ﷻ لذلك اللهو كان يوم عيد ؛ لأن هذه المباحات لك أن تفعلها أو لا تفعلها ، لك أن تأكل أو لا تأكل ، لك أن تفطر بدون أمر تكليفي به ، ولكنه أصبح مفروضًا عليك أن تفطر يوم العيد ، ففرض الله عليك الشيء المباح ، وأثابك عليه ، إذن ، ففطر يوم العيد لابد منه ، فقد كلفك الله به تكليفًا ، والفطر في يومه كالصوم في يوم من رمضان ، فيحرم الصوم يوم العيد ، ولك أن تلعب ، ولك فيه ثواب لذلك ، هذا هو العيد ، يعطيك ثوابًا على أشياء كانت مباحة أولاً ، افعلها أو لا تفعلها .

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ .. قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله ﷻ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. كانوا يقولون : نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدُّ من بني فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش ، بني عبد مناف بن قصي ، وبني سهم بن

---

1 - أخرجه البخاري (3266) ، ومسلم (1480) .

عمرو ، كان بينهم تفاخر ، فتعادَّ السادة والأشراف أيهم أكثر عددًا ؟ فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيدًا ، وأعز عزيزًا ، وأعظم نفرًا ، وأكثر عددًا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، ثم قالوا : نعدّ موتانا . حتى زاروا القبور فعدوهم ، فقالوا : هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان . فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ؛ لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عددًا ، فأنزل الله هذه الآية .. ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ بما لا يعنيكم عن ما يعنيكم .

﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .. وكانت هذه صورة واقعة ، فقد تفاخروا بالأحياء حتى انتهى التفاخر بالأحياء ، فذهبوا يتفاخرون أيضًا بمن في القبور ، فمنهم من قال : من في هذا القبر منا ، ومن في هذا القبر منا ، فكأن تكاثرهم أداهم إلى أن يزوروا القبور ؛ ليضموا إلى تكاثر موجود لهم في الدنيا تكاثرًا كان لهم ثم مات ، أو أن الإلهاء بلغ بكم مبلغًا ، أنكم شغلتم به كل الوقت حتى فوجئتم بالموت ، أي : ظللتم حياتكم كلها في تكاثر شغلكم حتى الموت ، والمعنيان يصحان ؛ لأن (**العبرة دائمًا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**) .

وهنا نجد أن العربي الذي يستقبل القرآن بإيحاءاته ، ويستقبل القرآن بخلفياته المعبرة ، حين سمع هذه الآية قال : نعى الناس إلى أنفسهم ورب الكعبة ، والله لقد قامت القيامة فقال : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

وانتهى التعبير الدقيق هنا أيضًا فيما يفهم من زرتم المقابر ، أما عن المعنى الأول : أنهم ذهبوا إلى المقابر ليتكاثروا بالأموات ، فالأمر واحد ؛ لأنهم تكاثروا ورجعوا ، فالمدة التي استغرقها التكاثر عند الحضور مدة يسيرة ، هي مدة الزيارة ، أما إذا كان المقصود أن التكاثر ألهاكم ، وأغفلكم ، وأذهلكم ، حتى فاجأكم الموت فمتم ، فالتعبير فيه دقة ، أي أن الموت ليس نهاية الأحياء ، إنما هو مرحلة فقط ، بعدها يأتي أمر آخر ، وستعودون ثانية إلى الحياة ، وفترتكم في ذلك الحضور ، كالفترة في تلك الزيارة ؛ لأن الزائر غير مقيم .

إذن .. فالذي يلهي الإنسان عن شيء ، هو غفلته عن مصيره في الأمرين ؛ لأن الإنسان لو



استحـــضر الجزاء على أعماله ، أو نسبـــنا له الجزاء على أعماله ، أو عجلنا له الجزاء على أعماله ، وأحضرنا له الجزاء حسًّا أمامه ، وأوقدنا نارًا ، ثم جاء بأمتع متعة تمتع بها ، وقلنا له : إن تمتعت بهذه المتعة فإننا سندخلك هذه النار ، فلا شك أنه سيبتعد عن هذه المتعة ، لأنه لا يوجد إنسان أبدًا يجازف بأن يتمتع بمتعة ، ثم يقذف به في النار .

فالفرق بين ما في الصورتين هو أن الجزاء في هذه الصورة محس أمامه كإحساسه بالمتعة ، ولكن في الصورة الأخرى فالمتعة فيها محســـة عاجلة ، والجزاء غيب آجل ، وما دام غيبًا آجلاً ، فهو ليس مستحضرًا .

فالذي يوجد اللهو عن مطلوب هو أن معنى الجزاء ، ومعنى موقف الجزاء ، ومعنى وصف الجزاء ، أمر باهت في النفس ، ولو كان الجزاء مُشاهدًا للنفس ، فلا يمكن أن يقبل أحد على معصية ، ما دام يستحضر الجزاء عليها والعذاب إن فعلها .

فالمسألة إذًا يقين في الجزاء ، فاليقين في الجزاء حين يبهت في النفس بأن لا يستحضر الجزاء فلا يكون له رادع ، فإنه يقع في المعصية ، لكن الجزاء حين يستضخم أمام الإنسان فلا يمكن أن يأتي المعصية ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : **" كيف أصبحت يا حارث ؟ "** قال : أصبحت مؤمنًا حقًّا ، فقال : **" انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ "** فقال : قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقـــال : **" يا حارث .. عرفت فالزم "**[1].

إذن ، فالذى يجعل الإنسان يلهو ويلعب هو غفلته عن القيمة الجزائية للأشياء .. الجنة والنار ، فهو يأخذ بصورة عينية ، وقد تبهت عنده .

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. إن الحق ﷻ يعطينا السورة حتى يُعلِمنا ، فيقول : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ ﴾ .. وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ كلمة ردع وزجر ، أي : ليس هذا هو العاقل ، ليس هذا هو سلوك الإنسان الذي يرتب الأمور على نتائجها ، بل هذا سلوك معيب .

وكلمة : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. عندما تسمعها ، تفهم أنها كلمة زجر ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي : ذلك مسلك لا يرضي الله ﷻ ، ﴿ كَلاَّ ﴾ .. الذي أنتم متشككون فيه في هذه المسألة ، لأن علم اليقين لا يكفيكم .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالمرتبة بـ : ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ هي مرتبة علم القين ، لأننا في القبر تعرض علينا النار ، وتعرض علينا الجنة ، كما قال ﷺ : " **إن أحدكم إذا مات ، عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة** "[1].. فالذي كان علم يقين أولاً ، سيصير عين يقين ، وبعد ذلك ، في يوم الجزاء ، يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار ، فيكون الأمر حق اليقين ، فكأنها مراتب ، مراتب الإعلام من الحق بوجود جنة ونار وجزاء ، لكن ذلك علم نظري منقول بصورة ذهنية ، أنت صدقت الصادق ، فالذي إيمانه زائد ، وحقيقة إيمانه موجودة ، يعلم ويتيقن أن ما قاله الله ﷻ له ليس علمًا نظريًا ، بل هو علم حقيقي ، أما من هو صادٌ عن هذا ، يبقى هكذا حتى يرى المرحلتين الأخيرتين .

فيقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. أي ليس ذلك أمرًا طبيعيًا .

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. انتقلتم إلى مرحلة علم اليقين ، ثم تأتي مرحلة أخرى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ ﴾ .. أي : ليس هذه هي المرحلة فقط ، بل هناك عين اليقين ، وستراها بعينك .

---

1 – أخرجه البخاري (1290) ، ومسلم (5110) ، كلاهما من حديث ابن عمر .

وكلمة : ﴿ سَوْفَ ﴾ .. للزمن المستقبل ، ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. أي : بعد الموت ، فيكون الأمر عين اليقين ، وليست هذه هي النهاية ، بل تأتي فترة أخرى .. ﴿ ثُمَّ ﴾ ، أي : ستأتي ولكن على الترتيب والتراخي ، ثم يأتي عين اليقين : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .. فالاستقبال في الثانية لأن الثانية تكون حالاً .. ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ، أي : مستقبلاً بالنسبة لحالكم الآن .

ولذلك فالرسول ﷺ يعطينا هذه الصورة ، ويبين أن الناس جميعًا موقنون أنهم يموتون ؛ لأنه عند استقراء الحياة تجد أنه لا ينجو أحد من الموت ، فالحياة هكذا ، فإذا كانوا متيقنين أنهم سيموتون ، فما الذي يجعلهم يغفلون عن ما بعد الموت من الجزاء والحساب ؟! حتى قيل : " **لا أرى يقينًا يشوبه الشك من يقين الناس بالموت** " ، فهو يقين يرى فيه شكًّا ، فلو لم يكن فيه مثقال شك لكان الإنسان يستحضر ذلك الموت دائمًا .

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ .. إن المعنيات دائمًا حين يعلمنا الحق ﷻ بها تأخذ ثلاث صور :

الصورة الأولى: أن يخبرك بها المخبر ، فتوجد عندك صورة ذهنية عن الخبر .. صورة نظرية .. صورة عينية ، ومعنى صورة ذهنية ، أو صورة عينية : أن الشيء في حقيقته بعيد عنك ، وأخذت حسب تصديقك للمخبر صورة يقينية ، ولكنه يقين أقل من يقينه هو بما يخبرك به .

الصورة الثانية: ينتقل بك إلى يقين ، ولكن ليس نظريًّا ، بل إلى يقين عيني ، كما قلنا من قبل : إذا جاء إنسان من بلد من البلاد وقال : زرت البلد الفلانية ، فوجدت فاكهة في حجم البطيخ ، ولون البرتقال ، وطعم التفاح ، ورائحة الموز ، فإن كان صادقًا ، فقد أعطاك صورة ذهنية نظرية عن الشيء ، أي أصبح لديك صورة نظرية ، فلما تتعجب أنت من هذه الفاكهة يريك إياها ، ويعطيك منها ، فتكون قد انتقلت من الكلام النظري ، إلى الكلام العيني ، أي :

ن الشيء ، فيكون الأمر منتقل من علم اليقين ، إلى عين اليقين ؛ لأنها أصبحت أمامك .

الصورة الثالثة: ينتقل بك من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، فإذا جاء بالسكين ، وقطعها طعًا ، وأعطى كل إنسان قطعة وأكلها ، يكون قد وصل من عين اليقين إلى حقيقة اليقين ، ي : وصل إلى درجة من اليقين ، وليس يبقى بعد هذا شيء آخر .

وكذلك الحق ﷻ في الإخبار عن الغيبيات ، يخبرنا – وهو الصادق – فنأخذ صورة هذه الأشياء ، فهذا اسمه : علم اليقين ، بعد ذلك نرى بأعيننا ذلك الشيء الذي لم نكن قد رأيناه ، فهذا اسمه : عين اليقين ، ثم ندخل في حقيقة ذلك الشيء ، فيكون : حق اليقين .

فمثلاً يخبرنا الشرع والتواتر أن لله ﷻ في مكة بيتًا ، هو الكعبة ، وهذا البيت شكله كذا وكذا ، فالذى لم يره يأخذ صورة ذهنية عنه ، فيكون عنده علم يقين ؛ لأنه علم ذلك ، والتواتر أيده ، فعندما يذهب إلى البيت ، وينظر له ، فالذي كان علم يقين عنده ، أصبح عنده عين يقين ، فإذا ما طاف ، وَصَفَت روحه ، وتشبع فؤاده ، وغيرته الروحانية ، يكون قد دخل في حقيقة اليقين ، وهي مرحلة حق اليقين .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. تأتي خاتمة السورة بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة وما يسعد في الدنيا ، ظنًّا من الإنسان أن الدنيا هي كل شيء ، فأراد الحق ﷻ أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير ومسابقة إلى النعيم الباقي ، فانتهت السورة عند قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .. ذلك النعيم الذي تلقيناه بالتكاثر والتنافس ، وما دام هذا النعيم نعيمًا فإن الإنسان يسأل عنه ، ويدخل بسببه في الحساب أولاً ، ثم الوزن ثانيًا ، ثم الجزاء على ذلك الوزن .

فوجب أن يحتاط الإنسان بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا ، وبعد الدنيا ، أي في الحياة الباقية ، فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله ﷻ ، وحينئذ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف بل سؤال تشريف .

لأن الحق ﷻ وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان بل يتوجد فيه السبيل إلى الحق ، وهذا الطريق المستقيم كما نعرف بداهة هو أقصر المسافات بين نقطتين ، فإن أردت أن تصل إلى الله ﷻ ، وإلى النعيم الذي له حساب راجح عند الله ، فلتلتزم منهج الله ، وخط الله ، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه .

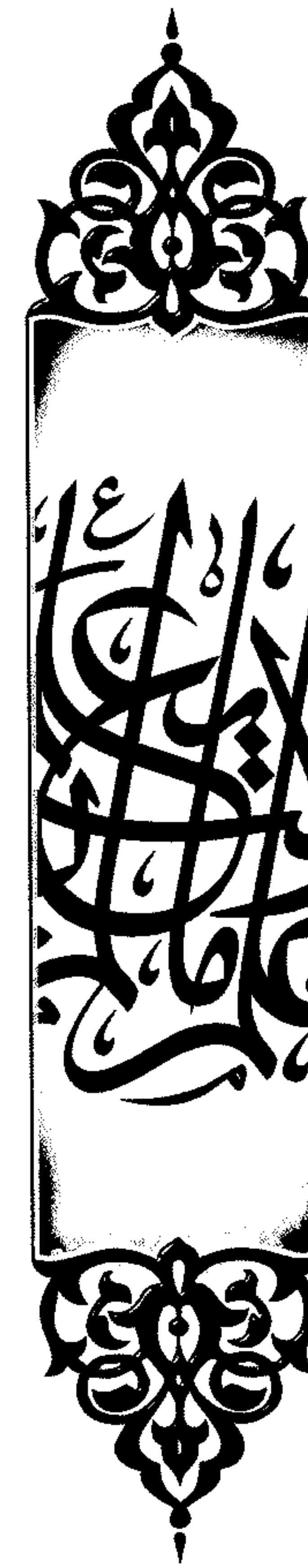
نسأل الله ﷻ أن يوفقنا دائمًا إلى أن نتصرف الخير على المنهج الذي يريده الله ﷻ لنا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .









سورة العصر





بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد ..

انتهينا في خواطرنا حول **سورة التكاثر**، وقلنا : إن السورة ختمت بما يوحي به التكاثر من تنافس على خير الحياة، وما يسعد في الدنيا، ظنًّا للإنسان أن الدنيا هي كل شيء، فأراد الحق ﷻ أن يردنا عن التكاثر ليجعله تنافسًا في الخير، ومسابقة إلى النعيم الباقي، فانتهت السورة عند قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1]، النعيم الذي طلبتموه بالتكاثر، وطلبتموه بالتنافس، وما دام هذا النعيم نعيمًا يُسأل الإنسان عنه، ويدخل بسببه في منطقة الحساب أولاً، ثم منطقة الوزن ثانيًا، ثم منطقة الجزاء على ذلك الوزن، فوجب أن يحتاط الإنسان لنفسه بألا يتكاثر إلا في شيء يكون له منه الخير في الدنيا وبعد الدنيا، أي في الحياة الباقية.

فلا يجب أن يتكاثر على شيء إلا إذا وثق بأن ذلك الشيء يرجح كفة ميزانه يوم لقاء الله ﷻ، وحينئذٍ يكون سؤاله عن النعيم لا سؤال تعنيف، بل سؤال تشريف.

لأن الحق ﷻ وضع للناس طريقًا مستقيمًا لا تتفرق السبل فيه بالإنسان، بل يتوحد فيه السبيل إلى الحق، والطريق المستقيم هو أقصر المسافات بين نقطتين، فإن أردت أن تصل إلى الله ﷻ، وإلى النعيم الذي له عند الله حساب راجح فلتلتزم منهج الله وخط الله، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلك إليه.

---

1 - سورة: التكاثر، الآية: 8.

بعد ذلك كان ولابد أن يحدد الحق أن الإنسان بالنسبة لواقعه في الحياة ، وبالنسبة لحركته في تلك الحياة لا يعدو نهايتين :

النهاية الأولى : أن يكون رابحًا .. أن يكون ناجحًا .. أن يكون مفلحًا .

النهاية الثانية : أن يكون خاسرًا .

فكان ولابد أن ينقسم الناس إلى قسمين : قسم خاسر ، وقسم رابح .. قسم ناجح ، وقسم راسب .. قسم مرتفع ، وقسم نازل .

وبعد ذلك حينما أراد الحق أن يعرض للناس المنهج الذي يؤديهم إلى القسم الرابح ، وإلى القسم الناجح ، وإلى القسم العالي ، أراد أن يقدم بين يدي ما يقول من المبادئ الشهادة على ذلك .

فالحق ﷻ حينما يقسم بشيء – وكما قلنا سابقًا : إن الله يقسم بما شاء على ما شاء – يقسم به لأنه يعلم ما خلق ، ومن خلق ، وسر ما خلق ، ومن خلق ، فهو وحده الذي يقسم بما شاء ، ولكننا لا نعرف عظمة الأشياء ، ولا نعرف خطورتها ؛ لجهلنا بما حولنا من الوجود ، ولكن الله الذي خلق هذه الأشياء وأودع فيها أسراره هو الذي يقسم بها .

وقلنا : إن القسم يأتي مرة بإثباتٍ حين يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، ويأتي بنفي للقسم ، ويكون أوكد من القسم في مثل قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾[1] ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[2] ، أو ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[3] ، ففي ظاهر الأمر في قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أو : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، أو : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أنه لم يقسم ؛ لأن القسم سواء كان إثباتًا له

1 – سورة : البلد ، الآية : 1 ، 2 .

2 – سورة : القيامة ، الآية : 1 .

3 – سورة : الواقعة ، الآية : 75 ، 76 .

كما في قوله : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أو كان نفيًا له كما في قوله : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ إنما يؤدي إلى غرض واحد ، ذلك الغرض هو تأكيد المقسم عليه .

فالقَسَمُ إذن في كل سور القرآن جاء لتأكيد الأمر المقسم عليه ، وتأكيد الأمر المقسم عليه يكون له لونان :

اللون الأول : أن يقسم بالفعل .

اللون الثاني : أن يقول : إن ذلك الأمر الذي يجب أن يقسم عليه في نظر الناس أمر من الوضوح بحيث لا يُحتاج فيه إلى القسم ، فكأنه حين يقول : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ .. كان الجواب الذي يأتي بعد ذلك أمر من الوضوح بحيث لا يقسم عليه ، وما دام من الوضوح بحيث لا يقسم عليه فلو كنت مقسمًا لأقسمت بالبلد .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بمواقع النجوم .. لو كنت مقسمًا لأقسمت بيوم القيامة ، ولكن ذلك الأمر واضح لدرجة أنه لا يحتاج إلى القسم .

وهناك أشياء قد يلتبس فيها الأمر ، فيحتاج إلى قسم ، فيقسم الله بالفعل .

إذن فمؤدى القسم ومؤدى نفي القسم واحد في تأكيد المقسم عليه ، إلا أن المقسم عليه أمر قد توجد فيه شبهة فيقسم الله ليرفع تلك الشبهة ، والأمر الثاني أمر واضح لا يحتاج لقسم ، ولكن لو كنت مقسمًا عليه لأقسمت بكذا وكذا وكذا ، ففيه أيضًا الدليل .

مثال ذلك ، ولله المثل الأعلى ، الإنسان منا حينما يشعر بوعكة صحية يذهب إلى الطبيب ، والطبيب حين يشخص المرض يكتب للإنسان دواء ، وبذلك يكون أقر المريض على شبهته في وجود مرض ، ولكنه بالدواء يحاول أن يزيل ذلك المرض .

ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب فيقول له الطبيب : والله ليس لك عندي دواء ؛ فليس عندك مرض يستحق أن أعطيك له دواء .

وكذلك حين يقسم الله ﷻ، يقول : أنت من الممكن أن يكون عندك شبهة وأنا أقسم عليك لأنفي عنك تلك الشبهة .

أما حين لا يقسم فالشبهة لا محل لها إذًا ، فالشبهة لو واجهتها بالعقل الفطري تجدها محلولة ، كذلك حين يقول الله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ ، فهذا عدم اعتراف بشبهتك في إنكار المقسم عليه ، و﴿ أُقْسِمُ ﴾ .. أعترفُ بشبهتك في المقسم عليه وأقسم لك ، ومؤدى الأمرين واحد .

وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. حين يقول الحق ﷻ : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ نرى أنه قد أقسم بالعصر ، وأقسم بالعصر على طريقة القسم في القرآن ليؤكد معنى المقسم عليه ، فما المناسبة بين العصر وبين المعنى المقسم عليه ؟

فما هو المعنى المقسم عليه ؟

هو : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ، والدليل على صدق هذه القضية هو ﴿ الْعَصْرِ ﴾ .

إذن فالعصر حيثية مقدمة للحكم ، أو علة مقدمة على المعلَّل ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. تلك هي القضية التي يقسم عليها الحق ﷻ .

وكلمة : ﴿ الْعَصْرِ ﴾ إذا أطلقت أول إطلاق تنصرف عن المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي ، هذا المعنى الاصطلاحي هو العبادة المخصوصة في ذلك الوقت ، فهذا أول ما يحضر في ذهن الإنسان .

وقد يُنتقل من العبادة المفروضة في الوقت الخاص ، وهي بعد الظهر وقبل المغرب ، إلى الزمن الذي فرضت فيه الصلاة ؛ لأن اسمه العصر .

وقد ينتقل الذهن إلى معنى أوسع من أن يكون العصر ليس هو الزمن المخصوص بين الظهر وبين المغرب ، ولكنه مطلق طائفة محددة من الزمان لها مهمة مخصوصة ، فمثلاً يطلق العصر على النهار كله ، ويطلق العصر على الليل كله بجامع أن هذا طائفة من الزمان لها خصوصية الضياء ، وهذه طائفة من الزمان لها خصوصية الظلمة .

إذن فالعصر يطلق مرة على العبادة المفروضة ، ومرة يطلق على زمن هذه العبادة وحدها ، ومرة يطلق على طائفة من الزمن لها طابع خاص يحكمها كالنهار مثلاً بما يجمعه من ضوء ونور ، أو كالليل مثلاً بما يجمعه من ظلمة .

وقد يطلق العصر ويراد به فترة أوسع من ذلك ، بمعنى أنه زمان يشمل ليلاً ونهارًا ، وقد يشمل أسابيع ، وقد يشمل شهورًا ، إلا أن هذا الزمن يحكمه طابع خاص في مقوماته .. في مشخِصاته .. في أحواله .. في حضارته ، كما نقول : عصر الجاهلية .. عصر فجر الإسلام .. العصر الأموي .. العصر العباسي .. العصر الحاضر الذي يبدأ من النهضة الحديثة .

إذن فالعصر متدرج في مفهوم معانيه ..

المعنى الأول : العبادة .. **المعنى الثاني** : وقت هذه العبادة .. **المعنى الثالث** : الوقت الذي يجمعه طائفة طبيعة من الخصوصيات كالنهار أو كالليل .. أو يطلق العصر على طائفة من الزمان تعم ليلاً ونهارًا ، ولكن لها طابع خاص يحكمها ، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعًا سياسيًّا ، أو تحضريًّا ، أو علميًّا .

فبأي هذه العصور يقسم الحق ﷻ ؟

لو نظرنا إلى العصر بالمعنى الأول لوجدنا أن العلماء حينما تعرضوا لقول الله ﷻ : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[1]. كانوا مختلفين هل الصلاة

1 – سورة : البقرة ، الآية : 238 .

الوسطى هي الظهر أم العصر أم المغرب أم العشاء أم الفجر ؟

كلام شائع في كل الأوقات ، فما سببه ؟

قالوا : لأننا عندما نقول : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى ﴾ .. فلا يتصور أن يكون شيء وسطًا إلا إذا كان هناك طرفان ، فما هو تحديد الطرفين الذي على ضوئه سنحدد الوسط؟

إن أردت تحديد الطرفين بالنسبة للتشريع ، فأول صلاة فرضت علينا هي الظهر ، وثاني صلاة هي العصر ، وثالث صلاة هي المغرب ، ورابع صلاة هي العشاء ، وخامس صلاة هي الفجر ، فلو أردت التحديد في ورود التكليف لكان معنى الصلاة الوسطى في زمن التكليف أن تعد اثنتين وتأتي بالوسطى وتعد بعدها اثنتين ، فتكون هي المغرب .

أو نأتي بأفراد الصلاة بالنسبة لفرضيتها علينا ، فالذي قال : الظهر ، ما حجته في ذلك ؟

إنه نظر إلى يوم العمل .. إلى النهار ، فالنهار هو محل الكدح الذي يواجهه الإنسان يقظًا في أعماله ، ففي الليل نكون نائمين ؛ فالتحديد يكون بالنهار الذي يكون عندنا فيه اليقظة ، ويكون عندنا فيه الكفاح والجهاد في العمل ، فيكون الوسط بالنسبة له وسط بالنهار ، والظهر هو ذلك الوسط .

وقال آخر : لا ، لقد أخذت الوسط باعتبار الزمن الذي هو النهار ، ولكن الصواب أنه العصر ، لماذا يكون العصر ؟

قال : لورود بعض أحاديث تنص على أنها هي العصر كما في حديث علي ﷺ أن النبي ﷺ قال يوم الخندق : " حَبَسُونَا عَنْ صَلاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ ، مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ – أَوْ أَجْوَافَهُمْ – نَارًا "[1] .. فيكون معنى هذا أن العصر حُدد بأنه ذلك الوقت .

وآخر قال : هناك علة أخرى هي أن العصر وسط ، لكن لا بالنسبة لفرضيات الصلاة ،

---

1 – أخرجه البخاري (4169) .

ولكن بالنسبة لوقتيات الصلاة ، لأنه سبقه فرضان نهاريان وهما : الفجر والظهر ، وبعده فرضان ليليان وهما : المغرب والعشاء .

وقال آخر : هو المغرب ، والوسطية فيه باعتبار أن الصلاة حسب ركعاتها فُرض منها اثنين كالصبح ، وفرض منها أربعة كالظهر والعصر والعشاء ، وفرض منها ثلاثة وهو المغرب فقط .

وقال آخر : هي العشاء ؛ لأن العشاء متوسطة أمرين لا يدخلهما القصر في السفر : المغرب والصبح .

وقال آخر : هو الفجر ؛ لأنه توسط بين أمرين : الأمر الأول : فرضان جهريان وهما : المغرب والعشاء ، وفرضان سريان وهما : الظهر والعصر .

وفيه تعليل أقوى في كونه وسطًا ؛ لأن معنى الوسط أنه الذي يجمع شيئًا من الطرفين ، فصلاة المغرب والعشاء ليليتان قطعًا ، وصلاة الظهر والعصر نهاريتان قطعًا ، وصلاة الفجر فيها من النهارية أن الفجر قد طلع ، وفيها من الليلية أن الشمس لم تشرق .

وعلى هذا فالحق ﷻ يُبهم بعض الأشياء ، وفي هذا الإبهام تربيب للفائدة [أي زيادة ونمو للفائدة] ؛ ليحرص الإنسان على كل وقت ظنًّا منه أنه هو تلك الصلاة المطلوبة من الله ﷻ ، فكأن كل فرض مما فرض الله ﷻ مطلوب مرتين ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فما هي الصلاة الوسطى ؟

ما دامت قد اختلفت الآراء حولها ، وتكرر الأمر بها مرتين : مرة في عموم قوله : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ ، ومرة في خصوص قوله : ﴿ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ ، إذن فلتحافظوا على كل الصلوات .

وذلك كما أخفى ﷻ ليلة القدر في رمضان في وتر العشر الأواخر ؛ ليجتهد الإنسان في قيامها لها رغبة في إصابتها .

وكما أخفى الحق ﷻ ساعة الإجابة في يوم الجمعة ؛ ليجتهد الإنسان في كل وقت من

أوقاتها بالعبادة ، فكأنها تربب الفائدة ، فتربط العبد أكبر وقت ممكن بربه ﷻ .

حين ننتهي من هذا نقول : لماذا أقسم ﷻ بالعصر ؟

قيل : لأن العصر يأتي في آخر النهار ، وفيه يكون الناس مشغولين بأعمالهم ، وربما يكون عندهم بعض الأشياء من العمل فيريدون أن يتموه فيغلبهم الوقت ، فالحق ﷻ أكد به .

وأيضًا لأن العصر هو وقت الحصيلة النهائية في حساب الإنسان على عمله اليومي ، أهو أداه بما يؤدي له نفعًا ؟ أهو شغل الوقت بما يعود عليه بالخير ؟ أم هو قد بدد الوقت ؟

فوقت العصر هو وقت الحساب عن اليوم ، وما دام هو وقت الحساب عن اليوم فيناسب أن الحق ﷻ يقول : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، أي : الذي تحاسبون فيه أنفسكم عما قدمتم من حصيلة عمل في ذلك الوقت ، فإن كنتم عملتم عملاً ينفعكم فستسرون ، وإن كنتم قد بددتم ذلك اليوم فسيكون في هذا الوقت ندم على أن الإنسان قد فوت جزءًا كبيرًا من الزمن لم يشغله بما ينفعه .

وإن أردنا بالعصر اليوم كله على حد قول الشاعر :

ولا يَلْبَثُ العَصْرانِ يَوْمٌ وليلةٌ إِذا طَلَبا أَن يُدْرِكا ما تَيَمَّما

فأطلق على اليوم والليلة أنهم عصران ، فكل واحد منهم عصر .

أما العصر فهو محل الكفاح النهاري ، وأيضًا سنحاسب أنفسنا في آخر اليوم عن حصيلة ما قدمناه من عمل ، أو حصيلة ما لم نقدمه .

أو أن يكون ذلك شائعًا في الطائفة الكبيرة من الزمن التي تتسم بخصوصية ، فالعصور التي عاصرها الإنسان على هذه الحياة عصور مختلفة ، وكل عصر له بداية وله نهاية ، حضارات قامت .. أمم قامت .. دول حكمت وبعد ذلك انتهت ، فنقول : قيامها يدل على أن فيها مقومات الوجود ، وفناؤها وانهيارها يدل على أنها حملت بعد ذلك مقومات الفناء ، فلو أن مقومات الوجود في أي عصر ظلت فيه رتيبة لما انتهى ذلك العصر .

إذن ما الذي جعل ذلك العصر ينتهي إلى أفول ؟

ذلك لأن مقــومات وجوده كانت نشـــطة في أول الأمر ، وبـــعد ذلك غفل الناس عنها أو تشاغلوا ، فحملت مقومات فنائها فتدمرت .

كأن الحق يريد قبل أن يعلن المبدأ أن يستلهمنا الواقع التاريخي .. الواقع الوجودي حتى نحكّم ذلك المبدأ ، فحكّم ذلك المبدأ في كل عصر من العصور .. في كل وقت من الأوقات ، فستجد أن المبدأ حق .. أنه لا يستقيم ولا يستقر أي عصر من العصور بمقوماته إلا إذا حافظ على ما يأتي ..

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .. أن تكون فيه عقيدة يجمعها كلمة الإيمان ، وألا يكتفي بالعقيدة بل لابد من إبراز العقيدة والتعبير عنها بعملٍ وترجمتها بسلوك ؛ لأن وجود العقيدة بدون أن تترجم إلى سلوك تكون كلامًا لا قيمة له ، فإذا ترجمت العقيدة إلى سلوك وإلى عمل فستتعرض لعقبات كثيرة ، وما دامت تتعرض لعقبات كثيرة فستحتاج إلى مقومين أيضًا .

هذان المقومان هما :

أن يتواصى المملوكون بالعقـــيدة على الحق ، بمعنى أن يكون الحق دائمًا نصب أعينهم ، فكل إنســان يوصي أخاه بــالحق ، وهل إيصاؤهم بــالحق يمنع من وجود العقبــات من غير المؤمنين بالحق ؟

لا .. فلابد من وجود صراع ، هذا الصراع بين قوى الخير التي تخدم الحق ، وقوى الشر التي لا تريد الحق وتريد الباطل ، فلابد إذن من التواصي بالصبر .

فكأن منهج العمل الناجح الذي يجعله ناجحًا دائمًا هو : عقيدة يترجم عنها إيمان ، وبعد ذلك عمل على وفق تلك العقيدة ، ثم بعد ذلك تواصٍ بالحق لتظل هذه العقيدة ثابتة ، وتظل هذه الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة ، وبــعد ذلك عقبــات تعترضها ، فلابــد من التواصي بالصبر .

كل حـــركة في الحياة لا تحكمها هذه العناصر حـــركة مآلها إلى الخســـران .. مآلها إلى الزوال .. مآلها إلى أنها لا تُعمَّر في الوجود أبدًا .. مآلها أنها تفنى .

فلو أن إنسانًا أرغم جماعة على عمل من الأعمال لا يتسم مع عقيدتهم ، فهناك سيخور هو ، ولا يمكن أن يستمر ذلك الإكراه ، وبعد ذلك تخرج المسائل عن طوق المكره ، وبعد ذلك تنهار هذه المسائل .

إذن فكل عمل يراد بـه أن يكون ناجحًا ، وأن يكون باقـيًا لابـد أن تسـتكمل فيه هذه العناصر : عناصر الإيمان بالمبـــدأ .. عناصر العمل .. عناصر التواصي بـــالحق .. عناصر التواصي بالصبر .

حينئذ يكون الحق ﷻ قد قدم الدليل في القسم ، وقدم الاستشهاد بأن يقول لك : استعرض أي عصر من العصور .. أي طائفة من الزمن لتعرف بماذا كتب النجاح لأي مبدأ من المبادئ .

كتب له النجاح باستيفائه لهذه العناصر ، فإن لم يستوفِ هذه العناصر فهو مبدأ محكوم على صاحبه بأنه في خسر .. في ضلال ، وأما مبدأ يستوفي هذه العناصر فاحكم عليه بأنه مبدأ ناجح ونافع .

لذلك تجد الحق ﷻ حينما يعرض علينا ألوانًا من العصور القديمة التي سبقت وجمعها طابع واحد من الزمن ، كما يعرض علينا مثلاً قوم فرعون .. قوم نوح .. عاد .. ثمود ، فيقول الحق ﷻ في سبأ مثلاً .. تلك المملكة القوية التي أخذت عصر نهضة وسعادة طويل ، فيقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيـــلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ ﴾[1]. حـــضارة قـــامت والتفتت إليها الدنيا ، فما الذي جعلها تنهار ؟! ما الذي

1 – سورة : سبأ ، الآية : 15 : 17 .

جعلها تنحدر ؟!

إنها لم يكن فيها مبادئ الصمود ، ولا مبادئ الخلود ، التي هي العقيدة ، والعمل على وفق العقيدة ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ويعرض علينا الحق أيضًا حضارات أخرى تمثلت في عصور كانت مزدهرة ، حسبك مثلاً من عصرٍ كالعصر الذي يسمونه (**العصر الفرعوني**) .. الذي لا يزال من آثاره أشياء تَشْدَه الناس ، حتى إنهم يأتون إليها من بلاد النور .. بلاد المعرفة .. بلاد الحضارة ؛ حتى يشاهدوا هذه الأشياء ! !

حسبك من عصر يلفت انتباه من عاش في هذه الحضارة إلى أن يذهب إلى هناك فيتعجب ، فيقول مثلاً : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ** ﴾[1] ، دليل على أنها بلغت من الحضارة مبلغًا لافتًا .. ﴿ **وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ** ﴾[2] .

إذن فالحق ﷻ يقول : استقرئ التاريخ ، وانظر إلى العصور ، وانظر إلى الحضارات التي تقدمتك ، فبدراستك لهذه العصور ترى أنه لا يزدهر ولا يبقى إلا المبدأ ، هذا المبدأ يعيش على عقيدة ويترجم إلى عمل ، ويتواصى فيه بالحق ، ويتواصى فيه بالصبر .

وعندما نستعرض تاريخنا الإسلامي نجد أن هناك عقيدة ، فنحن كلنا مؤمنون بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، ونؤمن بالقضاء ، ونؤمن بالقدر ، ونؤمن باليوم الآخر ، ومع ذلك نجد أن العصور الإسلامية نفسها أو الأمم الإسلامية تعرضت لأشياء من الهوان ، ومن الذلة ، ومن الضعف ، ومن الاستعباد ، ومن استعمار الغير لها .. لماذا ؟!

---

1 – سورة : الفجر ، الآية : 6 : 8 .

2 – سورة : الفجر ، الآية : 9 : 13 .

لأننا وإن كان عندنا العقيدة ، إلا أن العنصر الثاني غير موجود ، وهو عنصر العمل ، فعلى فرض أن عنصر العمل موجود فسيظل موجودًا إلى أن تتعرض الشهوات ، فتزين للإنسان أن يخرج عن منهج الحق ، فيخرج قليلاً عن منهج الحق .

وافترض أننا ثبتنا على منهج الحق ولكننا لم نتواصَ حين تأتي الأزمات ، وحين تأتي الشدائد ، فلم نتواصَ بالصبر والاحتمال عليها ، فستخور عزائمنا وسنرضى بالأمر الواقع ، الواقع الذي فرضه علينا عدونا ، أو الذي فرضه علينا استعمارنا .

ولو أن هذا المبدأ بكل عناصره ظل يقظًا في حياة الأمة الإسلامية لما أمكن أبدًا أن يكونوا في خسر ، فإذا رأيتهم في خسر فاعلم أن عقيدة ضعفت ، أو أن عقيدة لم تترجم إلى عمل ، أو أن العمل حينما تعرض لهوى النفس انصرف عن الحق ، أو أنه حينما لم ينصرف عن الحق وجاءت له المصائب من خارجه لم يتواصَ بالصبر فخارت عزائمهم أمام أعدائهم ، وحين تخور عزائمهم أمام أعدائهم ولا يوجد التواصي بالصبر والاحتمال والإنسان الذي يتحمل المشقات فلابد أن ينهار المبدأ ، وأن يتمكن عدوه منه .

إذن فالحق ﷻ يطلب منا أن نعرض لواقع التاريخ في الأرض ، ولواقع الحضارات ، ولواقع العصور بكل مميزاتها ؛ لنتأكد من أن المبدأ الذي أطلقه الحق ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صحيحًا .

وعندما ترى الشيء وفيه استثناء فاعرف أن هذا الاستثناء قسم المسألة إلى قسمين فقال : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .. القضية مطلقة ، ثم قال : ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، فالإنسان ينقسم بواسطة الاستثناء إلى نوعين : نوع في خسر ، ونوع في غير خسر .

فما حكاية هذا الإنسان ؟

قيل : هذا الإنسان مرة يطلق ويراد به الحقيقة ، ومرة يطلق ويراد به الجنس ، ومرة يطلق

ويراد به فرد من الأفراد ، ومرة يطلق ويراد به كل الأفراد ، فما الذي يتحكم في إرادة معنى من المعاني ؟

قيل : الاستثناء ، فعندما يقول مثلاً : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. فقد استثنى جماعة ، فالذين آمنوا جماعة استثناهم من الإنسان ، فالإنسان لا يراد به الفرد ، ولا يراد به الحقيقة في ذاتها ، وإنما يراد به الحقيقة في كل فرد من أفرادها ، فكأنه قال : كل أفراد الإنسان ، ويسمونها (**" ال " الاستغراقية**) ، أي : تشمل كل الأفراد .

والذي دلنا على أن " ال " استغراقية تشمل كل الأفراد ، أن الذي استثني منها ليس فردًا ، وإنما استثني منها جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة إلا من جماعة أكثر منها ، فكأن قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ، أي : كل إنسان .. جميع الأفراد في خسر ﴿ إِلاَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

إذن فلفظة : " ال " في كلمة ﴿ الإِنْسَانَ ﴾ دلت على أن المراد هنا الاستغراق ، الاستغراق الحقيقي لكل الأفراد ، أي : القضية لم يشذ عنها فرد من الأفراد سواء كان فردًا في نفسه ، أو فردًا في أسرته ، أو فردًا في أمته ، أو في المجتمع ، والدليل على ذلك أن الاستثناء جاء من كلمة " **إنسان** " ؛ فإنسان مستثنى منه ، والمستثنى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهم جماعة ، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة من فرد ، فلابد أن تستثنى الجماعة من جماعة أوسع دائرة منها .

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .. العنصر الأول عنصر عقدي ، فنجد أن اختيار كلمة " **العقيدة** " للمبدأ الذي يختمر في النفس ، وبعد ذلك ينعقد عليه القلب ويربط عليه الفؤاد بحيث لا يخرج منه أبدًا ؛ لأن غير المعقود عرضة للتطاير والانحلال ، إنما أمر عقد ، أي : معناه أنه أصبح مربوطًا ، هذا معنى كلمة عقيدة .

فالعقيدة ليست هي الفكر في الرأس ؛ لأن الفكر في الرأس لا يزال محل مناقشة .



وليست العقيدة فيما تستقبل الحواس ، فكل شيء تستقبله حواسك لا يقال له : عقيدة ؛ لأنه أمر محس ، فلا يقول قائل : أنا أعتقد أنني معكم الآن ، وأتكلم وأنتم تسمعون .. لا يقال : أنا أعتقد أن الكهرباء موجودة .. ولا يقال : أنا أعتقد أن الجامعة بابها مفتوح والطلاب يدخلونها ؛ لأن هذا أمر حسي ، لا يمكن أن يقال فيه : عقيدة ؛ لأن العقيدة لابد أن تكون في أمر غيبي ، إنما الأمر الحسي لا تأتي فيه عقيدة أبدًا ؛ لأن الأمر الحسي يشترك فيه الناس كلهم ، فلا يقال فيه : عقيدة ، إنما كلمة " **عقيدة** " تأتي في الأمور الغيبية .

ولذلك العقيدة التي هي المقومة الأولى لمقومات الإيمان مفرداتها : أن تؤمن بالله .. والله غيب ، وملائكته .. والملائكة غيب ، وكتبه ورسله .. وهم أيضًا غيب ، رغم أن الكتاب نراه والرسول نراه ، ولكننا لم نشهد الوحي وهو نازل عليه ويقول له : أنت رسول ، ولم نشهد الكتاب وهو ينزل عليه ، فصحيح أننا رأينا الحصيلة فآمنا بأنه هو الرسول ، فنحن آمنا بعقولنا ؛ فهذه أمور غيبية أن هناك وحيًا نزل عليه ، وملكًا أقرأه الكتاب ، فهذا أمر لم نره .

إذن فالأساس الأول في العقيدة أن تكون أمرًا غيبيًّا : تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وأن تؤمن باليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، فالقدر غيب ، والآخرة ليست الآن أمرًا محسًّا ، فنحن صدقناها لأن الله قال بها ، إذن فالعقيدة دائمًا إنما تكون في الأمور الغيبية .

ومن هنا يختلف المؤمن عن الكافر ، فالكافر يريدها كلها أشياء محسة ، فنقول له : الشيء المحس لا يكون فيه إيمان ؛ لأنك تستوي مع الغير في إدراك الشيء المحس ، فلو أن العقيدة تتعلق بأمر محسٍ فيستوي فيها المؤمن والكافر ، لكن ميزة المؤمن أنه آمن بأشياء غيبية ، هذه الأشياء الغيبية حكّم فيها ميزانه ، فما هو هذا الميزان ؟

قالوا : ليس معنى أننا لا ندرك الشيء أنه غير موجود ، لماذا ؟

قالوا : انظر في نفسك .. ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾[1].. أنا أومن بأن نفسي جسم

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 21 .

ومادة لا تخرج عن طبيعة مكونات الأرض ، وإنما فيها شيء إذا حل فيه أعطاه الحياة والحس والحركة والفكر ، وإذا نزع منه صار رميمًا ، وتحلل إلى عناصره ، وصار مادة ، هذا الذي اسمه الروح ، فهل رأينا الروح ؟ كلا .. هل سمعناها ؟ كلا .. هل ذقناها ؟ كلا .. هل شممناها ؟ كلا .. هل لمسناها ؟ كلا .. إذن فليست مدركة بأي حاسة ، ومع ذلك آمنت بها ، إذن فأنت آمنت بغيب في نفسك ، فكأن الحق ﷻ طلب منا أن نؤمن بأمر غيبي عن إدراكنا الحسي وبه حياتنا ، شيء به حياتنا ولا ندركه .

إذن فإذا حُدِّثت بأن لك ربًّا ، هو خالق الكون ، وله إدارته وتدبيره ، وأنت لا تراه فلا تعجب ؛ لأن هذا أمر موجود في نفسك ، فإذا كنت لم تستطع أن تدرك خلقًا من خلق الله في نفسك ، وهي (الروح) ، وأنت مؤمن بآثاره فيك ، فكيف تدرك من خلق هذا الشيء ؟

مخلوق له لم تستطع إدراكه ، ومع ذلك آمنت بأنه موجود ، فكيف بالذي خلق ذلك غير المدرك ؟! فكيف تدركه ؟! ولو أدركته لم يصلح أن يكون إلهًا ؛ لأنك أحطت به ، وأحاط به حسك وعقلك ، إذن من عظمته أنه لا يدرك .

إذن فهناك فرق بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء ، فلا يصح أن يربط المؤمن بين إدراك الشيء وبين وجوده وإحساسه به ، بل عدم حسك به وعدم إدراكك له لا يعني أنه غير موجود ، والدليل على ذلك موجود في نفسك ، وهو روحك .

ولماذا نحيله إلى شيء لا يراه أبدًا ؟

نقول له : أنت تستقرئ كتاب الكون كل يوم ، وتكتشف فيه غائبًا عنك .. تكتشف كنزًا وسرًّا من أسرار الكون ، قبل اكتشافه أكان موجودًا أم غير موجود ؟

كان موجودًا ، فالحاصل أنك اكتشفته ، فكيف اكتشفته ؟!

قيل : إن وسائل إدراكي لم تكن قادرة على إدراكه في أول الأمر ، وبعد ذلك يسر لي بوسائل الإدراك أن أدركه ، فالميكروب مثلاً الذي اكتشف في العصر الحديث كان موجودًا أم

غير موجود ؟ أعدم رؤيتك وعدم إحساسك به قديمًا يعني أنه غير موجود ؟

كلا .. لا يعني أنه غير موجود لأنه لم يكن قد دخل في دائرة إدراكنا ، بدليل أنه عندما بدأ يدخل في دائرة إدراكنا أدركناه .

فإذا جلست في حجرة ، ثم فتحت طاقة وأتت بحزمة ضوئية من الشمس ، ساعتها سترى في الحزمة الضوئية أشياء كثيرة تتحرك فيها .. هي ذرات .. هذه الذرات أين كانت قبل أن تدخل الحزمة الضوئية ؟

كانت موجودة أيضا ، ولكنك لم تكن تراها ؛ لأن الضوء الذي كان موجودًا لم يكن كافيًا ليظهر دقائقها ، فلما دخلت حزمة ضوئية قوية عليها بينتها لك .

إذن فعدم إدراك الشيء ليس له علاقة بوجود ذلك الشيء .

وما دام الإنسان في المادة التي هي من جنسه كالذرات ، أو الميكروب التي هي من جنسه المادي ، ومع ذلك لم يكن يدركه ثم أدركه ، ألا يجعل ذلك الإنسان يستأنس بأن هناك كثيرًا من الأشياء الغيبية لا يدركها وهي موجودة أيضًا ، إذا كان من مادته ما كان موجودًا ولم يدركه ، فإذا قال الله ﷻ : هناك أشياء أخرى ألطف من الإنسان وهي الجن ، وهناك أشياء ألطف من الجن وهي الملائكة وهو لا يدركها ، فيجب أن يصدق ؛ لأن هناك شيئًا من جنس مادته بلغ من الدقة مبلغًا وهو لا يدركه ومع ذلك أدركه ، أي أن إدراكه لما كان غيبًا قديمًا يؤنسه بأن يجعل فيه إيناسًا بأن الغيب لعله فيما بعد يدركه .

إذن فالعقيدة لا تتأتى إلا في الأمور الغيبية : إيمان بالله ، إيمان بملائكة الله ، إيمان بالكتب ، إيمان بالرسل ، إيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، إيمان بأن هناك آخرة .. تلك هي العقيدة .

هذه العقيدة لها أم هي التي يدخل عليها الإنسان بعقله : أن تؤمن بالله هذا هو الأصل ، فإذا دخلت على الإيمان بالله بعقلك ، فإذا ما دخلت على أن هناك قوة اسمها الله موجود له

قدرة .. له قيومية .. له حكمه .. إليه المرد .. آمنت به .

بعد ذلك تأتي العقيدة الثانية ويكون مصدرها ما آمنت بـه أولاً ، فأنت آمنت بـالملائكة لأن الله أخبرك ، وآمنت بالله لأنك انتهيت إليه بالدليل العقلي .

إذن فالعقائد تكون نوعين : نوع هو القمة .. الأسـاس ، ونوع تخبر بـه القـمة ، فنحـن آمنا بـالملائكة ؛ لأن الله قـال لنا : هناك ملائكة .. آمنا بـالجن ؛ لأن الله قـال لنا : هناك جن .. آمنا بالرسل ؛ لأن الله قال ذلك .. آمنا بالقضاء والقـدر لأن الله قـال ذلك .. آمنا بـاليوم الآخر لأن الله قال ذلك .. وآمنا بالله لأن عقلونا دلتنا على وجود ذلك الإله .

إذن فالمسألة كلها مردودة إلى العقل ، إلا أن العقل احـترامًا لنفسـه ما دام آمن بـالله فيجب عليه تبعًا لذلك أن يؤمن بكل ما صدر عن الله ، كل ما يُطلب منه أن يوثق ذلك الأمر بأنه صدر من الله .

إذن فما دمنا آمنا بـالله ، وسـنأخذ منه عقـديات غيبـية ، فمن الأولى أن نأخذ أشـياء ظاهرية .. نأخذ منه تكاليف .. نأخذ منه منهج الحياة ؛ لأننا أخذنا منه أشـياء لا تدخل تحت حسي ، فنأخذ منه ويكون هو المصدر الوحيد .

وما دام ذلك هو المصدر الوحيد فماذا يعطي ذلك للإنسان ؟

إنه يعطي للإنسـان أن لا يضعف أمام الحياة ؛ لأنه لا يواجهها بقـوته ، ولكن يواجهها بقوة الإله الذي آمن به ، فإذا حدثت له أي أحـداث بـالغة مهما بـلغت ، وخرجت عن نطاق قـوته ، ونطاق سببـه فيجب ألا يخور ؛ لأنه لا يواجه الحياة بأسبابـه ، ولا يواجه الحياة بقوته ، وإنما يواجهها بالقوة المطلقة ، وبالقدرة التي لا تعجز عن شيء ، وبخالق الأسبـاب ؛ ولذلك يقـول ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

فالأسباب تضيع .

---

1 - سورة : الطلاق ، الآية : 2 ، 3 .

إذن فالإيمان بالله يثري النفس البشرية ، فيجعلها ثرية وغنية ، وعدم الإيمان يفقرها .

وبعد ذلك إذا آمنا بالله يخبرنا ويطمئننا أن هذا الوجود بما فيه من كل الأجناس مخلوق لخدمتنا ، ومسخر لنا جماده ونباته وحيوانه ، كل هذا مسخر لنا ، ما دخل في طوق قدرتنا وما لم يدخل .

إذن فنحن لا نتشكك في أن الكون سيعصى علينا ؛ لأنه مخلوق لنا ، ونحن نأخذ الملكية بالخلافة ، فنحن واثقون أن ذلك الكون لا يمكن أن يخرج عن نطاق خلافتنا ، ولا يخرج عن نطاق تسخيره لنا .

فقد أعطى للإنسان قوة زائدة ، إذا قال الله ﷻ : إن الخلق الذين تراهم كلهم عبادي ، وما داموا عبادي فأنت وهم مشتركون في العبودية ، لا يوجد أحد منكم ابن لله ، فربنا لم يتخذ من أحد صاحبة ، ولم يتخذ من ولد ، فكلنا بالنسبة لله سواء وعبيد ، وما دمنا عبيدًا يجب أن نلزم منهجين اثنين :

المنهج الأول : أننا وهم عبيد ، فنحن لا نستعلي عليهم ؛ لأن عبيد غيرنا أحرار مثلنا ، فما داموا ليسوا عبيدنا فهم أحرار مثلنا تمامًا .

المنهج الثاني : أن لا نستخزي لأحد فيمنعنا ذلك من أن نعلو ، ويمنعه من أن يكون إنسانًا سويًا ، فلا ننظر لهم على أنهم منافسون لنا في الحياة وسيأخذون أرزاقنا ، بل ننظر لهم على أنهم معاونون لنا في الحياة ، إخوة يحبون لنا الخير ؛ لأننا مؤمنون جميعًا بمنهج واحد ، هذا المنهج الواحد يقول : **" لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .. التقوى ههنا** – ويشير إلى صدره ثلاث مرات – **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه "** [1] ، أو كما قال ﷺ : **" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا "** .. ثم شبك بين أصابعه

1 - أخرجه البخاري (2262) ، ومسلم (4650) .

إذن .. فكلما وجدنا الكثير من الناس فلا ينبغي أن نأخذه على أنه علينا ، بل نأخذه على أنه لنا ، فعندما تكون هناك نعمة عند أحد الناس ، وما دمت أنا مؤمنًا بأن الله هو الواحد الواهب لهذه النعم ، فلابد وأن أقول : لعل الله رأى في نعمته الخير ، ورأي الخير في منعي ؛ فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فهو عندما يؤدي حق الله عليه في النعمة ويصيبني منها شيء فلا أحقد عليه ، ولا أحسده ، فتكون النعمة في يدي كالنعمة في يد غيري ؛ لأن خيرها واصل إلي سواء كان من معي أو من عند غيري .

إذن فالإيمان بالله ﷻ ، وأنه المرجع النهائي للقوة ، والمصدر النهائي لكل قوة تجعل الإنسان يعتز بالحياة ، ولا يخور أمام أي مظهر من مظاهر الحياة .

وأيضًا فما دمنا سنؤمن بأن هناك إلهاً موجودًا ، فممن نأخذ تصوراتنا ؟! هل نأخذها من تصورات الغير ؟! لماذا نأخذ منهجنا من عند غيرنا ؟! ولماذا هم يأخذون منهجهم من عملنا الفكري ؟! ولماذا لا يكون الأمر بالعكس ؟! لماذا تتحكم أمة لأنها قوية في أنها تضع نظمًا ومبادئ وتحمل عليها الأمم الضعيفة ؟!

إذن ستتفرق هنا السبل حسب الأهواء .

لكن عندما نعرف أن لنا ربًا ، وهو الوحيد الذي نتلقى منه المنهج ، فقد قضى على هواي وعلى هواك ولا سلطان لأحد مطلقاً في أن ينظمنا ، أو أن يحكم ذلك الكون .

إذن فقد عصمنا ﷻ من التجارب ، ومن أن نأتي بالمبادئ من غيرنا فيتحكم فينا .

وليس لله خليل ولا صاحب ، وعليه فسنواجه الحياة بأننا كلنا في الأصل عبيد ، وما دمنا سنواجه الله وكلنا عبيد فكل واحد يستطيع أن يتصل بالله ، فكلنا جميعًا بالنسبة له سواء ، وبعد ذلك كرمنا وسخر لنا ذلك الكون .

1 – أخرجه البخاري (5567) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

إذن فلا نرضى أبدًا أن نكون في مرتبة الهوان ، أي : في منزلة أقل من المنزلة التي وضعنا فيها ربنا ، كتلك المذاهب التي تزعم أن أصل الإنسان قرد ، أهو يكرمنا ثم نتسفل به لنجعل أصله ممن هو دونه ؟! فكل مذهب يأتي من هذا فنحن نرفضه ؛ لأن ذلك ينافي تكريم الله للإنسان .

وأيضًا ما دمت أنا بالنسبة لله مثل الجميع بالنسبة له ، فيجب أن أضع في حسابي أنني بالنسبة للناس لست خاضعًا في الحساب والجزاء لهم ؛ لأنني أستطيع أن أخبئ عنهم أشياء ، وأن أستر عنهم أشياء ، وأن أقابلهم بوجه غير ما في قلبي .. لكن التصور الإيماني أن الحق ﷻ يطلع على خائنة الأعين ، ويعلم ما تخفيه الصدور .

إذن فسيكون المؤمن سويًا ظاهره كباطنه ؛ لأنه لا يتعامل مع الناس ، وإنما يتعامل مع الإله الذي تصور أنه لا تخفى عليه أبدًا خافية ، وما دام كذلك فيجب أن يعامل الناس بشكل واحد وبنظام واحد ، هذا النظام مبني على أنه ليست له واجهة ، وليست له خبية ، فواجهته هي خبيته .

وأيضًا عندما نتصور الإيمان بالله وأنه هو الذي خلقنا ، وأننا سنرجع إليه فلابد أن نؤمن بأن الدار الدنيا ليست كل شيء ، فمن يحرص على الدنيا ويظلم فيها ويطغى ويتمتع بأقصى قسط من النعيم ويأبى أن تقيده مناهج لا من عند الله ولا من عند غيره ، ويريد أن ينطلق في الحياة على هواه ، فنقول : إن هذا هو الإنسان الذي يتصور أن حياته فقط هي هذه الدنيا .

ولكننا إذا ارتبطنا بالعقيدة الإيمانية نرى أن الحياة معبر فقط ، وليست محل جزاء ، فمهما يصيبنا فيها فلا نحزن ، لماذا ؟ لأنها ليست النهاية ؛ فالله ﷻ يقول : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1] ، فليست هذه هي الحياة ، فنحن نعتبرها برزخًا .. نعتبرها معبرًا فقط إلى دار أخرى ، فمهما أصابنا فيها فلا يمكن أن ينال منا شيءٌ ؛

---

1 - سورة : العنكبوت ، الآية : 64 .

لأن الغاية لم يحن حينها بعد .

وبعد ذلك يقول : ما دامت المسألة بهذا الشكل ، وأنت ستتصور في إلهك ، وستأخذ العقيدة عن ذلك الإله ، أنه بهذه العظمة ، وبهذه القوة ، وبهذا العلم الخفي الذي يكشف أمورك الداخلية .. فإذا كنت أنت فيه بالنسبة للناس لا تداري عنه فلا يمكن أبدًا أن تكون بالنسبة إليه أقل من الناس .

وأيضًا فإننا لو نظرنا إلى الكون نجد أنه ما دام هناك إله ، ولا يزيد عملنا في ملك هذا الإله شيئًا ، ولا إيماننا يثبت عرشه ، وكفر الكافرين به لا يزلزل عرشه .. إذن فعملنا المكلفون به وسنعطى عليه ثوابًا يكون بمحض الفضل من الله ﷻ ؛ لأنه عملنا هذا منفعته عائدة علينا نحن ، إذن فعندما يعطينا مع ذلك ثوابًا عليه فبمحض فضله ﷻ .

فبواسطة هذا التصور العقدي سنمنع من أشياء كثيرة ، فسنمنع من أن نفكر بأننا في الحياة أفراد وحيدون ، كلا ، فنحن لنا إله ، وفي حياتنا نقول : إن الذي له أب لا يحمل همّ الحياة ، ولا هم المعاش ، ولا يهتم إذا كانت الحياة غالية أو رخيصة ، لماذا ؟ لأن له أبًا ، فإذا كان من له أب لا ينشغل بهمّ الحياة ، فكيف الحال بمن له رب ؟!

إذن فهذا هو الرصيد الذي يجعلنا نمضي في الحياة ولا نسأل عن أي شيء .

وبالتالي فسأستقبل المحصات التي تأتي من كوارث الدنيا ونكباتها في مال أو نفس أو ولد ، أستقبل كل ذلك على أنها ممحصات ، والله لا يمحص إلا من يحبه ، فيريد أن يجعله طاهرًا من الذنوب ، كما جاء عن **أنس بن مالك** ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، و من سخط فله السخط** "[1] .

و هذا الحديث يدل على أن البلاء يكون خيرًا للعبد ، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله

1 – أخرجه الترمذي (2 / 64) ، وابن ماجه (4031) .

ﷻ ، إذا صبر على بلاء الله ﷻ ، و رضي بقضاء الله ﷻ ، وذلك كما جاء في حديث صهيب الرومي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **" عجبًا لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له "** [1].

إذن فعندما ينظر الإنسان إلى الأشياء المؤلمة المتعبة في مصائب الدنيا وفي أحداثها أنها بمثابة الغسول والتطهير له ؛ من أجل أن تكون الحياة الباقية حياة نظيفة .. حياة عالية ؛ فلا يحزن الإنسان من هذه الابتلاءات ، بل يستقبلها استقبال الراضي بقدر الله ﷻ فيه .. الراضي بحكمه ، وأنه لم يُجرِ عليه شيئًا إلا لمصلحته .

فإنسان تكون عنده هذه العقيدة كيف يواجه الحياة ؟

لا شك أنه سيواجه الحياة بكل قوته ، لأن الذين ليست عندهم عقيدة حينما تفجؤهم الأحداث تضيع طاقة كبيرة من طاقتهم ؛ فيصيبهم شيء من الانهيار ، وبالتالي يواجهون الحياة وحركتها بطاقة غير كاملة ، وبفكر غير كامل .

فإذا كنت وأنت في أول الأمر لم تقدر عليها وأنت بطاقتك المجمعة وبفكرك الكامل ، فكيف إذا أضعفتها بإضعاف طاقتك وإضعاف فكرك ؟! يقينًا سوف تواجهها مواجهة أقل ، لكن المؤمن ينظر لقول الحق ﷻ : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [2]، فما دمت مؤمنًا ، وصلتك الإيمانية جيدة بربك ، فاعتقد أنك عالٍ .. انهزمت فأنت عالٍ .. أُصبت بأي شيء فأنت عالٍ .

ولذلك عندما يعرض القرآن علينا هذه المسألة في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [3]. فبقانون البشر هذا كلام صحيح ، لأن قوم فرعون وراءهم ،

1 - أخرجه مسلم (5318) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 139 .

3 - سورة : الشعراء ، الآية : 61 .

والبحر أمامهم ، ولكن ماذا قال موسى عليه السلام ؟ ﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾[1] .. بملء فيه ، فقد التفت إلى ذلك الرصيد القوي ، ثم إنه لم يقل : ﴿ كَلاَّ ﴾ بلا حيثية ، بل قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، أنتم صادقون ، ففي قانون الناس هم سيدركوننا لا محالة ، إنما عندما يكون معي ربي وسيهدين فلن يدركونا أبدًا ، فارتكن موسى عليه السلام إلى ركن ركين ، ولذلك فما كاد يتم كلمته حتى ناداه ربه عز وجل وقال له : ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾[2] ، فضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ .. شيء عجيب ، هذا هو الرصيد .. وكذلك يكون الإيمان .

إذن فالمؤمن الذي يواجه الحياة في أي عصر من العصور بالطاقة الإيمانية .. فبهذه القوة يكون قلبه قد عمر وانتهى الأمر .

ولا تكون طاقة إيمانية إلا إذا ثبتت واستقرت ورُبط القلب عليها وأصبحت عقيدة ، أي : لا تطفو مرة أخرى على الذهن لتناقش من جديد ، فإن طفت على الذهن لتناقش من جديد فلا يقال : إنها عقيدة ، بل ما زالت فكرة تبحث ، فإذا ما انتهي من بحثها نهائيًّا واستقرت أصبحت عقيدة ، فكذلك يريد منا الحق جل جلاله ، فليس بمجرد المعرفة تكون عقيدة ، فقد تعرف شيئًا ولكنه لا يستقر في نفسك استقرار العقيدة ، ولذلك يقول الحق جل جلاله عن الكفار : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[3] ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[4] .. إذن فهم يعرفون ، ويناديهم متسائلاً .. ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[5] .

---

1 – سورة : الشعراء ، الآية : 62 .
2 – سورة : الشعراء ، الآية : 63 .
3 – سورة : الزخرف ، الآية : 87 .
4 – سورة : لقمان ، الآية : 25 .
5 – سورة : الطور ، الآية : 35 .

فما معنى أنهم يعرفونَ ذلك ولم يؤمنوا ؟!

هناك فرق بين المعرفة والعلم ، وبين اليقين والعقيدة ، فلم تصل في نفوسهم إلى درجة أن تصير عقيدة .. تلك العقيدة التي تحكم سلوكهم في الحياة ، فإذا وصلت العقيدة إلى أنها مذكورة دائمًا ، وفي بال الإنسان دائمًا ، وتحكم حركة حياته ، فأي عمل يعمله يسأل نفسه أيرضي العقيدة أم لا ؟ أيتفق مع العقيدة أم لا ؟

إذن فعلمك بشيء لا يعني أنك اعتقدت به ، وأنك تحمست له ، وأنك سخرت كل تصرفاتك بناءً على تلك العقيدة ، فالذي كان معلومًا عندهم معرفة شيء أو علم شيء ، إنما إيمان ويقين بشيء هذا لم يكن عندهم ؛ لأنه لو كان عندهم إيمان ويقين بشيء لكان من الممكن أن يديروا حركة حياتهم على ذلك المركز .

إذن فالأساس الأول في المنهج المتميز .. المنهج الجامع لكل خير في حركة الحياة هو أن يوجد الإيمان أولاً ، ولذلك لا يُكره الله على الإيمان ؛ لأن الله ﷻ يريد أن تصدر الأعمال عن عقيدة عندك أنت ، وإلا لو كان الحق يريد حركة منك لأرغمك عليها كما يرغم المكرِه حركة المكرَه وقلبه غير مقتنع به ، ولذلك تقرأ قوله ﷻ : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾[1] ، فهل يريد الله أعناقًا وأجسامًا وحركة ؟

كلا .. فهذا يملكه العبيد ، فهم قد يرغمون أحدًا على أن يفعل فعلاً وقلبه يأباه .

فكأن الحق ﷻ يقول : أنا لا أريد أعناقًا خاضعة .. ولا أريد أشباحًا خاضعة .. أنا لا أريد قوالب .. أنا أريد قلوبًا خاضعة ؛ لأن القلب سيحكم عليك أن تعمل ، سواء رأيتك وكنت بمظهر من الناس ، أم كنت مختبئًا بينك وبين نفسك .

قصارى ما يصنعه المكرِه أن يكره قالبك على فعل شيء ما دام مسيطرًا عليك ، فإذا خلوت

---

1 - سورة : الشعراء ، الآية : 3 ، 4 .

لنفسك فأنت حر حينئذ ، لكن حين يكون المبدأ عن طواعية .. وعن اختيار .. وعن رضا .. يتحكم فيك المبدأ في كل حركاتك .

والمكرِه على شيء حين يكرهك على سلوك معين فأول ما يحمل من المعاني أنه غير مقتنع بذات المبدأ ، فهو نفسه غير مقتنع أن المبدأ صحيح ؛ لأنه لو كان مقتنعًا بأن المبدأ صحيح فلا يأتي في باله أن يعارضه الناس ، فسيقول : هذا مبدأ سليم فلن تعارضه الناس ؟

إنما هو عارف أن المبدأ غير سليم ويقول : إن أنا وضعت سوطي ولم أرغم الناس عليه فلن يتمسك به أحد .

فالحق ﷻ يؤكد على عدم إرغام الناس على الدين فيقول : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[1] ، ما حيثية ذلك ، ولماذا لا يوجد إكراه ؟ ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ ، فالمسألة واضحة فلا تحتاج إكراهًا .

إذن الذي يريد إكراهًا من البشر على المبدأ المعوج يقول : أنا لو تركت الناس ولم أرغمهم بالقوة والسوط على اعتناق هذا المبدأ فلن يتبعني أحد ؛ لأنه هو نفسه ليس مقتنعًا أن هذا المبدأ يتبع ، فعلى مقدار الإكراه فيه يكون مقدار إيمانه هو شخصيًا به .

إذن فأول شيء في المبدأ هو أن يستقبل برضا .. أن يستقبل باختيار ؛ لأنه سيحكم كل حياتك ظاهرها وباطنها .. ما لك وما عليك ، فإذا جاء الإيمان بعد ذلك والإيمان في ذاته ليس غاية ، الإيمان في ذاته وسيلة إلى أشياء ، فما دمت آمنت بالإله .. الذي يوصف بأنه قوي .. فأنت تلجأ إليه .. وأنت تؤمن أنه صنع لك كل ذلك الخير .. أن الناس كلهم بالنسبة له سواء .. أن لا يُشرِّع لخلق الله إلا الله ، هو الذي يُشرِّع ، رفعني الإله وكرمني أنه جعلني كذا وكذا .. ذلك الإله .

فيجب أن أستقبل عنه منهجه ، وذلك بجعله حركة حياة التي هي العمل الصالح ، فنكون

1 – سورة : البقرة ، الآية : 256 .

بذلك قد انتقلنا من العنصر الأول إلى العنصر الثاني ، وهو العمل الصالح .

والعمل الصالح نرى ترجمته في أشياء طلبها الحق ﷻ منا ، وفي ظاهر الأمر أنك لا ترى لبعضها فوائد عاجلة ، وهي التي نسميها العبادات .

وبعد ذلك وضع لك في نظام حركة الحياة معاملات .. المعاملات هي التي تنظم حركتك كفرد .. حركتك في الأسرة .. حركة المجتمع .. حركة الإنسانية .. علاقة الأفراد ببعضهم .. هذه اسمها النظم ، فلو لم يوجد فكرة عن إله فهل تظل ستستمر الحياة بلا نظم ؟

كلا .. ستضعها الناس لنفسها ، فما دام هناك مجتمعات فلابد من وجود نظم .

إذن فالفرق بين الأمر التعبدي والمعاملات هو أن الأمر التعبدي هو الذي شرعه الحق للتقرب منه ، وليظل فكرك فيه ، وبالك غير منقطع عنه .

لكن الأمور الأخرى التي تنظم المصالح فتسمى بالمعاملات ، والأصل في المعاملات أنها من نشاط الذهن البشري ، إلا أن مهمة الشرع فيها أن الصالح يبقيه ، والطالح ينفيه ، والذي فيه شبهة يقوِّمه ، فهذه مهمة تشريع السماء فيها .

ولذلك الإسلام أقر كثيرًا مما كان عليه القوم في الجاهلية ؛ لأنه عمل في ذاته لم يدخله فساد ، وبعد ذلك نهى عن بعض الأعمال ، وعدّل أعمالاً أخرى .

لكن المنهج العبادي ليس من نشاط البشر ، ولا عمل لذهن الإنسان فيه ، وإنما الحق ﷻ هو الذي يقول : تقرب إليّ بكذا وكذا ، ولا تفعل كذا فهو يبعدك عني .

إذن فكما يقول العلماء : الأصل في العبادات الحظر والمنع إلى أن يأتي من الشارع ما يفيد التشريع .

إذن فليس لي أن أعبد الله بطريقة لم يأمرني بها ، إلا أن أتطوع بأمر موجود مثله ، فهو فرض عليّ خمس صلوات ، فلا مانع بعد أن أصلي ما فرض عليّ من أن أتنفل بصلاة أخرى .. فرض عليّ أن أخرج 2.5 % من المال كل عام ، فلا مانع من أن أخرج خمسة أو عشرة

حسب طاقة الإحسان فيَّ .. فرض عليّ الحج مرة ، فلا مانع من أن أحج كل سنة مثلاً .. فرض عليّ صوم شهر فلا مانع من أن أصوم الاثنين والخميس .. أصوم ثلاثة أيام من كل شهر عربي .. إلخ .

إذن فالأصل في العبادة المنع والحظر ؛ لأنها الطريق الذي رسمه الله للتقرب منه ، والمعاملات هي الطريق الذي أقره الله لنظام الحياة .

إذن فالأعمال تكون صالحة : إما لأن الله هو المشرع لها أو المقر لها ، فمن حيث العبادة هو المشرع لها ، ومن حيث الأمور الأخرى وهي النشاطات الذهنية في الحياة فهو مقر لها : ما ثبّته نرضاه ، وما نفاه ننتهي عنه ، والذي عدّله نأخذ ذلك التعديل ، ذلك هو منهج الحياة .

ولك بعد ذلك أن تجول بعقلك في الأمور التعاملية التي هي نشاطات الذهن ، فتأتي بقانون الله في نظام الأسرة .. قانون الله في نظام المجتمع .. قانون الله في الحكم .. قانون الله في النظام الاقتصادي .. قانون الله في القانون السياسي وقارنه بأي قانون شئت في الدنيا ، فستنتهي بالتقنين بأن ذلك هو أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر .

فمثلاً : الغرب يرى أن الطلاق من مثالب الإسلام .. ماذا صاروا إليه الآن ؟ أباحوه رغمًا عنهم ؛ لأن ظروف الحياة أرغمتهم على ذلك ، تعدد الزوجات الآن يبحث عندهم ؛ لأنهم شاهدوا الفساد المترتب على منهجهم .

والأمر في التعبديات يجب أن يكون بحثه في علته متأخرًا عن عمله ، أي أنك لا تقتنع بعلة الأمر التعبدي أولاً وبعد ذلك تفعله ، بل تفعل أولاً سواء وصلت للعلة أم لم تصل إليها .

كذلك ثقتك في الله في كثير من الأمور التي عدّلها الله ؛ فكانوا يأكلون لحم الخنزير فقال لنا الله : لا تأكلوا لحم الخنزير ، إذن فكان عملاً غيره ربنا ، هل كنا نؤخر عدم أكل لحم الخنزير حتى يثبت عندنا بالتحليل العلمي والتحليل المعملي أن هناك فيروسات ضارة بالصحة الإنسانية .



معنى ذلك أننا كنا سنعطل الحكم أربعة عشر قرنًا حتى يأتي عصر التحليل ، كلا .. فنحن سمعنا كلام ربنا ، وقلنا : سمعنا وأطعنا ؛ لأننا واثقون من حكمته .

إذن فالأعمال الصالحة تنقسم لقسمين : قسم تعبدي ، وقسم تبدو له علل ، وهي المسائل التي تربط نظام المجتمع ، ومنها أشياء لم تكن علتها في تشريع الإسلام ظاهرة أولاً إلا أن علتها ظهرت فيما بعد .

عندما تظهر علة فيما بعد لأمر لم تكن له علة ، ماذا يعطيك ذلك ؟

يعطيك الثقة في أوامر الله ﷻ ، وأن الأشياء الغائبة علتها لها علة في الحقيقة ، ولم تواتنا الظروف حتى ندرك هذه العلة .

فكل شيء يستقبل من الله يجب أن يكون إيمان المؤمن بـه أنه فعلَ لأن الله أمر ، وترك لأن الله نهى ، ذلك هو الإيمان .

وأما الذي يقبل على الأمر لعلته فمثله كرجل غير مؤمن بالله ذهب للطبيب فيقول له الطبيب : أنت لن تشفى من هذا المرض إلا إذا منعت نفسك شهرًا من الطعام .

فهل سيمتنع أم لا ؟ سيمتنع قطعًا ، إذن هو امتنع للعلة وليس للآمر .

الإسلام ليس كذلك ، الإسلام أنك تمنع لأن الله أمر ، لأن الله قال ، وأنت واثق فيه أنه إله حكيم .

إذن فالمؤمن بالحق ﷻ حينما تكونت عنده العقيدة الإيمانية يقبل على منهج الله من حيث : أهو قال أم لا ؟ فهذا هو عمل عقله ؛ فإن كان قال فليقبل على المنهج من الله بيقين أن ذلك مفيد له ، دون أن يتساءل عن جهة الفائدة أو جهة النفع ، لعله لا يدركها الآن ويدركها فيما بعد .

فإذا فعلت ذلك تكون واثقًا من نتيجة ذلك العمل الصالح الذي تقوم بـه ، فلم تعمل العمل الصالح كما يفعل المقامر ينفع أو لا ينفع ، بل مادمت تعلم أن هذا ثابت عن الله فأنا أقبل عليه

لأني متيقن أن فيه فائدة .

هب أن فائدته أخطأتني الآن ففائدته لن تخطئني في المستقبل ؛ لأن الدنيا ليست هي كل شيء .

فإذا جاء الإيمان وجاء العمل الصالح بقيت غفلات النفوس ؛ لأن المنهج الذي يحدد حركة حياتك ، ويحدد حركة شهواتك قد تغفل نفسك عن بعضه ، وما دمت كذلك فأنت في حاجة إلى من ينبهك ، فسيُتواصى بالحق ، فيقول لك المتواصي : لِمَ تفعل هذا ؟! تذكّر كذا وكذا .

وانظر إلى كلمة : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ . فلم يجعل موصِين وموصَين ، بل كل واحد منا موصٍ وموصىً ؛ لأنه قد تصادفني غفلة فتكون عندك يقظة تنبهني ، وأنت تصادفك غفلة فتكون عندي يقظة أنبهك ، وهكذا .

إذن فمعنى : ﴿ تَوَاصَوْا ﴾ ، أي أن كل واحد منا موصٍ وموصىً .

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ .. (والتواصي) معناه : بذل النصح والمعونة من الناصح للمنصوح ليتمسك بمبدأ مسلَّم به ، هذا المبدأ المسلَّم به هو المبدأ الإيماني ، أو المبدأ السلوكي .

والسبب في ذلك أن التواصي بالحق يعتبر هو العنصر الثالث من عناصر الدعوة الناجحة ، فالمبادئ عادة تقيِّد حركة الإنسان ، والإنسان يحب أن تكون حركته طليقة لتحقق له مشتهيات نفسه ، فتأتي المبادئ لتحكم هذه الحركة ، وما دامت المبادئ جاءت لتحكم هذه الحركة تصير تكليفًا ، والتكليف من عناصره المشقة .

وقلنا سابقًا : إن الذي يُهوِّن مهمة التكليف ومشقاته استحضار الجزاء على التكليف ، فلا نأخذ التكليف أولاً بمشقته ، ولكن نأخذ التكليف بغايته ونهايته وجزائه ، فإذا ما نصبنا الغاية والجزاء الضخم أمام أي تكليف وجدنا الغاية أرجى من مشقة التكليف .

والسبب في أن كثيرًا من الناس يحجمون عن مشقات التكليف أنهم ينصبون فقط أمام نفوسهم المشقة التي يعانونها من التكليف ، ولو أنهم استحضروا النهاية والغاية أمام



التكاليف لهانت عليهم هذه المشقات ، لأن المقارنة ترجح الجزاء على التكليف ومشقته .

وما دامت التكاليف في بدايتها شاقة إذن فغفلة النفس دائمًا موجودة مع التكاليف ، فليس كل يقين يقبل عليه الإنسان ، هناك ألوان كثيرة من الأشياء اليقين موجود فيها ، إنما حمل النفس على مطلوب اليقين غير موجود .

إذن فاليقين ليس هو كل شيء ، بل يجب أن يُستحضر اليقين دائمًا ليكون منهجًا منصوبًا أمام العين بحيث لا يغفل الإنسان عنه .

إن المناهج الربانية التي تقيد حركة الإنسان في تصرفه حينما تغفل النفس عنها تغفل عنها في جزئية بسيطة ، فإذا ما طاوع الإنسان نفسه وجاءت جزئية أخرى بجانبها ، ثم غفلة ثالثة تجيء جزئية ثالثة ، ثم غفلة رابعة إلى أن يحدث الران الذي يقول الحق فيه : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

وضرب رسول الله ﷺ المثل في الحديث الذي رواه **حذيفة** ﷺ قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : **" أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال[2] ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة "** .. ثم حدثنا عن رفع الأمانة[3] ، قال : **" ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[4] ، ثم ينام النومة الثانية فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل[5] كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا وليس به شيء ، فيصبح الناس يتبايعون**

1 - سورة : المطففين ، الآية : 14 .

2 - أي : تمكنت من قلوبهم .

3 - أي : تلك المغروسة في القلوب هذه .

4 - الوكت : هو الأثر الذي يحدث من ملاقاة حرارة النار للجلد التي تحدث فيها لون مخالف .

5 - المجل : ليست الحرارة تصيب الجلد ، بل الجمرة نفسها تقع على الجلد فتعمل الانبارة .

6 - أي : ارتفع .

، فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة ، حتى يقال : إن في بني فلان رجلاً أمينًا ، وحتى يقال للرجل : ما أظرفه ، ما أعقله ، ما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان " .. قال : وقد مر عليَّ زمان وما كنت أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مؤمنًا ليردنه علي إيمانه ، ولئن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ليردنه علي ساعيه ، أما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا . 1

ومنشأ هذا هو تسرب الأمانة من القلب بالغفلة عن الشيء الصغير ، ثم يغفل عن شيء آخر ، فتتراكم هذه الغفلات فتكون الطبقة التي ترين على القلب .

يشرحها في حديث آخر أيضًا حذيفة ﷺ فيقول : حدثنا رسول الله ﷺ قال : **" تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودا ، فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، حتى تكون على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا 2، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه "** 3.

كل شاهدنا في هذا أن التحلل من المنهج لا يأتي دفعة واحدة ، ولا يأتي تحللاً من الأمور الكبيرة ، وإنما يأتي في توافه الأمور ، وبعد ذلك يأتي التافه مع التافه فيكوِّن الران الذي يحجب الإنسان عن منبع عقيدته ، وبذلك يكون سلوكه سلوكا ظلمانيًّا .

فيجب أن يوجد التواصي بالحق ، أي : كلما رأينا إنسانًا غفل عن جزئية من جزئيات دينه ننبهه .

وسماها تواصيًا ولم يسمها أمرًا؛ لأن الوصية عادة تحمل معنى النصح من المحبوب للمحبوب ، فأنت لا توصي إنسانًا إلا إذا كنت تحبه ، وهو يوقن أنك تحبه ، لكن المحبوب

---

1 – أخرجه البخاري (6016) ، ومسلم (206) .

2 – أي : منكوسًا .

3 – أخرجه مسلم (207) .

يختلف باختلافات الناس ، فقد يكون دنيا ، وقد يكون دينًا .

إذن المحبوب الأولى بأن يكون موضع الوصية من المحبوب للمحبوب ، فيكون أمرًا محبوبًا الذي يوصي به محبوبًا والموصى به محبوبًا .

فلما تسمع الوصية تجد حق الحق هو منهج الله ﷻ ، الحق فيه ألوان كثيرة وحقه هو منهج الله ، والوصية من المحبوب للمحبوب تكون أوجهها كثيرة : توصيه بأن يكون صالحاً مثلاً في زراعته .. في تجارته .. في علاقاته بالناس .. في مذاكرته حتى يجتهد وينجح ، توصيه بأشياء كثيرة ، هي أشياء محبوبة ، ولكن قمة المحبوبية في أن يكون التواصي دائمًا بمنهج الله ﷻ وهو الحق ؛ ولذلك حينما عرض القرآن هذه الكلمة وهي الوصية قال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[1] .

وللوصية وقت هذا الوقت متسع في كل زمان ، ولكن تجد الوصية تكون محكمة حين يضيق وقت المحتضر ويعلم أن الموت آتٍ ، وبعد ذلك يركز أهم شيء في الوجود ليوصي به أبناءه ؛ لأن الوقت ضيق فهو يحتضر وروحه تخرج ، فليس عنده وقت حتى يأتي بكل ما يوصي به ، فيختار قمة الوصايا التي هي المبادئ التي عرفها بتجربته في الحياة ، ويحب أن ينقلها إلى بنيه ، وهم أحبابه ، فيقولها في هذا الوقت ، كأن سكرات الموت والاحتضار لم تشغله عن أنه يلقي بهذه الوصية إلى من يحب : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ .. وهو في ساعة الموت ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾[2] ، كأن أهم شيء يتركه يعقوب لبنيه أن يطمئن على منهجهم العبادي .. لم يطمئن على مصائر دنياهم .. لم يطمئن على أحوالهم أو على أرزاقهم .. لم يطمئن على شيء مطلقًا ، بل أراد أن تكون هذه هي المسألة .. ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .. وصية

1 – سورة : البقرة ، الآية : 132 .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 133 .

في وقـــتها ، ويعرض الحق ﷻ أيضًا الوصية من الآبـــاء ، لأن الأب إن غش الناس جميعًا لا يسـتطيع أن يغش الأبـناء ، فهو يريد أن يعطيهم المنهج السـليم الذي جربـــه فوجده نافعًا في الحياة .

وهناك في قـــصة لقـــمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ .. وصية أب لابـــنه ، والأب لا يرضى أن يغش ابنه ، بل يريد أن يعطيه خلاصة ما أخذه ، وخلاصة تجاربه .

إذن فالوصية من المحبوب إلى المحبوب أحسـن أوقـاتها هو الوقـت الذي يفارق الإنسـان فيه الحياة لماذا ؟

لأنـه إن كان يكذب قديمًا فلن يكذب في هذا الوقت ، فالذي يكذب دائمًا يجب أن يصدق في هذا الوقت ، ويستحضر قمة الأشياء التي يعتبرها نافعة لأحب الناس إليه ، وهم أبناؤه حـتى يزودهم بالمنهج النافع .

والوصية بالحق تأخذ طابعها القوي حيث مثلها الخلفاء الراشدون أبـو بـكروعمررضوان الله عليهما ، حـينما توليا أمر المسـلمين ، فتولية أمر المسـلمين قـد يعطي في بـــعض ضعاف النفوس مهابة الولاية ، فربما تصرفا تصرفًا قد يكون فيه شـيء من الغفلة ، فهو يوجه الوصية والنصح إلى الرعية المحكومة به ؛ لأنها يجب أن تتقبل كل أعماله تقبل الناقـد الصيرفي ، فلا تتقبـله لأن هذا هو أبـوبـكر ، أو لأن هذا هو عمر ، بـل تأخذ أعمالهما وتنقـدها ، فإن كان مطابقًا لمنهج الإسلام أيدوه ، وإن لم يكن مطابقًا لمنهج الإسـلام نصحوه وقوّموه .

لذلك قـال سـيدنا أبـو بـكر حـين تولى الخلافة : قـد وليت عليكم ولسـت بخيركم ، فإن أحسـنت فأعينوني ، وإن أسـأت فقـوموني .. أطيعوني ما أطعت الله ورسـوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم .

---

1 – سورة : لقمان ، الآية : 13 .

فأعطاهم المنهج ، إذن فلن يتهيبه أحد .

وأيضا يأتي **عمر** ﷺ ويعطي هذه النصيحة ؛ لأنه خاف أن يتهيبه الناس فيجدوه على عمل من الأعمال فلا يجترئوا أن يردوه عنه ، فقال **لمحمد بن مسلمة** : يا **محمد** ، كيف تراني ؟ قال : أراك كما أحب ، وكما يحب من يحب لك الخير ، قويًّا على جمع المال ، عفيفًا عنه ، عدلاً في قسمه ، ولو ملت عدلناك كما يعدل السهم في الثقاف . قال : الحمد لله الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني .

بهذه المبادئ يقظ الخليفتان شعور الرعية المحكومة بهما أنهم لا تأخذهم مهابة هؤلاء الخلفاء ، بل ينقدون أعمالهم وينظرون كيف يتصرفون .

ولذلك كانت مهمة أي حاكم حينما يولي الولاة أن يزودهم بالنصيحة ، لماذا ؟ لأنها نصيحة من يملك ، وإذا خالف الوالي سيناله سوء ؛ ولأنه هو الذي ولاه فيعطيه المبدأ ، وقد كانت المسافة بين الولايات بعيدة ، ووسائل التراسل لم تكن سهلة ، وإقبال المظلومين إلى الحاكم العام لم يكن ميسرًا لهم ، فلابد أن يتوجه الوالي الخاص في البقعة الخاصة مزودًا بالنصائح الكافية ، وموصى بالتوصية اللازمة .

فمثلاً نجد **سيدنا عليًا رضوان الله عليه** عندما يولي مالك بن الأشتر ولاية مصر ، فلما جاءه بعد أن حزم أمتعته كان آخر كلامه له : اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قامت فيها دول قبلك بالجور والعدل ، وإن الناس سينظرون من أمرك في مثل ما كنت تنظر إليه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك مثل ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على العباد بما يجريه الله على ألسنة عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، وأشعر قلبك الرحمة بالرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخوك في الإسلام ، وإما نظيرك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتغلب عليهم العلل ، ويؤتى على أيديهم من العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل ما

تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك .

فكلامه مراتب : نصيحة وتوصية يوصى بها الوالي ، لأن الوالي إذا صلحَ صلح به شيء كثير .

فسيدنا **الحسن البصري** يقول : لو أن لي عند الله دعوة مستجابة لخصصت بها السلطان ، قيل له : وكيف ؟ قال : لأن الله يصلح على يده الشيء الكثير .

إذن فالنصيحة والتوصية هي التنبيه الدائم للتمسك بمنهج الحق ، لكن قد تعترض النصيحة والتوصية أشياء تحول بين الإنسان وبينها ، قالوا : ذلك خاضع لعظمة النفس الناصحة ، فما هي العقبات التي تحول عن هذا الأمر ؟

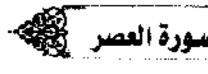
فيعرض لنا التاريخ الإسلامي قممًا من قمم العقبات ، من قمة الولاة الكبار ، ويأتي الإنسان فيجابهه بكلمة الحق ولا يبالي بها فينصح ويقول ، فمن الجائز أن يتقبلها ، ومن الجائز أن يدخرها في نفسه ليستغل أية فرصة وينكل بالناصح ، ولكن لم يؤثر ذلك في الناصحين أبدًا ، ولا يبالون .

فمثلاً يدخل **ابن السماك** على **الرشيد** ، فلما دخل على **الرشيد** ، وقليلاً ما كان يدخل ، فطلب الرشيد كوب ماء ، فقبل أن يشرب الماء قال له : بالله عليك يا أمير المؤمنين ، لو منع عنك هذا الكوب من الماء بكم كنت تشتريه من ملكك ؟ قال : أشتريه بنصف ملكي . قال : فإذا مُنع خروجه منك ، فبكم كنت تشتري إخراجه ؟ قال : بملكي كله . قال : إن ملكًا لا يساوي شربة ماء لحقيق أن يزهد فيه .

هكذا .. وبكل جرأة ، فيقولون النصيحة ويقولون التوصية ، ولا يبالون ماذا تكون النتيجة .

وتاريخ الإسلام مملوء بهذا .. هذا **سعيد بن المسيب** ناله ما ناله جراء نصحه .. وهذا سعيد





بـن جبـير ناله ما ناله .. وهذا الإمام مالك ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام الشـافعي ناله ما ناله .. وهذا هو الإمام العظيم أحمد بـن حنبـل ناله ما ناله .. وهذا أبـو حـنيفة ناله ما ناله .. ومع ذلك ظلوا على مواقفهم .

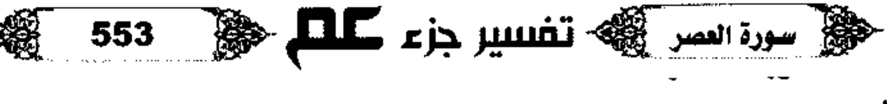
ومن العجيب أن يأتي الاضطراد في النسق الذي نحن آخذون عنهم منهجنا حتى يطمئن إلى أن هؤلاء لم يغيروا شيئًا في منهج الله ، بدليل أن الولاة مع جبروتهم ومع ظلمهم لم يستطيعوا أن يخرجوهم عن حكم يرون أن ذلك هو حكم الله .

إذن ينشأ من التواصي بالحق أمرٌ ثانٍ وهو أنهم لابد أن يتواصوا بالصبر .

فنستهين بالعقبـات ونصبر ونصابـر ونرابـط ، فإذا ما كنا قـد جمعنا العناصر لذلك المنهج الإلهي إيمانًا بـه وبما يستلزمه الإيمان بـه ، وعملاً صالحًا ؛ سـواء كان عملاً تعبديًا أو عملاً ينظم حركة الحياة ، ثم لم نغفل عن مبدأ من مبـادئ الحق وذلك بـالتواصي عليه ، ثم لم نهن أمام حدث من أحـداث الدنيا فنتواصى بـالصبر نكون ممن اسـتثناهم الله من الخسـران ، فإن تهاونا في مبدأ فلنعتقد أن هذا التهاون سيجعلنا من أهل الخسران والعياذ بالله .

فتجد مثلاً في أثناء محنة سيدنا ابـن حنبل في محنة خلق القرآن التي قـامت أيام المأمون ، وظلت أيام المعتصم ، وبـعد ذلك أيام الواثق ، ثم أنهاها المتوكل ، فكل الناس قـد فتنوا فقـالوا برأي الدولة ، وحين تطلب الدولة رأيًا على أنه رأي الدولة فيا خسـارة الإسـلام ويا ضيعته ، فالدولة ترى أن هذا كلام المعتزلة ، ويجب أن يؤيد فقالت : إن القرآن مخلوق .

فالعلماء بعضهم أجاب بتورية ، وبعضهم وافقهم ، وبعضهم وقف ، ممن وقـف أمامهم وهو آخر من وقف محمد بـن نوح وسيدنا الإمام أحمد بـن حنبـل ، ومحمد بـن نوح قبـل أن يأتيه التعذيب كان الله قد قضى فيه أمره وانتقـل إليه ، وسـيدنا أحمد بـن حنبـل هو الذي تلقـاها ، وبـعد ذلك أخذوه ليصنعوا فيه ما صنعوا ، فجاء له ابـن الأنبـاري واحـتال عليهم ودخل فقال له : يا إمام لم يبق سواك من علماء المسلمين من يقـف إلى جانب الحق ، وإنك إن



أجبت تقية ، والجهال لا يعلمون التقية ، فكيف يعرفون الحقيقة ، يا إمام اصبر على ما ينالك ، هذه وصية **ابن الأنباري** .

بعد ذلك أدخل السجن ودخل عليه عمه **إسحاق بن حنبل** ، فقال : والله يا عم ما أخاف السجن فهو مثل بيتي ، وما أخاف الموت فهو إلى ربي ، ولكن أخوف ما أخافه السياط مخافة أن تخور نفسي وتضعف .. فبينما هو يقول ذلك لعمه **إسحاق** إذا برجل من المسجونين معه يقول له : يا **أبا عبد الله لا تخف** ، إنما هما سوطان ، ثم لا تدري ما يقع عليك بعدهما .. وذلك هو التواصي بالصبر .

إذن فالمنهج الحق يجب أن يحاط بتواص بالحق حتى لا تتسرب الغفلة ، وبتواص بالصبر حتى لا ينهار الإيمان أمام الاضطهاد ، فإذا وجد في مبدأ من المبادئ تلك العناصر فلابد أن يدوم ويستمر وينجح .

وأنت إذا استقرأت الإسلام وتاريخه وجدت الإسلام يقوى ويضعف باكتمال هذه العناصر ، فحينما كانت هذه العناصر كلها مجتمعة كان الإسلام والمسلمون في نضج وفي فلاح ، وحينما انحل المسلمون انحلالاً عمليًّا ، أو انحلال عدم تواصٍ بحق ، أو انحلال عدم تواص بصبر ماذا كان ؟ كان ما نراه الآن من أن الإسلام ابتدأ في عهد الغربة .

إذًا فالحق ﷻ كأنه قال لنا : التاريخ أعظم شاهد لنا ، والإنسان نوعان : نوع في خسر ، ونوع في نجاح ، أما الذين في غير خسر ، أي : في نجاح فهم الذين تكتمل فيهم هذه العناصر : إيمان وعمل صالح وتواص بالحق وتواص بالصبر ، فإذا رأيت قومًا في غير نجح ، أي : قومًا في خسر فابحث لتجد السبب تخلف واحد من هذه العناصر .

نسأل الله ﷻ أن يوجهنا إلى ما فيه خير من إيماننا وعملنا الصالح ، وتواصينا بالحق ، وتواصينا بالصبر .





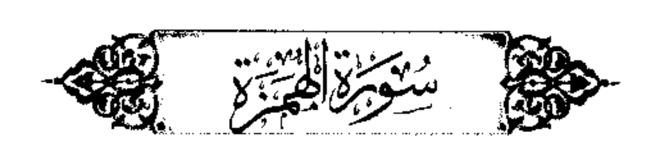




سورة الهمزة







بسم الله الرحمن الرحيم .. أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمدك، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد ..

فمع **سورة الهمزة**، تلك السورة التي تعكس من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول، وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة اللئيم الصغير النفس، الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار .. أقدار الناس، وأقدار المعاني، وأقدار الحقائق، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب .

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء، لا يعجز عن فعل شيء، حتى دفع الموت وتخليد الحياة، ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه .. إن كان ثم نظرة لحساب وجزاء .

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده، وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم، ولمزهم وهمزهم، يعيبهم بلسانه، ويسخر منهم بحركاته، سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم، بالقول والإشارة، بالغمز واللمز، باللفتة الساخرة، والحركة الهازئة .

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان، والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي، وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن" .

مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين ، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب .

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. كلمة : (ويل) : في المدلول الاصطلاحي الذي يعنيه ربنا غير المدلول اللغوي الذي نفهمه ، كما قلنا مثلاً في القارعة ، فيكون هناك مدلول لغة ، ومفهوم آخر ؛ ولذلك فالحق ﷻ حتى يأخذني للمدلول اللغوي وللمتعارف للسان يأخذني من المدلول عنده ، فيقول : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ .. لعلك تدري أن القارعة أو الحاقة أو الحطمة هي المعنى اللغوي الذي عندك ، كلا .. ليس المعنى المقصود ، بل المعني المقصود هو كذا ، ثم يوضح الله ﷻ ما يقصده .

ولذلك قال بعضهم : (**الويل**) واد في جهنم من أقصى الوديان .. وحين يتوعد الحق القادر على إنفاذ ما يتوعد به فيكون الأمر واقعًا ، فيجب أن تستحضر الصورة على أنها واقع ؛ لأن الذي قد يشكك في تنفيذ الأمر ، أو الذي يكون شفيعًا لنفسي بأن لا تعبأ بالتهديد أمور :

الأمر الأول : أن الذي هدد لا يضمن أنه سيبقى حتى يوقع ما هدد به .

الأمر الثاني : أنه لا يملك أن تظل له القوة المهدد بها .

الأمر الثالث : قد أصبح أحسن وأقوى منه عندما يريد أن يوقع التهديد ..... وهكذا .



لكن إذا كان الذي يقول : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ويهدد به باق وقادر على إنفاذ ما يقول ، ولن تفلت أنت من يده ، فمعنى ذلك أن هذا وعيد من صنف آخر ، وعيد ممن يقدر على إنفاذ ما وعد ، وعيد ممن لا تتسرب للنفس آمال بأنه قد ينتهي عنك ، وعيد ممن لا يمكن أن تخرج عن ملكه وسلطانه ، فالمسألة ليست مطلق ويل ، أو مطلق عذاب ، بل عذاب خاص من الله ﷻ ، إذن فالتهديد يجب أن يصحب بمقوماته حتى يعطي الهيبة في النفس منه .

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ .. (**اللمزة**) : صيغة مبالغة ، وهو الذي يقع منه الحدث كثيرًا ، يقال مثلا : (فلان ضُحَكة) بالفتح ، وهو الذي يصدر الضحك منه على الغير .. و: (فلان ضُحْكة) بالسكون ، وهو الذي يأتي الضحك من الغير عليه .

و(**الهمزة**) : هو الذي يهمز الناس ، أي : يعيبهم ، و(**اللمزة**): هو الذي يأتي بالشيء الذي فيه لمز ، فمرة يكون باللسان ، ومرة يكون بإشارة العين ، ومرة يكون بتقليد الحركة ، إذن فالهمزة واللمزة : هو العياب الفاحش الذي يسيء إلى الناس .. إما بعينه ، وإما بلسانه ، وإما بالتعرض لحركاتهم ، يريد ﷻ أن يعطينا الحيثية التي جعلته ينزل إلى هذا المستوى ؛ وهو أنه يظن أنه صنف آخر من الناس ، والذي جعله يفهم ذلك هو المال الذي عنده .

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .. ومعنى : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : أحصاه ، أي في كل وقت يُطمئن نفسه بأن يفعل كما يفعل البخلاء بعَدِّ المال ، أو : ﴿ عَدَّدَهُ ﴾ أي : جعله عُدة له في كل شيء ، أي من الإعداد .

وهنا لفتة هامة ، يجب الانتباه لها .. وهي أن تلك الحادثة هل تعرضت لأحدهم بخصوصه ؟ أم أنها عامة للناس كافة ؟ نقول : لا يهم أي شخص مخصوص ، إنما المهم في إطلاق المبدأ ليستوعب ما شاء له من الاستيعاب ؛ فلو أراد أن يتكلم عن شخص مخصوص كان من الممكن أن يأتي باسمه أو بوصفه ، فقد تكلم عن شخص مخصوص فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1]..

---

1 – سورة : المسد ، الآية : 1 .

إذن فهناك أمر مناط الحكم فيه هو الوصف ، وأمر مناط الحكم فيه هو الشخص ، فالذي مناط الحكم فيه هو الوصف يكون شائعًا في أفراد كثيرة لا يقيده التشخيص الوصفي ، إنما الذي مناط الحكم فيه الشخص فليس له إلا ذلك الفرد ، فمناط الذم ومناط الوعيد ليس على المشخص وإنما على الوصف الذي استحق به ذلك ، إذن فذلك الوعيد إنما يأتي لمن اتصف بذلك الوصف ولو كان غير ذلك الشخص .

ولذلك فالقرآن عندما يعرض قصة كقصة أهل الكهف مثلاً ، فمن العلماء من قاموا ببحث أسمائهم .. وعددهم .. وبلدهم .. وحالهم .... إلخ ، لدرجة أنهم أتوا لكلبهم باسم ، واحتالوا ببعض الإسرائيليات من هنا وهناك ، فخرجوا عن مطلوب النص ؛ لأن القصة لو أنها وردت في مشخصين بذواتهم ووردت مشخصة بزمانها ومكانها لقدح ذلك في سياق القصة ؛ لأن الحق يعرض علينا قصصًا نموذجيًا ، أي قصصًا مهيجًا للحق في نفوسنا ، وكأنه يريد أن يقول لنا : حتى لو كانت فئة صغيرة العدد فلا يمنعهم قلتهم من أن يقوموا أمام دعوة الباطل ، وأن يظلوا متمسكين بالحق ، بأي اسم .. وبأي عدد .. وفي أي زمان .. وفي أي مكان .

إذن فالذي يريد أن يحدد مفهوم القصة بأشخاص أو بزمان أو بمكان إنما يقدح في مطلوب القصة ، لأن الله ينصبها مثلاً للفتوة الإيمانية التي لا تبالي بأي أسماء .. في أي مكان .. في أي زمان ، فلو أنها حددت بأشخاص لقيل : إن هؤلاء الأشخاص كان لهم طبيعة خاصة ، فغيرهم لا يستطيع أن يعمل عملهم ، أو يخصصها بزمن فيقول : كانت ظروف هذا الزمن تسمح ، أو يخصصها بمكان فيقول : كانت مواصفات المكان في هذا الوقت كذا وكذا .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أي : يظن أن ماله يعطيه الخلد ، وذلك فهم يبعده واقع الحياة ، فلم يظن أحد أبدًا أنه يخلد ، بل كلنا نعتقد أننا سنموت ، فلعل المراد من : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .. أنه طلب من قوة التدبير في أنه يبقي لنفسه ذلك المال ، أي : يستطيع أن يفعل فيه فعلاً يجعل المال دائمًا لا عرضًا ، فالمال عرض يأتي ويذهب ، ولكنه

يريد أن ينقل المال والغنى لا إلى العرض ، وإنما يريد أن ينقله إلى صفة لازمة ، وهذه ليست موجودة أبدًا في الوجود ؛ لأنه عارض دائمًا يأتي مرة ويذهب مرة .

وما دام يحسب أن ماله أخلده أي : سيظل هكذا ، يعطيه طبيعة قساوة القلب ؛ لأنه هو الذي يجعل القلب يصفو ويخرج القلب من شحه ، فعندما يعتقد أن ماله لن يذهب عنه تظل معه قساوته ويظل معه شحه .

﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. وعلى طريقة القرآن في علاج المسائل قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ .. وهي كلمة زجر عما يحسبه ، وعما يظنه في أن ماله أخلده ، ؛ ولذلك قيل لأحد الحكماء : لقد جمع فلان مالاً كثيرًا .. فقال : وهل جمع العمر الذي ينفقه فيه ؟! إذن فالإنسان مهدد من ناحيتين : من ناحية أن المال قد يبقى ولا يبقى هو ، ومن ناحية أن يبقى هو ولا يبقى المال .

﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. يعرض الحق النهاية التي تناسب البداية ، فقد قال هناك : ﴿ وَيْلٌ ﴾ ولقد أخذناها بتعبير الله ﷻ ، وأخذناها بقدرة الله ﷻ على إنفاذ وعيده ، وأن عبده لا يفلت منه ، فقال : ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ من : نبذت الشيء ، فأول ما توحي كلمة النبذ في تعبيرها : الاحتقار والمهانة ، وذلك رد طبيعي على استهلال السورة بالهمزة اللمزة ، فلقد كان يهمز ويلمز امتهانًا واحتقارًا واستخفافًا ، فجزاؤه يكون من جنس ما قدم : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ .. وليته ينبذ ويكون حظه فقط الطرد من الحضرة والنعيم ، كلا .. لكنه سينبذ في الحطمة ، والحطمة أول ما تسمعها تذكر الهمزة تمامًا ، فالهمزة هو الذي يأتي منه الهمز كثيرًا ، والحطمة هي التي تحطم ، وتحطيمها قوي ، فهذا هو ما يناسب ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

إذن فكلمة : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ ناسبت الهمزة واللمزة ، وناسبت ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ .. على المعنى في كل : ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ .. فإياك أن تظن أن الحطمة هي الشيء يحطم الشيء ، كلا .. فهذا هو مدلولها اللغوي ، بل لها عند الله ﷻ مدلول آخر .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. إنها ليست مطلق نار ، فإنها أُسندت إلى الله ﷻ ، فهذا دليل على أنها يجب أن تأخذ وصفًا مناسبًا ، وذلك كما دعا رسول الله ﷺ على **عتبة بن أبي لهب** قال : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام فأكله سبع[1]، فلقد قال النبي ﷺ : " **كلبًا** " .. ولكن لما أضيف الكلب إلى الله ﷻ .. فلابد وأن يكون كلب الله سبعًا لا كلبًا .

فإذا قال الله ﷻ عن هذه النار : ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس لأحد من خلق الله ﷻ أن يحجبها ؛ لأنها ليست نار فلان أو علان من البشر ، فقد يأتي من هو أقوى منه فيطفئها ، إنها ﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ .. فليس في مقدور أحد أن يطفئها ، وليس في مقدور أحد أن يدفع عن المعذب بها شيئًا .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. ومن طبيعتها أنها موقدة .. تأكيدًا لاشتعالها وتأججها .

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. والتعبير في : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. أي تظل تعمل فيه إلى أن تصل إلى قلبه ، فكأن النار مميزة ، فتطلع على القلب ، فما كان موجودًا في القلب تعطيه من الألم على قدر ما فيه .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا تفكير في الفرار .

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .. وفي عمد ممدة أي : عُمُد طويلة مربوطة .

إذن .. ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ .. و : ﴿ الْمُوقَدَةُ ﴾ .. وطبيعتها أنها : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .. و : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ .. فلا منجى .. ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ..

1 - انظر السنن الكبرى للبيهقي (5 / 211) .

لا فرار منها ولا انفلات أبـــدًا ، فذلك هو الجزاء الذي يناله ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ والهمزة واللمزة ، وتجد أن كل وصف في العذاب يناسب وصفًا في الذنب .

نسأل الله ﷻ أن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .




تفسير جزء
عم




سُورَةِ
الفِيلِ







سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع **سورة الفيل** ، وفي البداية هناك مناسبة بين **سورة الهمزة** و**سورة الفيل** يجب أن نبينها ، وهي أن الحق ﷻ في **سورة الهمزة** أخبرنا عن غيب في قوله ﷻ : ﴿ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[1] ، وهذا وعيد لذلك الهمزة اللمزة يعلمه ما سيحدث له يوم القيامة ، فكأن الحق ﷻ أراد أن يدلل على صدق نفاذ ذلك الوعيد ، فأجرى في دنيانا على الكافرين بعض الأمور المحسوسة ، لينتقل من الغيب إلى الحس ، فيصدق أن الذي أجرى ذلك في المحسّ ، قادر على أن يجري ذلك فيما يغيب عنا .

وتصديقًا على أنه ﷻ قادر على إنفاذ العذاب الغيبي يوم القيامة ، يأتي ﷻ بحادثة دنيوية محسوسة لنا ؛ لتدل على صدق الوعيد ، فيأتينا ببعض الأشياء التي أجراها ﷻ في عالم الدنيا وعالم الحس على بعض القوم الكافرين ، ليدل على أن الذي توعد هذا الوعيد قادر على إنفاذه ، كما أنفذ وعيدًا ، وكما أنفذ عذابًا ، في دنياكم المرئية .

إذن .. فتلك هي مناسبة **سورة الهمزة** ل**سورة الفيل** ؛ ولذلك جاء ترتيب **سورة الفيل** في المصحف بعد **سورة الهمزة** مباشرة .

---

1 ـ سورة : الهمزة ، الآية : 4 : 8 .



أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. حينما نستقبل هذه السورة نجد أنها بدأت برسم هو : ﴿ أَلَمْ ﴾ .. ألف ، ولام ، وميم ، فمرة نقرأها مقطعة كما في البقرة : ألف ، لام ، ميم ، وهنا نقرأها كلمة واحدة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الذي جعل رسمًا يُقرأ هكذا هنا ، ويقرأ هكذا هناك ؟! هذا لأن قراءة القرآن توقيفية ، فليس كل (الم) أقرأها : ألف ، لام ، ميم ، أو أقرأها : أَلَمْ .

وهذا يجرنا إلى ملاحظة أن القرآن له خصوصيات كثيرة :

الخصوصية الأولى : خصوصية التناول ، فأنت تتناول أي كتاب فلا يشترط فيك أن تكون طاهرًا ، وهذا الكتاب بخصوصه يشترط أن تكون طاهرًا ، لماذا ؟ لتربية المهابة لذلك الكتاب ، وكأنه ليس كتابًا عاديًّا تتناوله ، فقبل أن تتناوله يجب أن تتناوله بنية ، ويجب أن تقبل عليه وأنت طاهر .

الخصوصية الثانية : أنه يختلف في بعض رسمه عن قانون الكتابة ، والرسم الإملائي ، فليس كله يكفي أن يكون في بعضه ، فمثلاً لو قرأنا : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .. لوجدناها في كل سور القرآن بغير ألف ، فالباء موصولة بالسين ، ولكن إذا قرأت أول آية نزلت تجدها في قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾[1] ، فتجد أن الباء يفصلها عن

1 – سورة : العلق ، الآية : 1 .

لسين ألف ، فما الفرق بين (بِسْمِ) هنا ، و (بِاسْمِ) هناك ؟! وما الحكمة من كتابتها بهذا الشكل في الموضعين ؟! إن هذا يرد على الذين قالوا : إن العرب لم يكن عندهم قواعد الإملاء ، ولا يعرفون قانون الكتابة ، فكانوا يكتبونها بأي شكل .. فهذا يرد عليهم ؛ فلو كان العرب مخطئين في حذف الألف في موضع لما أثبتوها في الآخر ، ولكنهم كتبوها بالألف في مواضع بعينها ، وحذفوها في مواضع أخرى ، مما يدل على أن ذلك توقيف من عند الله ﷻ .

إن رسول الله ﷺ تناول القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ، ثم بلغه إلينا ، فقال : اكتبوا هذا هكذا ، واكتبوا ذلك كذلك .. فكأن هناك إشارات كانت حين الموقف فيها دلالة على الرسم ، ودليل ذلك أنك حين تنظر مثلاً إلى كلمة : (تَبَارَكَ) في القرآن ، تجد أن بعضها كتبت بالألف ، وبعضها بحذف الألف ، فهل هي كلمة واحدة ، ومرة كتبت بالألف ، ومرة بغير الألف ؟! أم هي كلمتان مختلفتان ؟! كل الذي نستطيع أن نقوله هو أن ذلك توقيف .

إذن ، فالقرآن فيه خاصية تناول ، وخاصية نطق ، بدليل أن كلمة : (الم) تقرأ مرة : ألف .. لام .. ميم هكذا مقطعة ، وتقرأ مرة : ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فما الفرق بينهما ؟! أنت تقرأ الأولى بنطق أسماء الحروف ، وفي الثانية تقرأ مسميات الحروف ، إذن ، فالحروف لها أسماء ، ولها مسميات ، فالاسم ألف ، ولكن مسماها عندما أنطقها في الكلام لا أنطقها في الكلام ألفًا ، إنما المدلول المسمى ، فمرة أنطق الحروف بأسمائها ، ومرة بمدلولاتها .

وليس كل ناطق يستطيع أن يفرق بين أسماء الحروف وبين مسمياتها ، وإلا فالأمي كالمتعلم ينطق مسميات الحروف ، فالأمي يقول مثلاً : قرأ ، وكتب ، وأكل ، وتكلم ، ولكنه لا يعرف أن : كتب مثلاً مكونة من : كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، فلا يعرف ذلك إلا المتعلم ، ومحمد ﷺ كان أميًا ، فما الذي نقله من قراءة مسميات الحروف إلى قراءة أسماء الحروف ، مع أن أسماء الحروف لا يرتاض عليها إلا متعلم ، وهم جميعًا يشهدون أنه أمي ، ولم يجلس إلى معلم ، وهذا دليل على أن الذي اتخذه رسولاً علمه .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. وهنا يجب أن نعرف أن لغتنا تتكون من الكلمة ، والكلمة مدلولها إما اسم ، وإما فعل ، وإما حرف ، والتي لا هي اسم صريح ، ولا هي فعل صريح نسميه اسم فعل ، مثل : هيهات ، بمعنى : بَعُد ، فلا نستطيع أن نقول إنها اسم ، ولا فعل ، إنما هي (**اسم فعل**) ، فلو نظرت إلى الاسم أو الفعل أو الحرف ، تجد أن كلها تدخل في مدلول الكلمة ، إلا أن كل واحد له مدلول .

إذن .. فحروف المبنى لا تدخل في هذه الأقسام ، كالباء من : " كتب " مثلاً ، أو التاء ، فتسمى بحروف المباني ، إنما باء الجر ، وتاء القسم ، وواو العطف ، وأشباهها فتسمى بحروف المعاني ، فمثلاً : (**لاَ**) حرف له معنى ، والباء من قولك : (**كتبته بالقلم**) .. فالباء حرف له معنى ، والفعل له معنى ، والاسم له معنى ، كل واحد من أقسام الكلمة له معنى ، إلا أن ذلك المعنى إما أن يكون مستقلاً بالفهم ، أو غير مستقل بالفهم ، فمستقل بالفهم : بحيث إذا قرأت الكلمة يكون لها معنى مستقل تفهمه ، أو لها معنى غير مستقل ، مثل : (**محمد**) ، كلمة عندما تقولها تحضرك صورة الشخص المسمى بمحمد ، فتكون قد أدت معنى ، و : (**كتب**) ، لها معنى كذلك ، ولكن لو قلت : (**الباء**) وحدها لا أفهم معنى إلا إذا انضمت الباء إلى شيء ، كقولك : قطعت بالسكين .

إذن .. فكيف نفرق بين مكونات الكلام من اسم أو فعل أو حرف ؟

قيل : إن كان الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو فعل ، وإن لم يكن الزمان جزءًا من مدلول المعنى فهو اسم ، أما إن لم يدل على معنى في نفسه أصلاً فهو الحرف .

والهمزة التي دخلت في : ﴿ أَلَمْ ﴾ همزة استفهام ، كما نقول : أقام زيد ؟ بمعنى : هل قام زيد ؟ و : أمحمد عندك ؟ بمعنى : هل محمد عندك ؟ فالهمزة للاستفهام ، و : (**لم**) حرف للنفي ، ذلك معناه ، أما عملها فشيء آخر ، فهناك فرق بين معناها وبين عملها ، فمعناها : هي للنفي ، أما عملها : فهي حرف نفي وجزم وقلب ، يدخل على المضارع الصالح للحال أو

الاستقبال فيجعله للماضي .

وعند الاستفهام إذا قلت : أكتب محمد ؟ فهو استفهام عن الكتابة ، أما عندما تقول : أمحمد كتب ؟ فأنت هنا تستفهم عن محمد ، إذن .. فعن أي شيء يستفهم في : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ؟ .. إذا قمت بحذف همزة الاستفهام تقول : (لم تر) ، فهل كان ربنا ﷻ يستفهم عن النفي ؟! فعندما يقول الله ﷻ : (لم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فبذلك يكون الله ﷻ قد نفى عنه أنه يعلم ، ويكون الاستفهام عن ذلك النفي ، فنقول : فإذا كان ليس نفيًا ، بأن يقول : (أترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ، فيكون قد أثبت ، فهذا اسمه الحدث ولكن السؤال بالهمزة قد يكون للتقرير ، أي : لتقرير ما بعدها ؛ لأن الخطاب قد يكون من المتكلم خبرًا صالحًا لأن يكون صادقًا أو أن يكون كاذبًا ، وهذا الخبر عندما أحب أن أقرره أستخدم صيغة الاستفهام ؛ حتى يشارك المخاطَب في إثبات الفعل ، وفي إعداد الجواب ، فتقول : أحسنت إليك قديمًا .. فإذا أردت أن يقرَّ المخاطَب بلسانه ، فحَوِّل الخبر إلى استفهام ، فتقول : ألم تر أني أحسنت إليك ؟ فبذلك تكون قد نقلت الكلام منك أنت كمتكلم ، إلى المحسن عليه كمخاطَب ، فكأنك تقرره بما بعد المدلول ، ولا تنقل الكلام منك إليه إلا إذا كنت على ثقة بأنه سيقول : نعم أحسنت إليَّ ، ولا يكون هذا كلامك ، بل هو إقرار منه ، وما دام إقرارًا منه فيكون حجة في إثبات الفعل ، فكأنك قررته بالفعل .

فكأن طرح السؤال إيحاء بالجواب ، فالحق ﷻ حينما يأتي ليقرر شيئًا ، لا يقرره بصيغة الإثبات فيقول : أنت لم تر ما فعل ربك بأصحاب الفيل ، لكان رسول الله ﷺ يقول : لا أنا رأيت ، فلم يقرره برأيت ، ربما يكون ذلك إيحاء بالجواب ، بل أتاه بالمقابل ، فكأنك عندما تقول لرجل : أنت بخيل ، وأنت لم تعطني حقي ، فيقول لك : صحيح ، أنا لم أعطك حقك يوم كذا ، ولم أحسن إليك يوم كذا ، مع أن هذا حدث بالفعل ، ولكنه أتى به منفيا ، فتأتي

له بالعكس ، فكأنها أمر من الوضوح بحيث لا يستطيع المستفهم منه أن ينكر ذلك ، بل جاء له بما يناقض القضية .

فكذلك قال الله لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ... ﴾ ، وكأن رسول الله ﷺ يقول : بلى رأيته ، فكأن همزة الاستفهام إذا دخلت على الشيء ، فكأنها تقرر بالفعل ، وإذا دخلت على ما دخل عليه الاستفهام ، لك أن تقول : إنها تقرر ما بعد النفي ، أو تنكر النفي وما بعده ، أي : الهمزة للإنكار ، فكأنما ينكر النفي : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ، أي : أنا أنكر بأنك لم تر . أيضًا ، مرة تأتي الهمزة للاستفهام المحض ، ومرة تأتي لتقرير ما بعدها إذا كان الفعل مثبتًا ، ومرة تأتي للإنكار إنكار الفعل المنفي ، وما دمت قد أنكرت الفعل المنفي ، فقد أثبت الفعل المثبت ، أي : فأنت رأيت ما صنع ربك بأصحاب الفيل ، على أبلغ أسلوب .

هنا نلاحظ أن ﴿ أَلَمْ ﴾ ترددت في الكتاب الكريم ودائمًا يأتي معناها بـ : (ألم تعلم) ، مثل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ﴾[1] ، كل (ألم تر) ، أي : ألم تعلم ، فلماذا ترك كلمة (ألم تعلم) وأتى بـ (ألم تر) ؟ لأن وسائل العلم عند البشر : الحواس أولاً ، ثم المعقولات ، أي : الحواس تستقبل ، وبعد ذلك تختمر ، المحسوسات نكون منها المعلومات العقلية ، هذا ما يشير إليه الحق ﷻ في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾[2] ، ﴿ السَّمْعَ ﴾ لتسمع ، ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ لترى ، ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ لتتفقه ، إذن ، وسائل الإدراك : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ .

إذن .. فوسائل العلم ثلاثة .. مركبة في أمهات الحواس ، وهي : السمع ، والأبصار ،

---

1 – سورة : الحج ، الآية : 18 .

2 – سورة : النحل ، الآية : 78 .

والأفئدة ، وكأن الله ﷻ قد أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا ، ثم بعد ذلك جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة .. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .. لعلنا نشكر ، إذن هناك نعمة حصلت بهذه الوسائل ، وهي نعمة العلم ، فكأن الحق يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ثم علمكم بأن خلق لكم وسائل العلم متطورة مع أعمالكم العقلية ، فمرة يكون علمكم عن طريق السماع ، ومرة عن طريق الرؤية ومرة عن طريق الاستنباط من المسموع والمرئي ، فتستنبطون منه المعلومات ، فلعل هذا يجعلكم حين تعلمون هذه الوسائل تشكرون الله ﷻ ، لأن الشكر لا يكون إلا عن وجود نعمة .

والحق ﷻ حينما يتكلم عن وسائل العلم يذكر : السمع ثم البصر ثم الفؤاد ، وهذا كلام منطقي مع وظائف الأعضاء ؛ فلقد ثبت أن حاسة السمع هي أول حاسة تؤدي مهمتها في الإنسان ، فلو مرّرت أصبعك أمام عين الوليد الصغير لا تطرف ؛ لأنه لا يرى شيئًا من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام ، لكنك لو صرخت بجانبه صرخة تجده ينفعل ، فمعنى ذلك أن الأذن أدت مهمتها قبل العين .

وأيضًا فإن السمع هو الوسيلة الأولى لتلقي العلم ، فأنت لا تقرأ إلا إذا تعلمت فن القراءة ، وفي فن القراءة لابد أن تتعلم أن هذا اسمه ألف ، وهذا اسمه باء ، وهذه اسمها فتحة ، وهذه اسمها ضمة ، فلابد قبل أن تقرأ بعينك ، من أن تسمع بأذنك ، وإذا لم تسمع ، فأنت لم تعرف .

لذلك يقول الحق ﷻ في مرتبة العلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، فكأن العلم الذي يقوله الله ﷻ لك ، ويخبرك به – وإن كان غيبًا – يجب أن تستقبله من الله استقبالاً بأقوى وسائل الإدراك لك وهى : العين ، وكأنك تشاهده ، فلا تتشكك فيما يخبرك به الله سماعًا ، فهذا معنى :

---

1 – سورة : النحل ، الآية : 78 .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. فكأنه ليس مجرد فعل ، بل فعل على كيفية مخصوصة ، لا تصدر إلا من الله ﷻ ، فكأن الحق ﷻ يريد أن يلفتنا إلى أن هناك أسبابًا خلقها ، تنتج مسببات ، كلها من فعل الله الذي هو خالق الأسباب ، والمسببات تنتج من وراء المسببات ، وهي أيضًا من فعل الله ﷻ ، ولكن فعل الله بواسطة نواميس مخلوقة ، تلك التي قد يتشكك الإنسان في أن الناموس فاعل بنفسه ، فيظن أن النار تحرق بنفسها ، أو أن المياه تروي بنفسها ، أو أن السيف يقطع بنفسه ، لكن إذا حدث فعل على غير طريق النواميس والأسباب ، فهذا فعل أدى المراد ، لكن بغير أسباب معروفة لديَّ ؛ ولذلك فالحق ﷻ يقول دائمًا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [1].

فإذا رأيت سببًا أدى النتيجة بدون مسبب ، فاعلم أن الذي خلق القوة في ذلك السبب هو الله ﷻ ، وإذا ما حدثت الأمور على غير قانون السبب ، فاعلم أن الله وراء ذلك الفعل ، فهو الظاهر فيما تعلم من أسباب ، وهو الباطن فيما لا ترى من أسباب .

إذن .. فكل شيء له ، وحين يقول ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. نعلم أن الله ﷻ قد فعل ما فعل بأصحاب الفيل لا بأيديكم ، ولا بأسبابكم ، ولكن بشيء آخر فوق النواميس والأسباب ، فليس العجب من الفعل ، ولكن العجب من الكيفية التي وقع عليها الفعل ، لذلك قال الحق ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .. وكذلك لم يقل : ألم تر كيف فعل الله ، إنما أتى بصفة الربوبية ، التي هي : التربية ، والتنمية ، وموالاة المربِّي للمربَّى حتى يبلغ كماله ويستوي ، فكأنه ﷻ يشير إلى أن الذي فعل هذا بأصحاب الفيل هو ربك ، أي : متوليك ، وكما صنع ذلك بأصحاب الفيل بلا أسباب عادية من أعراف البشر ، فكذلك سينصرك بلا أسباب عادية .

ونحن قد عرفنا أن حادثة الفيل حدثت في عام ميلاد رسول الله ﷺ ، فحين يقول الله ﷻ عن فعله : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ .. فيجب أن نستقبل فعل الله ﷻ بقانون الله الله ﷻ لا

---

1 – سورة : الحديد ، الآية : 3 .

بقوانينا ؛ لأن كل فعل يأخذ قوته من قانون فاعله ، فمثلاً نقول : خطب طالب الإعدادي ، أو خطب طالب الثانوي ، أو خطب طالب الكلية الجامعية ، فتؤخذ الخُطبة بمدلول فاعلها ، فلم نأخذ فعل الفاعل من واقع آخر ، بل من فعله هو نفسه .

ففي قوله ﷻ : ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ... ﴾ : رد على طائفة العقلانين الذين أرادوا أن يستقبلوا أفعال الحق سبحانه وتعالى بقانون البشر ؛ ولذلك كانوا يردون كل شيء لا يدخل تحت قانون البشر ، ولا في معقول البشر ، ويحاولون أن يأولوه بما يخضع لقانون البشر ، وفكرهم ، وعقلهم ، وهذه المدرسة ظهرت طبعًا في أوائل النهضة الحديثة ، والتي من أشهر أئمتها **الشيخ جمال الدين الأفغاني** ، و**الشيخ محمد عبده** ، حيث كانوا يكتبون في الإسلام بالغيبيات ، والغيبيات مفهوم يقف حوله الناس كثيرًا ، فالعقول المادية ، تريد أن تعزل الرسالات والنبوات عن مرسلها ، وتريد تفسير الأشياء بناموس البشر والكون .

فمثلاً : قال **الشيخ محمد عبده** في الطير الأبابيل : إنها كانت الميكروبات ، والجدري ، وما أشبه ذلك ؛ والذى حمله على هذا القول أنه استبعد أن تحمل الطيور حجارة ، ثم تنزل تلك الحجارة على هؤلاء الناس فتقتلهم ! ! !

فنقول له : لماذا تستبعد ذلك ؟! فما دمت تدرس النبوات على أن الأساس الأصيل أنها مرسلة من الله ﷻ ، فلا ينبغي أن تلغي هذه القوانين ، وإن كان عقلك لم يسعها ، فعقلك ليس حجة .

وكذلك يقول : ففي الإسلام أشياء كثيرة حول سيرة الرسول غيبيات ، ولا يصدقها العقل ! ! وبالتالي يردها ويقول : هذه أشياء لم تحدث بالفعل ، ويبدأ في تفسيرها تفسيرًا عقليًا ، وذلك حتى يبعدوا الأمور الغيبية عن الإسلام ، وعزلوا عن حياة الرسول المعجزات ، وعزلوا أسرار الكون ، ونفوا كل الغيبيات ، وكل ما يخالف العقل البشري ، أو يخالف قانون ، أو فسروها تفاسير مادية عقلية بعيده عن مدلولاتها .



ولذلك يقول (**هيكل**) في كتاب (**الصلاة**) : أنا سأنهي المعجزات التي حدثت لرسول الله ، وأبعد هذه الغيبيات ، وأبحث فيه كإنسان عبقري .. وظن أننا نُسَر عندما يكون **محمد** ﷺ هو القائد الأول في الإنسانية ، أو **محمد** العبقري ، كلا .. إننا لا نريده قائدًا أو عبقريًا ، أنما يكفينا أن تقول : إنه رسول الله فقط ؛ لأنك عندما تقول : قائد عبقري ، فقد جعلته بإمكانية الإنسان العادي ، فتلغي عنه الغيبيات ، وأولها الوحي ، ثم المعجزات ، لكن عندما تقول : هذا رسول الله ﷺ ، فقد علمنا أنه قد أخذ إمكانياته من الحق ، فتكون قد أعطيته ما هو أعلى من العبقرية والقيادة .

والشيخ **محمد عبده** في مثل هذه السورة ، عندما قال في هذه الغيبيات ما قال ، نقول له : هل هذه الحادثة موثقة تاريخيًّا أم لا ؟ فسيقول : نعم .. موثقة تاريخيًّا .. ثم متى حدثت هذه الحادثة ؟ لقد حدثت في عام الفيل ، ذلك العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ بعث بعد أربعين سنة من هذا العام ، وبعدما بعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة ، وتوالى نزول القرآن على أهل مكة ، كان هناك أناس أعمارهم خمسون ، أو ستون ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو تسعون .. ثم نزلت السورة ، وقرأها رسول الله ﷺ على القوم ، وكان معظم القوم كافرين بها ، وحريصين على أن يكذبوه ، ولو علموا أن شيئًا مما أنزل عليه يمكن أن يُكذَّب ، لما ادخروا في ذلك وسعًا ، فلما نزل قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. فلو لم تكن هذه الحادثة عند أصحاب سن العشرين ، والثلاثين ، والأربعين ، والخمسين ، والستين ، والسبعين ، كما نزل في القرآن ، لكان من الممكن أن يقولوا : إنها حادثة كاذبة ، ولكن لم يجترئ أحد أن يقول هذا ؛ لأنهم رأوا بأعينهم هذه الطيور الأبابيل[1] .

1 - أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن ابن عباس (9 / 207) ، والبيهقي في دلائل النبوة (1 / 44) .

والذي يدل على أن هذه الحادثة وقعت ، أن العرب قبل الإسلام كانوا لا يعرفون الميكروب ، فالميكروب اكتشف في القرن السادس عشر ، أو السابع عشر الميلادي ، فإذا لم يكونوا قد عرفوا الميكروب ، ولم يعرفوا الطير الأبابيل بمدلول أبابيل ، وحجارة بمدلول حجارة ، وكعصف مأكول بمدلوله ، لكان من الممكن أن يُكذِّب رسول الله ﷺ من الأجيال العاقلة ، وأصحاب التجربة الذين رأوا الحادثة .

وما داموا يكذبون بالغيبيات ، ويريدون أن يخضعوها لأسباب نواميس كونية ، وليس قوة غيبية تدخلت ، فنقول : إن الميكروب – كما نعلم – له مدة حضانة في الجسم ، وليس بمجرد أن ينزل ويصيب الجسم ، يؤثر في الجسم مرة واحدة ، بل له مدة حضانه كبيرة ، قد تكون أسبوعين ، وبعد ذلك يبقى الجسم حتى يموت ، وبعد ذلك يتعفن ، وبعد ذلك يتفتت ، وبعد وقت طويل يكون عصفًا مأكولاً ، فالمسألة تريد وقتًا طويلاً ، فأي ميكروب هذا الذي يوجه كالصاروخ الموجه ؟! والله ﷻ لم يجعل العقل البشري يستنبط أسرار الكون المخفية عنه مرة واحدة ، بل يعطيها له تباعًا ، لماذا ؟! لكي أعلم أن عقلي بذاته ليس صالحًا لإدراك الأشياء على حقيقتها ، بل يمر عليه يوم وهو جاهل بالمسألة ، ثم يأتي بعد ذلك يوم يكون قادرًا عليه ، وما دام أثبت جهلي ، فلابد من الإيمان بدليل قدرته اليوم ، فأنا أثبت له قدرة الغد على عجز اليوم ، وهذا في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا ﴾[1] ، وما دام سيريهم آياته ، فمعنى ذلك أنها كانت مطمورة ، ولو كان العقل البشري صالحًا بذاته لإدراك أسرار الكون لأدركها مرة واحدة ، ثم أصبحت كل أحداث العالم بعد ذلك مكررة ، ولكن الحق ﷻ يجعل هناك أشياء تظل غيبًا ، ثم تصير بعد ذلك مشهدًا بمقدمات ، فيمشي من ألف ، ويذهب إلى جيم ، إذن ، فالمقدمات التي وضعها ربنا في الكون هي مادة في استنباط المجهول ، وما دامت مادتي في استنباط المجهول ، فيكون عندما أردها ، أردها إلى الآمر .

---

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

فكأن الحق ﷻ حين يأذن للعقل لكشف سر من أسرار كونه ، وهو سر غير مادي ، ليس منظورًا ، يهيئ الإنسان إلى أن يصل للمقدمات الموصلة ، فيأخذ بالمقدمة ، وبعد ذلك ينتهي لنتيجة ، فتتسلسل المعلومات ، وتتطور الفكرة ، وتتسامى ، و.... إلى آخره .

ومرة يأذن الله للسر أن ينكشف ، ولكن البشر لم يكونوا قد صنعوا المقدمات العلمية التي تدلهم عليه ، لكن الله أذن للسر أن ينكشف ، إما أن يمهد لذلك بأن يأخذ العقل البشري بمقدماتها ويصل ، أو أنه يجعله يبحث في شيء ، فيظهر له سر من أسرار الدنيا ، وإذا نظرت إلى كثير من المخترعات ، تجد أن أغلبها قد جاء بالمصادفة .

كما قال ﷻ : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾[1] ، فالبشر لا يحيطون بشيء من علمه إلا إذا شاء ، فمرة يشاء أن يوفق في المقدمة ، ومرة يكونون موفقين فيعطيها لهم بالمصادفة ، فقط بمجرد أن يشاء .

ولكن هنا أعطى الله ﷻ الوصف لخلقه في قوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ .. في الأشياء التي كانت غيبًا ، ولكن يمكن أن يستوعبها الإنسان ، لكن في قوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾[2] .. أي : لا يظهر هو ، وليس غيره ﷻ .

وهنا نصل إلى نتيجة : أن هناك فرقًا بين غيب مطلق ، وهو الغيب الذي لم يجعل الله له مقدمات تستطيع أن تستنبطها ، كاستنباطك لأسرار الكون الموجودة في الحياة ، وبين غيب مستور عنك ، ولكن من الممكن إذا دققت النظر ، وقمت بتجربة ، وملاحظات ، ونظريات ، أن تستطيع أن تتوصل إليها .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ .. والكيد : هو مقابلة الخصم للخصم ، إما أن يكون

1 - سورة البقرة ، الآية : 255 .

2 - سورة الجن ، الآية : 26 ، 27 .

بوسـائل مجابـهة ، علنية ، واضحـة ، وإما أن يكون بالأشـياء التبـييتية ، ولا تأتي الأشـياء التبييتية إلا إذا كان الخصم غير قـادر على أن يغلب بـالمواجهة ، فيقـوم بـعمل كيد ، إذن ، فالكيد وسيلة من وسائل الانتصار على الخصم الذي أعجزه أن ينتصر عليه بالمواجهة ، هذا في الواقع ، فقد يظن بـعض الناس أن الكيد قـوة ، كلا ، بـل هو ضعف ؛ لأنه لو كان عنده قـدرة المواجهة لما بيَّت .

ورحمة الله على العقـاد ، إذ كان معروفًا بـرأيه في موضوع المرأة ، فلقـد كان يسـمي أولئك الذين يدافعون عن المرأة بالنسـائيين ، فكانوا يقـولون : إن عقـلية المرأة جبـارة ؛ لأن الله ﷻ وصف كيد الشيطان بأنه ضعيف فقـال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1] ، ووصف كيد المرأة بـأنه عظيم فقـال : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾[2] .. فوفق الله العقـاد لجواب ، هذا الجواب يتلخص في أن الذي يلجأ إلى الكيد ، والاحتيال ، والمكر ، وغيره ، هو الضعيف عن المواجهة والمقابـلة ، والضعيف عن المواجهة هو الذي لا يملك ظروفه ، فإذا ما أصاب فرصة ولو ضعيفة أراد أن ينتهي من خصمه فيها ، لكن القوي لا تشـغله الفرص ، فهو قـادر أن ينفذ ما يريده في أي وقت ، والمرأة الضعيفة إذا أصابت فرصة قتلت ، وكذلك قـدرة الضعفاء ، عندما يصيبـون فرصة ينتهزونها ، ويبيتون ، ويكيدون ، حتى تحين الفرصة .

إذن ، فالذي يبـيت لخصمه هو الضعيف ، فالذي يريد مثلاً أن ينافس أحــدًا ، وينافســه منافسة شديدة بـالمواجهة ، وهو ليس قـادرًا على مسـألة المواجهة ، فيقـوم بـعمل مكائد له ، ويبيت له ، فلو كان قادرًا على المواجهة لما صنع هذا .

فالعقاد يقـول : إن كيدها حـين يكون أعظم من كيد الشـيطان ، فمعنى ذلك أن ضعفها في المواجهة غير موجود ، ولذلك لا تنجح إلا في الكيد ، فالذي لا ينجح إلا بـالكيد والتبــييت ، يكون ذلك دليلاً على ضعفه .

---

1 – سورة : النساء ، الآية : 76 .

2 – سورة : يوسف ، الآية : 28 .

والكيد يكون في الخفاء دائمًا ، الكيد الذي يكون على غير وجه حـــق ، فأنت تعمي على البشر في كيدك ، وإنما كيد البشر ليس هو الكيد الوحـيد ، بـل وراءه قـوة أعلى ثانية ، إذن ، فكيدكم مكشـوف .. كيدكم في ضلال ، ولا يصل إلى نتيجة ، ولا إلى غاية ؛ لأن المكيد ليس هو الذي يواجهك ، بل وراءه قوة أكبر وأعظم من قـوته ، فكل أسبـاب المناورة والكيد ، تلك التي يفتتن بها صاحبها ؛ لأنه يعتقـد أنه أقـوى ممن يواجه ذلك الكيد ، ويعزل المكيد له الذي هو في جانب الحق ، أو جانب الإيمان ، عن المصدر الأصيل .

إذن ، فما دام كيده مفضوحًا فلن يصل إلى نتيجـة ، بل كيده في تضليل .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .. وطيرًا أبابـيل ، أي : جماعات ، وهي كما بلغتنا : طير أبابيل ، وكانت ترمي بحجارة .

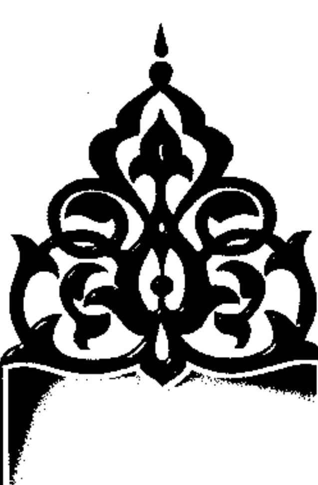
﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .. و(**العصف**) هو : القشـــرة ، أو الغلاف الذي يغلف الحب ، فإذا أُكِل الحَب أُلقـي هذا العصف ، فيصير مثل التبن ، فكأن المعنى : أن الأجسـام تفتتت كتفتت التبن ، أو الحب الذي أُكل وأُلقي عصفه .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

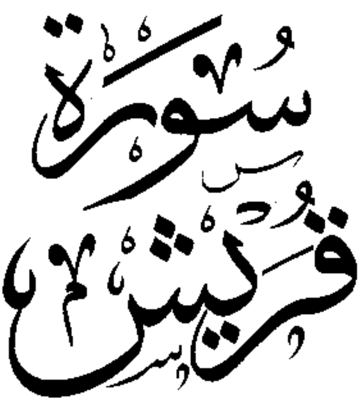





تفسير جزء
عم






سورة
قريش





سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

فمع تفسير **سورة قريش** ، تلك السورة التي ترتبط **بسورة الفيل** ارتباطًا وثيقًا مع أنها لم تنزل بعدها مباشرة ، إذ ليس من الضروري أن تنزل السورة بعد السورة لتكون مترتبة عليها ، وقد تنزل السورة بعد السورة بمراحل ، ولكن وضعها في القرآن يأتي بها في هذا الجانب ؛ لأن القرآن كلام الله ، له هيئة نهائية عند الحق ﷻ ، وفرق بين نزول القرآن ، وبين الهيئة النهائية التي عليها القرآن .

فنزول القرآن كان يأتي حسب المقتضيات والأحداث التي تتطلبها الدعوة ، ولكن القرآن في اللوح المحفوظ مرتب الترتيب الطبيعي له ، فإذا ما نزلت حادثة ، واحتاجت لآية ، نزلت تلك الآية ، لكن وضعها في السياق القرآني له ترتيبه .

ولذلك نقول دائمًا : إنه يوجد ترتيب نزول حسب الأحداث والمتطلبات التي تتطلبها الدعوة ، وهناك ترتيب نهائي على ما هو عليه ، فمجيء الشيء على حسب سبب مجيئه ، غير ترتيبه في المصحف في التصميم النهائي ، فالقرآن بهذا الوضع على التصميم النهائي الذي كان عليه في اللوح المحفوظ ، أما نزوله فقد نزل منجمًا حسب الحوادث .



لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝

﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ ﴾ .. ماذا تعني كلمة : ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ ؟ لابـد أن تجد فعلاً تعلقه بكلمة : ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ .. وهذه هي العلاقة بين **سورتي الفيل وقريش** ، ففي **سورة الفيل** نجد أن الله ﷻ فعل ما فعل بأصحاب الفيل.. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[1] ، لماذا ؟ ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ؛ لأن الحق ﷻ إذا ترك بيته لما يريده أبرهة من هدمه ، لسقطت مهابة قريش في شبه الجزيرة العربية ؛ لأن الذي جعل لقريش تلك المهابة هو ذلك البيت ، ولماذا جعل البيت المهابة لقريش ؟ لأن القبائل كلها كانت تأتى إلى قريش لتحج البيت ، فما تستطيع قبيلة من القبائل أن تقطع الطريق على قريش في تجارتها ، ولا تتعرض لها ، لا شمالاً وهي ذاهبة إلى الشام ، ولا جنوبًا وهي ذاهبة إلى اليمن ؛ وذلك لأنها تذهب إلى قريش في عقر دارها لتحج البيت .

إذن .. فوجودهم في جوار البيت هو الذي جعل لهم تلك المهابة في الجزيرة ، فلو أن البيت هُدم كما يريد أبرهة ، لسقطت هذه المهابة ، وحين تسقط المهابة ماذا يحدث ؟ فهم في وادٍ غير ذي زرع ، وكل اقتصادهم في العمليات التجارية : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، فإذا ما سقطت مهابة البيت ، سقطت مهابة قريش تبعًا لذلك ، وإذا سقطت مهابة قريش فستتجرأ عليها القبائل في الشمال ، وفي الجنوب ، كما تجرأت علي غيرها من القبائل ، وإذا

1 – سورة : الفيل ، الآية : 5 .

ما تجرأت عليها القبـــائل صادرت تجارتها ، وما دامت صادرت تجارتها وهم لا مصدر رزق لهم إلا من هذه التجارة فماذا سيكون الموقف ؟ لا شـك أنهم سيجوعون ، ويرتعدون خوفًا من القبائل المتفرقة .

إذن .. فالحق ﷻ فعل ما فعل بأصحاب الفيل ، وجعلهم كعصف مأكول لماذا ؟ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ، لكن هل الحق ﷻ رد أبـرهة عن هدم البـيت لهذه المسألة فحسب ، أي : لإيلاف قريش فقط ؟

إن اللام في كلمة : ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ .. يسمونها : (**لام العاقبـــة**) ، أي : نجاة البـيت من الهدم ، ورد أبرهة وجيشه مدحـورين مهزومين ، ولم ينالوا من البيت شـيئًا ، كان لأجل أن تظل لقريش مهابتها ، فيطمئنوا علي رزقـهم وأمنهم ، فلا يهددهم أحـد بخوف ، لكن الحق لم يفعل ذلك لهم ، إنما فعل ذلك حماية لبـيته ، فيكون تبـعًا حماية البـيت أن تألف قـريش رحلتي الشتاء والصيف .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .. لأنهم مدينون له بأنه حفظ البـيت الذي يجعلهم يألفون رحلة الشتاء والصيف ، ويأمنون بسببهما على أنفسهم من جوع ومن خوف ، وما دام قـد فعل معهم هذا الجميل ، وتلك النعمة ؛ فيجب عليهم أن يقابلوا ذلك بأن يعبدوا رب هذا البيت : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ... ﴾ .

إذن .. فـ : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ بــين أمرين : بــين أمر هو الدافع الأصيل ، وكانت تلك عاقبـته .. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ ، وبــين مطلوب من الله ﷻ .. ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ..

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .. فإذا نظرنا إلى هاتين القـــضيتين : أطعمهم من جوعٍ ، وآمنهم من خوف ، نجد أن هذه الأشياء هي الأشياء الضرورية للإنسـان ، فالضروري للإنســان هو قــوت حــياته ، ثم بــعد ذلك أن يطمئن علي أن شــيئًا لا يخيفه ،

والخوف له مصدران ، إما زوال النعمة ، أو حلول مصيبة ، فيكون هنا الخوف ، فالحق ﷻ حينما يضمن للإنسان أنه أطعمه من جوع ، وآمنه من خوف ، يحقق له ما قاله الرسول ﷺ : " ألا أخبركم بدنيا المؤمن ؟! " قالوا : بلى يا رسول الله . قال : " من أصبح معافًى في بدنه ، آمنًا في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها "[1].

إذن .. فحظ الإنسان وسعادته في شيئين اثنين : أن يطعم من جوع ، وأن يأمن من خوف ، وهذان الشيئان حققهما الله ﷻ لهم ، وإذا نظرت وتأملت وجدت أن هذين الأمرين هما دعوة إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ .. وهذا هو الأمن من الخوف ، ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾[2] .. وهذا هو الإطعام من الجوع ، فدعوة إبراهيم عليه السلام في هذين الأمرين : أن يؤمنهم من خوف ، وأن يرزقهم من الثمرات كي لا يجوعوا ؛ لأنهم في وادٍ غير ذي زرع ، فإذا رتب الحق ﷻ الأمر بالعبادة على ما فعله لهم ، من إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ، يكون الترتيب طبيعيًّا ؛ لأن المهمة الأساسية التي من أجلها أسكنكم هذا المكان إنما هي إقام الصلاة .. ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾[3].

إذن .. فحين يقول الحق ﷻ : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ، وقد استجاب دعاء إبراهيم عليه السلام ببلد آمن ، والرزق من الثمرات ، وحقق لهم هذين الأمرين ، فليؤدوا المطلوب منهم ، وهو : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ، لأن هذه العملية الأساسية التي من أجلها جاء إبراهيم بذريته إلى هذا المكان ؛ ليقيموا الصلاة

---

1 – أخرجه الترمذي في سننه (8 / 344) ، وابن ماجه (12 / 17) ، والطبراني في الكبير (11 / 193) ، والأوسط (4 / 357) ، والبيهقي في شعب الإيمان (21 / 298) .

2 – سورة : البقرة ، الآية : 126 .

3 – سورة : إبراهيم ، الآية : 37 .

عند بيت ربهم ، إذن : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ .. تفسر لنا ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ .

فما هي العبادة ؟

(**العبادة**) : تطلق لمعان متعددة ، وكل سياق يتطلب معنى ، فالعبادة تطلق ويراد بها معرفة الحق ، وما دام قد عرف الحق فلابد – وفاء للحق – أن تطيعه وتخضع له ؛ لأن معرفة الحق أن تعرفه إلهاً ، أن تعرفه قادرًا ، أن تعرفه حكيمًا ، أن تعرفه باقيًا ، جميع هذه الصفات ستعرفها له ، وما دمت قد عرفت إلهاً له هذه الصفات فيجب عليك أن تنقاد له ، فالذي يفسر العبادة بالمعرفة ؛ لأن المعرفة هي الوسيلة لقبول تكاليف الله لخلقه .

وبعض العلماء يري أن العبادة هي الخضوع ، فإذا وجدت المعرفة ولم يوجد الخضوع ، فهذه ليست عبادة ، فهناك أناس يعرفون الله ﷻ ، ولكن ليس عندهم الخضوع ، ويوجد أناس يعرفون الله ﷻ ، ويخضعون له ، إلا أنهم متكاسلون عن منهجه القويم ، فإذا قال الحق ﷻ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُون ﴾ [1]، فبعضهم يقول : إلا ليعرفون .. وهل خلق الله ﷻ الخلق للمعرفة فقط ؟ والبعض يفسر : (**إلا ليعبدون**) بالخضوع واتباع المنهج .

فنقول : إذا وجدت آية من الآيات ، فلابد أن تأتي بنظائرها من القرآن الكريم ، فهل جاءت آية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَ لِيَعْبُدُون ﴾ وحدها ، أم جاءت العبادة مع أوامر أخرى ؟ كما قال ﷻ : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ [2]..

إذن ، فكلمة : ﴿ يَعْبُدُون ﴾ معناها : يخضعون لي ويطيعوني ، والخضوع والطاعة لا يتأتي إلا بوجود منهج ، وإلا لو كان بمجرد الخلق تأتي العبادة ، ما احتجنا إلى رسول ومُوَجِّه ، بل لا يحدث ذلك إلا إذا جاء رسول بمنهج مبلغ عن الله ﷻ ، إذن : ﴿ وَمَا

---

1 – سورة : الذاريات ، الآية : 56 .

2 – سورة : البينة ، الآية : 5 .

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، أي : لأكلفهم بعبادتي ، أكلفهم بواسطة أوامر ، فمنهم من يطيع ، ومنهم من يعصي .

وإذا نظرنا إلى العبادة في السورة نجد : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي : السبب الأصيل الذي لأجله جاء إبراهيم بذريته : ليقيموا الصلاة ، إذن ، فكأن الصلاة هي المحور الأساسي في العبادة ، عبادة لها معنى واسع ، ومعنى متوسط ، ومعنى قليل . وقد قسم العلماء الشعائر إلى : عبادات ، ومعاملات ، فقصدوا بالعبادات : الأمور التي شرعها الله لتقربك إليه ، وقصدوا بالمعاملات : ما ينظم أحوال هذا المجتمع ، لكن إذا نظرت إلى الحقيقة ، وجدت أن كل شيء سواء كان عبادات بهذا المعنى ، أو كان تنظيمًا لعلاقة المجتمع بعضه ببعض ، في نظام الأسرة ، في نظام الحكم ، في نظام الاقتصاد ، في الأخلاق ، وجدت كل هذا أيضًا من العبادة بمعناها العام الواسع ، فإذا كانت العبادة في قوله : ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ ، هي معناها في قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ، لأن الصلاة لو نظرت إليها لوجدت فيها العبادات بالمعنى الفقهي ، والمعاملات أيضًا ، لوجدت فيها العبادات بالمعنى العام المراد منه ، وهو الخضوع لمنهج الله دون منهج البشر إلا أن منهج الله أقسام ، هذه الأقسام أمور يفرضها الله ﷻ ولا ابتكار لأحد فيها ، كالصلاة ، أي : لا تتقرب إلى الله بشيء أزيد من هذا ؛ لأنه هو الذي شرعه ، أما أمور المعاملات فالحق ﷻ يترك للذهن البشري نشاطه ، وبعد ذلك يقنن لكل أمر علي حدود مستوى البيئة ، ومستوى العصر ، ومستوى المجتمع ، في إطار الأصول العامة .

وفرق بين العبادات الفقهية ، والمعاملات الفقهية ، في أن العبادة : هي ما لا يضعه بشر لبشر ، الكفار أليس لهم قانون يتعاملون به في نفوسهم ، وأُسَرِهم ، ومجتمعهم ، وحكمهم ، واقتصادهم ؟! هذا نظام ضروري ، لكن لا يضع البشر للبشر ، فمثلاً : لا يقول بشر لبشر : تقرب إليَّ بصلاة ركعتين ، أو بصوم شهر ، أو بزيارة بيتي كل عام ، كل هذا لم يحدث ،

إذن ، فهناك فرق بين العبادة ، والمعاملة ، فالمعاملة هي نظم للتعامل ولو لم تكن مؤمنًا ، لكن العبـــادة لا توجد إلا في منهج الدين ، فإذا نظرنا إلى هذا ، وجدنا الصلاة أخذت محلها في العبادة .. المحل الأساسي ، سواء كانت عبادة ، أو معاملة ، كيف ذلك ؟! لأن معاملات الإسلام فرض له علاقة بمجتمع قريب .. هو : الأسرة ، ومجتمع بعيد .. وهو : الأمة ، والعلاقات هذه لابد أن يقوم عليها والٍ ، وإمامٌ ؛ لينفذ الأحكام من يكون محلاً لرفع الظلم عن المظلوم ، إذن .. فلابد من وجود إمام يقوم بذلك ، فإذا نظرت إلى الصلاة وجدتها تأخذ بنود العبادة الشعائرية كلها ، وتأخذ أرقى بند من البنود ، وهو بند الولاية في الحكم ، كيف ؟! الصلاة صحيح أنها عماد الدين ، فلو نظرت إلى طريقة تكليفها وجدتها تختلف عن طريقة التكليف بالعبادات الأخرى ، فكل التكليفات صدرت بواسطة وحي ، إلا الصلاة ، فقد تميزت بأنها صدرت بالتكليف من الله ﷻ مباشرة ، ومادام التكليف جاء بهذه المباشرة ، فلابد وأن له أهمية كبيرة ، وأيضًا : الصلاة فرضت في الوقت الذي ظفر **محمد** ﷺ فيه بأن يكون في حضرة ربه ﷻ ، وما دام قد حدث له هذا الظفر بالقرب من الحق ﷻ ، فنزل إلى أمته بتحية من الحق لهذه الأمة ، هذه التحية هي التي تقرب أمة **محمد** ﷺ إلى الله ﷻ ، كما قُرب **محمد** ﷺ إلى الله ، وهذا هو المراد من قول الحق ﷻ : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾[1] ، فكما اقترب رسول الله ﷺ ليلة المعراج من ربه ، كذلك أمته تقترب من الله بصلاتها ، فالصلاة تأخذ وضعًا متميزًا عن بقية الأحكام .

وإذا نظرنا إلى تكاليف الإسلام ، التي هي أركان الإسلام الخمسة لوجدناها متمثلة أكمل تمثل في الصلاة ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله يجب على الإنسان لكي يكون مؤمنًا أن ينطقها وتلفظ بها ، والصلاة تحققها ، ليس مرة واحدة ، بل في كل صلاة عدة مرات ، وهذا هو الركن الأول من أركان الإسلام .

---

1 ـ سورة : العلق ،الآية : 19 .

إذن .. فالصلاة فيها الركن الأول من أركان الإسلام ، وهي الركن الثاني ، فهي تحقق ذاتها ، أما الزكاة : فهي فضل من مال بلغ النصاب ، تخرج جزءًا منه ، وتعطيه للفقراء ، والمال الذي جاء منه النصاب ، فرع العمل ؛ لأنه ليس هناك تملك في الإسلام إلا بعمل ، وما دام المال فرع العمل ، إذن ، يحتاج المال إلى وقت ، إذن ، فالزكاة إخراج قدر من المال ، ووجود المال فرع العمل ، والعمل فرعه وجود الوقت ، فإنك تضحي بوقتك لأجل الصلاة ، فالزكاة تضحي بثمرة العمل وهو المال ، والصلاة هنا تجعلك تضحي لا بثمرة العمل وهو المال ، ولا بالعمل ، ولكن بالوقت الأصيل ، الذي يحدث فيه العمل ، فتعتبر بذلك الصلاة زكاة من نوع أعلى .

وكذلك فيها الركن الرابع من أركان الإسلام ، وهو الصيام ؛ فالصيام امتناع عن شهوتي البطن والفرج ، وكذلك في الصلاة أمتنع عن شهوتي البطن والفرج ، بل وزيادة على ذلك أمتنع عن مباحات الصيام أيضًا ، فمن مباحات الصيام : أن تمشي ، وتتكلم ، وتضحك ، وهذا ممتنع في الصلاة ، إذن ، فهو إمساك عن ما تمسك عنه في الصيام ، وإمساك عن أشياء أكثر مما تمسك عنه في الصيام ، فهي صيام بصورة واسعة .

وأيضًا فيها الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ؛ لأنك إذا ما أردت أن تصلي لربك فإنك تستحضر بيت الله أمامك بقلبك ، وتتوجه إليه بقالبك ، فأنت تتجه للبيت قلبًا وقالبًا ، ففيها حج دائم .

إذن .. فالصلاة أخذت ذلك المدلول لأنها ينطوي فيها كل أركان الإسلام ، هذا من ناحية الشعائر .

وبعد ذلك انظر إلى الصلاة من ناحية النظام التعاملي في المجتمع ، فعندما يؤذن المؤذن يجتمع الناس ، كل من أرادوا أن يقوموا بأوامر ربهم ﷻ يهرعون إلى نداء ربهم ، ويتركون كل مشاغلهم ، فحين يهرعون إلى بيت ربهم ، تزول الفوارق ، فتجد الغني بجانب الفقير ،

والذي يأتي يجلس في المكان الذي يجده أمامه ، فالمكان لمن سبق ، قد يجلس الوزير في الصف الأخير ، ويجلس الفقير في الصف الأول .

إذن .. فقد تخلصوا من كبريائهم وغرورهم ، وتخلصوا من الطبقية التي فيهم ، واستووا جميعًا أمام ربهم في العبودية ، فحين يتكرر ذلك من الإنسان ، تخف قوة التعالي الموجودة بين الطبقات ، لماذا يكره الناس الفقر ؟ لأنهم يرون الغني يحترمه الناس ، فإذا ما احتُرِم الفقير أيضًا ، وأخذ حقه من الكرامة ، فلا تحدثه نفسه بهذه المسألة أبدًا ، ولكنه يرى الغني يأخذ حقوقًا أكثر منه ، لكنه عندما يجد هذا الوضع ، ويجد الذي كان يخشاه في عمله ، أو ذلك الذي كان يجلس معه وهو متهيب منه ، تجدهم كلهم في لحظة من اللحظات صاروا في خضوع لله ﷻ .

إذن .. فأول مبدأ هو المساواة ، وما دام يشيع مبدأ المساواة ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، يطمئن المجتمع ، ويصبح مجتمعًا سليمًا ، مجتمعًا ليس فيه تعالٍ ، وما دام ليس فيه تعالٍ ولا كبرياء ولا غرور ، فهو مجتمع منسجم ، وبعد ذلك نجد إنسانًا يتقدم بالناس ليصلي بهم ، ليس مطلق إنسان يتقدم ليصلي بالناس ، ولكن لابد من أن تتوافر فيه شروط ، منها : أن يكون من يصلي بهم راضين عن إمامته .

فالإمامة في الصلاة تعلمنا كيف تكون الإمامة في الحكم : " **لعن الله رجلاً أمَّ قومًا وهم له كارهون** "[1] ، وبعد ذلك وضع لها مقاييس : أحفظهم للقرآن ، فإن تساووا ، فيكون أفقههم لسنة رسول الله ﷺ ، فإن تساووا في ذلك ، فيكون من له سابقة إسلام ، أشياء مشروطة ، هي تمام ما يشترطه المشترطون في إمامة المسلمين ، بعد ذلك عندما ترتضي الإمام ، وتقف خلفه تصلي ، فللإمام الأمر ، يصدر أوامره ، يلتفت إلى المصلين ويقول : سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، وبعد ذلك لا يكبر إنسان بتكبيرة الإحرام إلا إذا كبر الإمام أولاً ،

1 - أخرجه الترمذي عن أنس (2 / 97) ، وقد ورد بألفاظ متعددة عند أبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهما .

فهم جميعًا وراء ذلك الإمام ، فعندما يقول : الله أكبر ، يقولون بعده : الله أكبر ، ولا يركع أحد إلا إذا ركع الإمام ، وكذلك لا يسجد أحد إلا إذا سجد هو ، وإذا جهر بالقرآن أنصتوا إليه ، فهنا مسألة الطاعة والاتباع ، ما دام هذا الإمام أتى برضانا ، فنحن ملزمون بطاعته ، وهنا لفتة ، يقول النبي ﷺ : " **ليلني منكم أولو الأحلام والنهى** "[1] ، أي : من يقف خلفي مباشرة هم أولو الأحلام والنهى ، وهذا هو منطق الرسول ﷺ ، وليس تكريمًا لأولي الأحلام والنهي ؛ فإن الإمام عرضة لأن يخطئ في القراءة ، فالذي عنده ذِكْر يذكره بالآية التي أخطأ فيها ، وإن نسي في الصلاة ينبهه ويقول له : سبحان الله ، وإذا حدث للإمام عذر من الأعذار يجعله يخرج من الصلاة ، فيجد خلفه من أولي الأحلام والنهى من هو أهل ليكمل الصلاة بالناس ، وهذه توحي إلينا في السياسة العامة أيضًا أنه لابد للإمام ألا يقرب منه أبدًا إلا أولي الأحلام والنهى ، بحيث إذا انحرف قيد أنملة عن منهج الله يقومونه ، فهذا خير خلق الله .. النبي ﷺ ، وكان يصلي بالناس ، ثم انصرف من اثنتين ، فقال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ : " **أصدق ذو اليدين ؟!** " . فقال الناس : نعم . فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ، ثم سلم ، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه فكبر ، ثم وضع رأسه فكبر ، فسجد مثل سجوده أو أطول ، ثم رفع رأسه وكبر [2].

إذن : وإن كانت المهابة تأخذ الإمام بأن جميع حركاته متبوعة ، ولا أحد يقدم بين يديه في أمر من الأمور ، إلا أن أولي الأحلام والنهى حينما يجدونه قد انحرف عن منهج من مناهج الله ، هنا تمتنع الطاعة ، وينبه إلى الخطأ ؛ ولذلك إذا نظرت إلى هذه الآيات في القرآن الكريم، تجد الحق ﷻ عندما يأمر بالطاعة مرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[3]

---

1 - أخرجه مسلم (655) عن أبي مسعود .

2 - أخرجه البخاري (1153) ، ومسلم (896) كلاهما عن أبي هريرة .

3 - سورة : النساء ، الآية : 59 .

ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾[1] ، ومرة يقول : ﴿ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[2]فقط .

ثم حين أراد أن ينبه على طاعة أولي الأمر قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[3] ، وذلك لأن ولي الأمر لا طاعة له في ذاته ، وإنما طاعته من باطن طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ ، فإذا انحرف عن شيء من طاعة الله ورسوله ، فليس له طاعة .

إذن ، فالصلاة بمثل هذه المعاني فيها جماع كل التكاليف من أولها إلى آخرها ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : " **لتنقضن عرى الدين عروة عروة ، أولها الحكم وآخرها الصلاة** "[4] ، معنى ذلك أنكم ستنسون قضايا الدين جزءًا جزءًا ، فينفصل الناس عن منهج ربهم ، يكون ذلك في الحكم ، فيحكمون بغير ما أنزل الله ﷻ ، وتكون هذه هي أول ما ينسى من الدين ، ثم بعد ذلك آخر ما يكون من سمات الإسلام التي تنسى الصلاة ، فيكون من الحكم إلى الصلاة ، فلو نظرنا إلى منهج الصلاة بهذا المعنى ، وجدنا أنها ضرورة من ضروريات وجودنا في ذلك المجتمع ؛ لأن أحداث المجتمع منوعة ، ونحن نرى أناسًا عندما تكثر عليهم الهموم يلجئون إلى شيءٍ يؤنسهم ، وينسيهم همومهم وأحزانهم ، ويعينهم علي زوال تلك الهموم ، فقد يمكن هذا ، وقد لا يمكن .

ولكن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[5]، ومعنى حزبه أمر ، أي : ضغطت عليه الظروف فوق أسبابه ، فأين يذهب ؟ إنه يذهب إلى ربه الذي لا يعجز عن أمر ؛ فالصلاة مفزع لذي الحاجة ، ومفزع لذي الهم ، فقد يعتقد أناس أن الخمر تزيل الهم ، ولكنها في الحقيقة تنسي الهم ولا تزيله ، فالهم مازال موجودًا ، فالله جعل لك العقل لتواجه به

1 – سورة : آل عمران ، الآية : 32 .

2 – سورة : النور ، الآية : 56 .

3 – سورة : النساء ، الآية : 59 .

4 – أخرجه أحمد في مسنده (45 / 134) ، والطبراني في الكبير (7 / 103) عن أبي أمامة الباهلي .

5 – أخرجه أبو داود (4 / 88) ، وأحمد (47 / 279) ، والبيهقي في الشعب (7 / 180) عن حذيفة .

الأحداث ، لا لتهرب به من الأحداث ، فعندما يأتيك هَمٌّ لابد أن يكون عندك طاقة عقلية موفرة ، لتتخلص من هذه المشاكل ، لا لتذهب عقلك الذي تملكه ، فالخمر لا تذهب الحزن والهم .

ولكني كرجل مؤمن سأذيب هذا الحزن في أن أكون بين يدي ربي ، وما دمت بين يدي ربي ، فأستطيع أن ألجأ وأستغيث ، وأيضًا : فإن الحق ﷻ هو الخالق ، والعبد مخلوق له ، إذن ، فهذا صانع ، وتلك صنعته ، أروني صنعة تعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ثم تجد بها خللاً ! !

فأنت صنعة ربك ، فكونك تذهب إليه كل يوم خمس مرات ، وتكون في حضرته ، أتدري ماذا يفعل بك ؟! إلا أننا نلاحظ أنك عندما يكون بك هموم الدنيا ، ثم تذهب للقاء ربك ، فتخرج من هذا اللقاء وأنت في ارتياح ، ما الذي حدث لك ؟! الذي خلقك هو الذى يعلم مفاتيحك ، ويعلم ما هو المفتاح الذي يجعل عندك التوازن والرضا والاطمئنان ، ويجعلك إذا حدث لك من أحداث الحياة شيء ، برصيد من إيمانك بربك الذي لا تقدر عليه الأحداث ، فنحن عندما نذهب بألم عضوي إلى طبيب ليزيل هذا الألم العضوي ، فإنه يزيل هذا الألم بشيء مادي ؛ لأنه مادة أيضًا ، لكن الحق غيب ، فهو يزيل الأشياء بغيب أيضًا ، فكان ﷺ كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؛ لأن الصلاة فيها ميزة لا توجد في أي شعيرة من الشعائر ، فهي ميزة تجعل مفتاح لقائك بربك في يدك ، وكما نعرف على عهدنا بالعظماء والحكام والملوك أن أحد الرعية من رعاياهم إذا أراد أن يلقاهم لابد أن يطلب مقابلة ، وبعد ذلك ينظر في ذلك الطلب أيوافق أو لا يوافق ، فإن وافق ، يقول له : عن أي شيء تتحدث ؟ فإن وافق حدد له الزمان والمكان والموضوع الذي يتحدث فيه ، هذا هو نظام لقائنا ، لكنك مع ربك الأعلى في غنى عن مثل هذه المقدمات كلها ، بإيمانك به ، وبإقبالك عليه ، أنت الذي تحدد الزمان والمكان وموضوع المقابلة .

إذن .. فالعبودية التي قدمتها بين يدي الله ﷻ إيمانًا به ، وخضوعًا له ، نقلت إليك سيادة هذه السيادة ، في أنك أنت الذي تحدد : أين تلقى الله ﷻ ، ومتى ، وبأى شيء تناجيه ، فبمجرد أن تقول : الله أكبر ، تكون في حضرة الله ﷻ ، وأنت أيضًا الذي تنهي هذه المقابلة ، أهذه سيادة أم عبودية ؟! إنها عبودية أعطتني سيادة ، ولذلك قال الشاعر :

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن أرسلت أحمد لي نبيًّا

ولذلك عندما تؤمن بالحق ﷻ وتدخل في مقام العبودية الخالصة له ، يقول لك : المفتاح أصبح في يدك ، تريد أن تقابلني في أي وقت ، وفي أي زمان ومكان ، وتخاطبني في أي شيء ، وتظل طول عمرك معي ، لا أملُّك ، ولا أنهي المقابلة معك أبدًا حتى تكون أنت الذى تنهيها ، وتظل في أنس مع ربك ، ويأنس عباده في الأرض جميعًا به ، ولكن لا يشغله أنسه لعبد عن أنسه لعبد آخر ، يفيض عطاؤه وإقباله وأنسه على الكل ، فنعم السيد هو ، ونعم الرب هو ﷻ .

وفي ذلك يقول الحق ﷻ ، " **وإن تقدم إليّ ذراعًا ، تقدمت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة** "[1]. فهل هذه عبودية أم سيادة ؟ إنها سيادة ، وليست عبودية .

وبعد ذلك نجد العجيب في الناس أنهم لا يعاملون الله ﷻ في جدية العبادة معه كما يتعاملون مع نفوسهم في هزل الحياة وفي لعبها ! ! فمثلاً : نحن نرى النشاط الرياضي ككرة القدم ، يسأل فيه الناس عن وقت المباراة ، وتجدهم ينتظرون وقت المباراة ويستعدون لحضورها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ! ولماذا لم تنظم وقتك ، وتستعد لكى تحضر الصلاة كما استعددت للمباراة ؟! لماذا أخذتك الظروف عن الصلاة ، ولم تأخذك عن حضور المباراة ؟! تَجِدّونَ مع اللعب ثم تلعبون مع الجِدِّ .

---

1 - أخرجه البخاري (6856) ، ومسلم (4832) كلاهما من حديث أبي هريرة .



وأيضًا تجد أعرافًا وتقاليد ونصوصًا محترمة من الجميع ، فلماذا لا تحكمون المنهج الإلهي والدين القويم ؟! ولماذا ليس عندكم غيرة واحترام له كما هو عندكم لتلك القوانين ؟! لماذا هو أهون عندكم من قوانينكم التى وضعتموها لأنفسكم ولعبكم ؟! مع أن الذى وضع هذا المنهج وهذا الدين هو الله رب العالمين ﷻ ؟!!

وإذا نظرنا إلى الرياضة ، نجد أن الناس قد جعلوها غاية ، ولم يجعلوها وسيلة ، إن الرياضة ليست غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة إلى أشياء ، وسيلة إلى التربية والتهذيب وتفريغ الطاقات ، كل هذه الألوان من الخُلُق ، فلا آخذ الوسيلة وأجعلها غاية ، فلو لم تكن هذه الوسيلة تخدم الغاية الأصيلة التي أنا مخلوق لها ، لا يصح أن توجد هذه أبدًا ، وإلا فبهذا تكون قد أضعت الفرض لأجل النفل ، ولا يمكن أن تتقرب إلى الله بنفل إلا بعد أن تؤدي له الفريضة ، فريضتك الأساسية أنك عبد لله ﷻ ، موجه من الله ﷻ ، في منهج من مناهج الحياة ، لتعمر الأرض ، وليسيطر فيها منهج الله ﷻ ، هذا هو الأساس ، كل ما يعينك على ذلك يكون وسيلة لتلك الغاية ، فلا صح من المرء أن يأخذ الوسيلة ليجعلها غاية ، وإلا انبتت الوسيلة عن الغاية ، وأصبح اللعب هو الأصل ، والجد هو المُهْمَل .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا في كل ما نأتي ، وفي كل ما ندع ، وأن جعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه .









سورة الماعون







بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد:

فمع **سورة الماعون**، وتلك السورة كلها وحدة متماسكة، ذات اتجاه واحد، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة، إن هذه السورة القصيرة ذات الآيات السبع تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً، فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية، وللرحمة السابغة التي أرادها الله ﷻ للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة.

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس، ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله ﷻ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى.

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة، يؤدي منها الإنسان ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، إنما هو منهج متكامل، تتعاون عباداته وشعائره، وتكاليفه الفردية والاجتماعية، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر، غاية تتطهر معها القلوب، وتصلح الحياة، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء، وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد.

وقد يقول الإنسان بلسانه: إنه مسلم ومصدق بهذا الدين وقضاياه، وقد يصلي، وقد يؤدي

---

* مقدمة تفسير السورة مقتبس بتصرف من: "في ظلال القرآن".

شعائر أخرى غير الصلاة ، ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ، ويظل بعيدًا عنها ؛ لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها ، وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان .

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها لكي تحقق ذاتها في عمل صالح ، فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً، وهذا ما تقرره هذه السورة نصًّا .

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. وكلمة : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ من الممكن أن تؤخذ على حقيقتها ، أي : أأبصرت من يكذب بالدين ، وأبصرت من يدع اليتيم ؟ سواء كانت حادثة فردية بالنسبة **لأبي جهل** ، عندما ضرب اليتيم ، وكسر له يده ، أو حادثة فردية **لأبي سفيان** ، عندما نهَرَ اليتيم ، وكان آنذاك مشركًا ، أو **العاص بن وائل** ، أو **عمر بن عائذ** ، هذه فردية يصح أن تكون ، ويكون الرسول ﷺ قد شاهد هذه المسألة .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أرأيت هنا استفهام ، والحق ﷻ حينما يتعرض لبعض الروايات ، كان من الممكن أن يلقيها خبرًا ، حدث كذا وكذا ، ولكن الحق حينما يخاطب الخلق ، يحاول أن يشارك المخاطب في العملية نفسها ، وذلك أسلوب شائع عندنا ، فحينما تلقي درسًا ، فمن الممكن أن تلقي الدرس إخباريًّا ، وتقول : حدث كذا وكذا ، ومن

الممكن أن تستثير انتباه الدارسين ، وتجعلهم يشاركوك في استنباط الحكم ، فتسألهم أسئلة ، هذه الأسئلة تمهد لأشياء ، بحيث يجيبون بأنفسهم عن هذا الحدث .

فكأن الحق ﷻ حينما يطرح قضية استفهامية وهو يريد بها الإخبار ، إنما يريد أن يأخذ المخاطَب بأسلوب القرآن في السورة ، أي : أنه ينبه مشاعره وأحاسيسه حتى يكون مشاركًا ، بحيث يستطيع أن يصل إلى الجواب ، قبل أن يقال الجواب ، فقال له : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ، فكلمة ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ : إن كان يريد بها البصرية يصح ذلك ، وإن كان المراد بها أعَلِمت يصح أيضًا .

وقد تأتي بمعنى : أخبرني ، تقول : أرأيت ما حدث لفلان ؟ ما دمت شاهدت فأخبرني .

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أردف الحق ﷻ قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ .. بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فكأن جواب السؤال ليس عند البشر ؛ فعندما نسمع : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ قد نفهم من الأسلوب أن الذي يكذب بالدين هو الذي لم يؤمن بما جئت به ، لكن الحق يريد أن يلفتنا بقوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، إلى أن هذا أمر قد يغيب عن البال ، أن الذي يكذب بالدين ، ليس من الضروري أن يكذب بأصل الدعوة ، بل قد يكون قد آمن بأصل الدعوة ، ولكنه لم يسر في منهج حياته على مقتضى ما تتطلبه الدعوة ، فكأنه صدق بلسانه ، ولكن قلبه لم يصدق .

قد يصدق الإنسان بقلبه ، فيكون من السهل أن أعتقد ، ولكن ليس من السهل أن أحمل سلوكي على وفق ما أعتقد ، إذن ، فهنا عدة مشاكل ، فقد تؤمن بشيء ، وعندما تناقش فيه لا تستطيع أن تنقله ، ولكن إذا أردت أن تحمل نفسك على مقتضى ما يتطلبه ذلك الدين ، شق ذلك عليك ، فلا تستطيع أن تنصاع للسلوك وإن كنت مؤمنًا بالعقيدة ، ولذلك توجد قضايا كثيرة جدًا الناس يؤمنون بأنها حاصلة ، ولكن ملابسات عملهم تدل على أنهم ليسوا متيقنين لها ، وليسوا قادرين أن يحملوا أنفسهم على سلوك المعتقد .

فالحق ﷻ يقـول : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. ويتولى الحق ﷻ الجواب ؛ لأن الجواب ليس عند البشر ؛ فالبشر يعتقدون أن الذي يكذب بالدين لا يؤمن به ، كلا ، بـل قـد يؤمن به ويعتقده ، ولكنه حين يحمل نفسه على السلوك الذي يشغله تبدو قـوة إيمانه وضعفه وتشـككه ، إن الذي يجعل الإنسـان يذهل عن التكاليف كطاعة أو كمعصية ، سببـهـا أنه لم ينقـدح في ذهنه الجزاء ، ولو أن الثواب على الطاعة أمام عينيه ، وتيقـن منه كأنه يراه ، أو جعل الجزاء على المعصية متيقـنًا منه كأنه يراه ، ما صنع معصية قـط ، ولا تحول عن طاعة قط ، إذن ، فالإنسان يذهل عن الطاعة أو عن المعصية ؛ لأنه يذهل عن الجزاء ، فلو استحضر الجزاء على الطاعة ، والجزاء على المعصية ، ما ترك طاعة أبدًا ، وما أقدم على معصية أبدًا ، وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ حين لقي الحارث بن مالك الأنصاري فقال له : **" كيف أصبحت يا حارث ؟ "** قال : أصبحـت مؤمنًا حـقًّا ، فقـال : **" انظر ما تقـول ؟ فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ "** فقـال : قـد عزفت نفسـي عن الدنيا ، وأسـهرت لذلك ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربـي بـارزًا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقـال : **" يا حـارث .. عرفت فالزم "**[1] .. هذه هي حقيقة الإيمان ، وليست قضايا إخبـارية ، فإذا ما امتحـنت أمام التطبيق تنحل من الإنسان .

يريد الله بقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .. أن نفهم أن الذي يكذب بالدين ، لا يصدق الرسـول ﷺ ، ولا يسـتطيع أن يحمل نفســه علي منهج الدين ، فيؤمن بالقـضايا العقدية ، وعندما يقـال له : طبـق هذا المنهج لا يستطيع ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أي : إذا أردت أن تعرف حقيقة الذي يكذب بالدين ، فهو الذي صدقك ، وآمن بـك ، وبـعد

---

1 - أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن الحارث بن مالك الأنصاري (7 / 226) ، وعبد بن حميد في مسنده (2 / 28) ، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6 / 153) .

ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على سلوك الدين الذي تتطلبه تلك العقيدة .. ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، فهذا يكذب بالدين ، كأنه صدق العقيدة أولاً ، فلما جاء للتطبيق في هذا المظهر الضعيف في الكون دعَّ اليتيم ، فكلمة : ﴿ يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .. أعطت صورة بشعة ، يدعُّه أي : يدفعه بعنف ، وليس فقط لم يعطه ، فالرد ليس بالكلمة ، ولكن الرد بالفعل المؤلم ، يدعُّه ، أي : يجذبه من رقبته بعنف ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، واختار الحق ﷻ صورة من صور الضعف في الجهاد الكوني ؛ لأن الضعف قد يكون عن عدم طاقة على الفعل ، أوعن عدم قدرة الفعل على التخطيط للطاقة ، أي : ليس له عقل يخطط به للطاقة ، فالرجل المسن الذي لا يقدر على فعل شيء ، فهذا لا يمتلك الطاقة التي بها يفعل هذا الشيء ، ولكنه يمتلك العقل ، بينما اليتيم ليس عنده الطاقة التي يفعل بها ، ولا عنده العقل الذي يفكر ، ولذلك (اليتيم) : هو من مات أبوه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ؛ لأن الذي يبلغ مبلغ الرجال ، انحلت عنه صفة اليتم ، إذن ، فاليتيم ضعيف ، لا طاقة عنده ، ولا عقل له يستطيع باحتياله أن يعوض هذه الطاقة ، ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، لأنه فاقد القدرة والعقل الذي يخطط ؛ لأن التخطيط من الممكن أن يقوم مقام القدرة ، فاليتيم لا يمتلك القوة ، ولا يمتلك العقل ، وهو أيضًا مخلوق لله ﷻ ، هو الذي خلقه ، وبخلق الله للعبد ، وبمخلوقية العبد لله ، فلابد أن يعيش ، سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ؛ ولذلك فالأسباب المادية تستجلب للمؤمن وللكافر ، والصغير والكبير ، فما دام بخالقية الله له ، وبمخلوقيته لله ، فلابد أن يضمن له العيش ؛ ولذلك الحق ﷻ يعتبر أنك عندما تعطي إنسانًا فقيرًا كأنك تقرضه هو ﷻ ، لماذا ؟ لأني بخالقيتي له ، وبمخلوقيته لي ، فأنا أوجب على نفسي أن يعيش ، ولكني أريد أن أرى أثر تعاطف صنعتي على صنعتي ، أريد أن أرى تعاطف الصنعة القوية تعين العاجز ، ولذلك يقول الحق ﷻ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[1] ، فعندما تعطي الفقير فكأنك تقرض الخالق ﷻ .

---

1 – سورة : البقرة ، الآية : 245 .

فإذا قسا المجتمع ، وأصبح شديد القسوة ، فإن الحق لا يتدخل بالأسباب من البشر ، ولكن يتدخل بالأسباب الغائبة ، التي هي غيب ، فيعرض لنا الحق ﷻ ويقول : إن الإنسان تمر عليه فترة من الفترات ينشغل بنفسه ، ونفسه عنده أعز شيء ، وبعد ذلك عندما ينجب أولادًا ، ينتقل هذا الانشغال إلى الأولاد ، فيتعب من أجل راحتهم ، وأحيانًا ينشغل الإنسان برزق أولاده ، ويخاف أن يؤخذ منهم قبل أن ينضجوا ، فيقول الحق له : المسألة معادلة ، إن كنت صنعت في الضعاف من الصغار الذين لغيرك ، فاطمئن على أن الله سيخلق بسبب وبغير سبب الذين يعولون ضعافك ، فإن كنت تريد تأمينًا لحياتهم فأمن في يد الله ، وانظر إلى الضعاف الذين أمامك ، والذين ليس لهم عائل ، وتكفل بهم ، فإذا فعلت ذلك ، فثق تمام الثقة أن الحق ﷻ سيرزق أولادك ، ويسخر لهم من يعولهم ؛ لأنك أمنت في يد الله ، وما دمت أمنت في يد الله ، فالله خير أمين ، سيهيئ لك الفرصة ، وإن لم تكن في الحسبان .

وقد عرض القرآن الكريم قضية اليتيم في سورة الكهف عرضًا جميلاً ، في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، عندما أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يطعموهما ، وهذا في منتهى الخسة واللؤم ، فوجد العبد الصالح جدارًا يريد أن ينقض فأقامه وأصلح من شأنه ، فاعترض موسى عليه السلام على ذلك وقال له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [1] ؛ لأنهم لم يتكرموا معنا حين طلبنا منهم طعامًا فرفضوا ، فكيف تقيم لهم الجدار ولا تأخذ عليه أجرًا ، فكان أقل شيء تفعله مع هؤلاء أن تأخذ أجرًا على عملك ؛ لأنهم أهل لؤم ، وليسوا أهل مجاملة .. كان هذا منطق موسى عليه السلام ، وهذا كلام صحيح ، ولكن منطق العبد الصالح كان غير ذلك ، فقد أخبره بأن تحت هذا الجدار كنزًا ، وهو ليتيمين في المدينة ، فإذا هدم الجدار نُهب الكنز ؛ لأن أهل هذه القرية لئام ، فأردت أن أكافئهم على لؤمهم ، فأمنع عنهم فرصة أخذ الكنز ، فعدم أخذي أجرًا على هذا العمل ، هو الرد الطبيعي على لؤمهم ، فأنا أقمت الجدار حتى يبلغ اليتامى سن الرشد ، فعندما أراد أن يعلل له سبب عدم أخذه أجرًا مقابل

1 – سورة : الكهف ، الآية : 77 .

أقـامته للجدار قـال : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ .. هذه علة ، والعلة الثانية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾[1] .. فكأن الله ﷻ قد قـيض مجيئي ومجيئك ، واستطعامنا لأهل القرية وألا يطعمونا ، إذن ، فللبخل وللؤم رسالة يؤديها في الكون ، لأنهم لو أطعمونا ما أقـمنا الجدار ، وما فعلنا بـهم ذلك : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ ، إذن ، فتعليل الحق بقـوله : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ، يدل على أن من صلاحـه ، أنه رعى مثل هؤلاء ، وما دام قـد رعى لله عياله في حـالة الضعف ، فلزامًا على الله أن يرعى له أولاده إذا كانوا في حـاجة ، ويهيئ لهم أسبابًا بعيدة عن بيئتهم ، فيأتي إليهم من يحرس لهم كنزهم من حيث لا يدرون .

إذن ، فالقـضية التي يلفت لها الحق ﷻ بقـوله : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، قـد نستقبلها استقبالاً هينًا ، ولكنها في الحقيقة قضية خطيرة ؛ لأن أهم شـيء في الحياة أن يحفظ الإنسان قوام حـياته بـالطعام ، هذا أول شـيء مهم في الحياة ، أما ترف الحياة فشـيء آخر ، فاليتيم فيه مظاهر الضعف كلها ، فلا طاقـة تعمل ، ولا عقـل يخطط تخطيطًا يقـوم مقـام الضعف ، إذن ، فاليتيم لابد أن يكون له وضع ، فإذا رأيت إنسانًا يفعل باليتيم هكذا ، فاعلم أنه لا خير فيه ، وكأنه فهم الدين على أنه مجرد قـضايا كلامية ، أو قـضايا عقـدية ، فعندما أردنا أن نخرج الدين عن هذا القـدر ، لم تستطع نفسـه فعل ذلك ، وفي غير اليتيم يطلب أن يكون كذلك ، ولكن غير اليتيم قد يعطيه اللئيم ؛ لأنه قد يكون له كلام يلسن بـه ، وقـد يكون له من يرد حقه ، لكن اليتيم الذي لا حول له ولا قوة ، ليس له قـول مسـموع ، وليس له أحـد يرد اللئيم عنه .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .. وبعد ذلك نقـلنا نقـلة ثانية ، فقـال : ليس معنى ذلك أن الخطاب في الذي يكذب بالدين ، هو الذي يدع اليتيم فقط ؛ لأنه حـينما تدع اليتيم ، كنت تمتلك الذي تعطيه له ولم تعطه ، وإذا لم يكن عندك ، فلليتيم أيضًا عليك حـق : أن

1 – سورة : الكهف ، الآية : 82 .

تحث ، وتحض من يعطيه .

إذن .. فعدم وجود شيء عندك لا يعفيك من المسئولية ، كيف ذلك ؟! استعمل لسانك ، واذهب إلى الغني وحثه وأقنعه على أن يفعل ، إذن ، فهذه أيضًا قضية أخرى ، أن يقول الفرد : ليس عندي شيء ، ولذلك لا يلزمني أن أعطي ، فنقول له : كلا ، أنت حقًّا لا تملك المال لتعطيه ، ولكنك تستطيع بقوة حثِّك ، وبلين حضِّك أن تنصح الواجد بأن يعطي الفاقد ، فعدم وجود المال لا يعفيني من المسؤلية .

وكثير من الأشياء لا يعذر الإنسان فيها بكونه لا يملك ، بل لابد من محاولات أخرى ، هذه المحاولات قد تكون موضوعية ، وقد تكون عاطفية ، فمثلاً يقول الحق ﷻ في الجهاد : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ ، ولكن متى لا يكون عليهم حرج في ترك الجهاد ؟ .. ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[1] ، وهذه خطوة ثانية ، فليس موقفهم فقط أنهم لا يقدرون ، بل يقدرون أن يتسلطوا على قادة ، ويوسوسوا في آذانهم ، وإن قال الفرد : لا أستطيع ، تأتي العملية العاطفية التي يستطيع كل إنسان أن يفعلها : ﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، كان يكفي هذا لعذرهم ، ذهبوا للرسول ﷺ وقالوا له : نريد أن نجاهد ، أحضر لنا ما نركبه .. فقال لهم : ليس عندي ، فماذا صنعوا ؟ ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾[2] ، عملية عاطفية ، إن لم تقدر على العمليات الموضوعية كلها ، لا أقل من أن تقدر على وجدانك ، فتتألم وتبكي ؛ لأنك لست قادرًا ، إذن ، فوجه الإعذار في قضايا الدين ليس للموجد فقط ، ولكن المرتبة الثانية أن تحث الواجد ، والمرتبة الثالثة أن تتحسر ، وتتألم ، وتبكي ؛ لأنك غير قادر .

إذن .. فالمسألة اقتصادية ، واجتماعية ، ونفسية .

---

1 – سورة : التوبة ، الآية : 91 .

2 – سورة : التوبة ، الآية : 92 .

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. وبعد ذلك ينقلنا نقلة ثانية ، فقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. أولئك المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ، إذن ، فالمصلون : هم الذين دخلوا في زمرة المتصلين بالصلاة ، وهم أهل القبلة ، آمنوا بالله ، وبرسوله ، وبالعبادات ، وبالشعائر ، إلا أنهم أصبحوا مصلين بهذا ؛ لأن هناك فرقًا بين مصلٍّ بالقوة ، ومصلٍّ بالفعل ، المصلي بالقوة : هو الذي دان بدين من يأمر بالصلاة ، والمصلي بالفعل هو الذي يبرز هذه المسألة إبرازًا تطبيقيًا .. ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ .. لماذا ؟ ﴿ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فإذا كانوا مصلين ، فكيف يسهون عن الصلاة ؟! هنا يوجد أسلوبان : أحدهما إثبات ، والآخر نفي ، لذلك يقف العقل هنا قليلاً ، كيف وصفوا بأنهم مصلون ، وكيف نقول : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ؟! إذن ، فهنا يتدخل العقل في فصل شيئين ، وهما : الشكل ، والموضوع ، فالعبادة لها شكل تقوم عليه ، ولها موضوع تحققه ، فقد يؤدي الإنسان الشكل ، ولا يؤدِّي الموضوع ؛ ولذلك يشرح لنا الرسول ﷺ هذا عندما يرى أحدهم يصلي ، فيقول له : " **قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ** "[1]. إذن فقد أدى الشكل ، والشكل يسقط الحد عنه عندنا ، فنحن لا نستطيع أن نقول له : لماذا لا تصلي .. إنما لم يؤدِّ الموضوع ، الذي هو القرب من الله ﷻ ، ومادام في حضرة الله ﷻ ، فيجب إذًا أن لا يشغل باله بغيره في هذا الوقت الذي خصصه لذلك ؛ لأننا لا نأخذ منك إلا ساعة في الخمس أوقات ، وتاركين لك ثلاثًا وعشرين ساعة مع الكون كله ، فإذا كان لك ثلاث وعشرون ساعة مع الكون ، وساعة مع المكوِّن ، فهل تريد أن تُدْخل الكون أيضًا مع المكوِّن في ساعته ؟! إن هذا لا يصح .

إذن ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. يعني : الذين يذهبون إلى الصلاة ، ويؤدون شكل الصلاة ، ولكن لايؤدون مضمون الصلاة ، ويفتقدون شحنتهم النورانية

1 - أخرجه أحمد في مسنده (38 / 480) ، والنسائي (4 / 191) عن رفاعة بن رافع .

التي تجعلهم يستعينون بها على وسائل حياتهم ..

ونلاحظ أنه لم يقل : في صلاتهم ، وإنما قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ ﴾ .. لأن السهو في الصلاة يتأتى ، ولذلك قال بعضهم عندما سمع ذلك : الحمد لله الذي قال : (عن) ، ولم يقل : (في) ، لأنه لو قال : (في) لهلكنا جميعًا ؛ لأنه من غير الممكن أبدًا أن يصلي أحدهم ، وخصوصًا المرتاضين حديثًا على الصلاة ، ولا يسهو ، ولكن من الممكن عدم حدوث ذلك مع الذين أخذت الصلاة من نفوسهم ، وعقدت عليها محبتهم ، وعرفوا قرة العين فيها ، وعرفوا المشاهدة ، عندما يقف الفرد هكذا ، تتراءى له الكعبة ، وفيض من فيوضات الله تتجلى عليه ، يضن بذلك أن يضيع في غير صلته بالله ﷻ ، وهؤلاء هم المرتاضون على الصلاة ، الذين أحبوها ، ولكن الذين يرتاضون الصلاة حديثًا ، يكون للشيطان في صلاتهم مداخل .

ومن مداخل الشيطان أن الشيطان صادق مع نفسه ، كيف ذلك ؟! فعندما كان يجادل مع الحق ﷻ بعد رفضه السجود لآدم ، طرده الله حينذاك من الجنة ، وقال له : ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[1] ، فقال له إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] ، انظر القسم الذى أقسم به ، قسم عالم ، قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، يعني : سأدخل عليهم بوصف عزتك عنهم ؛ لأن عزتك عنهم هي التي جعلتهم إما مطيع لك ، وإما عازف عن الطاعة ، ولو أردتهم مهديين ، ما استطعت أن آخذهم منك ، إنما عزتك عن خلقك هي السبيل لي إليهم ، وإلا لو أنك أحببتهم ما كنت لأقدر على ذلك ، إذن ، عزتك عن خلقك هي التي ستجعلني أنفذ إليهم ، إذن ، قسم عالِم ، عالمٌ بصفات الله ، عالم بمتعلق الصفات : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، لم يقل : بقدرتك ، ولم يقل : برحمتك ، إنما أتى بالصفة التي تتيح الحرية للعباد ، مَن أراد الإيمان آمن ، ومن لم يرد فهو وما يريد .

---

1 – سورة : ص ، الآية : 77 ، 78 .

2 – سورة : ص ، الآية : 82 .

كما في قول الحق ﷻ في الحديث القدسي : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ؛ فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ؛ فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته ؛ فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ؛ فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[1].

إذن فعزة الله ﷻ عن خلقه هي التي ينفذ منها الشيطان ، بدليل قوله : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2].. أي الذين تريدهم أنت ، فلا أستطيع الاقتراب منهم ، إذن ، فالمسألة ليست معاندة إبليس لقانون الله ﷻ ، ولكن المسألة معاندة إبليس لعزائم البشر ، أما الله فلا يستطيع أحد أن يتحداه أبدًا ؛ لأنه لو أراد شيئًا سيحدث سواء رضيت أم لم ترضَ .

وانظر أيضًا إلى التخطيط في المعصية : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] ، يعني : آتي على الصراط المستقيم ، وأقعد عليه للإغواء ، ولا آتي على الطريق المعوج ؛ لأن الذي في الطريق المعوج ليس في حاجة لي ، فهو كافر عاصٍ ، إذن فمهمتي مع الطائعين ، أقعد عند باب المسجد كثيرًا ، ولا أكثر على باب الخمارة ؛ لأن الذي يذهب إلى الخمارة ليس في حاجة

1 - أخرجه مسلم (6737) عن أبي ذر .
2 - سورة : ص ، الآية : 83 .
3 - سورة : الأعراف ، الآية : 16 .

لي ، وأنا شبه مطمئن عليه ، ولكن عملي كله مع الطائعين : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، فيأتيك إبليس في وقت الصلاة ، ويقوم بحل مشاكلك كلها ، المعادلة التي لا أعرف حلها يأتي بحلها ، والتائهة يأتي بها لك ، ولولا أنه علم أن ذلك موقفٌ هو لب الصراط المستقيم ، ما جاء للإنسان ليفسد عليه ذلك الوقت ، يريد أن يفسد عليه تلك الخلوة .

ولذلك جاء إنسان لأبي حنيفة رحمه الله ، فقال له : يا إمام ، كان عندي مال ، وهذا المال دفنته في أرض ، و ضللت المكان إليه ، فضحك الإمام أبو حنيفة ، وقال : يا بني ، ليس في ذلك علم ، فمن أين لي بعلم يعرفني مكان المال ؟ ولكني سأحتال لك : اذهب الليلة وبعد أن تصلي العشاء ، توضأ وضوءًا جديدًا ، وانذر أنك تقف هذه الليلة بين يدي ربك مصليًا ، لعل الله ﷻ أن يهديك لمكان المال .. فذهب الرجل ، وعند الفجر جاء لأبي حنيفة ، وقال : يا إمام ، لقد وجدت المال ، قال له : كيف ؟! قال : لقد وقفت بين يدي ربي كما قلت لي ، وأنا أصلي إذا بي أتذكر مكان المال .. فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، فهلا أتممتها شكرًا لله ﷻ ؟ قال : أفعل إن شاء الله .

هنا وقفة .. فإن إبليس قال في منهجه في التخطيط : ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ .. يعني : من الأمام ، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾[1] .. فتجد أنه قد أغفل جهتين ، فلم يقترب ناحية مقام العلو ، ومقام السفل ، وكأن هاتين الجهتين لا يأتي منهما الشيطان إلى الذي يستشعر دائمًا عز الربوبية الأعلى ، وذل العبودية الأدنى ؛ لذلك ابتعد عن هذين الطريقين ، والذي يظل بين الاثنين ، موصول بين ذل عبودية ، وعز ربوبية ، لا يمكن أن يأتيه الشيطان .

إذن ، فقول الحق ﷻ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. تنبيه

---

1 - سورة : الأعراف ، الآية : 17 .

الإنســـان إلى أن لحظات الصلاة هي لحظات القـــرب ، لحظات تجلي الحق على الخلق ؛ فيستغلها الإنسان ، وينتفع بها ، ولا يشرك شيئًا آخر معها ؛ لأن هذا يعتبر من قبيل اللغو ، ولذلك قـال هناك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2] .. فكل فكر في غير الله وقت الصلاة يعتبر لغوًا في أمور دنياك .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. فكأن لهم شـــكل الصلاة ، إنما موضوع الصلاة فليس موجودًا عندهم ، فكأنها مراءاة من أجل أن يدخلوا في الجماعة المســـلمة ، ومن أجل أن يتمتعوا بالحقـوق الإســلامية في المجتمع المسـلم ، إنما في حقيقـة الأمر هو مراءٍ ؛ لأنه مادام لم يؤدِّ موضوع الصلاة فهو يؤدي شكلها فقط ، وبالتالي فهو يرائي المجتمع .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .. أي : الذين يفعلون فعل المرائي الذي يحـب أن يـراه النـاس في وضع من الأوضاع .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهنا قام بـردِّها حـيث قـال هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وهنا قال : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فكأن التجربـة الحقيقـية للمنهج الديني هو في المسـألة المادية ، وهذه المسـألة المادية إن هانت في نظرك أمام مطلوب الله منك ، فاعلم حـقًّا أنك على المنهج السـليم ، وإن تعبـت نفسـك عند تعرضك لهذه المسـألة المادية ، فاعلم أنك لسـت على المنهج السليم ، المسألة المادية هي المقياس الحقيقي الذي تظهر به أخلاق الناس ، ويظهر بـه دينهم ، فيقول هناك : ﴿ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، ويقـول هنا : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، في الأولى يعطي اليتيم ضروريات حياة ، أي : يخرج شيئًا من ماله ، ويعطيه لليتيم لكي يعيش ، إذن فأنت تتبرع ، أو تتطوع بـــأصل الشـــيء ليملكه اليتيم ، إنما في الثانية : ﴿ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ ، فأنت تتطوع بـأثر نفع الشـيء ، والشـيء سـيرجع لك مرة أخرى ، كأن تعير

1 – سورة : المؤمنون ، الآية : 1 : 3 .

2 – سورة : المؤمنون ، الآية : 9 .

الماعون ، أو طست ، أو أي شيء من الأشياء التي تستعار في البيوت .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. حتى الشيء الذي سيتجاوز أثر نفعه إلى الغير ، وحقيقة ملكيته مازالت له ؛ لأن الماعون سيعار ، ثم يرجع لصاحبه مرة أخرى .

إذا نظرت إلى هذه السورة ، وجدتها تتضمن أصولاً اقتصادية ، وبها يقوم نظام الكون الدقيق ، وتتضمن أصلاً وجدانيًّا ، وهو استشفافك من حضرتك في الصلاة ، وقربك من الله ﷻ ، وإذا اعتدل هذان الأمران اعتدل المجتمع بأكمله ، ويصير المنهج سليمًا ، والرعية الإسلامية تصبح رعية متكاملة متكافلة ، رعية مستشعرة عبوديتها جميعًا لإله واحد ، إذا نظرت للمقارنة نجد أنه قال هناك : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾[1] .

فيجب أن نفهم أن إطعامنا من جوع هو لله ، وأمننا من خوف هو لله ، فما دمت أخذت ما في يد الله ، فلا تضن على من دونك بذلك ، ولذلك جاء : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾[2] ، فإذا جاءك يتيم فلابد أن تعطيه ، وإذا طُلِب منك ماعون فلابد أن تُعيره ، فيعطينا الحق صفات شح وبخل في الذي يدعُّ اليتيم ، وهو شحٌّ وبخل على أقصى صورة ، وليس على صورة مهذبة أو مقبولة ، ثم يعطينا نفس الصفات في الذين يمنعون الماعون : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يتولانا ويرعانا ، وأن يباعد بيننا وبين هذه الصفات ، حتى نكون أهلاً لرحمته وأهلاً لمحبته وأهلاً لرضاه .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

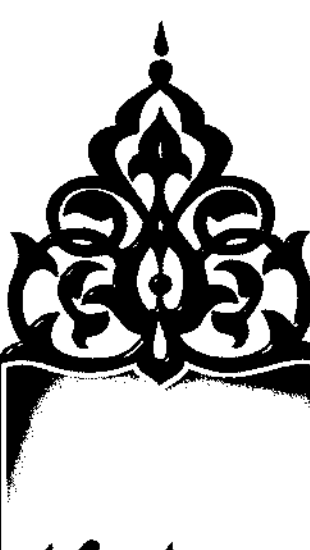
1 – سورة : قريش ، الآية : 3 ، 4 .

2 – سورة : قريش ، الآية : 3 .





سورة
الكوثر









بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ ، وبعد :

في هذه السورة يعرض الحق ﷻ المتقابلات ، فالبخل الذى ورد من الأصناف السالفة الذكر في **سورة الماعون** سيقابله الإعطاء ، فيستهل السورة بـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. أعطيناك الكوثر والكثير ، وبعد ذلك يذكر مقابل صفة المراءاة فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : لا تصلِّ للناس ، لأنك لو صليت للناس فإنك ترائيهم ، وصلِّ لأنك تعلم : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ [1] .. وحين يأمر رسوله ﷺ بالصلاة فإنه يقصد بذلك الصلاة الحقيقية المتقنة ، وقوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. يقابل قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ، و : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ، يقابل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، ثم : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بذلٌ ، وهو بذل بأصل الشيء ، وليس بنفع الشيء ، والبذل بالأصل بذل بأقصى أنواع البذل ، وهو يقابل : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [2].

إذن .. فارتباط **سورة الكوثر** بالسورة التي سبقتها يسمى ارتباط التقابل ، ومعنى ارتباط التقابل : أن **سورة الماعون** تعرضت للتكذيب بالدين في قوله ﷻ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ ، وتعرضت للسهو عن الصلاة في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ .. فلا يؤدونها مع اتسامهم بوسم الإسلام ، ومع ذلك لا يؤدون

---

1 – سورة : الماعون ، الآية : 4 ، 6 .

2 – سورة : الماعون ، الآية : 7 .

عماد الإسلام ، أو أنهم يقومون بشكل الصلاة ، ولا يلتفتون إلى خشوع موضوعها .. ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ، يفعلون الأشـــياء مراءاة للناس ، والمراءاة : مفاعلة ، فأنت تحب أن تفعل الفعل ليراك الناس ، وحـين يراك الناس وأنت تفعل الفعل ، فإنك تراه لابـد محمودًا ، فلو كان غير محمود لاستترت بـه ، فهو يرائيك بـالفعل ، وأنت أيضًا ترائيه بـالثناء ، وتعرضت أيضًا للبخل في قوله ﷻ : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .. وهي الأدوات التي يستعان بـها على الحياة مما لا يملكه الناس البسطاء ، فالتقابل في **سورة الكوثر** ، جاء ليقابـل البخل بـالعطاء بقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، وليقابل المراءاة بـالإخلاص بقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ، أي : صلِّ لربـك ، لا تصلِّ للناس ، فكأن الملحـوظ في إقبـالك على العبـادة ، أن يكون التوجه بها إلى الله مباشرة ، وبعد ذلك قال الحق ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحـر سمة من سمات البذل والسماح في الشيء الذي تتسامى ملكيته عند النفس ، ومعنى تسـامي الملكية عند النفس : أن الإنسان قد يملك ألوانًا من الجمادات يحب أن يغذي بها النبات لينمو ، والنبات يملكه يحب أن يغذي بـــه الحيوان لينمو ويتكاثر ، فالحيوان مظهريته أقـــصى ما يمكن من الانتفاع بالملكية ، فلم يرد الحق ﷻ منه أن يبذل مالاً أو نبـاتًا ، وإنما قـال : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. والنحر بأسمى الأشياء التي أنعم الله بها على الإنسان مما يلي الإنسـان في الرتبـة ؛ حـيث إن الرتب الوجودية تتمثل في الجماد ، ثم يتميز بـالنمو ، فيوجد النبـات ، ثم يتميز بـــالحس والحركة ، فيوجد الحيوان ، ثم يتميز بالفكر ، فيوجد الإنسان .

هذا التقابـل من الحق ﷻ يعطينا أيضًا أن الحق يريد أن يرد مقـاييس الأرض إلى مقـاييس السـماء ، ومعايير الخلق إلى معيار الحق ؛ لأن الخلق لهم في أحـكامهم معايير ومقـاييس ، والحق بمنهجه لنا يريدنا أن نرتفع بمنهجنا إلى منهجه ؛ لأن منهجنا في الحياة إنما يستنبـط على وفق قـدرتنا في ذكاء الاستنبـاط ، وعلى قـدرتنا في الإحـاطة بـعلم الأشـياء ، ويختلف بـاختلاف أهوائنا فيما نقـنن من قـيم ومقـاييس ومعايير ، فيريد الحق ﷻ أن يخلصنا من مقاييسنا ومعاييرنا ، إلى مقاييسه هو ومعاييره ﷻ .

فمثلاً الذين يعرفون تاريخ الجزيرة العربية يعرفون أن أهلها كانوا يعتزون دائمًا بالبنين وبالتكاثر في الذرية ، ويرون أن وجود الذرية وصل لحياة الإنسان ، وأن ذكر الإنسان لا يمكن أن يتحقق وجوده بعد موته ؛ لأن الموت أمر مقطوع به ، فهم يريدون أن يصلوا حياتهم بذرياتهم ؛ ولذلك شاع على ألسنتهم : من لا ولد له لا ذِكْرَ له ، تلك هي معايير الأرض في أن الولد هو الذي يحفظ ذِكْرَ أبيه ، ويحمل اسمه ، وهذا هو سر العرب في الاحتفاظ بالأنساب ، فالحي منهم يريد أن يفتخر بمجد أسلافه الماضيين ، والميت منهم يريد أن يبقى ذكره بواسطة أبنائه ، ولكن الحق ﷻ يريد أن يردنا عن هذه المعايير ، فمعايير الذكر الحقيقي ليست فيما نعرفه نحن من وجود البنين ؛ ولذلك لما مات ذكور رسول الله ﷺ فرح أولئك الذين كفروا به ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن محمدًا ﷺ يريد ملكًا موروثًا ، وأن العقب الذي يجيء بعده من الذكور سيحمل ذلك الملك والجاه والنعيم ، فلما مات أبناؤه الذكور فرحوا ، وقالوا : نتحمل الأمر في عمره ، فإذا ما مات فلا يوجد له ذكر بعد ذلك ، فيصبح أبتر ، أي : مقطوع الذكر ، لا يُذكر على لسان أحد ، ولا تلتفت إليه الدنيا التي تجيء بعده .. هذه هي معايير الأرض ومقاييسها ، ثم لما ذهب إلى المدينة ، رُزق من مارية بأبراهيم ، ثم مات إبراهيم ، فتعالم خصومه في مكة بموت إبراهيم ، فقالوا مقولتهم تلك مرة أخرى : أصبح محمد أبتر .. فيريد الحق ﷻ أن يرد هذه المعايير الجاهلية ويقول لهم : إن نسب الرُسُل لا يكون في أبناء أصلابهم ، ولا يكون في أبناء دمائهم ، إنما نسبهم في أمتهم ، وفي الذين يتبعونهم ، ذلك هو النسب المعترف به عند الله ﷻ ، فإذا كان المقياس هو ذلك فسيبقى محمد ﷺ ، الذي تقولون أنه قد صار أبتر لا ذرية له ، سيبقى موصول الذرية ، فيما لا يمكن لبشر أن يوجد من عدد الذرية مثله ؛ لأنه سيكون موصولاً في كل أتباعه ، وما دام موصولاً في كل أتباعه ، وكل واحد تابع له ، سينسب لاسمه ، ويدعو بدعوته ، ويرد الأحكام إلى ما قال وهو في قبره ﷺ .

ولذلك أعجبتني مقولة أحد المستشرقين غلبه الحق فقال : إني لأعجب لرجل مثل محمد ، لا يزال يحكم ملايين الناس وهو ميت في قبره .

إذن .. فهذا هو الذكر ، تلك هي رفعة الشـأن ، هذا هو الوصل الذي لا ينقـطع ، ولكن انظروا إليكم أنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ ، كنتم تعتزون بأبنائكم ، وبعد ذلك أسلم أبناؤكم فنسوكم ، ولم يُذكر واحد منكم أبدًا مع ابنه ، إذن فأبناؤكم الذين هم من أصلابكم ، أخذهم رسول الله ﷺ لنفسه ، فها هو **الوليد** ، أسلم ابنه ، وكان إلى جانب رسول الله ﷺ في **غزوة بدر** ، والوليد في الجانب الآخر من خصوم رسول الله ﷺ ، ولم ينتظر حتى يموت الوليد ، وإنما كان ذلك في حياته ، وها هو ذا **العاص بن وائل** ، يسلم ابنه **عمرو** ، وها هو ذا **أبو جهل** ، يسلم ابنه **عكرمة** ، وغيرهم الكثير .

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. والمعطي هنا هو الله ﷻ ، والمعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيَه هو الكوثر ، عندنا معطٍ هو الله ﷻ ، ومعطى له هو الرسول ﷺ ، والشيء الذي أعطيه هو الكوثر ، وكلمة : (**الكوثر**) تستعمل في اللغة في وصف نسب الأشياء قلة وكثرة ، يقال : هذا أقل ، وهذا قليل ، وهذا كثير ، وهذا أكثر ، وهذا كوثر ، إذن ، فكلمة : (**كوثر**) هي أوسع الكلمات دلالة على معنى الكثرة ، فكلمة أكثر نلاحظ فيها أنه كثير بالنسبة لنوعه ، كمن يعطي شيئًا من المال ، فالذي يعطي كثيرًا تقول : هذا أعطى مالاً كثيرًا ، فعندما يزيد نقول : أعطى أكثر .

ولكن عندما يعطى مالاً كثيرًا ، وبعد ذلك يعطى صحة ، وسعادة كثيرة ، وطعامًا ، ونباتًا ، وحيوانًا كثيرًا ، وكذا ... وكذا ... فتعدد الأنواع في الكثرة يعني : أكثر ، ولكن كوثر تتأتى

بـكثرة في أنواع متعددة ، فإذا قـال الله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. فمعناه أنه أعطاه الكثير الأكثر من كل شيء .

قال أنس : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسـه مبتسمًا ، فقـال : **" أنزلت عليَّ آنفًا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .. ثم قال : " أتدرون ما الكوثر ؟ "** فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : **" فإنه نهر وعدنيه ربي ﷻ ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم ، فأقول : ربِّ إنه من أمتي .. فيقــول : ما تدري ما أحدثَتْ بعدك "**[1] .

وبعض المفسرين اختلفوا في المراد بـ(الكوثر) ، وهل بعد قول رسول الله ﷺ قول ؟!!

قـال ابـن عبـاس : هذا النهر هو بـعض الكوثر .. فكأن الكوثر شــيء كثير ، ويمثل النهر بعضه ، ولكن لماذا قال رسول الله ﷺ هذا الحديث بعد نزول هذه السورة ؟! إن كنتم تفسـرون الكوثر بالنبوة ، فالنبي ﷺ يعلم أنه نبي ، وإن كنتم تفسـرونها بالقـرآن ، فالقـرآن نازل على رسول الله ﷺ ، وهو أول منفعل به ، وإن كنتم تقـولون : إن الكوثر هو أن رفع الله ذكره ، فلا يشهد أحد لله ﷻ بالوحدانية إلا ويشهد لرسول الله ﷺ بالرسـالة ، كل هذه الأشـياء يعلمها رسول الله ﷺ ، فكأن رسول الله ﷺ إنما فسر الكوثر بالنهر ، هذا الأمر الجديد الذي لم يكونوا يعلمونه ، مع أن الأشياء التي قال العلماء بأنها هي الكوثر : القرآن ، والنبـوة ، ورفع ذكـره ، كانت معلومة لرســول الله ﷺ ، ولكن الجديد أن ربــك أعطاك شــيئًا مشـــهديًا أنت رأيته وتعلمه ، وهناك شــيء آخر غيبي أنت لم تره ، فرسـول الله ﷺ فســر الكوثر في ذلك الوقــت بــالجديد الذي طرأ ، والجديد الذي طرأ هو ما كان غيبًا في الجنة ، وهو ذلك النهر ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك غير ذلك ، لأن كلمة : (**الكوثر**) لا تعني الزائد من الكثرة ، إنما تعـني

---

1 – أخرجه مسلم (607) .

الجميع من الكثرة ، يعني الأكثر من كل شيء ، فتحمل النبوة ، وتحمل القرآن ، وتحمل رفع ذكره ، وتحمل أتباعه الكثيرين الذين يهتفون باسمه الشريف ﷺ ، ويتقربون إلى الله بالصلاة عليه ، تحمل كل هذا ، وذلك معلوم لرسول الله ﷺ ، فالذي زاد في هذا هو ما أخبره الله به من أمر ذلك النهر في الجنة .

إن الحق ﷻ يريد أن يؤكد في هذه السورة على مسألة العطاء ، تأكيد العطاء بأنه لم يقل : أعطيناك الكوثر ، بل قال : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وحين يتقدم المسند إليه ، أو يتقدم الفاعل على الفعل ، فإن ذلك يدل على توثيق الفعل توثيقاً آخر ، مثال ذلك .. عندما حطم سيدنا إبراهيم عليه السلام الأصنام لم يقولوا له : أفعلت هذا بأصنامنا ؟ وإنما : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [1] .. إذن ، فعندما يريد الحق ﷻ أن يؤكد شيئًا ، فإنه يأتي بالمسند إليه ، أو بالفاعل أولاً ويجعله مبتدأ ، ثم يأتي بالجملة ويجعلها خبرًا لذلك المبتدأ .

وعندما تسمع : ﴿ إِنَّا ﴾ لابد وأن تتوقع مجيء خير كثير ؛ لأنه استهل بضمير الحق العظيم : ﴿ إِنَّا ﴾ ، وبعد ذلك عندما يقول : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. فلابد وأن تأخذ العطاء على قدر إمكانيات المعطي ..

إذن .. ﴿ إِنَّا ﴾ .. هذه نبهت ذهنك ، وجعلتك تلتفت لتوقع مجيء شيء خطير ، والشيء الخطير الذي سيأتي أنه قال : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ .. إذن .. فضخامة العطاء لابد أن تناسب إمكانيات المعطي ، فإن الحق ﷻ حينما يأتي بأمر فيه فعل يبرز به معدومًا ، يتكلم بضمير التعظيم : خلقنا .. فعلنا .. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [2] ، يأتي بضمير التعظيم ؛ لأن أي فعل لأي حدث من الأحداث يتطلب صفات كثيرة جدا ، ففعل يتطلب قدرة ، وفعل يتطلب حكمة ، وفعل يتطلب بطشًا وقهرًا ، فعندما ينسب الحق ﷻ فعلاً من

---

1 - سورة : الأنبياء ، الآية : 62 .

2 - سورة : الحجر ، الآية : 9 .

الأفعال لنفسه فكأنه يقول لك : كأن الحدث الذي أحدثه الله فيه كل فيوضات صفاته ، وما دام فيه كل فيوضات صفاته .. إذن ، فالقدرة أبرزت ، والحكمة رتبت ، والرأفة هي التي حفزت إلى العمل ، فصفات كثيرة تتعاون في إبراز الحدث ، ولا يمكن أن تبرز صفة وتتخلف صفة أخرى ، فيتجلى الحق ﷻ في كل صفة فعل بعظمة الفاعل ويقول : نحن .. إنَّا .. لكن حين يتكلم الحق عن التوحيد والعبادة فدائما يفرد الضمير ، فيقول : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾[1] ، ولم يقل : إننا نحن الله ؛ لأنه يتكلم عن الذات ، والذات واحدة وإن تعددت صفات الكمال فيها ، فما كان مظهرًا من صفات الكمال جاء فيه بنون التعظيم ، وما كان مظهرًا للذات في وحدانيتها وإفرادها ، جاء بالضمير الواحد : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، لم يقل : إنا أو نحن .

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .. وما دام العطاء من الله ﷻ ، فهو عطاء له إمداد دائم ؛ لأن ربنا ﷻ ليس عنده كمية من الأشياء إذا أعطاها تنتهي ، ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾[2] .. فهو عطاء ممن لا حدود لإمكانياته ، والذي عنده لا ينفد ، فهو موصول دائمًا .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. بعد ذلك يرتب بالفاء فيقول : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. قال : هذا أمر طبيعي جدًا ؛ لأن العطاء بالنعم لابد له من حالات ثلاث : المنعِم ، والمنعَم به ، والمنعَم عليه ، أما المنعِم : فهو الحق ﷻ ، الذي ليس لإمكانياته حد ، فعطاؤه موصول دائمًا ، وأما النعمة : فأخذت عظمتها وشمولها وفيضها وامتدادها من المعطي ﷻ ، نعمة عظيمة تناسبه ، والمعطَى هو رسول الله ﷺ ، فيرتب الحق ﷻ على آية الامتنان في : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أمرًا يتعلق بالنعمة ، وأمرًا يتعلق بالمنعِم ، وكل ذلك مطلوب من المنعَم عليه ، فما دام هناك منعِم ، فلابد أن تذكر نعمة المنعم ، وتصلي له ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ؛ لأنه هو المنعم الذي أعطى ، فلا أقل من أن تكون موصولاً بمن أعطاك وَصْل شكر وتقدير .

---

1 – سورة : طه ، الآية : 14 .

2 – سورة : النحل ، الآية : 96 .

إذن ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ .. لاحظت جانب صلة المنعَم عليه بالمنعِم ، أما صلة المنعم عليه بالنعمة ، فهو أنعم عليك بهذه النعمة ، فلتنعم أنت على غيرك ، كما قال ﷻ : ﴿ وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[1] ، وكما قال ﷻ : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[2].

فحين يتفضل الحق ﷻ على رسوله ﷺ بأن يبين له أنه قد أعطاه شيئًا كثيرًا ، فإن الحق ﷻ يريد منه أن يتعدى عطاؤه إلى الغير ، وعادة ما يجيء العطاء الذي يتعدى بـه للغير فيما تشح به النفس ، لأن النفس قد يسهل عليها بذل العلم دون بذل المال ؛ لأنه يأخذ من شيء عنده قابل للزيادة ، فالعلم لن يفنى من عنده ، أما المال فقد يفنى بإنفاقه ، فإن آفة النفس في الشيء الذي ينتقل منك إلى غيرك ؛ فتخلو أنت منه ، وهنا تأتي سماحة النفس الحقيقية ؛ ولذلك كان بذل المال بالنسبة لنفوس الناس ، أشق عليهم من بذل ما عندهم من العلم والمعرفة ؛ لأن بذل المعرفة يجعل ما عندي باقيًا ، ولكن في بذل المال والأشياء المادية ، إذا بذلتها خلوت منها ، فتصبح عند غيرك لا عندك ، فلو كانت عند غيرك وعندك لهانت المسألة ، وإنما ستبقى عند غيرك لا عندك .

وهنا يظهر الإنسان وشحه ، فلا يقوى على هذا إلا الذين يعتقدون أنهم موصولون بالمعطي الأصيل ، فلو كان يعتقد أنه مقطوع عن المدّ ، فكان ولابد سيحزن ، ولكنه ليس مقطوعًا عن المدّ ، بل موصولاً بممدٍّ ، بحيث إذا بذلت سيصلك منه المدد ، فأنت أعطيت على قدر إمكانياتك ، فانتظر من المدّ أن يعطي على قدر إمكانياته ؛ ولذلك يقال : (لا توكِ فيوكَ عليك) .. توكي أي : تربط الكيس ؛ فلا تربط كيسك عن الناس ، فإن فعلت ذلك فيما تملك فسيفعل بك ذلك أيضًا ، ولكن عندما تفتح الكيس وتعطي ، فربنا أيضًا سيعطيك .

ولذلك بعض الناس يقول : لقد عودت الناس عادة ؛ لأن الله عودني عادة ، فأنا لا أحب

---

1 – سورة : النور ، الآية : 33 .

2 – سورة : القصص ، الآية : 77 .

أن أقطع عادتي عن الناس ؛ حتى لا يقطع الله عادته معي .

إذا نظرنا إلى قول الله ﷻ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .. نأخذ الكلام على عمومه : مطلق الصلاة ، ومطلق النحر ، الذي هو أداء الحق للفقير .

بعض العلماء يقول : إنها نزلت في خصوصية ، هذه الخصوصية هل هي صلاة العيد ونحر الأضحية ؟ أم هي صلاة المزدلفة والنحر في عمليات الحج ؟ ولكني أرى أن هؤلاء يضيقون واسعًا ؛ فليست صلة رسول الله ﷺ بربه صلة تكميلية ، فهو لا يقوم بما يؤمر به من الله فقط ولا يزيد ، بل هو داخل في مقام القربى أكثر منا ، أي أن رسول الله ﷺ له منازل ، منزلة كرسول يبلغ الناس ، ومنزلة كنبي عنده أشياء لخصوصياته ، وبعد ذلك إذا كان العبد العادي من أتباع رسول الله ﷺ يعبد الله بالفرائض ، ثم بعد ذلك يتطوع العبد بأشياء من العبادة فوق ما افترضه الله ﷻ عليه ، ذلك هو المؤمن العادي التابع لرسول الله ﷺ .

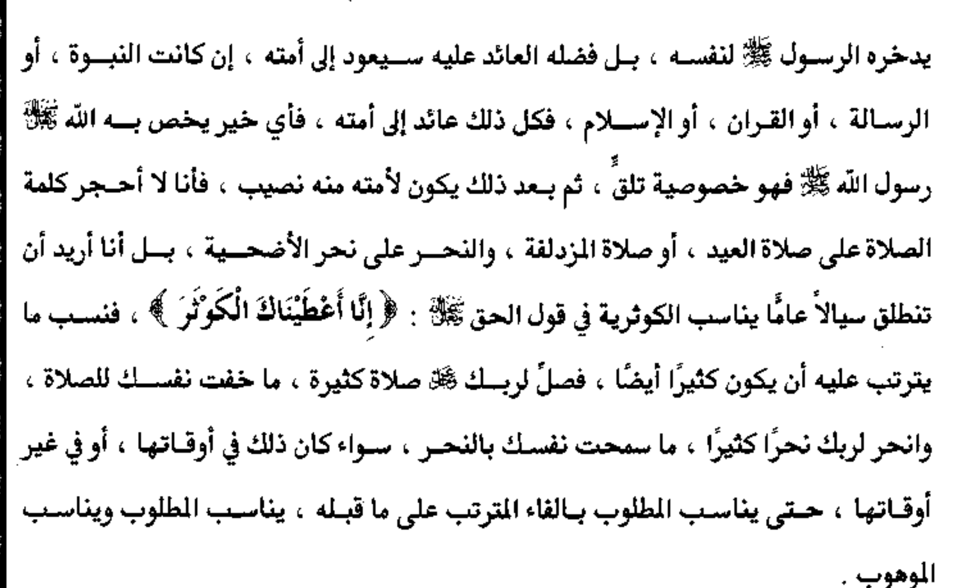
فرسول الله ﷺ فُرض عليه نوعان من العبادة : نوع اشترك مع أمته فيه ، وهو ما جاء في الرسالة ، ونوع خصه الله ﷻ به ، وهو النبوة ، فالرسول ﷺ كواسطة بيننا وبين الله ﷻ ، أُمر بشرع يعمل به وتعمل به أمته ، ثم أُمر بشرع يعمل به هو ، ولم يطلب منه أن ينقله إلى أمته .

إذن .. فالرسول ﷺ في أعمال القربى بالنسبة إلى الحق ﷻ يعمل الأعمال التي من الرسالة ، ويعمل الأعمال التي من النبوة إلزامًا ، وبعد ذلك يتطوع ، وهذا هو ما قال فيه ﷺ : " أفلا أكون عبدًا شكورًا "[1] .

إذن .. ﴿ فَصَلِّ ﴾ .. ما خفَّت نفسك إلى الصلاة ، ﴿ وَانْحَرْ ﴾ .. ما خفت نفسك إلى النحر ، سواء دخل ذلك في مطلوبات الفرد أو في غير مطلوباته .

إذا كان الله ﷻ قد أعطى الكوثر لرسول الله ﷺ ، وهذا الكوثر الذي أعطاه لرسوله ﷺ لم

1 - أخرجه البخاري (1062) ، ومسلم (5044) كلاهما من حديث المغيرة بن شعبة .



يدخره الرسول ﷺ لنفسه ، بل فضله العائد عليه سيعود إلى أمته ، إن كانت النبوة ، أو الرسالة ، أو القران ، أو الإسلام ، فكل ذلك عائد إلى أمته ، فأي خير يخص به الله ﷻ رسول الله ﷺ فهو خصوصية تلقٍّ ، ثم بعد ذلك يكون لأمته منه نصيب ، فأنا لا أحجر كلمة الصلاة على صلاة العيد ، أو صلاة المزدلفة ، والنحر على نحر الأضحية ، بل أنا أريد أن تنطلق سيالاً عامًّا يناسب الكوثرية في قول الحق ﷻ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، فنسب ما يترتب عليه أن يكون كثيرًا أيضًا ، فصلِّ لربك ﷻ صلاة كثيرة ، ما خفت نفسك للصلاة ، وانحر لربك نحرًا كثيرًا ، ما سمحت نفسك بالنحر ، سواء كان ذلك في أوقاتها ، أو في غير أوقاتها ، حتى يناسب المطلوب بالفاء المترتب على ما قبله ، يناسب المطلوب ويناسب الموهوب .

والله ﷻ أسأل أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ، وأن يخفف علينا العبادة ، وأن يهون علينا البذل ، إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .






تفسير جزء
عم




سورة
الكافرون





بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي حق حمدك، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك، وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد فمع **سورة الكافرون** . . تلك السورة التي تعالج أعمق قضايا التوحيد . . فلم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . . أحد صمد ؛ فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته ، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة ، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ﷻ ، وأن بينه ﷻ وبين الجِنَّة نسبًا ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقريبهم من الله ﷻ ، كما حكى عنهم القرآن الكريم قولهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [1]، ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء ، كقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [2]، وكقوله ﷻ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [3]، بل وفي أيمانهم كانوا يقسمون ويقولون : والله وبالله وتالله . . وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم . . الخ .

---

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : "في ظلال القرآن" .

1 – سورة : الزمر ، الآية : 3 .

2 – سورة : العنكبوت ، الآية : 61 .

3 – سورة : العنكبوت ، الآية : 63 .



ولكنهم مع إيمانهم بالله ﷻ كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم ، كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم ، فيجعلون لتلك الآلهة المدعاة نصيبًا في زرعهم وأنعامهم ، بل وحتى نصيبًا في أولادهم ، حتى ليقتضي هذا النصيب أحيانًا التضحية بأبنائهم .

وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1].. وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون : عزير ابن الله ، والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله ، بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم ؛ فكانوا يعدون أنفسهم أهدى ، لأن نسبة الملائكة والجن إلى الله أقرب من نسبة عزير وعيسى .. وكله شرك ، وليس في الشرك خيار .

ولكنهم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقًا !

فلما جاءهم النبي ﷺ يقول : إن دينه هو دين إبراهيم عليه السلام قالوا : نحن على دين إبراهيم ، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟!

---

1 - سورة : الأنعام ، الآية : 136 : 140 .

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ خطة وسطًا بينهم وبينه ؛ فعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله عليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه .. لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ؛ فيمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق .. نزلت هذه السورة .

بهذا الجزم ، وبهذا الحزم ، وبهذا التوكيد ، وبهذا التكرار ؛ لتنهي كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًا بين التوحيد وبين الشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

نفي بعد نفي ، وجزم بعد جزم ، وتوكيد بعد توكيد ، بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ، ليس لمحمد فيه شيء ، إنما الله ﷻ هو الآمر الذي لا مرد لأمره ، الحاكم لا راد لحكمه .



﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .. ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم ، إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين ، وإنما هم كافرون ، فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال .

﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .. فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودي غير معبودكم .

﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي .

﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ .. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية ، وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها .

﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية ؛ كي لا تبقي مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه ، والاختلاف الذي لا تشابه فيه ، والانفصال الذي لا اتصال فيه ، والتمييز الذي لا اختلاط فيه .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .. أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق .

مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل ، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق .. الاختلاف في جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر ، ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له ، ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود ، هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله ﷻ ، الله وحده بلا شريك ، ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس ، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .. وهي

تسير ، وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية ، وضرورية للمدعوين .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها ، وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف ، أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً ؛ ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .

وهذا الإغراء في منتهى الخطورة .

إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام ، والفارق بينهما بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته ، هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها ، والعودة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية .. تصورًا ومنهجًا وعملاً ، الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق ، والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع ، ولا أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق .. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان .

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس ، شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء ، لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه ، لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم ، ووظيفته هي أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير .

وإلا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح .. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .



وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة منحرفة ، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1] .. وأنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج .. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان .

وهذا هو ديني .. التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته .. كلها من الله ﷻ دون شريك .. كلها .. في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة يبقى الغبش ، وتبقى المداهنة ، ويبقى اللبس ، ويبقى الترقيع .

والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة ، إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ، وهذا هو طريق الدعوة الأول : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

نسأل الله ﷻ أن يعلمنا من علمه ، ويكرمنا من كرمه ، ويمن علينا من جوده وفضله ، وأن ينعم علينا بتسبيحه كما يحب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



1 – سورة : الحديد ، الآية : 16.







سورة النصر



سُورَةُ النَّصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد، وأصلي وأسلم على خير خلقك سيدنا محمد ﷺ، وبعد:

فمع سورة النصر.. تلك السورة القصيرة، التي تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله وبالفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وتوجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار.

وكما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه.. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، والانطلاق والتحرر.. هذه القمة السامقة الوضيئة، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام، ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي الهدف العلوي الكريم.

وعن مناسبة نزول هذه السورة الكريمة تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: " سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه ".. قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: " سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه ".. فقال: " خبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه.. فقد رأيتها: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾.. فتح مكة، ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ "[1].

1 - أخرجه مسلم (749).

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢
فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .. ملحوظ فيه التحام فريقين في معركة ، وينتصر أحدهما ، ولكن الفتح يدل على الدخول في الدين من غير معركة ، إذن فستحصل على الاثنين : النصر ، والفتح بالدخول في الدين من غير معركة ؛ فربما يقول قائل : هم قد سكتوا عنه ، ورضوا بالأمر الواقع ؛ لأنهم لو تعرضوا له فقد كانوا يستطيعون إيقافه عند حده ، ولكن الحصول على الأمرين دليل على القوة والبأس ، والسند القوي من الحق ﷻ ، وإذا نظرت إلى الدعوة الإسلامية ، وجدت الدعوة الإسلامية انتشرت انتشارًا في العالم بما ليس له نظير في كل الدعوات ، ولا تجد مثل ذلك في تاريخ الدعوات كلها في نصف قرن ، فقد أتت من الشرق إلى الغرب بهذا الشكل ، وبهذا الاتساع ، ستجد البعض يقولون : هذا الانتشار بسبب أن الإسلام كان يمتد باندفاع الفاتحين فقط ، نقول له : كلا ؛ فالإسلام انتشر باندفاع الفاتحين ، وبجذب المفتوحين ، فالمفتوحون في الفساد ، ويريدون منقذًا يخلصهم من الذين هم فيه ، فكان هناك عاملان : عامل اندفاع من ناحية المؤمن ، وعامل الجذب والأخذ ، ففيه قوة تدفعه وتشده ؛ لذلك لابد أن يأتي الفتح بمثل ما في هذه السورة ، فتصبح : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّه وَالْفَتْحُ ﴾ .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا ﴾ .. كثير من قبائل العرب كانت تنتظر المعركة بين قريش وبين رسول الله ﷺ وتقول : دعوه وقومه ، فإن انتصر عليهم فبها ، وإن لـ

ينتصر عليهم فقد كفينا أمره ، ووقفوا موقف الحياد ، فلما علموا أن محمدًا ﷺ في عراك مع قريش ، ومن المعلوم أن قريشًا وقعت في عراك قبل ذلك ، ونصرهم الله ﷻ على أبرهة ، وفعل بأصحـــاب الفيل ما فعل ، فقـــالوا : ننظر ، إن نصرهم الله ﷻ عليه ، فهذه عادة الله ﷻ معهم ، أن لا ينصر عليهم أحـــدًا ، وإن انتصر عليهم ، نعرف أن دعوته هذه دعوة حـــق ، والأخرى دعوة باطل .

فلما جاء نصر الله ﷻ ، وجاء فتح مكة ، أصبح هذا دليلاً على أنها دعوة حق ، فبدأ الناس يدخلون أفواجًا في دين الله ﷻ ، وكانوا من قبل يدخلون فرادى .

و(**أفواجًا**) يعني : جماعات جماعات ، وهذا هو النصر ، وتلك هي الآية ، وهو الفتح .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. وهنا تجـد المطلوب : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. و(**التسبيح**) : تنزيه ، ومعنى التنزيه ، أى : تنزيه الحق ﷻ عن صفات النقص ، ومماثلة الأغيار أو الحوادث ، ولكن هذا الحمد بالكمال بالفضل وبالفواضل ، فكأن أنا عندي شيء من السلب : سـلب النقـائص ، وإيجاد المحامد ، سـلب النقـائص : تأتي في (**سبحـــانك**) ، يعني : أنزهه عن كل نقيصة ، والحمد يأتي بصفات الفضل ، والفواضل .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ .. المصدر هذا مضاف للفاعل ، وليس مضافًا للمفعـول ، يعـني : حمد الله فاعله ، يعني : يقـع عليه الحمد بحمد ربـك ، يعني : كن حـــامدًا أنت ، والله هو المحمود ، وبحمد ربـــك : يعني بحمد ليس صادرًا منك صيغته ، لماذا ؟! لأن حمد المحمود يتضمن الإلمام بـصفات الكمال له ، حـــتى تســـتطيع أن تثني عليه بما هو أهله ، ثم يقــتضي القـدرة على إيراد الأسـاليب التي تناسـب ذلك المقـام ، ومَنْ منَ البشـر يســتطيع أن يحيط بـــكمالات الله ﷻ ؟! ولو ســلمنا أن هناك من يســتطيع أن يحيط ببـــعض الكمالات ، فمن يستطيع أن يأتي بالأسلوب الذي يليق بمدح الله ﷻ وحمده ؟! لا أحد .

فمن رحمة الله ﷻ بـالخلق أن علمهم صيغة حمده ، فقـال لهم : قـولوا : (**الحمد لله**) ..



وما دام هو الذي علمنا صيغة الحمد ، فسيبقى هو الذي تكفل بحمد نفسه ، ولم يترك لأساليبنا ، ولا لاختلاف مواهبنا وألسنتنا في الفصاحة أن ننشئ صيغًا للحمد ، وإلا فما ذنب العيي الذي لا يقدر أن ينشئ صيغة ؟! وما ميزة الإنسان الذي عنده أسلوب ، ويستطيع أن ينمق بعض العبارات ؟! وهذا ربٌّ حمده مطلوب من الجميع ، فيتحمل الحق ﷻ عن البشر صيغة الحمد التي يحمدونه بها ؛ فيرحمنا جميعًا .

ولذلك كان من دعاء رسول الله ﷺ : " **لا أحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك** "[1] .

أو أن سبح بحمد ربك : سبح تسبيحًا مصاحبًا للحمد ، سبح تسبيحًا ملابسًا للحمد ، يعني : اجمع بين سلب النقائص ، وإيجاد المحامد .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. هل من المعقول أن يقول : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. ثم يأتي بالتعليل : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ؟! فالأمر لا يناسب التعليل في الظاهر ؛ لأنه لو قال : وتب إليه إنه كان توابًا .. لكان معقولاً ، أو لو قال : استغفره إنه كان غفارًا .. لكان معقولاً أيضًا ، إنما قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .. نعم ، وهذا أسلوب من الأساليب التي يسمونها : تربيب الفائدة ، أي أن يأتي بأمرين ، كل أمر فيه عنصران ، فينتج عندنا أربعة عناصر ، اثنان للأمر الأول ، واثنان للأمر الثاني ، فيأتي من الأمر الأول بعنصر ويحذف مقابله من الأمر الثاني ، ويأتي من الأمر الثاني بعنصر ويحذف مقابله في الأمر الأول ، كقوله ﷻ : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾[2] ، فئة ماذا ؟ ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ ، فكان من الممكن أن يقال : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان ، أو يقول : قد كان لكم آية

---

1 – أخرجه مسلم (751) من حديث عائشة رضي الله عنها .

2 – سورة : آل عمران ، الآية : 13 .

في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة ، وفئة كافرة ، لكن الحق ﷻ أراد أن يقول : قد كان لكم آية في فئتين التقتا ، فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله ، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، فحذف من الأمر الأول كلمة : (**مؤمنة**) ، واستدل عليها بمقابلها : ﴿ **كَافِرَةٌ** ﴾ ، ثم حذف من الأمر الثاني كلمة : (**تقاتل في سبيل الشيطان**) ؛ لأنه قد استدل عليها بما يقابلها : ﴿ **تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ .

فيكون المعنى هنا : فسبح بحمد ربك واستغفره ؛ إنه كان غفارًا ، وتب إليه ؛ إنه كان توابًا ، فتكون كلمة : ﴿ **وَاسْتَغْفِرْهُ** ﴾ .. تعليلها : (**إنه كان غفارًا**) ، وكلمة : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ .. تعليل لكلمة : (**تب إليه**) ، فحذف من الأول ما دل عليه من الثاني ، وحذف من الثاني ما دل عليه من الأول ، وهذا ما يسميه العلماء : **الاحتباك** .

فإذا قال : " **أستغفر الله وأتوب إليه** " .. يكون قد قام بالاستغفار والتوبة معًا ؛ لأن الاستغفار يوجب أنك تعرف غير التوبة ، فالتوبة هي الرجوع إلى منهج الله ﷻ ، والاستغفار : أن يطلب الإنسان من الله أن يغفر له ذنبه .

وهنا نقول : ما العلاقة إذن بين المطلوب بعد الفاء ، وبين ما قبلها في : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ ؟!

نضرب مثالاً لذلك .. فالزارع يأتي ببذرة مخلوقة لله ﷻ ، وتربة مخلوقة لله ﷻ ، ويرويها بالماء الذي هو مخلوق لله ﷻ ، والفكر الذي خطط ، والطاقة التي فعلت .. كل هذه مخلوقات لله ﷻ ، إذن .. فهو في التحقيق ليس له فعل ؛ فلا ينبغي له أن ينسى من سخر له هذه الأشياء لتنفعل له ؛ لأن كل فعل يحتاج شيئين : فاعلاً ، ومنفعلاً ، فقد يأتي الفاعل ، ولكن لا يوجد المنفعل ، فساعة ما تقبل على أي عمل تقول : بسم الله ، يعني : أنا لا أقبل بقدرتي ، ولا بعلمي ، ولا بشيء من عندي ، وإنما أقبل على العمل باسم الله الذي سخره لي ، وجعل انفعاله لي من فضل تسخيره ، فتصبح أنت لا تقبل على شيء بأسبابك ، لا تقبل



على شيء بعناصر الفعل منك ، بل تقبل على الشيء بعناصر الخالق الذي سخر لك العناصر ، وجعلها تستجيب وتنفعل لك ، فإذا ما نجحت في الفعل فإياك أن تعزو ذلك إلى نفسك ، أو مهاراتك ، أو إلى حسن تأتِّيك للأشياء ، بل قل : الحمد لله .. فإذا ما أثمر العمل فقل : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .. حينئذ يلتصق المؤمن بربه بادئًا ومنتهيًا .

إن كل فساد يأتي للإنسان من أنه إن أقبل على شيء ولم يقل : بسم الله ، يصبح أبتر ، وإن نجح في شيء وأدرك الثمرة يقول : أوتيته على علم عندي .. فاستغفر ربك من هذه الخواطر ، واعتبر بما حدث للمسلمين في غزوة حنين ، حينما قال بعضهم : **" لن نُغلب اليوم من قلة "**[1] .. فانهزموا في أول الأمر ؛ لأن الله ﷻ أراد أن يُعلمهم أن النصر والهزيمة من عند الله ﷻ ، وليس من كثرة أو قلة .

إذن .. فهي ثلاثة أشياء : الإقبال على الأشياء باسم الله ﷻ ، والانتهاء منها بالحمد لله ، والاستصحاب لثمراتها بلا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه هي مناهج المؤمن .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. سبح بحمد ربك ، يعني : إياك أن تجعل له شبيهًا ، أو شريكًا في أفعاله ، بل هو الفاعل لكل شيء ، غاية ما في الأمر أنه أكرمك ، وأجرى الخير على يديك ، فحظك من التكريم أنه جعلك أهلاً لأن يوجد الخير على يديك ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[2] ، فأنتم آلات فقط في يد الله ﷻ ، كما قال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[3] ، إذن ففي فورة النصر ، وزهو الانتصار ، يجب ألا تذكر نفسك ، بل تذكر قدرة الله ﷻ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .. والاستغفار إما أن يكون من اغترار النفس البشرية

---

1 – أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة (5 / 187) .

2 – سورة : الأنفال ، الآية : 17 .

3 – سورة : التوبة ، الآية : 14 .

بـزهو الانتصار والإعداد ، وما شابـه ذلك ، وإما أن يكون عما بـدر منهم من استبـطائهم لنصر الله ﷻ ، كما قـال ﷻ : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾[1]. فلما ظنوا هذا الظن : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ .

وقد يكون الاستغفار استغفار مقامات ، وهناك ما يدل من القرآن على هذه المقـامات ، وذلك كما في قـوله ﷻ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ﴾[2]. فكـأن المؤمـن دائمًا في معارج ومراقٍ ، فإذا ما كان في مرتبـة عالية ، فإنه يسـتغفر على ما كان منه في المرتبـة السفلىٰ ، وكأنه أذنب .

وهنا لفتة هامة ينبغي الانتباه لها قبل أن ننهي خواطرنا حول هذه السـورة الكريمة ، وهي أن هذه السورة لها واجهة ، ولها باطن خفي لا يعلمه كثير من الناس .

لذلك نقول دائمًا : إننا نحتاج دائمًا إلى تدبر القرآن : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾[3] ، وقـلنا : معنى يتدبرون ، أي : لا ينبغي أن ينظروا إلى واجهة الأسلوب ، بل ينبغي أن ينظروا إلى ما هو من معطيات خلق الأسلوب ؛ ولذلك قال ابـن مسعود ﷺ : سوروا القرآن سـوره .. يعني : هيجوا أساليبه ، حتى تظهر لكم الأشياء التي فيها ، كما تسور الأرض التي تخرج كنوزها .

فواجهة السـورة يفهمها الكل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ، ونستقبـل ذلك بـأننا نسبح بحمد الله ﷻ ونستغفره .

أما باطن السورة فيتجلى فيما رواه البخاري ﷺ بسنده عن سعيد بـن جبـير ﷺ عن ابـن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر ﷺ يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في

---

1 – سورة : يوسف ، الآية : 110 .

2 – سورة : المائدة ، الآية : 93 .

3 – سورة : محمد ، الآية : 24 .

نفسه ، فقال : لم تُدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟! فقال **عمر** : إنه مَن قد علمتم .. فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، فعلمت أنه ما دعاني إلا ليريهم ، قال **عمر** : ما تقولون في قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة ؟ فقال بعض الصحابة : أمرنا أن نسبحه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا .. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا ، قال **عمر** : أكذلك تقول يا **ابن عباس** ؟ قال : لا .. قال : فما تقول ؟ قال : أقول : ذلك أجل رسول الله ﷺ أعلمه له فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ، فقال : ما أعلم منها إلا ما تعلم[1] ..

نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا نصره ، وأن يرزقنا حمده وتسبيحه والتوبة والاستغفار . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

1 - أخرجه البخاري (4588) .







سورة المسد







بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي كما علمتنا أن نحمد ،
وأصلي وأسلم على خير أنبيائك ورسلك سيدنا محمد ﷺ ، وعلى آله
وصحبه أجمعين . . أما بعد . .

فمع خواطرنا حول **سورة المسد** ، تلك السورة التي نزلت لوضع حد لتلك الحرب الشعواء التي شنها **أبو لهب** وامرأته على ابن أخيه **محمد** ﷺ . .

لقد وضع لنا النبى ﷺ منهجًا لحياتنا ، وهو أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بدينه وتقواه ، فقال ﷺ في وسط أيام التشريق : " **يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى** "[1] ، وعندما حدث خلاف بين **سيدنا بلال وسيدنا أبي ذر رضى الله تعالى عنهما** ، وقال له **أبو ذر** ﷺ : يا ابن السوداء .. فغضب **بلال** ﷺ ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ليشكو له **أبا ذر** ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي ذر ﷺ : " **يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟! إنك امرؤ فيك جاهلية** "[2] .. وكما يقول الشاعر :

عليك بتقوى الله في كل حالة ... ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشركُ النسيبَ أبا لهبِ

---

1 - أخرجه أحمد في المسند (47 / 478) .

2 - أخرجه البخاري (29 ، 5590) ، ومسلم (3139 ، 3140) عن المعرور بن سويد عن أبي ذر .



فالأفضلية ليست بالقرابة أو العصبية ، وإنما بهذا الدين ؛ ولذلك أنزل الله ﷻ في أبي لهب ، وهو عم النبي ﷺ ، قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة ، ويُتعبد بتلاوته إلى أن تقوم الساعة ، يبشره بالتباب والهلاك والدمار .

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ .. اختار الله ﷻ من أعداء رسول الله ﷺ أقرب العصبة ؛ حتى يدلنا على أن هذا الدين إتيانه لا لعصبة ولا لقرابة ، فشاء الحق ﷻ أن يعطينا نموذجًا ، هذا النموذج خرق حجاب الزمن المستقبل ، وأخبر بأشياء ، والإخبار بالأشياء في الزمن المستقبل قد تكون من متعلقات القدرة ، وقد تكون من متعلقات العلم . والفرق بين متعلقات القدرة ، ومتعلقات العلم هو أن متعلقات القدرة شيء ألزمت إنسانًا بفعله ؛ لأنك لم تترك له خيارات ، فتخبر بأنه سيفعله ، أما متعلقات العلم فهي أشياء تركت لإنسان الاختيار بينها ، وأنت تعلم مسبقًا على ماذا سيقع اختياره .

فالحق ﷻ يضرب لنا ذلك المثل في خرق حجاب الزمن المستقبل ، نحن نعلم أن كثيرًا من خصوم رسول الله ﷺ ظلوا مدة على خصومتهم ، ثم لانت قلوبهم للإسلام ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وأعلنوا إسلامهم ، هذا **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ذهب ليقتل رسول الله ﷺ فإذا به يرجع مسلمًا ، وهذا **خالد بن الوليد** رضي الله عنه ، وهذا **عمرو بن العاص** رضي الله عنه ، فالسوابق الموجودة تدل على أن كثيرًا من الذين آذوا رسول الله ﷺ ، والذين كانت لهم عداوة معه ، جاءوا بعد



فترة مسلمين ، فكيف يختار الحق واحدًا من هؤلاء ليحكم بأنه لن يصيبه ما أصاب أولئك ؟! ولن يأتي مسلمًا .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. يحكم الله ﷻ في أمر له فيه خيار فيقول : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فكأن الله ﷻ اختاره من دون القوم الذين علم الله أزلاً أنهم سيسلمون ، وقال : أنا أقول لكم : إن هذا لن يسلم ، وبعد ذلك سيصلى نارًا ذات لهب ، وليس هو فقط ، بل وامرأته أيضًا .

فكيف يقول ذلك إلا إذا كان محكومًا عليه بأنه لن يسلم ، فهل كان **محمد** ﷺ يجازف في مثل **أبي لهب** بهذه المقولة ، مع أنه يعلم أن كثيرًا ممن كان على مثل ما كان عليه **أبو لهب** جاءوا فأسلموا ؟! فلو فُرِضَ أن **أبا لهب** جاء في وسط قومه من العرب وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ماذا يكون موقف القرآن ؟! وموقف **محمد** ﷺ ؟!

إذن .. فرسول الله ﷺ لم يقل هذا الكلام من قِبَل نفسه ، وإنما بلغه عن الله ، الذي يعلم أزلاً ما ينتهي إليه أمر **أبي لهب** دون بقية القوم ، فإن **أبا لهب** ليس له خيار في هذا الأمر .

وموقف **أبي لهب** من الدعوة معروف من أول يوم ، فحينما أمر الحق ﷻ رسوله ﷺ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1] ، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي : " **يا بني فهر ، يا بني عدي** " .. لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء **أبو لهب** وقريش ، فقال ﷺ : " **أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي** " ؟! قالوا : نعم ؛ ما جربنا عليك إلا صدقًا .. قال : " **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** " . فقال **أبو لهب** : تبًّا لك سائر اليوم ؛ ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [2].

1 – سورة : الشعراء ، الآية : 214 .

2 – أخرجه البخاري (4397) ، ومسلم (307) ، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وأيضًا في تتبع رسول الله ﷺ في القبائل ، كما قال ربيعة بن عباد الديلي ، قال : كنت مع أبي رجل شاب ، وأنا أنظر إلى رسول الله ﷺ يتتبع القبائل ، ووراءه رجل طويل له وجاهة وله جمة ، فإذا ما وقف رسول الله ﷺ على قبيلة ، قال : " يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم جميعًا ، آمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تنصروني ، وأن تمنعوني .. حتى أنفذ عن الله ما بعثني به " .. فإذا انتهى من قوله ، قال الذي وراءه : يا بني فلان ، إن هذا جاء ليسلخكم عن اللات والعزى ، وعن حلفائكم من الجن من بني مالك بن أخمس ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه .. فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه عبدالعزى [1] ..

وهكذا .. من أول يوم من أيام الدعوة ينفر منه الناس ، وعندما حدث حصار الشعب فإن أبا لهب وحده من بني هاشم انسلخ عن قومه ، وعاهد قريشًا في مقاطعة بني هاشم ، بل وقد تعدت هذه العداوة إلى امرأته أيضًا ، فما كان من الحق ﷻ إلا أن سجل هذه الأحداث كلها ، وخرق حجاب الزمن المستقبل ، فقال ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. و (تبت) تعني : القطع والهلاك والبوار ، وطبعًا هو يذكر اليدين ويعني الجسم كله ؛ لأن أغلب الأعمال تزاول بالأيدي ، كما في قوله ﷻ : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾[2] ، في حين أن الأداء قد يكون بأيدينا ، أو بأرجلنا ، أو بألسنتنا ، أو بعيوننا ، ولكن لأن أغلب الأشياء تزاول دائمًا باليد .

إن أبا لهب بجهله دعا على النبي ﷺ ، ولا شك أنه دعا وهو يعرف من يجيب ذلك الدعاء ، إذن ، فلمن دعا ؟! لو كان في مكنته أن يتبّها كان يتبها ، لكن هو بقوله : تبت يداك .. يدعو أن تتب يدا رسول الله ﷺ ، إذن ، ليس في مكنته هو أن يتب ، فيكون لازمًا بوجدانه وبعواطفه وفطرته أنه يعلم أنه غير قادر على ذلك ، فلسانه يدعو بالدعاء لمن يملك

---

1 - أخرجه أحمد في مسنده (32 / 232) ، والحاكم في المستدرك (1 / 42) ، والطبراني في الكبير (4 / 452) .

2 - سورة : آل عمران ، الآية : 182 .

ولابد ، إذن فهذه شهادة منه حينما يدعو على رسول الله ﷺ بأنه لا يملك أن يفعل المدعو بـه على رسول الله ﷺ .

ولكن كيف تدعو عليه والذي تتوجه بالدعاء له ، هو نفسه من تكذب **محمدًا** في البلاغ عنه ؟! إن هذا يدل على أن الفطرة التي في النفس تصادر الفكر ، تصادر التعقل الكامل ، هو يدعو على القوة ؛ لأنها مبلغة عمن يدعوه !! ، وهذا دعاء هراء ، فيكون أبو لهب دعا لغوًا في قوله : تبت يدك ، ألهذا جمعتنا ؟

ولكن الحق الذي يملك هو الذي قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، وحين يكون القائل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا ﴾ هو ذلك المدعو ﷻ ، فمعنى ذلك أن التباب حاصل لا محالة ، ولكنها ستكون قرآنًا يتلى ؛ لتكون منا دعاء ، ولكنها من الحق قَطْع ، فحين يقول الحق ﷻ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ .. فلا تفهموه على منطق الدعاء ، أنه قد يجاب وقد لا يجاب ، ولكنه حاصل لا محالة .

فإنه قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .. وتب .. يعني : وقد حصل ، هذا أمره في دنياه ، ولذلك تجد أن أبا لهب رغم ما كان له في قومه ، تحدث له أحداث حين يموت لم تحدث لأقل واحد في مكة ، مثلاً يصيبه الله بمرض اسمه : العدسة ، ذلك المرض كان العرب يعتقدون فيه أنه كالطاعون أو أشد ، وأن الإنسان السليم إذا قرب ممن أصيب بالعدسة لابد سيصاب ، فكانوا يفرون منه ، فلما مات أبو لهب بالعدسة ، وظل ثلاثة أيام لا يقربه أحد ، حتى كاد أن ينتن ، فرق قلبهم على أن يستروا جسمه ، فماذا صنعوا ؟ لقد أحضروا عودًا من خشب ، وحفروا حفرة كبيرة ، وظلوا يدفعون جثته من بعيد حتى سقط في الحفرة ، بلا حمل ، ولا تشييع ، ثم أرادوا أن يردموا عليه فرجموه بالحجارة من بعيد أيضًا !! [1] .

1 - أخرج القصة الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (12 / 335) ، والطبراني في الكبير (1 / 393) ، والبيهقي في الدلائل (3 / 154) .

ومن عداوته أيضًا لرسول الله ﷺ أنه قبل أن يعلن رسول الله ﷺ دعوته ، كان لرسول الله ﷺ بنتان : **رقية** ، **وأم كلثوم** ، وكان **لأبي لهب** ولدان : **عتبة** ، **وعتيبة** ، فخطب بنتي رسول الله ﷺ لابنيه ، فلما جهر رسول الله ﷺ بدعوته ، قال **أبو لهب** لابنيه : لستما مني إلا أن تطلقا بنتي **محمد** ، فطلق أكبرهما الأولى ، لكن الأصغر قال : والله لا أطلقها حتى أؤذيها .. فمر على رسول الله ﷺ وقال : إنني رددت عليك بنتك وطلقتها ، ثم تفل في جانب رسول الله ﷺ ، وكان عمه **أبو طالب** موجودًا ، فقال رسول الله ﷺ : " **اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك** " .. فخرج إلى الشام مع أبيه ، فلما وصلوا إلى مكان وأرادوا أن يقيلوا فيه ، قال أصحاب المكان : إن هذا المكان مكان مسبعة .. يعني : مكان ظهور السباع ، فتنبه **أبو لهب** وقال : يا معشر قريش ، أغيثوني من دعوة **محمد** ، أغيثوني من دعوة **محمد** .. فما كان منهم إلا أن جاءوا بإبلهم ، وأناخوها في دائرة ، وجعلوا المبيت في وسط الدائرة ، فجاء سبع ، وظل يتشمم إلى أن وصل إلى ذلك السفيه ، فأكله السبع [1]. وإذا أضيف الكلب إلى الله ﷻ فلابد وأن يكون سبعًا ، وفعلاً حصل الواقع كما قال رسول الله ﷺ .

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .. وذلك تعزية أخرى للنبي ﷺ ، لأن **أبا لهب** كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا ، فسأفتدي نفسي منه بمالي وبولدي ، فَرَدَّ الحق ﷻ على قوله ، بأنه لن يغني عنه ماله وما كسب ، وهنا طبعًا يهمنا أن نفرق بين ماله ، وبين ما كسب ، فالمال : هذا الأصل ، والمكاسب : ما ينشأ ، يعني : الأرباح التي تنشأ ، والله إنما يعني بما كسب : ولده ، لأن رسول الله ﷺ قال : " **إن من أطيب كسب الرجل ، أن يأكل من عمل يده وكسبه ، وولده من كسبه** "[2]. فقال : **﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾** ..

---

1 - أخرج القصة الطبراني في الكبير (16 / 294) ، والبيهقي في السنن الكبرى (5 / 211) ، وفي الدلائل (2 / 213) .

2 - أخرجه أحمد (49 / 175) ، وأبو داود (9 / 406) ، والنسائي (13 / 464) عن عائشة رضي الله عنها .

يعني : المال ، والولد .. وبعضهم قال : إنه كان قد اتخذ عند رسول الله ﷺ يدًا ، أي : قبل أن يبعث ، واتخذ عند قريش يدًا ، فقال : أما اليد التي لي عند **محمد** ، فستكون عونًا لي إن كان على حق وانتصر ، وأما اليد التي لي عند قريش ، فكانت ستنفعني إذا انتصرت قريش ، فنزلت : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .. فالذي سبق : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .. فهذا من أمر الدنيا ، يجعل الله ﷻ ما يقف عليه البشر في أمر الدنيا من أشياء يحسونها بعد أن كانت مستقبلاً فتصير حالاً ، وبعد أن تصير حالاً ، ستصير ماضيًا ينقله الثقات ، فكل حدث من الأحداث التي تحدث كان في وقت ما مستقبلاً ، ثم بعد ذلك كان في وقت ما حالاً ، ثم سيكون بعد ذلك ماضيًا ، وهذا الذي حُدِّثنا عنه كان مستقبلاً ، ثم صار حالاً ، ثم الآن صار ماضيًا ، ووقع على وقت ما قال الله : بأن الله تبَّ يده ، وأن ماله وما كسب لن يغني عنه أي شيء ، ثم بعد ذلك أعطانا الحق ﷻ غيبًا لن يحدث إلا في الدار الآخرة ، وجعل صدق ما نراه في محس دنيانا دليلاً على الصدق فيما لم نره بعد من غيب أخراه ، يعني : ما دام الحق حين يعرض قضية من القضايا ، يستدل عليها بالأمر المحس ، فلما يصدق في الأمر المحس ، تكون النتيجة الحتمية : ما دام قد صدق فيما رأينا ، فهو صادق أيضًا في الذي لم نره بعد ، وكفى بخبره تصديقًا : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .. وامرأته هي أروى أخت **أبي سفيان بن حرب** ، فتكون هي : **أروى بنت حرب بن أمية** ، فكانت سيدة لها مكانة .

ولا يخفى علينا أنه كان لها دور في إيذائه ﷺ مما يدل على أن المسألة كانت قد وصلت إلى أن تشترك النساء في إيذاء رسول الله ﷺ ، فهؤلاء النساء كن يأخذن وضعهن بسيادات

1 – سورة : فصلت ، الآية : 53 .

آبـائهن ، أو بسـيادات أزواجهن ، فإذا جاء إنسـان لكي يهدم هذه السيادات كلها ، فمعنى ذلك أن فرصتها في أن تأخذ مكانتها في مجتمع مكة قـد ضاعت ؛ فلذلك هي تنظر لرسـول الله ﷺ نظرة الحقد .

صحيح أنها كانت تحمل الحطب وترميه ، وطبعًا مجرد الحطب ليس فيه إيذاء ، بل لابد وأن يكون حطبًا من نوع مخصوص ، كالشوك ، أو حسك السعدان ، فكانت ترميه لتؤذي بـه النبي ﷺ ، وهذه عملية حسية ، ولكن بـعض المفسـرين يقـول : إنها كانت مشـهورة بشـيء آخر ، وهو أنها كانت تمشي بـين الناس بـالنميمة ، وعادة الحطب أنه يأوي دائمًا إلى النار ، فالنميمة هي سبـب إيقـاد العداوة بـين الناس ، كما الحطب هو سبـب إيقـاد النار ، فتصبح النميمة التي تمشـي بـين الناس بـها ، كأنها الحطب ، ونحن نقول : لا مانع أن تكون قـد فعلت الحقيقـة ، وفعلت أيضًا ما يكنى بـه عن الحقيقـة ، فكلمة : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ لها حقيقة ، ولها كناية عن كونها نمامة .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ .. وكلمة : (الجيد) ، إذا ذكرت في اللغة يكون لابـد وأن تأتي فيها الأوصاف الحسـنة ، ولكن هنا هذا الجيد الذي يطلب فيه الجمال ، سـيكون فيه حبل من مسد ، تصور أن يكون جيد امرأة هي سيدة في قومها ، ولها مكانة عند عشيرتها ، ثم يصورها الله ﷻ بأن جيدها هذا سيكون فيه حبل من مسـد ، و(المسد) هو : الليف الخشـن حين يجدل جدلاً محكمًا ، وهو من غير الجدل المحكم مؤذٍ ، فما بـالك بـعد أن يجدل الليف جدلاً محكمًا ؟! ثم الأشد والأنكى أن يصير حبـلاً في العنق ، لا شـك أن هذا سـيكون تشويهًا للصورة ، وإنزالاً لها من عليائها وجاهها .

حبـل من مسـد ؛ ليكون الجزاء من جنس العمل ؛ فما دامت تحمل حـطبًا ، فهي تحمل الحطب وتشده بحبل ، فكل شدة على حطب سيكون جزاؤها أيضًا شـدة بحبـل في جيدها ، وهذا تبشيع للصورة ، وأيضًا لينسجم الإيقاع التصويري .

هذا الإيقاع من قوة **أبي لهب** ، واسمه **عبد العزى** ، ولكن كنيته **أبو لهب** ؛ لأن وجهه كان مثل النار ، ملتهبًا إلى حـد الحمرة ، فكنيته عند العرب : **أبو لهب** ، يعني : وجهه مثل لهب النار ، والكنية تصادف العذاب .

وتجد أيضًا في معنى كلمة : (تَبَّ) التشديد ، فمعناها : القطع بشدة وبإحكام ، والحبل من مسد : الذي يُشد ، فيه شدة وإحكام .

إذن .. فكل العبارات لكل ألفاظ السورة ، وكل جمل السورة جمل منسجمة التوقيع مع أدائها للمعاني .

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علمًا .

إنه ولي ذلك والقادر عليه . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .






تفسير جزء عم


سورة الإخلاص







سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم . . أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع **سورة الإخلاص** ، تلك السورة القصيرة التي تعدل **ثلث القرآن** ، كما جاء عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه : أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : " **والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن** " [1] .. وليس في هذا غرابة ؛ فإن الأحدية التي أُمر رسول الله ﷺ أن يعلنها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة .. وقد تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة .

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .. وهو لفظ أدق من لفظ : (واحد) ؛ لأنه يضيف إلى معنى (واحد) أن لا شيء غيره معه ، وأن ليس كمثله شيء ..

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 – أخرجه البخاري (4627 ، 4628 ، 6152 ، 6826) ، ومسلم بنحوه (1344 ، 1345 ، 1346) .

إنها أحـدية الوجود ، فليس هناك حقيقـة إلا حقيقـته ، وليس هناك وجود حقيقـي إلا وجوده ، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقـي ، ويسـتمد حقيقـته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي من ثَمَّ أحدية الفاعلية ؛ فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شـيء ، وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضًا .

فإذا استقـر هذا التفسـير ، ووضح هذا التصور ، خلص القـلب من كل غاشـية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بـغير هذه الذات الواحـدة المتفردة بحقيقـة الوجود وحقيقـة الفاعلية ، خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً ، فلا حقيقـة لوجودٍ إلا ذلك الوجود الإلهي ، ولا حقيقـة إلا لفاعلية الإرادة الإلهية ، فعلامَ يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته ؟!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بـغير هذه الحقيقـة .. فعندئذ يتحـرر من جميع القـيود ، وينطلق من كل الأوهام .. يتحـرر من الرغبـة ، وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة ، وهي أصل قيود كثيرة ، وفيمَ يرغب وهو لا يفقد شـيئًا متى وجد الله ﷻ ؟! ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله ﷻ ؟!

ومتى استقـر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقـة الله ، فستصحبـه رؤية هذه الحقيقـة في كل وجود آخر انبـثق عنها ، وهذه درجة يرى فيها القـلب يدَ الله في كل شـيء يراه ، ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شـيئًا في الكون إلا الله ﷻ ؛ لأنه لا حقيقـة هناك يراها إلا حقيقة الله ﷻ .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب ، ورد كل شيء وكل حـدث وكل حـركة إلى السبـب الأول الذي منه صدرت ، وبـه تأثرت .. وهذه هي الحقيقـة التي عني القـرآن عناية كبـيرة بتقريرها في التصور الإيماني ، ومن ثَمَّ كان ينحي الأسباب الظاهرة دائمًا ويصل الأمور مباشرة



بمشـيئة الله ﷻ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [1]، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّه ﴾ [2]، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [3].. وغيرها كثير .

وبتنحـية الأسبـاب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشـيئة الله وحـدها ، تنسـكب في القـلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحـيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقـي عنده ما يرهب ، ويسـكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسبـاب الظاهرة التي لا حقيقـة لها ولا وجود ، وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبتهم إلى بعيد ، ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسـلكوا الطريق إلى هذه الحقيقـة وهم يكابـدون الحياة الواقـعية بـكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية والخلافة الأرضية بكل مقوِّماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقـة إلا الله ، وأن لا وجود إلا وجوده ، وأن لا فاعلية إلا فاعليته .. ولا يريد طريقًا غير هذا الطريق .

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات .. منهج لعبادة الله وحده ، الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة ، في السراء والضراء ، في النعماء والبأسـاء ، وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودًا حقيقيًّا ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده .. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقـاليد ، فالتلقـي لا يكون إلا عن الوجود الواحـد والحقيقـة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحـده .. ابـتغاء القـرب من الحقيقـة ، وتطلعًا إلى الخلاص من الحواجز المعوقـة والشـوائب المضللة ، سـواء في قـرارة النفس أو فيما حـولها من الأشـياء

1 - سورة :الأنفال ،الآية : 17 .

2 - سورة : آل عمران ،الآية : 126 .

3 - سورة : الإنسان ،الآية : 30 .

والنفوس ، ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود .

ومنهج يربط مع هذا بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب ، فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها .. فكلها خارجة من يد الله ﷻ ، وكلها تستمد وجودها من وجوده ﷻ ، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة ، فكلها إذن حبيب ؛ إذ كلها هدية من الحبيب .

وهو منهج رفيع طليق .. الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة ، ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية .. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب .. إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها .. ومن ثمَّ فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير ، ولكن الإسلام لا يريده ؛ لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص ، إنه طريق أشق ، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان ، أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه ، وهذا هو الانطلاق .. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي ، وتحقيق حقيقتها العلوية ، وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم ﷻ .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب ؛ لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة ، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير ، إنما هو الأمر كله ، والدين كله ، وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم

وحياتهم ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص ، ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء بسواء .

وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة ، فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .. ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح ..

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .. ومعنى الصمد اللغوي هو : السيد المقصود الذي لا يُقضى أمرٌ إلا بإذنه ، والله ﷻ هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحدٌ في ألوهيته ، والكل له عبيد ، وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات ، وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه .. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تعتورها حال بعد حال ، صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال ، والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال ، ثم هي تقتضي زوجية تقوم على التماثل ، وهذه كذلك محال ، ومن ثم فإن صفة : ﴿ أَحَدٌ ﴾ تتضمن نفي الوالد والولد .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ ، لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية ، وهذا كذلك يتحقق بأنه ﴿ أَحَدٌ ﴾ ، ولكن هذا توكيد وتفصيل .. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله



الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله بزعمهم ، ويعكس عليه أعماله الخيرة ، وينشر الفساد في الأرض .

وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان .

إن هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن **سورة الكافرون** نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك .. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه ، وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه في صلاة سنة الفجر بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه .

نسأل الله أن يرزقنا التوحيد الخالص من كل شائبة تشوبه . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .




تفسير جزء
عم


سورة
الفلق







بسم الله الرحمن الرحيم . .أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع سورة الفلق ، وهذه السورة والتي بعدها توجيه من الله ﷻ لنبيه ﷺ ابتداء ، وللمؤمنين من بعده جميعًا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف .. خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل .. وكأنما يفتح الله ﷻ لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا .. تعالوا إلى الحمى .. تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه .. تعالوا .. فأنا أعلم أنكم ضعاف ، وأن لكم أعداء ، وأن حولكم مخاوف ، وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

ومن ثم تبدأ كلاهما بالتوجيه .. ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه ، والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه في عمق وفرح وانطلاق ..

عن عقبة بن عامر ؓ أن رسول الله ﷺ قال : " **ألم ترَ آيات أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط ؟!** ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ "[1] .

وعن جابر ؓ قال : قال لي رسول الله ﷺ : " **اقرأ يا جابر** " . **قلت : ماذا بأبي أنت وأمي ؟** قال : " **اقرأ :** ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ " .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

1 - أخرجه مسلم (1348 ، 1349) .

فقرأتهما ، فقال : **" اقرأ بهما ؛ فلن تقرأ بمثلهما "**[1].

في هذه السورة يذكر الله ﷻ نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة ..

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .. (**الفلق**) من معانيه : الصبح ، ومن معانيه : الخلق كله ، بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، كما قال في **سورة الأنعام** : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾[2]، وكما قال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾[3]. وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمِّن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمِّن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع ما بعده .

﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .. أي من شر خلقه إطلاقًا وإجمالاً ، وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض ، كما أن لها خيرًا ونفعًا في حالات أخرى ، والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها ، والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها .

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .. و(**الغاسق**) في اللغة : الدافق ، و(**الوقب**) : النقرة في

---

1 - أخرجه النسائي (16 / 308) .

2 - سورة : الأنعام ، الآية : 95 .

3 - سورة : الأنعام ، الآية : 96 .

الجبـل يسـيل منها الماء ، والمقـصود هنا غالبًا هو الليل وما فيه ، الليل حـين يتدفق فيغمر البسيطة ، والليل حينئذ مخوف بذاته ، فضلاً عن ما يثيره من توقـع للمجهول الخافي من كل شـيء .. من وحـش مفترس يهجم ، ومتلصص فاتك يقتحـم ، وعدو مخادع يتمكن ، وحشـرة سامة تزحـف ، ومن وسـاوس وهواجس وهموم وأشـجان تتسـرب في الليل ، وتخنق المشـاعر والوجدان ، ومن شـيطان تسـاعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء ، ومن شـهوة تستيقـظ في الوحدة والظلام ، ومن ظاهرٍ وخافٍ يدب ويثب ، في الغاسق إذا وقب .

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ .. والنفاثات في العقد هي : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، خداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس ، والتأثير والمشـاعر ، وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل ، وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء .

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ، ولا ينشئ حقيقـة جديدة لها ، ولكنه يخيل للحـواس والمشاعر بما يريده الساحر ، وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قـصة موسـى عليه السلام ، إذ قـال تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾[1] .. وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم إلى حـيَّاتٍ فعلاً ، ولكن خيل إلى الناس وموسى معهم أنها تسـعى ، إلى حـد أن أوجس في نفسـه خيفة ، حتى جاءه التثبيت ، ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبـت عصا موسـى بـالفعل لحيَّة فتلقـفت الحبال والعصي المزروة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسـلم بـها ، وهو بـهذه الطبـيعة يؤثر في الناس ، وينشـئ لهم مشـاعر وفق إيحائه .. مشـاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها

1 – سورة : طه ، الآية : 65 : 69 .

الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد .. وهي شر يستعاذ منه بالله ﷻ ، ويلجأ منه إلى حماه .

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ .. و(الحسد) : انفعال نفسي إزاء نعمة الله ﷻ على بعض عباده ، مع تمني زوالها .. وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شرًا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني ، فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً .. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد ، وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين ، اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها ، ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات .. وكذلك التنويم المغناطيسي ، وقد أصبح الآن موضعًا للتجربة المتكررة المثبتة ، وهو مجهول السر والكيفية .. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسيًا معينًا إلى المحسود ، فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته ، فنحن لا نعلم إلا القليل في هذا الميدان ، وهذا القليل يُكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك .

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه ، والله ﷻ برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله ﷺ وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور ، ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به وفق توجيهه أعاذهم وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .



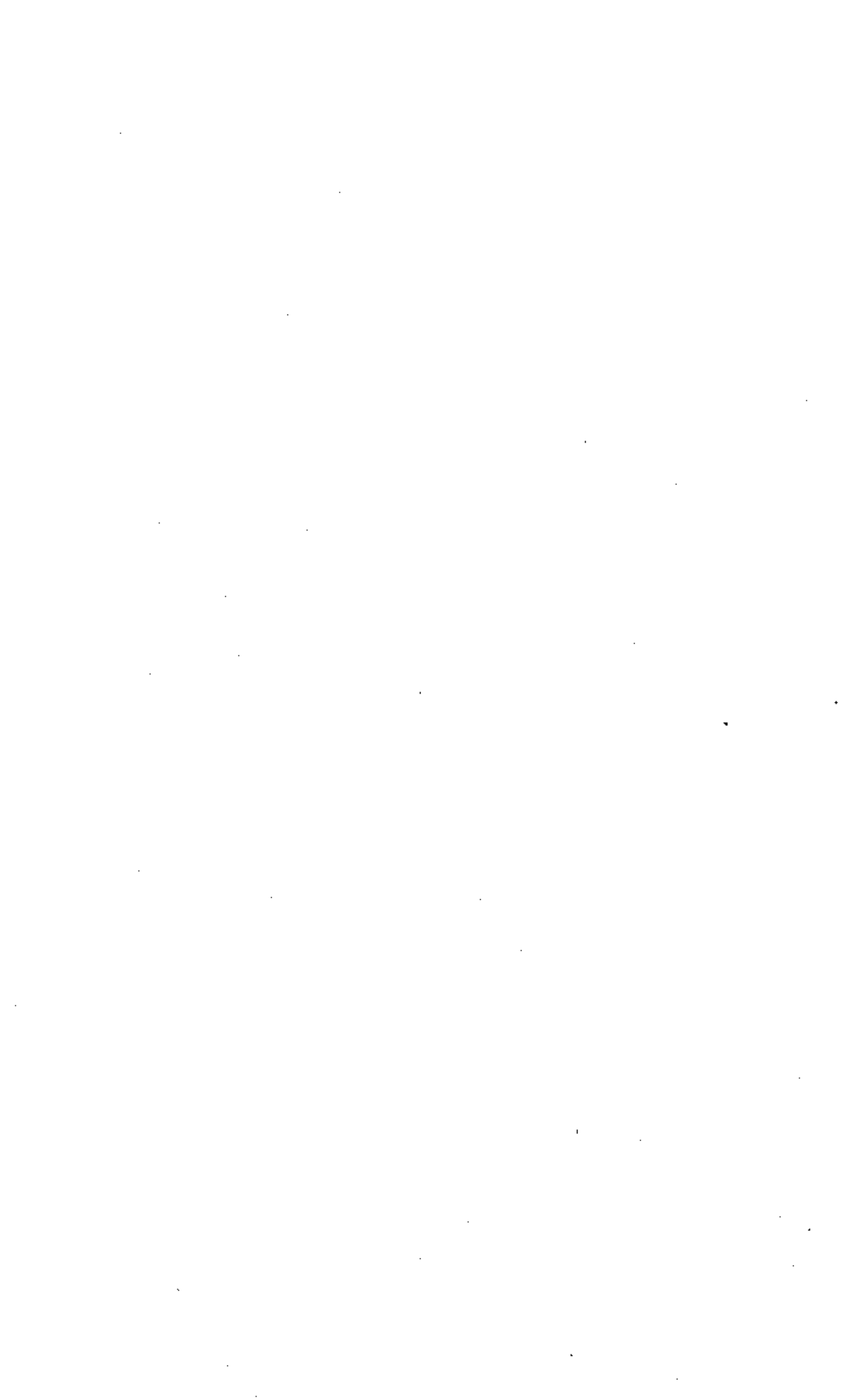
وقد روى **البخاري** بإسناده عن **عائشة رضي الله عنها** : أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .. ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده .. يفعل ذلك ثلاث مرات .[1]

نسأل الله أن يقينا شرور أنفسنا ، وشرور خلقه ، وأن يعافينا من كل مكروه وسوء . .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .



1 ـ أخرجه البخاري (4630) .









سورة الناس





بسم الله الرحمن الرحيم . أحمدك ربي حق حمدك ، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائك وصفوة رسلك سيدنا محمد ﷺ . .

أما بعد .. فمع سورة الناس ، والاستعاذة في هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس .. والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس .

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .. والاستعاذة بالرب .. الملك .. الإله تستحضر من صفات الله ﷻ ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فإن (الرب) هو المربي والموجه والراعي والحامي ، و(الملك) هو المالك الحاكم المتصرف ، و(الإله) هو المستعلي المستولي المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور .. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

* تفسير السورة مقتبس بتصرف من : " في ظلال القرآن " .

والله رب كل شـيء ، وملك كل شـيء ، وإله كل شـيء ، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله برحمة منه يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معاني صفاته هذه ، من شر خفي الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله ، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون .

﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. و(**الوسوسة**) هي : الصوت الخفي .. و(**الخنوس**) هو : الاختباء والرجوع .. و(**الخناس**) هو : الذي من طبعه كثرة الخنوس .

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وقـد أطلق النصُّ الصفةَ أولاً : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .. ثم حدد عمله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .. ثم حـدد ماهيته : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقـظة والتلفت والانتباه ؛ لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره ، تأهبًا لدفعه أو مراقبته .

والنفس حين تعرف بعد هذا التشويق والإيقاظ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسرًّا ، وأنه هو الجِنَّة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق .

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة ، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ، وأن الشيطان قد أعلنها حربًا تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ، وأنه قد استصدر بها من الله إذنًا ، فأذن فيها ﷻ لحكمة يراها ، ولم يترك الإنسان فيها مجردًا من العدة ؛ فقد جعل له من الإيمان جُنَّة ، وجعل له من الذكر عُدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحًا .. فإذا أغفل

الإنسان جُنَّته وعُدَّته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " **الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس** "[1] .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين .

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ، ومن حيث لا يحترس ؛ فهو الرفيق المأمون .

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارًا مفسدًا في الأرض ، مهلكًا للحرث والنسل .

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه .

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب بعد عون الله ﷻ .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها .. وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبًا .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدله الله ﷻ على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة .

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه : ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ .. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ، ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمي مداخل صدره ، فهو سواء كان من الجنة

---

1 – مصنف ابن أبي شيبة (8 / 196) .

أم كان من الناس إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق : " **فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس** " .

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس ؛ فهو خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة .

ولكنها من ناحية أخرى معركة طويلة لا تنتهي أبدًا ، فهو أبدًا قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات .. والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة في **سورة الإسراء** : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[1] .

وهذا التصوُّر لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها سواء عن طريق الشيطان مباشرة ، أو عن طريق عملائه من البشر .. من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبًا على أمره فيها ؛ فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ، فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية ، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها .. يستند إلى الرب الملك الإله ، والشر يستند إلى وسواس

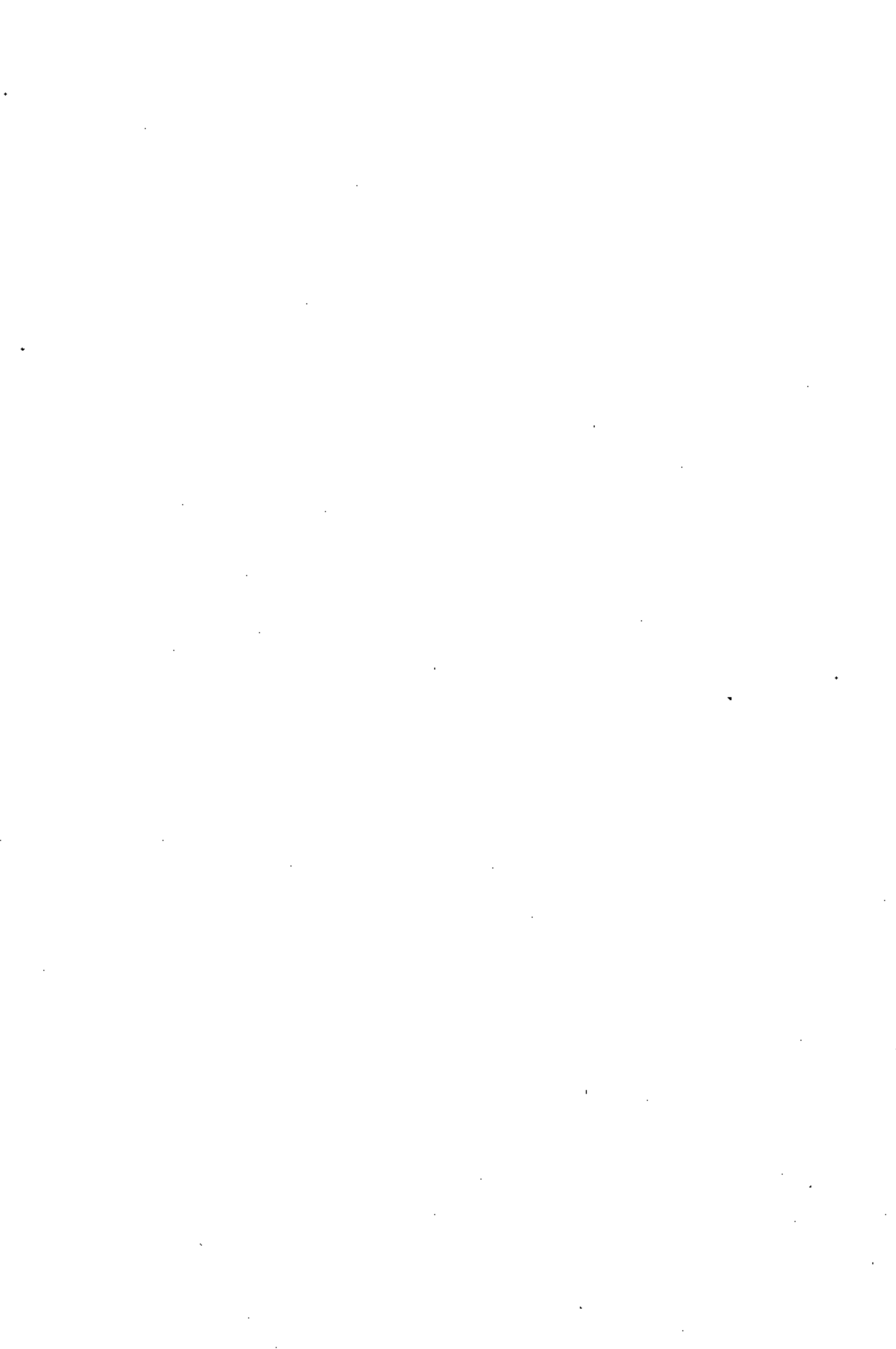
1 – سورة : الإسراء ، الآية : 60 ، 65 .

خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله ﷻ .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر ، كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة ..

والحمد لله أولاً وأخيرًا . . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . .





الفهرس



فهرس آيات المجلد الأول

مطابع أخبار اليوم التجارية — هيلوبوليس

فهرس آيات المجلد الثانى

سورة البقرة	الصفحة	سورة آل عمران	اصفحة
الآية ٢٦٨	١١٦٢	سورة آل عمران	١٢٥٣
الآية ٢٦٩	١١٦٣	الآية ١	١٢٥٧
الآية ٢٧٠	١١٦٥	الآية ٢	١٢٥٩
الآية ٢٧١	١١٦٧	الآية ٣	١٢٦٢
الآية ٢٧٢	١١٧٣	الآية ٤	١٢٦٥
الآية ٢٧٣	١١٧٧	الآية ٥	١٢٦٩
الآية ٢٧٤	١١٨١	الآية ٦	١٢٦٩
الآية ٢٧٥	١١٨٤	الآية ٧	١٢٧٢
الآية ٢٧٦	١١٩٦	الآية ٨	١٢٨٥
الآية ٢٧٧	١١٩٩	الآية ٩	١٢٨٥
الآية ٢٧٨	١١٩٩	الآية ١٠	١٢٨٧
الآية ٢٧٩	١٢٠١	الآية ١١	١٢٩٠
الآية ٢٨٠	١٢٠٤	الآية ١٢	١٢٩٤
الآية ٢٨١	١٢١٠	الآية ١٣	١٢٩٧
الآية ٢٨٢	١٢١١		
الآية ٢٨٣	١٢٢٤		
الآية ٢٨٤	١٢٣٠		
الآية ٢٨٥	١٢٣٧		
الآية ٢٨٦	١٢٤٢		

فهرس آيات المجلد الثالث

سورة آل عمران		الصفحة	سورة آل عمران		الصفحة	سورة آل عمران		الصفحة
الآية	١٢٥	١٧٣٥	الآية	١٤٧	١٨٠٨	الآية	١٦٩	١٨٦٩
الآية	١٢٦	١٧٣٦	الآية	١٤٨	١٨١١	الآية	١٧٠	١٨٧٠
الآية	١٢٧	١٧٣٦	الآية	١٤٩	١٨١٢	الآية	١٧١	١٨٧٢
الآية	١٢٨	١٧٣٨	الآية	١٥٠	١٨١٢	الآية	١٧٢	١٨٧٢
الآية	١٢٩	١٧٣٩	الآية	١٥١	١٨١٣	الآية	١٧٣	١٨٧٤
الآية	١٣٠	١٧٤٧	الآية	١٥٢	١٨١٧	الآية	١٧٤	١٨٧٦
الآية	١٣١	١٧٥٠	الآية	١٥٣	١٨٢٠	الآية	١٧٥	١٨٨١
الآية	١٣٢	١٧٥٠	الآية	١٥٤	١٨٢٢	الآية	١٧٦	١٨٨٢
الآية	١٣٣	١٧٥١	الآية	١٥٥	١٨٣٠	الآية	١٧٧	١٨٨٩
الآية	١٣٤	١٧٥٣	الآية	١٥٦	١٨٣٢	الآية	١٧٨	١٨٩٣
الآية	١٣٥	١٧٥٧	الآية	١٥٧	١٨٣٢	الآية	١٧٩	١٨٩٥
الآية	١٣٦	١٧٦٠	الآية	١٥٨	١٨٣٤	الآية	١٨٠	١٩٠٣
الآية	١٣٧	١٧٦٣	الآية	١٥٩	١٨٣٥	الآية	١٨١	١٩٠٦
الآية	١٣٨	١٧٧٣	الآية	١٦٠	١٨٤٢	الآية	١٨٢	١٩١٢
الآية	١٣٩	١٧٧٤	الآية	١٦١	١٨٤٥	الآية	١٨٣	١٩١٥
الآية	١٤٠	١٧٧٨	الآية	١٦٢	١٨٤٧	الآية	١٨٤	١٩٢٠
الآية	١٤١	١٧٨٥	الآية	١٦٣	١٨٤٨	الآية	١٨٥	١٩٢٤
الآية	١٤٢	١٧٨٥	الآية	١٦٤	١٨٥٠	الآية	١٨٦	١٩٢٨
الآية	١٤٣	١٧٨٦	الآية	١٦٥	١٨٦٠	الآية	١٨٧	١٩٣٣
الآية	١٤٤	١٧٨٧	الآية	١٦٦	١٨٦٤	الآية	١٨٨	١٩٣٦
الآية	١٤٥	١٨٠٠	الآية	١٦٧	١٨٦٥	الآية	١٨٩	١٩٤٢
الآية	١٤٦	١٨٠٥	الآية	١٦٨	٨١٦٨			

فهرست ايات المجلد الرابع

فهرست آيات المجلد الخامس

فهرست آيات المجلد السادس

سورة الأنعام	الصفحة	سورة الأنعام	الصفحة	سورة الأنعام	الصفحة
الآية : ٤٨	٣٦٢٦	الآية : ٧١	٣٧١٩	الآية : ٩٤	٣٧٩٨
الآية : ٤٩	٣٦٣٢	الآية : ٧٢	٣٧٢٣	الآية : ٩٥	٣٨٠٠
الآية : ٥٠	٣٦٣٣	الآية : ٧٣	٣٧٢٥	الآية : ٩٦	٣٨٠٨
الآية : ٥١	٣٦٤٤	الآية : ٧٤	٣٧٣١	الآية : ٩٧	٣٨١٢
الآية : ٥٢	٣٦٤٦	الآية : ٧٥	٣٧٣٨	الآية : ٩٨	٣٨١٦
الآية : ٥٣	٣٦٥١	الآية : ٧٦	٣٧٤٨	الآية : ٩٩	٣٨٢٠
الآية : ٥٤	٣٦٥٤	الآية : ٧٧	٣٧٤٩	الآية : ١٠٠	٣٨٢٩
الآية : ٥٥	٣٦٥٩	الآية : ٧٨	٣٧٥٠	الآية : ١٠١	٣٨[illegible]
الآية : ٥٦	٣٦٦٢	الآية : ٧٩	٣٧٥٣	الآية : ١٠٢	٣٨٣٨
الآية : ٥٧	٣٦٦٤	الآية : ٨٠	٣٧٥٤	الآية : ١٠٣	٣٨٤١
الآية : ٥٨	٣٦٦٧	الآية : ٨١	٣٧٥٦	الآية : ١٠٤	٣٨٤٧
الآية : ٥٩	٣٦٦٨	الآية : ٨٢	٣٧٥٨	الآية : ١٠٥	٣٨٤٩
الآية : ٦٠	٣٦٧٢	الآية : ٨٣	٣٧٦٤	الآية : ١٠٦	٣٨٥١
الآية : ٦١	٣٦٧٥	الآية : ٨٤	٣٧٦٨	الآية : ١٠٧	٣٨٥٢
الآية : ٦٢	٣٦٨٥	الآية : ٨٥	٣٧٧٠	الآية : ١٠٨	٣٨٥٤
الآية : ٦٣	٣٦٨٨	الآية : ٨٦	٣٧٧٠	الآية : ١٠٩	٣٨٦٤
الآية : ٦٤	٣٦٩٦	الآية : ٨٧	٣٧٧٠		
الآية : ٦٥	٣٦٩٧	الآية : ٨٨	٣٧٧٢		
الآية : ٦٦	٣٧٠٠	الآية : ٨٩	٣٧٧٤		
الآية : ٦٧	٣٧٠٤	الآية : ٩٠	٣٧٧٥		
الآية : ٦٨	٣٧٠٨	الآية : ٩١	٣٧٧٨		
الآية : ٦٩	٣٧١١	الآية : ٩٢	٣٧٨٢		
الآية : ٧٠	٣٧١٢	الآية : ٩٣	٣٧٩٤		

فهرس آيات المجلد السابع

فهرس آيات المجلد الثامن

فهرس آيات المجلد التاسع

فهرس آيات المجلد العاشر

ســورة يونس	الصفحة
الآية : ٧٨	٦١٣٥
االآية : ٧٩	٦١٤٢
الآية : ٨٠	٦١٤٢
الآية : ٨١	٦١٤٥
الآية : ٨٢	٦١٤٦
الآية : ٨٣	٦١٤٧
الآية : ٨٤	٦١٥١
الآية : ٨٥	٦١٥٤
الآية : ٨٦	٦١٥٦
الآية : ٨٧	٦١٥٨
الآية : ٨٨	٦١٦٥
الآية : ٨٩	٦١٧٣
الآية : ٩٠	٦١٧٨
الآية : ٩١	٦١٨٢
الآية : ٩٢	٦١٨٣
الآية : ٩٣	٦١٨٩
الآية : ٩٤	٦١٩٧
الآية : ٩٥	٦٢٠١
الآية : ٩٦	٦٢٠٥
الآية : ٩٧	٦٢٠٧
الآية : ٩٨	٦٢١١

ســورة يونس	الصفحة
الآية : ٩٩	٦٢١٩
الآية : ١٠٠	٦٢٢٤
الآية : ١٠١	٦٢٣٤
الآية : ١٠٢	٦٢٤١
الآية : ١٠٣	٦٢٤٤
الآية : ١٠٤	٦٢٤٥
الآية : ١٠٥	٦٢٤٩
الآية : ١٠٦	٦٢٥١
الآية : ١٠٧	٦٢٥٢
الآية : ١٠٨	٦٢٥٦
لآية : ١٠٩	٦٢٦١

ســورة هــود	الصفحة
الآية : ١	٦٢٨٥
الآية : ٢	٦٢٩٨
الآية : ٣	٦٣٠٧
الآية : ٤	٦٣١٤
الآية : ٥	٦٣١٥
الآية : ٦	٦٣٢٠
الآية : ٧	٦٣٢٥
الآية : ٨	٦٣٣١
الآية : ٩	٦٣٤٥

ســورة هــود	الصفحة
الآية : ١٠	٦٣٥١
الآية : ١١	٦٣٥٥
الآية : ١٢	٦٣٦٣
الآية : ١٣	٦٣٧١
الآية : ١٤	٦٣٧٦
الآية : ١٥	٦٣٨١
الآية : ١٦	٦٣٨٨
الآية : ١٧	٦٣٨٩
الآية : ١٨	٦٣٩٨
الآية : ١٩	٦٤٠٣
الآية : ٢٠	٦٤٠٧
الآية : ٢١	٦٤١٢
الآية : ٢٢	٦٤١٤
الآية : ٢٣	٦٤١٨
الآية : ٢٤	٦٤٢١
الآية : ٢٥	٦٤٢٤
الآية : ٢٦	٦٤٢٦
الآية : ٢٧	٦٤٢٧

فهرس آيات المجلد الحادى عشر

سورة هود	الصفحة	سورة هود	الصفحة	سورة يوسف	الصفحة
الآية : ٩٤	٦٦٣٢	الآية : ١١٦	٦٧٣٥	الآية : ١٣	٦٨٧٧
الآية : ٩٥	٦٦٤٤	الآية : ١١٧	٦٧٤٩	الآية : ١٤	٦٨٧٨
الآية : ٩٦	٦٦٥٤	الآية : ١١٨	٦٧٥٥	الآية : ١٥	٦٨٧٩
الآية : ٩٧	٦٦٥٨	الآية : ١١٩	٦٧٦٣	الآية : ١٦	٦٨٨١
الآية : ٩٨	٦٦٥٩	الآية : ١٢٠	٦٧٧١	الآية : ١٧	٦٨٨٣
الآية : ٩٩	٦٦٦٥	الآية : ١٢١	٦٧٨٢	الآية : ١٨	٦٨٨٧
الآية : ١٠٠	٦٦٦٥	الآية : ١٢٢	٦٧٨٧	الآية : ١٩	٦٨٩٤
الآية : ١٠١	٦٦٦٧	الآية : ١٢٣	٦٧٨٩	الآية : ٢٠	٦٨٩٦
الآية : ١٠٢	٦٦٧٠	**سورة يوسف**		الآية : ٢١	٦٨٩٧
الآية : ١٠٣	٦٦٧٦			الآية : ٢٢	٦٩٠٠
الآية : ١٠٤	٦٦٧٨	الآية : ١	٦٨٠٧	الآية : ٢٣	٦٩٠٤
الآية : ١٠٥	٦٦٧٩	الآية : ٢	٦٨٢١	الآية : ٢٤	٦٩١٠
الآية : ١٠٦	٦٦٨٢	الآية : ٣	٦٨٢٩	الآية : ٢٥	٦٩٢٠
الآية : ١٠٧	٦٦٨٤	الآية : ٤	٦٨٤٢	الآية : ٢٦	٦٩٢٢
الآية : ١٠٨	٦٦٨٩	الآية : ٥	٦٨٤٧	الآية : ٢٧	٦٩٢٣
الآية : ١٠٩	٦٦٨٩	الآية : ٦	٦٨٥٥	الآية : ٢٨	٦٩٢٤
الآية : ١١٠	٦٦٩٣	الآية : ٧	٦٨٥٧	الآية : ٢٩	٦٩٢٥
الآية : ١١١	٦٦٩٨	الآية : ٨	٦٨٦٣	الآية : ٣٠	٦٩٢٧
الآية : ١١٢	٦٧٠٨	الآية : ٩	٦٨٧٠	الآية : ٣١	٦٩٣٢
الآية : ١١٣	٦٧١٤	الآية : ١٠	٦٨٧٢	الآية : ٣٢	٦٩٣٨
الآية : ١١٤	٦٧١٦	الآية : ١١	٦٨٧٤	الآية : ٣٣	٦٩٤٢
الآية : ١١٥	٦٧٢٨	الآية : ١٢	٦٨٧٦	الآية : ٣٤	٦٩٤٥

سورة يوسف	الصفحة	سورة يوسف	الصفحة	سورة يوسف	الصفحة
الآيـة : ٣٥	٦٩٤٥	الآيـة : ٥٧	٧٠٠٣	الآيـة : ٧٩	٧٠٣٥
الآيـة : ٣٦	٦٩٤٧	الآيـة : ٥٨	٧٠٠٥	الآيـة : ٨٠	٧٠٣٦
الآيـة : ٣٧	٦٩٥١	الآيـة : ٥٩	٧٠٠٦	الآيـة : ٨١	٧٠٤٠
الآيـة : ٣٨	٦٩٥٢	الآيـة : ٦٠	٧٠٠٩	الآيـة : ٨٢	٧٠٤٠
الآيـة : ٣٩	٦٩٥٤	الآيـة : ٦١	٧٠١٠	الآيـة : ٨٣	٧٠٤٤
الآيـة : ٤٠	٦٩٥٦	الآيـة : ٦٢	٧٠١٠	الآيـة : ٨٤	٧٠٤٦
الآيـة : ٤١	٦٩٦٠	الآيـة : ٦٣	٧٠١١	الآيـة : ٨٥	٧٠٤٩
الآيـة : ٤٢	٦٩٦٤	الآيـة : ٦٤	٧٠١٢	الآيـة : ٨٦	٧٠٥١
الآيـة : ٤٣	٦٩٦٧	الآيـة : ٦٥	٧٠١٢	الآيـة : ٨٧	٧٠٥٢
الآيـة : ٤٤	٦٩٦٩	الآيـة : ٦٦	٧٠١٣	الآيـة : ٨٨	٧٠٥٧
الآيـة : ٤٥	٦٩٧٠	الآيـة : ٦٧	٧٠١٤	الآيـة : ٨٩	٧٠٦٠
الآيـة : ٤٦	٦٩٧٢	الآيـة : ٦٨	٧٠١٨	الآيـة : ٩٠	٧٠٦١
الآيـة : ٤٧	٦٩٧٦	الآيـة : ٦٩	٧٠٢٠	الآيـة : ٩١	٧٠٦٣
الآيـة : ٤٨	٦٩٧٩	الآيـة : ٧٠	٧٠٢١	الآيـة : ٩٢	٧٠٦٤
الآيـة : ٤٩	٦٩٨٢	الآيـة : ٧١	٧٠٢٤	الآيـة : ٩٣	٧٠٦٦
الآيـة : ٥٠	٦٩٨٤	الآيـة : ٧٢	٧٠٢٤	الآيـة : ٩٤	٧٠٦٨
الآيـة : ٥١	٦٩٨٨	الآيـة : ٧٣	٧٠٢٥	الآيـة : ٩٥	٧٠٧٠
الآيـة : ٥٢	٦٩٩٠	الآيـة : ٧٤	٧٠٢٥	الآيـة : ٩٦	٧٠٧١
الآيـة : ٥٣	٦٩٩١	الآيـة : ٧٥	٧٠٢٦		
الآيـة : ٥٤	٦٩٩٥	الآيـة : ٧٦	٧٠٢٧		
الآيـة : ٥٥	٦٩٩٧	الآيـة : ٧٧	٧٠٣٠		
الآيـة : ٥٦	٧٠٠١	الآيـة : ٧٨	٧٠٣٣		

فهرس آيات المجلد الثاني عشر

سورة إبراهيم	الصفحة
الآية : ٣٢	٧٥٣٥
الآية : ٣٣	٧٥٤٥
الآية : ٣٤	٧٥٥٣
الآية : ٣٥	٧٥٦٢
الآية : ٣٦	٧٥٧٠
الآية : ٣٧	٧٥٧٤
الآية : ٣٨	٧٥٧٩
الآية : ٣٩	٧٥٨١
الآية : ٤٠	٧٥٨٤
الآية : ٤١	٧٥٨٥
الآية : ٤٢	٧٥٨٧
الآية : ٤٣	٧٥٩٦
الآية : ٤٤	٧٥٩٩
الآية : ٤٥	٧٦٠٣
الآية : ٤٦	٧٦٠٦
الآية : ٤٧	٧٦١٠
الآية : ٤٨	٧٦١١
الآية : ٤٩	٧٦١٤
الآية : ٥٠	٧٦١٥
الآية : ٥١	٧٦١٧
الآية : ٥٢	٧٦١٩
سورة الحجر	
الآية : ١	٧٦٢٩
الآية : ٢	٧٦٣٥
الآية : ٣	٧٦٣٨
الآية : ٤	٧٦٤٢
الآية : ٥	٧٦٤٤
الآية : ٦	٧٦٤٥
الآية : ٧	٧٦٤٦
الآية : ٨	٧٦٤٨

سورة الحجر	الصفحة
الآية : ٩	٧٦٥٠
الآية : ١٠	٧٦٥٤
الآية : ١١	٧٦٥٥
الآية : ١٢	٧٦٥٧
الآية : ١٣	٧٦٥٩
الآية : ١٤	٧٦٦٠
الآية : ١٥	٧٦٦٠
الآية : ١٦	٧٦٦١
الآية : ١٧	٧٦٦٦
الآية : ١٨	٧٦٦٧
الآية : ١٩	٧٦٦٨
الآية : ٢٠	٧٦٧٠
الآية : ٢١	٧٦٧٠
الآية : ٢٢	٧٦٧٥
الآية : ٢٣	٧٦٧٩
الآية : ٢٤	٧٦٨٢
الآية : ٢٥	٧٦٨٥
الآية : ٢٦	٧٦٨٦
الآية : ٢٧	٧٦٩١
الآية : ٢٨	٧٦٩٢
الآية : ٢٩	٧٦٩٤
الآية : ٣٠	٧٦٩٥
الآية : ٣١	٧٦٩٥
الآية : ٣٢	٧٦٩٨
الآية : ٣٣	٧٦٩٨
الآية : ٣٤	٧٦٩٩
الآية : ٣٥	٧٧٠٠
الآية : ٣٦	٧٧٠١
الآية : ٣٧	٧٧٠١
الآية : ٣٨	٧٧٠٢
الآية : ٣٩	٧٧٠٢

سورة الحجر	الصفحة
الآية : ٤٠	٧٧٠٤
الآية : ٤١	٧٧٠٥
الآية : ٤٢	٧٧٠٦
الآية : ٤٣	٧٧٠٧
الآية : ٤٤	٧٧٠٨
الآية : ٤٥	٧٧٠٩
الآية : ٤٦	٧٧١١
الآية : ٤٧	٧٧١١

فهرس آيات المجلد الثالث عشر

سورة الإسراء

فهرس آيات المجلد الرابع عشر

سورة الكهف	الصفحة	سورة الكهف	الصفحة	سورة الكهف	الصفحة
الآية : ١٠٨	٨٨٠٦	الآية : ٣٠	٨٨٨٩	الآية : ٦٥	٨٩٥٣
الآية : ١٠٩	٨٨٠٦	الآية : ٣١	٨٨٩١	الآية : ٦٦	٨٩٥٥
الآية : ١١٠	٨٨٠٧	الآية : ٣٢	٨٨٩٨	الآية : ٦٧	٨٩٥٧
الآية : ١١١	٨٨١٨	الآية : ٣٣	٨٩٠٣	الآية : ٦٨	٨٩٥٨
سورة الكهف		الآية : ٣٤	٨٩٠٥	الآية : ٦٩	٨٩٥٨
الآية : ١	٨٨٢٧	الآية : ٣٥	٨٩٠٦	الآية : ٧٠	٨٩٥٩
الآية : ٢	٨٨٣٣	الآية : ٣٦	٨٩٠٨	الآية : ٧١	٨٩٥٩
الآية : ٣	٨٨٣٥	الآية : ٣٧	٨٩٠٨	الآية : ٧٢	٨٩٦٠
الآية : ٤	٨٨٣٥	الآية : ٣٨	٨٩١٠	الآية : ٧٣	٨٩٦٠
الآية : ٥	٨٨٣٦	الآية : ٣٩	٨٩١١	الآية : ٧٤	٨٩٦١
الآية : ٦	٨٨٣٩	الآية : ٤٠	٨٩١٧	الآية : ٧٥	٨٩٦١
الآية : ٧	٨٨٤٠	الآية : ٤١	٨٩١٩	الآية : ٧٦	٨٩٦١
الآية : ٨	٨٨٤٢	الآية : ٤٢	٨٩١٩	الآية : ٧٧	٨٩٦٢
الآية : ٩	٨٨٤٢	الآية : ٤٣	٨٩٢٠	الآية : ٧٨	٨٩٦٥
الآية : ١٠	٨٨٤٧	الآية : ٤٤	٨٩٢١	الآية : ٧٩	٨٩٦٧
الآية : ١١	٨٨٤٨	الآية : ٤٥	٨٩٢٢	الآية : ٨٠	٨٩٦٩
الآية : ١٢	٨٨٥٠	الآية : ٤٦	٨٩٢٤	الآية : ٨١	٨٩٧١
الآية : ١٣	٨٨٥١	الآية : ٤٧	٨٩٢٨	الآية : ٨٢	٨٩٧٢
الآية : ١٤	٨٨٥٣	الآية : ٤٨	٨٩٣٠	الآية : ٨٣	٨٩٧٤
الآية : ١٥	٨٨٥٥	الآية : ٤٩	٨٩٣١	الآية : ٨٤	٨٩٨١
الآية : ١٦	٨٨٥٥	الآية : ٥٠	٨٩٣٣	الآية : ٨٥	٨٩٨١
الآية : ١٧	٨٨٥٧	الآية : ٥١	٨٩٣٥	الآية : ٨٦	٨٩٨٢
الآية : ١٨	٨٨٦٠	الآية : ٥٢	٨٩٣٧	الآية : ٨٧	٨٩٨٤
الآية : ١٩	٨٨٦١	الآية : ٥٣	٨٩٣٨	الآية : ٨٨	٨٩٨٤
الآية : ٢٠	٨٨٦٤	الآية : ٥٤	٨٩٣٩	الآية : ٨٩	٨٩٨٦
الآية : ٢١	٨٨٦٤	الآية : ٥٥	٨٩٤١	الآية : ٩٠	٨٩٨٦
الآية : ٢٢	٨٨٦٦	الآية : ٥٦	٨٩٤٢	الآية : ٩١	٨٩٨٧
الآية : ٢٣	٨٨٦٩	الآية : ٥٧	٨٩٤٣	الآية : ٩٢	٨٩٨٧
الآية : ٢٤	٨٨٦٩	الآية : ٥٨	٨٩٤٥	الآية : ٩٣	٨٩٨٨
الآية : ٢٥	٨٨٧٠	الآية : ٥٩	٨٩٤٥	الآية : ٩٤	٨٩٨٩
الآية : ٢٦	٨٨٧٢	الآية : ٦٠	٨٩٤٦	الآية : ٩٥	٨٩٨٩
الآية : ٢٧	٨٨٧٣	الآية : ٦١	٨٩٥٠	الآية : ٩٦	٨٩٩١
الآية : ٢٨	٨٨٧٤	الآية : ٦٢	٨٩٥١	الآية : ٩٧	٨٩٩٢
الآية : ٢٩	٨٨٧٨	الآية : ٦٣	٨٩٥١	الآية : ٩٨	٨٩٩٢
		الآية : ٦٤	٨٩٥٢		

فهرس آيات المجلد الخامس عشر

فهرس آيات المجلد الخامس عشر

فهرس آيات المجلد السادس عشر

سورة الأنبياء	الصفحة	سورة الحج	الصفحة	سورة الحج	الصفحة
الآية: ٩١	٩٦٣٤	الآية: ٢٠	٩٧٦١	الآية: ٦٣	٩٩٠٨
الآية: ٩٢	٩٦٣٥	الآية: ٢١	٩٧٦٢	الآية: ٦٤	٩٩١٢
الآية: ٩٣	٩٦٤١	الآية: ٢٢	٩٧٦٢	الآية: ٦٥	٩٩١٣
الآية: ٩٤	٩٦٤٣	الآية: ٢٣	٩٧٦٣	الآية: ٦٦	٩٩١٦
الآية: ٩٥	٩٦٤٤	الآية: ٢٤	٩٧٦٤	الآية: ٦٧	٩٩١٩
الآية: ٩٦	٩٦٤٥	الآية: ٢٥	٩٧٦٦	الآية: ٦٨	٩٩٢٢
الآية: ٩٧	٩٦٥٢	الآية: ٢٦	٩٧٧٥	الآية: ٦٩	٩٩٢٣
الآية: ٩٨	٩٦٥٦	الآية: ٢٧	٩٧٧٩	الآية: ٧٠	٩٩٢٤
الآية: ٩٩	٩٦٥٨	الآية: ٢٨	٩٧٨٥	الآية: ٧١	٩٩٢٦
الآية: ١٠٠	٩٦٥٨	الآية: ٢٩	٩٧٩٢	الآية: ٧٢	٩٩٢٨
الآية: ١٠١	٩٦٥٩	الآية: ٣٠	٩٧٩٦	الآية: ٧٣	٩٩٣٠
الآية: ١٠٢	٩٦٦٠	الآية: ٣١	٩٨٠١	الآية: ٧٤	٩٩٣٤
الآية: ١٠٣	٩٦٦٢	الآية: ٣٢	٩٨٠٧	الآية: ٧٥	٩٩٣٩
الآية: ١٠٤	٩٦٦٣	الآية: ٣٣	٩٨١١	الآية: ٧٦	٩٩٤٠
الآية: ١٠٥	٩٦٦٥	الآية: ٣٤	٩٨١٣	الآية: ٧٧	٩٩٤٢
الآية: ١٠٦	٩٦٧٤	الآية: ٣٥	٩٨٢٠	الآية: ٧٨	٩٩٤٨
الآية: ١٠٧	٩٦٧٤	الآية: ٣٦	٩٨٢٤	**سورة المؤمنون**	
الآية: ١٠٨	٩٦٧٦	الآية: ٣٧	٩٨٢٦	الآية: ١	٩٩٥٩
الآية: ١٠٩	٩٦٧٨	الآية: ٣٨	٩٨٣٠	الآية: ٢	٩٩٦١
الآية: ١١٠	٩٦٨٠	الآية: ٣٩	٩٨٣٥	الآية: ٣	٩٩٦٣
الآية: ١١١	٩٦٨٠	الآية: ٤٠	٩٨٣٦	الآية: ٤	٩٩٦٤
الآية: ١١٢	٩٦٨١	الآية: ٤١	٩٨٥٢	الآية: ٥	٩٩٦٥
سورة الحج		الآية: ٤٢	٩٨٥٣	الآية: ٦	٩٩٦٥
الآية: ١	٩٦٨٥	الآية: ٤٣	٩٨٥٤	الآية: ٧	٩٩٦٨
الآية: ٢	٩٦٨٩	الآية: ٤٤	٩٨٥٤	الآية: ٨	٩٩٦٩
الآية: ٣	٩٦٩٢	الآية: ٤٥	٩٨٥٦	الآية: ٩	٩٩٧٠
الآية: ٤	٩٧٠١	الآية: ٤٦	٩٨٥٩	الآية: ١٠	٩٩٧٠
الآية: ٥	٩٧٠٢	الآية: ٤٧	٩٨٦٤	الآية: ١١	٩٩٧٣
الآية: ٦	٩٧١٤	الآية: ٤٨	٩٨٦٧	الآية: ١٢	٩٩٧٦
الآية: ٧	٩٧١٦	الآية: ٤٩	٩٨٦٨	الآية: ١٣	٩٩٧٨
الآية: ٨	٩٧١٧	الآية: ٥٠	٩٨٦٨	الآية: ١٤	٩٩٧٩
الآية: ٩	٩٧١٨	الآية: ٥١	٩٨٦٩	الآية: ١٥	٩٩٨٣
الآية: ١٠	٩٧٢١	الآية: ٥٢	٩٨٧٢	الآية: ١٦	٩٩٨٥
الآية: ١١	٩٧٢٤	الآية: ٥٣	٩٨٨٠	الآية: ١٧	٩٩٨٦
الآية: ١٢	٩٧٣٠	الآية: ٥٤	٩٨٨٢	الآية: ١٨	٩٩٨٨
الآية: ١٣	٩٧٣١	الآية: ٥٥	٩٨٨٥	الآية: ١٩	٩٩٩١
الآية: ١٤	٩٧٣٣	الآية: ٥٦	٩٨٩٢	الآية: ٢٠	٩٩٩٢
الآية: ١٥	٩٧٣٦	الآية: ٥٧	٩٨٩٤	الآية: ٢١	٩٩٩٣
الآية: ١٦	٩٧٤٢	الآية: ٥٨	٩٨٩٦	الآية: ٢٢	٩٩٩٥
الآية: ١٧	٩٧٤٥	الآية: ٥٩	٩٨٩٩	الآية: ٢٣	٩٩٩٦
الآية: ١٨	٩٧٤٩	الآية: ٦٠	٩٩٠١	الآية: ٢٤	١٠٠٠٥
الآية: ١٩	٩٧٥٥	الآية: ٦١	٩٩٠٦	الآية: ٢٥	١٠٠١١
		الآية: ٦٢	٩٩٠٧		

فهرس آيات المجلد السابع عشر

فهرس آيات المجلد السابع عشر

رقم الآية	الصفحة
الآية: ١٢٤	١٠٦٢٠
الآية: ١٢٥	١٠٦٢٠
الآية: ١٢٦	١٠٦٢٠
الآية: ١٢٧	١٠٦٢١
الآية: ١٢٨	١٠٦٢١
الآية: ١٢٩	١٠٦٢٤
الآية: ١٣٠	١٠٦٢٤
الآية: ١٣١	١٠٦٢٧
الآية: ١٣٢	١٠٦٢٨
الآية: ١٣٣	١٠٦٢٨
الآية: ١٣٤	١٠٦٢٨
الآية: ١٣٥	١٠٦٢٩
الآية: ١٣٦	١٠٦٢٩
الآية: ١٣٧	١٠٦٤٠
الآية: ١٣٨	١٠٦٤١
الآية: ١٣٩	١٠٦٤١
الآية: ١٤٠	١٠٦٤٢
الآية: ١٤١	١٠٦٤٤
الآية: ١٤٢	١٠٦٤٦
الآية: ١٤٣	١٠٦٤٦
الآية: ١٤٤	١٠٦٤٦
الآية: ١٤٥	١٠٦٤٦
الآية: ١٤٦	١٠٦٤٧
الآية: ١٤٧	١٠٦٤٨
الآية: ١٤٨	١٠٦٤٨
الآية: ١٤٩	١٠٦٥٠
الآية: ١٥٠	١٠٦٥١
الآية: ١٥١	١٠٦٥١
الآية: ١٥٢	١٠٦٥٢
الآية: ١٥٣	١٠٦٥٥
الآية: ١٥٤	١٠٦٥٦
الآية: ١٥٥	١٠٦٥٧
الآية: ١٥٦	١٠٦٥٨
الآية: ١٥٧	١٠٦٥٨
الآية: ١٥٨	١٠٦٥٨
الآية: ١٥٩	١٠٦٥٩
الآية: ١٦٠	١٠٦٥٩
الآية: ١٦١	١٠٦٥٩
الآية: ١٦٢	١٠٦٦٠
الآية: ١٦٣	١٠٦٦٠
الآية: ١٦٤	١٠٦٦٠
الآية: ١٦٥	١٠٦٦٠
الآية: ١٦٦	١٠٦٦٠
الآية: ١٦٧	١٠٦٦١
الآية: ١٦٨	١٠٦٦٢
الآية: ١٦٩	١٠٦٦٢
الآية: ١٧٠	١٠٦٦٢
الآية: ١٧١	١٠٦٦٢
الآية: ١٧٢	١٠٦٦٢
الآية: ١٧٣	١٠٦٦٢
الآية: ١٧٤	١٠٦٦٣
الآية: ١٧٥	١٠٦٦٣
الآية: ١٧٦	١٠٦٦٤
الآية: ١٧٧	١٠٦٦٤
الآية: ١٧٨	١٠٦٦٤
الآية: ١٧٩	١٠٦٦٤
الآية: ١٨٠	١٠٦٦٤
الآية: ١٨١	١٠٦٦٦
الآية: ١٨٢	١٠٦٦٦
الآية: ١٨٣	١٠٦٦٨
الآية: ١٨٤	١٠٦٧٥
الآية: ١٨٥	١٠٦٧٧
الآية: ١٨٦	١٠٦٧٧
الآية: ١٨٧	١٠٦٧٨
الآية: ١٨٨	١٠٦٧٩
الآية: ١٨٩	١٠٦٧٩
الآية: ١٩٠	١٠٦٨٠
الآية: ١٩١	١٠٦٨٢
الآية: ١٩٢	١٠٦٨٢
الآية: ١٩٣	١٠٦٨٤
الآية: ١٩٤	١٠٦٨٩
الآية: ١٩٥	١٠٦٩٢
الآية: ١٩٦	١٠٦٩٣
الآية: ١٩٧	١٠٦٩٥
الآية: ١٩٨	١٠٦٩٦
الآية: ١٩٩	١٠٦٩٦
الآية: ٢٠٠	١٠٦٩٨
الآية: ٢٠١	١٠٦٩٨
الآية: ٢٠٢	١٠٦٩٨
الآية: ٢٠٣	١٠٦٩٩
الآية: ٢٠٤	١٠٦٩٩
الآية: ٢٠٥	١٠٧٠٠
الآية: ٢٠٦	١٠٧٠٠
الآية: ٢٠٧	١٠٧٠٠
الآية: ٢٠٨	١٠٧٠٠
الآية: ٢٠٩	١٠٧٠٠
الآية: ٢١٠	١٠٧٠١
الآية: ٢١١	١٠٧٠١
الآية: ٢١٢	١٠٧٠٣
الآية: ٢١٣	١٠٧٠٤
الآية: ٢١٤	١٠٧٠٤
الآية: ٢١٥	١٠٧٠٦
الآية: ٢١٦	١٠٧٠٧
الآية: ٢١٧	١٠٧٠٨
الآية: ٢١٨	١٠٧٠٨
الآية: ٢١٩	١٠٧٠٨
الآية: ٢٢٠	١٠٧١١
الآية: ٢٢١	١٠٧١١
الآية: ٢٢٢	١٠٧١١
الآية: ٢٢٣	١٠٧١١
الآية: ٢٢٤	١٠٧١٢
الآية: ٢٢٥	١٠٧١٢
الآية: ٢٢٦	١٠٧١٢
الآية: ٢٢٧	١٠٧١٧
سورة النمل	
الآية: ١	١٠٧٢٧
الآية: ٢	١٠٧٢٩
الآية: ٣	١٠٧٣٠
الآية: ٤	١٠٧٣٥
الآية: ٥	١٠٧٣٧
الآية: ٦	١٠٧٣٧
الآية: ٧	١٠٧٣٧
الآية: ٨	١٠٧٤١
الآية: ٩	١٠٧٤٤
الآية: ١٠	١٠٧٤٤
الآية: ١١	١٠٧٤٧
الآية: ١٢	١٠٧٤٨
الآية: ١٣	١٠٧٥٠
الآية: ١٤	١٠٧٥١
الآية: ١٥	١٠٧٥١
الآية: ١٦	١٠٧٥٢
الآية: ١٧	١٠٧٥٦
الآية: ١٨	١٠٧٥٨
الآية: ١٩	١٠٧٦١
الآية: ٢٠	١٠٧٦٤
الآية: ٢١	١٠٧٦٦
الآية: ٢٢	١٠٧٦٨
الآية: ٢٣	١٠٧٧١
الآية: ٢٤	١٠٧٧٢
الآية: ٢٥	١٠٧٧٢
الآية: ٢٦	١٠٧٧٤
الآية: ٢٧	١٠٧٧٤
الآية: ٢٨	١٠٧٧٥
الآية: ٢٩	١٠٧٧٦
الآية: ٣٠	١٠٧٧٧
الآية: ٣١	١٠٧٧٧
الآية: ٣٢	١٠٧٧٧
الآية: ٣٣	١٠٧٧٨
الآية: ٣٤	١٠٧٧٩
الآية: ٣٥	١٠٧٨٠
الآية: ٣٦	١٠٧٨١
الآية: ٣٧	١٠٧٨١
الآية: ٣٨	١٠٧٨٢
الآية: ٣٩	١٠٧٨٣
الآية: ٤٠	١٠٧٨٤
الآية: ٤١	١٠٧٨٩
الآية: ٤٢	١٠٧٨٩
الآية: ٤٣	١٠٧٩١
الآية: ٤٤	١٠٧٩١
الآية: ٤٥	١٠٧٩٢
الآية: ٤٦	١٠٧٩٨
الآية: ٤٧	١٠٧٩٩
الآية: ٤٨	١٠٨٠٠
الآية: ٤٩	١٠٨٠١
الآية: ٥٠	١٠٨٠٢
الآية: ٥١	١٠٨٠٣
الآية: ٥٢	١٠٨٠٤
الآية: ٥٣	١٠٨٠٤
الآية: ٥٤	١٠٨٠٤
الآية: ٥٥	١٠٨٠٥
الآية: ٥٦	١٠٨٠٦
الآية: ٥٧	١٠٨٠٦
الآية: ٥٨	١٠٨٠٧
الآية: ٥٩	١٠٨٠٧
الآية: ٦٠	١٠٨١١
الآية: ٦١	١٠٨١٥
الآية: ٦٢	١٠٨٢١
الآية: ٦٣	١٠٨٢٥
الآية: ٦٤	١٠٨٢٧
الآية: ٦٥	١٠٨٣١
الآية: ٦٦	١٠٨٣٦
الآية: ٦٧	١٠٨٣٧
الآية: ٦٨	١٠٨٣٧
الآية: ٦٩	١٠٨٣٨
الآية: ٧٠	١٠٨٣٨
الآية: ٧١	١٠٨٣٩
الآية: ٧٢	١٠٨٤٠
الآية: ٧٣	١٠٨٤٠
الآية: ٧٤	١٠٨٤١
الآية: ٧٥	١٠٨٤١
الآية: ٧٦	١٠٨٤٥
الآية: ٧٧	١٠٨٤٦
الآية: ٧٨	١٠٨٤٧
الآية: ٧٩	١٠٨٤٨
الآية: ٨٠	١٠٨٤٨
الآية: ٨١	١٠٨٤٩
الآية: ٨٢	١٠٨٥٠
الآية: ٨٣	١٠٨٥٢
الآية: ٨٤	١٠٨٥٣
الآية: ٨٥	١٠٨٥٣
الآية: ٨٦	١٠٨٥٣
الآية: ٨٧	١٠٨٥٦
الآية: ٨٨	١٠٨٥٧
الآية: ٨٩	١٠٨٦٠
الآية: ٩٠	١٠٨٦١
الآية: ٩١	١٠٨٦٢
الآية: ٩٢	١٠٨٦٥
الآية: ٩٣	١٠٨٦٦
سورة القصص	
الآية: ١	١٠٨٦٩
الآية: ٢	١٠٨٦٩
الآية: ٣	١٠٨٧٠
الآية: ٤	١٠٨٧١
الآية: ٥	١٠٨٧٥
الآية: ٦	١٠٨٧٧
الآية: ٧	١٠٨٧٨
الآية: ٨	١٠٨٨٦
الآية: ٩	١٠٨٨٨
الآية: ١٠	١٠٨٩٠
الآية: ١١	١٠٨٩٣
الآية: ١٢	١٠٨٩٤
الآية: ١٣	١٠٨٩٥
الآية: ١٤	١٠٨٩٦
الآية: ١٥	١٠٨٩٦
الآية: ١٦	١٠٨٩٨
الآية: ١٧	١٠٨٩٩
الآية: ١٨	١٠٩٠٠
الآية: ١٩	١٠٩٠١
الآية: ٢٠	١٠٩٠٢
الآية: ٢١	١٠٩٠٢
الآية: ٢٢	١٠٩٠٢
الآية: ٢٣	١٠٩٠٣
الآية: ٢٤	١٠٩٠٤
الآية: ٢٥	١٠٩٠٧
الآية: ٢٦	١٠٩٠٨
الآية: ٢٧	١٠٩٠٩
الآية: ٢٨	١٠٩١١
الآية: ٢٩	١٠٩١٢

فهرس آيات المجلد الثامن عشر

فهرس آيات المجلد الثامن عشر

فهرس آيات المجلد التاسع عشر

فهرس آيات المجلد التاسع عشر

فهرس آيات المجلد العشرين

فهرس آيات المجلد العشـــرين

رقم الآية	الصفحة	رقم الآية	الصفحة	رقم الآية	الصفحة	رقم الآية	الصفحة
الآية: ٥٦	١٢٦٨٠	الآية: ١٢	١٢٧٥٢	الآية: ٥٥	١٢٧٧٤	الآية: ٩٧	١٢٧٩٥
الآية: ٥٧	١٢٦٨٠	الآية: ١٤	١٢٧٥٢	الآية: ٥٦	١٢٧٧٤	الآية: ٩٨	١٢٧٩٥
الآية: ٥٨	١٢٦٨٠	الآية: ١٥	١٢٧٥٥	الآية: ٥٧	١٢٧٧٤	الآية: ٩٩	١٢٧٩٦
الآية: ٥٩	١٢٦٨٤	الآية: ١٦	١٢٧٥٦	الآية: ٥٨	١٢٧٧٥	الآية: ١٠٠	١٢٧٩٦
الآية: ٦٠	١٢٦٨٦	الآية: ١٧	١٢٧٥٦	الآية: ٥٩	١٢٧٧٥	الآية: ١٠١	١٢٧٩٦
الآية: ٦١	١٢٦٨٦	الآية: ١٨	١٢٧٥٦	الآية: ٦٠	١٢٧٧٥	الآية: ١٠٢	١٢٧٩٨
الآية: ٦٢	١٢٦٩٠	الآية: ١٩	١٢٧٥٨	الآية: ٦١	١٢٧٧٥	الآية: ١٠٣	١٢٧٩٨
الآية: ٦٣	١٢٦٩٢	الآية: ٢٠	١٢٧٥٨	الآية: ٦٢	١٢٧٧٦	الآية: ١٠٤	١٢٧٩٨
الآية: ٦٤	١٢٦٩٢	الآية: ٢١	١٢٧٥٨	الآية: ٦٣	١٢٧٧٦	الآية: ١٠٥	١٢٧٩٨
الآية: ٦٥	١٢٦٩٢	الآية: ٢٢	١٢٧٦٠	الآية: ٦٤	١٢٧٧٦	الآية: ١٠٦	١٢٧٩٨
الآية: ٦٦	١٢٦٩٦	الآية: ٢٣	١٢٧٦٠	الآية: ٦٥	١٢٧٧٦	الآية: ١٠٧	١٢٧٩٨
الآية: ٦٧	١٢٦٩٦	الآية: ٢٤	١٢٧٦٠	الآية: ٦٦	١٢٧٨٠	الآية: ١٠٨	١٢٨٠٢
الآية: ٦٨	١٢٦٩٧	الآية: ٢٥	١٢٧٦١	الآية: ٦٧	١٢٧٨٠	الآية: ١٠٩	١٢٨٠٢
الآية: ٦٩	١٢٦٩٩	الآية: ٢٦	١٢٧٦١	الآية: ٦٨	١٢٧٨٠	الآية: ١١٠	١٢٨٠٢
الآية: ٧٠	١٢٦٩٩	الآية: ٢٧	١٢٧٦٢	الآية: ٦٩	١٢٧٨١	الآية: ١١١	١٢٨٠٢
الآية: ٧١	١٢٧٠٨	الآية: ٢٨	١٢٧٦٢	الآية: ٧٠	١٢٧٨١	الآية: ١١٢	١٢٨٠٣
الآية: ٧٢	١٢٧٠٨	الآية: ٢٩	١٢٧٦٢	الآية: ٧١	١٢٧٨٢	الآية: ١١٣	١٢٨٠٢
الآية: ٧٣	١٢٧٠٨	الآية: ٢٠	١٢٧٦٢	الآية: ٧٢	١٢٧٨٢	الآية: ١١٤	١٢٨٠٦
الآية: ٧٤	١٢٧١٠	الآية: ٣١	١٢٧٦٤	الآية: ٧٣	١٢٧٨٢	الآية: ١١٥	١٢٨٠٦
الآية: ٧٥	١٢٧١٠	الآية: ٣٢	١٢٧٦٤	الآية: ٧٤	١٢٧٨٢	الآية: ١١٦	١٢٨٠٦
الآية: ٧٦	١٢٧١٢	الآية: ٣٣	١٢٧٦٤	الآية: ٧٥	١٢٧٨٤	الآية: ١١٧	١٢٨٠٦
الآية: ٧٧	١٢٧١٤	الآية: ٣٤	١٢٧٦٤	الآية: ٧٦	١٢٧٨٤	الآية: ١١٨	١٢٨٠٦
الآية: ٧٨	١٢٧١٩	الآية: ٣٥	١٢٧٦٥	الآية: ٧٧	١٢٧٨٤	الآية: ١١٩	١٢٨٠٦
الآية: ٧٩	١٢٧١٩	الآية: ٣٦	١٢٧٦٥	الآية: ٧٨	١٢٧٨٤	الآية: ١٢٠	١٢٨٠٦
الآية: ٨٠	١٢٧٢٢	الآية: ٣٧	١٢٧٦٥	الآية: ٧٩	١٢٧٨٤	الآية: ١٢١	١٢٨٠٦
الآية: ٨١	١٢٧٢٢	الآية: ٣٨	١٢٧٦٧	الآية: ٨٠	١٢٧٨٤	الآية: ١٢٢	١٢٨٠٦
الآية: ٨٢	١٢٧٢٣	الآية: ٣٩	١٢٧٦٧	الآية: ٨١	١٢٧٨٤	الآية: ١٢٣	١٢٨٠٩
الآية: ٨٣	١٢٧٢٦	الآية: ٤٠	١٢٧٦٨	الآية: ٨٢	١٢٧٨٤	الآية: ١٢٤	١٢٨٠٩
سورة الصافات		الآية: ٤١	١٢٧٦٨	الآية: ٨٣	١٢٧٨٧	الآية: ١٢٥	١٢٨٠٩
		الآية: ٤٢	١٢٧٦٨	الآية: ٨٤	١٢٧٨٧	الآية: ١٢٦	١٢٨٠٩
الآية: ١	١٢٧٣٣	الآية: ٤٣	١٢٧٦٨	الآية: ٨٥	١٢٧٨٧	الآية: ١٢٧	١٢٨١١
الآية: ٢	١٢٧٣٣	الآية: ٤٤	١٢٧٦٨	الآية: ٨٦	١٢٧٨٧	الآية: ١٢٨	١٢٨١١
الآية: ٣	١٢٧٣٣	الآية: ٤٥	١٢٧٦٨	الآية: ٨٧	١٢٧٨٧	الآية: ١٢٩	١٢٨١١
الآية: ٤	١٢٧٣٣	الآية: ٤٦	١٢٧٦٨	الآية: ٨٨	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٠	١٢٨١١
الآية: ٥	١٢٧٤١	الآية: ٤٧	١٢٧٦٨	الآية: ٨٩	١٢٧٩٢	الآية: ١٣١	١٢٨١١
الآية: ٦	١٢٧٤٢	الآية: ٤٨	١٢٧٧٢	الآية: ٩٠	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٢	١٢٨١١
الآية: ٧	١٢٧٤٣	الآية: ٤٩	١٢٧٧٢	الآية: ٩١	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٣	١٢٨٢٢
الآية: ٨	١٢٧٤٣	الآية: ٥٠	١٢٧٧٢	الآية: ٩٢	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٤	١٢٨٢٢
الآية: ٩	١٢٧٤٢	الآية: ٥١	١٢٧٧٣	الآية: ٩٣	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٥	١٢٨٢٢
الآية: ١٠	١٢٧٤٦	الآية: ٥٢	١٢٧٧٣	الآية: ٩٤	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٦	١٢٨٢٢
الآية: ١١	١٢٧٤٧	الآية: ٥٣	١٢٧٧٣	الآية: ٩٥	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٧	١٢٨٢٢
الآية: ١٢	١٢٧٥٢	الآية: ٥٤	١٢٧٧٤	الآية: ٩٦	١٢٧٩٢	الآية: ١٣٨	١٢٨٢٢

فهرس آيات المجلد الحادى والعشرون

فهرس آيات المجلد الحادى والعشرون

سورة ص	الصفحة	سورة ص	الصفحة	سورة ص	الصفحة
الآية : ٣١	١٢٩٢٨	الآية : ٥٦	١٢٩٨٤	الآية : ٨١	١٣٠٠٤
الآية : ٣٢	١٢٩٢٨	الآية : ٥٧	١٢٩٨٤	الآية : ٨٢	١٣٠٠٤
الآية : ٣٣	١٢٩٢٨	الآية : ٥٨	١٢٩٨٤	الآية : ٨٣	١٣٠٠٤
الآية : ٣٤	١٢٩٣٣	الآية : ٥٩	١٢٩٨٦	الآية : ٨٤	١٣٠٠٥
الآية : ٣٥	١٢٩٣٨	الآية : ٦٠	١٢٩٨٦	الآية : ٨٥	١٣٠٠٥
الآية : ٣٦	١٢٩٤٥	الآية : ٦١	١٢٩٨٦	الآية : ٨٦	١٣٠٠٦
الآية : ٣٧	١٢٩٤٥	الآية : ٦٢	١٢٩٨٩	الآية : ٨٧	١٣٠٠٦
الآية : ٣٨	١٢٩٤٥	الآية : ٦٣	١٢٩٨٩	الآية : ٨٨	١٣٠٠٦
الآية : ٣٩	١٢٩٤٥	الآية : ٦٤	١٢٩٨٩	**سورة الزمر**	
الآية : ٤٠	١٢٩٥١	الآية : ٦٥	١٢٩٩٣	الآية : ١	١٣٠١٣
الآية : ٤١	١٢٩٥٢	الآية : ٦٦	١٢٩٩٣	الآية : ٢	١٣٠٢٠
الآية : ٤٢	١٢٩٥٣	الآية : ٦٧	١٢٩٩٤	الآية : ٣	١٣٠٢٠
الآية : ٤٣	١٢٩٥٤	الآية : ٦٨	١٢٩٩٤	الآية : ٤	١٣٠٢٧
الآية : ٤٤	١٢٩٥٥	الآية : ٦٩	١٢٩٩٤	الآية : ٥	١٣٠٣٠
الآية : ٤٥	١٢٩٥٧	الآية : ٧٠	١٢٩٩٤	الآية : ٦	١٣٠٣٤
الآية : ٤٦	١٢٩٥٧	الآية : ٧١	١٢٩٩٧	الآية : ٧	١٣٠٤٤
الآية : ٤٧	١٢٩٥٧	الآية : ٧٢	١٢٩٩٧	الآية : ٨	١٣٠٥٠
الآية : ٤٨	١٢٩٦٤	الآية : ٧٣	١٢٩٩٧	الآية : ٩	١٣٠٥٣
الآية : ٤٩	١٢٩٦٨	الآية : ٧٤	١٢٩٩٧	الآية : ١٠	١٣٠٥٨
الآية : ٥٠	١٢٩٦٨	الآية : ٧٥	١٢٩٩٨	الآية : ١١	١٣٠٦٢
الآية : ٥١	١٢٩٦٨	الآية : ٧٦	١٣٠٠٣	الآية : ١٢	١٣٠٦٣
الآية : ٥٢	١٢٩٨٠	الآية : ٧٧	١٣٠٠٣	الآية : ١٣	١٣٠٦٦
الآية : ٥٣	١٢٩٨٠	الآية : ٧٨	١٣٠٠٣	الآية : ١٤	١٣٠٦٦
الآية : ٥٤	١٢٩٨٠	الآية : ٧٩	١٣٠٠٤	الآية : ١٥	١٣٠٦٦
الآية : ٥٥	١٢٩٨٤	الآية : ٨٠	١٣٠٠٤	الآية : ١٦	١٣٠٦٨

فهرس آيات المجلد الحادي والعشرون

فهرس آيات المجلد الحادى والعشرون

فهرس آيات المجلد الثانى والعشرين

سورة الشورى	الصفحة	سورة الشورى	الصفحة	سورة الزخرف	الصفحة
الآية : ٢٤	١٣٧٦٨	الآية : ٥٠	١٣٨٢١	الآية : ٢٢	١٣٨٧٧
الآية : ٢٥	١٣٧٧١	الآية : ٥١	١٣٨٢٥	الآية : ٢٣	١٣٨٧٨
الآية : ٢٦	١٣٧٧٥	الآية : ٥٢	١٣٨٢٨	الآية : ٢٤	١٣٨٧٩
الآية : ٢٧	١٣٧٧٥	الآية : ٥٣	١٣٨٣٨	الآية : ٢٥	١٣٨٧٩
الآية : ٢٨	١٣٧٧٨	**سورة الزخرف**		الآية : ٢٦	١٣٨٧٩
الآية : ٢٩	١٣٧٧٩	الآية : ١	١٣٨٤٣	الآية : ٢٧	١٣٨٨٢
الآية : ٣٠	١٣٧٨٠	الآية : ٢	١٣٨٤٤	الآية : ٢٨	١٣٨٨٣
الآية : ٣١	١٣٧٩٠	الآية : ٣	١٣٨٤٤	الآية : ٢٩	١٣٨٨٤
الآية : ٣٢	١٣٧٩٢	الآية : ٤	١٣٨٤٧	الآية : ٣٠	١٣٨٨٤
الآية : ٣٣	١٣٧٩٤	الآية : ٥	١٣٨٤٩	الآية : ٣١	١٣٨٨٧
الآية : ٣٤	١٣٧٩٦	الآية : ٦	١٣٨٥١	الآية : ٣٢	١٣٨٨٧
الآية : ٣٥	١٣٧٩٧	الآية : ٧	١٣٨٥١	الآية : ٣٣	١٣٨٨٩
الآية : ٣٦	١٣٧٩٧	الآية : ٨	١٣٨٥١	الآية : ٣٤	١٣٨٨٩
الآية : ٣٧	١٣٧٩٩	الآية : ٩	١٣٨٥٢	الآية : ٣٥	١٣٨٨٩
الآية : ٣٨	١٣٨٠١	الآية : ١٠	١٣٨٥٢	الآية : ٣٦	١٣٨٩٠
الآية : ٣٩	١٣٨٠٣	الآية : ١١	١٣٨٥٤	الآية : ٣٧	١٣٨٩٢
الآية : ٤٠	١٣٨٠٤	الآية : ١٢	١٣٨٥٦	الآية : ٣٨	١٣٨٩٣
الآية : ٤١	١٣٨٠٦	الآية : ١٣	١٣٨٥٩	الآية : ٣٩	١٣٨٩٣
الآية : ٤٢	١٣٨٠٦	الآية : ١٤	١٣٨٥٩	الآية : ٤٠	١٣٨٩٤
الآية : ٤٣	١٣٨٠٧	الآية : ١٥	١٣٨٦١	الآية : ٤١	١٣٨٩٥
الآية : ٤٤	١٣٨١١	الآية : ١٦	١٣٨٦٣	الآية : ٤٢	١٣٨٩٥
الآية : ٤٥	١٣٨١٣	الآية : ١٧	١٣٨٦٤	الآية : ٤٣	١٣٨٩٦
الآية : ٤٦	١٣٨١٣	الآية : ١٨	١٣٨٦٤	الآية : ٤٤	١٣٨٩٦
الآية : ٤٧	١٣٨١٥	الآية : ١٩	١٣٨٧٥	الآية : ٤٥	١٣٨٩٧
الآية : ٤٨	١٣٨١٧	الآية : ٢٠	١٣٨٧٦	الآية : ٤٦	١٣٩٠٠
الآية : ٤٩	١٣٨٢١	الآية : ٢١	١٣٨٧٧	الآية : ٤٧	١٣٩٠٨

سورة الدخان	الصفحة	سورة الجاثية	الصفحة	سورة الجاثية	الصفحة
الآيــة: ٣٦	١٤٠١٢	الآيــة: ١	١٤٠٤١		
الآيــة: ٣٧	١٤٠١٤	الآيــة: ٢	١٤٠٤١		
الآيــة: ٣٨	١٤٠١٦	الآيــة: ٣	١٤٠٤٤		
الآيــة: ٣٩	١٤٠١٦	الآيــة: ٤	١٤٠٥٠		
الآيــة: ٤٠	١٤٠١٨	الآيــة: ٥	١٤٠٥٥		
الآيــة: ٤١	١٤٠١٨	الآيــة: ٦	١٤٠٦٣		
الآيــة: ٤٢	١٤٠١٨	الآيــة: ٧	١٤٠٦٦		
الآيــة: ٤٣	١٤٠٢٠	الآيــة: ٨	١٤٠٦٦		
الآيــة: ٤٤	١٤٠٢٠	الآيــة: ٩	١٤٠٦٩		
الآيــة: ٤٥	١٤٠٢٠	الآيــة: ١٠	١٤٠٧١		
الآيــة: ٤٦	١٤٠٢٠	الآيــة: ١١	١٤٠٧٤		
الآيــة: ٤٧	١٤٠٢٢	الآيــة: ١٢	١٤٠٧٦		
الآيــة: ٤٨	١٤٠٢٢	الآيــة: ١٣	١٤٠٨١		
الآيــة: ٤٩	١٤٠٢٢	الآيــة: ١٤	١٤٠٨٨		
الآيــة: ٥٠	١٤٠٢٣	الآيــة: ١٥	١٤٠٩٧		
الآيــة: ٥١	١٤٠٢٣	الآيــة: ١٦	١٤٠٩٨		
الآيــة: ٥٢	١٤٠٢٣	الآيــة: ١٧	١٤١٠٠		
الآيــة: ٥٣	١٤٠٢٣	الآيــة: ١٨	١٤١٠٥		
الآيــة: ٥٤	١٤٠٢٣	الآيــة: ١٩	١٤١٠٧		
الآيــة: ٥٥	١٤٠٣١	الآيــة: ٢٠	١٤١٠٨		
الآيــة: ٥٦	١٤٠٣١	الآيــة: ٢١	١٤١٠٩		
الآيــة: ٥٧	١٤٠٣٣	الآيــة: ٢٢	١٤١١٠		
الآيــة: ٥٨	١٤٠٣٥	الآيــة: ٢٣	١٤١١١		
الآيــة: ٥٩	١٤٠٣٦				

فهرس آيات المجلد الثالث والعشرين

سورة الفتح	الصفحة
الآيـة : ٣	١٤٣٧٤
الآيـة : ٤	١٤٣٧٨
الآيـة : ٥	١٤٣٨١
الآيـة : ٦	١٤٣٨٤
الآيـة : ٧	١٤٣٨٦
الآيـة : ٨	١٤٣٨٧
الآيـة : ٩	١٤٣٨٧
الآيـة : ١٠	١٤٣٨٩
الآيـة : ١١	١٤٣٩٣
الآيـة : ١٢	١٤٣٩٣
الآيـة : ١٣	١٤٣٩٦
الآيـة : ١٤	١٤٣٩٦
الآيـة : ١٥	١٤٣٩٩
الآيـة : ١٦	١٤٤٠٠
الآيـة : ١٧	١٤٤٠١
الآيـة : ١٨	١٤٤٠٢
الآيـة : ١٩	١٤٤٠٢
الآيـة : ٢٠	١٤٤٠٣
الآيـة : ٢١	١٤٤٠٣
الآيـة : ٢٢	١٤٤٠٤
الآيـة : ٢٣	١٤٤٠٤
الآيـة : ٢٤	١٤٤٠٤
الآيـة : ٢٥	١٤٤٠٥
الآيـة : ٢٦	١٤٤٠٦
الآيـة : ٢٧	١٤٤٠٧
الآيـة : ٢٨	١٤٤١٣
الآيـة : ٢٩	١٤٤١٦

سورة الحجرات

سورة الحجرات	الصفحة
الآيـة : ١	١٤٤٣٥
الآيـة : ٢	١٤٤٣٨
الآيـة : ٣	١٤٤٤٠
الآيـة : ٤	١٤٤٤١
الآيـة : ٥	١٤٤٤١
الآيـة : ٦	١٤٤٤٣
الآيـة : ٧	١٤٤٤٨
الآيـة : ٨	١٤٤٥١
الآيـة : ٩	١٤٤٥٣
الآيـة : ١٠	١٤٤٥٥
الآيـة : ١١	١٤٤٥٧
الآيـة : ١٢	١٤٤٦٦
الآيـة : ١٣	١٤٤٧٣
الآيـة : ١٤	١٤٤٨٠
الآيـة : ١٥	١٤٤٨٣
الآيـة : ١٦	١٤٤٨٤
الآيـة : ١٧	١٤٤٨٥
الآيـة : ١٨	١٤٤٨٦

سورة ق

سورة ق	الصفحة
الآيـة : ١	١٤٤٩٣
الآيـة : ٢	١٤٤٩٨
الآيـة : ٣	١٤٥٠١
الآيـة : ٤	١٤٥٠٣
الآيـة : ٥	١٤٥٠٥
الآيـة : ٦	١٤٥٠٨
الآيـة : ٧	١٤٥٠٨
الآيـة : ٨	١٤٥٠٨
الآيـة : ٩	١٤٥١١
الآيـة : ١٠	١٤٥١١
الآيـة : ١١	١٤٥١٤
الآيـة : ١٢	١٤٥١٥
الآيـة : ١٣	١٤٥١٥
الآيـة : ١٤	١٤٥١٥
الآيـة : ١٥	١٤٥١٧
الآيـة : ١٦	١٤٥١٨
الآيـة : ١٧	١٤٥٢٢
الآيـة : ١٨	١٤٥٢٢
الآيـة : ١٩	١٤٥٢٣
الآيـة : ٢٠	١٤٥٢٥
الآيـة : ٢١	١٤٥٢٥
الآيـة : ٢٢	١٤٥٢٥
الآيـة : ٢٣	١٤٥٢٦
الآيـة : ٢٤	١٤٥٢٦
الآيـة : ٢٥	١٤٥٢٦
الآيـة : ٢٦	١٤٥٢٦
الآيـة : ٢٧	١٤٥٢٩
الآيـة : ٢٨	١٤٥٣٠
الآيـة : ٢٩	١٤٥٣٠
الآيـة : ٣٠	١٤٥٣١
الآيـة : ٣١	١٤٥٣٢
الآيـة : ٣٢	١٤٥٣٢
الآيـة : ٣٣	١٤٥٣٢
الآيـة : ٣٤	١٤٥٣٦
الآيـة : ٣٥	١٤٥٣٦
الآيـة : ٣٦	١٤٥٣٨
الآيـة : ٣٧	١٤٥٤٠
الآيـة : ٣٨	١٤٥٤٢
الآيـة : ٣٩	١٤٥٤٤
الآيـة : ٤٠	١٤٥٤٤
الآيـة : ٤١	١٤٥٤٨
الآيـة : ٤٢	١٤٥٤٨
الآيـة : ٤٣	١٤٥٤٩
الآيـة : ٤٤	١٤٥٤٩
الآيـة : ٤٥	١٤٥٥٠

سورة الذاريات	الصفحة	سورة الذاريات	الصفحة	سورة الطور	الصفحة
الآية : ١	١٤٥٥٥	الآية : ٣٣	١٤٥٨٨	الآية : ٣	١٤٦٢٧
الآية : ٢	١٤٥٥٥	الآية : ٣٤	١٤٥٨٨	الآية : ٤	١٤٦٢٩
الآية : ٣	١٤٥٥٥	الآية : ٣٥	١٤٥٩٣	الآية : ٥	١٤٦٢٩
الآية : ٤	١٤٥٥٥	الآية : ٣٦	١٤٥٩٣	الآية : ٦	١٤٦٢٩
الآية : ٥	١٤٥٥٧	الآية : ٣٧	١٤٥٩٣	الآية : ٧	١٤٦٣٠
الآية : ٦	١٤٥٥٧	الآية : ٣٨	١٤٥٩٥	الآية : ٨	١٤٦٣٠
الآية : ٧	١٤٥٥٨	الآية : ٣٩	١٤٥٩٥	الآية : ٩	١٤٦٣١
الآية : ٨	١٤٥٥٨	الآية : ٤٠	١٤٥٩٥	الآية : ١٠	١٤٦٣١
الآية : ٩	١٤٥٥٨	الآية : ٤١	١٤٥٩٩	الآية : ١١	١٤٦٣١
الآية : ١٠	١٤٥٦٠	الآية : ٤٢	١٤٥٩٩	الآية : ١٢	١٤٦٣١
الآية : ١١	١٤٥٦٠	الآية : ٤٣	١٤٦٠٢	الآية : ١٣	١٤٦٣٤
الآية : ١٢	١٤٥٦٠	الآية : ٤٤	١٤٦٠٢	الآية : ١٤	١٤٦٣٤
الآية : ١٣	١٤٥٦٠	الآية : ٤٥	١٤٦٠٢	الآية : ١٥	١٤٦٣٥
الآية : ١٤	١٤٥٦٠	الآية : ٤٦	١٤٦٠٣	الآية : ١٦	١٤٦٣٥
الآية : ١٥	١٤٥٦٢	الآية : ٤٧	١٤٦٠٤	الآية : ١٧	١٤٦٣٦
الآية : ١٦	١٤٥٦٢	الآية : ٤٨	١٤٦٠٤	الآية : ١٨	١٤٦٣٦
الآية : ١٧	١٤٥٦٢	الآية : ٤٩	١٤٦٠٤	الآية : ١٩	١٤٦٣٦
الآية : ١٨	١٤٥٦٢	الآية : ٥٠	١٤٦٠٦	الآية : ٢٠	١٤٦٤٠
الآية : ١٩	١٤٥٦٢	الآية : ٥١	١٤٦٠٦	الآية : ٢١	١٤٦٤١
الآية : ٢٠	١٤٥٧٢	الآية : ٥٢	١٤٦٠٩	الآية : ٢٢	١٤٦٤٣
الآية : ٢١	١٤٥٧٢	الآية : ٥٣	١٤٦٠٩	الآية : ٢٣	١٤٦٤٣
الآية : ٢٢	١٤٥٧٧	الآية : ٥٤	١٤٦١١	الآية : ٢٤	١٤٦٤٤
الآية : ٢٣	١٤٥٧٩	الآية : ٥٥	١٤٦١١	الآية : ٢٥	١٤٦٤٥
الآية : ٢٤	١٤٥٨١	الآية : ٥٦	١٤٦١٢	الآية : ٢٦	١٤٦٤٥
الآية : ٢٥	١٤٥٨١	الآية : ٥٧	١٤٦١٢	الآية : ٢٧	١٤٦٤٥
الآية : ٢٦	١٤٥٨٦	الآية : ٥٨	١٤٦١٢	الآية : ٢٨	١٤٦٤٧
الآية : ٢٧	١٤٥٨٦	الآية : ٥٩	١٤٦٢٠	الآية : ٢٩	١٤٦٤٧
الآية : ٢٨	١٤٥٨٧	الآية : ٦٠	١٤٦٢٢	الآية : ٣٠	١٤٦٥١
الآية : ٢٩	١٤٥٨٧	**سورة الطور**		الآية : ٣١	١٤٦٥١
الآية : ٣٠	١٤٥٨٧			الآية : ٣٢	١٤٦٥٣
الآية : ٣١	١٤٥٨٨	الآية : ١	١٤٦٢٧	الآية : ٣٣	١٤٦٥٤
الآية : ٣٢	١٤٥٨٨	الآية : ٢	١٤٦٢٧	الآية : ٣٤	١٤٦٥٤

سورة الذاريات	الصفحة
الآية : ٣٥	١٤٦٥٦
الآية : ٣٦	١٤٦٥٦
الآية : ٣٧	١٤٦٥٧
الآية : ٣٨	١٤٦٥٨
الآية : ٣٩	١٤٦٥٨
الآية : ٤٠	١٤٦٥٩
الآية : ٤١	١٤٦٦٠
الآية : ٤٢	١٤٦٦٠
الآية : ٤٣	١٤٦٦١
الآية : ٤٤	١٤٦٦٢
الآية : ٤٥	١٤٦٦٣
الآية : ٤٦	١٤٦٦٣
الآية : ٤٧	١٤٦٦٣
الآية : ٤٨	١٤٦٦٤
الآية : ٤٩	١٤٦٦٤

سورة النجم

سورة النجم	الصفحة
الآية : ١	١٤٦٦٩
الآية : ٢	١٤٦٦٩
الآية : ٣	١٤٦٧١
الآية : ٤	١٤٦٧١
الآية : ٥	١٤٦٧١
الآية : ٦	١٤٦٧١
الآية : ٧	١٤٦٧٧
الآية : ٨	١٤٦٧٧
الآية : ٩	١٤٦٧٧
الآية : ١٠	١٤٦٧٩
الآية : ١١	١٤٦٧٩
الآية : ١٢	١٤٦٨٠
الآية : ١٣	١٤٦٨٠
الآية : ١٤	١٤٦٨٠
الآية : ١٥	١٤٦٨٠
الآية : ١٦	١٤٦٨٧
الآية : ١٧	١٤٦٨٧
الآية : ١٨	١٤٦٨٨
الآية : ١٩	١٤٦٨٩
الآية : ٢٠	١٤٦٨٩
الآية : ٢١	١٤٦٨٩
الآية : ٢٢	١٤٦٨٩
الآية : ٢٣	١٤٦٩٩
الآية : ٢٤	١٤٧٠١
الآية : ٢٥	١٤٧٠١
الآية : ٢٦	١٤٧٠٣
الآية : ٢٧	١٤٧٠٥
الآية : ٢٨	١٤٧٠٥
الآية : ٢٩	١٤٧٠٦
الآية : ٣٠	١٤٧٠٦
الآية : ٣١	١٤٧٠٩
الآية : ٣٢	١٤٧١٢
الآية : ٣٣	١٤٧٢٠
الآية : ٣٤	١٤٧٢٠
الآية : ٣٥	١٤٧٢٠
الآية : ٣٦	١٤٧٢٠
الآية : ٣٧	١٤٧٢٠
الآية : ٣٨	١٤٧٢٢
الآية : ٣٩	١٤٧٢٢
الآية : ٤٠	١٤٧٢٢
الآية : ٤١	١٤٧٢٢
الآية : ٤٢	١٤٧٢٨
الآية : ٤٣	١٤٧٢٩
الآية : ٤٤	١٤٧٢٩
الآية : ٤٥	١٤٧٢٩
الآية : ٤٦	١٤٧٢٩
الآية : ٤٧	١٤٧٣٢
الآية : ٤٨	١٤٧٣٢
الآية : ٤٩	١٤٧٣٢
الآية : ٥٠	١٤٧٣٥
الآية : ٥١	١٤٧٣٥
الآية : ٥٢	١٤٧٣٥
الآية : ٥٣	١٤٧٣٦
الآية : ٥٤	١٤٧٣٦
الآية : ٥٥	١٤٧٣٧
الآية : ٥٦	١٤٧٣٩
الآية : ٥٧	١٤٧٣٩
الآية : ٥٨	١٤٧٣٩
الآية : ٥٩	١٤٧٤١
الآية : ٦٠	١٤٧٤١
الآية : ٦١	١٤٧٤١
الآية : ٦٢	١٤٧٤١

سورة القمر

سورة القمر	الصفحة
الآية : ١	١٤٧٤٧

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

فهرس آيات المجلد الرابع والعشرون

فهرس آيات المجلد الخامس والعشرين

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين

رقم الآية	الصفحة	رقم الآية	الصفحة	رقم الآية	الصفحة
الآية : ١٦	١٦٣٨٤	الآية : ٤١	١٦٤١١	الآية : ٢١	١٦٤٤٣
الآية : ١٧	١٦٣٨٤	الآية : ٤٢	١٦٤١٤	الآية : ٢٢	١٦٤٤٥
الآية : ١٨	١٦٣٨٤	الآية : ٤٣	١٦٤١٦	الآية : ٢٣	١٦٤٤٥
الآية : ١٩	١٦٣٨٧	الآية : ٤٤	١٦٤١٦	الآية : ٢٤	١٦٤٤٧
الآية : ٢٠	١٦٣٨٧	سورة نوح		الآية : ٢٥	١٦٤٤٨
الآية : ٢١	١٦٣٨٧	الآية : ١	١٦٤٢١	الآية : ٢٦	١٦٤٤٩
الآية : ٢٢	١٦٣٨٨	الآية : ٢	١٦٤٢٤	الآية : ٢٧	١٦٤٤٩
الآية : ٢٣	١٦٣٨٨	الآية : ٣	١٦٤٢٤	الآية : ٢٨	١٦٤٥١
الآية : ٢٤	١٦٣٨٨	الآية : ٤	١٦٤٢٦	سورة الجن	
الآية : ٢٥	١٦٣٨٨	الآية : ٥	١٦٤٢٧	الآية : ١	١٦٤٥٥
الآية : ٢٦	١٦٣٩٣	الآية : ٦	١٦٤٢٧	الآية : ٢	١٦٤٥٥
الآية : ٢٧	١٦٣٩٣	الآية : ٧	١٦٤٢٨	الآية : ٣	١٦٤٦٠
الآية : ٢٨	١٦٣٩٣	الآية : ٨	١٦٤٣١	الآية : ٤	١٦٤٦٠
الآية : ٢٩	١٦٣٩٦	الآية : ٩	١٦٤٣١	الآية : ٥	١٦٤٦١
الآية : ٣٠	١٦٣٩٦	الآية : ١٠	١٦٤٣١	الآية : ٦	١٦٤٦١
الآية : ٣١	١٦٣٩٦	الآية : ١١	١٦٤٣٣	الآية : ٧	١٦٤٦٢
الآية : ٣٢	١٦٤٠٠	الآية : ١٢	١٦٤٣٣	الآية : ٨	١٦٤٦٢
الآية : ٣٣	١٦٤٠٢	الآية : ١٣	١٦٤٣٦	الآية : ٩	١٦٤٦٢
الآية : ٣٤	١٦٤٠٥	الآية : ١٤	١٦٤٣٦	الآية : ١٠	١٦٤٦٦
الآية : ٣٥	١٦٤٠٦	الآية : ١٥	١٦٤٣٧	الآية : ١١	١٦٤٦٦
الآية : ٣٦	١٦٤٠٨	الآية : ١٦	١٦٤٣٧	الآية : ١٢	١٦٤٦٧
الآية : ٣٧	١٦٤٠٨	الآية : ١٧	١٦٤٣٩	الآية : ١٣	١٦٤٦٨
الآية : ٣٨	١٦٤٠٨	الآية : ١٨	١٦٤٣٩	الآية : ١٤	١٦٤٦٩
الآية : ٣٩	١٦٤٠٨	الآية : ١٩	١٦٤٣٩	الآية : ١٥	١٦٤٦٩
الآية : ٤٠	١٦٤١١	الآية : ٢٠	١٦٤٣٩	الآية : ١٦	١٦٤٧٠

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين

فهرس آيات المجلد السادس والعشرين


طبع بمطابع
دار
أخبار اليوم
شارع الصحافة